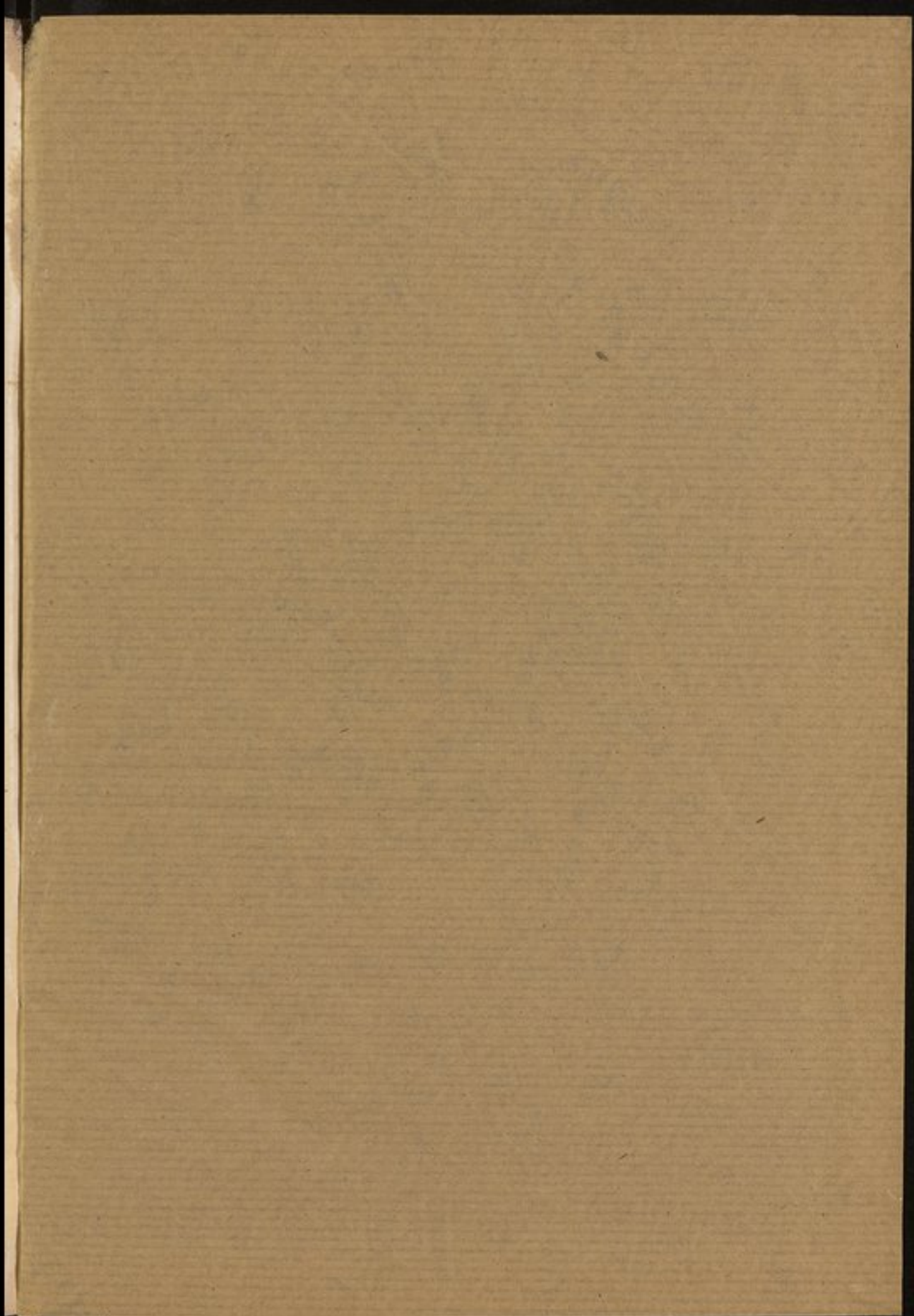




THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY





الحوادث

في تفسير الفلز الكبريت

السيد علي عجاب شيخ المكنة وأستاذ الدار الباهرة

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوي جوهرى

للمدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
مع الله المستودع بمائة أمين

الجزء الثالث

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع بطبعة

مصطفى البابی الحلبي وأولاده بمصر

بمائة محمد أمين عمران

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ »
(قرآن كريم)

BP
130-4
J27
v. 3-4

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة النساء

مقاصدها تسع :

1. المقصد الأول : من قوله (يا أيها الناس) إلى قوله (ونساء) .
2. المقصد الثاني : في صلة الأرحام والوصية على اليتامى من قوله (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) إلى قوله (حنينا) .
3. المقصد الثالث : في قسم التركات والعمالات المالية من قوله (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون) إلى قوله (ولهم عذاب مهين) .
4. المقصد الرابع : في صلة الصنفين الذكر والأنثى وأحكام ارتباطهما بقصد أو بغير عقد من قوله (واللاتى يأتين الفاحشة من نساءكن) إلى قوله (إن الله كان عليا خيرا) .
5. المقصد الخامس : في طاعة الله والرسول وأولياء الأمور وإكرام الوالدين واليتامى والعبادات والإفراق وتأدية الأمانات من قوله (واعبدوا الله) إلى قوله (وكفى بالله عليا) .
6. المقصد السادس : في القتال والجهاد من قوله (يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم) إلى قوله (وكان الله عليا حكما) .
7. المقصد السابع : في أحكام القضاة والمهامين ولوم القضاة إذا قصروا في التحقيق وذم المهامين إذا زوروا من قوله (إنا أنزلنا إليك الكتاب) إلى قوله (وكان فضل الله عليك عظيما) .
8. المقصد الثامن : في العدل في النساء وذم أتباع الشيطان ومدح الإخلاص لله والقيام بالقسط لليتامى ، وفي ترك مصادقة أعداء المسلمين ونحو ذلك من قوله (لاخير في كثير من نجواهم) إلى قوله (وكان الله عفورا رحما) .
9. المقصد التاسع : في الجدل مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى وتقريرهم على ذنوبهم مثل الربا وعلى جهلهم مثل الغلاة في الدين وختم السورة بجواب عن الفتيا من قوله (يسألك أهل الكتاب) إلى آخر السورة .

ملخص هذه السورة

كان الله عز وجل يقول في القسم الأول : يا أيها الناس أتم من أب وأم والأب أصل لكم والأم فرع ومنها كان رجال ونساء ، فالوحدة في الكثرة ؛ أولا ترون أنكم كرجل واحد ؟ وكيف لا يكون كذلك وأتم جميعا يمين بيمين بعضكم بعضا ؟ فالشرقي يلبس مانسجه العربي ، والغربي ينسج مازرعه الشرقي وأتم يتبادلون جميع النافع ، فلذا أعدهم أصلا فما أتم أولاء أعدهم عملا ، فالأصل واحد والعمل متحد ؛ أولا ترون أن

الإنسان الواحد يده تعمل غير عمل عينه ؟ وعينه تعمل غير عمل الكبد ؟ والكبد يخالف الرئة ؟ وكلها متساوية لو اختلف واحد منها لهلك الإنسان ؟ هكذا مجموع الناس كشخص واحد ، فاتفقون ولا تصفون أيها الناس .

وكانه يقول في القسم الثاني : فلماذا إذن أيها الناس لاتواصلون ولا تراحمون ولا يعطف بعضكم على بعض ؟ وإذا كان الناس كلهم شرقا وغربا كأسرة واحدة ، فبالأجدر يكون الأقارب والأرحام فواسوم ، ثم اليتامى فلا تأكلوا أموالهم ، وإياكم والإسراف في التزوج وكثرة النساء ، واقتصروا على أربع إن عدلتم وواحدة إن خفتم الظلم ، وأعطوا النساء مهورهن ولا تضيخوا أموالكم بإعطائهن لمن لا يحفظها وأعطوهم ما يقيمهم وحافظوا على أموال اليتامى وكونوا أعتاف .

وكانه يقول في القسم الثالث : واقسموا التركات بالحق الذي بينته ؛ فالدكر كالأنثيين ، وللبنت النفره النصف ، وإن كانت بنتان فلهما الثلثان ولكل من الأب والأم السدس إن كان لبيت ورتة ، فإن لم تكن ذرية فلأمة الثلث ، وإن كان له إخوة فلأمة السدس ، وللزوج نصف تارة وربيع أخرى ، وللزوجة ربع تارة وعن أخرى ، ومن مات ولا ولد له ولا والد يكون لأخيه من أمه السدس ، فإن زاد عن واحد فلهم مهما كان عددهم الثلث والدكر هنا كالأنثى .

وكانه يقول في القسم الرابع : عاشروا النساء بالمعروف وأشهدوا على اللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم بعد استيفاء الحد فلا تعرضن لما وقعن فيه حتى يتزوجن ، وللتوبة منزلة شريفة في الإسلام مالم يكن الاحتضار ولا تتخذوا النساء سلا للبراث ولا تحبسون عليكم من غير رغبة فهن لأجل أن تأخذوا بعض ما أخذن منكم من اللهر إلا في أحوال خاصة ، ولتكن الماشرة بالمعروف . وإياكم أن تأخذوا منهن ما أعطيتموهن فإن ذلك عار وكيف يكون هذا الشقاق بعد الوفاق والحلطة ؟ ولقد حرمت عليكم نساء آباءكم وكثيرا من القرىبات كالأُم والأخت الخ وجميع المتزوجات كل هؤلاء حرام عليكم ، واحذروا السفاح ولا تتزوجوا بالإماء اللاتي ملكهن غيركم إلا أن تخافوا الفتنة ، واحذروا الشهوات والليل في الأموال كما تحذرونه في الأعراس ، ولقد أعتف عن الصغار إذا اجتنبتم الكبائر ، وهذه الأموال والنساء عاريات مردودات فلا يقل امرؤ لم استمتع غيري بالنساء والأموال وأنا محروم ؟ فارجعوا إلى الله والله هو العطي ، وإذا أعطيت المرأة نصف مال الرجل فليس لها اعتراض ، وليأخذن كل وارث ما استحقه فلا يحسدن أحد أحدا على ما قسم له وليسأل كل الله ؛ وإذا أخذ الرجل نصف المرأة فإنما ذلك لكونه قواما عليها فله فضل ذلك ، كما أن له تأديبها بالأنواع التي أباحها له الشرع فإذا خفتم الشقاق فاجتنبوا الحكيمين .

وكانه يقول في القسم الخامس : اعبدوا الله وبروا الوالدين وصلوا الأرحام واقضوا المعروف مع اليتيم الخ وإياكم والرياء والله لا يظلم ، وإن رسولى شهيد عليكم فاحذروا أن تظهروا أمامه مشوهى الصور الروحية فتجلبوا وتفضحوا فضيحة عظيمة فلتكن الصلاة بقلوب حاضرة لا بمجرد أقوال وأفعال ، ولتكن على نظافة لتبتجج أئدتكم وتكون أرواحكم مشرقة ويكون الظاهر معراج الباطن ، فالصلاة بلا حضور قلب ولا طهارة لا تضيد بل تبطل وذلك يناسب ما يظلمه اليهود من تحريف الكلام في التوراة حفظا للرياسة وكذبا ؛ ألا وإن الظهور بالمظهر الكاذب يورث القلوب النفاق والحلال الدينية وتصبح مجبولة على الأكاذيب والخداع وتغشى عنها الحقائق ، ألا وإن بعض أهل الكتاب باستدامة هذه الحلال أخذوا يؤمنون بالأصنام ويفضلونها على دين الإسلام لكثرة الأكاذيب حتى صارت سجية فلا يزالون بنتائجها أفليس ذلك يستوجب اللعنة لهم ؛ ولو أن الملك لهم لبخلوا وهم يحسدون الناس لأن العاصي يجر بعضا بعضا ، فليؤد الناس الأمانة وليطيعوا أولى الأمر منهم وليرضوا بقضاء قضائهم الماديين ، ولتعتظوا الجاهلين وتعلموا أن اللطيفين منكم مع الأنبياء والصديقين .

وكانه يقول في القسم السادس : فلا تكونوا أيها المؤمنون ذوى نفاق تثبطون عن القتال وتكونون كمن يبد الله على حرف فإن رأوا خيرا أقبلوا وإن رأوا شرا أدبروا ، قاتلوا في سبيل الله وأخذوا المستضعفين من أهل مكة الذين ظلمهم الكفار . عجا لقوم أحبوا القتال فلما أمروا به هابوه وكرهوه مع أن الحياة متاع واللوت مطاع وهم ينسبون أكثر ما يقضى عليهم من الشر لك وينسبون الخير لله ، بل الشر من أنفسهم وهم يظهرون خلاف ما يظنون في طاعتهم لك ويفشون الأسرار ويشيعون الأخبار في الحرب والسلم بلا هدى ولا كتاب منير ؛ فقاتل ولو وحدك وحرص للمؤمنين واحذر الناقلين ولا يقتل مسلم مسلما عمدا ، وللخطأ الدية وجزاء العمد جهنم ، ومن أسلم قدمه حرام ، والمجاهدون في سبيل الله لهم فضل عظيم ، ولا يقعد قادر راضيا بظلم الكافرين فلهاجر ، وللسافر قصر الصلاة ، وإذا صلتم في أوقات الحرب فاحذروا الأعداء وأقيموا وقت السلم وكونوا أقوياء على الأعداء .

وكانه يقول في القسم السابع : إياكم أيها القضاة والتهاون في القضايا ولا يسلبن ألبابكم الهامون عن الدعي عليهم بذلاقة ألسنتهم .

وكانه يقول في القسم الثامن : خير الناجاة ما كان للبر والصدقة والصلح ، وفيه ذم اتباع الشيطان ، والرء مجزى بأعماله فليخلص لله وليعط كل ذى حق حقه لاسيا الضعفاء ، ولا تظلموا النساء وتصلحوا بين الرجال وبينهن ، وعلى الرجل أن لا يميل كل الليل عن المرأة ، وإن الظالمين منكم أستبدل بهم غيرهم فأقيموا الشهادة حقا ولا تضلنكم الأهواء . وفيه ذم الناقلين وذم من يتخذ بطانة من الأعداء .

وفي القسم التاسع : ذم اليهود لتقصم الميثاق وتبجحهم بأنهم قتلوا المسيح ، واليهود والنصارى سيؤمنون بأن المسيح عبد الله ورسوله عند الاحتضار ، ولقد ضيقنا على اليهود في دينهم لأنهم ظلمون آكلون أموال الناس باطلا إلا غول العلماء منهم ، وأنت ومن قبلك مبشرون ومنذرون ، فلا تغالوا يا أهل الكتاب في الدين ، فالمسيح لا يتعالى أن يكون عبدا ولا لللائكة الخ ، استمعى القول في جمل من معاني هذه السورة .

مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها

لقد قدمنا أن سورة البقرة مسوقة لأحوال بني إسرائيل وأن آل عمران كأنها متممة لها ، ذلك أن عيسى عليه السلام من بني إسرائيل ، وقد جاء بدين لإصلاح ما أفسده الدهر من الدين القديم وعنوان السورة يشهد بذلك .

وقد قدمنا أن سورة آل عمران مبدوءة بالنظر العلمى مخنومة بالعلمى والعملى ، ابتدئت بالنظر في السموات والأرض ، واختتمت بالابتهاج بحمال العالم العلوى والسفلى ، وأن من لم تكشف له الحقائق كانت فضيخته وعاره عظيما ، وقد جاء في خلال ذلك الكلام في غزوة أحد والتلبيح إلى غزوة بدر ؛ فكان تاريخ بني إسرائيل أعقبه تاريخ المسيح بالترتيب الزمانى هكذا بعض تاريخ الأعمال الإسلامية في غزوة بدر وأحد . ولما كان ماورد في آل عمران من أحوال الإسلام لا يمدو في مجموعه جهاد الأعداء ودفعهم عن الأوطان والذب عن حياض الدولة وحراسة الملة ناسب أن يؤتى عقبها بما يصون البلاد في داخلها من القوانين للسنة لصيانة الأموال والأعراض ونظام الأسرات من قسم التركات وحفظ الزوجات وتبيان المهرمات وحفظ الأض من القتل ونظام القضاة والقضايا والمحاميين الدافعين عن المدعى عليهم والصلح بين الأزواج والصدق والشهادات وأداء الأمانات وإفائة المستضعفين وما أشبه ذلك مما قرأته مجملا وستعرفه مفصلا ، فكان تسميتها بالنساء أقرب لأن المسألة ترجع إلى أمر الأسرات والأحوال المنزلية وحفظ العائلات والنساء أس المنازل ، كما أن الرجال أساطين الحروب والأعمال الخارجية ؛ فلنبتدىء في تفسير هذه المقاصد التسعة :

(المَقْصِدُ الْأَوَّلُ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ،

التفسير اللفظي

(يا أيها الناس) هذا الخطاب عام لجميع نوع الإنسان (اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة) هو آدم (وخلق منها زوجها) حواء (وبث) نثر (منها) من تلك النفس والزوج المخلوقة منها (رجلا كثيرا ونساء) بين وبنات كثيرة اه . اعلم أن الله عز وجل لما فرغ من سورة آل عمران وقد حث في أولها وآخرها على النظر العلى والتفكر في خلق السموات والأرض وذكر الله باللسان والقلب وكان ذلك أشبه بالنظام العلى في فن الحكمة أخذ يكمله في أول هذه السورة بالنظام العبدى ، فهناك العلم وقوة الأبدان وهنا نظام الأسرات وحفظ العائلات فأخذ يمهّد لتلك بمقدمة لطيفة تدل على اعتمادنا منشأ وتشابهنا خلقه . واعلم أن خلق آدم وحواء ليس هناك دليل قطعى على كيفيته ، والقرآن أتى به مجملا على مقتضى ما تقبله العقول وتفهمه النفوس ؛ فأما التفصيل فليس للكتب السماوية وإنما هذه مقدمات يؤتى بها للمقاصد . فأما التفصيل فقد قام به علماء الأمم من عجم وعرب . ومن محبب أنهم لم يهتدوا للحقائق ولم يصلوا إلى أصل الخلق ؛ ألا ترى كيف قال آباؤنا السابقون: إن الحيوانات أول ما خلق منها البحرية لأن البحر قبل البر ثم كانت البرية وكل حيوان أنقص خلقه مقدم على ماهو أكمل ، وقالوا إن الحيوانات التامة الحلقة لم تكن من البحر بل خلقت تحت خط الاستواء وكل منها تناسل من ذكر وأنثى والحرارة هناك كافية للتوليد ؛ فلما أن انتشرت تلك الحيوانات كالبقر والغنم والأساد والتمور في الأرض حفظت تلك الحرارة في الأرحام لتستأهل لنمو الأجنة ، والإنسان أيضا كذلك الحيوانات وأبونا آدم وزوجه حواء خلقا كما خلق من كل نوع زوجان تحت خط الاستواء وتفرقت الثرية في الأرض كسائر الحيوانات ، ثم آباؤنا نقلوه عن قبلهم من الأمم ولذلك نجد جزيرة سيلان (سرنديب) التي هي قرب خط الاستواء مذكور في كتبهم أنها فيها خلق آدم ، ومن هذا جعلت كل الأمم أن آسيا منبع الجنس البشرى وأهل أوربا يقولون إن أكثرهم من آسيا وإن أمما نزحت قديما وهاجرت إلى تلك الأقطار الباردة منها وعلى ذلك شاع وذاع لفظ (بأجوج وأجوج) أى أهل تلك الأقطار وهم التتر والقوق (هكذا رأيتها في كتب الجغرافيا القديمة) وإنهم يفسدون في الأرض فكلما كثروا نزحوا إلى أوربا وغيرها كما تفرؤه عن أمة (الهون) وغيرها قبل الصور الحاضرة وقد هاجروا إلى أوربا وكما تفرؤه في أخبار جنكيزخان (الذى ستقرأ خبره وتخريسه لبلاد الإسلام في آخر سورة الكهف وترى هناك معجزات النبوة واضحة) وهو لاكو ومن نحا نحوهما بمن أزالوا دولتنا العربية يفتداد وذهبوا إلى روسيا واستوطنوا شواطئ نهر فولجا وهم الآن مسلمون كل هذا مذكور في التاريخ . والسر الأصل فيه أن الناس قديما يرون أن مهد الجنس البشرى في الشرق ، وسره الأكبر ظنهم تولد الأيون الأصليين من كل حيوان في خط الاستواء ، أما القرنيحة فإنهم لا يزالون يتخبطون وليس لأقوالهم نهاية ، ففريق يرى أن الحيوانات البحرية مقدمة على البرية والأعص قبل الأكل مثل قدمائنا ولكن يرون أن الحيوانات التامة الحلقة سلسلة من ناقصة الخلق حتى الإنسان ، وهذا الذهب قد سار شوطا بعيدا في القرن الماضى ولكن علماء العصر

الحاضر حقروه ونبذوه ظهريا وذبوا قائله وقابلوه بالنكران وكفروا به وهم لا يزالون في البحث مجددين ولا يزالون مختلفين ، أما القرآن والتوراة فإنهما نسا على أن آدم خلق من التراب وحواء خلقت منه . هذا هو كلام الديانات وهذه علوم الناس قد أحضرتها بين يديك على سبيل الإجمال . وبإيت بصرى إذا كان القرآن والكتب السماوية أجملت القال والفلسفة والحكماء تفرقوا شيئا فآين السبيل ؟ . أقول : اعلم أن الكتب السماوية إنما تذكر هذا لفرض أسمى من معرفة أصل الأبوين وماذا نجنى من وراء معرفة أصلهما نعم البحث في العوالم كلها مرق للعقول ولكن كل ما يعرفه البشر في هذا اللقام لا يصل للحقيقة الواقعة (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) إن الناس لم يشهدوا مبدأ العالم ولا مبدأ أنفسهم ، وإنما اللقام هنا الدلالة على الوحدة العامة الإنسانية ، فلئن ذكر الله اتحادنا في المنشأ والتشابه في الأحوال فإنما ذلك ليدلنا بطريق الكناية على الوحدة العامة الإنسانية والنظام الشامل لهذا الوجود ، والكناية هنا هي المقصودة بالهدات كما يقول علماء البيان ؟ ألا ترى إلى قول الخنساء وقد خطبها دريد بن الصمة .

معاذ الله يرضنى حبركى قصير الشبر من جنم بن بكر

تقول أنا أستعيز بالله أن يرضنى قصير القامة ضئيل الجسم من هذه القبيلة ، ولم يكن ذم الإرضاع مقصدها ولا الولد القصير الشبر عدوا لها وإنما تريد ما هو أم لها في زواجها ، وهو أن يكون الزوج طويل القامة عظيم الهامة من قبيلة شريفة ، فإنها لو تزوجت ناقص الخلق ضئيل الجسم حملت منه فوضعت ولدا يشبه أباه فانتقلت من العلول إلى العلة ، ومن الفرع إلى الأصل فكانت النتيجة هكذا ؛ أنا لا أزوج رجلا ضئيلا قصيرا حقير النظر لا يعلا القلوب مهابة ، ولا العيون إجلالا ، وليس من اللأ الشرفاء ، ولا من السادة العظماء . هذا هو الذى يفهمه الرجال والنساء والعامة والعلماء ؛ فهكذا هنا لم يقصد الخلق وميدوه لعداته وإنما يراد منه الاتحاد والوحدة العامة الإنسانية في هذا الوجود ، وكأنه بعد أن أبان تناسب المادة وتناسقها في آخر آل عمران أخذ يبين تناسب الجنس البشرى واتحاده النظرى ورتب عليه التراحم والمودة وصلة الأرحام وحفظ مال الأيتام والعدل في قسم التركات والقضايا والدعوات وأداء الشهادات ؛ وإذا كانت الحكمة تثبت أن هذا العالم الحيوانى والإنسانى متشابهان في الخلق متناسقان في الوضع حتى إنك لترى أن النبات أدناه يقرب من المعادن تكفراء اللمن : أى النباتات التى تراها أيام الربيع بالتدانة حتى إذا سميت الشمس ذبل النبات وصار هباء مشورا ، فإذا كان اليوم الثانى طلع كالذى قبله ثم يرتقى النبات طبقا عن طبق حتى يكون أعلاه ما يعيش على غيره كنبات يسمى الكشونى فإنه لاساق له وإنما يعيش على غيره ويمتص من عصارته كما تمتص الدودة من الرطوبات وكالنخل لأنه تميز ذكره من أنثاه وهكذا إذا قطعت رأسه مات ، فصفت النخل وصفات الكشونى أشبه صفات الحيوان ؛ ويلي هذين وأشباههما الحيوان وله أدنى وأعلى ، فالأدنى أشبه بالنبات كما هو معلوم فى محله وشرحته فى كتاب الفلسفة مما يعيش فى القوقع على شاطئ البحار ، ثم يرتقى طبقا عن طبق كالأساد والنمور والقروود بحيث ترى الأدنى يتلوه الأعلى ، فذوات البيض أقل من التى تحمل وتلد وتضع أولادها ، وهكذا حتى تصل إلى التوحشين من بنى آدم ويرتقى نوع الإنسان إلى العلماء والأنبياء ويلهم اللائكة على تفصيل فى ذلك ، وعالم الحيوان وعالم النبات كملكه واحدة تدبرها نفس واحدة وكأنها جسم تدبره نفس واحدة يشير لذلك (ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة) فلذن علمت مما قدمناه فى هذا التفسير أن هذه العوالم كلها متضمنات بينها مناسبات كأنها أسرة واحدة لمنظم واحد ، أفلا تكون الأسر الإنسانية أقرب إلى التعاطف والتراحم لاقترابها ، وقد قضت الحكمة أن الاتحاد أعم منها فكيف يكون أمرها ؟ وإذا كان الاتحاد العلم والنظام الشامل بحسب الحكمة يدعوانا أن نرحم الحيوان وننظم هذه الكرة الأرضية فكيف بالإنسان وهو أخو الإنسان ؟ يقول الله أيها الناس تراحموا وتوادوا فأنتم أسرة واحدة من أب واحد . وقال سقراط

لتلاميذه وقد أنكروا بعضهم العبادة والقربان لله وأنكروا وجود عقول غير عقل الإنسان لأنه لم يره (أنت ترى أن صورة الإنسان من اللواتج الهوائية والمائية والأرضية قال بلي قال : فإذا أنت تؤمن أن جسمك المركب من مواد ضئيلة صغيرة جدا من العوالم الكبيرة المحيطة بنا له عقل ، ولا تؤمن بأن هذه العوالم الكبيرة فيها عقل : أي أن مادة الهواء والماء والجسم الأرضي التي اشتمل عليها جسمك تحظى بعقل وفهم فأما الأرض ذات الفجاج والهواء ذو الرياح والبحر ذو الأمواج فكل هذه محرومة من العقل : أي أن العقل يناله القليل الضئيل ومحرم منه العظيم الكبير الكلي ؛ إن العقل يكذب هذه القضية وهذا العالم منظم بعقل كلي) هذا تخرير ما قاله سقراط في محاوراته مع تلاميذه ويستدلون على ذلك أيضا بأن كل معدن كالملح والنترون والشب والفضة والقصدير والنحاس والذهب له عمل غير عمل الآخر ، وهكذا النبات والحيوان والماء فإننا نراها مختلفة النتائج متحدة الوجهة لترض واحد ، ونرى الشمس تخرج حرارتها بالماء وبالتراب والهواء ويكون أنواع النبات ، ثم إن المعادن تتعاون معها فتكون منافع للناس تتبعها أخرى وتربوا على ذلك ما يقال له :

النفس الكلية

وجعلوا أن الشمس والقمر والكواكب والماء والهواء بالنسبة إليها كآلات التجار والحداد ، فالحرارة آلة البرودة آلة الهواء آلة الماء آلة ، وبهذه الآلات وتحريكها تصور هذه الصور بإذن الله تعالى ، هذا ما يقوله الحكماء ؛ فذلك العناصر والقوى في العالم أشبه بالأعضاء والآلات التي يستعملها الإنسان وتكون أنفسنا تلك النفس الكلية أشبه بالعين والسمع والبصر والشم بالنسبة لأنفسنا ؛ فالعالم مدبر بنفس واحدة أبدعها الله ، وهذه النفس مستمدة قواها من العقل الأول الذي هو اللوح المحفوظ عند علماء الشريعة ، ونفوسنا أشبه بالأصابع والأبصار لها ؛ وكما أن نفوسنا تسمع وتبصر وتبتطش وتكلم وتهضم بالأذن والعين واليد واللسان واللثة والنفس واحدة والقوى والأعمال مختلفة ، هكذا هذا العالم كله مدبر بنفس واحدة كنفوسنا وهذه النفس لها قوى مختلفات تدبر العوالم ، فالحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والكهربائية والمغناطيس كل واحد منها له عمل مخالف للآخر والنفس واحدة والأعمال منتشرة تبع القوى ، وكما أن اختلاف الأعين والأذان والأبصار في الأعمال لا يمنع أن النفس واحدة هكذا لا يمنع اختلاف النبات والحيوان والماء والهواء والحرارة والبرودة أن النفس المدبرة لها واحدة ، فلهذا واحد ، والنفس المدبرة الكلية واحدة لها آلات وقوى يدبر بها العمل تديرا منظما متجها إلى نتائج منتظمة كما تتجه أغراض الإنسان لما يريد من حوائج لترضه الأصلي ، هذا تحقيق المقام في النفس الواحدة عند الحكماء ، فإذا صح هذا تكون النفس الواحدة التي عبر عنها بأدم تذكرا للنفس الواحدة المنظمة للعالم ولهذا الوحدة المنظمة ترى الناس يخدم بعضهم بعضا وإن لم يعلموا .

الناس للناس من بدو وحاضرة بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

وعلى هذه القاعدة ترى جميع نوع الإنسان على الأرض يخدم بعضهم بعضا وهم لا يشعرون ، والمرء لا يقدر أن يجز ويحرق ويحرق ويحيط ويأتي بالحديد والنحاس من الجبال ولا يصنع الراكب في البحار ولا القطرات فوق القصب الحديدية ولا يزرع جميع أنواع الزرع . إن حاجات الناس تزداد كلما زاد العمران وتمظلم كلما ارتقى نوع الإنسان ، وهنا يقال : إن كل امرئ محتاج لغيره في ضروريات معيشته كالأكل والملبس ، وفي كالياته كالزينة والعطر فغيره هو المكمل له ، فمن كرهه غيره فقد كرهه من يكون سبب ضرورياته وكالياته ، ومن كرهه من هو سبب لكالياته وضرورياته فقد كرهه كال نفسه وحياتها ، ومن كرهه كال نفسه وحياتها فهو فاقد العقل متخبط في براهينه لأن القضية العقلية الصادقة هكذا كل امرئ يحب نفسه وكال نفسه . ولكن من يكره الناس تكون نتيجة كراهته لهم هكذا أنه يكرهه كال نفسه وحياتها فتكون النتيجة أنه

يحب حياة نفسه وكاملها وأنه يكره حياة نفسه وكاملها . فأما القضية الأولى فهي بالبداهة . وأما الثانية فبالبرهان لأنه يكره الناس ، فالإنسان في الصين وفي أوروبا جميعا يمين بضمه بضا حتى إنك ترى أن أوروبا لما أرادت أن تستغنى عن دولة البلشفيك في روسيا طلبت بعد سبع سنين ودّها لأنها رأت ألا مناس من مصادقتها ، فكل عالم في الشرق ينفذ الغرب ، وكل صانع في الغرب يصل أثره للشرق ، فالعالم الإنساني بكسب واحد ، والأمم أعضاؤه وأفراد الناس ذراته ، وإذا كره زيد عمرا وأبغضت دولة دولة فما ذلك إلا من عوارض خلقت لمصلحة التنافس والتسابق ؛ فالهبة أصل الوجود والعداوة طارئة لأن العالم بني على الرحمة والجمال والحب ، وكل ما طرأ عليه فهو زائل ونهاية كل شيء الجمال والرحمة والبهاء والنعمة لأن الله رحيم والرحمة وسعت كل شيء ، ولا يبقى في غضب الله إلا من سبق عليهم القضاء .

ذكرى

أيها الذي هذا مقام عزيز النال شريف الغزى ، فإذا أنست في نفسك قبولاً لما تقول وفهمته فذاك وإن وجدت حرجاً في صدرك وعاقك عن قبوله ما ورثته من الأقوال وظواهر الكلمات فأنا أنصحك أن تجلس دقائق كل يوم وتوجه قلبك لمبدع هذا العالم وتعمل قلبك متوجهاً إليه وتطلب منه بالقلب وباللسان أن يفتح لك الباب وهناك ترى منه فتوحاً متى أخلصت في الإقبال عليه مع الطاعة والإخلاص والنشاط والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

[لطيفة : في تناسب السورتين] قال الله في آخر السورة السابقة (واتقوا الله لعلكم تفلحون) وأعقبها بأول سورة النساء بقوله (يا أيها الناس اتقوا ربكم) كأنهما سورة واحدة والخطاب عام للناس كلهم ، كما قال في سورة أخرى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) وهنا يقول (وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء) انتهى المقصد الأول .

(المقصد الثاني)

وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا * وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبْدِلُوهَا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَيْمَانِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِمَّنِّي وَثَلَاثَ رُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَمْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ الَّذِي أَدْنَىٰ أَلَّا تَمُوتُوا * وَآتُوا النِّسَاءَ صَدَقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ مِنْهُنَّ مَرِيئًا * وَلَا تُولُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ قِيَامًا وَأَرْزُقُومَ فِيهَا وَأَكْسُومَ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا * وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ، وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا *

التفسير اللفظي

(واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) أي واتقوا الأرحام أن تقطعوا عطفها على لفظ الجلالة ، أو الأرحام بالجر معطوفا على الضمير: أي تسألون به وبالأرحام . تقول العرب سألتك بالله وبالرحم ، وناشدتك بالله وبالرحم ، والرحم القرابة وهي إما من الرحمة وإما من الرحم ، لأنهم خرجوا من رحم واحدة ، في البخاري ومسلم . قال عليه الصلاة والسلام : « الرحم معلقة بالعرش تقول من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعته الله » وروى أيضا : « من سره أن يبسط عليه من رزقه ، وينسأ في أثره فليصل رحمه » وقوله ينسأ في أثره : أي يؤخر له في أجله ، وروى « لا يدخل الجنة قاطع » (إن الله كان عليكم رقيبا) حافظا مطلقا (وآتوا اليتامى أموالهم) أي إذا بلغوا الرشد ، واليتيم هو الصبي الذي مات والده (ولا تبدلوا الخيث بالطيب) أي ولا تبدلوا الخيث الذي هو حرام عليكم بالحلال من أموالكم ، يقول: ولا تبدلوا الحرام من أموالهم بالحلال من أموالكم (ولا تأكلوا أموالهم) مضمومة (إلى أموالكم) إنه كان حوبا كبيرا) ذنبا عظيما . نزلت في رجل من غطفان كان معه مال كثير لابن أخ له يتيم كان في حجره ، فلما بلغ اليتيم طلب المال الذي له فمنعه عمه فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال أطلعنا الله وأطلعنا الرسول نعوذ بالله من الحوب الكبير ودفع إلى اليتيم ماله . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « من يوق شح نفسه ويطلع ربه هكذا فإنه يحل داره » يعني جنته ، فلما قبض الصبي ماله أنفقه في سبيل الله .

إن الناس كثيرا ما يناحزون إلى جهة من الدين ويتركون الأخرى والحياة لا تقوام لها إلا بالكمال ومراعاة القضايا الدينية من سائر أطرافها ، بل مامثل الناس في أمورهم الدينية إلا كمثل التلاميذ في المدارس النظامية أو كمثل الحكومات الرسمية ؛ فلو أن تلميذا قرأ النحو والصرف والحساب وترك العلوم الطبيعية في المدرسة لحرم الشهادة التي يعطها له المدرسون ، ولو أن حكومة غفلت عن نظام الري وحفظ الجسور وهي ذات عناية تامة بتحصيل الضرائب وأجرة الحفراء وتعليم التلاميذ وارتقاء الجند لكانت آيلة إلى الزوال ، ذاهبة إلى النكال ، يحل بها البوار في سنين معدودات ؛ فالنظام الاجتماعي هيكلا منظم كهيكلا جسم الإنسان ، متى أصيب أحد أعضائه الأصلية سرى الخلل إلى سائر الأطراف ، فتعطلت أعضاؤه وذهب كأس الدابر ، ولات حين مناص .

هكذا هنا في هذه الآية يقول الله تعالى مامعناه : مالكم لما سمعتم الوعيد على من لم يتم لليتيم بحقه هل تعلم من عذاب الله والحوب الكبير وأنتم مع ذلك لم تحترسوا من الزنا وهو حوب كبير ، فهل أنتم تؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟ فعليكم أن تحترسوا من سائر الكبائر على السواء ؛ فكما خفتم من أكل مال اليتامى خافوا من الزنا الذي هو اعتداء على حقوق غيركم بل فيه اعتداء على حقوق من هم كاليتامى ، وكيف لا يكون كذلك ؟ والزانية قد تلد ولدا لأب له ففسرعه بإلقائه في الطرقات فيؤخذ لقيطا فيربيه غير والده ، فهاهو ذابتم أنتم كنتم سبب وجوده وبقائه وشقاؤه الأبدى ، فكيف تخرجتم من أكل حق اليتيم المشاهد ولم تحرجوا من هضم حق اليتيم الغائب والأخير من نسلكم وأمره ومبدؤه منكم ، فانكحوا ما تحبون من النساء على شريطة العدل والمساواة اجتنابا للزنا ، فإذا كان الزنا لقضاء الشهوات البهيمية أفلا يكفيكم أن تزوجوا من واحدة إلى أربع ، وإياكم والظلم في القسم بينهن فاعدلوا وهو أقرب للتقوى ، فإذا كنا حرمانا عليكم أكل مال اليتامى وحرمانا الزنا وأمرناكم أن تزوجوا فاحترسوا من الظلم وعدم العدل عند التمدد ، فإن وجدتم من أنفسكم ضعفا فجزتم عن العدل بينهن فزوجوا زوجة واحدة ولا مانع من كثرة السراري والإمام فهو لا يحل لكم الإكثار منهن ، فهذا قوله تعالى :

(وإن خفتم أن لا تنصطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء) أي إن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا معهم فما لكم ظلمتم بالزنا فانكحوا الخ .

وللاية وجه آخر وهو وإن ختم ألا تعدلوا في يتامى النساء إذا تزوجتم بهن فتزوجوا ما طاب لكم من غيرهن إذ كان الرجل يجد بقيمة ذات مال وجمال فيزوجها ضنا بها فربما يكون عنده منهن عدد ولا يقدر على القيام بحقوقهن، وهذا يقدمه علماء التفسير عادة، وقوله (مثنى وثلاث ورباع) أي اثنتين اثنتين وثلاثا ثلاثا وأربعا أربعا، والواو هنا بمعنى أو كما تقول زوج اثنتين أو ثلاثا أو أربعا، ولو كانت على حالها لصار المعنى أنه يضم هذا العدد كله.

واعلم أن الآية ليس فيها ما يمنع الزيادة على أربع. ألا ترى أنك لو قلت لرجل تمتع في بستان أو اثنتين أو ثلاثة أو أربعة من بسائني وأنزل في رحب وعيش رغد هني لم يكن ذلك مانعا من التمتع بغير الأربعة، وإباحة شيء لا يقتضي منع سواه ولكن السنة والإجماع هما اللذان عينا الأربع. ألا ترى إلى ما روى عن ابن عمر أنه غيلان بن سلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعا. وهكذا روى «أن قيس بن الحارث قال أسلمت وعندى ثمان نسوة فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال اختر منهن أربعا» وإنما الزيادة من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم؛ والعبد له أن يتزوج بأربع على إحدى روايتين عن مالك، وأكثر العلماء أنه على النصف من الحر (فإن ختم ألا تعدلوا) أي الأزواج بين الأربع (فواحدة) أي فتكفيكم واحدة على الرفع، أو فأنكحوا واحدة على النسب (أو ما ملكت أيمانكم) سوى بين الواحدة من الأزواج والعدد من السراري لحقة مثنوتهم وعدم وجوب القسم بينهما (ذلك) التقليل منهن أو اختيار الواحدة أو التسري (أدنى) أقرب من (ألا تعدلوا) أي أقرب من ألا تميؤا، يقال عال الميزان إذا مال، وعال الحاكم إذا جار (وآتوا النساء صدقاتهن) مهورهن (نحلة) عطية، يقال نحله كذا نحلة ونحلا إذا أعطاه إياه عن طيب نفس بلا توقع عوض فليس للأزواج منع المهر وللالا ولياء الاستيلاء عليه لأنهم كانوا يأخذون مهور مولاتهم (فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا) أي فإن طابت نفوسهن ووهبن لكم من السداق شيئا (فكلوه هنيئا مريئا) غنوهوا وأتقوه حلالا لاتبعة فيه، وهنيئا طيبا، ومريئا سائما (ولاتؤنوا) أي الأولياء والآباء (السهام) الذين تحت وصايتكم ونساءكم وأطفالكم (أموالكم) التي تصرفون فيها بطريق الولايات والتي تملكونها لأنفسكم (التي جعل الله لكم قيلاما) أي تقومون بها (وارزقوهم) أي أطعموهم (فيها واكسوهم) وقولوا لهم قولوا معروفا) عدوهم عدة جميلة تطيب بها نفوسهم، والمعروف ما عرفه الشرع والعقل بالحسن (وابتلوا) اختبروا (اليتامى) قبل البلوغ بتسبب أحوالهم في صلاح الدين وحسن ضبط المال والتصرف (حتى إذا بلغوا النكاح) أي حد البلوغ بأن يحتمل أو يستكمل خمس عشرة سنة عند الشافعية، وثمان عشرة سنة عند أبي حنيفة؛ ولقد كثر يبلوغ النكاح عن البلوغ لأنه يصلح للنكاح عنده (فإن آنتم) أبصرتم (منهم رشدا) في المعاملات (فادفعوا إليهم أموالهم) من غير تأخير عن البلوغ، فلا يجوز أن يدفع لهم مالهم قبل الرشد. وقال أبو حنيفة: إذا زادت على سن البلوغ سبع سنين وهي مدة معتبرة في تغير الأحوال لأن الطفل يميز بعدها ويؤمر بالعبادة، دفع إليه المال وإن لم يؤنس منه الرشد ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا) أي مسرفين ومبشرين كبرهم (ومن كان غنيا فليستغف) من أكلها (ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف) بقدر حاجته وأجرة سعيه. وللعلماء في هذا المقام ثلاثة أقوال: فمنهم من منع أخذ شيء من مال اليتيم فقيرا كان أو غنيا، ومنهم من قال يأخذ بقدر أجره بالمعروف إن احتاج، ومنهم من قال إن احتاج يقترض ثم يردده إذا أيسر وإذا أيسر فلا شيء عليه. وأرى أن الأمة الإسلامية يجب أن يكون التعليم فيها عاما محيا في الإخلاص وبعد ذلك يقوم بأعمال الأغنياء متبرعين فلا حاجة إذا للفقراء، فالعلم التفكير والعلم؛ وأما الأحكام فاعلموا للضرورات التي أوجها شح الناس وعدم الإخلاص في الأعمال (فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم) بأنهم قبضوها فانه أنفي للتهمة فلا يسدق في دعواه أنه سلبها لليتيم إلا بالبينة عند

الشافي ومالك خلافا لأبي حنيفة (وكفى بالله حسيبا) محاسبا ومجازيا فلا تخالفوا أمره انتهى التفسير اللفظي .
يقول الله تعالى يا أيها الناس أنتم أسرة واحدة أو بجم واحد لأن أبائكم واحد وكل امرئ منكم كعضو
من أعضاء الجمعية الإنسانية ، أولا ترون أن فيكم من هو كالسمع والبصر من العقلاء ؟ وفيكم من هم كاليد
والرجل من العمال ؟ وفيكم من هم كالطابعين والحارزين كالعدة والأعضاء ؟ أفلا تتقون وتخافوني وأنتم تذكرون
الرحم مقرونة باسمي ؟ فأنا الرحيم وهي الرحم ، فالقرابة التي بينكم المشتقة كلها من اسمي أجدر بالمرعاة والمهابة
فضلا عن الإنسانية العامة ، أي عبادي إني عليكم رقيب أرقب ماتصنعون بأرحامكم ، وكيف لا أرقب
ذلك والرحمة صفتي ؟ فمن قطع الرحم قطعته ومن وصلها وصلته ، فأنا الرحيم أحب الرحيم سببا إذا كان ذلك
على القرابة الأدنى . أنا سائلكم أيها الناس عن البعيد كما أسألكم عن القريب ، بل إني أسألكم عن كل
ما تقدرون عليه فإني لا أكلف نفسا إلا وسعها ، فالرحمة أنتم عنها مستولون ، فإذا كان فيكم فضل قوة على
رعاية يتامى من الناس فلا تجعلوا ما لهم غنيمة لكم ولا تأكلوا أموالهم ولكم أن تأخذوا قدر عملكم
بما هو المتعارف للألوف ، وإن كنتم أغنياء فغير لكم أن تستغفوا وتعملوا في أموالهم بلا أجر إلى آخر
ما تقدم ، وفي هذا القسم أربع لطائف :

[اللطيفة الأولى] إن الله كان عليكم رقيبا .

[اللطيفة الثانية] تعدد النساء في الإسلام .

[اللطيفة الثالثة] ولا تؤثروا السفهاء أموالكم .

[اللطيفة الرابعة] فادفعوا إليهم أموالهم .

[اللطيفة الأولى] « إن الله كان عليكم رقيبا » وهذه اللطيفة واضحة فيما تقدم فلا تطيل فيه .

[اللطيفة الثانية : تعدد النساء في الإسلام] اعلم أنه قد كثر لفظ القرينة ومن نحوهم ممن خالطهم
من المسلمين في تعدد أزواج المسلمين وزوجات النبي صلى الله عليه وسلم فلهم أربع وله صلى الله عليه وسلم
أكثر . فاعلم أني قد ألفت رسالة تسمى السر العجيب ، وقد محضت هذا المقام تلخيصا بسائر أطرافه ، وهذا
المقام لا يسع الإفاضة فيه خيفة السأمة ولكني أدلى إليك ببسير من القول لتقف على ما تيسر فأقول : لقد
حسد القرينة المسلمين وغيرهم على تسلمهم حتى إنهم في أفريقيا الجنوبية لما رأى الإنكليز أن رجلا يتزوج عشرا
من النسوة وهن يسمين لرزقه وهو يأكل وشرب فيلذ بنين وبنات كالديك مع الدجاجات ساهم ذلك لأن
النسل يكثر وهم يريدون تخفيفه فعمدوا إلى إيجاب الضرائب على هذا النوع من الزواج ، وهكذا لما رأوا
الأم الإسلامية تتكاثر وتتناسل أثاروا هذه المسألة ، ولقد بحث الباحثون فوجدوا أن الذين يتزوجون أكثر
من واحدة في الإسلام لا يزيدون عن خمسة في المائة ولا ينقصون عن ثلاثة في المائة ، وهذا العدد القليل
لاجرم ينتفر في جانب العدد العظيم . واعلم أن الله سبحانه جعل للذكور والإناث قانونا لا يتعدونه ، فالذكور
والإناث في دقات اللوالب في كل قرية ومدينة وأمة ، وفي الكرة الأرضية كلها متساويان تحريبا لحسن النظام
وجمال الإتيان وبديع الصنع ، قل لي رعاك الله هل سمعت أن أمة من الأمم ولدت إناثا فقط أو ذكورا فقط
في سنة أو شهر أو يوم ؟ كلا فإله خلقهما متساويين العدد غالبا ؛ فلو أن المسلم أراد أن يتزوج اثنتين وكان ذلك
عاما فأين النساء ولا نساء فلنكل رجل نظيرة منهن ، وكان الحرافة التي جرت على السنة العامة أشبه بهنفا
إذ يقولون إن لكل رجل قرينة من الجن يقولونها وهم لا يعقلون معناها يتلقفونها عن الدجالين بلا علم
ولا هدى ولا كتاب منير وإنما الله أجراها على ألسنتهم . وسرها أن لكل رجل امرأة من الناس تخلق
مقارنة له ، فتد أهل القرى والأمصار تجدد هذه القاعدة مطردة ، ومن هذا السر العجيب الذي وضعه الله
في الطبيعة التي نظمها « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » أي تناقض واختلال . ولو أنه خلق في مقابل

الرجل امرأتين أو بالعكس لاختل النظام ، فبالت شعري كيف يمكن أن يتزوج المسلمون كلهم أو كثير منهم بأكثر من واحدة والله لم يخلق ذلك وإنما جعل الله في كل أمة قوما ضعافا لاقدرة لهم ولا مال فهؤلاء لايتزوجون ، وآخرين لهم قوة ومال وهم ذو طباع حادة ولا تكفيهم زوجة واحدة بل يذهبون للزنا ، وهذا شر مستطير فأباح الله لهم أن يتزوجوا بأكثر من واحدة إكثارا للنسل ومنعا لانتشار الزنا وقتل أولاد السفاح ورسمهم في الطرقات ؛ ولعمري إن هؤلاء خير من أغنياء الأوروبيين الذين يصاحبون أكثر من واحدة سرا ، فهم وإن لم يتزوجوا أكثر من واحدة جهرا فقد تزوجوا سرا ، ولقد ذمهم علماءهم وأذكر منهم العلامة جوستاف ليبون وأخبر أن التمدد آت لا ريب فيه ، ولقد أوضحت الحرب العامة هذه المسألة أيضا بوضوح فإن الرجال توفي كثير منهم في الحرب وأصبحوا قليلا وكثرت النساء فمن ذا يعولهن ومن ذا يقوم بأمرهن فأباح بعض الدول تعدد الزوجات .

تأما المسلمون فإنني أرى أن يكون الأمر موكولا لدوى الحل والعقد منهم ، وليكن التمدد على مقدار الحاجة وليصوا الرجال والنساء في البلاد لينظروا العدد الذي لم يتزوج من الفريقين وليأمروا كل شاب بلغ سنا معينة مثل ٢٠ أو ١٨ سنة بالتزوج فإن لم يتزوج أوجبوا عليه مالا معينا يدفعه للحكومة تنفقه على فقير ذى عيال ، والنساء اللاتي لم يتزوجن تبحث عن رجال يتزوجوهن منفردات ، وإلا كان ذلك مثنى وثلاث ورباع للقادرين الأقوياء الأغنياء ، فإذا فعلت الأمم الإسلامية ذلك فليكن بأمر أهل الحل والعقد منهم لا بأمر الفرنجة ، فإن الفرنجة يقصدون تقليل النسل وتقليل الزواج وإكثار السفاح والفساد في الإسلام فاحذروهم أيها المسلمون ، فليحذر المسلمون الذين يحكمهم الفرنجة أن يوحوا إليهم بأمر من هذا فإنهم يريدون الزنا وقلة النسل وضياع البلاد ، فأما أهل الحل والعقد منكم فلهم أن ينظروا في المصالح وهم أعلم بما يناسب حالتهم .

تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم

لقد أجمع المسلمون أن النبي صلى الله عليه وسلم من خصوصياته أن له الزيادة على أربع ، ومع هذا الإجماع ترى أنه اختار من نسائه أربعة أذكر منهن عائشة وحفصة ، فأما الباقيات فإنهن رضين أن يكن أمهات المؤمنين وساعن في أمر البيت عندهن ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم اقتصر على أربع في الحقيقة فأصبح كالأمة وإن لم يطلق الباقيات لأسباب أوضحتها في الكتاب المذكور ، انتهى المقصود من ذلك الكتاب ملخصا ، فاقرا هذا الكلام مفصلا في سورة الأحزاب فيها تلك الرسالة كاملة .

[اللطيفة الثالثة] « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم » نهي الله الأوصياء والآباء أن يؤتوا اليتامى أموالهم قبل بلوغ سن الرشد وحسن التصرف ، وهكذا النساء والأطفال فإن قلة عقل الطفل والمرأة تجعلهما يسرفان ويسرفان في الأموال فيصبح الرجل حسيرا ، هذا ما في هذه الآيات .

ومن عجب أن الأمم الإسلامية تعطي أموالها سفاهة للأوربيين ، إما كرها بالاحتلال كأهل جاوة وماوالها من الجزائر وكأهل القرب تونس والجزائر وما كس وكأهل السودان كل هؤلاء يذصون المال للفرنجة قهرا ، وإما طوعا بأن يذصوا آثان البضائع التي تصنع في بلادهم ، فأصبح المصري والمصري والهندي والغربي جميعا يعملون ويكدحون ، والغربي هو الذي يستترف ثروتنا وهذا سفاهة دولية لأمة الإسلام ، ولعمري لا تبلغ أمة الإسلام الرشد حتى تصنع ما تحتاج إليه من الصناعات ملبسا ومأكلا وآلات ، فإن لم يفعلوا سيفعلون فذلك ضياع مدتهم وذهاب دولهم ، وبالت شعري إذا كانت البريهات التي يعطيها الإنسان لابنه الصغير أو لزوجته يتصرفان فيها بلا عقل قد نهانا الله عن التفريط فيها ، فما بالك بأموال الأمة والأسرات التي يمتصها الفرنسي بملايس نحن نقدر أن نصنع غيرها ونستغنى عنها ويكون الثمن في أيدي أبناء البلاد أليس هذا أدعى إلى النهي

وإذا كان الله يقول لنا فيما نعطيه للأطفال « ولا تؤنوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما » جعل هذه الأموال قياما لنا نحفظ كياننا ونعيش بها ، فما بالك بما نراه في بلادنا المصرية من تلك القناطير القنطرة من الذهب وهي تبلغ كما في إحصاء المائتين نحو (٧٠ مليوناً) من الجنيهات وأكثرها بلا ربح في المصارف الإفريقية وهم ينتفعون بتلك النقود والمسلمون لم يأخذوا ربا لأنه حرام ، والفوائد قد ذهبت إلى أوروبا يصنعون بها الطائرات والدفاع ويغذفونها على أبناء المسلمين في الجزائر وتونس ومراكش والهند ومصر ، كل ذلك والمسلمون غافلون نائمون فلا يصدقون أن مصارف البلاد التي أنشئت حديثا تقوم مقام المصارف الإفريقية ويتركون تلك الأموال عند الفرنجة ولا ينتفعون بها في تجارة أو شركة أو زراعة بل يتركون أنفسهم عالة على أوروبا التي تأخذ ما لهم كأنهم قاصرون والأجانب يريدون أكل مال هؤلاء الأيتام ، ولكن الآن قد ظهرت بوادر الإصلاح في الهند ومصر وأكثر البلاد الإسلامية .

[حكاية] قابلت شابا هنديا منذ أيام وهو لابس ملابس كلها من قطن مغزول غزلا بلديا من رأسه إلى قدميه وليس مما ينسجه الأوروبيون ، فقلت أغزل بلادكم هذا ؟ فقال نعم ! ولو أنني خالفت هذا ولبست ما ينسجه الأوروبيون لعدوني خارجا عن الوطن ولرموني بأقبح التهم ولقتلوني ، وذلك من تعاليم الزعيم العظيم غاندى ، تلك التعاليم التي حرمت على جميع الهنود اللباس الإفريقية . وأقول ومن كلامه الذى ذكرته في سورة آل عمران أن أوروبا اليوم لا تمثل روح الله ولا روح المسيح بل تمثل روح الشيطان ، وما أعظم نجاح الشيطان إذ ظهر لسانه يردد اسم الله . وقال أيضا إن الولوع بالمنسوجات الأجنبية يجلب العبودية الأجنبية والفقر المدقع وما هو أقبح من هذا وهو العار على كثير من العائلات .

[اللطيفة الرابعة] « فإن آنتم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم » لقد رأى الشافى رضى الله عنه أن تصرف الصبي قبل البلوغ وهو ميمر بإذن وليه غير صحيح ، وصححه أبو حنيفة ؛ فاختمه بالبيع والشراء والأخذ والعطاء عند الحنفية ، وبالنظر في أحواله وعقله وإدراكه عند الشافى ، ويبلغ بالإتزال كل من الصبي والجارية سواء أكان بالاحتلام أم بالجماع . فأما بالنسبة لأهل العلم أن بلوغ التلام والجارية بخمس عشرة سنة ، وجعل له أبو حنيفة ثمانى عشرة سنة ولها سبع عشرة سنة . ومغتنص النساء بالحيض والحبل ، فإذا حاضت الجارية بعد استكمال تسع سنين حكم ببلوغها ، وكذلك إذا ولدت حكم ببلوغها قبل الوضع بستة أشهر لأنها أقل مدة للحمل ، ثم إذا بلغ الصبي وهو صالح للتصرف في ماله وإن فسد دينه سلم له المال عند أبي حنيفة خلافا للشافى فجعل الصلاح في الدين أيضا شرطا ، فإن كان مفسدا لماله أيضا لم يسلم له حتى يبلغ خمسا وعشرين سنة كما تقدم فيسلم له ولو لم يكن صالحا في ماله ، انتهى .

عظة واعتبار

لقد تبين في هذا المقام كيف جعل الله المال قياما لنا وأمرنا ألا نعطيه للسفهاء من النساء والأطفال جعل الله المال قياما لنا أى قياما لحياتنا الدنيوية والأخروية ، وها أنت ذا أيها الحكيم ترى كلام علماء الإسلام والأئمة رضى الله عنهم وكيف دفعوا في أموال اليتامى وفي الرشد ؟ وكيف يقول الإمام مالك إن الجارية إذا بلغت رشيدة لا يدفع المال إليها إلا إذا تزوجت فإذا تزوجت دفع إليها مالها ولا ينفذ تصرفها إلا بإذن الزوج مالم تكبر وتجرب ، فهذا التشديد والتقييد في المال والهدفة في البحث توجب يقظة المسلمين وانتباههم ، فياجبا كل العجب يجعل الله المال قياما لنا في القرآن ويشدد علماء الإسلام ويدخل الفرنجة بالمنسوجات السيار المصرية وبلاد العرب في تونس والجزائر ومراكش وسوريا ويأخذون الأموال ويضحكون على العقول ويلهوننا بالفسوق والفجور والزخارف كما فعلوا بالأندلس لما أمضوا معاهدة الصلح بينهم وبين أمراء الإسلام ، وأقيمت الأفراح وكانت نعال خيل بعض الأمراء من ذهب وكانت هكذا حرية التجارة وحرية التعلم وحرية الدين ،

قال قائل من المسلمين : هذه للماهدة لا تدفع طارا ولا تدركي نارا ولا ترفع جارا ، وسيأتي زمان قريب يحقر فيه تاريخ الإسلام وينسى فيه مجد الآباء الأعلام ، وشرب فيه الخمر جهارا ، ويلبس أبناء البلاد عارا وشنارا وتكون الملابس إفريقية وتزول من الرؤوس الحمية ، فردوا عليه هازئين وسمعوا له ساخرين ، وقالوا والله إنك لست من السياسين ، ثم عملوا أفراحهم وأولوا ولأمتهم ودخل الخمر في البلاد ، وقلدوا الفرنجة في العادات ، ومشى في الشوارع الشبان مع الغادات جهارا ، وهم يظهرن العصبان نهارا ، واستدان المسلمون وظهر الربا وهجرت مدارس الإسلام وعمرت مدارس الأسبان ، وأدخلوا في عقولهم تحقير أسلافهم وسقوهم الخمر وهم غافلون ، حتى إن راهبا أسبانيا كان يعلم التلاميذ في قرطبة اشترى عنها جميعا وحلف ألا يبيعه إلا لأبناءه وتلاميذه المسلمين جبا في رقيهم وسعيا لإسعادهم وغراما بفرحهم لأنهم أحبابه المخلصون وأصدقائه الأقربون ، وقد كثرت لبس الحرير والترنم والنعيم والسكسل وحب الإفراج واحتقار الآباء ودينهم وتاريخهم ، وهكذا حتى أزالهم الملك فرديناند والملسكة إيزابله من بلاد الأندلس ورموهم في البحر بعد أن قتلوا أكثرهم ، ومن تنصر منهم وهم قليل جدا حقروا تنصرهم ومموهم مرتدين وزال ملكهم وهم جاهلون ؛ هكذا نرى اليوم أبناء العرب لم يتوبوا ولم يتوبوا لرشدكم ولم يرجعوا عن غيرهم ، والفرنجة يطاردونهم ويستعملون رؤساء الدين في مراکش وتونس والجزائر والأمراء في مصر وبلاد العرب شبكة لصيدهم وسيقا مسموما ورمحا جارحا يقدون عليهم النعم ويضمونهم في الترف ويزوجونهم في سجن الشهوات ، وهؤلاء هم الذين يجرون هذه الشعوب الغافلة إلى الرزايا ويضعون الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في حميم القتل وفي نار الاستعباد ورؤسائهم للسيطرون عليهم سواء أكانوا من الشرفاء أم من الأمراء ، ألساء مثلا القوم المغفلون ؛ ويكون ذلك سبب جلب الشقاء واستنزاف الثروة ونقلها إلى الفرنجة بما فعل هؤلاء الشرفاء والأمراء وهم جميعا في جهنم الاستعباد مصفدون ، حتى إذا وقعت الواقعة وقرعت القارعة وزعت النازعة واقترب الوعد الحق للقصاص وقع أولئك الرؤساء في القتل كأمتهم ولات حين مناص ، فترلوا عن مراتبهم وأودعوا سجن اللذلة والهوان يقولون « يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا بل كنا ظالمين » .

أيها الأمراء المسلمون وإيرؤساء الدين قد آن أن يلاقى بعضكم حتفهم وهذا يوم مصرعكم والله قد حكم أنكم في هذه الأيام تسامون سوء العذاب جزاء ما كنتم تكسبون ، لبستم ملابس الظالمين ، وقنتم بعيش الغافلين ، ورضيتم بإذلال شعوبكم أجمعين . ألم تروا إلى قيصر الروس كيف كان عند المسيحيين يمثل حضرة المسيح ، وإلى كثير من الملوك كيف طردتهم أمهم وأذلتهم جيوشهم فصرعوا وهم ظالمون . هكذا عمما قريب ستقطع تلك الرؤوس الظالمة الفاجرة في الأمم الإسلامية تلك الرؤوس القاسقة الفاجرة التي خضعت أمام الفرنجة ألا قطما لتلك الرؤوس وموتا لتلك النفوس . يا أبناء الإسلام قد تنبه الهنديون ، واستيقظ الروسيون ، وحرمت المنسوجات الفرنسية في بلاد الهند ، وزالت الغفلة عن كثير إلا أبناء العرب . يا أبناء العرب إن الدين دينكم ، والمجد مجدكم ، وماضركم إلا رؤساء السوء تارة بالكيد لكم وفتح البلاد للفرنجة ، وتارة بكم العلم عن المستحقين ، هذا القرآن يقرأ صباحاً ومساء ، وفيه أن المال قيام لنا ، وعلماؤنا قد حققوا تحقفا ، وماتركوا شاردة ولاواردة إلا أحصوها ؛ فما بال العلماء يفلتون عن النصيحة ، بل ما بال العالم يتفاد لآراء الجهلاء . ألم يأن للصريين ولأبناء المغاربة وسوريا والعراق وأرضابهم أن يتوبوا إلى رشدكم . ألم يأن لرجال مصر أن يطلوا نساءهم أن الملابس الأوروبية خربت ديارهم ، وجعلت الأغلال في أعناقهم ؛ ألم يطلوا أن هناك حركة سرية مدبرة لاقتصاص الأموال وفساد العائلات ، وأن هناك خانقات فرنجيات يخطنن الملابس للقنانيات ، ويدبرن المكائد للآنسات ، ويتدعن كل يوم بدعة جديدة ، فيخربن الطراز في يوم أو بعض يوم ، ويطلن عادة ويجددن أخرى ، والرجال غافلون والأمراء نائمون بل راضون ، وكل حزب بما لديهم فرحون ،

وربع الأتيان ، وتعود للوظفين والتجار جميعها في هذا السبيل مصروفة ، فذل العزيز ، وعز النيل ، وتقربت أشرف السيدات أصلا ، وأعرقهن مجدداً ، وأعلاهن فرعا ، وأرضهن رأسا إلى خادمة إفريقيا أصبحت خاتمة مصرية ، فتزلقت إليها بالمال ، وتقربت إليها في كل حال لتخصها بزي جديد حتى تتباهى على اللغزات أمثالها ، وتلك الخاتمة تترفع ترفع القاصرة ، وتترفع على هذه القاصرة فترضيها بالمال ، وتود لو تحظى دون أترابها من أسرتها بهذا الزى الجديد ، وتقول الخاتمة لها هل من مزيد ، أولايرون ما يدبر لهم الفرنجة من السكائد والشركات من الصائد ، وكيف ترسل تلك المجلات التي فيها الأزياء الجديدة وتعطى للعائلات مجانا ؟ وترسل للفتيات فضلا من الفرنجة وإنعاماً ، أولايرون أن النساء في مصر لا يهتأن لهن طعام ولا شراب مالم يقلدن تلك الأزياء التي رسمت في تلك المجلات . ذهب المجد وزال ، ولكن قد آن أن ينكشف هذا الجهل ويحول .

وللنجم من بعد الرجوع استقامة وللشمس من بعد الغروب طلوع

أقول لقد ظهرت بوادر الإصلاح وليقومن في هذه البلاد وغيرها من يوقظون الأمة العربية ويرجعون لها مجدها وشامخ عزها وقديم فضلها ، ولولا أني واثق وموقن أشد الإيقان بهذا المقال ماخططت حرفا ، ولكني كتبت وأنا موقن أن القلوب تنفقه ، والعيون تبصر ، والأذان تسمع ، وأن في السويداء رجلا ، وأن مجدداً قد أظلم أواته ، وأقبل إبانته ، ويزغ بدره ، وظهر لجره ، وأشرقت شمس « ولتعلن نبأ بعد حين » وإذن يظهر سر قوله « ولانوثوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما » ومن أجل مايسر أني وقت كتابة هذه السطور قرأت في الجرائد أن حكومتنا في هذا اليوم حرمت الترخيص لتجار الحجر أن يفتحوا محال جديدة من الآن ، وهذا من بوادر الإصلاح في حكومتنا الجديدة الوطنية التي التأمت في هذا الأسبوع بأمر المجلس الوطني العام .

(المَقْصِدُ الثَّالِثُ)

في قسم التركات والمعاملات المالية

لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۚ وَيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِرَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ، فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ۚ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْوَأُنثَىٰ ، فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ، وَإِلَىٰ بَوَائِهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا الشُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وُلْدٌ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وُلْدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلَهُمُ الثُّلُثُ ، فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِلْمُتَّحِدِينَ الشُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ زَيْنٍ ، آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَأْتَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ، فَرِيضَةٌ

مِنْ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ
فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَلَهُنَّ
الرَّبْعُ مِمَّا تَرَكَتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكَتُمْ
مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ، وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ
أَوْ أُخْتُ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ ، فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ
مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرِ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ * تِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ * وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُبِينٌ *

يقول الله تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون)
والمراد للتوارثون بالقرابة، ثم أبدل من قوله مما ترك قوله (بما قل منه أو أكثر) حال كونه (نصيياً مفروضاً)
«روى أن أوس بن الصامت الأنصاري خلف زوجته أم كثة وثلاث بنات فزوى ابنا عمه سويد وعرفقة ميراثه
عنهن على سنة الجاهلية فانهم ما كانوا يورثون النساء والأطفال وقالوا إنما يرث من محارب وينب عن
الحوزة فجاءت أم كثة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فشكت إليه فقال ارجعي حتى أنظرا ما يحدث الله سبحانه
وتعالى فنزلت فبعث إليهما لانفراقا من مال أوس شيئاً فان الله قد جعل لمن نصيباً ولم يبين حتى نزل قوله تعالى
(يوصيكم الله في أولادكم) فأعطى أم كثة الثمن والبنات الثلثين والباقي ابني العم» .

ولما كانت آية الميراث تمنع كثيراً من قرابة الميت وغيرهم فلاشئ لهم في الميراث ، وكان الإسلام هو الذي
جاء بنشر المعروف والفضل بين الناس على القاعدة المذكورة أول السورة من اتحاد الناس وتعاونهم والمجموع
لا يصلح إلا بصلاح أفراده التضامنين كأعضاء الجسد الواحد - نزلت الآية الخاصة على إعطاء من لم تعطه آيات
الميراث الآتية تعميماً للفضل ، وتحقيقاً للتسامح ، وإصلاحاً للمجموع . وتلك الآية هي (وإذا حضر القسمة
أولوا القرى) ممن لا يرثون من الميت (واليتامى والسالكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولاً معروفاً) بأن يدعوا
لهم ويستقلوا ما أعطوهم ولا يمنوا عليهم . يقول فأعطوهم شيئاً من القسوم وجوباً على مذهب أبي موسى
الأشعري وإبراهيم النخعي والشعبي والزهري ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير فهؤلاء كانوا يعطون من حضر
شيئاً من التركة . وروى أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قسم ميراث أبيه وعائشة حية فلم
يترك في الدار أحداً إلا أعطاه وتلاه هذه الآية . قال الفخر الرازي فهذا تفصيل قول من قال بأن هذا الحكم
ثبت على سبيل الوجوب ، أما المذهب للتعرف بين الفقهاء فليس فيه إلا الدنب للورثة الكبار أما الورثة الصغار
فيكتفى بقول المعروف عنهم ، وعلى الوجوب روى محمد بن سيرين أن عبيدة السلماني قسم أموال أيتام فأمر
بشاة فذبحت ووصلت طعاماً لأجل هذه الآية ، وقال لولا هذه الآية لكان هذا من مالي ، وهذا القول وإن
لم يكن معمولاً به عند أكثر الفقهاء هو الأخرى بهذه الأمة اليوم رجوعاً بالأحكام إلى ظواهر القرآن وإلى
آراء الصحابة والتابعين وهم أعلم بالقرآن ، وللسلمون اليوم أحوج لاتباع ظواهر الكتاب . ولما فرغ من
الكلام فيمن حضر القسمة من هذه الطوائف رجع إلى الكلام في اليتامى فحذر أوصيائهم قاتلاً (وليخش)

الأولياء (الدين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعفا خافوا عليهم) فليعملوا بأولاد غيرهم ما يفعلون بأولادهم من البر والشفقة والرعاية وحفظ الأموال والترية الصادقة وتعليمهم العلم وإدخالهم المدارس أو تعليمهم الصناعات ، هذا هو الواجب عليهم (فليتقوا الله) في أمر اليتامى بفعل ما تقدم (وليقولوا قولاً سديداً) مثل ما يقولون لأولادهم بالشفقة وحسن الأدب والتعليم مع الإخلاص : ثم أنذر الظالمين من الأوصياء لليتامى فقال (إن الدين يأكلون أموال اليتامى ظلماً) ظالمين (إنما يأكلون في بطونهم) ملء بطونهم (ناراً) ما يجر إلى النار ويثول إليها . عن أبي بردة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال يبعث الله قوماً من قبورهم تتأجج أفتواهم ناراً قيل من هم ؟ فقال ألم تر أن الله يقول : إن الدين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً (ويصلون سميراً) ناراً موقدة مسعرة ، وإنما ذكر أكل النار على سبيل التمثيل والتوسع في الكلام ، ومعناه أن أكل مال اليتيم ظلماً يفضى به إلى النار وخص الأكل بالله كرمع أن جميع الإلتاف مثله لأن الأكل معظم للقصود . وعن أبي سعيد الخدرى قال حدثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أُسرى به قال « نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كشافر الإبل وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم ثم يجعل في أفواههم صخرًا من نار يخرج من أسافلهم قلت يا جبريل من هؤلاء قال هؤلاء الدين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً . فها هو ذا ذكر الميراث إجمالاً وأن الرجال والنساء لهم نصيب منه ؛ وكذلك الأقارب الذين لم يذكر في الآيات والسالكين واليتامى لهم بعض الحقوق واليتامى الذين لم يوصى عليهم أن يكون أباً لهم وأن يعاملهم معاملة آبائهم ، ثم حذرهم العقاب في جهنم إذا فرطوا . ثم أخذ يبين أصحاب التركات من الورثة فقال (يوصيكم الله في أولادكم) بأمركم ويهد إليكم في شأن ميراث أولادكم ، ثم فصله فقال (لذكر مثل حظ الأنثيين) أى بعد كل واحد بانبنتين حيث اجتمع الصفان (فإن كن نساء) أى فإن كان الأولاد نساء خلصا ليس معهن ذكر (فوق اثنتين) أى زائدات على اثنتين (فلهن ثلثا ما ترك) التوفى منكم (وإن كانت واحدة فلها النصف) أى وإن كانت المولودة واحدة والامتنان حكمهما حكم ما فوقهما فلهما الثلثان عند أكثر العلماء (ولأبويه) أى أبوى اللب (لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له) للبت (ولد) ذكر أو أنثى ولكن الأب يأخذ السدس مع الأنثى بالفريضة وما بقى من ذوى الفروض بالتصيب (فإن لم يكن له) يعنى للبت (ولد وورثه أبواه فلائمه الثلث) يعنى أن للبت إذا مات عن أبوين وليس له وارث سواهما فإن الأم تأخذ الثلث بالفرض وتأخذ الأب الباقي بالفرض والتصيب ؛ فيكون إذن المال بينهما للذكر مثل حظ الأنثيين . ولما اعتبر الشرع أن لها نصف مال الأب وجب أن يعتبر ذلك فيما لو كان معها أحد الزوجين فيعطيان الباقي هكذا أى يكون لها ثلث ما بقى بعد ما يأخذه أحد الزوجين خلافاً لابن عباس حيث يعطيا ثلث المال كله تفضل الأنثى على الذكر أى تفضل الأم على الأب ، وهو خلاف وضع الشرع (فإن كان له إخوة) ذكورا كانوا أو إناثاً (فلائمه السدس) أى فلائمه اللب إذا كان معها أب ، والمراد بالإخوة الذين يردونها من الثلث إلى السدس مازاد عن الواحد ، وهو قول كثير من الصحابة كعمر وعثمان وعطى والجمهور فإذا مات رجل عن أبوين وأخوين فلائمه السدس والباقي وهو خمسة أسداس ، للأب سدس بالفريضة والباقي بالتصيب ولا شئ للإخوة فكانهم حببوا أمهم ورد السدس لأبيهم الذى كان هو لأمه ينفق عليهم ، ثم قال سبحانه هذه الأنصاء للورثة (من بعد وصية يوصى بها أو دين) ثم قال سبحانه (أبائكم وأبنائكم لا تعلمون أيهم أقرب لكم نعماً) يقول أبائكم وأبنائكم ؛ يعنى الذين يرثونكم لا تعلمون أيهم أنفع لكم في الدين والدنيا ، فربما ظن الإنسان أن أباه أنفع فأعطاه أكثر أو عكس القضية فأعطى الابن ؛ فأنه تولى أمركم ودبر لكم ما فيه للمصلحة ولو وكله إليكم لتعيرتم فلا تعلمون لمن تعطون ومن تمنعون ، ثم قال فرض ذلك (فريضة من الله) وهذا مصدر مؤكد (إن الله كان عليماً) بالمصالح والرتب (حكماً) في قسمة الميراث (ولكم نصف ما ترك

أزواجكم إن لم يكن لمن ولد ، فإن كان لمن ولد فلكم الربع مما تركن (والمراد بالولد الوارث من بطنها أو من صلب بنيتها أو بنى بنيتها وإن سفل كان ذكرا كان أو أنثى منكم أو من غيركم) من بعد وصية يوصين بها أو دين ، ولهن الربع مما تركن إن لم يكن لكم ولد ، فإن كان لكم ولد فلهن الثلث مما تركن من بعد وصية توصون بها أو دين) فللرجل بحق الزواج ضعف ما للمرأة كما في النسب وكما في الأبوين في مسألة الأب والأم إن لم يكن إخوة ، وإنما يستثنى أولاد الأم كما سيأتي والمعققة وتستوى الواحدة والعدد منهن في الربع والثلث (وإن كان رجل يورث) الجملة صفة رجل (كلاله) خبر كان ، وهو من لم يخلف ولدا ولا والدا فعنى قرابة ليست من جهة الوالد والولد ، والكلالة في الأصل مصدر بمعنى الكلال ، قال الأعشى :

فأليت لأرثي لها من كلاله ولا من جوى حتى تلاقى محمدا

فاستعيرت لقرابة ليست بالعضية ثم وصف بها للوروث والوارث أى ذا كلالة (أو امرأة) عطف على رجل (وله أخ أو أخت) ومثله المرأة والمراد بالأخ والأخت هنا من الأم المذكورة ، وفي قراءة أبي وسعد ابن مالك - وله أخ أو أخت من الأم - وجواب الشرط قوله (فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث) سوى بين الذكر والأنثى في القسمة .

واعلم أن مقتضى الآية أن لا يرثوا مع الأم والجدة فجاء الإجماع وخصص المفهوم بميراثهم مع الأم ومع الجددة ، وقد أجمع العلماء على أنهم شركاء في الثلث إذا كانوا اثنين فصاعدا والذكر كالأنثى وقوله (من بعد وصية يوصى بها أو دين) مفهوم (غير مضار) لورثته بالزيادة على الثلث في الوصية أو بنفس الوصية بأن يقصد المضارة بها لا وجه الله أو بالإقرار بدين لا يلزمه وهو حال من فاعل يوصى ، وقوله (وصية من الله) مصدر مؤكد (والله عليم) بالمضار وغيره (حلیم) لا يعاجل بعقوبته ، ثم أشار إلى الأحكام المذكورة فقال (تلك حدود الله) شرائعه التي هي كالحدود المحدودة (ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم ، ومن يعص الله ورسوله ويتمدد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين) هذه الآيات ظاهرة .

لطيفتان

(الأولى) حصر الفروض المتقدمة في جدول ليكون أقرب للفهم .

(الثانية) كيف تكون التعاليم الإسلامية في مستقبل الزمان .

[اللطيفة الأولى] إذا مات لليت وله مال يبدأ بتجهيزه من ماله ثم تقضى ديونه إن كان عليه دين ثم تنفذ وصاياه ، ولا يجوز أن يوصى بأكثر من الثلث لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص قال : « الثلث والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدرهم عالة يتكففون الناس » أخرجاه في الصحيحين ، فالوصية بأكثر من الثلث لا تجوز ويحل النقص عنه ، ولا تجوز الوصية لو ارث ، قال صلى الله عليه وسلم : « إن الله أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لو ارث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر » ثم ما فضل بعد الدين والوصية يقسم بين ورثته . والوارثون من الرجال عشرة ، والوارثات من النساء سبع ، ومنهم من لا يحجب بالحرمان نحو الأبوين والولدين والزوجين . والورثة أصناف صنفت برث بالفرض كالزوجة والبنات ، وقسم برث بالتصيب كالبنين والإخوة ، وقسم برث بالتصيب نارة والقرض أخرى كالأب والجد ، وقد عرفت أصحاب الفروض في الآيات ؛ فأما العصة فهي اسم لكل من يأخذ المال جميعه إذا انفرد كالأب والابن ويأخذ ما فضل عن أصحاب الفروض . وأسباب البراث النسب والنكاح والولاء كولاية المعتق ، فإن المعتق وعصاته يرثون للمعتق بالفتح والكافر لا يرث السلم والسلم لا يرث الكافر ، وهكذا القاتل لا يرث القتول عندما كان القتل أَوْخَطًا .

همة علماء الإسلام في علم الفرائض المستخرج من هذه الآيات وأمثالها

تعجب أيها الذكي في أمر أمة الإسلام وعلماء الإسلام ، وانظر كيف سلكوا سبلا وذلوا طرقاً وعبدوها فأصبحتا تنهجا ولا تدرى كيف سلكوها - آياتها أنت ذا تهرؤها أمامك في ثنايا هذا التفسير وفي الصحاف سهلة واضحة ، فما أسهل أن يفهم الإنسان أن البنت لها نصف مال ابن ، هذه أمور سهلة ، ولكن الدين وإن جاء سهلاً يحمل متعبه على البحث والتنقيب في الأسرار التي ينطوي عليها هذا السهل . انظر رعاك الله هذه الآيات الواضحات وتأمل كيف أحوجت آباءنا إلى تدوين علم يسمى « علم الفرائض » أدخلوه ضمن علم الفقه وأبأنوا العبة وذوى القروض وأصحاب الثلث والنصف والسدس والتمن وكيف يعجب أحدهم الآخر ، فدخلوا في بحر الحلى وتغلغلوا في المسائل ، فبعد أن تراها في القرآن واضحة سهلة لا عوج فيها ولا أمنا ، ترى علم الفرائض عوصا شديد المراس صعبا إلا على ذوى الجهد والاجتهاد . ولما كانت التركات يعوزها نوع من الحساب جلسوا خلال العلوم ومخثوا في القنون وجدوا في السير حتى استنبطوا حسابا للفرائض واشتقوه من علم الحساب العام ، وعلم الحساب العام مشتق من علم الارتعاطيق أى علم خواص الأعداد ؛ فيعجبنا كل العجب لهؤلاء الأعلام غاصوا في بحار العلوم فاستخرجوا در الحساب وحلوا به مسائل الفرائض ليسهل لهم قسمة التركات وحفظ نظام الأسرات وإغناء حقوق الأبناء والبنات ، ضربوا في كل علم بسهم ، ومدوا أيديهم إلى فرع من فروع العلم الرياضى الذى هو أحد أقسام علم الفلسفة الشاملة لسائر العلوم لجذبوه حتى استظلت به سهام التركات وانتظمت به الأسرات ؛ فيها أنا ذا أبين لك نموذجا لما صنعوا حتى تقرأ في هذا التفسير صفوة علم الفرائض أولا وفروع علم الحساب ثانيا لتكون على بينة من أمر أمتهك وأجدادك وعلمائهم ، وكيف كانوا يعيدى النظر واسمى الفكر ، فاستعانوا بالعلوم على الاستنباط من القرآن ولم يدخروا وسعا في استنباط العلوم واستخدام ما يحتاجون إليه من علوم الحكمة العامة وكيف مات للتأخرون وجهلوا سائر العلوم ، واقتصروا على علم الفقه جهالة وخسة وقصر نظر ، وإذا قرءوا الفرائض تلقفوا حسابها جمعا وضربا وطرحا وقسمة وهم لا يملكون من أين هذا العلم ومن فروع أى العلوم هو ، ويعجبون أن آباءهم قد عرفوا العلوم الحكيمية وهم الذين اصطفوا هذا القرع من الحساب العام ، ألا ساء مثلا القوم الجاهلون ؛ ولكنى أقول لك لا تحزن ولا تأسف وأبشر فإن للنهضة الإسلامية بشائر هذا أوانها ، ولرقى الشرق زمانا هو ما نحن فيه .

واعلم أن للفكرين في الإسلام اليوم أخذوا فعلا ينسجون على منوال الأوائل ، ودليلك على ذلك ما فى هذا التفسير . قلل للآباء ناموا قررى العين واعلموا أننا اليوم أخذنا ننسج على منوالكم ؛ فلئن خدمتم الأمة بالعلوم ودوتم فى الفقه حسابا استخلصتموه من علم الحساب فنحن نقول :

لسنا وإن أحسابنا كرمتم يوما على الآباء تسلك

نبى كما كانت أوائلنا تبني وتعمل مثل مافعلوا

قد خدموا أمة الإسلام فى الأحكام الشرعية لحفظ كيان الأمة ، فحق علينا أن نبين من الآيات العلوم الكونية حتى يلتحق الشرق بالقرى .

يا أمة الإسلام آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرط من علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسعمانة آية فيها عجائب الدنيا كلها ، الله أكبر جل العلم وجلت الحكمة . هذا زمان العلوم هذا زمان ظهور نور الإسلام هذا زمان رقيه ، ياليت شعرى لماذا لانعمل فى آيات العلوم الكونية مافعله آباؤنا فى آيات الميراث . ولكنى أقول الحمد لله الحمد لله إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض لأنه مفرض كفاية ؛ فأما هذه فإنها للازدياد فى معرفة الله وهى فرض عين على كل قادر كما هو مقرر فى باب الشكر للإمام الغزالي وهى نفس علم التوحيد الحقيق ، والمعرفة والشكر يكونان على كل

امرى بقدر طاقته ، إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء الفرورون من صفار الفقهاء في الإسلام فهذا زمان الانقلاب وظهور الحقائق ، والله يهدي من يشاء إلى سواء الصراط .
إذا عرفت هذا فهناك ما وعدتكم به من خلاصة علم الفرائض ، ثم أتبعه بذكر فروع علم الحساب لتعرف كيف كان جد آباءنا الأكابر في علوم الدين .

خلاصة علم الفرائض

اعلم أن أقرب طريق لمعرفة الفرائض الميراثية ما دمجته العلامة ابن الهيثم ، وهو جدول لطيف مشتمل على ثلاثين مربعا في النصف الأعلى ثم هو أشبه بثلاث ، ويمكن كل مطلع عليه ممن لم يقرأوا علم الميراث أن يعطى كل ذي حق حقه في أسرع وقت إذا اطلع عليه مراعىا التنبيهات التي جعلت مفتاحا له ، وها هو ذا ملحق بالتفسير ويمكن استخراج مئات المسائل منه ، وهذا من نعمة الله التي أفاضها على قلوب الفضلاء من هذه الأمة انتهى .
وإذا عرفت خلاصة من علم الفرائض من الجدول الملحق فهناك فروع الحساب المستنبطة من علم الخواص العددية .

علم الحساب العام ، وهو علم بقواعد يعرف بها طرق استخراج المجهولات العددية من المعلومات المخصوصة وله تسعة فروع :

- (١) علم حساب الهواء وهو الذي به يعرف حساب الأموال العظيمة في الخيال بلا كتابة .
- (٢) وعلم حساب التخت والليل وهو العلم المشهور في مدارس الشرق والغرب الآن للكتوب بالأرقام الهندية المعروفة المرتبة ترتيبا يدل على الآحاد والعشرات والمئات الخ .
- (٣) وعلم الجبر والمقابلة وهو معروف .
- (٤) وعلم حساب الخطأين وله طرق مخصوصة مختصرة يتعرف بها المجهول .
- (٥) وعلم الدرهم والدينار وهو العلم الذي يعرف به من المسائل ما لا يعرف بالجبر .
- (٦) وعلم حساب العقود أى عقود الأصابع ولهم طرق في استخراج المجهول بها وهو ينفع لمن لا يحسن الكتابة ولمن كان مسافرا الخ .
- (٧) وعلم التعابي وهو الذي به يعرف ترتيب المساكر في الحروب .
- (٨) وعلم حساب النجوم الذي به يعرف حساب الدرج والدقائق والثواني وهكذا .
- (٩) وعلم حساب الفرائض وهو الذي نحن بصدده وبه يعرف قسمة التركات مثل تصحيح السهام لذوى الفروض إذا تعددت وانكسرت أو زادت الفروض على المال ، وهذا حساب جزئي باعتبار أحكام الفقه انتهى .

هذه هي الفروع التي تفرعت من علم الحساب وطبقها قداماؤنا على فروع الحياة ؛ فالجاهدون اتخذوا علم التعابي وعلما الفرائض علم حسابهم ، والتجار في الأسفار علم حساب العقود ، ورجال الدواوين علم التخت والليل .
هذه أعمال آباءنا ، وها نحن أولاء في القرن الرابع عشر الإسلامى نحذو حذوهم في سائر أعمال الحياة ونذكر خلاصة علوم الشرق وعلوم الغرب ، وبمخائب صنع الله عز وجل وهي التي بها قامت المدينة الحاضرة في تفسير الآيات ، وقد انتشرت هذه الفكرة بين المسلمين في هذا الزمان وهم بها آخذون وهم بها مستبشرون بإلما ن أكل الحسد قلوبهم من صفار الفقهاء « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

جوهره

قد عرفت أن آيات الميراث تبعا علم الحساب ، ولا جرم أن التركة لا تنقسم على الوجه الأكل إلا بمساحة

الأرض إذا اشتملت عليها ، والساحة من فروع الهندسة ولا بد للساحة من علم الفلك ، لأن علماء للساحة الراسخين يضطرون إلى الاعتقاد على بعض النجوم كما يضطر للملاحون لملاحظة النجوم في سير السفن ، هذا هو الإسلام .

[اللطيفة الثانية] كيف تكون التعاليم الإسلامية في مستقبل الزمان ؟ إن مفتاح الترية المستقبلية في آية التيامي ، يقول الله تعالى في هذه الآيات « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خلفوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولاً سديداً » .

اعلم أن الله عز وجل قد رمز في هذه الآية للتربية الحقيقية الإسلامية ، وسنبرز ما كمن فيها للأمم الإسلامية المستقبلية ليعلموا أن الله عز وجل خبياً لهم كنوز العلم في القرآن ليستخرجوها وليبحثوا في نفوسهم وفي الآفاق عما كثر فيها من الجواهر والحكم والجمال والبهاء ، إن النفوس الإنسانية كبحر لحي وكل من الناس لا ينال من خبايا نفسه وجواهرها إلا ما قصده ، ولا يستمتع إلا بما أراد ، ويبقى ما كمن في الأنفس ملقى فيها لا يجد من يشره وينتفع به . ألا فليعلم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها أن هذه الآية تدعو حثيثاً إلى استخراج جمال النفوس وجواهر الحكم من غورها .

فاعلم أيها التديكي أن التعاليم في هذا العالم الإنساني على قسمين : تعاليم بالإرهاب ، وتعالم بالرغبة والوجدان ؛ فأما تعاليم الإرهاب فهي التي يسلكها الإنسان في معاملته مع الصبيان والجهال وأصحاب النفوس الضعيفة التي لم تستخرج كنوزها ، كما نرى أن البلور ترسم فيه الصور بلا صقل ولا تعب ؛ فأما الحديد فلا يقبل الصور إلا بعد العناء في صقله والتعب في تحسينه حتى يقبل الصور كما يقبلها البلور ، وفي الحديث : « الناس معادن كعادن الذهب والفضة ، تغيروكم في الجاهلية خياركم في الإسلام » فتفطن لما يلقى عليك أيها التديكي اليوم من جواهر هذه الآية الواردة في الأيتام وفي الحكم للمستودعة فيها . لقد أرشد الله الأوصياء قائلاً « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم الخ » .

يقول أيها الناس إنني قد جعلت الرحمة والشفقة والعطف والحنان من الفرائز للمنوحة لأهل الأرض قاطبة ، فخشوا أيها الناس في قلوبكم وانظروا جيونكم هل ترون إلا رحمة ممتزجة بنفوسكم وإشفاقاً في قلوبكم ؟ أولاً ترون الحيوانات من الحيل والبقر والعز والغنم ؛ بل الحيوانات القترسة أودعت في قلوبها رحمة على أبناء جنسها عامة وعلى أولادها خاصة ، وأنا الذي حكمت عليها أن تأكل الأنعام لحكمة دبرتها وغاية يعرفها الحكماء وأكابر العلماء ، فأمرى منكم لم ير في نفسه ميلاً وإشفاقاً على الضعفاء والساكين والأرامل والأيتام ؛ ولو أن الرء خلى وغريزته الأولية لأيقن أن العطف الذي على ولده الصغير هو العطف الذي يجده على جميع الضعفاء وإن دفن تلك الرحمة وأسدل الستار عليها وغطاها بحجب الشهوات تارة والعدوان أخرى ؛ فمن طمع في مال غيره من الضعفاء كالدول الكبيرة فإن هذا الطمع يسدل الحجب على تلك الفرائز الشريفة فيسترها كما ستر الرحمة التي في الآساد للبهائم ما طبعت عليه من الاقتراس العارض لها .

المحبة والكهرباء

ألا وإن المحبة والمجد والعطف كامنات في النفوس كيون الكهرباء في الأجسام . أيها الناس إن المحبة والمجد كامنان في نفوسكم كما كمنت الكهرباء في الأجسام ، أو لاترون أن الزجاج والرايتنج أي شمع الختم إذا ذلك كل منهما بطرق مخصوصة وقرب لب السيبان مثلاً من الزجاج جذبه إليه وضمه ثم نقر منه وطرده ، فإذا قربناه من الرايتنج اللدوك جذبه إليه والترقى به ثم طرده ، فإذا أرجناه للزجاج قبله وهكذا ، وهذه التجربة البسيطة الصغيرة أوجدت قسمين : كهرباء سميت موجبة وهي الزجاجية وكهرباء سميت سالبة وهي الرايتنجية ، وجميع الكهرباء في الهواء والماء والسحاب والمعادن لا تعدو هذين

القسين ، وهذه هي التي لما كشفها الناس حملتهم وأطعمتهم وكسبهم وحرثت أرضهم وفعلت عجائب لم تخبط
بياهم ، وإذا كانت هذه المادة مخلوقة لكم وفيها هذا السر النافع العجيب ، أفلا تكون أنفسكم أصدق
محكا وأعظم مقاسا ، وأنتم لو فتشتم فيها لوجدتم أن فيها ما هو فوق الكهرباء في إسعادكم ورفيقكم
وتشديد مجدهم .

انظروا أيها الناس ألم تكن الأعمال الجراحية تعمل لكم وأنتم متألمون أشد الآلام ؟ ألم تستطيعوا أن
تأتوا بمخدر يسهل العمل ويقلل الألم ويدفعه عنكم ؟ هذا مثل مما وصلتكم إليه .

الترغيب والترهيب في الآيات

هكذا أنتم تقومون بالأعمال إما طوعا وإما كرها كالأوصياء هنا ، فإن الله تعالى قال لهم فتشوا ضمائركم
وانظروا في نفوسكم ألسنتم تعاملون أبناءكم برحمة ومودة وعطف وشفقة ؟ فهكذا عاملوا اليتامى واحفظوا لهم
أموالهم كأبنائكم ، وهذه الآية يراد منها إثارة العواطف الكامنة في النفوس التي مبدؤها الرحمة وغايتها سعادة
الضمير بما يرى متفوشا فيه من صور الإحسان وما يسمع من الثناء من الناس وما يتصف به من جميل
الأخلاق والزيات الحسان . ولما كانت أكثر النفوس لا تصرف إلا الإنذار والتخويف ولا تفهم الترف النفسى
ولا اللذات العقلية أعقب الآية بالوعيد لهم بأنهم إنما يأكلون النار في بطونهم وسيصلون نارا مسعرة مهددا
لهم وزاجرا كأنه يقول : أيها الناس إن سعادة نفوسكم بالإحسان والفضائل التي تصرف بها النفس ، وإذا
لم تفهموا فأنا أحذركم نار جهنم بسبب أكل مال اليتيم .

واعلم أن ذكر النار في هذه الآية ، وفي حديث الإسراء للتقدم وهو أنه يؤتى بحجر من النار فيدخل
في فمه نازلا في جسمه ، فإنما ذلك تصور لما عليه حال الإنسان الآن ، وإن لم يحس به فإن الحرس والطمع
والحسد وعدم الرحمة ، كل ذلك مؤلم للنفوس في هذه الدنيا والناس كالتخدرين لا يشعرون ، فإذا ماتوا
انكشفت السوات وظهرت المورات .

واعلم أن الناس لا يصدقون هذا إلا إذا كانوا مفكرين ؛ فتأمل أيها الذكي ألسن ترى أن المال كلما زاد
زاد التعب به ، وأن الناصب والأولاد وأمثالها لا تمنع الثرور عن الإنسان بل تزيدها ، وأنا لا أطيل في هذا
للقام ؟ فارجع إليه في سورة البقرة عند قوله تعالى « ولنبلونكم بشئ من الخوف والجوع » .

العمل للحبة أدوم ، والعمل بالقهر قصير الأجل ، لأقدم لك ما قاله النابغة الديباني :

لو أنها برزت لأشمط راهب عبد الإله ضرورة متعبد

لرنا ليهجتها وحسن حديثها وحاله رشدا وإن لم يرشد

وقال في هذا المعنى كثير عزة :

رهبان مدين والدين عهدتهم يكون من حذر العذاب قصودا

لو يسمون كما سمحت كلامها خروا لعزة ركما وسجودا

فانظر كيف جعل النابغة وكثير أن الرهبان والعباد الذين يكون من خشية العذاب ، إذا سمعوا قول
معشوقتهما تركوا عبادة ربهم وأصغوا إلى حديث هذه الفاتنة الجميلة . وفي هذا المعنى يقول الله تعالى « وما
نرسل بالآيات إلا تخويفا » .

فالتعليم أيها الناس بالتخويف لا يفيد الأمم . وإنما نتيجة هذا البحث أن الله يحثنا أن نعلم بطرق الترغيب
ونستخرج ما كمن في النفوس بما فيها من الجمال ؛ وها أنا ذا أت لك بصور من ذلك :

الطريق الأول : أن نذكر سير النابحين في علم أو عمل أو وطنية ، فليذكر كل أهل قطر سير عظمائهم
الذين أفادوا بلادهم بأن علومهم أو أدوا إليهم عملا شريفا أو حفظوا أوطانهم من العدو فيلقه التلاميذ ذلك

فإن ذلك يهيج الشعور في قلوبهم فتمتلئ بالحساسة ويسبرون على منهج سابقهم ويقلدونهم ويحملون عملهم؛ إن الأم التي تنسى هذا لامحالة فاقدة مجدها آيلة إلى خرابها ذاهبة إلى الحضيض . هذا هو الذي يرمى إليه قوله تعالى « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم » يريد تحريك الوجدان والشعور فلتحرك الوجدان والشعور والمجد بالطرق التي نعرفها وهذه منها .

الطريق الثاني : كثرة النظر في جمال الطبيعة حتى يتاد الشاب الحسن والجمال في هذه المشاهدات المخلوقة في الأرض والسماء .

الطريق الثالث : أن يكون مع التليذ مذكرة يحصى فيها ما يستحسنه مما رآه وما ذمه مما مر عليه من الأمور المهمة يرجع إليها عند الحاجة ، فهذه الثلاثة متى اجتمعت في امرئ جعلته في مصاف العظماء ونهج منهج الحكماء .

جوهره في قابلية الناس للكمال وواجب العلماء في أمة الإسلام

الناس جميعا قابلون لهذه الفضائل : العلم والقدوة ، كفيلان باستخراج فضائلهم وإن كانوا مختلفين اختلاف المعادن والخشب في الكهرياء ؛ فالخشب يقل سرعان الكهرياء فيه ، والعدن كثرت قابليته . فليقم الأساتذة في الإسلام بعلم أبرزه الله في هذه الآيات ، قدم الله آية الترغيب بالبحث في النفس عن الرحمة على الترهيب بأكل نار جهنم التي سترها وجودنا في حياتنا الدنيا وإن كنا نحس بآلام الحرص والطمع أحيانا . رغبتنا الله في إيقاظ العقول لنستخرج فضائلها وهذا أفضل من الترهيب ، إن أمما معاصرة لنا سلكت هذه السبل ، فقلت القضايا كأهل سويسرا يمر الشهر ولا ترى أمام القاضي قضية ولا محاماة بل ينصرف كل إلى عمله ، وذلك لأنهم يرضعون الفضائل وحسب البلاد مع اللبن يلقنونه في الهد والتربية والمدارس ، لا تذكر في مراسم الترام لا تذكر في القطار . يسير الراكب و يضع الأجرة في صندوق مقفل بحيث لا يعلم أحد ماذا دفع . يارب عجب من أمة الإسلام عجب وألف عجب ! إلى متى ديننا يأمرنا أن نوقظ الشعور ؟ نحن من نوع الإنسان ولنا دين الإسلام ، فلم سبقنا الفرنجة من أهل سويسرا ؟ يا الله إليك أشكو ! التعليم في الإسلام ناقص أتر ، تعليم لا يثير الفضائل ، تعليم ليس فيه إلا التخويف لم يمل قيد شعرة عن ذكر المخوفات والزعميات ، مع أنك أنت يا الله أنزلت في الكتاب سبعمائة وخمسين آية فيها جمال هذا العالم ، والنظر في الجمال يدخل في النفس صور الجمال ، والجمال يجذب بعضه بعضا ، فيجذب مافي نفوسنا من الجمال والفضائل ، أمرت بالبحث في النفس في هذه الآيات عن فضائلها ؛ فاقصر أهل العلم على ذكر النار مع أن النفس الإنسانية فيها مبدأ الكمال والجمال ، يارب لم يعلم الناس أن القرآن فيه تعاليم كثيرة فلم يأخذوا منها إلا قولا واحدا غالبا وهو عذاب الجحيم ؛ فأما الفضائل الكامنة فلم يثيروها ولم يستخرجوها بل تركوها عليها الصدا « بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ، كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم » قد أمنت يا الله أن الران والصدا إذا غطى القلب حجب صاحبه عن النعيم ودخل الجحيم ، فقالوا ترك المعاصي لحسب ونعمل الطاعات ولكن لم يفكر أكثر العلماء في جمال الطبيعة والسير الشريفة عند التعليم إلا قليلا منهم مع أنهم لا يتقنونها .

حكاية وبشارة بمستقبل التعليم في الإسلام

قال لي صديق تعلم في أوروبا سنين طويلة . هل يمكن أن تتم الأمانة الناس والصدق ؟ قلت له نعم ! فأنكر ذلك أشد الإنكار ، قلت له : فإذا برهنت على ما أقول يبرهان تشاهده في منزلكم هنا ؟ فقال : يكون عجيبا ! قلت : ألم تجه أحدًا زوج أختنا له جميلة لرجل وهي أجمل من امرأته هو ؟ قال بلى ! هذا كثير ؟ قلت له : أليست هذه الأخت أنثى كالإناث والطبع يميل إليها بشهوة الطبيعة ؟ قال بلى ! فإنا نجد المحوس وم

من نوع الإنسان يتزوجون بناتهم وأخواتهم ، قلت له حسن : فالذي منع طبائع السلميين والنصارى أن تكون كطبائع الجوس ليس هو التعليم والبيئة ؟ أولست تجد أن العامة والجهلاء في البلاد والقرى المصرية لا يرضون بسرقة حصر المسجد وقنديه وهم يسرقون كل شيء ؟ أفلمت ترى أن ذلك من البيئة والمادة المستمرة في احترام المساجد واحترام الأرحام بحيث يرى الشاب أن أخته كأنها مقدسة وأمه كذلك وبنته لا يخطر بباله أن ينالها بسوء ؟ لعمري إن هذا ليس من الطبيعة في شيء ؛ إنما هو من التعليم ؛ فالعليم أيقظ في النفس فضائل أخرى أوجدها ، وقد كانت فيها كامنة ، أفلمت ترى ما تمتع به أهل سويسرا من الأدب والفضل ؟ نحن أهل الشرق أولى أن نتاله ونحن آباؤهم وأسلم منهم عقولا وأصح منهم جسوما وأقدم مدينة ، قال بلى أما الآن فقد آمنت بقضيتك وصدقت كلمتك ، قلت له : أنا أشعر أن مستقبل الأمم الإسلامية سيكون على هذا للنوال ولو بعد حين ، وأنهم ينالون هذا النعم في الحياة ونقل القضايا وترفع الرزايا ، ويقوم الوجدان بدل القانون والإحسان مقام السجن ، والعرفة مقام الشر والسفه ، وللعانة بدل المحاسنة . أليس هذا يشير له آيات المحرمات من النساء ؟ وكأنه يقول أنا حرمت الأمهات والبنات حتى لم تعد لكم حاجة فيهن مع أن الطبع يقتضيهن ، وذلك لما أبرزتم ما كن في نفوسكم من الحمية والشرف ؛ هكذا فلتضعوا في سائر التعاليم كقضية اليتامى ، أليس هذا مقتضى ما قيل : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا » وما قيل : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » بالحب قامت السموات والأرض . ومن هذا السر حديث : « الحياء من الإيمان » .

فليكن كل قصدك أيها الذكي نشر للعرفة وبث السير الجيدة والقعدة الحسنة ، وليكن هذا من الإسلام فذلك أرقى من التهديد ، وليقم في البلاد مصلحون على هذا النظام وليجدد التعليم على هذا الأساس ، وينبذ ماعداه إلا للنفوس التي هي كالخشب السندة ؛ فأما أمثالك فليس لهم غير إثارة الجمل في نفوسهم والحسن والسكال انتهى .

المقصد الرابع

في صلة الذكر والآثي وأحكام اختلاطهما بعقد أو بغير عقد

وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةٌ مِنْكُمْ ، فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا * وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِيهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا * إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي بُنْتُ الْآنَ وَلَا الدِّينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كَفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَمْضُوا لَهُنَّ لَتَذَهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيَّنَةٍ ، وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَمَسَى أَنْ تَكْرَهُوا

شَيْئًا وَيَحْمَلُ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا * وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَسْبِدَالَ زَوْجِ مَكَانِ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ
 إِحْدَاهُنَّ فَنِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا مِثْلُنَا * وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ
 وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ
 آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ
 أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ
 وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَّائِكُمْ
 اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ ، وَخَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا
 مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
 كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ، وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُخَصِّينَ غَيْرَ
 مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا
 تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا
 أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمَنْ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ
 أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
 بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّهُنَّ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ
 فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا
 خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ
 وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
 الشُّهُوتَ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالِكُمْ بِلِطْلٍ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ
 مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا
 فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبِيرًا مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكْفَرُ

عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلِكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا * وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَتَبْنَا ، وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا * وَإِكْلٌ جَمَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَأَوْهَهُمْ نَصِيْبَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا * الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ، فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ، وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ ، فَمَعْظُوهُنَّ وَأَهْبُجُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا * وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُوا حَكْمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكْمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا *

في هذا القصد ثلاثة فصول :

الفصل الأول : في تمدى حدود الله المذكور قبل هذا القصد وكيف يوجب الزناة وتقطع صلتهن بالناس إلى قوله « وأخذن منكم ميثاقا غليظا » .

الفصل الثاني : في المحرمات من النساء إلى قوله « والله غفور رحيم » .

الفصل الثالث : في أحكام عامة للنساء وللأموال وبيان الصلح بين الزوجين الخ .

الفصل الأول : التفسير اللفظي

(واللاتي يأتين الفاحشة) الزنا لزيادة قبورها وشاعتها (فاستشهدوا عليهن أربعة منكم) فاطلبوا ثمن قنفهين أربعة من الرجال تشهد عليهن (فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت) احبسوهن في البيوت واجعلها سجنًا عليهن بعد أن يجلدن كيلا يجرى ماجرى بسبب الخروج والتعرض للرجال (أو يجعل لله لمن سبيلا) بأن يتزوجن فيستغنين عن السفاح (واللذان يأتيناها منكم) يعنى الزانى والزانية (فأذوهما) بالتويخ والتفريع (فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما) فاقطعوا عنهما الإيذاء وأعرضوا عنهما بالإغماض والستر (إن الله كان نوابا رحيمًا) علة الأمر بالإعراض وترك اللذمة والستر بعد الفضيحة . فهذه الآيات لتأديب الزناة تأديبا عرفيا أخلاقيا نفسيا ومن ثبت عليه الزنا منهما يقام عليه الحد ، وقد تجسب المرأة للآية السابقة (إنما التوبة) أى قبولها (على الله) أى أن قبول التوبة كالتوبم على الله بمقتضى وعده من تاب (للذين يعملون السوء بجهالة) متلبسين بها سفها لأن الذنب سفهه (ثم يتوبون من قريب) أى من زمان قريب ، أى قبل حضور الموت لقول الله تعالى « حتى إذا حضر أحدكم الموت قال إني تبت الآن » ولقوله عليه الصلاة والسلام « إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر » ومن للتبعيض أى في أى جزء من أجزاء الزمان القريب أى الذى هو ما قبل أن ينزل بهم الموت (فأولئك يتوب الله عليهم) وعد بالوفاء بما وعد به وكتب على نفسه بقوله « إنما التوبة على الله » (وكان الله عليما) بإخلاصهم في التوبة (حكيمًا) والحكيم لا يعاقب الثائب (وليست التوبة للذين) إلى قوله (ولا الذين يموتون وهم كفار) فيه تسوية لمن لم يتب حتى يغرغر بالميت كافرًا في أن كلا

منها لا يعتد بتوبته تليظا على من أخر التوبة وتشديدا عليه حتى جعل كمن مات كافرا (أعتدنا لهم) أي هيأنا لهم وأعدنا لهم (عذابا أليما ، يا أيها الذين آمنوا لا يجعل لكم أن تروا النساء كرها) كان الرجل إذا مات وله عسبة ألقى توبه على امرأته وقال : أنا أحق بها ثم إن شاء تزوجها بصدقتها الأول ، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقتها ، وإن شاء منعها من الزواج حتى تقتدى بما ورثت من زوجها (ولا تضلوهن) أي الأزواج لا تحبسوا النساء من غير حاجة ورغبة حتى تروا منهن أو يختلن بمهورهن ، وأصل العضل التضيق ، يقال : عضلت الدجاجة بيضتها ، يقول : ولا تحبسوهن لتضيقوا عليهن لعله (إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) كالنشوز وسوء العشرة وعدم التعفف (وعاشروهن بالمعروف) بالإئصال في الفعل والإجمال في القول (فإن كرهتموهن نفسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) أي فإن كرهتموهن فاصبروا عليهن ؛ فالنفس قد تكره ما هو خير كثير ، وقد تحب ما هو شر (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج) تطليق امرأة وتزوج أخرى (وآتيتم إحداهن قنطارا) أي إحدى الزوجات مالا كثيرا (فلا تأخذوا منه) من القنطار (شيئا تأخذونه بهتانا وإنما مبينا) ؛ لأجل البهتان والإثم أو باهتين آثمين ، وهو استهزام توبيخ وإنكار ، ثم قال منكرا لاسترداد المهر (وكيف تأخذونه) (و) الحال أنه (قد أفضى بضمكم إلى بعض) باللامسة ودخلتم بها وتقرر للمهر (وأخذن منكم ميثاقا غليظا) عهدا وثيقا وهو حق الصحة والمازجة ، وميثاق الله الذي أخذه عليكم في شأنهن من قوله تعالى « فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان) ومن قول النبي صلى الله عليه وسلم : « أخذتموهن بأمانة الله واستحلتم فروجهن بكلمة الله » انتهى التفسير اللفظي .

يقول الله تعالى إذا أتى الفاحشة النساء وشهد أربعة عليهن وأقم الحد عليهن فاحبسوهن في البيوت إذا رأيتم أن الحد لم يزرهن حتى يجعل الله لمن سبيلا بالتزوج للفقير لمن عن السفاح ، وكذلك إذا درى عنهن الحد لشبهة . وإنما قرر حبس المرأة لأنها لا تكون الفاحشة معها إلا إذا كانت خارجة السجن ؛ فأما الرجل فلا يحبس لأنه يقوم بأمور العاش . وعلى الحاكم أن يأمر بتفريقهما وتوبيخهما والإيذاء حتى إذا تابا ورجعا يعضو عنهما ، وهذا التفريق والتوبيخ لمن شهد عليه شاهدان فلم يبق عليه الحد أو ثلاثة شهود أو كان أربعة شهود ودرى الحد عن التهم ؛ فينتد لا بد من التفريق والتوبيخ ، فإذا تاب كل منهما بطل التفريق لأن الله يتوب على من تاب توبة مقبولة مالم تكن في حال الاحتضار .

ولما أتم الكلام على عقاب الزناة وحبس الزانيات وإيذاء الجنسين لفعل القبيح أخذ يوصي الرجال عليهن ويقول : أيها الرجال لا تروا النساء كرها كما ترون للناع ، إن الليت له ماله ، والزوجة انحل عقد النكاح بموته ، وليست ملكا له حتى يملكها أقاربه ؛ فإياكم أن تمنعوا عن زواج أو تأخذوا منها مالا أو تمنعوا ميراثا في مقابلة إطلاق سراحها ، وعليكم أيها الأزواج أن لا تجعلوا العيش معهن لغاية مالية وفائدة لكم مضارة لها ، بأن تأخذوا بذلك بعض ما أخذن من المهر وأنتم تتربصون موتهن فترنونهن ، وإياكم أن تضلوهن ذلك إلا إذا أظهرن عدم العفة وعاملنكم معاملة جائرة بنشوز وسوء عشرة ؛ فينتد لكم عضلن والتضييق عليهن ، وعاشروهن أيها الأزواج بالمعروف ولا تطيعوا أهواءكم في كراهتهن قرب مكروه كان خيرا كثيرا ، ورب محبوب كان شرا مستطيرا . أقول ومن قرأ ما ذكرناه في سورة البقرة عند قوله تعالى « وبشر الصابرين الخ » عرف فوائد الكروه وأن الحياة لاسعادة فيها إلا بالمشاق والمكاره ، فلا تطيل به هنا فارجع إليه ليظهر معنى هذه الآية ، ثم قال : وإذا أعطيتموهن شيئا فإياكم الرجوع فيه ولو كان قنطارا ، وكيف ترجعون في العطفية وقد بذلتموها ، وتردون الهدية وقد أوليتموها ، وليس من الروءة استردادها ، ولا من الشهامة إرجاعها بعد ما كان بينكما من الصفاء والمحبة والوفاء ، إن هذا لشين ميين وظلم عظيم .

جوهرة من جواهر القرآن في مستقبل الإسلام

تسبب أيها القدي من نوادر القرآن وغرابه ، واحجب ملى لهذه الأضواء الساطعة في سماء العلم التي أشرقت في ثيابها سطور هذا التفسير ، ياليت شعري هل يقرأ ما أكتب المسلمون ، وهل يعجبون ملى فيها أقول :

انظروا أيها العلماء ؛ انظروا أيها الأمراء ، فكروا أيها الحكماء في معنى هذه الآيات ، يقول من قبل آيات « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية الخ » ولقد شرحناها هناك ، ويقول هنا « والذنان يأتيانها منكم فأكذوبا » ويقول في آية أخرى « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله » .

هذه أنواع ثلاثة من أنواع الترية قد سطرها القرآن والمسلمون عن الأنفس والآفاق لاهون نائمون ولقد يكتفى أكثر العقلاء والعلماء بالأحكام الفقهية والبيوع الشرعية والقضايا الليرانية وهم عن حقائقه معرضون ، مثل هذه الآيات ينظر فيها العالم إلى الخلاف الذي بين العلماء ، فمن قائل إن آية « واللاني يأتيان الفاحشة من نساتكم » منسوخة ، ومن قائل إنها في اللاني يأتيان السحاق مع بعضهن ، وفي الثانية وهي : « والذنان يأتيانها منكم » قالت طائفة إنها في اللواط ، وقالت طائفة أخرى إنها في الزناة وقد نسخت . ولقد اصطفت لك اللب من كلام العلماء ، ونبذت القشر وفسرت الآية بما ينطبق على قول بعض المفسرين مراعيًا القوائد الطيبة والعجائب النفسية والأخلاق الإنسانية والطباع البشرية .

إن القرآن نزل منذ أربع وأربعين وثلاثمائة وألف سنة ، وهذه الآيات تقرأ والناس مصروفون عنها وعن أمثالها بأمرين :

(الأول) أن يكتفوا بأقوال الأئمة رضوان الله عليهم أجمعين في الحدود والبيوع وما أشبهها ، ويقولون قد تم الأمر فلا حاجة لبحث ولا تنقيب ؛ اللهم إلا الاطلاع على آراء العلماء في هذه الآيات ، ويكون ذلك مجرد اطلاع .

(الثاني) أن يكتفوا بالقرآن ويعبدوا الله بالتلاوة ، وهذان الأمران هما اللذان أصبحا حجابا بين المسلمين وبين القرآن . وها أنذا أريد أن أرفع الحجاب ويظهر اللباب ويطلع الناس على جمال القرآن وعجائبه مع اثناء مخالفة الأولين والجنوح في التفسير إلى رأى من آراء السابقين حتى لانكون مبتدعين في التفسير ولا مخالفين للتقدمين ؛ فاصغ لما أتلو عليك من جمال الترية الإسلامية من هذه الآيات . ولأقدم مقدمة فأقول :

اعلم أن العوالم الشاهدة لاخلو من واحدة من ثلاث أحوال : إما أن تكون مضيئة كالنار والشموس ، وإما أن تكون معتمة كالمواد الأرضية من الحجر والشجر والطين ، وإما أن تكون شفافة كالماء والهواء والبللور والزجاج الصنوع من الرمل المخلوط بالمغنيسيا والقلبي : فالأول ما يضيء على غيره ، والثاني ما يحجب النور عما وراءه ، والثالث ما يقبل الضوء والظلمة ولا يحجبها عما وراءه .

إذا عرفت هذه المقدمة فاعلم أن النفوس البشرية ثلاثة أقسام : قسم مضيء ، وقسم مشف ، وقسم معتم . فالأول هم أصحاب النفوس الشريفة فهؤلاء بمنعمهم عن الرذائل إشراق نفوسهم قليل لهم « وليخش الذين لو تركوا الخ » يقول انظروا بفطركم السليمة وعقولكم الضيئة في أمر البتاني ، وقد قدما أن هذه فتح باب لترية العقول بطرق خاصة .

والثاني هم المتوسطون الذين لا قدرة لهم على الاستنتاج من أنفسهم ، فأمثال هؤلاء يقرعون ويترجون باللسان ويومنون إذا اقترفوا الذنوب كفعل الزنا سواء أقيم الحد كما في البكر أم لم يقم الحد وكانت الشهادة

لم تم بالأربعة ؟ حينئذ يوغنون ويفرعون الخ ، وهكذا يفتح باب التفرغ والتويخ . وأقول ذلك ليفتح المسلمون هذا الباب وليشهر على ألسنة الجرائد والصحف من لم يرتدع في الدائرة التي هو فيها حتى يرجع إلى رشده ، يقول الله « فأذوها » والإيذاء في كل قيل بحسبه ، إن هؤلاء أشبه بالجسم الشفاف ، ولعمري إن التأديب بهذه الطريق أقرب إلى السلامة وأبعد عن الجهالة وأسعد للأمة وأبث لرقى المهتم ، إن المرء لا يرقى إلى العالی إلا إذا أحسن بالمسئولية ولا إحساس بها إلا بإثارة ما كمن فيها من عوامل الشرف ؛ فلتجعل الجرائد وسيلة لتعير من يتكفون حرمة الآداب . إن الجرائد في الأيام الحاضرة بها إقامة الحرب والسلم ونظام الأمم وتأديب الفاوين ومدح النافسين وإرشاد الضالين وهداية الغافلين ؛ فلتجعل وسيلة إلى ردع من ضل بالهوى وغوى وأعرض عن شع الجمهور .

وأما القسم الثالث فهم الذين فرغت الحيلة فيهم وعجزت الزواجر عن ردعهم ، فأولئك يقطعون من جسم الأمة قطعا وينذون منها نبذا كأن يقتل القاتلون ويرجم الزانون إذا لم تدرأ الحدود بالشبهات وقامت على أعمالهم الشهادات .

واعلم أن الجسم المغم قد يقبل الصقل كالحديد فإن الحيلة تجعله يقبل صور الرثبات ويرى الإنسان وجهه كالمرآة العلومة ، فهؤلاء الذين جعلناهم كأجسام الممتعة يمكن صقلهم بالعلوم ، فإن لم ينجح فيهم القول سلطنا عليهم سيفا قاطعا وفضلنا أرواحهم عن الأجسام فزاروا الرموس بعد قطع الرءوس ، هذا هو الصراط المستقيم ولتعلم أن الله ليس يريد الانتقام وإنما هو مرهب الأنام وما العقاب إلا اتقاء الشرور ، فإذا أثبت حمية النفوس بالمباحث العلية الجميلة ونواصي الناس بالحق في معاملة أولئك الجناة فنبذوم ظهريا وتركوم كما ترى في قصة الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت في عشرات الأيام ، وستروها في سورة التوبة فقد هجرهم الرسول والمؤمنون ولم يعف عنهم حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ونزلت الآية باللعن عنهم ، هكذا فعل الله في سياسته مع المتخلفين ، فقوله هنا « فأذوها » فتح لهذا الباب ، ومن تاب بالتفرغ وصلح فليعف عنه وليعامل معاملة الصالحين ، هذا هو السر الذي أردت إظهاره لتقرأه للمسلمين وتشرحه للخلصين .

الفصل الثاني

(ولا تكحوا مانكح آباؤكم) أي التي نكحها آباؤكم ، وبينه بقوله (من النساء إلا ما قد سلف) استثناء من المعنى كأنه قيل تستحقون العقاب بنكاح مانكح آباؤكم إلا ما قد سلف قبل التحريم . روى أنه لما توفي أبو قيس وكان من صالحى الأنصار خطب ابنه قيس امرأة أبيه ، فقالت : إني اتخذتك ولدا وأنت من صالحى قومك ولكن آتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأستأمره فأخبرته فنزلت هذه الآية وحرم نكاح زوجة الأب (إنه كان فاحشة) أقبح المعاصى (ومقتا) يورث أشد الغضب من الله وغاية الحزى والعار (وساء سيلا) وبش ذلك طريقا .

رجع في هذا القام إلى تقيح المعاصى والدنوب بالتصحيح والتشنيع والتم ، وهذا هو الذى ستنبه الأمة الإسلامية للطبقة الوسطى ، فالدم والتشنيع ورسم صور الأشياء وعرضها على الناس فيرون قبحها تارة وحسنا أخرى ، هو الذى يستخرج من نفوس الأم ما كمن فيها من الاستحسان والاستقباح كما قدمناه في قوله تعالى « والذنان يأتيناها منكم فأذوها » وهنا يقول « فاحشة ومقتا وساء سيلا » كل هذا للتفجير من الذنب وكان يكفى أن يقول إني أعذبه بجهنم وأسلط عليه أنواع العذاب في الآخرة ، لم يقل هذا ؛ بل استعمل التشنيع والتفجير من الذم . فليفتح هذا الباب للمسلمون ولتكن المؤثرات النفسية هي محور أعمالهم كما تقدم . ولقد بلغنا لهذا المهد أن الألمانين لم يكتر نسلهم إلا بعد أن أمر ملوكهم الأساتذة فصوروا صورتي زوجين

ومعها أبنائها وبناتها وأماصها أعمال مختلفة ، فهذه تطبخ الطعام ، وهذه تحضر الأواني ، وهذه تدير أمر المنزل ، والأبوان جالسان منشرحان ، وصورتى زوجين آخرين عقيمين متزوجين ضعيفين ، لا ولد لهما ولا بنت تولهما ، ولا مؤنس لهما ، وعرضوا هذه الصور على نظر الجمهور ؛ فانكبوا على الزواج وكثر نسلهم وكثر جمعهم ، وذلك جزاء المفكرين العاقلين .

ثم أخذ يشرح بقية المحرمات من النساء فقال (حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت) أى حرم نكاحهن ، والأم من ولدتك أو ولدت من ولدك وإن علت ، والبنت من ولدتها أو ولدت من ولدها وإن سفلت ، والأخت إما من الأب وإما من الأم وإما منهما ، والعمة كل أُنثى ولدها من ولد ذكرها ، والحالة كل أُنثى ولدها من ولد أُنثى ولدتك قريبا أو بعيدا ، وبنات الأخ وبنات الأخت يتناول القربى والبعدى ؛ فالمحرمات بالنسب سبع بنص الكتاب .

واعلم أن كل ما حرم بالنسب يحرم بالرضاع ، فإذا رضعت من امرأة فقد حرمت عليك التى أرضعتك وصارت أمّاً لك وكل بنت لها صارت أختك وزوجها أبك وأما جدتك وأخت زوجها عمتك وأختها هى خالتك وأم زوجها جدتك وبنت ابنها بنت أخيك ، فأصبحت من أسرة الرضاعة كما أنك من أسرة النسب . ثم إن الجمهور على أن قليل الإرضاع وكثيره يحرم ، وهو قول ابن عباس وابن عمر وسعيد ابن السيب والثورى والأوزاعى ومالك وابن المبارك وأبى حنيفة وأحمد فى إحدى روايتين عنه ، والقليل كالشافعى وعبد الله بن الزبير وأحمد فى إحدى روايتين عنه : أن التحريم بخمس رضعات معلومات متفرقات وحجة الأولين أن التحريم فى الآية لم يقيد بعدد ، وحجة الشافعى ومن معه الحديث البين للقرآن . فأما المدة التى يحرم الرضاع فيها فعلى ما دون الحولين وهو رأى الجمهور ومنهم الشافعى وابن مسعود ومالك وأبو داود . وقال أبو حنيفة مدة الرضاع ثلاثون شهرا ، فهذا ملخص آراء الأئمة فى قوله تعالى (وأمهاتكم التى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة) وهذا معطوف على أمهاتكم واكتفى بالأم والأخت عن ذكر الباقى ، وفى الحديث « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » فكل بنت لها سابقة أو لاحقة فعلى أخته وهكذا البقية كما تقدم . فهؤلاء أربع عشرة امرأة تحرم ، سبعة بالنسب وسبعة بالرضاع ؛ وإنما ذكر الرضاع بعد النسب لأنه لحمه كالحمة النسب وسيتبعها بحرمة الصاهرة ، وقد تقدم منها زوجة الأب .

فاعلم أن من عقد على امرأة حرمت عليه أمها بمجرد العقد وبحرمة أم العقود عليها تحرم جميع جداتها من قبل أمها كما فى النسب والرضاع ، وتحريم الأم وما معها بمجرد العقد مذهب أكثر الصحابة وجميع التابعين والجمهور وعليه العمل . وقال فريق من الصحابة: إن أم المرأة لا تحرم إلا بالدخول بابنتها وهو مذهب زيد بن ثابت وابن عمر وابن الزبير وجابر وابن عباس فى رواية عنه ؛ وهذا ملخص ما قالوه فى أم العقود عليها . أما بنتها من رجل آخر فإنها تحرم عليه متى دخل بالأم ؛ وهكذا كل بنت لأبائها أو بناتها وإن سلفن من النسب أو الرضاع . وبدل على ذلك ما أخرجه الترمذى عن النبي صلى الله عليه وسلم « أيمما رجل نكح امرأة فلا يجعل له نكاح ابنتها وإن لم يكن دخل بها فلينكح ابنتها ، وأيمما رجل نكح امرأة فلا يجعل له أن ينكح أمها دخل بها أو لم يدخل » وهذا قوله تعالى عطفاً على أمهاتكم (وأمهات نسائكم وربائكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم يكنوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم) الربائب جمع ربيبة ، والريب ولد المرأة من رجل آخر ، سمى به لأنه يربه كما يرب ولده فى غالب الأمر فعيل بمعنى مفعول ولحقته التاء لأنه صار اسماً ، وقوله اللاتى فى حجوركم مكل لعملة التحريم ، وكأنه قيل إن بنات نسائكم تربونهن كما تربون أولادكم وهم فى حجوركم كأولادكم فقوى شبههن بأولادكم فهن محرمات عليكم ، فذكر الحجور والتصير بما يدل على الترية علة للتحريم لأنه شرط ، وهذا مذهب الجمهور وأخذ سيدنا على بلفظ الآية

وجعل الترية لمن شرطاً في التحريم حتى يتحقق حضانة الرجل لمن وتريتهن ، ولا يكون التحريم إلا بالنكاح الصحيح ، فلو زنى بامرأة لم تحرم عليه أمها ولا بنتها إذا أراد التزوج بهن ، ولا تحرم المزني بها على آباء الزاني ولا بناته ، فالنكاح هو الذي يحرم ما يترتب عليه وجوب الصداق والعدة ولحوق الولد سواء أكان صحيحاً أم فاسداً . أما الزنا أو لمسي امرأة أجنبية بشهوة أو تقييلها كذلك بشهوة فلا ، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن المسيب وعمرو بن الزبير والزهرى ومالك والشافعى وقهاء الحجاز ؛ وخالفهم قوم ، فقال عمران ابن حصين وأبو هريرة وجابر والحسن وأهل العراق إن الزنا يحرم .

ومما يحرم عليه بالمصاهرة أزواج أبنائه أو أبناء أولاده وإن سفلوا من النسب والرضاع بمجرد العقد إذا كانوا من الصلب ، أما الذى تنبأه فلا تحرم زوجته وكذلك أخت زوجته بنسب أو رضاع فلا يجمعها معها فى نكاح ولا يجمع وطأها فى ملك يمين ، وكذلك إذا كانت إحداها بمقد والأخرى بملك اليمين . وهذا قوله تعالى عاطفاً على أمهاتكم (وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم) لا للتبئين كزيد بن حارثة الآنى فى سورة الأحزاب (وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) أى لكن ما قد مضى فإنه معفو عنه (وكان الله غفوراً رحيماً) فىكون نكاح الأختين فى الجاهلية نافذ العقد ويختار الرجل أيهما شاء حتى لا يجمع بينهما ولا يحتاج لعقد جديد على الذى اختارها . روى عن الضحاك بن فيروز عن أبيه قال : « قلت يارسول الله إنى أسلمت ونحيت أختان ، قال : طلق أيهما شئت » وعطف على أمهاتكم أيضاً قوله (والمحصنات من النساء) ذوات الأزواج أحسنهن التزوج ، وفى قراءة والمحصنات بكسر الصاد بمعنى أنهن أحسن فروعهن (إلا ما ملكت أيمانكم) من اللاتى سبين ولهن أزواج كفار فهن حلال للساين والنكاح مرتفع بالسبي . قال أبو سعيد رضى الله عنه « أصبنا سبائاً يوم أوطاس ولهن أزواج كفار فكرهنا أن تقع عليهن ، فسألنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية فاستحللناهن » قال الفرزدق :

وذات خليل أنكحتها رماحنا حلال لمن يبنى بهما لم تطلق

وقال أبو حنيفة : لو سبي الزوجان لم يرتفع النكاح ولم تحل للسبى . ولما تم الكلام على المحرمات قال : كتب الله عليكم تحريم هؤلاء (كتاب الله عليكم) ثم عطف على الفعل للضم الذى ذكرناه قوله (وأحل لكم ما وراء ذلكم) ماسوى المحرمات المذكورة وما فى معناها كالجلبع بين المرأة وعمتها وخالتها ، وكالمطلقة ثلاثاً لا تحل لزوجها الأول حتى تنكح زوجاً غيره ، ونكاح المعتدة ؛ وهكذا من المحرمات التى ورد بها القرآن أو السنة ، فكل هذه وغيرها تخصص هذه الآية فهذا من العام المخصوص ، وإنما أحل ذلك (لتبئوا بأموالكم) تطلبوا بأموالكم أى تكفوا بصداق وتشتروا بشمن (محصنين) متزوجين ومتعفين (غير مسافحين) غير زانين (فما استمتعتم) فمن تمتعتم به من النسكوحات (فآتوهن أجورهن) حال كون الأجور (فريضة) مفروضة (ولا جناح عليكم فيها تراضيتن به من بعد الفريضة) أى فيها يزداد على السمي أو يحط عنه بالتراضى (إن الله كان عليماً) بالمصالح (حكماً) فى شريعته وأحكامه . ثم أخذ يبين حكم من لم يقدر على نكاح الحرائر فقال :

واعلم أن من لم يقدر على مهر الحرة المؤمنة فله أن يتزوج الأمة المؤمنة وذلك بشرطين :

(الأول) أن لا يجد مهر حرة لأنها غالباً غالية المهر ، ومهر الأمة أخف لاشتغالها بخدمة سيدها .

(الثانى) خوف الزنا عند جمع من الصحابة والشافعى وأحمد ، والشرط الأول لا يقول به أبو حنيفة

رضى الله عنه ؛ فيجوز للحر أن ينكح أمة وإن كان موسراً ما لم تكن عنده حليلة حرة .

واعلم أن سبب منع نكاح الحر للأمة إذا كان موسراً أن الولد يتبع الأم فى الرق والحرية ، وإذا

كانت هى رقيقة لسيدها ، فإن ولدها رقيق له مثلها ، وهل يرضى بهذا حر ؟ وأيضاً إنها تكون فى خدمة

سيدها فله أن يجسها عنه في خدمته ، ولا يجوز نكاح الأمة إلا إذا كانت مؤمنة ، أما الكافرة ففيها نقصان الكفر والرق معاً ، وفي للؤمنة الرقيقة نقص واحد ؛ وهذا رأى الشافعي ومالك وجمع من الصحابة ، وأما أبو حنيفة فإنه أجاز نكاح الأمة الكناية ، وهذا في قوله تعالى (ومن لم يستطع منكم طولاً أن ينكح المحصنات المؤمنات) أي من لم يستطع منكم غنى - والمراد ما يصرف في المهر والنفقة - يبلغ به نكاح المحصنات يعني الحرائر (فما ملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات) يعني الإمام المؤمنات ، وحمل أبو حنيفة رضى الله عنه طول المحصنات على أن يملك فراشهن والنكاح على الوطء ، وعليه يجوز للوسر الذي لا حرة في فراشه أن يتزوج أمة كما تقدم ، والفتيات الجاريات المملوكة جمع فتاة ، والعبد فتى .

ولما كانت النفوس تأنف من الإمام أردفه سبحانه بأن للدار على القلوب ؛ فرب رقيقة أفضل من حرة بسبب إيمانها ، أو ليس الناس بعضهم من بعض فلا تفاضل إلا بالقلوب والنفوس ؛ فأما الرق والحرية فهما أمران جثمانيان صوريان ، وكم من رقيق سيد لسيده ، وكم من حر هو عبد عبده ، فهذا قوله تعالى (والله أعلم بإيمانكم بعضهم من بعض) وإذا كان كذلك (فانكحوهن بإذن أهلهن) أي أربابهن (وآتوهن أجورهن) مهورهن بإذن أهلهن وهو حق لسيدها لأنها لا تملك ، وعند مالك هو حقها رجوعاً لظاهر اللفظ (بالمعروف) بلا مظل ولا إضرار (محصنات) عفيفات (غير مسالحات) غير مجاهرات بالسفاح (ولا متخذات أخذان) أخلاء في السر (فإذا أحسن) بالتزويج (فإن أمين بفاحشة) زنا (فعملين نصف ما على المحصنات) الحرائر (من العذاب) من الحد : الجلد ، إذا زين فتجلده الرقيقة خمسين جلدة وهي نصف ما تجلده الحرة وهو مائة جلدة ، وكذلك العبد والمتزوج منهما عقابه كذلك فلا رجم على العبد ولا الأمة لأن الرجم لا ينصف (ذلك) أي نكاح الإمام (لمن خشي العنت منكم) أي لمن خاف الوقوع في الزنا (وأن تصبروا خير) أي وصبركم على نكاح الإمام متصفين خير لكم (والله غفور رحيم) أي غفر لكم ورحمكم حيث أباح لكم ما أتم محتاجون إليه ، انتهى تفسير الفصل الثاني ؛ وفيه لطائف أربع :

[اللطيفة الأولى] لتجعل المحرمات بيئة منظمة لتسهل على القارى .

[اللطيفة الثانية] ما الحكمة في الشهوات والمحرمات وماذا تفيدنا من الحكم الاجتماعية والحلقية والاستنتاجية ؛ وكيف نعرف من هذا المقام سر النفوس ومجائبها ؛ وكيف يحترق الناس بالشهوات كما يحترقون بالنيران وهم غافلون ؛ ومجائب وبدائع من أسرار القرآن الشريف ليصل الناس لربهم ويعجبون من حكمة الباهرة .

[اللطيفة الثالثة] سر القرآن في تحريم زواج الأمة إذا خاف الحر الزنا وما علاقتها بالأمة الإسلامية ؛ اليوم سياسة .

[اللطيفة الرابعة] الأحرار والعبيد وأن بعضهم من بعض والعبرة بالأعمال .

اللطيفة الأولى

محرم هؤلاء على الرجل من النسب والرضاع	هؤلاء محرمين من غير الرضاع والنسب
(١) الأم .	(١) تحرم للمرأة باقضاء العدة .
(٢) البنت .	(٢) يحرم الجمع بين المرأة وخالها أو عمتها أو أختها الخ
(٣) الأخت .	(٣) يحرم عليه امرأة أبيه .
(٤) بنت الأخ .	(٤) اللاعنة تحرم على زوجها .
(٥) بنت الأخت .	(٥) من عنده أربع نسوة لا يزيد عليهن .

- (٦) الحالة .
 (٧) العمة .
 (٨) الريبة .

اللطيفة الثانية : الشهوة تقلب رحمة

(أولاً) اعلم أن النساء بالنسبة لجميع الرجال مشتهيات لافرق بين الأجنبية والمحرم كالأخت والأم . فالطبيعة البشرية لافرق عندها بين الأخت والأم والحالة والأجنبية فكل عندها سواء كما في البهائم ، فالتفهم البهيمية لاتفرق بين الأخت والأجنبية هكذا الإنسان .

والدليل على ذلك أن الجيوس يتزوجون بناتهم وأخواتهم ونفوسهم لاتأنف ذلك . أما السلمون والنصارى وأمثالهم فإن الرجل قد تكون عنده أمجل أخت ثم ينظر للأجنبية التي هي أقل جمالا منها نظر شهوة ، ولأخته نظر عطف وحنان . فهذا دليل في كل منزل على ما للتفهم الإنسانية من القدرة والعظمة والشرف . يقول الله للناس :

ها أتم أولاء تقدرون على أن ترفعوا نفوسكم إلى مستوى اللاتكة ، إن في نفوسكم لقدرة عظيمة وعزيمة قوية الشكيمة فاستبشروا بها ، ذلكم أنكم لما سمعتم تحريم المحارم وعرفه الصغير منكم والكبير وصار ذلك عادة مألوفة انصرفت نفوسكم عن نظر الشهوة إليهن واستبدلتها بالحنان والتقدير والرحمة فرجعت نفوسكم بالنسبة إليهن عن صفة البهيمية إلى صفة اللاتكة ، فأهاتكم مقدسات ساميات شريفات وأخواتكم وعماتكم كذلك ، لأن في قدرتكم أن تسموا بأنفسكم إلى العلا وتسموا بأرواحكم إلى اللأ الأعلى ، أي عبادي إنما أجيبت دين الجيوس لتسموا به وليكون عنوانا لكم على أن شهوة المحرمات فيكم مثلهم ، وبالتعليم والعادة اقلبت الشهوة محبة شريفة عالية إيدانا من الله أن في نفوسكم قدرة أن تسمو إلى أشرف مصاف الكمال ، فإذا فكر الناس في هذا أيقنوا أنهم يقدرون على تغيير أخلاقهم والتزل عن خسائس عادتهم فتقلب النفوس الشريرة إلى الخير بالقصد والعزيمة . إن نوع الإنسان مستعد للسعادة العالية على مقدار طاقته في هذه الحياة .

إن احترام الأم والأخت بعد أن ركزت الشهوة إليهن في الطبيعة مؤذن بأن النوع الإنساني اليوم تطلق في الاخلاق طفل في العلوم غر جاهل ، وكأن الله يقول : أيها الناس إذا كنتم في الشهوة البهيمية التي هي أئرم لكم من ظلكم وأقوى عليكم من كل أعدائكم ، وهي ألد الأعداء وأعظم الداء قد سلطتكم عليها فلكتموها وأعطيتكم قيادها فستموها وأطفأتم نارها فاستخدمتموها ، قلنا : يا نار كوني بردا وسلاما فصارت ذماما ومحبة ووثاما وإعظاما واحتراما ؛ أفليس هذا دليلا أنكم على الاعتدال في المال أقدر فتقدسون ما لغيركم من الحقوق فلا غبن ولا ظلم ولا إسراف ولا تقتير بل يصبح المال في أيديكم كالماء وتصبح النار المشتعلة فيكم للمال بردا وسلاما ، وإذا كانت أملك الشهوات لكم ذلتموها فأنتم على غيرها أقدر تذليلا وأصدق قبلا ولكنكم لاتزالون أطفالا وفي الحكمة جهالا وعلى موأد العلم طفيليين ، فإذا شاعت الفضائل بينكم ولتتموها تلقين المحارم مع اللبن في الرضاع اقلبت للشهوة المالية حرمت إنسانية وأصبحتم بقدر الإمكان أيها العباد إخوانا . فلتكون فيكم بعض هذه الأخلاق .

(ثانيا) تحريم القريبات وتزوج الأجنبية لازدياد المحبات الإنسانية ولعدم فساد الأسرات وارتقاء نفوس الشبان والشابات .

إن الرجل إذا أحب محارمه على سبيل الرحمة نارة والإعظام والإجلال أخرى ، فما يدنس هذه المحبة أن تعترها الشهوة ، فالشاب يحمى أخته ويقدها ويحترم أمه ، فلو أنه تزوج أخته أو خالته لأصبحتا جنمه محل شهوته وقصر نظره في المحبة على الشهوات ، وتكون مكاتها عنده على مقدار التمتع بها ، ولا جرم أن ذلك

يقلل من قيمة المحبة الرحمية ، ولا يراعى إلا المحبة الشهوية ، والنفس تمود ذلك ولا تعرف سواه ، فيكون ذلك وبالاعلى الأرحام وتزول تلك العاطفة الشريفة . ثم هو بزواجه أخرى من الناس قد ضم أسرة إليه فأصبح له أسرة بالنسب وأخرى بالمصاهرة ، وهذه سعة في المحبة والبروة ، ولو أبيضت هؤلاء المهرمات لأصبح النسب والمصاهرة في جهة واحدة فضاعت سبل المحبات وانحصرت في بعض النيات . وأيضا تكون الأسرات دائما في شقاق لما يحصل من الإخوة والآباء وأبناء الإخوة والأخوات من التنافس والتشاجر والتقاطع بسبب اقتناهم على إحدى نساء العائلة كينت الرجل يتشاجر عليها أخوها أو أبوها وأحد أخويها وهكذا ، وهذا فيه من الفساد أقصاه ، ومن قطع الرحم منتهاه ، فانظر كم في تحريم الأرحام من البدائع العلية والمجائب الحكمية .

(ثالثا) اعلم أن نيران الشهوات كالنيران التي نوقدها وكالكهرباء التي نستثيرها ، وكالأنوار العلية التي نقلها .

فكل نار وكل كهرباء لها عملان : تفريق وجمع ، وإبعاد وتحريب . فانظر ألسنت ترى النار تحرق الحشب ؟ فيطير منه أجزاء في الهواء وتبقى أخرى في التراب ؟ ففي الأول تفريق ، وفي الثاني اجتماع . ألسنت ترى أن السحابتين إذا كانت كهربائيتين متجانسة بأن كانتا إيجابيتين أو سلبيتين ، فإنهما تتنافران ، وإذا اختلفتا إيجابا وسلبا فهما تتجاذبان . فهكذا النيران التي فينا معاشر الناس ، فإذا رأينا النار التي تحيط بنا ، والتي هي داخل الأرض التي نعيش فوقها تجمع الطين واللبن وتفرق أجزاء الحشب والكهرباء سالبة وموجبة ، فهكذا نحس في أنفسنا بنار تشتعل اشتعالا معنويا ، إما لطلب العناء أو الزواج ، وإما لرحمة الضعفاء كالأبناء ، وإما لدفع الأعداء كالنضب والغيرة والحسد ، وجميع العداوات التي تعترض نوع الإنسان ، فانظر كيف كانت أرضنا نارا يحيط بها قشرة أصلها نار فجمدت ، وكنا نحن من تلك القشرة فكنت النار في باطننا رحمة من الله لنا حتى تسوقنا الشهوة لطلب العناء والكساء والزواج ، وتدفعنا القوة الغضبية لدفع الأعداء وإبعاد الإيذاء ، ثم كانت فينا نار ألطف وأجمل من هاتين كالقوة العلية تدفع الجهالات وتجذب إلينا أجمل المعلومات ، فهما هي ذه فرقت وجمعت . فليت شعري أي فرق بين النارين ، وأي ابتعاد بين الأمرين ؟ فالشهوة البهيمية فينا لطلب العناء والكساء ، والقوة الغضبية لدفع الأعداء ، والعلم يدفع عار الجهل ، ويجذب أجمل صور العلم . فلئن جفنت النار الطين وأذابت الشمع وجذبت الكهرباء تارة ودفعت أخرى . فلقد منعت الأعداء النفس الغضبية ، وأزالت الجهالة القوة العقلية كما جذبت إلينا العلم ، وجذبت الشهوة ملاذ الطعام والشراب .

فانظر كيف تغلب الإنسان في أنواع من النفوس المحرقة ؟ نعم محرقة ، ولكن الناس لا يكادون يفقهون إلا قليلا ممن تعلموا ، فأولئك يقولون ويفهمون ، فالوالدة على فلة كبدتها في احتراق ، والواقعة لماشقتها في احتراق ، والذي غاظه الأعداء في احتراق . ونتيجة المقال في هذا المقام أن نار الشهوات للأجنيبات ونار الرحمات للقريبات ونار العداوات تتأجج على من جرح ما لم من الحرمات ، ونار أشواق العلوم لما بينا في هذه المقالة من الآيات اليبينات ، والمجائب الحكيمات ، وهالك صوراً ثلاثا للإنسان :

(١) نار الشهوة ، ونار الرحمة ، ونار النضب ، هن أصول التفاعل النفسى ، وبالتفاعل بينها يكون نور العقل على مقدار التمازج والاتحاد ، وما مثل هذه النيران الثلاثة إلا كمثل العناصر الداخلة في المركبات الجسمانية فهي نار لها نور وهو القوة العاقلة .

(٢) تصور فتاة ترضع ولدها اليتيم وعاشقها الذي يخطبها جالس أمامها وأعداؤها يحيطون بها ، فهي

بين ثلاثة نيران : نار الرحمة للولد والشهوة والفرام للعاشق ، والعداوة لأعدائها ، فهذه العواطف هي عبارة عن هذه المرأة .

(٣) شاب جلس مع أخته وحييته وعدوه ؛ فهو مع الأخت ملك ، ومع الأجنبية بهم ، ومع العدو أسد ، فانظر عجائب الإنسان كيف اجتمعت فيه اللطائف المتفرقة .

اللطيفة الثالثة

إن تحريم زواج الأمة على من قدر على مهر الحرة تحذير للمسلمين من السقوط في مهواة النذل والصغار ، ولزوم العار والشنار بأن يلدوا الأبناء الأرقاء تبعاً لأمهاتهم المملوكات ، فإذا كانوا يمتنون من عبودية آبائهم المسلمين مثلهم ، فما بالك بهم ؟ وقد ملك القرنجة أرضهم ، وأخذوا ديارهم وهم خامدون ، وأحاطوا بهم من كل جانب وهم ساهون لاهون .

حكاية

حضر إلى الديار المصرية صديق من ناحية أدلب من أعمال حلب الشهباء ، فدار الحديث بيننا على احتلال الفرنسيين لبلادهم . فأخبرني بما تشعروا له الأبدان من قتل النفوس ، وسلب الأموال ، والظلم البين ، وقد كان الرجل سيداً في قومه من الأشراف ، وكبار العلماء ، وله سيادة في قومه . فحدثني قائلاً : طلبني الضابط الأكبر في الجيش الفرنسي قائلاً : لماذا تكرهون الفرنسيين ؟ وهم إنما جاءوا لتحديكم ، وإسباغ النعمة عليكم ، قال فأجبت قائلاً : إن الأمة إذا قام غيرها بما يصلحها ، ونام أهلها سلبها الله مواهبها وسلمها إلى ساداتها ، لأن العضو الذي لا يعمل له لا يبقى له قوة ؛ وأيضاً أصبح كالحيوانات المنزلية لما فتننا بسقيها وتمذيتها فقدت الفرائز التي تحلت بها نظائرها في البراري والقفار من الغزلان وبقر الوحش السعيد في مراعيها الحسنة للناظر ، فقال له : هل هذا في كتبكم ؟ فأجابه قائلاً : هذا كلام قرأته في كتاب يسمى نهضة الأمة وحياتها تأليف فلان وهو مصري . قال فسكت ولم يرد جواباً ، فإذا كان القرآن يمنع أن نلد من أمة لاسلم مثلنا ، فكيف يتحمل المسلمون العبودية والرق في الأقطار الشرقية ، ويضع القرنجة الأغلال في أعناقهم وهم صاغرون ؟ ألا فليعلم المسلمون في أقطار الأرض أن الله قد قرب يوم عقابهم من ذل القرنجة ، وقد جاء أوانه وظهر إبانته ، ومن عجيب الاتفاق أت تستقل ثلاث دول وهي : الأفغان ، والترك ، والفرس ، وهما هي ذل بلادنا المصرية خطت خطوات واسمات في سبيل الاستقلال ، ولا بد من تمامه إن شاء الله وستخطو الأمم الإسلامية خطوات وتعطى بالاستقلال والخلص .

اللطيفة الرابعة في الأحرار والعييد

يقول الله تعالى « والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض » هاتان الجملتان ذكرنا في هذا المقام لتهديم ما بنته العادات ، وأبرزته الديانات ، وأظهرته القوانين السطورات . لعمري لقد هدم الله الظواهر المذكورة في هذه السورة بهاتين الجملتين ، ولقت الناس إلى الأعمال القلبية . يقول الله : لا عبرة بالصور والأشباح ، ولا الغلبة في الحروب ، ولا قوة الدول والممالك والأساطيل ؛ إنما هذه مظاهر يفتقر بها الغافلون « اليوم أضع نسبكم وأرفع نسي ، بعضكم من بعض لا فرق بين العربي والعجمي ، اسمعوا وأطيعوا ولو ولي عليكم عبد حبشي » أتم أيها الناس عييدي ولا عييد لكم ، لا يفرنكم مظاهر الميراث والسال والعقار والديار ، إن كل ذلك إلا مظاهر يفتخر بها الجهلاء ، وإنما النفوس والعقول والأخلاق والآداب ، وكل ذلك عندنا في كتاب ؛ فرب حامل ذكره عندنا رفيع ، ورب عظيم القدر عندنا ماله شفيح ، فليأكم أن تتفروا بما ترون من الأحكام الشرعية والحدود الشرعية ، فهذه إنما جاءت لحفظ المجموع ، وصيانة المجموع .

فلذا اختص الحر بالبراث ، وامتاز في أحوال الحياة ، فإتعا ذلك من ظواهر الأمور ، فلذا مات الحر والعبد
استويا في الأحوال واقتربا في الشرف والكمال . انتهى الفصل الثاني .

الفصل الثالث

(يريد الله ليبين لكم) أي التبيين لكم ، واللام زيدت للتأكيد كما قال قيس بن سعد .

أردت لكما يعلم الناس أنها سراويل قيس والوفود شهود

ثم عطف عليه قوله : (ويهديكم سنن الدين من قبلكم) متاهج من تقدمهم من أهل الرشد لتبصروا
طريقهم ، وتسلخوا سبلهم (ويتوب عليكم) ويصدقكم عن المعاصي بتلك الهداية بأن يلهم قلوبكم للنفور
منها بسبب الهداية المذكورة (والله عليم) بمصالح العباد (حكيم) فيما يدبر من أمورهم . ولما كان نوع
الإنسان قد فطر على حب الذات والاستئثار بالمنافع ، وكان ذلك حتماً ليجد في عمله ويتنافس في الفضائل
والأعمال الشريفة ، وجعل من فروع تلك القطرة الحسد للناس على نعمهم ، والسعي في هدم ما بنوا من
المجد ، وما أوتوا من الفضل بين الله ذلك إذ قال إن هدايتكم يريدنا الله ، وهذه الهداية يحاول إبطالها
الناوون ، ويسعى في إيقافها الفاسقون . فيقول الزناة وأهل الدعارة والفسق إذا امتاز هؤلاء بالإفلاح
عن هذه المعاصي ازدراوا الناس وولوا وجوههم عنا ، وتطلعت الوجوه إلى هؤلاء المتسكين ، ولذلك
قال الله تعالى (والله يريد أن يتوب عليكم ، ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا) عن الفضائل إلى
الردائل التي اتسموا فيها وارتطموا في أوحالها (ميلا عظيماً) بأن تأتوا المحرمات فتكونون مثلهم . فذكر
التوبة في هذا المقام ليس للتكرار تأكيداً وإنما هو للمقايضة بين إرادة الله وإرادة الذين يتبعون الشهوات
ثم قال (يريد الله أن يخفف عنكم) يا أمة محمد ما تنوءون تحته من الأثقال في دنياكم ودينكم فأباح نكاح
الإماء بشروط خاصة تسهلاً لكم وسيأتي قريباً بيان معنى التخفيف بما هو أوسع من هذا بعد تمام تفسير هذا
القص (وخلق الإنسان ضعيفاً) لا يصبر عن الشهوات ولا يتحمل مشاق الطاعات . ولما كانت علاقات الرجال
بالنساء لا تنفك عن الأموال توالى الآيات فيها ، فترى آيات البراث أولاً وآيات التحذير من أكل الأموال
بالباطل هنا فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل) بما لا يحل في الشرع كالربا والقمار
والنصب والسرقة والحيانة وشهادة الزور وأخذ المال باليمين الكاذبة والرشوة والأكاذيب في المهامة في المحاكم .
ولما كان الشيء يستوجب تذكاره والنفس الإنسانية تحضر الضد عند ذكر الضد بين الله أن التجارة ليس
منها عنها لأن النفس راضية بالعاقد أن يأكل زيد مال عمرو بتلك البادلة فقال (إلا أن تكون تجارة) صادرة
(عن تراض منكم) أي لكن كون تجارة عن تراض منكم غير منهي عنه . واعلموا أيها الناس أن رشوة
الحكام والربا والقمار وأكل أموال الناس بالباطل يورث خلافاً في نظامكم . أيها الناس أنا ما حللت حلالاً
ولا حرمت حراماً إلا لعمشوا في هذه الحياة آمين . فهذه الأحكام الشرعية والحدود الدينية التي أبينها لكم
ليست تراد إلا لحفظ نظام هيئكم المدنية فلذا قلت لكم فيما مضى إن المدار على القلوب فهكذا هنا أقول إن
توصيتي على الأموال تارة وعلى الأعراض أخرى إنما أردت بها حياتكم وبقاء دولكم ، فأما إذا اغتال الأغنياء
الفقراء وظلم الأقوياء الضعفاء وانتهك الحكام المحرمات وظنوا أن الناس عبيدهم فإن بد العمل في الأمة تقل
وكذلك الأعمال النافعة في البلاد ، فهجم عليكم الأمم حولكم فتدوسكم بأرجلها وتطوكم بمناسمها ويدخلون
عندكم الشركات ويقتسمون الأموال ويربحون وأتم نائمون وهذا هو القتل الحقيقي للأفئس وضياع البلاد
والعباد وهذا معنى قوله (ولا تقتلوا أنفسكم) أيها المسلمون وهذا بينه هو الحاصل في زماننا . ألا ترى أن
المسلمين منذ أربعمائة سنة آتى إليهم الأسبان غلوا بساحتهم وانتزعوا منهم أرض الجزيرة ، ولعمرك لم يكن ذلك
بالحيل والسلاح والكرع وإنما كان بتلك المعاهدة التي دبرها القرنجة بأمر البابا وبأوروبا ودوق

فيتزيا وأباحوا الحمر بمقتضى حرية التجارة ودخل الكسل والبطالة على أهل البلاد فكان الربا والترف والنعم والكسل ثمانت الأمة وهذا هو القتل . هذا قتل الأئس العام وهو أشد من قتل اللره نفسه المحرم أيضا ، هذه هي المناسبة لذكر القتل .

ولقد استمر المسلمون يقتلون أنفسهم هذا القتل الشنيع بعد ما سمعوا أن فرديناند وإزابلا قد رموا بأمة العرب في البحر الأبيض المتوسط وبعد أن قتلوا منهم آلافا مؤلفة وطردهم وأغرقهم . ولمعرك لم يقتلهم الأسبانيون إلا بعد أن قتلوا هم أنفسهم بالجهل في الأموال والتجارات فكانوا يهاقون على صناعات أوروبا ويتكفون صناعتهم لأن صناعات أوروبا كانت أشهى إلى قلوبهم . وليت شعري كيف يذكر الله قتل الأئس بعد ذكر التجارة . أها المسلمون إن التجارة وإن كانت حلالا هي التي أودت بالمسلمين ، انظروا أليس تجار الإفرنج هم الذين خدروا عقول الأسبانيين؟ أليس تجار أوروبا الآن قد استولوا على أهم موارد حياتنا؟ أليست الحرب الحاضرة قائمة على أساس الأموال والتجارة؟ إن المسلمين ناعمون ، إن التجارة الإفرنجية هي التي قتلت الشرقيين ولذلك أراد (غاندى) أن يتلمس الخروج من الخطر بتحريم المنسوجات الإفرنجية وقد نجح نجاحا عظيما . فهل يعلم المسلمون أن خراب دولهم إنما جاء لجهلهم علوم التجارة وأنهم قوم لا يعلمون منها إلا قليلا . التجارة تسبق الحرب ، فما ملك الإنجليز بلاد الهند إلا بالشركة الإنجليزية هناك والعادات الفرنجية تغلقت في قلوب المصريين والسوريين وجميع سكان شمال إفريقيا ، هذا هو القتل المذكور في القرآن ، وهذا هو السر في تعقيب التجارة بالتحذير من قتل النفس . ولما كان ذلك التحذير من فضل الله ورحمته قال تعالى (إن الله كان بكم رحما) في تصويركم وخلقكم ورزقكم فكيف لارحمون أنفسكم بعد قتلها الاقتصادي بالإسراف وضياع أموالكم أو قتل أنفسكم استجارا .

اعلم أن من عادة القرآن أن يرشد بطريقتين : طريق العقل والهداية ، وطريق الإرهاب وكانت أولى الطريقتين قد ذكرها أولا بأن الأمم يترهبها الفساد وتضيع الدول وكان هذا المعنى لا يعقله إلا قليل ولا يفهم مغزاه إلا من خصه الله ، وقد شرع في الطريق الثاني فقال (ومن يفعل ذلك عدوانا) إفراطا في التجاوز عن الحق (وظلما) للنفس بتعريضها للهلاك في الدنيا والآخرة (فسوف نصليه نارا) ندخله نارا يصل فيها (وكان ذلك على الله يسيرا) ولما كان هذا القول ربما أوقع في النفوس بأسا قال (إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه) وهي كبار الذنوب وهي التي عظمت عقوبتها (نكفر عنكم سيئاتكم) تنفروا لكم صفاتكم ونعمها ولعل الكبار تختلف باختلاف المراتب ، فقد يكون الذنب صغيرا للعالمى وكبيرا على الصديق؛ فقد عوب النبي صلى الله عليه وسلم على خطرات النفس ، وقد يكون الذنب كبيرا باعتبار وصغيرا باعتبار آخر . وما اتفق عليه السبع الواردة في الحديث « الإشرار والقتل وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والربا والفرار من الزحف والعقوق » . وعن ابن عباس : الكبار إلى سبعائة أقرب منها إلى سبع ، وقول ابن عباس يشير إلى ما قلناه من اختلاف الذنب باختلاف المراتب ، فالعلماء والحكماء والصديقون تكون كبارهم كثيرة بحيث لو ضيع أحدهم وقنا بلا نشر للفضيلة عد آثما .

واعلم أن الناس أشبه بفصائل الحيوان ، ولكل فصيلة عمل يخصها ؛ فتجد العامة أشبه بالبيغاء يقول ولا يحقل وصلاتهم كلام لا توجه معه ، والفضلاء إذا سهوا في جزء من الصلاة كان ذلك ذنبا عظيما واعتبروه إعراسا عن خالقهم (وندخلكم مدخلا كريما) الجنة؛ ومن الأثام الدائمة الحسد ، وهو شافع بين العلماء والجهلاء ، وهو يشتد كلما تقاربت المراكز والأحوال فالأقارب والمشترون في صناعة أو تجارة أو قرية أو حارة أو علم . وبالجملة من تقاربوا في أكثر الأحوال أو بعضها يتحاسدون بمقدار هذا الاشتراك ، فلذلك قال (ولا تمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض) كالجهاد والمال والجمال والتمكن في الأرض والصيت وأمثالها تمنا يفضى بكم

إلى البحث في زوال النعم عن النعم عليه بإتلاف ماله والسعاية والوشاية والقتل وأمثال ذلك ، فإن هذه العريضة مخلوقة فيكم للبحث على طلب الكمال لأنفسكم لاهدتم ما بناه غيركم من المجد ؛ فالمسابقة للكمال فضيلة ، أما السعى في هدم ما بناه الغير فإنه حرام ، وكيف تسمى في زوال مجد يرجع إليك ، فإن الناس بعضهم لبعض خادم ، وزوال النعم عن الناس مفض إلى نقصها من المجموع ، وكيف تفعلون ذلك (وللرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) فلكل مواهب فطرية أو حظوظ اتفاقية ، والله هو الذي وهبهم فأرجعوا عن غيركم (واسألوا الله من فضله) أن يعطيكم وهذه هي العبطة ؛ فالعبطة أن تمتنى مثل ما عند الغير وتسعى له بالعمل لا بالتمنى والكسل . وإياك أن تقول أبها الإنسان : لم كان هذا أميراً أو وزيراً أو عالماً أو غنياً وأنا محروم من ذلك ؟ ولم كان فلان وارثاً وأنا محروم من الميراث ؟ أو تقول للمرأة : لم أخذ الرجل أكثر مني ؟ فلما كم أيها الوارثون والحسد ، وإياكم أيها الناس والتمنادى في الاعتراض على ما أعطيت للناس من مواهب مالية ونعم عليية ومناصب أميرية فإني علم بالعباد بصير بالمخلوقات وجعلت لكل امرئ خاصة يمتاز بها لإصلاح المجموع ، ورببتكم مراتب إلا أنكم أيها الناس بحكم ، فمنكم من يمثل العين ومنكم من يمثل الدماغ ومنكم من يمثل اليد ومنكم من يمثل المعدة ، ولا يعيش المجموع إلا بتوزيع الوظائف الإنسانية عليكم ، فمن ذا يعرف هذا الجمال ويعترض عليه ؟ ومن ذا يقرأ هذا الحسن ولا يقره ؟ إني نظمتكم على نظام أنا أعلم به (إن الله كان بكل شيء عليماً) فلي هذا العلم العام ربنا ملكنا وأزلنا شرائنا وخصصنا لكل وارث مقدارا من المال يصيبه من مال مورثه ، فلا يحسد بضعكم بعضاً على هذا التباين في الأنصاء ، فإنكم تجهلون حسن نظامي وإنما يعرفه الحكماء فيكم لا غير ؛ فتباديكم في الحسد عذاب عظيم عليكم ، فإننا قد جعلنا لكل من الرجال والنساء اللتين وارثين من إخوتهم وبنى عمهم وسائر عصباتهم يرثون مما ترك والدوم وأقرباؤهم وبيننا لكل نصيبه ، فهذا معنى (ولكل) من الرجال والنساء (جعلنا موالى) وورثة من بنى عم أو إخوة أو غيرهم يرثون (مما ترك الوالدان والأقربون) أى من ميراثهم .

ولما كان التحالفون بينهم عهد وميثاق أن يفوا بما عاهدوا عليه ، وكان الحلف في الجاهلية على النصرة عند الأمور العظيمة من الحقوق الواجبة على الإنسان فهي تشبه الميراث من جهة الاستحقاق ، فالتقريب والصهر يرثان الأموال ، والحليف الذي أخذ العهد والميثاق علينا يجب علينا نصرة في أيام حياتنا ولورثتنا للمال في الممات ؛ فلذلك أعقب ما تقدم بقوله (والذين عقدت) أو عاهدت (أيمانكم) في الجاهلية أن تصروهم (فأتوهم نصيبهم) أعطوهم حظهم من النصرة التي عاهدتموهم عليها فأنه مطلع على عقدكم (إن الله كان على كل شيء شهيداً) ومن ذا يقوى أن يخون فيما شهده الله .

ولما كان النساء بيننا وبينهن عقد وميثاق كالذي أعطيناه للحلفاء في الجاهلية وكالذي فرضه الله في القرآن للوارثين ، وقد فرض الله الوفاء فيهما علينا أخذ عز وجل يذكرنا بالسلطة المخولة لنا من جهة الفطرة عليهن وذلك أننا أقوىاء وهن ضعفاء ونحن أقرب إلى العلم والأدب منهن والخبرة في الأمور ، وهذه كلها أشبه بقدر كعقد الحلفاء ؛ فلحليف علينا النصر وللوارث نصيبه وللزوجة قسطها من العمل تحت إشرافنا ، فنحن قوامون عليهن بالسلطة والتأديب بفضلنا عليهن في العقل وحسن التدبير وبما أفتقنا من المهر لهن . والنساء على قسمين : صالحات مطيعات لله قائمات بحقوق الأزواج ، وعاصيات ناشرات لا يظعن أزواجهن ، فالقسم الأول أمره معلوم . أما الفريق الثاني فابتدؤا بوعظه فإن لم ينبج الوعظ فاهجروهن في الضاجع ولا تبيتوا معهن ليتبن ، فإن لم يتبن فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، وإياكم ومخالفة هذا الترتيب فالوعظ يتلوه المهجر والمهجر يتلوه الضرب فمن أطاعت واعتدلت فانسوا ذنبها ولا تذكره ألبتة لأن الله فوقكم كما أنكم فوق النساء مقاماً وقدرة ، فإذا تبين من الذنب فلا تتعدوا بما لكم من القدرة عليهن فأنه أقدر عليكم من قدرتمكم

عليهن ، وإن ختم خلافا بينهما فابشوا رجلين يصلحان للحكومة أحدهما من أهله والآخر من أهلها وما أدري بأحوالهما ليوقفا بينهما ، فهذا قوله تعالى (الرجال قوامون على النساء) فهم كالولادة والنساء كالرعية (بما فضل الله بعضهم على بعض) بسبب تفضيله الرجال على النساء بما هو معلوم بما تقدم (وبما أشقوا من أموالهم) كالمهر والنفقة ، وهن قبان مطيعات وعاصيات (بالصالحات قانتات) مطيعات لله (حافظات للغيب) يحفظن في غيبة أزواجهن ما يجب أن يحفظ في النفس والمال (بما حفظ الله) أى بسبب حفظ الله لمن حيث حشون ورجبهن بالوعد وأنذرهن وخوفهن بالتهديد ووقفهن لحفظ أسرار الزوج وللغصة ومراعاة ما يجب عليهن مراعاته في غيبته من أعراضهن وأموال الأزواج ، فنه عليه الصلاة والسلام : « خير النساء امرأة إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك في مالها ونفسها ، وتلا الآية » . فأما القسم الثاني وهن العاصيات ، فقال فيهن (واللاتي تخافون نشوزهن) عصيانهن وترفضهن عن مطاوعة الأزواج (فمظوهن واهجروهن في المضاجع) للراقد (واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) بالتوبيخ والإيذاء فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له (إن الله كان عليا كبيرا) وهذه المعاني قد قدمناها هنا ، وقوله (وإن ختم شقاق بينهما) أى خلافا بين المرأة وزوجها وإضافة الشقاق إلى اليمين على حد قولهم : نهاره صائم وليه قائم ، والحكم الوسط الذي يصلح للحكومة والإصلاح ، وكون الحكمين من أهله وأهلها أفضل ولا يمنع أن يكون من الأجانب ، وإرسال الحكمين من قبل الحكام أو من قبل الزوجين أو من قبل صالحى الأمة ، وللحكمين أن يجريا الحلح بلا إذن من الزوجين إن رأيا الإصلاح فيه عند مالك ، وعند غيره لا يلبان جمعا ولا تفرقا إلا بإذن الزوجين .

واعلم أن لإرادة الحكمين دخلا في تحقيق الصلح كما قال (إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما) إن يرد الحكمان إصلاحا يوفق الله بين الزوجين أو بين الحكمين في إتمام الصلح . ويسن للحاكم أن يبيت عدلين ويعملهما حكمين عند الشافى . وعن علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنه جاءه رجل وامرأة ومع كل واحد منهما فئام من الناس فقال فعلام شأن هذين؟ قالوا وقع بينهما شقاق ، قال على « فابشوا حكما من أهله وحكما من أهلها » ثم قال للحكمين أتدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تجمعا جمعتهما وإن رأيتما أن تفرقا فرقتما الخ .

فاجب للمسلمين في مصر والشام وكثير من بلاد الإسلام كيف غفلوا عن بيت الحكمين وكيف نام القضاة وعلماء الدين عن هذه الآية ، اللهم إن المسلمين قد غفلوا عن كتابك ، يا الله إن القضاة في ديارنا نائمون يتركون الزوجين أشهراً وبرهقونهما بالدعاوى والبيئات والشهود ولسلطون المهامين الذين يستترقون ثروتهم ، يا الله قد قام المهامى المؤجر مقام الحكمين إن هذا مخالف للذين وكيف ينبذ أمر الحكمين عندنا أهل السنة وقد بلغنى أن الشيعة يعملون بهذه الآية ، فأما أهل السنة فقد تركوها وهي واضحة ظاهرة اللهم إن بعض أمة الإسلام قد نبذوا العمل بهذه الآية إتعايا للناس واستترافا لثروتهم وضياعا للصيبة الصغار والنساء الفقيرات المسكينات والقضاة غافلون وأهل العلم غير مستيقظين والناس قد تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأصبح كل على كل متكللا فلترجع الأحكام الشرعية لسابق عهدا ولنبتذ ذلك النوم العميق والجهل المطبق وليجدد العلماء مجد الدين وليحفظوا بلادهم التى أماعها الجهل فأرسل الله الفرنجة عليها جزاء وفاقا كأن الناس كانوا لا يرجون حسابا وكذبوا بآيات الله كذابا . هذا ، ويظهر من كلام سيدنا على أن الحكمين يقومان مقام الزوجين في كل شئ انتهى التفسير . وههنا لطيفتان :

[اللطيفة الأولى] قوله - ويريد الدين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما - وقد ذكر قبلها أنه يريد أن يتوب علينا وذكر بعدها أنه يريد أن يخفف عنا وأن الإنسان ضعيف .

[اللطيفة الثانية] قوله - ولا تتلوا أنفسكم - قد ذكرها بعد أمر مباح وهو التجارة ، وذكر بعدها أنه رحيم بنا .

وهاتان اللطيفتان ترميان لفرض واحد سنشرحه شرحا وافيا في هذا المقام ولنبدي بما روى عن ابن عباس ثم تتبعه بما فتح الله به . عن ابن عباس رضي الله عنهما: ثمان آيات في سورة النساء هن خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت: منها ثلاث من قوله « يريد الله ليعين لكم ويهديكم إلى قوله وخلق الإنسان ضعيفا » والحس الباقية هي « - إن تحببوا كباثر ماتنون عنه - و - إن الله لا يفر أن يشرك به - و - إن الله لا يظلم مثقال ذرة - من يعمل سوءا يجز به - ما يفعل الله بجنابكم » الآية ، فتدبره .

اعلم أني لما قرأت كلام ابن عباس لمع من بين تلك الآيات أنوار مشرقة فإن الآيات الثلاث هي التي ذكرت بك بها فإن إرادة الله البيان لنا أولا والتوبة ثانيا وأن الدين يتبعون الشهوات يريدون أن تميل ميلا عظيما ترىنا أن الإسلام اليوم سيخلص من القيود التي قيد بها فمن هم الذين يتبعون الشهوات .

أهل أوروبا في الغرب ورجال الإسلام في الشرق وكيف استدلواهم بالشهوات

اعلم أن الذين يتبعون الشهوات فريقان فريق داخل بلاد الإسلام وفريق خارج بلاد الإسلام ؛ فالفريق الذي هو داخل بلاد الإسلام هم الزناة والقمارون وشاربو الخمر والمرتشون من رجال الحكومات الإسلامية والذين يوالون الفرنجة فيجعلونهم سببا لانتهاك البلاد الإسلامية واستعباد أهلها وإذلالهم فهذا الفريق هم الذين يتبعون الشهوات داخل بلاد الإسلام ، أما الذين يتبعون الشهوات خارج بلاد الإسلام فهم أهل أوروبا أفلست ترى أنهم قد ملكوا بلاد الإسلام بشهوة الغزو والفتح والاستعمار واستعباد الأمم واستذلالها فهؤلاء شهواتهم للاستعلاء واستزاف الثروة ، فأما أهل البلاد الإسلامية فشهواتهم ما يلبسون ويأكلون ويشربون ويستمتعون بالنساء الشرقيات والغربيات ويميزون عن أبناء الشرق بمصاحبة الفرنجة ويتكبرون عليهم ، وأنا موقن بأن الله يهدي السليين جميعا ويتقدم كما سأوضحه في هذا المقام .

أسرار النبوة في مسألة المسيح الدجال والأحاديث الصحيحة الواردة فيه

وظهور صدق النبوة وتبشيري للسليين بإقبال الزمان وانقشاع الظلم عنهم قريبا وهذا أوانه روى الشيخان وأبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن مع الدجال إذا خرج ماء ونارا ، فأما الذي يرى الناس أنه نار فإياه عذب ، وأما الذي يرى الناس أنه ماء فنار تحرق ، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يرى أنه نار فإنه ماء بارد عذب » . وفي حديث آخر عن أبي سعيد الخدري « ومعه مثل الجنة والنار فتاره جنة وماؤه نار ، ألا وبين يديه رجلان يندران أهل القرى فإذا خرجا من القرية دخل أول أصحاب الدجال » أخرجه رزين . فهذا الحديث الذي أخرجه رزين وإن لم يكن في البخاري ولا في مسلم هو الذي أوضح لنا المقام وأفهمنا ما نحن فيه الآن فإنه يقال إن معه مثل الجنة والنار وهذا هو المقول فإن الجنة والنار اللتين في الآخرة لا يكونان إلا بعد الموت وإذن هنا مثل الجنة والنار ولا شك أن الذي هو مثل الجنة والنار ما نزله الآن ، فإن الجنة الأخرى ما وضعناه لك في هذا المقام وفي غيره فبالتجارة أخذ الإنجليز الهند وكذلك الفرنسيون قبلهم وهكذا بلاد جاوه والجزائر حولها استعمرها الهولنديون واتخذ أهل أسبانيا وفرنسا على بلاد مراکش فإن الأسبانيين بعد أن طردوا السليين من بلاد الأندلس عبروا البحر وراءهم ليطردوهم أيضا من شمال أفريقيا ليموتوا في الصحراء الكبرى ولو قدر الإنجليز على أهل بلادى لرموا بهم في غابات السودان وجردهم مما يملكون ودفنهم في البحيرات عند خط الاستواء ولكن الله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

إيضاح جنة الإفرنج و نارهم واحتلال البلاد

لقد عرفت جنة الإفرنج وهي التجارة ، أما النار فهي للدافع والطيارات والنار التي يلقونها على المسلمين في الهند والعراق وشمال إفريقيا؛ فيطالبا تعذب طرابلس وأسبانيا وفرنسا ترسلان القنابل على أهل مراكن هذه هي النار . واعلم أن الحديث الذي أخرجه رزين هو الذي كفانا مثنوة القول بالمجاز، أما وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ذلك فلا قول لنا ولو لم يأت لتكلفت المجاز في حديث الشيخين .

سر النبوة الذي ظهر

ألا تعجب معي أيها الذكي ألا تنظر إلى نور النبوة ألا تفكر فيما تقول؟ فقل لي رعاك الله أأست ترى قوله في الحديث « إن هناك رجلين بين يديه ينذران أهل القرى فإذا خرجا من القرية دخلها أول أصحاب المسيح الدجال » . فيأليت شعري من هم أصحاب هذا الدجال ومن هم أول أصحابه وأين هم ؟ أصحاب الدجال هم القرنجة ولكننا لا نراه وإنما نرى أصحابه فسواء جاء هو أو لم يجره فالمقصود منه قد حصل وهو إنذار أهل القرى نارة وإضلالهم بالشهوات ودخول أصحابه البلاد وقد تم كل هذا فضحكوا علينا بنسائهم وشهواتهم وأخذونا بالتخويف ، كل هذا قد تم ، وربما كان الدجال حقيقة كلية تطلق على النصابين والسكذابين واللصوص فكل هؤلاء دجالون صفار ولكن أكبر الدجالين هم الذين يسرقون الدول ويقلبون الأمم فهم يذكرون في مقابلة الأنبياء ولذلك يذكر المسيح مع الدجال ، فالمسيح ابن مريم للهداية ونظيره الدجال للاضلال ، أمرنا بالاستعاذة منه قلنا في صلاتنا « وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال » وما نحن أولاء وقمنا في فتنة أصحابه الذين ابتدوا ببلاد الأندلس وماقتل أهل الأندلس إلا أنفسهم بانتماسهم في تجارتهم وإضلالهم وأحوالهم واتبعناهم نحن في بلاد الشرق ، ولقد رأيت في الحديث أننا أمرنا أن ندخل في ناره وتجنب جنته ولقد صدق النبي صلى الله عليه وسلم ، فكل من اغتر بأهل أوروبا وجنتهم أصبحوا عبيدا لهم كما أوضحته وكما قاله هنري الفرنسي فيما نقلته عنه في سورة البقرة في تفسير آية الحجر وأن من اتبعهم فقد ذل ذلا عظيما يريد بذلك أهل الجزائر . وأول من قبل ذلك من المسلمين أهل الأندلس كما ذكرناه في هذا التفسير مرارا فإنهم لما شربوا خمرهم ولبسوا منسوجاتهم ودخلوا مدارسهم وقرأوا سير آبائهم وصاروا تلاميذ لأساتذتهم وتعاملوا بالربا من مصارفهم وأصبحوا مترفين منميين واتمسوا في ملاذمهم وأكلوا في مطاعمهم واستقنروا بيوت آبائهم كانت ذلك مبدأ ضغفهم فأذلوهم أجمعين وقتلوا أكتعين أجمعين ورموا من بق منهم خارج البلاد وساموم سوء العذاب بما كانوا يجهلون . ذلك منذ أربعمائة سنة . ثم توالى فتح القرنجة للبلاد حتى ملكوا بلاد مصر والشام والعراق والهند وتخطوا إلى الصين ولم ينالوا كل مقصدهم هناك ، كل ذلك أيها الذكي سر قوله تعالى - ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما -

إيضاح شهوات الاستعماريين في أوروبا وشهوات الأمم الشرقية عموما والإسلام خصوصا

اعلم أن هذه الشهوات المذكورة في هذه الآية قد وضحت في هذه الآيات إذ أعقبها بذكر التجارة وإباحتها وبالتهى عن قتل النفس .

فيأعجب كل العجب ها أناذا أقرأ القرآن وأنا أكتب هذا التفسير هذه الليلة الثامنة من شهر رجب قيل الفجر سنة ١٣٤٢ هجرية لا أذكر أن آية ذكر فيها أمر حلال وأعقب بالتهى عن قتل النفس إن التجارة حلال وأخذ المال بالباطل حرام . تحرم السرقة والربا والرشوة . هذا حق ولكن التجارة حلال لأنها عن تراض ، ومتى رضى للتبايعان صار للبيع حلالا للشترى وصار الثمن حلالا للبائع . وليت شعري أي قتل للنفس هنا حتى ينهانا الله عنه إن في المسألة لسرا ، عجيبا ، إن في المسألة سرا قد كشفه الزمان النار والدهر الحاضر والحرب

العظمى بين دول الشرق والغرب، إن التجارة هي السر وهي الحياة وهي القتل، والتجارة كانت سبب حروب أوروبا الطاحنة في هذين القرنين إن التجارة هي كل شيء. يقول الله: أيها الناس إن الأموال إذا أخذتموها بالبراضى فإنها حلال ولكن ما الذي يقتل الناس أكثر من الحلال، إن الحلال فيه السم، إن السم في السم، وما التجارة إلا الكذاب ويقول فيه الشاعر:

من كان يخلق ما يقو ل خيلق فيه قليلة

وأن التجارة كالصديق قال الشاعر:

احذر عدوك مرة واحذر صديقك ألف مرة

فلربما اتقلب الصديق فكان أعرف بالمضرة

أيها الذكي لاتعجب من قولي: إن التجارة هي التي سلطها أهل الغرب على أهل الشرق فأفسدوا أخلاق أهل البلاد، إن التجارة هي الداء العضال هي شبكة الصائدين وحيلة المحتالين ونصب الدجالين ونظام المستعمرين. التجارة هي مثل جنة المسيخ الدجال الذي حل أشباهه وأصحابه بالشرق من أوروبا اعلم أن القرآن تظهر معانيه في هذا الزمان وقد أراد الله أن يظهر السر للكون والعلم المخزون والحكمة الإسلامية في هذا الزمان لماذا؟ لأنها قد كشفت واتضحت بالحوادث.

انظر في بلادنا المصرية وفي بلاد مراكش وتونس وبلاد طرابلس والعراق وأكثر بلاد الإسلام، انظر أليست ترى أن المسلمين لاسيا للتعليم والأغنياء لا يهتأ لهم طعام ولا شراب ولا جلوس ولا نوم ولا راحة ولا ملابس ولا تمتع إلا في مطاعم الفرنجة وبغمرورهم وفي قهواتهم وفي زلم وهي اللوكندات ومن منسوجاتهم وينسائهم على طريق الزنا. ولو رأيت ما أراه اليوم لهالك الأمر واستهوتك أحزان. يجيء اليوناني خالي الوفاض بادي الإغراض فقيرا لا يملك شروى غير صلوكا فلا يمضى عليه عشر سنوات حتى يملك الديار والعقار والقصور والجنات بماذا كل هذا بكاسات من الحجر المشوش الملوه مما زعافا ليسقيه لأهل بلادى فيقتلهم ويأخذ ملهم، والله لقد كتبت في الجرائد ونشرت وكذلك كثير من أهل العلم وعسى الله أن يأتي بالفتح ورفح هذه الظلمات.

بشارة المسلمين بقرب انقشاع الظلمات عن بلاد الشرق والإسلام

يقول الله - ويريد الدين يتبعون الشهوات أن تملوا ميلا عظيما - ويذكر قبلها أنه يريد أن يبين لنا ويقول بعدها - يريد الله أن يخفف عنكم - ويذكر أن الناس خلقوا ضعافا. فإذا كان الله أراد البيان وأراد أن يتوب علينا فهاتان الإرادتان تمحان إرادة الدين يتبعون الشهوات فينلون المسلمين. وأول من تعطن لتلك رجال الأفضان والترك والعجم وبلادنا المصرية التي جردوها من السلاح فقد أخذت تناضل بالأقلام والقبول، وقد نلنا بعض الحقوق وأخذنا ندخل في نارهم عسى أن نستقل، وقد قبلنا مدافعهم في وجوهنا ورماس بنادقهم قتلوا النساء والأطفال وصبر المصريون صبر الكرام والوقت قد حان لخروجنا من معرثهم وهلمى ذه بلاد الترك قد حرمت الحجر وهكذا في بلادنا نجد الحكومة في منع السكرات والمستقبل لله.

إيضاح آية التجارة والقتل

كان الله يقول: أيها الناس إن التجارة حلال لكم، ولقد تركت لكم الخيار فيها، ولقد خلقتكم برحمي وقربت أبدانكم ورزقتكم وجهلت لكم الحرية فيما تبيعون وتشترون، أفلا تفكرون أيها المسلمون فتملون أي أنا الذي رحمتكم فكيف لاترحمون أنفسكم بالتفكر في أمر التجارة فلا تنفسون في نعيم الأمم الظالمة التي تحذر أعصابكم بالشهوات واستنزاف الأموال فارحموا أنفسكم بالتفكير في ذلك كما رحمتكم برحمي الواسعة.

جمال هذا المقام

لقد أبت لك أن الأفنان والترك والقرس قد تنهوا وفكروا وخرجوا من ظلم الفرنجة وكذلك مصر اقرب الوعد لخروجها . هذه هداية ونور أزال الظلمات وسيزيلها بالتدرج وقد جاء في الحديث أن الدجال أنذر به الأنبياء أمهم كنوح وإبراهيم وغيرهم قال « ما بعث الله من نبي إلا أنذر أمته أنذره نوح عليه السلام أمته والنبون بعده وإنه يخرج عليكم فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفي عليكم الخ » . أقول ولعل الأنبياء كانوا يحذرون أمهم به لكلا يستأصلهم من يشقونهم من الأمم ، الأمة المحمدية ألهمها الله الاستيقاظ الآن وستبقى إلى آخر الزمان ولن تبيد هذه الأمة إلا إذا عاشت غافلة عن أخلاق الأمم التي حولها كما كانت في القرن التاسع عشر ؛ فأما الآن فقد ظهرت عليها دلائل التعقل والهدى . فيكون ملخص ماتقدم أن النبوة لما أشرق نورها على الأنبياء ضربوا الأمثال لأمتهم كما اتفق أن نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء قد رأى في عالم المثال أنواعا من الصور كصور الزناة والمتعابين والذين يقولون قولاً زوراً وآكلى الربا وجبريل يصر له تلك الصور وهي أمور مجيبة سنشرحها في سورة الإسراء فهكذا هنا أنذر المسلمين وحذرهم ممن يسمى المسيح الدجال وعدده له صفات ولكن نحن لم نره ورأينا أهم آثاره ، ولعمرك ما الذى يهم المسلمين من أمتنا إلا الآثار التي تمس مصالحهم ، فأما جسمه وأحواله فنحن لسنا نتكلم مع العامة الجهلاء الذين يجمدون على الألفاظ ، وإنما نحن ألهمنا أن نكلم الناس بحقائق ديننا والحقائق هنا وضحت ؛ فالمسيح ابن مريم والمسيح الدجال لسنا نزيد إلا آثارها وهكذا المهدي ، فإذا وجدنا الآثار انتفعنا بها . وأنا أقول بأعلى صوتي أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها كيف قرأ في صلاتنا صباحاً ومساءً داعين مبتهلين إلى الله أن يدفع عنا المسيح الدجال وكان نبينا والصحابة والتابعون كذلك ، هل كان كل هذا الدعاء عبثاً وباطلاً يقصد به رجل واحد لا يحققه الله إلا بعد آلاف السنين، وإذن يكون الدعاء ملغى لا يعمل له ، والحقبة أن المعنى للتعبد حاصل لاشك فيه ظاهر في قوله ولا تقتلوا أنفسكم عند ذكر التعامل بالتجارة، وقد أوضحت هذا المقام لكم أيها المسلمون إيضاحاً كافياً ، فكل من ينل منكم يا أحبائي قراء هذا الكتاب جهده ونشر العلم وأزاح الظلمات وسعى سعياً حثيثاً في نيل المصنوعات الإفرنجية والترفيه والنعم وحث الأمة على الصناعات وفتح المدارس ومجال الصناعات فهو من الذين يسعون في الهداية أو هو من مقدمات المهدي أو فيه نور المسيح المحمدي، أعني أن المسيح الموعود به والمهدي الموعود به لا يجوز لنا أن نتكاسل لا نتظاره وإلا كان هذا بلاهة وجهالة ليس يقصد من المسيح أن تنام حتى يأتي بل عهد زمانه ولو كانت أشخاص الأنبياء هي المقصودة لكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد بطل دينه بموته مع أن نشره للدين نشره حقيقياً لم يتجاوز عشر سنين وما هي السنين العشر إنها قليل بالنسبة للزمن الكثير بعده ولكن شريعته هي السارية الآن أما شخصه فغيب عنا .

إذا ثبت هذا فليس يقصد من مجيء المسيح إلا الآثار النافعة في وجوده وبعده . إن تعاليم المسيح الصفاء والطهارة والإخلاص والتعاون والتوحيد والمحبة وحسن الخلق وتحمل الأذى ويقرب من هذا المهدي ، فلتجمل بهذه الصفات الآن تدرجاً ولا تترصب حتى مجيء فلا يكون لنا فضل .

فأنت أيها الذكي قد عرفت الفكرة الأوربية المنتشرة بيننا وقد أثبت لك أن أعمال أوروبا هي أعمال المسيح الدجال وقد ابتدأت الهداية في الإسلام والشرق ، فكل من حذر من أوروبا وقلل من مصنوعاتهم كما في الهند وطردهم كما في تركيا واستخدم صناعاتهم وعلماءهم ليعلموا أبناء البلاد مثل الرحوم محمد علي باشا فهؤلاء قوم هداة كأنهم أصحاب المهدي أو أصحاب عيسى عليه السلام . ولقد ظهرت الفكرة العيسوية اليوم في العالم فترى العمال في أكثر الممالك قد نبغوا وظهروا وطلبوا المساواة وهي كلها أفكار المسيح الأصلي الذي

هو شرقي لاغربي . فليم التعليم في بلاد الإسلام وليحترسوا من التجارات الإفريقية وسائر أعمالهم ولا يأخذوا منها إلا ما لا يكون عندهم وينشئوا عندهم مصانع ومحال صناعات كما فعل غاندى في الهند .
 فلما كم أيها المسلمون والاتكال على الهدي التتظر ولا للسيح بل اعملوا فسرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، فالهداية قد ابتدأت والسيح يأتي في وقت لانرفه ، وكل من رقى للسليين أو شعهم فهو من أعوان الهدي والسيح الإسلامي المذكور في الأحاديث ؛ كما أن رجال السوء في بلاد المغرب في شمال أفريقيا وفي البلاد الإسلامية الأخرى ومن يمتالون على السليين ويضحكون عليهم من الفرنجة من أصحاب السيخ الدجال كما قدمناه فكن من أصحاب السيح الإسلامي أو الهدي ؛ كما أن الأمم المستعمرة أصحاب السيخ الدجال فلنقابل الأصحاب بالأصحاب ولا تنتظر الدجال والسيح فإن أعمالهما ظاهرة ، فكل أمة لم تنخر بالفرنجة فقد حلت فيها الروح الشريفة للسيحية الإسلامية ، وكل أمة اتعمست في نعيم تجارتهم واستنزفت ثروتها فقد آمنت بأصحاب السيخ الدجال تذكر ما جاء في أول السورة من قوله تعالى - ولا تؤثروا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما - وكيف حذرنا من وضعها في يد صفارنا لئلا يضيعوا ما به قيامنا . ثم لينظر الذكي كيف ذكر ذلك أول السورة ، ونبه هنا على مسألة التجارة وأن القتل للأمة منها فتعجب ؛ انتهى الكلام على المقصد الرابع .

المقصد الخامس

وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ
 وَابْنِ الْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
 إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فُخُورًا * الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ
 مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ
 النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا *
 وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آتَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا *
 إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا * فَكَيْفَ
 إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا * يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ
 تَغْتَسِلُوا ، وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ
 فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا *
 أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يَشْتُرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ *

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا * مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ
 عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَنصُرُكُمْ وَنُصِرْنَا وَغَيْرُ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِالسِّنِينَ وَمَطْفِنًا فِي الدِّينِ
 وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَنصُرُكُمْ وَأَنصُرْنَا لَمَا نَكَرْنَاكُمْ اللَّهُ لَعَنَهُمْ اللَّهُ
 بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدَقًا لِمَا
 مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَصْحَابَ السَّبْتِ
 وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْفِرُ أَنْ يُشْرِكَ بِهِ وَيَنْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ
 يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُكُّونَ أَنفُسَهُمْ ، بَلِ اللَّهُ يُرَكِّبُ
 مَنْ يَشَاءُ وَلَا يَظْلُمُونَ قَلِيلًا * أَنْظِرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِ إِثْمًا
 مُبِينًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجَنَّةِ وَالطَّاعُوتِ وَيَقُولُونَ
 لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْمَنِ
 اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا * أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذَا يُؤْتُونَ النَّاسَ تَقِيرًا * أَمْ يَحْسُدُونَ
 النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ
 مُلْكًا عَظِيمًا * فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَمِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ
 كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا
 الْعَذَابَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ، لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا *
 إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ، وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا
 بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيمًا بَصِيرًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا
 اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ
 إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزُمُّونَ
 أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا إِلَى الطَّاعُوتِ وَقَدْ
 أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ
 مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ
 الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَبَيِّنْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا *
 وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا
 اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ
 فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا * وَلَوْ أَنَا
 كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ
 فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا * وَإِذَا لَا تَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا *
 وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا * وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ
 وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا *

اعلم أن هذا القسم ثلاثة فصول .

[الفصل الأول] الفضائل العامة بمعاملة الخلق والقربى من الله من قوله - واعبدوا الله - إلى قوله - إن الله كان غفورا رحيمًا -

[الفصل الثاني] في القرى القابل لهؤلاء وهم البخلاء والحساد والعابدون للطاغوت من قوله « ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب - إلى قوله - وندخلهم ظلا ظليلا »

[الفصل الثالث] في عدل الحاكمين وتأدية الأمانة للحكوميين وإعطائهم حقوقهم وأمر الحكوميين أن يطيعوا حكامهم لينتظم أمر الرعية من قوله « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات - إلى قوله - وكفى بالله عليما »

الفصل الأول

اعلم أن ما تقدم من أول السورة إنما كان في قسم التركات ومعاملة النساء وزواجهن والمحرمات وفي الزناة والزانيات ونشوز النساء وفي الصلح ، وهذه مسائل أساسها في الأسرات وأصلها في النازل ، ولا جرم أن ذلك يحصر القسرك في الأمور الجزئية والأحوال المنزلية والأعمال الفردية العائلية . ولما كانت النفس الإنسانية مدينة بالطبع لها صلة بالجموع كصلتها بأهل منزلها أودفها بذكر العبادات والاحسان العام للقريب والبعيد فيبدأ بالوالدين والأقربين ثم يتأدى إلى أكثر الناس احتياجا كاليتامى ثم الساكنين وكل جار قريبا كان أو بعيدا وكل رفيق لك في تجارة أو صناعة أو علم وكل مسافر أو ضعيف وكل مملوك من العبيد والإماء ، فإن الله عز وجل يكره من يتكبر على جيرانه أو يأثف من أهله وأقاربه ويتفاخر عليهم . وهؤلاء المتخرون للتكبرون يخلون على الناس بما آتاهم الله من فضله ، فإن كان علما كتموه ، وإن كان مالا كنزوه ومن سوء طباعهم

وقبائح فعلهم أن ينهوا الناس عن الفضائل ليساؤوم في الرذائل لما في النفوس من الترائز ألا يجب الإنسان
 إلا من على شاكلته ولا يأنس إلا بمن يلائمه ويخاف أن يفوقه الناس بمزية أو يعلوا عليه في قضية، ذلك فعل
 اليهود مع النبي كتموا نعمته في التوراة وكنزوا الأموال ولم ينفقوها وخوفاً للنفقين من الفقر فلذلك أعد
 الله لهم عذاباً مهيناً، ومن سوء طباع هؤلاء التكبرين أرباب الفخر أن طائفة منهم لفتة إيمانها بالله وعدم الثقة
 باللهين لا تنفق المال إلا رياء ولا تعطى الفقراء إلا استحياء لا يريدون إلا الصيت ومدح المادحين ولا يريدون
 وجه رب العالمين، فلا وربك إثم ليسوا بمؤمنين وهم ومن تقدمهم في الأمم شركاء، فالبحيل مذموم عند الله
 وللرائى بعمله شريكه في الثم، فالأول لإفراطه في الشح والثاني لتفريطه في النية كلاهما عن الحق مصروف
 وبالباطل معروف، والطريق المستقيم والحق الصراح تمام الإيمان بالله واليوم الآخر والإنفاق من الرزق المملوك،
 فماذا عليهم لو استقاموا في الأمرين واتسموا بالفضلين: صدق القلوب، وعمل الجوارح إنهما في الفضل فرسا
 رهان صنوان لا يفرقان. أو لا يعلمون أن الله يعلم ما في القلوب وهو عدل في حكمه حكيم في فضله لا يظلم
 مثقال ذرة وهي النملة الصغيرة أو أقل منها كذرات الهباء الطائرات في الخواء الداخلي في الكوى من ضوء
 الشمس داخل البنيان وإن كان مثقال الذرة حسنة يضاعفها ويعط من عنده عطاء جزيلاً، فإذا كان الله أوعداً
 السيئين بالعذاب فقد فتح باب الرحمة والرجاء وأوسع الصراعين حلقة العاصين والطائمين وهو أرحم الراحمين
 فهو يزيد في الحسنات كما يفر السيئات، ومن كان هذا شأنه يجب أن يخشى بأسه ويتحاشى حسابه لأن الكريم
 إذا كثرت عطاؤه وعم نداؤه وغفر لسيئه وأعطى الشريف والدنيء خجل منه السيئون عند لقائه فليس كل
 عذاب جسمياً ولا كل نعيم شهوياً.

يقول الله: أفلا يخشون يوماً يمشرون الناس فيه إلى وقد دعونا من كل أمة شهيداً يشهد أن أتباعه نبذوا
 الحقائق وتركوا صدق الترائع وجاءت أمتك يا محمد مع الحاضرين وشهدت عليهم أجمعين، حينئذ يتعنى عصاة
 أمتك والكافرون بك أن يدفنوا في الأرض ويقولون ليتنا لم نخلق وباليات أمهانا لم تلدنا لما يرون من مقام
 رهيب ومشهد عجيب وعظمة وكآل وجمال وجلال، واللانكته حول العرش حافون وقد تجلى الله بجماله وظهر
 لهم بكماله فيخجلون خجلاً تدوب له القلوب وتكون النار أقل منه عذاباً ذلك كله معروف في الفطر الإنسانية
 تدركه النفوس الفطنة والعقول الذكية، ذلك هو الحزى الذي تقدم في سورة آل عمران إذ قال تعالى هناك -
 ولا نخزنا يوم القيامة - وفي آية أخرى - ولعذاب الآخرة أشد من ذلك وهم لا ينصرون - وقد قال حكماء الإسلام
 كما في الرازي: إن عذاب النفوس أشد من عذاب الأجسام، ولقد ظهر في هذا المقام والفطر الإنسانية تدركه
 ومن كلامهم: النار ولا العار. ولقد شرحت هناك شرحاً وافياً كافياً. والذي تحقق في هذا المقام وأمثاله أن
 الحجل والفضيحة لا تختص بالذنوب الجسمية بل تشمل الصور العقلية فالكفر هنا من أعظم الجهالات
 والبخل من أشأم الذنوب ومتى ضمنا إليه ما في سورة آل عمران من التفكير في الخلق والتأمل في عجائب
 الليل والنهار إلى آخر ما هناك وأن جهل ذلك مستوجب العار ظهر لنا ظهوراً واضحاً أن البخل والفضيحة
 حاصلان لجميع النفوس الناقصة والقلوب الساهية اللاهية، فالعامة يخجلون لذنوبهم والخاصة يخجلون لنقص
 نفوسهم وعدم تحليتها بالمعلم والعرفان.

ياقوم ليس يلقى الله إلا نفس مضيئة قد خلت من الذنوب وتعلمت بالعلوم الكونية وما الأنبياء إلا مبلغون،
 وعلى الناس البحث والتفكير فليعرفوا ما حولهم لئلا يخجلوا في ذلك المقام الشريف والشهد النبى فليعط الله
 الناس من النعم الجسمي ما يشاءون وليغفر لهم كما جاء في هذه الآية وفي الأحاديث وليخرج كثيراً منهم من
 النار مع إعطائهم نعماً لا تحصى، كل ذلك يزيد في خجل النفوس الشريفة إذ يرون أنهم ليسوا أهلاً لتقدي
 الصدق والمقام الأقدس عند مليك مقتدر فإن ذلك لا يكون إلا لكل حكيم عليم.

فذلك اللقاه الذي يظهر فيه الجمال والجلال والحسن والبهاء والأنوار ومجالى السعادة بخرس الألسنة أن تنطق ولا يجد الذنب مفرأ من الإقرار بذنوبه والاعتراف بعبوبه ولا يكتم المذنبون الله حديثا ولما كان هذا اللقاه شريفاً عزيزاً ولا ينال إلا بأن يخلص القلب فيصير كالشمس المضيئة ليس دونها سحاب الذنوب ولا غشاوات العيوب، أردف ما تقدم بما يقرب الإنسان من الحضرة العلية ومخلصه من ذنوبه ويرجعه عن عيوبه وذلك باقامة الصلاة لأنها أولاً تنهى عن الفحشاء التى تغطى القلوب بهسحاب الذنوب، وثانياً يتجلى على القلب حكم وأنوار وبهاء لا سبها إذا كان ذلك فى وقت السحر وقد خلا من الشواغل . فإذا ن لا ينبغى أن يكون للصلى سكران لأن السكران لا يعى ما يقول وما القصد من الصلاة إلا مناجاة تلك الحضرة وللران على مخاطبة ذلك اللقاه الأقدس وذلك اللران يستدعى التجليات والشاهدات ومن لم يحفظ فى الدنيا بهذه الشاهدات ولم تفر عينه فى الصلوات لم يحفظ . بما يريد من لقاء منبع الجمال ومبدا الكمال . وكما أن القلب فى الصلاة يجب أن يكون حاضرا لا ساهيا ولا سكران ليحصل القصد هكذا يجب أن يكون المرء على طهارة كاملة . فالقلب حاضر للتناجاة والجسم طاهر من الأقدار والحدث والجنابة وللظاهر فى الباطن آثار؛ فإياك أن تشغل قلبك وقت الصلاة فلا سكر ولا فكر إلا فى مناجاة الله لتشاهد ولو بعد حين الأنوار فذكر السكر رمزاً الى سائر الشواغل حتى يعلم الانسان ما يقول ، ولعمري أى فرق بين السكران ومستغرق الهم فى أعماله الدنيوية ، الحق أن الصلاة إما باطلة أو فى حكم الباطلة كما قدمناه فى سورة البقرة فلا مشاهدة لتلك الأجمال بعد الموت إلا بمقدمات الشاهدات اليوم . وإذا كان القلب فى الصلاة يجب أن يكون حاضراً والجسم يجب أن يكون طاهراً لتلا تصرفه فذارة الجسد أو شغل البال عن مناجاة الله فإنه يفتر للضرورة ما يعترى الناس من الأحوال التى تضطرم الى ترك استعمال الماء فى الطهارات كالجنب الذى قد الماء فى سفره فكيف يتنقل والمريض الذى عرف بقول الطبيب أن الماء يؤذيه ، فالسافر الذى لا يجد الماء لوضونه إذا تهنس أو لنفسه والمريض كلاهما يتيمم بضربتين ضربة للوجه وضربة لليدين لتبقى صورة الطاعة محفوظة وما ذلك إلا كما يتمرن الجند على الرماية والتلاميذ فى المدارس على أعمال الحساب وقراءة اللغات لترسخ الملكة فيهم فذلك فى العلوم وهنا فى الأعمال فتصبح أعمال الاغتسال سجية لهم متى جاء وقتها، هذا ملخص معنى الآيات فى الفصل الأول فلا أوضح بعض الألفاظ مع تفصيل ما ينبغى تفصيله فى هذا الفصل .

قوله (الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل) بدل من قوله من كان، قوله (ويكتمون ما آتاهم الله من فضله) التنى والعلم ، ويصح أن يقال الذين يخلون الخ مبتدأ وخبره محذوف تقديره فهم يستحقون اللوم والتعنيف ، وقوله (وأعدنا) هياتنا وأعدنا ، قد نزلت فى اليهود كانت طائفة منهم تخالط رجالا من الأنصار ينهونهم عن الإنفاق ويخوفونهم الفقر وهم أنفسهم لا ينفقون المال ويكتمون صفة النبي صلى الله عليه وسلم فى التوراة (والذين ينفقون أموالهم رياء الناس الخ) مفعول لأجله ؛ أى ينفقونه للفخار ، والذين يجوز أن يكون معطوفا على ما قبله أو يكون مبتدأ خبره محذوف ؛ أى يكون الشيطان لهم قرينا ، وقوله (ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا) إيذان بأن الشيطان هو الذى يفرهم وهم له مطيعون ؛ فالملبندون إخوان الشياطين والراءون إخوان الشياطين ، لأن الأفعال إما شرعية وإما مخالفة للشرع ، فالأولى اتباع للشرع والأخرى اتباع للشياطين (وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر الخ) أى وأى تبعه تحقيق بهم بسبب الإيمان والإنفاق (وكان الله بهم عليا) وعيد لهم وتخويف (إن الله لا يظلم مثقال ذرة - إلى قوله - ويؤت من لده أجر عظيم) تقدم فى المعنى تفسيره ، وقوله (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشييد) أى نبى (وجئنا بك يا محمد) على هؤلاء) أى أمتك (شييدا) كما فى آية « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شييدا » (يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا) أى يودون أن تسوى بهم الأرض وحالمهم أنهم لا يكتمون من الله حديثا ولا يكذبونه بقولهم « والله ربنا ما كنا

ما كنا مشركين) إذ روى أنهم إذا قالوا ذلك حتم الله على أقوامهم فتشهد عليهم جوارحهم فيشتد الأمر عليهم فيتمنون أن تسوى بهم الأرض ، وقوله (يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى الآية) أى لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى سكر نوم ، أى لا تقربوها عند غلبة النوم (حتى تعلموا ما تقولون) لما في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال « إذا نسي أحدكم وهو يصلى فليرقد حتى يذهب عنه النوم ، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر ربه فيسب نفسه » فأما ما روى أن عبد الرحمن بن عوف صنع طعاما لبعض الصحابة فأكلوا وسقام خمرا وأصم على بن أبي طالب قفرا - قل يا أيها الكافرون أعبدوا ما تعبدون - وكان ذلك في صلاة المغرب فنزلت هذه الآية ، فهذا الحديث حسن غريب ولم يرد في الصحيحين ، وإنما أخرجه الترمذى وأبو داود فسكارى يحتمل سكر النوم والسكر المعروف (ولاجنبا) عطف على « وأنتم سكارى » ، والجنب الذى أصابته الجنابة يستوى فيه الذكر والمؤنث والواحد والجمع فيجربى مجرى الصدر ، وقوله (بالعابرى سبيل) إما بمعنى للسافرين ، وإما بمعنى عابرى سبيل للمسجد فيكون على الأول هكذا لا تقربوا الصلاة جنبا في عامة الأحوال إلا في السفر فلم تجدوا ماء فتيممتم ، وعلى الثانى لا تقربوا مواضع الصلاة وهى المساجد جنبا إلا مجتازين فيها دخولا أو خروجا ، والأول مذهب أبى حنيفة وهو مروى عن على وابن عباس ، فعليه يمنع الجنب من العبور فى المسجد . والثانى قول ابن مسعود وأنس والزهرى والشافعى وأحمد ، فيجوز للجنب على هذا عبور المسجد ، وقوله (حتى تغتسلوا) غاية للنهي عن التبران حال الجنابة ، وقوله (وإن كنتم مرضى) أى مرضا يخاف معه من استعمال الماء ، فإن الواحد له كالفاقد ، أو مرضا يمنعكم من الوصول إليه (أو على سفر) لا تجددونه فيه (أو جاء أحد منكم من الفائط) فأحدث بخروج الخارج من أحد السيلين ، والفائط الظنن من الأرض وجمعه النيطان وكانت عادة العرب إتيان الفائط للحدث ، فسكوا به عن الحدث تسمية له باسم مكانه (أو لامستم النساء) أى جامعتم ، وهو قول على وابن عباس والحسن ، أو ماستم بشرتهن بيشرتكم بجمع أو بغيره .

(١) وهو قول ابن مسعود وابن عمر والشعبي والنخعي والشافعى ، فاللمس عنده ينقض الوضوء ومن لمس محرمة لا ينتقض وضوءه على أصح القولين عند الشافعى ، ولا ينتقض وضوء اللعوس على أحد القولين له بل اللامس فقط .

(٢) واشترط مالك والليث وأحمد أن يكون اللبس بشهوة حتى ينتقض به الوضوء وإن لم يكن بشهوة فلا .

(٣) وقال أبو حنيفة لا ينتقض الوضوء إلا أن يحصل الانتشار .

(٤) وقال ابن عباس لا ينتقض بحال وكذلك الحسن والثوري ، وابن عباس ومن عطف عليه محققون ؛ والشافعى مشدد ، ومالك وأبو حنيفة متوسطان بينهما ، ولكل من هؤلاء أحاديث رويها ولكل وجهة هو مولها .

وقوله (فلم تجدوا ماء) أى فلم تمسكوا من استعماله إذ للمنع عنه كالمفقود .

واعلم أن الرخص بالتيمم : إما محدث أو جنب ، والذى يقتضيه في الغالب مرض أو سفر . وكأنه قيل وإن كنتم جنبا مرضى أو على سفر أو محدثين جتم من الفائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء (فتيمموا صعيدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) أى فتمعدوا شيئا من وجه الأرض طاهرا ، فاضربوا ضربتين لضربة للوجه وضربة لليدين بحيث يضرب للتيمم كفيه على التراب ويمسح بهما وجهه ثم يضرب لضربة أخرى فيمسح يديه إلى المرققين ، وعند الحنفية لو ضرب التيمم يده على حجر سلب ومسح أجزاءه وكفى وكذا الرمل أو الجص والنورة والزرنيخ ، وينوى عند التيمم استباحة الصلاة بعد دخول الوقت ويصلى فرضا واحدا عند ابن عباس

وهي ومالك والشافعي وأحمد ، وذهب جماعة إلى أن التيمم كالوضوء فيقدم جوازا على الوقت ويضلى به فرائض كثيرة ما لم يحدث وهو قول سعيد بن المسيب والزهري والثوري ؛ فأما النوافل فقد اتفق الجميع على أن يصلح الكثير منها بتيمم واحد قبل الفرض وبعده وأن يقرأ القرآن وهو جنب ، وأبو حنيفة لا يشترط طلب الماء ، وعند الشافعي لا يقع اسم الصعيد إلا على تراب ذي غبار . ولما كان ما تقدم فيه تسهيفا قال تعالى (إن الله كان عفوا غفورا) فذلك رخص لكم ؛ انتهى الكلام على الفصل الأول من هذا القسم لفظاً ومعنى وحكماً ملخصاً .

الفصل الثاني

(ألم تر إلى) أخبار اليهود (الذين أتوا نصيباً) حظاً يسيراً (من الكتاب) من علم التوراة (يشترتون الضلالة) يختارونها على الهدى بإنكارهم نبوة محمد وأخذهم الرشا وأكلهم أموال الناس بالباطل (ويريدون أن تضلوا) أي المؤمنون (السبيل) سبيل الحق (والله أعلم) منكم (بأعدائكم) وقد أخبركم بعبادة هؤلاء فاحذروهم (وكفى بالله ولياً) يلي أمركم (وكفى بالله نصيراً) فهو ينصركم عليهم فتقوا بولايته ونصره ثم أخذ يذكر بعض فرق هؤلاء اليهود الذين يشترتون الضلالة فقال (من الذين هادوا) قوم (يعترفون الكلام) يميلونه (عن مواضعه) التي وضعه الله فيها بإزالته عنها وإثبات غيره فيها أو يؤولونه على ما يشتهون فيميلونه عما أنزل الله فيه (ويقولون سمعنا) قولك (وعصينا) أمرك (وسمع غير مسمع) أي مدعواً عليك بلا سمعت بأن تكون أصم أو ميتاً (وراعنا) انظر نكلمك (ليا بألسنتهم) فتلاها وصرفاً للكلام إلى ما يشبه السب إذ وضعوا راعنا المشابه لما يتساوبون به موضع انظرنا كما تقدم في سورة البقرة (وطعنا في الدين) استهزاء به وسخرية (ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم) أي لكان قولهم ذلك خيراً لهم وأعدل (ولكن لعنهم الله) طردهم وأبعدهم من الرحمة (بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً) المراد بالقلبة العدم . قال الشاعر :

قليل التشكي للههم يصيبه كثير الهوى شق النوى والسالك

ثم خاطبهم قائلاً (يا أيها الذين أتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نظلمس وجوها فتردها على أديارها) أي نحو تخطيط سورها ونجملها على هيئة أديارها يعني الأقفاء وأصل الظلمس إزالة الأعلام التماثلة وقد يراد بمعنى الظلمس إزالة الصورة ؛ وأحسن المعاني التي ذكرها للفسرون أن يكون مجازاً كأنه يقال يا أيها العلماء بالكتاب ومعكم دلائل توجب أن تصدقوا محمدًا آمنوا بما نزلنا عليه فإذا خالفتم كتابكم وظلمتم الحقائق وزعتم عن الجادة صار ذلك بتكراره عادة فيكم وسجية لا مفر منها لتكرارها وصار العلم على حسب الأهواء والدين تبعاً لللبس والغناء فتستعذب القلوب ما مرت عليه وتتفر من الحق تمورا وتذر العلم وتتبع الهوى فتعمى القلوب وتظلمس البصائر فإتها لا تسمى الأبصار ولكن تعمى القلوب ، ثم عطف على نظلمس وجوها قوله (أو نلغهم) أي أصحاب الوجوه على لسانك (كما لنا أصحاب السبت) على لسان داود وهم الذين صادوا السمك يوم السبت وقد نهوا عنه (وكان أمر الله) بإيقاع وعيده (مفعولاً) نافذاً (إن الله لا يضر أن يشرك به) فالشرك محله في النار (ويضر ما دون ذلك) ما دون الشرك صغيراً كان أو كبيراً (لمن يشاء) تفضلاً (ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) ارتكب ما تستحقر دونه الآثام (ألم تر إلى) أهل الكتاب (الذين يزكون أنفسهم) فيقولون نحن أبناء الله وأحباؤه (بل الله يزكي من يشاء) فتركته هي المعتد بها ، وقد ذمهم وزكى الرضخين من عباده المؤمنين ، وأصل التزكية : نقي ما يستبجح فعلاً أو قولاً (ولا يظلمون) بدم أو عقاب أي لا يفتنون (فتبلاً) أي الذي في شق النواة يضرب به الكتل في الحفارة (انظر كيف يفترتون على الله الكذب) إذ يزعمون أنهم أبناء الله (وكفى به) بزعمهم هذا أو بالافتراء (إثماً مبيناً) أي إثماً لا يخفى بل هو ظاهر من بين آثامهم .

اعلم أن اليهود لما وجدوا النبي صلى الله عليه وسلم معهم في المدينة ورأوا دينا بهم على القلوب فاجتمعت وسرى إلى النفوس فاستنارت ساءهم ذلك ورأوه ماسا برياستهم هادما لمحمد ميمتا لمزلتهم فأخذوا تارة يمدحون أنفسهم فيقولون :

(١) نحن أبناء الله وأحباؤه .

(٢) وتارة يذمون هذا الدين الجديد ويفضلون عليه عبادة الأوثان وهم يعلمون أنهم في ذلك كاذبون، إذ جاء حبي بن أخطب وكعب بن الأشرف في جمع من اليهود إلى أهل مكة ليحالفوا قريشا على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيحاربونهم فقالت قريش لهم أتم أهل كتاب ، فإذا أتم أقرب لمحمد منكم إلينا فلا نأمن مكرمكم ، فاسجدوا لأهتنا حتى نطمئن إليكم فسجدوا للجبوت وهو صنم أو أصله الجبس وهو مالا خير فيه ، وقد استعمل في كل ما عبد من دون الله ، والطاغوت يطلق على كل باطل من معبود أو غيره . ولما قال أبو سفيان لكعب ابن الأشرف نحن ننحز للحجيج الكوماء ونسقيهم الماء ونقرى الضيف ونفك العاني ونصل الرحم ونعمر بيت ربنا ونطوف به ونحن أهل الحرم ومحمد فارق دين آبائه وقطع الرحم وفارق الحرم وديننا القديم ودين محمد الحديث قال له كعب أتم والله أهدى سبيلا مما عليه محمد .

(٣) وقد ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بنظر الحسد ويمتنون زوال النعمة عنهم فيقولون تارة نحن أولى بالملك والنبوة فكيف تتبع العرب ؟ .

(٤) وتارة يقولون كيف يجمع محمد الكثير من النساء فيكون له تسع نسوة ولو كان نبيا لشغله أمر النبوة عن الاهتمام بأمر النساء .

وقد أجاب الله عن الأول بما تقدم في قوله - ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم -

وعن الثاني بقوله (ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبوت والطاغوت) وتقدم تفسيرها (ويقولون للذين كفروا) لأجلهم وفيهم (هؤلاء) إشارة إليهم (أهدى من الذين آمنوا سبيلا) أقوم ديننا وأرشد طريقا (أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن نجده نصيرا) يمنع العذاب عنه بشفاعته أو غيرها .

وعن الثالث بقوله (أم) بل (لهم نصيب من الملك) أي ليس لهم نصيب من الملك البتة ، ولئن كان لهم نصيب من الملك (فإذا لا يؤتون الناس نفيرا) وهو النقرة التي تكون على ظهر النواة ومنهاتبت النخلة ، كما أن القليل هو ما في شق النواة الذي أعد لأخذ الأغذية لتغذي النواة كما في العلوم النباتية .

وقال في الثالث (أم) بل (يحسدون الناس) رسول الله صلى الله عليه وسلم والعرب (على ما آتاهم الله من فضله) إذ سلقوهم بالسنة حداد إنكارا للنبوة والنيابص الرفيعة التي جاءت للعرب وسعيها في إزالة تلك التعم أن يفعلوا ذلك (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة) والنبوة كداود وسليمان ولم يشغلهم الملك والنساء عنهما ، فقد كان لداود مائة امرأة وسليمان أكثر من ذلك فضلا عن الإمامة فنالوا النبوة (وآتيناهم ملكا عظيما) والناس يكونون على حسب قواهم واستعدادهم ، فمنهم من قويت أبدانهم وعقولهم ، فلا يمنهم بعض الأحمال عن بعض ، ومنهم الضعفاء تؤثر فيهم الأعراض ، فإذا مالوا إلى جانب حادوا عن الآخر . وأكثر الناس إذا أتوا الملك صرفهم عن النبوة أو النبوة صرفتهم عن الملك ، وهكذا العلماء والحكام فأكثرهم مصروفون عن الدنيا ومن لم يصرف عنها منهم قص عمله وقليل منهم من جمع بينهما ففاز بهما معا ، ومن هؤلاء الأقوياء من الأنبياء داود وسليمان ومحمد ، فكيف تعرضون على محمد وأنبياءكم كانوا ذوي مناصب ونساء كثيرة فلم يشغلهم شأن عن شأن ؟ .

ولما فرغ من الرد عليهم ذكر أنهم قسبان : قسم آمن بالنبي ، وقسم صد عنه فقال (فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه) أعرض عنه (وكفى بجهنم سعيرا) نارا مسعرة يعذبون فيها ، وقد يجعل العذاب في الدنيا (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا) وهذا تقرر لما قبله (كلا نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها) بأن يزال عنهم أثر الإحراق ليعود إحساسهم كما قال (ليدوقوا العذاب) أي ليدوم لهم ذوقه .

واعلم أن العذاب في الحقيقة للنفس كما أوضحناه مرارا في هذا التفسير في مواضع كثيرة ، فارجع إليها في السور للتدبر فإنها تزيل اللبس ، وتعلم أن الجسد ليس إلا آلة لحب ، ولو لم يكن اتصال الأعصاب بالبحس لم يحس الإنسان بالألم ؛ فالألم الجسمي والألم للنفس كلاهما راجع للنفس ، ولكن أحدهما آت للنفس بلا واسطة الجسم ، والثاني يأتي لها بواسطة الجسم . ألا ترى أن النورم تنوعا مغناطيسيا يشاهد الناس في هذا العصر ؛ أنه تفرز فيه الإبر فلا يحس ، وتبدل جميع عوارض الإحساس .

وهذا مقام يوجب البحث والتنقيب والتفكير ، ولم تأت الديانات بهذه الأمور إلا لتحصن العقل على التفكير في أمر النفوس الإنسانية ولا نعم في الحقيقة إلا لأهل العلم والفكرين ، لأننا في هذه الدنيا لم نخلق إلا لذلك ، والحضرة الإلهية لا يقرب منها الناس إلا بالحكمة والعلم والبحث هذا هو الأول والآخر ، وكل محبوب بما نحن فيه من العوارض ، فإنه يبقى بعد الموت على ما هو عليه ، فيكون في أحوال تتجدد عليه وكلها شؤم على النفس ، كما تتجدد الأحوال الدنيوية علينا وكلها متقلبة غير ثابتة تجدد الآلام ، وللعذاب الآخرة أخزى وأشد (إن الله كان عزيزا) غالبا لا يمتنع عليه ما يريد (حكما) بجواب بحكمة ، فليس بتبدل الجلود ودوام العذاب على الناس إلا للحكمة قد يعرفها من آتاهم الله الحكمة ووهبهم الفطنة ودرسوا نظام هذا الوجود ، فهؤلاء وحدهم هم الذين يقولون كيف يعذب الله الناس عذابا لا يطاق لحظة ؛ وكيف يبقى هذا العذاب إلى الأبد ؛ وهؤلاء متى أدركوا ذلك لَوَّحُوا بِعَمَانِيهِ لِلنَّاسِ تَلْوِيحًا وَأَسْرَوْهُ فِي أَنْفُسِهِمْ ، لأنهم يسرون على نهج العزيز الحكيم الذي علمهم ، فلا يعطون الحكمة لغير أهلها لئلا تضل العقول .

وسأذكر لك طرفا في هذا المقام في سورة هود عند قوله « فأما الذين شقوا ففي النار الخ » لتبين بعض الحقيقة على ما تتضمنه الحكمة التي أبرزها الله لهذا الوجود وصور بها كل موجود وعلمها لبعض عباده المفكرين .

ولما ذكر النار أتبعها بذكر الجنة فقال (والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظللا ظليلًا) كنيئا لانسخه الشمس ، ولا يؤذيهم فيه حر ولا برد وهو ظل الجنة ، وهذا كقولهم : شمس شامس وليل أليل ويوم أيوم . وقد مضى الكلام على النار والجنة في سورة البقرة وفي سورة آل عمران ، فارجع إلى هذا القول هناك في الباحث .

لطيفة في الحسد والبخل

لقد وصف الله اليهود بالحسد والبخل في هذه الآيات وحكم عليهم بأنهم لا يستحقون الملك . واعلم أن الحسد لسكراهته للنعمة التي يسبغها الله على عباده شريك البخل بماله بمنه عن الناس ، ولكن الحسد شر لأنه يبخل بنعم الله ، والثاني بماله هو ، وهاتان الصفتان قاتلتان للإنسان . ألا ترى أن للقلوب آثارا وللنفوس أسرارًا ، ومن غرست في قلبه كراهة الناس أذله الله على أيديهم ، ولكن رأينا نحن عاشرناهم في هذه الحياة من اتصفوا بالحسد وكراهة الناس وغشواهم بالظواهر فانتضحوا في آخر حياتهم ، وأرداهم سوء طويتهم ، والحق لا بد من ظهوره ؛ والقلوب فيها مكنون الآراء ، تتفاعل كما تتفاعل العناصر . ثم تبث نباتا على مقتضى البذور ، ثم تخرج على اللسان تارة وعلى الأعضاء أخرى ، وتنبعث أيضا بتيار

كهربائي يسرى إلى نفوس الناس وهم لا يشعرون ، فيحدث ذلك بغضا أو حبا ، فتتفر النفوس أو تنجذب إلى ذلك القلب وصاحبه ، هذا ما قرأته في بعض كتب النفس في العلم الحديث في كتاب بالإنجليزية يسمى هكذا [قواك وكيف تستعملها] وهذا سر ذكر الملك وسلبه عن اليهود مع ذكر الحسد والبخل اللذين يجمعهما اختصاص الإنسان بالنعمة وانفراده بالمجد ؛ ولقد علمت أن الإنسان كله كنفس واحدة ، ولكل وظيفة في أعمال الحياة كوظائف أعضاء الجسد ، وهذا مقتضى ما جاء في أول السورة أن الله خلق الناس من نفس واحدة وأوصاهم بالتعاون ، فلهذا السر لا يصلح للملك الحاسدون .

يذل وحلم ساد في قومه الفقى وكونك إياه عليك يسير

وهذا هو بعض معنى الآية .

ولذلك نجد أن من تخلوا عن الدنيا أقبل الناس عليهم بالإعظام والإجلال ، والأنبياء والصالحون كلهم على هذا النمط كما زهدوا فيها أقبل الناس عليهم وأحبوهم ، انتهى الكلام على الفصل الثانى .

الفصل الثالث

هذا الفصل درس أعطاه الله على ما تقدم من بخل اليهود وحسدهم وأن الحسود من أى أمة والبخيل وذا الصفة المقوتة ليس أهلا للملك ، والله لا يؤتى الملك إلا لمدوى النفوس الواسعة ، فتقبل النفوس عليهم وتلتف الجموع حولهم . فلذلك أخذ يشرح ما يجب على الحكام حتى ينالوا الملك ، واليهود لما كان كل غرضهم المال ، وكانت مصارف العالم فى أيديهم اليوم كما كانوا قديما وحديثا يختصون أنفسهم بالمال ، أباحوا الربا مع الأمم إلا مع أنفسهم حرمهم الله من الملك وأمر بصفات تخالف صفتهم .

ومن يجب أن الذين أخذوا البلشفية هم علماء اليهود فى ألمانيا وأولهم عالمهم ماركس ، وامتد علمه إلى روسيا ، فقام لينين اليهودى ومن معه مثل تشترين ، وهذه العصبة منهم هم أصل تكوين البلشفية فى روسيا ، فأزالوا دولة القيصرية وحلوا محلها ، والبلشفية فيها اليهود وهم أصلها ، وفيهم قوم من الروس التصارى لاضطهاد القيصرية لهم ، وهم يقسمون المال بين الناس . فانظر كيف سلب اليهود الملك ولم يعطه منهم أحدا إلا حين تركوا الاختصاص بالمال ، بل تقالوا فى تقسيمه بين الناس ، وهؤلاء طبعا بمقتضى من إخوانهم اليهود ، لأن اليهود يحلون الربا مع الأمم وهؤلاء بحرمونه ، فرجع هؤلاء عن آراء أجدادهم ودينهم فأوتوا الملك ، وهذا من عجائب القرآن ، فكيف ذكر البخل هنا والحسد وسلب الملك عنهم ؟ وكيف يقول فى آيات أخرى « وقطعناهم فى الأرض إنما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » كما سأتى فى تفسير هذه الآية وكيف حكم عليهم بجزيق شملهم ؟ فلا ملك لهم إلى يوم القيامة ، وكيف تم ذلك بخلافه ؟ وفرقوا فى البلاد وكيف قامت لهم دولة ليست باسم اليهود ؟ بل باسم غيرهم لما خالفوا طريق اليهود ، لأنه إذا زال السبب وهو الاختصاص بالمال زال للسبب وهو الحرمان من الملك ، فلذلك أمر الله فى القرآن باجتناب أخلاقهم وصفاتهم المانعة من الملك . فأمر الولاة أن يحكموا بالعدل والإنصاف بالسوية ، فلا يحابون غنيا لغناه ، ولا قويا لقوته ، ولا يحيفون على فقير لأخفهم الرشوة من الفنى ، ألا ترى أن أول السورة عنوان هذا كله ؟ وهو أن الناس من نفس واحدة ، ويتبع ذلك أن يكونوا كأنهم نفس واحدة ، فالعين تبصر ، والعقل يفكر ، والأعضاء تطيع ، هكذا على الحكام وهم كالمقول فى الأمم أن يحكموا بالعدل فلا يميلون مع الهوى ، وعلى الرعايا أن يطيعوا ما أمر به الولاة على مقتضى الشريعة المرضية ، فإن تنازع الرعاة فى أمر فليردوه إلى أولى الأمر وليراجعوا كتاب الله وسنة الرسول ، ولا يفعلون ما فعل بعض الناقضين من عدم الرضا بحكم الله ، والرسول لم يرسلوا إلا ليطاعوا ، فلا إيمان إلا إذا رضى الإنسان بحكم الله واتظم شمل الألفة وصار الأنبياء

والولادة كالعقل والقوى الفكرية ، وصار الرعايا كالأعضاء العاملة فتتخذ صواب ما أقرته العقول ورضيته النفوس ، ويكون ذلك إيماناً بالقلب ورضا بالحكم ، كما تدعن الأعضاء في الجسد ، ونتيجة ذلك كله أن يجتمع شمل التابع والتبوع في الآخرة كما اجتمعوا في الدنيا ، وصير الحكم القاضون والأنبياء الطاهرون مع الرعايا والأمم في مقعد صدق ؛ متحابين في عالم الأرواح في البرزخ وفي الجنة كما كانوا متحابين في الدنيا ؛ فهذه التربية الجسمية الدنيوية مع ما يمازجها من الأحكام والقضايا وتناجها ، إن صلحت صلحت النفوس بعد الموت واستعدت للسعادة والألفة ، وإن فسدت فسدت تلك الألفة وتفرقت الأوصال كما أوضحه العلامة القاراني في كتابه [آراء أهل المدينة الفاصلة] فهذا سر قوله تعالى (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم الخ) بعد الكلام على طاعة أولى الأمر وطاعة الله ورسوله ، وهذا من محجبات القرآن ونظامه ، فمن هذا اللقاه وأمثاله فلتعرف بعض أسرارها ، وعلى هذا الخط فلتتعرف بلاغته ، ولتوجه العقول إلى أمثال هذه المعاني ، ولا تتسكأ في النكت اللفظية والقواعد البديعية ، فذلك يجتزى به المتوسطون ويفرح به الذين لا يعلمون ، فأحرصوا أيها المسلمون من أسرار القرآن على ما به تقوم مدنيتكم وتسمو أئمتكم ورتقى شأنكم ، فلقد سبقنا الفرج درجات وتركونا في الأخريات ، فإن المسلمين لما صرفوا مهمهم إلى ألقاظ القرآن صرفت عنهم المعاني ، وترامم في الأندلس لما قدسوا الشعر ولم يتغلغلوا في باطن الحكمة نزل إليهم الأسباب من الجبال فتخطفوم ، وكان الملك يسند إلى الحكماء والعقلاء والمفكرين من رجال الأسباب ، ولا يسند إلا إلى الشعراء وأهل الخيال من الإسلام كابن جهور وابن زيدون وأمثالهما حققت كلمة الله على المسلمين .

اقرأ كتاب العلامة (بيباردو الفرنسي) في تاريخ العرب بالأندلس ، وقد ترجم حديثاً إلى العربية وسترى في سورة الشعراء هذا المقام بإيضاح وإيالك أن تصف عند كعب بن الأشرف وحي بن أخطب وأمثالهما وتقرأ ما يرد في الحديث وفي الآيات على أنه مجرد قصص ، فالقصص بدون حكمة لا نتيجة له ، فلم تذكر هذه الأحوال إلا لغاياتها ، ولا هذه القصص إلا لغاياتها ، فالجهلاء بالحكايات يتلون ، والعلما بالمعاني يرتقون و « كل حزب بما لديهم فرحون » .

وإذ عرفت بعض سر الفصل الثالث في هذه الكلمات فلنتشرع في تفسير لفظه فنقول :

روى « أن عثمان بن طلحة بن عبد الدار لما أغلق باب الكعبة يوم فتح مكة وأبى أن يدفع الفتح ليدخل فيها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقال لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه لوى على يده وأخذته منه وفتح فدخل صلى الله عليه وسلم وصلى ركعتين ، فلما خرج صلى الله عليه وسلم سأله العباس أن يعطيه الفتح ويجمع له السقاية والسدانة ، فأمره الله أن يرده إليه ، فأمر علياً بأن يرده ويصنر إليه ، وصار ذلك سبباً لإسلامه ، ونزل الوحي بأن السدانة في أولاده أبداً » وهذا قوله (إن الله يأمركم) أيها الناس والحكام وولادة الأمور (أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وهي كل ما أوتمتم عليه من قول أو عمل أو مال أو علم ؛ وبالجملة كل ما يكون عند الإنسان من النعم التي تفيد نفسه وغيره فليسلم ذلك إلى أربابه ، ومن ذلك الحكام والولادة ، فليؤدوا الأمانات إلى أهلها . وفي حديث البخاري أن الصدق وتأدية الأمانة والوفاء بالوعد علامات الإيمان وأضدادها علامات النفاق ، ونتائج الإيمان على هذا المنوال سعادة المجموع الذي هو كنفس واحدة ، ونتيجة النفاق وشخص الإيمان على هذا المعنى شقاء المجموع ، ولذلك نجد أن الأمة الإسلامية لما أصبحت عبادتها لفظية وقضايا المحاكم الشرعية فيها رسمية لاحقيقية ، وجهل القضاة القصد من الأحكام ، وجاروا في أحكامهم للجهل قارة والرشا أخرى ذهبت ريحهم واقضت عليهم أوربا بخيلها ورجلها ، وانزعوا الأحكام من أيدينا ، فالأمانة أس العمران ، والحياة خراب البلدان .

ولعمرك لانتفع ظواهر العبادات ، ولا تشور القضايا والبيئات إلا بإدراك النيات من مقاصد العبادة وحقائق العدل وبواطن الأمور على قدر الطاقة البشرية عند تحقيق الشهادة ، وذلك هو الذي ذهب من يد المسلمين ، ظل قضاة الفرنجة محل قضاة المسلمين ، وسيرجع الأمر إلى نصابه ويقوم جيل في الإسلام يأتي الأمر من بابه « ولتعلن نبأ بعد حين » وسيقوم في هذه الأمة عما قريب من يعقل قوله تعالى (و) إن الله يأمركم (إذا حكمت بين الناس أن تحكموا بالعدل) فيسوى القاضى بين الخصمين في خمسة أشياء : في الدخول عليه ، والجلوس بين يديه ، والإقبال عليهما ، والاستماع منهما ، والحكم بالحق فيما لهما وعليهما .

وملخص ذلك : أن يكون مقصود الحكم بحكمه إصال الحق إلى مستحقه ، وأن لا يمتزج ذلك بغرض آخر (إن الله نعمًا يعظكم به) أى نعم شيئًا يعظكم به ، والمخصوص بالمدح المأمور به من أداء الأمانات والعدل في الأحكام (إن الله كان سميعاً) لأقوالكم (بصيراً) بأحكامكم وما تفعلون في الأمانات . ولقد علت فيما تقدم في هذه السورة الجميلة أن التعلیم بطريقتين : طريق الإقناع العقلى ، وطريق الإرهاب .

ولما كان المخاطبون من أرقى الطبقات في الأمة الذين منهم الحكماء أتى بهاتين الطريقتين بشكل عجيب شدد هذا الوعظ إنعاشاً للقلوب وإيقاظاً للنفوس ؛ فكأنه يقول انظروا بقولكم وفكروا بوجودانكم وفتشوا في ضمائركم ، ألسن ترون أن مبدأ السورة أن الناس إخوانا متعاونون ؛ وهم كأنهم جسم وأعضاء خادمة ومخدومة فكل لكل مساعد وعضد ، أليس هذا التعاون منفعة للجميع ؟ وإن كان الحكم إذا لم يكن لهم رعایا ذهب عنهم الملك ، وأن الملك لا يكون إلا بالعدل ، وأن الرأس لا يستقيم إلا بالأعضاء ، فإذا عدلت بين الناس فالأمر راجع للجميع ، والرعايا إن لم يطمثوا نقصت الغلات ، ونقصها ينقص رزق الجند ويوجب ذهاب الدولة وذهابها ينزل الحكم عن كراسيهم فيصبحون سوقة ، فهذا سر قوله « نعمًا يعظكم به » .

ولما كانت هذه المعاني الشريفة الجميلة تخفى على كثير من الحكم وأهل النظر أردفه بالتهديد على النسق الذى رأيت في هذه السورة ، ولكنه تهديد لطيف فلم يخوفهم بجهنم كما أخاف اليهود بل تلتطف فذكر أنه يسمهم ويصبرهم ، فليحذروا نعمه وطوى ذكر العذاب والنقمة اكتفاء بفظنتهم ، وهذا غاية الإبداع معنى والإحسان لفظاً من هنا ، فليذق الناس البلاغة القرآنية وليحبوا من الحكم البديعة .

ولما فرغ من نصح الحاكمين شرع ينصح المحكومين باعتبار أنها جميعاً كإنسان واحد فقال (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) وهذا يشمل الكتاب والسنة والقياس والإجماع ؛ فالكتاب والسنة يغنيان من طاعة الله ورسوله ، والقياس والإجماع كذلك من قوله مثلاً « فاعتبروا يا أولى الأبصار » والإجماع من قوله « ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى » ومما ورد « لا تجتمع أمق على ضلالة » وحديث : « مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن » وقوله (وأولى الأمر منكم) هم أهل الحل والعقد في الأمم الإسلامية الذين يكون الأمر بينهم شورى ويكون الرأى الغالب معمولاً به وأل في الأمر للمهد وللعهود ذلك في قوله تعالى « وأمرهم شورى بينهم » فهذا هو الأمر المذكور هنا . أما الحكم فإن طاعتهم واجبة لوجوب طاعة الله ورسوله وأولى الأمر ، فأولو الأمر هم الذين يولون للوك وللوك يولون الحكماء في الأقاليم ، فإذا أطلع المسلمون عثمان بن عفان فذلك لأن المجلس الشورى الذى أمر به سيدنا عمر قضى بحلقاته . وإذا أطلع المسلمون حكام الأقاليم فقد أطاعوا أولياء الأمر منهم بالواسطة ، فطاعة الله ورسوله وما ترتب عليهما تكون في الأمور الدينية ، وطاعة أولى الأمر تكون في الشؤون الدنيوية المتفرعة على الدينية والحافظنة عليها ، وهناك لا بد من تنازع في فروع الفقه والدين وفي مجالس الشورى بين المسلمين ؛ فليرد للتنازعون أمر ما تنازعوا فيه إلى ما أوتوه من العلوم في الكتاب والسنة ، وليقتبسوا منها ولينظروا فيها حتى يستقيم الأمر ويستدل ، وهذا هو قوله تعالى (فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول إن كنتم

تؤمنون بالله واليوم الآخر) فإن الإيمان يوجب ذلك (ذلك) أى الرد (خير) لكم (وأحسن تأويلاً) أحمد عاقبة أو أحسن من تأويلكم بلارد .

وستأتى محاورات فى المجلس الذى سيعقد بعد مئات من السنين للأمة الإسلامية بعد تفسير القصد السادس بعد هذا من سورة النساء التى نحن بصدد الكلام عليها ، وهى تطبيق على هذه الآية فلتقرأها ولتتدبرها ، هذا .

واعلم أنه فى هذه الأيام طرد الترك آل عثمان والحليفة من بلادهم ، فكتبت هذه المقالة فى عدد الثلاثاء ١٨ مارس سنة ١٩٢٤ ، ١٢ شعبان سنة ١٣٤٢ بجمردة المقطم ، وهذا نصها :

الحلقة فى الإسلام

الفطرة نور إلهى سار فى الخلوقات الحية ظاهر فى نوع الطير فى جو السماء ، وفى ذوات الأربع فوق العراء والحيوان البحرى فى لجج الماء ، فهذه الفرائز أنوار مشرقة على الأحياء إشراق الكواكب والشمس والقمر على سائر الأرجاء .

فهذه الفطرة حيت الأمهات فى أولادها ، وبها حنت النرية إلى أمهاتها ، ودلف الطير إلى عشه وكر الأسد إلى عرينه ، وجرت الحية إلى وكرها ، وسارعت الغزالة إلى كناسها ، وعاشت الأحياء فى سلامة وسلام .

بهذه الفطرة عاش الإنسان قبل التاريخ ، ثم امتاز قوم بنور أبهى وإشراق أجلى وهم الأنبياء فأخذوا يمدون إخوانهم بما به يمدون ، ويمسكونهم ما يلهمون ، والفطرة لا تخدع فيقبلون عليهم ويصغون إليهم وكأنهم ماسموا إلا لظفرهم ، ولا أصفوا إلا لنفوسهم .

هكذا كان بوذا وكونفوشيوس وموسى وعيسى فى الأزمان الغابرة ، ولما طال الأمد أخذت تلك الشعوب تلون الديانات بألوانها وتصبغها بصبغها ، فتطبع بطابعها وتنسى المبادئ الأولى للديانات ، وتظهر أجيال تشاهد ما ليس من طبع الدين ، وإنما هو من طبع التدينين وأخلاق التابعين .

وكما كثرت الأجيال وتوالت الأمم وامتد الزمان تباعد الدين عن أصله وصار على غير شكله ، هناك يكون ضلالا لتابعيه ؛ وتأخيراً للمعتقيه ، فيصبح مر للذائق طعمه لن يطاق ، قليل الجدا قيدا فى الأرجل غلا فى الأعناق ؛ فكما كان فى أوله عدة النشاط مفتاح النجاح ، صار فى آخره قيد النفوس جالبا للبؤس .

فقام فى كل أمة من هذه الأمم مجددون ، وظهر فيها مستترون ، فعملوا أمهم ، وهدبوا طرقهم ، وأنت ترى تعاليم أوروبا فى العصر الحديث إذ نهجت غير الناهج القديمة فى المصور الوسطى ، ونادى أناس بالحرية العملية والعلمية والانطلاق من الوثائق ، وقام لوتر وأمثاله من المسلحين ، فأنجحت بعض الفياهب وظهرت بعض الحقائق وارتقت الشعوب .

دين الإسلام

وجاء دين الإسلام موافقا للفطر كسائر الديانات فى أول أمرها ، فقبله العرب الأولون وأصلح أخلاقهم وجمعهم وكان سهل التعليم ، فطاروا به فى الأرض شرقا وغربا ، وخلف النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، فكانوا على أخلاق النبوة سائرين ولطريق النبوة سالكين وفى سبيلها عاملين متخلفين بالأخلاق الحميدة وهم فى حكمهم عادلون .

الحلقة المحجبة المبرقة

ثم لما طال الأمد قست القلوب ووهنت النفوس وبطر الخلفاء وتظاهروا بالكبرياء ، فتراهم فى أواسط

الدولة العباسية وأواخرها بغداد ، وفي أواخر دولة بني أمية بالأندلس وكذلك الفاطميون بمصر والعثمانيون بالأستانة كل هؤلاء أخيراً قد احتجوا في قصورهم مع الحصيان والنساء ساهين لاهين ، وكما هلك خليفة ابتدع من بعده بدعا وأنواعا من الترف وهم في غيهم يعمهون وفي جهالاتهم ناثون ، والعلماء والحكام لا يستطيعون تقويض ذلك البنيان ولا تغيير تلك الحال بل يمدحونهم بالقصائد وهم يزدادون في قصورهم قصورا ويملكون فيها ولدانا وحورا وحجابا وخصيانا ونساء لا فرق بين الآخرين منهم والأولين وأنس الناس بتلك المناظر وخضعوا لتلك المناظر وخرست الألسن فلا تسمع إلا همسا ، ويتوالى الزمان أصبح ذلك عادة مألوقة وجبلة ثابتة ، كيف لا ؟ والعادة طبيعة خامسة ، وإذا مات الخليفة قام مقامه آخر من نفس البيت بطريق مرسوم والأمم قبلت ذلك لسنين : أولها أنهم يخافون قيام الثورات وظهور الفتن في البلاد ، وثانيهما أن هؤلاء مثلهم للدولة كمثل شبكة الصائد أو جرعة الطيب أو التنويم المغناطيسي ، فهذه المظاهر والتخاريف تأنس النفوس وتخضع الرقاب ، وكما أراد الشعب انطلاقاً لم يزد الخلفاء إلا وثاقاً بما يزخرفون ويشيدون وعن حولهم من الحراس والحجاب وأرباب الدولة والمظاهر الخلافة ، فهذه أشبه شيء بأدوية مسكرة للشعب ليهلج لوقعها ويخضع لمراها ، وهذه زرداد على مدى الزمان وترى هذه المظاهر منومات للشعوب ، فتفتقر الهمم وتنزل النفوس وترتبك العقول ، وهناك تغطي الفطن البشرية وتنام العقول الإنسانية أجيالاً وأجيالاً ، حتى إذا وقعت الواقعة وانثقت سماء الوهم فهي يومئذ واهية آتت هؤلاء الخلفاء يومهم للوعود وحضر لهم الشاهد والشهود فذل العزيز وعز الدليل فتكسر تلك الأغلال وتبديل الحال ، إما من داخل البلاد كما في دولة الترك الحاليين ، وإما من خارجها كما في التار إذ قتل هولاء كو آخر خليفة عباسي في القرن السابع وزالت الدولة العباسية من بغداد ، وقد فعل صلاح الدين الأيوبي مع الخليفة الفاطمي بمصر في ذلك الزمن ما هو أشد وأنكى ألف مرة مما فعله الترك في بيت آل عثمان إذ حبس الشبان والشابات من بيت الخلافة متباعدين في أماكن حتى لا يتناسلوا ثم ماتوا في سجن معدودة وهم لا يرحمون . وهكذا انقرضت الخلافة الأموية من الأندلس وجاء ملوك متفرقون شذرو منذر حتى تفرقت الكلمة واجتمعت أوروبا على مناصرة الأسبانيين فأخرجوهم من الجزيرة وهم يائسون ليس في هذه الحياة ما يبق إلا إذا كان أصلح للوجود وكيف يبقى مالا فائدة له ؟ قاصرون في القصور ماثون في الحجرات كيف يعيشون بين الأمم إلا إلى أجل معدود كالأعضاء الأثرية في الحيوان إنه ليس في الوجود معطل ولا يبقى إلا ما هو أصلح للحياة « فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » تبقى تلك العروش قروناً ثم تبيد كما يهلك الشيخ إذا انتهى أجله وفرغ عمله وذهب أمه وقل نفعه فيكون موته رحمة له وللعالين ، ولذلك ترى أناسا يفتنون في الأمم فيزولون تلك المظاهر العظيمة والمناظر المضللة التي لا يحترمها الناس إلا رياء ولا يعظمونها إلا شفاها وهم في أنفسهم كارهون وفي قلوبهم مبغضون ولذلك شكوا للمصريين منذ أربعمئة سنة من الترك وشكوا الترك حديثاً من المصريين وسائر المسلمين الذين هم واقعون تحت ضغط الأوربيين ، فقال المصريون لقد سطا الترك على خليفتنا فأخذوه وبايعهم بالخلافة وانفرد بها السلطان سليم ، وقال الترك حديثاً إن المصريين أرسلوا العمال إلى فلسطين نحو مليون أو يزيدون ، وهكذا سارت الجنود المصرية إلى مكة في الحرب العامة ؟ غاروا جيوش الخلافة وهم مسلمون فضرب الترك على الخلافة وأخرجوها من الديار وقالوا لا طاقة لنا اليوم بما لاخير فيه وليس له احترام . ألا إنما السبيل للحل هو الشورى ويكون الخليفة بالانتخاب .

لقد أبنت في هذه القدمات سنة الوجود ، وأن الأمم تخضع للعروش إلى أجل محدود وليس يهنا في هذا المقام إلا أمر الأمة المحمدية للتزامية الأطراف البعيدة الأكناف ، لقد جاء في القرآن سورة باسم الشورى إذانا بظلمتها وتعريفاً بحكمتها وتبييناً لفضلها ، وهذه السورة نزلت بمكة ونزلت سورة النساء بالمدينة ، وجاء

في الأولى « وأمرهم شورى بينهم » وعمل بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أحواله ، ونرى المشاورة في الفزوات مشهورة معلومة عن المحدثين . ولقد شاور أصحابه صلى الله عليه وسلم يوم غزوة أحد فاختلّفوا وكان هو أميل في أول الأمر إلى انتظار المهاجرين في المدينة وأيد ذلك رؤية رأيها ، ولكن الحجج التي أدلى بها من مال إلى الخروج إلى القتال كانت أرجح فأنحاز إليها وغضب أصحاب الرأي الأول وأسرعوا للهزيمة ، كعبد الله بن أبي بن سلول ، وكان ما كان .

فانظر ماذا قاله الله في سورة النساء « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ومن ثم أولو الأمر هم اليهودون عندهم ، هم أهل الشورى المذكورون في السورة النازلة قبلها في مكة « وأمرهم شورى بينهم » فليكن في كل بلد إسلامي مجلس للشورى ، وبعبارة أخرى نواب ، وهذا المجلس له القول الفصل في أمر البلاد ، فليعمل ما يشاء وليحكم بما يريد . وليكن هناك مجلس عام من الأمم الإسلامية ، ولكل مجلس خاص فيه أعضاء ينوبون عنه ويمثلونه وليقرعوا اقتراعا سرا أي عظماء الإسلام يقدرونه الخلافة ، ومتى انتخبوا واحدا كان له الخلافة ، ومن العقول أن هذه الجموع لا تنتخب سرا ولا جهرا إلا من هو مستقل ليس لأوربا عليه سلطان ، ويكون ذلك الخليفة له أعمال يخصصها له المجلس بحسب الزمان والسكان ، لأنه خليفة على سائر المسلمين وهم متفرقون في الأرض ، ومنهم من هم في أحضان المستعمرين ، بهذا يكون للإسلام خلافة حقا ، وإلا فكيف نرى في مصر للفاطميين ؟ وفي بغداد للعباسيين ، وفي الأندلس للأُمويين خلافت متوعة في زمن واحد ، فأى خلافة هذه ؟ إنها ملك أعطى لقب الخلافة .

ولقد نرى رجلا من الأمة تزبوا بزى الخلافة على أشكال شتى من الأمم الإسلامية للتأخرة ، متشبهين بالخلافت البائدة وأثروا في عقول الشعب ، إما بالنسب وإما بالاتساب إلى ولي من الأولياء بطريق العهد وما أشبه ذلك ، فاشوا في رغد العيش وتمتعوا بنعيم اللوك في غفلة من الأمم الإسلامية ، وكانوا أكبر عون للفاتحين من الأوربيين ، وهم مشهورون لاسيا في البلاد العربية في شمال إفريقيا وغيرها ، وهم هم أعوان كل فآخ في بلاد الغرب ، وذلك مستفيض بين الجمهور . إن الشورى ممكنة في هذه القرون المقبلة لسهولة اللواصلات والمخاطبات والكتابات ووجود القطار والبرق ، وهل يتم ذلك وبينهم المستعمرون ؟ إن ذلك موكل إلى المستقبل فيه تبيين الحقائق ، وفيه عاقبة الأمور ، انتهت المقالة .

ولما كانت طاعة الله ورسوله واجبة أردفها بما وقع من مخالفة :

(١) فذكر المنافق الذي لم يرض بحكم رسول الله .

(٢) وأتبعه بذكر الأمر بالقتال ، وكيف كان من المنافقين مشيطون ؟ وذلك من عدم الطاعة .

(٣) ثم ذكر ما كان يفعله ضعة المسلمين ، إذ بلغهم خبر عن سرايا النبي صلى الله عليه وسلم من طريق الوحي بنصر أو تخويف من عدو ، فإنهم كانوا يذيعون ذلك وفي الإذاعة ضرر بالسياسة ، وعليهم أنهم كانوا يردونه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم .

أما الأول . فذلك أن ناسا من اليهود قد أسلموا وناق بعضهم ، وكانت قريظة في الجاهلية حلفاء الخزرج والنضير حلفاء الأوس ، وكان إذا قتل رجل من بني قريظة رجلا من بني النضير قتل له أو أخذت دية مائة وسق من تمر ، وإذا قتل رجل من بني النضير رجلا من قريظة لم يقتل به وأعطى دية ستين وسقا ، فها جاء الإسلام وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلا من قريظة فاختصموا في ذلك فقال بنو النضير : كنا وأتم قد اصطلحنا على أن تقتل منكم ولا تقتلوا منا ، وديتنا مائة وسق وديتكم ستون وسقا فنحن نعطيكم ذلك ، فقال الخزرج : هذا شيء أخذتموه في الجاهلية لكثرتكم وقتلتنا فقهرتمونا على ذلك

فاليوم نحن إخوة في الدين فلا فضل لكم علينا ، فقال الناقون منهم : ننتقل إلى أبي بردة الكاهن الأسلمى ، وقال المسلمون من الفريقين ننتقل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأبى للناقون . وانطلقوا إلى أبي بردة الكاهن ليحكم بينهم ، فأبى أن يحكم بينهم إلا بمالك كثير ، فنزلت آية القصاص وهذه الآية (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك) أى الناقين ممن آمنوا من أهل الكتاب (يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت) وهو أبو بردة الكاهن على قول السدى المتقدم أو كعب بن الأشرف على قول ابن عباس ، والطاغوت كل باطل من معبود غير الله أو قاض أو كاهن (وقد أمروا أن يكفروا به) لأن الكفر بالباطل وهو الطاغوت إيمان بالحق وهو الله (ويريد الشيطان أن يضلهم ضللا بعيدا) عن الحق (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت الناقين يصدون عنك صدودا ، فكيف إذا أصابهم مصيبة بما قدمت أيديهم) أى فكيف تكون حال هؤلاء الناقين ؟ وكيف يصنعون إذا أصابهم مصيبة يجزون عنها ؟ (ثم جاءوك) حين تصيبهم المصيبة (يحلفون بالله) الجملة حال (إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) ما أردنا بذلك إلا الفصل بالوجه الأحسن والتوفيق بين الخصمين (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) من النفاق فلا ينزى عنهم الكتابان (فأعرض عنهم) عن عقابهم (وعظهم) بلسانك وكفهم عما هم عليه (وقل لهم في أنفسهم) أى خاليا بهم ، فإن النصح في السر أنصح (قولا بليغا) يبلغ منهم ويؤثر فيهم ، فهذا أمر صلى الله عليه وسلم أن يتجافى عن ذنوبهم وينصح لهم ويبالغ في الترغيب والترهيب ، لأن الأنبياء أهل الشفقة على الأمم .

ولما كان ما فعله مناقو اليهود مخالفة للرسول وقد أمروا بطاعته قبل هذه الآية أردفه بأنه لا يرسل الله رسولا إلا ليطاع ؛ وكما أن اللسان خلق ليتكلم ، والعين لتتظر ، واللعدة لتضم ، والمقل ليفكر ، هكذا الرسول أرسل ليطاع ، وهذه قاعدة عامة فقال (وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله) بسبب إذنه في طاعته (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم) بالتحاكم إلى الطاغوت (جاءوك فاستغفروا الله) بالتوبة والإخلاص (واستغفر لهم الرسول) أى من مخالفته والتحاكم إلى غيره (لوجدوا الله توابا رحيمًا) أى لعلوا أنه قابل توبتهم راحم لهم (فلا وربك) أى فوربك ولا زائدة للتأكيد (لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) فما اختلف بينهم واختلط ، ومنه الشجر لتداخل أعضائه (ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت) ضيقا مما حكمت به (ويسلموا تسليما) ويقادوا لك امتيادا ظاهرا وباطنا (ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم) كما كتبنا على بني إسرائيل فامتثلوا (أو اخرجوا من دياركم) كما خرج بنو إسرائيل حين استتبوا من عبادة العجل (ما فعلوه إلا قليل منهم) إلا أناس قليل وهم المخلصون ، وقد تقدم أن الإيمان لا يتم إلا بأن يسلموا حق التسليم (ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به) من متابعة الرسول رغبة لارغبة (لكان خيرا لهم) في العاجلة والآجلة (وأشد تنبيها) في دينهم ، وهنا يقال ما يكون لهم بعد التثبيت فقال (وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما . ولهديناهم صراطا مستقيما) وزاد في تأكيد الطاعة لله وللرسول فقال (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين) فهم مع الأنبياء الذين بلغوا درجة الكمال والتكامل والصديقين الذين ارتقت نفوسهم بمراقى النظر تارة وبالتصفية والمجاهدة تارة أخرى والشهداء الذين أدام حرصهم على الطاعة إلى بذل أرواحهم في سبيل الله والصالحين الذين صرفوا أعمالهم في طاعته وأموالهم في مرضاته وما أحسن مراقبة هؤلاء الأربعة (وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل) كأن (من الله وكفى بالله عليما) بجزء من أطاعه .

التسليم والرضا وسورة النساء وسورة الشورى

ذكرى للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها بالمدينة المستقبلية والترية العالية

هل لكم أيها المسلمون أن تسمعوا لماذا بشر كلام الله في هذه الآيات ، وهل يعلم الناس ماذا يريد الله

عز وجل بقوله « ثم لا يعبدوا في أنفسهم حربا مما قضيت وسلموا تسليما » ؟ يقول لا إيمان إلا إذا حصل الإذعان للأحكام والرضا بالقلوب والتسليم ، وكيف سمى هذه السورة باسم النساء كما سمى أخرى باسم الشورى قيل هناك (سورة الشورى) وقيل هنا (سورة النساء) .

إن هذا المقام يحتاج للأسباب والتطويل ولكني أوجز القول فأقول :

إن هذه السورة سميت باسم النساء ، لأن للمرأة أظهر ما فيها من الأحوال أحران : الرحمة والتربية ، فالرحمة تعطف على الأبناء وتجمعهم ، وبالتربية تنضو أولادها بلبنها وتعطيهم مالها وتكون بالأمرين ألفة جامعة ونظاما يكفلهم ، ولذلك ابتدأ السورة بأنه خلقنا من نفس واحدة وخلق منها خلقا كثيرا ، ولماذا هذا ؟ لأنه يريد أن يكون الناس أسرة واحدة لهم ألفة جامعة ؛ وكما أن الأم ترحم البنين هكذا القضاة والحكام ، يجب أن يربوا بطريقة تخرس في قلوبهم الرحمة حتى يكونوا كالأُم ، والأم لا تقضى بين بنينا إلا بالعدل بقدر طاقتها وإذا أغضت حكما فيهم لم يكن ذلك تشفيا ولا انتقاما ، وإنما ذلك لتقصد إصلاحهم وإسعادهم ، وهي تتحمل أذاهم ، وترى الولد إذا وصله من أمه أذى فليس ذلك يدعو إلى كراهتها غالبا ، بل هو يعطف عليها ويرجع إليها رجوعا قلبيا ؛ ثم إن أبناء المرأة الواحدة إذا كان لهم إخوة من أم أخرى اجتمعوا صفا وكانوا يدا واحدة على إخوتهم ، فلمهم جامعة واحدة من جهة أهم كما هو مشاهد معروف ، حتى إن الأخ من الأم والأب مقدم في اليراث ، ويعجب الأخ لأب لأنهم اتحدوا في اللودة والمحبة وتشاركوا في الآراء وأمور الحياة لجامعة الأم ، فهكذا الأمة يجب أن تتشاور في الأمر ويكون رأى الشورى وأولى الأمر فيهم نافذا بطريق القبول ؛ كما أن حكم الأم صادر من قلب رحيم يشعر به الأبناء ويتلقونه بالقبول والتسليم فيكون أمرهم شورى بينهم والأحكام النافذة من القضاة مقبولة قبولاً نفسياً لا قهراً جسدياً .

ولعمري هذا هو الذي يطلبه القرآن أيها السلون . وباليت شعري أي فائدة في الإيمان إذا لم تجعل الأمة كتلة واحدة وأسرة واحدة ذات حب خالص والتسامح واتحاد ؟ .

أيها السلون ؛ أي فائدة نجنيها من هذه الأحكام الشرعية والمرافعات القضائية والتربية في البلاد غير مرعية . أنا لا أقول غيروا طرق الأحكام لحسب ؛ بل أقول غيروا طرق التعليم . التعليم اليوم ليس على طراز الدين ، أترضون أيها السلون أن يكون هذا التعليم فاشيا في أوروبا ويعرم منه الإسلام ؟ .

ألم يبلغكم ما يفعله التلاميذ هناك إنهم يقرءون قانون المدارس وفيه تحديد العقاب على كل ذنب فإذا صنع التلاميذ يرتكب زبدا ذنبا كأن ينسى واجبا يعمله فيأتي إلى المدرسة فيدخل السجن ويجلس فيه المدة المقررة للعقاب بلا حارس يحرسه ولا خفير يحفظه بل جعل نفسه على نفسه حسيبا ويعد التلميذ من العار أن يحرسه الحادمون أو يقف على الباب الديدبان بل هو الحابس وهو المحبوس وهو الحارس وهو المحروس وهو الراضى وهو المرضى عنه ، فهذه الآية لم تذكر في القرآن للتلاوات ولا لتكرير العبارات ولا لجرد العبادات بل جاءت لشيء فوق العبادات والأحكام هو الذي جاءت له الرسل ووضعت الشرائع وأنزل الوحي ، ومن أجله صورت صور الموجودات بالجمال وزوقت بالحسن وحسنت مماؤها وأضأت نواحيها ؛ فالجو جميلة أضواؤه والماء حسن الرواء والسماء بديعة البناء والنجوم باهرة الأنوار والمشارق والمغارب بديعة المناظر النائية المطالع حسنة بهجة تسر الناظرين ، فهل أرانا الله ذلك لنحرم من عمراته في القلوب أو نسيب عما صور فيه من كل عجب عجاب ؟ . أرانا الله الجمال وأوحى إلى الأنبياء ما شاكله من الكمال ، جاء على لسان عيسى أن يكون الناس أحياء ، وجاء في هذه السورة أننا أسرة واحدة وعنوان السورة بذلك شهيد وقال في غضونها إن أولى الأمر ينظرون في أمور الرعية وإن المحكومين يسلمون في أحكام القضايا وإنه لا إيمان لهم إلا بالتسليم .

ولعمري كيف يكون التسليم والرضا من قلوب مقفلة وعيون مسبلة وآذان فيها وقر وعيون عليها حتم وأنفس لم تعرف من المحبة إلا لفظها ولا من التربية إلا ظاهرها ، ولا من التعليم إلا أدناه ولا من التهذيب إلا ما لا يرضاه ، فويل لمن عاشوا عيشة لفظية فماتوا مائة جاهلية ، وويل ثم ويل لمن وعظهم السهر بضرباته واتهرم بوثبانه فلم يفيقوا من غفلانهم ولم يتعظوا بنكباته من الأمم الإسلامية التي دهمها القرنجة فأردوهم وضربوهم فزقوا شملهم ، فهل ترى لهم مدنا مستقلة أو أصولا ثابتة ؟ فحق ينتفمون ؟ وفي أي طريق يسلكون ؟ .

الطريقة المثلى لرق الإسلام

هي التربية الشريفة ونبذ ما هم عليه وأن يملأ صدور التلاميذ من العواطف والرحمة والحب للشعب ويربي الأبناء على حب النظام والعمل للجموع والحب العام بالحكايات اللطيفة والسير الجميلة وسيرة النافعين للأمم الإسلامية بحيث تهذب القاصص والحكايات ، فلا يدخل فيها ما ينقص سير الأبطال ولا يدجج فيها ما يضر بسمعتهم ولو كان حقا . ويلخص كل جميل وينبذ كل قبيح ، وليعدل إلى الروايات المشجعة تارة والمحبة للجموع أخرى والمعطشة للعلم والمرغبة للمساعدة للإخوان آونة ، وليكن ذلك كثيرا حتى ترسخ اللسكات في النفوس ، هنالك يتم الإيمان هناك يحب الشعب حكمه هنالك يطيع رؤسائه ولا يجد المحكومون في أنفسهم حرجا من الحاكمين ذلك هو الصراط المستقيم فعلى المسلمين أن يحرصوا على هذه التربية حرصا دائما ، فلئن اقتصر الجهال من المسلمين على تعظيم الأحكام الشرعية فليحرض العلماء الشعب على اتساع نطاق التربية الخلقية والمحبة الجنسية والفضائل الخلقية ، فذلك أعلى تقديسا وأشرف مقاما وأعز مقصدا وأوسع مددا وأقرب منالا وأكثر إفضالا وأقرب إلى مرامي النبوات وإلى جمال هذه المخلوقات .

فكما يبصر الناس بالعيون جمالا في السموات يصرون في قلوبهم جمالا في النبات . فياليت شعري لم قال الله « نعمنا يعظكم به » في تأدية الأمانات وأمر بإزالة الحرج من النفوس عند الحكم في الدعوات وأمر رسوله أن يعظهم في ذلك بأبلغ العبارات ، هل كل ذلك لحوادث جزئية وقضايا وقتية ؟ كلا ثم كلا ، إن الله خزن ذلك في القرآن وأبقاه لنا إلى أن آن الأوان وظهرت حوادث الزمان وسبق القرنجة بهذه التعاليم ونحن أرقى منهم أديانا وأرفع شأننا منهم فلنقم بالأمر خير قيام ولنعلم الشعب حسن الأخلاق .

ولعمرك هل جملت الصور المحسوسة والبدائع المنظورة في أنحاء العمورة إلا بصنعة باهرة وأعمال ظاهرة وأصول قيمة وهندسة متقنة ، هكذا لن تجمل النفوس ولن تجمل الأخلاق وتحسن الشعوب ويتم النظام إلا بصنع النفوس صنعا يعليها ووعظها وعظا يدينها بالأمثال النافعة والحكايات للمتعة والآراء الناجحة والأقوال الشارحة وسير الأبطال وفضائل الرجال وشمائل العلماء وأخلاق الحكماء وطرق العقلاء وشيم الأذكياء وتراجم الصالحاء الذين نفعوا الأمم بعلومهم ورفقوها بأموالهم وأنفسهم ، وذلك هو القول البليغ الذي أمر به الرسول والوعظ المدوح والقول المشروح للصدور المهيب لتبوي النفوس مقام الصدق ومطالع العرفان والنور ، انتهى المقصد الخامس .

المَقْصِدُ السَّادِسُ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ فَانفِرُوا تَبَاتٍ أَوْ انْفِرُوا جَمِيعًا * وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْنَا إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا * وَلَعَنَّ

أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنْ اللَّهِ لِيَقُولَنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَا أَيُّهَا كُنْتُمْ مَعَهُمْ
فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا * فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا * وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِ أَهْلِهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا * الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ وَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا
الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً
وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كُتِبَ عَلَيْنَا الْقِتَالُ لَوْ لَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ * قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ،
وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا * أَيْنَ مَا تَكْفُرُونَ بِذُرِّكُمْ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ
فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا
هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَالْهُدَى الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا *
مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ، وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا
وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا * مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا
وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ آيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبْتَغُونَ فَاغْرَضَ عَنْهُمْ ذَوُكُلٍ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ
مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ
أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ
وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا * فُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ سَمَى اللَّهُ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الدِّينِ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ
بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا * مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا، وَمَنْ يَشْفَعْ
شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيمًا * وَإِذَا حُيِّمَتْ بِتَحِيَّةِ

خِيُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
 لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا * فَمَا لَكُمْ
 فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ، أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ
 اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا * وَذُوالِ تَسْكُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَسْكُرُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا
 مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا
 تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وُليَاءَ وَلَا نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤُكُمْ
 حِصْرًا صُدُّوا عَنْهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ
 فَإِنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا *
 سَتَجِدُونَ آخِرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّمَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا
 فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
 تَقِفْتُمُوهُمْ وَأُولَئِكَ جَمَلْنَا أَلَكُمُ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا * وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا
 خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا ، فَإِنْ
 كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ يَبْغُونَ
 وَيَبْغِيهِمْ مِيثَاقُ فِدْيَةٍ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ ، وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فِصْيَامَ شَهْرَيْنِ
 مُتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَمَنْ يَقتُلَ مُؤْمِنًا مُتَمَدِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ
 خَالِدًا فِيهَا ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ
 الدُّنْيَا فَمِنْدَ اللَّهِ مَغَائِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ
 بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ
 دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا * دَرَجَاتٍ
 مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا * إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ

قَالُوا فِيهِ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِمَةً فَهَاجِرُوا
 فِيهَا فَأُولَئِكَ مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا * إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ
 لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 غَفُورًا * وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاعِمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ
 بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
 رَحِيمًا * وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ
 أَنْ يَهْتَكِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا * وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ
 فَأَقْتِ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا
 مِنْ وَرَائِكُمْ وَلِتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ
 وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِمَّتْكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا
 جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا
 حِذْرَكُمْ إِنْ اللَّهُ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُبِينًا * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ فِيمَا
 وَكُفْتُمْ وَعَلَى جُنُوبِكُمْ ، فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ؛ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ
 كِتَابًا مَوْفُوتًا * وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونًا فِائِسًا فَلْيَأْمُنْ كَمَا تَأْمُونُونَ
 وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا *

هذا القصد إكمال للدروس المعطاة للسليين تطبيقا على وجوب طاعة الله والرسول الخ .

وفي هذا القصد أحد عشر فصلا :

- (١) الوعيد على الإهمال في الجهاد والوعد بالسعادة الآخروية للجهاديين .
- (٢) الحفز على إقناع المستضعفين من المؤمنين من يد الأعداء .
- (٣) ذم الجبناء بخورهم وخوفهم بعد ظهورهم بهيبة الشجعان .
- (٤) كذب يخاف الناس من الموت وهو لاحقهم أينما كانوا .
- (٥) ذم التشاؤم من المخلوق بحدوث المصائب مع أن الله هو الفاعل لكل شيء .
- (٦) إعادة الكلام في وجوب طاعة الرسول مع العلم أن كل ما تقدم من تلك الطاعة .
- (٧) ذم المرجفين الذين يذيعون الأخبار قبل مراجعة أولى الأمر .
- (٨) الكلام على المنافقين .
- (٩) تحريم قتل المؤمن كما وجب محاربة المعتدين على البلاد والعدو اللعير .

- (١٠) التحريض على الهجرة للقادرين .
 (١١) قصر صلاة المسافرين والكلام على صلاة الخوف في الحرب .
 فحصل الكلام في هذا القسم :
 (١) جهاد من المؤمنين الصادقين .
 (٢) حكم على الناقضين بالضلال .
 (٣) محرم قتل المؤمن .
 (٤) فرار القادرين الذين لا يجدون نصيرا في أرض العدو .

التفسير اللفظي

يقول في الفصل الأول (خذوا حذرکم) يفظوا واستعدوا بالسلح للقتال (فانفروا) اخرجوا للجهاد (ثبات) جماعات متفرقة جمع ثبة تقول ثبتت على فلان ثبية إذا ذكرت جميع محاسنه وجمع الثبة ثبين (أوانفروا جميعا) مجتمعين كوكبة واحدة ، وذلك وإن كان واردا في الحرب فهو عام لكل خير (وإن منكم لمن ليطئن) اللام الأولى لام الابتداء السماة بالمرحقة ، والثانية واقعة في جواب القسم ، وليطئن إما بمعنى يتباطأ ويتناقل فلا يتوجه للحرب ، وإما بمعنى تسيطر غيره كما فعل بعض الناقضين يوم أحد ، وبطأ بالتشديد من بطؤ بك التمدي بالباء ومن اسم موصول اسم إن ، أى وإن منكم بحسب الظاهر مناققين في الباطن والله ليخلفن عن الجهاد (فإن أصابكم مصيبة) كقتل وهزيمة (قال) ذلك البطيء (قد أنتم الله على إذ لم أكن معهم شيئا ولئن أصابكم فضل من الله) كفتح وغنيمة (ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما) وجملة كأن لم تكن الخ معترضة ، وهذا القول لضعف في العقيدة (فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون) يبيعون (الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغب فسوف تؤتبه أجرا عظيما) .

وقال في الفصل الثاني (وما لكم لا تحماتلون في سبيل الله و) في سبيل استقناذ المؤمنين (الستضعفين) من أيدي الكفار ، ثم بينهم فقال (من الرجال والنساء والولدان) في مكة (الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها) فأجاب الله دعاءهم ، وهذا وإن كان قد نزل في المستضعفين بمكة فحكه عام ، واللسلون اليوم آثمون ، ولذلك سلب الله عليهم الفرنجة فأذلوهم ، وقوله (الطاغوت) الشيطان ونحو ذلك ثم أمرهم بقتال أولياء الشيطان وأبان ضعفه تشجيما لأن الباطل لا يثبت له .

وقال في الفصل الثالث : (ألم تر) يا محمد إلى الذين كانوا يقولون من الشركين أذى كثيرا بمكة قبل أن يهاجروا وكانوا يستأذنونك في القتال فكنت تأمرهم بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وعدم الحرب حتى تأذنك بذلك فلما كتبنا عليهم القتال خاف بعضهم لقاء العدو فصاروا يخافون الناس تكشية الله أو أشد خشية ، وهذا من الجبن وحب الحياة والليل إليها (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال الخ) .

وقال في الفصل الرابع (قل) لهم (متاع الدنيا قليل) سريع زواله (والآخرة خير لمن اتقى ولا يظلمون) تنقصون أدنى شيء من ثوابكم (فتيلا) ما يكون في شق النواة كما تنهدم (البروج للشيدة) القصور أو الحصون المرتفعة ، وأصل البرج : بيت على طرف القصر ، من تبرزت للمرأة إذا ظهرت .

وفي الفصل الخامس : إن للدينة كانت ذات خير وأرزاق ونعم عند مقدم النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما ظهر نفاق الناقضين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك ، فقال للناقصين واليهود ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه فقال الله تعالى (وإن تصيبهم حسنة) خصب

وَعَارَ (يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة) جذب في الثمار (يقولوا هذه من عندك) أي من شؤم محمد وأصحابه (قل) يا محمد (كل) من الحسنة والسيئة (من عند الله) فأما الحسنة فإنعام ، وأما السيئة فابتلاء ، لأنه سبحانه يربي الناس بالسراء والضراء والتربية يلزمها الأمان (فإن هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً) يوعظون به وهو القرآن ، فكله ناطق أن كل شيء من الله (ما أصابك) أيها الإنسان (من حسنة) نعمة (من الله ، وما أصابك من سيئة) بلية (فمن نفسك) لأن الاستعداد والقابلية لنفسك لم يلق لها إلا تلك البلية ، لأن الله يربي الناس وينقلهم من حال النقص إلى حال الكمال ، فاستعداد الضعيف ليس كاستعداد القوى والبلايا ما هي إلا نقص وما النقص إلا عدم الكمال فأنه لم يخلق العدم وإنما خلق الوجود ، وليس يقال إن الله ظلم الدودة فلم يعطها فلسفة أفلاطون ولا حكمة لقمان ، لأن خلق الدودة لا يستلزم تلك الحكمة بل لافائدة لها في ذلك الكمال (وأرسلناك) يا محمد إلى كافة الناس رسولا لتبلغهم رسالتى وما أرسلتك به ، ولست رسولا إلى العرب وحدهم بل أرسلناك (لناس رسولا وكفى بالله شهيدا) على إرسالك للناس كافة .

وقال في الفصل السادس (من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى) عن طاعته (فما أرسلناك عليهم حفيظاً) تحفظ عليهم أعمالهم وتحاسبهم إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب وقوله (ويقولون طاعة) أي أمرنا طاعة أو منا طاعة (فإذا برزوا) خرجوا وقوله (بيت طائفة منهم) أي زورت خلاف ما قلت لها أو ما قالت لك من القول ، وبيت من البيتوتة ، لأن الأمور تدبر بالليل (والله يكتب ما يبيتون) يزورون (فأعرض عنهم) قلل اللبالة بهم وتخاف عنهم (وتوكل على الله) في الأمور كلها لاسيما في هذا الأمر (وكفى بالله وكيلاً) يكفيك مضرتهم وينتقم لك منهم (أفلا يتدبرون القرآن) يتأملون معانيه والتدبر النظر في أدبار الشيء ، وعواقبه (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) من تناقض المعنى وتفاوت النظم وبعضه تسهل معارضته وبعضه تصعب معارضته وبعضه يطابق خبره المستقبل الواقع وبعضه لا يطابق وبعضه يوافق العقل وبعضه يخالفه .

وقال في الفصل السابع (وإذا جاءهم أمر) مما يوجب الأمن أو الخوف أفضوه ، فإذا سمع بعض ضعة المسلمين خبراً عن سرية من سرايا عن طريق الوحي أو عن طريق الناقلين أذاعوه بين الناس وفي ذلك مفسدة في السياسة ، ولو ردوا ذلك الخبر إلى الرسول وإلى آراء أولى الأمر منهم البصراء بالأمور (لعله) العقلاء (الذين يستنبطونه منهم) أي يستخرجون تدييره بذكائهم وفطنتهم ومعرفتهم بأمور الحرب وهم الذين يعرفون ما ينبغي أن يذاع وما ينبغي أن يكتم إحكاماً للسياسة ، فكان يجب على هؤلاء الضعفاء أن يرجعوا إلى أولئك المستنبطين من أولى الأمر فيما يرد من الأخبار .

ولما دعا الناس عليه الصلاة والسلام إلى القتال في بدر الصغرى إلى الخروج كرهه بعضهم وقد تقدم ذلك في غزوة أحد في سورة آل عمران ، وأن أبا سفيان واعد النبي صلى الله عليه وسلم موسم بدر الصغرى بعد حرب أحد ، فلما كره بعضهم الجهاد حين دعاهم في الموعد نزل (فقاتل في سبيل الله لاتكلف إلا نفسك) إلا فضل نفسك فخرج في سبعين راكباً (وحرص المؤمن) على القتال (عسى الله أن يكف بأس الدين كفروا) حتى قريشا وقد فضل فالتقى في قلب أبي سفيان ومن معه الرعب فرجعوا (واقه أشد بأساً) من قريش (وأشد تنكيلاً) تعذيباً (من يشفع شفاعة حسنة) أي من يصر شفعاً لوتر أصحابك يا محمد فيشفعهم في جهاد عدوهم (يكن له نصيب منها) حظ وافر منها (ومن يشفع شفاعة سيئة) بأن قاتل أصحابك وكفر بدينك (يكن له كفل) نصيب (منها وكان الله على كل شيء مقبلاً) مقتدراً قال الشاعر :

وذي ضمن كففت الشر عنه وكنت على إساءته مقبلاً

أى قادرا ، وقال ابن عباس في هذا اللقاع في الحسنة والسيئة ما لها مفسر غيرى : معناه من أمر بالتوحيد وقاتل أهل الكفر وضده السيئة ، وأقول إن هذا التفسير هو للناسب للقام .

ولما ذكر الله أنه يكافى المحسن بنصيب والسيء بكفله وأنه قادر على كل شئ أردفه بأنكم أيضا أيها الناس عليكم أن تتقوا ربكم وتتخلقوا بأخلاقه وتسيروا على نهجه ، فتقابلون الإحسان بالإحسان فقال (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها) التحية : العطية ، فإذا أعطى الإنسان عطية فليعط أفضل منها أو ردوها وجوبا وهو قول قديم للشافعى .

والجمهور حمله على السلام فيزيد من رد السلام : ورحمة الله فان قالها المسلم زاد وبركاته ، والرد واجب وجوبا كغالبها ، ولا يشرع الرد في بعض الأحوال فلا يرد في الخطبة وقراءة القرآن وفي الحمام وعند قضاء الحاجة (إن الله كان على كل شئ حسيبا) يحاسبكم على الشفاعة السيئة وعلى عدم رد التحية بأحسن منها أو مثلها . وللسلام أحكام تطالب من علم الفقه فلانطيل بها ، وأما قوله (الله لا إله إلا هو إلى قوله حديثا) تفسيره ظاهر . وقال في الفصل الثامن : (فما لكم) تفرقتم (فى) أمر (المناقنين) فرقتين ولم تتفقوا على كفرهم (والله أركنهم) بأن صيرهم إلى النار ، وأصل الركن رد الشئ مقلوبا (أتريدون أن تهدوا من أضل الله) أى تجعلوه من أهل الهداية (ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) إلى الهدى وقوله (ودوا لو تكفروا كما كفروا) أى ودوا لو تكفروا كما كفروا مثل كفرهم (فتكونون سواء) مستويين أتم وهم فى الكفر (فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله) فلا توالوهم حتى يؤمنوا بأن يهاجروا من الكفر إلى الإيمان لأن الهجرة فى سبيل الله بالإسلام (فإن تولوا) عن الإيمان (غنظوهم واقتلواهم حيث وجدتموهم) كما هو حكم سائر الشركين (ولا تتخذوا منهم وليا) توالوهم (ولا نصيرا) وإن بذلوا لكم الولاية والنصرة فلا تقبلوهم .

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وادع قبل خروجه إلى مكة هلال بن عويمر الأسلمى على ألا يمينه ولا يمين عليه وعلى أن من وصل إلى هلال والتجأ إليه فله من الجوار مثل الذى لهلال كان الأسلميون بهذا من المعاهدين أيضا ، لقد كان بنو مدلج عاهدوا ألا يقاتلوا المسلمين وعاهدوا قريشا ألا يقاتلواهم فهذا يكون بنو مدلج مسلمين والأسلميون معاهدين .

وهذا هو قوله تعالى مستثيا من قوله « غنظوهم واقتلواهم حيث وجدتموهم » الخ (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إلا الذين يصلون إلى الأسلميين وحنوهم ممن لهم عهد (أو جاءوكم حصرت) ضاقت (صدورهم) عن (أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم) عطف على الصلة : أى أو الذين جاءوكم كافرين عن قتالكم وقتال قومهم كبنى مدلج ، والحصر : الضيق والاقباض . ثم بين الله أن صرفهم عن المسلمين من فضل الله فقال (ولو شاء الله لسلطهم عليكم) بأن يقوى قلوبهم وشرح صدورهم ويزيل الرعب من قلوبهم (فلقاتلوكم) ولم يكفوا عن قتالكم (فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم) الاستسلام والاضياء (فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) أى فما أذن لكم فى أخذهم وقتلهم .

ثم إن أسدا وغطفان وبنى عبد الدار آتوا المدينة وأظهروا الإسلام ليأمنوا بأس المسلمين ، فلما رجعوا كفروا وكلموا قومهم إلى قتال المسلمين فقاتلوهم ، فهذا قوله تعالى (ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم) يظهرون الإيمان فى المدينة (ويأمنوا قومهم) بمحاربتكم إذا رجعوا إليهم (كلما ردوا إلى الفتنة) الكفر (أركسوا فيها) عادوا إليها وقلبوا فيها أقبح قلب (فإن لم يجزئوكم ولبقوا إليكم السلم) ولم يلقوا الصلح (ويكفوا أيديهم) عن قتالكم (غنظوهم واقتلواهم حيث تفتنموهم) حيث تمكنتم منهم (وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا) حجة واضحة فى التمرض لهم بالقتل والسي لظهور عداوتهم ووضوح كفرهم وغنظهم .

وقال في النصل التاسع : ما ملخصه إن القتل ثلاثة أقسام : عمد ، وشبه عمد ، وخطأ . فأما العمد المحض فهو أن يقصد قتل إنسان بما يقتل به غالبا فيقتل به فيه القصاص عند وجود التكافؤ أو دية مغلظة سيأتي بيانها في مال القاتل . وأما شبه العمد فهو أن يقصد ضرب إنسان بما لا يقتل بمثله غالبا ، مثل أن ضربه بصا خفيفة أو رماه بحجر صغير فمات فلا قصاص عليه ، وتجب عليه دية مغلظة على عاقلة المؤجلة إلى ثلاث سنين وأما الخطأ المحض فهو ألا يقصد قتله بل قصد شيئا آخر فأصابه فمات فلا قصاص عليه ، وتجب فيه دية مخففة على عاقلة مؤجلة إلى ثلاث سنين ، وقتل الخطأ مثل أن يقصد قتل كافر فيصيب مسلما .

ودية الحرّ مائة من الإبل فإن لم توجد الإبل قيمتها وهي ألف دينار أو اثنا عشر ألف درهم ، وفي الدية المغلظة والمخففة كلام طويل في علم الفقه يرجع إلى أن تكون الإبل أصغر سنا من التي هي مغلظة مع كونها مائة ، وهل دية الدمى والمأهدة مثل دية السلم ؟ رأيان : وهذا قوله تعالى (وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا) بغير حق (إلا خطأ) أي إلا قتلا خطأ كما اتفق لعياش بن أبي ربيعة أخى أبي جهل من الأم لقي حارث بن زيد في طريق وكان قد أسلم ولم يشعر به عياش فقتله (ومن قتل مؤمنا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) أي فواجبه تحرير رقبة أي عتق رقبة مؤمنة (ودية مسلمة إلى أهله) مؤداة إلى ورثته يقسمونها كسائر الموارث (إلا أن يصدقوا) يتصدقوا عليه بالدية فسمى العفو عنها صدقة حيا عليها (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة) أي إن كان المؤمن المقتول من قوم كفار محاربين ولم يعلم إيمانه فعلى قاتله كفارة دون الدية لأنها ترجع إلى الورثة ، والكافرون لا يرثون المؤمنين كما هو معلوم في الميراث (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) أي وإن كان من قوم معاهدين أو أهل ذمة فحكمه حكم المسلم في وجوب الكفارة والدية (فمن لم يجد) رقبة بأن لم يملكها ولا ما يتوصل به إليها (ف عليه) صيام شهرين متتابعين (شرع ذلك) توبة صادرة (من الله وكان الله عليما) بحاله (حكما) فيها أمر في شأنه (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدآ فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما) .

واعلم أن قتل السلم عمدا والزنا وشرب الخمر وعقوق الوالدين وأشباهاها لا توجب خلودا في النار ولكن عذابها شديد لأنها من الكبائر ؛ والمراد بالخلود للكث الطويل ، فإن الدلائل متظاهرة أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم . روى أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك فهربوا وبقي مهادس ثقة بإسلامه ؛ فلما رأى الخيل ألبأ غنمه إلى عاقول من الجبل وصعد ، فلما تلاحقوا به وكبروا كبر ونزل وقاله : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، السلام عليكم ، قتله أسامة واستاق غنمه فنزل (يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم) سافرتهم وذهبتن للغزو (في سبيل الله فتبينوا) اطلبوا بيان الأمر وثباته ولا تعجلوا فيه (ولا تخزلوا لمن ألقى إليكم السلام) بمن حياكم بتحية الإسلام . وفي قراءة - السلم - أي الاستسلام والاقبياد (لست مؤمنا تبغون عرض الحياة الدنيا) تطلبون ماله الذي هو حطام سريع النفاذ (فبئس ما كسبتنكم) لكم عن قتل أمثاله لماله (كذلك كنتم من قبل) أول ما دخلتم في الإسلام فتحصنتم بالشهادتين من غير أن يعلم ما في قلوبكم (فمن الله عليكم) بالاشتهار بالإيمان (فتبينوا) وافعلوا بالداخلين في الدين ما فعل بكم (إن الله كان بما تعملون خيرا) عالما به .

وقال في النصل العاشر : (لا يستوى القاعدون) عن الحرب (من المؤمنين غير أولى الضرر) بالرفع صفة للقاعدون أو بدل أو بالنصب حال (والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) أي لامتساواة بينهم وبين من قصد عن الجهاد من غير علة (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدین درجة) أي بدرجة (وكلا) من القاعدین والمجاهدين (وعد الله الحسنی) للثوبة الحسنی وهي الجنة (وفضل الله المجاهدين على

القاعدين أجرا عظيما درجات منه ومغفرة ورحمة) وفضل متضمن معنى أعطى وأجرا مفعول ثان له ودرجات ومغفرة ورحمة كلها بدل من أجرا (وكان الله غفورا) لما عسى أن يفرض منهم (رحميا) بما وعد لهم .
 وقال في الفصل العاشر أيضا: (إن الذين توفاهم الملائكة) أى توفتهم أو توفاهم فهو ماض أو مضارع أى توفاهم قبض أرواحهم (ظلمى أنفسهم) أى حال ظلمهم أنفسهم بترك الهجرة كقيس بن الفاكه بن الغيرة وقيس بن الوليد بن الغيرة فهذان وأشباههما دخلوا في الإسلام ولم يهاجروا ، فلما خرج للشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار ، والعلوم أن الله تعالى لم يقبل الإسلام من أحد بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يهاجر إليه ثم نسخ ذلك بعد فتح مكة بقوله صلى الله عليه وسلم «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية» أخرجهما في الصحيتين فسألهم الملائكة حين قبض أرواحهم (قالوا فيم كنتم) سؤال توبيخ وتقرير (قالوا كنا مستضعفين) عاجزين (في الأرض) أرض مكة (قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟) كما فعل المهاجرون إلى المدينة وإلى الحبشة (فأولئك ما أوام جهنم) لأنهم تركوا الواجب وساعدوا الكفار (وساءت مصيرا) والمخصوص بالذم جهنم (إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان) استثناء منقطع (لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا) حالان من المستضعفين (فأولئك عسى الله أن يفوه عنهم وكان الله عفوا غفورا) وهذا ظاهر (ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا) وهو التراب ، يقال خرج الرجل عن قومه مراغما لم: أى مغاضبا لهم ومقاطعا ؛ فالمرام المذهب والمهاجر والتحول كأنه خرج رغم أنفسهم ، والرغم التراب كأنه أذلمهم ، ومخروجه ، وأنشد الزجاج :

إلى بلد غير داني المحل بعيد المرغام والضطرب

(وسعة) في الرزق وإظهار الدين (ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيمًا) ومعنى وقع وجب . زلت في جذب بن ضمرة حمله بنوه على سرر متوجها إلى المدينة ، فلما بلغ التنعم أشرف على اللوت فصفق يمينه على شماله وقال : اللهم عنده لك وهذه لرسولك ، أبايكم على ما بايع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فبات فيه .

وقال في الفصل الحادى عشر : (وإذا ضربتم في الأرض) أى سافرتم (فليس عليكم جناح أن تنصروا من الصلاة) بتصريف ركعاتها فيصير الظهر والعصر والعشاء كل منها ركعتين كالصبح وجوبا عند أبي حنيفة لقول عمر رضى الله عنه « صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم محمد صلى الله عليه وسلم » ولقول عائشة رضى الله عنها « أول ما فرضت الصلاة فرضت ركعتين ركعتين قصرت في السفر وزيدت في الحضر » ورأى الشافعى أن القصر رخصة في السفر والإكمال عزيمة لأن لا جناح يستعمل في موضع التخفيف والرخصة لافى موضع العزيمة . وقال الحنفية : إنه عزيمة لارخصة ولا يجوز الإكمال لقول عمر المذكور ، وأما الآية فكأنهم ألقوا الإتمام فكانوا مظنة لأن يخطر ببالهم أن عليهم تقصانا في القصر فنفي عنهم الجناح لتطبيق تقوسهم بالقصر ويطمثوا إليه ، ثم قال (إن خفتم أن يقتكم الذين كفروا) جار على حسب الغالب في ذلك الوقت ولذلك لم يثبت المفهوم فالصلاة تقصر في الخوف وفى الأمن كما في قوله تعالى « فإن خفتم الأيقيما حدود الله فلا جناح عليهما الخ » فالسنن تظاهرت على جوازها في حال الأمن .

آراء العلماء.

(١) صلاة السافر ركعتان تمام غير قصر عند ابن عباس وابن عمر وجابر بن عبد الله والسدى وأبي حنيفة قصرها إذن تخفيف الركوع والسجود .

(٢) صلاة السافر مقصورة وليست بأصل ، وهو قول مجاهد ومطوس والشافعى وأحمد .

(٣) يجوز القصر في كل سفر مباح عند الشافعي ومالك وأحمد والجمهور .

(٤) يجوز القصر بشرط أن يكون سفر حج أو عمرة أو جهاد أو سفر طاعة .

(٥) لا يجوز القصر في سفر المصيبة ، وأبو حنيفة والثوري يميزانه فيه .

أى سفر يكون القصر فيه ؟

(١) قال داود وأهل الظاهر : يجوز القصر في قصر السفر وطويله وروى عن مالك أيضا .

(٢) قال الأوزاعي يشترط سفر يوم .

(٣) وقال الحسن والزهرى سير يومين .

(٤) وقال الشافعي سير ليلتين وذلك ستة عشر فرسخا كل فرسخ ثلاثة أميال فتكون ثمانية وأربعين ميلا

بالمشعى ، والليل ستة آلاف ذراع ؛ والذراع ٢٤ أصبعا معترضة معتدلة ؛ والأصبع ست شعيرات معترضات معتدلات .

(٥) ابن عمر وابن عباس يقصران ويفطران في مسيرة أربعة برد ، وهي ستة عشر فرسخا كالتقدم وهكذا

مالك وأحمد وإسحق .

(٦) وقال الثوري وأبو حنيفة وأهل الكوفة : لا قصر في أقل من ثلاثة أيام .

فأبو حنيفة مشدد ، وداود وأهل الظاهر مسهلون ، والباقون متوسطون ، ثم قوله تعالى « إن ختم أن ينتقم الدين كفروا » روى فيه أن عمر رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك فقال « صدقة تصدق الله عليكم بها فاقبلوا صدقته » أخرجه مسلم .

ثم شرع يذكر صلاة الخوف فقال (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم) . ملخص ذلك :

أن يجعلهم طائفتين تقوم إحداهما معه يصلون وتقوم الطائفة الأخرى تجاه العدو ، والدين يصلون معه يجب أن يأخذوا أسلحتهم ، فإذا سجد الصالون وجب أن يكون الدين لا يصلون حارسين لهم من ورائهم ، ثم ينهب الصالون إلى وجه العدو ويأتي الحارسون فيصلون مع الإمام ويجب أن يأخذوا حذرهم وأسلحتهم . هذا معنى الآية . وهناك كيفية لتلك الصلاة ، وهذا يأتيها :

[الأولى] صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم يظن نخل صلى مرتين بكل طائفة مرة وهذا ظاهر .

[الثانية] أن يصلى صلاة واحدة بكل ركعة في التي هي ركعتان ، فيصل بالأولى ركعة وينتظر قائما حتى يتموا صلاتهم منفردين وينهبوا إلى وجه العدو ، وتأتي الأخرى فيصل بهم الركعة الثانية ثم ينتظروهم قاعدا حتى يتموا صلاتهم وسلم بهم كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم بذات الرقاع .

وقال أبو حنيفة يصلى بالأولى ركعة ثم تنهب هذه وتقف بإزاء العدو ، وتأتي الأخرى فيصل مع ركعة ويتم صلاته ثم تعود إلى وجه العدو ، وتأتي الأولى فتؤدي الركعة الثانية بغير قراءة وتم صلاتها ، ثم تعود وتأتي الأخرى فتؤدي الركعة بقراءة وتم صلاتها ، وإذا كان العدو في جهة القبلة فليصفهم صفين ويحرم بهم جميعا ، فإذا سجد سجد معه أحد الصفين ووقف الصف الآخر يحرسهم ، فإذا رفع سجدوا ولحقوه وتشهد الإمام بالصفين .

والعبارة بترتيب الإمام ونظيره في الحرب ، ولا دخل لأحد إلا نظر القائد الذي يصلى بهم والآية واضحة ، وإنما حذرهم الله لأن العدو يترصد وقت الصلاة ليفنيهم فيه ولعلك قال (ود الدين كفروا لو تغفلون عن

أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلاً واحدة) أى تمنوا أن ينالوا منكم غرة في صلاتكم فيشدون عليكم شدة واحدة .

من آراء العلماء

(١) رأى أبى يوسف والحسن وابن زياد من أصحاب أبى حنيفة أن صلاة الخوف كانت خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا تجوز لغيره .

(٢) اللزى من أصحاب الشافى يقول كانت ثابتة ثم نسخت .

(٣) على بن أبى طالب وأبو موسى وحذيفة بن اليمان صلواها : الأول ليلة الحرير، والثالث بطبرستان ولم يخالفهم الصحابة وهو مذهب أبى حنيفة والشافى وكثير من العلماء .

واعلم أنه إذا اشتدت الحرب والتحم القتال صلوا رجالاً وركباناً يومئذ للركون والسجود إلى أى جهة كانت عند الشافى . وعليه يكون قوله تعالى فيما يأتى « فإذا قضيت الصلاة » أى إذا أردتم أداءها واشتد الخوف فأدوها كيف أمكن قياماً مسايضين ومقارعين وقعوداً مرامين وعلى جنوبكم مشخين ؟ ومذهب أبى حنيفة أنهم لا يصلون، فإذا أمنوا قضاها ما فاتهم من الصلاة ، ثم قال (ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى) أى لا حرج عليكم فى حال اللطرح وحال المرض (أن تضعوا أسلحتكم) لأن السلاح ينقل حملة عليكم (وخذوا حذركم) أى راقبوا العدو ولا تغفلوا عنه (إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً) ثم قال تعالى (فإذا قضيت الصلاة) أدبتموها وفرغتم منها (فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم) فدوموا على الذكر فى جميع الأحوال .

قالت عائشة رضى الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر الله فى كل أحيائه » (فإذا اطمأنتم) سكنت قلوبكم من الخوف (فأقيموا الصلاة) أى أتموها أربعا وذلك فى الإقامة فى الأوطان ، أو أعموا ركوعها وسجودها إذا سكن القلب بالأمن بعد الخوف (إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً) فرضاً مؤقتاً محدود الأوقات لا يجوز إخراجها عن أوقاتها فى شئ من الأحوال (ولا تنهوا فى ابتغاء القوم) لا تضفوا فى طلب الكفار بالقتال (إن تكونوا تأملون فإنهم يأملون كما تأملون وترجون من الله ما لا يرجون) فالألم قدر مشترك بينكما ، وقد صبروا على ألمهم أفلا تصبرون ؟ وقد امتزمت بأنكم على الحق وفى قلوبكم رجاء النصر فى الدنيا والثواب فى الآخرة فأنتم ترجون إحدى الحسينين (وكان الله علياً حكماً) فهو يعلم مصلحتكم ، انتهى التفسير اللفظى .

التفسير المعنوى وجمال القرآن والإسلام

- (١) مناسبة هذه الآيات لأول السورة فى خلق آدم .
- (٢) كيف تحفظ صور الموجودات الجمادية باليوسة بعد أن شكلت بالرطوبة ؟
- (٣) كيف تحفظ الأتس الحيوانية بما هو فوق ذلك من قوة غضبية وأسلحة مختلفة ؟
- (٤) علم الإنسان ورحمته وقواه النفسية للحياة وشجاعته لحفظها ودوامها .
- (٥) ظهرت هذه القوة الغضبية فى الشجاعة لحفظ الإنسان ، وفى مظاهر الشهامة عند التوحشين .
- (٦) عند بعض الأديان القديمة .
- (٧) عند الأمم المختلفة بأشكال متباينة .
- (٨) تركها بعض الديانات فضلت أهمهم سواء السبيل واتبعت الشهوات .
- (٩) الإسلام له فى ذلك ثلاث درجات .

(١٠) الآيات التي قرأتها الآن والسابقة للمحافظة على الوطن وتقسيم بعض المسلمين وفضل بعضهم في التقدم .

(١١) تجاوز ذلك الإسلام إلى إدخال سائر العناصر وجعلهم أمة واحدة ككافور الإخشيدى والبيد للصربون يسودون ساداتهم وهذا بخلاف أوروبا ، وإن الدين الذي بهذا الشكل يصلح للدين إذا وجد رؤوسا كبيرة تراعى الزمان والمكان .

نظام هذا العالم ونظام الإنسان والتثام أول هذه السورة مع علومها

اعلم أن الله عز وجل خلق هذا العالم متشابها متشاكلا متجاذب الأطراف وحسبك أن تنظر ما حولك من العناصر والمركبات الطبيعية، ألسنت ترى كل صورة حجرية أو كتلة مدرية مانالت شكلها لإبرطوبة آلاتها ومائتةسيتها قبلت التدوير أو التثليث أو الترييح أو التخميم ثم ألحت عليها الشمس إلحاحا ففأسكت الأجزاء وتجاذبت الأطراف أو لست ترى أن اللبناات يصيرها الناس أجرا بإحراقها بالنار محافظة على الصورة أن تغلت من مادتها . فلمعرك لم تقبل الشكل إلا وهي بالرطوبة مشبعة ولم يبق الشكل يوما أو بعض يوم أو مئات السنين إلا بالبيوسة التي أتجنبت الحرارة الشمسية أو الحرارة النارية يستوى في ذلك الجمد والمعدن والنبات والحيوان . أليس آدم الذي أشير إليه في أول السورة بأننا منه خلقنا ذكورا وإنا نأقده خلق من صلصال وما الصلصال إلا الفخار والفخار كان رطبا حتى شكل وبعد ذلك ألحت عليه النار فييس .

أيها الذكي ارفع طرفك قليلا وليكن بصرك حديدا فلتنظر أليست النفوس الحيوانية فيها القوة الضيية لتحفظ كيانها وتمنع عدوها وتنطحه بقرونها أو تقتله بجهناتها وقوتها أو ترفسه بأرجلها أو تمدو إلى أوكارها الخ .

أليس هذا شيئا اختص بالنفوس لم يكن في الأجسام الجمادية فهو هنا حرارة نفسية وهناك في الصلصال حرارة نارية جسمية ، ثم إن النفوس الحيوانية والإنسانية لأنحيا إلا بأراء وغرائز تقوم بها من رحمة وحب والحب قد يكون لطلب الطعام الذي به حياة الأجسام وطلب الإناث من النوع لتولد الأمثال .

فالحب والرحمة في الأنفس قائمان مقام الرطوبة في الأجسام الطبيعية لتقبل الأشكال الصورية والقوة الضيية في هذه الحيوانات كالبيوسة في الأجسام فلولا الغذاء ما عاش حيوان ولأنما إنسان كما لا يصور نبات ولامادة تربية إلا بمخالطة الرطوبات ، ولولا غريزة حب البقاء في الإنسان والحيوان والنضب اللودع فيها للدفاع عن النفس ما عاش أحد منهما إلا قليلا .

فالمحافظة في سائر الحيوان على الأنفس غرائز واجبة الحصول . فترى ما ألهمه كل حيوان ظهر آره على أعضائه فترى القرون والمخالب والأنياب وقوة العدو والصدف على جسد السلحفاة والإبر على جلد القنفذ وأنياب الأسد وسم الحيات والعقارب وقوة الفيل . كل تلك آلات تطابق ما جبلت عليه تلك النفوس من المحافظة على أجسامها بقواها الضيية للسلحة بالأعضاء الظاهرية ، وترى هذه القوى الباطنية لا أثر لها في الأحجار كما لا أثر لأسلحتها في تلك الجمادات .

وتعال فوق ذلك إلى الإنسان ، تر الطيارات الهوائية والجيوش البرية والمراكب البحرية والنوامات للمائية كل ذلك مطابقة لقواه الفكرية واستعداداته العقلية .

على ذلك درج الإنسان قديما وحديثا بأشكال مختلفة وهو في الحقيقة لم يتمد طور ما حوله من المخلوقات وإنما ذلك تنوع في أنواع الدفاع . ولمعرك لم يخرج مما جاء في أول السورة أنه من أيه آدم وهو من صلصال حبست صورته بالنار فييست الصورة وحفظت .

هكذا هنا تبقى الصورة الإنسانية والحيوانية بدفاع العدو عنها فلا يتلفها وذلك بالسلاح القائم مقام الحرارة في الصور الجملية .

ألم تر إلى التوحشين من أهل السودان كيف ظهر ذلك في أفعالهم العادية ، وأن الشاب يظهر أمام القتيل إذا أراد التزوج بواحدة منهم فيضربونه ضرباً متواليًا حتى يسيل الدم من ظهره وهو لا يظهر الألم شجاعة وقوة حتى يستعظمه الواقفون ويملاً عين من ترغبه زوجها لها .

ثم ارتفع عن هذه الطبقة إلى الأم التي أخذت من العلم بنصيب ، أفلم يكن أهل أسبارطة يميلون الترية دائرة على أن يجرن الشبان على احتمال الضرب كل يوم بالسياط أمام الأشراف . فأما الصبيان فإنهم يضربون ضرباً صورياً ثم يزداد كل يوم شدة بحيث يجرنون تدريجاً ويكون ذلك قوة لهم حتى يتحملوا ما سيلقيه الدهر عليهم من دروسه فتقوى أجسامهم ويكونون شجعاناً .

ثم ارتفع فوق ذلك المستوى وانظر إلى الأديان القديمة كالدين الذي كان شائماً في شمال أوروبا في جهة السويد ونروج ، إذ قام فيهم عظيم يدعى (أودين) فاتبعوه قروناً طويلة وحكم ألا يموت أحدهم إلا قبلاً وعدة الموت العادي جريمة وإثماً مبيناً حتى إنه إذا كان عظيم من العظماء قد دنا أجله نزل في سفينة وأوقدوا فيها النار حتى يموت الملك أو الأمير بين الماء والنار .

ولعمرك لم يكن ذلك إلا لتربية الشجاعة في القلوب وأن يألف الإنسان عظام الأمور فلا يجرع للصاب ولا يحزن للصاب .

كل ذلك من السر الذي في صلصال آدم والمحافظة على النفوس من طريق الشجاعة ؛ ولقد ثبت أن الحيوانات البحرية أطول أعماراً ، وانظر هذا في الدين وهو الدين السحري كيف حرم مقابلة السيئة بمثلها ؛ ولكن أتباعه بعد حين صاروا أظلم الأمم . فهتكوا الأعراض وخرّبوا البلاد وملكوا المسلمين شرقاً وغرباً وظلم بعضهم بعضاً كما حصل في حرب الألمان وأوروبا فلم يرحموا إنساناً من دينهم أو غير دينهم ، فالقوة الغضبية غالبية على هذا الإنسان .

ولما جاء الدين البوذي في الهند ومنع الناس من الظلم اجتاحتهم الأورويون ، ولقد تشكلت هذه الصفة في الأمم بأشكال مختلفة كما فصله الفارابي في كتاب آراء أهل المدينة القاضية :

(١) من الأمم من اتخذت القهر بالسلاح لإشباع الشهوات البهيمية والقوة الشهوية ومطاولعة الخواص الخس في مطالبها الظاهرية .

(٢) ومنهم من يقول كلا ، وإنما أريد الغلبة لحفظ كرامتي وعظمتي بين الناس .

(٣) ومنهم من يقول أغلب الناس لشهواتي ولحفظ كرامتي معاً .

(٤) ومنهم من يقول ليست الغلبة والقهر طبيعيتين في الإنسان وهذه تسمى المدينة السائلة

(٥) وهؤلاء يقاتلون إن قوتلوا وأريد إيذاؤهم .

(٦) وأولئك لهم طرق في الغلبة فتارة تكون الغلبة بالحرب .

(٧) وتارة تكون بتجارة النساء وحرب الرجال .

(٨) ومنهم من يستبدون أمة ويتخذونها مساعدة لحرب أخرى .

(٩) ومنهم من يجعل المعاهدات سماً للظلم فيمهدون أمة ويحاربون معها أخرى

ولا ينطيل بذلك ، بل تقتصر على ما أتى بالقصود فنقول :

ها أنت ذا رأيت طبائع الإنسان وآراء بعض الديانات وسياسات الأمم فهالك أمر الإسلام .

لقد أثبت لك في سورة البقرة أن للإسلام في الحرب ثلاث مراتب :

[المرتبة الأولى] ألاّ حرب ولا نضال . وذلك في زمن الضعف كما في أيام إقامة النبي صلى الله عليه وسلم في مكة .

[المرتبة الثانية] محاربة المحاربين والذين يهجمون على الأوطان .

وجوب المحافظة على الوطن في الإسلام من أهم ما في القرآن

انظر ما مر عليك في سورة البقرة ألم تر إلى قوله تعالى في قصص بني إسرائيل (وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) وانظر ما تقدم في سورة آل عمران كيف رأيت أن غزوة بدر للشار إليها في أولها إنما كانت محاربة لأهل مكة الذين أخرجوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ، وغزوة أحد كيف كانت لما أراد الأعداء مهاجمة المدينة ؛ وقد تشاور النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه وأشار بعضهم بالخروج إلى الأعداء ، وبعضهم أشار بالبقاء في المدينة ثم طلب الفريق الأول وخروجوا إلى أحد ، ثم انظر إلى هذه الآيات وكيف يقول (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله ولستضعفين من الرجال والنساء والولدان الخ) فأفاد أنه سبحانه يحرضهم على إغاثة المؤمنين بمكة من ظلم الكافرين هناك ، وهذا ولا شك دفاع عن الوطن ، فانظر كيف جعل الله الوطن محترما وجعل المحافظة عليه أمرا عظيما وكيف كانت سورة آل عمران قد كان منها قسط كبير للجهاد وهكذا هذه السورة كل ذلك للمحافظة على الأوطان .

أفلم ترى أن المسلمين أيام حرب الأندلس لم يكن عندهم شهامة ولا حمية ولا شرف ولادين وهم جهلاء ؟ أفلا ترى أيضا أن المسلمين اليوم نائمون ؟ اللهم إلا ما حصل قريبا من أهل الأندلس والقرس والترك فانهم استقلوا وبنوا حكم الفرنجة لبلادهم .

فأما باقي المسلمين فانهم نائمون ضربت عليهم الفرنجة ذلة الاستعباد وهامى ذمة بلادنا المصرية تنفت الصعداء قليلا في هذه الأيام والفرنجة لا يزالون يشدون وبروحون في مصر وتونس والجزائر ومراكش وبلاد جاوه وسومطرة والشام وفلسطين والعراق وأهل البلاد في تلك الأصقاع متحاسدون متباعضون متقاتلون يجهلون الشرف ولا يعرفون المحبة والآنحاد « تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى » .

أفلم يقرءوا قوله تعالى في هذه الآيات (وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله ولستضعفين من الرجال والنساء والولدان الخ) فالمسلمون مأمورون أن يخلصوا من وقع في يد الأعداء من إخوانهم وهؤلاء يقدمون إخوانهم قربانا للفرنجة في مراكش وتونس والجزائر ومصر وربع الشام والعراق .

لقد أصبح أبناء العرب مثلا للذين يخضعون وطعمة لمن يأكلون ولكن أن يزول ذلك الرجز من القلوب ويرجع لهم مجدهم المفقود إن شاء الله تعالى فقد بدت بوادر النجاح وتبشير الفلاح .

الواجب على المسلمين في أقطار الأرض

أيها المسلمون الفرار الفرار من العار ؛ انظروا في سائر شؤونكم ، الجهاد ليس قاصرا على الحرب أتم اليوم تحتاجون للجهاد في كل شيء ؛ في التجارة ، في العلم ، في حفظ البلاد ، في عدم ضياع الوقت ، في حفظ الصحة في السياسة ، في التفكير .

فلتكن أكثر ملابسكم من مصنوعات إخوانكم في بلادكم وترقوا الصناعات الإسلامية وتنشئوا المدارس العالية بكثرة ، فمشرة متعلمون تعليما راقيا أفضل من آلاف من الناقصين تعليما ، ولا تمكنوا الأجانب من البقاء في بلادكم وبيدوا في القوة لإخراجهم وأخذوا فيما بينكم لطردهم ، ذلك ما يجب عليكم أيها المسلمون .

[أما المرتبة الثالثة التي ذكرت في سورة البقرة] فقد ذكر نظيرها في بعض هذه الآيات وهي قتال الشركيين

أين وجدناهم كما قال في آية (وقتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) والقصد من هذه إدماج الأمم وجعلها أمة واحدة .

ولقد نجد هذا واضحا في أمة الإسلام وقد صار خلقا ، فالمسلمون يحب الدين لا يفضلون أحدا على أحد إلا بالتقوى .

ألا ترى إلى كافور الإخشيدي كيف كان عبدا أسود وحكم المصريين وفيها الأشراف من آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم ؟ وكيف ترى أسامة بن زيد وولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قيادة الجيش ودام كذلك زمن أبي بكر .

وترى في بلادنا المصرية آثار العيد ظاهرة في هذه الأيام ، فإن عييد الحديويين لم من الملك ما ليس لأعظم الأحرار في البلاد ، كل ذلك لأن الإسلام خلط الأمم وجعلها أمة واحدة كما في أول هذه السورة (الذي خلقكم من نفس واحدة) فإذا كانت الحرب لأمر أخرى فليس للقصد إلا ترقية الأجناس للمنحلة ، فإنك ترى العسكر الانكشارية في الدولة التركية ما كانوا إلا شراف من العبيد الذين اشتروهم بالمال ، وكذلك للمالِك البرية والبحرية بمصر إن هم إلا أرقاء كانوا يجلبون من بلاد الروس والصقالبة ويشترون بالمال ، فإذا مات السيد من الأمراء المصريين ورثه عبده الذي اشتراه .

ومن هؤلاء الظاهر بيبرس ومن قبله ومن بعده من الملوك الذين استولوا على مصر نحو ثلثمائة سنة ، وهكذا نسلهم بقوا فيها بعد فتح الدولة التركية لها إلى دخول المغفور له محمد علي باشا في أول القرن الثامن عشر المسيحي فمزقهم شرّ مزق وكذلك الترك قتلوا الانكشارية الذين هم عبيد أيضا كانوا يتعلمون الدين والقرآن ويحكمون الدولة ويدافعون عنها فاستعبدوا ملوك بني عثمان وقتلوا الدولة وأهلكوها وأخروها والقصد من هذا القول أن الإسلام لعدم تفرقة بين الأجناس تغالت الأمم الإسلامية في تسليط الأجناب عليها متى أسلموا حتى أنست بالمدلة فأرهقتهم الفرنجة ، والقرآن هو الأصل الذي عليه الاعتقاد في ذلك ، هذا كان مقصد الإسلام من الأسرى ثم فكهم وإعتاقهم ، فالقرآن يأمر بالحرب للسلم وللتعلم فيأتي بالجهلاء والتوحشين فيرقهم ويحلهم ثم يكونون في نعمة لم يحلم بها آبائهم ، وهذا العمل من المسلمين مطابق لقوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أفليس ما هناك هو ما في هذه السورة ؟ أليس يقول هنا في أول السورة إنه خلقنا من نفس واحدة ؟ ثم يحرسنا على القتال لحفظ الوطن ثم يشير إلى القتال العام ثم يقول حرروا الرقبة للؤمنة إذا قتلتم مؤمنا خطأ فجعل التوبة من الذنوب أن تحرر الأسرى . إن تحرر الأسرى ظهر في الإسلام ظهورا واضحا ، فكثيرا ما يأمر بالتحرر وعتق العبيد ، وهذا هو السرّ في اختلاط الشعوب الإسلامية .

مقايسة أوروبا بالإسلام

لقد دخلت أوروبا بلاد الشرق وقالت أتم أيها الناس أحرار ، ولكن هل جعل الإنجليز من المصريين وزيرا أم الفرنسيون جعلوا من الجزائريين أميراً ؟ أم اتخذ الأسبان من أهل مراکش وكيلاً ؟ كلا ثم كلا ، وكثير من تلك الدول تنال الأموال جهارا وتقتل الناس بالطيارات فلا يامون إلا غرارا ، فأى الحكيم أقرب للعدل وأولى بالحق . هل جعل الفرنجة من المسلمين ملكا على بلادهم كما جعلنا كافورا ملكا في مصر لجرد الإسلام . كلا هذه هي الليزة الإسلامية على سائر الأمم الغربية .

نحن جعلنا كافورا ملكا وأمريكا لاترضى أن يكون السود جالسين مع أبنائها في العريات ويحضرون أن يساووهم ، فالإنسان جهول كفار .

مخاوراء فى المجلس العام للمسلمين بعد مائى سنة فأكثر

بحكى فى علم الحىال أنه اجتمع مجلس الشورى العام (البرلمان) فى الأسناءة وقيل فى أهرة وقيل فى مكة وحضر من كل أمة من الأمم العربية والتركية والقارسية والأفغانية ونحوها نائبون . ولما اسفر بهم المجلس وقف أحد الأعضاء وقال لقد أغلرت الأمم الإسلامية على أمة كذا وأدخلتها فى حوزتها فهل يرى المجلس أن نعاملها معاملة أوروبا لأهل أمريكا الأصليين فمنهم بالتدريج وهرضهم من الوجود كما هى السنة الابعة فى الاسعمار؟ فرد نائب الأفغان وقال: إنا إذا فعلنا ذلك كنا مثل السوء فى العالمين وكيف نعمل ذلك ونبينا جاء رحمة للعالمين ونحن خلفاؤه على المخلوقين ، فقال نائب القرس مالكهم ردون كل مورد وتذهبون فى البحث بعيدا فالعضو المحترم الأول حكى بالإهلاك والثانى أوجب الأيسوا بسوء وهل تذكرون أوسط الأمور وأفضلها عند الجمهور أن نجعل بعضهم لبعض عدوا كما فعل الإسكندر بملوك الطوائف كما أمره أستاذة أرسطاطاليس وسلط عليهم الشهوات وزوجهم الغانيات وألبسهم التيجان وألزم كلا اسم الملك فتنازعوا بينهم والإسكندر حكى بحكم بينهم فهم الأعداء ومو المبوب وهكذا حدث حذوه إنكلترا وفرنسا وسائر أم أوروبا حتى فرقت المسلمين شذر مذر أيام القرون الأولى ، وهانحن أولاء قدمنا الله علينا فاجتمعنا فلنعمل معهم كما فعلوا معنا ، فقام عالم مصرى وقال : أيها الإخوان أذكركم بالقرآن ألم يقل الله (فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول) فى سورة النساء . فلنرد الأمر إلى كتاب الله وفعل الرسول ونظام هذا العالم ، يقول الله (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة) فلم يقل يا أيها المؤمنون بل جعل الخطاب للناس والناس كلهم أسرة واحدة ، ولقد وصى على الأيتام وأمرنا أن نعلمهم وأن نتصف إذا كنا أغنياء ونأخذ أجرنا بالحق إذا كنا فقراء؛ فهؤلاء الذين دخلوا فى حوزتنا كالأيتام فلنكن عوننا لهم ولنحافظ عليهم ولنعلمهم حتى يتبشروا بالحياة والاستقلال ، والمقصود من الرد إلى كتاب الله النظر فى المقصد العام من فعل الله وقوله على وجه العموم فقال العضو التركى لقد قلت قولا فى الإنم والشار وما القائمة العائدة على المسلمين نعلمهم وزبيهم فيصبحون مثلنا ومحارب أبناءنا إن هذا هو الجهالة العمياء والضلالة السوداء ، فقال العالم التونسى وهو عضو البرلمان إن النظرية القرنبجية غارية من العقل خالية من الفهم كانوا يخافون أن ترقى الدول فيطشون بهم وهذا قصر فى النظر وضمف فى السكر .

إن هؤلاء قد جنوا عكس ما زرعوا وبشما زرعوا علموا أبناءهم الاتسكال على ماصنع غيرهم فينامون على وساد الراحة والمسلمون يصلون غملمت أمهم وضعت قواتهم لأن آباءنا كانوا يزيدون نشاطا وهم يتدلون انحطاطا فتسكامل المحول فى الآخرين وتم النشاط والقوة فى الأولين حتى دالت دولة الغربيين وأشرفت نمس الشرقيين فهذه النظرية جاهلية . أما الذى أراه فإن الله عز وجل جعلنا خلفاء فى الأرض ووكل لنا إصلاح عباده وأوجب علينا قيادتهم وإرشادهم وحفظهم فلنعاملهم بالأمانة ولنعلمهم ولنهذبهم ولا نفضل مافل آباؤنا للمسلمون فقد كانوا يأتون بالأوباش والجهلاء ويسلطونهم على منازلهم وممال كمهم فيحكمون الدول ؛ كلائم كلا ، فذلك هو الذى أساع السولتين العربية والتركية القديمة وهذا تفريط من المسلمين ولا نعلم إذلالا شديدا كما فعل الأوربيون فى المسلمين ، ولكن نتخذ الطريق السوى فنعلمهم وزبيهم وتركهم متى اسقلوا بأنفسهم ويكونون لنا أصدقاء مخلصين .

فأما ما قاله العضو المحترم إن أبناءهم يقتلون أبناءنا فهذه نظرية أوروية خاطئة . ذلك أنه لا يبقى فى الوجود إلا الأسلح له والأمة المسلحة النافعة للناس لن تبيد من الوجود ، فما دنا نافعين للناس فالنوام مضمون ولنا نخاف على أبنائنا إلا من نومهم وكسلهم وحرصهم وجبنهم ، ولن يكون ذلك إلا إذا ظلمنا هؤلاء الذين

ملكناهم فسخرناهم لأبنائنا فبنام هؤلاء الأبناء على فراش الراحة الوثير كما نام الأوروبيون على حساب الشرقيين فوصوا في ذل الشهوات فزالت مدينتهم وتفرق جمعهم وزال اسمهم من الوجود ، فهذه الأمم كانت أنظارها ضيرة وآراؤها سقيمة يفعلون ما فعلته الدولة العباسية والدولة البائدة التركية التي كانت تأكل أرزاق الأمم فتصبح عالة عليها وتزول من الوجود كما كانت دولة الرومان .

وعلى هذا فلنساعد هؤلاء القوم ونقول لأبنائنا استعدوا للحياة وكونوا ذوي عزم وحزم ، ولنعودم السلام والأعمال الشريفة ولنهدبهم ونعلمهم الحب والاعتماد وهذا هو السعى الحميد والرأى السديد فإذا اجتمعت الأمم على مضرتهن لن يضرروهم لأنهم بالحق قائمون وللعالم محسنون والله لا يزيل من أرض الصالحين وإنما يهلك الفسدين وقال الله لنبينا صلى الله عليه وسلم (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) .

فأخذت الأصوات فقال هذا الرئيس الأخير ٢٨٩ صوتاً ضد ١٢٨ صوتاً وعليه صار العمل ، انتهى للقصد السادس .

(الحم) (الحم) (الحم)

المقصد السابع

إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِثِينَ خَصِيماً * وَاسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً * وَلَا تَجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً * يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمْتَلُونَ مُحِيطاً * هَأَنتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا * وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً * وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْمًا مُبِيناً * وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضَاوِكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً *

تفسير هذه الآيات

قال ابن عباس : نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له طعمة (مثلثة الطاء والكسر أفصح) ابن أيرق من بني ظفر بن الحارث سرق درعا من جاره له يقال له قتادة بن العمان وكانت البرع في جراب فيه دقيق فجعل الدقيق ينثر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى داره ثم خبأها عند رجل يهودي يقال له زيد بن السمين فالتبسوا البرع عند طعمة لخلف بالله ما أخذها وما له بها من علم ، فقال أصحاب البرع لقد

رأينا أمر الدقيق حتى دخل داره ، فلما حلف تركوه واتبوا أمر الدقيق إلى منزل اليهودي فأخذوه منه فقال اليهودي إنه دفعها إلى طعمة بن أيرق وشهد له جماعة من اليهود ، وجاء بنو ظفر قوم طعمة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يجادل عن صاحبهم طعمة فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجاب اليهودي وأن يقطع يده فأزل الله هذه الآية .

ولما نزلت هذه الآيات فيه لحق مكة مرتداً عن دينه ثم عدا على الحجاج بن علاط فتعب عليه بينه فسقط عليه حجر من الحائط فلما أصبحوا أخرجوه من مكة فلقى ركبا فمرض لهم وقال ابن سبيل ومنقطع به غملوه حتى إذا جن عليه الليل عدا عليهم فسرقتهم ثم انطلق فركبوا في طلبه فأدركوه فرموه بالحجارة حتى مات . قال بعضهم إذا عثر من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات فهذا قوله تعالى (إنا أنزلنا إليك) يا محمد (الكتاب بالحق للحكم بين الناس بما أراك الله) أي بما علك الله وأوحى إليك (ولا تسكن) يا محمد (للخائنين خصبا) أي ولا تسكن لأجل الخائنين وهم قوم طعمة محاصبا عنهم ومدافعا ومعيانا (واستغفر الله) مما هممت به من معاقبة اليهودي ومن أنك هممت بالمجادلة عن طعمة (إن الله كان غفورا) يعني لتدوب عباده بسترها عليهم (رحبا) بعباده المؤمنين (ولا تجادل عن الذين يخفون أنفسهم) يخفونها (إن الله لا يحب من كان خوانا أثما) أي مبالغا في الحياة مصرا عليها منهم كما فيها (يستخفون من الناس) يستترون منهم حياء وخوفا (ولا يستخفون من الله) وهو أحق أن يستخف منه (وهو معهم) لا تخفى عليه أسرارهم (إذ يبيتون) يزورون (مالا يرضى من القول) من رضى البرى والخلق الكاذب وشهادة الزور (وكان الله بما يعملون محيطا) لا يخفى عليه شيء من أسرارهم ولا أسرار غيرهم (ها) للتنبيه (أتم) يا هؤلاء (والإشارة إلى من كانوا يدافعون عن طعمة وقومه) جادلتم (خاصتم) عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيفا) محاميا يحميهم من عذاب الله (ومن يعمل سوءا) قبيحا يسوء به غيره (أو يظلم نفسه) بما يحرص به ولا يتعداه (ثم يستغفر الله) بالتوبة (يجد الله غفورا) لذنوبه (رحبا) متفضلا عليه وهذا حث لطمعة وقومه أن يتوبوا (ومن يكسب إثما) فأنما يكسبه على نفسه (لا يتعداه وباله) (وكان الله عليا حكما) فهو عالم بفضله حكيم في مجازاته (ومن يكسب خطيئة) صغيرة (أو إثما) كبيرة (ثم يرم به بريئا) كما روى طعمة زيدا (فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا) بسبب رضى البرى ، وتبرئة نفسه (ولولا فضل الله عليك ورحمته) بإعلام مام عليه بالوحي (لهدمت طائفة منهم أن يضلوك) عن القضاء بالحق مع علمهم بالحال (وما يضر ونك من شيء) فإن الله عصمك (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلك ما لم تكن تعلم) من خفيات الأمور الدينية والحكسية (وكان فضل الله عليك عظيما) وأي فضل أعظم من النبوة ؟ انتهى التفسير اللفظي .

بيان أجلى ونور أشرق

لقد تبين أن هذه السورة نزلت لجعل الناس أمة واحدة لأن أباهم واحد وقد خلقوا من نفس واحدة ؛ وأن رجلا كثيرا ونساء خلقوا من تلك ، وأن فيها الوصية على الرحم والقرابة واليتامى والساكين والوصية بالجار القريب والسكينة ؛ فاعلم أن الأمر فوق ذلك فأصبح الدين الإسلامى بهذه السورة وهذا القصد منها يحمي اليهودى الذى قال الله في أهل دينه « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » فانظر كيف جعل اليهود ألد الأعداء في الإسلام وكيف أنزل في الوحي هذه الآيات . يقول يصف الكتاب إنه أنزله بالحق وإنك يا محمد تحم بين الناس بالعدل وكيف تكون قاضيا بالحق وتهم بالمعاماة عن الخائن فاستغفر يا محمد الله فإن الله غفور رحيم ، وكيف تجادل عن الخائنين والله لا يحبهم إنهم قوم براءون الناس ويخشونهم ولا يرقبون ربهم . هب أنكم أيها المحامون جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن ذا الذى ينفعهم يوم الحساب

وأين المهامون هناك وأين الوكلاء في تلك النار؟ ولقد كاد القوم يضلونك ولن يقدروا عليك لأنك معصوم فأمددناك بلطائف من عندنا وأعطيناك رحمة من لدنا واصطفيناك للناس ففضلنا عليك عظيم .

يقال هذا القول وأمثاله لأجل يهودى يجب بحسب الظاهر أن يحد من السارقين ، فلقد وجد المبرع في داره ومع ذلك يعاتب نبينا صلى الله عليه وسلم عتابا طويلا على ما هم به مما يؤيده ظاهر الحال .

فانظر كيف حفظ الإسلام الحقوق مع أعدى أعداء الإسلام وأنزلت الآيات للنبي عتابا عظيما ، فلو أن المسلمين اليوم رجعوا إلى ديننا ونظروا في الحقائق الساطعة لأصبحوا أرقى العالمين فانظر كيف كانت هذه حال الإسلام وقد خالفها فريقان :

[الفريق الأول] أكثر أمة الإسلام فإنهم يتعصبون لأقاربهم ويجادلون عن أصحابهم وإخوانهم وأقاربهم بالحق وبالباطل ولا يظهرون الحقائق ولا يشهدون بالحق ويقولون فلنستر على الإخوان والله يقول كلا . انظروا إلى اليهودى كيف ضربت الذكر صفحا عن قبيلة برمها من العرب وأخزيتهم وأخجلتهم بآيات القرآن وقرآنتهم تقريرا يقرأ لآخر الدهر ولم أبال بأنهم مسلمون وهو يهودى بل نصرت الحق والحق أبلغ ، فإن أهل الأرض أمة واحدة وجميع الناس خلق وأنا الذى صررتهم وأوجدتهم في أرضى وأنا الذى أنزلت الديانات وحكمت على كل أمة أن تتبع ديننا وجعلتكم خير الأمم وأنتم رحمة العالمين ، فليكن أن تخالفوا الأمم في أخلاقها وأن تكونوا أشرف من أوروبا مقاما وأرفع شأننا وأرقى أخلاقا وأوسع إشراقا وأعلى مذاقا وأجمل انساقا وأعظم للحقوق إحقاقا .

[الفريق الثانى] الدول الأوروبية . إن أم القرنجة لا تعدل في القضاء إلا في رعايها . ولقد حدث وأنا أولف هذا التفسير أن شابا مصريا يدعى على فهمى يبلغ من العمر ٢٣ سنة تزوج امرأة فرنجية من بلاد فرنسا ولم تلبث معه إلا ستة أشهر وبينما هي تعيش معه في بلاد الإنكليز تشاجرت معه فضربته برصاصة من (بندقيتها) فأردته قتيلًا قدمت للقضاء فأقرت بذلك لحكم القاضى والمحكومون في المحكمة أنها بريئة لأنهم عليها معللين ذلك بأنه كان يؤذيها ويحجزها في منزله وكان يفعل معها أفصلا تناسلية لانتليق ولم يكن لديها أى إثبات إلا ما كانت تلقيه بلسانها . وبهذا الحكم تقربوا لفرنسا واحترقوا المصريين والمسلمين . فانظر الحكيم وتعب من المعلنين أيهما أقرب للإنسانية وأيها يأنس بالوحشية هنا هو دين الإسلام وهذه هي اللدنية في أوروبا ، فاللحده الذى وقفنا بهذا الحادث أن تكون للوازنة بين الديانات الشرقية والجهالات الغربية والساوى الكاذبة بأنهم قوم متمدينون فلتقومن في بلاد الإسلام بمالك محمية وأم حكيمة تحترق ما في أوروبا من سفاسف الأخلاق والجهالة العمياء ، ويظلمون على القرآن وينظرون فيه بإيمان ، ويكون لهم في القضاء القدر العلى ، وفي حكم الشعوب للقمام الأكل ، وما ربك بنافل عما يعمل الظالمون « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كل في كتاب ميين » انتهى تفسيرا للقصد السابع .

المَقْصِدُ الثَّامِنُ

لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَن أَمَرَ بِصِدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ
وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن

بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا * إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
صَلَّ صَلَاةً بَعِيدًا * إِنَّ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَانَا، وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا *
لَعَنَهُ اللَّهُ، وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا * وَلَا ضَلَالَتَهُمْ وَلَا مَنِّينَهُمْ وَلَا مُرْسَلَهُمْ
فَلْيَتَّكِنَنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مُرْسَلَهُمْ فَلْيُحْمِئِرْنَ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ
اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا * يَبْدُهُمْ وَيَمْنَهُمُ وَمَا يَمْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا * أُولَئِكَ
مَتَّوَاهِمٌ جَهَنَّمَ وَلَا يَحِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا، وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا * لَيْسَ
بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُحْزَنَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا
وَلَا نَصِيرًا * وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ
الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ
إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ
يَكْلُ شَيْءًا مَحِيصًا * وَبَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فِي الْكِتَابِ فِي يَتْلَىٰ النِّسَاءَ الَّتِي لَا تَوْلَتْوَنَّهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ
وَالْمُسْتَضْمِنِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلنِّسَاءِ بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِهِ عَلِيمًا * وَإِنْ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا
بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ، وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا * وَلَنْ نَسْتَطِيعُوا أَنْ نَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ
فَتَذَرُوهُمَا كَالْمَمْلُوقَةِ، وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا * وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ
كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِنَّا كُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ فِي
السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا * وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ

بِاللَّهِ وَكَيْلًا ۖ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ قَدِيرًا ۖ مَنْ
 كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا بَصِيرًا ۖ يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ
 إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَمُدُّوهُ وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَمْرَضُوا
 فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي
 نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
 وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا
 ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا أَلَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلُ لِيَكْفُرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ۖ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ
 عَذَابًا أَلِيمًا ۖ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِيتُّوا عَنْدَهُمْ الْعِزَّةَ
 فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۖ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا
 وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا ، فَلَا تَقْعُدُوا مِنْهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثَلْتُمْ إِنْ اللَّهَ
 جَامِعِ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۖ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ
 مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَعِذْ بِعَلَيْكُمْ
 وَنَعْتَمِدْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ۖ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
 كَسَالَىٰ يُرَاوُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۖ مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هُوَالَاءَ
 وَلَا إِلَىٰ هُوَالَاءَ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ
 أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُحْمَلُوا بِعَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ۖ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
 فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ۖ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ
 وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۖ مَا يَفْعَلُ
 اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۖ لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالشُّوْءِ
 مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيمًا عَلِيمًا ۖ إِنْ تَبَدُّوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَفَوَّاهُ عَنْ سُوءِ

فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا قَدِيرًا ۖ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۗ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۗ

وفي هذا القصد أربعة فصول :

الفصل الأول : إكمال القول على العدل في الأحكام وذلك بذكر المهامة عن الكاذبين الخائين وعن تزوير سرا لنصرهم ومدح شرف النفس ونصر الحق والحض على الصلح والبر والمعرف والصدق بدل ما لاخير فيه من تزوير المهامين ، وفيه بيان عدل الله الذي هو النهج الذي يقتدى به عباده في العدل في أفعالهم وأحكامهم وكيف جعل أمره غير خاسع لإرادة أحد من المسلمين والأمم السالفة بل « من يعمل سوءا يجز به - إلى قوله تعالى - وكان الله بكل شيء محيطا » .

الفصل الثاني : في بيان بعض مسائل في العدل تطبقا على القاعدة السابقة كالعدل في يتامى النساء وللمتضعفين من الولدان واليتامى وحسن معاشره النساء من قوله « ويستفتونك في النساء - إلى قوله - وكفى بالله وكيلًا » .

الفصل الثالث : في بيان أن الأمم التي عدم العدل في أحكامها بين أفرادها تدرس معالمها وتحلل أجزاءها ويأتي الله بأمر أخرى تحكها وتدوسها وتجعلها في الأذلين ، وبيان إنكار الذات والأهل عند الصدق في الشهادة حتى لا تعرض الأمة لأسباب الاقراض من قوله « إن يشأ بنهكم » إلى قوله « فإن الله كان بما تعملون خبيرًا » .

الفصل الرابع : في بيان الإخلاص في الإيمان لأن العقيدة هي أس العمل بالعدل الذي شرحه في الفصول السابقة ، فجعل هذا العمل أساسا لها ، فأوضح فيه رذيلة النفاق وموالات الأعداء ، مما يجعل القلوب مذبذبة مضطربة لا ثبات لها ، فلا يكون عدل في الأحكام ولا صدق في الشهادات ، فتزول الدولة ويستخلف الله قوما آخرين من قوله « يا أيها الذين آمنوا - إلى قوله - أولئك سوف يؤتيمهم أجورهم وكان الله غفورا رحيمًا » .

الفصل الأول

لقد أبان في القصد السابع كيف يكون العدل في الإسلام ، وكيف يذم الله المهامين في القضايا للزورة ومن يزورون الشهادات وكيف يلوم القضاة على عدم البحث الدقيق والكشف والتحقيق والأخذ بالأحوط وجمع الدلائل والتروى في الأحكام حتى تجميع الأدلة وتعرف كل علة وما على المدعى أوله ، فأخذ في هذا القصد بقول تسميا للرام وتنويرا للافهام « لاخير في كثير من نجواهم » يقال ناجيته ساررته والنجوى أيضا الإسرار في التدبير يقول : لاخير في كثير مما يتسار الناس به ويدبرونه سرا سواء أكان للتسارون قوم طعمة أو غيرهم (إلا) نجوى (من أمر صدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) فالنجوى للصدقات خير وللعرف وهو كل ما يستحسنه الشرع ولا ينكره العقل خير كالترض وإقامة للمهوف وصدقة التطوع وتدبير الحرب وحفظ البلاد والتمور وما أشبه ذلك ؛ فالعرف أعم من الصدقة ، والإصلاح بين الناس خير ؛ فالنجوى إذن على قسمين : نجوى للشر ونجوى للخير ، فالشر محذور والخير متبع (ومن يفعل ذلك ابتغاء

مرضات الله فسوف تؤتبه أجرا عظيما (أى ومن يفعل هذه الأشياء المذكورة طلبا لرضا الله فإن الله يكافئه بالأجر العظيم ، وقد رتب الأجر العظيم على العقيدة النفسية بأن تكون جميع الأعمال صادرة لترضى الخير للفرس في النفس ، لأن الحياة الدنيا يراد منها اللسكات الفاضلة في النفوس ؛ فأما بذل المال أو العلم بلا قصد شريف ، فإنما يكون أشبه بهبوب الماء على ذرات الهباء ، وما الأعمال إلا ثمرات القلوب فإذا لم يكن العمل منبها القلوب لم ترتب الإيرادات في النفوس ولم يكن لها إلا النصب في الإشفاق والتعب وللشاق بلا نغز في الأخلاق ولا رقي في الشهور والوجدان .

ولما كانت النجاة بالشر تابعة لما في النفس من شقاق ، كما أن النجاة بالخير تتبع ما فيها من وفاق ، لأن العقيدة أسّ الأعمال فلا خير إلا بالعقائد ولا شر إلا منها حاصل ، وكان الذي يجمع الأمم اتحاد عقائدها ، والذي يفرقها تشتت آرائها أردفه بزم انشقاق الألفة الجامعة في الأمم الإسلامية فقال (ومن يشاقق الرسول يخالفه من الشق فكل من المتخالفين في شق غير الشق الآخر (من بعد ما تبين له الهدى) ظهر له الحق (ويتبع غير سبيل المؤمنين) غير مأمم عليه من اعتقاد أو عمل (نوله مأثولي) نكله في الآخرة إلى ما نوله في الدنيا (ونضله جهنم) نلزمه جهنم وأصله من الصلى وهو لزوم النار وقت الاستدقاء (وساءت مصيرها) جهنم ، وإذا كان اتباع غير سبيل المؤمنين ممنوعا كان اتباع سبيلهم واجبا . وهذا دليل على أن الإجماع من الأدلة الشرعية .

ولما كان اتحاد الأمم مبناه اتحاد الفكرة ، فإذا كان العبود في نفوسهم واحدا انجبهوا لترضى واحد ، وإذا تفرقت الأهواء تفرقت الأمم أردفه بذكر التوحيد ، وكأنه يقول إن تفرق الأمة في أعمالها واختلافها في أغراضها راجع إلى ما في القلوب من الاختلاف وما في النفوس من الأهواء . فأما إذا اتحدت العقائد وانتظمت الآراء ، فإن الأعمال تكون على مقتضاها اتحادا والثباتا فقال (إن الله لا يفرق بين من يشرك به ويفتر مادون ذلك لمن يشاء) ومدار الأمر على الوحدة العقلية ، والوحدة العقلية تتبعها الوحدة العملية . فأما تفاصيل الأعمال وتباين الأحوال من طاعة وعصيان مع ثبات العقيدة الأصلية فليس يمنع من الانتظام العام فقد يفتخر في الفروع بالافتخار في الأصول ؛ فالشرك لا يغفران في اعتقاده ، والفتنة قد تكون في الأحوال العملية فليس كل ذنب موجبا زلزلة القواعد ، وما مثل القواعد الإيمانية إلا كتل القواعد المنزلية في البيوت المبنية ، فإن زالت القواعد هدم البناء ، ألم تر إلى قوله تعالى « فأنى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأناهم العذاب من حيث لا يشعرون ، فأذاهم الله الحزى في الحياة الدنيا » فالقواعد أصول العقائد والبنية الأعمال العامة المحافظة للجموع ، وبزلزلة القواعد يسقط البنيان ويكون الحزى في الحياة والعذاب في السمات ؛ فهكذا هنا ذكر اتحاد الأمة وعدم مخالفتها وبين سبب ذلك وهو تكوين الوحدة الفكرية ، وإن هدمها هدم ذلك البنيان .

وهذه المسألة هي الأصل الذي بنى عليه قدماء الفرس إدخال النحل الكثرية في الإسلام وللذاهب التعدد تفرقا لكلمة العرب وتشتيتا لشملهم ، وهي التي اختارها البابا وبارونات أوروبا ودوق فينيزيا لما أرادوا غزو المسلمين في الأندلس ، فقد قرروا فيما بينهم أن لأنجاة من المسلمين ولا غلبة عليهم إلا بتحويل عقائدهم وإدخال الشك في قلوبهم وتعليمهم الإلحاد واحتقار الديانات والاستماعة على ذلك بتغيير أزيائهم وإدخال المعاصي الظاهرة من الزنا والخر عليهم وتعويدهم الترف والنعيم حتى زول تلك الصبغة وآتى جيل سهل الانقياد سريع الاعمال فنقض عليه فنخرجه من أرضنا ، وقد تم ذلك في ثلثة سنة ونجح الفريون في تشتيت شمل العرب المسلمين ، كما نجح الفرس ببيت العقائد المختلفة ففرقوا الأمم شيئا وأصبح بأسهم بينهم

شديدا ، فلذلك نجد التديب على الشرك في هذه الآيات بعد أن ذكر الأنداد وأكتمه فقال (ومن يشرك بالله فقد ضل ضللا بعيدا) عن الحق ، وإنما كان بعيدا عنه لأن القلوب تختلف تبع ما اختلفت فيه فكل يتبع ما أحبه وعبد ، فمن عبد اللات أو العزى أو منات فقد انصرف قلبه إلى ما عبده وكره ما سواه ، فيكون لكل صنم جماعة فتفرق الشيع فلا يكون اتحاد فتختلف الأمم تلك الأمة لصنم اتحادها ؛ ولذلك أعقبه بقوله (إن يدعون من دونه إلا إنانا) وهي الأصنام المذكورات ، فقد كانوا يقولون أنى بنى فلان فيسمون الصنم بلفظ أنى ، ولا جرم أن الأتى منفعلة ، والرَب يكون فاعلا لا منفعلا ، ثم ذكر سببه فقال (وإن يدعون إلا شيطانا مريدا) المرید والمراد والمتمرد : المانى الخارج عن الطاعة ، فاتباع الشيطان سبب في عبادة الأوثان ، وعبادة الأوثان سبب لترك التوحيد للبنى عليه تحريق الألفة وتشيت الشمل ، ثم وصف الشيطان بوصفين آخرين وهما أنه ملعون يضل بعض الناس ويقذف في قلوبهم الأمانى الباطلة ويأمر بتغيير خلق الله كأن يشقوا آذان الأنعام الخ ، وهذا قوله تعالى (لئن لم يكن الله قدرا لولا أن يضل بعض الناس ويقذف في قلوبهم الأمانى الباطلة كطول الحياة وأن لا يبعث ولا عقاب (ولأمرنهم فليستكنن آذان الأنعام) ليشقنها لتحريم ما أحل الله كما كانت تفعل العرب في البحائر جمع بحيرة ، والسواحب جمع سائبة .

(١) وقد كان العرب يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن وجاء الخامس ذكرا ، وحرموا على أنفسهم الاتضاع بها .

(٢) والنساء يأتين بشعر غير شعرهن يصلنه به وهؤلاء بسمين الواصلات .

(٣) ومنهن الواشمات اللاتي يلوّن أجسامهن بلوّن الحضرة بفرز الإبر في الجلد وهو الوشم .

(٤) ومن تغيير خلق الله الإخضاء وقطع الآذان وفق العيون .

(٥) وكانت العرب إذا بلغت إبل أحدم ألفا عور عين غلها .

(٦) ومن تغيير خلق الله التخث .

(٧) ومنها عبادة الشمس والقمر والكواكب التي خلقت للنفعة فجعلوها معبودة .

وهذه هي أنواع تغيير الخلق التي ذكرها القسرون الأجلاء .

فترى أنسا يكره إخضاء النعم لأنها تغيير خلق الله وأدخلوا في هذا السحاق والواط لأنها تغيير لوجهة خلق الله والفعل الطبيعي الإلهي ، وهذا هو قوله تعالى (ولأمرنهم فليغيرن خلق الله) عن وجهه وصورته أو صفته (ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) إذ ضيع رأس ماله (يعدم) ما لا ينجزه (ويمتنهم) ما لا يبالون (وما يعدم الشيطان إلا غرورا) وهو إظهار النفع فيما فيه الضرر (أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيضا) معدلا ومهريا ، من حاس يحبس إذا عدل (والذين آمنوا وعملوا الصالحات - إلى قوله - ومن أصدق من الله قيلا) ظاهر تفسيرها ثم قال (ليس) ما وعد الله من الثواب لئال (بأمانكم) أيها المسلمون (ولا) : (أمانى أهل الكتاب) وإنما ينال بالإيمان والعمل والصالح .

ذلك أن المسلمين وأهل الكتاب افتخروا ، فقال أهل الكتاب : نبينا قبل نبيكم ، وكتابتنا قبل كتابكم ونحن أولى بالله منكم ، وقال المسلمون : كلا ! نحن أولى بالله منكم ، نبينا خاتم النبيين ، وكتابتنا يقضى على الكتب القديمة (من صحل سواء يجوز به) عاجلا أو آجلا . وروى « أنها لما نزلت قال أبو بكر فمن ينجو مع هذا يارسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أما تعرض أما تحزن أما يصيبك اللأواء ، قال بلى يارسول الله ، قال هو ذلك . وهذا الحديث لم يرد في الصحيحين وفي إسناده ضعف (ولا يجد له من دون الله وليا

ولا نصيرا ، ومن يحمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يتظنون فقيرا) لا يتقصون شيئا من الثواب (ومن أحسن دينا بمن أسلم وجهه لله) أخلص نفسه لله لا يعرف لها ربا سواه (وهو محسن) آت بالحسنات تارك للسيئات (واتبع ملة إبراهيم) وهي الموافقة لدين الإسلام (حنيفا) مائلا عن سائر الأديان (واتخذ الله إبراهيم خيلا) استغفاه وخصه بكرامة تشبه كرامة الخليل عند خليله والحنة من الخلال لأن الود يتخلل النفس ويخالطها (وفه ما في السموات وما في الأرض وكان الله بكل شيء محيطا) إحاطة علم وقدره فيجازى الناس على أعمالهم فلا ينذر أحدا من عباده إلا حسبه ، لا فرق بين مسلم وغير مسلم ويهودى ونصرانى ، انتهى التفسير اللفظى للفصل الأول من هذا المقصد .

وهنا لطائف :

[اللطيفة الأولى] في قوله تعالى « فليغيرن خلق الله » .

[اللطيفة الثانية] في الشيطان .

[اللطيفة الثالثة] « ليس بأمانكم ولا أمان أهل الكتاب » .

اللطيفة الأولى

لقد اطلمت في هذا التفسير على ما قاله المفسرون في معنى تغيير خلق الله وأنه حرام وذهبوا مذاهب ترجع إلى وصل شعر أو وشم جلد أو فقه عين جمل أو شق أذن أو تحريم بهيمة لها عمل نافع بأن ولدت أربما والخامس ذكر أو نخث أو سحاق أو لواط أو إخضاع كإخضاع العبيد ، فكل ذلك تغيير خلق الله .

وباليت شعري أن كل ذلك إلا في التغيير الظاهري والتشويه الجسمي ، فيجر إلى فسوق تارة كالوشم ووصل الشعر ، أو تحريم أخرى كالمشقوقة الأذن يحرمونها عليهم .

واعلم أن أهم تغيير خلق الله ما سأذكره لك هنا ، وهو تغيير وجهة الفطرة الإنسانية ، ألا ترى أن الله خلق في كل قطر من أقطار الأرض أناسا لهم مزايا في أهمهم ؟ وبعبارة أخرى أن كل أمة أشبه بحجم الإنسان فيها من هم كالسمع والبصر والكتف ، وفيها من هم كاليد أو العقل ، فالاستعدادات في الأفراد تختلف كالاختلاف في الأعضاء في الجسم الواحد .

ولقد وضحت هنا في سورة البقرة عند قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » أن الناس قد اختلفوا في فطرتهم وقابلياتهم ؛ فيجب أن يوضع كل في مكانه الذي استمد له .

فعلى مجالس النواب في الأمة أن يأمروا بأن يوضع كل في مكانه الخاص به ، وعلى المدرسين أن يمتحنوا التلاميذ بالعدل ويضعوا كلا في العلم الذي غلب على عقله حتى يستخرج من الأرض ثمراتها ، ففى نقص تلميذا درجة فقد غير خلق الله ، ومن وضع موظفا في غير وظيفته فقد غير خلق الله ، ومن لم يلاحظ الاستعداد فقد غير خلق الله ، والحكومات التي لا تلاحظ الشبان فتتركهم وشأنهم بلا زواج فقد غيرت خلق الله بالسكوت عن عقابهم ماليا بضرب ضريبة على الأعزب كما في بعض الدول الغربية . وأم أوروبا التي أنارت على بلاد الشرق فأكثرت من الأخلاق الرديئة وغيرت في أوضاع الأمم فقد غيرت خلق الله ، فتمت العلم عن التثريبين وحرمت النبوغ على بعض المسلمين .

وإذا كنا بشق أذن بهيمة وفقه عين جمل ووشم جلد قد غيرنا خلق الله ، وهكذا بتحريم بهيمة كأن حرمنا على أنفسنا أكل لحمها أو ركوب ظهرها قد غيرنا خلق الله ؛ فما بالك بتحويل ماهو أرفع مقامها وأوفى زمانا وأعلى شرفا ؟ وهى الفطر الإنسانية ، فنذر العقول الكبيرة من أبناء البلاد في أعمال صغيرة ، فربما اتفق أن يكون العليل في الحقول أبرع من الوزير في السياسة لو أنه وضع من صنعه في الدراسة ،

وربما كان في دست الوزارة من لا يصلح إلا لأعمال الفلاحة ، فلكل من الناس عمل يواظبه وطريق أنسب له ، وكم في البلاد الإسلامية من أيد عاطلة وعقول نائمة وأفكار خامدة ، فإذا أزلنا عليها ماء العلم اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

حكمة في العقل والمعدة

ولملك ترى أن العقل يطالبك في كل آن بلذاته ويؤنبك في كل حين على حرمانه ، ويقول لك إذا وقفت على شجر أو نظرت إلى حجر أو سموت بوجهك إلى قر أو شخصت بينك إلى كوكب سيار أو راقبت طائراً وقد طار يقول : لم أعطيت المعدة شهوتها ومنقته ؟ وراقبت الغذاء وتركنتي ؟ وذكرت نفسك ونسيتي ؟ ما هذا النجم الثاقب ؟ وما هذا الجبل الشامخ ؟ وكيف تزلزل الأرض زلزالها ؟ وما أسبابها ؟ وما تاريخ هذه الجبال ؟ وما أسباب هذا الجبال ؟ ولم جثا في هذا الوجود ؟ ولم كان العابد والعبود ؟ ولم ترى الهياكل تأتي بسجائب خافيات ؟ وحياة بعد الممات ؟ وحشر وحساب ؟ ونعيم وعقاب ؟ كل ذلك خفي أمره على فكن لي ولا تكن لي ، وانظر نظرة إلى حتى أعرف هذه الحقائق ، فأنا أولى من المعدة الجبارة ، وأنا أحق بهذه المهارة ، انتهى كلام العقل .

ثم إن عقلك يخاطبك بهذا الخطاب وأنت نجيه بالسكرت ، ولكن الله يقول على لسان الشيطان « ولآمرنهم فليضربن خلق الله » غلق المعدة فينا لم يغير خلقنا ، وإنما نحن أغرنا على العقل فأطلقناه وغيرناه . أقول : إن الجهل بهذه الأمور وأمثالها على المستعد حرام ، بل ربما كان من الكبائر وأقل ما فيه أنه فرض كفاية ، ولا كفاية اليوم في الأمم الإسلامية ، فالذنب واقع على الجميع . ورب جهل عند عمر ولا يبد ذنبا ، وجهل عند خالد يعد ذنبا على حسب استعدادهما ، وإذا كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام تعد عليهم أنفسهم ويستغفرون الله من ذنوبهم ؟ فهكذا ذوو العقول الكبيرة يحاسبون عليها حسابا عسيرا .

واعلم أن علماء الإسلام تظنون لهذا وقالوا : من عنده قدرة في علم نافع وجب عليه تحصيله ؛ فهذا دليل على أن الأمة فكرت في هذا ، إذن يكون حراما على القادر تركه ولا يحرم على العاجز أن يترك ذلك العلم . وانظر إلى الأمم الإسلامية كيف تركت العقل والعلم ، فانظر ماذا فعل الله فيها ؟ سلط عليها الفرنجة . ذلك أن الله لم يخلق شيئا إلا لمنفعة ، فإذا قامت المنفعة زال ذلك الشيء ، والحضو إذا ترك استعماله أصابه الضمور ، وإذا استعمل قوى وجرى فيه الدم ؛ هكذا العقول الإنسانية إذا سلط الله على الأمم رؤساء جهالا فأفهموا الشعب ألا يفكر أبناءه كما حصل للسلمين أخذت القوة المارقة تنهب شيئا فشيئا كما ذهبت من الحيوانات الداجنة وتحول ذلك العقل من الفسكين من رؤساء الفرنجة كما حوله الله من الحيوانات الداجنة إلى أخواتها الحيوانات الوحشية . والله لا يبطل الوجود لأجل جهل السلمين ، ولم يخلق الله ملكة لقوم كسالى عاطلين نائمين ، الملك ليس بمعتل شمسه تجرى وقره وكواكبه وأنهاره وحيوانه ، فمن خالف هذه القاعدة كعض السلمين اليوم أذله الله لأنه غير خلق الله بل أجمل خلق الله وهو العقل ، بل إن هذا من أولئك الذين قال الله فيهم « من قبل أن نطمس وجوها فنزدها على أدبارها » وأي طمس أشد من طمس العقل وما الوجه إلا مرآة له ، وهو الأصل والوجه هو الفرع .

إن تغيير خلق الله العقل ظاهر اليوم في بعض الأمم الإسلامية ، وطمس العقول واضح وقد آن أن يبدل الله الحال ويرجع لهم مجدهم وتستتير عقولهم ، ذلك هو الذي سيكون ، والله عاقبة الأمور .

هذا ولتقرأ ما كتبت على قوله تعالى « لا يكلف الله شيئا إلا وسعها » في سورة البقرة .

اللطفة الثانية

جاء في هذه الآيات أن الشيطان مر يد أي طت خارج عن الطاعة ، وأنه أقسم أن يتخذ له من عباد الله

جماعة من نصيبه ويحملهم من حاشيته فإن أمرهم أطاعوا وإن وعظهم بالوسوسة استمعوا له ، وإن قال أيها الناس قطعوا آذان الأنعام فملوا أو غيروا خلق الله بتشويه الجلد ووصل الشعر وتعطيل العقول أخذوا إليه واطمأنوا ، وهو الذي أمر الأمم الكبيرة كالفرنجية أن يبطئوا بأقدامهم على ردوس الأمم الصغيرة في الشرق وبحرموم من العلوم والصناعات وسلبوا أموالهم كل هذا بأمر الشيطان .

فيا ليت شعري أى مخلوق هذا وهل هو حى يرزق ؟ أم هو صورة يقصد بها ضرب الأمثال والتقريب من العقول والتلطف في القول .

لقد بحث العلماء في ذلك بحثا دقيقا وهبوا في الشرق والغرب عن هذا الشيطان فأنكر قوم وجوده وقالوا ليس هناك إلا نفوسنا وأخلاقنا واستعدادنا وأن الذنوب على حسب الاستعداد والقوى ، وقال آخرون : كلا ! فإن الأمراض التي تأتي إلينا على حسب استعدادنا ظهر اليوم أنها من حيوانات حية ؛ فالجمل والجدري والحصباء وسائر الأمراض التي نستعد لها لا تحصل إلا بتلك الحيوانات الدرية الصغيرة التي تتواله وتتسلل فينا ونحن غير شاعرين بها ولا عالمين ، وفي أجسامنا آلاف آلاف الآلاف من الحيوانات الدرية الصغيرة التي تمشي في السم كأنها جنود مجندة بالسلاح ، وكأنها حواظف لأجسامنا تفحص عاديات الدهر ومزعجات الليالي وصروف الزمان ، وبينما هي آمنة في سربها ساعية في معاشها هادئة في أمانها إذا حيوانات غريبة هاجمة عليها فيقتل الطرفان ويتلاقى الجمعان ويتضارب الشجعان ويتدخل الحزبان ويكثر الطعان والنزال ، وقد كسرت القنا على القنا وموج للنايا حولهن متلاطم ، فتتجلى الحركة عن قتل من الطرفين وجرحى من الحزبين فأما الإنسان منا أو الحيوان فيكون قد ارتفعت درجة حرارته من هول الحرب في الديدان ، ويكون المرض على حسب الحيوانات المهاجمة ، فتارة يقال إنها حى ، وتارة يقال حصباء ، وأخرى يقال جدري وما أشبه ذلك مختلفا باختلاف الحيوانات المهاجمة . فأما الحيوانات البيضاء التي في الجسم فإنها تدافع بأمانة وشرف حتى إذا غلبت على أمرها وسلت للموت أنفسها ؛ هنالك تظهر الأمراض من جدري وحصباء وأنواع الحمى المختلفة .

هذا في الأمراض المعروفة التي لم يكن ليصدق العقل أن هناك حيا يرزق داخل أجسامنا ، ولا أن هناك مخلوقا يتدخل في أمور أمراضنا ؛ فما بالك بالأمراض العقلية والآراء النفسية والتزعات العقلية والأكاذيب الإنسانية والأفعال الشيطانية ؛ فربما كان هناك عوالم تفضل في عقولنا مانعة الباب في أعيننا .

ألا ترى أن الدبابة لا تقع إلا على العين القنطرة والجلود الوسخة ؟ ومتى وقعت هناك باضت أيضا في تلك الأماكن فكان دود مرض ؛ فالاستعداد هو الذي أغرى الدباب ، فكان الديدان فجاء المرض والناس ساهون لاهون كما دخل المرض أجسامنا بإهمال النظام في الشراب والطعام فكانت الحمى وكان الحلم .

لأمانع في العقل يمنع من وجود الشيطان وأنه يلقي إلينا الوسوس وأصناف الأحلام ، ولكن الإمكان غير الوقوع ، والاحتمال غير التحقيق ؛ هنالك ظهر قوم وقالوا ليس الشيطان محتمل الوقوع فحسب بل هو عالم موجود في هذا الوجود ، وكما أن في العالم ملائكة فيه شياطين .

فهذه النفوس البشرية إذا ماتت هي وأمثالها من العالم للشابه لعلنا لا نذهب شعاعا ، ولا تكون ضياعا ولا تكون سدى أو يلحقها الردى . كلا ! بل هي حية تسمى ولها في العالم أعمال إذ لا عطل في الوجود ، فكل إنسان في هذه الحياة بعد موته يصبح مغرما بما خلق الله له في الحياة فيلزم النفوس التي على شاكلته ويوسوس بالشر أو يلهم بالخير على مقتضى سجيته . فكل امرئ اليوم إما فاضل وإما ناقص ؛ فالناقص شيطان محبوس في قصصه الجسمي ، والفاضل ملك ممنوع عن مكانه العلوي ؛ فإذا خرجا من سجنهما انطلق كل

سهما إلى مكانه ورجع إلى إخواته وسار معهم في سبيله ، فيكون إما ملهما للخيرات ، وإما موسوسا بالسيئات .

قال الفخر الرازي في سورة إبراهيم عند تفسير قوله تعالى « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق » الآية ، وذكر بعض العلماء فيه أيضا احتمالا ثالثا ، وهو أن النفوس البشرية والأرواح الإنسانية إذا فترقت أبدانها قويت في تلك الصفات التي اكتسبتها في تلك الأبدان وكملت فيها ، فإذا حدثت نفس أخرى مشاكلة لتلك النفس المفارقة في بدن مشاكل لبدن تلك النفس المفارقة حدث بين تلك النفس المفارقة ، وبين هذا البدن نوع تعلق بسبب المشاكلة الحاصلة بين هذا البدن وبين ما كان بدنا لتلك النفس المفارقة فيصير لتلك النفس المفارقة تعلق شديد بهذا البدن وتصير تلك النفس المفارقة معاونة لهذه النفس المتلقة بهذا البدن ومعاونة لها على أفعالها وأحوالها بسبب هذه المشاكلة ، ثم إن كان هذا المعنى في أبواب الخير والبركات كان ذلك إلهاما ، وإن كان في باب الشر كان وسوسة ، انتهى .

وقال في إخوان الصفاء الجزء الثالث صفحة ٣٦٢ :

واعلم أن النفوس المتجسدة الخيرة ملائكة بالقوة ، فإذا فارت أجسادها كانت ملائكة بالفعل كذلك النفوس المتجسدة الشريرة هي شياطين بالقوة ، فإذا فارت أجسادها كانت شياطين بالفعل ، فهذه النفوس الشيطانية بالفعل توسوس للنفوس الشيطانية بالقوة لتخرجها إلى الفعل كما قال تعالى « شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » فشياطين الإنس هي النفوس المتجسدة الشريرة أنتس بالأجساد ؛ وشياطين الجن هي النفوس الشريرة المفارقة للأجساد المحتجة عن الأبصار .

وقال قبل ذلك ماملخصه :

إن هذه النفوس الشريرة لما فارت الجسد وكانت معلقة بالدنيا وسلبت الحواس وآلات اللذات حزنت ونمت لو رجعت للذات ككرة أخرى ؛ حينئذ تصبح النفس كأنها لاجية ولا ميتة كما قال تعالى « لا يموت فيها ولا يحيى » وتقول « يا ليتنا نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ، يا ليتني كنت ترابا - هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا » وقال تعالى « ولو ردوا لمادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » لما ركب فيهم من الأخلاق الشائسة وتبقى تلك النفوس متعلقة بأبناء جنسها المتجسدة توسوس لهم وهكذا ، انتهى ملخصا من إخوان الصفاء .

وإن شئت فارجع إلى ما ذكرته في سورة البقرة عند قوله تعالى « فذبوها وما كادوا يفعلون » وكيف بينت هناك أن الفرنجة قد بحثوا في هذا الموضوع بحثا أوسع نطاقا . وكيف قامت دولة أمريكا وانكلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا وجميع دول أوروبا ، وبحثوا في حادث الأرواح وقبوا ورفعت عريضة في القرن الثامن لمجلس الأعيان في أمريكا من ٢٥ ألف رجل يطلبون معرفة الحوادث الروحية التي حدثت في بلادهم مثل ظهور أشباح وآرواح ، وكيف قامت الجمعيات العلمية وأثبتت أن هذا حق وأن أرواح الأموات هي التي فعلت ذلك ، وكيف أبدت جميعات في أوروبا رسميا من جهة الحكومات أنفسها ما قاله أهل أمريكا وصدقوا أقوالهم . كل هذا والمسلمون ناعسون نائمون لا يدرون ماذا يقول العلماء في مثل هذه الآيات ، وإنما يتأمنون السلم أحد أمرين : إما أن ينسب بالقول تسليبا وهم الجهلاء ، وإما أن ينكروا إنكارا ويقول كل هذه أكاذيب وناهي إلا أمثالي ليقال إنه عالم عظيم ومحقق كبير ، فخلاهو ولا من قبله عالمان ، كلاهما ضرور وكلاهما جهول ، بل يجب التوقف في الأمر حتى تتجلى الحقائق وتظهر الدقائق ؛ فالكبرياء تنفع لإقناع الناس بأن الإنسان فيلسوف ، ولكن العقل البشري والقطرة الإنسانية أجل من أن تخضع لتلك الترهات ، بل لا تزال مطالب بالبيئات .

وقال العلامة أوليفر لودج العالم الإنجليزي الشهير في خطبة خطبها في الحياة بعد الموت ، وذلك في أيام الحرب العظمى : كل العظام الذين ماتوا كانوا يرتاحون إلى مساجدة للدركات العليا أكثر مما يرتاحون إلى الأمور الدنيوية إلى أن قال : إني تحققت أن بعض أسدقائي الذين ماتوا لا يزالون موجودين إذ أتى قد ناجيتهم ، ومناجاة الموتى ممكنة إلى أن قال : وقد حدثت أسدقائي الموتى كما أحدثت واحدا من الحضور وقد كانوا في حياتهم من أهل العلم ، ولذلك برهنوا لي براهين قاطعة (نشر بعضها وسيشر البعض الآخر في حينه) أنهم كانوا يحدثنني وأنتى لست وأما .

إن ذلك حقيقة أنا مقتنع بها وبسحتها بكل ما في من قوة الاقتناع ، إني مقتنع بأننا لانضمل عند الموت ، وأن الموتى يهتمون بأمر هذا العالم ويساعدوننا ويعرفون أكثر مما نعرف بكثير ويقدرون على مناجاتنا أحيانا إلى أن قال : وذلك ما يمتحن على القول إن الإنسان ليس منفردا بل تحيط به مدركات أخرى .

وقال في إخوان الصفا للتقدم : إن الأرواح بتعليمها للبشر تزيد ارتقاء في عالمها ، كما أن الأستاذ بتعليمه التلاميذ يزيد ارتقاء وثباتا في علمه .

وإنما قلت لك كلام الأوائل والأواخر في هذا المقام لتطلع على آراء الأمم قديما وحديثا ، ولتلم أن العقول الإنسانية لها مرام واسعة عظيمة المدى لم تنف عند مشاهدات الأبصار بل استعملت البصائر ، فإن كفاك ما ذكرناه في اعتقاد اللائكة التي كانت تساعد في غزوة بدر وأحد ، وفي اعتقاد الشياطين التي تأمرنا أن نقطع آذان الأنعام ونشق الوجوه والأجسام ونخصي العيود ونسير خلق الله فيها ونموت ، وإلا فاحذر أن تنف موقف المدعين الذين يقولون قد عرفنا كل شيء واحذر من الكبرياء ، وإنما عليك أن تجد وتبحث لتزداد علما ، والطريقة المثلى لذلك أن لا يتكلم المسلمون على آراء الفريسيين ولا آراء القدماء من المسلمين ، وإنما عليهم أن يبحثوا أنفسهم حتى إذا رأوا حقا أثبتوه ، أو رأوا باطلا رفضوه . هذا هو الواجب على المسلمين .

ولمترك ماضي هذه الأمة إلا الكبرياء وإظهار العظمة جهلا وزورا ، فيكتفي الجاهل منهم بقوله « إن هذا إلا أساطير الأولين » وهذه إنما هي خرافات . فإياك أن تكون من الفرورين تصديقا أو تكديبا فتوقف حتى تهتدى بنور عقلك الباحث في العوالم المطلق على طرق البحث النقيب المجد « والذين جاهدوا فينا لهديتهم سبنا وإن الله لمع المحسنين » .

واعلم أن هذا المقام سأكتفي به في كل مقام يناسبه في مباحث الشياطين واللائكة وفي الوسوسة والإلهام ، وإن أردت الزيادة فعليك بكتاب الأرواح الذي ألفتها لهذا الغرض .

اللطيفة الثالثة : « ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب ،

لقد علمت أن المسلمين كانوا يفتخرون بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبكتابنا وهو القرآن ، وأن أهل الكتاب كانوا يفتخرون بأنهم كانوا أقدم عهدا وأرسخ مجدا فجاءت هذه الآية وكذبت الطرفين وأخرست الحزبين ، وهذه إحدى نكبات المسلمين ورزايا السجيين ، لقد اغتر المسلمون اغترارا فاضحا فانموا وجهلوا جهلا فاحشا فخرروا .

يزعم الفرورون الطائشون من أهل العلم ومن على شاكلتهم من الجهال في الإسلام أن الانسحاب للإسلام كاف لإقناعهم فساه فأنهم نقل جمعهم وصل سعيهم ، فهم أشبه بمن قال الله فيهم « الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا » ومن قال فيهم أيضا « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون » ولعل ما نقلناه عن الأمم في الشياطين واللائكة يكفيها في هذا المقام .

أفلا ترى كيف يقول علماءنا كالإمام الرازي وأضرابه وعلماء الأمم : إن الإنسان بعد الموت يكون على حسب أخلاقه في الحياة ؛ فالمسلم بعد الموت هو هو الذي كان حيا ، فإذا كان في الحياة الدنيا ساهيا لاهيا جاهلا أو فاسقا ، ذهب إلى ذلك العلم أعزل من السلاح مجردا من قوة الكفاح ، فنزل إلى مصاف الحدم والعييد ، ولا ينفعه الانتساب إلى أولى الألباب « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » فإذا ظن المبرورون أن انتسابهم إلى الإسلام يرفع وحده من شأنهم فقد خاب فآلمهم ، فلا الإسلام وحده يرفنا ولا الأمانى تفيدينا ، إن الأرواح جاءت هذه الأرض لتستكمل حظها وترفع قدرها وتكمل في أوصافها وتتخلى بأجنحة معنوية تطير بها في تلك الساحات وتساخر بها في تلك الباحات ، فبالعلم أجنحتها وبالعمل قوتها ، وبالإحسان سعادتها وبالمحبة شرفها ؛ فإياك أن تسكل في الأعمال ، وإياك أن تتوانى في منفعة الأمة ، وإياك أن تقبض يدك عنها ، نجد في إعلاء شأنها ، وأحب الناس جميعا ، ولتكن أبا كريما ، وأبا للناس رحيم ، إن الله رحيم ، فكُنْ بأخلاقه متخلقا ، واعلم أنك خليفة في الأرض فإن شئت فعلت نفسك ، وإن شئت فعلت أسرتك وأهلك وقربتك وأمتك وسائر الأمم ، فإذا قدرت على نفع سائر الناس فافعل فكلهم عباده ، وكن رءوفا بالحيوان ساعيا جهدك في ترقية الأمم موجها وجهك لله ذي الجلال .

وإلا فبأنه ما هذه الغزوات والجهاد ؟ وما هذه التكاليف والأعمال ؟ وما هذه الحياة التي اتصفنا بها وهي ملأى بالآلام محفوفة بالأخطار ؟ كل ذلك لاقتناس الكمال بالعلوم والأعمال ، انتهى الفصل الأول في هذا المقصد .

الفصل الثاني

روى « أن عيينة بن حصن أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : أخبرنا أنك تعطى الابنة النصف والأخت النصف ، وإنما كنا نورث من يشهد القتال ويعجز الفتيمة ، فقال عليه الصلاة والسلام : بذلك أمرت » وكذلك حديث بنات مكة ، وقد تقدم في أول السورة .

وأيضا كانت البيعة تربي في حجر الرجل وهو وليها فيرغب في نكاحها إذا كانت ذات جمال ومال ، ويعطيها أقل من صداقها ، وإذا كانت غير مرغوب فيها لقلة الجمال والمال تركها فلا يتزوجها ، وربما لا يزوجه غيرها حرصا على مالها فيحبسها عن الزواج حتى تموت فهام الله عن ذلك كله وقال (ويستفتونك في النساء) في ميراثهن (قل الله يفتيك فيهن) الإفتاء تبيين المبهم ، وعطف على لفظ الجلالة قوله (وما يتلى عليكم) أي والتلوا عليكم (في يتأني النساء اللاتي لا تؤمنن ما كتب لهن) ما فرض لهن من الميراث (وترغبون أن تتكوهن) أي في أن تتكوهن أو عن أن تتكوهن فإن نكحتوهن فبأقل من الصداق ، وإن لم تتكوهن لسماتهن حبستوهن عن الزواج ليقى المال في أيديكم .

أقول : ولعل هناك أحوالا كان للبيعة فيها مال عندهم حتى لا يتصادم مع ماورد في هذا المقام أنهم لا يعطون الصغار ولا النساء مالا ففطن لذلك ، فما تلى عليكم من كتاب الله قد بين لكم ذلك ، فياخذن ما لهن كاملا وصداقهن كاملا ، فهذا هو قوله « وما يتلى عليكم في الكتاب في يتأني النساء الخ » (و) في (المستضعفين من الولدان) يعني وفتيك في المستضعفين من الولدان وهم الصغار أن تعطوهم حقوقهم ، لأن العرب في الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار كما تقدم ، فهام عن ذلك وأمرهم أن يعطوهم حقهم من الميراث ، ثم قال (و) يأمركم (أن تقوموا) أيها الأئمة (لليتأني بالقسط) أن تنظروا لهم وتستوفوا لهم حقوقهم بالعدل في ميراثهم وما لهم (وما فعلوا من خير فإن الله كان به عليما) فيجازيكم عليه .

ولما كان العدل مع الضعاف ليس خاصا بالصداق أو الميراث ، بل يتجاوز ذلك إلى العاشرة وحسن السلوك فيعدل الرجال مع النساء في القسم ، وهذا حتم لازم .

ثم إن الطلاق مباح في الإسلام وإن كان هو أهنأ الحلال ، فإذا وجب القسم للمرأة كان الطلاق مستقلاً لتلك الحق وتخلص المرأة من الرجل بهذه الوسيلة ، فليس هناك وسيلة إلا المصالحة بينهما إذا رغبت المرأة فتزل عن بعض المال أو بعض القسمة في المبيت لتدوم على أولادها مثلاً ، أو في عصمته فيكون الصلح خيراً من الفرقة ، والنفوس مجبولات على الشح مطبوعة عليه ، فلا المرأة تكاد تسمح بحقها في المبيت ولا الرجل يرضى بالمبيت عندها إذا رغب عنها ، فكل واحد منهما يطلب راحته ، فليخالف هذا الطبع وليعدل الرجال بين النساء في القسم وإن كان مخالفاً لطباعهم فإن ذلك إحسان وتقوى ولهم ثواب عظيم في ذلك .

والعدل بين النساء في القلوب لا يمكن ، فالقلب ميل إلى واحدة أكثر من الأخرى مهما حرص الإنسان ، فليكن العدل في العمل واعتذر ما في القلوب ، إذ ليس في الطاقة اجتنابه . فأما ترك العدل ميلاً في القلب وعملاً بحيث لا يقسم لها ، فإن ذلك يجعل المرأة كالمعلقة ليست ذات بعل ولا مطلقة ، على أن الله إذا افترقا ينفى كلا منهما عن الآخر من فضله وغناه .

هذا ملخص ما في هذه الآيات الآتية ، وهي قوله تعالى (وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً) توقفت تجافياً عنها وترفعاً عن صحبتها كراهة لها ومنعاً لحقوقها (أو إعراساً) بأن يقل مجالستها ومحادثتها ؛ كما روى أن عمرة بنت محمد بن مسلمة واسمها خولة كانت تحت رافع بن خديج وهي شابة ، فلما كبرت تزوج عليها امرأة أخرى شابة وآثرها عليها وجفا الأولى ، فأنت ابنة محمد بن مسلمة تشكو زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ، وجواب الشرط قوله (فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً) كما تقدم إيضاحه (والصلح خير) من الفرقة وسوء العشرة (وأحضرت الأنفس الشح) أي جعل الشح حاضراً لها لا يذهب عنها أبداً فهي مطبوعة عليه فكل من الزوجين لا يفرط في حقه .

ولما كان الرجال أحق بالفضل خاطبهم الله قائلاً (وإن تحسنوا) بالإقامة على نساءكم ، وإن كرهتموهن وأحببتن غيرهن وتصبروا على ذلك مراعاة لحق الصعبة (وتقوا) النشوز والإعراس عنهن (فإن الله كان بما تعملون خبيراً) فيجازيكم خيراً على هذا الإحسان (ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل) فإذا مالت القلوب التي لأملك فلنعدلوا في القسم في المبيت وهو الممكن .

وكان صلى الله عليه وسلم يقسم بين نساءه ويقول : « هذا قسمي فيما أملك فلا توأخذني فيما تملك » (وإن تصلحوا) ما كنتم تفسدون من أمورهن (وتقوا) فيما يستقبل من الزمان (فإن الله كان غفوراً رحيماً) يغفر لكم ماضي من ذنوبكم (وإن يفرقا ينفى الله كلا من سعته) غناه وقدرته (وكان الله واسعاً حكيماً) مقتدرنا متقناً في أماله وأحكامه فهو الذي يسع جميع خلقه ، فإن اصططح الزوجان أعطى من سعة فضله من صبر منهما نواباً ، وإن افترقا أغناهما عن بعضهما بجموده وسعة فضله ، وكيف لا يكون ذلك (والله مافي السموات وما في الأرض) ملكاً وخلقاً فما أعظمهما ، ومن ذلك أنه سبحانه وصى الناس قبلنا بالتقوى كما وصانا ، فكما وسعت عطاياه البرايا وسعت وصاياه الأمم ، فلذلك أعقبه بقوله (ولقد وصينا الذين أتونا الكتاب من قبلكم وإياكم) معطوف على الذين (أن اتقوا الله) أي بأن اتقوا الله (وإن تكفروا فإن لله مافي السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً) أي وإن تعبدوا ما أوصاكم به فإن الله خالق السموات والأرض الخ ، لخلق على الكل أن يتقيه ويرجوه وكان الله غنياً عن جميع خلقه غير محتاج إليهم ولا إلى طاعتهم محموداً على نعمه عليهم (والله مافي السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً) فاتخذوه وكيلاً ولا تتكلموا على غيره .

ولقد كرر ذكر السموات والأرض ثلاث مرات ، وكأنه يقول ملكت السموات والأرض فلاؤس عبيدي لإصلاح شأنهم لأنني أملكهم ، فإن أعرضوا عن وصيقي فأنا غني بسعة ملكي وقدرتي ، ولست تاركا أحداً منهم فليتوكلوا على لأنهم جميعاً في ملكي ، هذه فوائد التكرار . أو لعله لما كانت الأحوال ثلاثة :

الحال الأعلى وهي البيت معهن والرضا بشرتهن فإن كن مرغوبا عنهن .
والحال الوسطى وهي أن تتنازل المرأة عن بعض حقوقها لإرضاء للزوج لتبقى معه .
والحال الدنيا وهي أن يفرقا .

ذكر ملك السموات والأرض ثلاث مرات إيدانا بأن الله بقدرته وسعة ملكه يقوم بأمر عباده في كل حال مجازاة بالخير وكفاية لمن توكل عليه لأنه عام الجود واسع العطايا .

لطيفة

إن الله لما ذكر مسألة الأزواج والنشوز والإعراض والصلح وما أشبه ذلك من الأمور الحيوانية الإنسانية ذكر الناس بملك السموات والأرض وكرره كما قدمناه ليدرك النفوس الأرضية بالعوامل السابوية وليفهمهم أنهم لم يخلقوا إلا لتمام أعلى مما هم فيه ، فأكثر من ذكر العوامل العلوية والسفلية في مقام الأمور للترتبة الصغيرة ليرفع النفوس من خمودها وقيمها من مراقدها .

حكاية وحكم

وإذا كنا نرى فيلسوف الهند الذي أرسله ملكهم إلى الإسكندر لما فتح بلادهم وهو يحاور الإسكندر في الخبر المشهور في التاريخ يحرض عن العالم الأرضي وينظر في النجوم ويشير وجهه ويقول : أنا من عالم أعلى أما من السماء ، فلم أبق في هذه الأرض ، فيا الله من السماء روي فردى إليها في جوارك .

فما بالك بالقرآن النازل لأشرف الأمم ؟ أفلا يذكر الناس بالعوامل العلوية والسفلية والكواكب والشموس وهم منهمكون في الأمور الحيوانية والأعمال الأرضية ؟ ويقول : إلى هناك خلقتم ؟ ولهذا سكنتم الأرض ؟ وإلا فلماذا ترى الأنوار تكثفنا ؟ والنجوم من حولنا والجمال يحيط بنا ؟ وكيف تنلهي عن هذا الجمال بما نحن فيه من الأحوال ؟ وكأنه عز وجل يقول : أيها الرجال ، إن جمال النساء والشهوات التي ركبتها في طباعكم لمن شيء يسير بالنسبة لما ترونه في عالم الجمال والنور الذي يشرق عليكم وأنتم عنه غافلون ، فلماذا شغلتم بهذه الأمور وقتا ما ففلك الحكمة وهي أن تستعدوا لهذا اللقمة الأقدس بالاختبار في الأعمال الأرضية ، ثم أرضكم إلى تلك اللذة الشريفة .

ولعلك تقول ماملخص تلك الحكاية ؟

فأقول: لما سار الإسكندر إلى الهند فتحتها أرسله أحد الملوك يقول: هل لك أن أرسل لك ابني فتكون زوجا لك ؟ وفيلسوفًا محبر بكل ماتضره نفسك من قبل أن تخاطبه ؟ أما ابنته فإن الوفد الذي أرسله لما رآها حارت أبصارهم في جمالها وأما أغشى عليهم مما رأوا من الحسن والجمال ، وأما الفيلسوف فإن الإسكندر لم يحاوره إلا بالإشارات . فأرسل إليه برنية مملوءة سمنا ، فلما رآها الفيلسوف أتى يابز ووضعها في ذلك السمن وردها إليه ، فلما رآها الإسكندر أخذ الإبر وجعلها كرة مصمتة وردها إليه ، فلما رآها الفيلسوف أخذ الكرة فجعلها مرآة مصقولة يترامى فيها كل صورة تقابلها ، فلما أرسلها للإسكندر وضعها في إناء فيه ماء فكان الماء فوقها ، فلما رجعت إلى الفيلسوف جعلها كرة مجوفة تطفو على وجه الماء ، فلما ردت إلى الإسكندر مملؤها ترابا وأرجسها إليه فبكى الفيلسوف ونظر إلى السماء ونجومها وأخذ يفكر في مبدعها ويقول : ما يدل على ولوعه بذلك الجمال وشغفه بالحكمة العالية ، والمروج إلى السماء والخلاص من العناصر الأرضية التي اقتضت روحه خبسته عن العالم الباقي ، فبلغ ذلك الإسكندر فأرسل إليه حفصرا ، ولما دخل وضع يده على أنفه ولم يتكلم لأن الشرط أن يكون كل محاوره معه بالإشارات ؛ فحينئذ قال له الإسكندر : لم وضعت يدك على

على أنك؟ قال لأنني أردت أن أقول لك مافي نفسك وهو أنك لما رأيتني أعظمتني إذ رأيت جمال صورتي بعد أن عرفت حكمتي فخطر في بالك أنك أعظم رجال الهند ، فوضعت يدي على أنفي كأنني أقول لك إن الأنف أعلى مافي الوجه وأنا في اليهود كالأنف في الوجه ، قال : لقد أصبت أيها الحكيم ففسر لي مادار بيننا . قال الفيلسوف : إن السمن الذي أرسلته لي كأنك تقول إن الحكمة التي أعطانها الله لا تحتاج لمزيد ، فأنا بملاوءة حكمة فوضعت الإبر في السمن كأنني أقول : أنا أنلطف وأدخل في حكمتك حكمة أخرى ، ولما جعلت أنت الإبر في كرة مصمتة كان معناه أن فتح البدان والسير في الأعمال البشرية يعيق النفس الإنسانية عن الصعود إلى الملكوت ، فلما جعلتها أنا امرأة تظهر فيها صور الرثيات كان معناه أن نفسك وإن شغلت بهذا العالم الثقيل فإني أجلوها ، فلما جعلتها أنت في الماء كان معناه أن الحوادث الأرضية توشى عليها ، فلما جعلتها أنا كرة مجوفة كأنني قلت لك إنني مع ذلك أحتال فأرفع نفسك إلى أعلى وإن كانت مشغولة بالأموال الجسمية ، فلما وضعت أنت التراب فيها أذكرتني برجوعنا إلى التراب وذهاب الأجل ، وتذكرت إذ ذاك ذلك الجمال الأسنى والشرف الأسمى ، لحنت نفسي إليه .

فقال له : ممن على ما لا ؟ فقال : لا ينبغي للحكيم أن يأخذ من أحد مالا ، وإنما أنا أطلب منك أن تكون بأهل الهند رحبا وتنفق سنن الله في الحكمة والعدل والجمال والكمال .

وإنما ذكرت لك هذه الحكاية لتعلم أن الله لم يكرر ذكر السموات والأرض ثلاث مرات في هذا المقام إلا ليرفع من شأن الفقهاء في الإسلام فلا يفترون بالأحكام الشرعية ولا يقولون هذا هو دين الله فقط ، فإن هذا خطأ بل يكون القصد الأسمى ذلك الجمال الأسمى ، وما القضاء إلا أعمال ضرورية في الحياة الأرضية ، فإذا كان الفيلسوف المذكور يتلطف مع الإسكندر ويقول : أنا أجتهد في رفع نفسك ، وإن كانت منغمسة في الشهوات النفسية وفتح الممالك للأغراض الاستعمارية وأبنت لك الحكمة حتى يكون لك نصيب من الشرف الأسمى والجمال الأقدس فبالأولى القرآن الذي لم يكن رأي حكيم أرضي بل تنزيل من حكيم حميد .

فكانه عز وجل يقول : أنا ألفت عقولكم وأوجه أذهانكم إلى العالم العلوي والسفلي ، فلا يشغلكم المال ولا البنون ولا النساء وقسمهن عن الأمور العالية ، وهذا كقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله » ولكن الذكر هنا يكون بالتوجه النفسى لمناظر الجمال الجاذبة للنفس في مقابلة الجاذبة الحيوانية .

أقول: وسيكون في الأمة الإسلامية من يحيون هذه الفكرة في السليين وإحيائها يحيى القلوب ، فتقل المنازعات والقضايا والبيانات والحصوم والشهادات ، فهذا هو القصد الحقيقي من دين الإسلام بل من كل دين في الأرض ، ولتلك آتى في هذه الآيات بأنه وصى جميع الأمم بالتقوى وقرنها بذكر السموات ليهدي للسليين الذين يحثون بعدنا إلى أن الجمال في السموات والأرض والحكم التي تنبت في العقول هي التي بها تشرف العقول الإنسانية ويكون الصفاء والصدق غالبا عليها . فأما القضايا والأحكام فإنما هي حيلة الأمم العاجزة عن الفضائل السكاذبة الحامئة . فليكن دين الإسلام دين الصدق والجلال والجمال ، ولتلك ترى الله ذكر في هذه السورة الشهادة على النفس وعلى الوالدين الخ ، كل ذلك منبه ذلك الجمال والصفاء .

اللطيفة الثانية

يناسب هنا أن نذكر مخلصا من علوم الديانات السابقة قبل الإسلام وبمنعنا من ذلك ما ذكرناه في سورة آل عمران في قصة عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام فارجع إليها ، انتهى الفصل الثاني .

الفصل الثالث

وفيه بيان أن الأمم التي غلبت عليها الشهوات وضلت سواء السبيل وعاشت ساهية لاهية غافلة يذهبها الله

ويأتى بقوم آخرين ، كما قال تعالى « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » وبيان الإخلاص والصدق في العاملات وأهمها تأدية الشهادة بالحق ولو على النفس أو الوالد أو الولد ، فإن الأمم التي لا صدق في العاملة بينها تنفص حياتهم في الحصومات والنزاعات ولا يفرغون للأعمال الشريفة وتضيع مصالح البلاد وتقبض الأيدي عن العمل ، ويذهب من النفوس الأمل ، فتأخذها الدول الأجنبية ويحل بها كل بلية ، وهذا يؤخذ من قوله تعالى (إن يشأ يذهبكم أيها الناس) أى يفتنكم كما أفتى أهل أمريكا بأيد أوروبا وأهلك أهل الأندلس من العرب وآتى بدلمهم بقوم آخرين وهم الأسبانون ، وكما يفعل ذلك كل قزوين في الأمم والدول والممالك (ويأتى :) قوم (آخرين) مكانكم (وكان الله على ذلك قديرا . من كان يريد ثواب الدنيا) كالمجاهدين للفتنة (فعند الله ثواب الدنيا والآخرة) فما باله لا يطلب أحسن الأمرين وطلب أحسهما وهو المال مع الفتنة عن النظام العلم .

وذلك داع حثيث إلى ارتكاس الأمم وذهابها ، فلا بقاء لأمة يريد رجلها الحياة الحيوانية ، فإن المجموع لا يعيش ولا يسعد إلا بأناس يعملون للمصالح العامة بنيات شريفة ، فأما إذا كان الغرض للتفجع الفردية فذلك باب الخراب وموت الأمة (وكان الله سميعا بصيرا) فذلك يرضع الأمم التي علت وجهتها ، ويميت الأمم التي سحقت فكرتها .

ومن إرادة ثواب الآخرة الشهادات بالحق وهي من أهم ما يبيح الدول والممالك لإقامة العدل فيها ، فلا تنفى بالظلم فلذلك قال (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط) مواظبين على العدل مجتهدين في إقامة (شهداء لله) بالحق تقيمون شهادتكم لوجه الله (ولو) كانت الشهادة (على أنفسكم أو الوالدين والأقربين) فإن المدار على المصلحة العامة وحفظ النظام وبقاء الدولة فليس القيام مقام أفراد يعيشون على مال غيرهم ولكن المجموع مرتبط بعضه ببعض وهو كجسم واحد لو اختل نظام أحد الأعضاء اختل المجموع فمرض فمات ، هكذا أتم بامعاشر المسلمين إن لم تقيموا الشهادة لله وتراعوا المصالح العامة لا تبقى أمتكم إلا قليلا فإذا كانت الشهادة صادقة وتحملتم المكروه عليكم وعلى أقاربكم وكان ذلك خلقا في الأمة عاشت عيشة راضية فلا يعترها الفناء إلا إذا اعترها هذا الداء وإلا أذهبتكم وأتيت بقوم آخرين فإياكم أن تقولوا إن هذا الفنى بما له يؤذني إذا شهدت عليه وإن هذا التقير إذا شهدت عليه اعتراه الأذى فيجتمع عليه الأمران الفقر الطبيعي والحكم المدني .

فالنظام العام يقضى بهدم تلك النظريات ويند تلك النزعات (إن يكن) للشهود عليه (غنيا أو فقيرا) فلا تمتنوا عن إقامة الشهادة عليه ولا تجوروا فيها ولا تعجلوا ميلا (فأنه أولى بهما) بالفنى والفقير فالمصالح العامة هي التي بها بقاء الأمم (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا) أى لأن تعدلوا عن الحق (وإن تولوا) ألسنتكم عن شهادة الحق (أو تعرضوا) عن أدائها (فإن الله كان بما تعملون خبيرا) فيجازيكم بعذاب الآخرة وعذاب الدنيا الخاص في أنفسكم .

لطائف : اللطيفة الأولى

كان ينبغي أن أذكر هنا النول الإسلامية وغيرها التي فئت بارتكاب الجرائم ، وقد ذكرت جملا في ذلك عند قوله تعالى « أتستبدلون الذي هو أدنى الخ » في سورة البقرة وفي مواضع أخرى فلا نعيد .

اللطيفة الثانية : منظر جميل

• بعدما كتبت ما تقدمت إلى سواحي القاهرة لأجد النشاط في الهواء النقي والنظر إلى المزارع الخضراء والنظر الهجة وأستجلى الجمال من وجوه النجم والشجر والبر والبحر وأشاهد آثار الجمال في الحقول وعظمة الجلال في مشارق النور فتمثلت في خيالي صورة عجيبة وهيئة غريبة ومنظر جميل ، فأردت إثباتها هنا ليحلى بها

القام ويزدان بها جيد التفسير لأنها توضح هذه الآيات ، فعلى حلية حكيمية وآية بهية وأسرار خفية أبرزها الله في هذا الزمان ليظهره على الدين كله ، ويكون القرآن مجلى العاني ومسرح الأمانى وبهجة العالمين وشرف اللوقين .

الصورة التي تمثلها في الحلوات

هي أنى تمثلت لى ثلاثة أعمدة من الياقوت بهجات مصطفات صفا وأمامهن عمود من اللاس يلمع كالسكوكب المرى وبينهما جبال نورية مشرقة ممتدات من الأعمدة الياقوتية إلى عمود اللاس وقد علق فى تلك الجبال سقط من البلور الجليل مملوء جواهر بديعة بحيث لو سقطت الأعمدة الياقوتية أو سقط العمود اللاسى يسقط السقط بجواهره على الأرض فيكسر البلور وتنفرط الجواهر فى التراب وتبعثر فى كل ناحية .

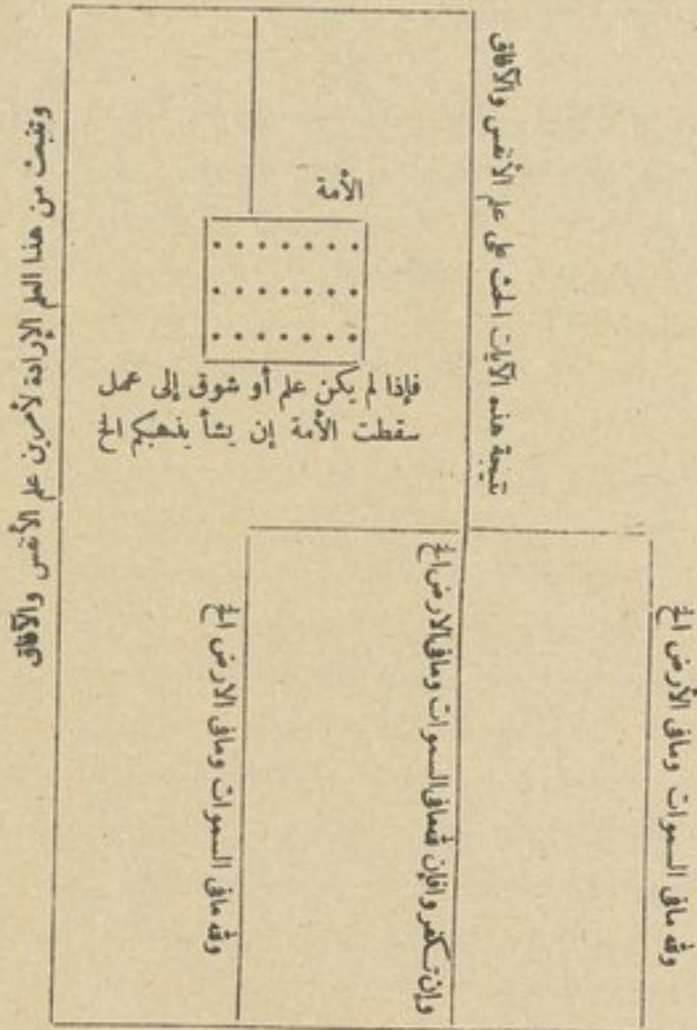
تفسيرها

اعلم أن الأم لأغيا إلا بالمعرفة أولا والعمل ثانيا ولا يكون العمل صالحا إلا إذا كانت النيات ولا نيات إلا بشوق فى النفوس ولا شوق إلا بالمعرفة ، فالمعرفة أساس والنيات تتبع المعارف وعلى حسب النيات تكون الأعمال ، فإذا سمعت الله عز وجل يقول « من كان يريد ثواب الدنيا الخ » فليس معنى الإرادة ما يفهمه أكثر الناس وبعض الفقهاء فى الإسلام ، ولكن النية انبعاث النفوس إلى ما اشتقت إليه ورضيته بعد علمها به . وكما أن الإنسان لا يتعاطى الطعام إلا إذا جاع أولا وأيقن أن الحاضر لديه موافق لشهوته ثانيا لا يشذ عن قابليته فتنبعث إذ ذاك رغبته إلى الطعام فتكون النية ثم الأكل .

فلا نية إلا بعد العلم ، وإذا فكر المهندس فى أنواع البيوت ثم رسم شكلا منها فإن الذى رسمه هو الذى استحسنته فى نفسه بعد إعمال الفكر فى أنواع الصور الهندسية فقد سبق العلم بالصور الهندسية النية لعمل الصورة الخاصة التى هى نتيجة تلك المعرفة فيكون الرسم والبناء على صورة منوية تقدمها علم بشؤون الصور الهندسية هكذا هنا لما ذكر الله عز وجل معاملة الرجال للنساء من قسم وصلاح ونشوز وإعراض وما أشبه ذلك أدخل الله فى غضون الكلام أمورا تستوجب النظر وتنبه الفكر . فبالتى شمرى ما هذا التكرار للسموات والأرض فى هذا القام وما مناسبة أن الله قادر على ذهاب الدول واستبدال سواها وأية علاقة لذلك كله بما نحن فيه ولماذا ذكر هنا الإرادة وأن منها ما هو أعلى ومنها ما هو أدنى؟ ثم ترى أنه كرر السموات والأرض مقدما وأخر ذكر الإرادة وجعل الكلام على استبدال الدول فى وسط الآيات بين العلم بالسموات والإرادة ؟ فاعلم أنه سبحانه وتعالى كما ذكرنا يريد أن يرينا أن هذه الأحوال النفسية والأحكام الشرعية فى الأعمال الإنسانية لا يجوز أن تكون سجنا نسجن فيه لثلاث موت نفوسا فلتنصلق بالمعرفة والعلم فتشرق النفوس بالنظر فى السموات والأرض وإن كانت فى سجن الطبيعة . وإذا كان الفيلسوف الخلق حاول بفطنته أن يجلو الحديد فيجعله مرآة بهية تارة وتارة يجعله كرة خفيفة والحديد معدن ثقيل مظلم فبذلك حاول أن يجعله خفيفا ومضيئا والحفة والإضاءة من شأن العوالم الجميلة ليحصل ذلك رمزا للنفوس الأرضية فى المحاور السابقة فلتنظر فى هذه الآيات كيف جعل الله عز وجل النظر فى السموات والأرض مكررا ثلاث مرات أثناء المباحث الأرضية والأعمال الحيوانية التى انتمست فيها النفوس الإنسانية أفلا ترى أن النظر فى السموات والأرض المذكور ثلاث مرات أشبه بالأعمدة الياقوتية؟ أو ليس قوله « من كان يريد ثواب الدنيا الخ » أشبه بالعمود من اللاس؟ أو ليس السقط الذى فيه الجواهر أشبه بالأمة الإسلامية فإذا لم تتشوق الأمة بالعلوم الملوية والسفلية إلى معرفة ما فى هذا العالم من جمال وبهاء وحكمة لم تنبث لها إزادات للأعمال الشريفة فإذا سقطت أعمدة العلم أو سقط عمود الإرادة خرت الأمة ساقتة « ولات حين مناص » .

فإذا سمعت قوله صلى الله عليه وسلم « إنما الأعمال بالنيات » فلتعلم أن النيات لاتأق بللفظ نويت وإنما تأق بلوم وأشواق وبحث وتنقيب فإذا قال الصلى « اهدنا الصراط المستقيم » فإن الله لا يستجيب الدعاء إلا بحضور القلب بما أثر فيه من الرحمة التي لحظها في المخلوقات عند قوله تعالى « الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم » .

وإذا شرع في عمل من الأعمال النافعة للأمة فلا يتم على الوجه الأكمل إلا بعلم يتقدمه والعلم هو الذي يحدث النية فالنية نتيجة العلم والأمة بين العلم والنية إذا لم يكونا أو لم يكن أحدهما خرت صريعة لليدين وللفم ، فهذا سر هذه الآيات . وهذه صورته .



هذا هو الذي خباءه الله في القرآن وكثره في الآيات ليظهر في هذا الزمان وليكون هناك جيل في الشرق لم تحلم به النهور ولم يعلمه الجمهور ، فأما الفقيه فإنه لا يعرف من هذه الآيات إلا أحكام القسم والنشوز والصلح والإعراض وأن الرجل يجب عليه أن يحسن العشرة مع المرأة ويجمع بين الأحداث ويستفتح ثم يقف عند حد ذلك ، وأما العالم الإسلامي الذي سيكون في هذه الأمة بعد الآن فيستظر ويقول إنا رى الله خلق النبات وجعله قوت الحيوان والإنسان ومع ذلك قد جعل الله فيه حكما تدق عن العقول يفرح بها العالمون والذي خلق النبات هو الذي أنزل القرآن بطريق الوحي فأنا إن قصرت همى على الباحث الفقهية صرت كالعامية لا يتنبى

إلا مثل ما تتعاطاه الدواب ويفرح به الجهلاء في النبات، وإن تدبرت في ذكر السموات والأرض وكيف كررت في هذا المقام وكيف ذكر ذهاب الدول وأنه يأتي الله بقوم آخرين فإني أقول الحق وهو أحق أن يتبع إن هذا القول له معزى شريف ومعنى رفيع وكما كان في النبات غذاء الحيوان وحكمة الحكماء هكذا «وَهَذَا لِنَلِّ الْأَعْلَى» كان هذا القرآن فيه المسائل الفقهية لنظام الحياة الإنسانية وفي نفس الآيات النازلة لتلك أشرفت شمس العلوم ونظام الحكمة وتجلت للتأخرين من آفاق الجلال بالحكمة والسكال .

ولعمري إن الآخرة خير لنا من الأولى ، وإذا تجلت الحكمة والجلال الأفق في العالم العلوي والسفلي فللتزاع وكثر الحب فلا محكمة ولا محاكم ولا نزاع ولا جدال بل يشرق النور على هؤلاء المتشاجرين، فالقضايا والدعاوى إنما تكون من الجاهلين، فالشرع الحقيقي هو العلم الإلهي والنظر الحكيم والله يؤتي الحكمة من يشاء والله واسع عليم اه الفصل الثالث .

اللطيفة الثالثة : عجائب العلم الحديث في هذه الآيات

وبيان ما فيها من الرموز والإشارات ومعجزات القرآن في القرن العشرين

يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط الخ » يأمرنا أننا إذا قتلنا أو سرقنا أو زينا ووقفتنا تحت آلات القتل قرا ، وإذا رأيت أبي واقفا وآلة الشنق منصوبة له أقول إن أبي قاتل ولا أخجل ولا أخاف كل ذلك يأمرني به الله . يأمرنا الله بما لم يشهد أحد عمله إلا نادرا جدا وليس في النوع الإنساني من يبادر إلى ذلك إلا في النادر ولكن الله سبحانه إنما يريد أن يعيش الناس بسلام ووثام ويكونوا إخوانا لتحلو الحياة ويكون السقاء .

فهل لك أن تسمع من العلم الحديث والكشف الغريب ما يجعل هذا الإقرار أمرا متداولاً . هل لك أن تقرأ ما رسمته الدول المعاصرة لنا وما كشفوه في هذا المقام حتى تحكم أنهم إذا ساروا على هذا للنوال سنين أصبح ما يقوله الله الآن أمرا متنادا ويقر الإنسان على نفسه وعلى أمه وعلى أبيه وعلى قريبه وعلى ملكه وعلى اللس الذي سرق معه بل يصبح الناس لاسرقة عندهم ولا قتل إلا نادرا وزول الكذب في الشهادات وتصدق الأحكام . فلا ذكر لك ثلاث مسائل .

المسألة الأولى : الإقرار بمصل الصدق

وأصل هذا المصل أن طبييا يسمى الدكتور هاوس من المختصين بالتوليد وعادة الأطباء أنهم إذا رأوا امرأة تعسر وضعها حقنوها بهذا المصل المسمى (اسكو بلامين) فلاحظ أثناء الحقن والمرأة تضع وهي لا تحس بأن أنها تفضي أسرارها ما كانت تنطق بها عادة بل تلك الأسرار من أكبر الفضائح والعار فتوجه إلى رجال الحكومة وأحضروا من السجن نحو خمسمائة مسجون وحقنهم بالمصل كما تحقن الوالدات واستنطفوم فكانوا يعميون إجابات صريحة ويخبرون بالحقائق كما هي ولم يجدوا في جميع من سألوهم كلمة واحدة تخالف الصواب ولما أفق أولئك الرجال دهشوا لما علموا أنهم أجابوا بالحقائق التي أنكروها قبلا، وقد قال العلماء في ذلك إن استعماله سيفضي إلى إخلاء السجن من الأبرياء، ولقد وضعوا الرجال المتهمين على موائد كما توضع للرضى وحقنوم ثم سألوهم في معارض حضرها رجال القضاء والطب فأسفرت عن النتائج عنها ويقولون إنه في بلاد الإنجليز التي كشف فيها هذا المصل يقدم عشرة منتهين للمحاكمة فلا يحكم إلا على واحد لثبوت التهمة ويرأ الباقي ومتى حقنوا بهذا المصل ظهر الحق من البطل وأيضا يقبض على الثلث من القبوض عليهم خطأ ويبرءون فباعد فهذا المصل ينفي التهمة ويخرجهم وليس هذا نافعا لإنكثرا وحدها بل للعالم قاطبة متى انتشر في الكرة الأرضية .

المسألة الثانية

إن الجناة يعرفون في العالم الإنساني الآن بآثار الإبهام وذلك أن بلادنا للصيرية جعلت إدارة خاصة لآثار الأصابع وجعلتها أصنافا وأنواعا بحيث إن الإنسان ليس يكون أثر إبهامه له مشابه آخر في الشرق أو في الغرب ولذلك تراهم يأتون بالمذنبين ويأمرونهم بوضع أصابعهم على الورقة وهي ملونة بالحبر فهذا الأثر يدل على صاحبه لا يشاركه فيه سواه . هكذا الأقدام فإن عرب البلدية في بلادنا يعرفون الناس بآثارهم كالتقدماء من العرب الذين كانوا يقصون الأثر فكل امرئ له قدم بصفات خاصة لا يشاركه سواه .

المسألة الثالثة

لقد ظهر في أمريكا وفي أوروبا علم يقال له (علم السيكومترى) أغنى علم قياس الأثر، وقد استعملت هذه اللفظة سنة ١٨٤٢ وهي مشتقة من لفظة يونانية (سيكى) أى النفس و (مترون) أى قياس ، ومعناها اللفظي قياس النفس .

وقالوا في هذا العلم إنه لا يقع ظل على حائط من دون أن يترك أثرا فيه يمكن إظهاره بالوسائل الصناعية وكل غرفة تظن أنها محبوبة عن العيون فيها آثار كل ما حصل فيها ولو من مئات السنين بل كل حجر وشجر ومدبر توجد عليه رسوم ما حصل عنده من خير أو شر فكل حركة وكل فكرة تصدر من الناس ترسم على ما حولهم فكان هناك صور لطيفة لا عدد لها ثابتة على جميع الأشياء لا تزول بمرور القرون والصور .

قال الدكتور جون وليم مؤلف كتاب سر تقدم أوروبا ما يأتى (بعد أن أفاد معنى ما تقدم) ويمكننى أن أصرح بأن صدق العبارات التي قلنا الواحد منا يمكن أن يسمع بعد مرور الأعوام العديدة على موته ويبقى من بعده عظة لأولاده .

ثم إن هذه الصور والآثار التي أشار إليها ديريير قد تظهر بهيئة أفكار تطرأ على الأذهان فكل فكر من أفكارنا وحركة من حركاتنا وعمل من أعمالنا يترك حتما أثرا لا يحوه الأيام . ثم قال وأنا أصرح بأن البارع في هذا العلم يمكنه إذا سئل أن يصف عيشة أى إنسان بمجرد ما يرى أثرا من آثاره أو يسمع بعضا من أقواله أو يتأمل في مكان يقيم فيه أو يتردد فقط عليه .

وقد كان الأستاذ دانتون زوجته وأولاده وأخته جميعهن بارعات في قياس الأثر ففى أعطاهن شعرا من شعر إنسان أو أى شئ من آثاره قصوا أثره وقد أثبتوا أن فى كل عشرة من الرجال وفى كل ست من النساء واحدا يقدر أن يتعلم هذا العلم بسهولة ثم العالم دانتون وثق بهذا العلم بعد أن جربه . مثلا أعطى قطعة من حجر من الأحجار الساقطة من الجبل إلى حماته فقالت إنى أرى أشياء تشبه النجوم والندى ونجلى لى أنى مساعدة إلى فوق ثم أعطاهم زوجته فى مكان آخر وهي لا تعلم فقالت مثل ما تقدم ثم وضعه فى صندوق مع أحجار كثيرة وأمر زوجته أن تلتقط كل حجر وتصفه فصارت تصف كل حجر ومدبر وتقول هذا من بلدة كذا وحصل عنده كذا وكذا وهذا من المكسيك وهذا من رومة وهكذا ومنها حجر من جبل الزيتون فوصفت أورشليم وصفا جيدا ولما وصلت إلى الحجر الذى سقط من الجبل وصفته كما وصفته أولا .

انظر إلى هذه المسائل الثلاث بمفلك وتفكر فيها ألست ترى أن المسألة الأولى هي التي تحقق إقرار الإنسان على نفسه وعلى أبويه وتكون الأم أقرب إلى السعادة منها الآن وإذا كان هذا الكشف الحديث يعم العالم ويظهر صدقه أفليس ذلك يكون مما يجب علينا الأخذ به متى تحققنا أن ما يقوله القرنيحة حق لا خطأ فيه فلنا نحن نأخذ بقولهم بل نجرب تجاربهم ونعمل بها بعد التحقيق وإذا كان النوع الإنسانى ليس عنده من الصدق والأمانة ما يجعله على الإقرار على النفس والأهل أفلا يكون أمثال هذا الصل (إذا صح ما يقال)

من أوجب الواجبات على أمة الإسلام . بل أقول فوق ذلك إنه يجب على أمراء الإسلام والمجالس النيابية أن يظهرها رجالا في العلوم ويمدوهم بقوتهم حتى يكشفوا ويخترعوا وينظروا وكفانا يوما فقد ناست عقول المسلمين آمادا طويلة .

اعتراض على مؤلف هذا التفسير

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد العلماء واطلع على ما كتبت فأظهر أشد الاستياء وقال يا سبحان الله كيف تجرأ أن تأخذ بقول من حقنوا بهذا المصل وكيف تأخذ بأقوال من قعدوا الإرادة إن هذا لقول هراء عجيب لك كيف تقول ذلك والله عز وجل يطلب أن تهر على أنفسنا وأهلنا بمحض إرادتنا وأما أنت فإنك تقول يكفي أن يسلبوا عقولهم كالجائنين ثم يقرن وهذا لا يترك عليه العقلاء ولا الجهلاء، وهو أشبه بالخرافات وأقرب إلى الضلالات .

الجواب

قلت له حياك الله ويحك فهل إذا أقمت لك دليلا على ما أقول من كتاب الله تعمل به؟ فقال بشرط أن يكون مقنعا، قلت له أأنت ترى أن الله أحكم الحاكمين قال بلى، قلت أفأنت ترى أنه مطلع على ما في ضمائرنا؟ قال بلى، قلت لقد قبل هو الشهادة من الأيدي والأرجل وحكم بها فمن باب أولى الدين هم ليسوا بأحكم الحاكمين وهم قضاة البشر، ألم تر إلى قوله تعالى «يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون» وقوله أيضا «حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون» وفي آية أخرى «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم الخ» فإذا كان الله قبل هذه الشهادة من الجلود والجوارح بالرغم من أصحابها وهم يعاتبون أعضائهم على ذلك صريحا فكيف لا تقبل من يحقن بالمصل ويشهد بالحق ويكون حكم القضاة حقا لا زل في خلاف الأحكام الحاضرة فإنها ظنية لأن الشهادات لا تثبت الحقيقة أو ليس الاستدلال بآثار الأقدام وآثار أصابع الأيدي في آياتنا الحاضرة هو نفس الذي صرح به القرآن وإذا كان الله يعلم ما في البواطن بل هو القائل للإنسان «كنى بنفسك عليك حياء» والقائل «بل الإنسان على نفسه بصيرة» .

أفلا يكون ذكر الأيدي والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا أن من الدلائل ما ليس بالبينات المشهورة عند المسلمين وأن هناك ما هو أفضل منها وهي التي يحكم بها الله فاحكموا بها ويكون ذلك القول لينبها ويضمنا أن الأيدي فيها أسرار وفي الأرجل أسرار وفي النفوس أسرار، فالأيدي لا تشبه والأرجل لا تشبه فاحكموا على الجائنين والسارقين بآثارهم والألسنة تنطق بالحق متى أتمت البصيرة إنامة بهذا المصل أو غيره .

أو ليس في الحق أن أقول إن هذا من معجزات القرآن وغرابه وإلا فلماذا هذه السائل التي ظهرت في هذا العصر تظهر في القرآن بنصها وفصها وللمسلمون كانوا غافلين عنها كما غفلوا عن منع الحجر والربا وقامت الأمم الترية بهذا خير قيام .

أو ليس قوله «قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء» يشير إلى ما كشفه علماء أوربا وأمريكا في علم (السيكومتري) المتقدم وأن كل فكر من أفكارنا وقول وعمل يرسم بصور غير محسوسة على الحيطان والأبواب والأحجار ويقرؤه قوم بعد آلاف السنين ويفهمون حوادثنا التي فعلناها .

أليس هذا من معاني النطق التي جعلها الله في كل شيء أو ليس ذلك يفسر لنا كثيرا من أسرار ديننا مثل أن المؤذن يشهد له ما حوله إلى غاية ما وصل إليه صوته .

ولقد علمنا أن أستاذا في المدرسة الأمريكية معه آلة لها مفتاح فإذا تكلم فتحها وبعد انتهاء المجلس أو الحظية يستمع لتلك الآلة فتلقى له القول كما قاله فإذا وجد خطأ في الحديث أرسل لأصحابه ما يكمله وهذا موجود في زماننا الحاضر بل المدرسة قريبة من بيتي الذي أسكنه بينهما نحو كيلو مترين وهذه الآلة استحضرها من أمريكا وهو أمريكي الجنس .

وأقول لعل هذا العلم هو الذي ورد في حديث الترمذي عن أبي سعيد الخدري وإن لم يرد في الصحيحين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس وحتى تكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله وتخبره غنمه بما أحدث أهله بعده » ومعنى عذبة سوطه العلق في طرفه هـ .

ومعلوم أن الآلة التي تسترق السمع المذكورة يمكن أن تسمع كل شيء حولها في المكان حتى الممس الذي همس ثم يكبر الصوت كما يكبر البصر سواء بسواء هـ .

فعلى المسلمين أن يفتحوا أعينهم فليس لهم أن يقيموا على الجهالة البتراء وليعلموا أن دين الإسلام فيه أبواب واسعة ما طرقوها وعرفها الغربيون والطرفان يجهلان أن تلك الأبواب في القرآن .

الفصل الرابع

(بأنها الدين آمنوا) خطاب لجميع المؤمنين (آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذي نزل على رسوله والكتاب الذي أنزل من قبل) أي اثبتوا على الإيمان بذلك ودمموا عليه وتوافق قلوبكم ألسنتكم فإن منكم من لم يثبت إيمانهم لأنه لا علم لديهم بثبت عقائدهم، وهذه العقائد الزلزلة هي التي جعلتهم معرضين عن خلق السموات والأرض التي تقدم الكلام عليها فزلزلت نياتهم وذلك يشول إلى امراض تلك الأمم الزائفة كما تقدم في الآيات السابقة وهؤلاء هم الناقضون الآتي ياتهم فيما سيأتي من الآيات فذلك أتبعه بقوله (ومن يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر) أي ومن يكفر بشئ من ذلك (فقد ضل ضللا بعيدا) عن القصد بحيث لا يكاد يعود إلى طريقه لأن اتحاد العقائد يدعو إلى اتحاد القلوب فتتحد للشارب فتكون الحياة الدنيا منظمة وتتبعها الأخرى والإيمان بجميع الأنبياء يدعو للاتحاد، ولو أننا كفرنا بنبي من الأنبياء السابقين لكان ذلك مورثا للفتاوى والتدابير مع الأمم المنتسبة إليه ولو بحسب الظاهر ولكن احترام الجميع أدى للوثام فما بالك فيما بين السلم وأخيه، فليكن اتحاد العقائد وإلاصل الإنسان وحاد عن الجادة فبتر من مجموع الأمة وسلك مفازة ففأبرهم في الأخلاق والطرائق، هذا هو الإسلام .

أما القرينة فإتهم استبدلوا بالدين الوطنية وجعلوا الأمة مرتبطة بالوطن لا الدين وقالوا الوطن يوجب الاتحاد، وهناك جامعات أخرى كاللغات والملك الجامع والاشتراك في ملك واحد وما أشبه ذلك فليكن كلامنا في الجامعة الدينية التي نحن فيها وهي ترجع إلى الاتحاد في العقائد . واعلم أن هذه الآية تمهيد لذكر لناقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ولذلك أتبعه بقوله (إن الدين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم سبيلا) وهؤلاء هم الناقضون كفروا في العمر مرة بعد أخرى ثم ازدادوا بالإصرار على النفاق وعلى التماهي في إفساد الأمر على المؤمنين، ثم رتب عليه قوله (بشر الناقضين بأن لهم عذابا أليما) وضع بشر موضع أنذر لتنهك بهم، قال الشاعر :

وخيل قد دلفت لها بخيل نحية بينهم ضرب وجيع

ثم وصف الأعمال المترتبة على نزول العقائد فقال (الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين

أيتنون عندهم العزة) أى أيتعززون بمولاتهم وموداتهم (فإن العزة لله جميعا) لا يتعزز إلا من أعزه الله وقد كتب العزة لأوليائه فقال « وقه العزة ورسوله وللمؤمنين » فعزة غيرهم لا يؤبه لها، ثم زاد تفصيلا لهذه المخالفات البنية على زلزلة العقائد فقال في سورة الأنعام « وقد نزل عليكم في الكتاب » أى القرآن وأنتم بمكة لما كان المشركون بها يستهزئون « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره » فلما هاجرتهم إلى المدينة أخذ اليهود يستهزئون كما استهزأ أهل مكة فكيف لا تعرضون عنهم إذا خاضوا! وهذا قوله تعالى (أن) أى إنه فعلى عتفة من التعملة (إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلهم) فى الإثم لأنكم قادرون على الإعراض عنهم والإنكار عليهم، أو فى الكفر إذا رضيت بقولهم وطعنهم فى الإسلام وهذا هو النفاق (إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعا) فالقاعد والقعود معه فى النار مجموعين (الذين يترصدونكم) ينتظرون وقوع أمر بكم وهو صفة المنافقين (فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم) مظاهرين لكم فأسهوا لنا فيما غنمتم (وإن كان للكافرين نصيب من الحرب التى تكون سجلا عادة) قالوا ألم نستحوذ عليكم) أى قالوا للكافرين ألم نعلبكم وتمسك من قتلهم فأبقينا عليكم ، والاستحواذ الاستيلاء (ونعمتكم من المؤمنين) بأن خذلناهم وتوانينا فى نصرهم ، والتعبير بالفتح فى جانب السلمين والنصيب فى جانب الكافرين إشارة لشرف الأول وخسة الثانى لأنه أمر دنيوى (فالله يحكم بينكم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) أى حجة يوم القيامة على قول على وابن عباس رضى الله عنهم ، وقال كثير من العلماء فى الدنيا فلا تفتنى دولة الإسلام بحيث تحمى من الوجود بالكلية فيستحيحوا ييشتم فلا يبقى منهم أحد .

وقد قال بعض العلماء إن معنى ذلك أن شريعة الإسلام ظاهرة إلى يوم القيامة ، وفرعوا على ذلك مسائل فقهاء مثل أن الكافر لا يرث المسلم ، وإذا استولى كافر على مال مسلم لا يملكه ، وأن الكافر ليس له أن يشتري عبدا مسلما ، وأن المسلم لا يقتل بالذى على رأى ، وأنت تعلم أن قول على وابن عباس أنسب لسياق الكلام . ثم أخذ يصف النفاق فى العبادات بعد النفاق فى السياسة فقال (إن المنافقين يخادعون الله) ياملونه بمعاملة المخادع (وهو خادعهم) مجازيهم (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى) مشاقلين إذ لا يرون لها نواها ، فكيف يعبون أنفسهم فكأنهم مكرهون على الفعل (يراءون الناس) ليخالوهم مؤمنين وللراة مفاعلة (ولا يذكرون الله إلا قليلا) فإن المرأى لا يفعل إلا بحضرة من يرائيه وللراد بالله كرم ما يشمل الصلاة والذكر فى غيرها ، فهم يصلون ويذكرون بحضرة من يراءونه حال كونهم (مذبذبين بين ذلك) متحيرين مترددين (لإلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) لا منسويين إلى المؤمنين ولا إلى الكافرين (ومن يضل الله فلن تجد له سبيلا) إلى الحق والصواب .

ثم أمر المؤمنين أن لا يفعلوا مثل ما فعل المنافقون من موالة الأعداء ، فإن هذا يضيع البلاد فقال (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين) وكيف تفعلون ذلك (أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا) حجة بينة فيما بينكم بضيع دولكم وهذا العقاب طيبى ، لأن موالة الأعداء تخرق شمل الدولة وهو الحاصل الآن فى الأمم الإسلامية .

فلعمرك لا تجد أمة فرنجية احتلت بلاد إسلامية إلا باتحادها مع بعض أفراد أهل البلاد ، ولن يقدر الفرنجة أن يعيشوا يوما واحدا فى الشرق إلا بمساعدة أهل البلاد ، فلذلك ابتلعوا ثروتنا وأخذوا ملكنا ، فهذا هو السلطان المبين والحجة الظاهرة .

ولما كان ذلك خلق المنافقين أردفه بإنذارهم وتخويفهم فقال (إن المنافقين فى الشرك الأسفل من النار) وهى الطبقة التى فى قعر جهنم ، والشرك بسكون الراء وفتحها قراءة ثان (ولن تجد لهم نصيرا) يخرجهم منه

(إلا الذين تابوا) عن النفاق (وأصلحوا) ما أفسدوه من أحوالهم في حال النفاق (واعصموا بالله) وتقوا به وعصموا بدينه (وأخلصوا دينهم لله) لا يريدون بطاعتهم إلا وجه الله (فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤتى الله المؤمنين أجرا عظيما) فيساعونهم فيه .

ثم أفاد أن كل ما ذكر من عقاب للتافقين والكافرين ليس تشفيا من غيظ ولا انتقاما من عدو (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا) ميثيا يقبل اليسير ويعطى الجزيل (علما) بحق شكركم وإيمانكم ، وكيف يكون ذلك والناس جميعا مخلوقون له تعالى ؟ وإنما ينزل الكتب السماوية ويسلط الآفات الحيوية والحوادث السماوية والأرضية بحسب النظام العام لاستخراج ما كمن في النفوس من الترائز والعجائب الحكيمة حتى تخلص من الطبيعة وترقى إلى عالم الجمال وتبرأ من المادة هذا هو العقاب ؛ وكما أن من الأجسام ما لا يذوب إلا على درجة ١٧٧٥ من الحرارة كالبلاطين ، ومنها ما يذوب على درجة الصفر كالماء للقطر .

هكذا النفوس الإنسانية : منها ما لا يظهر ما فيها من الجمال إلا بعد عناء وتعذيب ، ومنها ما يظهر بأدنى التفتاة إليها ، فهؤلاء التافقون وكثير من العصاة أشبه بالبلاطين ، فيعذبون في الدنيا بالإنذار والتخويف وفي القبر وفي جهنم ثم يخرجون منها كما في الحديث الآتي ، ومنهم من لا يحتاج إلى شيء من ذلك ويكفهم أدنى إشارة كالصديقين وعظما الأمم ، فهم كالماء القطر به الحياة ، وليس البلاطين مع صلابته عديم المنفعة ، بل له مصالح نشاهدها ، كذلك أصحاب هذه القلوب الجاحدة القاجرة خلقوا للنظام العام ، فليس الله مبغضا لأحد فيعذبه ، بل هو مرب العالمين ومصالح خلقه ، فليس يعذب انتقاما بل يصلح الناس إصلاحا .
ولنا أن نمثل ذلك أيضا بقابلية توصيل المعادن للحرارة .

إن الأجسام على قسمين : أجسام موصلة للحرارة توصيلا جيدا . وأجسام رديئة التوصيل للحرارة ، فالمعادن موصلة جيدة للحرارة ، بل هي أكثر الأجسام الصلبة توصيلا للحرارة ، وغير المعادن كالحشب والزجاج والفحم والصوف والحرير ، وجميع الأجسام العضوية رديئة التوصيل للحرارة .
والمعادن درجات بعضها فوق بعض في توصيل الحرارة ، فإذا فرضنا توصيل الفضة للحرارة مائة فإن البزموت (هو أحد المعادن) يكون ١٨٨ ، والبلاطين ٨٤ وهكذا .

ولأرسم لك الجدولين : جدول الصهر والدوبان ، وجدول توصيل الحرارة :

جدول الذوبان

الأجسام	درجات الانصهار	الأجسام	درجات الانصهار
الالمنيوم	٦٢٥	الفسفور	٢ ٤٤
البلاطين	١٧٧٥	الفضة	٩٥٤
حمض الستياريك	٧٠	القصدير	٢١٠
الحارصين	٤ ١٥	الكبريت	١١٤
الذهب	١٠٧٥	ماء البحر	٢ ٥
الزئبق	٢٦ ٢	الماء القطر	٠
	٣٩٩ ٥	النحاس	١٠٥٤

جدول توصيل الحرارة في المعادن باعتبار أن توصيل الفضة لها معتبر مائة درجة وهي مرتبة فأعلاها
توصيل الفضة وأدناها الزئبوت :

الدرجة	المعدن	الدرجة	المعدن
١٤٢٥	القصدير	١٠٠	الفضة
١١٢٩	الحديد	٧٣٢٦	النحاس
٨٢٥	الرصاص	٥٣٢٢	الذهب
٨٢٤	البلاتين	٢٣٢٦	الشيبة
١٢٨	الزئبوت	١٩	الحارصين

ولعلم أن الناس يشاهدون بعض مافي هذه الجداول ولا يفكرون فيها ، فإنهم يصنعون مقابض للقدور
وأواني الشاي وغيرها من كل ما تغلى فيه السوائل من خشب ، لأن الخشب موصل رديء للحرارة : أي إن
الحرارة لاتسرى فيه بسرعة ولو كانت تلك المقابض من نفس المعدن لسرت الحرارة فلم يمكن التصرف فيها
بالتقص عليها واستعمالها فالخشب خير وقاية لذلك ، فالموصل الرديء للحرارة نعمة علينا ، كما أن الموصل الجيد
كالحديد والنحاس نعمة علينا فلهذا علينا الفضل في الخشب الموصل الرديء للحرارة وفي المعادن الموصلة الجيدة
فكلاهما نعمة وكلاهما لا بد منه لحياتنا ، وترى الناس يلقون أنابيب المياه الحارة وأنابيب البخار وجميع
الأجزاء التي قد تكون معرضة للهواء من مراحل بعض الآلات البخارية بملف من القليلين أو خليط من طين
يتبن أو طين بشعر أو نوع من طوب قد صنع من قنات القليلين كل ذلك لأن هذه موصلة رديئة للحرارة :
أي الطين المخلوط بالطين والطين المخلوط بالشعر مثلا يمتنع ويحبسان الحرارة في المراحل فلا تتبعثر في الخارج
فهذه الأجسام الرديئة التوصيل الحاسبة للحرارة أشبه برعاة الغنم والأمرء والحكام والوعاظ الذين يحافظون
على الأمم .

ولعمري إن نعمة العلم والحكمة أجل من الدنيا ومن فيها وأي خير في الحياة إذا لم نطلع على هذه الحكمة
والمعانيب ، فالجاهل يتعثر في الأوهام ، والعالم يرى العالم كله جمالا وكالا ، فإذا رأى جبا يذوب سريعا كما
البحر ، وجبا يحتاج لزمان متوسط كالفضة وآخر يحتاج إلى زمن أطول كالبلاتين وهكذا في توصيل الحرارة
أدرك بعلمه وعلم بفضلته في العالم المشاهد أن البلاتين والفضة والنحاس لو ذابت سريعا ما أمكننا الانتفاع بها
ولم تصبر الفضة على الحرارة الجوية التي تعيش فيها وهي تختلف من صفر إلى ٤٠٠ و٥٠٠ وهكذا النحاس لو أنه
يذوب سريعا ما أمكننا أن نوقد عليه النار لنطبخ فيه الطعام ، فجموده وعدم ذوبانه بالحرارة النارية لمنفعتنا ،
فإذا كان الماء يسيل على درجة ٣٢٥ والنحاس لا يهصر إلا على درجة ١٠٥٤ فهذان مما لنا منافعنا ، فلو علا الماء
عن الدويان أو سهل ذوبان النحاس لكانت الحياة لا تنطاق .

عجبا أيها الناس ! عجبا أيها المسلمون ما بالنا نعيش في جو مملوء من الحكمة ونحن ساهون لاهون ، يا قوم
أليس العلم نفسه بأيدينا ونحن نأثمون ؟ حقا إن الإنسان لظلوم كفار ، حقا إن الإنسان لجهول ، حقا إن
السليين في الاستغفار خير من كثير من الأمم السابقة ، إنهم سيطلمعون على ما أذكركه الآن ويرعون ويعرفون
عجائب هذه الدنيا التي غفلت عنها الأمم السالفة التي نزل إليها القرآن وهم نائمون بعد الصدر الأول الذين اشتغل
الإيمان في قلوبهم فطاروا إلى الأقطار وسيشتغل العلم في قلوب أبنائنا بعدنا فيظيرون إلى عوالم الجمال والكمال
ويرمونهن عجائب ما حولنا ، والله إنا لنرى في جو من الجمال والحكمة وكأين من آية في السموات والأرض يمررون عليها

وم عنها معرضون» فهل لك أن أسمك الحديث الذي رواه مسلم؟ ويذكره القسرون عادة في الآية للتقدمة في هذه السورة « وإن تك حسنة يضاعفها » ولكن أذكره لك الآن لترى أن نظام الله في أحوال النفس الإنسانية أشبه بنظامه في أحوال المخلوقات الطبيعية سواء بسواء « ماترى في خلق الرحمن من تفاوت » ولا اختلاف بل هو عالم متجانس متحد الوجهة .

العالم الروحاني أشبه بالجسماني في النظام والترتيب ، فالذين نسيهم عصاة لم يخرجوا عن كونهم قوما لهم درجات مختلفة كاختلاف المعادن انصهارا بالحرارة وتوصيلا لها وذلك لمنافع كثيرة ؛ فلو كان الناس كلهم على نسق واحد لاختلت أمور هذه الحياة ، فإذن لا يجرع ولا تألم لما ترى من الاختلاف ، وإذن أسمك الحديث بعد أن اطلمت على الطبيعة .

عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث طويل « ثم يضرب الجسر على جهنم وتعمل الشفاعة ويقولون اللهم سلم سلم ، قيل يا رسول الله : وما الجسر ؟ قال : دحض مزالة فيه خطاطيف وكلايب وحسكة تكون يسجد فيها شويكة يقال لها السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير كأجاويد الخيل والركاب ، فتاج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم ، حتى إذا خلص المؤمنون من النار ، فوالذي نسي يده مامن أحد منكم بأشد مناشدة لله في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار . وفي رواية : « يقولون ربنا كأنوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقا كثيرا قد أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبته . ثم يقولون ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرت به ، فيقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحدا ممن أمرت به ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيرا ، فيقول الله تبارك وتعالى : شفعت للملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ، ألا ترونها تتكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر أو أخيفر ؟ وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض ؟ فقالوا يا رسول الله : كأنك كنت ترمي بالبادية ؟ قال : فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول : أدخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين ، فيقول : لكم عندي أفضل من هذا ، فيقولون : ربنا أي شيء أفضل من هذا ؟ فيقول : رضائي فلا أسخط عليكم بعده فهذا » لفظ مسلم وهو بعض حديث .

ألت ترى أن اختلافهم في مرورهم على الصراط ما بين طرفة العين والريح وأجاويد الخيل أشبه بما ذكرناه وأن نفس النبوة قد جعلت الحركات الطبيعية واختلافها كاختلاف الخلوص من اللذوب والبروج إلى مستوى السعادة فلم يكن هذا العذاب إلا للتهديب .

وإذا كانت شفاعة الشافعين المذكورة في الحديث بعد ما فهمتها في سورة البقرة بما يناسب رقي الأمة الإسلامية ، هناك توجب خروج طوائف كثيرة من العصاة من جهنم ورفيقهم ، فإن الله بما أودع في هذا العالم من النواميس الطبيعية يهذب كثيرا من النفوس بالحوادث الطبيعية وينقها بما يصيبها من الأوجاع والأمراض والأحزان فتخف الأرواح وتطير إلى العلا ؛ فالعلوم مهذبات والصفات مهذبات والحوادث مهذبات ،

والمقصود التام خلوس النفوس من عالم الطبيعة ، قال تعالى «لتركن طبقا عن طبق» إلى عالم السعادة والهناء والحياة الروحية ، فإذا كان البلايين والماء لاسبيل إلى ذوبانها أو غليانها إلا بالحرارة ، فالسبل إلى رقى النفوس الإنسانية متمتعة ، فتارة تكون بالدين وأخرى بالعلوم التي يطلبا الدين وأخرى بالمصائب والحوادث وما أشبه ذلك .

هذا هو السر المصون في حكمة العذاب الذي قد نجلى الآن بأجلى بيان ، وبه تعلم معنى هذه الآية التي نحن بصددنا « ما يضل الله بعبادكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليا » فأنه لم يخلق الخلق ليفرح بغيظهم أو يشمت في مصائبهم ، كلا ! بل هو الله الرحمن الرحيم الذي خلق الخشب الذي لا يوصل الحرارة ليكون واسطة تمسك به الإناء الذي فيه الشاي ، كما خلق الغلاظ الجناة من الرجال الأقوياء البنية ليقوم بهم نظام الحياة ، فتارة يهذبون بالديانات وتارة يهذبون بالحوادث وتارة يهذبهم عذاب بعد الموت أو في جهنم ، وإذا خفت نفوسهم خرجوا كما يخرج الفرج من البيضة والجنين من بطن أمه في أمد معلوم ، وكما يخرج النبات من الحب والبرور ، هذا في المؤمنين معلوم . أما في عذاب الكفار الذي يكون مخلدا ؟ فطلك تقول : لم يعذبهم وهم عباده ؟ وإذا قلت لنا إن الله لا يعذب عنده وإنما هو إضناج وطبخ وصهر وترقية ، فأين الترقية في عذاب الكافرين ؟

أقول لك كفالك ماذا كرته الآن ولا أزيد فكفى ! ولكن أشير عليك بقراءة كتاب [فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] للإمام القرظي .

واعلم أن أكثر الناس عن العلم محجوبون وباقه جاهلون وعن الطبيعة التي خلقها غافلون . وإذا كان أهل أمريكا قد جعلوا السجون مواضع للتهديب ومحيطون بالسجون بجميع أنواع الرأفة حتى إذا ظهرت عليه علامات الكمال أخرجوه ، وهكذا ترى الناس قد عرفوا أن الذنوب لم تكن إلا من فعل البيئنة والترية والأحوال المحيطة بالإنسان وأنه لا موجب للتهديب لذلك جعلوا المسجون يتقسل ويتنظف ويتعلم صناعة لأنه ثبت عندهم كما قاله بنتمام أنه لا يفترف الذنوب إلا الذي لا عمل له أو الذي لا نظافة في جسده ، فذلك ترى السجون في بلادنا المصرية تعمل بعض هذا تقلا وتقليدا لأهل أوروبا إذا كان هذا كله حاصل في النوع الإنساني فما بالك بالله تعالى ؟

أقلا ترى أن يكون فضله تهديبا لا تنديبا ؟ وأن يكون قول نبينا صلى الله عليه وسلم « فيلقهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة » رمزا لحال يراها الناس بعد هذه الحياة وتكون تلك أشبه بمدرسة يتربى فيها الجاهلون الذين لم تهذبهم الحياة الدنيا ، وتكون سلسلة الحياة كسلسلة المدارس المنظمة درجة بعد أخرى وتكون كباب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ؛ فالحياة في الدنيا ظاهرها عذاب وباطنها رحمة ، وهكذا تلك الحياة التي يحياها الصاة بعد الموت وهم ناقصون « وأن إلى ربك المنتهى » .

هذا . ولما كان ذكر الناقلين وذمهم في الآيات السابقة تعريضا لاتصربها أردفه الله بما يفيد أن الجهر بالسوء من القول لا ينبغي ولكن من ظلم للبناء بالفاعل يفعل ما لا يحبه الله تعالى فيجهر بالسوء من القول ، وقرىء « بالبناء للجهول بمعنى أن من ظلمه أحد فتظلم منه لمن يدفع عنه الظلم فلا عقاب عليه ولا ذنب ، ثم قال (وكان الله سمعا) لكلام الظلوم (عليا) بالظالم (إن تبدوا خيرا) طاعة وبرا (أو تحضوه) أو تمنعوه سرا (أو تنفوا عن سوء) لكم أن تؤاخذوا عليه (فإن الله كان عفوا قديرا) يكثر العفو عن الصاة مع كمال قدرته فلتقتدوا به ولا تجهروا بالسوء من القول وإن كنتم مظلومين وقد رخصت لكم في الجهر فإن ذلك من مكارم الأخلاق ، ولقد فعلت ذلك مع الناقلين فلم أصرح بأسمائهم في الآيات السابقة لمنوى عنهم ولا استجلاب قلوبهم إلى الوادة الدينية (إن الذين يكفرون بالله ورسوله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسوله) بأن يؤمنوا بالله ويكفروا برسوله (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر

يعض (ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا) طريقا وسطا بين الإيمان والكفر ولا واسطة إذ الحق لا يختلف ، فالإيمان بالله لا بد منه من الإيمان بالرسول وتصديقهم فيما بلغوا (أولئك هم الكافرون) هم الكاملون في الكفر (حقا) مصدر مؤكد لغيره (وأعدنا للكافرين عذابا مهينا) ثم ذكر أعداءهم فقال (والذين آمنوا بالله ورسوله ولم يفرقوا بين أحد منهم) ودخول بين كل واحد مع أن بين يقتضى متعددا لأن أحدا وقع في سياق النفي فصار عاما (أولئك سوف يؤتيم أجورهم) الموعودة لهم (وكان الله ظهورا) لما فرط منهم (رحيا) عليهم فيضعف حسنتهم ، انتهى المقصد الثامن .

المقصد التاسع

يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرَنَا اللَّهُ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَمَفَّوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَانًا مُبِينًا * وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمْ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا * فَبِمَا تَقَصَّتْهُمُ مِيثَاقَهُمْ وَكَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا * وَبِكَفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا * وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَلْأَلْيُسُوفِينَ فِيهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا * فَيُظْلَمُونَ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا * وَأَخَذَهُمُ الرَّبُّ وَقَدْ هَوَّاهُ عَنْهُ وَأَسْلَمَهُمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا * إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ، وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَسَمْنَا لَهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا * رُسُلًا

مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا *
 لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِوَيْلِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا *
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ فَمَلَّوْا ضَلَالًا بَعِيدًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا
 لَمْ يَكُنِ اللَّهُ يَجْعَلْ لِيَفْزَرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا * إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ
 ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا
 لَكُمْ ، وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * يَا أَهْلَ
 الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ
 رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ نِقَابًا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَوْا
 خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا * لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ
 يَسْتَنْكِفْ عَنِ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَصَلُّوا
 الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا
 فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ
 بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِهِ
 فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا * يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ
 فِي الْكَلَالَةِ إِنْ أُمِرُوا بِهَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ
 يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ ، فَإِنْ كَانَتَا أُخْتَيْنِ فَلَهُمَا النِّصْفَانِ مِمَّا تَرَكَ ، وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً
 فَلَهُمْ كَرْمٌ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ *

في هذا القصد ثلاثة فصول :

الفصل الأول : تبريع اليهود على الطلمات التي ارتكبوها وهي قريب من ١٦ ذنباً من قوله « يسألك أهل

الكتاب - إلى قوله - أجرا عظيماً » .

الفصل الثاني : في بيان أن الرسالة اللاحقة كالسابقة كلها بالوحي وتعداد بعض الأنبياء والوعظ باتباعهم

من قوله « إنا أوحينا إليك - إلى قوله - وكان الله عليماً حكيماً » .

الفصل الثالث : في خطاب النصارى وتفرجهم على ضلالتهم في شأن المسيح وأنه ليس ثالث ثلاثة
وفي خطاب المسلمين أن يحطوا كل ذي حق حقه في التراث من قوله « يا أهل الكتاب لا تغفروا في دينكم إلى
آخر السورة » .

الفصل الأول

هذا الفصل فيه الذنوب التي ارتكبتها اليهود قديما . ولقد تقدم كثير منها في سورة البقرة ولكن ذكر
هنا نحو ١٦ ذنبا لتنت الأخبار منهم على النبي صلى الله عليه وسلم . ذلك أن كعب بن الأشرف وفتحاص
ابن عازوراء من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن كنت نبيا فالتنا بكتاب جملة واحدة من السماء
كما آتى موسى بالتوراة ، فقال الله لا تطمعن في إيمانهم يا محمد فإنهم من فرط جهلهم واجترأهم على الله لو أتيتهم
بكتاب من السماء ما آمنوا بك ، وكيف يؤمنون وقد لقي موسى منهم مالتى ؟ والذي لقيه أشد مما
لقيت منهم .

(١) فهم قالوا له (أرنا الله جهرة) عيانا وتقدم هذا في سورة البقرة (فأخذتهم الساعة) وهي نار
من السماء فأهلكهم .

(٢) (ثم اتخذوا السجل من بعد ما جاءتهم البينات) المعجزات ، والسجل كان من ذهب صنعه لهم السامري
فصدوه وتركوا عبادة الله (ففضونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا) حجة واضحة تدل على صدقه .

(٣) (ورفضنا فوقهم الطور بميثاقهم) أى رفضنا الجبل المسمى بالطور فوق رؤوسهم لما لم يقبلوا
التوراة حتى يخافوا قبوله ، وهذه الأمور كلها لا ينكرها اليهود فهي حجة عليهم .

(٤) (وقتلنا لهم) والطور يظلمهم (ادخلوا الباب سجدا) أى ادخلوا باب إيلياء مطأطين عند
الدخول رؤوسكم خفاقتوا ودخلوها وهم يزحفون على أستاههم .

(٥) (وقتلنا لهم لامتدوا في السبت) أى وقتلنا لهم لامتدوا في يوم السبت الحد إلى مالا يحل لكم
فلا تعملوا عملا فيه لاصيد سمك ولا غيره ، فاصطادوا السمك فيه .

(٦) (فنقضوا ميثاقهم فقلنا بهم ما فعلنا) فيها نقضهم ميثاقهم (ما زائدة للتأكيد والتعجب فقلنا
بقضهم ميثاقهم .

(٧) (وكفرهم بآيات الله) في التوراة والقرآن .

(٨) (وقتلهم الأنبياء بغير حق) .

(٩) (وقولهم قلوبنا غلف) جمع أغلف : أى على قلوبنا أغطية وغشاوات فهي لا تسمع ما تقول .

(١٠) (بل طبع الله عليها بكفرهم) فجعلها محجوبة عن العلم بكثرة الذنوب والكفر فأصبح ذلك كالطابع
يغتم على القلب فلا يدخله شيء (فلا يؤمنون إلا قليلا) كعبد الله بن سلام .

(١١) (وبكفرهم) بعيسى ابن مريم معطوف على كفرهم ، فهو من عطف الخاص على العام .

(١٢) (وقولهم على مريم بهتانا عظيما) إذ رموها بالزنا .

(١٣) (وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله) ادعت اليهود أنهم قتلوا عيسى وصدقهم
النصارى على ذلك ، فكذبهم الله قائلا (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) ولقد تقدم إيضاح هذا المقام
في سورة آل عمران بما لا مزيد عليه ، فارجع إليه إن شئت تر أن إنجيل برنابا قد تكفل بهنه المسألة ،
وقتلنا النصوص هناك وأن يهوذا هو الذي ألقى عليه شبه المسيح وصلب وقتل . وقد كان هو التلميذ الذي
خلن نبيه وأستاده (وإن الدين اختلفوا فيه) في شأن عيسى (لني شك منه) فهنه الأنجيل قد اختلفوا فيها

حتى كانت المجمع التي أقيمت قديما ، وهناك حصل حذف وإثبات كما تقدم (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) بسبب أن المسيح اختار رسله من الشعب الهادى قوما كانوا صيادى سمك فى بحيرة طبرية ليفهم الناس أن دينه لا يحتاج إلى ذكاء خارق للعادة فجاء بولس وهو (فرسى) ويحرف اللغة اليونانية وادعى أنه هو المختص بالمعرفة الحقيقية لدين المسيح وأخذ يخاصم بطرس ، فتألف بعد رفع المسيح صنفان من النصارى صنف يتبع بقية أتباع المسيح ، وصنف يتبع بولس المذكور ، ثم نشبت الحرب بين الدولة الرومانية فى زمن نيرون بقيادة فسبسيانوس الرومانى وبين اليهود .

ولما مات القائد الرومانى تولى القيادة ابنه طيطس وفتحت أورشليم عام ٧٠ ، وضرب الهيكل ففرق اليهود فى كل واد يهيومن ، وأغلقت الرابطة وكان كل أسقف يطم جماعته بما يظلب على عقله مع الحكمة المتأثورة عن المسيح ، ثم اختلطت التعاليم بالفلسفة اليونانية لاسيا فى مدارس الإسكندرية . وغلبت الفلسفة على تلك التعاليم البسيطة لجهل القائمين بها وقوة الفلاسفة ، فنشأت فى آخر الجليل الأول الأناجيل المتقولة فى الأصل عن الرسل ، وقد أحصى فابريسيوس منها ٣٥ إنجيلا ، فهذا العدد كان بعض ما فى الجليل الأول والثانى ، وبقى الأمر على هذا التوال إلى سنة ٣٨٤ لما رأى البابا داماسيوس ما فى الأناجيل المنتشرة من الاختلاف والتناقض فأمر مارابرو نيموس أن يحمر ترجمة لاتينية جديدة ، وذلك لأن الملك تيودوسيوس ضجر من المخاصمات وصدر الأمر بأن يكون الأسقف فى رومة هو الذى له الحق وحده أن يتبعه عموم النصارى ، وهذه الترجمة ثبتها المجمع التريدينتى سنة ١٥٤٦ ، وخطأها سيستوس الخامس سنة ١٥٩٠ ، وخطأها بنسخة جديدة ، وخطأ هذه كليمنطوس الثامن وطبع نسخة جديدة بترجمة جديدة وهى الباقية إلى الآن عند الكاثوليكين .

فهذا هو معنى قوله تعالى « وإن الدين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن » أى لكمم يتبعون الظن ، فالاستثناء منقطع (وما قتلاه يقينا) أى قتلا يقينا (بل رضه الله إليه) ردة وإنكار قتله وإثبات لرضه (وكان الله عزيزا) لا يظلب على ما يريد (حكيا) فىما دبر ليعسى (وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته) يعنى وما من أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى بل أهل اللل جميعا إلا والله ليؤمنن بيسى حين ينزل من السماء ويقتل الدجال فهلكه حتى تكون الللة واحدة وهو الإسلام ، وتقع الأمنة فى الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والغنور الخ .

هذا ماجاء فى كلام علماء التفسير ، وسأوضح هذا اللقام مع بعض التحقيق (ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا) فيشهد على اليهود بالكذب ، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله .

(١٤) (فبظلم من الدين هادوا) أى فبسبب ظلم منهم (حررنا عليهم طيبات أحلت لهم) أى ما حررنا عليهم الطيبات التى كانت حلالا لهم إلا بظلم عظيم ارتكبه من قضمه الليثاق ونحوه ، وتلك الطيبات التى حرمت ستأتى فى سورة الأنعام بأن حرم عليهم كل ذى ظفر الخ .

(١٥) (وصدّم عن سبيل الله كثيرا) فاسا كثيرا .

(١٦) (وأخذم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل) قد كان الربا محرما عليهم فأحلوه . م وحرمت عليهم الرشوة فأخذوها بالباطل (وأعدنا للكافرين منهم عذابا أليما) دون من تاب وآمن (لكن الراسفون فى العلم منهم) عبد الله بن سلام (وللؤمنون) منهم كأصحاب عبد الله بن سلام (يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك ، و) أمدح (التقيمين الصلاة و) هم (المؤمنون الزكاة وللؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتهم أجرا عظيما) وجاء أمثال ذلك فى كلام الرب ، قال الشاعر :

لا يمدن قوى الدين هم سم الصداة وآفة الجزر
النازلين بكل معترك والطيبون معاهد الأزر

أى أذكر النازلين وهم الطيبون ، فالنازلين كالمقيمين هنا ، والطيبون كالمؤمنين الزكاة ، وبعضهم جعل
للقيمين معطوفا على قوله « بما أنزل إليك » أى يؤمنون بالكتاب وبالأنبياء الذين يقيمون الصلاة ، وهذا
لا يحتاج إلى تبيين ، انتهى التفسير اللفظي .

لطيفة لشرح مسألة المسيح ، وكيف ينزل في آخر الزمان ، وما المقصود من هذا ؟

اعلم أن العالم الإنسانى قد سم الصراخ والزلزال والجدال والحروب والدافع والبارود والسفن والطائرات
والقنابل والنواعت الناصات ، فالعالم الإنسانى فى هرج ومرج مستمرين دائبين ، فكأن الإنسان حكم عليه
أن يكون شقيا أبد الأبدين ودهر الدهارين .

قبالت شعرى ما هذه المدارس والبيانات الشروحة والعلوم النعمة والآداب العامة ؟ والعالم الإنسانى
أجمعه فى الشرق والغرب يقول نحن فى عصر المدنية والعرفان مع أنهم لايزدادون إلا طغيانا ولم تزدحم المعارف
إلا بهتانا . فالناس فى الشرق والغرب محادعون كاذبون دجالون يخادع كل أخاه ، وهم يخدعون أنفسهم ،
كيف لا وضف أمة واحدة يضمف المجموع ، وقتل ذكاه فرد واحد بدعو لقتل ذكاه المجموع ، فكيف
يقتل ذكاه أمة بتامها ذلك هو المدرس السائد الآن ، فإن علماء أوروبا وحكاهها ومدرسيها سلطوا بحالس
نوابها وجيوشها الحرارة على أهل الشرق ، فأخذوهم وقتلوا ذكاهم وجردوهم من السلاح الملى ، كما سلبوا
منهم السلاح البرى والبحرى ، وهكذا الإنسان قديما وحديثا ، فهو فى الصورة إنسان وفى الحقيقة العملية
شبان أو شيطان .

ولقد ألفت كتابا فى ذلك سمته : « ابن الإنسان ؟ » وأرسلته إلى مؤتمر الأجناس فى انكلترا قبل الحرب
العظمى بنحو ثلاث سنين ، فمنع علماء أوروبا الحقد والحسد أن يترجموا الكتاب بعد ما وعدوني بترجمته ،
ولكن جاء العلامة ستلانة الطليانى وقرظه فى مجلته ، وقال إن هذا الكتاب ظاهره خدمة المجموع الإنسانى
وباطنه احتجاج على أوروبا لجشعها وابتلاعها الشرق ، وبالاختصار إن هذا الإنسان اليوم حائد عن الصراط
السوى ، ولكن يدور على الألسنة وتشتاق النفوس إلى يوم يكون الناس فى أسرة واحدة ، وإذا كان الناس
يشاهدون خلية النحل فيها نظام جميل ولها ملكة ونحل شغال وآخر لأجل النسل ، ثم إن النحل يجتمع على
ما لا عمل له منه فيقتله والنظام سائد ، فمنها الريات للأولاد ، ومنها الجامعات للشمع ، ومنها الجامعات للعسل ،
ومنها الحافظات الحارسات فلا يدخل غريب عليها وهكذا مما لا يحصره القام ، فإذا كان هذا فى خلية النحل
فأين مزية الإنسان ؟ نعم يقال إن كل أمة من الأمم تكلمة النحل وما أكثر الحلايا ونحن نحول ابن مزية
الإنسان إذا كان طوائف كطوائف النحل ؟ وأين مزيته التى يمتاز بها على الحيوان ؟ ليس فى قدرة نحل البلدة
الواحدة أن يكون خلية واحدة ليس فى طاقته ذلك ، ولكن الإنسان الذى سخر له البحر والبر وذلك له
السهل والجبل وخاطب شرقيه وغريه شرقيه قادر اليوم أن يكون تكلمة نحل واحدة لها نظام خاص ،
بحيث تكون كل أمة منه أشبه بضو فى الجسم الإنسانى ، وكل فرد من الأمة أشبه بالأعضاء الداخلة فى تكوين
ذلك الضو ، وبعبارة أخرى إننا نجد اليد مركبة من عضد وساعد ، والساعد من عظمين وعظام فى الرسغ ،
وعظام فى اليد والأصابع ، فاليد الواحدة فى الجسم تشبهها الأمة من أم الأرض ، والأعضاء الداخلة فيها
كأفراد تلك الأمة .

ولا تظن أن هذا العلم حديث بل هو قديم اقرأ كتاب « آراء أهل المدينة الفاضلة » للفارابى فإنه جعل

المدنية الفاضلة أن تكون الأمة منتظمة تنظم الجسم الإنساني ، ويجعل الأفراد في الأمة في المراتب التي تناسبهم ؛ فكأن العدة لاتصلح للتفكير والكبد لاتصلح لهضم الطعام هكذا لاتصلح أصحاب العقول المتوسطة للحكمة العالية ، وأصحاب العقول الكبيرة لايجوز أن ينزلوا لما هو أقل من مراتبهم ، بل يوضع كل في مرتبته وزاد على ذلك فقال : وقد يقال معمورة فاضلة : أي إن الأمة من الأمم تكون أشبه بضمو في جسم الإنسان العام وتجعل في مركزها الخاص بها . وبناء على هذا يصبح الإنسان كله أسرة واحدة ولهم مجلس عام وهو الذي يخصص لكل طائفة من الأمم أعمالها ، ويقرر على كل أمة مقدار ما يلزمها من العمل العام للانسانية على مقدار طبيعة أرضها ونسبة عدد سكانها وقدرتهم ويلزمون بذلك قسرا إن لم يتم التعليم العام بانصراف الصدور لذلك ، وإذا حصل هذا أعطيت كل أمة ما تحتاج إليه من المال العام للأمم بنظام خاص ، فتوزع نتائج الصناعات والزراع على الأمم ، ومتى قصرت أمة منها تقاتل وتؤدب كما أن للمفرد إذا قصر حوكم بالقتل كما كان قدماء المصريين يفعلون ذلك .

هذا هو النظام العام الممكن في مستقبل الأمم . هذا هو الأمر المحبوب من جميع العقلاء في العالم وجميع الصالحين عنه يبحثون ، فهل هذا الحيال الذي ذكرته لك الآن ممكن أم ذلك خرافة تقال وتتميق في القال فلتنظر في الآيات التي نحن بصدها الآن .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم للسيح ابن مريم حكما مقسطا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد » زاد في رواية « وحتى تكون السجدة الواحدة خيرا من الدنيا وما فيها » ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه اقرءوا ما شئتم « وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته الآية » وفي رواية قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لينزلن فيكم ابن مريم حكما عادلا ، فليكسرن الصليب وليقتلن الخنزير وليضمنن الجزية وليتركن القلاص فلا يسمي عليها وليذهبن الشنخاء والتباغض والتحاسد ، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد » أخرجه في الصحيحين .

فبالت شعري كيف يترك القلاص من الإبل وعلى أي دابة يركب ؟ ولعله يركب القطار والطائرات وكيف يقول خذوا المال فلا يأخذه أحد ؟ وما هذه الثروة العظيمة في الأرض ، بل ما هذا الصلاح العظيم ، وكيف يكون الناس أمة واحدة ؟ وما هذا التضامن وما هذه العفة ، يقول : خذوا المال فيقولون : لا تأخذ كأن المال حجارة أو حديد أو أشغال شاقة .

اعلم أن هذه الحال حال أخرى من أحوال الإنسانية لاتأتي فجأة ، فلا بد لها من مقدمات وليس في عمل هذه الطبيعة للسفرة بأمر الله من طفرة : الطفرة محالة فلا بد من مقدمات تتقدم هذه الأحوال للمستقبل .

واعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخبرنا بهذا إلا لنستعد لذلك اليوم الذي يرتق فيه الإنسان ويكون جميع الناس إخوة كأنهم خلية نحل واحدة .

وانظر الآن أأنت ترى أن الإنسانية تالت في الآلات للهلكة والفاتكة والغازات الحاققة ، والبول الآن تزيد في للهلكات ، والنموقة الألمانية الغلوبة اليوم على أمرها تدبر في السر من للهلكات ما لم يحلم به للبشر ، بل يقال إنهم يتدبرون أن يجعلوا في الجو سما يهلك من في الأرض جميعا ويهلكون مع الناس ، أنا لا أقول لك هذا سيحصل وإنما أقول هو ممكن ، وما في الإمكان في هذه الأيام سريع الوجود ، سريع الظهور ، سريع العمل ، كثير الأثر ، وهذا زمن الصباغ الذي أخبرت به الأنبياء .

فالمستقبل أحد أمرين : إما أن الأمم يهلك بعضها بعضا وهذا على ما أظن لا يكون ، وإما أن تتغلب أمة قوية على البقية ونجبرها على اتباع النظام العام الذي ذكرته لك ، ويصبح هذا النظام خلقا للناس يتقادون إليه وتكون هناك ألفة جامعة . أنا لا أقول ذلك سيكون ولكن أقول إنه محتمل ، فإذا حصل هذا ودام أجيالا ألف الناس العمل وبنوا الكسل ، وظهرت الهبة واللودة وجاء يوم الإنسانية الجديدة ، وظهر الإنسان بأوفى معانيه وحيثما ما فائدة المال ، ولم يخزن الإنسان المال ما فائدة التقود ولا تقود . التقود للتعميل بها ولا تتامل إذن بل هي المبادلات وإذن تبطل البنوك (المصارف) فلا ربا ويبطل الخمر ، وأجبرك اليوم بأن الخمر أبطلته أمريكا والترك ، والربا أبطله أهل روسيا وهم البلشفية ، وبعض ما ذكرته لك يفعله الروسيون ، فالتقود عندهم أوراق وقتية تبطل في أمد معلوم ، والخبز والملبس يأخذها الناس في مقابلة العمل . ولست أقول إن هذا هو الذي سيكون ، ولكن أقول ربما أن يكون هناك عمل يشبه هذا في المستقبل ويرتقى لأنى اليوم أجهل ما فى تلك البلاد .

فإذا ارتقى النظام على هذا النوال على توالى الزمان ، فلا يمضى زمان قليل حتى يكون الأعداد العام ، وحيثما يضرب الحديث الشريف الذى روى فى البخارى ومسلم وعلى المسلمين إذا ذاك أن يتأهبوا لذلك اليوم فلا يأخذون جزية ، لأن الجزية تكون حيث لم يكن هناك أعداد عام ، فإذا حصل فليسبهم أن يكونوا مع الأمم بما واحدة .

يقول بعض القسرين إن أخذ الجزية مقيد بزمن نزول المسيح عليه السلام فلا جزية إذ ذاك ، وسيأتى فى سورة محمد صلى الله عليه وسلم عند قوله تعالى « فلما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » إن ذلك حين نزول عيسى : أى أن وضع الحرب أوزارها أيام عيسى عليه السلام .

كيف ينزل المسيح

وهنا نقول : هل ينزل المسيح بنفسه ؟ أم ذلك رمز لزع الثقل والحقد من القلوب واتحاد الأمم وتعاونها وتصالحها

اعلم أن أتباع كل دين فى الأرض لا يصدقون بغير دينهم ولو أن المسيح اليوم جاء للنصارى لقالوا له كذبت وكذلك نحن معشر المسلمين لو جاءنا أى إنسان وقال أنا عيسى أو موسى أو محمد قلنا أنت مدع .

ألا ترى أن اليهود وعدوا بمجى المسيح فلما جاء كذبوه والنصارى لما أرسل سيدنا محمد كذبوه إلا قليلا منهم . فهكذا نحن معشر المسلمين إذا جاء لنا أى إنسان مهما كان شأنه فإن الجمهور لا يصدقونه وإنما يفعلون معه ما فعلته الأمم مع الأنبياء فيقبله قوم ويرفضه آخرون . هذا هو الأمر الذى يمكن وقوعه فإذا نزل المسيح فلا يزال من النصارى واليهود والمسلمين إلا ما ذكرته لك فيقبله قوم ويغضبه آخرون ويقولون أنت لست بالوعود به . فأين المناء وزوال التماسد والتباغض وثبوت المحبة فى الأرض اللهم إلا أنه يحصل فى عقول النوع الإنسانى حال غريبة فجائية ، ثم ما فائدة هذا الزمان القليل أى زمان وجود المسيح فى الأرض وللأم أعمار طويلة فإذا انتهت الأمم كلها عدة أعوام وذهب للمسيح من بينهم فهذا أمر لا تكون فائدته تامة .

ومالى أذهب معك بعيدا ، انظر إلى الأمم الآن ألست ترى فى الهند من قام وقال إني أنا للمسيح ومات فى زماننا وجاء بتعاليم إسلامية ونهى عن الحرب والحكومة الإنجليزية ساعدته وله أتباع هناك فى الهند ؟ أولانى إلى طائفة البهائية يبلاد الفرس فإنهم قاموا بتعاليم تامة من القرآن وتشروها فى أمريكا وأوروبا واتبهم أناس كثيرون وأخبرتنى سيدة إنجليزية من أتباعه أنه هو للمسيح ومع ذلك لا يزال التحاسد فى الأمم كما هو والحرب والتخريب وهم يقولون إن هذه الشريعة تنل على الأديان كلها وأكثر التبسين لهذا الدين من أم

الفرنجية وقليل من المسلمين اتبعوه وهم يعملون شرعهم هذا هو شرع المسيح الوعود به وقد اتبعهم ملايين كثيرة وربما جاء كثير يقولون بهذه الدعوة فأبهم يتبعه الناس ولعل مقدمات عيسى المذكورة في الحديث هي الحال التي سيصير إليها البشر من الأعداء والإخاء والأعمال النافعة العامة للواقفة لروح الإسلام ثم يأتي هو ويظهر أن الزمان المستقبل يكون مداره على الحقائق لاعلى الظواهر فيكون الدجال رمزاً لما عليه الأمم الآن من الدجل والكذب والنفاق والجهالة والعمى ، والمسيح إشارة لما تستأهل له الأمم في المستقبل من ظهور الحقائق وتغارب الأمم وأعداء الأعمال والنظام العام وربما كان ذكر أنه لا يركب الإبل في الحديث الشريف الإشارة إلى أن زمان ذلك الحب قد قرب فإن الناس أخذت تترك القطار والطائرات فإذا عم هذا يكون قد اقترب زمان التعاون بين الأمم لأن سرعة النقل بين الشرق والغرب تقرب وجهة النظر ، فأما تباعد المسافات فإنه يورث الاختلاف في الغايات . ولا تظن أني أقول بمنع وجوده في الأرض ولكني أقول إن المهم في الأمر ليس شخصية المسيح ولا وجود ذاته وإنما المهم السلام العام والصدق والإخلاص ، هذا هو الذي نشد إليه الرجال ويعنى بشرحه أكابر الرجال ، فليس القصد من المسيح ذاته سواء أحضر بنفسه أم كانت الحجة الأخوية بين الجامعة الإنسانية ، فالقصد سعادة الأمم لاجتماع الأشخاص فينبزل المسيح فهو أمر ممكن ولكن الدار على الإخاء العام ، فأما البيانات فإن الكتب تنتشر في أنحاء المعمورة كما هو حاصل اليوم .

ألا ترى أن دولة إنكائرا قد أخذت تعتق الإسلام وابتدأ بذلك عطاؤها الأغنياء وذلك للدراسة فنشر الدين اليوم يسير بطريقة غير طريقة السيف بل بالإقناع فالمدار على الحقائق ، فإذا وجدنا أن ديننا ينتشر بطريقة الإقناع وسيم ذلك في زمان السلام العام بزول المسيح فلنفع ذلك كما يفعل الفرنجية في دينهم فلا تحارب ولا تقاتل لأن المقصود هو الإيمان والإيمان يحصل بلا حرب ولا ضرب ونحن ليس عندنا مبشرون فما بالك لو كان هناك مبشرون دينيون مسلمون . وسترى كلام القسرين في سورة محمد صلى الله عليه وسلم وأنهم يقولون بمنع الحرب أيام زول المسيح .

واعلم أن الأرض كانت منذ مئات (الملايين) من السنين عبارة عن كرة نارية وبتوالي الأزمان برد سطحها شيئا فشيئا وبهذا التبريد المستمر تكونت طبقات بعضها فوق بعض وعدوا أزمنتها ستة أعصر تسمى (الأعصر الجيولوجية) وهي العصر الأصلي والانتقالي والثانوي والثالثي والطوفاني واللاحق للطوفاني وهو الحالي ، وترى أن الأرض ترتفع حرارتها درجة واحدة في كل ثلاثين مترا من العمق ، ففي عمق ثلاثة مائة متر درجة وفي عمق ثلاثة آلاف متر مئة درجة وهي درجة الماء المغلي وفي عمق ثلاثين كيلو مترا ألف درجة وفي عمق مائة كيلو متر أكثر من ثلاثة آلاف وثلاثمائة درجة وهي حرارة تذوب فيها الجوامد كلها وقطر الكرة الأرضية نحو ثلاثة عشر ألف كيلو متر فتكون الأرض بعد ذلك كلها مواد سائلة .

فانظر كيف كان سكان الأرض قبل هذا العصر وكيف كانت الحيوانات والنباتات وكيف كان الانقلاب ؟ إن الانقلاب كان عظيما وقد جاء العصر الطوفاني وهو الخامس ، وزلزل الأرض زلزالا شديدا واستدارت الأرض في غمضة عين وحدث انفجار هائل فانقلبت كلها حتى إن القطبين اللذين كانا تحيط الاستواء حرارة انقلبا فجأة وأصبحتا في برد قارس وتلج متراكم كأنه الجبال الشاهقات على ظاهرها والدليل على ذلك ما وجدوه في باطن الأرض من القبلة العظيمة التي لا تكون إلا في الأقطار الحارة فسكان الزلزلة والطوفان لما جاء لم يجد ذلك الحيوان ملجأ للفرار فانظر وهلك .

كل هذا يريك أن الأرض كلما كان سطحها أكثر حرارة كان الساكنون عليها أقرب للفتاحات كما هو معقول ، وكلما كان سطحها أقرب للاعتدال كان الحيوان عليها أقرب إلى البقاء والسكون والمدوء .

ألا ترى أن العصر الطوفاني المنقضى أعقبه العصر الحالي ولم يحصل فيه إلا بعض الزلازل المعروفة ، وإلا الطوفان الأسوي المذكور في القرآن والتوراة وكتاب الفيدا وهو الكتاب المقدس الهندي وما ذلك إلا ما حصل من انقلاب البحر العظيم الذي كان يمتد قديما من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالي ، فترى من آثاره بحر الحزر والأزوف والبحيرات المالحة المنتشرة في سهول التتر ومفاوز روسيا ، فلما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالي والقسم الآخر انقلب في الأوقيانوس الهندي ففرق بلاد ما بين النهرين وكل البقاع التي يسكنها أسلاف الشعب العبراني .

هذا هو تاريخ الأرض الذي مضى ، والأرض لها عمر محدود ودورات محدودة ، وهي بدوراتها حول الأرض جارية على مدى الزمان تزيد كالأجسام التي يكون في أول حياته بنشوة الصبوة والقنوة ، ثم يصير كهلائم شيخا وقورا ، هكذا أرضنا الآن استقرت .

أما سكانها ونوع الإنسان على الخصوص فإنهم يفعلون اليوم ما حصل للأرض وقد اضطربوا في أخلاقهم والحروب قائمة بينهم ، لأنهم من الأرض خلتوا والأرض نار خارجة من نار ، وسطحها مكون فوق نار ، ولا تزال البراكين تخرج كل يوم من باطنها نارا ، فترى جميع أفعال أهلها نارية من فرح وحزن وغم وحرية وعشق وغرام وحقد ورحمة وغيبظ وطمع .

كل ذلك حرارة في النفوس كالحرارة التي في النبات والأجسام ، فهذه في القلوب ممنوية ، وهذه في الأجسام حسية ، وهذا الإنسان أخذ الآن يرتقي ويتقارب ، فاستخرج الفحم الذي تكون من ملايين السنين وها هو ذا ينتفع به ، ولا بد بعد اجتياز هذا الدور الذي نحن فيه من بلوغ دور السكالك كما كملت الأرض التي نحن عليها شيئا فشيئا ، فالأرض تزيد في الثبات والإنسان لا بد يوما ما يصير أكمل منه الآن ، وتتغلب الحكمة على الشيطنة التي غلبت عليه الآن وبوادئ ذلك ظاهرة اليوم ، فإنهم يقولون جمعية الأمم وتنقيص السلاح وما أشبه ذلك ، وذلك هو اليوم الذي قيل فيه : إن المسيح يرسل لأهل الأرض ويزول الحقد والحسد من أهل الأرض ويعيش الناس بسلام ويصبح الناس إخوانا ولا يأخذ المسلمون الجزية بل يعيشون بسلام مع الأمم ، وهذا هو مقصد الحديث النبوي ليستمد المسلمون لتلك اليوم ، ولا تدرى أقرب هو أم بعيد ؟ اهـ .

وكل هذا ذكرته للتقريب ، وليس على ذلك برهان عقلي .

لطيفة في تعاليم الأرواح وكيف كانت أخلاق المسيح وأعماله موافقة لذلك الحديث النبوي المتقدم قد قلت لك قبل هذا الفصل إن العقل ليس له منفذ لاستطلاع المستقبل ، وليس يمكنه أن يعرف هل الناس في مستقبل الزمان يكونون سعداء ، وليس لدينا من الدين ما يدل على نزول المسيح إلا الأحاديث المذكورة ، والقرآن ليس فيه نص على ذلك ، وعلى هذا قال بعض علمائنا إن هذه المسألة ليست من العقائد اليقينية لأن العلماء يجعلون الأحاديث الصحيحة كالتى في البخارى ومسلم ظنية لا يقينية ، كما في فتح البارى على البخارى ، والعقائد عندنا هي اليقين لا الظن ، وغاية الأمر أن صحاح الأحاديث يعمل بها في الأحكام الشرعية ومخالفتها فاسق لا كافر .

هذا ما كان من أمر شريعتنا الإسلامية الغراء .

فلننظر إلى ما وصل إلى علماء الجمعيات النفسية في أوروبا ، وهل عندهم من هذا القبيل شيء ؟

قول : قد اطلمت بعد ما كتبت ما تقدم على أن بعض الجمعيات في أوروبا استحضرت روح غاليلى الفيلسوف

فأجابها قائلا ما مختصره :

لابد للأرض أن تزول يوما ما وتمحي من سفر الحياة ، ويمكن تقسيم حياة العوالم إلى أدوار ثلاثة :
 دور الطفولة ، إذ يتم تجميع مادة الكواكب الحديثة كالأرض في أول وجودها .
 الثاني دور الكهولة : وفيه يتم تجمد القشرة وتكامل الحياة حتى يظهر المثال الأكل .
 الثالث دور الانحطاط : وفيه يفقد الكوكب مادته بسببين : الأول الاحتكاك ، والثاني تحلل أجزاءه
 كما ينحل الحجر إلى حصى ورمال .

وفي هذا الدور يزيد سكانه ارتقاء في الكمال العقلي والروحي ؛ وكما قصت مادة الكوكب أثر ذلك
 في دوراته فيحصل هناك تغير في الدورات ويصبح النظام بالتدرج غير النظام المعتاد في الأيام والأشهر الخ .
 هذا ملخص ما قيل في ذلك عن الأرواح .

إذا علمت هذا فإنك تجده يطابق الحديث بعض للطائفة ، فإن للروى فيما تقدم أن الناس يكونون غير
 متحاسدين ولا متباغضين ويكونون أسرة واحدة ، وهذا هو المناسب للدور الثالث المذكور إذ ترتقى الأرواح
 فتكون أرضا شيخة كبيرة ونحن عقلاء كاملون ، وكأن هناك تناسباً بين أخلاقنا وحياة أرضنا ، وأن حياتنا
 مرتبطة بأخلاق أرضنا وعمرها وكميتها ودورتها ، ولعلك تجد في بعض الأحاديث أن أيام آخر الزمان تكون
 غير أيامنا هذه مغايرة لها بعض المغايرة .

وإذا ارتقت الأرواح كانت الحياة قائمة بالمحبة ، وعليه نذكر كيفية حياة المسيح فنقول :

اعلم أن قوماً يسمون (الأسونيين) كانوا عائشين في فلسطين حتى وادي النيل حافظين تعاليد
 الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأخلاقهم ، وكانت مهنتهم في الظاهر الطب وفي الباطن نشر المحبة والإخلاص بين
 الناس . وروى عنهم المؤرخ يوسفوس وقيلون وبلينوس أنهم كانوا أفضل قوم على وجه الأرض ، وتعليمهم
 أشبه بتعليم فيثاغورس فيقولون بخلود النفس وأنها كانت في الأقطار الشفافة العلوية الضيئة وقد ربطت
 في الجسد لترتقى ، ومتى انطلقت منه ترجع إلى عالمها وكانت أرزاقهم شائمة بينهم يأكلون على مائدة واحدة
 وطعامهم زهيد ولا يذوقون اللحم إلا نادراً ولم يستخدموا الأسرى لاعتقادهم أن هذا حرام ومخالف للطبيعة
 العامة لأن الناس جميعاً أحرار ولباسهم كان عبارة عن حلة بيضاء يرمزون بها إلى نقاوة النفس وصفاتها
 وفوقها عباءة بيضاء ، ويقسمون أوقاتهم ما بين الصلاة والعمل والتأمل والدرس .
 أما الأسانذة فكانوا متفرغين للفلسفة والطب يبحثون في خواص النبات والمعادن ويستعملون الطريقة
 التنطيلية في شفاء الأمراض .

وقد تحقق اليوم عند العلماء الباحثين أن المسيح كان مختلطاً بهؤلاء القوم سنيين طويلاً وإن لم تذكر
 ذلك الأنجيل ، وثبت ذلك عند هؤلاء المؤرخين أن تعليقه مشابه لهذه التعاليم ، فكان يأمر بحب القريب
 والسواوة بين الناس ولا يقر إلا بإله واحد يسمى (الأب) ولا يقدم له ذبيحة في هيكل ، وهيكله هو هذا
 الكون ، فلا حاجة للعبادة في مكان محدود ومكان عبادته الحقيقي القدس هو القلب وكان يحقر الكذب
 والانتقام والحرب ، وكان يحب الوداعة ودمامة الأخلاق والتواضع والسهولة واحتقار المال والتجرد من
 حطام الدنيا . وكان شعار المسيحيين (السلام عليكم) والنصارى الأولون اختلطوا مع الأسونيين فكانوا
 شعباً واحداً ، اه .

هذا هو الدين المسيحي الذي كان عليه المسيحيون الحقيقيون ، وإذا كان كذلك وقد قررت الأحاديث
 نزول المسيح فهل هكذا سيكون الناس جميعاً إخواناً في سائر الأرض ؟ ويكون السلون هم أصحاب هذا
 الرأي ؟ إذا تم هذا فهو نفس الإسلام ، يقول الله تعالى « ليظهره على الدين كله » ويقول « وما أرسلناك

إلا رحمة للعالمين» هذه هي الرحمة المحمدية التي رمز لها في الحديث أنها عيسوية ، فدين عيسى داخل في الدين الإسلامي ، فالإسلام ظاهره تشريع وباطنه حب وسلام .

وباليت شعري ما التصود من الحدود ، والأحكام ليس لها والله معني ولا مغزى إلا السلام في الأرض ، ومتى حصل السلام بالتعاليم فقدت الشرائع والأحكام سلطانها لأنه لا سلطان لها إلا على الحماطين ، فإذا زال الخطأ واصطلح الناس وتقدمت العقول فأى داع لقطع اليد والصلب وشهادة الشهود ، بل كل ذلك يقل وعمل عمله الحكمة والعمل .

أيها المسلمون اعلموا أن نبينا صلى الله عليه وسلم ينهنا أنكم مستعدون للرق والسعادة ، مستعدون للكفالك النفس ، وإذا كنا نرى سويسرا النصرانية أصبحت ولا يسمع فيها بخائنين ولا سارقين ولا قاتلين ولا ظالمين إلا قليلا ، فما بالنا عن الكفالك ناعمين ؟

ولقد سألت المرجوم محمد بك فريد رئيس الحزب الوطني المصري فتاة ترى بقرا كثيرا في المراعى الواسعة في سهول سويسرا قائلا : كيف ناعمين ؟ ألا تخافين من اللصوص ؟ فما فهمت مايقول ، بل قالت : وهل أحد يأخذ مال غيره ؟ وترى الرجل لا يأخذ تذكرة للقطار إذا سافر فيه اتكالا على أمانته ، وهو الذي يضع النقود في اليد ق بذمته وأمانته .

ولقد سألت المرجوم محمد بك فريد أيضا عن قاض من القضاة متى يحضر المحكمة ؟ فقالوا له : ليس يحضرها إلا في أول كل شهر ، فتوجه إليه فوجده يحيط النعال ليقتات بصناعته ، فقال له : أليس لك مرتب ؟ فقال : للرتب على قدر العمل ، ولا عمل لى إلا ثلاثة أيام في أول الشهر لقله القضايا ، اه .

أفليس الإسلام أحق بهذه الفضيلة ؟ ألا فليحول الناس وجههم إلى الفضيلة وهي مقصد الإسلام .
بامعاشر المسلمين ؛ هل قصرت أنظفنا أن نكون كهؤلاء ؟ بامعاشر المسلمين ، وباعلاء الأمة اقتصاركم على الأحكام الشرعية جهالة عمياء ونذالة حمقاء ، افتحوا عيون الشعوب للجمال الإلهي والأخلاق والفضائل ، فتح لكم الباب نبينا صلى الله عليه وسلم فأراكم أنه سيأتي زمان تكونون فيه كالمسيحيين الأولين الذين كانوا على الحق فيرشدكم بطريق الإشارة إلى أن تكونوا أمة أرقى من هذه الأمة . إن نبينا جاء للهدى فلنكن هدلة ، وما هو ذا يقول لنا إن ذلك الزمان لا يؤخذ فيه الحزبية وإن الحمد ينزع جعدوا في العلوم ، بهذا جاء الدين « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » اه الفصل الأول .

الفصل الثاني

اعلم أن هذا الفصل متصل بالفصل الذي قبله لأن ذلك كان في ذكر ذنوب اليهود وهي ١٦ ذنبا دالة على أنهم كانوا مجرمين من قبل ، فإذا اقترحوا أن تنزل عليهم بامحمد « كتابا من السماء فقد سألو موسى أكبر من ذلك » الخ .

ثم أخذ يعيب بنوع آخر من العلم ، فإذا قال أولان اليهود إذا اقترحوا عليك أن تنزل عليهم كتابا من السماء فهم قوم غلاظ القلوب وحق لهم كذا وكذا فإنه يقول في هذا الفصل : وهل كنت بدنا من الرسل ؟ وأي نبى نزل عليه الكتاب جملة واحدة من السماء ؟ وإن اليهود يترفون بالأنبياء السابقين ولم ينزل على واحد منهم كتاب مرة واحدة ، فكيف يريدون مخالفة سنة الله في إزالة الكتب السماوية ؟ فمن أشهر الأنبياء نوح وإبراهيم وإسماعيل الخ وهم اثنا عشر نبيا ، هذا هو قوله تعالى (إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) إلى قوله (وآتينا داود زبوراً) أى كتابا حزبوراً أى مكتوبا ، ويصح أن يكون الزبور بالفتح اسم الكتاب الذى أنزل على داود وهو مائة وخمسون سورة ليس فيها حكم ولا حلال ولا حرام بل تسيح

وتقديس وتعجيد وثناء على الله ومواعظ (ورسلا قد قصصناهم عليك) أي قصصنا رسلا الخ من باب الاشتغال (من قبل) من قبل هذه السورة (ورسلا لم قصصهم عليك) أي لم نسلمهم لك ولم نمرقك أخبارهم (وكلم الله موسى تكليما) وتكليم الله أقصى مراتب الوحي ، ثم قال أمدح (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا) لا يغلب على أمره (حكيا) في تخصيص كل نبى بنوع من الإلهام وإذا كانوا تمتوا عليك ولا يشهدون بنبوتك فعليهم وزرم (لكن الله يشهد بما أنزل إليك) من القرآن الدال على النبوة (أنزله بقله) أي متلبسا به الحاس به وهو العلم بتأيقه على نظم معجز مشتمل على ما يحتاج إليه الناس في معاشهم ومعادهم (واللائكة يشهدون) بنبوتك (وكفى بالله شهيدا) أي كفى بما أقام من الحجج على صحة نبوتك عن الاستشهاد بغيره (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضلالا بعيدا) ذلك لأنهم جمعوا بين ضلالم وإضلال غيرهم (إن الذين كفروا وظلموا) محمدا بإنكار نبوته وصد الناس عن الإسلام (لم يكن الله ليخفر لهم ولا ليهديهم طريقا ، إلا طريق جهنم خالدين فيها أبدا وكان ذلك على الله يسيرا) لا يصر عليه ولا يستعظمه .

ولما قرر أمر النبوة ورد دعوة المفترضين دعا الناس دعوة عامة ، فقال (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا) إيمانا (خيرا لكم وإن تكفروا) فهو غنى عنكم (فإن لله مافي السموات وما في الأرض) لا يتضرر بكفركم ولا ينتفع بإيمانكم (وكان الله عليا حكيا) فيما دبر لكم ، انتهى الفصل الثاني .

الفصل الثالث

يقول الله (يا أهل الكتاب لا تغفلوا في دينكم) يخاطب النصارى (ولا تقولوا) ١١٧ : ١١٨
 المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلته ألقاها إلى حريم) أوصلها إليها وحصلها فيها (وروح منه) ودور روح صدر منه فذلك يحيي الأموات والقلوب (فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة) أي الآلهة ثلاثة أو الله ثلاثة أو الله ثلاثة أقانيم الأب والابن والروح القدس ؛ فالأب الذات ، والابن العلم ، وروح القدس الحياة (اتسوا) عن الثلاث اتسوا (خيرا لكم إنما الله إله واحد) بالذات لا تعدد فيه بوجه ما (سبحانه أن يكون له ولد) أي أسبغه تسبيحا من أن يكون له ولد ، فإن الولد يكون لمن يفتى فيكون بقاء له كره بعده إلى أمد معلوم وينفع والديه في كبرها ، والله ليس كذلك فهو باق (له مافي السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيفا) والحاجة إلى الولد ليكون وكيفا عن أبيه قائما بنظام بيته ، والله هو الوكيل ، فأين الحاجة للولد إذن ؟ هذا من جهة الله ، أما المسيح فلن يأنف أن يكون عبدا لله بل الملائكة القربون لا يأنفون من ذلك ، ولذلك قال (لن يستكف للسيح) لن يأنف من نكفت السمع إذا نحيته بأصبعك ، من (أن يكون عبدا لله ولا الملائكة القربون) أن يكونوا عبيدا لله (ومن يستكف عن عبادته ويستكبر) ومن يترفع عنها (فسبحرهم إليه جميعا) فيجازيهم (فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا) تحسيره ظاهر ؛ ثم خاطب الناس قائلا (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) البرهان للمعجزات ، والنور القرآن (فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم في رحمة منه) في ثواب (ويهديهم إليه صراطا مستقيما) هو الإسلام والطاعة في الدنيا وطريق الجنة في الآخرة .

يروى أن جابر بن عبد الله كان مريضا فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إني كلاله فكيف أصنع في مالي ؟ فزالت هذه الآية وهي آخر ما نزل من آيات الأحكام (يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله) تقدم تفسيرها في أول السورة (إن امرؤ هلك ليس له ولد وله أخت فلها نصف ما ترك) الأخت هنا من الأبوين

أو أب لأن أخاها عصبه وابن الأم لا يكون عصبه، وقوله «ليس له ولد» يعنى ولا والد، فالأخت المذكورة لها نصف المال إن انفردت والباقي بيت المال على مذهب زيد والشافعي، فأما أبو حنيفة وأهل العراق فإنهم يردون الباقي إليها. أما إذا كان لبيت بنت فإنها تأخذ النصف بالفرض وتأخذ الأخت النصف الثاني بالتعصيب لا بالفرض، لأن الأخوات مع البنات عصبه (وهو يرثها إن لم يكن لها ولد) أى والرجل يرث أخته إن كان الأمر بالعكس. فإذا ماتت الأخت وتركها من الأب والأم أو من الأب فإنه يستغرق جميع ميراث الأخت إذا انفرد ولم يكن للأخت ولد، فأما الأخ للأم فإنه صاحب فرض لا يستغرق جميع المال (فإن كانتا اثنتين فلهما الثلثان مما ترك) فمن مات وترك أختين أو أخوات فلهن الثلثان مما ترك؛ فالمراد بالاثنتين هما وما فوقهما (وإن كانوا إخوة رجالا ونساء فللذكر مثل حظ الأنثيين) أى وإن كانوا إخوة وأخوات فغلب المذكور على المؤنث أى وإن كان المتروكون من جهة الإخوة رجالا ونساء فللذكر منهم نصيب اثنتين من أخواته الإناث (يبين الله لكم) الأحكام والفرائض، كراهية (أن تضلوا والله بكل شئ عليم) فهو عالم بمصالح العباد في الهيا والممات.

لطيفتان

اللطيفة الأولى في شرايع الأنبياء : اللطيفة الثانية في المسيح

[اللطيفة الأولى] ارجع إلى شرايع الأنبياء في سورة آل عمران وكيف ترمى أن الدين واحد بما نقلناه هناك في مسألة المسيح فقد ذكرنا نبذا من ديانات كثيرة .

[اللطيفة الثانية] قد كتبت في مجلة الملاجئ العباسية تفسير آيات المسيح المتقدمة باتساع أشمل وموعظة أكل فلاقلها هنا الآن برمتها فأقول « قل يا أهل الكتاب - إلى قوله - فيحشرهم إليه جميعا » .
الإنسان أرقى من الحيوان تمتع بالحرية وهو مع ذلك ضعيف الإرادة خامل المزجة تتجاذبه الأهواء وتغذف به في هوات الجهالة وترديه في أسفل سافلين .

بطغية المال حتى يستعبده وبه يتعالى على أخيه ، وإذا تولى أمر الناس سعى في الأرض ليفسد فيها بالظلم والعدوان ، وإذا اتبع دينا أو عظم كبيرا تتألى في وصفه وغفل عن تعليمه وأدبه ، وإذا أعرض عنه أساء وصفه ووسمه بأشنع السمات .

عجب أمر هذا الإنسان ! إن كان غنيا طفيا أو قائما بأمر الناس بنى أو متدينا بدين غلا وزل وحاد عن القصد في العقيدة . ومن عجب أن أولئك المتغالين يسحرون الناس ويسخرونهم فيستدلون للظالمين ويغضونهم ويتبعون أهواء أهل القلوب من رجال الدين .

ألم تر إلى لويس الرابع عشر كيف كانت تمام حفلتان لاستيقاظه كل صباح ؟ وكيف كان يتولى خدمته جموع لو صرف ذكاؤهم العجيب في الأعمال النافعة لكان خيرا للإنسان ، وكيف كان لبعض ملوك الإسلام عند الصلاة عساكر يصطفون وجيوش بالسلاح مدججون ؟

الإنسان حر لكنه كالفراش يتساقط في النار ، الغنى يحبس ماله ، والمملك يذله ملكه ، وذو العلم أو الدين كثيرا ما يتبع أهواءه بلا هدى ولا كتاب منير .

من ذلك ما قصه الله في هاتين الآيتين من تنالى اليهود في التشهير بالسيد المسيح عليه السلام وبعض النصارى قديما من اتخاذه إلها .

قال (يا أهل الكتاب) اليهود والنصارى (لا تغلوا في دينكم) لا تجاوزوا الحد فيه إذ يقول اليهود إنه عليه السلام ولد لتبر رشدة وبعض النصارى أنه الإله (ولا تقولوا على الله إلا الحق) وكيف ينزله بضمك

إلى أسفل الدرجات وآخرون يرفعونه إلى ما فوق السموات ونهاية الغايات ؟ فهلا اتجهتم سيلا وسطا لا شطط فيه ولا خلط ؟ فلا تنزلونه إلى أسوأ الراتب ولا ترفعونه إلى رتبة لا تليق للخالق « إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلته ألقاها إلى مريم » أوصلها إليها وحصلها فيها بلا توسط مادة على خلاف العادة للألوفة والسنة المعروفة ، وهذا مفاد قوله « وروح منه » وقوله (فأمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد) ظاهر معروف « سبحانه » تنزيها له أن يكون له ولد ولا يولد إلا لمن يعتريه العناء ويحل به القضاء ليقوم الولد بأعبائه ويخلفه بعد فوائده ، وكيف يصطفى الله ولدا مما خلق ؟ و « له ما في السموات وما في الأرض » ملكا وخلقنا وعبيدا ، وهل احتياج الناس للولد إلا ليخلفهم ويكون وكيل لهم ، والله عز وجل قائم بنظام العوالم حافظ لكل شيء « وكفى بالله وكيلًا » فكفى الله من جهة قيامه بالأشياء وحفظه لها ، فالولد له ضرب من الحال .

ليس التعالى في الدين قاصرا على أمة دون أمة ، ولا طائفة دون طائفة جهل الإنسان وطفى قدما وحديثا .

اقرأ تاريخ الأمم أمة وأمة وبحث أخلاقها وأسرارها وتاريخ دينها والتعصب في الأمم والجمود في القرائح ساريا في أكثر البشر « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم - إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » الحق والصبر سعادة الإنسان وما عداها فإنا هو الضلال والظيش أو الباطل والرعونة . ينزل الله الدين على لسان رسله فيستمكنون بقشوره وينبذون العمل به وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون ، ولقد أخذ المسلمون حظهم من الخلاف واقتروا نيفا وسبعين فرقة خلقها وساوس الشيطان ونصبتها أيدي الشهوات واغتر كل قوم بعصيتهم واعتزوا بجيوشهم « وفرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون » .

ما كادت شمس الدات الحمديدية تغرب من سماء هذا العالم حتى اتبع كل فريق أحد كبار هذه الأمة فتمزقوا خرائق وتفرقوا طرائق ، وكان منهم من عبد سيدنا عليا كرم الله وجهه في حياته فقاتلهم عليه السلام وهزمهم . ومنهم من اعتقد العصمة في رجل وقال بالإمام المعصوم حتى إن الحاكم بأمر الله لا يزال يعظم إلى اليوم ، ولقد كثر المقترون في هذه الأمة ، فالعالم يفتن بطله ، والعاابد بعبادته ، وكثير من الناس يفترون بطاعة فعلوها ثم يتبعونها بالخزيات والدنوب ، وقد يعتز الشريف بنسبه والتليذ الذي أخذ له شيئا بشيخه .

فأنزل الله هذه الآية ليعرف الناس منازلهم ويقفوا عند حدهم ، ومن العجب أن المتدعين من المسلمين اتجهوا سبل الضلالة ونصبوا أشراك الغواية واستجوبوا العمى على الهدى وعظسوا أناسا ليأكلوا باسمهم ويظلموا الناس بالانتساب إليهم ، ألا وإن أثر تلك السيئة ظاهر في الأمة الآن .

وكم مريرد فتح بما تلقفه من شيخه وهو عن الدين والقرآن غافل ، وإن كنت أقر لكثير بالأدب والعلم والإصلاح فلا أزال آسى على هذه الأمة لما تسلط على أفئدتها كثير ممن لا خلاق لهم فيوحون إلى الناس ما يوحون من الزور والبهتان حتى لم يبق في الأرض ملك في محبوبحة العيش ونعم الحياة إلا بعض أولئك الرؤساء الذين تسللوا لوأذا من الجامعة القومية والتف حولهم أشياهم وأغدقوا عليهم النعم وحبس أولئك السادة عنهم العلم والحكمة وعجائب القرآن وزهدوم في العلوم وأنامومهم على مهاد الراحة فأحيط بهم من كل جانب وهم لا يشعرون .

وإذا قلت يا أيها المريرد : لم غفلت وعصيت وجهلت ؟ يقول إن صلة شيخي بالله تشفع لي وإنى بتعظيمي

له والتجاني إليه تخفر ذنوبى فإذا أجنبته أنه لا يملك لك من الله شيئا « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » امتعض وقال لقد حططت من قيمته وأزلت من قدره ، وذلك كما جاء وقد نجران للنبي صلى الله عليه وسلم وقالوا : لم تعيب صاحبنا ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صاحبكم ؟ قالوا عيسى عليه السلام : قال وأى شئ أقول ؟ قالوا تقول إنه عبد الله ورسوله ، قال إنه ليس بعار أن يكون عبد الله ورسوله ، فنزل قوله تعالى « لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا للملائكة المقربون » نكف عنه كفرح ونصر كاستنكف ، يقال نكفت السمع إذا نجته بأصبعك ، أى لن يأنف وهذا كقولهم أصبح لا يخالفه رئيس ولا مرءوس مبالغة في التكثير واستعمال شائع عربى .

وإذا كان السيد المسيح عليه السلام لا يستنكف أن يكون عبدا لله وهو من أولى العزم فكيف يضل فريق من أمتنا ويتغالون في الطرق التي يسلكونها ويحولون على شيوخهم الأحياء أو الأموات في مغفرة ذنوبهم ولن يصل شيوخهم إلى رتبة المسيح عليه السلام ، وأنى للولى أن يصل مرتبة النبي صلى الله عليه وسلم . أقول ذلك وقد أيقنت بأن طائفة تعالت من الأمة فظنوا أنهم يصلون إلى حال تصلهم بالله يرفع عنهم بها التكليف ، ولقد سمعت مريدا يقول : إن شيوخى هو الله ، ومن هنا علمت أن التعاليم الباطنية القديمة العهد بموائيقها وعهودها لا تزال تتوالى في الأمة يتلقنها الأبناء عن الآباء .

وأنا أقول أيها السلمون وجب علينا الآن أن نبين للأمة عيوبها وحق علينا نصحتها وإرشادها . يا أيها الناس إني في وجل أن تضيع الأمة وتذهب ريحها ، يقول العاصى إني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وكفتنى هذه النسبة .

وقد ضرب الإمام الغزالي لهؤلاء الجهلاء مثلا ، فقال مامعناه : من القعيرين بالله من يعظم الدين وهو مقيم على معاصيه مثلهم كمثل رجل أمسك بذقن آخر وضربه على وجهه ، وقال إن أباك كان عظيما شريفا .

قال لى رجل في محفل في بلاد الفلاحين بالشرقية إن الله يفر بالحيج الذنوب الكبار ، فقلت له : يا هذا إذا أرسلت اللصوص فسرقوا ألف حمل وقتلوا مائة رجل واسترقوا عشرين ألف جنيه ، ثم حججت بمائة منها ، فماذا ترى ؟ أفترى أيها الرجل أنك أدخلت الحيلة عليه ومكرت به وهو أسرع الحاسين !

يا أيها الناس اتقوا الله واعلموا أن نبينا أفضل الأنبياء فسرعه أنسب للأمة ، وهل يليق بكرامته أن يكون تابعوه أقل الناس أدبا وأكثرهم ذنوبا وأجهلهم صناعة وأضلمهم سياسة وأبعدهم عن الفضائل وأقربهم إلى الرذائل ويتبجحون بقولهم (إنا أتباعه) وهل هذه النسبة اللفظية ترفع الجاهل فضلا عن العالم .

لقد قال اليهود والنصارى قديما مثل ذلك ، فنزل دما لهم قوله تعالى « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ؟ » بالقتل والملاك في الدنيا والعذاب في الآخرة « بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير » وقال قبل ذلك « فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شئ قدير » هنا جاء الحق وزهق الباطل وبطلت حجة الجهال للدعين أنهم أحق بالله من غيرهم .

وإذا كان المسيح عليه السلام عرضة لهلاكه هو وجميع من في الأرض ، فأى حجة يا أيها الناس قتناوكل ؟ الأنبياء جرى عليهم القانون والناموس ، يقول الله عز وجل على لسان نبيه « ولو كنت أعلم

الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » ويقول الله عز وجل على لسان نبيه أيضا « وما أدرى ما يفعل
بى ولا بكم » يا أيها الناس إياكم والشك فى كلام الله أن يقول امرؤ هذا ظاهر وله باطن .
يا قوم إنا نظرنا فى طرق هذه الأمة فرأيناها مزقت كل ممزق .

يا قوم لاسبيل لأن يزول الضلال إلا بالعلم والحكمة .

يا قوم ديننا ناموس عام لا يستثنى شريفا ولا وضيعا ، وليس عند الله عظيم ونسيب .

يا قوم ليس لى من هذا القول كلمة واحدة إنما هذه آراء أسلافنا وعظمائنا .

يا قوم إن هذا رأى الإمام الغزالى وشيوخ الصوفية أنفسهم ، فأخذوا بعض رجال العصر الحاضر
فأكثرهم لا يعلمون ، وإذا كان الله عز وجل يخاطب نبينا صلى الله عليه وسلم بقوله (وإن كان) يا محمد (كبر
عليك إعراضهم فإن استطعت أن تتبغى نفقا) متفذا تنفذ به (فى) جوف (الأرض أو سلما) مصعدا تصعد به
إلى (السماء فتأتيهم بآية) مما يقترحون عليك فافعل ذلك ، أى أنت لا تقدر عليه (ولو شاء الله لجمعهم على
الهدى) أنذرهم واصبر و (لا تكونن من الجاهلين) الذين يجزعون فى مواطن الصبر ، فإن ذلك من
دأب الجهلاء .

ويقول سبحانه إذ جاء ابن أم مكتوم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده صناديد قريش يدعوم
إلى الإسلام ، فقال : يا رسول الله علمنى مما علمك الله وكرر ذلك ولم يعلم تشاغله بالقوم فكروه رسول الله
صلى الله عليه وسلم قطعه لكلامه وعبس وأعرض عنه ، فنزل قوله تعالى (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) وأى
شئ * يملك داريا بحاله لعله يتطهر من الآثام بما يتلقف منك (وما يدريك لعله يزكى أو يذكر) يتعظ (فتنتفه
الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى) تتعرض بالإقبال عليه ، وليس عليك بأس فى أن لا يتركى بالإسلام
حتى يبعثك الحرص على الإسلام إلى الإعراض عمن أسلم (وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى) يسرع
طالباً للخير (وهو يخشى) كجوة الطريق لأنه أعمى لا قائد له (فأنت عنه تلهى) تتشاغل .

فانظروا يارجال الإسلام خطاب الله لبيه صلى الله عليه وسلم ولعيسى ولأهل الأرض قاطبة .

أنظروا يا أهل العلم كيف عتب الله على نبيه أن أعرض عن رجل أعمى ، وقد تصدى لدعوة عظماء
قريش ، وهو يطمع أن يرض الله بهم الإسلام لا تكبرا عليه .
ولقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان بعد ذلك يكبره ويقول إذا رآه : مرحبا بمن عاتبني فيه ربى
واستخلفه على المدينة مرتين .

ولقد روى أن عتبة بن أبى وقاص شج النبي صلى الله عليه وسلم يوم أحد وكسر رباعيته ، فجعل يمسح الدم
عن وجهه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم ؟ وهم أن يدعوا عليهم ، فنزل قوله تعالى (ليس
لك من الأمر شئ*) ويقول صلى الله عليه وسلم « لو سرق فاطمة بنت محمد لقطعت يدها » ويقول « يا فاطمة
بنت محمد لا أغنى عنك من الله شيئا » .

يا أمة الإسلام هذا كلام ربكم ، وهذه حال نبينا والأنبياء والسيح عليه السلام ، الناس أجمعون
عيده .

فانظروا من أين دخلت الغفلة على المسلمين . يا قوم « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة
شرا يره » ، دين الإسلام أخلاق ، فاتقوا الله أيها الناس واعلموا أن الإسلام دين الفضيلة ، دين الحكمة دين
العلم ، دين الأدب .

وإذا اكتفى الحاج بحجته ، والصلب بصلاته ، والمريد بشيخه ، والفقير بفقعه ، والأديب بأدبه اللفظي ،
فلن أنزل القرآن وآدابه ؟

يا رجال الإسلام أنذركم هلاك العدد ، وقطع اللد ، ورق الولد ، وضيع البلد ! ، أنذركم اقتراب أجل الأمة المحمدية ، أنذركم صاعقة العذاب والمهون . لم يبق إلا أيام قلائل فإن لم ترجعوا إلى الجادة هلكت الأمة وصاروا كاهل الأندلس قديما .

لقد أطلت في هذا القام وشرحت حال المسلمين الحاضرة بعد أن أطلت فيها التفكير فأيقنت بما كتبت . هذا لمناسبة السيد المسيح عليه السلام ، ولعمرك لم يسمعا الله ذلك إلا للذكر ونعتبر . ولترجع إلى بقية الآية (ومن يستكف) يترفع عن عبادته (ويستكبر فيحشرم إليه جميعا) فيجازيهم والاستكبار دون الاستكفاف حيث لا استحقاق ، وقد يكون الاستكبار عن استحقاق . يا أيها المسلمون ما أكثر الغرور وما أجهل الغرورين ، دين الإسلام أخلاق وفضيلة . ولقد عيرنا سائر الأمم بهذا القص المشين ، فإن لم ترجع عن عيبتنا فإننا في عذاب الحزى واقعون . اللهم ارزق أمتنا رجلا مصلحين وفقهها في أخلاق دينها إنك سميع قريب .

هذا الذي شرحناه اليوم في الآيتين من سورة النساء بعض ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم . وانظروا إلى عمر رضى الله عنه وقد تلقى الشريعة عن صاحبها ، وشاهد كسر رباعيته في أحد والدم يسيل على وجهه ، وسمع آية الوحي « ليس لك من الأمر شيء » .

أنظروا كيف علم أن الناس كلهم خاضعون لناموس واحد في الدنيا والآخرة ، فقال لابن القبطي : اضرب ابن عمرو بن العاص كما ضربك بمحض من الصحابة ، وكيف يقول له كيف تستعبدون الناس وقد ولدوا أحرارا ، وكيف جعل الأمر شورى عند موته ؟ .

تأملوا يا قوم في الأمر فإنى أخاف أن يضيع من أيدينا فالوقت قصير .

حكى لى أن رجلا هولانديا ، قال : إن دين محمد صلى الله عليه وسلم فهمه أصحابه في القرن الأول ، ثم تولى شأن دينه شعوب حقيرة ونفوس صغيرة وعقول قصيرة . فرجموا التهقيرى ، وتقهقروا إلى الوراء وصاروا عبرة للورى .

[تم تفسير سورة النساء]

سورة المائدة مدنية

وآياتها مائة وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقسيم سورة المائدة

- (١) الحلال والحرام في الصيد ونحوه من أول السورة إلى قوله (الحاسرين)
- (٢) طهارة الجسم بالماء ، وطهارة القلب بالصلاة وبالعدل وشكر النعمة من قوله (يا أيها الذين آمنوا) إلى قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) .
- (٣) أخذ العهد على بني إسرائيل بالصلاة والزكاة والإيمان فنفضوا عهدهم وكذلك النصارى وتوبيخ الطائفتين وتقريرهم وقصة دخول بني إسرائيل بيت المقدس من قوله (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) إلى قوله (على القوم الفاسقين) .
- (٤) قصة ابني آدم وكيف كان الظلم قديما كما صار حديثا من قوله (واتل عليهم) إلى قوله (فأصبح من النادمين) .
- (٥) حكم القاتل وقاطع الطريق والسارق من قوله (من أجل ذلك) إلى قوله (والله على كل شيء قدير) .
- (٦) أحكام التوراة والإنجيل والقرآن وأن أهل كل كتاب يحكمون به من قوله (يا أيها الرسول لا يحزنك) إلى قوله (يوقنون) .
- (٧) أمر الله للمؤمنين أن لا يتولوا اليهود والنصارى وأن لا يرتدوا، وتقرير اليهود والنصارى على ذنوبهم من قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى) إلى قوله (وكثير منهم ساء ما يعملون) .
- (٨) أمر الله للنبي صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الرسالة ، ووعد له بحفظه من الناس وأن يجاهر اليهود والنصارى بأنهم ليسوا على شيء من دينهم ، وذكر فريقين من النصارى : هادين وضالين ، وذم اليهود من قوله (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) إلى قوله (أولئك أصحاب الجحيم) .
- (٩) الحلال والحرام في الصيد ، وذكر الحجر واليسر ونحوها من قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم) إلى قوله (فينبشكم بما كنتم تعملون) .
- (١٠) نوع من الشهادات من قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا شهداء بينكم) إلى قوله (والله لا يهدي القوم الفاسقين) .
- (١١) خطاب الله لميسى ابن مريم يوم القيامة وجوابه من قوله (يوم يجمع الله الرسل) إلى آخر السورة .

مقدمة

نزلت سورة المائدة بالمدينة إلا قوله « اليوم أكملت لكم دينكم » فإنها نزلت بمكة في حجة الوداع والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بمكة ، فقرأها النبي صلى الله عليه وسلم في خطبة وقال « يا أيها الناس إن سورة المائدة من آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرّموا حرامها » .

قال البغوي : روى عن ميسرة أن الله تعالى أنزل في هذه السورة ثمانية عشر حكما لم ينزلها في غيرها وهي قوله تعالى :

(١) والنخنقة (٢) وللوغزاة (٣) وللتردية (٤) والنطيحة (٥) وما أكل السبع إلا ما ذكبتكم (٦) وما ذبح على النصب (٧) وأن تستقسموا بالأزلام (٨) وما علمتم من الجوارح مكلين (٩) وطعام الذين أوتوا الكتاب حلّ لكم (١٠) والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب (١١) وتام بيان الطهر في قوله « إذا قمتم إلى الصلاة » (١٢) والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما (١٣) لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم (١٤) ما جعل الله من بحيرة (١٥) ولا سائبة (١٦) ولا وصيلة (١٧) ولا حام ، وقوله (١٨) شهادة بينكم إذا حضر أحدكم الموت .

أقول : وهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول ما حرم وكان حلالا عند العرب وهو سبعة .
والثاني ما أحل وهو سبعة .

والثالث أربعة أقسام : ما يفضى إلى تنزيه الجسم من الأقدار الحسية واللغوية وهي النجس والحدث ، وإلى تنزيه النفوس من الحيانة في الأموال بالسرقات ، وإلى عدم قتل الحيوان في أحوال خاصة ، وإلى العدل في الشهادة فهذه هي ١٨ فلنشرح :

(١) أولا هذه الأقسام الثلاثة (٢) ثم لأبين كيف أباح الله قتل الحيوان مع أنه رحيم ؟ وكيف اجتمعت الرحمة والإيلاء في عالمنا الأرضي (٣) وبيان الحيوانات الآكلة وللأكولة (٤) وكيف كان النظام يطلب ذلك (٥) وكيف اختلف نوع الإنسان اختلاف الحيوان ؟ وكيف كان الإسلام وسطا ؟ وكيف كان الله هو للمهم والعلم بالإلهام تارة والاختبار تارة أخرى . (٦) وتحريم أكل الطيور النافعة للإنسان شرعا (٧) وكيف سمى الله هذه السورة مائدة وبسط فيها الحلال والحرام ؟ (٨) وكيف كانت هذه السورة هي مفتاح باب العلوم الحيوانية حتى يبلغ منه المسلمون فيعرفوا الضار والنافع بتعليم الله لهم وإلهامه سبحانه وتعالى ، واختبار الضار والنافع فيحفظون ما ينفعهم ويحرمون أكله ، وفي ذلك باب واسع لدرس الحيوانات كلها ولسائر ما في الأرض ، وهذا بحر مستمد من قوله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » فلا بد من دراسة العالم الذي نحن فيه .

فأما البقاء على الجهالة العمياء في الإسلام فذلك باب يجر إلى فناء الأمة وقيام غيرها مقامها ، فليس علم الفقه المعروف كل شيء بل هو جزء قليل جدا من الدين والدين لا يزال بحاله ، فليقم في الإسلام عقلاء وليتفكروا فهذا موسمهم والله قد أذن بذلك .

فهذه ثمان مسائل فلتبتدىء بالمسألة الأولى فنقول :

(١) شرح هذه الأقسام الثلاثة ذات المسائل الثمانية عشرة :

القسم الأول منها ما كان حلالا وحرم بالقرآن وهو سبعة خلاف الأربعة التي حرمت قبل هذه السورة في القرآن وهي البتة والدم والحنزير وما أهل لتبر الله به ، فيكون هذا بما أضيف إليه أحد عشر محرما :

(١) أحدها الميتة ، كانت العرب تقول : إنكم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله .
إن تحريم الميتة موافق للعقل لأن الدم جوهر لطيف ، فإذا مات الحيوان حثف أنه احتبس الدم
في عروقه وتغفن وفسد وحصل من أكله مضار .

(٢) ثانيها الميتة ، كانوا يملثون للى من الدم وشوونه ويطعمونه الضيف لحرم عليهم ذلك ، وقال الأعشى :

فياك واليتات لا تقربنها ولا تأخذن نصلا حديدا لتفصدا
ولا تتكحن جارة إن سرها عليك حرام فانكحن أو تأبدا

يقول مفسرو هذه الآيات : إن العرب كانوا إذا أجدبوا جرحوا إبلهم بالنصال فنزل الدم فضربوه .

(٣) الثالث لحم الخنزير ؛ لأن الخنزير أضرى الحيوان على الطعام والشهوات وأشهره ، فأكل لحمه يورث
الأخلاق التي عليها ذلك الحيوان كما أن الحيوان المريض يورث آكله مرضا .

ولقد ثبت في العصر الحاضر أن الدودة الوحيدة لا تكون إلا من أكل لحم الخنزير ، فلحوم الناس
وعظامهم تابعة لأغذيتهم وهذا باب واسع في العلم يجب النظر فيه طويلا والبحث في الحكمة والعالم للشاهد .

(٤) الرابع « ما أهل لغير الله به » الإهلال رفع الصوت ، يقال أهل فلان بالبح إذا لبي به ، ومنه
استهل الصبي وهو صراخه إذا ولد ، وكانوا يقولون عند الدبج : باسم اللات والعزى ، لحرم الله تعالى ذلك
وإنما حرم ذلك لتصان العقائد عن التفرق والاختلاف ، فإن ذكر اسم الأصنام عند الدبج مشعر بتفرق
الوجهة ، وتفرقها داع لتفرق الأعمال والأحوال ، فلا يكون نظام للأموال الحيوية ويتبعها أن يحسروا الآخرة ،
والآخرة إنما هي نتيجة الحياة الدنيا تظها واختلالا في العقيدة والعمل .

(٥) الخامس المتخفة ، يقال خفقه فاختنق ، والخنق والاختناق انحصار الحلق . فهذا الخنق بأى وجه
موجب للتحريم ، فنه أنهم كانوا في الجاهلية يخنقون الشاة فإذا ماتت أكلوها ، ومنها ما يخنق بحبل الصائد ،
ومنها ما يدخل رأسها بين عودين في شجرة فتختنق وتموت . وهذه المتخفة بأى وجه من جنس الميتة ،
لأنها لما ماتت لم يسلم دماغها فكانت منها .

(٦) السادس الموقوذة ، وهي التي ضربت إلى أن ماتت ، يقال وقدها وأوقدها إذا ضربها إلى أن ماتت
ومن الموقوذة ما رمى بالبندق فمات ، وهي من الميتة لأنها لم يسلم دماغها .

(٧) السابع المتردية ، والمتردى هو الواقع في الردى وهو الهلاك قال الله تعالى « وما ينهى عنه ماله إذا تردى »
أى وقع في الردى وهو في الآية النار ، ويقال فلان تردى من السطح ، فالمتردية هي التي تسقط من جبل أو موضع
مشرف وتموت ، وهذه أيضا من الميتة لأنها ماتت وما سال منها الدم ، وكذلك ما تشابه أمرها فلم تعلم أم متردية
هي أم مصابة بالسهم بأن وقعت من فوق الجبل وقد أصابها سهم فلا يدري بأيهما ماتت : أبالسهم أم بالتردى ؟

(٨) الثامن النطيحة ، وهي للنطوحة إلى أن ماتت كشتاتين تاطحتا إلى أن ماتتا أو ماتت إحداها ، وهي
من الميتة لأنها ماتت من غير سيلان الدم .

واعلم أن فيل بمعنى مفعول يستوى فيه الذكر وللؤث إذا كان اللوصوف مذكورا ، فإذا لم يكن
للوصوف مذكورا كما هنا دخلت التاء فارقة .

(٩) التاسع « ما أكل السبع إلا ما ذكيت » السبع يقع على ماله ناب ويعدو به على الإنسان والدواب
ويضربها مثل الأسد وما دونه .

وكان أهل الجاهلية إذا جرح السبع شيئا فقتله وأكل بعضه أكلوا ما بقي ، لحرمه الله تعالى ، وتهدبر

الآية : وما أكل السبع منه . لأن ما أكل السبع قد غد وقوله « إلا ما ذكيتم » أصل الذكاة إتمام الثني ومنه الذكاء في الفهم ، ويقال ذكيت النار آمنت إشعالها فقوله « إلا ما ذكيتم » أي إلا ما وجدتم له عينا تطرف أو ذنبا يتحرك أو رجلا تركض فذبحتموه فإنه حلال . فإنه لولا بقاء الحياة ما حصلت هذه الأحوال ، ويكون هذا الاستثناء مما تقدم من المنخقة إلى قوله « وما أكل السبع » والتذكية هنا هي التي أجهزت على الحيوان لا الخنق ولا الوقود الخ .

وهذا قول عليّ وابن عباس والحسن وقنادة ، ويقول بعضهم كلا ، بل هذا راجع لما أكل السبع ، والقول الثالث إنه استثناء منقطع ، أي إلا ما ذكيتم من غير هذه ، فأما هذه فلا تحل ذكيت أولم تذك .

(١٠) العاشر « وما ذبح على النصب » وهي أحجار كانوا ينصبونها حول الكعبة وكانوا يذبحون عندها للأصنام وكانوا يطلخونها بتلك السماء ويضعون اللحم عليها ، فقال للسلون يارسول الله : كان أهل الجاهلية يعظمون البيت بالدم فنحن أحق بأن نعظمه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكره فأنزله الله « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم » والنصب : جمع نصاب كحمار وحمر أو نصب كسقف وسقف أو النصة وهي العلامة تصب للقوم أي وما ذبح على اعتقاد تعظيم النصب أو للنصب .

(١١) الحادي عشر قوله « وأن تستقسموا بالأزلام » كان أحدهم إذا أراد سفرا أو غزوا أو تجارة أو نكاحا أو أمرا آخر من معاطم الأمور ضرب بالقداح ، وكانوا قد كتبوا على واحد منها « أمرى ربى » وعلى الثاني « نهانى ربى » والثالث لاشئى عليه ، فإن خرج الأمر أقدموا على الفعل ، وإن خرج النهى أمسكوا عنه ، وإن خرج النهى لم يكتب عليه أعادوا العمل مرة أخرى ، فمعنى الاستقسام بالأزلام : طلب معرفة ما قسم لهم من الخير والشر بواسطة ضرب القداح ، والأزلام القداح واحدها زلم ، وسميت الأزلام بالأزلام لأنها زلمت : أي سويت ، ويقال رجل مزلم وامرأة مزلمة إذا كان كل منهما خفيفا قليل العلائق ، ويقال قدح مزلم إذا ظرف وأجيدقده وصنعه ، وإنما حرم ذلك لأنهم كانوا يحملون تلك الأزلام عند الأصنام ويعتقدون أن ما يخرج من الأمر والنهى على تلك الأزلام إنما يكون بإرشاد الأصنام وإعانتها ، فلهذا السبب كان فسقا وحراما .

واعلم أن الله عز وجل منع علم الغيب عنا لحكمة وهي الجدة ، ولو أننا عرفنا الغيب ما عملنا عملا بل كان الإنسان ينام منتظرا ما يبعث به القدر . وهذا تعطيل لمصالح الدنيا فلذلك منع الله علم الغيب عن الناس وجعل الرؤى وغيرها فيها الحق والباطل والصدق والكذب ليحترس الناس وليفكروا بقولهم ولا يشكروا إلا على ربهم الذى حجبتهم برحمته عن معرفة الغيب إلا بما شاء لحكمة ، انتهى القسم الأول من الأقسام الثلاثة : وهي السبعة التي حرمت في هذه السورة مضافا لها الأربعة التي معها وكانت محرمة قبل نزول هذه السورة .

القسم الثاني : ما أحل وهو سبعة (١) ما صدناه بالجوارح الملعنة (٢) وطعام الدين أو تواتوا الكتاب (٣) والمهصنات من الدين أو تواتوا الكتاب (٤) بيان البحيرة والسائبة والوصيلة والحام .

(١) ما صدناه بالجوارح الملعنة « وما علمتم من الجوارح مكليين » والجوارح جمع جارحة وهي الكواشب من السباع والطيور كالقهد والنمر والكلب والبازي والصقر والعقاب والشاهين والباشق من الطير مما يقبل التعليم ، سميت جوارح من الجرح لأنه يجرح الصيد عند إمساكه ، ويصح أن تسمى جوارح بمعنى كواشب من جرح واجترح بمعنى كسب واكتسب ، ومعنى مكليين معدين ، والمكلب هو الذى يفرى الكلاب على الصيد أو هو مؤدب الجوارح ومعلمها ، وإنما اشتق له الاسم من الكلب لأنه أكثر احتياجا إلى التعليم هكذا قالوا . وأقول : بل هو أقرب إلى الائتناس بالناس وأدنى إلى طاعتهم بخلاف الطيور .

ثم قال تعالى « تعلمونن مما علمكم الله » من الحيل وطرق التأديب فإن العلم بها إلهام من الله أو مكتسب بالعقل الذي هو منحة منه سبحانه وتعالى ، ومنه أن يتبع الصيد إذا أمره صاحبه وأن ينزجر عنه إذا أنزجر وينصرف بدعائه ويمسك عليه الصيد ولا يأكل منه ولا ينفر من صاحبه إذا أراده وأن يجيبه إذا دعاه فهذا هو تعليم الجوارح فإذا وجد منها ذلك مرارا كانت معلمة ، وأقلها ثلاث مرات عند أبي يوسف ومحمد ، ومرتان في رواية عن أبي حنيفة وعند أحمد أيضا ، ومرة واحدة عند الحسن البصري ويعتبر العرف عند الشافعي وأبي حنيفة في أظهر الروايات عنه ، قال صلى الله عليه وسلم لعدي بن حاتم « إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل » .

(١) فإذا كان الكلب معلما وصاد صيدا وجرحه وقتله وأدركه الصائد ميتا فهو حلال لأن جرح الجارحة كالذبح .

(٢) الجوارح الملمة حكمها حكم الكلب .

(٣ و ٤) والسهم والرمح كذلك . فإذا صاده الكلب وجثم عليه وقتله بالسم من غير جرح فيه قولان : (١) أنه ميتة لا يؤكل (٢) يحل لدخوله فيما أمسكن عليكم وهذا كله مالم يأكل منه فإن أكل منه فقد اختلف العلماء فيه فمن قائل لا يحل وهو قول ابن عباس وطاوس والشعبي وعطاء والسدي وأظهر أقوال الشافعي مستدلين بقوله تعالى « فكلوا مما أمسكن عليكم » وهذا قد أمسكه على نفسه .

وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لعدي بن أبي حاتم « إذا أرسلت كلبك فاذا ذكر اسم الله فإن أدركته ولم يقتل فاذبح واذا ذكر اسم الله عليه وإن أدركته وقد قتل ولم يأكل فكل فقد أمسك عليك وإن وجدته قد أكل فلا تطعم منه شيئا فأبى أمسك على نفسه » .

ومن قائل يحل وهو قول سلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهم . فهؤلاء يقولون يحل وإن أكل منه وهو القول الثاني للشافعي .

(٢) الثاني من السبعة التي تحل طعام الدين أوتوا الكتاب في قوله تعالى « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامهم حل لهم » طعام الدين أوتوا الكتاب هنا هي الذبائح التي يذبحونها ، وأما الجوس فلا تأكل ذبائحهم ولا تتزوج نساءهم ولا تأكل ذبائح أهل الشرك من العرب وعبدة الأصنام ومن لا كتاب لهم ، فأما غير الذبائح فلا كلام فيها لأنها محللة قبل أن كانت لأهل الكتاب وبعد أن صارت لهم لا يبقى لتخصيصها بأهل الكتاب فائدة ، ولو ذبح اليهودي أو النصراني على غير اسم الله :

(١) قيل لا يحل ذلك وهو قول ربيعة .

(٢) ولكن أكثر أهل العلم أنه يحل وهو مذهب الشعبي وعطاء قال لأن الله أحل ذبائحهم وهو يعلم ما يقولون (٣) وقال الحسن إذا ذكرا غير اسم الله وأنت تسمع فلا تأكل ، وإذا غاب عنك فكل فقد أحله الله (٤) وزعمت طائفة أنه يحل مطلقا ولو ذكرا اسم غير الله ، وأما قوله « وطعامهم حل لهم » أي يحل لكم أن تطعموهم من طعامكم وكأنه لما كانت الناقة غير جائزة من بعض الوجوه بأن يتزوجوا نساءنا به بهذا على أنه يجوز أن تطعمهم من طعامنا وإن لم يجوز أن تزوجهم من نساءنا .

(٣) الثالث من السبعة التي تحل « والمحصنات من الدين أوتوا الكتاب من قبلكم » أي وأحل لكم المحصنات من أهل الكتاب اليهود والنصارى ، وهل يراد بالمحصنات الحرائر منهن ؟ .

(١) وهذا قول ابن عباس فلا يتزوج بالأمة الكتابية من اليهود والنصارى لأنه اجتمع في حقها نوعان من النقص : الكفر والرق وهو مذهب الشافعي (٢) وقال الحسن والشعبي والنخعي والضحاك : المحصنات الضيفات من أهل الكتاب فيجوز الزواج بالأمة الكتابية وهو مذهب أبي حنيفة لعموم هذه الآية ، فزواج الكنانيات

التميات جائز، وقد تزوج عثمان بن عفان نائلة بنت الفرافصة على نسائه وهي نصرانية وطلحة بن عبيد الله تزوج يهودية، وقد ذكره ابن عمر ذلك وكان يحتج بقوله تعالى « ولا تنكحوا الشركات حتى يؤمن » .

وقال الجمهور : هذه الآيات التي ذكرها عامة وخصصت بهذه الآية لجميع الشركات محررات مالم يؤمن إلا الكنانيات فذلك عام وهذا خاص فقلت الكنانيات وبقي تحريم غيرهن من الشركات .

وقال سعيد بن المسيب والحسن : يجوز التزويج بالتميات والحريات من أهل الكتاب لعموم الآية ، والجمهور أنها خاصة بالتميات دون الحريات :

قال ابن عباس : من نساء أهل الكتاب من نحل لنا ومنهن من لا نحل لنا وقرأ « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله » إلى قوله « حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » والمراد بهم أهل التمة دون أهل الحرب من أهل الكتاب وقوله « إذا آتيتموهن أجورهن » أي مهورهن وهي انعوض الذي يبذله الرجل للمرأة « محصنين غير مسافحين » أي مستغنين بالتزويج غير زانين « ولا متخذين أخدان » يعني ولا منفردين يعني واحدة قد خادنها وخادته واتخذها لنفسه صديقة يفجر بها وحده .

حرم الله الجماع على جهة السفاح وهو الزنا واتخاذ الصديق وهو الحدن وأحله على جهة الإحصان وهو التزويج بعقد صحيح (ومن يكفر بالإيمان) ومن يمجده ما أمر الله به من توحيدِه ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به من عند الله (فقد حبط عمله) بطل ثواب عمله الذي عمله في الدنيا وخاب وخسر في الدنيا والآخرة (وهو في الآخرة من الخاسرين) إذا مات على ذلك .

الرابع والخامس والسادس والسابع من التي نحل هي المذكورات في قوله تعالى (ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام) إذا تجت الناقة خمسة أبطن آخرها ذكر بحروا أذنبا أي شقوها وخلوا سبيلها فلا تركب ولا تحلب فهذه هي البحيرة .

وأما السائبة : فإن الرجل منهم كان يقول إن شفيت فتأقي سائبة وبجعلها كالبحيرة في تحريم الاتضاع بها .
وأما الوصيلة : فقد كانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن نظروا فإن كان السابع ذكرا ذبحوه وأكل منه الرجال والنساء وإن كانت أنثى تركوها في الغنم وإن كانت ولدت ذكرا وأنثى قالوا وصلت أخاها واستحيوا الله كرفلم بذبحوه من أجل ذلك .

والحامى هو الفحل إذا اتفقه أحد أمرين : إما أن يركب ولد ولده أو ينتج من صلبه عشرة أبطن فيقولون حمى ظهره فلا يركب ولا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ولا من مرعى فإذا مات أكله الرجال والنساء ، وقوله « ما جعل الله ما شرع الله » من بحيرة الخ .

القسم الثالث : وهو ما يشير إلى تنزيه الجسم عن الأقدار الحسية والعنوية وهي الحدث والنجس وإلى تبرئة النفس من الحيانة في الأموال بالسرقات وإلى عدم قتل الحيوان في أحوال خاصة وإلى العدل في الشهادة وأدائها
المسألة الأولى : نظافة الجسم

(يأبى الله الدين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة (فاغسلوا وجوهكم) من منابت شعر الرأس إلى منتهى التدقن طولا ومن الأذن إلى الأذن عرضا مع وصول الماء إلى ما تحت الحاجبين وأهداب العينين والمذارين والشارب والعنفة وإن كانت كثة، وأما اللحية فإن كانت كثة لا ترى البشرة من تحتها لا يجب غسل ما تحتها ويجب غسل الخفيفة ، ولم يوجب أبو حنيفة مرور الماء على ما نزل من شعر اللحية عن حد الرأس ، ويجب إمرار الماء على ظاهره عند غيره (وأيديكم إلى المرافق) للرفق بالكسر هو من الإنسان أعلى التبراع وأسفل العضد ، ومذهب جمهور العلماء دخول المرفقين في الوصل الواجب ، ونقل عن مالك والشعبي وأبي بكر

ابن داود الظاهري أنه لا يجب وكذا ابن جرير الطبري، وحجة الجمهور أن إلى معنى مع ، وحجة غيرهم أن العناية للشيء لا يدخل فيه والحد غير المحدود (واسحوا برءوسكم) أي برءوسكم ، أو الصقوا للمسح برءوسكم؛ فالباء إما زائدة وإما أن يكون الفعل تضمن معنى الإلصاق . والمسح عند الشافعي أقل ما يقع عليه الاسم . وعند أبي حنيفة ربيع الرأس . وعند مالك جميع الرأس (وأرجلكم إلى الكعبين) بالنصب عطفًا على وجوهكم أو بالجر للجوار وفرض الرجلين :

(١) إما للمسح عند ابن عباس وقتادة وعكرمة والشعبي والإمامية من الشيعة (٢) وإما للمسح بالقرآن والغسل بالسنة عند أنس (٣) وإما الجمع بين الغسل والمسح عند داود الظاهري (٤) وإما التخيير بين الغسل والمسح عند الحسن البصري ومحمد بن جرير الطبري (٥) وإما الغسل فقط عند جمهور العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الأئمة الأربعة وأصحابهم ، وهذا الخلاف كله راجع لقراءة الجهر والنصب والأحاديث الواردة بطرق مختلفة والاستنتاج كقول الشعبي : إنما للمسح على الرجلين؛ ألا ترى أن ما كان فيه الغسل جعل عليه التيمم وما كان عليه للمسح أهمل . وقال ابن عباس : الوضوء غسلمان ومسحان وهكذا . وقوله « إلى الكعبين » الخلاف في دخول الكعبين كالحلاف في دخول الرقيقين ، والكعبان هما العظمان الثنتان عند مفصل الساق والقدم عند جمهور العلماء في اللغة والفقه ، وشذت الشيعة واقفالون بمسح الرجلين إذ قالوا الكعب عظم مستدير على ظهر القدم فيكون في كل رجل كعب واحد .

كيفية الوضوء

فروض الوضوء : اعلم أن فروض الوضوء التسمية وتقديم غسل اليدين والضمضة والسواك والاستنشاق والنية عند غسل الوجه وغسل الوجه وداخل العين مع مقدم الأذن وغسل اليدين وتقديم اليمنى ومسح الرأس وغسل الرأس مع المسح وغسل الرجلين والترتيب والقور ويكون لكل صلاة والتدليك .
فالتسمية عند أحمد وإسحاق ، وتقديم غسل اليدين عند بعض الفقهاء كما في الرازي ، والضمضة والاستنشاق عند أحمد وإسحاق في الوضوء والغسل . وعند أبي حنيفة في الغسل دون الوضوء والسواك عند داود ، والنية عند الشافعي والترتيب عنده أيضا ، والقور وهو الموالاة عند مالك وما قبل من الأذن مع الوجه غسلًا وما أدر مع الرأس مسحًا عند الشعبي وإدخال الماء في العين عند ابن عباس وتقديم اليد اليمنى عند أحمد ومسح الرأس مع غسلها عند داود الظاهري ، ويجب الوضوء لكل صلاة عنده أيضا والتدليك عند مالك .

وأبو حنيفة لم يوجب منها إلا أربعة وهي المذكورة في الآية، وزاد الشافعي خامسا وهو النية، وزاد الشافعي أيضا وأحمد سادسا وهو الترتيب كالأية، وأوجب مالك الموالاة والتدليك فالانفاق على أربعة والاختلاف في اثني عشر.
[قائمة] قال الأوزاعي والثوري وأحمد يجوز مسح العمامة ببل مسح الرأس وخالفهم الجمهور، والمسح على الحفين أجزاء الشافعي وأبو حنيفة وأكثر الفقهاء وذلك للسافر ثلاثة أيام بلياليها من وقت الحدث بعد اللبس وأنكره الشيعة والخوارج؛ وأما قوله تعالى (وإن كنتم جنبا فاطهروا وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم نجدوا ماء فميموا صميدا طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم) فقد سبق تفسيره في سورة النساء . ولكن لنوضح الطهارة من الجنابة فنقول : للجنابة سببان : الثناء الحثانين والإزال . وقال زيد بن ثابت وأبو سعيه الحدرى : لا يجب الغسل إلا عند نزول الماء ، وختان الرجل موضع قطع جلدة النلفة ، وختان المرأة موضع قطع الجلدة الرقيقة القائمة مثل عرف الديك بين الشفرين وتحتها مجرى البول وهو ضيق ونحت هذا تيمم يخرج منها الحيض والولد وهي مدخل ما يجب به الغسل ، والظهور الاغتسل وهو

أن يم الجسد بالماء ، وأوجب مالك ذلك ، وأوجب أبو ثور وداود تقديم الوضوء ، وأوجب أبو حنيفة
الضمضة والاستنشاق .

ثم إن شعر الرأس إن كان مفتولا مشدودا بضعه يعض ومنع وصول الماء إلى البشرة لم يوجب مالك
نفضه (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) أي ما يريد الله بالطهارة للصلاة ولا بالأمر بالنيم تضييقا عليكم
(ولكن يريد ليظفركم) لينظفكم والنظافة الظاهرة داعية للباطنة ومن اعتاد نظافة الظاهر صار سجية له
يصادها وملازمة الاعتدال والجمال تؤثر في نفس اللازم ؛ ولقد بينا هذا في سورة البقرة عند قوله تعالى « إن
الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » وأقدنا هناك أن النظافة والعمل برفضان النفوس الإنسانية ، والقناعة
والبطالة يوجبان نفضها فارجع إليه إن شئت (وليتم نعمته عليكم) بالطهارة والنظافة وما يترتب عليها من
صفاء القلوب وإخلاص السرار وصفاء النيات (لعلكم تشكرون) نعمته .

المسألة الثانية

(والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) حد اليد من رءوس الأصابع إلى الكوع : أي فيما يتلى عليكم
حكم السارق والسارقة وهذه جملة ، وقوله « فاقطعوا أيديهما » جملة أخرى (جزاء مما كسبا) مفعول لأجله
(نكالا من الله) أي عقوبة مفعول لأجله أيضا (والله عزيز حكيم) عز حكمه قطع ، ولا تقطع اليد إلا إذا
كان السروق يساوي ربع دينار وسرق من حرز مثله . وقال مالك وأحمد وإسحق يقطع في ثلاثة دراهم
أو قيمتها ، وعن أبي هريرة أنه خمسة دراهم ، وقال قوم لا بد من دينار أو عشرة دراهم وهذا مروى عن ابن
مسعود وسفيان وأبي حنيفة وابن عباس ، وروى عن ابن الزبير والحسن أن القدر غير معتبر فيقطع على
القليل والكثير ، ولا يشترط أن يكون من حرز مثله وهو مذهب داود .

وتقطع يده اليمنى من الكوع فإن سرق ثانية قطعت رجله اليسرى ، وهنا قال سيدنا علي : إنى أستحي أن
لا أضع له يدا يستنجى بها ولا رجلا يمضى بها فلا يقطع اليد الثانية ولا الرجل الثانية بل يحبس ، وهو قول
الشعبي والنخعي والأوزاعي وأحمد وأصحاب الرأي ، وذهب غيرهم إلى أنه تقطع يده اليسرى في المرة الثالثة
ورجله اليمنى في المرة الرابعة .

التخفيف فلا قطع في حالين

الحال الأولى : إذا سرق مالا له فيه شبهة كالولد يسرق مال والده ، والوالد يسرق مال ولده ، والعبد يسرق
مال سيده ، والشريك يسرق مال شريكه ، بل إن مجرد الإنكار عند بعضهم كالشافعية يمنع القطع ، فلو قال
لم أسرق وقد سرق كان شبهة تمنع القطع ويكتفى بالمعقوبة (التعزير) .
الحال الثانية : أن يتوب كما قال الله تعالى (فمن تاب) من السراق (من بعد ظلمه) بعد سرقته (وأصلح)
أمره بالنقص عن التبعات والعزم على أن لا يعود إليها (فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم) يقبل توبه
فلا يعذبه في الآخرة ، ولا تقطع يده عند بعض العلماء بدليل قوله تعالى « غفور رحيم » .

المسألة الثالثة

(يا أيها الذين آمنوا لا تفتلوا الصيد وأنتم حرم) محرمون جمع حرام أو داخلون الحرم ، فيلحرم على من
أحرم بالحج أو العمرة وعلى من دخل الحرم وإن لم يكن محرما أن يقتل الصيد ، وهو كل حيوان متوحش
ما كول اللحم أو غير ما كول اللحم كالنزال والأسد ، واستثنى من ذلك خمس : الثراب والحداة والعقرب
والقنبرة والكلب العقور (ومن قتله منكم متعمدا) ذاكرا لأحرامه علما بأنه حرام عليه قتل ما يقتله (جزاء
مثل ما قتل من النعم) أي فعلية جزاء مماثل ما قتل من النعم .

روى أنه عن لهم في عمرة الحديبية حمار وحتى قطعته أبو اليسر برمحه فقتله فنزلت هذه الآية .
واعلم أن من تمسك قتل الصيد وهو ذاك لإحرامه فإن ذنبه أكبر من أن يكون له كفارة ، ولكن
ابن عباس والجمهور يحكمون عليه بالجزاء .
ومن تمسك قتل الصيد مع نسيان الإحرام أو قتل الصيد خطأ بأن قصد غيره بالرمي فأصابه فهو كالعمد
ضليه الجزاء ؛ فالقرآن نزل في العمد ، والسنة جرت بالخطأ .

المثل الواجب

أبالخلفة هو أم بالقيمة ؛ والجمهور على الأول ، فقد حكم الصحابة رضى الله عنهم في النعامة بيده وهي
لاتساوى بيده ، وفي حمار الوحش ببقرة وهو لايساوى بقرة ، وفي الضبع بكبش ، وفي الظبي بشاة ،
وفي الأرنب بسخل ، وفي الضب بسخلة ، وفي اليربوع بجفيرة ؛ ويجب في الحمامة وكل ماعب وهدر كالفواخت
والقمرى وذوات الأظباق شاة ، وماسوى ذلك من الطير ففيه القيمة في المكان الذى أصيب فيه .

وروى عن عمر أنه قضى في الضبع بكبش وفي الغزال بمنز وفي الأرنب ببناق وفي اليربوع بجفيرة .
وقال أبو حنيفة : يقوم الصيد حيث صيد ؛ فإن بلغت القيمة ثم هدى خيرا بين أن يهدى ما قيمته قيمته ، وبين
أن يشتري به طعاما فيعطى كل مسكين نصف صاع من بر أو صاعا من غيره ، وبين أن يصوم عن طعام كل
مسكين يوما ، وإن لم تبلغ تخير بين الإطعام والصوم قال تعالى (يحكم به ذوا عدل منكم) أى يحكم بالجزاء
في قتل الصيد رجلا صالحا عدلان من أهل ملتكم ودينكم وينبغى أن يكونا قبيحين فينظران إلى أشبه الأشياء
به من التعم فيحكمان به (هديا) حال من الماء في به (بالغ الكعبة) وصف به هديا ، ومعنى بلوغه الكعبة أنه
يذبح في الحرم ويصدق به ثمت .

وقال أبو حنيفة يذبح في الحرم ويصدق به حيث شاء (أو كفارة طعام مساكين) عطف بيان أو بدل
من كفارة ، والمعنى عند الشافعي أن يكفر بالطعام مساكين مايساوى قيمة الهدى من غالب قوت البلد فيعطى كل
مسكين مدا (أو عدل ذلك صياما) أو ما ساواه من الصوم فيصوم عن طعام كل مسكين يوما ، وإنما كان عليه
الجزاء أو الطعام أو الصوم (ليدوق وبال أمره) ثقل فعله وسوء عاقبته بهتكة لحرمة الإحرام أو الثقل
الشديد على مخالفة أمر الله ، وأصل الوبال الثقل ومنه الطعام الوبيل (عفا الله عما سلف) من قتل الحرم
الصيد في الجاهلية أو قبل التحريم أو في هذه المرة (ومن عاد فينتقم الله منه) مع أن عليه الكفارة (والله
عزير ذوا انتقام) ممن أصر على عصيانه .

ثم أخذ يشرح صيد البحر فقال (أحل لكم صيد البحر) ما صيد منه مما لا يعيش إلا في الماء وهو
حلال كله .

وقال أبو حنيفة : لا يحل منه إلا السمك ، وقيل يحل السمك وما يؤكل نظيره في البر (وطعامه) ما قذفه
وربى به إلى الساحل أو نضب عنه (متاعا لكم) تميما لكم (والسيارة) أى وليارتكم يترودونه قديدا :
أى يجتمع به السافرون والقيمون .

إيضاح هذا المقام

الحيوان البحرى : إما سمك وإما غير سمك ، فجميع السمك حلال . وقال أبو حنيفة لا يحل إلا أن يموت بسبب .
وما عدا السمك فهو قبان قسم يعيش في البر والبحر كالشفدع والسرطان فلا يحل أكلهما . وقال سفيان
أرجو أن لا يكون بالسرطان بأس ، والجراد وطير الماء من صيد البر ، فإن أصاب جرادة فعليه صدقة .

وقال أحمد يؤكل مافي البحر إلا الضفدع والتمساح . قال لأن التمساح يفترس ويأكل الناس . وقال ابن أبي ليلى ومالك : يباح كل مافي البحر . وقال بعضهم : السكاب والخنزير في الماء وكل ماله نظير لا يؤكل في البر لا يؤكل هو ، والبقر البحري والجاموس يؤكل لأن له نظيرا في البر يؤكل اه .

المسألة الرابعة من هذا القسم : يا أيها الذين آمنوا شهادة بئسكم ، الآية

اعلم أن نميا الهادري وعدي بن بداء خرجا إلى الشام للتجارة وكانا حينئذ نصرانيين ومعهما بديل مولى عمرو بن العاص وكان مسلما فلما قدموا الشام مرض بديل فدون مامعه في صحيفة وطرحها في متاعه ولم يخبرها به وأوصى إليهما بأن يدفعا متاعه إلى أهله ومات ففتشه وأخذ منه إناء من فضة فيه ثلثة مئة مثقال متقوشا بالذهب فأساب أهله الصحيفة فطالبوها بالإناء فجدوا ففرغوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية خلفهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلاة العصر كما هو نص الآية ثم خلى سبيلهما ثم وجد الإناء في أيديهما فأناهما بنوسهم في ذلك فقالا قد اشتريناه منه ولكن لم يكن عليه بينة فكرهنا أن نقر به فرفعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل بقية الآية وهي تفيد أن يقوم اثنان من أولياء الميت ليحلفا بدل هذين الوصيين النصرانيين فقام عمرو بن العاص ومطلب بن أبي رفاعة السهميان فقاما مقام النصرانيين فأقبا أن شهادتهما أحق من شهادة الوصيين المذكورين بالقبول وهذا قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا شهادة بئسكم) أي الإشهاد في الوصية وأضافه إلى بينكم نوسعا (إذا حضر أحدكم الموت) أي شارفه كما اتفق لبديل ظرف لشهادة (حين الوصية) بدل منه (اثنان) فاعل شهادة (ذوا عدل منكم) وصف لاثنان (أو آخران من غيركم) عطف على اثنان : أي من غير دينكم وملئكم (إن أتم ضربتم في الأرض) أي سافرتم (فأصابتكم مصيبة الموت) أي قاربتم الأجل (تحبسونهما من بعد الصلاة) وكأنه قيل كيف فعل بهما إن ارتبنا قال تحبسونهما وتحفونهما من بعد الصلاة أي صلاة العصر لأنه وقت اجتماع الناس (فيقسمان بالله إن ارتبتم) أي ارتاب الوارثون منكم ، والقسم عليه قوله (لا تشتري به) أي لا نستبدل بالقسم أو بالله (ثمنا) عرضا من الدنيا : أي لا نلطف بالله كذبا لطمع (ولو كان) للقسم له (ذا قربي) قريبا منا (ولا نكنتم شهادة الله) له : أي الشهادة التي أمرنا بإقامتها (إنا إذا لمن الآئمين) إن كتمنا (فإن عثر) اطلع (على أيهما) أي النصرانيين (استخفا إنا) خيانة (فأخران) أي وليان آخران من أولياء الميت وهو بديل ومما هنا عمرو بن العاص ومطلب بن أبي رفاعة (يقومان مقامهما) مقام النصرانيين (من الذين استحق عليهم الأوليان) أي من الورثة الذين استحق عليهم أي الأوليان : أي الأحقان من بينهم بالشهادة فصطفيهما الورثة ليظهر كذب هذين الوصيين ، فالورثة يختارون اثنين يكونان أحق بالميت وأولى به فيقسمان بالله إن شهادتهما أحق من شهادة الوصيين وذلك لأنه قد ظهر للناس خيانتها .

فصاه شرح هذه الآية وأنها ليست منسوخة وقضاء أبي موسى الأشعري

قال شريح : من كان بأرض غريبة لم يجد مسلما يشهد وصيته فليشهد كافرين على أي دين كانا من أهل الكتاب أو من عبدة الأصنام فشهادتهم جائزة في هذا الموضع ، ولا تجوز شهادة كافر على مسلم بحال إلا على وصية في سفر لا يجد فيه مسلما .

وعن الشعبي أن رجلا من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقاه هذه ولم يجد أحدا من المسلمين حضر يشهده على وصيته فأشهد رجلين من أهل الكتاب فقدموا الكوفة فأتيا أبا موسى فأخبراه وقدما بتركته ووصيته فقال أبو موسى : هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحلفهما بعد العصر بالله ما خانا ولا كذبا ولا بدلا ولا كتما ولا غيرا ، وأنها وصية الرجل وتركته فأمضى شهادتهما .

ومذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة والحسن والزهرى وعكرمة عدم جواز شهادة الكافر ، ولا في هذه
السئلة ، وإنما أجاز أبو حنيفة شهادة أهل التمة فيما بينهم ، واحتج آخرون بأن هذه السورة ليس فيها منسوخ
البتة ، وأيضا ماذا يفعل للسلم الذي حضرته الوفاة في المال إذا لم يجد مسلما فهذا مضطر أن يشهد أى
كافر كان اه .

ثم قال الله تعالى (فيصيان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما) أصدق من شهادتهما وأولى بأن تقبل
(وما اعتدينا) أى وما تجاوزنا فيها الحد (إنا إذا لمن الظالمين) الواضحين الباطل موضع الحق ، وهذا
القام من المواضع التي رد فيها اليمين إلى الورثة لظهور خيانة الوصيين (ذلك) الحكم الذي تقدم (أدنى أن
يأتوا بالشهادة على وجهها) على نحو ما حملوها من غير تحريف وخيانة فيها (أو يخافوا أن رد أيمان بعد
أيمانهم) أى رد اليمين على الدعين بعد أيمانهم فيقتضوا بظهور الحيانة واليمين الكاذبة كما في مسألة بديل
(واتموا الله وأطيعوا) ما توصون به سماع إجابة (والله لا يهدي القوم الفاسقين) فإن لم تتفوا وتسمعوا
كنتم قوما فاسقين والله لا يهدي القوم الفاسقين .

وإذ فرغت من السائل الثمانية عشرة وهي التي قسمتها ثلاثة أقسام وهي الروية عن ميسرة فلاشروع
في الكلام على أن الله عز وجل :

(١) كيف أباح قتل الحيوان مع أمر حريم وكيف اجتمعت الرحمة والإيلاء في عالنا الأرضى (٢) وبيان الحيوانات
الآكلة واللا كولة (٣) وكيف كان النظام يطلب ذلك (٤) وكيف اختلف نوع الإنسان اختلف الحيوان
(٥) وكيف كان الإسلام وسطا (٦) وكيف كان الله هو اللهم والمعلم بالإلهام تارة والاختيار والعقل تارة أخرى
(٧) وتحريم أكل الطيور النافعة للإنسان شرعا (٨) وكيف سمى الله هذه السورة مأددة ؟ وهل فيها
الحلال والحرام ، وكيف كانت هذه السورة هي مفتاح للعلوم الحيوانية حتى يلج المسلمون منه فيعرفوا الضرر
والنافع بتعليم الله لهم وإلهامه سبحانه وتعالى واختبار الضرر والنافع فيحفظون ما ينفعهم ويحذرون ما يضرهم .

كيف أمر الله بذبج الحيوان وهو أرحم الراحمين

اعلم أيها الذكي العاقل القطن أن هذا التفسير قد جعل بابا من أبواب الحكمة وبه سيصير السلم القارى*
له من الدين دخلا للحكمة من بابها . ذلك أنك ستجد الإجابة على أسئلة كثيرة ترد على القول ولقد نزل بها
كثير من الناس .

ولتعلم أن الإنسان لا يصل إلى السعادة والصفاء والجمال إلا إذا وقف على الحقائق ولكن مادام واقفا
على شاطئ الحقيقة لم يهجم عليها ولم يركب سفن النجاة الجارية في بحارها عاش جبانا جاهلا ومات غير مزود
من هذه الدنيا زادا يسير به في الحياة العقلية في العالم الكامل بعد خروجه من السجن الأرضى الذى حكم
عليه بالبقاء فيه أياما وأعواما .

فمن الأسئلة التي ترد على قلوب العقلاء والفضلاء هذا السؤال : كيف يؤمننا الله وهو أرحم الراحمين ؟ فلماذا
أن يكون ليس أرحم الراحمين ؟ وإما أن لا يؤلم من لا ذنب له وقد رأينا يؤلم الصبيان والبهائم والمجانين فأصبح
الشك محصورا في الرحمة ؟ فأين الرحمة إذن ؟

الجواب

اعلم أن الرحمة التي بمعنى رقة القلب مستحيلة على الله تعالى ، بل الرحمة التي هي الرقة ناقصة .
ألا ترى أن الطبيب يعطى المريض الدواء المرّ وسقيه كل ما يكرهه ويقطع عضوه وهذه الرحمة خير من
رحمة أم المريض ممساجته التي لا ترضى له بالألم الذى يكون نعمة عليه ، ولا جرم أن رحمة الأب للمزوج
رقتها بشدتها خير من رحمة الأم القصيرة النظر للنعمة للابن .

ولقد رأينا في أهل الأرض حالا مطردة وهي أن من صبروا على ما جاءهم من صروف الدهر وذاقوا المر والصب والتعب فإن هؤلاء يسودون ولذلك رأينا الأنبياء والحكماء وهكذا عظمة الأمم في الوقت الحاضر هم الذين قاسوا ما هو سر للذواق والصاب والعقم وأنواع الآلام والسجون والمشقات وأن الترفين للنميين هم المالكون في هذه الدنيا الذين يسقطون في أيام امتحان نواب الدهر وحدثانه فيسقطون ويملو عليهم سوام من المجددين الكاملين . ذلك هو التاموس والصراط السقيم .

ويوضح هذا قوله تعالى « فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن وأما إذا ما ابتلاه فقد رزقه عليه رزقه فيقول ربى أهانن كلالج » ولقد تقدم تقرير هذا المقام في تفسير آل عمران عند قوله تعالى « لتبلون في أموالكم وأنفسكم » وقرأ إذا شئت كتابا حديثا يسمى [الكوخ الهندى] ألفه أحد الفرنسيين وهو وكتاب [لفرقايس] الذى شرحته في البقرة من واد واحد وهو أن التميمين لاسعادة لهم في هذه الدنيا وأن الذين يصيبهم النصب والتعب هم الذين يتلون حظهم وكالمهم .

الحيوان منه آكل وما كؤل

اعلم أن الحيوان ينقسم قسمين : قسم يأكل الحشائش والنبات وأورلق الشجر والزهر والحب كالأنعام والبهائم والفرلان والأرانب وما أشبه ذلك ، والقسم الثانى لا يأكل إلا اللحم وهو الأسود والتمور والضباع والسباع ، فهذه الحيوانات حرم عليها أن تأكل شيئا غير اللحم وترى هذه الطائفة منها مافى الجوت من الصقور والشواهين ، ومنها ما على الأرض كالأساد ، ومنها مافى التراب كالحيات ، ومنها مافى البحر كالتناسيح والتنانين ، وهذه الأقسام الأربعة هى التى تتولى نظام الحيوان ولا علم لها بهذه الولاية .

ويضاحه أنك ترى أن الحيوانات التى تأكل الحشائش تتكاثر وتتناسل على وجه الأرض فلو تركت وشأنها لملأت السهل والجبل ولكانت رممها مملأ الأودية والسهول فتعفن فيحصل الهلاك لها ولغيرها ؛ لذلك خلقت الحيوانات الآكلات التى حكم عليها أن لا تكون بطونها إلا مقابر لهذه الحيوانات ومق كانت مقابر لها أصبحت داخلة فى دعائها محتلطة بلحومها منقلبة إلى أجزائها سالحة للحياة لا ضرر منها على سكان الأرض . اعتبر ذلك فى كل ما تراه ، ألا ترى أن الثباب لا يرى إلا فى بحال الرطوبات والأمكنة الرطبة وعند اللبائين وبائى السمن والصل وما أشبه ذلك لأنها تعاطى العفونات من تلك الأماكن وتصيب أجسادها مأوى لتلك العفونات التى لو بقيت لكان منها الضر فى الهواء فيفسد وتكون الأمراض الويلة الفتاكة .

وذلك الثباب وما أشبهه كالبق والناموس يسطاده العصفور والصفور يسطاده الحطاف والحطاف يسطاده ما هو أقوى منه وهكذا إذا مات الباز والشاهين وكل ما يسطاد ما هو أدنى منها أكلها الدود والدود يمتص الرطوبات فهى دائرة أولها آخرها ولولا هذه الدائرة لم يبق حى فى عالمنا الأرضى .

هكذا ترى الأسود والتمور وبنى آدم جميعا تأكل الضأن واللز والإبل والبقر وما أشبه ذلك ، ثم إن بنى آدم والأسود والتمور إذا ماتوا أكلهم الدود .

الأمراض العامة فى الإنسان والحيوان

ثم إنك فى الحياة الدنيا ترى أن الإنسان تتنابه الحمى والجدرى والتيفوس والحصباء وأكثر الأمراض إنما تكون من حيوانات لا عدد لها وهكذا الحيوانات الأخرى ويعرف ذلك البيطرة للحيوان والأطباء للإنسان .

القاتل للإنسان نوعان من الحيوان

والذى يقتل الإنسان من الحيوان نوع ظاهرى ونوع باطنى : فالنوع الظاهرى : الأسود والتمور والثباب والحيات وما أشبه ذلك .

والنوع الباطني : حيوانات صغيرة جدا تسمى (المكروبات) وهذه الحيوانات تدخل أجسامنا وتتوغل فيها وتحدث فينا أمراضا مختلفة بما تثير في داخل أجسامنا من الحرارة بالثورات الداخلية ويكون اختلاف الأمراض باختلاف أنواع تلك الحيوانات، فمنها حيوانات للوباء العام، ومنها حيوانات لإحداث مرض البول (البلهارسيا) ومنها ما يحدث الحمى ومنها ما يحدث الجدري وما أشبه ذلك .

وكل هذه الحيوانات تؤلنا أشد الألم ولا يخلصنا منها ولا من أضرارها بنا إلا أحد أمرين : إما الأدوية القوية كتلك التي اخترعوها للمرض السمي بالزهري وتسمى دواء (٦٠٦) لأنه نتج من تجربة ٦٠٦ ، وإما اللوت الذي يكون أرحم من الحياة معها .

ثم إن الحيوانات الظاهرة القاتلة للإنسان تنقسم قسمين : ناطقة وغير ناطقة فغير الناطقة قد تقدمت ؛ والناطقة هي الإنسان يقتل الإنسان وتساعد على ذلك دياناته فإنك لا تجد دينا في الأرض إلا حرض على حفظ النفس وحفظ الوطن وحفظ الشرف ، ومن الديانات ما منعت المقاتلة كالدين المسيحي ولكن الفطرة الإنسانية أتت أن تسكت على ذلك فأصبح هؤلاء المسيحيون رافعي لواء القتل والإهلاك والإبادة في الجنس البشري . فدلنا هذا أن الحيوان والإنسان ودياناته غالبا متعاونون على تطهير الأرض من ازدحام الأحياء .

ولعلك تقول : لماذا يكون هذا الإهلاك والقتل ؟

أقول: اعلم أن الأرض التي نحن عليها ليست أرقى عالم في هذا الوجود ، بل الظاهر أنها عالم متأخر بدليل أن الكشف الحديث دلنا أن هناك ما يقرب من ثمانية مليون أرض ، وتلك الملايين بعضها عوالم أوسع من أرضنا وألطف وأجمل وأبهى وأعظم بما لاحد له .

وإذا كنا نرى أن أرضنا مع ضيقها وصغر حجمها قد حوت من أنواع الحيوان مالا حصر له ، فنه الدود الذي ليس له إلا حاسة واحدة ، ومنها القروذ المتمتع بجميع مواهب الحواس ، ومنها الإنسان وفيه الأنبياء والعلماء ، وأنت لو نسبت الدود إلى الإنسان لم تجد هناك أي مناسبة بل وجدت بينهما بونا شاسعا عظيما مقاربا . فإذا كانت أرضنا مع ضيقها قد جمعت ما بين التراب التي تسكن التراب وبين الإنسان الذي يقطن في الأرض ويركب متن الهواء ويستخدم البخار والكهرباء ، فما بالك بتلك العوالم الشاسعة ؟ تلك العوالم التي لا يعرف مدى كمالها وجمالها .

أفليس من العقول والقبول أن يقال إن هناك حياة تكون نسبة حياتنا إليها كنسبة حياة الدود إلينا ، أو ليس ذلك أقرب لمقولنا ؟ أو ليس العقل بطريق القياس يرى أن هناك من الارتقاء ما لاحد له ، فإذا كان الارتقاء في أرضنا بلغ حدا عظيما جدا .

فياليت شعري أين السودة التي في الصخرة وأين الإنسان ؟ وبمثل ذلك تقول : أين حياة هذا الإنسان التي هي أشبه بالدود بالنسبة لحياة أخرى في عالم أرقى من عالمنا ؟ فالعقل يرى أن أرضنا عبارة عن مزرعة تزرع فيها أنواع الحيوان ثم ترتقى تلك المزارع انتقالا مجهولا لنا ؛ وغاية الأمر أن نقيسه على ما تفعل بالزرع ، فإن الناس يزرعون البزور ثم يتقنونها كما ترى في الأشجار عند رجال الحدائق والبساتين الذين يزرعون البزور في مواضع خاصة ثم يتقنونها فتزرع زرها أرقى ، ويكون اللاحق على مقتضى السابق والآخرة كالأولى ، فهكذا هذه الحيوانات خلقت في الأرض خلقا مؤقتا لتنتقل إلى حال أرقى ، ونحن هنا لاندرى إلى أي جهة تصدر هذه الحيوانات .

فطرة العامة والنبوات

وهذا القياس الذي يحظر بالنفس هو بينه ما جاء على قلوب الأنبياء وما غرس في فطرة البشر ، فإنك

لاتدخل أرضاً ولا تأتي مملكة إلا سمعت صدى صوت هذا الموضوع والإخبار بما هو غالب عن العيون ، فترى كل أمة تؤمن أن للنفوس حلالاً غير هذه الحلال ، ولم يشذ عن هذا إلا أفراد في كل أمة خلقوا للبحث فتحيروا وهؤلاء لا يؤثرون في المجموع ، وإذا وجدنا قوماً زهدوا في الطعام تدبنا وتزهدها فذلك لا يقدر في الفطرة العامة التي تطلب الطعام لبقاء الأشخاص .

وليس وجود أناس يحرمون النساء من أهل الديانات بمؤثر في الفطرة العامة الإنسانية ، فإن فطرة اقتراب الجنسين عامة لبقاء النوع .

هكذا هنا إن الفطرة قاضية ببقاء الناس بعد الموت ، وأن هناك حقائق لا بد منها وأن أعمالنا تؤثر في ذلك المستقبل ضعة وشرفاً .

هذه عقيدة عامة في البشر كعقيدة الطعام والشراب ، فإنكارها مكابرة ، والفطرة العامة قط لا تكذب هي أبداً صادقة ، وإنما الخلاف في تأدية العبارات والصور الظاهرة والقشور ، أما الحقائق فإنها لا تتغير ؛ فالطعام والشراب واقتراب الجنسين والاعتقاد بحال بعد الموت كل ذلك لم يتغير ولن يتغير ، والفلسفة تقول كذلك .

فياليت شمري أي فائدة من هذا الوجود مالم يكن هناك ارتقاء وحال غير هذه ، وإلا كان ذلك كله ضلالاً ووبالاً .

أفي الإعدام رحمة ؟

ولما كان الأمر على ما ذكر وكانت الحياة الدنيا مؤقتة وكان التناسل يوجب أن يبقى الأبناء وعدم الآباء وأن كل جيل يعمل محل الذي قبله كان الإعدام حتماً لازماً . إن الحياة رحمة حياة الحيوان وحياة الإنسان ، ولكن لو عاش الإنسان ٥٠٠ سنة لكانت الحياة وبالاً والعيش نكدًا وأصبح على القدم ألف قدم وأسبغت الحياة لاتطاق .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى قول : إذا كانت هذه الحياة مؤقتة في عالم غير متقدم بل هو متأخر ، فالبقاء فيها أدى وشر بل يجب الرحيل منها ، فكان من الرحمة والحكمة أن يساعد الأحياء بعضهم بعضاً على التغاضي والخروج من هذه الحياة بعد اكتساب الفضائل والتجارب ، فكفى أن الحيوانات قد تربت وجربت على مقدار طاقتها ، وهكذا الإنسان بالآلام والأمراض والديانات والتجارب يستمد حياة أخرى ، فيخرج من الأرض ، فكما أن كل واحد يحافظ على صحته وحياته هكذا يقوم غيره فيقتله ويغيبه لرحمة ولرحمة أهل الأرض لتخلو لمن يأتون بعدنا .

عقائد الإنسان في أكل الحيوان وتحريمه وعاداته في ذلك

واعلم أن الإنسان منه من لا يأكل إلا اللحم كقوم في الأقطار الشمالية ، وهؤلاء يسكنون في أماكن ثلجية ولا يعيشون إلا على حيوانات البحر وليس لديهم نبات ، فما مثلهم إلا كمثل الأسود والفور ، ومن الإنسان من لا يأكل إلا نوع النبات ولا يذوق غيره ، ومنه من يأكل الحيوان والنبات معاً كما أكثر أهل الأرض .

ولما كانت الديانات لا تخرج غالباً عن مجازاة العادات كان منها ما يحرم اللحم كالبوديين وعكسهم أهل الصين .

وجاء في بعض الجرائد في ٢٢ مايو سنة ١٩٢٥ أن الصينيين يأكلون الديدان الصغيرة والنمل والضفادع

يشوونها ثم يفرمونها ، والفرومة منزلتها عظيمة جدا عندهم ، ولهم فيها صناعات تبلغ أربعين صنعة . وكذلك
المهر والكلب والجرذان ، اه .

ومنها ما يبيع لحم الإنسان كعص دبانات للتوحشين ، ومنها ما يجمع بين الأمرين ، وجاء الإسلام
بطريق وسط فلم يبيع أكل الإنسان ، ونظر في الحيوان فما رآه مخلوقا لإفادة أهل الأرض كالأسود والتمور
حرّمه وما ليس كذلك حلّه فيقول « وحل لحم الطيبات ومحرم عليهم الجبائث » ويقول أيضا « اليوم أحل
لكم الطيبات » فالطيبات حلال والحيثيات حرام ، وقد جعل لتلك قانون وهو أن الطيبات ما استطابته
النفوس الشريفة من المؤمنين أصحاب اللسان العربي ، ولا عبرة بأهل البادية إلا ماورد الشرع بتحريمه
وما استخبثوه فهو خبيث إلا ماورد الشرع بتحليله .

وقد جاء في كتب الشافعية أنه يحرم من السباع كل ماله ناب قوى يعدو به وذكروا من ذلك الأسد
والنمر والثوب والذب والذئب والقرود ، ومن ذى الناب الكلب والخنزير والقهد وابن آوى وهو فوق الثعلب
ودون الكلب طويل الخالب فيه شدة من الذئب وشبهه من الثعلب والمهرة .
ومحرم من الطيور ماله مخلب قوى وهو للظير كالظفر للإنسان يجرح به كالصقر والباز والشاهين والنسر
والمقاب وجميع جوارح الطير .

كيف وافق الإسلام الطبيعة

انظر أيها القارئ كيف وافق الإسلام الطبيعة ، وكيف حرّم من الحيوان ما كان نافعا بقاؤه ليطهر
الأرض من الرم والقفونات ، وأباح ذبح ما ليس كذلك كالبقر والجاموس .
أفلا تتعجب معي ؟ كيف اتفق الشرع والطبع ؟ وكيف أصبحت في زمان تظهر فيه محبات الحقائق
وتتجلى للناظرين ؟

يحرم الطيور الجوارح ومحرم الأسود ، لماذا ؟ لأنها جارحة ، ثم لماذا هذا ؟ يكون الجواب السكوت ،
ونحن نقول لا سكوت ، إن هذه الحيوانات نافعة لإزالة الجراثيم والحيوانات وربما من وجه الأرض ، هذا
هو السبب .

ثبت إذن أن ذبحنا للحيوان ليس مخالفا للطبيعة بل هو مساوق لها ، فإن الإنسان يذبح والحيوان
يذبح ، الإنسان يذبح بالحيوانات التي تدخل جسمه فتفترسه وتدخل فيه الأمراض ، وليست الآلام التي يتحملها
الإنسان بأقل من الآلام التي يتحملها الحيوان ، الإنسان لا بد أن ينال حظه من الآلام أكثر من الحيوان ،
الحيوان يذبح مرة والإنسان يذبح كل يوم بأمراضه وهمومه وأفكاره .

ولذلك نجد بعض الناس يقتلون أنفسهم ومن يبق اجتمعت عليه الحيوانات من داخله فخرت هيكله
تدرجها ، وكل يوم تذيبه أنواع العذاب وتقطع لحمه وعروقه وتؤلمه ألما شديدا ، ولكن ذلك كله رحمة
واسعة لما قدمنا .

إن المتعجب حقوى الروح . فلما أن يتعب الإنسان بالنظام العام ويتألم لحفظ الصحة والنظافة وإلا فلا بد
من تعب ونصب ، فتحن والحيوان سبان في تحمل الآلام وحركات اللذبح من الحيوان ليست شيئا مذكورا
في جانب آلام الإنسان التي تمر به كل آن ، بل الحيوان متى قطعت أوداجه اعتراه الدهول فلا يجس بألم وإنما
تلك الحركات عضلية لا أثر للألم فيها وإنما يألم الأحياء منا .

ليس من مات فاستراح يميت وإنما لبت ميت الأحياء

إنما لبت من يعيش كثيرا كاسفا باله قاييل الرجاء

النتيجة

إن الحيوان يألم والإنسان يألم ، والذئب من آلام الحيوان أخف من آلام الإنسان بما لا يقدر ، وألم كل منهما نعمة عليه تقوى روحه ، ولا بد لهما من حال بعد الموت « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء » ولا ندري ما هي إلا ما تصوره الديانات بصور عامة ، والحيوانات الجارحة تأكل التي تأكل الحشائش لتكون نعمة على سكان الأرض بمنع العفونات ، والناس اختلفوا في أكل الحيوان كاختلاف الحيوان في أكل اللحوم ، والإسلام عدل حرم ما جعله الله لأكل اللحوم لتطهير الجو من العفونات ، فإذا كان ذبح الحيوان غير خارج عن الطبيعة بل هو مساعد له على الخروج من الدنيا ومن هذه الحياة على الأرض وهي من العوالم المتأخرة .

البوذية والمناوية وأبو العلاء المعري

ما أكثر الجهلاء في الأمم ! فبالت شعري إذا كانت هذه هي الحقيقة الناصعة فأى حجة للبوذية الذين يحرمون أكل كل حيوان لأنه تعذيب لها ، وانظر لما كان يقوله أبو العلاء المعري ، عرض عليه الطبيب دجاجا ، فقال : لماذا لم يصفوا لي شبل الأسد ؟ أطلقوا سراحه فواته مامنهم من وصف الشبل إلا قوته وضفنا ، أفلمست ترى أن هذه النظريات ضئيلة فاسدة ؟

فيالت شعري كيف غفل هؤلاء عما تقتله من الحيوان كل يوم ونحن أمرنا طيبا ألا نشرب ماء النيل حتى نغليه لقتل الحيوانات التي فيه . أفليس هذا قتلا للحيوان ؟ فإذا كانت شربة الماء يقتل لأجلها مئات الألوف والألوف والألوف ولا ينكره أحد في الشرق والغرب ، فكيف تنكر القليل مما نأكله ؟ إن أكثر الناس جاهلون .

لم سميت هذه السورة باسم المائدة ؟

وجوب درس علم الحيوان

اعلم أن هذه السورة حقيقة مائدة نصها الله لعباده ليأكلوا منها ما يشتهون ويتزودوا ويتعلموا . لقد جعل الله الحيوان فيها على ثلاثة أقسام : حيوان يحرم قتله وهو ما كان في الحرم وما كان له مخلب من الطيور أو ناب من حيوانات البر ، وقسم يحل أكله وهو ما استطابته الأشراف من هذه الأمة كالإبل والبقر والغنم ، وقسم جاز قتله كالكلب العقور والقارة ، وهكذا بقية الفواسق الخمس الواردة في الحديث ، فكان الله جعل هذه المائدة منصوبة لنا ولم يترك الأمر سدى بل أبان ما يؤمننا وجوده كالفواسق الخمس الواردة في الحديث ، وما يؤمننا عدمه الذي سماه بالحجائب لأنه ينظف جوتنا ويظهر أرضنا ، وما ينفعنا أكله كالبهائم وبقية الطيور . أولست ترى أن هذه المائدة التي نصها الله لنا لا يصح الإغضاء عنها ؟ وهل من الأدب أن تنظر إليها من بعيد كأنها ليست لنا ؟

كيف ساغ للسليين أن يناموا بعد الأولين السابقين من الأئمة الأعلام

لقد ظنوا أن الأئمة رضوان الله عليهم ماتركوا قولاً لقائل في جميع العلوم ، ولكن فاتهم أن الأئمة اعتنوا أشد العناية بما هو أسمى بالعبادة اتكالا منهم على عقول الأمة في الباقي .

وإذا كنا نرى الإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول : إن الترتيب واجب في الوضوء مستتبجا ذلك من ترتيب الأعضاء في القرآن ، وبوجب التبة في الوضوء مستتبجا ذلك من آية في آخر القرآن « وما أمرنا إلا ليعبدوا الله مخلصين » .

ورى أبا حنيفة يقول : لانية للوضوء لأنها لم تذكر في القرآن ، ورى أنهم اختلفوا في اثنى عشرة مسألة في فرائض الوضوء ومسح الوجه وجميع أجزائه قطعة قطعة ، لما تركوا شعرا ولا بشرة ولا جفنا ولا عينا ولا عنققة إلا بمشوا ودققوا ، فلماذا هذا كله ؟ للطهارة ، والطهارة مقدمة العبادة .

فانظر كيف كان جدم واجتهادهم وحرصهم على الدين وعلى ارتقاء الإنسان في أموره الدينية ، فهلا نظر المتأخرون فيما أودعه الله في القرآن وحققوا كما حقق آباؤنا وأجدادنا ؟ وهلا نظروا فيما حوته هذه المائدة النصوية في الأرض فوفوها حقها كما كان الأئمة رضوان الله عليهم يفعلون ؟ حرقت السنة على قتل كل حيوان يؤذينا ؟ فليبحث علماء الأمة في أنواع المكروبات والقائلة لنا قياسا على ما علم من الكلب العقور والقارة وأمثالهما ، ولو أنا وجدنا كلبا يعقر الناس لوجب علينا قتله .

هكذا يجب علينا أن نبحث في الكلاب المسترة تحت أجسامنا وهي المكروبات والحيوانات الدرية الصغيرة ولنخصص لها الأطباء ، وديننا يأمرنا بذلك كما أمر نبينا صلى الله عليه وسلم في القواسق الخمس .

وهكذا إذا وجدنا أنه أبقى بعض الحيوان في الحرم ، وغيره أبقاه في كل مكان ، وظهر الآن أن بقاءه لتنظيف الجو ؟ فلنقم نحن بحراسة هذه الحيوانات ولنبحث على أمثالها في الأرض ، لنبحث على كل حيوان نافع لزرعنا ولنقيه ولا نأكله .

حكاية

قد ذكرت في هذا التفسير أن الحكومة المصرية قد بحثت في أمر الطيور ومنعت قتل كثير منها لنفعها في الزراعة ، وسبب ذلك أن المصريين القدماء كانوا قد درسوا أنواع الحيوان وجعلوا بعضها محفوظة لأنها قاتلة للحشرات الآكلة للزرع ؛ فلما دار الزمان دورته وتقلب الترب والشرق وجاء أهل أوروبا إلى بلادنا أنسوا المصريين أخلاقهم وعوائدهم فأنهالوا على الحيوانات التي كانت نافعة فقتلوا صيدا ليتزينوا بريشها ، فلما تنبهت الحكومة المصرية إلى ذلك أمرت بإحصاء الحيوانات الآكلة للحشرات وأمرت بحفظها وهي هذه :

- (١) عصفور سكيكولا : هو عصفور ملون بالزرقة والصفرة والسواد .
- (٢) العصفور المغني : هو أصغر من العصفور السابق .
- (٣) أبو فصادة : هو كالسابق حجما .
- (٤) عصفور بيت : تغلب على لونه الصفرة مع السواد .
- (٥) عصفور آكل الدباب .
- (٦) الوروار : هو في حجم الحمامة ذو منقار طويل تغلب على لونه الخضرة .
- (٧) المهدد : هو معروف .
- (٨) الكروان : هو كبير الحجم كاللدجاجة ملون بلون الشفق مع السواد .
- (٩) الزقزاق الشامي : أصغر مما قبله قليلا لكنه جميل الشكل .
- (١٠) الزقزاق البلدي : يقرب من السابق ، وللأول غرمة ممتدة خلفه وتغلب عليه الخضرة من ظاهره والياض من باطنه ، والثاني على لون مختلط يابضا وصفرة من ظاهره والسواد في أسفله .
- (١١) القنابر : وهي معروفة تقرب من شكل صفار الصافير .
- (١٢) أبو قردان : وهو معروف أبيض اللون طويل الرجلين والمنقار كبير الحجم .

الدليل على أن هذه الحيوانات محرّم أكلها

هذه الحيوانات هي التي يجب حفظها ليحفظ الزرع .

ولمك تقول : هل كل هذه الحيوانات نصّ على تحريمها القداء ؟

أقول : اعلم أن هذه الحيوانات متى ثبت نفعها للزراعة صارت محرّمة ، وإن لم تكن مما استخبثه الطباع .
ألا ترى إلى قوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيما » في سورة النساء ، وقد قدمنا أن هذه الآية تحرّم علينا أخذ التجارة القرنجية إلا ما يحجزنا عن عمله وإلا إذا كان ذلك قتلا لنا ، وما مثل التجارة القرنجية إلا كتل الحلوى تعطى للأطفال وفيها السم فيموتون ، أو كتل الحب يرمى تحت الشبكة والشبكة تقتص الطير بسبب هذا الحب ، أو كالصائد يحفر حفرة في الجبل ويغطيها بشيء من الحشائش والأعشاب فيمر عليها الأسد فيسقط فيها .

فهذا معنى قوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » في مسائل التجارة ؛ هكذا هنا في الزراعة ؛ لو أنا تركنا تلك الطيور يفتك بها الجهال بعد أن ثبت لنا نفعها لأنها تأكل الحشرات ، فإن قتلها إبقاء للحشرات ، وإبقاء الحشرات موت لزرعنا ، وهلاك زرعنا هلاك لنا ؛ فكان بإباحة قتل الحيوانات أحمق قتل أنفسنا ، وهذا هو الجهل المبين .

فليقم في الأمة الإسلامية أقوام يخصصون بالعلوم المختلفة كل فيما يناسبه ، وليكن للحيوان علماء من حشرات وأنعام حتى تعرف ما يضر وما ينفع ، فهناك من النافع والضار ما نجعله جهلا فاحشا ، وديننا يأمرنا بالبحث في ذلك .

ألا ترى إلى قوله تعالى هنا « تعلمونهم مما علمكم الله » وقال علماؤنا : تعليم الله لنا بالإلهام وبالعقل ، فدل هذا على أن هناك علماء في الحيوان يعرفه السلفون .

وباليت شعري لماذا يقول هنا ؟ « مما علمكم الله » فكان هذا تنبيه على أن الله سيعلمنا في الحيوان ما لم نعلم الآن ، ومن ذلك التعليم مانعه للحيوان الذي به نضطاد غيره .

فليكن في أمة الإسلام النائمة الآن علماء للحيوان وعلماء للنجوم ، فإننا لانميش على هذه الأرض ونحن جاهلون ما فيها .

هذه المسألة حسية ومعنوية

فعل هذا تكون المسألة التي نصبها الله للسليين ليست قاصرة على التزوج والتناسل ولأكل وما أشبه ذلك ، فإنه لو كان الأمر كذلك لم يكن فرق بيننا وبين الحيوان . إنا خلقنا على الأرض ليكون التفاعل والتدخل بيننا وبين بعضنا ، وبيننا وبين الحيوان موجبا لإظهار ما كمن في نفوسنا من الفطر والفرائز والأخلاق ، وليس يمكن أن يتم هذا إلا بالإحساس بما هو مؤلم ، وبالإحساس بما هو مستلذ ؛ فيكون ألم وتكون لذة ، وكلاهما ليس مقصودا لذاته ، كلا !

وكأن الفنى والقناة يقترنان لداعي الشهوة ، ثم يظهر في آخر الأمر أن تلك اللذة غير مقصودة وأنها مما يتجدان ويتعاونان ويجهدان في تعليم الولد وتربيته والقيام بواجباته وحبه ونسيان تلك اللذة وخرقان من تلك الطفولية ، وهما مدفوعان لحب الولد وبقائه ، وكلاهما مجذّب في التفرغ لسعادته وبقائه ، حريصين على تقدمه وارتفاعه ، ويطيانه ما على كلان ، ويورثانه ما يكسبان .

فهكذا هذه المائدة التي أنزلها الله لنا في القرآن وأبرزها في هذه الدنيا للعيان ، وفيها المآكل الحيوانية واللذات الحسية من اقتران الجنسين في أول هذه السورة لم تكن مقصودة لذاتها بل يراد النظر في دقائقها والتحقق من عجائبها ، والفهم لبواطنها ودرس العلوم التي أدمجت في أسرارها ، ويرمز لذلك بقوله « مما علمكم الله » .

ولما أتم الكلام على الحيوان وأكله والنساء والتزوج بهن من المهنات شرع يطهرنا بالوضوء ويفتح لنا باب الصلاة ، وكأنه يقول إن الصلاة بعد النظافة معراج تخرجون عليه لأفتح لكم كنوز هذه الأرض فأروض عقولكم بالبحث في مآذني والتفرج على أنواع حيوانها وأسرارها وغرائبها ، فتخرج أرواحكم إلى وآتم في الدنيا بالعلوم ، وإذا صرتم إلى كنتم في جوارى لأنه لا يماورني إلا العلماء ، ولا يصل إلى ملكوتي إلا الفضلاء ؛ فإذا وقتم عند المآكل والنساء المذكورات في أول السورة وغفلتم عن العروج إلى بالنظافة والصلاة لتشكروا نعمتي بمعرفتها ، إذا فعلتم ذلك فأى فرق بينكم وبين الحيوان ؟

العلماء الذين سيكونون في أمة الإسلام في مستقبل الزمان

سيكون هناك طوائف لدراسة المخلوقات ، وإليك بيانها :

- (١) علم طبقات الأرض لدرس علوم كثيرة أخصها التاريخ الطبيعي للحيوان .
- (٢) علم النبات .
- (٣) علم الحشرات .
- (٤) علم الأنعام والأساد والطيور .
- (٥) علم الإنسان .
- (٦) علوم السياسة .
- (٧) علوم المعادن .
- (٨) علم الكواكب والفلك ، وهكذا . (٩) علم الطب .

وسيكون هناك مجلس عام من هؤلاء العلماء ويكون قرارهم معمولاً به في شئون الأمة .
مثال ذلك :

- (١) أن الحيوان النافع يحرم قتله .
- (٢) وأن الحيوان الضار يجب قتله .
- (٣) وتكون الأحكام الصادرة من هذه المجالس واجبة التنفيذ .

يا علماء الأمة الإسلامية ويا أمراءها لقد رأيتم في هذه السورة أن هذه العلوم أصبحت واجبة ودين الإسلام لا يزال بكرًا ولم يدرس منه إلا القليل ؟

يارجال الأمة إن آباءنا رحمهم الله قد أدوا ما عليهم في ألف وثلثمائة سنة ؛ فيها نحن أولاء قد جئنا اليوم ، فلتكن الألف والثلثمائة سنة السمتلة للبحث في دقائق الكون التي سرت وكنت وحفظت لكم ، حفظها لكم الآباء ، حفظوا القرآن لكم ، حفظوه في الصحف كما تحفظ الأم الجبين في البطن وتخاف عليه ويزعمها أن يمس بسوء .

هكذا آباؤنا حافظوا لنا على أمرين : أمر القرآن حتى سلموه لنا ، وأمر التحقيقات الدينية ، فأرونا كيف كانوا يحققون ؟

ولقد بينت لكم هنا كيف كانوا يحققون وكيف كانوا يدققون في أقل المسائل ، في غسل أنف أو غسل عين أو غسل جفن ، كل ذلك لحرصهم وفضلهم في العلم وفي الدين ، كأنى بكم وقد صار فيكم محققون وأئمة في الفلك والنبات والحيوان وفي العلوم التي ذكرتها لكم ، انظروا كيف كانوا يستدلون ، انظروا كيف كانوا يبحثون ؟

آن الأوان وجاء الزمان وظهر الحق وسيكون الجيل المقبل من خير الأجيال علما وعملا .

أيها الأبناء الذين ستكونون بعدنا ، انظروا كيف اختلف آباؤنا في آية واحدة وهي آية الوضوء ، وكيف وصلت فروض الوضوء إلى ١٦ ؟ وكيف أتوا بالأدلة والبراهين والأحاديث ؟

فكيف إذا جئتم أيها الأذكياء وبجئتم في أمر الجمال الإلهي في الأرض والسما كعلم الحيوان الذي ذكرته لكم من سورة المائدة ، وكيف ترتقى العقول بارتقائه ؟ وكيف تكون في الكرة الأرضية أم عظام ؟ إذا كان ذلك الخلاف كله في آية في الوضوء ، والوضوء مقدمة العبادة ، فما بالك إذا عرف المسلمون في أقطار الأرض أن العلم والفكر في مصنوعات الله عبادة حقة وهي أرقى من العبادة العملية ، العبادة العملية مشرفة للنفس ، فالصلاة معراج ، والوضوء مفتاح لتلك المعراج ، ولكن بم يكون الروح ؟ يكون بالعلوم ؟ فإذا نصبنا سدا وجعلنا له بابا ، فالعلم هو الصلاة ، والباب هو الوضوء ، ولكن العروج على ذلك السلم لا يكون إلا بدرس العلوم من القادرين ، والدراسة إما أن تكون للنافع كالتي قدمناها لمتقضى هذه السورة ، وإما أن تكون لارتقاء الروح مع النافع ، كما في قوله تعالى « إن الله فالحق والحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأتى تؤفكون ؟ فالحق الإصباح وجعل الليل سنا والشمس والقمر حسابا ذلك تقدير العزيز العليم الخ » ألم يقل الله لنا « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعا » فلماذا لا نبث مافى الأرض جميعا ؟ لماذا لا نبث بحثانا ما ؟ فإذا كان الله خلق لنا هذا كله ، فلماذا تركناه وأضعناه ؟ وعقولنا نامت جميعا نومة واحدة حتى ملكنا القرنجة ، فليستيقظ المسلمون وليتعلم المخلصون .

فإذا تعاون آباؤنا على آية الوضوء فلتعاونوا على ما هو أشرف من الوضوء ، وما هو المقصود الأكل وهو المعرفة وعروج النفس إلى مقامات الكمال .

إن الله لا يجلس على مائدته إلا الأكبر ، ولا الأكبر إلا الأكبر ، ولا أكبر إلا الأكبر ؟ ابتداء سورة المائدة بالحيوان وحله والنساء وحلهن ، وختمها بمائدة عيسى ابن مريم وأن الحواريين اطمانت قلوبهم بها لما أكلوا منها .

إن الملك إذا مد سمامه لرعيته فتناولوا الطعام ، فالعامية يفرحون بما أكلوا والحاسة لا يبالون بالطعام ، وإنما يعرفون مجلس الوزراء وخواص الدولة وأكبرها ، ولو أن أحد الفضلاء أكل على سمام الملك وحرّم من التنرف بلقائه والتمتع بالشرف العظيم لرجع كليل الطرف حسيرا لعله أن الملك معرض عنه ؛ فويل لمن ظن أن المائدة طعام وشراب وفاكهة وحسان ، وإنما المائدة الحقيقية شرف العلم والوقوف على أسرار هذا الوجود لاسيما الحيوان وأنواعه للانتفاع به « فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » فويل ثم ويل لشيوخ حصروا تلاميذهم في دائرة ضيقة ، وويل ثم ويل للتالين لكتاب الله وهم به جاهلون ، وويل ثم ويل لشيوخ جهلوا وعلّموا تلاميذهم أنواع الجهالات فصدوم عن العلم وأنكروه ؛ فليكن على نفسه من أضع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم .

اعتراض على المؤلف وجوابه

قال لى عالم فاضل لما اطلع على هذا : إن من اطلع على كلامك هذا يرى أنك تحرض على أكل اللحم والاكثر منه لأنك جعلت أن الحيوان إن تألم من الذبح فألمه أقل من ألم الإنسان ، وأبنت أن الحيوانات الثرية فتتك بأجسامنا فتعيتنا ، وجعلت أن نوع الإنسان وأنواع الحيوان خلقوا في نصب وتمب للارتقاء وتقوية الأرواح وأن هناك عالما أرقى ، وأبنت أن الأحياء على الأرض مختلفون جميعا من أضعف حياة إلى أقواها ولا تكاد تخصى تلك الأنواع من الحياة ، وأن العوالم التي تراها لا بد أن تكون فيها عوالم أوسع

وأعظم وأشرف درجات كثيرة ، كل هذا لا غبار عليه إنما إفاضتك القول في اللحم وأكله يناق ما ذكرته في سورة البقرة وأن أكل اللحم والإكثار منه مضر بالصحة ، فأين هذا القول من ذاك للقال ؟

الإجابة

اعلم أي الآن أبحث في نظام هذه الدنيا وقراءة حيوانها واختلافه وأن بعض المخلوقات يأكل الآخر ، فأما كون اللحم مذموماً أو ممدوحاً فشيء آخر ، وهذا يرجع إلى أحوال الشخص ، فإن أراد صفاء النفس وقلة الأمراض فليقلل من اللحم ، فأما المكثرون منه فهم معرضون للأخطار كما قدمنا ، وإذا ترك اللحم كان خيراً وأحسن تأويلاً .

واعلم أن الناس إذا أكلوا اللحم فإن البهائم المذبوحة المأكولة تتحول دائماً أجسامها إلى عفونات وتلك العفونات تنقلب في الأجسام ذرات قتالة ، ولها حياة أيضاً فتفتك بالناس وتقتلهم «ولكن أكثر الناس لا يشعرون» أن أكثر الأمراض في الطعام ، وأضر أنواعه اللحم فإنه هو الذي يورث في الجسم العفونة التي تنقلب حيواناتها فتأكله تفسد هياكلها .

هذا من العجائب !

ليس من عجب أن نرى الحيوان يذبحه فيثبنا على ذلك بإعدام حياته بعد دفنه في أجسامنا ، نرى بالذبح ونأكله ، وهو يريغنا بأن يكون سبباً لأمراض تورث الموت أو تقربه لنخرج من هذه الأرض . وبعبارة أخرى نغذب الحيوان يذبحه وقطع حياته فيفعل معنا ما فعلناه معه ، حذو القعدة بالقعدة «وجزاء سيئة سيئة مثلها» أفلا ترى أن كل جزاء من جنس العمل ؟

يا محباكل العجب ! نفى الحيوان فيثبنا . ونذبحه فيمرضنا ، وقتله فيقتلنا ، هو الذي يدخل في الأجسام فيضع فيها أنواعاً من الأمراض كما نص عليه الأطباء في عصرنا الحاضر ، ودلت عليه التجارب . إن العذاب بعد الموت يكون بنفس العمل ، ونفس العمل هو الذي يفتك بنا إذ ذاك كما فتك بنا لحم الحيوان .

اتمى الكلام على المقدمة في تفسير آيات الأحكام الواردة في حديث ميسرة ، وإنما جمعنا هنا تبيناً بالحديث الشريف وتسهيلاً للرجعة ، وسأجيل عليها عند ذكر آياتها فيما سيأتي في تفسير السورة . فليبدأ في تفسير مقاصد السورة فنقول :

المقصد الأول

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحْلَى الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شِمَارَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتُمُونَ فَضلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً ، وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ أَنْ صَدُّوا عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِنْمِ وَالْمُدَّوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ

وَالْمُنْحِقَةَ وَالْمَوْقُودَةَ وَالْمُتَرَدِّيَةَ وَالنَّطِيطَةَ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذُكِّرْتُمْ وَمَا ذَبَحَ عَلَى
 النَّصْبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكَ فِسْقُ الْيَوْمِ الَّذِي كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ
 فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ
 لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ، فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
 يَسْأَلُونَكَ مِمَّا ذُكِّرَ لَهُمْ قُلْ أَجَلٌ لَهُمْ قُلْ أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمُ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ
 تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ تَأْتُوا اللَّهَ
 إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ * الْيَوْمَ أَجَلٌ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ
 لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ
 يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ *

أمر الله سبحانه وتعالى أن نفي بالعقود ونقوم بها ، والعقود ما عقده الناس بينهم من عقود الأمانات والعمالات
 ونحوها مما يجب الوفاء به أو بحسن ، وكذلك ما عقده الله من عهود الإيمان فيما أحل وحرّم ، وهكذا عقد
 البين وعقد النكاح وعقد المهد وعقد البيع وعقد الشركة .

(١) مسألة : لو نذر أن يصوم يوم العيد ، أو يذبح ولله وجب عليه الوفاء به عند أبي حنيفة لأجل
 هذه الآية « أوفوا بالعقود » ولكن يصوم غير يوم العيد ويذبح غير وانه حلالا ، والشافعي يمنع ذلك ويقول
 لا ينقذ النذر .

(٢) خيار المجلس في البيع عند أبي حنيفة غير جائز لقوله « أوفوا بالعقود » فأين الوفاء مع الخيار ؟
 والشافعي يقول بخيار المجلس للحديث المخصص للآية .

وهذا تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود) اعلم أن الإبل والبقر والغنم والتمر والظباء وبقر
 الوحش وحمر الوحش ونحوها وهي بهيمة الأنعام حلال لنا ، والبهيمة اسم لسلك ذي أربع من الحيوان ،
 وإضافتها إلى الأنعام كشوب خز للبيان أي البهيمة من الأنعام ، وحل هذه البهائم إذا لم تحرم بالأسباب الآتية
 في قوله « حرمت عليكم الميتة الخ » وإذا لم تكن الوحشية منها كالظباء وبقر الوحش والحمر قد صدقوها
 وأتم محرمون ، وإلا حرمت كما اتضح في المقدمة .

هذا معنى قوله تعالى مبينا بعض العقود التي يجب الوفاء بها (أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم)
 أي إلا محرم ما يتلى عليكم في قوله « حرمت عليكم الميتة » حال كونكم (غير محلي الصيد وأتم حرم)
 أي غير محلي صيدها وأتم محرمون في حال الإحرام كما تقدم (إن الله يحكم ما يريد) من تحليل وتحريم .
 ثم إن الله حرم علينا أن نتهاون في الشرائع التي سنها وهي السماة (شعائر الله) جمع شعيرة ؛ فالشرائع
 والشعائر بمعنى ، ومنعنا أن نصد الناس عن الحج في أشهر الحج (ولا الشهر الحرام) وأن لا تعرض للهدى : جمع

هدية ، وهو ما يهدى إلى الحرم من النساء فلا نضبه ولا نتمه أن يصل إلى محله ، وكذلك لا تعرض إلى الإبل والبقر والغنم التي اعتاد العرب أن يشدوا في أعناقها قلائد : جمع قلادة من نعال أو لحاء شجر أو غيرها ليعلم به أنها هدى فلا يتعرض لها ، وكذلك لا تعرض لقاصدي البيت الحرام وهي الكعبة يطلبون فضلا من ربهم ورضوانا .

وهذا معنى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تغلوا شعار الله ولا التهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين) قاصدين (البيت الحرام) الكعبة (يبتغون فضلا من ربهم) بالتجارة ، حال من الضمير في آمين (ورضوانا) وأن يرضى عنهم : أي لا تعرضوا لقوم هذه صفتهم تعظيما لهم .

ثم إذا كان الصيد حراما وقت الإحرام ، فإن الحرمة تزول متى حل واتمى أمر الإحرام ، هذا معنى (وإذا حلتم فاصطادوا) فهذا إذن ، لا أمر للوجوب .

واعلم أن أهل مكة صدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن الوصول إلى مكة عام الحديبية لأداء العمرة ، فأراد المسلمون الانتقام منهم ، فقال الله (ولا يجرمكم) أي لا يجعلكم (شتان قوم) شدة بغضهم (أن صدوكم عن المسجد الحرام) عام الحديبية (أن تعتدوا) عليهم بالانتقام ، أي لا يجعلكم بغض أهل مكة على أن تعتدوا عليهم لصدكم لكم عن المسجد الحرام (وتعاونوا على البر والتقوى) على العفو والإغضاء (ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) والبر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في الصدر وكرهت أن يطلع الناس عليه (واتقوا الله إن الله شديد العقاب) فاتقاهم أشد من اتقاهم من أهل مكة ، وقوله (حرمت عليكم الميتة) إلى قوله (ذلكم فسق) قد سبق تفسيره في المقدمة .

ونزل يوم الجمعة بعد العصر في يوم عرفة والنبي صلى الله عليه وسلم واقف بعرفات على ناقته الضباء فكانت عضد الناقة تندق وبركت من شدة الوحي في حجة الوداع سنة عشر من الهجرة ، آية « اليوم يشس الذين كفروا من دينكم - إلى قوله - ورضيت لكم الإسلام دينا » يقول الله (اليوم) في هذا الزمن وليس يوما بعينه كما يقال يوم لنا ويوم علينا (يشس الذين كفروا من دينكم) يشسوا من رجوعكم عن دينكم ومن تحليل هذه الحباثت كما يحللونها ومن أن يغلبوكم (فلا تخشوم) فلا تخافوا الكفار أي المؤمنون أن يظهرروا على دينكم فقد زال الخوف عنكم بإظهار دينكم (واخشون) وخافوا مخالفة أمرى ، ولقد كنت أنزل لكم الأحكام لأوقات خاصة فكان كلها وقتيا (اليوم أكملت لكم دينكم) بحيث يصلح إلى آخر الزمان بما فيه من الفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام ، وبأنه لم يحج معكم في هذا العام مشرك وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسلمين ، وبأن أظهرت دينكم على الأديان وبأن دينكم لا ينسخ ولا يزول وأنه باق إلى يوم القيامة ، وبأنكم آمنتم بكل نبي بخلاف الديانات كلها ، وبأنكم سلمتم من عدوكم (وأعمت عليكم نعمي) بالهداية والتوفيق وإكمال الدين وفتح مكة وهدم منار الجاهلية (ورضيت لكم الإسلام دينا) الإسلام الاتقياد لطاعتي فيما شرعت لكم من الفرائض والأحكام والحدود .

قال أصحاب الآثار : إنه لما نزلت هذه الآية على النبي صلى الله عليه وسلم لم يعمر بعد نزولها إلا أحدا وثمانين يوما أو اثنين وثمانين يوما ولم يحصل في التريعة بعدها زيادة ولا نسخ ولا تبديل ألبتة ، وكان ذلك جاريا مجرى إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عن قرب وفاته وذلك إخبار عن الغيب فيكون معجزا .

ومما يؤيد ذلك ما روى أنه صلى الله عليه وسلم لما قرأ هذه الآية على الصحابة فرحوا جدا وأظهروا السرور العظيم إلا أبا بكر رضى الله عنه فإنه بكى ؛ فسئل ، فقال : هذه الآية تدل على قرب وفاة رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، فإنه ليس بعد الكمال إلا الزوال ، فكان ذلك دليلا على كمال علم السديق رضى الله عنه حيث وقف من هذه الآية على سر لم يقف عليه غيره .

ومن عجب أن خطبة الوداع كانت مصرحة بهذا المعنى ، ألم تر إلى قوله فيها « ليلع الشاهد منكم الغائب ؛ فربما يبلغ أوعى من سامع ؟ » وقوله « لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا » وأخذ يوصى بالنساء والأرقاء وغير ذلك ، فقوله « لعل لا ألقاكم بعد عامي هذا » أشبه بما في الآية .

وقد روى أيضا أن عمر رضى الله عنه بكى بحضرة النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآية وفهم كما فهم أبو بكر رضى الله عنه ؛ وتوفى صلى الله عليه وسلم لثلاثي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة .

وروى البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « قال جبريل : قال الله عز وجل : هذا دين ارتضيته لنفسى ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموا بهما ما محبتوه » وهذا كقوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله الا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام » ولقد فتح الكسائي همزة « إن الدين » وجعل البصريون ذلك بدلا مما قبله كقولك ضربت زيدا نفسه فيصير التقدير هكذا : شهد الله والملائكة وأولو العلم أنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم قائما بالقسط . أن الدين عند الله الإسلام ، فعلى هذا كون الدين عند الله الإسلام هو عين إن الله واحد حال كونه قائما بالقسط في تدبير ملكه ، وأصل الدين الجزاء وتسمى الطاعة دينا لأنه سبب الجزاء ، والإسلام أصله إما الاتقياء وإما الدخول في السلم وهو السلام وإما الإخلاص .

وللآية وجه آخر في الإعراب ، وهو أن الدين مفعول شهد ، وقوله أنه لا إله إلا هو ، أى لأجل أنه لا إله إلا هو فيصير نظم الآية هكذا : شهد الله والملائكة وأولو العلم أن الدين عند الله الإسلام بسبب أنه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله حال كونه قائما بالعدل في مخلوقات كلها فتصير وحدانيته وتوحيد أفعاله بالعدل في هذا النظام سببا في أن الله شهد بأن الدين إنما هو الإسلام ، وأن العلماء والملائكة شهدوا بذلك : أى لأنهم شهدوا الوحدة في هذا الوجود ، والوحدة يصحبها العدل لأن العدل وحسن النظام أثر وحدة الخالق جل وعلا ؛ فلما علموا ذلك شهدوا أن الدين إنما يكون الاتقياء والإخلاص لمن نظم هذه الوحدة العجيبة والعدل للتعقن ، والنظام الكامل الذى يراه العلماء كأنه شخص واحد منتظم كامل ، فإذا لم يعرف علماء الأمة ذلك فشهادتهم أن الدين هو الإسلام فقدت سببها وهو معرفة حسن النظام في الطبيعة والفلك ونحوها .

ولما كانت الآيات السابقة على هذه قد ذكر فيها المحرمات ختمها بقوله « ذلكم فسق » ثم أبان بهذه الجمل الاعتراضية أن تجنب هذه المحرمات من جملة الدين الكامل .

وهنا شرع يقرر أن تناول منها اضطرارا جائز بأن كان الإنسان في مجاعة وليس مائلا لإثم فلا هو آكل فوق الشبع كما قال فقهاء العراق ، ولا متعرض لمعصية وهو قول علماء الحجاز .

وهذا معنى قوله (فمن اضطر في مخمصة) مجاعة (غير متجانف) غير مائل (لإثم) من أكل فوق الشبع أو معصية (فإن الله غفور رحيم) لا يؤاخذنه بأكله .

ولما أتم الكلام على المحرمات أخذ يذكر ما أحل أكله فقال (يسألونك ماذا أحل لهم) فأجابهم قائلا (قل أحل لكم الطيبات) ما لم تستجنه الطباع السليمة ولم تنفر منه ، ومفهومه أن الستحيات حرام ، فالحلل والحرام تبع الاستحيات والاستطابة .

وقد تقدم في المقدمة أنه يجب أن تكون لجنة إسلامية تبحث في جميع الحيوان ، لما فعنا للزراعة

حرمتنا صيده كما حرمتنا صيد الحرم ، وما يضر أكله طيبا منعاه ، وما خلق للنفعة العامة تركناه كما أوضحناه ، وإذا كانت الاستطابة والاستخبات يرجعان إلى طبائع أفضل رجال العرب ، فلا ن يكونوا أطباء خير وأبقي وأنفع ، وأما قوله تعالى « وما علمتم من الجوارح مكلين - إلى قوله - وهو في الآخرة من الخاسرين » فقد تقدم تفسيره في المقدمة .

معجائب القرآن

زيادة إيضاح « ورضيت لكم الإسلام دينا »

يقول الله فيما تقدم « ورضيت لكم الإسلام دينا » ومعلوم هناك أن كون الدين عند الله الإسلام سببه أنه قائم بالعدل في الخلق والنظام ، فلا بقاء لأمة بلا عدل ولا نظام ، مؤمنة كانت أو كافرة والحيوان والعدن والسماوات والأرض لقيام لها إلا بحسن النظام ، فأخذ يذكر هنا القسط والعدل في أفعال العباد ليكون على وفق نظام الله ، كما قال الله تعالى في سورة الرحمن « والسماء رفعها ووضع الميزان ألا تظنوا في الميزان » فهو هناك يقول : وزنت كل شئ ونظمته لأجل أن تعدلوا وتنظموا ، وهنا يقول « رضيت لكم الإسلام دينا » قوموا بالقسط والعدل الذي كان سببا في آتى شهدت وشهد العلماء والملائكة أن الدين هو الاتياد والإخلاص لمن أبدع النظام ، فتنظموا كما نظم وتعدلوا كما عدل وتكونوا متخلقين بأخلاق الله .

المقصد الثاني

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ
وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ
مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا
صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ، مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ
وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَنَّانُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ *
وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْتَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ *

فأما قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة) إلى قوله (وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون) فقد تقدم في المقدمة ، وأما قوله (واذكروا نعمة الله عليكم) من الصحة والمال والحياة وتسخير السموات والأرض ومنها الطهارة والصلاة والأحكام الشرعية المذكورة ، فإن الله يذكرنا بذلك كله (وميثاقه الذي واثقكم به) يعنى الميثاق الذى أخذه على المسلمين حين بايعهم النبي صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة فى العسر واليسر والمنشط والمكره (واتقوا الله) فيما أخذ عليكم من الميثاق فلا تنقضوه (إن الله عليم بذات الصدور) أى بما فى قلوب عباده من خير وشر .

واعلم أنه سبحانه ابتدأ السورة بطلب الوفاء بالمقود وأخذ يذكر كثيرا منها ، فنها الحلال ومنها الحرام ، ثم ختمها بتذكيرهم بالميثاق مرة أخرى .

ولما أتم الكلام على المهدي والميثاق فى الحلال والحرام فى بهيمة الأنعام أخذ يذكر معاملات الإنسان مع الناس ، وأنه يجب أن يكون المرء عدلا فى شهادته ، فلا يشهد لقريبه ولا على عدوه بل الشهادة تكون على وجهها .

وهذا قوله (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا) أى ولا يعملنكم شدة بغضكم للشركيين على ترك العدل فيهم ، فتعدوا عليهم بارتكاب ما لا يحل كقتل نساء وصبية ونقض عهد تشفيا بسبب ما فى قلوبكم (اعدلوا هو أقرب للتقوى) أى العدل أقرب للتقوى ، وهذا أمر بالعدل .

وإذا كان العدل يجب أن يكون مع الكافرين ، فكيف يكون الأمر مع المسلمين ؟ (واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون) والتكرار لمزيد الاهتمام (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر عظيم) وقوله « لهم مغفرة وأجر عظيم » دال على القبول الثانى لوعده ، ولما كان أحد الفريقين يذكر بعد الآخر أتبعه بقوله (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) ثم أخذ يذكر للمسلمين نعم الله عليهم بالنجاة مما دبر لهم من الكيد .

ذلك أن الشركيين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا بعسفان إلى الظهر معا ، فلما صلوا ندموا على أنهم لم يفاجئوهم بالقتل مرة واحدة وهموا أن يوقصوا بهم إذا قاموا إلى العصر ، فرد الله عليهم كيدهم .

وأىضا أتى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خلفاؤه الأربعة قريظة يستقرضهم لدية مسلمين قتلها عمرو ابن أمية الضمري بحسبها مشركين فقالوا نعم وأكرموه ظاهرا وعمد عمرو بن جحاش إلى رضى عزيمة يطررها عليه فأمسك الله يده فنزل جبريل فأخبره فخرج .

وأىضا نزل النبي صلى الله عليه وسلم منزلا وعلق سلاحه بشجرة وتفرق الناس عنه فجاءه أعرابي فسل سيفه ، فقال من يمنعك منى ؟ فقال الله : فأسقطه جبريل من يده فأخذته الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : من يمنعك منى ؟ فقال لأحد : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ، فنزل قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) انتهى القصد الثانى .

المقصود الثالث

ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نبييا ، وقال الله اني
 معكم لن اقم الصلاة واتيتم الزكاة وامنتم برسلي وعززتموهم واقرضتم الله
 قرضا حسنا لا كفرن عنكم سيئاتكم ولادخلتكم جنات تجري من تحتها الأنهار
 فن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل * فبما تقضيهن ميثاقهم لعناهم وجعلنا
 قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولا تزال تطلع
 على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح ان الله يحب المحسنين * ومن الذين
 قالوا انا نصارى اخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم المداوة والبنضاء
 الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون * يا اهل الكتاب قد جاءكم
 رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويمفوا عن كثير ، قد جاءكم
 من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من
 الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم * لقد كفر الذين قالوا ان الله هو
 المسيح ابن مريم قل فن يملك من الله شيئا ان اراد ان يهلك المسيح ابن مريم وأمه
 ومن في الأرض جميعا ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على
 كل شيء قدير * وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يمدبكم
 بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويمدب من يشاء ، والله ملك
 السموات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير * يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا
 يبين لكم على فترة من الرسل ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير
 ونذير والله على كل شيء قدير * وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم
 إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدًا من العالمين * يا قوم
 ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على آذيباركم فتنقلبوا خاسرين

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنُودُكَ بِهِمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا
فَإِنَّا دَاخِلُونَ * قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ ، فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ، وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنَنُ
نُدْخِلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي
لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ * قَالَ فَإِنَّهَا حُرْمَةٌ عَلَيْهِمْ
أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ .

اعلم أن هذا القصد مملوء بالعجب غاص بالحكم ، ذكر أخبار بني إسرائيل إذ خرجوا من مصر وكيف
رعدم الله أن يملكهم الأرض المباركة ، وقد أرسلوا اثني عشر رجلا منهم فرأوا الأرض المباركة فرجعوا وفي
أيديهم النخز ، فلما رأوهم قد مدحوا تلك الأرض تركوا هذا الخبر وجبنوا وأصغوا لأقوال الرجس المحرفين
وقالوا لا طاقة لنا بقتال القوم فأقام الله أربعين سنة كما سأله لك من نفس التوراة ، فهؤلاء بنو إسرائيل
عصوا ربهم وجبنوا عن الحرب ولم يوتوا بالميثاق ، فلما عصوا أذلمهم الله فأقام أربعين سنة ولم يدخل الأرض
القدسة إلا أبناءهم .

هكذا يكون حال المسلمين الذين أعطوا ميثاق الله بقبول القرآن وأمروا في أول هذه السورة أن يفوا
بالمهود فقيل لهم « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود الخ » وسرد العقود والمهود ثم أخذ يذكر ما فعله
بنو إسرائيل إذ أخذ عليهم العهد والميثاق غالفوا العهد فخرجوا من الأرض المقدسة ، وهكذا النصارى لم يفوا
بمهودهم فأوقع الفشل بينهم وجعلهم فرقا متشاكسة وألقى بين دولهم المداوة والبغضاء إلى يوم القيامة ،
وذلك لأنهم قالوا : إن الله هو المسيح ابن مريم مع أن المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة تحت رحمة الله ،
فلو شاء لأهلك الأرض ومن عليها بأى علة من العلة السماوية أو كوكب يقترب منها فهلكها .

ومن هو المسيح ؟ ومن هي أمه ؟ ومن هم أهل الأرض ؟ وما الأرض التي هم عليها إلا من المخلوقات
للتأخرة التي ليست أعظم المخلوق ولا أكبر الأرضين ، وهم في الكون من شمس وأرض قد تبلغ ثلثائة
مليون أرض على حسب ما استنتجه الإنسان اليوم ، فكيف يكون عيسى ابن مريم الذي هو في أرض ضئيلة
ضعيفة إلها ، إن هذا لمحب عجاب وجهل عظيم !

هذه هي ذنوب اليهود والنصارى معا ، ثم أخذ يقرعهم جميعا أي اليهود والنصارى ، ويقول أيها اليهود
أيها النصارى ، كيف تدعون أنكم أبناء الله وأحباؤه ؟ وبأى وجه تقولون هذا القول ؟

خبروني إذا كنتم صادقين في قولكم ، فلماذا يكون عقاب على الذنوب ؟ فالهون لا يعاقبون ، ولقد قلت
لكم إن من في الأرض جميعا ليسوا شيئا يذكر في جانب السموات والأرض ، أهل الأرض مغترون وأبن
أرضكم ومن عليها ؟ بل أتم بشر من خلقى فأغفر لمن أشاء وأعذب من أشاء .

لقد طال عليكم الأمد وقتت قلوبكم وطالت الأيام على أديانكم ، فما أناذا أرسلت لكم رسولا يبشركم
وينذركم ، ثم ختم هذا القصد بإتمام الكلام على عيسى بن إسرائيل لموسى ولم يشأ أن يطيل الكلام على
النصارى لأن بنو إسرائيل أصحاب التوراة وهم أصعب مراسا ، فقال اذكر يا محمد خبر موسى إذ قال لقومه

اذكروا نعمة الله عليكم إذ أعطاكم نعماً لم يعطها أحداً من العالمين ، كيف تجبنون وتخافون من دخول الأرض المقدسة ؟ فقالوا « إن فيها قوماً جبارين » الخ الآيات .

هذا ملخص موجز لهذا المقصد سأوضحه لك الآن من نفس التوراة .

ولعمرك ليس يريد الله من هذه الحكايات ولا الأحاديث سرد تاريخ اليهود ودخولهم الأرض المقدسة . ولم يرد قط سبحانه وتعالى أن يفهمنا مافعله التصاري مجرد إخبار ، فلم يقصد إلا أمر المسلمين تذكيراً لهم يقول الله تعالى : أيها المسلمون انظروا في أمر بني إسرائيل كيف جبنوا عن قتال الجبارين طرمتهم الأرض المقدسة وتمتع بها أبناؤهم الشجعان ، ويقول : كيف نظر الناس إلى المسيح نظر الإله ؟ فمن هو المسيح ؟ وما هي الأرض ، ومن أتم ؟

يقول الله : جعلت التصاري فرقا بينها حرب شعواء ، وقد حصل ذلك في أوروبا فقد اقتتلوا أجيالاً وتحاربوا أعواماً لأجل الدين والعقائد .

وهذا معنى قوله « وألقينا بينهم العداوة والبغضاء » يقول الله إذا اختلف الناس في الأمور العظيمة والعقائد العالية أوقعت الحرب بينهم كما فعلت في التصاري ، وإذا عصوا ربهم وجبنوا حرمتهم التمتع بالسعادة في الدنيا كما حصل من اليهود خافوا دخول الأرض المقدسة جبناً فأوقفهم بطور سنياء مدة طويلة لأريهم ، هكذا المسلمون لما اختلفوا في العقائد ودخلت الشكوك بينهم ذاق بعضهم رأس بعض واقتتلوا على الخلافة والإمامة ، ولما جبنوا سلطت عليهم الفرجة لأهدبهم كما هدبت بني إسرائيل بالتيه وبقائهم به أربعين سنة .

فلمعرك لم تكن هذه القصص لمجرد التاريخ وماذا يهم المسلمين من ذلك ، لا يهم المسلمين إلا التحلل والتفكير .

أيها المسلمون كفوا عن السير الذي أتم عليه ، إن هذه القصص جاءت لكم أتم فليقم منكم علماء وليتركوا تلك البدع والجهالات ، فلقد ظن قوم أنهم وصلوا للألوهية من طوائف المتصوفة ، وآخرون أخذوا يتفخرون بالدين أو بالطرق التي اتبعوها ، وكل يدعي أنه أولى بالله ، ولكن الله يقول على رهوس الأشرار إنى لن أعبأ بأرضكم ومن عليها فانركوا هذه الشتاوي واعلموا أنكم عبيد خاضعون ، فاعملوا صالحاً ودعوا الكبرياء .

وإذا عرفت المقصود من هذا المقصد فتعال أسمعك ماجاء في التوراة في هذا المقام .

قال في سفر العدد : الإصحاح الأول : وكلم الرب موسى في بركة سيناء في خيمة الاجتماع في أول الشهر الثاني في السنة الثانية لخروجهم من أرض مصر قائلاً : احصوا كل جماعة بني إسرائيل بشأركم .

وهنا ذكر تعدادهم سبطاً سبطاً قبيلة قبيلة ، ثم قال هؤلاء هم المعدودون الذين عدتم موسى وهارون ورؤساء بني إسرائيل اثني عشر رجلاً رجلاً واحد لبيت آباءه ، فكان جميع المعدودين من بني إسرائيل حسب بيوت آباؤهم من ابن عشرين سنة فصاعداً كل خارج للحرب في إسرائيل ، كان جميع المعدودين ستائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين ثم لم يعد إلا وبين منهم .

وقال في الإصحاح الرابع والثلاثين : وكلم الرب موسى قائلاً أوص بني إسرائيل وقل لهم إنكم داخلون إلى أرض كنعان ، هذه هي الأرض التي تقع لكم نصيباً أرض كنعان بتخومها الخ .

ثم سمى في هذا الصحاح الرجلين اللذين يقسمان الأرض بين بني إسرائيل وهما : (العليزر الكاهن ويشوع بن نون) وهكذا رئيس واحد من كل سبط ، وذكر من سبط يهوذا (كالب بن يفتة) .

وقال في الإصحاح الذي قبله : إن هارون مات في السنة الأربعين لخروج بني إسرائيل من أرض مصر في الشهر الخامس في اليوم الأول من الشهر ، وكان هارون ابن مائة وثلاث وعشرين سنة حين مات في جبل (هور) .

وقال في سفر (التثنية) قال في الإصحاح الأول : ففي السنة الأربعين في الشهر الحادي عشر في الأول من الشهر .

كلم موسى بني إسرائيل حسب كل ما أوصاه الرب إليهم بعد ما ضرب سيحون ملك الأموريين الساكن في خشبون وعوج ملك باشان في عبر الأردن في أرض موآب (قد جعلت أمامكم الأرض ادخلوا وتملكوها الأرض التي أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلمهم من يدهم) وهنا ذكر لهم أنه جعل منهم قضاة يقضون بينهم الخ .
ثم أخذ يوعظهم بكلام طويل ملخصه :

أن الرب قال لا تخف ولا تتردد وادخل أرض كنعان ، فلما سمعتم ذلك مني قلتم نرسل منا ١٢ رجلا ليدخلوا تلك الأرض ويتجسسوا فصعدوا الجبل وأتوا إلى وادي (أشكول) وتجسسوه وأخذوا في أيديهم من أعمار الأرض وزلوا به إلينا وردوا لنا خيرا ، وقالوا جيدة هي الأرض التي أعطانا الرب إلينا لكنكم لم تشاءوا أن تصعدوا وعصيتم قول الرب إليكم وتمررتم في خيامكم وقتلتم الرب بسبب بغضته لنا قد أخرجنا من أرض مصر ليدفعنا إلى أيدي الأموريين لكي يهلكنا ، إلى أين نحن صاعدون ؟ لقد أذاب إخواننا قلوبنا قائلين : شعب أعظم وأطول منا مدن عظيمة محصنة إلى السماء ، وقد رأينا بني عناق هناك ، قتلتم لكم لانزعابوا ولا تخافوا منهم ، وهكذا أخذ موسى يذكرهم أن الرب قد نظر لكم نظر رحمة في مصر فهو لا ينسأكم ، فلم يقد الكلام فيكم فسخط الرب عليكم وأقسم قائلا : لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التي أقسمت أن أعطيها لآبائكم ماعدا (كالب بن يفته) وعلى أيضا غضب الرب لسيبكم قائلا : وأنت أيضا لا تدخل إلى هناك يشوع بن نون الواقف أمامك هو يدخل إلى هناك فتشده الخ ، وأما أطفالكم الذين لم يعرفوا الحبر والشر فهم يدخلون إلى هناك وهم يملكونها ، وأما أتم فتحولوا وارتحلوا إلى البرية على طريق بحر سوف .

ثم ذكر هنا أن موسى رحل بهم وبقى في البرية ثمانيا وثلاثين سنة حتى فنى كل الجيل ، وحينئذ أمر موسى بالحرب ففعل وقابلهم ملك يقال له عوج وهو ملك باشان فغلبه موسى وأخذ أرضه لبني إسرائيل .

ثم قال في الإصحاح الثالث من التثنية : وتضرعت إلى الرب قائلا : يا سيد الرب دعني أعب وأرى الأرض الجيدة التي في عبر الأردن . هذا الجيل الجيد ولبنان ، لكن الرب غضب على بسببكم ولم يسمع لي بل قال لي الرب كفاك لا تمد تكلمي أيضا في هذا الأمر . إلى أن قال لا تتردد هذا الأردن ، وأما يشوع فأوصه وشده لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يقسم لهم الأرض التي تراها .

تذكيرهم بالنعم

ثم قال : فاسأل عن الأيام الأولى التي كانت قبلك من اليوم الذي خلق الله فيه الإنسان على الأرض ومن أقصاء السماء إلى أقصائها . هل جرى مثل هذا الأمر العظيم ؟ أو هل سمع نظيره ؟ أو هل شرع الله أن يأتي ويأخذ نفسه شعبا بتجارب وآيات ومعجائب وحرب ؟ مثل كل ما فعل لكم الرب إليكم في مصر أمام أعينكم إنك قد رأيت لتعلم أن الرب هو الإله ليس آخر سواء الخ .

وهذا كله هو وغيره تذكير بالنعم وهو ما يقوله الله هنا « اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين » .

حكمة هذه التجارب

في الإصحاح الثامن من التثنية

أفاد في هذا الإصحاح أن الأربعين سنة التي قضاها في القفر لينظم بالجوع والعطش وليأكلوا المن الذي لم يأكله آباؤهم ، وذلك لفائدتين : الأولى أنهم يعرفون أنه ليس يعيش بالخبز وحده بل بكل ما يخرج من فم الرب يحيي الإنسان .

وقال فيه : فاعلم في قلبك أنه كما يؤدب الإنسان ابنه قد أدبك الرب إلهك .
ثم وصف الأرض التي وعدم بها وذكر جناتها وأغابها وزيتها وعسلها وحديدتها ونحاسها ، ووصى أن لا ينسى الرب وحذرهم من نسيانه إذا شعبوا ، ولتذكروا أن الله هو الذي أخرجهم من أرض مصر في ذل العبودية وحكم عليهم بالعطش والجوع في البرية وسقام من الماء التابع من الحجر .
ثم قال : (لكي يذكرك ويحربك لكي يحسن إليك في آخرتك ؛ ولتلا تقول في قلبك قوتى وقدره يدي استطعت لي هذه الثروة بل اذكر الرب إلهك) انتهى ملخصا مختصرا من التوراة .
لقد ظهر لك مقصود هذه الآيات من التوراة ؛ فلا تذكر لك تفسيرها اللفظي ومطابقتها للحقائق ، فأقول :

قوله (ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل) أى كما أخذ الميثاق على المسلمين فأولئك بالتوراة وهؤلاء في القرآن كما في أول السورة فهذه سورة المهود والوثائق (وبثنا منهم اثني عشر نقيبا) شاهدا ، هم الدين أرسلوهم ليتقوا ويفتشوا في أرض كنعان ، من كل قبيلة واحد وهكذا في كل أمر كان يؤخذ من كل سبط واحد يقوم مقام إخوانه وهذا شرحناه فيما تقدم من نفس التوراة (وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة) إلى قوله (فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل) وهذا الميثاق وأمثاله أخذ على المسلمين ، وفي هذه السورة ١٨ ميثاقا جديدة لم تكن في السورة السابقة ، وقوله (فما تقصم ميثاقهم) ما زائدة للتأكيد (لعنهم وجعلنا قلوبهم قاسية) ولذلك (يعرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به) عرفوا الكلام المنزل في التوراة وتركوا نصيبا مهما منها (خائنة) فرقة خائنة (إلا قليلا منهم) لم يخونوا وهم الذين آمنوا ، ثم قال (و) أخذنا (من الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا) من غرى بالشئ لصق به (بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) بين فرق النصارى ومنهم نسطورية ويعقوبية وملكانية وفرق أخرى كالبروتستانت والأرثوذكس اللتين ظهرتا بعد نزول القرآن ، ومن المسيحيين من ينكر وجود المسيح ومنهم من يرى أن هذه روايات وأباطيل وكل هؤلاء من نفس النصارى اتصلوا من الدين ، وقوله (مما كنتم تحفون من الكتاب) كنتم محمد صلى الله عليه وسلم وآية الرجم في التوراة وبشارة عيسى بمحمد صلى الله عليه وسلم كما تقدم في إنجيل برنابا وقد أخفى ذلك الإنجيل عمدا كما وضناه في سورة البقرة (ومفوء عن كثير) فلا يفصحكم بإظهار ما كنتمتموه عن شعوبكم (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) هو القرآن (سبل السلام) طرق السلامة من العذاب (الظلمات) الكفر ، و (النور) الإسلام (بإذنه) بإرادته (صراط مستقيم) طريق هو أقرب الطرق (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) هم الذين قالوا بالألحاد منهم ، يعنى أن الله قد حل في بدن عيسى ويقولون الأب والابن والروح القدس إله واحد وأنت تعرف أن هذه سرت للمسيحيين من الإنجيل الهندي فإن رأيتهم يعنى رأسى وقد وازن المسيحيون بينه وبين بعض الأناجيل فلم يجدوا إلا فرقا بسيرا بلا تصرف فيه وفيه التثليث والصلب وقد كان تاريخه قبل المسيح بنحو أربعة آلاف سنة وستراه مفصلا في آخر هذه السورة ، وقوله (قل لمن يملك من الله شيئا) أى فمن يمنع من قدرته وإرادته ؟ .

بهذا بين عجز البشر واعتراهم بأنبيائهم وأن الله له من في السموات ومن في الأرض وقد تقدم ثم أخذ يوبخ الطائفتين اليهود والنصارى إجمالا بعد التفصيل فقال (وقالت اليهود والنصارى الخ) يقول إن اليهود قالوا إن الله أوحى إلى إسرائيل أني أدخل من ولدك النار فيكونون فيها أربعين يوما حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم ثم ينادى مناد أن أخرجوا كل محتون من ولد إسرائيل فيخرجون .

وقالت النصارى إن المسيح ابن الله والمسيح منهم فقالوا نحن أبناء الله لهذا السبب والمسيحيون أيضا لما سمعوا قول المسيح : أذهب إلى أبي وأبيكم وأيضا يقرءون في صلواتهم يا أبانا الذي في السماء ليتقدس اسمك ظنوا أن البنية كبنية الناس وأن الأب ينمهم على فراش الراحة ، فقال الله لهم : لا هذه ديانات تغيرت (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بين لكم على فترة من الرسل) أي جاءكم على حين فتور من الإرسال وانقطاع من الوحي كراهة (أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير الخ) .

وقد قيل كان بين موسى وعيسى ألف وسبعائة سنة وبين عيسى ومحمد صلى الله عليه وسلم ستمائة سنة ، ثم قال (وإذ قال موسى لقومه) شرع يكمل قصص بني إسرائيل إذ خرجوا من أرض مصر (يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء) فأرشدكم وشرفكم وقد تقدم ملخصه من التوراة منقولاً من سفر التثنية (وجعلكم ملوكاً) أي وجعل منكم ملوكاً (وأتاكم ما لم يؤت أحداً من العالمين) كما قال في سفر التثنية للتقدم من اليوم الذي خلق الله فيه الإنسان على الأرض ومن أقصاء السماء إلى أقصائها هل جرى مثل هذا الأمر العظيم وهل سمع نظيره الخ فهذا هو معنى الآية هنا (يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة) ولقد عرفتها وهي ما بعد نهر الأردن التي منع موسى من دخولها ووعد بها فتاه (التي كتب الله لكم) قسمها لكم (ولا تردوا على أدياركم) ولا ترجعوا مدبرين خوفاً من الجبابرة (فتقلبوها خاسرين) ثواب الدارين (قالوا يا موسى إن فيها قوم ماجبارين) لاتأتى مقاومتهم وقد تقدم إيضاحه في التوراة (وإننا لن ندخلها حتى نخرجوا منها فإننا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أي يخافون الله تعالى وهما كالب ويوشع (أنعم الله عليهما) بالإيمان والثبات (ادخلوا عليهم الباب) باب قريتهم (فلذا دخلتموه فإنكم غالبون) كما جاء في الوحي لموسى .

وأما قوله (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) إلى قوله (إننا هنا قاعدون) فهو مفهوم ، ويقصدون من قولهم (أذهب أنت وربك) الاستهانة بالله ورسوله فبث شكواه إلى الله ، و (قال رب إني لأملك إلا نفسي وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها) أي الأرض التي وعدوا بها (محرمة عليهم أربعين سنة) لا يدخلونها حتى يفتى هذا الجيل الجاهل الشرير (بتيهون في الأرض) يسيرون فيها متحيرين (فلا تأس على القوم الفاسقين) .

لقد فسرت لك الآيات في هذا المقصد تفسيراً ينطبق على الحياة الاجتماعية الإسلامية وقلت إن المسلمين عاهدوا الله وبنو إسرائيل عاهدوه أيضاً ، فأما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا موسى وجنوا عن محاربة الكنعانيين حرّمهم الله ولم يدخل البلاد إلا بأناؤهم ، وهكذا النصارى تغالوا في الدين وتفاخروا بقربهم من الله فجعلهم فرقا متشاكسين الخ ، وأزيد الآن إيضاحاً للمقام فأقول :

أيها المسلمون في أقطار الأرض لم ينزل القرآن لمجرد التلاوة ، احذروا احذروا وهذه القصص لا تقصد لتعيرنا مالنا وللأمم السابقة إنما قصصهم عبرة والعبرة هنا أن بني إسرائيل قست قلوبهم وهكذا المسلمون قست قلوبهم وغلظت نفوسهم فانكبوا على الفقه عاكفين وظنوا أن مذاهبهم هي كل شيء في الدين فنسوا جمال الله في الأرض والسموات وجهلوا خلق الكائنات فأذلتهم الفريضة لأنهم جاهلون وقتلهم لأنهم تأمنون . ولما طغوا في العقائد وتفرقوا فرقا أوقع العداوة فيما بينهم كما حصل للنصارى ثم زاد المسلمون التأخرون

فتناولوا في الإسلام وجعلوا أن كل من انتسب إليه فهو ناج ففعلوا كافعل اليهود والنصارى ، وكأنهم أيضا يقولون نحو أبناء الله وأحباؤه ، وهذا هو الفرور الباطل كما تقدم في سورة النساء « ليس بأمانكم ولا أمانى أهل الكتاب » فهذه الآية التي هنا وهي آية المسيح يراد بها أن لا يتخالى المسلمون في الاعتزاز بالدين وإنما لكل امرئ ما كسب وعليه ما كتسب ؛ هذا هو القصد من هذه الآيات .

وأيا يفيدنا الله قائلا : أيها المسلمون إذا رأيتم الأعداء حلوا باحتكم فاعلموا أن الذي يخرجهم إنما هو الصبر والقوة والجلد والمزمنة وأن يظهر جيل جديد يخرجهم وأن من يعيشون في نعم وترف أحكم عليهم بالهلاك والدمار .

أما أولئك الذين يعيشون في شظف العيش فإنهم أقوياء البنية يمتدون نشاطهم ويرجعون مجدهم ويرفعون لواءهم .

وكانه يقول : أيها المسلمون إذا رأيتم هذا الجيل خاضعا للفرنجية ؛ فربوا أولادكم على الشهامة والبرودة كما ربيت بني إسرائيل في الصحراء تقوية لأبدانهم وتمويدا لهم على الاحتمال والصبر .
وإن شئت فاقرا هذا القام في سورة البقرة عند قوله « أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير » ثم ذكر أنهم ضربت عليهم الذلة والمسكنة ؛ فاقرا هذا الموضوع هناك فإنه مستوفى ، ولكن هنا بعض زيادات نافعة فانهم ، اه القصد الثالث .

المقصد الرابع

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ، إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ، فَتَقَبَّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا ، وَلَمْ يَتَّخِذْ مِنَ الْآخَرِ ، قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطْتَ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِغْمِي وَإِغْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَيَّعَتَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْعَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُخَبِرَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ * مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ .

التفسير اللفظي لهذا المقصد

يقول الله (واتل عليهم) يا محمد (نبأ) قاييل وهاميل (ابني آدم) اللذين أوحى الله إلى آدم أن يزوج كل واحد منهما نواًم الآخر أى التي ولدت معه من بطن حواء ، وكانت حواء تلد في كل بطن اثنين ذكرا

وأنتي ! فأما هايل فرضى ، وأما قايل فسخط لأن توأمه كانت أجمل من توأم هايل التي حكم عليه أن يتزوجها ، حكم عليهما آدم أن يقربا قربانا فمن نزلت نار من السماء فأحرقت قربانه فهو القبول وهو الذي يتزوج هذه الجميلة ، قبل الله قربان هايل فابتلته النار فآزاد قايل سخطا . ويقال إن ابن آدم رجلان من بني إسرائيل ، وسواء كان هذا أو ذلك فإن الله أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتلو علينا نأها (بالحق) أي تلاوة ملتبسة بالحق (إذ قربا قربانا) الظرف متعلق بنأ .

وكان قايل صاحب زرع وقرب أردأ القمع ، وهايل صاحب ضرع فقرب جملا سينا (فقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر) لأن قايل غير مخلص النية (قال لأقتلك) حسدا لقبوله عند الله وزواجه بالحسنة (قال) في جوابه (إنما يتقبل الله من التقيين) فأنا يتقواي قبل قرباني ، فلتجهد مثل لي قبل قربانك ولا تمول على إزالة النعمة عني لأن الله جعل الدنيا دار جهاد فكن مثلى ولا تعزم على إهلاكى ، وأنا قادر على إهلاكك ولكنى لأفعل امتثالا لأمر الله ، والله (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بإسقط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين) فأنا وإن كنت أقوى منك بمنعنى خوف الله تعالى من الإقدام على قتلك فلا ضعف عندي وإنما هو ديني (إني أريد أن تبوء بإيمى وإيمك) أى ترجع بعقاب ذنبى بعقابك لى وعقاب ذنبك بمصاصيك (فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت) سهلت ووسعت من طاع له المرع إذا اتسع (له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين) دينا ودنيا ، ولما قتله تحير في أمره ولم يدر ما يصنع به فبعث الله غرايين فاقتلا قتل أحدهما الآخر بمنقاره ورجليه ، فحفر له بمنقاره ورجليه ثم ألقاه في الحفرة (ليريه كيف يوارى سوءة أخيه) ليرى الله أو القراب قايل كيف يوارى جسد أخيه هايل ، ولما رأى ذلك (قال يا ويلتا) كلة جزع ونحسر (أعجزت أن أكون مثل هذا القراب فأوارى سوءة أخى؟) أى فأستر جيفته وعورته عن الأعين (فأصبح من النادمين) لأنه ندم على قتل أخيه لأنه لم ينتفع بقتله وسخط عليه أبواه (من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس) أى بغير قتل نفس بوجب الاقتصاس (أو فساد فى الأرض) أو بغير فساد فى الأرض كالشرك أو قطع الطريق (فكأما قتل الناس جميعا) من حيث إنه هتك حرمة السماء وأنه سن القتل وجرأ الناس عليه (ومن أحيأها فكأما أحيأ الناس جميعا) أى ومن تسبب لبقاء حياتها بغيره أو منع عن القتل أو استنقاذ من بعض أسباب الملكة فكأما فعل ذلك بالناس جميعا (ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك فى الأرض لمسرفون) أى بعد ما كتبنا عليهم هذا التشديد العظيم من أجل أمثال تلك الجناية وأرسلنا إليهم الرسل بالآيات الواضحات لى يخافوا ، أسرف كثير منهم فى القتل وتباعدوا عن الاعتدال فيه .

سئل الحسن عن هذه الآية أى لنا كما كانت لبني إسرائيل ؟ فقال إى والله الذى لا إله غيره ما كانت دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دماتنا ، اه التفسير اللفظى .

التفسير الحقيقى على مقدار الطاقة

بينما أكتب هذه الكلمات إذ حضر عندي فاضل من الأذكياء واطلع على ما كتبتة فقال : لم أورد الله هذه القصة وأنت تعلم أن عقول الناس ليس عندها متسع لمثل هذا ؟ وما المناسبة بين ما تقدم وبين القصة ؟ وما لنا ولآدم وبينه ونحن فى القرن العشرين ؟ فما فائدتنا والمدنية الحاضرة قد رقت الأم ونحن نرجع إلى أشياء كانت فى القرون الأولى ولا ندري ماذا فعل الزمان بها ؟ وما فائدة ذكر القراب وحسد ابن آدم ؟ إن الشك والكفر يرفرفان على عقول جميع التطمين الأذكياء فى البلاد الإسلامية ؟ فإن لم تأت بجواب شافى

فإني قلت لك الحقيقة ناصحة بيضاء ، وأنت تعلم أن ديننا هو آخر الأديان والله يظهره على الدين كله ، أبعث
 دفن التراب يظهره على الدين كله ؟ وهذا عصر الكهرباء والبخار والطيارات والمعجائب والكشف الحديث
 فأين العلوم وأين المعارف وأين عجائب القرآن ؟ .

فقلت له : لو لم يكن في القرآن سوى هذه القصة لكفت في الإعجاز والسوق إلى ما فوق للدين الحاضرة .
 إن هذه القصة لا تنفع بالمدنية الحاضرة ، إنها ترمي إلى أشياء لم يعلمها البشر ، هي تشير إلى أن الناس تأمنون
 وبالفكر في أمثال هذا القول يستيقظون .

هذه الآية فتحت باب السعادة الإنسانية والمحبة الأخوية واللوات الآدمية والإخلاص وإشراف القلوب
 ونزع ما في الصدور وارتقاء سائر نوع الإنسان مسلمين وغير مسلمين ، ولكنها في الوقت نفسه توجب للمسلمين أشد
 توبيخ وتقرعهم أعظم تقرع . وتطلب من النوع الإنساني أن يصل إلى منتهاه وأن يرقى إلى أقصى مداه .
 فقال ذلك الفاضل : إن ما تقوله لي الآن أشبه بأقوال الصوفية في هذا العصر الذين يمدحون الدين
 ولا يأتون سرا من أسرارهم ولا نبأ من أحوالهم . وإنما هي كلمات يتلقفونها ، وأقوال يزخرفونها ككبار
 كابر ، وإذا سألتهم : أين تلك العجائب ؟ ظهر عجزهم وضلوا سواء السبيل ؟ فأفصح ما قلت .

قلت : الإجابة عن السؤال

ألم يتقدم في هذه السورة الصيد حلاله وحرامه وحل النساء ؟ قال بلى ! قلت ألم يذكر فيها اليهود
 والنصارى وكيف تمالوا في الدين وأن الإسلام قد جاء لإصلاح ما أفسده الزمان من العقائد والمفالات في الدين
 بألوهية الأنبياء أو بغيران الذنوب مجانا لا تنساب الناس إلى الدين ؟ قال بلى ! قلت : أولم أقل إن المسلمين
 لم يذكر لهم هذا إلا ليحترسوا من ذلك التفرق وقد وقعوا فيه فتفرقوا واقتتلوا كما اقتتل النصارى ورجعوا
 إلى التواكل واعتقاد القرآن لأجل الدين كما فعل أهل الكتاب ؟ قال بلى ! قلت له : إن الله جاء بهذه
 القصة التي هي من جملة القرآن لتكون بسببها يداوى به جراح الأمم الإسلامية في هذا الزمان وفي مستقبل
 الزمان .

هذه القصة قصصها الله لهذا ، فقال : وكيف ذلك ؟ قلت : أنت تعلم أن القطرة الإنسانية فيها غريزتان :
 لا ينفك الإنسان عنهما ولا يعيش إلا بهما : إحداها أنه يحب أن يخلص وحده بكل مكرمة ونعمة . فهو أبدا
 يحب أن يكون له سبق والفضل في كل شيء ، في المال ، في الجمال ، في العلم ، في الملك ، في الشهرة ، في الجنة
 في عالم اللاتسكة ، في كل ما يسمعه أو يقرؤه . وثانيها أنه يحب من حوله ويود لو يكون معه قوم كثيرون
 ليساعدوه في أموره ؛ فهو إذن بين متناقضين في القرينة : أولا الاختصاص ، وثانيا الاجتماع ، ولا اجتماع
 إلا حيث يكون الناس لهم حياة ، والحياة ذات عزايا كثيرة ؛ فالإنسان لما كان روحا عالية شريفة أحب
 الأشراف بالعلو ، ولما كانت تلك الروح تنزلت إلى عالمنا الأرضي الضعيف المتأخر وسكنت هذه البنية احتاجت
 البنية إلى المساعدة من الأهل والأقارب وأهل الوطن وسائر أفراد الأمة وجميع الأمم ، وهاتان الغريزتان
 أبدا تتجادلان في الإنسان ، فإن غلبت الأولى وقع الإنسان في الظلم والحسد والكبر وأمثالها ، وإن غلبت
 الثانية ربما أضر بنفسه وتنزل إلى اللذلة والصفار واستسلم للفقر والاحتقار ، فإن اعتدلا اعتدل الإنسان
 وسار سيرا حسنا في حياته مع الناس أجمعين .

فالحاجة إلى اجتماعه بأبناء جنسه حملته على عزايا شريفة كثيرة كالندم على ما يفرط منه لهم والحزن
 والكتابة عليهم وكساعتهم في السراء والضراء وما أشبه ذلك ، فهذه المزايا مفروسة في نفوسنا ثابتة لا يزحزحها
 فلسفة ولا يعدها زخرف من القول زور .

والعقل الإنساني هو الذي يتصرف في هاتين الفرزتين بصيرته حتى لا تنطفي إحداهما على الأخرى فلا حب للانفراد يميننا عن المساعدة الأخوية ولا المهبة الأخوية تصدنا عن حفظ أنفسنا والعمل لإسعادها . قال بلي : أنت ترى أن هذا العقل للتصرف في هاتين الفرزتين ينظر فيما حوله ويتعرف بمجائب هذه الدنيا فيدرس نظامها ويتخذ لنفسه من كل شيء أحسنه فإذا رأى النبات زرعه وجدته في إنعائه أو الحيوان اجتهد في تذليله وتعلم من صناعاته فنسج كالعنكبوت وطار في الطيارات كالطيور وسبح في البحر كالسمك وصنع القناطر على البحار كما تصنع القروود من أنفسها بحيث تجتمع تحت شجرة على شاطئه . النهر ويأتي أحدها ويتعلق بالشجرة ويمسك به آخر وهكذا يمسك بعضها ببعض فيصير منها شبه جسر طويل متصل بعضه ببعض ثم يأتي أسفلها ويمد رأسه إلى جهة الشط الآخر وتتجه جميع القردة المتصلة بعضها ببعض إلى الشط الآخر فما أسرع أن يصل القرد الأسفل إلى شجرة من الجهة الأخرى من النهر ويمسك بالشجرة ذلك القرد الذي كان أدنى وهنا تمت القنطرة التي تصنعها القردة محببة بوضع هندسي ثم تمر القردة الصغار على هذه القنطرة وهن يتمازرن ويضحكن ويمجرن فوق تلك القنطرة القردية فإذا انتهى المرور ثبت القرد الذي في الشط الآخر في مكانه فوق الشجرة متمسكا بها وأزل يديه إلى القرد الذي تمسك بالشجرة الأولى في الشط الأول ومتى ترك الشجرة رأيت هذه القنطرة كلها أصبحت صفا واحدا في الشط الثاني معلقا في القرد الذي استمسك بالشجرة الثانية وحينئذ ما أسهل أن يجرى كل واحد في الأرض القضاء آمنا مطمئنا .

وإذا رأى الرياح والنمل والحشرات تلحق الزرع ولا علم لها به فليقم هو بالإلقاح ليزيد النماء والحير والبركات وإذا رأى الشمس والكوكب أضامت له السبل فإنه يقلد الطبيعة ويأتي بالسرغ التي توقد في منازلها وهكذا يتعلم الإنسان مما حوله كل ما استعدت له نفسه من السعادة أليس كذلك ؟ قال بلي : قلت لتتأمل في الآية الآن : أليست هذه الآية جاءت للبحث في الفطرة الإنسانية الخالصة من كل شائبة ، أليس قتل قاييل لهابيل راجعا للفرزة الأولى ؟ قال بلي : قلت : أليس استسلام هايل لقاييل راجعا للاستسلام للمعاطفة الثانية وإنكار الذات كل الإنكار ؟ قال بلي : وإني معجب بهذا القول ، وأول مرة سمعت هذا في تفسير هذه الآية ، قلت : أليس هايل لما استسلم للمعاطفة الثانية كان جزاؤه القتل من أخيه ؟ قال بلي : وهذا لا يرضاه ديننا ؟ وإن كان دين المسيح يرضاه ، ومع ذلك نرى المسيحيين تركوا هذا كله ، قلت : أليست ترى أن الفرزة والفطرة قد أوجبت عليه أن يندم ويحزن وقد حار في أمره ؟ قال بلي : قلت : ولما لم يهتد إلى مسألة الدفن جاء له التراب فأراه الدفن ؟ قال بلي : قلت : أليس هذا هو فعل العقل وأنه يجب أن يسيطر إما بالتعليم وإما بما يحدثه الله للإنسان من الحوادث التي توقفه في التنبكات فتفتح بصيرته للفهم والتعقل فيدرك الحقائق ، وإذا رأى قاييل غرابا يبحث في الأرض وقت حزنه فقلده ودفن أخاه ؟ فكيف رأى من غراب وحية وأسد ونعلة ونخلة وهو يطلع على مجائبها كل يوم ولا يفكر ولا يعقل ما تفعل ، ولكن لما وقع في النواشب استعمل عقله فنظم مما حوله وهو الغراب ، قال : هذا كلام حسن وجميل ، قلت له : فذلك قال الله إن عاطفة الانفراد لما تخلفت على عاطفة الاجتماع وأصبح الناس يقتل بعضهم بعضا وغلب الظلم عليهم قديما وحديثا حتى نسوا عقولهم ولم يفكروا في أمرهم كتبنا فيها شرعنا في كل دين من الديانات أن القتل إنمى عظيم ، وأن حياة الإنسان شريفة .

قال لم يقل الله ذلك فأوضح ؟ قلت : أليست تعلم مما ذكرناه في أول سورة النساء أن الناس على وجه الأرض كأنهم شخص واحد ؟ وأن بني آدم على ظهر الكرة الأرضية متضامنون وإن لم يعلموا متعاونون وإن لم

يرفوا ؟ وعندى أنه لافرق بين النحل وتلقيحها الأشجار وهي تجهل ذلك أثناء شربها العسل من الزهرات وبين الإنسان ؟ فإن كل أمة تخدم سائر الأمم وهي غافلة عما تفعله بل تحارب كل أمة الأخرى وهم جميعا غافلون نائمون لا يعلمون أنهم بهذا ينقصون الثمرات التي هي خير للجميع ، قال أوضح : قلت : إنك ترى أن القطن في بلادنا المصرية لو حصل في بلاد الصين أو اليابان نكبة وقمر ولم تأخذ من قطننا أفليس ذلك يكون نكبة علينا ؟ قال بلى ! قلت : إذا لم تأخذ نحن معاصر المصريين الشاي الوارد من الصين أو البن الوارد من اليمن أو الثياب المصنوعة في أوروبا أفليست كل تلك الأمم تتأثر وتنقص ثمراتها بنسبة عدم شرائنا ؟ قال بلى ! قلت : أفليست ترى هذا الإنسان السكين تحارب كل أمة منه الأخرى وتقتل رجالها وهم لا يحفلون بتلك المساعدة الحفية ؟ قال بلى ! قلت : فالفيلسوف في الصين والمهند وفي أوروبا والمخترع من هذه الأمم يؤثر في أمته مباشرة وفي الأمم الأخرى إما مباشرة وإما بالواسطة ؟ قال : وكيف ذلك ؟ قلت : فالذي اخترع قطار السكة الحديدية والتلغراف والكهرباء وأمثالها أثر في أمته وفي الأمم الأخرى فعلا ؟ قال نعم ! قلت : لكن العالم والدرس والمهندس وأمثالهم يؤثرون في أمتهم فينفعونها وأمنهم عضو من سائر الأمم تزيد في المجتمع ؟ قال نعم ! قلت : إذن العامل الصغير والفلاح والمزارع كل له عمل في أمته وأمته لها فائدة في جميع الأمم إجمالا ؟ قال : هذا حق ، قلت : هذا معنى الآية .

يقول الله لما غلب الإنسان عن عقله وترك الكبرياء والحسد يطغيان عليه تارة فيقتل سواه وتارة أخرى يقع في التهلكة ولا يستيقظ عقله للتفكير إلا بعد ما يذوق الشدائد كما اتفق لقائل ، أرسلت رسلا وعلمت الإنسان بواسطتهم لأن غريزة الإنسان قد يتركها لهواه ، وتنوم الشهوات عقله تنوعا مغناطيسيا فلا يستيقظ للفكر إلا بعد حلول النوائب ، ومما قلته في ذلك التعليم « أن من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا » لأن الإنسانية متضامنة وهو عضو منها « ومن أحيأها فكأنما أحيأ الناس جميعا » ومثل هذا يظهر في النابيين والمخترعين الذين يظهر فضلهم لسائر الناس وينفونهم جميعا ، ولكن غير النابيين لا ينظرون لمنفعتهم للإنسانية إلا الأقلون .

فعل ذلك يكون كل من قتل من الناس تعطلت منفعتة عن العموم وكل من بقى لمنفعتة للعموم ، قال هذا حسن ولكنه خفي على أكثر العقول .

قلت فإذا قال في أول السورة إن من الصيد ماهو حلال ومنه ماهو حرام ، وقال أحلت لكم صنف كذا من النساء فقد قال هنا :

أيها الناس أنا لم أخلقكم لأجل اللذات ولم تحبوا للشهوات ، وإنما هذه مقدمات يراد بها الحياة ، فإذا تم أن تشغلكم شهوات الصيد عن محائب الطبيعة وغرائب البديعة ، كما ترون في غرائز الغراب من آيات الله والحكمة ، وكيف تعلمت منه ومن غيره من الحيوان ، فاحذروا أن يلهيكم أكل الحيوان وصيده عن الحكمة والعلم فيه ، وكيف يلهيكم هذا وقد قلت لكم إن ابن آدم دعا بالويل والثبور ؟ وقال كيف جهلت علم الطيور ولم أعرف حفر القبور ؟

فعل عقولكم فلتبكووا وعلى ضياع غرائزكم فلتحزنوا ، وكأنه يقول إذا أحلت لكم النساء فليس معناه أن تنفلوا عن العدل كما غفل قائل قتل أخاه لأجل امرأة ، ولكن اعدلوا في أعمالكم لتنظم جماعاتكم وادرسوا علوم الطير والأنعام لتنالوا سعادة الحياة والمات .

وإذا قال الله إن اليهود والنصارى أفرطوا وأسرفوا في عقائدهم ، وفلنا نحن أيضا إن السليبي قد لحقهم فيما وقفوا فيه فذلوا ، فقد قال الله هناك : أيها الناس ارجعوا إلى العقل والتفكير وارجع الناس لعقولهم ويفكروا .

وكأن قاييل تنبيه إلى فعل التراب بعد الألام والتدم .
هكذا من أصابهم العطب ونزل بهم الشقاء من الأم فليزرعوا لعقولهم وليفكروا فيما حولهم وليتأملوا
فيا خلقته لهم .

إن المسيحين لما مسهم الضر بسبب عقائدهم العتيقة جاء الإسلام فحدث وفعل واستنارت عقولهم بسببه ،
فأما الإسلام فإن أهله أصابهم التروور وناموا نوما عميقا فنبههم الله بالمصائب والكوارث ، وقد جاء دورهم
فليتنبهوا .

نداء لامة الإسلام

هذا هو الذى انشرح له صدرى يا أمة الإسلام .
أقول لكم وأنا ملزم أن أقول لكم : أقول لكم : كيف يقول الله على لسان ابن آدم « ياويلتى أمجرت
أن أكون مثل هذا التراب ؟ » كيف دعا ابن آدم بالويل والثبور لجهله ؟ وكيف يقال ذلك ؟ أمجرد حكاية ؟
كلا ! هل يظن المسلمون أن القرآن يأتي لمجرد الفكاهة ؟ كلا ! ثم كلا ! وانظر كيف يقول الله « فبث الله
غرابا يبحث فى الأرض ليريه كيف يوارى سوءة أخيه » الله هو الذى يقول بئس غرابا يعلم ابن آدم وبريه
كيف يوارى سوءة أخيه .

أيها المسلمون إن الأمر عظيم ، تضعع للمسلمون وضعفوا وما نجاتهم إلا بهذه القصة وأمثالها .
هذه القصة تقول إن ابن آدم لما ندم على تفريطه عقل وفهم عن الطير ، وأنا أقول : الله يريد أن يعلمنا
علم ما فى الأرض والسماء ، وما التراب إلا ضرب مثل ، وما الحكاية إلا رمز ، رمز حقا وليس القصد منها
لتفظها ، وإذا كان شراح كتاب كلية ودمنة والوزير الفارسى ، وكذلك ابن القفيع يقولون إن الحكايات
الخرافية التى فيها تكون تسلية للامة وعلما وحكمة وسياسة وفلسفة للخاصة ، أفلا يكون كتاب الله تعالى
أولى بهذا ، فإذا كانت الخرافة تجعل رمزا للحكمة والفلسفة ، فما بالك بكتاب الله الذى قال إنه سيظهر على
الدين كله ؟

إذن للسألة أكبر مما نظن وأعظم مما نفهم . والمسلمون اليوم لهم حصن يلجئون إليه وملجأ وهو
التفكر والتعلل والفهم وجميع العلوم أصبحت هى نفس الدين ولم اختار الله التراب فى التعمير ؟
التراب من الحيوانات القواسق التى ورد الشرع بجواز قتلها كما تقدم ، فإذا كان ابن آدم إذا أخطأت
فكرته يرجع إلى الحيوان بل إلى أقل الحيوان احتراما فى الدين الإسلامى . فكيف يكون الفكر فى باقى
الحيوان وفى علوم الأم وصناعاتها .

نحن أمرنا الله أن نعرف علم الحيوان بل أدنى الحيوان ، فما بالك بعلم الإنسان ؟
فلأقل أنا أيها الأستاذ لك : ولتقل لى : ياويلتنا أمجرتنا أن نعرف ماتعرفه الأم التى حولنا فنوارى سوءة
أمتنا الإسلامية فأصبحنا من النادمين ؟ أمجرتنا أن ندرس جميع العلوم ونعرف كل ماخلق الله ليرينا الله كمال
غرائز الحيوان ؟ ولكن الإنسان يخطئ* ولذلك نرى الإنسان يتعلم من الحيوان وتعلم ابن آدم من التراب ؟
فالحيوان غريزته كافية لحياته والإنسان تدنس الشهوات غريزته ، وبعد ذلك يتعلم من الطبيعة بتعليم الله .
هكذا يقول الله « ليريه » فهو خلق لنا ما حولنا ليعلمنا ولم يخلقنا لنصطاد منه فقط بل خلقه للتعليم ،
وكان الله يقول هل ذكرت فى هذه السورة أن ابن آدم قال ياويلتنا على ضياع صيد أو ضياع الشهوات بل دعا
بالويل للجهل بالأمر الطبيعية .

هكذا جاء الله بالقرآن وارشاد أمة الإسلام .

وإذا كان الله يعلمنا بالقراب ، أفلا يعلمنا بما هو أقرب إلينا من القراب وهم الأمم التي حولنا ؟
هكذا يقول الله تعالى : يقول لا تجهلوا ما حولكم مما علمته للأمم وما خزنته في الطبيعة ورمز لذلك
بتعليم القراب .

قال صاحب ولكن الناس يقولون إن غرامك بالطبيعة وعلومها جعلك تلح في هذه الآيات وتأتي فيها
بما هو بعيد عن الآية ، فهل هذا كله يترتب على قول الله ؟ « ليريه كيف يواري سوءة أخيه » قلت فاسمع
غيرها : قال الله تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة
وذكرى لكل عبد متيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات
لها طلع نضيد ، رزقا للعباد » فانظر كيف ذكر أن هذه الأشياء تكون تبصرة وذكرى وتكون رزقا
للعباد ، وقدم التبصرة والذكرى على كونها رزقا للعباد ، وهذا يدل على عناية الحكمة الإلهية في القرآن أن
يتفكر الناس في علوم الطبيعة والمخلوقات .

فقال : ولكن هذه الفكرة مفهومة من سبعمائة وخمسين آية كما قلت أنت ، فما الداعي إذن
لاستخراجها من قصة كهذه ؟

قلت : المجاز أبلغ من الحقيقة ، وهذه القصة متى عرفها المسلمون على الوجه الذي ذكرناه وبالمنهج
الذي سلكناه تاروا في وجه الجهالة وقاموا للعلم قومة رجل واحد لأن الأمة ليست على بينة من هذا ، فهذا
القصص دلالة أضعف ومنافعه أكل وتأثيره أشد وقطعه أوقع في النفوس وأذهب للبؤس وأجلب للفهم وأقرب
للعلم وأدعى لرجوع الأمة إلى كمالها ونهوضها إلى شرفها العظيم .

نداء إلى علماء الإسلام

حرام على علماء الإسلام أن يندروا الأمة تتخبط في ديجورها وحالك غلامها ، ألم بأن لكم أيها العلماء
أن ترشدوا الأمة لكمالها ؟ ألم بأن لكم أن تهدهم إلى الصراط المستقيم ؟

انظروا كيف استنبط الإمام الشافعي رحمه الله تعالى من آية واحدة من القرآن واردة في غزوة من
الغزوات وهي « فاعتبروا يا أولى الأَبصار » ربح الدلائل الفقهية وهو القياس ، وكيف جعل أبو حنيفة
الاقتصار على الأعضاء الأربعة في آية الوضوء دليلا على أنه لا يجب على الإنسان غيرها ، وكيف جعل الشافعي
الترتيب فرضا لأن الآية ذكرت الأعضاء على هذا النمط .

وانظروا كيف كانوا يدققون في كل صغيرة وكبيرة ، فهل نام الدين بدمهم ؟ وهل عموا وسموا فلم
ينظروا في القرآن ليسدوا هذه الثغرة الإسلامية والحوادث الحربية وللصائب الأوربية الواقعة على الأمم
الشرقية ، فإذا كان أئمتنا بهذه الدقة ، فما بالنا أصبحنا نأثمين ؟ هل على الأعمى عشاة ؟ أم في القلوب مرض ؟
عجب للمسلمين وأى عجب ! كيف نمر عليكم أيها القوم هذه الآية ! يقول الله بشت القراب ليبحث
في الأرض ويحكم وأن ابن آدم تألم لجهله بما علمه القراب ، فكيف يمر هذا القول عليكم وأنتم نائمون ؟
أين أنت يا أبا حنيفة وأين الشافعي ومالك ؟ فليحضروا ليستنجوا لنا من القرآن ، فقد فترت المهمة وماتت
الأمم ولم يبق إلا الرم .

لو كان الشافعي حيا وأبو حنيفة ومالك ورأوا ما نحن فيه لاجتهدوا لنا في الدين ولألزمونا بقرامة نظام
العالمين كما صرفونا الصلاة والركوع والسجود والزكاة وأكثر للعاملات .

لو كانوا يبدون أننا ستكون على هذه الحال لألقوا لنا في هذه الأمور كتبنا كثيرة ، ولكم ما كانوا
لغيب عالمين .

نم ألقوا لنا في العبادات حفظوا أمننا في داخلها جزاءم الله خيرا ولو أنهم اطلعوا علينا في هذا الزمان لأفهمونا أن علوم الكائنات أولى بالرعاية وأحق بالتفعل وأولى بالتفهم ، والتوحيد أفضل من العبادات .
نم ورد عنهم مثل هذا ولكنه لم يكن له أبواب وفصول ؛ والحق أن علوم الكائنات أفضل من العلوم القهفية لأنها دالة على الله عز وجل ولأن فيها نظام الأم وحياتها ، فأصبح اليوم علم التوحيد مأخوذا من الطبيعة وحياتنا موقوفة على الطبيعة ، وتفسير قوله تعالى « فبث الله غرابا يبحث في الأرض » متوقف على الطبيعة .

فليقرأ المسلمون علم الكائنات ليقربوا من رب البريات ، فذلك خير لهم وأحسن تأويلا .

الخزائن الحديدية في القرآن

لقد خزن الله في باطن الأرض القمح واستخرجه الإنسان الآن ، وخزن البترول والنفط والحديد والنهيب وخزن الكهرباء في الجو والماء في الأرض وفي كل شيء وكذا البخار ، كل ذلك خزنه الله ولم يطلع عليه الناس إلا شيئا فشيئا ، وليس الخزن معناه الاختفاء ، كلا ! بل يكون الشيء أمم أعيننا ولا نقل له معنى ؛ فالبخار كنا نراه وأنه يميل إلى الصعود ولكننا ما فكرنا في منفته ، والسلك المسمى بالرعاد كنا نحس بكهربائته ولكننا كنا عنها غافلين ، هكذا القرآن قد ظهر لمامة المسلمين والفقهاء السابقين منه الأعمال الشرعية والتكاليف الدينية ؛ أما الحكم الكونية والعجائب الإلهية فقد كان المسلمون عنها غافلين اللهم إلا أكابريهم وما كان المسلمون لهم بمصنفين ولا لقولهم سامعين .

وها هي ذى آية التراب وكيف ذكرها الله في القرآن ، وقال في هذه السورة قولين في هذا المعنى :

القول الأول : « تعلمونهم مما علمكم الله » والثاني قوله : « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا التراب فأواري سواة أخى فأصبح من النادمين » .

فتارة يقول لنا علما الحيوان مما تعلمت من الله وكلوا مما أمكن عليكم ، وتارة يقول تعلموا من الطير ويقول ابن آدم : يا ويلتنا أبلغ الجهل بي والحق أن أكون أدنى من الحيوان علما وأقل منه فهما وأنزل منه شرطا .

ألست ترى أن هذه خزائن أودعت في القرآن وأفضلها الله كما أقلل خزائن البخار والكهرباء ونحن نراها ، فهذه الآيات تتلى والمسلمون نائمون ، حتى إذا جاء الأوان وساعد الزمان وظهر نوع الإنسان وبرع في الإبتقان فتح الله هذه الخزائن الحديدية الثقيلة وأرانا مجائبها وأطلعنا على جمالها ، وقال قولوا لإخوانكم المسلمين : إن هذه العجائب من دينكم والتفكر فيها أعظم عباداتكم « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ولقد نخزنا أمثال هذه القصة لأمثال المسلمين الآتين بعدكم ، وهذا أوان مجدكم وإتقوا في شمسكم .

فبئرا للناس تبيننا وزينوا لهم مازيناه وأظهروا لهم ماخزناه فهذا أوانه ، وليقم في كل أمة من صلحون وفي كل إقليم مجددون ، فانشروا العلوم وأبرزوها للعموم ، وإذا كان بعض السابقين لم يكن لهم من هذا حظ عظيم ؛ فقد أذن الله ببلوغ المسلمين درجة الإيقان وارتفاع الشأن وقد كانوا بالجهل كسغار الأيتام ، فلما أذن الله بانسراج القلوب للعلوم صاروا أهلا لنيل ماخباهم واستعدوا لاستتار ماغرسه لهم ، إذ صاروا بالفهم كالبالغين ، إن الله لا يسطى إلا المستحقين ويمنع من لا يشكرون النعمة ، وليس يشكرها إلا من يسقلها ، والله هو الولي الحميد .

فتح الخزائن القرآنية والتفرج على عجائبها الحكيمية

في الطيور

لقد كنت ألفت كتابا سميت [جمال العلم] منذ ٢٢ سنة وذكرت فيه من كل نوع من أنواع
المخلوقات عجبا ١

فها أناذا أيها اللبيب أقص عليك منه ما يناسب المقام ، وأذكر عجائب بعض الطيور لتفرج على خزائن الله
التي أذن بإظهارها وفتحها لأبنائنا المسلمين الذين سيوقنون أن الدين الإسلامي جاء لكشف الحقائق وإظهار
الدقائق وإبراز العجائب ، ولتعلم أن أعظم المخترعين وأكبر المفكرين وهم الذين ينفعون النوع الإنساني
سيكونون من المسلمين لإيقانهم أن العلوم الطبيعية قربي إلى الله تعالى وهي علوم ترفع في الدنيا والدين وأن
كل مخترع ومدقق وكاشف ونافع للأمم جميعها بالعلم خليفة الله وهم أولى بهذه الخلافة .
فلا تسمعك ما جاء في ذلك الكتاب .

الكلام على الطيور

فقال صاحبى : لقد اتضح لي السبب وعرفت الحكمة وفهمنا الحيوانات وعجائبها ، فأرجو أن تذكر
كلاما على الطيور وغرائبها وما أودع فيها من الحكم ، قلت : إن الله قسمها قسمة عادلة كقسمة الحيوانات
التي على الأرض ، فجعل منها الآكلة والمأكولة ، وترى الصقور والشواهين والبراة والبوم والغربان قد خلقت
لها المناقير للتلوية والمخالب المعقربة والريش الطويل في الأجنحة والأذياب ، وهذا الأخير ليكون موازنا
لأجسامها ليتمكن أن تديرها كدفة المركب وذيل السمكة ، إذ لا يمكنها أن تستدير بمنة أو يسيرة إلا بتحركه
ضد ما تريد ، أنظر كتابنا [جواهر العلوم] وحذب مناقيرها لثلاث تصادم الرياح فتوقها عن الطيران إذا
كانت عريضة ، وأعطيت حواس قوية حتى يتمكنها أن ترى أقل شيء في الأرض على بعد عظيم ، وتنم الراحة
من أبعاد مكان ، ولها من السرعة ما لا يخطر بالبال حتى أن النسر يطير في الساعة أكثر من مائة ميل ،
وقد يحمل الأرنب أو الحمل أو الطفل ، ومع ذلك ربما لا يزيد وزن الطائر عن نحو اثني عشر رطلا .

لطائف عن الطيور الجارحة

ولتذكر غرائب الحفاش والغراب واليوم ليكون مجلسنا هذا جميلا فلا نذكر فيه إلا ما جعل من
الحديث وليكون تذكرة للمعلاء وسلاوة للحكماء وتنبها للنبياء وليرى الشبان الأذكياء ما لم يكن ليخطر على
بالهم من العجائب التي يراها عامة الناس ولا يفقهون لها معنى وكيف جهلناها وأعرضنا عن العلم فأعرضت
الدنية « ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ، ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرته
أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وكفلك نجزي من أسرف
ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى » .

فإذا قرأت ما يأتي من غرائب الطيور وفطنت إلى ما سنذكره من الحكم ثم نظرت الأمة حولك كيف
أعرضت وجهلت تعرف سرا من أسرار القرآن ، وكيف سمى هذا نسيانا ؟ وظن العامة منا وكثير من
الخاصة أن للدار على أن يقول : أعرف الله بلسانه وهو يجهل ما حوله من الكائنات ومناقضها « أفلم ينظروا
إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض » ثم هدد فقال « إن نشأ نخف بهم الأرض أو نسقط
عليهم كسفا من السماء » إشارة إلى التلة التي تحيط بالجاهلين .

ولنترع فيها وعدنا فتقول :

الحفّاش

لا يجد الحفّاش من الطيور إلا تساهلا إذ لا يرى له ثم هو لا يرى إلا ليلا لقوة عينيه فيجهر بصره نهارا ويقوى ليلا ليكون لصا ، وهذا النوع أعطى قوة على أن يطير فلا يسمع ويبصر ليلا وهو لا يبصر ، ومنه حفّاش جته كبيرة كالثعلب أو الكلب حتى يسمى الكلب الطيار ، فهذا وذلك كلاهما موجودان في العالم وشاهدتهما أهل هذا الصر ووصفوهما في الكتب « وفي الأرض آيات للموقنين - إن في السموات والأرض آيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون ، وكأين من آية في السموات والأرض يرون عليها وهم عنها معرضون » ورب قارىء يقرأ هذا ويقول : أنا لا أصدق إلا بما شاهدت ، وهذا إنما هو من التأملين ، فإن هذا من آيات الله الدالة على صفته للشحونة بها الكتب في العصر الحاضر الآتية بها الأخبار من أقاصي المعمورة « أئمن هذا الحديث تمجبون وتضحكون ولا تبكون وأتم سامدون ؟ فاسجدوا لله واعبدوا » ونحن إذا تمادينا على الاستهزاء بهذه العجائب وأعرضنا عن ذكر الله بسببها ذهبنا من مدنيّتنا مع أن علماءنا السابقين وآباءنا الأولين كانوا هم السابقين لها للملين لعلماء أوروبا المهادين لهم إلى سبيل الفكر والعلم ، والقرآن هو المهادي إلى ذلك .

ومن الحفّاش نوع يعيش على دم الإنسان والحيوان فيشرب دم الخيل والإبل والبقر والغنم ، فإذا رأى إنسانا تأمنا جاء بلطف وخفة وروح على وجهه حتى يستغرق في نومه بتجديد النسبات عليه ثم يضع منقاره في موضع مكشوف من جسده ويمتص منه الدم ، ولا يزال كذلك حتى يمتلئ ثم يطير بأسرع من لمح البصر ويترك النائم على شفا حرف هار من الموت أو المرض .

وما أشبه هذا بالأثم الفاتكة بغيرها بطرق الخداع واستهواء العقول ، جلّت صنعة الحكيم العليم الذي أئتمن صنعه وعلم الحيوان فوق علم الإنسان في كل فن من الفنون حتى السياسة ، عجب من هذا الصنع الباهر والحكمة الظاهرة ! فإلى متى يا قوم لا تقرّون علم الحيوان ولا تذكرون الله إلا قليلا ؟ « ومن يش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين » .

حكمة الله في اليوم

اليوم حيوان قوى جدا لا يظهر نهارا لأن له عينين كبيرتين واستعين لا تقدر أن تحمل نور الشمس القوي ، وإنما تقدر أن تنظر في الظلم وتبحث إذن عن الطعام ، تعيش على القيران النيطية والمنزلية والسماك والحشرات ، فإذا جاءت ولم تجد شيئا من ذلك أكلت من الطيور ، صفت أجنحتها بحيث تطير بلا صوت ولها أذنان قوية الإحساس جدا بحيث تسمعان أقل حركة من حيوان صغير كالقار على الحشيش ، فإذا رأته فأرا على الأرض أو سمكة على سطح الماء أسرعته إليه في الحال نازلة في طبقة الهواء وجيشد تنفض عليه وقتضه بمخالبها ثم تطير به وتزدرده كله عظاما ولحما ، فإذا هضم اللحم في فمها وتخلص من العظم لتقتل العظم .

إذا شاهدت عش يوم في جوف شجرة أو خربة فلتعلم أنك ستري أكاما كبيرة من العظام التي أكل لحمها اليوم بل نفس تلك الأعشاش إنما هي أكام صغيرة من عظم يابس ، اليوم نافع عظيم للفلاح فيأكل القيران التي تضر بالزروع .

وقد قيل إن بومة واحدة قد تأكل قدر هرة خمس أو ست مرات .

حكى أن رجلا له يمام مستأنس في برجه فوجده ناقصا فأخذ بندقيته ونزح ليلا حتى إذا جاءت بومة

ودخلت البرج ، ولما خرجت وفي فيها شيء ظنه الرجل بما ما وظنها سارقة له ، ولما ضربها ووقعت صريحة وجد ما في فيها القار التي هي المقترسة على الحقيقة ، فندم ولات ساعة مندم .

وفي بعض الجهات يستعملون اليوم لصيد الطيور ، وذلك أنهم يأتون بأغصان ويدهنونها بصمغ يسمى صمغ الطيور يلتصق الشيء به كالقراء ثم يربط اليوم في جبل قريب من تلك الأغصان حتى لا يتمكن من الفرار في الحقل ، ثم إن الطيور تكثرها كراهة شديدة لأنهم يعلمون أنها في بعض الأزمان تعلق راحتهم وتحاول اقتناصهم ، فإذا رأوها مربوطة ولن تقدر على أن تلحق ضررا بهم ينهبون في عدد كبير وجم غفير ويلتفتن حولها ليتقننها بالمناقب ويضررنها بأي وسيلة يقدرن عليها ، وفي الحال تثب تلك الطيور على الأغصان الدهونة بالقراء أو تلتصق بأجنحتها فيمسكهن حالا ويقتصهن الرجل سريعا ويضمهن في القفص للمد لذلك ويذهب إلى حيث يريد .

الغراب

هو من للحفات بأكلة اللحوم وضعه الله في الأرض ليساعد الفلاح على عمله في الحقول لياكل البود والجرفان وغيرها من هوام وحشرات .

ومن العجيب أنه يحرف الخطر فيقيه إلهاما من الله تعالى فينبغي مساكن من الأغصان مجتمعة على الإحكام والإيقان في أعلى الأشجار حتى لا يقدر الريح على إفساد أعشاشهم أو إيقاعهم عن أماكنها ويخرجون لطلب الرزق زرافات ، فإذا وقعن في حقل ليتقطن ما أودع الله لهم من الحشرات والهوام جعلن واحدا منهن حارسا مترصا للأعداء ، محاذرا هجمات الفاتكين ، فإذا نطق (غاق) علمن قرب خطر محقق بهن فطرن في الهواء .

ومن العجيب أن الناس في بلادنا لا يفهمون لهذا الطير معنى ويؤذونه وقد يضربونه بالبنادق وهم يجهلون أنه صديقهم قاتل عدوهم اللدود ، فهو يحسن وهم يسيئون .

وفي ظني أن كثرة الدود في بلادنا إنما جاءت من قلة الأشجار ، ولو أن الناس غرسوا على الترع والجسور والحلجان أشجارا لمشتت فيها الطيور المختلفة وأبادت الدود والحشرات .

إذ من المحقق أن الحشرات أسلها الدود ، فكل حشرة تبتدى بيضة فتقلب دودة ، حتى إذا أكلت ونامت نسجت عليها نجا حريريا فكوتته كتلة صغيرة أو كبيرة وتسمى بلسان علماء الحيوان (شرقة) ويبقى فيها ذلك الحيوان ناعما ثم تخلف له الأجنحة والأرجل فيخرقها ويطير كما في دود القز ودود القطن الذي يخرج منه أبو دقيق ، وسنوضحه في هذا المختصر إن شاء الله تعالى ، وستقف فيه على أن الطيور وضعت لأكل الحشرات والدود الضارة بالزراعات والأشجار في مساكنها ، فمن قطعها فقد جنى على الزرع جناية لا يكفرها إلا العلم بها .

الغراب والموازنة بينه وبين البوم والحفاس والفلاح في الحقل وأن هذه مملكة سياسية

لقد صدق علينا اليوم قوله تعالى «وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون» . هذه آية الغراب نشاهده كل يوم ونسمع ذكره في القرآن ، وأن بعض عباده الله تعلم عنه و «قال يا ويلتي أجمرت أن أكون مثل هذا الغراب ؟ » وحرر علينا أكله .

قبليت شعري ما الذي فيه من النافع وما الذي أودع مدبر الكون فيه من الحكيم والصلح ، وهل له ارتباط بمشايشتنا وأرزاقنا ؟ نعم إني وربي إنه لحق ، وهل يذكر في القرآن إلا لينبه النفوس العاغلة والشقول الحامدة ؟

اعلم أن الثراب من أعظم نعم الله على الفلاح وزرعه فإنه يأكل الحشرات الصغيرة والديدان من الأرض التي لو بقيت لأضرت الزرع فهلك الحرث والنسل .
فانظر كيف جعل الله هذا الحيوان مساعدا على نمو نباتنا وبقاء حياتنا كما جعل البوم آكلا للفيران ليبقى الزرع محفوظا إلى أجل مسمى .

فانظر كيف سلطهما الله على تلك الحيوانات المضرّة بزرعنا ، وانظر الحكمة في التبرية المطهرة وكيف حرم أكلهما على الناس لطفًا من الله بنا وبقاء لزرعنا ، فضلا عن ضررها بأجسامنا كما تشير إليه الآيات والأحاديث .

مقارنة بين سياسة الله تعالى في العالم وسياسة الأمم وبرهان على وجوده وحكمته

هل لك أيها السيد الأخ أن تأمل معي في أربعة أصناف كوّنت محكّة واحدة ؟

تصوّر الثراب والبوم والحفّاش والفلاح يتعاونون على إنماء الزرع ؟ فترى الفلاح يحرق وينذر ويسقي ويحضر الآلات لتتقى الحشيش ، وهذا هو الوزير الأول لهذه المملكة ، وهذا الوزير يعجز عن إبادة الجنود الهجدة من الحيوانات التي تفتك بزعه صباح مساء ؛ فلما عجز عن ذلك أظناه الله وأعاناه بالبوم ، فقد جعل الله معيشته على الفيران والحشرات وأشياء أخرى مما يضر بالزرع ، فإذا أقلت شيء من هذه الحيوانات ولم يده البوم تلقاه الحفّاش فإنه مسوق طبا لا كل الفراش وغيره ، وهذا لو ترك وشأنه لوضع أيضا يبق في الأرض زمانا ثم يخرج منه دود وهو في الغالب عند ابتداء خروج النبات من الأرض فيهلكه ، ومتى بقى شيء من ذلك وقد أقلت من البوم والحفّاش سلط الله عز وجل حيوانا نهائيا وهو الثراب فأكل ذلك الدود من الأرض .

فانظر كيف جعل كل صنف من هذه الأصناف الأربعة ، وهي : الإنسان ، والبوم ، والحفّاش ، والفيران متناعدا للآخر في إنماء الزرع وهو لا يدري ما نتيجة عمله .

ومن العجيب أنك ترى أن الحفّاش والبوم حيوانان ليليان أعدتهما الصانع الحكيم للهجوم على الحيوانات البصرة السميعة القادرة على الطيران والجري فوهبهما أعضاء وحواس تناسب الهجوم في الظلمة .

وانظر كيف كان الثراب حيوانا نهائيا لأن معيشته غالبا من أكل الدود وهو لا قدرة له على الجري ولا سمع له ولا بصرا ، فلم يكن من الحكمة أن يجعل ليلا ، وهكذا الإنسان .

وانظر كيف جهل كل صنف من هذه الأصناف عمل الآخر كما قدمنا .

ولا جرم أن الذي علم النتيجة من هذه الأعمال الليلية والنهارية هو الصانع الحكيم الذي دبر الكون وأتقنه ، فظهر إذن أن الحقول كالممالك ، فكما أن الملك أو الوزير يعطي كل عامل قسطه من العمل الذي يصلح له ، فهكذا ترى أن كل حيوان ناطق أو غير ناطق قام بعمل يصلح له في الزرع .

وكما أن الملك أو الوزير يوعز إلى رئيس الأشغال أو الإدارة أو الحقوق أو المعارف بما لا يوعز به إلى الآخر فهكذا ترى أن كل حيوان جبل على عمل برع فيه .

وكما أن كل رئيس من رؤساء الحكومة يعلم ما تحت إمرته تفصيلا ويجهل سواه ، فهكذا تلك الحيوانات والإنسان كل يعلم ما استعد له ويجهل سواه .

وكما أن نتيجة جميع نظام الأمة موقوف على إرادة الملك أو الوزير بحيث ينظران الأشغال والإدارة وغيرها وينسبان بعضها إلى بعض ويلاحظان النتيجة ويزيدان ما قص وينقصان ما زاد ، فهكذا الحكيم مدبر الكون رتب هذه الأصناف من الحيوانات وغيرها وعرف مقدار ما تخرجه المزارع بعد ترتيبها وإحكامها ،

فالميزان العمومي في يد الله تعالى يخفض ويرفع ويزيد وينقص على حسب ما أراد في إخراج النتيجة والثمرة التي يختارها .

وكما أن رؤساء المصالح في الحكومات إذا لم يكن لها رئيس أكبر يجمعها وينظر شئونها مزقت كل ممزق ولم يكن لها نتيجة البتة .

فهكذا هذه الحيوانات إن لم يضع مدبر الكون لها حدودا ولم يلهم كلا رشده لم تحصل الثمرة المطلوبة ، ومن هنا نفهم قوله تعالى « أفأرأيتم ما تحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ » يشير إلى أن الحرث إنما قصد لإعمائه ، والنبات يحتاج لأمرين : جلب المصالح ودفع المضار ، فبفعل الإنسان جلب المصلحة وبالحيوان دفع المضرة ، ولذلك قال « لو نشاء لجعلناه حطاما فظلمت تفكهمون ، إنا لمرمون بل نحن محرمون » .

ولما بلغ بنا القنال إلى هذا المقام ، قال صاحبي : قد عرفت شيئا من عجائب الطيور الجارحة وغرائبها ، فهل لك أن تذكر لي شيئا من عجائب الطيور غير الجارحة ليعرف من يطلع على مقالنا هذا كيف حال الطيور غير الجارحة مع الجارحة ويقارنها بحال الحيوانات أكلة الحشيش مع القترسة ؟ قلت : إن الكلام على هذه الطيور يطول ، ولنذكر كلاما إجماليا عليها فنقول :

تقسم باعتبار الماء والأرض والهواء إلى ثلاثة أقسام كلها زيت بالريش القصير على أجسامها الطويل في أجنحتها وذيلها ليكون كدفة السفينة يساعدها على الدوران بسرعة يمينا ويسارا في الهواء ، هذا مع مالها من الألوان المختلفة والأصوات العجيبة للتبانية .

المائية

وانظر كيف ميز الله المائية عما عداها بزيت وضع في ريشها طيعيا ليقبها غوائل البلل ، وأرجل منسوجة نسجا عجيبا لتساعدها على العوم في الماء كمجاديف السمكة والسفينة . فانظر وتأمل كيف وضع للماء ما يناسبه من ذلك النسيج بين الأصابع ، ومن ذلك الزيت اللزج الذي يقي من البلل .

ولم تكن هاتان الخاصتان إلا في هذا النوع وحده ، والبط والأوز من هذا النوع .

الهوائية

أما الطيور الهوائية فقد دبرها الله بصنعة تناسب الهواء والتسلق على غصون الأشجار ، لجعل أجسامها صغيرة وأجنحتها طويلة ، وصور الأصابع مستعدة أن تقبض بخفة على غصون الأشجار حتى في أثناء النوم ، والصفائر والتربان من هذا النوع .

فانظر كيف صغرت الأحجام لتستقل بالطيران في الهواء ، وكيف طالت الأجنحة لتقوى على ذلك ، وكيف فصلت أظافرها وجعلت صالحة للقبض على الغصون كما نسجت في الطيور المائية لسهولة العوم في الماء .

الأرضية

أما الطيور الأرضية فأجسامها كبيرة وأرجلها قصيرة قوية وأظافرها صالحة للبحث في الأرض ، والندباج نوع من هذا .

فتأمل يا سيدي كيف قويت أرجلها لكبر أجسامها ، وكيف كانت أظافرها غير منسوجة كالمائية ولا صالحة للقبض على الغصون كالهوائية بل مستعدة للبحث في الأرض لمناسبة الميثة فيها . وهذه حكم عجيبة « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

عجيبه

ذكر علماء الحيوان عن هذه الطيور عجائب لا يسع للقلم ذكرها ، نكتفي منها بمسألة واحدة .
عن أحد العلماء أنه صاد خطأ فاضربه بالبندقية فوق سطح البحر فوقع على الموج فانتظر ذلك العالم حتى يأتي به
إلى الشاطئ ؛ وبينما هو كذلك إذا بأربعة من ذلك النوع أحرق اثنين منهم بالمهروج كل واحدة أمسكت
بطرف جناح وطارتا به قليلا وتجتنا فتابت عنهما أختاهما فحملتا أمثارا ، وهكذا مازلن يتناوبن الحمل بمرأى .

العصفور

وهل أتاك نبأ عصفور دورى أخبر عنه المستكشفون ؟ وذلك أن فيه حكما نخبرنا عن عجيب الإقنان
فذلك الصنع الباهر والحكمة الظاهرة .

وذلك ان هذا العصفور لا يبني له عشا ، وإنما يبحث عن أعشاش نوع آخر من جنسه بمائله حجبا ،
ويتهز فرصة غياب صاحب العش ويضع فيه بيضه ، فإذا رجع صاحب العش لم يعرف الفرق بين العددين
فيحضن الجميع ، وأول فرخ يخرج من البيضة ذلك الفرخ الأجنبي فيفرح به صاحب العش ظنا منه أنه ابنه
وقد جرت عادة الله أن من تعب في شئ مستحسنا له أحبه ، ثم ينمو هذا العصفور بسرعة حتى يضيق المكان
إذ ذاك وتبتدى الفراخ التي في بيض صاحبة العش أن تقتر البيض بمنافيرها وتخرج واحدة بعد الأخرى .
فانظر كيف وضع الله في فهم ذلك العصفور الأجنبي أن يساعد أمه الحنون الجديدة ويبني عشا آخر
في أقرب زمن .

وانظر كيف جعل الله في ظهره فجوة أو حفرة فيها يضع إخوته الصغار واحدا بعد الآخر وينقلهن إلى
العش الجديد ؛ فتأمل ثم تأمل كيف ساعد أمه الجديدة على تربية أبنائها مكافأة لها على حضنه ثم استيطانه
السكان الذي بنته ؛ فلعلك إذا تأملت هذه الحكمة العجيبه تسمى لنفع أمتك مثل ما علمك الأولون وتجدد مجدها ،
اتمعي ما جاء في كتاب [جمال العالم]

الحيوان كتاب مفتوح للناظرين كتبه الله بيده وسطره بحروف بارزة واضحة بهجة تسر الناظرين ،
ولكن أكثر الناس لا يطلون ، فدلم على ذلك الكتاب المنظور بما أزله في الكتاب السموع الوارد من
الوحى على قلوب الأنبياء ، فقال تعالى هنا على لسان ابن آدم « يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا القراب
فأوارى سواة أخى » وقال في سورة النمل على لسان المدهد مخاطبا النبي سليمان عليه السلام « قال أحطت
بما لم تحط به » وفي سورة البقرة يقول الله تعالى « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها »
وقد سمى الله السور بأسماء الحيوانات كالأنعام والبقرة ، وبأسماء الحشرات كالعنكبوت والنمل والنحل ، فانظر
كيف يقول المدهد أحطت بما لم تحط به مخاطبا نبيا عظيما مشيرا إلى أن الإنسان وإن عظم مقامه وارفع
شأوه جدير بأن يقرأ علم الحيوان ، وإذا كانت عناية الله عز وجل موجهة إلى أحقر الحشرات وهي البعوضة
وما هو أدق منها ، فضررب بها الأمثال ولم يكتف بذلك بل سمى السور بأسمائها ، فلا جرم أن الأمر لعظيم .
إن المسلمين بعدنا سيكونون أبعد مرعى مما نحن عليه ، إن المسلمين اليوم نأتمون لا يطلون ما للحيوان
والحشرات من الأهمية العلمية ولم يوجهوا همهم إلى ذلك ، وكم للحيوان من حكومات منظمات ، فترى
النمل يخدم كل واحد من الجماعة الآخرين ، وهكذا النحل ومثلها كلاب البحر والقربان وغيرها .

إن دراسة الحيوان تفهمنا إلى أى اتجاه تتجه الحياة ، وإن نظام الحياة الفردية موجه للجموع .
إن سنة الله في الحيوان أن يخدم الفرد الجموع ، بل لاسعادة له ولا كمال ولا لذة إلا بحسب غيره ،
والصعل له سواء أعلم ذلك أم كان من الجاهلين ، فإذا تربى للمسلمون تربية فردية كما هي الحال اليوم قادتهم

الأم إلى أسفل سافلين وأصبحوا في العذاب المهين ، فليكن كل فرد ناملا للمجموع قصدا ، ولتكن وجهة تربيته لذلك ، وإلا اضطل وخرق المجموع ، وإن أردت زيادة التبيان فهناك حياة الحشرة المسماة فرس النبي وحياة العقرب .

فرس النبي والعقرب

إن الحشرة المسماة فرس النبي التي ترى على الأشجار وبين الأوراق خضراء مشاكلة لما هي فيه من الخضرة والتي يفر ظاهرها أنها أشبه بالصالحين من هيئة منظرها ، هذه الحشرة من الحشرات التي تبيض على صيد غيرها ، وتضك بما يمر بها من الحشرات ، وصمتها وسكونها وهدوءها لأجل أن تمر ما يمر بها من الحشرات فتلتصق على حين غفلة ، هذه هي المسماة فرس النبي ، وطريقة تناسلها أن يقرب الذكر من الأنثى وتحصل عملية الإلقاح ، ولا يكاد الذكر يفرغ من تلك العملية حتى تنفض عليه الأنثى فتأكله وهو ساكن لاحتراكه .

العقرب

العقرب حيوان معروف يتخذ من النواكب والجراد والصراصير والتهباب .

تناسله

إذا أتى فصل الصيف خرج الذكر في الليل باحثا عن الأنثى ، فإذا لقيا قبض بطرفيه الساكنين على طرفي الأنثى المائلة ، فتريد الأنثى أن تتخلص منه وتفر من الذكر ، فيذهب للبحث عنها ثم يسير بها مدة من الزمان لاويها ذيله فوق جسمه للفرطح راجعا القهقري جارا معه الأنثى حتى يدخلها معا تحت حجر أو في شق في الأرض ، ولا يدخلان ذلك الضيق إلا بعد دوام الرياضة مدة ساعات كأنهما يتنازلان ، والذكر في أثناء تلك الرياضة يقرب منه من فمها ، ومتى دخلا الشق أو المكان المختبئ حصلت عملية الإلقاح ، ومتى تم التلقيح تنفض الأنثى على الذكر وتأخذ تنهشه وهو لا يزال حيا حتى إذا أكلت الأعضاء المصبية الرئيسية مات وانتهى أجله ، وفي بعض الأوقات يفلت الذكر من الأنثى بخلاف فرس النبي ، فإن الذكر لا يفلت من الأنثى بل لا بد من موته ، هنالك ينمو البيض في رحم العقرب الأنثى ، ثم تبيض نحو أربعين بيضة وهي تشق غلاف كل بيضة تلتها فتخرج المقارب الصفار وتنام على ظهر أمها أسبوعا كاملا ، وهنالك يتغير جلد الصغار وتبيض أيضا أسبوعا آخر على أمها ، وقد صارت جلودها المتساقطة على أمها أشبه ببساط على ظهرها تمام الصفار عليه ، ومتى تم الأسبوعان استقلت المقارب الجديدة ومضت تطلب رزقها أما أمها فإنها غالبا تموت بعد مفارقة صغارها لها .

دود القز وتناسله

وبمائل ما تقدم دودة القز ، فإن الفراش التي تنقلب إليه الدودة يتناسل بعد خروجه من الشرقة فيلقح الذكر منه الأنثى ثم يموت الذكر وتموت الأنثى بعد أن تبيض ، فهذه الحياة الطويلة للشرقة إن هي إلا تحضير لهذا التناسل .

طبيعة الإنسان لا تخالف طبيعة الحيوان في أن التناسل مقدمة الموت

وأن حياة الفرد حياة للمجموع

قل لي بريك أيها الذكي المطعم على هذا الكتاب ، ما لنا يراد بحياة الفرد الإنساني؟ إنه يراد بها أن تكون فداء للمجموع وعضوا عاملا فيها؟ فالفرد غذاء للمجموع ومقدمة له ، وهالك البرهان :

لمعرك لأن رأينا ذكر العقرب وذكر فرس النبي يذهبان ضحية الأثني فتأكلهما عقب الحمل بحيث يلتحق
المائم بالمرس ، واحتفال الجنائز باحتفال الزواج ليظهرن ذلك في الإنسان أتم ظهور بعد البيان .

فقل لي رعاك الله : أى فارقة بين مغازلة الإنسان ومغازلة الحيوان ؟ ترى الديك الرومى (المالمطى)
يظهر للأثني جمال ريشه وهو متفخخ معجب بنفسه ليمجها جماله .

وهكذا ترى الطيور المعردة يفرد الذكر للأثني ليسرها صورته فتجبه ثم يكون الإقحاح ، وهكذا مامر
في العقرب الماكر مع الأثني ، كل هؤلاء يختال ذكراها على إنائها لمسألة الإقحاح .

هكذا ترى الإنسان يغازل الحسان وينتهي الأمر بالزواج فإذا بعد ذلك ؟ لا يكون إلا ما رأيت في العقرب
وفي فرس النبي ، أبناء بولدون ، وأمّ روم ، وزوج يكذب ويكدهج ليلا ونهارا لإرضاء الزوجة وتربية أولادها
وهو وهى معاً قد أخذتا قبيلان الأطفال بعد تمثيل كل منهما صاحبه ، فأصبحا خاضعين خادمين لأولادها
لا يرضيهما إلا ما يرضى الأولاد ، ثم تبرع الأم بما لديها من مال وحلى لابنتها ، والأب يخرج عن ماله بطيب
خاطر في حياته وبعد موته لأولاده ، فلمعمرى أى فارقة بين العقرب وفرس النبي والإنسان ؟ الذكر في الأولين
اقترسه الأثني ، لماذا ؟ لأجل أن يكون قوة عظيمة لتربية البيض في بطنها ، ثم إن العقرب تموت بعد
استقلال صغارها ، فهى لم تعيش بعد الذكر إلا لحفظ الأمانة التى استودعها إياها ، فهى تحافظ على البيض
وتربيته ثم تموت ، والبيض في بطنها نما وكبر بفضل جسم الذكر الذى تحلل في باطنها وامتزج بجسمها .

أفلا ترى أن الرجل كذلك ؟ جاد ذكر العقرب وذكر فرس النبي بجسمه لنمو أولاده وهو ما يملك ،
لما الإنسان فإنه يجود بماله وكسبه وكدهج وكده مئة حياته ولا يزال جسمه في ضمور وولده في ظهور وهو
فرح غفور به حتى يزول هو من الوجود ويبقى ابنه بعده إلى حين ، هذه قضية الإنسان وقصته ، مغازلة
ومرس وزواج فولد تموت .

يظن الرجل أنه تزوج المرأة بحظ نفسه وهى تظن كذلك ، ولكن خاب فألهما فما هما في ذلك إلا مخدوعان
كما خدع العقرب وفرس النبي اللذان يحبى الموت للذكرين عقب الحمل ، وهنا يكون الموت تدريجيا ويتبدى
بأول مرلود ، فترى كلام الأبوين يحنو عليه ويحبه ويود لو يقدم له كل ما يملك ، ومهما طال الزمن فإن
المسألة ترجع إلى فقد الأبوين وحلول الولد محلهما .

المرس واحتفال الزواج أشبه بالمائم لأنهما أخوان ، فالمرس يقبه التناسل ، والنسل يحل محل الأصل
في حياته وبعد موته .

إن من احتفل بالمرس فقد أخذ يهين الأسباب للجنائز ، يتزوج ليند ، والولد يحل محل الوالدين ،
فلاحتفال بالزواج احتفال بالموت في الحقيقة ، فصار الإنسان في ذلك كالعقارب أو فرس النبي كل يحتفل
بالقران وبعد ذلك احتفال للموت ، غاية الأمر أنه في الإنسان بطيء وفي الحيوان سريع ، تنفى المنغيات
في المرس وما هن إلا داعيات للنادبات الصارخات بعد حين على العروسين ، ذلك هو اللبدأ والحتم .

نتيجة ذلك كله

أن الإنسان مخلوق للجموع لانفسه ، ومن خلق لمنفعة غيره فلا حظ له إلا فيما خلق لأجله ، فإذا رأينا
المرأة تحنو على ولدها فذلك لمربرة حيوانية ، وإذا نظرنا إلى ما هو أعلى من ذلك وجدنا القواد والأسماء
والملوك يسهرون على الرعايا ، ووجدنا الحكماء والعلماء يؤلفون لمن بعدهم ، ووجدنا فوق ذلك الأنبياء
يأتون بوصايا وشرائع لمن بعدهم ، هؤلاء هم الذين فهموا الوجود .

طبيعة الوجود أن الفرد للجموع ، فمن كان للجموع أشبه بالأم لأولادها ، فذلك الذي هو جار على سق الفطرة ، ومن ليس كذلك فهو فاسق ، هذا هو دين الإسلام وهذا هو الحق .

وباليت شعري أى كارثة حلت بالإسلام وأى مصيبة أصابته ، كيف تقاعدوا وتباعدوا فأخذتهم الأم من كل جانب ؟ ذلك لجهلهم بالقرآن وبسنن الله في الوجود وبترية الأم .

مات الذكر والأُنثى من فراش دود القرّ بعد عملية الإلقاح والبيض كأنهما قد أمّا ماعليهما في الوجود ، هكذا يموت العالم فرحاً إذا أمّ ماعليه للأمة من الإصلاح ، وهكذا الحكماء والأنبياء ، يقول الله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً » زلت هذه السورة فرفوا منها أن حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انتهت لأنه خلق للدعوة وقد تمت فإذا بعد ذلك إلا اللوت .

كل ذلك جارٍ على هذا التاموس في الوجود ، فالقرد خلق للجموع ، فالحيوان والنساء من نوع الإنسان يعملون للأبناء بالفرزة ، والأنبياء بالإمام يعملون للأمة ، والعلماء والحكماء بالتعليم ، على هذا فليكن تعليم الإسلام ، وبهذا أرهقت أم في الوجود .
ولأذكر لك نموذج التعاليم الألمانية .

حكاية اليمامة

يمامة باضت في عشها في قصر يرلين ثلاث بيضات فخرج لها منها ثلاث أفراخ ، فاحترق القصر فأخذت تحول حول النار ثم انقضت على أفراخها فاختلطت منها واحداً ثم وضته بجانب شجرة ثم رجعت كرة أخرى وخرجت ظافرة بالثاني بعد أن احترق بعض ريشها ، وقد كان القوم من منظرها بالسين ، فلما رجعت ثالثة لتأخذ الثالث وقد اشتد لهب النار لم ترجع وماتت ضحية إقناذ الثالث من أفراخها .

ذلك هو نوع من الحكايات التي يربون بها تلاميذهم ليعلموا أنهم خلقوا للجموع ، والله يقول في القرآن على لسان ابن آدم « ياويلتي أجهزت أن أكون مثل هذا الثراب ؟ » والمهدد يخاطب سليمان عليه السلام بقوله « أحطت بما لم تحط به » .
هكذا يجب أن يكون التعليم في الإسلام .

اعتراض على المؤلف وجوابه

ولما وصلت إلى هذا القام حضر عالم من أصدقائي واطلع على هذا وقال : أهكذا تكتب في التفسير ؟ وهل هكذا سيرك فيه ؟ قلت نعم ! قال : إن هذا الأسلوب مخالف للحقائق بعيد عن الصدق والصواب .
فيا ليت شعري أى مناسبة بين الإنسان في الزواج واللوت وبين المقرب ؟ وكيف تدعى أن احتفال الزواج مقدّم لاحتفال الموت ؟ وكيف تقول إن مغازلة ذكران العقارب لإناثها الذي جعل مقدّم لموت الذكر هو بينه منازلة الرجال للنساء في الإنسان ويتبع ذلك اللوت .
إن هذا القول أشبه بشعر أبي العلاء المرسي القائل :

وشبه صوت النعي إذا قيد من صوت البشير في كل ناد

ولم يرد لئن صح هذا في الشعر لا يصح في تفسير القرآن المبني على الحقائق ، قلت : ليس ماقلته شعرياً بل هو حقائق ثابتة ، فقال : وأين هي ؟ قلت : اعلم رعاك الله أن الحيوان على ثلاثة أقسام :

قسم يدر يرضه في المرء ويتكفل الله بربيته وإخراج النورية منه ، وذلك كالنمل والناموس والجراد وما أشبه ذلك ، ومن هذا دود القرّ .

والقسم الثاني ما يحافظ على صغاره ويتمهدا زمناً ما ، وذلك في الطيور الجارحة وغير الجارحة ، فإنها أرقى من الثناب ؛ فترى المصافير والحمام وجوارح الطير تحضن بيضها وتربي أولادها .

والقسم الثالث ذوات اللبن من السباع والأنعام والقرود والإنسان ، فكل هذه تربي أولادها بعد حملها في بطنها مدة ما .

ثم انظر الحكمة العجيبة ؛ انظر وتجب كيف رأينا الموت يتبع طريقة التنازل :

(١) فإن كان الحيوان من أدنى الطبقات بحيث لا يقدر على تربية صغاره ولا حضن بيضه كالجراد وكدود القز ، فهذا لا يبقى لتربية صغاره لأن القرع يقوم مقام الأصل ، ولا حاجة للأصل في التربية ، واعتبر هذا في فراش دود القز الذي يموت الذكر والأنثى منه عقب البيض ، وترى أمثال الجراد والناموس ليس عندها غريزة حفظ الولد ولا حضن البيض ، فلذلك ماتت وتركت بيضها والله سبحانه وتعالى تولى تربيته فهلك أكثره وما بقي إلا السهل والجميل .

(٢) وإن كان الحيوان أرقى قليلاً كالمقارب فإنما ترى الذكر عقب حفلة الزفاف تنتهشه الأنثى لبقائها وبقاء أولادها ، وهذه هي الثروة التي يملكها الذكر فقدّمها لنسله ولزوجها ، فأما الأنثى فلا بد من بقائها حتى يستغنى عنها أولادها ، فلذلك تبقى حتى تبيض وتعيش أربعة عشر يوماً ويستغنى عنها صغارها ثم تموت ، ذلك لأنها لا حاجة لبقائها ، أليس هذا بذلك على أن بقاء الأصل إنما يكون لمصلحة القرع ؟

(٣) فإذا كان الحيوان أرقى كالحمام وكواصر الطير فإنه يعيش ليحضن البيض ويحلم الولد ، ويولد مهادراً وتكراراً ولا يموت عقب عملية البيض لأن الحاجة ماسة لبقائه ، هكذا الأنعام والذئب والقرود والإنسان ، كل هؤلاء يعيشون متمتعين بالحياة .

ألمست ترى أن القاعدة العامة أن الأصل إنما يكون بقاؤه لاحتياج القرع إليه ، وأنه لو كان الإنسان وإخوته من الحيوان لا يحتاج الذرية إلى حياتهم ما عاش إنسان بعد وجود الذرية ، وأن حياته لا بد منها لتربية الذرية ، وأن ذكر العقرب إذا مات عقب ساعة العرس يشبه الإنسان غاية الأمر أن موته بطيء وبقائه مدة لحفظ نسله .

هذه هي القاعدة العامة بقاء لحفظ الولد وموته للاستغناء عن الرعاية .

ولا يضر هذه القاعدة أن من الناس من لا يلدون ، ومنهم من يموتون وقد تركوا ذرية ، وقد يموت الرجل والراة عن طفل صغير وما أشبه ذلك ، فإن هذه أحوال عارضة ، وقد جعل الله الناس أشبه بحجم واحد ، فإذا مات الأبوان فهناك مجموع الأئمة يقومون بذلك النقص .

فتبين من هذا أن حياة الرجال والنساء بعد حصول الذرية بما ركز في نفوسهما من القدرة على التربية ، وأن الحكمة الإلهية اقتضت أن لا تكون حياة إلا للعمل ومن خالف هذه الحكمة ضلّ وغوى .

وإذا أعطى النمل قوة الادخار وهكذا النحل فذلك لأنه في حاجة إليها فألهم ذلك مع تربية الذرية ، وحرّم من ذلك الجراد فلا ادخار ولا تربية للولد ، فإذا لم يمت هذه الغريزة لعدم الحاجة إليها .

هذا هو الصراط المستقيم ، فبنو آدم خلقوا متضامنين وفيهم غريزة حفظ الولد وحفظ المجموع كما في جملة النمل والقربان ونحوهما ، فمن أعرض عن فطرته ولم يعمل للمجموع فهو خال جهول لم يجر على فطرة الله التي فطر الناس عليها .

الله فطر الناس على حب التربية للذرية وهي حفظ المجموع ومساعدته ، ولا معنى لبقائهم في الدنيا

إلا المساعدة الذرية ومساعدة المجموع ، ولولا هذا لم يكن لبقائهم فأئدة كما لم يكن لتراش دود القز ولا لذكر المقرب بعد الإلتحاق ولا لأثناء بعد استقلال الصغار فأئدة في الحياة .

إن المسلمين اليوم قد خالف كثير منهم فطرة الله ، فترى قوما يجارون مع أهل أوروبا ضد إخوانهم كما نراه في شمال أفريقيا ، يجارب قوم بدرام معدودة مع الطليان وآخرون مع الأسبان والفرنسيين ضد إخوانهم في الدين .

وهكذا نرى التربية والتعليم في نفس مستمر ، لتلك سلط الله على أكثر المسلمين غيرهم فأذلوهم حتى يستيقظوا .

وهذا الكتاب إن شاء الله وأمثاله سيكون من أسباب استكمال النهضة الإسلامية الحالية ، هذا كله داخل في قوله تعالى « قال ياويلي أعجزت أن أكون مثل هذا التراب فأواري سواة أخى ؟ » .

كل ما ذكرته في هذا المقام من سرهذه الآية ، وكيف أصبح بعض المسلمين الآن لا يصنع ما صنعه التراب التي يوارى سواة أخيه .

أما السلم الساذج فإنه يكشف سواة أخيه ويجارب مع عدوه ، فإذا صار التراب أشرف وأرقى من بعض المسلمين اليوم .

إن في القرآن لسراً سيكتشفه علماء بعدنا ، وهذا من مبادئ الكشف .

فقال صديق : ولم خصّ التراب بالذكر هنا ؟ قلت : التراب حاز الفضيلتين : فضيلة تربية الولد ، وفضيلة خدمة الجمهور ، فليس كذكر المقرب ولا كالجراد ، فهو لا تربي منارها ولا كالجمام والدجاج اللانق وإن ربت الصغار لا تحتاج إلى جماعة تبيض معها ؛ فالتراب يربي الأفران ويصل بإخوانه ، إن هذا هو الذي تضمنه قوله تعالى « ليوارى سواة أخيه » فإن مواراة سواة الأبخ لا تكون إلا بعد المحافظة على الذرية ، فهي تكون في الحيوانات الراقية ، والإنسان أرقى الحيوان فليكن نافعاً لنفسه ولولده ولأهل وطنه وأهل دينه ولسائر الناس إن كان من الفلحين .

إن السلم الصادق هو الذي يكون خليفة الله والناس جميعاً عباده فهو لهم خادم أمين .

غائمة هذا المقال وجماله في السفينة والسمة والمتطاد والمركب الهوائية

التي تملها الإنسان من الطير حوالى أوائل هذا القرن وأواخر القرن الماضى

ذلك كله في عجائب قوله تعالى « فبث الله غربا يبحث في الأرض ليريه كيف يوارى سواة أخيه ، قال ياويلي أعجزت أن أكون مثل هذا التراب فأواري سواة أخى ؟ الخ » .

أى عجائب الآية التي نحن بسدد الكلام عليها والتي قد ذكرنا عجائب الطيور بسدها وغرائب الحيوان وكيف يموت إذا استغنى عنه ويميش إذا كان له منفعة ، وكيف كان الحيوان عبرة للإنسان بربه ما استمر في فطرته وكن في خلقته وعجابه .

أقول هذه الآية الآن وسأسمك عجبا فيها وأى عجب ! ذلك أن الله سبحانه وتعالى عبر فيها بلفظ « بث » وقال إن التراب يربنا كيف نواري سواة إخواننا فتدفن الموتى كما تدفن .

التعبير بلفظ البث عجب وأى عجب ! بث الله الأنبياء وبث الله الطيور التي منها التراب .

إن لهذا التعبير رمزا ، الله بث الطيور قبل بث الأنبياء ، إن الله بث كل مخلوق في الأرض من طير وأنعام وحجر وشجر .

بث هذه العجائب لنا قبل بث الأنبياء ، بثت لنا ففى لنا مبعونة وأعمالها وأحوالها هي كتبها التي

شرؤها ، فأعمالها صحف منشورة يراها الناس ولكن أكثر الناس لا يفتقون ؛ ولما جهل الناس ما يرون
 بأبصارهم لأنهم في هذه الأرض من عالم منحط الإدراك ضعيف ميز الله منهم أناسا اصطفاهم فبعثهم ليعلموا
 أقوالا ، والأقوال معبرات عن المعاني ، والمعاني هي التصويدة ، والناس للأقوال أفهم منهم للحجوسات .
 الأبصار ترى العجائب ولكن القول غافلة ، أما الأصماع فإنها تلتقي إليها تلك للبصيرات بعبارات سهلة
 تفهمها إجمالا .

أزل الله الكذب الهلوية لتنبه الناس إلى ما يشاهدون ليتفقهوه ، ولو أن الناس جميعا واعون فاهمون
 لم يحتاجوا إلى الرسل ، فالرسل أرسلوا ليعلموا الخلق الوحي ، ومضى سموا يتقنوا فأدركوا ففكروا ففهموا
 فاستخرجوا المجهول .

إن الله بعث لنا هذه العجائب التي رمز لها بالتراب وبعث لنا الأنبياء ليدلونا عليها ، بعث الله هذه
 الخواص من : طير وذرة ونجم وشمس كلها مبعوثات ، كما أنها مسخرات كلها منافع لنا وكلها كتب مقروءة ،
 كل هذا نهمه من آية التراب ؛ فالتراب وما شاكله كتاب شرؤه ، والعوالم المشاهدات كتب شرؤها ،
 والقرآن هو الذي يدل على ذلك ، يقول « ليريه كيف يواري سوءة أخيه » التراب يواري سوءة أخيه ،
 والسلم والإنسان عامة عليه أن يواري سوءة أخيه بل عليه أن يحمي حتى يجد للإنسان مقاما في الهواء ومنفعا
 من هذه الأرض الضيقة .

ضافت الأرض بأهلها ، فإذا أرانا التراب أنه له مدينة وجماعة يعيش معها ، وأنه ربى أولاده وأنه
 يحافظ على جماعته وأنه يهيمن على الجمهورية الغراية ، وأتانا إن قصرنا في دولتنا وجماعتنا فقد أصبحنا أقل
 من التراب وأمثال التراب من كل جماعة تعيش في الهواء أو على الأرض أو في البحر .

ففي البرّ الصيلة وجمار الوحش وأنواع كثيرة تعيش جماعات ، وهناك الحشرات كذلك مثل النحل
 والزنبور والنمل ، فهذه كلها تعيش جماعات وكلها ترىنا كيف نحافظ على الجماعة والجمهورية ، كلها تعلمت
 ذلك بظفرتها القرزية ونحن تعلمنا منها بالفكر والعقل .

حكيم الله علينا أن لا يكون رقبنا إلا بالتفكير ، وحكيم على تلك الحيوانات أن يكون ارتقاؤها بالقرزية ،
 فهي تعلمنا أن ننظم جماعاتنا ونرقبها .

هكذا ترى جماعات من السمك كالحيوان المسمى (بالتمر) في البحر ، وهو قد يكون طوله ثمانية أمتار
 لمائة يعيش جماعات ومثله الحيوانات المسميات (بحوت العنبر) وهو المسمى (كشلو) ذلك الذي يبلغ طول
 بسنة نحو ٣٠ مترا ، ثم ينقض على التمر للتمتم ذكره فيأكله ، وهذا التمر للذكور شرس الطباع جدا فتأكل
 كالتمر للمروف فيكون طعاما للحوت العنبر ، ذلك الحوت الذي تحفن اللواد التي يأكلها من أنواع السمك
 في بعض أجزاء الأسماء فتصير عنبرا ، ثم إن سلسلة الظهر المستطيلة تحيط بها مواد شمعية كثيرة بيضاء تقريرا
 تتجمد في الهواء ممتدة على جانب العمود الفقري وعند الرأس ، فهذه اللواد هي المسماة (من القيطس) وهي
 تستعمل في مصابيح الزينة وفي صناعة التؤلؤ الصناعي ، ومن الواحد منها يستخرجون نحو عشرين طنا ،
 ومعلوم أن الطن أكثر من عشرين قنطارا .

فانظر كيف كان هذا الحوت عظيم الجثة وعظيم المنفعة ، وكيف استخرج منه العنبر إن كان مريضا ،
 والمزق يوزن بمئات القناطير ، وهذا الحيوان يعيش جماعات قوية البأس شكة الطباع ، وهي كلها تنفس
 بالهواء ثم ترجع إلى قاع البحر ممتدة طويلة وهي لا تترك نأرها إذا قتل أحدها فتكسر أعظم السفن .
 فهذا أناذا ذكرت لك الجماعات في الجو وعلى الأرض وفي البحار وكلها تعلمنا مما عليها الله ، تعلمنا علما

أعظم من العلم الذي تعلمها إياه ، فنحن تعلمها كيف تصيد لنا فئاً كل ولكها هي تعلمنا كيف نعيش جماعات ونحب أبناء جنسنا .

وهذا هو السر في أنه قال « فبعت الله غراباً » ولكن لم يقل إني بعتكم لتعلمها ، بل قال « تعلمونهم بما علمكم الله ، فكلوا الخ » فبني مبعوثه لتعلمنا ، ونحن لسنا مبعوثين لها بل تعلمها لتأكل مما منحصره لنا . تبين لك أن تعلم النظام للذئ والحب الأخوي ليس خاصاً بالقراب ولا بالطيور .

فلم اختصت الطيور بأنها تربيتنا ؟

علمت أن الجماعات والجمهوريات ليست خاصة بالطيور التي منها القراب ، بل رأيت أن الحيتان فيها الجماعات والحشرات والدواب والأنعام كلها ذات جماعات ونظام عجيب جعله الله بفطرتها التربوية . فبالت شعري لم يقول الله ذلك في الطيور وحدها ومعلمها تربيتنا حفظ الأخ ؟ مع أن حوت العنبر والنخل والقيل كل هذه لجماعات منتظمة وكلها تربيتنا حفظ الأخ ومنفعة الأخ والمحافظة على الأخ ، فلم خص الطيور ؟ أقول جواباً على ذلك :

اعلم أن هذا السر لم يظهر إلا في هذا الزمان .

هذا هو الزمان الذي تظهر فيه العجائب والغرائب .

هذا هو الزمان الذي أذن الله فيه بإظهار الأسرار وجمال الأنوار والناطيد والمراكب الهوائية .

خص الله القراب وهو من أنواع الطيور بأنه يرينا كيف يوارى سواة أخيه ، وقال في سورة تبارك (الملك) « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن » فهنا يقول « ليريه كيف يوارى سواة أخيه » وهناك يقول « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات » فالطير هنا يرينا ، وهناك يوبخنا الله قائلاً « أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات الخ » فهنا الإرامة وهناك التوبيخ على عدم الرؤية ، فالطيور أرتنا ونحن يجب علينا أن نرى : أي نرى عجائب صنع الحكمة الإلهية ، ولا جرم أن الذي نراه قسبان : قسم يختص بالنظر في العجائب الإلهية ، إذ قال هناك في موضع آخر « ما يمسكهن إلا الرحمن » وقسم يختص بالمنافع الدنيوية كما قال هنا « ليريه كيف يوارى سواة أخيه » فإذا الطيور تنفعنا في علم معرفة الله تعالى لأنه رحيم وعليم ، وتنفعنا في أن نضع الناس كما ستر القراب على أخيه ، وكما فعل الله ذلك في القراب والطيور فعل في الزرع والشجر ، فقال تعالى « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبأنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب - إلى أن قال - والنخل بأسقام لها طلع نضيد ، رزقا للعباد » فإذا الله خلق النبات والشجر لأمرين : التبصرة والرزق ، وهكذا يقول في النار « نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للقيوم » فالنار تذكرة والطير تذكرة ، والنار متاع للقيوم ، والقراب يرينا منافع إخوانه فننظر في أمر الطير لماذا نجد ؟

نجد أن الأم التي حولنا نظرت في أمره فصنعت للمراكب الهوائية والناطيد بتعليمه .

إذا قرأت أيها الأدي هذا سيأخذك أعظم الشك في قولي ، وتقول أي مناسبة لهذا الكلام ؟ أقول لك : اعلم أنه لولا الطير ما طارت المراكب الهوائية في الجو بين لندن وباريس أثناء طبع هذا الكتاب ، الكتاب الآن يطبع والجراند يقول إن المراكب الهوائية تجرى الآن بين باريس ولندن في زمن قليل ، وقد جرت الطائرات بين طهران وأخره في اثنتي عشرة ساعة ، كل ذلك في هذين اليومين .

وهكذا قد عرقلوا على إنشاء محطة في بلادنا المصرية لتكون نقطة الاتصال بين بلاد الشرق وبلاد الغرب للسفن الهوائية ، الطائرات ملأت أقطار الأرض ، الطائرات كثيرة في اليابان والصين وتركيا والعراق وأوروبا .

إن الله عز وجل بعث الحرب الكبرى التي ابتدأت سنة ١٩١٤ ، وانتهت سنة ١٩١٨ بشهارة رحمة بالعباد .
 هذه الحرب قد نهت الأمم للطائرات لتتفهم في الحرب .
 إن الناس على الأرض أطفال جهال مغمورون في العداوات والشهوات .
 فهذه الحرب التي هي منشطة لهم كانت هي أكبر عامل في ارتقاء الطائرات ، وها نحن أولاء اليوم
 نحصد مازرعنا .

النوع الإنساني ابتكر الطائرات للحرب ، ولكن الله يعلم أنها ستكون من أكبر نعمة في السلم .
 في زمن قريب جداً سيكون الجو محل السفر وتخلو الأرض للزراع .
 في زمن قريب جداً سيكون الانتقال في الجو بالراكب الهوائية ومحتر الناس ما على الأرض من القنطرات
 والسيارات والمركبات التي تسير بالكهرباء ، كل هذا ستقوم مقامه السفن الهوائية ويشارك الناس الطير
 في الهواء ويتمتعون بنعم لم يحلم بها السابقون .
 أتدري لم كل هذا ؟ لقوله تعالى « فبث الله غرابا يبحث في الأرض » .

وإيضاح ذلك أن علماء القرن التاسع عشر كانوا يطيرون بالمناطيد ، وللمناطيد ما هي إلا على قاعدة السفن ؛
 وبيانه أن كل ما هو أخف من الماء يعم فوقه وما هو أثقل منه يترق فيه ، فجميع السفن التي تجري في البحر
 لو أنك وزنتها لوجدتها تساوي وزن الماء الذي أزاحت من البحر فذلك تعوم ، وكما أنك ترى القلين وأمثاله
 من الخشب يعم على وجه الماء ، هكذا تعوم السفن وتعوم السمكة .

إن السمكة لها في باطنها منفاخ ، فإذا أرادت أن تعوم تفخه فصار أخف من الماء فتعوم ، وإذا
 أرادت أن تغوص في الماء قبضته فصر حجمها فنارت ، فغى دائماً في عوم وغوص كل ذلك بهيئتنا للمناخ
 الذي هو آلتها الرافعة الخافضة للتحركة على القاعدة التي شرحها (أرشميدس) فكل ما خف علا وكل ما ثقل
 سقط ؛ فالسفينة والسمكة أختان متشابهتان السفينة كالسمكة . السفينة لولا خفتها لترقت ، ولولا أنهم
 يحسبون حجمها ووزنها ومقدار الماء الذي تزيجه حتى تكون أشبه بالسمكة في حال انتفاخ منفاخها ، لولا
 أنهم يفعلون ذلك لترقت ولم تعم ، وسواء في ذلك للراكب الشراعية والأساطيل الحربية .

المناطيد

سترى في سورة اللك بإيضاح هذا القام ، وترى أن المناطيد عبارة عن مراكب هوائية جارية بجري
 السفينة والسمكة ؛ فكما أن السفينة والسمكة لا تعومان إلا إذا كانتا أخف من الماء ، هكذا هذه المناطيد
 لا تطير في الجو إلا إذا كانت فيها غازات أخف من الهواء فتطفها كما رفعت السفينة والسمكة ، ولولا أنها
 كانت في ثقل الهواء أو أثقل منه لم تطر ولم ترتفع ، فإذا لافرق بين المناطيد والسفن ، فهذه سفن في الهواء
 وتلك سفن في الماء وتكون القاعدة واحدة ، فلهذا ما أجل العلم والحكمة .
 إن المناطيد أشبه بالكرات التي يلعب بها الأطفال أيهم الأعياد واللوازم .

هذا هو سرها وعلماها ، إن المناطيد لم تخرج عن كونها أشبه بالريش الطائر في الجو وبالذرات الطائرات
 في الكوي ، كل هذه إنما ارتفعت في الجو بسبب خفة أجسامها لا أقل ولا أكثر .
 أنا في هذه الساعة أعتقد أنك فهمت المناطيد ، وهذا الفهم توطئة لما هو أشرف وهو القنموذ .

المراكب الهوائية

وهنا يظهر سر القرآن فأقول لك : لقد عرفت الناطيد ، عرفتها لأنها ظهرت لك ظهورا تاما ، وإن لم تكن اطلعت على أصول هذه العلوم ، فما أناذا الآن أتتلك إلى التصود فأقول :

إن الناطيد جرت في الهواء وأدرك الناس أمرها ، ولكنهم بعد ذلك أنكروا وقالوا : لماذا نرى الطيور تطير ؟ ياويلتى أمجزنا أن نكون مثل هذه الطيور ؟

نحن الآن تعلمنا علم السفن من السمك وتعلمنا الناطيد من طيارات الأطفال التي هي على قاعدة السفينة والسمك ، ياويلتى أمجزنا أن نطير كما تطير الطيور ؟

إن الطيور أثقل من الهواء ، لو وزنا العصفور لوجدناه أثقل جدا من الهواء الذي أراحه بجسمه بخلاف السفينة ، فإن وزنها كلها يجيوشها وسلاحهم ودروعهم ومدافعهم وما فيها من حديد وفولاذ وذخائر كل هذه إذا وزناها لاتزيد عن ثقل الماء الذي أراحته السفينة ، أما العصفور وأما الغراب وأما الحمامة فإننا نرى كلا منها أثقل مئات المرات من الهواء الذي أراحه .

الطير أثقل من الهواء فكيف يطير فيه ؟ عانت السفينة وعامت السمكة لأنهما أخف من الماء ، وهكذا للنطاد لأنه أخف من الهواء ، أما الغراب وأما الحمام وأما العصفور فإنها أثقل من الهواء الذي حلت في مكانه أضعافا مضاعفة .

هنالك قام أحد العلماء في هذا القرن : أي القرن العشرين أيام تأليف هذا التفسير وقبلة بقليل . قام هذا العالم بعد أن مات عشرات الرجال في التجارب التي جربوها فلم تكن فتىلا وذهبت تجاربهم وأعمارهم أدرج الرياح ويشس الناس في أوروبا وأمريكا أن يلحقوا الطير في طيرانها ، فإن هذا شيء خاص بها ، والناس مستحيل عليهم أن يصلوا لمستواها .

ولكن الفطرة الإنسانية توافقة للعلا متعطشة للعلم والنظر ، فقام العالم الذي سيأتى ذكر اسمه وأعماله مفصلا في سورة تبارك الملك وراقب الطيور وطيرانها وبحث ودقق وعرف بأى الأساليب قدرت الطيور أن تطير في الهواء وهي أثقل منه وخالفت سنة السمكة والسفينة والنطاد .

وهناك أظهر تجاربه ونجح قوم ومات آخرون وانتفع الناس ببعضها في الحرب ، وها هي ذى آثارها ملأت الأفطار وأصبحنا نرى علما جديدا طارا كما تطير الطيور .

هذا هو السر في قوله تعالى « فبعت الله غرابا يبحث في الأرض ليريه » إن الله بعث الطيور إلينا فأرثنا علما جديدا لم يكن قبل تعليمها ما كنا نعلم قبل الآن إلا السفن ، ولكن الطيور فتحت للإنسان أيام هذا التفسير علما جديدا وهو علم الطيارات التي لم تكن من قبل ولم تكن مقيمة على السمكة والسفينة ولا على النطاد الجاريات على قاعدة (أرشميدس الفيلسوف) بل على قاعدة الطير المعروف الذي أرانا ما لا يربنا الحوت في بحره ولا الفيل والغزال على الأرض .

الحوت وإن عاش جماعات ونظمها وربى أولاده وعام بمنفاخه لم يعطنا درس الطير الذي هو أثقل وأثقل من الهواء ثم هو يطير فيه ، والفيلة لاتعوم في البحر ولا تطير في الهواء فلا تعطينا إلا نظم السياسة ، وأما الغراب فإنها تربي أولادها وتنظم جماعتها وتحافظ على جمهوريتها وهي فوق ذلك تطير وأجسامها أثقل من الهواء فتأقت السمك وحيوان البر ، فلذلك أرثنا وعلتنا فعلا .

يا ليت شعري من ذا كان يظن أن الطير يعلم الناس علما فوق علم السفن الهوائية ؟ من ذا كان يعقل هذا ؟ الطيور تراها ، ولكن أين البصائر ؟ أين العقول حتى قبض الله من عباده من فهموا أن الحيوان خلق

ليرينا فدرسوه وخبروه لا بكتاب نزل ولا بوحى ؟ ولكن درسوه بقولهم والسلمون نأتمون أجمعون
أ كتمون أ بسمون نملون .

لطيفة

لما وصلت إلى هذا المقام اطلع عليه أحد الأصدقاء ذوى الفكر والفهم ، فقال : لقد أحسنت من وجه
وأسأت من وجه ، فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أما الإحسان فنظاير ، فإنك ذكرت أن الحيوان الذى لا يرى
أولاده يموت لأنه لا معطل فى الطبيعة وأن الذى يرى أولاده يبقى كالسجاج والحمام ، وفوق هذين ما يعيش جماعات
كالحياتان ، وفوق هؤلاء ما اعتدى به فى أن تطير فى الجو بلياراتنا مع ثقل الطيارات ، وأن القرآن جاء
بهذه المخلوقات لنستفيد منها فى حياتنا ولتعرف بها ربنا ، كل ذلك فهم من كلامك موضحاً بأدلة ساطعة ، فهذا
وجه الإحسان ، أما وجه الإساءة فإنك فى كل مادبٍ ودرج وبأى مناسبة ؟ وفى أى حال تلتصق بالقرآن
وبالهدى الإسلامى ما ليس منه ؟ فلا تذر طيارة ولا منطادا ولا برقاً (تلفرافاً) ولا كهرباء ولا صناعة ولا علماً
إلا ألصقته بالقرآن ، والإسلام فى نظرك سفينة نوح تأخذ من كل زوجين اثنين ، إن هذا ماهومك إلا تطرف
وزيادة ، تريد رقى السلمين فتنسب كل شئ للدين ؟ هذا فن المركبات الهوائية حديث العهد ، فما
للإسلام ولهذا ؟ إنك فى هذا مغال كثير الفلق طويل النجاد

الجواب

قلت له : إن ما قلته إنما جاء من وجدانك لامن عقلك ، قال : وكيف ذلك ؟ إنك أنت تحم بوجدانك ،
فإنك لشغفك برقى السلمين تحم كل شئ فى دينهم ولست على حق فيما تقول ، قلت : «أولوجتكم بشئ مبين؟
قال فانت به إن كنت من الصادقين » وبين لى ذلك بطرق العلوم الدينية ، قلت : أوتسكن للحقيقة إذا
ظهرت ؟ قال نعم ! أسكن لها وأشرها ، قلت : إذن أئين ما تقول باختصار يكفيك فروض الكفايات .
أيها الفضال أليست الواجبات قسمين : واجبات عينية ، وواجبات هى فروض كفايات ، قال بلى !
قلت : أليس فرض العين كالصلاة والصيام إذا تركه الإنسان أثم ؟ قال بلى ! قلت : أوليس فرض الكفاية
كالصلاة على الميت وتجهيزه إلخ إذا تركه أهل القرية أتموا جميعاً ، وإذا قام بذلك جماعة سقط الإثم عن
الباقين ؟ قال بلى ! قلت : ألم يقل بعض العلماء كإمام الحرمين : إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين
لأنه أعم ؟ قال بلى ! قلت : أفليست جميع العلوم والصناعات من فروض الكفايات ؟ قال : فى أى
كتاب هذه ؟ قلت : فى جمع الجوامع ، قال : الكلام هناك ليس مفصلاً بل هو مجمل ، قلت : ما تقول فى الذى
ذكره الإمام الغزالي فى الإحياء ؟ قال : ماذا قال ؟ قلت : عقد فصلاً هذا عنوانه [بيان العلم الذى هو فرض
كفاية] وذلك فى الجزء الأول ، فقال : لا أنذكر هذا فاذا ذكر لى ما فيه ، قلت : يقول : إن فرض الكفاية
هو كل علم لا يستغنى عنه فى قوام أمور الدنيا ومثل باطن ذلك كالسياسة وبأوسطه كالحياكة والحياطة والفلاحة
وأدناه كالحجامة ، وذكر الطب والحساب ، قال : زدنى ، قلت : وقال بعد ذلك مانصه بالحرف الواحد
[الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا ، والمالك والدين توأمان] وقال أيضاً : [واحترز عن الاعتزاز
بتلبسات علماء السوء ، فإن شرهم على الدين أعظم من الشيطان ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى اتزاع
الدين من قلوب الخلق] .

وقد شنع أيضاً على العلماء بكثرة المجادلات والشاحنات لاسمها بين الشافية والخفية ، وزعموا أنهم
ينصرون به الدين ورتبوا فى ذلك أنواع المجادلات ، قال : وهم مستمرون عليه إلى الآن ؟ ولنا ندرى
ما الذى يحدث الله فى بطننا من الأعصار اه .

قال صاحب: ما ملخص ما يقصده الإمام الغزالي؟ قلت: ملخص ما ذكره أن علم الدين الحقيقي هو معرفة السموات والأرض وجمال الله تعالى وعجائبه مثل ما كتبنا في هذا التفسير، وأيضاً قراءة العلوم التي هي فرض كفاية، وإنما ذم علماء زمانه لانتصارهم على علم الفقه، وقال إنما انكبوا عليه وتركوا ما عداه لأنهم به يتوصلون إلى تولى القضاء والوصية على الأيتام والتصدر والعظمة في الدنيا ولا يزالون بهتدب النفس ولا بما ذرأ الله في الأرض والسموات، فلا يهتمون بأمر الصالح العاتة والصناعات التي تحتاج إليها الأمة ولا يكملون أنفسهم، فهذا هو السبب في أنه جعلهم شراً من الشياطين.

قال: عجبا! ذلك كان في زمان الدولة العباسية والإسلام قوى الشوكة، فما بالنا نحن الآن ونحن على ما كان عليه أسلافنا فلا علوم ولا صناعات؟ قلت له: إذن أنت اقتنعت بهذه الأدلة وواقفتي، قال نعم! إنك بنيت القول على أساس متين من كلام الأئمة، قلت: ومن قول الله تعالى «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» كما فصلته في بعض المقالات فلا أطيل به.

ثم قلت: ألسنت ترى متى أن علم المراكب الموائية وغيرها من علوم الكهربام والمفناطيس أصبحت اليوم لا بد منها للناس، قال بلى! قلت: إذن هي فرض كفاية؟ قال بلى! قلت: إذن فهم الناس أن القرآن ورجال الإسلام مجمعون على أن هذا وأمثاله فرض كفاية وأنا وأنت مسئولون وجميع الأمة عن كل صناعة وعلم حظي به قوم في أوروبا وهو نافع ثم جهلناه نحن.

هذا هو الذي يجب نشره الآن وتعميمه في أنحاء المعمورة.

وأنا لم أقل إن أهل أوروبا استنجوه من القرآن بل استنجوه بقولهم، ولقد بعث الله الغراب وغير الغراب لهم كما بعث لنا، وأراهم الغراب وغير الغراب كما أرانا، ولكن هم رأوا، ونحن ما رأينا وهذا عار على أمة الإسلام أن تجهل عقلها وتجهل دينها، فأنا لم ألصق بالقرآن بإصاح علما ولا صناعة وإنما أنا متبع لا مبتدع، فقال: لقد أحسنت كل الإحسان وأجبت بما شئني صدرى وعلت اليوم أن الدين يقولون فيك ما قلته الآن جهال لم يقرأوا مقالة تامة من كلامك، قلت: الحمد لله الذي نعمته تم الصالحات.

فها نحن ذكرنا الطيور والحيوانات بمناسبة الغراب وجماعاتها وارتضاعها في الجور وتعلم الإنسان منها في أيامنا الحاضرة، فقال: لم أعقب الله مسألة ابن آدم والغراب وحديثه بمسائل السرقة والقتل والإفساد في الأرض وما أشبه ذلك؟ قلت: الأمر واضح، فإن القصة مسوقة لتعلم الإنسان من الحيوان العطف على الإخوان وهؤلاء السارقون والقاتلون ضارون بالجموع ومثلهم الكاسلون والجاهلون، فكل هؤلاء يعاقبون بما في الآيات، ويعاقبون أيضا بالنار في الدنيا والعذاب الشديد في الآخرة.

تم الكلام في هذا المقام، والحمد لله رب العالمين، اه القصد الرابع.

المقصد الخامس

إِنَّمَا جَزَأُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْمَعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يَقْتُلُوا أَوْ يُصَلِّبُوا أَوْ تَقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ،

فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا
 فِي سَبِيلِهِ لِمَلِكُمْ تَقْلِحُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِائِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ
 مَعَهُ لَنَفَثُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يُرِيدُونَ أَنْ
 يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ * وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا
 أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ
 وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْعِمُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

ذكر الله في القصد السابق أنه من قتل نفسا فقد آذى الناس جميعا ونفس مجموع النوع الإنساني ، لأنهم
 متضامنون على اختلاف أجناسهم وأديانهم وأوطانهم ، فهم أمة واحدة كما قال في معنى آية أخرى « كان الناس
 أمة واحدة ففسقوا فأرسلنا لهم الأنبياء » .

هكذا هنا قال : من قتل نفسا بلا سبب فقد جنى على بني آدم كلهم ، ومن أحمى نفسا بشفاعته أو عفو
 أو نفع الأمم بعلومه أو صناعاته فقد تمدى عمله ونفعه للناس أجمعين ؛ فعمل الفرد نافع للمجموع وشره راجع
 للمجموع ، والرسل قد جاءوا للناس بالبينات ولكن أكثر الناس لا يزالون سفاكين للدماء قطاعين للطرق
 مسرفين في القتل والنهب .

فإذا كان هذا النوع الإنساني هذا فأبه لا يرجع كثير منهم عن النفي بالحكمة والعلم والموعظة الحسنة ،
 وهي هنا المحبة العامة والشفعة لسائر الناس وغفل أكثرهم عن هذه الحكمة العالية وأخذ كل يحارب أخاه
 جهلا وغلظة وتباعدا عن طرق العقل والفهم فلم يبق إلا العقاب الديني ، فذلك أعقبه بقوله (إنما جزاء
 الذين يحاربون الله ورسوله) بالهاتفة والإسراف في القتل والنهب والسلب وقطع الطرق واللصوصية ،
 ولو كانت اللصوصية في بلد كبير ومصر عظيم ، وقوله (ويسعون في الأرض فسادا) أي مفسدين أن يفعل
 بهم واحد من أربعة : إما القتل وحده ، وإما القتل ثم الصلب بعده تشهيرا لهم ، وإما أن تقطع أيديهم اليمنى
 مع أرجلهم اليسرى ، وإما أن ينفضوا من الأرض :

هذا كله إذا لم يتوبوا قبل القدرة عليهم ، فإن تابوا قبل القدرة عليهم فالعفو عنهم حسن .
 فهذه خمسة أمور : العفو إذا تابوا قبل القدرة ، والقتل ، أو القتل مع الصلب ، أو تقطيع الأيدي
 والأرجل من خلاف ، أو النفي من الأرض .

واعلم أن الحاكم غير بين هذه الأربعة يفعل ما يراه أصلح .
 وقال أبو حنيفة : النفي من الأرض المراد به السجن ، وبعض العلماء يقول : القتل إذا قتلوا قصاصا ،
 والقتل مع الصلب إن قتلوا وأخذوا المال ، وقطع الأيدي والأرجل إن أخذوا المال ولم يقتلوا ، والنفي من
 الأرض إذا أخافوا الناس .

وفي هذا القام أحاديث كثيرة وردت بسبب نزول هذه الآية ، ولكن نذكر منها ما رواه البخاري
 ومسلم عن أنس بن مالك « ذلك أن أناسا من عكك وعرينة قدموا على النبي صلى الله عليه وسلم وتكلموا

بالإسلام ، فقالوا يا نبي الله إنا كنا أهل ضرع (يعنى أهل ماشية) ولم نكن أهل ريف (أى لسان من أهل الأرض التى فيها زرع وخصب ، والجمع أرياف ؛ والمعنى أنهم قوم يعيشون فى البادية ويشربون ألبان المواشى) واستوخموا المدينة (أى لم توافق أمرجنهم) فأمر لهم النبي صلى الله عليه وسلم بدود (الدود من الإبل ما بين الثلاثة إلى العشرة) وراع ، وأمرهم بأن يخرجوا فيه فيشربوا من ألبانها وأبوالها فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحرة (وهى أرض ذات حجارة سود ، وهى هنا اسم لأرض بظاهر المدينة معروفة) كفروا بعد الإسلام وقتلوا راعي النبي صلى الله عليه وسلم واستاقوا الدود ، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فبث الطلب فى أزمهم فأمر بهم فسمروا أعينهم وقطعوا أيديهم وأرجلهم وتركوا فى ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم هـ .

وقد اختلف العلماء فى هذا الحديث خلافا كثيرا ، ورجح بعضهم أن هذا حصل قبل نزول الآية . فلما نزلت ظهر الحكم الذى يعمل به النبي صلى الله عليه وسلم والسلمون .
والحاصل أن هذه المسألة محل اجتهاد ينظر القاضى ما هو أصح .
هذا كله فى قطاع الطرق من المسلمين ، أما الكافر فإنه متى أسلم سقط عنه كل شئ قبل القدرة عليه وبعدها .

واعلم أن الأمم الأوروبية اليوم قد ذهبت فى التعذيب والتنكيل حدًا بعيدا جدا ، فهم لأجل السياسة والجشع يرسلون الطيارات لقتل الأنفس البريئة وينزلون الصواعق على الأطفال الصغار والشيوخ الكبار كما حصل فى الهند وبلاد الغرب ، لا لذنوب جنوه ولا لإثم اقترفوه ، بل لدرهمات يطلبونها بما يقتضيه أمر الحكومات الفرنجية ، فيشوهون الوجوه ويفقثون الأعين ويعملون مالا يحظر على الناس .

وترى أهل أسبانيا وفرنسا يصبون المشانق ويصلبون الناس عليها ظلما وبهانا وإذلالا وتعديبا .
ولقد أخبرنى أحد شبان المغاربة المراكشيين أن أسبانيا تآتى إلى جهة من جهات البلاد وتحضر عشرات الرجال من رؤساء العشائر وتذبحهم ذبحا سريعا ، فيقال لها : لماذا تفعلين ذلك ؟ فتقول : لأن بلادكم فيها قوم يكرهونا لينلوا النفوس ويخفوا الأمة .

هذا عمل الأوروبيين ، فأما الإسلام فهو الذى حدّد العقاب وحرم الظلم ، وآخر عقاب لأعظم جان أن يصب هو أو يقتل أو تقطع يده ورجله أو يعنى عنه . فأما قتل الأطفال والعجائز والنساء كما يفعل أهل أوروبا فذلك شرّ مستطير وجهل كبير ، ولا بدّ أن الله سيغير هذه الأمم بأمر أشرف منها ، فكفى فقد عمرت الأرض بالاختراعات وأكثرت فيها الفساد بالظلم ولا يبقى فى الأرض إلا الصالحون ، فإذا كان شرهم أكثر من خيرهم فلا بدّ من زوال مجدهم بالتدرج ، أو لعل الله يهديهم على أبدي الحكومات الشرقية الراقية المستقبلة فيعيشون معهم بسلام ، ولذلك قال بعدها (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) أى ماتوسلون به إلى نوابه ، والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصى ، من وصل إلى كذا تقرب إليه (وجاهدوا فى سبيله) بمحاربة أعدائه الظاهرة والباطنة فتدودون عن بلادكم كل غاصب ومحارب من أوروبا مثلا ، وتعذبون وتذلون كل مفسد فى بلادكم من اللصوص والحكام الرثسين وتعلمونهم .

وهكذا يجب أن تهذبوا أنفسكم فتصلح الأفراد وتصلح الأمم (لكم تفلحون) بالفوز والكرامة والوصول لله تعالى ، لأن ما فى الأرض من المواد الجسمية والأعمال الدنيوية والصناعات الإنسانية والأموال الذهبية والفضية وكل ما اقتناه الإنسان من الأحوال المادية لا ينفع الإنسان إذا اعترته المنية وأقيمت عليه القضية ولو قتم الفداء أو لاذ بالشفعاء ، وكيف يكون ذلك وأنتم أيها الناس فى الأرض هكذا تصنعون ؟

أليس الذي قطع الطريق وأخاف الناس هكذا عاملتموه ؟ فيقتل وليس له شفيح ؟ ويصلب وماله من
 ميث ؟ وتقطع الأيدي والأرجل وهو حسير ؟ ويعبس أو يغرب من البلاد وهو دليل ؟
 كل ذلك يلقاه وماله لا يغيثه ، وأهله وأصدقائه وشفاعؤه عنه لا يدفعون .
 كل هؤلاء لا ينفعون ولا يشفعون ، ولا فدية بمال مقبولة ولا رحمة عليه ملوثة .
 هكذا أيها الناس أفضل يوم القيامة ، فلا ينفع المال ولو كان ملء الأرض ذهبا ، وكيف يغفل عندي
 وأنا لم أرد إلا تهذيب النفوس وارتقاءها إلى مقام الصدق وموقف الحق والشرف الأسمى والمقام الأعلى كما
 تضعون في حكوماتكم ونظام مدنكم ، وهذا قواه (إن الدين كفروا لو) ثبت (أن لهم مافي الأرض جميعا
 ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ولهم عذاب أليم) والقصد من هذا أن تهذيب
 الأجسام سواء أ كان في الدنيا أم في الآخرة يقصد منه تهذيب النفوس ، فأما الفدية ونحوها فإنها لا تنوذي
 إلى العرض المقصود من الكمال .

فحكومات الآخرة والدنيا على طراز واحد ؛ فالحكومة الفاضلة العادلة هكذا تفعل ، وحكومات الله
 المستقبل هكذا فعلها ، ولا يقصد منها كلها إلا تهذيب النفوس ؛ فإذا قام المسلمون وهذبوا النفوس بالعلم
 والعرفان قام التهذيب مقام التعذيب ، والتعليم مقام الإيلام ، والحكمة مقام المحكمة ، والعلم مقام الألم .
 واعلم أن الذين لم يتهدبوا في الدنيا يحسون بألم في نفوسهم ، فترى من اعتاد كثرة الكلام أو شرب الخمر
 يريد كل منهما أن يخرج من عادته وأن ينسلخ من خلقه فيرى نفسه عاجزا عن الانسلاخ بأثنا يائسا حزينا
 يقول مالي والخمر ، ومالي وكثرة الكلام ، ومالي ولعداوة الناس ، ومالي وللتفاخر بالزينة ، وهكذا
 ما يحس به كل امرئ على وجه الأرض .

وهكذا هذه الأخلاق تلازم الروح بعد فراقها الجسد وتتمى لو تخلص من الأخلاق التي لازمتها والأحوال
 التي لصقت بها ، هذا هو قوله تعالى (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم)
 أي مقيم مع نفوسهم لا يفارقها كما لا يفارق الظل الشخص ؛ فالأخلاق هي منشأ العذاب في الدنيا والآخرة ،
 والتهذيب يمنع التعذيب ؛ فالعذاب من الصفات التي لصقت بنفوسنا من سوء الأخلاق ، ولذلك ترى الزاهدين
 في الدنيا تجلهم جميع الشعوب من أهل الأرض فاقهم .

ولما كان قطع الطرق والسرقة متشابهين في أن كلا منهما شر صادر من النفوس الإنسانية الصغيرة
 الضعيفة المتأخرة التي لم تعرف أن الإنسانية كلها يؤذيها ما يؤذي واحدا منها ، وأن عيونهم في غطاء عن
 الذكر ، أردفه بقوله (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما) إلى قوله (فإن الله غفور رحيم) وقد تقدم
 تفسير هذه الآية في المقدمة ، ثم أردفه بأن ملك السموات والأرض قائم على النظام التام فيعذب من لا يعقل
 ليصل إلى العقل والحكمة ، ويفر لمن أقبل عن المعاصي وهو قادر على كل شيء ، وبهذه القدرة التامة بصرف
 العوالم وينقلها من حال إلى حال ، تارة باللين والسكام العذب حكمة ودينا ، وتارة بالقمع والقهر والشدّة
 ويجعل النشأة الآخرة منظمّة نظاما بديما متتابعا كما يشاهد في نظام الدنيا « ماترى في خلق الرحمن من
 تفاوت » فهو يأمر بمقاب من لا يعقلون ، فإذا ماتوا بوضعون في المراكز التي استعدوا لها خفضا ورفعا ،
 وهذا قوله (ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويفر لمن يشاء والله على كل
 شيء قدير) .

لطيفة

ذكر السموات والأرض في كل مقام حكمة بالغة ؛ فتارة يذكران لمعرفة الله وتارة للوحدانية وتارة للعلم

وتارة للقدرة ، وهكذا مما ذكرناه سابقا ، وتارة يذكران كما هنا لنظام الخلوقات ، وتدرجها في سبل السعادات وطرق الوصول إلى المعالي كما نشاهد في الدنيا ، إن الأعلى يرى الأدنى أنه في عذاب كما يرى الناس أن الحيات أدنى منهم والودود ، فتكون كل مرتبة بالنسبة لما هو أرق منها معذبة متألة ، وترى الزبالين والكناسين يرون أنفسهم في عذاب بالنسبة للولوك والأمراء ، ويقول الأمراء : إنا منعمون وهم معذبون ، ولكن هؤلاء أيضا بالنسبة لعوام أرق منهم كالودود بالنسبة للإنسان .

فهذه المراتب نشاهدها في نظام السموات والأرض وزاها عدلا . يقول الله هنا : إن عذابي في الآخرة أشبه بهذا تقريرا لعقولنا وتدريا لنفوسنا على التفكير والحكمة والعلم والنظر ، وأن ترى أن الحيوانات الدنيئة كالديدان والميكروبات بالنسبة للإنسان ذليلة حقيرة وبراهها الإنسان معذبة بهذه الحياة .

هكذا تكون الحياة الأخرى ؛ فعذابها أشبه بما تراه من الدرجات ، فإذا كان التدرج والحيوانات الدنيئة تراها معذبة مهانة في القاذورات في قاع البحار وفي أقصاه محرومة من الهواء اللطيف والزرع والشجر والجمال والحواس الباهرة الظاهرة ، وزانا نحن في ضوء الشمس وحوالنا الشجر والزهرة والزرع والحدائق والقواكه والأشجار والجمال والبهجة .

لاشك أننا أسعد منها حالا بل نحن في جنة وهي في نار ، وأي زهير أشد من هذا ؛ فهنا ظهر العذاب ورتبت الدرجات سواء أكان بين الناس أنفسهم أو بينهم وبين الحيوان ، ولكن جميع الناس على وجه الأرض ظالمون لا يربون أنفسهم ولا يفقهون هذه النظرية المحسوسة المقولة المقهومة ؛ فالعذاب والدرجات موجودتان في الدنيا ويريد الله منا أن نفهم درجات الآخرة من درجات الدنيا ، وهذا معنى قوله تعالى في سورة أخرى « قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » يقول قد سرنا ونظرنا فرأينا درجات لا تعد ولا تحصى بين الأحياء من أقل ذرة إلى أعلى نبي ، وكل واحدة أقل مما بعدها وأرق مما قبلها وشاهدنا سعادة وشقاء بنسبة بعض الدرجات إلى بعض ، قال الله بعدها « ثم الله ينشئ النشأة الآخرة » فما معنى ينشئ النشأة الآخرة ، معناه على مقتضى النظام والدرجات فيقلنا في درجات من كثافة إلى لطافة ، فيكون إعلانا عند ملك مقتدر ، وأدنانا لا يزال في الأخريات عند الحيوان ومجاورا للمادة وهو محروم من الصعود إلى العلا أشبه بالمقارب والحيات اللازمة للتراب المحروم من الصعود إلى الهواء كالطير أو من العقل والحكمة والبصيرة العالية كالإنسان .

استبصار

لعلك يصعب عليك ما ذكرته ، فإياك أن يصعب عليك فهمه فالقرآن هو الذي أوضحه ، ألم يقل « أفرايتم ما تمنون ، ما أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين ، على أن تبدل أمثالكم وننشئكم فيها لا تعلمون ، ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟ » فما معنى قوله « ولقد علمتم النشأة الأولى ؟ » إن النشأة الأولى منظمة مرتبة درجات بعضها فوق بعض في المولدات وفي نشأة الإنسان ، هكذا يقول « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » فكأنه يقول إن الآخرة درجات كالدرجات التي تتطورونها في هذا العالم ، ولكنها أوسع نطاقا لأنه عالم لطيف ، واللطيف يسع ما لا يسع الكثيف ، ويقول « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فعلى ذلك يكون عالم الآخرة على نظام الدنيا ترتيبا وترقية وإن خالفه هيئة وجمالا ؛ فعالم الآخرة والدنيا نظام واحد ودرجات متناسقات ، قال الشاعر :

الجهل لا يلد الحياة مواته إلا كما تسلد الرمام السوداء
لم يخل من صور الحياة وإنما أخطأ عنصرها فبات وليدا
فانظر لنود خلق من الرمم فإن له حياة على مقدار ما خلق فيه ؛ فإذا وازتها بعوالم السباع والضباع
والإنسان لم تعترض على الحكيم في صنعه فهو جواد أعطى على مقدار الاستعداد .
هذا هو الوجود وهذه هي الدنيا ، وكذلك الآخرة فهي تناسق ونظام واستعداد . وحكيم يعطى على
مقدار الاستعداد ، والجنة والنار على هذا النوال .
هذا هو معنى ذكر السموات والأرض في هذا المقام ، فلهما في كل مقام تفسير .
بهذا فليفسر القرآن للسليين في مستقبل الزمان ، والقرآن جاء لشرح الطبيعة التي خلقها الله قبل أن
ينزل القرآن ، إن شرح الطبيعة هو كل شيء .
فبالت شعري لماذا يذكر الله السموات والأرض بالتكرار ، أقول لهذا يكرر ولهذا يذكر ، وهكذا
فليفهم ، فالمسلم في المستقبل هو الذي يدرس هذه الكائنات ويدرك هذه الدرجات ويعرف هذه الحكمة
ويصير طرق السعادات ، أما المسلمون النائمون فهم في الجهالة هائمون وعلى الدعوات متكون وبالغرور
يعيشون ، وخلقوا وكأنهم مالم مخلوقون « إنا لله وإنا إليه راجعون » انتهى المقصد الخامس .

المقصد السادس

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ
وَلَمْ يُؤْمِنُوا قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ،
يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِيهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوْتِينَا هَذَا فَخَدُّوه وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا
وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ
لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ * سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ
فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا ، وَإِنْ
حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ
التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ * إنا أنزلنا
التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ
وَالْأَخْبَارُ بِمَا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْا
وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ، وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ *
وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ

وَالسَّنِّ بِالسَّنِّ وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا
 أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * وَقَفِينَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ
 وَهُدًى وَنُورًا لِلْمُتَّقِينَ * وَلِيَحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ
 بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ الْحَقَّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ
 يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا
 جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَمَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْنَاكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً
 وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَدِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ تَرْجُمُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ
 بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ * وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ
 أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ
 بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ * أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْتَغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ
 مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ .

هذا القصد فيه حكم أهل الكتاب إذا تعاضوا علينا، وهل نعلم عليهم؟ وبماذا نعلم؟ وهل نغير بين
 أن نعلم وبين أن لا نعلم أم نعلم ولا نعلم؟

وفيه أيضا الوعيد الشديد والتم والتفريع والإهانة لمن يأخذون الرشوة في الأحكام .
 وفيه أيضا توصية القضاة والحكام وتوجيه مهمهم إلى العدل والإنصاف لأنهم أماء الله في الأرض ،
 فلا يحشون شريفا لشرفه ، ولا يستهينون بضعيف لفقره ، بل يحكمون بالحق ولا يخافون لومة لائم .
 وكل ذلك في هذا القصد مذکور لأسباب أوجبه ، وأحوال أزمته ، وحوادث لأجلها نزلت هذه الآيات
 وسبقت مع آي التنزيل ، وذكر فيها أحكام التوراة والإنجيل ، وأن اليهود أعرضوا عنها إعراسا لأفراض
 شهبوية وأمور دنيوية ، وأحوال جاهلية ، وأن الأنبياء ينزلون إلى أهل الأرض رقباء على عباده ؛ فرسول الله
 صلى الله عليه وسلم في هذه السورة أخذ يحاسب اليهود على تعطيلهم أحكام التوراة ونحافهم عما أمروا بإقامته
 من الأحكام وآذوا بمخالفته الأنام . فهالك ما روي في هذا المقام :

ذلك أن رجلا وامرأة من أشرف اليهود بخير زنيا وكانا محصنين ، وكانا حدهما الرجم عندم في التوراة
 فكرهت اليهود رجمها لشرهما ، فأرسلوا رهطاً منهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم « ما تجدون في التوراة في شأن الرجم ؟ » فقالوا : نقضهم ويحقدون . فقال عبد الله بن
 سلام : كذبتم إن فيها الرجم ، فأتوا بالتوراة ففتشوها فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها ،
 فقال له عبد الله بن سلام : ارفع يدك ، فرفع يده ، فإذا فيها آية الرجم . فأمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم
 فرجما « اه القصد ،

وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوا » .
ومعنى هذا : أن اليهود كانوا يجلدون الزاني أربعين جلدة بحبل مطلي بقار ثم تسود وجوههما ثم يعملان
على سمارين وجوههما من قبل دبر الحمار ويطاف بهما أنحاء البلد ، وقد جعلوا ذلك مكان الرجم المذكور
في التوراة .

وهذا كله بسبب أنهم كانوا إذا زنى شريف تركوه ، وإذا زنى وضيع رجموه ، فاصطلحوا على أمر يجرى
على الشريف والوضيع ، لأن الزنا بسبب ذلك التهاون كثر في الأشراف ففعلوا ما تقدم .
هكذا قال ابن سوريا للنبي صلى الله عليه وسلم ، وهو من أحبار اليهود وأعلمهم .
ولقد كان أهل خير لما أرسلوا قومهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أو صوم فقالوا لهم : إن أمركم
بالجلد والتحميم فاقبلوا ، وإن أمركم بالرجم فلا ، والتحميم : هو تسويد الوجه كما تقدم بالجمل وهذه الفحمة .
وهل يجب علينا الحكم بين أهل الكتاب ؟

(١) من العلماء من أوجب الحكم بينهم إذا ترفعوا إلينا ، ومنهم ابن عباس وعطاء ومجاهد وعكرمة
والسدي .

(٢) ومنهم من قال : عن محبزون إذا ترفعوا إلينا بين الحكم وعدمه ، وهذا رأى الحسن والشعبي
والنخعي والزهرى وبه قال أحمد .

(٣) وقال الشافعي يجب الحكم بينهم ولا تخير ، وإنما التخير في الحكم بين المعاهدين الذين بينهم وبين
السليين عهد إلى مدة فتكون الآية الآتية الدالة على التخير مخصوصة بالمعاهدين .
أما إذا كان المترافقان ذميين أو أحدهما ذمياً فالحكم بينهما واجب ، لأننا مكلفون بالمحافظة عليهم
والذب عنهم .

وكل ذلك منشؤه آيتان :

الآية الأولى : (فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم) .

والآية الأخرى هي : (فاحكم بينهم بما أنزل الله) .

وروى أيضا أن أحبار اليهود قالوا : اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتنه عن دينه ، فقالوا : يا محمد ! عرفت
أنا أحبار اليهود وأنا إن اتبعناك اتبعك اليهود كلهم ، وأن بيننا وبين قومنا خصومة فتحاكم إليك فتقضى لنا
عليهم ونحن نؤمن بك وصدقك فأبى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتركت (وأن احكم بينهم بما أنزل
الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) الخ .

وروى أيضا أن بني قريظة والنضير وهما حيان من اليهود كان بينهم دعاء قيل أن يعث النبي صلى الله
عليه وسلم ، فلما بعث وهاجر إلى المدينة تحاكموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت بنو قريظة : إن بني
النضير يعطوننا سبعين وسقا من تمر في القليل منا ، وإذا قتلنا منهم أخذوا منا الضعف وهكذا أرش جراحاتنا
على النصف من أرش جراحاتهم ، قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعدل وأن لا يفضل لأحدهما على الآخر ،
فضربت بنو النضير وقالوا لا نرضى بحكمك فإنك لنا عدو وإنك ما تألو في وضعنا وتصغيرنا ، فأنزل الله (احكم
الجاهلية يفتون ؟ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) .

هذه هي أسباب النزول التي وردت في هذا المقصد وآياته المختلفة .

وللهم في هذا المقام كله الحكم بالعدل في سائر الأحوال وعدم التحيز لقرىب دون آخر والشوة والمحاباة ،
ولو كانت المحاباة أمرا عظيما كدخول أمة بأسرها في الإسلام فإن اليهود حاولوا أن يفهموه صلى الله عليه وسلم

أنهم يدخلون الإسلام إذا حكم لهم فلم يرض ، وعلى حكم المسلمين أن يعفوا أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يبالوا بأمر ، بل يكونون خلفاءه ويحكمون على البر والفاجر ، والعالم والجاهل ، والنفى والفقير ، والشريف والوضيع .

هكذا يجب أن يكون الإسلام والمسلمون ، والآيات لهذا أنزلت ، فالقرآن اليوم لنا نحن ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من اليهود وبنى قريظة والنضير فإنهم في العالم الباقي ، والقرآن اليوم يقرأ لنا والأوامر لنا والعلم ، فلنأخذ به ولنقبه .
ولنفسر الآيات فتقول :

(يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر) أي لآتهم بمواليتهم الكفار ولا تبال بهم ، فإنني ناصرك عليهم وكافيك شرهم .

واعلم أن الآية المقدمة ذكر فيها أن الله له ملك السموات والأرض ، فله تعذيب من يشاء والنفرة لمن يشاء ، وقد قلنا إن ذلك على حسب المراتب والأحوال والاستعداد ، فلا عذاب ولا نعيم إلا على مقتضى الدرجات « وجعلنا بكم بعض فتنه أتصبرون ؟ » فالناس فتنه لبعضهم كل لكل فتنه ، والله بهذا يختبر العباد ويرقيهم إلى مقام الإسعاد ، فلذلك ذكر عقبها الأمر بعدم الحزن مراعاة للراتب والدرجات الخلقية فكأنه يقول : يا محمد أنا رتبنا الدرجات . وهذه الدرجات لا يحال تجمع بين الأشقياء والسعداء ، فمن عرف الحقائق لا تخفى عليه هذه الدقائق ، فكيف تحزن على المنافقين أو تأسى على القوم الكافرين ؟ فإذا رأيت المنافقين يخادعون واليهود جمهورهم للكذب سماعون فلا تحزن عليهم ولا تهتم بشأنهم فقد أريناك نظام الدرجات .

فكيف تحزن لهؤلاء المنافقين السارعين في الكفر (من) المنافقين (الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ومن الذين هادوا) وهم اليهود (سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك) لم يحضروا مجلسك وهم أهل خير الدين تقدم ذكرهم في الأحاديث السابقة (يحترقون الكلم من بعد مواضعه) أي يميلون الكلام الذي وضعه الله في التوراة عن مواضعه ، تارة بإهماله وتارة بتفسير وصفه وتارة بعمله على غير المراد منه (يقولون) لمن جاءوا يتحاكمون عند النبي صلى الله عليه وسلم منهم (إن أوتيتهم هذا) أي إن أتاكم محمد بالحراف وهو الجلد والفضيحة للزاني والزانية (خذوه ، وإن لم تؤنوه فاحذروا) قبول ما أتاكم به لأننا أرسلناكم ليسهل الأمر عليكم اتباعا للأهل من الأحكام لاطلبا للحقيقة مراعاة لدوى الواجهة عندنا وضنا بحجياتهم (ومن يرد الله فتنته) ضللكه أو فسحته (فلن نملك له من الله شيئا) فلن نستطيع له من الله شيئا في دفعها (أولئك الذين لم يرد الله أن يطلع قلوبهم) لأن درجاتهم النفسية في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى غير سالحة للرق كما تقدم عند قوله « ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض » مرتب الدرجات فيعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء فهؤلاء من الذين لم يصلوا للدرجة الكمال النفسية (لهم في الدنيا خزي) هو ان بالجزية والخوف من المؤمنين على حسب درجاتهم في الحياة (ولهم في الآخرة عذاب عظيم) وهو النار (سماعون للكذب) أي اليهود وكرره للتأكيد (أكلون للسحت) الحرام كالرشا ، من سخته : إذا استأصله ، لأنه مسحوت البركة مثل كعب ابن الأشرف ونظرائه كانوا يرتشون ويقضون لمن رشاهم ، وفي الحديث « لعن الله الراشي والمرتش » أخرجه الترمذي وأبو داود .

قال الحسن : ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلا أو يبطل عنك حقا (فإن جاءوك) يعني اليهود (فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا) وهذا إما وارد في اليهوديين الزانيين وإما في الرجلين من قريظة والنضير ، وقد تقدم كل ذلك (وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط) بالعمل (إن الله يحب القسطين) فيحفظهم ويعظم شأنهم .

ثم أخذ في التصيب منهم فقال (وكيف يحكمونك وعندما التوراة فيها حكم الله ؟) بالرجم وإنما طلبوا ذلك فرارا من الحق وعدولا عن العدل وتجاوزا عن النصفة ، وإلا فكيف يحكمونك فتحكم بينهم على مقتضى التوراة (ثم يتولون) يعرضون عن حكمك (من بعد ذلك وما أولئك) اليهود (بالمؤمنين) بكتابهم بإعراضهم عنه أولا وعمما بواقفه ثانيا (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى) يهدى إلى الحق (ونور) يكشف عما استبهم من الأحكام (يحكم بها النبيون) يعنى أنبياء بنى إسرائيل (الذين أسلموا) هذه صفة مدح بها النبيين ينوبها بشأن المسلمين وتعريضا لليهود الذين حادوا عن جادة أسلافهم في أخذ الربا وقد نهوا عنه وأكلوا أموال الناس بالباطل كشأن المسلمين اليوم وكثير من قضاتهم وحكامهم فلا فرق بينهم وبين أولئك اليهود في شئ ، ولذلك مزقت البلاد شرمزق ؛ ألا لافرق بين حكم المسلمين في الصور المتأخرة في قضاتهم الفاسد وأفعالهم المتكبرة وأحوالهم المهزنة ، وبين أولئك اليهود في بلاد العرب الذين دالت دولتهم « غرّ عليهم السقف من فوقهم وأنام العذاب من حيث لا يشعرون » . أقول هذا وأنا أعتقد أن هذه الآيات أنزلت لأجلنا نحن ، فأولئك اليهود قد ماتوا وخلفهم قوم آخرون ولا يدينون بكتابنا ، وإنما ذكرهم الله عبرة لنا وتعلية وتنبها وإلا فما معنى قوله « يحكم بها النبيون الذين أسلموا » فكان أنبياء بنى إسرائيل لما كانوا على الهدى مسلمين .

فأما الأمة الإسلامية اليوم وقد حاد القضاء عن الحق والعدل وتنكبوا طرق الشرع القويم وزاغوا عن الحق ، فهؤلاء القضاء فيها ليسوا على سنن الإسلام ولا طريق الهدى ولا جارين على منهج الإسلام .
وعلى ذكر القضاء أذكر هنا حادثة واحدة لقضاء مصر :

جاء أحد الولاة في مصر وقال لمن له الأمر الشرعى في البلاد : إنكم تقضون بمذهب أبى حنيفة والفتاوى يناقض بعضها بعضا ، فهل لنا أن نجعل لنا قانونا واحدا مناسبا لأحوال الأمة من المذاهب الإسلامية كما فعل المسلمون في الأستانة وفيها خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال ذلك الشيخ : كلا ، اضلوا ما تشاءون ، فاضطر الوالى أن يأتى بالقانون الفرنسى جملة شاملا عاما في جميع البلاد ، وذلك بفعل هذا الشيخ الشرع ، لأن هذا الشيخ خاف أن يشترك مع مذهب أبى حنيفة الذى هو يعرفه مذاهب أخرى ، وهذا مما يجعل علماء المذاهب الأخرى يشاركونه في الصيت والذكر والشهرة والفتوى وتزول تلك الأبهة والعظمة والمهية الكبرى من النفوس ، ويقامه العلماء سطوته وهيبته وفضوه وقوده ، إن ذلك هو التلاعب بالدين ، وهو أشبه بما جاء عن اليهود وأهم بحرفون الكلم عن مواضعه .

فهذا أنكر مذاهب ثلاثة لأجل خبر يأكله ومال يكره ، فهذا الشيخ وأمثاله ذهبت هية الإسلام وضلت الأحكام .

وأنا لا أحدثك عن شهاد الزور الذين يقبلونهم وهم يعلمون أنهم مزورون ، ولا عن الرشا ولا عن التهاون في الأحكام فذلك شائع فائع .

فهل هذه صفة علماء المسلمين الذين هم كأنبياء بنى إسرائيل الذين كانوا يحكمون بالتوراة (للذين هادوا ، والربانيون والأخبار) الزهاد والعلماء السالكون طريق أنبيائهم ، وهم معطوف على النبيون (بما استحفظوا من كتاب الله) بسبب أمر الله إياهم بأن يحفظوا كتابه من التضييع والتحريف (وكانوا عليه شهداء) رقباء لثلاث يبدل كما فعل كعب بن الأشرف ومن هذا حدوه الذين لم يحفظوا كتاب الله وليسوا عليه رقباء ،
فذلك يدل »

وهكذا أمر بعض علماء الإسلام لما تفهقت الأمم الإسلامية ، فإنهم قد زاغوا عن طريق الجادة وأجازوا
القنارى المتناقضة على مقتضى الأقوال المختلفة ، والله لا يرضى ذلك لأنه صادر عن هوى .
فليس هؤلاء شهداء على القرآن ولا رقباء فكأنهم غيروه ، وليس التغيير للفظ بل التغيير في مقصود
الأحكام وذلك يؤدي إلى انهيار الأمة وضياعتها عما تنهونوا في الدين القويم .

ثم خاطب الله الحكام قائلا (فلا تخشوا الناس واخشون) يقول للحكام لا تخشوا غير الله في حكوماتكم
وإياكم والداهنة فيها خشية ظالم أو مراقبة كبير (ومن لم يحكم بما أنزل الله) مستهينا به منكرا له (فأولئك
هم الكافرون) لاسناتهم به وتمردهم بأن حكموا بغيره فكفرهم لإنكارهم ، وفسقهم بالخروج عنه وظلمهم
بالحكم على خلافه ، والظلم والفسق قد ذكرا في الآيات الآتية هنا .

ثم أخذ يرد أحكاما من التوراة فقال (وكتبنا عليهم فيها) في التوراة (أن النفس بالنفس) أى أن
النفس تقتل بالنفس (والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن) أى إن العين مفعولة
بالعين والأنف مجدوع بالأنف والأذن مصلومة بالأذن والسن مقلوعة بالسن (والجروح قصاص) أى ذات
قصاص : أى حكومة عدل ، وهذه قاعدة عامة ذكرها بعد الأربعة التي خصصها بالذكر .
يقول ليس هذا خاصا بالأربعة ، فالجروح على وجه العموم قصاص فيها يمكن أن يقتص منه كاليد والرجل
والذكر والأثنيين .

فأما ما لا يمكن القصاص فيه كرض في لحم أو كسر في عظم أو جراحة في بطن يخاف منها التلف ففيها
الأرض والحكومة العادلة .

لطيفة

هذه شريعة التوراة وردت فيه ، وقد أجمعت الأمة على صحة الاستدلال بقوله (وكتبنا عليهم فيها أن النفس
بالنفس الخ) على هذه الأحكام ، ولا جرم أن هذا من شريعة من تقدم من الأمم ؛ فنحن إذن متعبدون بشريعة
من قبلنا : أى إننا متعبدون بما صح من شرائع من قبلنا بطريق الوحي لامن طريق كتبهم المبتدلة ونقل
أربابها ، وهذا من ذهب أبي حنيفة وبعض أصحاب الشافعي وعن أحمد في إحدى الروايتين عنه .
وقال قوم كابن الحاجب من التأخرين : إننا متعبدون بما لم ينسخ من الأحكام الباقية قبل شريعتنا ،
لكنهم لم يتبرأوا قيد الوحي ، فإن الوحي واجب التنفيذ سواء وافق شرع من قبلنا أم لم يوافق .
وقال آخرون كالأشاعرة والعتزلة والآمدى : ليس شرع من قبلنا شرعا لنا .

وهذا الخلاف بينهم لا يتناول هذه الأحكام التي أجمعت الأمة عليها ، وهي : أن الجروح قصاص مع التفصيل
المتقدم (فمن تصدق به) أى القصاص : أى فمن عفا عنه (فهو) أى التصدق (كفارة له) للتصدق يكفر الله
به ذنوبه (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وقصينا على آثامهم) وأتبعناهم على آثامهم (بعيسى
ابن مريم) مفعول ثان عدى إليه الفعل بالباء (مصدقا لما بين يديه من التوراة وآتينا الإنجيل فيه هدى ونور)
هذه الجملة حال (ومصدقا لما بين يديه من التوراة) عطف عليه ، وهكذا قوله (وهدى وموعظة للمتقين) .
ثم قال (وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) عن حكمه
أو عن الإيمان به إن كان مستهينا به .

وهذا يدل على أن الإنجيل قد نسخ أحكاما في التوراة وهو بها مستقل ويجب العمل به على متبعيه
(وأزلنا إليك الكتاب بالحق) أى القرآن (ومهيننا عليه) ورقبنا على سائر الكتب المنزلة ، لأن القرآن
مصدق لجميع الكتب السماوية ، وفي قراءة بالبناء للمجهول : أى هو من عليه وحفظ من التحريف والحافظ

هو الله والحفاظ في كل عصر (فاحكم بينهم بما أنزل الله) إليك (ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق)
بالاعتراف عنه إلى ما يشتهونه (لكل جعلنا منكم) أيها الناس (شرعة) شرعية : وهي الطريق إلى الماء
شبه به الدين لأنه طريق إلى ما هو سبب الحياة الأبدية (ومنهاجا) طريقا واضحاً في الدين ، من نهج الأمر :
إذا وضع .

واعلم أن هذه الآيات أبانت أن شرعية محمد وشرعية موسى وشرعية عيسى عليهم الصلاة والسلام متباينات
وهناك آيات أخرى تقدمت وستأتي أن الشرائع متفقات كما في قوله تعالى « شرع لكم من الدين ما وصى به
نوحا الخ » فآيات الاتفاق راجعة إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وفعل الفضائل العامة
واجتناب الرذائل .

فأما الاختلاف بين هذه الديانات في القروع كطرق العبادات وبعض الأحكام التي تتغير بتغير الأزمنة ،
لأن الله جبل هذا العالم على الاختلاف (ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة) جماعة متفقة على شرعية واحدة
ودين واحد لا اختلاف فيه (ولكن) أراد أن يختبركم ، فكما غير بين صوركم وأخلاقكم وأوطانكم
وأحوالكم غير بين شرائعكم (ليلوكم) يختبركم (فيما آتاكم) من الشرائع المختلفة ، هل تعملون بها أم لا ؟
وهل تدعون لها معتدين أن اختلافها مقتضى الحكمة الإلهية بنظركم الثاقب وفهمكم لما تشاهدون من نظامنا
العجيب الدال على الحكم في الاختلاف في المشاهدات الحسية التي يترتب على اختلافها الآثار النافعة (فاستبقوا
الحيرات) فابتدروها انتهازا للفرصة فلا تشغلوا الفكر فيما يوقعكم في الشك والريب كالاختلاف المذكور
فلا تقولوا لانبأ بالشكوك التي تجول بخواطرننا ، ولنسر في ديننا ولا نسأل عن هذا الاحتراق في أفئدتنا
الناجم من الشكوك المؤلمة ، بل يجب الفكر في أسبابه لأننا إنما نختبركم لتظهر آثار قواكم الفكرية ومجائب
عقولكم ، فلي أولى الأبواب منكم أن يكفوا على الفكر في كل ما اشتبه لأننا خلقنا عقولكم لهدايتكم ،
فالكذب السامية جاءت لفتح باب الفكر ، وبالفكر فيما التبس تكون الهداية (إلى الله مرجع جميعا)
وكيف ترجعون إليه ناشرين بلها متحيرين فهو علم بالمقصرين منكم والبادرين (فينبشكم بما كنتم فيه تختلفون)
فيزل المقصرين عن درجة البادرين (وأن احكم بينهم بما أنزل الله) أي أنزلنا إليك الكتاب وأن نحكم بينهم
أي والحكم بما أنزل الله (ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك) أي يضلوك
أجبار اليهود فتحكم لهم وتقضى على خصومهم من اليهود على أن يؤمنوا بك فيتبعك عامة اليهود كما تقدم
(فإن تولوا) عن الحكم النزل وأرادوا غيره (فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) أي ذنب التولي
عن حكم الله الذي هو بعض ذنوبهم الكثيرة (وإن كثيرا من الناس لفاسقون) متمردون في الكفر
(الحكم الجاهلية يفتون ؟) وهو الليل والداهنة في الحكم ومتابعة الهوى كما يريد بنو النضير .
وقد تقدم هذا في مقدمة هذا القصد (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ؟) يعني أي حكم أحسن
من حكم الله إن كنتم موقنين أن لكم ربا وأنه سبحانه عدل في أحكامه ، اه القصد السادس .

المقصد السابع

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ
يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ فَتَرَىٰ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ
يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْمِي أَنْ نُصِيبَنَّ دَائِرَةَ فَمَعَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ

عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ * وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهْلَاءَ الَّذِينَ اقْتَسَمُوا
بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ، حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ ، فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٌ عَلَى
الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ، ذَلِكَ
فَضَّلَ اللَّهُ يَوْمِيهِ مِنَ بَشَرِ اللَّهِ وَأَسْمِعُ عَالِمٍ * إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ
آمَنُوا ، فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ
هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ *
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ
وَأَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ * قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ
وَعَضِبَ عَلَيْهِ ، وَجَمَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن
سَوَاءِ السَّبِيلِ * وَإِذَا جَاءوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ ، وَاللَّهُ
أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ * وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَأَكْثِلِهِمُ
السُّخْتُ ، لَيْدِسَ مَا كَانُوا يَمْتَلُونَ * لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ ،
وَأَكْثِلِهِمُ السُّخْتُ ، لَيْدِسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ
وُلَعِنُوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ
إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طَمَعِيَانًا وَكُفْرًا ، وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعِدَاةَ وَالْبَغِضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَلِمًا
أَوْ قَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُنْفِسِينَ * وَلَوْ
أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ، وَلَا دَخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ *
وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن
تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَمْتَلُونَ *

التفسير اللفظي

يروى أن عبادة بن الصامت قال : إن لى أولياء من اليهود كثيرا عددهم شديدة شوكتهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولايتهم ولا مولى لى إلا الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبى ابن سلول للنبى : لا أبرأ من ولاية اليهود فإنى أخاف الدوائر ولا بد لى منهم .

وأيا لما اشتد الأمر على طائفة من الناس فى وقعة أحد وتخوفوا أن يدال عليهم الكفار ، قال رجل من المسلمين : أنا ألحق بفلان اليهودى وأخذ منه أمانا فى أخاف أن يدال علينا اليهود ، وقال رجل آخر : أنا ألحق بفلان النصرانى من أهل الشام وأخذ منه أمانا .

وأيا كان أبو لبانة بن عبد المنذر قد بعثه النبى صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة حين حاصروهم فاستشاروه فى النزول وقالوا : ماذا يصنع بنا إذا نزلنا ؟ فجعل أسبعه فى حلقه مشيرا إلى أنه اللدغ وأنه يقتلكم .

هذه هى الأسباب التى ذكرها المفسرون الأجلاء لنزول هذه الآية التى تراد لتهدئنا اليوم وتعلمنا كيف نكون أمة عزيزة الجانب موفورة التزلة بأعقاد الكلمة وهى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) أعوانا وأعوانا على أهل الإيمان بالله ورسوله .

ألا ترون أيها المؤمنون أن بعض اليهود أعوان بعض عليكم ؟ وبعض النصارى أعوان بعض عليكم ، فكيف تتخذون منهم أولياء ؟

إن من يتخذ منهم أعوانا فإنه منهم ، وهو يكون ظلما لنفسه ولأئمة بعمادته أعداءه وهذا هو قوله (بعضهم أولياء بعض) إلى قوله (والله لا يهدي القوم الظالمين) .

ثم أخذ يفصل ذلك بنحو ما تقدم فى الأحاديث فقال (فترى الذين فى قلوبهم مرض) نفاق (يسارعون فىهم) أى فى مواليتهم (يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة) من دوائر الزمان بأن ينقلب الأمر وتكون الدولة للكفار (فسئى الله أن يأتى بالفتح) لرسول الله صلى الله عليه وسلم على أعدائه وإظهار دينه على الأديان كلها وإظهار المسلمين على أعدائهم من الكفار واليهود والنصارى وفتح مكة وفتح قرى اليهود تكبير وفدك ونحوها من بلادهم (أو أمر من عنده) مثل أن يقطع أصل اليهود من أرض الحجاز ويخرجهم من بلادهم بلا كلفة وتص ، كما ألقى الرعب فى قلوبهم فأخلوا ديارهم وخربوها بأيديهم وحملوا إلى الشام (فيصبحوا) أى يصبح للناقصون المذكورون (على ما أسروا فى أنفسهم ناديين) على ما بطنوه من الكفر والشك وعلى موالاة هؤلاء ولذلك تحقق ما ذكر .

واعلم أن عسى من الله واجب ، لأن الكريم إذا أطمع فى خير فعله وهو بمنزلة الوعد لتعلق النفس به ورجائها له . وهنا يحظر سؤال يقال ماذا يقول المؤمنون حينئذ ؟ فقال (ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم ؟) أى يقول المؤمنون بعضهم لبعض تعجبا من حال الناقصين وفرحا بما من الله عليهم من الإخلاص (حبطت أعمالهم) أى بطل ما كانوا يعملون من الخيرات لأجل ما أظهره من النفاق وموالاة اليهود (فأصبحوا خاسرين) دنياهم بافتضاحهم لمواليتهم من هزمهم الله وفى الآخرة أيضا بإحباط نواب أعمالهم .

الكلام على الردة

اعلم أنه قد ارتد من العرب فى أواخر عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث فرق : بنو مدليج ، وبنو حنيفة ، وبنو أسد . وسبع فرق فى عهد أبى بكر رضى الله عنه : فزارة ، وغطفان ، وبنو سليم ،

وبنو ربوع ، وعضن نعيم وكندة ، وبنو بكر بن وائل . وفرقة واحدة ارتدت في خلافة عمر بن الخطاب :
وهم غسان قوم جيلة بن الأيهم .

هؤلاء هم الذين ارتدوا من العرب في زمان النبوة وبعدها إلى زمن عمر رضي الله عنه .

قتال أهل الردة

أما الفرق التي ارتدت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن بني مدلج كان رئيسهم ذا الحمار
الأسود العنسي ، تنبأ باليمن واستولى على بلاده ، ثم قتله فيروز الديلمي ليلة قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم
من عندها وأخبر الرسول في تلك الليلة فسر المسلمون وآتى الخبر في أواخر ربيع الأول .

وأما بنو حنيفة : فهم أصحاب مسيلة الكذاب ، تنبأ وكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« من مسيلة رسول الله إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن الأرض نصفها لي
ونصفها لك » .

فأجاب رسول الله : « من محمد رسول الله إلى مسيلة الكذاب . أما بعد : فإن الأرض لله يورثها
من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » فخاربه أبو بكر بجند من المسلمين ، وقتل كما سيأتي .

وأما بنو أسد : فهم قوم طليحة بن خويلد ، ولقد تنبأ فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خالدا
فهرب بعد القتال إلى الشام ثم أسلم وحسن إسلامه .

هذه هي الفرق التي ارتدت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الفرق السبع التي ارتدت في زمن أبي بكر رضي الله عنه ، فاعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما قبض
ارتدت عاتمة العرب إلا أهل المدينة وأهل مكة وأهل البحرين من بني عبد القيس ، فإنهم ثبتوا على الإسلام
ونصر الله بهم الدين .

ولما ارتدت من ارتدت من العرب ومنعوا الزكاة هم أبو بكر بقتالهم ، وكره ذلك أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم .

وقال عمر : كيف قاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى
يحولوا : لا إله إلا الله ، فمن قالها فقد عصم مني ماله ودمه إلا بحقه وحسابه على الله » فقال أبو بكر :
وأنت لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الزكاة حق للمال ، والله لو منعوني عناقا أو قال عقلا كانوا
يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لغاتلتهم على منعها .

وقال أنس بن مالك : كره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قتال مانعي الزكاة وقتلوا من أهل القبلة
قتل أبو بكر سيفه وخرج وحده فلم يجدوا بدا من الخروج على أثره .
وقال ابن مسعود : كرهنا ذلك في الابتداء ثم حمدناه في الانتهاء .

وأثنى أبو حصين على أبي بكر لبسائه وقال : إنه أفضل من ولد جد النبي لقتاله أهل الردة .
ولقد أرسل خالد بن الوليد في جيش كثير إلى بني حنيفة بالجماعة وهم قوم مسيلة الكذاب ، فأهلك الله
مسيلة على يد وحشي غلام مطعم بن عدي الذي قتل حمزة .

والفرق السبع التي ارتدت في زمن أبي بكر لما حاربها رجعت إلى الإسلام بمجيوش من الصحابة
ومن معهم .

وأما التي ارتدت في زمن سيدنا عمر فهي غسان قوم جيلة بن الأيهم تنصروا وساروا إلى الشام ،

من هم القوم الذين يحبون الله ويحبهم الله

هم الصحابة الذين قاتلوا أهل الردة وأهل البين ، وقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل البين كما أثنى على الصحابة إذ قال : « أناكم أهل البين هم أرق أئمة وألين قلوبا ، الإيمان بمان ، والحكمة بمانية » وكذلك الأنصار الذين هم قسم من الصحابة وقوم من البين . منهم ألفان من النخع وخمسة آلاف من أهل كندة وبجيلة وثلاثة آلاف من أخلاط الناس جاهدوا يوم القادسية مع عمر ، وكذلك الفرس « لأنه عليه الصلاة والسلام مثل عن القوم الذين يحبهم ويحبونه فضرب يده على عاتق سلمان وقال هذا وذووه » .

هؤلاء هم الذين وردت الأحاديث المختلفة بأنهم الذين يحبهم الله ويحبونه وأن ذلك معجزة ، فإن ردة العرب ورجوعهم للإسلام ونصر الله للمسلمين بمجنوده ، كل ذلك كان مفسيا .
واعلم أن ما في هذه الأحاديث ليس حاصرا لمن يحبهم الله ويحبونه ؛ فإن معنى حب الله العبد : إرادته الهدى والتوفيق له في الدنيا وحسن الثواب له في الآخرة .

ومعنى محبة العباد له : إرادة طاعته والتحرز من مصيبته ، وليس ذلك خاصا بهؤلاء ، بل إن الأمم الإسلامية كلها حمدت أمة جاءت أم ، حتى إنك لترى التار الذين جاءوا من بلادهم وأزالوا الدولة العباسية على يد أبناء جنكيزخان وقتلوا الخليفة العباسي وحكموا الإسلام هم الذين أسلموا بعد ذلك ، وهم في بلاد الروسيا الآن وعلى نهر فولجا وغيره ويلفون عشرات الللايين .

وكذلك يوجد أم أسلمت في جزائر الهند الشرقية نحو ٦٢ مليوناً من جاوه وما والاها من البلدان ، وكذلك في الصين وفي السودان ولا يزال الإسلام ينتشر للآن .

أفليس هؤلاء من الذين يحبهم الله ؟ نعم ! يجب الله من صلح من هذه الأمم وقام بالأمر خير قيام .
وكذلك أسلم في زماننا من عطاء الإنجليز اللورد هدى ، وقد قابلته فرأيت رجلا عظيما بعد ما قرأت رسائله في الإسلام خصوصا بعد ما زار الأقطار الحجازية وأدى فريضة الحج ، فكل هؤلاء داخلون في الهبة المذكورة .

فإنه بهذه الآيات يقول لنا : كما ارتدت أمة عن الإسلام دخلت فيه أمة أخرى ، لأن الإسلام وحى أراد الله بقاءه ليكون من التوازن التي ينصبها الله للعدل وللحياة في الأرض ، فهذا هو قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه) إلى قوله (والله واسع عليم) ومعنى (أذلة على المؤمنين) عاطفين عليهم مثل الذين لهم جمع دليل لاذلول فإن جمعه ذلك ، وقوله (أعزة على الكافرين) أي شداد متخلين عليهم من عزه إذا غلبه وقوله (يجاهدون في سبيل الله) صفة أخرى لقوم ، وقوله (ولا يخافون لومة لائم) عطف على يجاهدون ، فهم جامعون للجاهدة في سبيل الله والتصلب في دينه ، وقوله (ذلك) أي التقدّم من الأوصاف (فضل الله يؤتية من يشاء) يمنحه ويوفقه له (والله واسع عليم) كثير الفضل عليهم بمن هو أهله .

ولما أتم الكلام على الردة المذكورة في غضون النفاق لمنسبتها له ولقربها منه لاقترب المنافق من مراتب الكافرين ، وازدلافه إلى دركات المرتدين أخذ يتكلم على النفاق والموالة ، ومن الذين نوالهم فقال (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون) .

لما أسلم عبد الله بن سلام قال يا رسول الله « إن قومنا بنى قريظة والنضير هجرونا وفارقونا وأقسموا أن لا يجالسونا ، فنزلت فقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عبد الله بن سلام : رضينا بالله ربا ، ورسوله نبيا ، وبالْمُؤْمِنِينَ أولياء » .

واعلم أن الآية عامة ولا سبب من الأسباب الواردة يخصصها ، فهو يقول : إن أهل معوشكم وموالاتكم

هم المؤمنون الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم متواضعون لامتكبرون عليكم كما تقدم في قوله تعالى (أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) ثم أبان أن من اتبع هذا الفريق فإنه فائر لأنهم هم الغالبون ، وهذا قوله تعالى (ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) يعني فإنهم هم الغالبون لكن وضع الظاهر موضع الضمر تعظيما لشأنهم .

ثم أخذ بشرح الموضوع زيادة إيضاح لأهميته فقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين آوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين . وإذا ناديتهم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) .

والمنى أن أهل الكتاب الذين اتخذوا الدين هزوا ولعبا والكفار وهم عبدة الأصنام ، لا يجوز للمسلمين أن يتخذوهم أضرارا وأولياء ، وهذا على قراءة النصب بمطف الكفار على الدين اتخذوا دينهم ، وقرأ بالجر أبو عمرو والكسائي ويقوب فيكون الذين اتخذوا الدين هزوا ولعبا من أهل الكتاب ومن عبدة الأوثان وهم الكفار معا ، وعلى كل من القراءتين لا يجوز موالاتهم .

روى أن نصرانيا بالمدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمدا رسول الله، قال أحرق الله الكذاب، فدخل خادمه ذات ليلة بنار وأهله نيام فتطير شررها في البيت فأحرقه وأهله .

وروى « أن رفاعة بن زيد وسويد بن الحارث أظهرا الإسلام ثم ناققا ، وكان رجال من المسلمين يوادونهما فتعنى الله عن موالاته هؤلاء جميعا » وقوله (واتقوا الله) أى بترك ما نهاكم عنه ، وقوله (إن كنتم مؤمنين) أى بوعدته ووعيده ، وقوله (ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) لأن السفه يؤدى إلى الجهل بالحق والمزور به والعقل يمنع منه .

ثم إن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن من يؤمن به فقال « أومن بالله وما أنزل إلينا » إلى قوله (ونحن له مسلمون) فقالوا حين سمعوا ذكر عيسى عليه السلام : لانعلم دينا شرا من دينكم ، فقال الله له (قل) لهم (يا أهل الكتاب هل تعلمون منا ؟) هل تتكفرون منا وتسيئون ؟ يقال : نعم منه إذا أنكروه واتمم إذا كافأه (إلا أن آتانا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وأن أكثركم فاسقون) أى لاتتكفرون منا إلا إيماننا بالله وبما أنزل إلينا من القرآن وما أنزل إلى الأنبياء واعتقاد أن أكثركم فاسقون ، وهذا على حد قول الشاعر :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع الكتاب

فهل الحق ينكر ، أو الخير يباب ؟ آتانا بالأنبياء الذين أرسلهم الله فنصنم علينا واعتقدنا أنكم فاسقون خارجون عن سنن الحق بتحريفكم في دينكم وكفركم بديننا وهذا صدق . فكيف تتكفرون وتسيئون ذلك ؟ وكيف تقولون لانعلم دينا شرا من دينكم (قل) لهم يا محمد (هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله) جزاء وثوابا عند الله ، والثوبة في الخير كالعقوبة في الشر (من لعنه الله و غضب عليه وجعل منهم القرعة والخنازير) بدل من شر : أى بشر من أهل ذلك ، وهؤلاء هم اليهود أبعدم الله من رحمته ومسخ بعضهم قرعة وخنازير وهم أصحاب السبت ، إما مسخا جسما وإما مسخا معنويا بأن صاروا مقلدين كالقرود وذوى شهوات كالخنازير بسبب المعاصى التى ارتكبوها بخالفه التوراة (وعبد الطاغوت) معطوف على صلة من : أى أطاع الشيطان فيما سؤل له .

وفي معناه السجل الذى عبده الكهان والأجبار والرهبان الذين اتبعوهم فيما أحلوا وحرموا (أولئك) للمؤمنون (شر مكانا) وإذا كان مكانهم شرا فهم أولى بالشر (وأضل عن سواء السبيل) أى قصد الطريق

للتوسط بين غلوّ النصارى وقدح اليهود (وإذا جاءكم قالوا آمنا) أى اليهود، فإنهم ناقضوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عامة المنافقين (وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به) أى يخرجون من عندك كما دخلوا (والله أعلم بما كانوا يكتمون) من الكفر ، وفيه وعيد لهم (وترى كثيرا منهم) أى من اليهود أو المنافقين (يسارعون في الإثم) أى ما يختص بهم من الحرام (والمدوان) ما يتعدى إلى غيرهم (وأكلهم السحت) أى الحرام (لبس ما كانوا يعملون) لبس شيئا عملوه (لولا ينهائم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) لولا إذا دخل على الماضى أفاد التوييح ، وإذا دخل على المستقبل أفاد التحضيض .

يقول الله هلا ينهائم هؤلاء العلماء الزاهدون والعابدون عن قول الإثم وأكل الحرام (لبس ما كانوا يصنعون) وهذا توييح لهم وتفريع أشد من تفريع العامة الذين قرعهم على عملهم ، وهؤلاء قرعهم على صنمهم ، والصنع لا يكون إلا بعد التروى .

وهؤلاء العلماء قد أمسكوا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قصدا وعمدا للمحافظة على رؤسهم وأخذ الأموال بالباطل ، والعالم أولى بالعقاب من الجاهل .

فالعلماء أقرب الناس إلى العذاب في كل أمة متى قصروا عن النصيحة للأئمة .

ولقد كان اليهود أغنياء ، فلما كانت أيام النبي صلى الله عليه وسلم قل مالهم ، فقالت اليهود إن الله ممسك مقتر ، وهذا قوله (وقالت اليهود يد الله مغلولة) فهو مجاز ، إما عن البخل أو الفقر (غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) دعاء عليهم بالبخل والتكد أو بالفقر والسكنة ، أو بخل الأيدي حقيقة ليكونوا أسرى في الدنيا ويوم القيامة (بل يدها مبسوطتان) نهي اليد مبالغة في نهي البخل وإثبات الجود (ينفق كيف يشاء) أى يرزق كما يريد ويختار ، فيوسع على من يشاء ويقتر على من يشاء (وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا ، وألقينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة) فلا تتوافق قلوبهم (كلا أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) فترى النصارى مختلفين مذاهب دينية وعقائد .

وهكذا اليهود وذلك موجب لتفرق الكلمة ، فكلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله بالتخاذل (وسعون في الأرض فسادا) أى الفساد ، وهو اجتهدهم في الكيد وإثارة الحرب والفتن وهتك المحارم (والله لا يحب الفاسدين) فلا يجازيهم إلا شرا (ولو أن أهل الكتاب آمنوا) بمحمد صلى الله عليه وسلم (واتقوا) ما ذكرناه من المعاصي (لسكفنا عنهم سيئاتهم ولأدخلناهم جنات النعيم . ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل) بإذاعة ما فيها من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والقيام بأحكامهما (وما أنزل إليهم من ربهم) أى سائر الكتب المنزلة (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) أى لوسع الله عليهم أرزاقهم بأن يفيض عليهم بركات من السماء والأرض أو بكثره ثمر الأشجار وغلة الزرع ونموه ووفرته (منهم أمة مقتصدة) متوسطة في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم (وكثير منهم ساء ما يعملون) أى بش ما يعملونه، وفيه تحجيب : أى ما أسوأ عملهم وهو المعاندة وتحريف الحق والإعراض والإفراط في العداوة . انتهى التفسير اللفظي .

لطائف

(١) اللطيفة الأولى : (يا أيها الذين آمنوا لاتخذوا اليهود والنصارى أولياء .)

(٢) اللطيفة الثانية : (قل يا أهل الكتاب هل تقصون منا ؟) الآية .

(٣) اللطيفة الثالثة : (لولا ينهام الربايون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السبت لبس ما كانوا يصنعون) .

(٤) (كلا أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) .

اللطيفة الأولى

ليس المقصد من اليهود والنصارى خصوصهما ، وإنما ذلك يراد به أن يحفظ كيان السولة ولا يفرق الجمع بالتخاذل والاتفاق السرى مع الأعداء من أى دولة ومن أى دين ، وإلا فقد جاء التار من جهة المشرق وأزالوا دولة العرب وأخذ معهم الوزير العلقمى سرا وذهبت السولة لهذا القدر .

فهل كان يجوز لذلك الوزير ؟ ذلك لأنهم ليسوا يهودا ولا نصارى بل هم مجوس . كلا لا يجوز موالاتهم قال الشاعر إذ ذاك :

يا أمة الإسلام قومي واندي وابني على ماتم للمصمم
دست الوزارة كان قبل زمانه لابن القرات نصار لابن العلقمى

وهذا الوزير كان شيعيا وأراد بذلك النكاية فى أهل السنة الذين هم سنيون .

ثم إن التار خربوا الديار وفتكوا بالأمة فتكاشينا بسبب موالاته الوزير لهم وانشقاقه على المسلمين .

وأىضا إذا عاهدنا أمة كناية فإننا نرى بهمهم ، وكذلك أهل النمة ندافع عنهم ونحوطهم بعنايتنا ، وإذا

عاهدنا قوما فلنصف بهمهم ونحارب معهم على أى دين كانوا ، وجاء فى سورة الممتحنة « لا ينهاكم الله عن الذين

لم يقاتلوك فى الدين ولم يخرجوك من دياركم أن تبرؤم وتصلطوا إليهم إن الله يحب القسطين . إنما ينهاكم

الله عن الذين قاتلوك فى الدين وأخرجوك من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك

هم الظالمون » .

فالقرآن يرجع فيه للعقل وللتنصير والبحث والتدقيق .

فأما العمل بالآيات بدون بحث فإنما هو فعل العافلين .

اللطيفة الثانية

يقول الله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم (هل تعلمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل

من قبل ؟ الخ) وأنا أورد حكاية مناسبة لهذه الآية . فأقول :

الحكاية

توجهت يوما إلى أحد أصحابى بدكانه جهة باب الخلق بالقاهرة فسلمت عليه فرد السلام ، وقد رأيت

رجلا ممما جالسا معه . قال : أنا أحب أن أعرفك بفلان البشر . قلت : كلنا مبشرون . قال ذلك الضيف :

وهل يبشر إلا بربن الله الوحيد ؟ قلت : كلنى بالعقل وليكن حكا . إما أن تقولوا إن العالم ليس له إله

وإما أن تقولوا له إله . فقال : وكيف ذلك ؟ قلت : إذا كان الله يترك العالم بلا هاد ولا مرشد مئآت الألوف

من السنين ؟ ثم يأتى فى آخر الزمان ويقول لهم : هذا هو ابنى الوحيد بهديكم ، أفليس ذلك معناه البخل

والجود ؟ والإله الذى يترك عباده هكذا سهيلا ثم يتذكرهم آخرنا ليس بكرم .

وإذن يكون هذا ليس بإله ! فالإله متصف بأجمل الصفات وأبهها ، تقولكم هذا ؟ معناه أنه لا إله

فى العالم .

فما سمع ذلك منى أعجمه بالكلام إلى جهة أخرى وقال : ما الذى فعله نبيكم وليس كل فضل له إلا فى فصاحة

القرآن بالإيجاز ؟ مع أن امرأ القيس قال : • قفا نيك من ذكرى حبيب ومنزل •

وهذا في الإيجاز لا ينقص عن القرآن . فقلت له : إذا كان هذا هو البلاغة في نظرك فاسمع مني (العالم منظم) وهذه الجملة على إيجازها تجمع التوراة والإنجيل والقرآن وجميع الكتب السماوية وسائر الديانات ، فهل أنا بقولي هذه الجملة الجامعة الآن أصبحت فوق النبيين ؟ قال : كلا ! قلت : إذن لأمعني لهذا القول . فقال : إن نبيكم عليه رجلا . قلت له : أنتم أخذتموها من قول الكفار (إنما يعلمه بشر) وأنا أقول لك : أي نبي لم يتعلم ؟ ألم يتعلم موسى ؟ ألم يتعلم عيسى ؟ أليس كل نبي لابد له من طريق يسير فيه ؟ أفليس يسأل الناس عنها ؟ أفليس له ظئر ترضعه ومرية ؟ قال : بلى ! قلت : هذا تعليم . ثم قلت له : أأنت ترى أن للمسلمين في المدارس المصرية وفي الأزهر تعلمون ؟ قال : بلى ! قلت : ومعلوم لم يكن لهم نظير في العلم أيام النبي صلى الله عليه وسلم . قال : نعم ! لأنهم كانوا جاهلية . قلت : فإذا كان الأمر كذلك ، وأن للدار على التعليم فلماذا لم تكن جميعا أنبياء !!

(يا فلان) أنا أقول الحق : إن هذه المحاورات التي يقولها للبشرون إنما جعلت لأكل الحبز ، وإلا فبأنه إذا أراد الناس الحق فلماذا ينكر النصارى على نبينا هدايته للناس .

أليس يأمرهم بفعل الطاعات وترك المعاصي ؟ قال : بلى ! قلت : أليس المسيح جاء ليهذب الناس فكرهه أتباع موسى وكفروه . قال : بلى ! قلت أنا : أشهد الله أن أكثر التدينين لا يريدون إلا الحبز واللبس والشهوات .

وهكذا قال علماءنا المفكرون : إن علماء الدين في أكثر الأمم عقولهم أقرب إلى عقول العامة يسمون للخبر .

انظر (يا فلان) ألسنا نقرأ كلام شكسبير الإنجليزي ، وروسو الفرنسي ، وجميع علماء الأمم يقرأ بعضهم كلام بعض بسرور ، فما بال القسيسين من النصارى يكرهون من جاء بعدهم ليهدي الناس إلى الحق . والحق أقول : إن هذا لأجل الحبز ، والإنسانية ضامة في هذه المجادلات والمحاورات .

فقال صاحب الدكان (يا فلان) إن هذا البشر يصل سرا صلاة إسلامية ، وهو في الجهر يمشي مع البشريين ويأكل من صناعة التبشير ، فوافق للبشر على ذلك .

اللطيفة الثالثة

حكاية مع شاب هندي

قابلني منذ أيام شاب هندي ، فرأيت له لباسا ملابس قطنية مغزولة باليد منسوجة بنسج غليظ الحيطان ومن هذا النسج (قلنسونه) على رأسه وثيابه على جسده . فقلت له : أهذا صناعة بلادكم ؟ فقال : نعم ! قلت له : أنت اليوم في مصر ، فهل يمنع أن تلبس كالمصريين ؟ فقال : لو فعلت ذلك لكنت خارجا عن الوطنية والمعهود التي أخذت علينا . قلت له : وكيف ذلك ؟ قال أخذ علينا المهند الوطني أن لا تلبس إلا منسج الهنديون وغزله الوطنيون بعد الثورة الهندية . قلت له : حدثني عنها . فقال : إن الهنود الوثنيين ليس بينهم رابطة لاختلافهم أديانا ، حتى إن كل جماعة منهم تبلغ ١٥ مليوناً في المتوسط لها دين خاص بها ، ولما أراد الرئيس غاندي (الزعيم الهندي) هو والرؤساء المسلمون الثورة لم يجدوا بابا يلجونه إلا مدرسة على كره الإسلاميه ، فقالوا للتلاميذ ابدوا بالإضراب فأضربوا فاتبعهم جميع الوثنيين ، وكان ما كان من هذا الليثاق الوطني ، وليس عندنا رئيس يخالف الليثاق ولا مرءوس . فقال قائل : إن الرؤساء في مصر قد يحطون في أعمالهم ، فقال : ليس عندنا كذلك ، بل الشعب واقف لهم بالمرصاد ، قال تعالى (لولا ينهائم الربانيون

والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يصنعون) فأعجبني حسن بيانه ، وأيقنت أن هناك روحا في الإسلام استجبت لم تكن من قبل « ولينصرون الله من ينصره إن الله لقوى عزيز » وهذه الحكاية تقدمت ولكن هنا زيادة تناسب القام .

اللطيفة الرابعة قوله تعالى ، كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ،

اعلم أن هذه القاعدة طبيعية إلهية ، لقد خلق الله أنواع الحيوان وسلط الآساد على الفزلان ولكنه قتل من نسل الصنف الأول وأكثر من نسل الصنف الثاني حتى يبقى ما هو مأكول لقله ما هو آكل ، وهكذا يجعل في نوع الإنسان قوانين لبقائه وشروطا لحياته .

ألا ترى أنه يحدث بين الدول تصادما واختلافا ؟ وهذا الاختلاف لولاء لأهلك بعض الأمم بعضا فيقولون : يجب حفظ التوازن ، ومق حفظ التوازن لا تسببت إحدى الدول بالأمم الصغيرة .

فلذلك نجد أم أوروبا تجتمع من جهة على إضعاف أهل الشرق ، ومن جهة أخرى لاتسمع واحدة منها لأخرى بابتلاع بلاد كثيرة خيفة أن تكبر عليهن وتعظم ، ومع ذلك ترام دائبين في إيقاع الفتن والشرور والعداوات بين الأمم الشرقية ليدوم لهم العز والسultan ويسودوا في بلادنا والرؤساء في بلادنا يوالونهم ، وهم يملثون قلوبهم حبا للجنح والشر ، فهذا هو إيقاد نار الحرب وذلك إطفائها . انتهى المقصد السابع .

المقصد الثامن

يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تَقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا ، قُلْنَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ * وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَصَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ

وَبَسْتَفْرِوْنَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدْقَةٌ كَانَا بَا كِلَانِ الطَّامَّةِ ، أَنْظَرُ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرُ
أَنِّي يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَاللَّهُ هُوَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ
قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ * لَمِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ
بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ * كَانُوا
لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ ، لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ
الَّذِينَ كَفَرُوا ، لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ
خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ
كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قِسِبِينَ
وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ
مِنَ الدَّمْعِ ثَمَّ اعْرِفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَا كَتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ
بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَمَّا بَهُمْ اللَّهُ بِمَا
قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ، وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا
وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ

التفسير اللفظي

اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد شج رأسه وكسرت ربايته ، وهذا قد تقدم في غزوة أحد ،
وهكذا أيضا تقدم حديث الأعرابي الذي أراد قتله بالسيف فسقط من يده وهو تحت الشجرة ، ثم تناول
السيف صلى الله عليه وسلم فأسلم الرجل جد أن تمكن النبي صلى الله عليه وسلم من قتله فلم يقتله .
وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بعثني الله برسائه فضقت بها ذرعا ، فأوحى الله تعالى إلي : إن لم تبلغ
رسالي عذبتك ، وضمن لي العصمة فقويت » .

وعن أنس رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرس حتى نزلت : يا أيها الرسول بلغ
ما أنزل إليك الآية فأخرج رأسه من قبة آدم ، فقال : انصرفوا أيها الناس فقد عصمتني الله من الناس

وهذا قوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك) أى جميع ما أنزل إليك ولا تراب أحدًا ولا تخف مكروها ولا تبال باستهزاء اليهود ولا بكرهة الناقدين الجهاد ولا باستئصال اليهود حكم الرجم الذى حكمت به ، وهو موافق للتوراة (وإن لم تفعل) وإن لم تبلغ جميعه كما أمرت (فما بلغت رسالته) فما أدت الرسالة ، لأن كتابان البعض ضيع ما أدى منها ، كما تبطل الصلاة بترك ركن فيها ، ويموت الحى بقطع رأسه أو قلبه أو عضو رئيس أيا كان من أعضائه ، وإن خفت الناس فقد حفظتكم منهم (والله يصمكم من الناس) وهذا عدة من الله وضمان أن يصم روحه من تعرض الأعداء (إن الله لا يهدي القوم الكافرين) لا يمكنهم مما يريدون بك .

وهكذا كل من كتم شيئا من الدين فإنه لم يبلغه ويكون ترك البعض كأنه ترك الكل .

ألا ترى أن رافع بن حلثة ، وسلام بن مشكم ، ومالك بن الصيف ، ورافع بن جرمة لما قالوا يا محمد : ألسنت زعم أنك على ملة إبراهيم ودينه وتؤمن بما عندنا من التوراة وتشهد أنها حق ؟ أجابهم قائلا : بلى ولكنكم أحدثتم وجعدهتم ما فيها مما أخذ عليكم من الوثائق وكنتم منها ما أمرتم أن تبنوه للناس ، فأنا بريء من أحدثكم ؟ قالوا : فإننا نأخذ بما فى أيدينا فإننا على الحق والهدى ولا تؤمن لك ولا تتبعك ، فما هو ذا يقول لهم : قد كنتم ، فكأن بعض الدين لم يجر فى الإسلام كما لم يجر فيها قبله ، وهذا هو قوله تعالى بعد ما تقدم (قل يا أهل الكتاب لستم على شئ) دين يتدبه (حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) ومن إقامة الدين الإيمان بحمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله (فلا تأس) لا تحزن عليهم لزيادة طغيانهم ، وقوله (إن الذين آمنوا الخ) قد بره : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم - مما أمامهم ، ولا هم يحزنون - على ما فاتهم (والصابغون) كذلك وإنما أفرد الصابغين دون الأديان لأنهم أخذوا إنكارا للأنبياء ، يقولون إننا لا نتبع إلا للملائكة ، فأما البشر فإنهم متساوون ، ويؤمنون أن للملائكة هم الذين يملونهم ، فقبل لهم : من لقمكم هذا ؟ فقالوا : هذا شرع إبراهيم ، قيل لهم : إبراهيم إذن نبيك ؟ فثبت أن البشر يكونون واسطة بين الناس وبين الملائكة ، والمهاجرة هناك ميسوطة فى كتاب [الشهرستافى] .

ومعنى هذه الآيات أن من آمن من أى دين وعمل صالحا فإن الله يجازيه على ذلك خيرا بالجنة وبالجنة من النار ، وقد تقدم نظيرها فى سورة البقرة (لقد أخذنا ميثاق بنى إسرائيل وأرسلنا إليهم رسلا يذكرهم) (كلما جاءهم رسول) منهم (بما لا يهوى أنفسهم فرسقا كذبوا وفرسقا يقتلون) فقوله كذبوا جواب كلما ، ورسلة كلما صفة رسلا (وحسبوا) أى بنو إسرائيل (أن لا تكون فتنة) أى أن لا يصيبهم بلاء وعذاب يقتل الأنبياء وتكذبهم (فعموا) عن الدين وعن الدلائل والهدى (وصموا) عن استماع الحق كما فعلوا حين عبدوا الصلج (ثم تاب الله عليهم) أى ثم تابوا فتاب الله عليهم (ثم عموا وصموا) كرهة أخرى (كثير منهم) بدل من الصمير (والله بصير بما يعملون) فيجزيهم . ثم أخذ يشرح حال النصارى بعد الفراغ من أمر اليهود فقال (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وقال للنج يابن إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله) هو ظاهر التفسير إلى قوله (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة) أى أحد ثلاثة ، أى يقولون إنه جوهر واحد ثلاثة أقانيم : أب ، وابن ، وروح القدس ، وهذه الثلاثة إله واحد . كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشماع والحرارة ، وغنوا بالأب الذات ، وبالأب الكلمة ، وبالروح الحياة ، وقالوا إن الكلمة هى كلام الله اختلطت بحمد اللسج اختلاط الماء باللبن ، وقالوا إن الأب إله ، والأبن إله ، والروح إله ، والكل إله واحد .

وهل للفرون قولاً ثانياً أن الثلاثة : الله ، ومريم ، وعيسى . آلهة ثلاثة ؛ والألوهية مشتركة بينهم . وكل واحد منهم إله ، قال تعالى (وما من إله إلا إله واحد ، وإن لم يقتضوا عما يقولون) ولم يوحداوا (ليمس الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى ليمس الذين بقوا على الكفر منهم (أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ؟) أى أفلا يتوبون بالإنهاء عن تلك العقائد (والله غفور رحيم) يغفر لهم ويرحمهم إن تابوا (ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة) كسائر النساء اللاتي يلازمهن الصدق (كانا بأكلان الطعام) ويفتران إليه افتقار سائر الإنسان والحيوان .

فهذا تبين ما عنوا به من الرسالة والصدق ، ولهما مشاركون من نوع الإنسان ، فأين الألوهية؟ وبين أيضاً النقص الذى يساويهما مع أصغر المخلوقات ، وهذا موجب للعجب من تصديق الألوهية ، وهذا قوله (انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أى يؤفكون) كيف يصرفون عن استماع الحق (قل) يا محمد لأتباع المسيح (أتتبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً ؟) وكل ما جاء على يده بتجليك الله له لا من نفسه ، فإذا كان هكذا فى مشاركة المخلوقات له فى النقص والكمال ، وليس له من نفسه نفع ولا ضرر فكيف يتبدون؟ وقوله « ما لا يملك » أى شيئاً لا يملك وهو عيسى عليه السلام (إن الله هو السميع العليم) بالأقوال والعقائد فيجازى عليها إن خيراً غير . وإن شراً فشر (قل) يا محمد (يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق) أى غلوا باطلاً فترهقوا عيسى عليه السلام إلى أن تدعوا له الألوهية (ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل) عن طريق الشرح الخفيف ، حتى أسلافهم وأئمتهم الذين ضلوا قبل مبعث محمد صلى الله عليه وسلم فى شريعتهم (وأضلوا كثيراً) شايعهم على بدعهم وضلالهم (وضلوا عن سواء السبيل) ضللاً عقلياً أخلاقياً (لمن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم) أى لعنهم الله فى الزبور والإنجيل على لسان داود وعيسى ؛ فأهل آية لما اعتدوا فى السبت لعنوا فيه وسحقوا قرده ، وأصحاب المائدة لما كفروا بعيسى أسبحوا خنازير ، وكانوا خمسة آلاف رجل (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) تقدم تفسير هذه الآية فى سورة البقرة بأوفى بيان (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه) أى لا ينهى بعضهم بعضاً عن المنكرات التى فعلوها (لبئس ما كانوا يفعلون) تعجب من سوء فعلهم (ترى كثيراً منهم) أى أهل الكتاب (يتولون الذين كفروا) يوالون المشركين (لبئس ما قدمت لهم أنفسهم) لبئس شيئاً قدموه ليردوا عليه يوم القيامة ، والمخصوص بالذم قوله (أن سحق الله عليهم) أن غضب عليهم ، وقوله (وفى العذاب هم خالدون) أى فى الآخرة (ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي) يعنى نبيهم كوسى وعيسى (وما أنزل إليه ما نخذهم أولياء) لأن دين الأنبياء لا يرضى بالشرك (ولكن كثيراً منهم فاسقون) خارجون عن دينهم ومتمردون فى شقاقهم . ثم أخذ يوازن ما بين النصارى واليهود مع المسلمين والمشركين فقال (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا) لشدة شكيمتهم وتضاعف كفرهم (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى) لأنك ترى أن دين المسيح يأمر بالمساحة والفضو والمغفرة وحب العدو والصدق والإحسان إلى الغريب والقريب ، ولكن اليهود على خلاف ذلك بل هم لا يريدون إلا أمتهم وحدها وهم قديما وحديثا لا يريدون إلا أنفسهم ولو أضروا الناس بذلك ، ثم أيد مودة النصارى بقوله (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا) أى علماء وعبادا (وأنهم لا يستكبرون) فهم متواضعون ؛ فالتواضع والإقبال على العلم والإعراض عن الشهوات كلها خصال محمودة وإن كانت فى كافرين .

زلت هذه الآية حين هاجر المسلمون من إيذاء الكفار بمكة كعثمان بن عفان وزوجه رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والزبير وعبد الله بن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف . وأبى حذيفة وغيرهم

وجميعهم ١١ رجلا وأربع نسوة ، وكان ذلك سرا في رجب في السنة الخامسة من البشة وهي الهجرة الأولى ثم خرج جعفر بن أبي طالب وغيره وهي الهجرة الثانية حتى صاروا اثنين وثمانين رجلا سوى النساء والصبيان فوجهت قريش وغدا على رأسهم عمرو بن إلياس ومهم هدايا للنجاشي وبطارقته ليردوهم إلى قومه . فقال عمرو بن العاص : قد خرج فينا رجل سفه عقول قريش وأحلامها وزعم أنه نبي وقد أرسل إليك رهطا فنسألك أن تردهم إلى قومنا ؛ فأحضر النجاشي المسلمين ، وقال : ما يقول صاحبكم في عيسى وأمه ؟ فقال له جعفر بن أبي طالب : يقول هو عبد الله ورسوله وكلمة الله وروح منه ألقاها إلى مريم العذراء ، ويقول في مريم إنها العذراء البتول ، ثم طلب منهم ماجاء في ذلك ققرأ جعفر سورة مريم وهو والقيسون والرهبان يسمعون ، فاعترضت صوعهم مما عرفوا من الحق فلم ينل عمرو بن العاص شيئا من المسلمين ورجع غنى حينئذ من عند النجاشي وبقي القوم عنده إلى سنة ست من الهجرة ، وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان لما مات زوجها فزوجها له والمهر أربعمائة دينار ، وأمر النجاشي أن يبعث إليها نساؤه مما عندهن من دهن وعود ، فوردت أم حبيبة إليه صلى الله عليه وسلم وهو يحاصر خيبر ، وكذلك جعفر وأصحابه وسبعون رجلا عليهم الثياب الصوف ، منهم ٦٢ رجلا من الحبشة وثمانية من الشام ، وسمعوا سورة يس من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكذلك جاء ثمانون رجلا ٤٠ منهم من نصارى بجران ، و٣٢ من الحبشة ، وثمانية من روم أهل الشام فآمنوا .

في هؤلاء وأمثالهم زالت هذه الآية وما بعدها ، وهو قوله تعالى (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آتانا كتابا كذبنا مع الشاهدين) من الذين شهدوا بأه حق وبنبوتة ، ولقد أرسل النجاشي ابنه أزهي إلى النبي صلى الله عليه وسلم في ٦٠ رجلا من أصحابه ، وكتب إليه يقول :

أشهد أنك رسول الله صادقا مصدقا ، وقد يا بعتك وبايعت ابن عمك جعفرا ، وقد بشت إليك ابني أزهي وإن شئت أن آتيتك بنفسي فعلت والسلام عليك يا رسول الله ، ففرق ابنه في البحر مع أصحابه (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين) أي وأي شيء حصل لنا حال كوننا غير مؤمنين بوحدة الله ، والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين (فأنابهم الله بما قالوا) عن اعتقاد (جنات تجري من تحتها الأنهار) إلى قوله (المستبين) أي الذين أحسنوا النظر والعمل واعتادوا الإحسان في الأمور كلها (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) وهو ظاهر التفسير ، انتهى المقصد الثامن .

المقصد التاسع

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا . إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا . وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ * لَا يُؤْخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْإِيمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا نَطَعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِنُوتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ . فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ

وَاحْفَظُوا إِيمَانَكُمْ . كَذَلِكَ يَسِّرُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ
 لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْمَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ
 وَيَسُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ * وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ
 وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا إِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا
 وَمَهَلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ . ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا
 ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا ، وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ
 مِنَ الْعَيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْحَقِّ فَمَنِ اعْتَدَى بِغَدِّ ذَلِكَ
 فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ، وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ
 مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ
 أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ ، فَمَا اللَّهُ عَمَّا سَفَّ ،
 وَمَنْ هَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ، أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا
 لَكُمْ وَالسِّيَارَةَ وَحُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا ، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ *
 جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ، ذَلِكَ
 لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . أَعْلَمُوا أَنَّ
 اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ، وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ
 وَمَا تَكْتُمُونَ . قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ
 يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَلَكُمْ
 تُسَوِّئُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَلُ الْقُرْآنُ تُبْدَلْ لَكُمْ فَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ
 قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ . مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ
 وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ *

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ،
 أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَلَا يَهْتَدُونَ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ
 أَنْتُمْ كَمَا لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ صَلَٰ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَىٰ اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَا بُنِيتُمْ بِمَا
 كُنْتُمْ تَسْأَلُونَ .

لما كان مدح النصارى ونواضعهم وإضافتهم ربما جزئ السليين أن يفعلوا كما فعلوا ويتركوا النساء
 ويكونوا رهبانا .

لأسيا أن النبي صلى الله عليه وسلم وصف القيامة لأصحابه يوما وبالغ في إنذارهم ، فرقوا واجتمعوا
 في بيت عثمان بن مظعون وانفقوا على أن لا يزالوا صائمين قانتين ، وأن لا يناموا على الفراش ، وأن لا يأكلوا
 اللحم والودك ، ولا يقربوا النساء والطيب ويرضوا الدنيا ، ويلبسوا السوح ، ويسبحوا في الأرض ، ويجبوا
 هذا كبريم ؛ فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « اللهم إني لم أؤمر بذلك ، إن لأنتمك عليكم حقا ،
 فصوموا وأنظروا ، وقوموا وناموا ، فإني أقوم وأنام وأسوم وأنظر وأأكل اللحم والدم وآتى النساء ،
 فمن رغب عن سنتي فليس مني » وزل (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تنسوا إن الله
 لا يحب المتدينين) في الإفراط في كسر الشهوات كما لا يجب للفرطين في الشهوات بفعل الحرام (وكلوا مما
 رزقكم الله حلالا طيبا) أي كلوا ما حل لكم وطاب مما رزقكم الله (واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون ،
 لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) هو ما يبدو من المرء بلا قصد ، كقولك لا والله ، وبلى والله ، وإليه ذهب
 الشافعي ، وقيل الحلف على ما يظن أنه كذلك ولم يكن ، وإليه ذهب أبو حنيفة (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم
 الأيمان) بما وثقت الأيمان عليه بالقصد والنية (فكفارته) أي كفارة نكته : أي الفسقة التي تسترته وتذهب
 إنع (إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) أي أن الكفارة
 بأحد أمور ثلاثة :

الامر الأول

- (١) إما أن يطعم عشرة مساكين بأن يهديهم ويصحبهم ، عند أبي حنيفة .
- (٢) أو يعطى لكل مسكين مد طعام ، وهو رطل وثلاث البغدادي من غالب قوت البلد عند
 الشافعي وكذا سائر الكفارات ، وهذا قول ابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ،
 ومالك وغيرهم .
- (٣) أو مدين من بر وهو نصف صاع لكل مسكين عند عمر وعطاء وعائشة ، وبه قال أهل العراق :
- (٤) أو مدين من الحنطة كما تقدم ، وهو نصف صاع ومن غيرها صاع ، وهو قول الشعبي والتميمي
 وسعيد بن جبير ومجاهد .
- (٥) أو مدا من البر لكل مسكين ونصف صاع من غيره ، مثل الفخر والشعير .
- (٦) وجوز أبو حنيفة إخراج القيمة في الكفارة كالنراهم والدنانير وإخراج الدقيق والحبز كذلك ،
 فمنحه أوسع للنهائ في هنا ، هذا هو الأمر الأول .

الأمر الثاني من الكفارات : الكسوة

- (١) وهو إما ثوب جامع كالمخضعة عند النخعي .
 (٢) أو ثوب واحد مما يقع عليه اسم الكسوة إزار أو رداء أو قميص أو عمامة أو سراويل أو كساء عند ابن عباس والحسن وعطاء وطاووس والشافعي .
 (٣) أو ما يجوز به الصلاة ؛ فللرجل ثوب وللرأة ثوبان : درع وخمار ، وهو أدنى ما يهزى في الصلاة وهو قول مالك .
 (٤) أو قميص وإزار ورداء ، وهو قول ابن عمر .
 (٥) أو ثوبان وهو قول سعيد بن المسيب وابن سيرين .

الأمر الثالث من الكفارات : المتق

فيجب إعتاق رقبة مؤمنة وأجزأت الكفارة عند أبي حنيفة ، هذه هي الثلاثة التي يغير بينها الخالف .

والنوع الرابع : الصوم

(فمن لم يجد) الكفارة (فصيام ثلاثة أيام) أي فإذا عجز من لزمته الكفارة في اليقين عن الإطعام والكسوة والمتق وجب عليه صيام ثلاثة أيام ، ومتق كان عنده قوته وقوت عياله يومه وليلته وفضل ما يطعم عشرة مساكين لزمته الكفارة بالإطعام ، وإن لم يكن عنده هذا القدر جاز له الصيام .
 وقال أبو حنيفة يجوز له الصيام إن لم يكن عنده من المال ما يجب فيه الزكاة .
 وقال الحسن إذا لم يجد درهمين صام ، وقال سعيد بن جبير ثلاثة دراهم .

والتابع في الصوم إما واجب عند ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة وأبي حنيفة وأحمد وأحد قولي الشافعي ، وإما لا يجب والتابع أفضل عند الحسن ومالك ، والقول الثاني للشافعي (ذلك كفارة أيمانكم إذا حلقتن) وحنتنم (واحفظوا أيمانكم) بأن تضنوا بها ولا تبدلوا لكل أمر أو بأن تبروا فيها ما استطعتم (كذلك) أي مثل ذلك البيان (يبين الله لكم آياته) أعلام شرايعه (لعلكم تشكرون) نعمة التعليم (يا أيها الذين آمنوا إنما الحمر والليسر والأضاب) الأصنام التي نصبت للعبادة (والأزلام) تقدمت في أول السورة (رجس) قدر تصاف عنه العقول (من عمل الشيطان) لأنه مسبب عن تسويله وتزيينه (فاحذنبوه) أي الرجس (لعلكم تفلحون) لكي تفلحوا بالاجتباب (إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الحمر والليسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة) وغيرها وخصهما بالله كره لعظم قدرهما (فهل أتم منتهون) هذا أبلغ حث على الانتهاء جاء بصيغة الاستفهام وهي أبلغ في الأمر .

واعلم أن الكلام على الحمر والليسر قد تقدم بأوسع بيان في سورة البقرة ، فارجع إليه إن شئت (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول) فيما أمرا به (واحذروا) ما نها عنه (فلين توليتن فاعلموا أنما على رسونا البلاغ للبين) وإذا كان عليه البلاغ فقد آذاه ، فلين أتم أضرتنم بأنفسكم .

فصل : في المظنومات

(ليس على الذين آمنوا وعمالوا الصالحات جناح فيما طعموا) مما لم يحرم عليهم (إذا ما اتقوا وآمنوا وعمالوا الصالحات) في أنفسهم (ثم اتقوا وآمنوا) بينهم وبين الناس (ثم اتقوا وأحسنوا) بينهم وبين الله (والله يحب المحسنين) فلا يؤاخذهم بشئ .

ولما كان عام الحديبية ابتلى الله المؤمنين بالصيد ، وكانت الوحوش تنشام في رحلم بحيث يتمكنون من صيدها أخذوا بأيديهم وطننا برماهم وهم محرمون فنزل (يا أيها الذين آمنوا ليلونكم الله بشئ من الصيد

تناه أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالقياس (والذي تناه أيديهم كالقوس والبيض وما لا يغدر أن يفر من صفار الصيد ، والذي تناه الرماح كبار الصيد كحمر الوحش .

وذلك الابتلاء كما ابتلى أصحاب السبت بصيد السمك فيه ، ولكن عصم الله المسلمين فلم يصطادوا (فمن اعتدى بعد ذلك) فساد في حالة الإحرام بعد النعي (فله عذاب أليم) في الدنيا فيوجع ظهره وبطنه عند ابن عباس ، وهذا قول أكثر المفسرين .

وأما قوله (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم) إلى قوله (واتقوا الله الذي إليه تحشرون) فقد تهدم تفسيره في مقدمة السورة . قال تعالى (جعل الله الكعبة) أي صيرها وسمى البيت كعبة لتكعبه ، وقوله (البيت الحرام) عطف مبين للكعبة وفيه للدح (قياما للناس والشهر الحرام والمهدى والقلائد ذلك لتعلموا الحج) .

ومعنى كون الكعبة قياما للناس أنها امتعاش لهم : أي أنها سبب امتعاشهم في أمر معاشهم ومعادهم يؤدي به الخائف ويأمن فيه الضعيف ، ويرجع التجار عنده ويتوجه إليه الحجاج والعمار ، والشهر الحرام في هذا المقام ذو الحجة ، لأن الحج يؤدي فيه .

والمراد بالمهدى : ما يهتدى إلى الحرم من الأنعام ، والقلائد : أي التم التي تهتدى وتقلد بنحو التحال أو لحاء الشجر أو غيرها ، وهي من عطف الحاس على العام .

وعصل القول : أن الله عز وجل يمتحن علينا معاشر المسلمين . يقول إن جعلت لكم بيتا تأتون إليه من كل فج عميق تحجون وتأمنون فيه على أنفسكم ، وفيه تؤدون للناسك وتهدون التمس القلادة بالقلائد وغير القلادة ، وكما جعلت لكم البيت حرما وملجأ وأمانا حرمت الشهر وأمرت بالكف عن القتال فيه ولو على سبيل التدب بعد النسخ .

من نظر إلى حال المسلمين اليوم في الهند والصين وبلاد جاوه والملايو والروسيا والحجازيين والنجديين وأهل البربر والسودانيين علم أن الكعبة حمن لهم وملجأ : مكان يتعارف فيه التناكرون ويجتمع فيه المتفرقون .

ومن اطلع على أحوال الحجاج في تادية المناسك : كالطواف والوقوف برفة وغيرها ورأى كيف يلقح المصري فكر الهندي ، والسكي عقل الجاوي والمليزي والصيني والياباني ؛ عرف كيف أصبح المسلمون في أقطار الأرض على نمط متقارب ومبدأ يكاد يكون واحدا .

فالكعبة وللحج سر مكنون ، والكعبة شمس تشرق أنوارها على المسلمين ، فكم بزغت من تحت أستارها الأنوار ، واستضاء بإشراقها كوكب سيار ، واستنار بنورها بدر النمام .

فإن بزغ في الهند كوكب طلع نوره في مكة المكرمة ، ومنها يشع على المسلمين بما ينقل الحجاج عن الحجاج ويذكر الصادرين أخبار الوارد .

ومن الآثار للشهودة والنفحات المهيودة والمعجائب المدودة ، ما آنته في إحدى السنين إذ لقبني علم صالح فاضل من علماء مكة صانها الله وحرسها . ولقد كنا تمارقنا قبل اللقاء بما كان يلقى إلينا من الأنباء من الحجاج الواردين والشيوخ الصالحين ، فلما التقينا تعارفت الأشباح كما تعافت من قبل ذلك الأرواح وتماجت النفوس ، وأخبرني أن ذلك التعارف القلبي بسبب ما قرأه في نظام العالم والأمم من الآراء العظيمة الموافقة للشريعة الإسلامية الفراء ، وباحثي حفظه الله في عجائب الماء وكيف يحلل إلى الأكسوجين والأودروجين ، ورأيته مسرورا بذلك وفرحاً . وقد قال : لاسعادة للإسلام إلا بتطبيق العلوم الطبيعية على الآيات القرآنية .

فحمدت الله عز وجل إذ جمع بين القلوب وأطلع على كل أرض من بلاد الإسلام كوكبا يضيء وبدرا مشرقاً .
ولقد قابلت مثله من أكثر الأقطار وهم جميعاً متحدو الأفكار وإن تاءت المسير .

أليس ذلك من آثار البيت الحرام ؟ فلولا تعارف الحجاج عند تأدية المناسك ما عرفت ذلك العالم
ولا عرفني .

ومن ذا الذي كان يخبرني خبره ويعرفني قدره ؟ ذلك من آيات الله !

ولقد كنت كتبت نحو ذلك في كتاب « القرآن والعلوم العصرية » منذ أربع سنين ، وقد قرأه العالم
الإسلامي وانتشر والحمد لله ، ولكني ما كنت أعلم أن ذلك الاجتماع يحصل في أيام حياتي ؛ فها أنذا أقول لك
أيها الذي ، قد تجمل الحق وسطع وظهرت آيات الله الكبرى ، فقد اجتمع المسلمون في هذه السنة في مكة
المشرفة أيام عيد الأضحي : أي أثناء طبع هذا التفسير ، وشكلت لجنة مؤلفة من علماء الهند وتركيا والأفغان
والشام وفلسطين ومصر والسودان المصري وغير المصري ، وبلاد روسيا وجاوه وجميع العالم الإسلامي
سنة ١٣٤٤ هـ . وهذا أول مجلس إسلامي اجتمع فيه المسلمون من سائر الأقطار يتشاورون في أحوال المسلمين
وجزيرة العرب ، وذلك بدعوة من الأمير ابن السعود .

ومن هذا تستدل على أن هذا التفسير ذو حظ عظيم ، لأنه ينشر أيام النهضة واغلاب الأحوال الإسلامية
من الانحطاط إلى السؤدد والرقى والسعادة والحمد لله رب العالمين . وهذا من السر المكنون الذي تضمنه
قوله تعالى « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس الخ » .

أليس هذا من العجب ؟ ومن ذا الذي كان يعلم هذه الأسرار قبل ظهورها إلا مبدعها وخالقها ، فذلك
قال بدها (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض وأن الله بكل شيء عليم) ولطالما كنت أقرأ
القرآن متفكراً في المعنى أيام الشباب ، فإذا وصلت هذه الآية تعجبت من قوله (ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في
السموات الخ) وأقول في نفسي : هل كونه الكعبة محل نسك وحج وعبادة يحتاج إلى هذه العناية أو تموزه
هذه الرعاية ؟ وما المناسبة لذكر علمه ما في السموات والأرض لذكر الكعبة وجعلها امتعاشاً للناس في أمر
دينهم وديانهم . فلما أن فهمت ما أبتته لك علمت أن القرآن مفعم بالأسرار مملوء بالحكم ، ولن يفهم الناس
منه إلا على مقدار ما آتاهم الله من العلم .

ولعلم أن ما ذكرناه من آثار الكعبة قطرة من بحر أو ذرة من جبل ، فإنك لو تصفحت ما يجري
في الأم والممالك من تقلبات السياسة وتقلب القلوب ونشر الأخبار بواسطة الحجاج لقصيت العجب العجائب .
ولسوف يرق المسلمون بالمعارف والعلوم ، وتكون الكعبة مشرق شمسا ومصب أنهارها ؛
ومن يشي به .

ثم أخذ يرغب في الطيب من الأشخاص والأعمال والأموال وجيدها وينفر من الحثيث من ذلك كله
فقال تعالى (قل لا يستوي الحثيث والطيب ولو أهبك كثرة الحثيث) فالفرق بين الأشياء بالجودة والرداءة
لأكثرها والقلة ؛ فالحمود القليل خير من المذموم الكثير (فاتقوا الله يا أولى الألباب) فلا تأخذوا الحثيث
وإن كثرت وآثروا الطيب وإن قل (لعلكم تفلحون) راجين أن يفلحوا الفلاح .

الكلام على قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا الخ ،

اعلم أنه خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زاعت الشمس وصلى الظهر ، فقام على النبر فذكر
الساعة فذكر فيها أموراً عظيماً ، ثم قال : من أحب أن يسألني عن شيء فليسأل ، فلا تسألوني عن شيء
إلا أخبرتكم به مادمت في مقامى هذا ، فأكثر الناس البكاء وأكثر أن يقولوا ، فقام عبد الله بن حنيفة

اليهمي . فقال : من أبي ؟ قال : أبوك حذافة ، ثم أكثر أن يقول سلوى ، فبوك عمر على ركبته ، فقال :
رضينا بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد نبيا فسكت ، ثم قال : عرضت على الجنة والنار آتيا في عرض هذنا
الحائط فلم أركليوم في الجبر والنسر .

ولقد روى أن أم عبد الله بن حذافة قالت لعبد الله بن حذافة ما سمعت أبين قط أعق منك مامنت
أن تكون أمك فلرفت بعض ما يخبرف أهل الجاهلية فتضخمها على أعين الناس ؟ فقال عبد الله بن حذافة :
لو ألقني بعد أسود لاجفته .

وأبضا قد كان قوم يسألون رسول الله استهزاء ، فيقول الرجل : من أبي ؟ ويقول الرجل يجبل ناته :
أين نأقي ؟

وأبضا لما نزلت « وفيه على الناس حج البيت الحج » قالوا يا رسول الله : أتى كل علم ؟ فسكت ، فقالوا
يا رسول الله : أكل علم ؟ قال لا : ولو قلت ثم لوجبت .

ومما قال « وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، إذا أمرتكم بشئ فأتوا
منه بما استطعتم ، وإذا نهىكم عن شئ فاجتنبوه » .

وأبضا كانوا يسألونه عن الآيات فتبوا عن ذلك ، فنزلت هذه الآية (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن
أشياء إن تبد لكم تسؤم ، وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أي لا تسألوا عن أشياء إن تظهر
لكم نهيكم ، وإن تسألوا عنها في زمان الوحي تظهر لكم ، فمن سأل عن الحج هل يأمن أن يقول له : نعم
يجب في كل سنة فلا يطيقه الناس (عفا في عنها) أي عما سلف من الأئمة (واتفق غفور حلیم) لا يجادل
بالقوية (قد سألتها) الصبر للسألة التي دل عليها تسألوا (قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين) أي بسببها
حيث لم يأتمروا بها ، وقوله (ما جعل الله من بحيرة) إلى قوله (وأكثرهم لا يحفلون) تقدم تفسيرها
في مقدمة السورة ، ثم قال تعالى (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا
عليه آباءنا) لقصور عقولهم (أ) حسبهم ما وجدوا عليه آباءهم (ولو كان آباؤهم لا يملكون شيئا ولا يهتدون)
تفسيره ظاهر .

الكلام على قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الحج ،

عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : يا أيها الناس إنكم تفرعون هذه الآية « يا أيها الذين
آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم » ولا تضعونها موضعها ولا تدرعون ما هي ؟ وإلى سميت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول . « إن الناس إذا رأوا ظلما فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يمدحهم الله
بعتاب منه » أخرجه الترمذي وقل حسن صحيح ، وزاد أبو داود فيه « ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي
ثم يقدرون أن يغيروا ولا يغيروا إلا يوشك أن يمدحهم الله بعتاب » قال ابن مسعود : مروا بالمعروف واتمروا
عن المنكر ما قبل منكم ، فإن ردّ عليكم فعليكم أنفسكم .

واعلم أن هذا لا يصح إلا إذا كان من أمرناه بالمعروف أقوى منا ، فإن قدرنا على تأديبه بالقوة أدناه .
ثم قال إن القرآن نزل منه أي قد مضى تأويلهن قيل أن يزلن ، ومنه أي وقع تأويلهن على عهد
رسول الله صلى الله عليه وسلم بسير ، ومنه أي يقع تأويلهن في آخر الزمان ، ومنه أي يقع تأويلهن يوم
القيامة ، وهو ما ذكر من الحساب والجنة والنار ، فما دامت قلوبكم وأهواؤكم واحدة لم تلبسوا شيئا ولم يفتق
بعضكم بأس بعض ، فأمروا بالمعروف واتمروا عن المنكر إلى آخر كلامه .

ويضد بذلك أن القول إذا لم ينفع يترك ، وهذه لا ترهاها ، فإن المسلمين قد اتكفوا على مثل هذه الشبهة

من أمثاله وهو من العظماء ، ومثل هذا القول يجب أن لا تأخذه به ، بل علينا الجهاد باللسان وبالقلم ، والتحليل في توصيل الآراء إلى الناس كافة .

واعلم أن الأمة كلها كأنها نفس واحدة ، فإذا أمرنا بالمعروف ونهينا عن المنكر فقد ضمنا هذه النفس التي نحن بجزء منها .

وقد علمت فيما تقدم عند قوله تعالى « ومن أحيائها فكأنما أحييا الناس جميعا » أن الأمة كلها فضلا عن الناس أجمعين يؤثر فيها جهل فرد واحد منها أو فقهه أو كسله ، فنقص واحد نقص للجميع .

ويوافق هذا القول ما نقل عن عبد الله بن المبارك . قال : هذه الآية أو كد آية في وجوب الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر . لأن الله تعالى قال « عليكم أنفسكم » يعني أهل دينكم بأن يحفظ بعضكم بعضا ويرغبه في الخيرات وينفره عن القبائح والمكروهات ، والذي يؤكد ذلك أن معنى قوله « عليكم أنفسكم » أي احفظوا أنفسكم ، وهذا أمر بأن نحفظ أنفسنا ولا يتم ذلك إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

يقول مرفف الكتاب (التفسر) هذا هو القول الحق ، وإيالك أن تلتفت إلى قول في أي مسألة من

تفسير القرآن لا توافق الحقائق ، فما كل من قال أجاد ، وما ضل أكثر المسلمين إلا بالانكسار على أقوال بعض المتقدمين .

وهذا هو تفسير قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) أي لا يضركم

ضلال من ضل إذا اهتديتم ، ومن الاهتداء أن ينكر المنكر ، كما قال عليه الصلاة والسلام « من رأى منك

منكرا واستطاع أن يغيره فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه » والآية نزلت لما كان

المؤمنون يتحسرون على الكفرة ويؤمنون بإيمانهم (إلى الله مرجعكم فينبشكم بما كنتم تعملون) انتهى المقصد التاسع .

المقصد العاشر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا

عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِّنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ

الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ

ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَمِنَ الْآثِمِينَ * فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا

فَأَخْرَانِ يَشْهَدَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا

أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا ، وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * ذَلِكَ آدَاتِي أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ

عَلَىٰ وَجْهٍ أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ آيْمَانِهِمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمِعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ *

قد تقدم تفسير هذا المقصد في مقدمة السورة .

المقصد الحادي عشر

يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ *
إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ، وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ،
وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ، وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ
وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ، وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي ، وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ * وَإِذْ أُوحِيَتْ لِي الْحَوَارِيُّونَ
أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرِسُولِي ، قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ
مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ *
قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ
الشَّاهِدِينَ * قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا
لِأَوْلِيَانَا وَآخِرِنَا رَايَةً مِنْكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ * قَالَ اللهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ،
فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ * وَإِذْ قَالَ اللهُ
يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ الْهَلْبِينَ مِنْ دُونِ اللهِ ، قَالَ سُبْحَانَكَ
مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ، إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا
أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا
اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ
عَلَيْهِمْ ، وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عِبَادَتُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ
أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ، ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * اللهُ
مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ *

التفسير اللفظي

قوله (يوم يجمع الله الرسل) على حذف مضاف ، واتقدير اسمعوا خبر يوم يجمع الله الرسل (فيقول ماذا أجيتم ؟) أى أى إجابة أجيتم (قالوا لا علم لنا) بما كنت تعلم (إنك أنت علام الغيوب) فتعلم ما نعلم مما أجابونا وأظهروا لنا ، وما لم نعلم مما أضمرنا (إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك) بك من « يوم يجمع » والقصود أنه يورث الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجابتهم ، وقوله (يلد) ظرفا لنعق (أيدتك بروح القدس) قوتيك بجبريل عليه السلام أو بالكلام الذى يحيا به الدين أو النفس حياة أبدية ويظهره من الآثام (تكلم الناس في الهدى وكهلا) أى كائنا في الهدى ، وكهلا : أى تكلمهم في الطفولة والكهولة على حد سواء في كمال العقل والتكلم (وإذ علمت الكتاب) الكتابة وهى الخط (والحكمة) الفهم والاطلاع على أسرار العلوم (والتوراة والإنجيل) أى وعلمت التوراة والإنجيل (وإذ خلق من الطين كهيئة الطير يلقى فتفخ) أى يخلق وتصور من الطين كصورة الطير فتفخ (فيها) أى في الطير لأنها تكون مؤنثة (فتكون طيرا يلقى ، ونهرى الأكمة) أى وتشفى الأكمة ، وهو الأعمى المطموس البصر ، والأبرص معلوم (وإذ تخرج الونى يلقى) من قبورهم أحياء (وإذ كففت بنى إسرائيل عنك) أى واذكر نعمتي عليك (إذ كففت بنى إسرائيل الخ) إذ جنتهم بالبينات (بالهدايا الواضحات والمعجزات الباهرة) فقال الذين كفروا منهم) استمروا على كفرهم من اليهود ولم يؤمنوا (إن هذا إلا سحر مبين .) وإذ أوحيت إلى الحواريين (المهتمهم) وقدفت في قلوبهم فهو وحى إلهام كما أوحى إلى أم موسى عليه السلام (أن آمنوا بى ورسولى) أن هنا مفسرة (قالوا آتينا واشهد بأننا مسلمون) تفسيره ظاهر ، واذكر (إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة) أى هل إذا سأته ينزل علينا مائدة ، للمائدة الحوان الذى عليه الطعام ولا يسمى مائدة إن لم يكن عليه طعام ، إنما يقال خوان أو طبق ، وأصلها من ماد جمد إذا تحرك كأنها تجمد بما عليها من الطعام (قال) عيسى للحواريين (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) أى اتقوا الله ولا تسألوا ما لا ينهى أن يسأل عنه فى الإيمان بالأنبياء ، لأن المسوسات لا تؤدى إلى العقاب وتبوتها كما حصل فى بنى إسرائيل إذ رأوا كثيرا من الآيات وكانوا بها يكفرون .

فهذه المائدة لا تصيدكم قينا . ونفيع لليقين إنما هو البحث والعلم والتدقيق ، لأن علم الحس لاسلطان له على القلوب إلا ظاهريا ، فإن كنتم مؤمنين ومصدين فلا تسألوها واتقوا الله (قالوا يريد أن نأكل منها ونطمئن قلوبنا) بانضمام علم الشهادة إلى علم الاستدلال على كمال قدرة الله (ونعلم أن صدقتنا) فى ادعاء النبوة (ونسكون عليها من الشاهدين) حتى إذا استشهدتنا فتشهد عن عيان لاسماع الخبر ، وفرق بين الخبر والشهادة (قال عيسى ابن مريم) لما رأى أنهم لا يقلعون عنه (اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا) العيد يوم السرور العائد (لأولنا وآخرنا) أى فتخذ ذلك اليوم الذى تنزل فيه للمائدة عيدا نعظمه ونصل فيه نحن ومن يحىء من بعدنا ، يقال إنها نزلت يوم الأحد ، وقيل تكون المائدة عيدا يأكل منها أول طائفتنا وآخرها (وآية) عطف على عيدا (منك) صفة لها (وارزقا) للمائدة (وأنت خير الرازقين) أى خير من يرزق ، لأنه يرزق ويمطى بلا عوض (قال الله إني منزلها عليكم) إجابة لسؤالكم كما أجيب سؤال من فى السموات ومن فى الأرض ، ولكن ذلك يكون على مقدار حلمه ومقتضى سؤالهم ، وإن كان ذلك لا يتفق مع مصلحتهم كما أعطى النبي مالا والجاهل ضياعا وقرى (فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذابا لا أعذبه) أى لا أعذب ذلك العذاب (أحدا من العالمين) لأنى أعذب العلماء أكثر من الجهلاء إذا فرطوا ، وأنتم على حسب أخلاقكم وقوتكم رأيتم أن المائدة منقعة لكم دالة على حقية النبوة ، وأنا لا أخلط

العالم للشاهد وأخرق نوايينه إلا الحكمة ، فإذا لم تتم الحكمة ولم تؤمنوا فالقوم عليكم ، وهل يكون العذاب مصحلا في الدنيا أم يؤجل للآخرة ؟ احتمالان عند العلماء : وهل نزلت المائدة ؟

قال الحسن وبجهد : كلا لأنهم خافوا فلم تنزل ، فيكون معنى « إن منزلها عليكم » إن سألتهم بعد هذا الإنذار والتخويف ، وأكثر المفسرين على أنها نزلت .

وقيل المفسرون أنها نزلت سفرة حمراء بين غمامتين وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم ؛ فبكى عيسى عليه السلام وقال : اللهم اجعلني من الشاكرين ، اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة .

ثم قام فتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل ، وقال : بسم الله خير الرازقين ، فإذا سمكة مشوية بلا فصوص ولا عيون تسيل دما ، وعند رأسها ملمع ، وعند ذنبها خل ، وحولها من أنواع البقول ما خلا السكرات ،

وإذا خمسة أرغفة : على واحد منها زيتون ، وعلى الثاني حسل ، وعلى الثالث سمع ، وعلى الرابع جبن ، وعلى الخامس قديد ، فقال شمعون : يا روح الله ، أمن طعام الدنيا أم من طعام الآخرة ؟ قال : ليس منهما .

ولكنه اخترعه الله بقدرته ، كلوا مما سألتهم واشكروا بمددكم الله ويزدكم من فضله ، فقالوا : يا روح الله لو أرينا من هذه الآية آية أخرى ؟ فقال : يا سمكة احبي بإذن الله فاضطربت ، ثم قال لها : عودي كما كنت ،

فمادت مشوية ، فقالوا : يا روح الله كن أول من يأكل منها ، فقال : أنا آكل منها ؟ يا كل منها من سألها ؛ فغافوا أن يأكلوا منها ، فدعا لها أهل العاقبة والمرض والبرص والجذام والقعدين ، فقال : كلوا من رزق الله

لكم الشفاء وضميركم البلاء .

ويقال إنها بعد أن مكثت أربعين يوما يأكل منها الأغنياء والفقراء والصفار والكبار والرجال والنساء وتبقى متشوية حتى يبقى النوى ، فإذا فاء النوى طارت وهم ينظرون إليها حتى تتوارى عنهم ، وكانت تنزل يوما

ويوما لا تنزل ، فأوحى الله بحالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مأثقي ورزقي للفقراء دون الأغنياء ، فخطم ذلك على الأغنياء حتى شكوا وشككوا الناس فيها ، وقالوا زورن المائدة تنزل حقا من السماء ، فأوحى الله إلى

عيسى : أتى معذب من كفر على مخالفة ما شرطه عليهم .

وهناك كلام كثير في مسخ أناس يمدون بالمئات ونحو ذلك ، وقد كتبت أهم ما جاء في الروايات .

لطيفة في تحقيق هذا المقام

لما وصلت إلى هذا المقام واطلع عليه أحد أهل العلم القديين لهم قدم صدق في العلوم المصرية ، فقال :

(١) كيف يذكر في القرآن مثل هذا ؟ (٢) وما مثل هذه الحكاية إلا كما تروؤه في [ألف ليلة وليلة] ؟

من الذى يخترعه العقل البشرى شارحا للنفس وجالبا للأنس

ثم بعد هذا ماقائدة هذا القول لنا معاشر المسلمين ؟ وأى قائدة لنا في أن عيسى طلب أن تنزل مائدة

من السماء ؟

قلت : إن القرآن ليس فيه شيء من ذلك ، بل ليس فيه أن المائدة نزلت بدليل اختلاف المفسرين

كما رأيت ؛ فالقرآن لم يذكر تلك الحكايات ولم يعلنا ما جاء فيها ، بل جاء الأمر مطلقا ولم يقيد ولم يبين

ما المائدة المطلوب نزولها من السماء ، فأما كونها حكاية [ألف ليلة وليلة] فليس بغيرنا في شيء ، لأن

القرآن لم يهكره هذه الحكاية ، قال هذا حتى ؛ ولكن القرآن نفسه نزل فيه «ربنا أنزل علينا مائدة من السماء»

ونزول المائدة سواء أكان خبرا أم ملحا أم آخر مايا كله اللؤلؤ ، فذلك لا يمنع غرابتها ، فأما طهي الطعام

ونظام الأكل وبهجة المائدة فهذا ليس يفرح به إلا الجهلاء ، ولكننا لا نترق بين هذه الأمور ؛ فللمائدة

على المائدة . فتصريح القرآن بذلك هو الذى يحتاج للبحث .

وكيف ينقل أن المائدة تنزل من السماء ، وإذا كان ذلك غير ممكن من الطبيعة البشرية فهو غير ممكن من الأنبياء ، فإني قرأت لك ولعيرك أنه لولا أن الناس يرون رؤيا صادقة أو يسمعون بها من حولهم ماصتقوا الأنبياء ؛ فبناء على هذا كيف نصدق شيئا ليس في قدرتنا الحصول عليه من أنفسنا ؟ فكيف يأتي أنبياؤنا بأشياء ليست في فطرتنا حتى تبرز على يد أحد من الناس ، فأنس به ونقول : إنه ممكن في القطرة البشرية . والأنبياء بامتيازهم نبغوا فيه فصار معجزة لهم ، إن كل شيء أحتمله إلا هذه المائدة وتمقلها .

قلت له : إن الإخبار بالغيب بسبب الرؤيا الصادقة كما قلت في الفطر الإنسانية مع اختلاط الحق بالباطل فيه .

هكذا نرى أن فطرتنا الإنسانية فيها مبدأ ما جاء في القرآن على لسان المسيح ، قال : وكيف ذلك ؟ قلت : نحن في هذا القام نلجأ إلى عالم آخر ، قال : وما هو ؟ قلت : علم الأرواح ، قال : إن هذا العلم لا أصدقه ، قلت له : قل ماتشاء . ولكن قولك هذا يشاركك فيه سائر الجهلاء فإني كنت في البلاد القروية وأنا بالجامع الأزهر أسمع من الفلاحين هذا القول ، ويقولون عن أمور هذه الآخرة والجنة والنار وما أشبهها هذه أشياء أتم كبرتموها لأجل وعظنا ، فهذا الإنكار لا فرق فيه بين المتعلم والجاهل الآن ، والذي يجب أن يكون هناك فرق بحيث يقول العالم : أنا لا أصدق ، ولا أكذب حتى أقف على الحقيقة .

هذا هو العقل والحكمة ، فأما إنكار المتعلمين فإنما هو رياء ليظهروا أمام الناس أنهم فلاسفة ، والإنكار الآن هو الباب الأعظم لظهور الناس بمظهر العظماء والحكام ، وهم في أنفسهم ربما صدقوا بأخص الأشياء . فهذا الفريق من الناس ضرره عظيم ، بل يجب عليهم أن يتعلموا ، قال : أنا معك في إظهار التوقف لا الإنكار ، قلت : إذن أنت تتوقف في علم الأرواح ؟ قال نعم ، قلت : حسن ، وهل تظن أن أحدا منا يعرف جميع العلوم ؟ قال : كلا ! قلت : أفلسنا كل يوم نسمع كلام الأطباء في الوباء والقرات الحية التي تنفك بأجسامنا ونحن لم نشاهدها ، وكذلك في علم الفلك يقولون : هناك نجوم لا تقبل عن مائتي مليون ، ونحن لا نقول لهم كذبتهم ، قال بلى ! قلت : فها هنا علماء الأرواح الذين ظهروا في أوروبا ، وقد قدمت الكلام عليهم في سورة البقرة ؟ فتقرأ كلامهم وأنا معك ، إننا لانوقن به ولكننا نطلع عليه حتى نبحت فيه بأنفسنا فيما بعد ، ويكون ذلك الكلام معرضا للبحث منا لا أننا نعلمهم ، قال : هذا كلام حسن ، قلت : اقرأ ما نقلته عنهم في سورة البقرة ، فإن الجمعية الإنجليزية الرسمية الروحية قررت هذا العلم وأنه صحيح ، وأنا أطلب أن يبحث المسلمون فيه فيما بعد ، قال : حسن ، قلت له : انظر ما نقلته في كتاب [الأرواح] الذي ألقته . وتأمل كيف جاء فيه أن للأرواح سلطة على المادة الأصلية لاندركونها بعد ، وبفضل إرادة الروح تستطيع أن تضم العناصر الأصلية بعضها إلى بعض وتصوغ منها شكلا على حسب ما تريد ، وفيه هناك أن الأرواح تقدر أن تصوغ أعذية وفواكه وأدوية ، وهذه الأدوية قد يبرأ بها العليل وتصيغ أطعمة .

وقد ضربت الأرواح مثلا لذلك لما سألوها ، فقالت : إن علم الكيمياء كل يوم يأتي لكم بالمعجب العجيب وللأرواح آلات غير آلاتكم وهي الإرادة منهم وقدرة الله فوقهم ، وقالوا : إن الروح كلما كان أرقى كان أقدر على الصنعة في المادة ، وكلما كان أدنى كان أجهز .

وهذا ملخص مما نقل عن المعلم (ألان كاردك) وروى العلامة (وللاس) الإنجليزي أن الآنسة نيشول أحضرت زهورا وفواكه داخل غرفة محكمة التعلق وكانت في منزلي ، فبعد أن تناولنا الشاي لأننا كنا في فصل الشتاء دخلنا حجرة صغيرة مغلقة بإحكام ، وما مكثنا برهة من الزمان حتى لاح على المائدة التي جلسنا حولها كمية وافرة من الزهور منها شقائق النعمان والخزامى والأقحوان الأصفر وخلافها من الزهور الربيعية ،

وكل أوراقها غضة مكللة بالندى الرطب ، قال فيديتها كلها وحفظتها باعتماد بعد أن علقته عليها شهادة بحضارة من الحضور .

ثم قال : ومثل هذا الحادث تكرر مرارا في ظروف مختلفة في مئات الراوي . وفي بعض الأوقات يكون مع الزهور غبار يطلبا الحضور .

وفي بعض الجلسات طلب بعض الحضور إحضار دوار الشمس ، ففي زمن قليل انحطت على المائدة هذه الزهرة وعلوها ستة أقدام وجرتومتها مسكوة بكومة من التراب ..

أنا لا أطيل في نقل هذا فهو في كتاب الأرواح التي ألفتها في ذلك غلا عن علماء أوروبا .

ثم إن (وللاس) هذا قرين دوارين الإنجليزي صاحب المذهب المشهور ، وكان معتقدا لمذهبه كما يعتقد علم الأرواح ، ويرى هذه الزهور والقواكه في منزله ، ولو كان في بلادنا المصرية هيئات علمية منظمة لدونت ماجاء على يد رجل من بلاد الصعيد فقد شاهدت مئات من القضاة والمحامين والعلماء والدعويين ماجاء على يديه من فاكهة وماكل وشقود وغرائب لا يعد بجانبها ما ذكره الأوروييون شيئا وقد مات في أوائل هذا القرن . فقال صاحبي : أنا أنظر لهذا نظير من يريد أن يثبت بعد ، فقلت له : إذن على مقتضى هذا تكون أرواحنا في قدرتها - بإذن الله - متى طارت من البدن أن تكون فعالة في المادة قادرة على أفعال فيها على حسب طاقتها بإذن الله ، قال : ممكن ، قلت : والدليل على اقتراب هذا من الصحة أن النفوس البشرية يسرها جدا الروايات والحرفات التي فيها تنطلق النفس من الجبس وتسيح في سماء الخيال غير مراعية قانون الأجساد التي حكمت عليها بالجبس في هذه الأرض ، فإنك تجد العاتمة والجهلاء الذين هم أقرب إلى القطرة إذا سمعوا الأشياء التي لا يكون لها نظير عندهم ، بل بطريق الخيال والوهم يفرحون بها فرحا ويصدقون بها طربا .

ولعمري كيف يفرح الإنسان بما ليس من طبعه ، وكما لا يفرح الإنسان بأكل المر والحريف الشديد ، والحار القوي والبارد الشديد ، هكذا لا يفرح بما يتأق طبعه ؛ فالعاتمة والجهلاء والأطفال يفرحون بالأحاديث التي لا تسير على التواميس المعروفة في الأرض لأن أرواحهم مستعدة لذلك بعد خلاصها من هذا الجسد .

فإذا جاء المسيح وطلب مائدة من السماء سواء أنزلت كما يقوله أكثر القسرين ، أم لم تنزل كما قاله أهلهم فزولها معجزة له ، ولو نزلت على يد ساحر أو متوقم مغناطيسي لم تعتبر معجزة كما نص عليه العلماء أن خوارق العادات لا تكون معجزات إلا إذا قرنت بدعوى النبوة ، وكانت حال صاحبها تدل على ذلك .

قال : إذا سلمت لك ما ذكرته وأنا تنظر في أقوال هؤلاء العلماء نظر الباحثين ، وهب أنا بحثنا فوجدنا هذه الأشياء لها وجود ، وأن الأرواح هي كما تقول ، فما علاقة المسيح بعلم الأرواح ؟ قلت : إن المسيح إنسان وله روح بل هو الذي أطلق عليه أنه مؤيد بروح القدس ، ولم يقل هذا القول لي ولا لك ، قال نعم ! قلت : فهل هناك ما يمنع أن روحه الكبيرة تعطى قوة أن تعمل فعل الروح التي فارقت الجسد لشدة علقها وقوتها وسلطانها على الجسد ؟ قال : ليس هناك مانع والكلام الآن مقبول .

ثم قال : إذا صح هذا فلم حذر الله من نزول المائدة ؟ قلت نعم ! إنك إن قرأت علم الأرواح تجد فيه أنها لما سئلت أجابت أن الله لا يرضى بخلط العالم الروحي بالجسمي ، وليس يحصل هذا العمل إلا نادرا جدا لأغراض خاصة ، فإن أهل الأرض لا بد أن يعيشوا على النمط المعروف ، لأنهم يأكلون وهم نائمون ، بل إنهم خلقوا ليحدثوا وينصبوا ويتعبوا ، ولو أن الطعام أعطى لهم بلا عمل لسكان ذلك عليهم وبالا ولضاع المقصود من وجودهم ولما أتوا وهم لم يزيدوا ارتقاء ورقيا .

قال : ولكن أليس ذلك يكون بهانا ؟ قلت : البراهين الحسية لاتفيد العقول البشرية إلا قليلا .

الآن ترى أن بني إسرائيل لما رأوا العصا بلعت الحيات آمنوا ، ولما رأوا عجل السامري كفروا ؟ قال بلى ! قلت : وأما سحرة فرعون فإنهم لما رأوا أن موسى عليه السلام جاء على يديه ما هو فوق طاقتهم آمنوا وسبروا وماؤنا صرعى الحقيقة وهم فرعون .

فهذه المائدة لا تفيد ماديا ولا معنويا ، قال : وما فائدتها لنا نحن المسلمين ؟ قلت : من فوائدها أننا جرحنا المسم لمولود سوف تدخل في الأمة الإسلامية بعد انتشار هذا التفسير وهي علوم الأرواح ، ومتى انتشرت يحصل هناك شكوك وأوهام وكاذب ، فيظهر حينئذ حكام وعلماء يزيدون الناس علما ، وكما حصل الأخذ والردّ زاد الناس علما وارتقى النوع الإنساني وكان السلون أعظم ارتقاء ، فإن الشكوك والأوهام مفاتيح الهارف ؛ فأما العقول الحامدة التي لم تحركها الشكوك والشكوكات فإنها أسرع إلى الفناء وأقرب إلى الهلاك .

ومن فوائدها أننا لا نقول إلا على العقولات ولا نجعل علومنا كعلوم العامة الذين لا يحققون الأمور . فكأن هذه القصة تحت المسلمين أن يكونوا مفكرين لما علمت في عصا موسى وسحرة فرعون ، وأن العلم يورث اليقين ، فأما هذه المعجزات الظاهرة فإنها لا تفيد إلا العاقبة والجهلاء وقتابا ، ألم تر إلى قول الله تعالى « وما نرسل بالآيات إلا تخويفا » وقوله « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » فالميلاد في شرحنا القراء على التعقل والتفكير .

وهذه القصة قد وردت هنا للردّ على أولئك الذين ألحقوا في السألة ، فقال لهم الله « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم » فأورد هذه القصة ، لأنه كان من جملة أسئلتهم أنه يأتي لهم بآية ، فقال لهم هذه ليريهم أن ذلك يصبح امتحانا من الله .

قال صاحبي : والله لقد أشعبت هذا القول في هذا اللقار ، وأنا واثق أن السير في التفسير على هذا النحوال يكون معجزة لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وإلا فكيف نرى أن تكون قصة المائدة لحكمة علمية وآية إلهية وفكرة قدسية وبجانب ربانية ، فبذلك فليفرح المفكرون ، وفيه فليتناقش المتناقسون .

ثم قال : لقد قال علماء الصوفية إن المائدة ههنا عبارة عن الحقائق والعارف فإنها غذاء الروح ، كما أن الأطعمة غذاء البدن ، قالوا : فليعلمهم رغبتوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها ؟ فقال عيسى عليه السلام : إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تمكنوا من الاطلاع على الحقائق ، فلم يقلعوا عن السؤال فسأل لأجل اقترابهم فينب الله تعالى أن الإنزال سهل ولكن فيه خطر ، فإن السالك إذا كشف له ما هو فوق مقامه لا يحتمله ولا يستقر له فيضل ضلالا بعيدا ، قلت له : هذا مقيول ولا فرق بين عالم الأرواح وعالم الأجساد كلاهما إذا أعطيتاه في الدنيا بلا استحقاق كان خطرا علينا ، وكم من مر يد سالك فتح عليه باب من أبواب الكشف فكان ذلك وبالا عليه فألهاء عن الارتقاء ، وما مثل أهل الكشف إلا كمثل أهل المال كلاهما أعطى قوة ، فإذا ظنّ المكشوف له أنه في مأمن من غارات الامتحانات فهو مخدوع بمنور .

فإنه بمنح أرباب القوة وأرباب المال وأرباب العلم وأرباب الجمال وأرباب الكشف ، وكم عند الله من درجات ، وكم من مفتوح عليه أصبح بهذا الفتوح شيطانا رجيا .

فتقول الصوفية حق ، ولا فرق بين الجسيات واللذويات في هذا اللقار ؛ فليخبر المكشوف له بالتيب وليقل ما يشاء . فليس هذا كل شيء ، وما ذلك إلا من القوى التي أودعها الله فينا وخبأها إلى أمد معلوم حتى نتظهر بعد حفظها لنا ، فأما إذا أسرفنا فيها فإن ذلك يكون كالإسراف في المال ، ولتقف بالأدب مع الله والله هو الولي الحميد ، اتسعى الكلام على مائدة عيسى عليه السلام .

إذن فلنرجع إلى تفسير آخر السورة ، فنقول (وإذا قال الله يا عيسى ابن مريم ما أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ، إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب ، ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ، إن تبد لهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ، قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين أبدا ، رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ، لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير) .

هذه سورة خطاب الله عز وجل وجواب للمسيح عليه السلام له يوم القيامة حين يجمع الرسل ويسألهم عن أممهم فيقولون : لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب ، فيكون العلم لله عز وجل .

ولقد قال في الآية السابقة « ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون » وقد بين لكم الرسول مناسكتكم وعباداتكم وأخلاقكم ، فعليه البلاغ ، وعلينا الحساب .

فيسأل عيسى عليه السلام قائلا « أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ » أي متوسلين بنا إلى عبادة الله عز وجل ، فإن مريم والسيح في العبادة أحسن مرتبة من رتبة الله عز وجل ، وعبادتهما توصل لعبادته عندهم .

هذا معنى ماقاله البيضاوي رحمه الله ، فأجابه المسيح عليه السلام أحسن إجابة بأربع جمل :

الجملة الأولى : دالة على آدابه وأخلاقه الفاضلة وشمائله وسجاياه ، وهي هل ينسئ لي الكذب أو يلبق بي وأنا عبدك ونيك أن أتطاول لمقامك وأدعى الألوهية ؟ وهل يسامى العبد سيده ؟ وللربوب الرب ؟ والمخلوق الخالق ؟ وإذا قبح الكذب على الناس فأقبح به على رب الأرباب ، والعالم بما في الألباب ، فهذا بعض معنى قوله تعالى « ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق » .

الجملة الثانية : الاستشهاد بعلمه والاحتجاج باطلاع الرب العليم على ما نطق به المسيح ، فقال « إن كنت قلته فقد علمته » .

الجملة الثالثة : تقرير للثانية وإثبات لها واعتراف بالقصور في العلم ، فقال « تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك » .

وأكدتها بالرابطة فقال « إنك أنت علام الغيوب » في السموات والأرض وما بينهما .

ثم أخذ يشرح ماقاله بأقصر عبارة ، فقال « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به » وهو عبادة الله ربي وربكم ؛ ثم شرح الرقبة منه وهو حق ، فقال « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم » أي رقيباً أمنهم من ذلك القول أو كنت مشاهداً لأحوالهم من كفر وإيمان « فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم » المراقب لأحوالهم فمنع من أردت عصمته بما تنزل عليه من الآيات ، وما تنصب له من الدلالات وما تبعث من رسلك بالكذب والآيات « وأنت على كل شيء شهيد » مراقب له مطلع عليه « قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم » فالصادقون في الدنيا في العلم والعبادة يتبين صدقهم يوم القيامة ، ويجازون عليه « لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم ، لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير » هذا ظاهر واضح .

تأمل هذه المحاورة التي قصها الله عز وجل مما سيكون في يوم القيامة بينه وبين سيدنا عيسى عليه السلام ، وتأمل كيف يقول إني راقبتهم في الدنيا وأنت إذ توفيتني ، والتوفى أخذ الشيء وأفيا ، فالموت توفى ، والرفع إلى السماء توفى ، وللمراد هنا الرفع فقط « كنت أنت الرقيب عليهم » .

وارجع إن شئت المزيد إلى إنجيل برنابا ، فقد شرح حال النصارى في حياة المسيح عليه السلام وكيف كانوا يبدونه ، وكيف كان يتبرأ منهم ، وكيف رفع الأمر لقيصر الروم ليصد الناس عن عبادته ، وكيف كان يبكي ويقول مامعناه : (ستظلم الأرض بعدى) وكيف استغاث ورفع صوته صارخا ، وقال : يا أخى يامسيا ، وكيف سأله برنابا من مسيا ؟ وكيف أجابه بقوله : محمد حبيبى رسول الله .
فمن أراد استيفاء هذه المعاني كلها فليقرأ إنجيل برنابا المذكور الذى كان سرا مكتوما عند بابا رومة ييلاد إيطاليا من أيام سيدنا المسيح إلى أن أظهره عظيم من عظماء الإنجليز وأسلم ، وأسلم كثير من الناس معه .

وياحسرة على المسفين الغافلين ، فإن هذا الإنجيل لم ينتشر بيننا إلا قريبا ، وقد طبع في [مجلة النار] فليعلم المسلمون هذا الإنجيل وليقرءوه وليطوبوا غرائب القرآن وبدائعهم .
ولن يفهمك هذه الآية حق فهمها إلا الاطلاع على ذلك الإنجيل فإنه أقرب إلى التنزيل ، وقد تقدم في سورتي : البقرة ، وآل عمران من هذا الإنجيل مقتطفات شتى .
لطائف : اللطيفة الأولى

اعلم أن الله عز وجل في هذا المقام برأ المسيح عليه السلام من كل ما ألصقه به النصارى من الألوهية ، ذلك أنهم لما رأوا صفات عالية وأخلاقا سامية وشمائل غالية قدسوه وتقديسوا وعظموه ورفضوه إلى مقام الألوهية ؛ ذلك لما في طباع البشر من الضعف وقصور النظر .
وما مثلهم في ذلك إلا كمثل من يعشق رسول حبيبه جهالة وغباوة .

هكذا ترى الناس في الإسلام وفي الديانات الأخرى إذا شاهدوا ذا صفات حميدة جميلة دينية أغرموا به ونسوا دينهم الذى ما أحبوا هذا الصالح إلا لأجله ، ذلك الجهل مشاهد في أممنا الإسلامية ، ترى كثيرا من تلاميذ رجال الطرق يحملون شيوخهم فوق كل شئ ويحملون الحب خالصا لهم ، مع أن الحب يجب أن يكون لله عز وجل خاصة .

وإذا تضى أولئك الجهة بكرامات أولئك الشيوخ فهم لا يصلون في كراماتهم إلى مقام المسيح الذى خلق الله على يديه طيرا من الطين وفتح فيه وكان طيرا بإذن الله .
فإذا كان المسيح عليه السلام مع هذه المزايا يقول « ما قلت لهم إلا ما أمرتني به الخ » ويتبرأ مما نسبوه إليه ، فكيف يكون هؤلاء الشيوخ .

إن الله عز وجل ذكر هنا أنه أكرم المسيح بمزايا منها خلق الطير ، ثم أتبع ذلك كما سأوضحه في أول سورة الأنعام إن شاء الله بأنه خلقنا معاشر بني آدم من طين ، كأنه يقول : شكلتك أمك أيها الإنسان ، أنخرم بالمسيح لأنى خلقت الطير على يديه ؟ ولا تفرح بي أنا ، وأنا خلقتك أنت من الطين ؟ فإذا أنا خلقت من الطين من هو أفضل من الطير وهو أنت ، فكيف تنسأني وتذكره أو تعبده ؟

هكذا أيها المسلم الجاهل كيف تنسأني بشيخك ولو كان وليا وهو لم يعط ما أعطى المسيح ؟ وكيف تكون أقصر نظرا من النصارى جاوزوا الحد في حب المسيح ، وأنت أيها المسلم ربما نسيت نبيك وربك بشيخك .

اقرأ ما في السموات وما في الأرض ، فذلك هو المطلوب منك ، تلك آثاري ، ومن أحب أحدا درس آثاره ونطق بأخباره ، فما معجزات الأنبياء ولا كرامات الأولياء في جانب مخلوقاتي وبدائع سمواتي وغرائب حكمتي إلا كما يأخذها منقار الطائر إذا شرب من البحر .

إن العامة من السليين ومن المسيحيين لتفطنهم لا يرضون نظرم إلى عجائب ربهم التي أشار إليها هنا في آخر السورة ، فقال « لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير » وابتدأ سورة الأنام بذكر أن « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض » إذن فما خلق الطير على يدي السبع وما كرامات الأولياء ومعجزات الأنبياء .

أيها الناس لا يصدنكم أفضل المخلوقات عن النظر في عجائب خالقكم القدير .
هذا ، ويناسب هذا المقام ما جاء في إنجيل برنابا (من صفحة ١٧٨ وما بعدها) .

قال المسيح عليه السلام :

حكاية إيليا (إلياس)

حدث في زمن النبي إيليا أن إيليا رأى رجلا ضريرا حسن السيرة يبكي ، فسأله قائلا : لماذا تبكي أيها الأخ ؟ أجاب الضرير : أبكي لأني لا أقدر أن أبصر إيليا النبي قدوس الله ، فوبخه إيليا قائلا : كفت عن البكاء أيها الرجل لأنك بيكالك تخطيء . ، أجاب الضرير : ألا أقل لي رؤية نبي الله الذي يقيم الموت وينزل نارا من السماء خطيئة ؟ أجاب إيليا : إنك لا تحول الصدق ، لأن إيليا لا يقدر أن يأتي شيئا مما قلت علي الإطلاق فإنه رجل نظيرك ، لأن أهل العالم بأسرهم لا يقدر أن يخلقوا ذبابة واحدة ، فقال الضرير : إنك تقول هذا أيها الرجل لأنه لا بد أن يكون قد وبخك إيليا على بعض خطاياك فلذلك تكرهه ، أجاب إيليا عسى أن تكون قد نطقت بالحق لأنني لو أبغضت إيليا أيها الأخ لأحببت الله ، وكما زدت بغضا لإيليا زدت حبا في الله ، فاغتاظ الضرير لذلك غيظا شديدا وقال : لعمر الله إنك لفاجر ، أيمن لأحد أن يحب الله وهو يكره نبي الله ؟ انصرف من هنا لأنني لست بمصح إليك فيما بعد ، أجاب إيليا : أيها الأخ إنك لترى الآن بخلق شدة شر البصر الجسدي لأنك تمنى بصرا لتبصر إيليا وأنت تبغض إيليا بنفسك ، فأجاب الضرير : ألا فاصرف لأنك أنت الشيطان الذي يريد أن يجعلني أخطئ إلى قدوس الله ، فتهند حينئذ إيليا وقال بدموع : إنك لقد قلت الصدق أيها الأخ لأن جسدي الذي تود أن تراه يفصلني عن الله ، فقال الضرير : إني لا أود أن أراك بل لو كان لي عينان لأغضتهما لكي لا أراك . حينئذ قال إيليا : اعلم أيها الأخ أني أنا إيليا ، أجاب الضرير : إنك لا تحول الصدق ، حينئذ قال تلاميذ إيليا : أيها الأخ إنه إيليا نبي الله بعينه ، فقال الضرير : إذا كان النبي فليقل لي من أي ذرية أنا وكيف صرت ضريرا ؟ أجاب إيليا : إنك من سبط لاوي ولأنك نظرت وأنت داخل هيكل الله إلى امرأة بشهوة على مقربة من القدس أزال إلها بصرك ، فقال حينئذ الضرير باكيا : اغفر لي يا نبي الله الطاهر ، لأنني قد أخطأت إليك في الكلام وإني لو أبصرتك لما كنت أخطأت ، فأجاب إيليا ليغفر لك إلها أيها الأخ ، لأنني أعلم أنك فيما يخصني قد قلت الصدق ، لأنني كلما ازددت بغضا لنفسي ازددت حبة لله ، ولو رأيتي لحدت رغبتك التي ليست مرضية لله ، لأن إيليا ليس هو خالقك بل الله ، ثم قال إيليا باكيا : إني أنا الشيطان فيما يختص بك لأنني أحولك عن خالقك ، فابك إذن أيها الأخ إذ لم يكن لك نور يريك الحق من الباطل لأنه لو كان لك ذلك لما احتقرت تعليمي ، فملك أقول لك : إن كثيرين يمتنون أن يروني ويأتون من بعيد ليروني وهم يعتقدون كلامي ، لذلك كان خيرا لهم لخلاصهم أن لا يكون لهم عيون لأن كل من يمد لثة في المخلوق أيا كان ولا يطلب أن يمد لثة في الله فقد صنع صنعا في قلبه وترك الله ، ثم قال يسوع منتهدا : أفهمتم كل ما قاله إيليا ؟ أجاب التلاميذ : حقا لقد فهمنا وإنا لجليري من العلم بأنه لا يوجد على الأرض إلا قليلون من الذين لا يبدون الأصنام ، انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

بيننا أنا أكتب هذا إذ دخل على سديق لي فاطلع على هذا التفسير فقال :
(س) أيها الأخ : نزل القرآن لوعظنا وإرشادنا وهدايتنا إلى الصراط المستقيم ، فما الفائدة الواضحة
في هذه الآيات القرآنية ؟

(ج) الفائدة الأولى : أن الله سيجمع الرسل وسألمهم قائلًا : بماذا أجبتم ؟ تويخا لأمتهم وتخرجنا
لتأجيلهم فيترا الأنبياء مما أحدثت أمتهم بعدم وردون العلم إليه جل جلاله .

الفائدة الثانية : ما حكاة الله من سؤال المسيح عليه السلام وأنه لا يكذب على الله وأن الله أعلم بهم وأنه
كان يراقبهم في حياته ، فلما رفع إلى السماء نخل عن ذلك ولا علم له بهم الخ .

الفائدة الثالثة : أن الأنبياء لا يسألون عما أحدثت الأم بعدم ، والأم معاقبة على ظلمها مؤاخنة بمجهلها .
(س) هذه قواعد عامة ، فعلم الله بالأمم وتوبيخ الأم عما أحدثت ، وتصل الأنبياء من ذلك أمور

عامة ، وأنا أريد عظة للأمة الإسلامية بحيث يفقهها الفقهاء والفلاحون وسائر الطبقات .
(ج) اعلم أن الله عز وجل وسعت حكمته وعلمه الدنيا والآخرة . ولقد علم جل جلاله وعز كماله أن

للسلمين بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم سيغير سفهاؤهم من شريعتهم « ويعرفون الكلم عن مواضعه »
قصص القصص الذي سمته عن النصارى ونبههم ليتعظ المسلمون بذلك وليستيقظوا وليعلموا أن الذنب واقع

عليهم ، والجرم محيط بهم ، والإثم غل في أعناقهم إذا غيروا الشريعة وبدلوا تلك الحنيفية البيضاء ، والسنة
السمعة النراء .

(س) هذا ما كنت أبتنيه وأترجسه منك وأرتجيه ، قل لي : ماذا فعل المسلمون قديما وحديثا ؟ وبماذا
هذبهم الله عز وجل ؟ وما الدواء لهذا الداء ؟

(ج) أعلم أن أمتنا الإسلامية قد حدث فيها مثل ما كان في دين اليهود والنصارى من الفرق سواء
يسواء ، كما روى عن وهب بن بقية عن خالد بن عبد الله عن محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « افتقرت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على
اثنين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » وإن كان في الحديث مقال .

(س) وهل علم ذلك العلماء ؟
(ج) نعم اذكر هذه الفرق الإسلامية الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي
رضي الله عنه .

(س) هل تتذكر بعض هذه الفرق حتى أستدل بها على باقها ؟ وهل تذكر لي أتراسيتا في الأمة الآن
كما اختلقه أهل الضلال واقتراء أهل العصيان فضلوا وأضلوا عن سواء السبيل ؟

(ج) أذكر منهم قوما يقال لهم السبئية .
(س) ما أخبارهم وبماذا خرجوا عن الإسلام .

(ج) السبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذي غلا في سيدنا على كرم الله وجهه وزعم أنه كان نبيا ، ثم غلا
في ذلك وزعم أنه إله وتبعه قوم من جهلة الكوفة .

فلما رفع خبرهم إليه كرم الله وجهه أمر بإحراقهم ، وقال مثل هذا القول رجل يهودى اسمه عبد الله بن
السوداء أراد أن يفسد على للمسلمين دينهم فقال إنه وجد في التوراة أن لكل نبى وصيا ، وأن عليا وصى

محمد صلى الله عليه وسلم وأنه خير الأوصياء ، كما أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الأنبياء .

فلما سمع منه ذلك شيعة على قالوا له كرم الله وجهه : إنه من عبيك فرفع قدره وأجلسه تحت درجة منبره ثم بلغه أنه غلا فيه وعدّه إلها فهم يقتله لولا مخافة أن يشمت أهل الشام .

فلما قتل سيدنا على كرم الله وجهه تعالى ابن السوداء في هذه الدعوة وقال للناس : والله ليتبعن لعلي في مسجد الكوفة عيان تفيض إحداهما عسلا والأخرى ممنا ويعترف منهما شيعة ، ولم يرد بذلك ابن السوداء إلا تضليل المسلمين ليقولوا في سيدنا على كرم الله وجهه ما قالت النصارى في المسيح ففشأت الفرقة السبئية (السبئية) من الرافضة .

ولما قتل سيدنا على قال ابن سبأ : إن القتل لم يكن عليا وإنما كان شيطانا تصور للناس في صورة على ، وأن عليا سعد إلى السماء كما سعد إليها عيسى ابن مريم ، قال : وكما أن اليهود والنصارى رأوا شخصا مصلوبا يشبه عيسى وليس عيسى .

هكذا كذبت الناس في قولهم قتل على وما قتل على وإنما شبه لهم .

ولقد زعم بعضهم أنه كرم الله وجهه في السحاب وأن الرعد صوته ، ومن سمع صوت الرعد من هؤلاء قالوا : عليك السلام يا أمير المؤمنين ، وقد زعموا أنه هو للهدى المنتظر ينزل في آخر الزمان من السماء ويملك الأرض بخدافيرها .

(س) إذن هذه الفرقة أشبهت النصارى والنبي صلى الله عليه وسلم برى منهم ، ولكل امرئ منهم يوم القيامة شأن ينسبه . فهل تذكر فرقة أخرى ؟ قلت : نعم .

(ج) « البيانية » أتباع بيان بن سمان التميمي ، زعموا أن الإمامة صارت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبي هاشم عبد الله بن محمد ، ثم صارت من أبي هاشم إلى بيان بن سمان بوصيته إليه حتى ادعى هو أنه المذكور في القرآن في قوله (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للذين آمنوا) فقال : أنا البيان وأنا الهدى والموعظة وزعم هذا الفاجر أنه يعرف اسم الله الأعظم .

فلما وقع في أسر خالد بن عبد الله في زمان ولايته بالمراق قال له خالد : إن كنت تهزم الجيوش بالاسم الذي تعرفه فاهزم به أهواني عنك ثم قتله وصلبه ؛ فهذه الفرقة كافرة والنبي صلى الله عليه وسلم برى منها . (س) زدنا من هذا ؟ قلت :

(ج) وهناك فرقة تسمى « الزيدية » يقولون بإمامة زيد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في وقته وإمامة يحيى بن زيد بعد زيد ، وكان زيد بن علي قد بايعه على إمامته خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة وخرج بهم على والي العراق ، وهو يوسف بن عمر الثقفي عامل هشام بن عبد الملك على المراقين .

فلما اتقى الصفان واختلف القنا وكاد يحدثم وطيس الهيجا بينه وبين يوسف بن عمر الثقفي قالوا له : إنا نصرحك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك في أبي بكر وعمر اللذين ظننا جدك على بن أبي طالب ، فقال سيدنا زيد رضي الله عنه ورفع درجته في أعلى عليين « إني لا أقول فهما إلا خيرا ، وما سمعت أبي يقول فهما إلا خيرا ، وإني خرجت على بني أمية الذين قاتلوا جدي الحسين وأغاروا على المدينة يوم الحرة ثم رموا بيث الله بحجر النجنيق والنار ففارقوه عند ذلك حتى قال لهم رفضتموني » ومن يومئذ سموا رافضة ولم يثبت معه إلا مائتا رجل ثبتوا حتى قتلوا عن آخرهم ، وقتل زيد رضي الله عنه ثم صلب ، وهكذا قتل ابنه يحيى بجمعة جوزجان حين خرج على نصر بن بشار والي خراسان .

فاظهر كيف غر هؤلاء القوم ذلك السيد العظيم ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم أسلموه

لصدوه واتحلوا قولاً ما أنزل الله به من سلطان ، وكيف اختلقوا الأسباب وجعلوا ذم العمرين أجراً
لنصره ؟

أفلا يرا رسول الله من أولئك الجاهلين وبكل أمرهم إلى الله يوم الدين « يوم لا ينفع مال ولا بنون
إلا من آتى الله بقلب سليم » .

(س) لقد أطلت في سؤالك وإني خفت أن أكون أتقلت كاهلك وحملتك فوق طاقتك ، ولكن المقام
يحتاج لتشرح فزدني من هذه الأخبار فما أشبه هؤلاء بالكفار .

(ج) ليس يحضرنى من الفرق الضالة الآن إلا فرقة اسمها « الكيسانية » وإمامهم المختار بن أبي عبيد
الكتفى دعا الناس إلى إمامة محمد ابن الحنفية واستولى على عرش الكوفة ، وقد قتل من رجال الكوفة كل من
قاتلوا سيدنا الحسين رضى الله عنه .

ومن العجيب أن هذا الرجل يدعو الناس لإمامة محمد ابن الحنفية ، ويملك الكوفة والجزيرة
وبلاد أرمينية .

ثم يضل قومهم ويضرب شياطين الإنس فيقولون له : أنت حجة هذا الزمان ! فيدعى النبوة ويؤمن أنه بوحي
إليه وصار يسجد كما تسجد الكهان ، ومن خطبه ما يأتى :

الحمد لله الذى جعلنى بصيراً ، ونور قلبى تنويراً ، والله لأحرقن بالمرص دوراً ، ولأنبشن بها قبوراً ،
ولأشفين منها صدوراً الخ .

ألا تعجب كيف كانت هذه المصائب منصبة على أمتنا الإسلامية ؟ وكيف يضل هذا الكافر الناس
ولا يخاف الله رب العالمين ؟

ولما أن سمع محمد ابن الحنفية بهذا خاف من جهة الفتنة في الدين ، فأراد القدوم إليه بالعراق ليصير إلى
الدين اعتقدوا إمامته التى دعا لها المختار .

فما سمع المختار ذلك خاف من قدومه العراق وذهاب رياسته وولايته فقال لجنده : أنا على بيعة المهدي ،
ولكن للمهدي علامة : وهو أن يضرب بالسيف ضربة ، فإن لم يقطع السيف جلده فهو المهدي ، واتمى
قوله هذا إلى ابن الحنفية فأقام بمكة خوفاً من أن يقتله المختار بالكوفة .

أليس أمثال هذا أحق براءة الرسول ؟ ومثلهم في الإسلام كمثل الذين ذكرهم الله في سورة المائدة من
الفرق الضالة .

(س) لعله أن الأوان أن تطلعن على آثار تلك الضلالات اليوم .

(ج) إن السليين اليوم تفرقوا فرقاً وذاق بعضهم بأس بعض بالبدع النكرة التى قذفت في قلوبهم
والأقاويل التى خيمت بظلالها على عقولهم ، وباضت طيورها في أعشاش أدمغتهم وأخرجت فرائح
الجهل المنجبل .

ألا ترى كيف فعل المهدي بالسودان وتبعه الخليفة التعايشي ؟ وكيف أفتى بحل نساء الصريين وبناتهم إلى
أوغادهم بلا عقد يقدونه ولا كتاب ولا سنة ؟ مدعياً أن من لم يؤمن بيئته فهو من الكفرة الفجار والجهلة
الأشرار .

ولئن سألته بماذا استحلت الحرام واستعبدت الأنام وفضلت الآثام ؟ قال لك : ذلك أمر النبي صلى الله
عليه وسلم وجبريل والحضر الجليل .

أو ليس المهدي السوداني أشبه بالختار بن عبيد في دعوته ؟ بلى المهدي توغل في الضلالة فدعا لنفسه وافترى إنما على ربه .

والتعاشي الجهول كان وارث دعوته والقام بملكه حتى طاحت البلاد ونهب بها الغراب وذهبت الآمال وصاعت الأموال وقطعت الرؤوس وزهقت النفوس ، واستحال الهرم والدينار إلى فلوس ، وكان ما كان من استئصال القبائل وصار الرجال هناك قلائل ؛ فلا حول ولا قوة إلا بالله .

لولا البدع المنكرة ما تناكر الفارسي والتركي ، ولا تقاطع المراكشي والأفغاني ، ولا تدابر العربي والتركي . لقد قال العلامة (دوارد براون) الإنجليزي لقد قدمت تقريرا ضافيا عن حال المسلمين من فارس وترك وشيعة وسنيين ، أيتحدون أم يبقون مختلفين ؟ فكتبت : ألا طمع في اجتماعهم ولا يحبس من تفرقهم إذ يقولون سنيون وشيعيون ، والله في خلقه شؤون .

هذا ، ولقد قرأت بعض ما كتبه السياحون الفرنسيون بمراكش وكيف يملكون البلاد بلا ضرب ولا جلاذ فانضقت كلتهم وأجمع رأيهم على أن المسلمين لا يخلصهم إلا استئالة شيوخ الصوفية وإرضاء أمرائهم . فمضى أخذ شيوخهم باللين والشدة والوعد والوعيد وأغدقت عليهم النعم كما يهددون بالنعم لانت شرتهم وأمكن أن تسام الأمة الحسنة ، فإنهم في لجة الجهل ظرقون وفي عذاب جهنم الضلال ناهون ، فكان ما كان من توالي الآلام على بلاد الإسلام ، فلولا الجهاد ما هلك المسلمون .

وبلغنا أن السكتاني هناك من كبار الصالحين آذاه الفرنسيون كثيرا لأنه يحافظ على بلاده .

(س) دع ذكر الأمم والممالك واذكر حكاية صغيرة يعرفها الفلاحون ويفهمها المزارعون الذين يفتلون

(ج) نعم !

[السؤال الأول] قابلي منذ ٢٠ سنة مزارع صغير من قريتنا (كفر عوض الله حجازي) . فقال: ماذا ترى في أمرنا ؟ فقلت : ماذا ؟ فقال : امرأتى في حاجة إلى ثوب تلبسه ولست أملك إلا عزا تساوى . ع قرشا ، وقد قام الناس إلى مولد سيدي أبي مسلم الكبير ، فإن أرضيت بأبأسلم أعريت زوجتى ، وإن كسوتها أغضبت أبا مسلم رضى الله عنه . فقلت : أنا أكرم أم أبو مسلم ؟ قال أبو مسلم : قلت : فإذا تصدقت على الآن فهل ترانى أقبل منك ؟ قال : كلا ! قلت : إذن أبو مسلم وهو أكرم منى عنى عن صدقتك ، وتفكر في الأمر من وجه آخر :

إذا كان أبو مسلم حيا وألقيت له هذه المسألة ، أقرأه مع غناه وفقره يقبل عطاءك أم يعطيك ؟ قال : بل يعطيك ! قلت : فهل أبو مسلم الكريم بعد أن لقي مولاه وتم بالخور والولدان وحظى ببقاء النبي صلى الله عليه وسلم وآله وصحبه نزلت درجته وترك الله وجماله والخور والولدان والنبي والإخوان ثم بحث عن الفلاحين الساكنين الذين لا يجحدون ما ينفقون ؟ فقال : هذا كلام حق ، ولكن أخاف أن يقتل أولادى ويحرب دارى ولكن (من قلد عالما لقي الله سالما) وقد وضعها في رقبتك وسأ كسو زوجتى إن شاء الله بضمن العز . فقلت : إذن اهتديت . فإن سؤلت لك نفسك الخوف وقذف الشيطان في قلبك الرعب ؛ فقل لأبى مسلم إن فلانا هو الذى أغرانى وكسوت زوجتى بضمن عزى .

[السؤال الثانية] قال لى عمى الشيخ محمد شلى رحمه الله تعالى : هل لك أن أريك عجيبه ؟ قلت : نعم ! قال : يا أبا حمودة . قال : نعم ! قال له : احلف إنك ما سرقت من حديقتنا العنب . قال له : بماذا أحلف ؟ قال : بالله ! خلذ . فقال : احلف بأبى مسلم . قال : لا ! فقال : لماذا ؟ فقال : إن الله واسع رحيم وأبو مسلم ضيق الصدر فأخاف أن يبطش بى ويقتل أولادى .

[المسألة الثالثة] قابلني هذا العام أحد أهل العلم بقريتنا . فقال : أقص عليك قصص مع زوجي . فقلت : نعم ! قال : زرت أنا وهي أمس ضريح السيدة نعيمة رضى الله عنها ، فطلبت من ربيلا كنت نذرته فأبيت أن أعطيها ، ولجت في طلبها ولججت في مني ، فلما أن خيم الظلام وضرب النوم الحيام وأخذ الكرى بمعاقد الأجنان ، جاءتني السيدة رضى الله عنها وأرضاهما وأخذت تمدو ورأى عدوا حثيثاً وتقول : أيها اللعون كيف تظن أني لأبركة في فلا تدفع الريال إلى . وواقه لأعذبتك حتى تصدق بكرامتي وتخضع لسطواني ؟ قال : وما زالت تطاردني حتى انقلق عمود الصباح وقال النادى : حى على الفلاح .

قال هذا وكان أربعة رجال حاضرين من متعلمي قريتنا والأميين . فقلت : يا فلان ! أيهما أقرب إلى دار الكرامة وأبعد عن دار اللؤم والقيح ؟ ومن الذى صار أقرب معرفة بربه وأبعد عن مقارفة ذنبه ؟ أنعمن الأحياء أم أولئك الذين صاروا في جوار مولاهم ؟ فقال : بل أولئك الذين في جوار مولاهم . فقلت : إذن السيدة رضى الله عنها صارت عارفة بربها الآن أكثر من الأحياء . قال : نعم ! قلت : لو أن رجلاً جاءني وأبلغني أن رجلاً عظيماً أخذ يفتنى ويضرب بكلامي عرض الحائط ويقول أنا لا أعبا بآرائه ولا أصدق ما يقول . لو أنى بلغت هذا لكبرت نفسي أن تهتم بمقاله أو تغير أذنا لكلامه ، وأنا أمامك على ما ترى في الدنيا دار اللؤم والجهل ، فكيف بمن شرف قدرها وعظم سرها وعلا نسبها وقربت من ربها ؟ فهل تتزل عن مقامها الرفيع في جنة الفردوس مع الذين أنعم الله عليهم وتجري وراءك تقول صدق بكرامتي ؟ ومن أنت حتى تبحث عنك سيدة أكثر المؤمنين .

وكيف يظن الفلاح المسكين أن السيد البدوي رضى الله عنه والرفاعي والسوقى يتزلون من سماء عظمتهم ويهرولون وراءه في القبطان ليلتقطوا منهم دراهم أوليفر حوا بالثنا فهم حول أضرحتهم في الموالد المعروفة . فلما سمع الحاضرون مقالى آمنوا عليه وقالوا : والله إنا لفي ضلال مبين . وكيف يتجاوز ساداتنا الأولياء أغنياء التجار والعطاء وناظر النظار والوزراء والأمورين وأصحاب القصور الشاهقة « والحيل المسومة والأنعام والحمر » ثم يجرون وراء من لا يملك قوت يومه وليس عنده من تغير ولا قلمير .

(س) إذن النبي صلى الله عليه وسلم سيتبرأ من هذه الأعمال يوم القيامة ويقول « لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » وهو يرى من كل ما سطرته يد الجهل في أدمنة الجاهلين الذين يقولون : إن الأولياء بغضب بعضهم من بعض ويكره بعضهم بعضاً ، ويقدم الناس في ذلك وهم برآء مما يتقوله الجاهلون .

وعلى ذلك ضل الناس في مسألة الزار ، إذ يقولون : إن الشيوخ حضروا أو غابوا كما ضلوا بأفعال الغاربة الدجالين والجهلة التصايين .

(ج) اللهم إنا نبرأ إليك من السكبان ونقول نحن نصحنا للأمة وكلنا الخاصة كما أوصحنا للعامة ، فمن عقل فاز ، ومن جهل فإنه من حزب الشيطان « ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون » .

(س) فما الدواء لهذا الداء وماذا يصنع للسكون ؟

(ج) الرجوع لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(س) هذا كلام عام وما ابتدع مبتدع إلا وقال : إني أتبع الكتاب وادعى أنه على منهج السنة فالتنا بقول فصل .

(ج) يجب على المسلمين في أقطار الأرض أن يعمموا التعليم وينظروا فيما خلق الله عز وجل من العوام الصبية ، ويشكروا ويتأملوا وينتفعوا بما أودع في هذا العالم من الصنائع المحسنة والنجاب البديعة اه .

خاتمة السورة

معجزات القرآن في آخر الزمان

هل لك أيها الذكي أن أحدثك عن هذه الآيات ومجآئها؟ وكيف يقول الله لعيسى (أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟) وكيف يجمع الله الرسل ويسأل عيسى ابن مريم خاصة فيراً عيسى بما فعل النصارى. الله أكبر فظهر السر في هذا المعجز وتبين أن الأناجيل منقولة عن كتب الهند، فمنها ما نقل عن كتب كرشناة والحرفات الشائمة حوله، ومنها ما نقل عن كتب (بودا) إن هذا لعجب عجيب. إن هذا التفسير حظه عظيم، فقد جاء في زمن انكشاف الحقائق.

الآن ترى إلى ما جاء في كتاب «العقائد الوثنية في الديانة النصرانية» وكيف كانت الحقائق التي فيه منقولة عن ثمانية وأربعين كتاباً مؤلفاً باللغات الأفرنجية مثل كتاب «ألن الهند» ومثل كتاب «أمبرلي تحليل الإيمان» ومثل كتاب «الأديان القديمة» الخ. فهل لك أن أطلعك ناقلاً من الكتاب على أن الأناجيل منقولة خرافاتها بالحرف من خرافات اليهود مصداقاً لهذه الآيات إذ تبرأ المسيح من أكاذيبهم، وبقي علينا أن نبين مصادر تلك الأكاذيب.

جاء في هذا الكتاب ما نصه :

مقابلة النص الصريح بين كرشناة ويوسوع المسيح

وهو مقابلة ما يقوله اليهود الوثنيون عن كرشناة بما تقوله النصارى عن يسوع المسيح

أقوال النصارى للمسيحيين في يسوع المسيح ابن الله

يسوع المسيح هو (المخلص والقادي والممزي والرامي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس) ١ ولد يسوع من العذراء مريم التي اختارها الله والدة لابنه بسبب طهارتها وعفتها.

٢ فدخل إليها الملاك وقال : سلام لك أيها النعم عليها الرب معك.

٣ لما ولد يسوع المسيح ظهر نجمة في الشرق وبواسطة ظهور نجمة عرف الناس محل ولادته.

٤ لما ولد يسوع المسيح رتل لللائكة فرحاً وسروراً وظهر من السحاب أتعلم مطربة.

٥ كان يسوع المسيح من سلالة ملوكانية ويدعونه (ملك اليهود) ولكنه ولد في حالة التل والفقر بفار.

٦ لما ولد يسوع المسيح أضي النار بنور عظيم أعيا بلمعانه عيني القابلة وعيني خطيب أمه يوسف النجار

أقوال اليهود الوثنيين في كرشناة ابن الله

كرشناة هو (المخلص والقادي والممزي والرامي الصالح والوسيط وابن الله والأقنوم الثاني من الثالوث المقدس وهو الآب والابن وروح القدس).

١ ولد كرشناة من العذراء ديفاكي التي اختارها الله والدة لابنه (كلدا) بسبب طهارتها وعفتها.

٢ قد مجد اللائكة ديفاكي والدة كرشناة ابن الله وقالوا (بحق للكون أن يفاخر بابن هذه الطاهرة)

٣ عرف الناس ولادة كرشناة من نجمة الذي ظهر في السماء.

٤ لما ولد كرشناة سبحت الأرض وأنارها القصر بنوره وترنمت الأرواح وهامت ملائكة السماء فرحاً وطرباً ورتل السحاب بأتعلم مطربة.

٥ كان كرشناة من سلالة ملوكانية، ولكنه ولد في غار بحال التل والفقر.

٦ لما ولد كرشناة أضي النار بنور عظيم.

وصار وجه أمه ديفاكي يرسل أشعة نور مجد.

كرشنة

٧ ومن بعد ما وضعت صارت تبيكي وتندب سوء عاقبة رسالته فكلما وعزاها .

٨ وعرفت البقرة أن كرشنة إله وسجدت له
٩ وآمن الناس بكرشنة واعترفوا بلاهوته
وقدموا له هدايا من صندل وطيب .

١٠ وسمع نبي الهند (نارد) بمولد الطفل
الآلهي كرشنة ، فذهب وزاره في (كوكول) وخص
النجوم فتبين له من خصها أنه مولود آلهي يعبد .

١١ لما ولد كرشنة كان (ناندا) خطيب أمه
ديفاكي غابا عن البيت حيث أتى إلى المدينة كي يدفع
ماعليه من الخراج للملك .

١٢ ولد كرشنة بحال الند والفقر مع أنه من
عائلة ملوكانية .

١٣ وسمع (ناندا) خطيب ديفاكي والدة كرشنة
نداء من السماء يقول له: قم وخذ الصبي وأمه فهرهما إلى
(كاكول) واقطع نهر جمته ، لأن الملك طالب إهلاكه .

١٤ وسمع حاكم البلاد بولادة كرشنة الطفل
الآلهي وطلب قتل الولد ، ولكي يتوصل إلى أميته
أمر بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة
التي ولد فيها كرشنة .

١٥ واسم المدينة التي ولد فيها كرشنة (مطرا)
وفيها عمل الآيات العجيبة ، ولم تزل محل التعظيم
والاحترام عند الهنود العابدين للأوثان القائلين عن
كرشنة إنه ابن الله وإنه الله إلى يومنا هذا .

١٦ كانت ولادة القديس (راما) قبل ظهور
كرشنة في الناس بزمن قليل ، وقد سمي (قانس)
ملك البلاد في إهلاك القديس (راما) وإهلاك
كرشنة أيضا .

١٧ وربى كرشنة بين الرعاة ، ولما جرى به إلى
(مطرا) كان في احتياج عظيم فأتى له بمعلم خبير ،
وفي وقت قليل فاق على أستاذه في العلوم وأعياء
في المسائل العلمية السنسكريتية الدقيقة .

يسوع المسيح

٧ وقال يسوع المسيح لأمه وهو طفل (يا مريم
أنا يسوع ابن الله وجات كما أخبرك جبرائيل الذي
أرسله أبي إليك وقد أتيت لأخلص العالم) .

٨ وعرف الرعاة يسوع وسجدوا له .
٩ وآمن الناس بيسوع المسيح وقالوا بلاهوته
وأعطوه هدايا من طيب ومر .

١٠ ولما ولد يسوع في بيت لحم اليهودية في أيام
هيردوس الملك إذ الهجوس من الشرق قد جاءوا إلى
أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود .

١١ ولما ولد يسوع كان خطيب أمه غابا عن
البيت وأتى كي يدفع ماعليه من الخراج للملك .

١٢ ولد يسوع المسيح بحالة الند والفقر مع
أنه من سلالة ملوكانية .

١٣ وأنذر يوسف التجار خطيب مريم والدة
يسوع بحلم كي يأخذ الصبي وأمه ويفر بهما إلى مصر
لأن الملك طالب إهلاكه .

١٤ وسمع حاكم البلاد بولادة يسوع الطفل
الآلهي وطلب قتله ، ولكي يتوصل إلى أميته أمر
بقتل كافة الأولاد الذكور الذين ولدوا في الليلة التي
ولد فيها يسوع المسيح .

١٥ واسم المدينة التي هاجر إليها يسوع المسيح
في مصر لما ترك اليهودية هي (المطرية) ويقال إنه
عمل فيها آيات وقوات عديدة .

١٦ وكانت ولادة يوحنا المعمدان قبل ولادة
يسوع المسيح بزمن قليل ، وقد سمي الملك هيردوس
في إهلاك يوحنا ، كما سمي في إهلاك الطفل يسوع
المسيح ، وكان يوحنا مبشرا بولادة يسوع المسيح .

١٧ وأرسل يسوع المسيح إلى عند المعلم
ذاخوس كي يعلمه ، فكتب له أحرف ألف باء وقال
ليسوع : قل (ألف) فقال الرب يسوع أخبرني أولا
عن معنى حرف الألف ومن بعده أقول (الباء) ،
فتهد المعلم يسوع بالضرب ، فقام يسوع وفسر معنى

يسوع المسيح

الألف والباء وأخيره عن الحروف المستقيمة والحروف المنحنية والحروف المثناة والتي لها نقط وحركات والتي ليس لها نقط ، ولذا وضعت في هذا الترتيب : أى بعض الحروف قبل غيرها ويطبق بغيره عن أشياء لم يسمع بها المعلم من قبل ولم يقرأها في كتاب .

١٨ وفي شهر آذار جمع يسوع الأولاد وربهم كأنه ملك عليهم ، وإذا مر بهم أحد كانوا يأخذونه غصبا ويأمرونه بالسجود للملك .

١٩ وبينما كان يسوع يلعب لسعت الحية أحد الصبيان الذين كان يلعب معهم ، فلمس يسوع ذلك الصبي يده فعاد إلى حال صحته .

٢٠ وأخفى الأولاد الذين كانوا يلعبون مع يسوع أنفسهم في فرن فبدلوا إلى هيئة جداء (أى جديان) فناداهم يسوع تعالوا إلى هنا يا أيها الأولاد لتلعب فأعيدت تلك الجداء إلى هيأتهم الأولى صبيانا .

٢١ وأول الآيات والمعجائب التي عملها يسوع المسيح هي شفاء الأبرص .

٢٢ وفيما كان يسوع في منزل عتيا في منزل سمعان الأبرص تقدمت إليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن فمسكته على رأسه وهو متكئ .

٢٣ يسوع صلب ومات على الصليب .

٢٤ لما مات يسوع حدثت مصائب حجة متنوعة وانشق حجاب الهيكل من فوق إلى تحت وأظلمت الشمس من الساعة السادسة إلى الساعة التاسعة ، وفتحت القبور وقام كثيرون من القديسين وخرجوا من قبورهم .

٢٥ وتقب جنب كرشنة بحربة .

٢٦ وقال يسوع لأحد الصبيان الذين صلب معه (الحق أقوله لك إنك اليوم تكون معي في الفردوس) .

٢٧ ومات يسوع ثم قام من بين الأموات .

كرشنة

١٨ وفي أحد الأيام كان كرشنة سائرا مع قطيع من البقر فاختروه ملكا عليهم ، وذهبت كل بقرة إلى المكان الذي عينه لها هذا الملك .

١٩ وفي أحد الأيام لسعت الحية بعض أصحاب كرشنة الذين يلعب معهم فأنوا فشفق عليهم لموتهم الباكر ونظر إليهم بعين ألوهيته فقاموا سريعا من الموت وعادوا أحياء .

٢٠ وسرق بعض أصحاب كرشنة مع مجولهم وأخفاهم السارقون في غار غلق كرشنة أصحابا ومجولا مثلهم في الشكل والهيئة .

٢١ وأول الآيات والمعجائب التي عملها كرشنة شفاء الأبرص .

٢٢ وأتى إلى عند كرشنة بامرأة فقيرة مقعدة ومعها إناء فيه طيب وزيت وصندل وزعفران وزباد وغير ذلك من أنواع الطيب فدهنت منه جبين كرشنة بعلامة خصوصية وسكبت الباقي على رأسه .

٢٣ كرشنة صلب ومات على الصليب .

٢٤ لما مات كرشنة حدثت مصائب وعلامات شرّ عظيم وأحاط بالقمر هالة سوداء وأظلمت الشمس في وسط النهار وأمطرت السماء نارا ورمادا وتأججت أشعة نار حامية وصار الشياطين يفسدون في الأرض وشاهد الناس ألوفاً من الأرواح في جو السماء يتحاربون صياحا ومساء وكان ظهورها في كل مكان .

٢٥ وتقب جنب كرشنة بحربة .

٢٦ وقال كرشنة للصيد الذي رماه بالنيلة وهو مصلوب ، اذهب أيها الصيد محفوا برحمتي إلى السماء مسكن الآلهة .

٢٧ ومات كرشنة ثم قام من بين الأموات .

كرشنة

٢٨ وازل كرشنة إلى الجحيم .

٢٩ وصعد كرشنة بجسده إلى السماء وكثيرون يشاهدونه صاعداً .

٣٠ ولسوف يأتي كرشنة إلى الأرض في اليوم الأخير ، ويكون ظهوره كفارس مدجج بالسلاح وراكب على جواد أسهب ، وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر وتزلزل الأرض وتهتز وتساقط النجوم من السماء

٣١ وهو أي كرشنة يدين الأموات في اليوم الأخير

٣٢ ويقولون عن كرشنة إنه الخالق لكل شيء ولولاها لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدي .

٣٣ كرشنة الألف والياء وهو الأول والوسط وآخر كل شيء .

٣٤ لما كان كرشنة على الأرض حارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التي كانت تكنته ، ونشر تعاليمه بعمل العجايب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأعمى وإعادة الخلع كما كان أولاً ونصرة الضعيف على القوي ، والمظلوم على ظالمه . وكان إذ ذاك يبذونه ويزدحمون عليه ويمدونه إليها .

٣٥ كان كرشنة يحب تلميذه أرجونا أكثر من بقية التلاميذ بكثير .

٣٦ وفي حضور أرجونا بدلت هيئة كرشنة وأضاء وجهه كالشمس ومجد اللئى اجتمع في كرشنة إله الآلهة فأحنى أرجونا رأسه تذلاً وسهابة وتكئف تواضعا وقال باحترام : الآن رأيت حقيقتك كما أنت ، وإني أرجو رحمتك يارب الأرباب فعد واظهر على في ناسوتك ثانية أنت محيط بالملكوت .

٣٧ وكان كرشنة خير الناس خلقا وخلقاً وعلم بإخلاص ونصح ، وهو الطاهر العفيف مثال الإنسانية وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل البرهيمين ، وهو الكاهن العظيم برهما وهو العزيز القادر ظهر لنا بالنسوت .

يسوع المسيح

٢٨ وازل يسوع إلى الجحيم .

٢٩ وصعد يسوع بجسده إلى السماء وكثيرون شاهدوه صاعداً .

٣٠ ولسوف يأتي يسوع إلى الأرض في اليوم الأخير كفارس مدجج بالسلاح وراكب جواد أسهب وعند مجيئه تظلم الشمس والقمر أيضاً وتزلزل الأرض وتهتز وتساقط النجوم من السماء .

٣١ ودين يسوع الأموات في اليوم الأخير .

٣٢ ويقولون عن يسوع المسيح إنه الخالق لكل شيء ولولاها لما كان شيء مما كان فهو الصانع الأبدي .

٣٣ يسوع الألف والياء والوسط وآخر كل شيء

٣٤ لما كان يسوع على الأرض كان يحارب الأرواح الشريرة غير مبال بالأخطار التي كانت تكنته وكان ينشر تعاليمه بعمل العجايب والآيات كإحياء الميت وشفاء الأبرص والأصم والأعمى والبرص ، وينصر الضعيف على القوي ، والمظلوم على ظالمه ، وكان الناس يزدحمون عليه ويمدونه إليها .

٣٥ كان يسوع يحب تلميذه يوحنا أكثر من بقية التلاميذ .

٣٦ وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئة قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه يضاء كالثلج . وفيما هو يتكلم إذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائل : هذا هو ابني الحبيب الذي سررت له اسمعوا . ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جداً .

٣٧ كان يسوع خير الناس خلقاً وخلقاً وعلم بإخلاص وغيرة ، وهو الطاهر العفيف مكل الإنسانية ومثلها وقد تنازل رحمة ووداعة وغسل أرجل التلاميذ وهو الكاهن العظيم القادر ظهر لنا بالنسوت

كرشنة

٣٨ كرشنة هو برهما العظيم القدوس وظهوره بالناسوت سر من أسراره العجيبة الإلهية .

٣٩ كرشنة الأتوم الثاني من التالوث المقدس عند الهنود الوثنيين القائلين بألوهيته .

٤٠ وأمر كرشنة كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يترك أملاكه وكافة ما يشتهه ويحبه من مجد هذا العالم ويذهب إلى مكان خال من الناس ويجعل تصوره في الله فقط .

٤١ وقال كرشنة لتلميذه الحبيب أرجونا إنه مهما عملت ومهما أعطيت الفقير ومهما أكلت ومهما قرأت من قرآن ومهما فعلت من الأفعال القدسة الصالحة فليكن جميعه بإخلاص لي أنا الحكيم والعليم ليس لي ابتداء وأنا الحاكم للسيطر والحافظ .

٤٢ قال كرشنة أنا علة وجود الكائنات في كانت وفي نحلّ وعلى جميع ما في الكون بشكل وفي يتعلق كاللؤلؤ النطوم في خيط .

٤٣ وقال كرشنة (أنا النور الكائن في الشمس والقمر ، وأنا النور الكائن في اللهب ، وأنا نور كل ما يضيء ، ونور الأنوار ليس في ظلمة) .

٤٤ قال كرشنة (أنا الحافظ للعالم وره وملجته وطريقه) .

٤٥ وقال كرشنة (أنا صلاح الصالح وأنا الابتداء والوسط والأخير والأبدى وخالق كل شيء وأنا فناؤه ومهلكه) .

٤٦ وقال كرشنة لتلميذه الحبيب (لا تحزن يا أرجونا من كثرة ذنوبك ، أنا أخلصك منها فقط ثق بي ونوكل عليّ واعبدني واسجد لي ولا تصور أحدا سواي ، لأنك هكذا تأتي إلى إلى السكن العظيم الذي لا حاجة فيه لضوء الشمس والقمر اللذين نورهما مني . هذا شيء قليل من كثير اكتفينا به حيا بالاختصار

يسوع المسيح

٣٨ يسوع هو يهوه العظيم القدوس وظهوره في الناسوت سر من أسراره العظيمة الإلهية .

٣٩ يسوع المسيح الأتوم الثاني من التالوث المقدس عند النصارى .

٤٠ وأمر يسوع كل من يطلب الإيمان بإخلاص أن يفعل كما يأتي (وأما أنت فثق صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وصل إلى أريك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء بمجازيك علانية) .

٤١ فإذا كنتم تأكلون أو تشربون أو تفعلون شيئا فافعلوا كل شيء لمجد الله .

٤٢ من يسوع وفي يسوع وليسوع كل شيء (كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان) .

٤٣ ثم كلمهم يسوع قائلا (أنا هو نور العالم من يتبعني فلا يمشي في الظلمة) .

٤٤ قال له يسوع (أنا هو الطريق والحق والحياة ليس أحد يأتي الآب إلا بي) .

٤٥ وقال يسوع (أنا هو الأول والآخر ولي مفاتيح الهاوية واللوت) .

٤٦ وقال يسوع للفلوج ثق يا بني مغفورة لك خطاياك . يا بني أعطني قلبك . والدينة لا تحتاج إلى شمس ولا إلى قمر ليضيئا فيها الحروف سراجها .

مقابلة النص الصريح بين بوظا ويسوع المسيح
وهو مقابلة ما يقوله الهنود الوثنيون عن بوظا بما تقوله النصارى عن يسوع المسيح

أقوال النصارى المسيحيين في يسوع المسيح ابن الله	أقوال الهنود الوثنيين في بوظا ابن الله
١ ولد يسوع المسيح من العذراء مريم بغير مضاجعة رجل .	١ ولد بوظا من العذراء مايا بغير مضاجعة رجل .
٢ كان تجسد يسوع المسيح بواسطة حلول الروح القدس على العذراء مريم .	٢ كان تجسد بوظا بواسطة حلول روح القدس على العذراء مايا .
٣ لما نزل يسوع من مقعده السماوي ودخل في جسد مريم العذراء صار رحمها كالبلور الشفاف النقي وظهر فيه يسوع كزهرة جميلة .	٣ لما نزل بوظا من مقعد الأرواح ودخل في جسد العذراء مايا صار رحمها كالبلور الشفاف النقي وظهر بوظا فيه كزهرة جميلة .
٤ وقد دل على ولادة يسوع نجم ظهر في الشرق قال دوان ومن الواجب أن يدعى (نجم المسيح) .	٤ وقد دل على ولادة بوظا نجم ظهر في أفق السماء ويدعونه (نجم المسيح) .
٥ ولد يسوع ابن العذراء مريم التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أي (في ٢٥ كانون الأول) .	٥ ولد بوظا ابن العذراء مايا التي حل فيها الروح القدس يوم عيد الميلاد أي في (٢٥ كانون الأول) .
٦ لما ولد يسوع فرحت ملائكة السماء والأرض ورتلوا الأناشيد حمدا للواحد المبارك قائلين (المجد لله في الأعلى وعلى الأرض السلام وبالناس السرة) .	٦ لما ولد بوظا فرحت جنود السماء ورتلت للملائكة أناشيد المجد للولود المبارك قائلين (ولد اليوم بوظا على الأرض كي يعطى الناس السرات والسلام ويرسل النور إلى المهلات للظلمة ويهب بصرا للعمى) .
٧ وقد زار الحكماء يسوع وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إله الآلهة .	٧ وعرف الحكماء بوظا وأدركوا أسرار لاهوته ولم يمض يوم على ولادته حتى حياه الناس ودعوه إله الآلهة .
٨ وأهدوا يسوع وهو طفل هدايا من مجوهرات ولبوب وغيرها من الأشياء الثمينة .	٨ وأهدوا بوظا وهو طفل هدايا من مجوهرات وغيرها من الأشياء الثمينة .
٩ لما كان يسوع طفلا قال لأمه مريم (أنا ابن الله) .	٩ لما كان بوظا طفلا قال لأمه مايا إنه أعظم الناس جميعا .
١٠ كان يسوع ولدا مخيفا وقد سمى الملك هيرودس ورأى قتله كي لا يزعج الملك من يده .	١٠ كان بوظا ولدا مخيفا وقد سمى الملك بمبارا ورأى قتله لما أخبروه أن هذا الغلام سيزعج الملك من يده إن بقي حيا .
١١ لما أرسل يسوع إلى المدرسة أدعش أستاذه ذاخيوس وقال لأبيه يوسف (لقد أيتيتي بولد لأعلمه مع أنه أعلم من كل معلم) .	١١ لما أرسل بوظا إلى المدرسة وهو ولد أدعش الأساتذة مع أنه لم يدرس من قبل وفاق الجميع في الكتابة والرياضيات والعلوم العقلية والهندسة والتنجيم والكهانة والعرافة .
١٢ لما صار عمر يسوع اثنتي عشرة سنة جاءوا به إلى (الهيكل) أورشليم وصار يسأل الأجر والعلم مسائل مهمة ثم يوضحها لهم وأدعش الجميع .	١٢ لما صار عمر بوظا اثنتي عشرة سنة دخل أحد الهياكل وصار يسأل أهل العلم مسائل عويصة ثم يوضحها لهم حتى فاق كافة مناظره .

١٣ ودخل بوظا مرة أحد المياكل فقامت
الأسنام من أماكنها وتعددت عند رجليه سجودا له .
١٤ ويصلون نسب كوتاما بوظا من أبيه
(صدودانا) في أناس كلهم من سلالة ملوكانية إلى
ماها ساطا وهو على زعمهم أول ملك صار في الدنيا
والحوارث والأنساب المذكورة في كتاب (بيوراذا)
البرعمي توجد في أنسابه غير أنه لا يمكن تحقيق الحوادث
ونسبها مع غيرها وسبب ذلك هو أن مؤرخي البوطية
أدخلوا فيها أسماء قبائل و اخترعوا أسماء تمكنهم من
إعلاء نسب حكيمهم عدا عن اعتبارهم إياه لها .
١٥ لما عزم بوظا على السياحة فصدا لتجد والتسك
وظهر عليه - مارا - (أى الشيطان) كي يجربه .
١٦ وقال مارا (أى الشيطان) لبوظا لا تسرف
حياتك في الأعمال الدينية لأنك بمدة سبعة أيام تصير
ملك الدنيا .
١٧ فلم يجأ بوظا بكلام الشيطان بل قال له :
(اذهب عنى)
١٨ ولما ترك مارا (أى الشيطان) تجربة بوظا
أمطرت السماء زهرا وطيبا ملأ الهواء طيب عرفة .
١٩ وصام بوظا وقتا طويلا .
٢٠ وقد عمد بوظا الخالص وحين عمدته بالماء
كان روح الله حاضرا وهو لم يكن الإله العظيم فقط .
بل وروح القدس الذى فيه صار تجسد كوتاما لما حل
على العذراء مايا .
٢١ ولما كان بوظا على الأرض في أواخر أيامه
بدلت هيئته وهو إذ ذاك على جبل (بنداقا) أى الأصفر
البيض في (سيلان) ونزل عليه بقنة نور أحاط برأسه
على شكله ! كليل ويقولون إن جسده أضاء منه نور
عظيم وصار كشمس من ذهب براق مضى كالشمس
أو كالقمر ، وحينئذ تحول إلى ثلاثة أقسام مضيئة ،
وحيثما رأى الحاضرون هذا التبدل في هيئته قالوا :
ما هذا بشرا ؟ إن هو إلا إله عظيم .

١٣ وكان يسوع مارا قرب حاملى الأعلام
فأخذت الأعلام رؤوسها سجودا له
١٤ ويعدون سلالة يسوع من أبيه يوسف
في أشخاص مختلفين وكلهم من سلالة ملوكانية إلى آدم
أبى البشر وكثير من الأسماء والحوادث المذكورة
في سلالة مذكورة في التوراة كتاب اليهود وليس
بالإمكان تحقيق حكاياتهم مع بعضها بعضا وبظهر
لنا أن المؤرخين النصارى قد اخترعوا أسماء قصد
إعلاء نسب حكيمهم علاوة على قولهم بالوهيته .
١٥ لما شرع يسوع في التبشير ظهر له الشيطان
كى يجربه .
١٦ وقال (أى إبليس) له (اى يسوع)
أعطيت هذه (أى الدنيا) جميعها إن خبرت
وسجدت لى .
١٧ فأجابه يسوع وقال اذهب يا شيطان .
١٨ ثم تركه إبليس وإذا ملائكة قد جاءت
فصارت تخدمه .
١٩ وصام يسوع وقتا طويلا .
٢٠ وبوحنا عمد يسوع بنهر الأردن وكانت
روح الله حاضرة وهو لم يكن الإله العظيم فقط ،
بل والروح القدس الذى فيه تم جسده عند ما حل
على العذراء مريم فهو الآب والابن والروح القدس .
٢١ لما كان يسوع على الأرض بدلت هيئته
وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب وبوحنا
أخاه وصعد بهم إلى جبل عال منفردين وتغيرت هيئته
قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه
بيضاء كالنور .

بوذا

٢٢ وعمل بوذا عجائب وآيات مدهشة لخبر
الناس وكافة القصص المنتهية فيه حاوية لتذكر أعظم
العجائب مما يمكن تصوره .

٢٣ وفي صلاتهم لبوذا يأمل المؤمنون به دخول
ال فردوس .

٢٤ لما مات بوذا ودفن انحلت الأكفان
وتفتح غطاء التابوت بقوة غير طبيعية : أى بقوة إلهية

٢٥ وصعد بوذا إلى السماء بجسده لما أكل
عمله على الأرض .

٢٦ ولسوف يأتي بوذا مرة ثانية إلى الأرض
ويعيد السلام والبركة فيها .

٢٧ وسيدى بوذا الأموات .

٢٨ بوذا الألف والياء ليس له ابتداء ولا انتهاء
وهو الكائن العظيم والواحد الأزلى .

٢٩ قال بوذا فلتكن الذنوب التى ارتكبت
فى هذه الدنيا على ليخلص العالم من الخطيئة .

٣٠ قال بوذا اخفوا الأعمال الحسنة التى
تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية .

٣١ ويصفون بوذا أنه ذات من نور غير
طبيعية ، والشريبر مارا (ويدعونه أيضا الحية) ذات
مظلمة غير طبيعية .

٣٢ وفى أحد الأيام التقى (أناندا) تلميذ بوذا
وهو سار فى البلاد بالمرأة (مناجى) وهى من سبط
(الكندلاس) الرذولين قرب بئر ماء فطلب منها
قليلاً من الماء فأخبرته عن سببها وأنه لا يجوز له أن
تقترب منه لأنها من سبط محترم ، فقال لها : يا أختى
إنى لم أسألك عن سبطك وعن عائلتك ، إنما سألتك
شربة ماء ، فصارت من ذلك الحين تلميذة بوذية .

٣٣ قال بوذا إنه لم يأت ليقتضى التاموس .
كلا ! بل أتى ليأكله وقد سره عد نفسه حلقة
فى سلسلة الملين الحكام .

يسوع المسيح

٢٢ وعمل يسوع عجائب وآيات مدهشة لخبر
الناس وكافة القصص المنتهية فيه حاوية لتذكر أعظم
العجائب مما يمكن تصوره .

٢٣ وفى صلاتهم ليسوع يأمل المؤمنون بألوهيته
دخول الفردوس .

٢٤ لما مات يسوع ودفن انحلت الأكفان
وفتح القبر بقوة غير اعتيادية : أى بقوة إلهية .

٢٥ وصعد يسوع بجسده إلى السماء من بعد
صلبه لما أكل عمله على الأرض .

٢٦ ولسوف يأتي يسوع مرة ثانية إلى الأرض
ويعيد السلام والبركة فيها .

٢٧ وسيدى يسوع الأموات .

٢٨ يسوع الألف والياء ليس له ابتداء ولا انتهاء
وهو الكائن العظيم والواحد الأبدى .

٢٩ يسوع هو محلس العالم وكافة الذنوب التى
ارتكبت فى العالم تمنع عليه عوضاً عن الذين اقرتوها
ويخلص العالم .

٣٠ قال يسوع اخفوا الأعمال الحسنة التى
تفعلونها واعترفوا بذنوبكم علانية .

٣١ ويصفون يسوع أنه ذات من نور غير
طبيعية شمس بر ، وعادوه الشيطان الحية القديمة .

٣٢ وفى أحد الأيام قعد يسوع قرب بئر ماء
بعد ما سار مسافة حتى كاد يتهك التعب وبينما هو قاعد
قرب البئر عند مدينة (السامرة) أتت امرأة سامرية
لتحلب جرتها من البئر . فقال لها يسوع : اسقى شربة
ماء . فقالت له المرأة السامرية : أنت يهودى وكيف
تطلب منى شربة ماء ؟ فإن اليهود لا يستحلون معاملة
السامريين .

٣٣ وقال يسوع (لا تظنوا أنى جئت لأقتضى
التاموس أو الأنبياء ما جئت لأقتضى بل لأأكل) .

يسوع المسيح	بوظا
٣٤ قال يسوع (أحبوا أعداءكم باركوا لأعدائكم أحسنوا إلى مبغضيك) .	٣٤ وبحسب تعليم بوظا يجب أن تكون كافة أعمالنا مع أهلنا وجيراننا بالحببة والحسنى .
٣٥ وفي أوائل أيام يسوع التي علم ويشر فيها ذهب إلى مدينة (كفر ناحوم) وعلم فيها قتيبه بذلك الحين أربعة رجال صيادين وصاروا تلاميذ له ومن هذا الحين صار أبنا كوز يتبعه رجال ونساء كثيرون يؤمنون به .	٣٥ وفي أوائل أيام بوظا التي علم ويشر فيها ذهب إلى مدينة بينارس وعلم فيها قتيبه كوندنيا ثم تبعه أربعة رجال آخرين وصاروا جميعهم تلاميذ له ومن ذلك الحين صار أبنا علم وكرز يتبعه رجال ونساء كثيرون ويصيرون من أتباعه وتلاميذه .
٣٦ وقال يسوع للذين صاروا تلاميذ له كي يتركوا دنياهم وبناتهم وعيشة الفقر والفاقة .	٣٦ وقال بوظا للذين صاروا تلاميذ له كي يتركوا الدنيا وغناهم ويندرون عيشة الفقر والفاقة .
٣٧ وجاء في كتب النصارى الدينية المقدسة أن الجموع طلبوا من يسوع علامة (أي آية) ليؤمنوا به .	٣٧ وجاء في كتب البيوطية القانونية المقدسة أن الجموع طلبوا من بوظا آية كي يؤمنوا به .
٣٨ لما اقترب انتهاء أيام يسوع على الأرض أخبر عن الحوادث التي ستقع من بعده وقال لتلاميذه (انهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعلوهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به . وها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر) .	٣٨ لما اقترب انتهاء أيام بوظا على الأرض وعلم الحوادث القليلة التي ستقع قال لتلميذه (أناندا) ما يأتي (يا أناندا متى أنا ذهبت لا تظن أنه لم يعد لبوظا وجود . كلا ! فالكلام الذي قلته والفرائض التي افترضتها تكون خلفا عنى وهي لك كذاني أنا .
٣٩ ولها واحد تقدم وقال له أيها المعلم الصالح أى سلاح أعمل لتكون لي الحياة الأبدية . قال له يسوع إن أردت أن تكون كملافاذهب وبيع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعنى . لا تسكنوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد الموس والصدأ وحيث ينقب المارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون .	٣٩ وجاء في التعاليم البيوطية بأن إتفاق الإنسان لماله من أعظم الصعوبات ومنه ينفق غناه هو أشبه بمن يهب روحه لأن النفس تبخل بالمال وتمسك به وأما هو فقد وهب ونذر حياته شفقة وحنوا لخير الناس فلماذا تمسك بغناء الدنيا الزهيد . ولما تخلص بوظا من حب المشتهات الدنيوية وهطاتها قال المعرفة الإلهية وصار الرأس فليعمل الرجل الحكيم المهاجر للهدات الدنيا الخير مع كل أحد حتى تقديم نفسه فداء عن الغير عندها يصل إلى المعرفة الحقيقية .
٤٠ ومن ذلك الزمان ابتداء يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات .	٤٠ وكان قصد بوظا تشييد مملكة دينية أي مملكة سماوية .
٤١ من بعد تجربة الشيطان ليسوع ابتداء يسوع بتأسيس مملكة دينية ومن أجل هذا الغرض ذهب إلى مدينة (كفر ناحوم) ومن ذلك الزمان ابتداء يسوع يكرز ويقول توبوا لأنه قد اقترب ملكوت الله الشف الجالس في ظلمة أبصر نورا عظيما والجالسون في كوة اللوت وظلاله أشرق عليهم نور .	٤١ وقال بوظا (الآن أحببت إدارة دولاب الشريعة العظيم) ومن أجل هذا فإني ذاهب إلى مدينة (بينارس) لأهب نورا للتائبين في الظلام وأفتح باب الحياة للإنسانية .

يسوع المسيح	بوظا
٤٢ الناموس أعطى لموسى أما النعمة والحق فيسوع المسيح صارا . الحق أقول لكم السماء والأرض تزول ولكن كلامي لا يزول .	٤٢ وقال بوظا لتلميذه الحبيب (أناندا) يا أناندا إن كلامي حق لا ريب فيه فلا يزول قطعا ولو وقعت السموات على الأرض وابتلع العالم وجفت البحار واندك جبل سومر وصار قطعا .
٤٣ وقال يسوع (قد سمعتم أنه قيل لقدما . لا تزن . وأما أنا فأقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتتها فقد زنى بها في قلبه .	٤٣ قال بوظا (لا يوجد شيء أعظم فعلا في الإنسان من الاشتهاء والهوى الشهوانى والحسن الحفظ والسعادة لا يوجد سوى اشتهاؤى شهوانى واحد ولو كان يوجد اشتهاؤ آخر لما كان على وجه الأرض رجل يتبع الحق فاحترسوا من تحقيق بصركم في النساء . وإن كنتم مجتمعين معهن فاجعلوا اجتماعكم كأنكم غير حاضرين معهن وإذا كلمتموهن فاحترسوا على قلوبكم .
٤٤ حسن للرجل أن لا يمس امرأة ولكن إن لم يضبطوا أنفسهم فليزوجوا ، لأن الزوج أصلح من التحرق .	٤٤ وقال بوظا (الرجل العاقل الحكيم لا يتزوج قط يرى الحياة الزوجية كأنون نار متأججة ومن لم يقدر على العيشة الرهبانية يجب عليه الابتعاد عن الزنا) .
٤٥ وفيما هو يجتاز رأى إنسانا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين يا معلم من أخطأ هنا أم أبواه حتى ولد أعمى .	٤٥ ومن جملة التعاليم البوطية قولهم (إذا أصاب الإنسان حزن وآلام وبؤس وقنوط فإن ذلك يدل على أنه ارتكب آثاما وهذه الآلام جزاء عليها) . وإذا لم يكن ارتكب شيئا من الآثام في هذا الدور الحاضر من حياته لا بد وأن يكون قد ارتكبه في أحد الأدوار السابقة من ظهوره (أى في أحد أدوار تقمصه)
٤٦ كان يسوع يعلم أفكار الناس عند ما يدبر تصوراتهم نحوهم وأنه قادر على معرفة أفكار المخلوقات كلها .	٤٦ كان بوظا يعلم أفكار الناس عند ما يدبر تصوراتهم نحوهم ويقدر على معرفة أفكار المخلوقات كلها .
٤٧ قال يسوع (فإن كانت عينك اليمين تمترك فاقطعها وألقها عنك) .	٤٧ وجاء في كتاب الصوماديفا حكاية منسوبة لأحد القديسين البوطيين أنه قلع عينه ورماها لأنها أشكته .
٤٨ لما كان يسوع داخلا إلى اورشليم راكبا على حمار فرشت الجموع الطريق بأغصان النخيل . اه	٤٨ لما عزم بوظا على التنسك كان راكبا جوادا يدعى (كتاكوكو) فرشت للملائكة طريقه بالزهر . اه

تم الجزء الثالث من تفسير الجواهر ، ويليهِ : الجزء الرابع ، أوله تفسير سورة الأنعام

فهرست
الجزء الثالث من تفسير الجواهر

- صفحة
- ٢ سورة النساء مقاصدها تسع ، وبيانها إجمالا .
- ملخص هذه السورة بحيث يطلع القارئ على ملخص ما فيها .
- ٤ مقدمة في مناسبة هذه السورة لما قبلها ، كما أن آل عمران من بني إسرائيل الذين ربنا تاريخهم ترتيبا زمانيا في سورة البقرة .
- ٥ ٦ و٧ القصد الأول وتفسيره ، وبيان أن خلق آدم في القرآن مجمل ، والحكاه في الشرق والغرب هم الذين يبحثون في ذلك ، وبيان ما يقوله قدمائنا والأوروبيون في خلق آدم وسائر الحيوان برآ وبحرا وأن جميع الحكاه لم يصلوا للحقيقة ، والكلام على النفس الكلية وعلى احتياج الناس بعضهم لبعض فهم أشبه بنفس واحدة .
- ٧ برهان على أن من كره الناس فهو واقع في الناقض المنطقي ، إذ يتج أنه يجب نفسه ويكرهها .
- ٨ المقصد الثاني من السورة « واتقوا الله الذي تساءلون به - إلى - حسيبا » .
- ٩ تفسيره اللفظي .
- وصف الناس بأنهم كأعضاء جسم واحد ، تساوى الذكور والإناث ولادة .
- ١٠ تعدد الزوجات في الإسلام .
- ١١ حقد أوروبا على المسلمين وسعيهم في ذلك .
- ١٢ تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وسلم .
- اللطيفة الثالثة « ولا تؤنوا السفهاء أموالكم » .
- ١٣ بيان الجهل القاسي في مصر وغيرها إذ يتركون الأموال في الصارف الإفرنجية ويشترون منسوجاتهم ثم يبيرون عبيدا لهم غافلين عن قوله تعالى « ولا تؤنوا السفهاء أموالكم » وقد تنبه لذلك أهل الهند والترك وغيرها .
- ١٥ المقصد الثالث في قسم التركات والمعاملات المالية « للرجال نصيب - إلى قوله - ولهم عذاب مهين » .
- ١٦ تفسير هذا القسم تفسيراً لفظياً .
- ١٨ لطيفتان : الأولى : حصر الفروض المتقدمة في جدول .
- الثانية : كيف تكون التعاليم الإسلامية في مستقبل الزمان .
- ١٩ همة علماء الإسلام في علم الفرائض المستخرج من هذه الآيات وأمثالها .
- فإذا كان علماء الإسلام استخرجوا الفرائض وحسبوا فعلينا نحن أن تتم الأمر ونظهر ما في القرآن من العلوم الطبيعية والفلكية ، كما أتوا أهم العلوم العملية .
- ٢٠ خلاصة علم الفرائض .
- أنواع علم الحساب المستخرجة من الأرطاطيقي من علم الفلسفة وحساب الفرائض منها .

- ٢١ استنتاج التعليم في مستقبل الإسلام من قوله « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية الخ » وبيان أن الإسلام يحث على الترغيب والإقناع واستخراج ما كمن في النفوس من الرحمة والألفة . أما الاقتناع بالترهيب فإنه يجعل الأمة راقية .
- الهبة والكهرباء وإيضاحهما وأن الهبة والقضائل كامنة في النفوس كون الكهرباء في الأجسام .
- ٢٢ الترغيب والترهيب في الآيات . موازنة بين الرغبة والرغبة وشعر النابغة وكثير عزة المفيد أن الرغبة أصل وما عداها ضعيف .
- ٢٣ جوهرية في قابلية الناس للكمال ، وواجب علماء الإسلام . ذكر أهل سويسرا وكيف نبغوا في الأمانة والأخلاق ، وكيف قص المسلمون في ذلك ، وأن الأمثلة قائمة على أن المسلمين وأهل الشرق مستعدون أن ينالوا أرقى الأخلاق .
- ٢٤ المقصد الرابع في صلة الذكر والأنثى وأحكام اختلاطهما بقصد أو بغير عقصد « واللاتي يأتين القاحشة الخ » .
- ٢٦ تقسيم هذا المقصد إلى ثلاثة فصول ، التفسير اللفظي للفصل الأول .
- ٢٧ إيضاح لهذه الآيات .
- ٢٨ جوهرية من جواهر القرآن في التربية في مستقبل الإسلام .
- سرف المسلم عن الدين بأمرين : الاكتفاء بهزاة القرآن تعيدا ، والوقوف عن التفكير فيه ملدلم في غير علم الفقه . النفوس البشرية ثلاثة أقسام : مضية ، ومشفة ، ومتممة ؛ كالشمس ، والهواء ، والحجر الخ .
- ٢٩ تفسير الفصل الثاني اللفظي .
- ٣٢ لطائف أربع : اللطيفة الأولى : ذكر جدول للمحرمات .
- ٣٣ اللطيفة الثانية : الشهوة قد تغلب رحمة ، والكلام على الشهوات المركوزة في نفوسنا ونار الضمب ونار الرحمة ونار الشهوة ، وكيف اهتلت الشهوة للمحارم رحمة لمن ، ذلك دال على قدرة الإنسان على الارتقاء وقابليته .
- تصور فتاة تتنازعها العوامل وشابا كذلك .
- ٣٥ حكاية عالم عظيم من بلاد الشام ناقلا ملدار بينه وبين ضابط فرنسي . اللطيفة الرابعة الأحرار والعبيد
- ٣٦ تفسير الفصل الثالث .
- ٣٧ جهل المسلمين واستمرارهم على شراء بضائع الفرنجة بعد ماقتلوا المسلمين بالاندلس وضربوهم .
- ٣٩ غفلة المسلمين في أكثر البلاد عن مسألة الحكيمين : وهذا جهل بالقرآن .
- ٤٠ أهل أوروبا في القرب ورجال الإسلام في الشرق ، وكيف استذلوم بالشهوات وأن من الذين انبعوا بالشهوات أهل أوروبا ورؤساء الإسلام لإذلال المسلمين ، وبيان تلاميذ وأصحاب المسيح السجال ، وأن ما هو حاصل الآن قد جاء في الحديث ، وأن جنة الفرنجة بإعطاء الملاذ ونارهم بضرب البلاد بالمداضع يشبهان جنة الدجال ونار الواردين في الحديث ، وأن هذا سر النبوة ظهر الآن .
- ٤١ إيضاح شهوات الاستعماريين في أوروبا وشهوات الأمم الشرقية محوما والمسلمين خصوصا
- ٤٢ التجارة هي مثل جنة المسيح السجال الذي حل أشباهه وأصحابه بالشرق من أوروبا .
- بشارة المسلمين بقرب انقشاع الظلمات من بلاد الإسلام .
- إيضاح آية التجارة والقتل .

- ٤٣ جمال هذا المقام .
- ٤٤ زيادة الإفصاح ، وأن المسلمين عليهم أن يعملوا ولا ينتظروا المسيح ولا المهدي ، بل ليرقوا نفوسهم حتى يستعدوا أن ينزل فيهم المسيح .
- المقصد الخامس « واعبدوا الله الخ » .
- ٤٦ تسميم هذا المقصد إلى ثلاثة فصول وتلخيص الفصل الأول .
- تفسير كلمات الفصل الأول ، تفسير الفاظه .
- ٥٠ الفصل الثاني .
- ٥٢ لطيفة : الحسد والبخل .
- ٥٣ الفصل الثالث في تاريخ اليهود وكيف تفرقوا في الأرض وكيف أحدثوا البهشية وكيف قام لللك لهم مع غيرهم لالهم وحدهم مصداقا للقرآن . طاعة الرعايا للحكام وفوائده دنيا وأخرى .
- ٥٤ تفسير « إن الله يأمركم الخ » تفسيرا لفظيا .
- ٥٦ الخلافة في الإسلام . وهذه مقالة نشرتها في بعض الجرائد المصرية .
- دين الإسلام ، الخلافة المهجبة للبرقة .
- ٥٧ بقية المقالة .
- ٥٨ بيان أن أولى الأمر هم المذكورون في سورة الشورى (وهي مكية) .
- ٥٩ إكمال التفسير اللفظي .
- التسليم والرضا ، وسورة النساء وسورة الشورى .
- ٦١ الطريقة التي لرقى المسلمين بالسلطات البائتات والتشويق بسير الأبطال كما يشقون في جمال هذه الدنيا المقصد السادس « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم - إلى قوله - عليا حكيا » .
- ٦٤ تسميم المقصد إلى أحد عشر فصلا .
- ٦٥ التفسير اللفظي للفصل الأول وما بعده .
- ٦٩ آراء العلماء في صلاة المسافر .
- ٧٠ أي سفر يكون القصر فيه ؟
- صلاة الخوف .
- ٧١ التفسير المعنوي وجمال القرآن والإسلام . ذكر إحدى عشرة فكرة بهيئة جدول .
- ٧٢ نظام العالم ونظم الإنسان والتام أول هذه السورة مع علومها .
- ٧٣ سر الصلصال في آدم بالحرارة لحفظ جسده ، وأن التضب والشجاعة يقومان بحفظ الأجسام ، وقد تنوع ذلك في الديانات والعاجات .
- ٧٤ وجوب المحافظة على الوطن في الإسلام من أهم ما في القرآن ، الواجب على المسلمين في أقطار الأرض .
- ٧٥ تسامح الإسلام وظلم أوروبا فقد جئنا من العبيد لنا ملوكا ولم يفعل شيئا من هذا أهل أوروبا .
- ٧٦ محاورات بين المسلمين بعد مائتي سنة فأكثر على طريق الخيال ، وكل نائب من نواب المسلمين يقول ما في نفسه ثم يصطلحون أن يكونوا رحما بالناس جميعا .
- ٧٧ المقصد السابع « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق الخ » . تفسير هذه الآيات .

- ٧٨ بيان أجلى ونور أشرق ، وبيان أن هذه الآيات نزلت لأجل يهودى ونصره على مسلم ، وأن المسلمين بحسب وضع ديننا خلقوا ليكونوا رحمة للعالمين جميعا .
- ٧٩ كثير من المسلمين اليوم متعصبون لأقاربهم أو لأهل وطنهم ، وأهل أوروبا كذلك كما فعل الإنجليز أخيرا إذ ذرءوا زوجة على فهمى (الشاب المصرى) وقد قتلتها امرأة إنجليزية وأقرت بقتله ، فالإسلام نبراس العالم .
 القصد الثامن « لآخر في كثير من نجوام الخ » .
 بقية الآيات إلى قوله « وكان الله غفورا رحما » .
- ٨٢ وفي هذا القصد أربعة فصول : الفصل الأول .
 بقية تفسير الفصل الأول .
- ٨٤ ذكر سبعة أنواع من تفسير خلق الله .
- ٨٥ اللطيفة الأولى في إفاضة الكلام على تفسير خلق الله .
- ٨٦ تفسير العقول في الأم ومنع العلم وإذلال الشعوب ووضع التلاميذ والوظفين في غير مواضعهم تفسير لخلق الله ، وعدم إعطاء العقل نصيبه من التفكير مع إعطاء المعدة حظها من الغذاء . تفسير لخلق الله في المآكل ، وأن المسلمين جميعا آمنون لإهمالهم فروض الكفايات وليس عندهم قوم مختصون في كل علم وصناعة .
- ٨٧ أى مخلوق هو الشيطان ؟ أهو مجرد مذكور لاحقيقة له ؟ أم له وجود ؟ وما دليله ؟ وكيف يكون لكل مرض حيوانات تسببه ؟ وكيف جاء في الرازى والغزالي وإخوان الصفاء والعلم الحديث أن الشيطان موجود ، وخطبة العلامة أوليفز لودج الإنجليزى أن الأموات أحياء وهو يخاطبهم .
- ٨٨ غرور المسلمين وغرور المسيحيين ، كل بدئسه ونيبه جهل ، والله يقول (ليس بأمانيك ولا أمانى أهل الكتاب الخ) .
- ٩٠ تفسير الفصل الثانى (وستفتونك فى النساء) .
 بقية تفسير هذا الفصل .
- ٩٢ حكاية الاسكندر والفيلسوف الهندى إذ أرسل الأول للثانى (برينة سمن) ووضع الثانى فيها (إيرا) ثم ردها إليه الخ .
 بقية الحكاية وتفسير الفيلسوف للاسكندر تلك الإشارات ، وأولها وضع يده على آتفه الخ ، وقوله للاسكندر لا يبنى للفيلسوف أن يأخذ مالا من أحد الخ .
- ٩٤ تفسير بقية الآيات . منظر جميل .
- ٩٥ تفسير ذلك المنظر الجميل الذى تخيله المؤلف فى الخلوات من الأعمدة الياقوتية وعمود اللاس والحبال المدودات والسفط للملوك ، جواهر بحيث لو سقطت الأعمدة الياقوتية أو عمود اللاس يسقط للسفط ، وأن ذلك رمز للعلم والأرواح والأمة الخ ، وذلك كله فى هذه الآيات .
- ٩٦ صورة ما تقدم بالرسم موضحة .

- ٩٧ مجاب العلم الحديث في هذه الآيات ، وذكر مصلى الصدق الذى كشف في بلاد الإنجليز وآثار الأيدي والأقدام وعلم (السيكومتري) وكيف يظهر في كل فكر وكل قول أو عمل على الحجارة والحيطان ونحن لانشعر ويفتضح السر بعد آلاف السنين كما وردت به السنة في بعض الأحاديث .
- ٩٩ اعتراض على المؤلف وجوابه ، وكيف كان واردا في نفس القرآن والمسلمون ساهون لاهون .
- ١٠٠ تفسير الفصل الرابع « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله الخ » .
- ١٠٢ الأجسام قسما : موصل للحرارة وردية التوصيل ، فالأولى كالمعادن والثانية كالخشب الخ . وهكذا تختلف في صهرها وذوبانها كالبلاطين والماء للقطر ، فالثاني يسيل على درجة صفر ، والأول على درجة ١٧٧٥ ، هكذا بنو آدم قضايتهم وفضلاؤهم يشبهون ماتقدم ، وحديث مسلم شبه أعلام في المرور على الصراط بطرفة عين وأدنامم بركاب الإبل وبينهما درجات مذكورة ، وهناك جدولان للمعادن أحدهما لتوصيل الحرارة ، والثاني للانصهار والتدويان .
- ١٠٦ المقصد التاسع « يسألك أهل الكتاب الخ » .
- ١٠٧ هذا المقصد ثلاثة فصول .
- ١٠٨ تفسير (١٦) ذنبا من ذنوب اليهود مفصلات في هذه الآيات .
- ١١٠ الناس في الأرض مخادعون في أمور السياسة ، ويان أنى ألفت كتاب [أين الإنسان] وأرسلته إلى أوروبا : يشناق الناس إلى يوم يعود فيه السلام العالم وكلام القارابي في ذلك ، وقد جاء في حديث البخارى ومسلم ، نزول عيسى عليه السلام وأن عيسى لا يركب القلوص فلعل هذا زمانه لأن الناس تركب القطار .
- ١١٢ المدار في نزول المسيح على رقى الأمم حين نزوله وبعده فليس المدار على الأشخاص بل على الآثار ، فيبدأ المسلمون بالرقى من الآن ليكونوا رحمة للعالمين وليستاهلوا أن ينزل المسيح .
- ١١٣ الأعصر السابقة في علم طبقات الأرض .
- ١١٥ لطيفة في تعاليم الأرواح ، وكيف كانت أخلاق للمسيح وأعماله موافقة لذلك الحديث .
- ١١٧ تفسير قوله تعالى « يا أهل الكتاب لاتقلوا في دينكم » وهو الفصل الثالث .
- ١١٨ لطيفتان : اللطيفة الأولى في شرائع الأنبياء ، اللطيفة الثانية في المسيح .
- ١٢٠ اغترار كثير من جهلة المسلمين بشيوخهم ومثلهم كمثل اليهود والنصارى إذ قالوا « نحن أبناء الله وأحباؤه » وقد غفلوا عن قول الله في نبينا صلى الله عليه وسلم « عيسى وتولى الخ » وقوله « وإن كان كبر عليك إعراضهم الخ » .
- ١٢٣ (سورة المائدة) هي أحد عشر قسما .
- ١٢٤ مقدمة يذكر فيها جميع ماخصت به هذه السورة من الأحكام وهي ١٨ حكما ، وهي ثلاثة أقسام .
- ١٢٥ شرح وتفسير هذه الأحكام ، وهي المنخقة والوقوذة .
- حل ماصدناه من الجوارح وشروطه .
- ١٢٦ حل طعام الدين أو نوا الكتاب والمحصنات منهم ، والكلام على البحيرة والسائبة والوسيلة والحام الخ .
- ١٢٨ المسألة الأولى : نظافة الجسم « إذا قمتم إلى الصلاة » .
- ١٢٩ كيفية الوضوء وأن الفروض نحو ١٦ فرضا ، للتفق عليه منها أربع ، والباقي فيه خلاف .

- ١٢٩ إيضاح للذاهب كلها في هذه المسئلة .
- ١٣٠ المسئلة الثانية « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » التخفيف فلا قطع في جالين .
- المسئلة الثالثة « لا تقتلوا الصيد وأتم حرم »
- ١٣١ المثل الواجب والاختلاف فيه ، وإيضاح هذا القلم :
الجراد وطير الماء والضفدع والتمساح وحكم ذلك كله .
- ١٣٢ المسئلة الرابعة « شهادة بينكم » الآية ، وقصة نعيم الناري وعدى بن بدهاء مع بديل مولى عمرو ابن العاص ، وتركته التي كان فيها إناء من فضة ، وقضاء شريح بهذه الآية .
- ١٣٣ مذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة وغيرهم في هذه المسئلة ، وكيف أمر الله بذبج الحيوان وهو أرحم الراحمين ؟ . الجواب أن الرحمة بمعنى رقة القلب مستحيلة الخ .
- ١٣٤ الحيوان منه آكل ومأكول ، الأمراض العاتية في الإنسان والحيوان ، القاتل للإنسان نوعان من الحيوان
- ١٣٥ ولعلك تقول : لماذا يكون هذا الإهلاك والقتل ؟ وبيان أن العالم الأرضي من العوالم المتأخرة الخ ، فطرة العاتية والنبوات .
- ١٣٦ أفي الإعدام رحمة ؟ وبيان أن طول حياة الإنسان تنافي الرحمة لشدة الازدحام في الأرض ، عقائد الإنسان في أكل الحيوان وتحريمه وعاداته في ذلك .
- ١٣٧ كيف وافق الإسلام الطبيعة ؟
- بيان السبب في تحريم الجوارح والآساد مثلا .
- ١٣٨ الجواب عنه ، البوذية وأبو العلاء المرعي ، لم سميت هذه السورة باسم المائدة ! وجوب درس علم الحيوان .
- كيف سأل المسلمون أن يتاموا بعد الأولين السابقين من الأئمة الأعلام .
- ١٣٩ ذكر الحيوانات التي منعت الحكومة المصرية سيدها وهي ١٢ جنسا .
- ١٤٠ الدليل على أن هذه الحيوانات محرم أكلها ، هذه المائدة حية ومعنوية .
- ١٤١ العلماء الذين سيكونون في مستقبل الزمن ، وبيان السلام التي يدرسونها مثل علم النبات والحشرات الخ .
- ١٤٢ إتمام هذا الموضوع وبيان أن الوضوء مفتاح الصلاة ، والصلاة معراج ولا عروج إلا بالعلم ، اعتراض على المؤلف وجوابه .
- ١٤٣ نحن نذبج الحيوان فترحمه وهو يدخل أجسامنا بالأكل فينقلب ذوات حية تأكل أجسامنا بالأمراض المختلفة . المقصد الأول « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود الخ »
- ١٤٤ تفسير لفظي لهذا المقصد .
- ١٤٥ تفسير قوله تعالى « اليوم أكملت لكم دينكم الخ » وما جاء فيها من رأي أبي بكر وعمر وبكاء الأهل
- ١٤٦ وهكذا خطبة الوداع تشير إلى ذلك ومناسبة هذه الآية لقوله تعالى « شهد الله أنه لا إله إلا هو » الآية .
- ١٤٧ عجائب القرآن ، زيادة إيضاح « ورشيت لكم الإسلام دينا الخ » .
- المقصد الثاني « إذا قمتم إلى الصلاة الخ » .
- ١٤٨ تفسير هذا المقصد .
- ١٤٩ المقصد الثالث « ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل الخ » .

- ١٥٠ كلام عام في المقصد الثالث.
- ١٥١ ما المقصد من قوله تعالى « وألقينا بينهم العداوة الخ » وهل ما في سفر العدد من التوراة وما في سفر التثنية مما يناسب هذا المقام .
- ١٥٢ تذكير بني إسرائيل بالنعمة .
- ١٥٣ حكمة هذه التجارب بما في الإصحاح الثامن من التثنية ، وأن إذلالهم في التيه ليكون تأديبا لهم ولئلا يقول الإنسان قوتي وقدرتي يدي صنعت لي هذه الثروة .
- تفسير هذا المقصد تفسيراً لفظياً على مقتضى هذه المقدمة .
- ١٥٥ تذكير المفسرين المسلمين أن هذا تذكير لهم ، فلا يشتغلون إلا بتريه الشبان على الشهامة والمروءة والشفقة .
- المقصد الرابع « وائل عليهم نبأ ابن آدم بالحق الخ » .
- تفسيره تفسيراً لفظياً .
- ١٥٦ تحقيق هذا المقام ، وسؤال المؤلف لم ذكر الله هذه القصة الخ .
- ١٥٧ إجابة المؤلف أنه لو لم يكن إله في القرآن لكفت ، وبيان أن الإنسان فيه غريزة الانفراد بالمنفعة وغريزة مساعدة الناس فإن لم يتوسط فلا بد أن يكون ظلماً كقبايل أو مستلباً كهايل .
- وبيان القروء التي صنعت قنطرة من أنفسها على التهر وغير ذلك .
- ١٥٨ بيان أن الناس على الأرض جميعاً متعاونون في الشرق والغرب ، وإن كانوا يتحاربون فهم اليوم أشبه بالتحلة تلتح الشجر وهي تمر بالزهرة لاعلم لها ، وكل عالم وكل صانع هكذا فعله ، فالتناس اليوم جهلاء غالباً ؛ فمن قتل نفساً فقد قوت للنفعة على أهل الأرض جميعاً . وبيان أن الله وإن أحل لنا صيد الحيوان فقد حذنا أن نخذو حذوه في النافع والعلم بعمله أنفع وأنسرف من سيده .
- ١٦٠ نداء المفسر لأمة الإسلام وأن النداء بالويل من ابن آدم على جهله بما يعرفه الغراب يراد منه أن يتأسف ويندم المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها على جهلهم الواضح وتأخرهم الواضح ، فليقولوا يا ويلنا أمجزنا أن نسكون كأهل أوروبا وأمريكا واليابان ، فضلاً عن أن نعرف نظام الحيوان والسموات والأرضين .
- ١٦١ نداء إلى علماء الإسلام ، وبيان أن الأئمة اجتهدوا ودققوا في العبادات ، فليكن جهاد العلماء اليوم في التوحيد ، وهو علم الفلك والطبيعة الخ .
- ١٦٢ الخزائن الحديدية في القرآن .
- ١٦٣ بيان أن علم الطيور وعلوم الكائنات ذكرت في القرآن ، وفي هذه الآيات ، والناس يرونها أمامهم وهم عنها منصرفون فكأنها في خزائن من حديد ، وذكر بعض ما في الخزائن من طيور ، والطيور الجارحة .
- ١٦٤ الحفائش واليوم ووصفها وفوائدها ومجانبتها .

- ١٦٥ الغراب وأنه مساعد للفلاح وكيف يبني بيته ، وكيف يحافظ على الجماعة ويأكل الدود فيحفظ الزرع ، الموازنة بين الغراب والبوم والحفاش والفلاح في الحقل وأن هذه مملكة سياسية ؛ فالوزير الأول الفلاح يزرع الأرض ، والوزير الثاني اليوم إذ يأكل الفيران والحشرات ، فإذا بقي شيء من الحشرات أكله الحفاش ، فإذا أفات شيء من الحفاش ليلا تلقاه الغراب نهارا فأكله وذلك هو الدود .
- ١٦٧ الطيور المائية والهوائية والأرضية ، العصفور الدوري لا يبني عشا وإنما يضع بيضه في عش عصفور آخر يمانه ويربى ولده وهو لا يشعر .
- ١٦٨ الحيوان كتاب مفتوح للناظرين ، يخاطب الهدهد سليمان عليه السلام بقوله « أحطت بما لم تحط به » وهكذا . إن سياسة الله في الإنسان والحيوان أن يخدم الفرد المجموع .
- ١٦٩ السلام على الحشرة المسماة فرس النبي وعلى العقرب ، وكيف يموت الذكر بعد عملية الإلقاح لأنه لا يعمل له .
- دود القز وتناسه وموته بعد ذلك ، وأن ما اقتضت الصحة بقاءه بقي بعد ظهور الولد كالطيور والدواب والإنسان ، ولو استغنت الدرية عن هؤلاء لهلكوا وكان المأثم عقب العرس كما هو الحال في دود القز والجراد وغيرها .
- ١٧٠ إن كل الناس يخدم بعضهم بعضا ، وكلما كان الإنسان أوسع نفعا كان أفضل كالأنبياء والحكماء الخ .
- ١٧١ عماد ألمانيا يؤلفون لصغارهم كتابا عن الطيور ضربا للأمثال كحكاية الحمامة . اعتراض على المؤلف وجوابه ، وفي الإجابة إيضاح مراتب الحيوان ومجانيبه من حيث حفظ الدرية ، وبيان أن بعض المسلمين اليوم في مساعدتهم الأعداء على حرب إخوانهم أدنى من الحيوان وأجهل من الدواب .
- ١٧٣ خاتمة هذا المقال وجماله في السفينة والسحكة والمنطاد والمرآكب الهوائية التي تعلمها الإنسان من الطير قبل الحرب الكبرى ، وبيان أن الله لم يبعث الغراب وحده لنا ، بل بعث لنا كل العوالم العلوية والسفلية لتعلم منها ، ولما غفلنا بعث لنا الأنبياء وقال : انظروا إن في البحر جماعات من السمك تكوت العنبر الذي يبلغ طوله ثلاثين مترا وهو يأكل نمر البحر ، ومن هذا الحوت يكون العنبر ومن القيطس الذي يبلغ مئات القناطير ، وهكذا الأنعام في البر تكون جماعات كالجرم الوحشية ، فلم يختص الله الطيور ومنها الغراب بقوله « ليريه كيف يوارى سواة أخيه الخ » .
- بيان أن الطير فيه سر أعظم لم يظهر إلا في هذه الأيام ، فإن السفن والسمك في البحر لا تنوم إلا إذا كانت أخف من الماء .
- ١٧٦ ومثلها المناطيد الهوائية الطائرة في الجو بما فيها من غاز خفيف أخف من الهواء ، فهي على قاعدة السفينة والسحكة ، أما الطير فهو أثقل مئات المرات من الهواء المماثل لجسمه حجما ، وقد حار الناس في الطيران في الجو بالطائرات الثقيلة فاهتدوا في أواخر القرن الماضي بمراقبة الطير إلى صنع الطائرات وهي أثقل من الهواء جدا كالطير ؛ فما هو ذا الطير يربنا ويعلمنا فعلا في هذا القرن .
- ١٧٨ اعتراض على المؤلف بأنه يلمص كل شيء بالدين وهذا منه ، وجوابه على ذلك بأنها فروض كفايات ، والمسلمون جميعا معاقبون على تركها ، وقد ذم الغزالي علماء زمانه على ذلك وجعلهم شررا من الشياطين .

- ١٧٨ بيان أن هذه العلوم كلها أُلزم للمسلمين اليوم من أيام الغزالي حين كان المسلمون أقوى الأمم ، فالآن ينم العلماء أتبع التزم إن لم يحرضوا على هذه العلوم ولم يتعلموها .
- ١٧٩ المقصد الخامس « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله الخ » .
- ١٨٠ تفسير هذا المقصد ، وبيان حكم قطاع الطريق .
- ١٨١ إن أهل أوروبا اليوم يهلكون المسلمون ظلما وطمعانا بلا سبب ، وبيان حكم السارق والسارقة الخ .
- ١٨٢ ذكر السموات والأرض في كل مقام لحكمة تناسبه .
- ١٨٣ استبصار في بيان أن جميع الخلوقات مراتب بعضها فوق بعض في الدنيا ، فالأخرى كذلك .
- ١٨٤ المقصد السادس « يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يَسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ الخ » .
- ١٨٥ الكلام في الحكم بين أهل الكتاب الخ ، وقصة اليهودي واليهودية الزانيين ، والكلام على عدم المحاباة في الحكم .
- ١٨٧ تفسير الآيات تفسيرا لفظيا ، والكلام على الراشي والمرثى ولعنهما .
- بقية تفسير هذه الآيات .
- ١٨٨ بيان ما فعله بعض علماء الإسلام في مصر والجشع ، ودخول القانون الفرنسي بمصر .
- ١٨٩ هل شرع من قبلنا شرع لنا ؟ وبقية تفسير هذه الآيات .
- ١٩٠ المقصد السابع « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى الخ » .
- ١٩٢ التفسير اللفظي لهذا المقصد ، الكلام على الردة .
- ١٩٣ قتال أهل الردة وذكر مسيلة الكذاب وخطابه للنبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر التبشئين مثل ذى الحمار الأسود العنسي ، ومثل طلحة بن خويلد ، وقاتل أبي بكر الصديق لأهل الردة .
- ١٩٤ من هم القوم الذين يحبون الله ويعجبهم الله ؟ وبيان أنهم موجودون إلى يوم القيامة .
- بقية التفسير اللفظي لآيات هذا المقصد .
- ١٩٦ لطائف أربع .
- ١٩٧ خيانة الوزير العلقمي لدولة الإسلام لأنه كان شيعيا ليقص من أهل السنة ، فسقى مع مبشر مسيحي وإقامة الحججة عليه وإقراره بأنه مسلم سرا مبشر جهرا .
- ١٩٨ اللطيفة الثالثة : حكاية مع شاب هندي ظهر من كلامه أنهم يعملون بصانح القرآن .
- ١٩٩ ذكر قوله تعالى « كلا أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله » .
- المقصد الثامن « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك الخ » .
- ٢٠٠ التفسير اللفظي لهذا المقصد .
- ٢٠٢ ذكر هجرة المسلمين إلى الحبشة (الأولى والثانية) .
- ٢٠٣ عمرو بن العاص ومن معه أرسلهم أهل مكة إلى النجاشي للإيقاع بالصحابه وردمهم مخدولين .
- إسلام النجاشي وبكاؤه والقيسون معه لما سمعوا قراءة (سورة مريم) .
- المقصد التاسع « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم » .

- ٢٠٥ بيان كفارة اليمين تفصيلا في المذاهب كلها .
- ٢٠٦ بنية تفسير الآيات .
- ٢٠٧ الكلام على تحريم الصيد في حال الإحرام ، والكلام على أن الكعبة ملجأ للمسلمين .
- ٢٠٨ ذكر ما كتبه سابقا في أمر الكعبة وأنها ستكون هي المجمع الذي يجمع للمسلمين عليا وسياسيا ، وأن ذلك ابتداء هذه السنة فعلا على يد الأمير ابن سعود .
- « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء الخ » .
- ٢٠٩ الكلام على قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم الخ » .
- ٢١٠ تفسير عبد الله بن المبارك من أننا نحفظ أهل ديننا الخ .
- للقصد العاشر « يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم الخ » وبيان أن المعنى تقدم في أول السورة .
- ٢١١ المقصد الحادي عشر « يوم يجمع الله الرسل إلى آخر السورة » .
- ٢١٢ التفسير اللفظي لهذا المقصد وابتداء التفسير اللفظي .
- ٢١٣ بقية التفسير اللفظي ، وصف المائدة التي جاءت في الروايات .
- هل نزلت المائدة ؟ خلاف المفسرين في ذلك واتصال هذا بعلم الأرواح الحديث .
- ٢١٤ واللاس الإنجليزي أحضرت الآنة نيشول أمامه زهورا وفاكهة الخ .
- ٢١٥ إن الأرواح بعد الموت يعطيها الله قدرة على صنع بعض المواد .
- ٢١٦ المائدة الحسية لا تفيد يقينا ، وزولها ابتلاء كما يتلى السالكون بالكشف الخ .
- الامتحان عام لقوى المال والجمال والكشف والعلم الخ .
- ٢١٨ إنجيل برنابا وكيف ظهر في هذا العصر وأبان أن المسيح يرى من كل ما يدعيه التصاري فيه ، وكيف نسى المسلم ربه بشيخه الذي هو أقل من المسيح .
- ٢١٩ حكاية المسيح عن إبليبا إذ صرح أن الناس إذا أحبوا الأنبياء ، وشغلوا عن الله فإنهم كعباد الأصنام .
- ٢٢١ الفرق الإسلامية مثل السبئية والبيانية والزيدية والكيانية .
- ٢٢٢ ضحك الفرنسيين على المسلمين ورشوتهم بالمال .
- ٢٢٣ حكاية الفلاح وزوجته وعزله وأبي مسلم ، وحكاية الشيخ محمد شلبي مع المؤلف .
- ٢٢٤ الفلاح وزوجته والسيدة نفيسة رضى الله عنها وإقناع المفسر ذلك الفلاح أن الأمر لله وحده ، وجوب تعميم التعليم في الإسلام حتى يزول الضلال .
- ٢٢٥ مقابلة النص الصريح بين كرشنة ويسوع المسيح ، وبيان أن الأناجيل قد نقل فيها عن أهل الهند كثير مثل الهادي والمخلص والمزمي الخ .
- ٢٢٦ ومثل أنه ربي مع الرعاة وأنه ربي بحال الفقر والذل .
- ٢٢٧ ومثل أنه صلب ومات وأنه نقب جنبه بحربة وأنه قام مع الأموات ، كل ذلك منقول من كتب الهند .
- ٢٢٨ ومثل أنه الألف والباء والوسط وآخر كل شيء ، ومثل أنه كان يحارب الشياطين ، ومثل أنه الصانع الأبدى الخ .

الجواهر

في تفسير القرآن الكريم

المتمثل على عماد بفتح الميم وآخره غراب الأباها

تأليف

الأستاذ الحكيم شيخ طنطاوى جوهرى
المدرس بالجامعة المصرية ومدرسة دار العلوم سابقا
متع الله المسلمين بحياته آمين

الجزء الرابع

الطبعة الثانية

١٣٥٠ هـ - رقم ١٧١

حقوق الطبع محفوظة

طبع مطبعة

مصطفى البابى الحلبى وأولاده بمصر

عاشرة عهد أمير عمران

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ
(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الأنعام هي مكية

﴿ إلاست آيات من قوله تعالى - قل تعالوا أنزل ما حرّم ربكم عليكم - إلى آخر ثلاث آيات ، وقوله تعالى - وما قدروا الله حق قدره - الآية ، وقوله تعالى - ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً - إلى آخر الآيتين ، ويقال إنها نزلت جملة واحدة ليلا وكتبوها من ليلتهم غير الآيات الست الستينيات ﴾
وهذه السورة ست مقاصد

للمقصد الأول : في إثبات الله بالعلوم الطبيعية وإثبات الرسالة ومحاورات شق مع المعاندين من أول السورة إلى قوله وهو الحكيم الخبير .
للمقصد الثاني : في نظرات الخليل عليه الصلاة والسلام في عوالم السموات وفي الأنبياء من ذريته وما يتبع ذلك من قوله - وإذ قال إبراهيم - إلى قوله تعالى - وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون -
للمقصد الثالث : العجائب الطبيعية العلوّية والسفلية من قوله تعالى - إن الله فلق الحب والنوى - إلى قوله - إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون -
للمقصد الرابع : بعض صفات الله ومحاجة الجاحدين والرد عليهم من قوله تعالى - وجعلوا لله شركاء الجنّ - إلى قوله تعالى - لا يفلح الظالمون -
للمقصد الخامس : الحلال والحرام في الأنعام من قوله - وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً - إلى قوله - وهم يبرهمن يعدلون -
للمقصد السادس : بعض المحرمات والعدل والهدى والتوبة للقبولة ومضاعفة الحسنات وأنواع من الفضائل وأضدادها من قوله تعالى - قل تعالوا أنزل ما حرّم ربكم عليكم - إلى آخر السورة .
للمقصد الأول من هذه السورة قسمان : القسم الأول من أول السورة إلى قوله تعالى - ويعلم ما تكسبون - . القسم الثاني من قوله تعالى - وما تأتئهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا معرضين - إلى قوله - وهو الحكيم الخبير -

(المقصد الأول)

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَمْدُونَهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجْلاً مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ
وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ *

التفسير اللفظي لهذا القسم

(الحمد لله الذى خلق السموات والأرض) تقدم معنى الحمد فى سورة الفاتحة ، ويقول أهل اللغى لفظه خبر ومضاه الأمر: أى احمدوا الله وصيغة الخبر هذه المتضمنة معنى الأمر أبلغ فى البيان من احمدوا ، ثم بين المحمود عليه فذكر خلقه للسموات والأرض وجمله للظلمات والنور ، والجمل بمعنى الخلق أى وخلق الظلمات والنور ، فالظلمات كظلمات الليل والكفر والجهل ، والنور نور الكواكب والشموس والعلم والإيمان (ثم الذين كفروا) بعد هذا البيان وأن الله مستحق للحمد لهذه النعم العظيمة حمده الحامدون أم لم يحمدوه (برهم يعدلون) أى يعدلون بالله غيره ويعملون له عديلاً من خلقه فيعبدون الحجارة مع إقرارهم بأن الله خلق السموات والأرض ، والجملة عطف على جملة الحمد لله (هو الذى خلقكم من طين) أى ابتداء خلق أئبكم آدم منه وهكذا أتم رجوع أكثر المواد التى تتخذون بها إلى عناصر مبثوثة من الطين ولاجرم أن خلق الإنسان أشرف من خلق الطير للذكور فى السورة السابقة أنه نفخ فيه عيسى فصار طيراً بإذن الله ، فخلق الإنسان من الطين أحق بالعبادة ممن نفخ فى صورة الطير من الطين لئبى بإذن ربه ، وهذا فيه تبريع للمقول الإنسانية الضعيفة المقلدة التى تعبد المسيح جهالة وغفلة وقوله (ثم قضى أجلاً) أى أجل الموت وقوله (وأجل مسمى عنده) أى أجل القيامة (ثم أنتم تموتون) أى تشكون أو تجادلون من المربة أو المراء (وهو الله فى السموات وفى الأرض) أى وهو المعبود فهما (يعلم سرّكم وجهركم) الجملة خبر ثان والأول لفظ الجلالة (ويعلم ما تكسبون) من خير أو شر . انتهى التفسير اللفظى لهذا القسم .

اعلم أن هذا المقام يستدعى أن تتصل هذه السورة بما قبلها ، ولما أخذت أكتب حضر صاحبى الذى كان يسألنى فى آخر المائدة وقال : إن هذه السورة لا بد أولاً من معرفة ربطها بما قبلها . وثانياً قد كنت أنت كتبت تفسيراً لأول هذه السورة وهو هذا القسم الذى نحن بصدده من أول السورة إلى قوله تعالى - ويعلم ما تكسبون - فى جملة الملاجى العباسية ، وذكرت فيه عجائب النور المشتقة من الظلمات الدخانية والقهم وكيف يكون الدخان المزدرى بين الناس منبعا للكهرباء تشق منه فأرجو إثباته هنا لأنه يفيدنا عجائب من هذه الآية التى جمع الله فيها بين الظلمات والنور كما جمعهما فى أعمالنا المشاهدة . ثالثاً لا بد من معرفة سبب ترتيب هذه الأربعة وهى السموات والأرض والظلمات والنور . وهل للكشف الحديث أثر فى هذا الترتيب .

وإننا كنا نرى الأنعمه رضى الله عنهم فى سورة المائدة قد أطنبوا فى ترتيب أعضاء الوضوء حتى إن الشافى أوجب الترتيب فيها غسلاً لترتيبها فى القرآن ذكر آفةن الجهالة أن لا يفكر علماء الإسلام فى هذا الزمان فى هذه الذكورات الأربعة ، ومعلوم أن العلم مقدم على العمل ، وإذا كانت عناية القدماء بالأعمال فلتنكح عناية علماء المستقبل بالعلوم أى العلوم الطبيعية ويقولون لم ذكرت السموات فالأرض فالظلمة فالنور كما ذكر الوجه فاليدان فالرأس فالرجلان ، ما السبب فى ذلك ؟ (فقلت) : أما مناسبة هذه السورة لما قبلها فذلك أمور : الأول أن المائدة قد كثر فيها ذكر ما يحل من الطعام وما يحرم فى أول السورة وفى خلالها وفى آخرها وسورة الأنتام فيها ذلك كما سيأتى حتى إنها سميت باسم الأنتام وهى داخلة فى باب الحلال والحرام . الثانى أن السورة للتقدمة محتومة بقوله تعالى « لله ملك السموات والأرض وما فىهن » والأنتام مستفتحة بقوله « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » . الثالث أن سؤال الله لعيسى ابن مريم فى أوامر السورة تضمن توبيخ أهل الكتاب على طلب البراهين التى تكون من قبيل خوارق العادات كالمائدة التى تنزل من السماء ، وذكر أيضاً أن عيسى كان يحى الموتى وينفخ فى الطين فيكون طيراً بإذن الله وكأنه قيل له إذا لم يكن طلب إزال المائدة من السماء من الأمور المحمودة وقد أنذر الله الحواريين لما طلبوها وذكرت هذه لما سأل

أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم خوارق للعادات منه وقيل لهم « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » فإذا لم يكن ذلك ممدوحاً فما العمل لمعرفة الحقائق قال الله بعد ذلك : اقراءوا هذه الكائنات وأخذ يذكر الحمد على خلق السموات وخلق الأرض وجعل الظلمات والنور . وكأنه يقول إذا كنت أنتمت على المسيح أن يخلق طيراً من الطين وينفخ فيه فيكون طيراً بإذني فأنا خلقكم أنتم من طين والتفكير في الطبيعة أهم من التفكير فيما أنتمت به على عبد من عبادي وهو عيسى فكيف تركون أيها الناس هذه السموات وهذه الأرض وهذه الظلمات وهذا النور ثم تقولون لأبيائكم أرونا آيات ومجائب مثل طلبكم مائدة من عيسى ومثل أسنتكم لحمد ونحو ذلك فيقول له الرجل من أبي ويلحف آخر في السؤال . وكيف تفضون عيونكم وتسمون آذانكم عن هذه المناظر العجيبة وتطلبون البرهان من المخلوق مع أن الخالق أراكم الآيات فأعرضتم عنها .

أيها الناس إن العقول القاصرة والنفوس النائعة والأمم الكاسلة هي التي تذر الآيات الباهرات في الطبيعة وتلتس ما هو أقل منها بما لا يتناهى من الأنبياء والأنبياء يشرون إلى الطبيعة وهم مرسلون من عند خالقها ليعرفوكم صنعه ويعلموكم قدره من فعله وبديع خلقه وكيف تكفون بمائدة تنزل على عيسى أو طير من طين أمرته أن ينفخ فيه ومائدة أوسع مساحة وأبهي نظاماً وأجمل إحكاماً وأرقى ما كلاً وأنا من الطين خلقت آلافاً من الطير والحيوان والإنسان ، فمائدة السموات والأرض لا أرغفة وصحبة وخلّ وزيتون بل في هذه الأرض ما تشبه كل النفوس وما يملأ العيون بهجة والقلوب حكمة . ولست أقول لكم آمنوا بحسب بل أقول لكم قولوا « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض » أي فلتحمدوا الله فضلاً عن الاعتراف بقدرته والإيمان بوجوده فإن الإيمان في هذا المقام ليس يكفي ذكره بل نطلب منكم أن نحمدوا الله على النعم التي شملتمكم والأنوار التي غمرتكم والجمال الذي غشاكم والفضل الذي عممكم .

ولما كان هذا المقام عظيماً ومبدأ سورة الأنعام في مقام سام لأن هذه السئلة من أهم المسائل وهي مسألة المعجزات وخوارق العادات والعلوم الطبيعية والانتقال من دور الأطفال إلى دور الرجال وخلق أمة تكون أرقى من الأمم البائدة ناسب أن يؤتى هنا بالحمد لله .

واعلم أنه لم يذكر في القرآن من أوله إلى هنا الحمد لله إلا في القاعة وفي هذا المقام . أما القاعة فإنها أول القرآن وبالجملة ابتدئت لأن الحمد شأنه عظيم، وقد وضحت معناه هناك أيضاً تماماً ولم يعد الحمد بعده إلا هنا إيقاظاً للنفوس وتحريكاً للهمم وترقية للنفوس وتنبهاً لها أن تخرج من دور التقليد إلى دور النظر، ومن مقام الجهلاء إلى مصاف العلماء ، ومن دركات الضعفاء إلى درجات الأقوياء ، ومن صف العلماء إلى مقام الحكماء ، فالحمد هنا لهذه الحكمة المذكور . ألا ترى إلى ما سيأتي في هذه السورة من ذكر نظرات الليل في النجم والقمر والشمس . ألا ترى إلى ما بعد ذلك من ذكر فلق الحب والنوى وإخراج الحى من الليث والليث من الحى وفلق الإصباح والاهتداء بالنجوم وإزال الماء من السماء وإخراج الثمرات للتشابهات وغير التشابهات . أفلا ترى أيها الذكي القطن أن هذا هو بينه الآيات البيّنات الطبيعية الإلهية التي أشار إليها بقوله « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض » فإذا كان الحمد في القاعة على تربية العالمين فهو إجمالي . ولما استأنس العاقل بذلك أخذ هنا يفصل العالم فذكر السموات التي هي محل الإشراق ومنها اشتقت الأرضون ثم كانت تلك الأرضون تأخذ في الجود شيئاً فشيئاً حتى تصير مظلمة ثم يكون الإنسان من الطين وبأخذ في النور والملم شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى مبدأ الجمال والبهاء وعالم النور والصفاء ثم تخرج روحه نيرة إلى عالم المور ولا تزال ترقى من نور إلى ما هو آتور منه « وأن إلى ربك للنهي » كما سيأتي إيضاحه في الجواب على السؤال الثالث . فافقه هنا يقول

هذه الآيات والعم هي التي يجب أن تفعلوها ومتى عقلتموها عرفتم محمدا ثم افه لأنه خلق السموات والأرض، هذا ما أردت ذكره في الجواب الأول .

(أما الجواب على السؤال الثاني وهو أن أذكر ما كتبت في مجلة اللاجئ العباسية في هذا المقام)

فأقول: قلت هناك بعد إيراد الآيات من قوله - الحمد لله الذي خلق السموات - إلى قوله - ويعلم ماتكسبون - يقول الله إن الله يستحق الحمد على نعمه الجسيمة وآلائه العظيمة ومنحه الكبيرة حمده الحامدون أم لم يحمدا كفر به الناس أم عبده، ثم عدد من صنوف نعمه أربع نعم خلق السموات والأرض وإنشاء الظلمات وإنشاء النور؛ فالهواء ذات الكواكب والشمس والقمر والظلمات كثيرة كظلمة الصخر والبحر والكهف والليل، كما أن الضلال متنوع الصور متكرر الأشكال بخلاف الهداية فهي الصراط المستقيم والنور كله هاد للناس لاضلال فيه ولاغرور .

وكأنه عز وجل يقول الله محمود على هذه العجائب البديعة أي مستحق الحمد لأنه خلقها نعمة على المباد « ثم الذين كفروا بربهم يعدلون » عن الحمد بل يكفرون بنعم الله عز وجل أوسوون بربهم غيره كالأوثان . وكيف يسوون به غيره مما لا يقدر على شيء وهو الذي خلق هذه العجائب .

(س) اذكر لي مثلين اثنين بحيث يكون المثل شاملا لعجائب السموات والأرض وبدائع الظلمات والنور .

(ج) تصور أعظم قصر منيف لملك عظيم مرقش السقوف مزين الجوانب والأركان والحيطان والسقف بما لا يرى إلا في خزائن الملوك وفيه سرر مرفوعة وأكواب موضوعة ونمازق مصفوفة وزرابي مبثوثة، وترى الطنائس (نحو السجاجيد) طويلة البور خالية الشعر خلاصة النظر .

وفي وسط ذلك القصر حجرة بهية جميلة مزخرفة معلق على بابها ثمان ستائر؛ فأما السبعة الأولى فإنها ذات ألوان مختلفة، فمنها الأحمر ومنها الأصفر ومنها الأزرق ومنها النيل ومنها البرتقالي ومنها الأخضر ومنها البنفسجي فهذه الستائر السبع المختلفة الألوان فإنها تتضام وتتداخل وتتحد وتصير ستارة واحدة ذات لون أبيض تسمى الناظرين .

وأما الستارة الثامنة فهي سوداء، فيرجع عدد الستائر اثنتين بيضاء وسوداء .

هذان السائران يتعاقبان على تلك الحجرة التي في وسط القصر وفي داخلها رجال كثير ونساء .

فإذا أسدل الستار الأسود ظهر ما في القصر من الحجرات والأركان وقوش السقف والجواهر المرصعة في أكنافه فاتضح بالظلمات ما في القصر من الفرش المرفوعة والأكواب الموضوعة والجواهر المرصعة والهنرازي اللامعة واليواقيت البهجة .

فإذا أسدل الستار الأبيض حجب القصر وما فيه وحجب البياض عن سكان الحجرة كل جمال وبهاء ولم يروا إلا النقوش المبدعة واختلاف الألوان في أشعار الطنائس المفروشة تحت الأرجل من أحمر قان وأخضر ناضر وأزرق زاهر وأصفر فافع وأبيض ناصع؛ فالستار الأبيض يحجب القصر عن سكان الحجرة ويضيء داخلها والستار الأسود يظلم داخلها ويضيء خارجها .

(س) هذا التمثيل غير معقول وكيف يكون الظلام معطيا للإبصار وكيف يكون الضياء حاجبا عن العيون بدائع القصر وغرائب النقش .

(ج) أما القصر فهو العالم من السموات والأرض وأما الستار الأسود فهو الليل، وأما الأبيض المشكل من سبعة الألوان فهو ضوء النهار وأما منقش السقف ومزوق الجدران والحيطان فهي النجوم وأما الحجرة التي فيها السكان فهي الأرض عليها نوع الإنسان والليل إذا أرسل سدوله ونشر مطارفه السود فإنه يحجب عنا

ما ألفت الأرض من الأشياء العجيبة والنفوس البديعة . ويرينا النجوم وضياءها من السيارات الصتيرة والثوابت الكبيرة وللنازل العالية والبروج للشيدة ومن ذائرى النجمة القطبية أو بنات نضش أو الفرقدين الساهرين أو الثريا أو السلك الراح إلا إذا حجب الظلام زينة الأرض عن الأنام وطمس نقوشها فأبرز جمال العالم في سمائه وزينته وبهائه ولا جرم أن الأرض للعب عنها هنا بالحجرة أسفر من كل نجمة من نجوم السماء والنجوم لانهاية لمددها ولا إحصاء لأجرامها فهذه الكواكب السماوية هي العالم كله وللسنا نراها إلا في الظلام فأما الضياء الهارى فإنه يحجب عنا العالم كله . ولا يرينا إلا ما تحت أرجلنا وهي الأرض ونقوشها وزينتها من النبات والحيوان والإنسان والبر والبحر والطير فقد وضع أن الظلمة أضوأ من النور وأن النور حجاب الأبصار . عن رؤية كل ثابت وسيار .

(س) لقد فهمت ما وصفت ولكنى لم أفهم كيف صارت الألوان السبعة لونا واحدا .

(ج) إن ما نراه من الضوء للنبس على الأرض الذى يشع من الشمس إنما هو الألوان السبعة كما وصفنا فالضياء مركب من سبعة ألوان والظلمة واحد بسيط قال كيف تفسر القرآن وتقول بلا برهان؟ قلت ألم تر إلى قوس قزح الذى يظهر فى السماء حين المطر وتراه ذات سبعة ألوان يقابل الشمس أينما كانت فإن كانت فى الأفق الشرقى قابلها فى الأفق الغربى وإن تبدت فى الأفق الغربى بدا ظاهراً فى الأفق الشرقى فإن ارتفعت ارتفع وإن انحطت فهو بمخاضها تابع لها . أليست تلك الألوان لون الشمس تحلل ألواناً وتظهر للناس عياناً (س) فاضرب لى مثلاً أقرب واثم يبرهان أوضح .

(ج) ألم تر البلور للضلع الذى تراه فى النجفات للنفقات . ألم تر كيف حلل النور فى زواياه وصار الضياء الأبيض ألواناً وقد تراه فى قطرات الماء للثورات فى الرشاش ، ذلك بيان ما عنه سألت وإيضاح ما له طلبت . ألا وإن هذه لمحة من لمحات قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور »

(س) اضرب لى مثلاً يمثل حالنا على الأرض وحال الكواكب الجارية .

(ج) إن مثلنا على التبراء كمثل سمك يجرى فى بحر لحيى تجرى من فوقه السفن الجاريات فى البحر كالجبال فوق سطح التبراء وما أجهل السمكات بالسفن الجاريات فهكذا حالنا مع الكواكب إتهن ليجرىن فى السماء ولا علم لنا بها إلا كما يعلم السمك من حال المسافرين فى السفن الجاريات فى البحار . (س) كيف تعرف أن الألوان السبعة ترجع إلى لون واحد ومن أى علم تفه على ذلك .

(ج) على المسلمين فى أقطار الأرض أن يتعلموا العلوم الطبيعية ، عليهم أن يفهموا ما ذرأ الله فى الأرض والسماء ، عليهم أن يفهموا الحيوان ويدرسوا النبات ويفقهوا ما ذرأ الله لهم فى العالم من الجمال والبهجة والبهاء . ألم تر كيف كان معنى الآية التى نحن بصددها . هكذا الله مستحق الحمد على النعم التى أنعمها على العباد من السموات والأرض والظلمات والنور ومع أنه مستحق للحمد والشكر ترى الذين كفروا ربهم الذى رباهم بهذه النعم يعدلون عن الحمد فيكفرون بنعمه ولا يشكرونه عليها وكيف بشكر المسنون نعم ربهم إذا جهلوا بالشكر لا يكون على المجهول . ألا فلتعلم هذه العلوم فى مدارس الإسلام وإلا حقت علينا كلمة العذاب .

(س) إذن تريد أن تقرأ كل علم مما يقرؤه الترييون وكأن ديننا يطلبها كلها .

(ج) نعم إنى أقول بأعلى صوتى ما دام المسنون يجهلون هذه العلوم فلينهم عن شكر الله فافلون وللك ضرب عليهم اللد خيامه وأورددم الجهل موارد الملكة وسلط عليهم جيرانهم فأحاطوا بهم من كل فج عميق فمن نفر الناس عن هذه العلوم فإنه ضالّ مضل جاهل حقود . هذا كلام الله وهذه شريعة نبيه وهذا حجة الإسلام النزالى لما شرح باب الشكر فى الجزء الرابع من الإحياء ذكر السماء ونجومها والأرض وحملها

والسحب وبرقها والرعده وصوته والبرق وضوءه وقال من عرف الله بهذه الخوفات وتأمل هذه الكائنات ودرس هذه النظمات فهو الشكور ، ومثله القطب الشيرازي والفخر الرازي . فهل هؤلاء الأعلام ضالون وأضدادهم ممن يصدون عن هذه العلوم مهتدون . وإذا كان القرآن ونصوص العلماء لاتفتن الجاهلين فهل الجاهلون هم المحقون . اللهم ألمه أمة الاسلام وعلم طلاب الدين جمالك وجلالك وأرهم محاسن صنعك حتى يقولوا « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه فقنا عذاب النار » .

(س) لقد قرر الامام البيضاوي في هذه الآية تفسيرين فهل نوضحهما وتأتي بمثل آخر عليهما .

(ج) التفسيران اللذان ذكرهما الامام البيضاوي يرجعان إلى تقدير الاعراب فإن جعلنا التقدير أن نعطف الجملة الثانية على جملة الحمد كان المعنى هكذا الله مستحق الحمد على نعمه المذكورة ثم الذين كفروا بالله الذي رباهم بتلك النعم يعدلون عن حمده ولا يشكرونه ، وإن عطف على جملة خلق صار المعنى هكذا الحمد الذي خلق ما ذكر ثم الذين كفروا يسقون برهمن الذي خلق ذلك غيره من الأوثان التي لا تخلق ويكون أول التفسيرين كقولته تعالى « إن الله ذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » وعلى التأويل الثاني كقولته « أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون »

(س) تقرب لي مثل نعمة الله التي نجعلها وكيف يكون الجهل مانعا من الشكر وكيف تكون العلوم التي يدرسها التلاميذ في أوروبا شكر الله عز وجل فيبين هذا بمثال محسوس مشاهد في المنازل ودع السماء ونجومها والشمس وقرها والليل إذا عمس والصبح إذا تنفس فقد تكرر على أسماعنا ونوالى على عقولنا . (ج) هل تعرف الفحم الحجري والفحم البدي وهل شاهدت الدخان المتصاعد منهما المدنس للثياب المسود لافرش الذي يظلم المكان وتدمع منه العينان . أخير هو أم شر ؟ . فقال بل شر . قلت إن ذلك الدخان المنبعث عن الفحم الحجري نعمة من الله كبرى على العلماء ومصيبة على الجهلاء فإن هذه الظلمة المنسية للأنامل المدنسة للثياب ذات الرائحة الكريهة والمنظر القبيح تغطي للناس نورا وتصنع الثياب بأجمل الألوان وتولد الكهرباء وتدير الدولاب وتسوق القطار كما يسوقه البخار . وتسير السفن في البحار وقطرات الترام في شوارع الإسكندرية والقاهرة فتعجب كيف أبدع الله النور والظلمة وسواءها وأحكماهما بحيث اتخذ النور من الظلمة والحركة من السكون والجمال من القبح إن الله ذو فضل على الناس ولكن أكثر المسلمين ناثمون .

(س) هذا خارج عن المقول وكيف صار الدخان نورا ؟ أوضح لي هذا المثل .

(ج) اعلم أن الله عز وجل أدهش العقول بمجائب حكمه وبدائع صنعه وجعل هذا الفحم الذي نراه في بيوتنا على أربعة أنواع الحجري والمظمي والنباتي والطبيعي المسمى غم الجرافت . وهذه الأنواع الفحمية كلها من نوع الظلمات . وهناك غم آخر يسمى غم الموجات وهو الذي يتخذ مما يتراكم من الدخان المستطير من الفحم الحجري حين احترافه المتصاعد إلى أعلى فيتخذ ويحصر ويضغط عليه ويحمل أشكالا مستطيلات وهذه هي المسماة غم الموجات . فإذا أخذت قطعة من تلك وألبست من أعلاها بقطعة نحاس سميت العمود النحاسي فإذا وضع ذلك العمود النحاسي في إناء من الفخار الذي كثرت مسامته ووضع ذلك في بطارية ثم أتى بعمود من الزنك الذي يسميه علماء الكيمياء بالحارصين ويسميه العامة بالتوتيا وهو الذي يتخذ منه الأدلاء (جمع دلو) التي يستقي بها المسماة (جرادل) فيحصل عندنا الآن العمود النحاسي وعمود التوتيا الموضوعان في البطارية ثم يؤتى بملح النوشادر الذي يبيض به المبيضون ويذاب في الماء ثم يوضع ذلك الماء المذاب فيه ملح النوشادر في البطارية فتحلل أجزاء من التوتيا ويحلل الماء كذلك إلى أوكسجين وأودروجين ويحصل تفاعل ما بين الفحم وما أحاط به من المركبات الجديدة فيتولد تيار كهربائي ما بين الموجب وهو عمود النحاس

أو غم للموجات وبين الساب وهو الزنك . فالخلاصة أن دخان الفحم الحجري المضغوط الذي سمي غم للموجات إذا وضع في بطارية وقرن بقطعة من الزنك وجيء معها بماء مذاب فيه ملح النوشادر فإن الله عز وجل يولد بين تلك الأشياء الآتفة كهرباء . فتعجب كيف كان دخان الفحم المظلم مشرق الأنوار ومولد الأضواء ومجرى العربات وسير السفن والقطرات وسائق الترام وموقد البيوت وشارح الصدور وضارب أجراس السرّة (التليفون) .

(س) ما معنى قولك كهرباء .

(ج) إنها مثل ما يحصل للفلاح حين يثر على سمك يسمى (أبا الرعاش) فهذا السمك يحدث حالة في جسم الذي يصطاده فهذه كالكهرباء .

(س) كيف يحدث الدخان ضوءا وهو ظلمة .

(ج) إن الفحم الحجري إذا أحرق بالنار في إناء عظيم تطاير دخانا فيستقبلونه في ماء كما يمر دخان مدخن الحشيشة في ذلك الذي يسمونه (الجوزة) فإذا مرّ من ذلك الماء رسب فيه القطران ومرّ خالص الدخان إلى ماء آخر ثم آخر حتى يصير دخانا صافيا تماما وما تخلف في تلك اللبّاء فإنه يعطى أصباغا من أحمر وأصفر وغيرها حتى أوصلها بعض الألمانين إلى ألني لون ، وأما الدخان الصافي فإنه يمرّ في الأنابيب متجها إلى الشوارع وللنازل وتجعل له منافذ في الأمكنة المراد إيقادها فتحت النار اشتعلت وذلك للسمي (غاز الاستصباح) الذي نستضيء به في شوارع القاهرة والاسكندرية وذلك غير ضوء الكهرباء التي شرحناها فإنها تولد النار والضوء والحرارة والحركة .

(س) عرفت غم للموجات والفحم الحجري وكيف ولدت الكهرباء منهما وكيف كانا مصدرين للأضواء والألوان ، فما فائدة الفحم العظمى والنباتي والجرافت .

(ج) الفحم العظمى هو المتخذ من المظالم المحرقة ومن خواصه سلب ألوان السوائل للارة به حتى إن الحبل الأحمر إذا تخلله سلب لونه . والفحم النباتي المتخذ من الأشجار يذهب بالعفونة وله منافع أخرى ليس كلامنا فيها فإن الكلام في تفسير قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » وهكذا ليس لنا أن نشرح غم الجرافت الذي خلقه الله عز وجل في الجبال كهيئة صفائح وجعله نافعا للكتابة وهو الذي يسمى بعد وضعه في خشب الدرّدار (أفلام الرصاص) على أن الفحم العظمى والفحم النباتي يصلحان لما يصلح له الفحم الحجري من إحداث الأضواء ولكنه هو المستعمل النافع . ومن عجب أن الماس من الفحم حتى إن العالم (دافى) ضغط على الكربون الحالم فصار ماسا وحلل الماس فرجع إلى كربون . أليس من العجب أن يكون الفحم منبع الكهرباء والنور والحركة وأن يصير ماسا ثم يبعث به العانيات ويجعل ذخيرة في الخزانات ، فما أجل العلم وما أعجب الحكمة . فمن ذا الذي يعلم هذا ولا يأخذه العجب كل مأخذ من الجهل الفاضح الذي حلّ بنا معشر المسلمين يقول الله عز وجل « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور » يقول إنه أهل للحمد على هذه النعم والذين كفروا يبدلون عن الحمد على أحد التفسيرين ونحن غافلون عن حكمه في عجائب صنعه فإذا جهلنا نعمة الدخان فكيف نشكره تعالى عليه . اللهم علم أمتنا وأهملنا الحكمة اللهم إني برىء ممن يصدّون عن العلوم اللهم إني أعجب لهذه الأنوار الناجمة من تلك الظلمات . أتعجب كيف جعلت النور من الدخان . كيف أدت الدولاب بالكهرباء الناجمة من الدخان وهو غم للموجات . أتعجب كيف خلقت الماس من الفحم . اللهم إنك أعزرت قوما بالعلم وأذلت قوما بالجهل . اللهم أهننا العلم والحكمة إنك أنت السميع العليم . فهذه جوهرة من جواهر بجزر أنوار أسرار قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » وهبة من نسيانها ونفحة من نفحاتها وسرّ من أسرارها . اللهم أهننا العلم والحكمة وأدق أمتنا الإسلامية

حلاوة العلم كما أدقتها مرارة الجهل وأنها درجات العز كما نزلت لسوء طالعها في دركات الجهل إنك سميع علم .

الآية الثانية والثالثة

(هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده ثم أنتم تموتون وهو الله في السموات وفي الأرض ويعلم سرّكم وجهركم ويعلم ما تكسبون) .

أثبت الله عز وجل فيما تقدّم وحدانيته بما أبان من خلق السموات والأرض وما أوفد من النور للنبلج وما أرنخى على السكون من ستار الظلمات في جبح الظلام؛ فأورد في هذه الآية دلائل البعث بما صدع من الحق وما أزعج من الشك وأبان من السلطان والحجة والبرهان إذ يقول « هو الذي خلقكم من طين » فإن أصلكم وهو آدم منه وأنتم بابن آدم من التراب خلقتم . ألا ترون إلى أجسامكم كيف كانت من العناصر الأرضية مركبة وكيف لا وأنتم تعتدون بما أنبتت الأرض مما حملت على ظهرها من كل نابتة أنفدت عروقها في بطها فأخضرت واستوتت على ساقها وازينت . النبات إنما ترعرع ونما بما سبق إليه من الهواء وما أوتى من الماء وأنتج من العناصر الأرضية، وليس للحيوان إلا النبات والخلقوقات العامة من الماء والهواء الخ فليس جسم الإنسان غريبا عن هذا العالم فهو من ذلك كله ركب ونظم على أعجب نظام وأبدع إتقان . ومن ذا الذي يذكر عناصر الجسم الإنساني ونظامه وتركيبه ثم لا يتعجب كيف ضم عنصرا إلى عنصر وهواء إلى ماء ونسفورا إلى حديد ورملا إلى جبر لجمعهم عز وجل بمقدار وسواهن بحسبان ووزنهم بميزان . الإنسان طين يمشى وجماد يتحرك وموات يعقل . جسمك مركب مما تدوسه بقدمك وتأكله بفمك وتستشفه بأنفك من الأرض والماء والهواء . أنت تعقل وتفكر وتصوّر العلم في عقلك وزن الدنيا والآخرة بفطنتك وذكاكك . ثم إذا حلت جسمك ألقيته مما تعافه الأتانس ولا تلذ به الأعين؛ ففى العظم فسفور وجبر وفي العين رمل مصنوع مع مواد أخرى تكوّن الجسم الزجاجي فيها كما يفعل الزجاجيون ولولا الحديد ما صلح الدم الحيواني . لا ينطق الرمل كلا ولا الجبر ولا الحديد ولما اجتمعت وانتظمت هي وغيرها وتآلفت وانحدت أحدث الله فيها سره للصون وعده المكنون ونفخ الروح وأنزل العلم وقال إني جاعل في الأرض خليفة ، ومن ذا الذي جعل مقرّ الشهوة في المعدة وما تحمها ثم أحل آثار الغضب في القلب إذ بهتاج ساكنه ويضئ مرجله ويحسى وطيبه إذا ما أغضب الإنسان وكيف جعل العقل مستقرا في السماغ . تراب وماء وهواء وعناصر شتى انحدرت معا فكان أعلاها لللك ودونته وأعوانه من سمع وبصر وذوق وشم ، فالعقل هو الملك الأعلى وله للكان الأعلى (وهي الرأس) فأما القلب فمستوى الغضب ومثار الدم ومصدره ومورده . ولقد تجلّى للماء والحكماء فضل العقل على القوة التنفيذية وهي أعلى من قوة الشهوة . فتعجب كيف كان الأعلى لأعلاها والأوسط لأوسطها ، فأما الأدنى فهو أجدر بالشهوات وتماطى الساذيات اللذيات من اللواد الأرضية فستقرها للمعدة والأمعاء ثم كيف نظمت الأعضاء وكوّنت العضلات . أليس هذا كله من العجائب وكيف يكون طول كل إنسان ثمانية أشبار بشره وإذا مده يديه إلى أعلى كان طوله عشرة أشبار وتكون سرته إذا كان في وسطه بحيث إنك لو قست من أسفل القدم إلى السرة ومنها إلى أصابع يديك الممدوتين لكان كل جزء خمسة أشبار وإذا مده يديه إلى الجانبين على طول الباع كان طوله كعرضه وكل ثمانية أشبار . ذلك كله من الطين المركب ، ذلك العجب في صميم الإنسان وجسم الإنسان مركب من عناصر الأرض والماء والهواء والمعادن وهي لا تنقل ولا تحس ولا تبصر فلما اجتمعت نظمت بأبداع نظام وقسمت ورببت وهندست وجعلت بمقياس بحيث صار طول الوجه كطول القدم شبر وربيع بشير الإنسان، إذا اعتدلت خلقته واستقامت في سائر ما تقدمت ثم تحركت ونظمت وعقلت ودبرت النفس والمنزل والمدينة وربما أذارت إدارة الكرة الأرضية

وهي كما تعلم عناصر ميثونة وأجزاء ملقاة فنذا التي كوتها ونظمها وهندسها وأنطقها وسواها وعلمها وألمها
 فجورها ونفوها نعم هو الله فهذا كله داخل في قوله تعالى « هو الذي خلقكم من طين » ومعنى قوله « ثم
 قضى أجلا » قدر لكل امرئ وقتا يموت فيه ويطلق الأجل على مدة الحياة ما بين تفتح الروح والموت. قوله
 وأجل مسمى عنده : هو أجل القيامة أو المدة ما بين الموت والبعث وعلى ذلك يصير المعنى هكذا استدلالا على
 البعث هو الذي جمع العناصر للفرقة من الطين وما في معناه فنظمها وهندسها فصورك منها وتفتح فيها الروح
 وقضى لكم أجلا تنتهون إليه وغاية تصلوها وهو الموت، وارتضى لكم مدة تعيشون فيها وهي ما بين تفتح الروح
 في الجسم وقبضها بالموت وعنده أجل آخر قضاء لكم وهو القيامة أو المدة التي ما بين موتكم وقيام الساعة
 فإذا كان الله عز وجل قادرا على جمعكم من شتات العناصر للفرقة والأجزاء للبددة وعلى ضرب أجل لبقائكم
 فكيف تترون وتنتهون في البعث وقد شاهدتم أول الخلقين وأول الأهلين ومن قدر على ما سمعتم من
 المدهشات في خلقكم وترتيب أبدانكم فهو أقدر على إعدائكم فالعطف بهم هنا استبعاد لا متراهم وشكهم من
 بعد أن علموا أنه خالقهم وخالق أسولهم ومنظمهم ومحييمهم إلى آجالهم فإن من قدر على خلق العناصر وترتيبها
 وتنظيمها وتصويرها وتفتح الروح فيها وإبقائه إلى ما يشاء كان أقدر على جمع تلك اللوادة وإحيائها ثانيا ، فظهر
 بهذا أن الآية السابقة توحيد واللاحقة استدلال على البعث .

ولما كان الناس كثيرا ما يخدعون أنفسهم فيقولون نعم آمنا بالله وباليوم الآخر ولكننا إنما نفعل للمعاصي
 بحيل نبتغيها نقلناها عن السابقين كأن نحتمل على عدم الزكاة ببسع المال لولد أو قريب أو زوج قبل أن يحول
 الحول فيتجدد الزمن وتسقط الزكاة ويظن العقبه أنه بذلك نجما من الإثم وتخلص من العقاب أوبا كل الرجل
 وشرب في رمضان في كسريت « يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم » أو يصلى ساعيا قال
 الله بعد ذلك « وهو الله في السموات والأرض » كأنه عز وجل فيما لكجال علمه وإحاطته بالكلية والجزئية ،
 وقوله « يعلم سرركم وجهكم » في بيان وتقرير . يقول بعد أن قرر التوحيد والبعث إن الله أحاط بالسموات
 والأرض علما لا تخفى عليه فيها خافية فكأنه فيها ، فهو يعلم سرركم وجهكم ما تخفى وما يظهر من أعمال
 أنفسكم فإنها من العالم ويعلم مكنسكم من أعمال الجوارح والأعضاء تخافوا عقابه فهذه الآيات الثلاث منظمة
 هكذا أولها توحيد والثانية للبعث والثالثة إثبات علم الله بما في الآفاق والأنفس ليخاف الناس يوم الحساب
 ويستقيم أمر العاش ليفوزوا يوم القيامة بالثواب وينجوا من العقاب . ثم الكلام على السؤال الثاني .
 الجواب على السؤال الثالث . وهو ما كشفه العلم في ترتيب هذه الأربعة وهي السموات والأرض
 والظلمات والنور .

عجائب القرآن في العلوم الحديثة

وإنه حرام على أهل العلم في أقطار الإسلام أن يختموا على قلوب الشبان فلا يفتقروهم لهذا الجمال لئلا يتبدى
 الآن في شرح السؤال الثالث . الكلام على خلق السموات ولماذا قدم . فقلت لما حى : اعلم أن ترتيب هذه
 الأربعة هو الذي جاء به العلم الطبيعي والفلسفي وعلم طبقات الأرض . قال حدثني كيف كان ذلك . قلت تصور
 أنك في مكان خال ليلا في فضاء متسع وقد رأيت حولك ظلاما حالكا وهناك نجوم مبشرات في أقطار السموات .
 قال تصورت ذلك . قلت والنجات تهب عليك وحفيف الأشجار وصرير اللاء وأصوات الحشرات
 في الحدائق الفناء والأحراش والزرورع وليس في المكان إلا أنت تسمع هذه النغمات المختلفة وقد صفت
 نفسك وانسرح صدرك ورأيت جمالا يحيط بك . قال تصورت ذلك . قلت وأنت تعلم أن النجوم الجيلات
 التي أحاطت بك تبلغ مئات الملايين . قال نعم . قلت وكل واحدة منها غالبا أكبر من ثمننا بألاف الآلاف
 ولكل كوكب من هذه الكواكب سيارات مثل أرضنا قال نعم . قلت إن لم تكن قرأته في المدارس فقد
 مر في هذا التفسير قال قرأت هذا وذلك . قلت فهل تدري أي شيء من هذه خلق أولا ؟ قال : اعلم أن العالم كان

أصله مادة لطيفة جداً لا تؤثر فيها للزئفرات فلا الحر ولا البرد يؤثران فيها وهذه هي الحياة بالآثير ثم هذا الآثير
يكون منه ضوء وحرارة وحركة وكهرباء ومغناطيس وهذه الذكورات يتقلب بعضها إلى بعض فالحرارة
تكون حركة والعكس . قلت له لا تفصل لك هذا اللقمان بعض التفصيل . فأقول إن الجرم يشاهد على ثلاثة
أحوال إما أن يكون جامداً فتكون فيه الصلابة واللدونة والتبلور مثلاً والأشكال المختلفة ، وإما أن يكون سائلاً
كالماء وهو يفقدها كلها فلا صلابة ولا لدونة ولا تبلور ولا شكلاً ثابتاً بل هو سائل لا لون له بل هو شفاف
ولا كثافة بل هو لطيف، وإما أن يكون (غازاً) أى جساماً دخانياً ولها إذا صار غازاً بالبخار مثلاً زاد تمدداً
وانبساطاً فيزيد حجمه ١٧٠٠ مرة عن حاله وهو سائل وتصبح الأجسام الغازية كلها شفافة متحدة لا أثر فيها
للصلابة ولللدونة ولللون وللشكل ولا لغيرها وتبرأ من كل ما تنوع به السوائل والجوامد ولا تختلف
الغازات عن بعضها إلا في عوارض قليلة كالوزن وبعض أعراض أخرى .

وقد أثبت العلامة كروكس حالاً راحة بتجارب خاصة تصير فيها المادة ألتطف من الغازية فيسرع التهاها
وتضوء ويكون بها شمع كهربائي تقوم به أشعة رتجن وتسمى الحالة للشمة وهي تبعد في القطافة عن الغازية
أكثر من ابتعاد الغازية عن الحالة المائية . وهناك حال خاصة وهي الأثيرية أى أن تكون المادة أثيراً وهي
لا تقبل الوزن وتكون منتشرة مائة الكون بأسره وباختلاف اهتزازها تولد الحرارة الكهربائية والأشعة
للرؤية والتي لا ترى . وهناك حال سادسة لم يقل بها إلا علماء الأرواح إن للروح جساماً سيالاً لا يعمل فيه ألقى
الحر ولا أشد البرد وأى عمل فهذه الأحوال الست هي آخر ما وصل له العلم الحديث في المادة، فألتطفها الشفاف
الذي هو أقرب إلى الأرواح ثم الأثير ثم للشع ثم الغاز ثم السائل ثم الصلب . فترى الزرع والحيوان والأشكال
الكثيرة في حال الصلابة فيكون هناك الاختلاف أكثر ويكون الاختلاف في الماء أقل؛ فالاختلاف في حال التلظ
وكلما صفا الجسم كان أقرب إلى الوحدة فالوحدة في القطافة والكثيرة في الكثافة . وأصل هذه العوامل من
مبتدأ أمرها كانت لطيفة بالحالة الأثيرية وما يقرب منها ثم حصل تجاذب وتداع فتكونت شمس كثيرة لما تقدم
وتلك الشمس هي التي تراها . وهذه الشمس دارت مئات الملايين حول نفسها وهي في حالها النورية
الشفافية ثم أخذت تتفلس شيئاً فشيئاً وأخذ بعضها يفصل عنها من عند خط الاستواء فيها بسبب سرعة الدوران
فتكون السيارات كالأرض والريخ والشتري الخ فالأرض إذا تكونت بعد الشمس . وعلى هذا تكون السموات
وهي الأجرام الأثيرية والشمس التي تجرى فيها مخلوقة قبل الأرضين لأن الأرضين ما هي إلا تلك الكرات
للتفصلات بعد تكون الشمس التي خلقت من الأثير أو فيه فثبت بهذا نبوتاً علياً لا يشك فيه أحد من أهل
الأرض أن السموات خلقت قبل الأرض فهذا هو السبب في ذكر الأرض بعد السموات . فقال ولماذا
أفرد الأرض ؟ قلت له أذكر لك بآتي قلت لك اجلس في أرض قفراء والنهار حولك فهل رأيت إلا أرضاً واحدة
وهي التي أنت عليها أما الأرضون الأخرى فلم تراها قال نعم . قلت هو ذلك . قال حدثني إذن عن الأرض
وعن الظلمات وعن النور كما وعدت بالكلام على خلق الأرض . قلت أما الأرض فإنها لما انفصلت عن
الشمس كانت حارة حرارة شديدة . قال إذن هي كالشمس . قلت كلا إن الشمس ربما كانت تقدر بمئات
الآلاف من الدرجات ونحن لا ندرها ولكن الأرض أمكننا معرفتها . قل وكيف ذلك . قلت بعلم طبقات
الأرض، قال حدثني عنه وأوجز . قلت له إن وجه الأرض كانت حرارته إذ ذاك نحو ٣٣٠ ثلاثة آلاف وثلثائة
درجة من الحرارة . قال أنا أعرف معنى درجة الحرارة ولكن أرجو إيضاحها لمن لم يقرأ علم الطبيعة .
قلت أنت تعلم أن الماء يكون ثلجاً قال نعم . قلت فإذا كان مقطراً فإنه في حال سيلانه تسمى درجته صفرأ فإذا
سلطنا عليه النار وغلا وفار فهذه تسمى مائة فالأحوال التي طرأت على الماء حتى أوصلته بمائتين تسمى مائة
درجة وجعلوا هذه الدرجات مقياساً . قال نعمت ولكن قل لي من أين جاء لنا أن الأرض كانت حرارتها

٣٣٠٠ درجة عند انفصالها من الشمس ومن أن جاء لنا أن الشمس كانت أكثر منها حرارة . قلت لأن
 قشرة الأرض تبلغ مائة كيلو متر عند علماء طبقات الأرض وكل ثلاثين مترا تنزلها في باطن الأرض ترضع
 الحرارة درجة ، ففي عمق ٣٠٠ متر عشر درجات وفي عمق ثلاثة آلاف متر مائة درجة وفيها يغل الماء فإذا ضغنا
 هذا القدر ٣٣ مرة وثلاثا بأن تعمقنا إلى مائة كيلو متر صار عندنا نحو ٣٣٣٣ درجة أي تكون درجة
 الحرارة بعد قشرة الأرض مقدار ما يغل للماء نحو ٣٣ مرة وثلاث أي حرارتها أعلى ٣٣ مرة وثلاثا من حرارة
 غيان الماء وهذه الحرارة أقل من حرارة الشمس لأن الأرض لم تفصل إلا لأنها كانت بالنسبة للشمس
 قشرة ظاهرة فانفصلت فهي أبرد منها والشمس التي تراها يذوب فيها كل شيء تتكون العناصر فيها إما معدومة
 وإما قليلة فإن النجوم البيضاء التي هي أشد حرارة من الشمس لا تحوي من العناصر إلا الأندروجين والهيليوم
 ولم تظهر عناصر أخرى فيها ؛ أما الشمس فلما كانت أقدم عهداً كانت عناصرها كثيرة لتولدها وطول عمرها
 والحديد فيها بحسب ما ظهر من أنوار الطيف عنصر مركب من عناصر مجهولة عندنا لكونه هناك أكثر
 حرارة فانضج أمره فيها أما في الأرض فهو معتبر بسيطاً . قال ثم ماذا حصل لما انفصلت الأرض . قلت إن
 الأرض كانت كروية تدور حول الشمس وأخذت حرارتها تتناقص بالنسبة لصغر حجمها . قال حسن ثم ماذا .
 قلت أخذت الأرض تبرد وتربى لها قشرة في ملايين السنين فتكوّنت ٢٦ طبقة كل طبقة متميزة عن الأخرى
 وهذه الطبقات في ستة عصور تقدم ذكرها وهي : العصر الأصلي والانتقالي والثانوي والثالثي والطوفاني
 واللاحق للطوفاني وهو الحالي . فالقشرة الأولى حجر صوّاني شديد الصلابة . والقشرة الثانية في العصر
 الثاني ، كان فيها طبقات راسبة وبعض الحيوانات والحشائش . وفي الثالثة ظهرت الأشجار . وفي الرابعة
 ارتفعت الجبال الشواخ وارتفع ما في جوف الأرض من الأصداف وظهرت الطيور والحيوانات البرية .
 وفي الخامسة حصل طوفان عام وبرد القطبان فجاء وكانا حارين نكح الاستواء . والسادسة هي التي نحن
 فيها الآن .

فلما كان العصر الأول أيام الطبقة الصوّانية كانت جميع الملون من الذهب والفضة والنحاس والقصدير
 تكون جواً حول الأرض وتمطر سحبا كما يمطر السحاب الآن . فقال ولماذا قلت له لأن البلاتين يصهر على
 ١٧٧٥ من الحرارة والذهب يحتاج إلى ١٠٧٥ والنحاس إلى ١٠٥٤ والفضة إلى ٩٥٤ والألمنيوم إلى ٦٢٥
 والحارصين إلى ٤١٥ والرصاص إلى ٢٢٦ والقصدير إلى ٢١٠ والكبريت إلى ١١٤٥ والفسفور إلى ٤٤٢
 وهكذا ولما إلى صفر .

السحب التي كانت تمطر ذهباً وفضة وبقية المعادن

فأنت ترى أن حرارة الأرض في الأزمان النابرة لما كانت مرتفعة بحيث تبلغ نحو نصف ما ذكرناه بأن
 كانت ألفاً وخمسة مائة أو ألفي درجة في الصور السابقة أو أكثر من ذلك كانت المعادن في تلك الأيام وقبلها
 ترحى سحبا ، ثم تولد بينه ، ثم تجمله ركائما ، ثم تنزل في خابجان في باطن الأرض وهي تجرى على اليابسة
 فكان هناك أنهار من ذهب ومن فضة ونحاس وقصدير وخارصين وأمثالها . وأول ما جمد من المعادن التي
 ذكرناها البلاتين فالذهب فالنحاس فالفضة فالألمنيوم فالخارصين فالرصاص فالقصدير فالكبريت فالفسفور .
 وبينما كنت ترى الخارصين أصبح جامداً إذا بالكبريت لا يزال بخاراً في الجوف والفسفور كذلك فإن
 الخارصين يعوزه حرارة أشد من الكبريت والكبريت يعوزه حرارة أشد من الفسفور وهكذا على
 هذا الترتيب .

فهذه الأمطار التي صارت أنهاراً من المعادن لا تزال باقية لأن لأنها جمدت بالبرودة ومرّت عليها أجيال
 في تلك الطبقات الصخرية ثم حصلت زلازل وعوامل هامة فارفع ما كان باطننا ووصل إلى أعلى بتلك العوامل

ورفع ما كان فيه من المعادن وذلك هو الجبال التي رآها اليوم فإن الأرض قد رفضها كما ترفض أسنان الطفل في له . فقال صاحب ما معنى كما ترفض أسنان الطفل . فقلت لأن الجبال لما كانت صلبة وفيها منافع اقتضت الحكمة أن ترتفع إلى أعلى لا أن تبقى في أسفل الطبقات ، وأسنان الطفل كانت مواد في الجسم فاجتمعت وتجمدت وظهرت في العم فنفعت في هضم الطعام هكذا جبال الأرض فيها ذهب للنافع وللزينة وحديد ونحاس وقصدير إلى آخره وهذه الآن تعمل فعل الإنسان فهي زينة وطاعة للأحجار كالحديد ومهلكة للحيوان وللإنسان فالحيوان يذبح بالحديد وكذا الإنسان يموت بالمدافع وهكذا . فالجبال أسنان الأرض والمعظم التي في أفواها خلقنا لنافعنا . ألسنت بهذا تفهم قوله تعالى « وأزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس » وهذا كقوله « أزل من السماء ماء » فكلامها إزال وكلامها من السماء وهذا مطر وهذا نهر وهذا نهر وهذا تلج وهذا معدن ظهر في جبالنا . فإذا استخرج الناس المعادن اليوم من الأرض فذلك أمطار أنزلها الله في قديم الأزمان لتبقى لنا مخزونة إلى وقتنا الحاضر . إن السليين لما نولون إن السليين لناعون إن السليين لا يقرءون ولكنهم سيقروا بعد انتشار هذا الكتاب وأمثاله ، وقد ظهرت بوادره بانتشاره في الأقطار كما ألهمت من البدع الحكيم بل كما بشرت بعموم ارتقاء السليين في المستقبل القريب .

قشرة الكرة الأرضية والكرة النارية فيها

قد قلنا إن قشرة الأرض طبقات ٢٦ ولها عوصور ستة وأنها مائة كيلو متر ونقول إن قطر الأرض نحو ١٣ ألف كيلو متر فيكون نصف القطر فوق سبعة آلاف كيلو وهذا المقدار أكبر من القشرة المذكورة نحو سبعين مرة والقطر كله أكبر من القشرة ١٤٠ مرة أفليس ذلك كقشرة التفاحة والبيضة والبطيخة قشرة الأرض قشرة تفاحة وقشرة بيضة والأرض الحقيقية هي النار .

الأراضي التي خلقها الله كلها كأرضنا

ولقد علمت أن هناك شموساً تمتد بمئات اللابيين وكل شمس حولها أرضون وبجارية أخرى حولها سيارات كسيارات شمسية ومن السيارات ما أصبح له قشرة كقشرة أرضنا ومنها ما لا يزال دخاناً وناراً منتشرة جداً . ولقد قال علماء العصر الحاضر إن أقل ما يكون حول كل شمس من الشموس المعروفة من الأرضين لا يقل عن ثلاث فإذا تصورنا ذلك وقلنا إن بقية السيارات حولهن لا يزال متقدداً ، فإننا على الأقل تصور أن هناك ثلاثمائة مليون أرض باعتبار أن الشموس مائة مليون والتحقيق إنها مئات ملايين كما تقدم في هذا التفسير فلتقف في العد للأرضين عند ثمانمائة مليون ، ولتقل إن فيها سكاناً لأنه ليس يحقل أن تكون خالية ويكون لها قشرة كقشرة أرضنا وهذه القشرة قد تكون رقيقة وقد تكون سميكاً ، فإذا كانت رقيقة كأرضنا أيام أن كانت حرارتها مرتفعة فإن اضطرابها وغليانها يمنع سعادة سكانها ويقل راحتهم ، وإذا كانت سميكاً كانوا أقرب إلى الراحة والطمأنينة والسعادة .

هل كشف العلم عالم جهنم ويكون ذلك معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم وللقرآن ؟ أفلا تقول إن الأرض التي تمتد بالمئات كلها نار وإن سكانها إذا كانوا على حال فيه نيران تطفى بكونون أشقياء وإذا كانوا في حال أصلح يكونون سعداء وإن الشقاوة والسعادة نسبية وأن العوالم التي تكون نورية جميلة غير هذه الأرضين مشرفة حقيقة تكون هي الجنة وتلك التي امتلأت ناراً هي جهنم . أو ليس هذا عينه ما تقدم في سورة آل عمران أن النار في الأرض كما نقل عن سيدنا علي وغيره وقد ذكرنا هاك أنا لا تقول إن هذه نفس النار ولكن تشبهها وعلى السليين الجد في البحث فالعلم يجوزه الجد .

قد عرفت فيما تقدم أن حرارة الشمس لا يعرف منتهى درجاتها وعرفت درجات حرارة الأرض وأن

البرودة هي التي بها الثلج والمعادن كلها . وأقول الآن إن أقصى درجات البرودة ٢٧٣ تحت الصفر ، فالبرودة هذه درجاتها والحرارة لامتهدى لدرجاتها فالحرارة والبرودة بالمتى والجزر فيهما ترى شمساً وأرضين ومعادن وأنبهاراً وجنات وأغنياً وإنساناً وحيواناً هذا أول العالم وهذا آخره . وقد تبين لك أن العوالم كلها كانت أقرب إلى الجود كانت ممتازة متفرقة متناقضة وكلما كانت أقرب إلى البساطة كانت أقرب إلى الوحدة وأن قشرة الأرض هي الظلمة فطبقاتها مظلمات وأصل هذه الطبقات أيضاً نور فأصل كل شئ نور أو النار بل أصل كل شئ هو هذه الوحدة الصرفة التي لاتعتمد . وكلما كان الجسم ألطف وأقل تركيباً كان أديم بقاءه ، وكلما كان أكثر تركيباً كان أقل بقاءه . ولقد قال العلامة بلفور ستيوارت : إن جسم الإنسان والحيوان والنبات أشبه بالباورد السريع الانفجار الذي يلهب لأكل احتكاك ، فالعوامل الحيوية تحلل التركيب الكيماوى دائماً فيه والنم يصلح مائل من الأجسام بفعله للستمر ، أما التركيب المعدني فإن حياته تطول إلى أمد طويل جداً . ألا ترى أن قطعة من الكربون تتركب بسهولة مع الأكسجين فيصدر عنها حامض الكربونيك ، وإذا أردت أن تفرق هذين العنصرين احتجنا إلى ١٢٠٠ ألف ومائتي درجة من الحرارة أى مقدار ما يخلى الماء مضاعفاً ١٢ مرة ، فأما العناصر البسيطة فليس هناك حرارة في أرضنا تفرقها وللأصلية التي منها العناصر لا يمكن تحليلها . ولعلك بهذا فهمت قوله « وجعل الظلمات » فهو أولاً خلق السموات أى خلق هذا العالم للضوء للشرق ، ثم جعل الظلمات والجمل فيه معنى التحويل فكأنه يقول : حوّل النور إلى ظلمات والظلمات هي الطبقات القديمة وهي حقيقة ظلمات بعضها فوق بعض ، فأما النور فهو في أصله واحد فجمع الظلمات جاء من هذا القبيل فهذا سرّ قوله « جعل الظلمات والنور » .

ارتقاء الأرواح في عالم النور وسرّ قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » وكيف كان الإنسان

يسمى ليخرج من الظلمات إلى النور وكيف أظهر الكشف الحديث هذا كله

أفلا ترى أن هذا سرّ قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » فإنه ظهر لك أن العالم كله نور في نور ولاظلمة إلا قشور الأرض التي تمدّ بمئات الملايين وأن هذه الظلمات طارئة وأنها لإبد راجعة لحالها الأولى؛ ويقال في الكشف الحديث الروحي : إن الأرض مغموسة مغمورة في ذلك الأثير العام اللالى لسائر القضاة ، وإن الأرواح لها غلاف كما تقدم لطيف ألطف من الأثير ، وإن هذا الغلاف بما اعتراه من أدران للمادة التي في الأرضين كأرضنا هذه يجب على الروح أن تسمى لتتق من تلك الأدران لترتقى في العوالم الجلية وتخرج من ظلماتها وكأن للمادة نجسها فهي تتخلص منها لترجع لصفاتها الروحي وحالتها الجلية . ولقد تقدم لك فيما ذكرته في جواب سؤالك الثاني أن المدخان تنبع منه نور وكهرباء وذلك بالتفاعل ما بين غم اللوجات والنحاس والزنك والسوائل المحيطات بها فجاء نور عظيم من ظلام داس هذا ما ذكرته هناك وأقول هنا إن قوله تعالى « هو الذى خلقكم من طين » فتح لهذا الباب وكأنه يقول كما جعلت من الظلمات ناراً في الكهرباء للضيئة للشرقة هكذا جعلت في أجسامكم الظلمة عملياً وتخليلاً وتركيباً يخرج منه نور لأترونه أو ترونه كما أن الكهرباء فيها نور ترونه ونور لأترونه ، فإذا قال الله « هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً » في الدنيا لهذا الجسم وأجل سمى عنده بعد الموت فمعناه أنه يصفيه من هذا الظلام ليجمعه خالصاً كما قل في آية أخرى « وأن إلى ربك لتنتهى » فله نور وهو النور للشموس والموالم ثم جعل الظلام وخلقنا فيه لنجد حتى نرجع إلى النور ككرة أخرى بحال أجمل وأبهى .

وكأن السمك لا يقدر أن يعيش في البر والحيوان البرى لا يعيش في البحر وعالم الطير لا يعيش في التراب وعالم التراب لا يعيش في الهواء ولا في الماء وذلك لطبعه وخصيته ، هكذا نحن في الدنيا يألف كل منا ما كان على شاكلته صلاحاً وفساداً ، وهكذا بعد موتنا نكون في عوالم على مقتضى جبلتنا ، فإذا كان الإنسان متعلقاً

بالعوالم اللطيفة لم يجده قوة يدخل بها عالم النور ، وإذا دخل عالم نور قليل لم يقدر أن يدخل ما هو أضوأ وأتور بل لا يقدر أن يصل إليه ولا يستطيع ذلك كما لا يستطيع في الدنيا أن يطير في الجوّ ، وكما لا يستطيع السمك أن يعيش في البر إنما هنا يموت السمك في البر . فأما هناك فلن يموت الروح بل تجد جاذبية تجذبها لمركزها كما يجذب الحجر إلى أسفل ، فإذا نزل عالم الآخرة مبنى على الاستعداد لا غير وهذا سرّ قوله صلى الله عليه وسلم « إنك مع من أحببت » وإذا نزل يكون الإنسان من الآن عالما بموضعه في العوالم للقبلة . فقال صاحبي : هل لك أن تذكر شيئا من العلم الحديث في هذا ثم تتبعه بما قاله القدماء حتى نعتقد ما نقول . قلت أما في الحديث فاسمع .

الإنسان مضيء وهو في هذا الجسد

لقد جاء في صحيفة لانتان الفرنسية سنة ١٩٢٤ ونقلها الجرائد المصرية في شهر مارس من السنة المذكورة أن معهد العلوم الروحية في باريس منذ شهر يواصل العمل مع النكتم الشديد في تجارب مع الوسيط الإيطالي المشهور (ايرنو) وقد شهد هذه التجارب الدكتور (جيلي) وقد قال الدكتور (ستيفان نشوفيه) وهو من معاونين المختصين للدكتور جيلي . إن هنا عجائب خارقة للعادة فإن من الوسطاء للتوأمين بفتح الواو من يشعّ النور منهم شعاعا ظاهرا ولكن الوسيط الإيطالي (ايرنو) ظهرت منه أتوار أجلى ، فقد جرّد السنيور (ايرنو) من ملابسه تجريدا تاما وحُصت جميع تجاوبه الطبيعية خصوصا دقيقا وبعد ذلك ألبس غلالة من النسيج صنعت له وهي ضيقة جدا بحيث تلتصق بجده ، فلما تومّ متناطيسيا ظهرت منه أتوار ما كان ليصدقها العقل فكانت تنبعث منه كرات نورية في كل مكان من الحجرة غير متصلة بشيء نباتا في سماء تلك الحجرة فلم يكن هناك قوس ضوئي منير بينها وبين الوسيط ، وتارة ينبعث شرر كل شرارة أربعة أمتار ، وطورا يرى برق مختلف الأبعاد وأحيانا ضوء عظيم ينتشر بين الوسيط والجدار والضوء غالبا يكون أحمر أو أخضر أو فيه بعض غلّس قليل ، وهذه الأضواء لا يمكن انعالمها بالكهرباء ولا بموادّ مضيئة وهذه بشهادة أشهر علماء الطبيعة ، فقد بحث السنيور (ايرنو) خصوصا دقيقا بأشعة (اكس) في نهاية جلسة عقدت يوم ١٤ فبراير سنة ١٩٢٤ فلم يثر على أي أثر غير عادي في جسمه وبهذا تأيد نهائيا وجود ظاهرات منيرة كغفيلة بأن تثير انقلابا تاما في جميع معلوماتنا الفيزيولوجية (وظائف الأعضاء) والبيولوجية (علم الحياة) وفي نظرياتنا في المادة والقوة (وقد حدث انقلاب من هاتين المادتين الأخيرتين منذ بضع سنوات) ومن الممكن أن تؤدي دراسة هذه الظاهرات في أيام قليلة إلى كشف الضوء البارد اه .

فانظر كيف كشف الناس نورا في الروح الإنسانية بالتنويم المغناطيسي كما أن الأجسام تضيء بالكهرباء وبغيرها ، ولكن هذا سرّ جديد ليس مما عرف قديما إلا على سبيل السماع من الأنبياء والقديسين ، وقد امتلأت به كتب الديانات من أن الصالحين لهم إشراق ونور جسمي وضياء مشرق يظهر على وجوههم أحيانا فسكانهم يجهدون أخذوا يخرجون من الظلمات إلى النور كقوله تعالى « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور » فأضنا مضيئة ووضعت في الأجسام الظلمات لتجاهد وترجع إلى النور مرة أخرى فهي باستمرارها في الترقى في الأنوار تصل إلى الله ، قال الله تعالى « وأن إلى ربك المنتهي » وقال « نورم يضيء بين أيديهم وبأييمانهم بشراكم اليوم » فإذا مال الإنسان النور والجمال . ولا تظنّ أنّي أعتبر النور الظاهري المذكور إلا مقدّمة فليس النور الذي شهده أهل باريس في السنيور (ايرنو) هو القصور من النور في القرآن وإنما هو مقدّمة له ، ومعنى هذا أن النفس الإنسانية كقارة أو مؤمنة أو مشركة مستعدة للإشراق بالنور متى جاءت أسبابه بشرط الإيمان ، فأما النور الظاهري فيمكن بالتنويم المغناطيسي ، وأما الباطني فلا يمكن إلا باجتهاد الإنسان وهذا هو الذي أذكره من القرآن ومن كلام المتقدمين .

ارتقاء الإنسان بعد الموت في درجات السكك إلى أن يكون مع الملائكة النوريين من نفس القرآن .
قال الفخر الرازي في تفسير قوله تعالى « والنازعات غرقا » ماملخصه :
الوجه الثالث : في تفسير هذه الكلمات الخمس « والنازعات غرقا » والناسطات نشطا والساجحات سبعا
فالساجحات سبعا والمدبرات أمرا .

يقول الله تعالى الخمس بالأرواح التي تنزع من الجسم نزعاً شديداً ؛ فعنى غرقاً نزعاً شديداً ومعلوم أن نزع الروح
من الجسم يحتاج إلى شدة حتى تخلص الروح ، ومتى نزع نشط للخروج من الجسم فهي الناشطات نشطا
بسهولة ، ومتى خرجت الروح وكانت قوية لاتعلق بالعالم المادى وقد اتصالحا به واشتقت إلى عالم أعلى من
هذا وهي تريد أن تتخلص من عالم الأجساد فإنها تذهب إلى عالم الملائكة ومنازل القدس أسرع ما يكون فغير
عن ذهابها على هذه الحال بالسباحة فقال والساجحات سبعا . ثم قال بالحرف الواحد إن مراتب الأرواح
في الفترة عن الدنيا ومحبة الاتصال بالعالم العلوى مختلفة فكما كانت أمم في هذه الأحوال كان سيرها إلى هناك
أسبق ، وكما كانت أضعف كان سيرها إلى هناك أفضل ، ولا شك أن الأرواح السابقة إلى هذه الأحوال أشرف
فلا جرم وقع القسم بها ؛ ثم إن هذه الأرواح الشريفة العالية لا يبعد أن يظهر منها آثار في أحوال هذا العالم
فهى المدبرات أمرا . ثم قل :

أليس إن الإنسان قد يرى أستاذه في المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده إليها . أليس إن الابن قد يرى أباه
في المنام فيهديه إلى كنز مدفون . أليس جالينوس قال : كنت مريضا فمعجرت عن علاج نفسى فرأيت في المنام
واحدا أرشدنى إلى كيفية العلاج . أليس إن التزالى قال : إن الأرواح الشريفة إذا فارقت أبدانها ثم اتفق
إنسان مشابه للإنسان الأول في الروح والبدن فإنه لا يبعد أن يحصل للنفس المفارقة تعلق بهذا البدن حتى تصير
كالعاونة للنفس المتعلقة بذلك البدن على أعمال الخير فتسمى تلك المعاونة إلهاما ونظيره في جانب النفوس
الشريفة وسوسة ، وهذه المعانى وإن لم تكن منقولة عن المفسرين إلا أن اللفظ محتمل جداً انتهى كلام الرازي .
فسار معنى الآية : إن الله يقول أقسم بالنفوس الشريفة التي تنزع من أجسامها ناشطة إلى مقرها سابقة
لنرحها بالعالم الجديد الجبل مدبرة للعوالم كما تدبر الملائكة لقرنها من جلالنا وعظمتنا وهذا الذى قرره
الرازي هو بينه ما نقل في العلم الحديث عند محادثة الأرواح في الجلسات النفسية

مراتب الأرواح في العلم الحديث

قالوا : لاتستطيع الأرواح ذات الأميال البهيمية الانتقال إلى مركز أعلى إلا إذا سعت في تغيير أخلاقها
بتجردها من الأميال البهيمية وإصلاح ما بها من الرذائل والشوائب وتطهرها من الأوزار فهذه تتدرج شيئا
فشيئا إلى المراكز العلوية كما يتدرج رويدا رويدا . انظر من عاش كثيرا في الظلام الدامس إلى ضوء النهار ثم إلى
نور الشمس . قالوا أيضا وكما اكتسب الروح رقا في عالم انتقلت إلى ما هو أعلى منه وليست الأجسام بنليظة
إلا في العوالم السفلية ، ثم بعد ذلك تكون ألطف وأقل مادة شيئا فشيئا حتى تشابه الجسم الروحانى في لطافتها
وهي في كل عالم من العوالم التي تحل فيها تعطى قوة لترتقى بها إلى ما هو أعلى ، ولا يزال كذلك حتى يصبح
من عداد الملائكة الذين يديرون حركات العوالم اه .

هذا ما جاء في علم الأرواح وهو في مجموعه أشبه بما جاء في الرازي وهي أن آخر درجات الأرواح أن
تكون من المدبرات أمرا ولا يكون هذا الرقى إلا بكامل الفسائل والعلوم والبصر والعزيمة وبؤيد هذا قوله
تعالى « يوم يقوم الروح والملائكة صفا » فعمل الروح والملك في صف واحد وهذا ظاهر من أن الأرواح
تكون مدبرات أمرا .

وأما ما قاله الفخر الرازي من العلاج بالرؤى فهذا كثير ومعلوم أن الرؤى فيها الغث والسمين وأكثرها كاذب ولكن قد يصح بعضها .

رؤيا مؤلف هذا الكتاب ورؤياه للنبي صلى الله عليه وسلم

أقول أنا نفسي وأنا مجاور بالجامع الأزهر : لما توجهت إلى بلاد الريف مرضت بعيني أياما كثيرة رأيت كأني واقف بعد الفجر في هواء طاق وقائل يقول لي إني فتحت عيني في الهواء الذي مثل هذا فشفيت فأصبحت وفعلت كذلك يومين أو ثلاثا فشفيت ، وكان الوقوف في ذلك الوقت بحيث لا يكون هناك غبار ؛ ورأيت رؤى كثيرة مثل ذلك لا محل لذكرها الآن . وأصل تألبي لهذا التفسير من رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم مرارا ؛ فلقد رأيت أنه وأنا لا أزال تلميذا بالأزهر وقد كنت نائما في منزلنا بكفر عوض الله حجازي والرحوم والذي نائم بجاني وكأني في المكتب الذي كنت أتلم فيه ببلدة تسمى الفار بجوارنا ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم جالس وأنا واقف أمامه وكأنه يأخذ يملئني تفسير القرآن فأسمي كلاما ثم قلت زدني فزادني وأنا أقول في نفسي إن هذا هو النبي فيلزم الأدب أمامه هذا هو النبي ، ثم خرجت من عنده وقابلت والذي في المنام أيضا وأنا خارج من المكتب فقال : ابن كنت : قلت كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : وماذا فعلت ؟ قلت علمت التفسير وسأكون كالصحابة أقول على القليل من الآيات معاني كثيرة فاستيقظت حالا وأيقظت والذي وأخبرته فسر وقال خيرا إن شاء الله . وأنا أقول هذه أول رؤيا رأيتها لأجل القرآن والعلوم . ولقد تركت ما هو أجهل منها وأشرف وأوضح وأنور وأجلى حتى تكون فرصة أخرى أذكرها ، وسأقص إذ ذاك ما أخبرني به رب العرش جل جلاله في المنام وكيف أخبرني بأن العالم الإسلامي سيرقى ويشرح إلى أن الرقى بنحو هذه العلوم التي تقرأها في هذا التفسير ونحوها . ولولا هذه اللبثات ماسطرت حرفا واحدا ، ولكن ذكرت هذه الرؤى الآن لمناسبة كلام الرازي ولأنه قد تحقق أن تفسير القرآن على الخط الذي فسره به المنام في نفس المنام ، وإني أقول ولا أخشى لومة لائم .

بشرى المسلمين

أقول ولا أخشى لومة لائم : إني يامعاشر المسلمين بشرت من الحق سبحانه وتعالى بارتفاع الإسلام ، وأن ما كتب لك الآن سيكون من اللبدي التي يرتقى بها المسلمون . أقول هذا بعد ما شاهدت بنفسى مصداق تلك الرؤيا الإلهية التي ربما أذكرها ، ولم أقل هذا إلا بعد ما أيقنت أن المسلمين في أقطار الأرض قد أقبلوا على هذا التفسير فملت أن الله يريد ذلك ، وأن تلك الرؤيا التي كنت أراها وأنا تلميذ تارة وبعد ذلك أخرى لم تكن أضغاث أحلام بل تحققت فعلا بالإقبال على هذا التفسير الذي أمرني به النبي صلى الله عليه وسلم مرارا وأنا لست بمن يصدقون الأحلام أو يخذعون بالأوهام ، ولكني ذكرت لعلها بارتفاع الأمة وارتفاع الأرواح ، فليبشر المسلمون فقد آن لهم النجاح ولا بد لهم من الفلاح ، والعلوم قد فتحت لهم أبوابها وسيردون على زمن السعادة والهناء وتعلمن نيا قريبا وبعد حين .

عجائب القرآن التي ظهرت في هذا المقام ملخص ما تقدم

- (١) جمع الظلمات . لأجل أن طبقات الأرض ٢٦ وصورها ست .
- (٢) أفراد النور . لأن أصل العالم مادة واحدة نورية كما اتضح حديثا .
- (٣) تقديم السموات . لأن عالم السموات أقدم من الأرضين التي أرضنا واحدة منها لأنها مشتقات من الشمس المقدمة عليها .
- (٤) كون جهنم في الأرض . لأن جميع الأرضين التي تمتد بالملايين أو مئات الملايين كرات نارية ؛ فمنها حديثة العهد فهي مضطربة ، ومنها قديمة العهد فهي ثابتة .

(٥) ورد ما يدل على أن نار الدنيا أقل من نار جهنم نحو ٧٠ مرة .

وهذا هو الذي جاء في العلم الحديث لأن النار في جوف الأرض وقد بردت مرارا ، فإذا كانت تحت القشرة الأرضية ٣٣٣٣ درجة فهذه الدرجات تعادل ما يغلي الماء ٣٣ مرة تقريبا ، وكل واحدة منها إذا انقسمت إلى قسمين صارت ٧٠ تقريبا فتصبح نار جهنم أقوى من نارنا نحو ٧٠ مرة ؛ ومعلوم أن الحرارة الجوية إذا كانت مساوية لجسم الإنسان لم تؤذ ، فإن ارتفعت إلى ٥٠ أحس بالحرارة فيقول هذه نار وهذه يتكرارها وتضاعفها تبلغ حول السبعين تقريبا ، وليس المقام لتحديد وإنما هو للتقريب .

(٦) يقول الله « نورهم يسمى بين أيديهم وبأيمنهم » فقد ظهر أن جسم الإنسان في الدنيا فيه نور ويسمى للارتقاء في النور كما في الرازي وكما في علم الأرواح .

(٧) تقديم الظلمات على النور . لأن الإنسان يخلق في ظلمات الأرض ثم يرتقي .

(٨) نزول الحديد وجميع المعادن من السماء أيام أن كانت الأرض تتكون الطبقة الصلبة .

(٩) الجبال التي على الأرض التي برزت في العصر الرابع السمي بالتالي لولائها لماتت الأرض بالزلزال لأن هذه الجبال ثابتة من الطبقة الصوانية التي حول النار ، وهذه الطبقة الصوانية حافظة للكرة النارية التي نحن عليها ، ومن هذه الطبقة الصوانية برزت الجبال إلى الطبقة السادسة وسماها رواسي لأنها ترسو على الطبقة الصوانية وثبتت عليها ، ومنها نبتت ولم يظهر من الطبقة الصوانية إلا هذه الجبال ، والطبقة الصوانية هي التي حفظت الأرض من طغيان النار على ظاهرها فتضطرب . فافهم وتعجب واعلم أنه كما خلقت الجبال من الطبقة الصوانية خلق الفحم من الطبقة الثانية المسماة انتقالية ثم ارتفع بعد ذلك بالعوامل الطبيعية وفيها المعادن التي كانت تمطرها سحب الذهب والحديد والقصدير الخ وهذا قوله تعالى « أن تعبدكم » .

(١٠) « ثم استوى إلى السماء وهي دخان » وقد علمت أن الحالة الدخانية هي الحالة العامة للمادة كما تقدم .

(١١) « قلنا أتينا طائعين » فالسموات والأرض جرتا في الدوائر طائعة : أي بالتجاذب العام لا مكرهة كما يجري الحجر إلى أعلى بالحركة القسرية ، انتهى الكلام على العجائب .

اعتراض على المؤلف وجوابه

فقال صاحبي : لقد أعجبني ما قلت ولكن هناك ما بهدمه من أساسه ويقوضه . نقلت وما هو ذلك ؟ قال قوله تعالى « قل أأنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ثم استوى إلى السماء وهي دخان » وقوله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » . قلت هذا برهان لي ومؤيد لقولي . قال وكيف ذلك ؟ قلت لأنه يقول « ثم استوى إلى السماء » فإذا السماء موجودة قبل خلق الأرض وظاية الأمر أنه عمد إليها واستوى وهو دائما عامد لها ومستوى ليقول لها وللأرض أطيعا إطاعة تامة : أي يجريهما جريا بالجاذبية . وفي الثانية يقول « ثم استوى إلى السماء فسواهن » فإذا السماء كانت موجودة ثم عمد لها كما هو عامد لها دائما وذلك ليسوبها فهو دائما يسوي : أي ينظم السماء وهو دائما يديرها . فأما خلقها فقد تقدم وإلا فكيف يقصد إليها فافهم .

تفصيل الكلام على قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » بذكر سلسلة المخلوقات الأرضية

من ابتداء كون كرة الأرض نارية إلى أن يصل الخلق إلى أعلى علاه

(١) عصر الطبقة الصوانية التي تكاملت فوق الكرة النارية الأرضية بعد انفصالها من الشمس وفيها خلقت المعادن وبقدرت مدتها نحو ٣٠٠ مليون سنة كما قال العلامة ليل .

(٢) عصر الطبقة الثانية الانتقالية . ظهرت فيها الحشائش والحيوانات البحرية والسماك والغابات العظيمة التلاصقة للتكاثر فكان منها الفحم الحجري .

(٣) العصر الثانوي وفيه كوّنت الطبقة الثالثة . كانت حيواناته أرقى وكانت تماسيحه تتجاوز عشرين وثلاثين ذراعا .

(٤) العصر الثالثي فيه تكوّنت الطبقة الرابعة . ارتجت الأرض بعنف وزلزلت زلزالها وأخرجت أنفاسها فظهرت الجبال الشوامخ والطبقات الصدفية وبعض أماكن من الطبقات الصوانية الأولى . ظهرت كما تبرز أسنان الصبي وتلك نجد للمعادن في جبالنا وهي إنما تكوّنت هناك من أمطار الذهب والحديد الخ . وفي هذا العصر ظهرت الوحوش البرية الهائلة كالفييل والكركدن والماموث الخ .

(٥) العصر الطوفاني . في هذا العصر حصلت نكبة في الأرض قلبت كل شيء حتى إن القطبين كانا بلادا حارة فاتقلبا فجأة أرضا مكسوة بالثلج ورى القبلة الآن لأزال مطمورة لما فاجأها الزلزال فدفنت وهي إلى الآن باقية قد عثر عليها الكاشفون وكأنها كانت خط استواء فاتقلبت حالا قطبين .

(٦) العصر الحالي وفيه زاد الهواء نقاوة ، وقد عثر الناس في هذا العصر على عظام عديدة من الوحوش والكواسر عاشت قبل حصول تلك الفاجعة فوجدوها مطمورة في الناور في أعلى الجبال فهلكت هناك جوعا أو اقتصر بعضها بمضا أو خنقا في وسط المياه للتدفقة عليها ونسبوا ذلك كله إلى زمان العصر الطوفاني . وليس هذا هو الطوفان الذي جاء في الكتب السماوية لأنه قبل مئات الملايين من السنين ، ولكن طوفان الكتب السماوية في هذا العصر كان يمتد من البحر الأسود إلى الأوقيانوس الشمالي ، وأن بحر الخزر والأوندون والبحيرات العديدة المالحة في التتر وروسيا إنما هي من بقايا بحر عظيم كان هناك ، فلما ارتفعت جبال القوقاس اندفع قسم عظيم من المياه إلى الأوقيانوس الشمالي وقسم آخر إلى الأوقيانوس الهندي ففرقت بلاد ما بين النهرين وجميع البلاد التي يسكنها أسلاف العبرانيين .

جدول الحياة على الأرض

(٧) أولها مادة هلامية تسمى (بروتو بلاسما) في قعر البحار ، وهي مادة رخوة لرجبة تشكل بسائر الأشكال ، وابتداء مقادير منها تكوّن مايسمونه في الاصطلاح (الحلية) وابتداء الخلايا تكوّن الأعضاء ، وتفرّع هذه الخلايا يكون بالتكاثر وهذا التكاثر يكون منظما بطريق الانقسام ٢ ٤ ٨ ١٦ ٣٢ وهكذا إلى ما لانهاية له ، وهذا به يكون النمو مع النظام في الأعضاء طولاً وعرضا .

(٨) ابتداء هذه الخلايا ظهر النبات في البحر والبر ، فأولا كان النبات .

(٩) نباتا حيوانيا كأنواع الدوفيت فهي حيوانات على شكل النبات وكأنواع الأخطبوط وهي هلامية الجسم ولا تمتاز عن النبات إلا بأحكام التنقل ، وفيها معدة وبعض ظواهر الأعصاب وليس لها نظر ولا شم ولا سمع .

(١٠) الدود هو أكمل أعضاء وأشد نشاطا وأكمل من الأخطبوط .

(١١) الحلزون وذوات الأصداف التي ليس لها فقرات .

(١٢) سرطان البحر .

(١٣) عقرب البر له سمع وبصر وحركة غذاء ودورة الدم .

(١٤) ذوات الفقرات كالسماك له نخاع شوكة .

(١٥) الدبابات الأرضية .

- (١٦) الطيور وهي تبيض .
 (١٧) حيوان باستراليا الآن له كيس يحمل فيه صفاره ودماعه بسيط جدا .
 (١٨) ثم ذوات الأربع الباقية وأعلاها القرد فالإنسان .
 (١٩) جنين الإنسان في بطن أمه يكون أولا خلية بسيطة كالتى في البحر .
 (٢٠) ثم دودة . (٢١) غلارونة . (٢٢) فسمكة . (٢٣) فذبابة . (٢٤) قمردا .
 (٢٥) ويتوارى ذنبه بعد ذلك في بطن أمه .
 (٢٦) ومنه متوحشون . (٢٧) وعقلاء . (٢٨) وعلماء . (٢٩) وأنبياء .
 (٣٠) ثم ينتقلون في العوالم النورية طبقا عن طبق « وأن إلى ربك المنتهى » .

هذه السلسلة ذكرتها لتكون مطلقا في كلمات قليلة على النظام واشتقاق الحياة من الجمد وأنها سلسلة واحدة : أى أنها منظمة بحيث لا تترك درجة إلا خلق فيها نوع . وليس معنى ذلك أن كل نوع خلق مما قبله، كلابل هو النظام السائد . فانظر كيف كانت طبقات الأرض في عصورها الست وكيف تولد النبات والحيوان وكانت هذه السلاسل منتظمة . ألا ترى سرّ قوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حى » . أفلم تستر أن حياة الخلية ابتدئت في البحر وعلماء العصر الحاضر يقولون : إن كل حيوان أصله من البحر . أولست ترى هذا سرّ قوله تعالى « أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسوّها وأغطش ليها وأخرج منها ماءها والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها عين ما جاء في العلم الحديث أن طبقات الأرض بعد السموات وانفصال الأرض من الشمس، وقوله أخرج منها ماءها ومرعاها إشارة للعصر الثانى، وقوله والجبال أرساها إشارة للمصور التى تلته فإن بروز الجبال إلى أعلى لم يكن إلا بعد العصر الثانى كما تقدم . أليس القرآن اليوم أصبح يفسر فعلا بالعلم الحديث تفسيرا لفظيا . وإذا كان قوله تعالى هنا « الحمد لله الذى خلق السموات » يدل على أن خلق السموات قبل الأرض بطريق الإشارة كما قدمنا فى هذه الآية صارت الإشارة فيها عبارة والكناية صريحا والقوة فعلا، لجل العلم .

وأىضا هذه السلسلة التى ظهرت فى الحيوانات وفى الجنين فى بطن الأم هى التى يشير لها قوله تعالى « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت » وقوله تعالى « وكل شيء عنده بمقدار » فهو لا يخلق الأعلى إلا بعد خلق الأدنى، فلم يخلق الحيوان إلا بعد النبات، ولم يخلق الإنسان إلا بعد الحيوان، ولم يخلق الجنين الإنسانى فى بطن أمه إلا بعد ما يمر على الطبقات الدينية لأن الطفرة محال فلا بد أن يمر على حال الأحياء فى أول أمرها وهى فى البحر، ثم ينتقل إلى أعلى وأعلى كما قال تعالى « خلق الإنسان من نطفة » وقال « من ماء مهين » ولقد أطلت فى هذا اللقاه فى أول سورة آل عمران وذكرت هذه الطبقات . واعلم أن ما كتبه هنا وهناك ليس يمر على سائر الطبقات بل فيه الاكتفاء ببعض تقريرا للأذهان . فأما السلسلة التى هنا فليست كلها واحدة . ألا ترى أن أول نبات بحرى وحيوان بحرى لم يكن بعد العصور الستة الأرضية بل ابتدئت الحياة فى العصر الانتقالي الذى كان فيه الفحم الحجري ولكن ذكرناها مسلسلة لتسهيل النظر على القارىء، فأتمل فى عجائب العلم والحكمة .

فأنت ترى أن الأرض ظلمات والحيوان خلق فى ظلماتها والإنسان كذلك . والعلم والعقل والدين أنارت الأَبصار فيرجعون للنور كرتة أخرى فهذا قوله « وجعل الظلمات والنور » .

أقول الحمد لله على التوفيق لهذا المقال . انتهى تفسير الآيات من قوله « الحمد لله الذى خلق السموات والأرض » إلى قوله « ويعلم ما تكسبون » .

(الْقِسْمُ الثَّانِي)

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا
 جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * أَلَمْ يَرَوْا كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ
 قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مِائِمٌ ثُمَّ كُنَّا لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَا هُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَيْنِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * وَلَوْ نَزَّلْنَا
 عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ *
 وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ
 مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبُدُونَ * وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ خَفَاقٍ
 بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ
 عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ * قُلْ لِمَنْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، قُلْ لِلَّهِ ، كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ
 لِيَجْزِيَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ، الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَهُ مَا
 سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * قُلْ أَعْتَبِرْ اللَّهُ أَنْخِذَ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
 الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ
 فَقَدْ رَجَعَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ * وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِذَا
 يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *
 قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً؟ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ، وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ هَذَا الْقُرْآنِ لِأُنذِرَكُمْ
 بِهِ وَمَنْ يَبْلُغْ ، أُنذِرْكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ ، قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ
 وَإِنِّي بَرِيءٌ ، مِمَّا تُشْرِكُونَ * الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتَرَفَّوْنَ بِكَأَمٍ يَعْرِفُونَ أَنْبَاءَهُمْ الَّذِينَ
 خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ، أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ
 إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ تُرْكَأُونَ كُمْ
 الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ * ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ *

أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ
 وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً آيَةً لَا يُؤْمِنُوهَا
 حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُخَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ
 عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ
 فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بآيَاتِ رَبِّنَا وَنَسْكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا
 يُحْفَوْنَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
 الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَىٰ
 وَرَبِّنَا، قَالَ فَذُقُوا الْمَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا
 جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ
 أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ * وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُمْ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ * قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ
 بِآيَاتِ اللَّهِ يَخْتَدُونَ * وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ
 أَنَاهُم نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَأِ الْمُرْسَلِينَ * وَإِنْ كَانَ كَبُرَ
 عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اشْتَغَمْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ
 بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعْتَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْجَاهِلِينَ * إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ
 يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ * وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ
 إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ
 وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَلِكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
 يُحْشَرُونَ * وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأِ
 يُهْدِهِ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُنْتُ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنتُمْ السَّاعَةُ أُغْيِرَ
 اللَّهُ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ
 مَا تُشْرِكُونَ * وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاَهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ

فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا
 أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ * فَقَطَّعَ دَائِرِ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ بِأَيْتِكُمْ بِهِ؟
 انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْذِفُونَ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً
 أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ * وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ
 آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ
 بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ
 إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ؟ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ *
 وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ
 يَتَّقُونَ * وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ
 حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ *
 وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ
 بِالشَّاكِرِينَ * وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ
 الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ *
 وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أُعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ * قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
 مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضِي الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ
 الْفَاصِلِينَ * قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضِيَ الْأَمْرُ يُبَيِّنُ وَيُنشِئُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ
 بِالظَّالِمِينَ * وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ
 وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ *
 وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُسَمًّى

ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * وَهُوَ الْقَائِمُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ
 عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ * ثُمَّ رُدُّوا إِلَى
 اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ * قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ
 وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * قُلْ اللَّهُ
 يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ * قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ
 عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيئًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ
 انظُرْ كَيْفَ تُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ * وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَنْتَ
 عَلَيْكُمْ يَوْكِيلٌ * لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا
 فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ، وَإِنَّمَا يُنذِرُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ
 الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي
 لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * وَذَرِ الَّذِينَ أَخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ أَنْ
 يُبْتَلَى نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعَدَّلَ كُلٌّ لِيُؤْخَذَ
 مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ *
 قُلْ أُنذِعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِينَ
 اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ خَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى انْتِنَا قُلْ إِنْ هُدَى اللَّهُ
 هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ
 تُحْشَرُونَ * وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ
 الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ *

(التفسير اللفظي لهذا القسم)

(وما تأتيتهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين) من الأولى زائدة ومن الثانية لبيان ، والإعراض :
 ترك النظر (فقد كذبوا بالحق لما جاءهم) وهو القرآن (فسوف يأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون) أي
 يظهر لهم ما كانوا به يستهزئون عند نزول العذاب بهم في الدنيا كأنهم زعموا في الحرب وكظهور الإسلام ، وفي
 الآخرة بعذاب سبهم (ألم يروا كم أهلكتنا من قبلهم من قرون) القرون الأمة من الناس وأهل كل زمان قرن
 وليس له عدد معلوم . فإذا جعل مائة أو أكثر أو أقل ذلك ليس حاصرا له ولا المعنى قاصرا عليه (مكاهم
 في الأرض ما لم يتمكن لكم) جعلنا لهم فيها مكانا وأعطيناهم من القوى وسعة الرزق والتصرف في الأرض ما لم

نعطكم (وأرسلنا السماء) المطر (عليهم مدراراً) مغزراً (وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم) فعاشوا في الحصب والريف بين الأنهار (وأنشأنا) وأحدثنا (من بعدهم قرناً آخرين ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس) مكتوباً في ورق (فلسوه بأيديهم) فسوه بأيدي (لقال الذين كفروا) منهم (إن هذا إلا سحر مبين) تعنتا وعناداً (وقالوا لولا أنزل عليه ملك) هلا أنزل عليه ملك يكلمنا أنه نبي (ولو أنزلنا ملكاً لفضى الأمر) وهذه سنة الله في الكفار أنهم متى افترحوا آية ثم لم يؤمنوا استوجبوا العذاب واستؤصلوا به (ثم لا ينظرون) لا يعمهون (ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي ولو جعلنا قريناً لك ملكاً يعاينونه لثناه رجلاً فإن القوة البشرية لم تتأهل لرؤية الملائكة في الصور الأصلية وبرام الأنبياء بقوة أخرى قدسية، ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم فيقولون ما هذا إلا بشر مثلكم. وسيأتي إيضاح هذا من العلم الحديث بعد تمام التفسير اللفظي لهذا المقصد. فهو يقول: إن اللانع من إرسال الملك أمران: الأول أن الملك إنما ينزل بالعذاب لمن يقترحون الآيات. والثاني أن الملك لن يراه الناس بصورته الأصلية فإذاً يكون رجلاً وإذاً يخلط الأمر عليكم فتقولون هذا رجل ونحن نريد ملكاً. ثم أخذ يسلي النبي صلى الله عليه وسلم بذلك الأنبياء السابقين وأمرهم فقال: (ولقد استهزى رسول من قبلك خاق) أحاط (بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون) أي وبال استهزأهم. ثم أخذ يذكركم بالأمم السالفة ويأمرهم بالسير في الأرض ليروا الأمم المهالكة بالكذب فقال: (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة للكافرين) سيروا في الأرض على سبيل السفر نارة وعلى سبيل الفكر والاعتبار تارة أخرى بحيث يكون النظر العقلي تابعاً لاسير الجسمي. فانظروا كيف أهلك الله الأمم بعذاب الاستئصال لما كذبت (قل لمن مافي السموات والأرض) خلفاً وملكاً وهو سؤال تبيكت (قل لله) وهو التعمين للجواب (كتب على نفسه الرحمة) التزمها تفضلاً وإحساناً منه والرحمة في الدارين (ليجمعنكم إلى يوم القيامة) اللام للقسمة والجملة بدل من الجملة قبلها بدل بعض لأن جمع الناس يوم القيامة بعد موتهم من الرحمة (لاريب فيه) لاشك فيه (الذين خسروا أنفسهم) بتضييع الفطرة الإنسانية وهي رأس ما لهم والذين مبتدأ خبره (فهم لا يؤمنون) وقوله (وله ما سكن) عطف على لله أي لله مافي السموات والأرض وما سكن بالليل والنهار، من السكنى أو من السكون أي ما سكن فيهما، أو تحرك فاكتفى بأحد الضدين عن الآخر. وعلى الأول يكون بمعنى ما اشتملا عليه (وهو السميع) لكل مسموع (العليم) بكل معلوم، وههنا فصول:

الفصل الأول في الرد على دعوى السكفار للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ولياً

أي رباً ومعبوداً وناصرراً ومعيناً من معبودات العرب

قال وإذا كان الله له مافي السموات وما في الأرض النحرک والسكن فكيف آخذ ولياً غيره؟ وهذا قوله تعالى (قل أغير الله آخذ ولياً) إنكار لاآخذ غير الله (فاطر السموات والأرض) مبدعهما. قال ابن عباس رضي الله عنهما ما عرفت معنى الفاطر حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما أنا فطرتها أي ابتدأتها. ولما كان أمر الطعام به بقاء الأجسام خصه بعد التعميم فقال: (وهو يطعم) يرزق الحيوان والإنسان (ولا يطعم) لأنه ليس من جنس المخلوقات. ثم ارتقى إلى ما هو أخص وأبدع وهو الاختصاص في العلم والحكمة والنفع العام فقال (قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) أول من اتقاد لله وأخلص له من أمي فكيف إذت آخذ ولياً غيره؟ آخذ غير المبدع اللطعم وهو لا يطعم الذي خصني بالحكمة والعلم وهداية الناس وفي هذه معنى أقرب إلى الأخلاق الإلهية كما في الحديث «تخلقوا بأخلاق الله» وتلك قال (ولا تكونن من الشركين) لما لك من ذلك الاختصاص الرفيع والعلم العظيم ولو أنك بعد هذه المعرفة أشركت لعظم عذابك لأن من يعلم ليس كمن لا يعلم، والعالم عذابه أكثر من الجاهل، والنفى القادر والقوى الجسم

يعذبان على إهمال النفع بهما للناس وهذا ما يشير إليه قوله (قل إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم) فكيف تطعمون بعد هذا كله أن أعبد غيره إطاعة لدينكم . ثم وصف العذاب بقوله (من يصرف عنه يومئذ) أى يوم القيامة (فقد رحمه) بأن أنجاه من العذاب (وذلك) أى صرف العذاب وحصول الرحمة (الفوز المبين) ولما كان في العادة أن المرء يخاف من قوى قادر وهذا القوى قد يكون له نظراء فهو إن عصاه فرجما صرف العذاب عنه غيره من القادرين بجاههم أو شفاعتهم وإن أطاعه وأنعم عليه فرجما منع هذا الإنعام غيره من القادرين فقال كلا (وإن يمسك الله بصر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسك بخير فهو على كل شيء قدير) فهو الجالب للخير الدافع للضرر فأنخذه ولياً لك ونصيراً . ثم ختم تلك الصفات الإلهية بأعمها وأشملها فقال : (وهو القاهر فوق عباده) القاهر لهم وهم القهورون ، وهذه صفة عامة دخل فيها النفع والضرر وإبصال الخير والشر ؛ ولما كان القاهر قد يكون ظالماً باطشاً جباراً عنيداً يفعل ما لا تقتضيه الحكمة قال (وهو الحكيم) في تدبيره (الخير) بشؤون عباده . وإذا كان الله هو القاهر فوق عباده فهو الحكم بيني وبينكم (قل أى شيء أكبر شهادة ؟) يقال إن أهل مكة قالوا سألتنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر (قل الله) أكبر شهادة ، وهذا جواب الاستفهام فلا علماء اليهود ولا النصارى ، ثم ابتداء فقال هو (شهيد بيني وبينكم) هو الذى يخص من يشاء بما شاء ويكون هذا التخصيص آية بينة وشهادة ناطقة أبلغ من شهادة اللسان الإنسانى الذى قد يتاد الحكم الكاذب والقول المخطئ ؛ فإذا أعطى الله الأم قوة الإرضاع والعالم قوة الإفصاح والجاهل للتواضع حب الاستماع فذلك الفطر الظاهرة فى هؤلاء . شهادات من البدع الحكيم أنهم يقومون بما خلقوا له ، وإذا خلقت العين للنظر والأذن للسمع والعقل للفكر فهى أيضاً شهادات ناطقة أنها أهل لما خلقت له من سمع وبصر وفكر فهكذا شهد الله لى بالرسالة بأن أنزل على هذا القرآن لأنذركم به يا أهل مكة ومن بلغه من الأسود والأحمر وهذا قوله تعالى (وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به) وإذا ثبت لكم أن هذه شهادة من الله لى أن أنذركم أنها للوجودون ومن بلغهم بعدكم فلا يبلغ رسالتى بعد أن رفضت دعوتكم لى بالشرك وتخلصت من إثمها وأقت الحجة على عدم قبولها فأقول لكم هل أنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى فهذا قوله (أنتم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى) وهو استفهام تقريرى مع الإنكار والاستبعاد (قل لا أشهد) بما تشهدون (قل إنما هو إله واحد) أى بل أشهد أنه إله واحد (وإنى برىء مما تشركون) يعنى الأصنام وبهذا تم الكلام على شهادة الله له . ثم أخذ يذكر شهادة الخلق له أيضاً بعد شهادة الله سبحانه وتعالى إذ ادعت قريش أن علماء اليهود والنصارى زعموا أنه لم يذكر فى كتابهم كما تقدم فقال : (الذين آتيناكم الكتاب) من علماء اليهود والنصارى (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) كما قال عبد الله بن سلام لعمر بن الخطاب لما أسلم : يا عمر لقد عرفته حين رأيتك كما أعرف ابني ولأنا أشد معرفة بمحمد صلى الله عليه وسلم منى بابي ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : أشهد أنه رسول الله حقاً ولا أدري ما يصنع النساء . فإذا شهد الله برسالتى وشهد علماء النصارى واليهود كذلك فلم يبق إلا الحسران على من لم يؤمن وليس حسران ذهب ولا فضة بل حسران النفس بجرماتها من كالمها الخاص بها وهو قوله : (الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون) ثم وصفهم بعد الوصف بالحسران بأنهم ظالمون بل أظلم من غيرهم فقال : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته) كهؤلاء الذين قالوا إن اللائكة بنات الله افتراء عليه وكذبوا بالقرآن والمعجزات وسموها سحراً (إنه) ضمير الشأن (لا يفلح الظالمون) . ولما فرغ من إثبات ظلمهم أخذ يذكر نتائج يوم القيامة فقال : (ويوم نحشرهم جميعاً) يوم منصوب بمحذوف (ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم) أى ألهتكم التى جعلتموها شركاء (الذين كنتم تزعمون) أى تزعمونهم شركاء فيكون جوابهم أن يجيبوا كما دعتهم فى الأرض عند القضاة فيحلفون أنهم ما كانوا مشركين ، وهذا قوله (ثم لم تكن فتنتهم

إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين (والفتنة هنا العذرة التي يتخلصون بها، تقول فتنت الذهب إذا خلصته) انظر كيف كذبوا على أنفسهم (بنى الشرك (وضل عنهم) غاب وذهب عنهم (ما كانوا يفترون) أى ما كانوا يكذبون وهو قولهم إن الأصنام تشفع لهم وتنصرهم فبطل ذلك في ذلك اليوم . ثم أخذ يصف فريقاً منهم فقال : (ومنهم من يستمع إليك) حين تلو القرآن كجى سفيان ومن معه فقالوا لا ننصر ما يقول ؟ فقال : والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول إلا أنه يحرك لسانه ويقول : أساطير الأولين، فقال أبو سفيان : إني لأرى حقاً، فقال أبو جهل : لا ، قال تعالى (وجعلنا على قلوبهم أكمة) أعطية جمع كنان وهو ما يستر الشيء كراهة (أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) صمماً وتغلاً يمنع من استعماله (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها) لفرط عنادهم واستحكام التقليد فيهم (حتى إذا جاءوك يجادلونك) أى إلى ، وحق هذه هي التي تقع بعد الجدل ولا عمل لها ؛ والمعنى بلغ تكذيبهم إلى أنهم إذا جاءوك حال كونهم يجادلونك (يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين) والأساطير الأباطيل جمع أسطورة أو إسطورة أو أسطار جمع سطر والسطر الخط (وهم يبهنون) الناس (عنه) أى عن النبي والإيمان به وبالقرآن (وينأون) بأنفسهم (عنه) فلا يؤمنون به كجى طالب (وإن يهاسكون إلا أنفسهم) أى ما يهاسكون إلا أنفسهم (وما يشعرون) أن ضرره لا يتقدم ، وجاء في تفسيرها وجه آخر أن أبا طالب كان ينهى قريشاً عن إضرار النبي صلى الله عليه وسلم، وهو كان ينأى عن الدين حتى أن قريشاً قالوا له خذ شاباً من أصبحنا وجهاً وادفع إلينا عمداً فقال : ما أنصفتوني أرى ابنكم وأدفع ابني لتقتلوه . ولما دعاه صلى الله عليه وسلم للإيمان قال : لولا أن تعيرني قريش لأقررت عينك ولكن أذب عنك ما حبيت، ومن آيات منسوبة له .

وأنه لن يصلوا إليك بجمعهم	حتى أوسد في التراب ديننا
فاصدع بأمرك ما عليك غصاصة	أبشر بذلك وقرّ منك عيوننا
ودعوتني وعرفت أنك ناهي	ولقد صدقت وكنت ثمّ أمينا
وعرضت ديننا قد علمت بأنه	من خير أديان البرية ديننا
لولا السلامة أو حذار مسبة	لوجدتني ممحاً بذلك ميينا

ثم قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) أى ولو ترام حين يوقفون على النار حتى يماينوها فيقولون ياليتنا نردّ إلى الدنيا الخ ، وجواب لو محذوف أى لرأيت أمراً عجيباً وموافقاً شنيعاً . ثم أضرب عن تمهيم الرد وعدم التكذيب والإيمان فقال : (بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل) أى ظهر لهم ما كانوا يخفون من قبائح الأعمال فتنبوا ذلك للضجر لا للعزيمة (ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه) من الكفر والمعاصي لأنها صارت سجية فيهم (وإنهم لسكاذبون) فيها وعدوا من أنفسهم (وقالوا) عطف على عادوا (إن هي إلا حياتنا الدنيا) وضمير هي للحياة (وما نحن ببعوثين . ولو ترى إذ وقفوا على ربهم) عرضوا على ربهم (قال أليس هذا بالحق) أى يقول يوم القيامة أليس هذا البعث والنشر بعد الموت الذي كنتم تنكرونه في الدنيا (قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى بسبب كفركم (قد خسر الذين كذبوا بآيات الله) إذ فاتهم النعيم وكال أنفسهم (حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة) غاية لكذبوا ، وبغتة فجأة (قالوا يا حسرتنا) أى تعالى فهذا أوانك (على ما فرطنا) قصرنا (فيها) في الحياة الدنيا (وهم يعملون أوزارهم على ظهورهم) هذا تمثيل لاستحقاقهم الآثام (ألا ساء ما يزرون) أى بسئ شيئاً يزرونه وزرهم (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) أى وما أعمالها إلا للعب ولهو تلهي الناس وتشغلهم عما يجب منفعة دائمة ، وهذا جواب لقولهم إن هي إلا حياتنا الدنيا (وللدار الآخرة خير للذين يتقون) لدوامها ولأنه لا تنقضي ولا تأبئ ولا تكليف ولا غم (أفلا تعقلون) أى الأمرين خير (قد نعلم) قد هنا لزيادة الفعل وكثرته كما قال الشاعر : به قد يهلك للمال نائله به (إنه) أى

الحال والشأن (إبحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك) فقد قال الأخنس لأبي جهل : يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس أحد هنا يسمع كلامك غيري فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط ، ولكن إذا ذهب بنوقصى باللواء والسقاية والحجاية والندوة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش ، وهذا تمزية للنبي صلى الله عليه وسلم فإن قومه لا يكذبونه وإنما هم يريدون أن لا يعلم عليهم أحد أي فإنهم لا يكذبونك في السرّ (ولكن الظالمين) أي الكافرين (بآيات الله يحدون) في العلانية ، وقال في حق غيرهم « ووجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً » . ثم أخذ يسليه تسلياً أخرى فقال : (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا) على تكذيبهم وإذائهم (حتى أتاهم نصرنا) وهكذا جميع الصابرين على الحق وأنت منهم (ولا تبدل لكلمات الله) لمواعيده ومنها وعده للصابرين فلا تبدل وعده معك . ومعلوم أن هذه السورة نزلت بمكة ولم يكن هناك نصر بل كانوا في حال ضعف فنصر بعد ذلك وهذا في الحقيقة معجزة نبوية (ولقد جاءك من نبي المرسلين) أي من قصصهم وما كابدوا من قومهم ، ومن هنا صلة كما قال الأخنس كقولهم أصابنا من مطر أي مطر ، وهذا تسلياً للنبي صلى الله عليه وسلم وأن الأنبياء بعد تكذيبهم قد نصرنا ، على أنك يا محمد على كل حال مأمور بالصبر على إعراضهم والوقوف عند حد ما أمرناك به واقتضت حكمتنا أن نفعله معك ، ولم يكن في حكمتنا أن نزل الآيات التي يطلبها قومك لأن تلك الآيات ما كنا نرسلها إلا تخويفاً فإنزال للملك يقضى عليهم بالمداب فلم يبق إلا أن تنتظر الفرج ، انتهى الفصل الأول .

(الفصل الثاني في طلب الكفار الآيات عناداً)

(وإن كان كبر عليك إعراضهم) أي إعراض قريش لما طلبوا آية خارقة للعادة كما كان للأنبياء السابقين آيات فطمعت في ذلك وأحبيته ، ونحن لم نزل ذلك حكمة (فإن استطعت أن تبغى) تطلب (تنقاً في الأرض) سرباً ، والنفق سرب في الأرض تخلس منه إلى مكان آخر (أو سلباً في السماء) يعني أو تتخذ مصعداً إلى السماء ، والسلم مشتق من السلامة (فتأنيهم بآية) أي إن كان كبر وعظم عليك إعراض قومك عن الإيمان بك فإن قدرت أن تذهب في الأرض أو تصعد إلى السماء فتأنيهم بآية تدل على صدقك فافعل فأنا الذي حكمت بأن قوماً يؤمنون وقوماً لا يؤمنون (ولو شاء الله لجمعهم على الهدى) فإن الناس مختلفون استعداداً كما يختلف كل حيٍّ وجماد فكيف أشاء اتحادهم وأنا الذي ربيت الدرجات كدرجات السلم ولا يرى اتحاد الناس في كل شيء مرضاً وصحة ، وغنى وفقراً ، وعلماً وجهلاً ، وطولاً وقصرأ ، إلا الذين تبرؤوا من الحكمة وابتعدوا عن العلم ، وحاشا أن تكون منهم (فلا تكونن من الجهلين) وإذا كان الناس قريبين فهل يؤمن إلا المستعدون للإيمان كما لا يعقل إلا من استعد للعقل في سنّ معلوم (إنما يستجيب الدين يسمعون) سماع تعقل وتدبر ، وأما هؤلاء فكالموتى فكيف يسمعون (وللموتى) أي الكفار الذين هم كالموتى في أنهم لا يسمعون (يبعثهم الله) يوم القيامة فيسمعهم فيؤمنون حيث لا ينفهم الإيمان (ثم إليه يرجعون) للجزاء ؛ ولما أعلم النبي صلى الله عليه وسلم أنه لن ينزل عليه ما يطلبون من الآيات كالأم السابقة أخذ يعله كيف يردّ عليهم حين طلبهم فقال : (وقالوا لولا أنزل عليه آية من ربه) أي مما اقترحوه أو آية أخرى سوى ما رأوه من الآيات الكثيرة (قل) يا محمد (إن الله قادر على أن ينزل آية) مما اقترحوه (ولكن أكثر لا يعلمون) عاقبة إزالتها فإنه سبب البلاء والمهلك والاستئصال . وكيف تنزل آية من خوارق العادات التي تخرق النواميس الطبيعية المعروفة وأنا ربيت العوالم ونظمت الكائنات وأقمت الأمم والطوائف كلا بنظامه ولو أني خرفت النواميس لاختل نظام مخلوقاتي وبدلت كلماتي ، ولا تبدل لكلمات الله . فأنا الذي أقمت الطير في الهواء والدواب على اليابسة والموتى في التراب والسماك في الماء وأعطي كل حيوان خلقه وهديته لمأشاه ونظمت طوائفها وأحكمت ألفتها وجعلت بينها تفاهماً بلغاتها الخاصة بها وعلت ذكرائها وإناثها أن تعيش جماعات منظمات ولم أذر مخلوقاتي

يتخبطون في دياجير الحياة . وأنا لولم أحافظ على تلك القوانين لاسود وجه الحياة ولما لمات معظم الجماعات ولم
تسكن لها حياة بل كل ذلك مسطور . إنكم يا مشر بن آدم أمة تسكنون مع أم أخرى من هذه الطوائف
الحيوانية ، وأنا الذي رزقها وعرفت مستقرها ومستودعها وكل قوانينها وأنظمتها وأحوالها في كتاب مبين
أى اللوح المحفوظ . فهل ترون ظارفاً بين الإنسان والحيوان إلا في قوة الإدراك ، فأما ما عدا ذلك فهم
والحيوان سواء فلها جماعات منظمات وذكوران وإناث وقوانين وآداب على قدر طاقتها ولها سياسات بكلمات
الطيور في الجوق والحمر الوحشية والفيلة والبقرة الوحشى والسمك وكل مادب ودرج وما أتم أيها الناس إلا
من الحيوانات ذات الفقرات فلئن ارتفعت عن الطير ذى البيض وكانت صغاركم ترضع اللبن من أمهاتها لجميع
الدواب من ذوات الأربع تشارككم في هذه اللزبة ، ولئن كنتم تسوسون مدنكم فإن النحل يسوس خليته
والنمل يحفظ مدنه وإن كنتم تحفظون أولادكم فأكثر الحيوان لأولاده حفيظ ولئن كنتم تذبجون الحيوان
وتأكلون لحمه وكذلك تنحرونه وتشربون لبنه فما ذلك فضيلة فيكم ، فكمن آكل لحم أضرمه الطعام وشارب
لبن أورته السقام ، على أن الآساد شاركتكم في أكل اللحوم . وبالجملة فهذه الحيوانات أم أمثالكم ولست
خافلاً عن مخلوقاتي أيها كانوا « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » فأنا أعطى كل
طائفة من هذه الطوائف ما هي أهل له ولا تمدى الحكمة ، كما أتى يا محمد أردت أن قوماً بمن تدعوم للإسلام
لا يؤمنون وذلك على حسب نظامى العام ، وهذا قوله تعالى : (وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه
إلا أم أمثالكم ما فرطنا فى الكتاب) فى اللوح المحفوظ (من شيء) وكما أنكم تحشرون إلى ربكم فهم
كذلك يحشرون فهذا العالم نظام واحد وله مقصد واحد متجه إلى حال يجهلها الناس . والعلماء وأفاضل
القوم من أم الأرض يبحثون وهم محدثون فهذه الأمم سائرة على نظام تام جميل فى الحياة (ثم إلى ربهم
يحشرون) لافرق بين الإنسان والحيوان . روى أنه عليه الصلاة والسلام قال « يؤخذ للجماء من القرناء » .
وفى رواية مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لتؤذبن الحفوق إلى أهلها يوم القيامة
حتى يقاد للشاة الجلهاء من الشاة القرناء » واعلم أن العلوم الحديثة قد أبدت ذلك وإن لم تكن بلغت مبلغ
التحقيق أى أن الحيوان باق بعد الموت كالإنسان سائر لمرض يجمله ونحن هنا على الأرض التى حبسنا فيها
لمعرفة ما فى هذا العالم ثم نكون فى عالم آخر فلعلنا نطلع على ما هو أدق وألطف وأجمل . ثم أخذ يتم الكلام
على موضوع هؤلاء الذين لا يسمعون وهم قد جعلوا فى منزلتهم فلم يعقلوا كلام ربهم وكذا نبه على مقتضى
نقص نفوسهم فقال : (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) فهم لا يزالون فى الظلمة الأرضية التى تقدم
ذكرها فى أول السورة ولم ينفذ نور الهداية الإلهية إلى قلوبهم إذ لم يستعدوا لها لعنادهم ونقصهم بحسب
درجتهم ولو أنهم كان لهم استعداد لأدركوا ما أحاط بهم من محائب الحيوان وخرائب الطير وبدائع الحيوان
البرى والبحرى وما أودع فيها من فطر وفهم وذكاء وتقدير وتدبير فيعرفون خالقها ولكنهم لم يصلوا إلى
درجة الفهم « إنا لا نسمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » فهم صم لا يسمعون وبكم
لا ينطقون بالحق ، ثم بينه فقال : (من يشأ الله) إضلاله (يضلله) لأنه وضعه فى موضعه اللائق به كما وضع كل طائفة
من الأمم فى مركزها حفظاً للنظام (ومن يشأ) هدايته (يجمله على صراط مستقيم) ومستحيل أن يكون ذلك
إلا عند الاستعداد « وإنا من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » ما فرطنا فى الكتاب
من شيء « فنحن لا نصنع إلا بحكمة . ولما كان الكلام فى خوارق العادات وفى إنزال آية كالأمم السابقة قد
انتهى القول فيه كان الأجدر أن ينظر فى أمر نافع للإيمان ولا شيء أفضل من البحث فى أمر النفس
والبحث فى الأحوال العارضة لها ، فأما الأحوال العارضة للعالم فى الآفاق بالخوارق فلا فائدة منها . وأن النفس
إذا نزل بها ملم أو حدث لها حادث عظيم كأن ينزل أمر عظيم من السماء كصاعقة أو من الأرض كزلزلة

أو تقوم الساعة فبأنه ماذا يحسّ الإنسان في نفسه؟ لاجرم أنه يحسّ باضطراب والتجاء إلى قوّة فوقه يلتجئ إليها فيدعوها وماهى هذه القوّة هي الحضرة العلية، فإنّ الناس عند عظامّ البلايا يلتجئون إلى ربهم بفطرم ولا يحسون بأصنام ولا شيوخ ولا عظماء فهذا هو البرهان على وجود الله تعالى. فأنت يا أهل مكة ليس ينبغي أن تعرفوا الله بطريق الأور المزعجة في العوالم العلوية والسفلية، أو بأنّ جبال مكة تصبح قاعاً صافياً ومحلّ محلها الجنات، أو تكون أنهاراً، أو يأتي لكم بكتاب من السماء فهذا كله لا يفيدكم اليقين، وإنما اليقين يأتي لكم من طريق أنفسكم، فأنفسكم إذا حلّت بها كرب تلجأ إلى الله فهذا هو البرهان على وجوده من هذا القبيل فأنتم نظرتم إلى العرض وتركتم الجوهر، وهذا هو قوله: (قل أرأيتم) استفهام تعجب ومعناه أخبروني، تقول أرأيتم زيدا ماشأته أي أرأيتم زيدا ماشأته فالكاف حرف خطاب لا محل لها من الإصراب وهي لمجرد تأكيد الخطاب وأصله أرأيتم، وتقول العرب أرأيتم بمعنى أخبرنا بحالك (إن أنا كم عذاب الله) بالصواعق أو الحسف في الدنيا كما حصل في الأمم السابقة (أو أتتكم الساعة) القيامة (أغير الله تدعون) في كشف العذاب (إن كنتم سادقين) أن الأصنام آلهة (بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه) أي ما تدعون به إلى كشفه (إن شاء) أن يفضل عليكم (وتنسون ما تشركون) وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت لما ركز في القطر من توجه النفوس إلى من فطرها. فمن هذا فلتؤخذ البراهين والدلائل على وجود الله. ولقد جعل لنا الله الفقر وشدته، والمرض ووقمه، والبلايا وكثرتها باباً من أبواب عدايتنا ونعمة من نعمه علينا، فهي في الظاهر عذاب وفي الحقيقة نعمة عظيمة، فهي باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب نسلطه على من نشاء من عبادنا كي يتفطنوا لما نزل بهم ويفكروا في أمور نفوسهم فيما أن يعرفوا فيتضرعوا وإما ألا تلبث قلوبهم حينئذ نهلكم فالعذاب يكون أشبه بامتحن فمن آمن أبقيناه ومن لم يؤمن أهلكتناه لأن النفوس الجامدة التي لا تعرف زمانها ولا تسير في طريق الصلاح هالكة حقاً، وهذا قوله (ولقد أرسلنا إلى أم من قبلك) من زائدة فكفروا (فأخذناهم بالأساء) الشدة والفقر (والضراء) الضراء والآفات (لعلهم يتضرعون) يتذللون ويتوبون ويرجعون عن ذنوبهم (فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا) لولا هنا للتندب لدخولها على الماضي، وهي للحض إذا دخلت على المضارع ويدخل في معناه أنهم لم يتضرعوا (ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون) فلا مانع لهم إلا قساوة قلوبهم وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم.

والأم إذا لم توقظها الحوادث ولم تمنعها التوائب وبقيت معجبة بأنفسها مبهتجة بما زين له شياطين الإنس والجن من الأعمال يلحقها البطر وعلوها الأثر وتمتلي* إعجاباً فتنادى في غيها ولا تسمع نصيح الناصحين ولا تذكّر الذكّرين وتكون أشبه بالدين يمتثلون من اللآكل الدسمة من اللحم واللبن والبيض ولا يصيبهم مرض في أجسامهم بل تزداد وجوههم نضرة وجسومهم قوّة وغيرهم مهزولون مرضى يعترهم ما يستخرج من أجسامهم كثيراً من اللواد، فهؤلاء كما قال أطباء العصر الحاضر بأوروبا لاسيا في النمسا وألمانيا بأنهم اللوات حفاة ويموتون ولا هم يذكرون، وعللوا ذلك بأن أجسامهم القوية إنما نشأت من تلك اللآكل التي هي كثيرة التغذية فإذا دخلت في خلايا الأجسام دخلت بكثرة فملأتها بلا توازن بخلاف الأطعمة الخفيفة فإنها تدخل بالتدريج في الخلايا حتى إذا جاء أجلها خربت صريعة لليدين وللغم في يوم أو بعض يوم. فأما أولئك المرضى فإن أجسامهم قوية أن تطرد عن أجسامها تلك الأمراض أي الخارجة بالثور والقروح مثلاً والأمراض المتنوعة، فمن يظنه أكثر الناس صحياً هو المريض ومن يظنونه مريضاً هو الصحيح لأن الجسم الضعيف ظاهراً أصبح قادراً على طرد البقايا المتخللة فيه. فأما ذلك الذي ملأ جوفه من اللطاعم الدسمة فقد قتل نفسه وملأ الجسم باروداً وحشاه ناراً فتفتك به بعد حين، وقالوا: إن الامتلاء من الأطعمة الدسمة هذا فله وأمروا

أن يقلل الإنسان منه وأن يكثر من الفواكه والأطعمة الخفيفة والحبوب والخضر . هذا ما جاء في الطب الحديث ، وهو عينه ما يحصل في الأمم التي أنذرها المنذرون وحذرها المحذرون وهي لا تسمع ما يقولون ولا تمي ما يذكرون وسارت على طريقها الرسوم ولم ترجع عن غيها المعلوم ، وهذا قوله تعالى : (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء) من النعم لتكامل الحجة فيكونون قد ذاقوا العسر واليسر والنفع والضمر والخير والنير (حتى إذا فرحوا) أعجبوا (بما أتوا) من النعم كالصحة في الأبدان والسعة في العيشة والأمن في الأوطان (أخذناهم بغتة) كما حصل في أجسام الناس الذين لا يتقون للمآكل الدسمة (فإذا هم مبلسون) آيسون متحسرون (قطع دابر) آخر ، يقال : دبره دبرا ودبوراً إذا تبعه (القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) على قيام الحجة وظهور الحقيقة وذهاب دولة الجاهلين وانتصار الحق على الباطل .

فالحمد حمدان : حمد في أول السورة على نعم النور والأرض والسموات والارتفاع . وحمد هنا على إبادته الجهل وإحلال العلم محله وغلبة الحق على الباطل فهو رب العالمين .

ولما كان العذاب إما من خارج وإما من داخل وقد قدم العذاب الخارج بحسب أو زلزلة أخذ يذكر هنا ما في داخل الأجسام فيقول : لو أن الله سلبكم موهبة السمع والبصر فلا تسمعون ولا تبصرون ، وموهبة العقل فلا تعقلون فهل غير الله يأتيكم بأمثال ما فقدتم ؟ .

ولما كان العذاب ربما يتوهم أنه ينصرف لغير الظالمين قال إن العذاب مها جاء سواء أكان بغتة أو جاء بعد مقدمات فهل يهلك إلا القوم الظالمون ، وهذا قوله تعالى : (قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم) فلا تسمعون ولا تبصرون ولا تعقلون (من إله غير الله يأتيكم به ؟) بما أخذ (انظر كيف نصرته الآيات) كيف نبين لهم العلامات الدالة على توحيد الله بأنواع مختلفة : ثمرة بأحوال الأمم ، ومرة بالخوف ، ومرة بالنظر في أنفسهم فإنهم لو فكروا فيها لعلموا أن السمع والبصر والقلب وما يشعر به كل واحد من نفسه لا يخلقه سوى الله تعالى ، وكذلك إذا وقع في غرق أو مرض عظيم فإنه لا يرى في نفسه مدعوا سوى الله تعالى ، فنحن نصرهم لهم ذلك (ثم هم يصدفون) يعرضون عنها ويطلبون غيرها كآيات التي كانت تنزل على الأنبياء السابقين وفيها هلاك أممهم هلاكا معنويا لأنها لا تورث اليقين ، فأما الأمور العقلية فإنها أنفع للفضية (قل أرايتكم إن أناكم عذاب الله بغتة) من غير مقدمة (أو جهرة) يتقدمه أمانة تؤذن بحولته ، وقيل ليلا أو نهارا (هل يهلك إلا القوم الظالمون) وبعد أن استوفى الكلام على الرسل إليهم أخذ يصف حال المرسلين فقال : (وما رسل المرسلين إلا مبشرين) للمؤمنين بالجنة (ومنذرين) للكافرين بالنار ولم يرسلهم ليقترح عليهم ما ليس لهم أن يصنعوه فيتلهى بهم أناس (فمن آمن وأصبح) ما يجب إصلاحه على حسب الشريعة (فلا خوف عليهم) من العذاب (ولا هم يحزنون) بفوات الثواب (والذين كذبوا بآياتنا يسهم العذاب بما كانوا يفسقون) أي بسبب ما كانوا يكفرون ويخرجون عن الطاعة . ثم أخذ يصف حاله صلى الله عليه وسلم :

﴿ الفصل الثالث في أقواله صلى الله عليه وسلم مع المتواضعين ﴾

يقول صلى الله عليه وسلم : ليس عندي خزائن رزق الله ، ولا علم لي بالغيب ، ولا أنا من جنس اللائكة فأقدر على ما يقدرون عليه ولست أتبع إلا ما يوحى إلي . وهذا الوحي إنما يعرفه المستعدون له للبصرون فأما عمى القلوب فهم لا يفهمونه ، وهذا قوله تعالى (قل لا أقول لكم عندي خزائن الله) فأوسع عليكم وأمنع فقركم وأجعل ما حول مكة جنات بدل هذه الجبال الجرداء (ولا أعلم الغيب) وهو من جملة القول فأخبركم بما مضى وما سيقع في المستقبل كما تقترحون على أن أطلب لكم من الله سعة الرزق في الأول وإخباركم بمصالحكم ومضاركم في المستقبل (ولا أقول لكم إني ملك) حتى لا آكل الطعام ولا أمشي في الأسواق ولا

أنزج النساء كما قلتم « ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ » وحينئذ أقدر على ما لا يقدر عليه غيري من الإخبار بالمستقبل فأنا لست كذلك (إن أتبع إلا ما يوحى إلي) وإنما الأمر يرجع لاستعداد النفوس فمن تكبر وأعجب بنفسه قتله الإعجاب وباء بالنسكال ولم يجب الدعوة وهم الأغنياء والتكبرون (قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تنفكرون) فتهدوا (وأنذر به) أى القرآن (الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم) وهم المؤمنون المفرطون في العمل ؛ وهكذا كل من يجوز الحشر من المؤمنين والكافرين فالإنذار نافع لكل كافر مجوز للحشر ولكل متردد ولكل مؤمن مذب، فأما أولئك الجاحدون المكذبون فكيف ينجع فيهم الإنذار ولا إنذار إلا حيث تجوز النفوس ما أنذرت به، وهى نفوس الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم حال كونهم (ليس لهم من دونه ولي) قريب يفهمهم (ولا شفيع) يعنى يشفع لهم وليست الشفاعة التى تكون من الأنبياء والعلماء والشهداء وأعمها شفاعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم التى بينها أئمة تبيان فى سورة البقرة وحققنا هذا المقام تحقيقاً مستفيضاً هناك - ليست هذه الشفاعة للمؤمن إلا بإذن الله فأصبح الشفعاء شافعين بأمر الله فهى إذن ليست من دون الله فلا إشكال . واعلم أن الشفاعة التى ذكرناها فى البقرة لاتدع شكاً لمرتاب ؛ إنها غير ما يفهمه كثير من الناس بلا تحقيق فهى مذكورة على التعليم وعلى الاقتباس والقعدة فلم يجعل الله الدين إلا للهداية ولا للهداية والشهداء والعلماء إلا لتعليم الناس بالعلم وبالقعدة لأن يشكل الناس عليهم فاقراً هذا للوضع هناك فإن المعنى هناك جمع جميع الأقوال وأصبحت الشفاعة مناسبة للترية العالية الإسلامية فى المستقبل ، والله هو الهادى .

الفصل الرابع فى معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم للفقراء من المؤمنين

وأمر الله له بإكرامهم ، وهو إتمام للفصل الثالث

أمر الله النبى صلى الله عليه وسلم بإنذار غير المتدين فلما فرغ من الكلام عليهم أخذ يذكر حكم للتقنين فالأولون غالباً كانوا من ذوى الجاه والفتى والرزوة الطائلة فهم متكبرون فهم أشبه بذوى الأجسام القوية الممتلئة بالآكل الدسمة كما تقدم ، فهم فى الظاهر أقوىاء وفى الباطن ضعفاء ، فأما الفقراء فإنهم أشبه بالأجسام الضعيفة التى وصفها الأطباء فى العصر الحاضر أنها كثيراً ما تكون أقوى كما حصل للضعفاء الآتى ذكرهم فإنهم لضعفاء نفوسهم وسلامتها من الأعباء الدنيوية والغرور بالمال والولد والصيت والقوة والجاه قبلت نفوسهم الدين فهم عند الناس ضعفاء وعند الله أقوىاء . فبالت شرى أى فرق بين هؤلاء وبين أمثالهم فى المرضى والأصحاء فالشابهة بينهما صحيحة تامه .

والنبوة لانهم بالمظاهر، وإذا كان الطب الذى لا يهيمه إلا الأجسام لم يرعه قوة الأجسام بل قال: القوى عندى قد يكون ضعيفاً ، والضعيف قد يكون قوياً ؛ هكذا هنا :

(١) قال ابن مسعود مرّ ملا من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم وعنده صهيب وعمار وبلال وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين فقالوا: يا محمد رضيت بهؤلاء بدلا من قومك؟ أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا أم نحن نكون تبعاً لهؤلاء ، اطردهم فطك إن طردتهم أن تبعك ، فترلت هذه الآية .

(٢) قال عكرمة : جاء عقبه بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ومطعم بن عدى والحارث بن نوفل فى أشرف بن عبد مناف من أهل الكفر إلى أبى طالب عم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبأ طالب لو أن ابن أخيك محمدا يطرد عنه موالينا وحلفاءنا فإنهم عبيدنا وعسافؤنا كان أعظم فى صدورنا وأطوع له عندنا وأدنى لاتباعنا إياه وتصديقنا له فأتى أبوطالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذى كلوه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلت ذلك حتى ننظر ما الذى يريدون وإلى ماذا يصيرون ؟ فأنزل الله التهى بالآية فاعتذر سيدنا عمر من مقاته .

(٣) وروى نحوه عن سلمان وخباب بن الأرت قد قالوا : إن الأقرع بن حابس التميمى وعبيدة بن حصن

حقراً أن يجلس مع صهيب وبلال وعمار وخباب في نفر من ضفء المؤمنين وطلبوا أن يجلس النبي صلى الله عليه وسلم في صدر المجلس ويعد هؤلاء لرائحتهم فقال : « ما أنا بطارد الدين آمنوا » فطلبوا أن يكون لهم مجلس ليس معهم فيه هؤلاء الفقراء فلما دعا علياً ليكتب زلت الآية ، فألقى صلى الله عليه وسلم الصحيفة من يده ثم دعا هؤلاء الفقراء فأثوه وهو يقول : « سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » فكنا نعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأزل الله : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالتدأة والشئ الآيية) فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا بعد ذلك وندنو منه حتى كانت ركيناً تمس ركبته فإذا بلغ الساعة التي يريد أن يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم .

(٤) هكذا روى عن سعد بن أبي وقاص قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة نفر فطلب المشركون طرد هؤلاء الخ وهذا أخرجه مسلم .

(٥) وقال الكلبي : قال أشراف قريش اجعل لنا يوماً ، ولهم يوماً ؟ فأبى أقالوا : فويل ظهرك إليهم ، وأقبل علينا ، فأبى .

(٦) وقال مجاهد : قالت قريش لولا بلال وابن أم عبد يعني ابن مسعود لباجناك .

هذه الروايات التي ذكرتها مختصرة لأحضر لك أيها الذي ماورد في هذا المقام في كل رواية يقال فزلت هذه الآية وكل هذا محتمل ولكن النزول لا يكون إلا في واحدة فإذا كان سلمان الفارسي وهو بالمدينة يقول : فينا زلت ، وسورة الأنعام مكية فإن النزول إنما يكون بمكة كما في رواية عكرمة وابن مسعود والكلبي فملى هذا لاتنافية بين الروايات إلا في إثبات الإزال وذلك من تصرف الرواة الذين فسروا الآية برواياتهم ، والخطب سهل في ذلك .

والمقصود من الآية مكارم الأخلاق ؛ فإياك أيها الذي أن تضيق وقتك في جمع الروايات والترجيح بينها ، فالمقصود من هذا كله الأخلاق والفضيلة لتتدى بالأنبياء في أخلاقهم ونعدل لإصلاح المجتمع الذي خلقنا فيه ولنكون أئمة تقتدى بمتبوعنا العظيم فلنقرأ الآية ولنفسرها وإياك وضيق الوقت بل سر في الآية وهي (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالتدأة والشئ) الصبح والعصر والمراد الدوام ، حال كونهم (يريدون وجهه) أي مخلصين في الدعاء (ما عليك من حسابهم من شيء . وما من حسابك عليهم من شيء) أي ما عليك حساب رزقهم وإيمانهم فأقدر رزقهم ، وإيمانهم ربما كان أعظم من إيمان من تطردهم بسؤالهم طمعاً في إيمانهم لو آمنوا وليس عليك اعتبار البواطن فإذا كان باطنهم ليس فيه إخلاص لحسابهم لايتعداهم إليك كما أن حسابك لايتعداك إليهم (فتطردهم) فتبعدهم وهذا جواب النبي (فتسكون من الظالمين) .

الكلام على الفريقين الكافرين والمؤمنين

هنا يذكر الله عاقبة في خلقه وأنه يتلهم ويختبرهم . فاعلم أن الله عز وجل جعل التربية عامة في خلقه فكل ما عشنا في حياتنا الدنيا إنما يكون نتيجة لتربيتنا شيئاً أم أينا وليس في الأرض من السكال إلا النادر ، والناس إذا قلّ علمهم ونقص اختبارهم وساءت نفوسهم كانت النعم العامة مصيبة عليهم فيصبحون وهمومهم محصورة في الموازنات والشاهيات والناظرات ، وكلّ يقول في نفسه لم فضل فلان بالعلم أو بالمال أو بالصحة أو بقبول الناس أو بالجمال وما أشبه ذلك . وما من امرئ في الأرض إلا واجد من هو أحسن منه في صفة أو صفات ، فلما أن يصبر ويرجع ويدرس الحياة درساً نافعاً حتى يعقل ، وإنما أن تتحير نفسه وتذل ويصبح حاسداً لنعم يجب أن يتصف بها الناس ليساعده في حياته ، ولكن لباوة أكثر الناس لايبالون بهذه القضايا ويحزنون ولذلك قال الله : (وكذلك) أي مثل ذلك الفتن وهو اختلاف الناس في أحوالهم في الدنيا سعة وضيقاً فجعلنا أمثال عيينة بن حسن الفزاري أغنى من مثل سلمان الفارسي مثلاً (فتنا بعضهم ببعض)

في أحوالهم العقلية وأمورهم النفسية ، فإعلمنا أمثال سلمان الفارسي أرقى عقلا وأجمل نفسا لإيمانه بالله تعالى (ليقولوا) أي الذين ارتفعوا في اللال وانحطوا في العقائد (أهؤلاء) الفقراء والضعفاء (من الله عليهم من بيننا) بالعلم والإيمان والاهتداء وكيف يكون ذلك ولو كان خيرا ماسبقونا إليه فنحن أولى بالعلم وأهدى سبيلا فالقوة سائمة عندنا علما ومالا ، فأجابهم الله قائلا (أليس الله بأعلم بالشاكرين) أي الذين هم مستعدون للعلم والإيمان وليس في هذا العالم عطاء إلا على مقدار الاستعداد ، وهؤلاء لما هذبت نفوسهم وارتاضت بالفقر تارة والضعف وقلة الصيت أخرى خفت حمل الحياة عليهم ولم يؤثر في نفوسهم الشره والطمع والرياسة والحرص والحسد والكبرياء وأمثالها مما يغطي على المتول فتصدأ فيكون الرآن عليها فلا تنى ما يقال لها كبرياء وحسدا . فهؤلاء لما سلخوا من ذلك استعدت نفوسهم لسماع الوحي وأخذت تقرب من الفضائل والسعادة النفسية فكلمها خفت الدين سهل الوفاء واللال والجاء والكبرياء والبطنة كل ذلك مبدد عن العلم والحكمة والله هو الذي جعل السرجات متفاوتة كما تفاوت اللعادن كما في الحديث « الناس معادن كعادن الذهب والفضة يخاركم في الجاهلية خياركم في الإسلام » فمن كان أصدق قولاً وأصح رأياً وأقبل لاحقاً في الجاهلية بما أودع في فطرته فإنه في الإسلام كذلك يقبل الحق ، فالأمر يرجع إلى الفطرة الإنسانية والقابلية النفسية . والنسب تشرق على البر والبحر فينمو بها النبات ولا ينمو بها الحجر ولا التراب ولا الطين ولا اللعادن وليست الشمس بحاجة لأجل أن الأحجار لا تنمو بها بل هي طالعة لتمطي القابلين الحياة بإذن الله . هكذا الأنبياء يعلمون الناس ولا يهجم أن يتعلم إلا الشاكرون ، كما أن المؤلفين يضعون كتبهم والمدرسين يلقون دروسهم ويقصدون بذلك المستعدين فأما غيرهم إذا لم يعبأ بكتبهم ولم يسمع لدروسهم فليس ذلك بضارهم كما لا يضر الشمس أن ضوءها لم يؤثر في الحجارة وإنما يحيا بضوئها النبات كما يحيى القرآن والعلم والتأليف الشاكرين للمستعدين لقبول النعمة ، فالغرم بالثي الحرص عليه هو القابل له والقابل باستعداده هو الشاكر لأن الشكر صرف العبد نعم الله عليه فيها خلقت له وهذا صرف نعمة الله وهو الاستعداد فيها خلقت له وهو الفهم وهكذا متى تعلم أفاد الناس فيصرف العلم في النعمة العامة كما فعلت الشمس في إرسال ضوئها . هذا هو الشكر وهؤلاء هم الشاكرون ولذلك وصى الله عليهم فقال : (وإذا جاءك) يا محمد (الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) ولا تكلف بدم طردم من مجلسك ويقائهم مع الأغنياء بل جهم بالسلام وبشرهم بأنى كتبت على نفسي الرحمة . فأنا أغفر ذنب من أذنب منهم إذا تاب فأنا لست أعاباً إلا بالقلوب ولا أنظر إلا إلى النفوس ، فأما مظاهر الأجسام والنعم الظاهرة من اللال والولد فلم أجعلها مقياساً للسكال ولا دليلاً على الارتقاء والعزة الفصاء وإنما هي آلات تسليح للخير والشر والنفع والضرر فهي إما أن ترفعهم إلى العلياء وإما أن تنزل بهم إلى الهركات ، ويؤخذ بعض هذا من قوله : (أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة) بفتح أن على البدل من الرحمة أو بكسرها على الاستئاف وقوله بجهالة في موضع الحال وذلك كما كان من عمر رضى الله عنه لما اعتذر من مقاتله التي قالها فيها تقبم في هذا للقيام فلما نزلت الآية اعتذر . فصر وغيره إذا عمل سوءاً بجهالة (ثم تاب من بعده وأصلح) بالتدارك والعزم على أن لا يعود (فإنه غفور رحيم) لمن تاب من ذنوبه بفتح أن وهو إما خير لمبتدأ مضمراً أى فأمره غفراه وإما مبتدأ خبره محذوف أى فله غفرانه .

الفصل الخامس في ذكر نتيجة ما تقدم في الفصول السابقة على سبيل الالف والنشر المرتب

ولما أكمل الكلام على الجاحدين والمؤمنين أخذ يلقي درساً عاماً يرجع لأصل اللقال من دعوتهم له إلى الشرك وعبادة غير الله ومن اقترأهم عليه آية من السماء فلما قتل هذا للوضع درساً وتحقيفاً وقال لا أتبع دينكم وأما الآيات المقترحة فإن الله لا يأذن لى فيها ولست ملسكا وليس عندى خزائن الله الخ وأرجع الأمر كله إلى الاستعداد وأن النفوس المستعدة للإيمان تؤمن فأما القلوب المتكبرة فهي لا تؤمن . رجع إلى أصل

الموضوع ليجعل له نتيجة فهو هناك كفضية يراد البرهنة عليها فلما أتى بالبراهين على هذه الأمور أخذ يذكر النتيجة فقال : (وكذلك) مثل ذلك التفصيل الواضح (تفصل الآيات) آيات القرآن في صفة اللطيفين والمجرمين وإزال الآيات وكيف كان المقترح منهم ليس ينفع في الحياة ولا الإيمان ليظهر الحق (ولتستبين سبيل المجرمين) أى ولتبين سبيلهم على قراءة رفع سبيل أو لتستبين أى تتوضح يا محمد سبيلهم على قراءة النصب فتعامل كلا بما يلائمه . واعلم أن أمثال هذه الجملة تقال في للواضع العظيمة من القرآن وهذا الموضوع فيه أسرار تقدم بعضها وسأنى كثير منها فيما سأتى به آخر هذا القصد ، والحق أن هذه السورة منبع حكمة وستراها قريباً . ثم شرع في نفس النتيجة بعد التمهيد لها بالإجمال فقال : (قل إني نهيتم) صرفت بما نصب لى من الأدلة وأزل على من الآيات في أمر التوحيد عن (أن أعبد) أى عن عبادة (الذين يدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم) وهذه الجملة تأكيد لقطع أطعاهم (قد ضللت إذا) أى إن اتبعت أهواءكم فقد ضللت (وما أنا من المهتدين) وما أنا في شئ من الهدى ، وفي هذا تعريض أنهم هم غير مهتدين وإذا كنت لا أتبع أهواءكم فإني أتبع ما يوحى إلى (قل إني على بينة من ربي) على بيان وبصيرة في عبادة ربي (وكذبتم به) الضمير لربى فإنكم أشركتم به غيره وهذا نتيجة لدحض اتباعهم في الشرك بالله كما طلبوا فيما تقدم . ثم أعقبه بالنتيجة الثانية وهى أن لاحق لهم في اقتراح الآيات فقال : (ما عندى ما تستعجلون به) من الآيات المقترحات كما تقدم تقريره (إن الحكم إلا لله) كما تقدم ، فهو الذى جعل العالم درجات وكما رتب الحيوان ورتب الإنسان في الدنيا والأخرى وقتن بعض الناس ببعض ليقول الغنى : كيف أصبح الفقير علماً ويقول الفقير كيف صار هذا الكافر غنياً وهذا يتم ما أريد منهم كما سبق توضيحه (يقص الحق) أى يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به على مقتضى ترتيب الدرجات التى رتبها إذ نظم العالم من أعلاه إلى أسفله ثم من أسفله إلى أعلاه أى من عالم العقل إلى عوالم الضياء والنور وهى الأجسام الأثيرية فالشموس والأرضون فما يحيط بها من الطبقات فالخلوقات التى فوقها مرتبة درجات بعضها فوق بعض ، فالحق يتبع الحق الواضح في هذه الدرجات التى رتبها ونظمها يقال قص آثره إذا تبعه هكذا يتبع الله الحكمة فيما يعمل وليس بضرر الله شيئاً أن الناس يجملونها وإنما ينزلها في القرآن لتتلى حتى إذا جاء جيل رشيد أخذ يقص الحق الذى قصه الله فيقف على شئ منه في الدنيا ثم إذا مات أخذ النور الذى أشرق على النفس في الدنيا وهو العلم والحكمة يسعى بين أيديهم ليهديهم إلى ما هو أنور وأشرق ، هذا هو القصد من قوله بقص الحق أى فليس الله يتبع أهواءكم في إزال الآيات فيخرم النظام المتبع في الطبيعة ويجعل العالم مضطرباً لأن عالم الطبيعة إذا اختلف نظامه لم يبق له وجود واقتراحكم يضاد هذا وأنا لا أتبع إلا الحكمة في عملي فعلى الناس أن ينهجوا نهجى ريقروا نظامى ويدرسوا حكمتى في دواب الأرض ونظامها وأنها أم أمثالكم فادرسوها لتكونوا حقيقة أرقى من فى الأرض ، فأما إذا عشمتم كما تعيش العامة والبهائم فلستم منزلة فى الآخرة على قدر عقولكم ونفوسكم وأنتم محرومون من العالم الأعلى الذى هو فى جوار الملائكة والأرواح العالية وإذا اتبع الله الحكمة فى عمله فهو فاض يفصل بالعدل على مقتضى القوانين التى سنها (وهو خير الفاصلين) القاضين (قل لو أن عندى ما تستعجلون به) من إزال العذاب (لقضى الأمر بينى وبينكم) أى لو ثبت أن فى قدرتى وإمكانى ما تستعجلون به من العذاب لأهلكتم عاجلاً لتضب ربي واقتصاصاً منكم لتكذيبكم (والله أعلم بالظالمين) أى أنه أعلم بما يستحقون من العذاب والوقت الذى يستحقونه فيه .

الفصل السادس فى شرح عام لما تقدم كله

(١) وهو يرجع إلى أنه يعلم الغيب كما تقدم من أنه جعل الحيوانات أمما أمثالنا فهنا يقول هو محيط علماً بالعوالم كلها فى البر والبحر والورق والحبة فى ظلمات الأرض والرطب واليابس كل هذا فى كتاب مبين .

(٢) وإلى أنه يتوفى الناس ليلا ويصههم نهاراً .

(٣) وإلى أنه قاهر فوق العباد بدليل إناهم تارة وإيقاظهم تارة أخرى فهكذا بعد موتهم الذى هو كالنوم يحيين بعد الموت كما أيقظهم بعد النوم .

(٤) وإلى أنه كما قهر أجسامهم فأجسامها للنوم ولليقظة بساط عليهم شدائد البر والبحر فيستغيثون وهو

الذى ينجيهم .

(٥) وإلى أنه كما قهر الأجسام وأرواحها بالنوم واليقظة وبالظلمات فى البر والبحر ساط عليهم صواعق

من السماء أو زلازل من الأرض وقذف فى قلوب بعضهم كراهة بعض إما حسداً وإما تديناً .

(٦) فكل هذه الأمور الحجة للخصلة لفصول السابقة تلخيصاً أكل تدعو النقل الإنسانى أن

يشكر هل هذه الحياة تستحق أن تكون نهاية ؟ كلا بل هى مقدمة وإلا فلماذا هذا الاضطراب والقهر

والزلازل والحروب والنوم واليقظة ، كلا إن هذا أمر له ما بعده فلذلك أتى آخرها بما يفيد أن نوبك يا محمد

كذبوا به وهو الحق فأعرض عنهم إذا خاضوا فى القرآن والوحي بكذبين ولا تجالسهم وكيف تجالس من

اتخذوا دينهم لعباً ولهواً وتركوا العلم والحكمة والجد ولم ينظروا إلى ما يحيط بهم من العوالم والمحن هؤلاء

قوم لا يعقلون فنفسهم تسلّم إلى الهلاك لاشفيع لها ولا تقبل منها فدية وليس لهم إلا شراب من ماء مغلى

فى بطونهم وعذاب أليم فى أجسامهم وقل لهم أندعوا من الله ما لا يفتننا ولا يضرنا ونكون كالذى أضلته

الشياطين فى الأرض متحيراً ومعه رقعة يقولون اتتنا قل لهم لا تفعل ذلك فلا هدى إلا هدى الله ونحن

مأمورون أن نخاص له وأن نقيم الصلاة لأننا سنحشر إليه وهو الذى خلق السموات والأرض الخ . هذا إجمال

هذا الفصل السادس ، وهو (وعنده مفاتيح) جمع مفتاح بكسر الهمزة كالقائمين وهو ما يفتح به المفاتيح

وإن جعل مفاتيح جمع مفتاح للهم فهو الخزن وسواء كان الأول أو الثانى فالمعنى أن الله عنده القيب كله

فمن عنده المفاتيح للشيء فعنده ذلك الشيء . ألا ترى أن من عنده مفاتيح الخزان فإنه يتوصل بها إلى ما فى

تلك الخزان وإن جعل بالمعنى الثانى كان المعنى وعنده خزائن القيب (لا يعلمها إلا هو) قال ابن مسعود أوتى

نبيكم كل شئ إلا مفاتيح القيب ومفاتيح القيب للذكرة أعم مما جاء فى الحديث المروى عن عبد الله بن عمر أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مفاتيح القيب خمس لا يعلمها إلا الله تعالى لا يعلم أحد ما يكون فى غد إلا

الله ، ولا يعلم أحد ما يكون فى الأرحام إلا الله ، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غداً ، ولا تدرى نفس بأى أرض

تموت ، ولا تدرى متى يمى للطير أحد إلا الله ؛ وفى رواية أخرى : لا يعلم أحد ما تفيض الأرحام إلا الله ولا

يعلم ما فى غد إلا الله ولا يعلم متى يأتى للطير أحد إلا الله ولا تدرى نفس بأى أرض تموت إلا الله ولا يعلم متى

الساعة إلا الله » أخرجه البخارى . وأعم أيضاً مما روى عن مقاتل والضحاك أنها خزائن الأرض وعلم نزول

الذئاب ؛ وما قاله عطاء وهو ما غاب من الثواب والمعاقب وما قاله غيرهم كانهضاء الأجل وعلم أحوال العباد

من سعادة وشقاء وخواتيم الأعمال وعلم ما لم يكن جد وعلم خزائن غيب السموات والأرض من الأقدار

والأرزاق وغيرها بل فوق ذلك علم كل ممكن وجد وكل ممكن لم يوجد . مفاتيح القيب شاملة لذلك كله وكل

هذه الأقوال داخلة فيها وإنما يقال فى كل مقام بحسبه على حسب قبول المخاطبين . ثم أخذ يشرح عموم علمه

بالمشاهدات ليعرّف الناس كيف يعلم الغائبات فيقول : إن الغيبات فى علمه منظمة على مقتضى ما ترون فى هذا

العالم المشاهد ولذلك قال (ويعلم ما فى البر والبحر) فليرسها الناس ليظهر لهم كيف كانت خزائن علمه مقفلة

على الناس قبل أن تبرز هذه العجائب فى البر والبحر . إن الذى برز فى البر والبحر من عجائب الخلق وبدائع

الصنعة من أنواع الجباد والنبات والحيوان والإنسان بدلتنا على كيفية ترتيبها فى علم القديم وهو جنى

ما كان معلوماً له ولا يزال معلوماً فسأثر العجائب التى لا تحصى وهى عنده مخبوءة من العوالم التى قدرها وستكون

في المستقبل لها نظام يشبه ما تشاهدون ، متى درستموه ذلكم على حسن الإقتان وأدركتم طرفا من الجمال يسوقكم إلى استكناه الحقائق وفهم الدقائق وعلى مقدارها تقتربون من خالقها مع علمكم أنكم لاتصلون إلى نهاية علمه ومهما درستم وصفت نفوسكم فإنكم لاتدركون منتهاه وهذا ما يديم لكم الشوق والجد لتسيروا في أنوار المعارف مجتدين . إن جميع الأرض إما بحر أو بر فمكانه قال جميع ما في الأرض (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها) أى فهو عالم بالجزئيات ما عظم منها وما دق وما هو أدق من ذلك (ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس) معطوفات على ورقة (إلا في كتاب مبين) مقدارها ووقتها ، والكتاب اللبني إما علم الله أو اللوح المحفوظ . ومعلوم أن جميع الأشياء إما رطبة أو يابسة فعم نارة البر والبحر وأخرى بالرطب واليابس وذكر الدقائق في الورقة والحبة فملخصه أنه يعلم الكل وهو البر والبحر والرطب واليابس والأعم منه هي مفاتيح التيب والجزئيات الدقيقة كالورق والحبة في باطن الأرض وهي الحبة قبل أن تبت فإذا تبت لم تكن حبة وقوله إلا في كتاب مبين يدل من قوله لا يعلمها إلا هو يدل الكل على أن الكتاب علم الله وبدل احتمال على أنه اللوح المحفوظ . إلى هنا انتهى ما في اللقمة الأول من هذا الفصل .

اللقمة الثاني

(وهو الذى يتوفاكم بالليل) ينمكم فيه ولا ريب أن النوم أخو اللوت فكل منهما إزالة للإحساس ولكن الموت أشد استئصالا له فاستميره (ويعلم ما جرحتم بالنهار) كسبتم فيه كما هو العادة أن الليل للنوم والكسب للنهار (ثم ينمكم فيه) يوقظكم وهذا ترشيح للاستراحة التقدمة فإن البعث من ملائمت الشبه به وهو اللوت (ليقتضى أجل مسمى) ليبلغ التيقظ آخر أجله الذى قدر له في الدنيا (ثم إليه مرجعكم) بالموت (ثم ينمكم بما كنتم تعملون) يوم القيامة بالمجازاة ؛ وهذا القول خطاب للكفار . وكل عاقل فهو يقول : أيها الناس إنكم في الليل كالجيف للقاء وفي النهار تكسبون الآثام والليل والنهار يدوران عليكم لا يفتران فأما أتم فإنكم لم تستيقظوا من غفلاتكم بل للؤمن منكم والكافر جميعا لا يفكرون في أكثر الأحوال كيف كان نظام الليل والنهار واليقظة والنوم وما دأبان فأما أتم فساهون لاهون أو ما علمتم أيها الناس أن هذه الحوادث للتكررة التى لا مفر منها تشعر بطريق البرهان الإقناعى والقياس الظاهرى أن هذا النوم وهذه اليقظة قد ضربا مثلا للنوم الأكبر واليقظة الكبرى وإن ذلك إلا تمرين على اللوت والحياة فإن تم فلا تجزعوا من انقطاع الحياة لأنها لا مقطوعة ولا ممنوعة ولكن اجزءوا من غفلاتكم فأنتم لابد مبعوثون بدليل استيقاظكم من نومكم ، وهذا من إحدى الأدلة التى ذكرها سقراط لتلاميذه وأفهمهم أنه برهان إقناعى يورث الظن لا اليقين فقال : ألم تروا أن الفقر يتبعه الغنى والغنى يتبعه الفقر وللرض بعه صحة والصحة بعدها مرض وهذه قاعدة أن الضديتبعه ضده فالأضداد متتاليات والليل يتبعه النهار . هكذا فلتنك الحياة يتبعها اللوت وللوت يتبعه الحياة . هذا كلام سقراط وقد تقدم في سورة البقرة . فانظر كيف ذكر الله النوم واليقظة والليل والنهار ثم أتبعهما بقوله : (ثم إليه مرجعكم) باليت شعري أين جزيرة العرب وأين سقراط وأنا موقن أن للسليين ليس فيهم إلا قليل قد اطلعوا على هذا البرهان من كلام سقراط وفيها هذا البرهان . وكيف يذكر النوم واليقظة وبنو آدم جميعا لا يفكرون فيهما إلا الأطباء لأجل الصحة وللرض وإلا المشاق للاجناع بمن يحبون وإلا للرضى لتألم مما أصابهم وهكذا وأهل الأرض جميعا إلا حكماءم لا يفكرون في اليقظة والنوم من حيث إن الحياة الأخرى تعرف بالقياس لها . فإذا كان الناس اليوم يقرءون اللغات وهذه القصة في كلام سقراط مع تلاميذه ولا يطلع عليها بلغة الإنجليز والفرنسيين وغيرهم إلا قليل من السليين فما بالك بالعرب في جزيرتهم أيام النبوة فلمعرك لم يسمعوا بحديث هذا ولا كانوا يحسنون الكتابة العربية إلا قليلا منهم فكيف باللغات الأخرى وكيف بفلسفتهم ، إن إيراد مثل هذا البرهان في هذه السورة من عجائب

الحكمة التي تأتي في الديانات والناس عنها لاهون ساهون . بمثل هذا تكون العجرات وبمثل هذا تكون
النبات على صدق النبوة وبمثل هذا يجب على المسلمين أن يكونوا أول حكام الأرض وفلاسفتهم .
أيها المسلمون ها نحن أولاء بينا لكم ما يجب عليكم فاقنقوا أثر القرآن وادرسوا هذه الدنيا ونظامها فلا اتباع
لقرآن ما لم تدرسوا البر والبحر والسموات والأرض .

للقام الثالث من هذا الفصل

(وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) ملائكة تحفظ أعمالكم (حتى إذا جاء أحدكم الموت
توفته رسلا) ملك الموت وأعوانه وهم لا يفرطون بالتواني أو التأخير (ثم ردوا إلى الله) إلى حكمه وجزائه
(مولاهم) الذي يتولى أمرهم (الحق) العدل وإذا كان كذلك فهو يحكم بالعدل (ألا له الحكم) وحده
(وهو أسرع الحاسبين) يحاسب الخلائق في مقدار حلب شاة لا يشغله حساب عن حساب .

إن قهر الله لعباده غلبته لم والقهر تجده فوق كل شيء وبهذا القهر ثبتت هذه الكائنات ، فقهر الليل
بالتهار والتهار بالليل والحر بالبرد والبرد بالحر ووضع الحار والبارد والرطب واليابس في النبات والشجر
وكسر هذا هذا لحصل التفاعل كما هو ظاهر في علم الكيمياء فلا مركب من المركبات إلا والقهر هو الذي
حفظ تركيبه وأبقى هيئته وشكله وترى الأجزاء الداخلة في تركيب النبات من الأكسجين والأودروجين
والأوزوت والكربون والأملاح المختلفة وكذلك الحيوان كل هذه العناصر تتفاعل في الأجسام العضوية
فكل لكل قاهر فيزن الجسم ولولا قهرها وتذليلها ما عاش حيوان ولا نمت نبات ولبقيت العناصر ملقاة
كهيئتها يوم خلقها الله بل الماء نفسه لولا القهر الطاري على جزيه الأكسجين والأودروجين ما كان سائلا
جاريا ولا يلبجا ثابتا بل كان جسما غازيا منتشرا في الكون هوائيا لا يصلح للأحياء . فالقهر لهدين المنصرين
أبرز هذا الماء من العدم حول الكرة الأرضية ؛ ومستحيل أن يكون ماء أو نبات أو حيوان إلا بحساب
متقن على مقتضاء يكون دخول هذه الأجزاء في التركيب وعلم الكيمياء الآن أشهر من نار على علم يفهم منه
هذا الحساب بسهولة . إذا فهمت هذا فتصجب كيف يذكر بعدها قوله : (ويرسل عليكم حفظة) فهو يقول
قهرت العناصر فتفاعلت بالحساب . فإذا كان القهر عم كل شيء قالنا منقهورون والعناصر الداخلة في أجسامهم
بحساب لأنها مقهورة أيضاً ومن قهرها أن اللواد الزجاجية الشفافة لا تكون إلا في الأعين بحيث تقابل
الضوء الداخل إليها ولولا هذا القهر ما رأيت شيئا . هكذا فلتنكح أعمالكم فأنا أحفظها في سجل مكنون
عندي فهناك ملائكة يحفظون أعمالكم بل أنتم ترسم في نفوسكم كل ما عملتموه من خير أو شر فإذا صرفه
الحفظة فأنتم كذلك كما في قوله تعالى : (بل الإنسان على نفسه بصيرة) فكل أعماله مرسومة في نفسه وتبرز
يوم القيامة واضحة له فيندم ويحزن على التبعث الذي يشاهده من نفسه (ووجدوا ما عملوا حاضرا) فإذا كان
المرء يشهد على نفسه ويقال له : (كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) فبالأولى تشهد عليه للملائكة فهذا قوله :
(ويرسل عليكم حفظة الخ) وأما قوله : (وهو أسرع الحاسبين) فذلك ظاهر في علم الكيمياء وتراكيبها
وعلم الفلك فإن النبات والحيوان وكذلك حركات الفلك كلها تعرفك كيف كان سريع الحساب . وقد ذكرنا
هذا مفصلا في سورة البقرة وغيرها بأمثلة علمية مفيدة في السموات والأرض .

للقام الرابع في هذا الفصل

إن الناس من عاداتهم جميعا أنهم إذا نزل بهم مكروه من غم أو هم تمنوا زواله واستغاثوا برهيم وفزعوا
ونذروا أنهم إن خرجوا من ذلك للمكروه ألقوا عن الذنوب وأخلصوا في أعمالهم ونفموا الناس . وهذه
قاعدة مطردة في الناس حتى إذا ذهب غمهم وزال بأسهم رجعوا إلى عاداتهم وتسوا عهدهم وساروا على طرقهم
الأولى ، اعتبر ذلك في الذين يدمجون الحجر والليسر وشرب الدخان وسائر الذين يتنادون شهوة من الشهوات

فلهم حينما يضيقون ذرعا من الشهوات يقلعون عنها ثم لا يلبثون أن ينغمسوا فيها انغماسا ، وهكذا الفقراء فإنهم يقولون إن أغنانا الله كنا أرحم بالفقراء ، فإذا صاروا أغنياء كانوا أشد حرسا على المال منهم في أيام فقرهم ؛ وهكذا للرضى يقولون لو كنا أصحاب لعلنا كيت وكيت ثم إذا صحوا رجعوا لماداتهم وتقصوا عهدهم مع ربهم فعب الله عن هذا كله قائلا (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ؟) أى من الأهوال والشدائد للبر عنها بالظلمات على سبيل الاستعارة يقال لليوم الشديد يوم مظلم ، فظلمات البر والبحر جميع المصائب الواقعة على الإنسان (تدعونه تضرعا وخفية) معطين ومسررين (لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين) الذين يعطون الحقوق لأهلها ويحلمون النعم في مواضعها التي خلقت لها ولا يظنون بجاه ولا مال ولا علم ولا قوة : أى يقولون لئن أنجيتنا الخ (قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب) غم سواها (ثم أنتم تشركون) تمودون للشرك ولا توفون بالهدى ، وكان مقتضى النظم أن يقال ثم أنتم لا تشكرون فعب بالشرك عن رأس الخطيئة لأن انحراف القلب عن الحقائق هو الذى يحرف الجسم عن العمل النافع .

لقام الخامس

إن الله عز وجل كثيرا ما يأمر السماء أن تنزل صواعق ويأمر الأرض بالزلزلة ويضع في قلوب الناس الطمع والثروة والحسد والحرم فيكون الحرب لئال وللدين ولاحتلال الأرض كما هو الحاصل في كل زمان ؛ فالزلازل في الأرض كثيرة وأهمها زلزلة بلاد اليابان في هذه السنة وهكذا قد تنزل الصواعق وترى هذه الحرب الكبرى فيها قتل الناس في الشرق والغرب بعضهم بعضا وزالت عروش وقامت أمم وانقسمت دول ووضع العزيز ورفع التذليل ، وهذا قوله (قل هو القادر على أن يعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم) يخلطكم (شيئا) فرقا متحزبين على أهواء شتى فينشب القتال بينكم (ويذيق بعضكم بأس بعض) بأن يقتل بعضكم بعضا روى البخارى عن جابر رضى الله عنه قال « لما نزلت هذه الآية : قل هو القادر على أن يعث عليكم عذابا من فوقكم » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أعوذ بوجهك « أو من تحت أرجلكم » قال أعوذ بوجهك « أو يلبسكم شيئا ويذيق بعضكم بأس بعض » قال هذا أهون أو هذا أيسر . وفى حديث مسلم ما يفيد أنه صلى الله عليه وسلم سأل الله ثلاثة أشياء فأجيب إلى اثنين وهما ألا يهلك أمته بالترق وبالجدب ومنع الثالثة وهى ألا يجعل بأس أمته بينهم شديدا . وفى رواية الترمذى بدل الترق « ألا يسلط عليهم عدوا من غيرهم » . واعلم أن الآية عامة لسائر الناس وهى بيان لما عليه هذه الدنيا والحياة فيها وأنها مضطربة فعلى الناس أن يفكروا فى أمرها قبل الخروج منها . وما هذه الذكريات لإليقظ الناس ويتفكروا ، على أن كل امرئ متى ضعف أو كبر أو دنا أجله فمات فهذا قد قامت قيامته والدنيا فى حقه قد ذهبت فلا سماء ولا أرض لديه مما عندنا ، فهذه المحن للتذكير بما نحن عليه من تقلب الأحوال ، فنحن على كل حال راحلون من الأرض فإن لم يكن بصواعق السماء ولا بزلازل الأرض ولا بالحرب فيها بيننا فإن أجسامنا فيها من التبدل والتغير والتفاعل ما يجعل أعلاها أسفلها فنذهب من الوجود فعلىنا أن نتفكر فى هذه العوالم عسى أن نهتدى للحقائق ، فإن لم يكن موتنا باضطراب الجسم العام وهو العالم كله فليكن ذلك باضطراب أجسامنا لافرق بين الاضطرابين (انظر كيف تصرف الآيات) بالوعود والوعيد (لملهم يفقهون) .

لقام السادس

(وكذب به قومك وهو الحق) الواقع لاحالة (قل لست عليكم بوكيل) بحفيظ وكل إلى أمركم فكيف أمنكم من التكذيب أو أجازيكم (لكل نبأ مستقر) أى لكل خبر يخبر به الله فى القرآن وقت ومكان يقع فيه (وسوف تعلمون) عند وقوعه فى الدنيا والآخرة وهذه السورة نزلت بمكة وقد نتم وعد الله

وفتحت مكة وانتشر الإسلام وظهر صدق القرآن فإنه لما قرأ هذا بمكة لم يكن هناك غزوات ولا فتوح ولا أم دخلت في دين الله أفواجا ، ولم يكن هناك هلاك لقريش كالتى في وقعة بدر وأحد ولا غيرها وإنما حصل هذا كله بعد هذه السورة وأمثالها بزمان طويل وهذا هو الإعجاز الحقيقى (وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا) بالكذب والاستهزاء والطمع فيها (فأعرض عنهم) فلا تجالسهم (حتى يخوضوا في حديث غيره) غير القرآن لأن الآيات منه (وإما ينسبك الشيطان) بأن يشغلك بوسوسته حتى تنسى النهى (فلا تفعد بعد الذكرى) بعد أن تذكره (مع القوم الظالمين) أى معهم ، وضع الظاهر موضع الضمر لأنهم ظلموا حيث استهزؤا بما يجب أن يؤمنوا به (وما على الذين يتقون من حسابهم من شئ) أى ليس على التقيين المجالسين لهم شئ مما يحاسبون عليه (ولكن ذكرى) ولكن عليهم أن يذكرهم ذكرى ليبتعدوا عن الخوض ويظهروا كراهة فعلهم (لعلهم يتقون) يمتنعون ذلك حياء أو كراهة لمساءتهم .

واعلم أن الكفار في زمن النبي صلى الله عليه وسلم كان دينهم عبارة عن لعب ولهو كالتخاذ الأصنام والاستهزاء بالقرآن لأنهم يستهزئون به معتقدين أنهم يحافظون على دينهم الفاسد بل يلعبون ويلهون عند سماع القرآن ، ولكل أمة عيد في دينها شرقا وغربا ، فلك الأعياد اتخذتها الأمم لهوا ولها بخلاف عيد المسلمين فهو صلاة وتكبير وإحسان فذلك قال (وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا) يشمل هؤلاء كلهم (وغرتهم الحياة الدنيا) حتى أنكروا البعث (وذكر به) بالقرآن مخافة (أن تبسل نفس) تسلم إلى الهلاك وترهن وتخبس وتحرم من الثواب (بما كسبت) من الإثم ، وأصل البسل فى اللغة التحريم ، تقول هذا عليك بسل : أى حرام ممنوع ، فالقرآن تذكير للنفوس حتى لا تمنع من الثواب وتخبس فى جهنم (ليس لها من دون الله ولي) أى قريب يلى أمرها (ولا شفيع) يشفع فى الآخرة (وإن تعدل كل عمل) وإن تعد كل فداء ، والمدل القدية لأنها تعادل القدي (لا يؤخذ منها) أى ذلك المدل والقدية (أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا) أسلوا إلى العذاب بسبب سوء أعمالهم وانحراف عقولهم (لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون) فيشربون ماء مغليا فى بطونهم وتحرق أجسامهم فى جهنم بالنار (قل أندعو) أنعبد (من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا) ونرجع إلى الشرك (بعد إذ هدانا الله) إلى الإسلام (كالتى استهوته الشياطين) كالتى ذهبت به مرده الجن إلى الهامه ؛ والاستهواء : استفعال من هوى هوىا إذا ذهب (فى الأرض حيران) متحيرا ضالا عن الطريق (له أصحاب) لهذا السهوى رفق (يدعون إلى الهدى) أى يهدونه إلى الطريق للستيم يقولون له (ائتنا قل إن هدى الله) الهدى هو الإسلام (هو الهدى) وحده وما عداه ضلال (وأمرنا) بذلك (لنسلم لرب العالمين وأن أقيموا الصلاة) أى للإسلام وإقامة الصلاة (وهو الذى إليه تحشرون) يوم القيامة . ثم أفاد أن خلق السموات والأرض إنما يكون بالحكمة وهكذا قول الله الحق حين يقول لشيء كن فيكون ذلك الشيء خلقه الخلق لحكمة وقوله حق يوم يقول لشيء كن فيكون ذلك الشيء وتكون نتيجة ذلك أنه يخلق بالحكمة متى قال قولا يقتضى الإيجاد ثم وتحقق ، وهذا قوله (وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق) والحكمة فكيف يترك هؤلاء الضالين وشأنهم فالحكمة تقتضى أن يهدبوا ويؤدبوا . وكل من فعل بالحكمة من الخلق كالمهندسين والتجارين والصوَّرين يصعب عليهم العمل ولا يطاوعهم للصنوع من حديد أو ذهب أو حجارة فيحطلون ويمجدون ، فأما هو فإن قوله الحق كائن حين يقول لشيء كن فيكون ذلك الشيء بلا نصب ولا تعب ولا آلات هندسية ولا حفر ولا تقييب ولا مدارس وللمعلمين ، وهذا قوله (ويوم يقول كن فيكون قوله الحق) فيوم واقع خبرا لقوله قوله الحق أى وقوله الحق كائن يوم يقول لشيء كن فيكون ذلك الشيء فهو نافذ فى الكائنات بخلاف الناس (وله لللك يوم ينفع فى الصور) جمع صورة والنفخ فيها إحيائها بنفخ الروح فيها ولقد قالوا يا رسول الله كيف تفعل قال قولوا

حسبنا الله ونعم الوكيل ، على الله توكلنا . وأجمع أهل السنة أن المراد بالصور القرن الذي ينفتح فيه إسرائيل
نفتحين نفخة الصعق ونفخة البعث للحساب والقول الأول لأبي عبيدة (عالم التيب والشهادة) يعلم ما طاب
عن عباده وما يشاهدونه فلا ينبغي عن علمه شيء* (وهو الحكيم الخبير) هذه الجملة ملخص الآية ،
فذلك لها . انتهى المقصد الأول من السورة تفسيراً لفظياً .

وفي هذا المقصد لطائف

اللطيفة الأولى : في قوله « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض » وكيف كان أول فكر للؤلف
فيهما إذ قرأ أول كتاب في علم الفلك .

اللطيفة الثانية : سؤال أحد الفلاحين له في نهاية العالم من حيث المكان .

اللطيفة الثالثة : قوله تعالى « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً » وكيف كان العلم الحديث قد بين هذه
بيانا شافيا ، وبه فهمنا معنى « وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

اللطيفة الرابعة : قوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة » وكيف كانت
القيامة رحمة لانتقامها لإحياء . وبيان للعجزة في قوله « وله ما سكن الخ » .

اللطيفة الخامسة : قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » وكيف كان القهر
في علم الكيمياء وغيره مصحوبا بالحكمة .

اللطيفة السادسة : قوله تعالى « وما من دابة في الأرض ولا طائر الخ » وبيان ما كان من اختلاء للؤلف
في المزارع ليلا وتفكره في أمر الحيوان وذكر الترائز الحيوانية العجيبة التي تدل على نوع إدراك الحيوان
ومحادثة للؤلف مع فلاح في أمر الضفادع وإجابة امرأة مع محجز الرجل وتبيان أن هذه للسألة من أمهات
السائل التي عجزت عنها أهل الأديان ، وأن المسلمين قد قصروا تركهم هذه للباحث العالية للرقية للأهم .

اللطيفة السابعة : قوله تعالى « وعندنا مفاتيح الغيب » وبيان أقوال علماء الهند في علم الله للغيب وقول
علماء الأمم في ذلك وعلماء العصر الحاضر ثم إظهار أن ذلك كله تقريب .

اللطيفة الأولى

أقص عليك أيها الدكي نبأ ما كنت أزاوله في أول حياتي وأنا مجاور بالجامع الأزهر

كنت في الجامع الأزهر حوالي أول القرن الرابع عشر الهجري ولم أكن إذ ذاك أعرف شيئا عن
المدارس المصرية التي كانت حافلة بالطلاب ، واللاميد فيها يقرءون علم الفلك والعلوم الرياضية ، ولكن
هو التقليد يعنى وبهم فلم أكن لأعلم أن في الأرض من يقرأ علم الفلك إلا القدماء ، وهذا يدل أن الإنسان
يجب عما حوله وأمامه وخلفه ما دام الأستاذ لا يعلّمه وكأنّ الناس في هذه الأرض مسجونون لافي سجن
جسمي بل سجن عقلي وبينهم حجب قد أبدلت ، فكلم من علم يعرفه صاحبك وأنت تنكره بما أسدل من
الحجب العقلية على الأنفس فتوارت بالحجاب . أقول فكرت ليلة في هذه السماء ونجومها وصار فكرى هائما
واشتعل القلب ناراً وصرت أسأل فلا أجاب حتى إذا قابني أحد العلماء فقال عندي كتاب فأخذته وكان ذلك
وقت العطلة فأخذته وسافرت مع المهاجرين في المراكب التجارية ، والكتاب هو (الجفمين) فقرأته في يومين
وأنا لا أترك ساعة حتى اطلعت على البروج والننازل والأفلاك وسير الشمس مع آي إذ ذاك لم أقرأ علم الهندسة
والحساب فعرفت ذلك معرفة عامة وهو يجيب في البراهين على إقليدس . الكتاب على طريقة القدماء
وهو يصور الأفلاك التسعة وكواكبها وأنها طبقات بعضها فوق بعض الخ . وأنت تعلم أن هذه الطريقة جاء
بعدها غيرها كما قدمناه في هذا التفسير . والقصود آي بعد ما اطلعت على ملخص الكتاب فرحت فرحاً كأنى
أعطيت ملك سليمان وصرت أشد الناس اغتباطاً ، ولما توجه المهاجرون إلى أهلهم بقيت خارج القرية قبيل

التروب وجلست في أرض قرية (بردين) بين الحشائش الخضرة والأشجار النضرة والنبات تهب والأوراق ترف والأرض قد اكتست بجلايب صفراء وهي تسر الناظرين وبجانب نهر فيه لجين وقد وشاه ذهب الأصيل .

والريح تعيث بالنصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء فأخذت أصلى العصر وأنظر للشمس وقد دنت من التروب وأرفع طرفي إلى السماء وأحمد الله أن أراني ما كنت إليه مشتاقا ، وبقيت كذلك فرحا مستبشرا حامدا شاكرًا حتى إذا أقبل الظلام توجهت إلى البلدة فقرر العيون . وكانت العطلة لا تزيد على أسبوعين فصرقتها في نقل هذا الكتاب ، ولكن بعد مدة دخلت مدرسة دار العلوم فتعلمته بعد علم الحساب والجبر والهندسة « وبأى الله إلا أن يتم نوره » .

ولعمري ما أوردت هذه القصة إلا لأبشر المشتاقين للعلم للفرمين بالحكمة أن الله حاضر عندهم سيديهم رشحهم ويعطيهم طلبتهم . ولقد تعلمت بعد بأسى من العلم ولكم كنت في ظلمات الليالي أرقب النجوم ويعجبني جمالها وأسرها لمآها وأقول ماذا وراءها . وما كنت أعلم أن في الأمم من يرقبون وينظرون ، فلما دخلت المدارس وقرأت عن أهل العرب ألفت القرام بالعلم عاما ولا يشق العلم إلا الأكابر .

ففر بلم تعش حيا به أبدا الناس موتى وأهل العلم أحياء
اللطيفة الثانية

كنت مرة في قريتنا ببلاد الشرقية فقال أحد أقاربي : يا ابن أخي انظر هذه الأرض أليس لها آخر عندكم في العلم ؟ قلت بلى . قال ووراء الأرض السماء . قلت نعم . قال وهكذا سماء وراء سماء وماذا بعد السموات ؟ هل يعلم أحد شيئا ؟ وهل أحد في الأزهر عندكم يعرف ذلك ؟ وكان هذا السؤال من أسباب البحث في هذه العلوم .

ولقد كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر كثير الشغف بجمال النجوم ، وكم ليلة بنتها ساهرا أحس في القلب بحزن عميق لجهلى بهذه العوالم وكنت أقول في نفسي ليت شعري ماذا يقول الناس في هذه العوالم . ولقد بت ليلة ونساء قريتنا يندبن على ميت من سراة القرية وهن يرتلن أصواتا منتظمتا ناديات هذا السرى والقوم جالسون في خيمة في الحلاء والنجوم باهرة في السماء تتلألأ فكان لأصواتهن رنة حزن . ودام ذلك الحزن ليالي ذوات عدد فكانت رنة الأصوات تحدث في النفس رقة محزنة ، وكأن الباكيات يندبن لي لأنى جاهل بما في العالم من الجمال .

اللطيفة الثالثة

يقول الله « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » ومعنى هذا أن الملائكة لا يظهرون للناس إلا بصورة بشرية . ولقد ظهر في العلم الحديث وذلك أنهم قد بحثوا في علم الأرواح . كيف تظهر الروح فوجدوا أن أرواح الأموات التي تتجلى للأحياء تستعير من جسم الوسيط (أى الشخص للتوّم بالفتح) اللوادة التي تتشكل بها وجسم الوسيط إذ ذاك ينقص وزنه على مقدار ما أخذ منه . وهذا الأمر حققه العلامة (اكناكوف) والسيو (أرمستر ونج) والملم (أولسكوت) الانكليزي وخلافهم من المهريين الذين أجمعوا على أن جسم الوسيط ينقص وزنه عند انتقال مادته إلى جسم الروح ويقولون إن للأرواح جسا لطيفا يدوم لها أمدا طويلا كأنه غلاف للروح ، وهذا الجسم اللطيف كأنه قالب للجسم المشاهد لنا وفناء الجسد للمشاهد لا يغير هيئة الروح مع غلافها ، وإذا كان ذلك في الأرواح فهو في الملائكة أولى لأن للملائكة أطف من الأرواح . يقول الله لو جعلت الملك مرسلا إليكم لجعلته رجلا فترونه ويرجع اللبس وإذن لا بد من مادة حقيقية لا مجرد وهم أو خيال ، فهنا وافق الكشف الحديث القرآن وهو أن عالم الأرواح لا يشاهد إلا بشكل مادي فما دنا

في الحياة فلا يرى ذلك العالم إلا على أشكال حسية عنصرية . قالت مدام ماريات الانجليزية في تأليف لها في الحادث الروحاني أوقفني العلامة ويليام كروكسي وقت الجلسة لمرابة وزن الآنسة فلورنس كوك بعد أن وضعتها على آلة للوزن اخترعها بنفسه فوجدت ثقل الوسيطة قبل تجلي كافي ١١٢ ليبره ولما تجلت الروح تناقص وزنها إلى ٥٦ ليبره أي زهاء النصف انتهى .

اللطيفة الرابعة

قوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة ليجمعنكم إلى يوم القيامة » هذه الآية تعرف الناس رحمة الله . فهو يقول خلقتم في الأرض مفترقين متحاسدين متعادين وإني وإن كنت شمتكم برحمتي فيها فهناك رحمة أوسع وبحال أوسع وكال أوسع وهو اجتماعكم في عالم السموات وأكتاف العوالم اللطيفة للزدانة بالجمال المفرغة في قالب السكالك وأنتم هناك مجتمعون بعد التفرق ، وأي رحمة أعظم من إطالة الحياة وأنها ليست منتبهة بالموت بل دائمة البقاء . وقوله « وله ما سكن في الليل والنهار الخ » في هذه الآية عجب عجاب من دلائل النبوة وعجائب الحكمة فكيف جمع الله بالتعبير بسكن بين لطائف العوالم التي نشاهدها . فانظر رعاك الله كيف ترى أن الأرض والسكواكب والشموس والأقمار جميعها متحركة لاسكون لها ، فلا أرض ولا شمس ولا قمر بل لادركة في هذا الوجود ساكنة ، فالتميز بالسكون مناقض لحال هذا العالم للشاهد ، ولكن إذا وقفت ليلا تنظر النجوم وتلاحظ الأرض حولك لا تجد حركة ، فالسكواكب والأرض والعوالم حولك تراها ساكنة ثابتة وأنت مطمئن قريح العين بسكون هذه العوالم ، هذه هي الحكمة بل للجزرة . كون متحرك ولكن ساكن مطمئن للنفوس . هذا هو سر قوله « وله ما سكن » كأنه يقول إن الإبداع في العالم كله ساكن مع أنه متحرك انتهى .

اللطيفة الخامسة

قوله تعالى « وهو الفاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » القهر فوق العباد مصحوب بالحكمة والعلم واعتبر ذلك في كل ما هو ضروري للبقاء ونعمة الحياة . وتأمل كيف ترى أن كل شيء من إنسان وحيوان مقهور على الغذاء مفطور على طلبه ، فهناك في داخل جسمه داع حثيث يقهره على طلب الغذاء وألم باطن يسمي بالجوع وداع آخر يسمى بالشبع وهو كراهة الأكل ولولا سائق الجوع وقائد اللذة في الطعام وسائق العطش وقائد اللذة في الشراب وسائق الشبق وقائد اللذة في الوقاع ، ما أكل الناس ولا شربوا ولا ولدوا ، فالأولان بهما بقاء الأشخاص والأخير به بقاء الأنواع في كل حيوان . ومعلوم أن حياة الأشخاص وحياة الأنواع هي القصور الأعظم من هذه الدنيا ومن عليها فكيف كان قهر الحيوان على الحياة . ومن عجب أنه لم يوكل إلينا أمر البقاء ولا التناسل بل قهرنا عليها قهرا ولم نكن فيها إلا مضطرين بخلاف بناء المنازل وزرع الأرض وحرثها والتجارة فإنا نهندس ونحفر الترع وليس هناك إلا قائد وسائق عقليان . فأما حياتنا فقد وجدنا أن نفوسنا فيها لكل شيء سائق بسوطه يقهرنا ويأجئنا أن نأكل ونشرب ونواقع وقائد مشوق لذلك كما يكون للحيوان في الأمكنة الخفية رجل يقود وآخر يسوق حتى يسلم من العطب مبالغة في المحافظة عليه ، وكما يجعل اللذابة سائق بالعسا وآخر معه حشائش تنظرها لتتبعه فيكون ذلك أعون على سرعة سيرها . فهذا هو القهر والتلبية ولكن لامع الظلم ووضع الشيء في غير موضعه بل هو القاهر وهو الحكيم الذي يضع الشيء في موضعه وهو الخبير بما يصنع .

واعتر ذلك في المرأة ترضع ولدها والثاقفة ترضع فصيلها ، والدجاجة والحمامة والنعامة تحضن بيضها فإنهن جميعا مقهورات على ذلك العطف قهرا لا مفر منه ، بل اعتبر ذلك أيضا في المتهرعين والمؤلفين الذين يجدون في أعمالهم وهم لا يعلمون شيئا في مستقبل أمرهم ويجدون ليلا ونهارا وربما ضاعت أموالهم في سبيل

أعمالهم وصحتهم وحياتهم وليس يحى الثمرة إلا أنهم كما لم يحى ثمرة الحياة إلا فضيل الناقة وولد الظبية وكل لكل مسخرون وهم لا يملكون بل العالم هو الحكيم الذى سخر الآباء والأمهات بالعطف والحنان .
ومن عجب أن الناس مسخرون ولا يملكون . أنهم مسخرون ومقهورون وهم لا يشعرون . والناس يضربون التل في الظلم بجامع الرضاى بمصر قديما وهو قريب من قلعة الجبل بمصر ويقولون إن الوالى كان إذا أمر رجلا أن يعمل فيه وأبى أن يطاوعه يقول له الوالى لا باقته ويقهره على العمل فيه حتى سمي المسجد إذ ذاك (بمسجد لا باقته) وقيل فيه :

بنى مسجدا لله من غير حله فسكان بمحمد الله غير موفق

فهذا القهر ضرب به التل ولكن نحن مقهورون في دائم الأوقات قهرا بحكمة وعلم فلم نحس بأننا مقهورون . وترى القهر في السموات فوقنا ، فالسكاكيب تسير بالقهر والشمس والقمر وهذا القهر منظم لأنها أطوع منا فلذلك قال « فأبين أن يحملها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا » فلم يسم هذه الموائم ظالمة لأنها لا مخالفة منها فترى مواعيد السكاكيب لا تتغير فيها وكذا الحيوان لا يقرب أثناء أيام حملها ولا يأكل إلا ما يصلح جسده ، أما الإنسان فكثيرا ما يخطئ في تقدير الأكل والشرب والوقوع فيقع في الضرر فقل مرض الحيوان وكثر مرض الإنسان وخطؤه وذنوبه لاسيا في اللدن والقهرى بجهله وخطئه . فهائنا حمل الإنسان الأمانة والتكليف ووجب عليه أن يتجافى عن أشياء ضارة به كالادخار ، وكلف يبدل للمال والعبادات وما أشبه ذلك وحتم عليه تربية القضاة لتصل قضاياه والأطباء لمداواة مرضاه في اللدن وقل ذلك في الأعراب بالبوادى . فأما الحيوان فهو غير محتاج إلى الأطباء مادام بعيدا عن الناس لصفاء عيشه وحسن تقديره لطعامه ، فتكون الحيوانات الوحشية في الأحراش والغابات والقلوات وطيور السموات سليمة لأنها سائرة في القهر مع حكمة الحكيم كما سارت السكاكيب والشمس والقمر فلم تكلف بما يصلح خلقها كما كلف الإنسان .

ولما جرت السكاكيب والشمس والقمر بحساب أرسلت الحرارة على الأرض فقهرت الثلج فذاب فصار ماء ، واللآء أقرب إلى البساطة لأنه مركب تركيبا قليلا العناصر فأصبح وهو جامد ثلجى منظما نظاما بديعا ، فإن قطرات الماء إذا ضربها البرد في درجة أقل من الصفر وقمت ثلجا في البيوت بالبلاد الشديدة البرد فإذا اجتمع خلق كثير في قاعة صلبة هناك وفتحت نافذة من نوافذ القاعة والبرد شديد جمد البخار في هوائها ووقع ثلجا وثلج مركب من بلورات من الجليد إبرية الشكل يصل بعضها ببعض على أشكال تدهش الناظر وتبهر النواظر وقد رسم بعضها بالأشكال الستة للسدسة في سورة آل عمران . فانظر كيف كانت سدسة الشكل وليس في الأشكال سدس منها يشابه السدس الآخر فتجد وحدة في التسديس واختلافا في الأشكال كما ترى نظام بيوت النحل فهو سدس الشكل ولكن شكله واحد . أما هنا فالسدس واحد والنظم مختلف لأن سدسات النحل في بيوتها من صنع حيوان ضعيف ، أما هنا فإنه صنع الحكيم الخبير فهنا العمل واسع وهناك ضيق ، وهذا هو قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير » .

اعلم أن الاكسوجين لم يوجد حرًا في الطبيعة خالصا من الشوائب وهو داخل في التراب ومع الكربون أى الفحم في حامض الكربونيك وهو داخل في تركيب المواد التي حولت لثقل الصخور والرمل والتراب وكذا للمادن إذا حصل لها الصدا وكل ما صدق وزاد وزنه فزيادة الوزن ناجمة من الاكسوجين الذى هو داخل في الهواء وفي الماء وهو للصلح لثقتنا بالتنفس . فانظر لقهر الله وحكمته انظر كيف ترى أن المعدنين للتشابهين كالرصاص والتصدير إذا تركيبا كان للركب قريبا منهما . أما النضران اللذان لا تشابه بينهما

كلاً كسوجين والأدروجين فإنهما غازان ، فالأول ضروري للاشتعال والثاني قابل للاشتعال ويكون منهما سائل ليس من طبع أحدهما وهو الماء فهو يطفى النار ويمنع الاشتعال . فتمجّب من قهر الله فوق عباده حيث قهر الغازين فصارا سائلا وهذا السائل أطفأ ما أشعلاه ومنع ما قبلاه انتهى .

اللطيفة السادسة

« قوله تعالى « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم » لقد كنت أيام مجاورتي بالجامع الأزهر أرجع إلى بلاد الريف أيام العطلة ، فإذا غابت الشمس وأخذ الليل يرخى سدوله وأقبل الظلام من الشرق خرجت من البيوت طالبا الحقول والحلوات فأجلس حتى لا يهوش على عقلي للهوشون وكنت أنشد قول مجنون ليلي :

وأخرج من بين البيوت لعلى أحدثت عنك النفس بالليل خاليا

وكانت النظرات في تلك الحلوات للنجوم وجمالها والحقول ومملاع النغمات باجتماع الحشرات فيها بتلك الظلمات والنجم مشرق والقلب مستيقظ والنفس نواقة . وتارة أحضر القرون الحالية والأيام للماضية وتمرّ الجيوش نوار الجيوش والملك تلو الملك على الأرض التي أنا عليها من الفراعنة العظام والملك القمام ، وكان يحيل إلى أنها دول يتبعها دول قد مرت في مكاني الذي أنا جالس فيه والزمان مقبل والمواكب حافلة والجنود مصطفة وكل مطيعون ولساداتهم خاضعون . وتارة أنظر في ذلك الحق البعيد الذي الكثير الجدا الواسع الأكناف البعيد الأطراف ، وأرى كيف خيم على الحقول والأحراش والنباض والغابات، وأتأمل كيف جلس قبلي أناس فسمعوا ما سمعت من نغمات الحشرات في دياجي الظلمات وهم لا يعون ما تقول ولا يسمعون إلا أصواتنا . وكم جلس جالس قبلي وهو دهش من حيث يرى ولا يرى ويمجّب قائلا كيف تجلي الليل بالأنوار والنغمات وقد هبت النسيمات وتمايلت الأغصان وأخذ السكر يجرى مجراه وهو لا يعلم إلا قليلا والنظام الليلي في أصواته وهوائه وحقوله واحد لا يتغير ؛ فالهواء يهبّ والريح تلعب بالنصون والحشرات اللغنيات الفرحت بالحصب والريف لم تنقص نغمتها ولم تتغير بهجتها ، فمن مسمها منذ ألف سنة ومسمها الآن يظن أنها هي بينها وذلك لشدة النظام وحسن الاتقان كما تقوم الدولة أتر الدولة والولد أتر أبيه بعد موته والآخر يتبع الأول والتأخر يتبع للتقدم .

حكاية الإنسان والحيوان

بينما أنا جالس ذات ليلة إذ مر ذئب أو ثعلب سريعا فقلت في نفسي يا لعجب ألهذا عقل وكيف رأينا الدئاب والثعالب وسائر الحيوانات البرية لديها ذكاء كأنه عقل ، وكيف كان علماءنا لا يقولون لنا إلا أن هذه غريزة فأخذت أشك فيما قرأت وقلت في نفسي : يقولون الإنسان حيوان ناطق فالتطرق الفكري خاص بالإنسان ومع ذلك نرى هذه الحيوانات عندها من الذكاء ما لا ينكر ، ومن ذلك الوقت أخذت أفكر في أنواع الحيوان وواليت الدرس والتنقيب ورأيت بعض رجال الدين يقولون : إن الحيوان لا يحشر لأنه ليس كالإنسان وإن حشر لا يدوم وهكذا فكانت هذه الأقوال عندي مربكة للفهم مزججة للنفس ، فهل كانت هذه الحيوانات كلها مخلوقة لا لغاية ثم نظرت فوجدت الأيام الحالية قد مرقت كثير من التلمين منها ، إن الديانات بشكوك ومنها هذه للسألة ، قالوا كيف يكون الإنسان والحيوان مخلوقين معا في درجات الرقي منتظمة من أدنى حيوان إلى أعلى إنسان ثم لا يحظى بارتقاء بعد اللوت إلا الإنسان ولم هذا الاختصاص وكيف كان أدنى الإنسان يحيا بعد اللوت وهو قريب من الحيوان والحيوان لا يحيا وهكذا . والقرآن يقول « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء » ثم إلى ربهم يحشرون » فالآية صريحة واضحة والناس لا يبالون بالدين ولا بالعقل وإنما هم التلمين في ديار الإسلام محصور

في أمرين : العلوم الفقهية للمسائل القضائية والكلمات الفلسفية في الكتب الوراثة ، فأما غير ذلك فالعقول في غطاء والناس نيام ، وهذا القرآن جاء ليفك العقول من عقلها وينشط الناس إلى العمل والفكر فمكس الناس الأمر وأرخوا على العقول حجبها وجسوا النفوس في أقفاصها ومات قوم شهداء الجهالة قتل التقليد صرعى الأوهام ، فلم ينبغ نابتون إلا فبا سطره المؤلفون من للعقدات وأورثه للتقدمون من المجدالات مع أن العقول مصنوعة صنما إبداعيا مغطورة فطرة قوية فكان حقها أن يطلق سراحها وأن لا يكبح جماحها وأن يطلق لها العنان فتنتظر في كل شيء نظرا برضاها وتسرّح الطرق فيما رقبها ، فبا أسفا على أمم درست وعقول غفلت ونفوس هلكت وهم مسجونون اللهم إلا قليلا ممن شرفهم الله وأنهم عليهم برضا فكتموا العلم خوفا من السيف والسنان وجور السلطان وتقول الجهلة الطغام فأولئك هم السادة الأخيار . وكان حق للسلمين أن يكونوا أول العالمين مفكرين ناظرين لامتقدين جامدين .

القرآن هنا صريح أن الحيوان له حياة تماثل حياتنا فله مستمر ومستودع وله علم بحياته وهكذا سبحانه كما نحسر . هذا هو الحق الصراح ، فأما مستقبله فجهول كاستقبانا لأننا لانعرف ماذا يكون إلا بما سمنا أو فكرنا .

الهدأة تخاطبني قائلة : قد سخر لي ما في السموات وما في الأرض

ورأى المرحوم أستاذي الشيخ حسن الطويل

بيننا أنا يوما واقف بقريتنا أمام منزلنا إذ لمحت هدأة ترفرف بجناحها كي تبحث بحدّة نظرها عن حيوان حتى صغير تحتطفه أو ميت تلتقطه ثقبلي وهي في الجوّ ترفرف بأنها تقول لي : لقد سخرت لي الممالك والفلوك والزراع والزررع والحيوان والنبات وعالم الأفلاك . ألم يكن عيشي على فراخ دجاجكم التي ربيت في أحضانكم ونحت إشرافكم واقنات من حبيكم الذي زرعتموه ومن حقلكم الذي رويتموه ومن أنهاركم الجارية ويندكم العظيم . وهل يتم هذا النظام أو يقوم هذا العمل إلا بمهندسين ومنظمين ومدارس ومدرسين وحاكمين وحكوميين وقضاة ومتقاضين وجيوش وعليها مهيمنون . أتم الربون للدجاج وأنا الحافظة لها ولا يتم لكم شيء من هذا إلا بنظام تام وحكومة صادقة ولا يتم شيء على أرضكم إلا بحرارة جوية وإشراقات شمسية ودوران الكواكب الدرية . فالعالم مسخر لي فأين دعواك إذ تقول سخرت لي الأفلاك وأنا شريكك في دعواك . فأتم الزارعون للربون للحيوان وأنا قاطنة الثمرات ، فإذا ادّعت أنك سخرت لك الأرضون والسموات فهذه دعوى الكاذبين ، فلئن سخر لك الحيوان فقد سخرت أنت وهو لي كلّ لكل مسخر فما هذا الضلال والإفك والبهتان . ومن عجب أن الهدأة ظلت ترفرف بجناحها حتى انتهى الفكر إلى هذا كأنها كانت تعطيني هذا الدرس ثم طارت إلى حيث تريد ، ورجعت حائرا في أمرى حتى إذا رجنا إلى للدرسة حدثت أستاذي الشيخ حسن الطويل وكان طويل الباع رحمه الله في هذه الآراء . فقال نعم هذا حق ولكن الإنسان أوسع مجالا وأكثر نوالا وأبعد إرقالا وأغزر أملا وأعز نفرا لأنه لانهاية لكلماته ولا فاية لسعادته . وهذه أقوال إقناعية على الطريقة المعروفة والآراء للوروة تمنع السامع إقناعا وقتيا وترضيه مليا . ثم يرجع له الفكر كرتين ويؤت طالب اليقين ولا يقين إلا قوله تعالى « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحه إلا أمم أمثالكم » يا حسرة على الأمة التي داسها الفرنجة وهم تأمنون وسخر منها الغرب وهم ساهون لاهون ماتوا وهم أحياء وكانوا أعزاء ، حقوا وكانوا سمداء . ذلك للبلاء النازل على العقول والسكل المنهم على النفوس والنوم الذي أحاط بالناس . فلا الحوادث بصرتهم ولا الكتاب أيقظهم ولا العقل بصرهم . فلتكن الأجيال المقبلة والعقول الجديدة بدنا أصنى وأنقى وأرقى وليرجوا مجددا ضاع وعزا ذهب وليوقدوا نارنا خبت وليكونوا خير أمة أخرجت للناس .

نظري في الحقول ومحادثة مع فلاح وإجابة امرأة عنه

كنت يوما ماراً في حقول قريتنا وما كنت في الحقول إلا دارساً ولا أماً فيها إلا قارئاً للقراءة إنما تكون في الحقول وفي نظر النجوم ، فأما القراءة اللفظية لما أبدها عن الأمور العقلية وكان الحاطر في أول أمرى هكذا « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ثم كل من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون » وتارة يكون هذا الحاطر « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير » وتارة « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفتك التي تجري في البحر » الخ الآية في سورة البقرة ، وكنت أجد ذلك ملازماً لفكرى لا يفارق عقلي .

ولقد حدثت أحد الفلاحين مرة عن العمل الذي يشتره الناس من الجبال وأنه يكون هناك بكثرة وقد يجمد في الجبل وفي حلاوته ميل إلى طعم الملح لأنها تشرب من الماء العين . وكان الحديث ليلاً والهواء صافياً فكنت أشعر بميل شديد وشوق إلى معرفة عجائب النحل ، وكان الحديث والسمعون يتذكرون القطع العسيلة التي يحملها المسافرين من ذلك العمل . فأما أنا فقد كنت مشغول الفؤاد مهتم القلب بعجائب النحل وفوائده .

محادثة

ومرة مررت بجانب نهر فيه ماء قليل من بقايا ماء النيل وفيه حيوانات صغيرة تسمى (أبا ذنية) ترى ذاهبة جائية في السقنقات ، وكنت في تلك السنة قد قرأت في مدرسة دار العلوم أن هذه الحيوانات أصل الضفادع ولم أكن لأعلم ذلك إلا من المدرسة ، فقلت لرجل من الفلاحين يا إبراهيم أتدرى ما هذا ؟ فقال ومن أين أعرف ، وكانت امرأة تحمل جرّة على رأسها قد ملأتها ماء قد سمعت هذا القول فقالت أيها الرجل كيف تجهل هذا وأنت شائب . ألم تعلم بأن هذا هو أصل الضفادع قد ولدتهن الضفدعة ؟ فصجبت من قولها غاية العجب وقلت : إن في القرى والفلاحين من هم أهل للحكمة والعلم رجلاً ونساء ، ولكن فلة النعام منعت الناس من السعادة والارتقاء . وهالك عجائب مما جاء في العلوم في الحيوان .

عجائب الحيوان

العجبية الأولى : قد شاهد العلماء قروداً في الممالك المتحدة تبنى قنطرة من أغرب ما سمع البشر ، وذلك أنها إذا أرادت عبور نهر انتخبت أفراداً منها وأمسك واحد بنصن الشجرة على شاطئ النهر وأمسك بيديه ورجليه ثم أمسك آخر فآخر حتى تنتظم سلسلة من القروود ثم يصنع أسفلهن اهتزازاً في السلسلة فلا تزال في ارتفاع وانخفاض حتى يمسك القرد الذي في طرف السلسلة شجرة على الشاطئ الآخر وتتكون قنطرة محدة من القروود ثم يمر عليها مئات منهن عبوراً اعتيادياً بلا خوف حتى إن الصغار ليتغامزن فوق تلك القنطرة ، فإذا انتظم عقد جميعها في الشاطئ ونجوا جميعاً سالمين أزل الذي أمسك بالشجرة في الشاطئ الأول يديه ، ومعلوم أن الآخر مثبت بيديه في الشاطئ الثاني فتنتقل السلسلة للشاطئ الآخر ويصبح أول القردة إمساكاً بالشاطئ الأول أدناها في الشاطئ الثاني وقد خرج بالسلامة فيه ثم تتبعه بقية السلسلة مع باقي القروود . وهذا قوله تعالى « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين » وقوله هنا « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ » انتهى من كتابي جمال العالم تقرأ عن الكتب الإفرنجية .

الكلب وفوائده وذكاؤه

العجبية الثانية : حكى أن امرأة كانت في سفينة بحارية معها ظر تحمل ولدها فوقفت الظر في نافذة مشرفة على البحر وأطلت على الماء والصبي في يدها فمد رأسه فسقط في البحر فصرخت الظر واهتاج

أهل السفينة، وأما أمه فأغشى عليها وكان في أخريات الناس شاب في يده كتاب وبجانبه كلب من بلاد الأرض الجديدة فأسرع إلى الظفر وقال لها : هل معك شيء من أثر الصبي ؟ فقالت لا إلا خرقة من ثيابه بقيت في يدي حين سقط في البحر فأخذها منها وأشار إلى الكلب بها متجها إلى الموضع الذي سقط فيه الصبي فما كان إلا كلع البصر حتى وثب الكلب إلى تلك النقطة وغاب تحت الماء وكان هناك سفن شرعية تحاول أن تقف للصبي على أثر فلم يمكنها ، فبينما هم كذلك والناس منتظرون إذا بالكلب قد أقبل يضارب الأمواج وفي فمه شيء ثقيل عليه ، فأسرعوا إليه من كل صوب حتى انتشلوه والصبي في فمه حيا سليما ، فلما رأت أمه ذلك خرت مغشياً عليها ثم دنت من الكلب وأخذت تمسحه وتقبله وتمشط رأسه ثم قالت لئلا تسك : إنني غنية ذات ثروة واسعة فهل تعطيه لي بكل ما تطلب من ثروتي ولو كانت كلها ؟ فبسم ضاحكا وقال : الحمد لله إذ أدى لك الكلب هذه الخدمة ولكن لا أعيه ولو بعلم الأرض ذهابا ، فرؤى الكلب إذ ذاك يتمسح برجلي سيده كأنه فهم ما يقولان ، انتهى من كتابي جمال العالم .

العجيبية الثالثة : كلب البحر

من كتابي جمال العالم أيضا هذا الحيوان في جهات كندا وفي أمريكا الشمالية ، وهو يكون جماعات تتحد على الأعمال وتفعل فعل الأمم الراقية في الصناعات وفنون الممارات ، ولها مغارات وسرايب تحت الأرض لتسكن فيها زمن الحر ولا يزال فيها حتى إذا أقبل الشتاء وهم بجبله ورجله عرفت تلك الحيوانات بواديه فاجتمعن زرافات وجماعات ما بين اللاتين وثلاث لثاثة فأخذن يردن الأماكن وينظرن أصلحها وأحسنها على شريطة أن يكون على شاطئ نهر جار لبينين مسكنهن فيه ليكون الماء حصنا حصينا من هجمات الأعداء كما سترى ومخزنا نفيسا يقبها من الثلج القارص القابض ، وعلى ذلك تأتي هذه الكلاب ليلا إلى الأشجار للقطعة على ضفتي النهر وتقطع غصونها وكتلتها الكبيرة حتى تسقط على سطح الماء الجاري فيأخذها في تياره ويسير بها حتى إذا حازت المكان للتخب للبناء أوقف أولئك الكلاب سير الأخشاب ثم أخذن يكسرنها قطعا قطعا حسبما يقتضيه بناء السد ثم أخذن يخرسنها في أسفل النهر بهيئة تكون سدا منتظما بين الشاطئين معارضا جري الماء كسد العرم لبلقيس وخزان أسوان وملآن ما بين تلك الأخشاب بالأحجار والطين ، ولورأيت ثم رأيتهن غاديات رائحات والطين والأحجار بين أفواههن وأيديهن وبعد الفراغ من ذلك يجتمعن كل عشرة أو اثني عشرة منهن وبينين بيتا ذا غرفتين ، عليا للسكنى وسفلى لحزن الأقوات من قشور خشب الأشجار كالحور ويتكوّن من تلك البيوت هيئة قرية . ومن العجيب أن الأبواب لا تفتح إلا تحت الماء بنحو ثلاثة أقدام أو أربعة حتى لا يصل إليها أحد بسوء وليس لها أبواب سواها ، فإذا اشتهدت الأكل وهي في الرف العليا تدلت إلى السفلى للملوءة بالماء الداخل من الباب فتناولت تلك القشور الآمنة من الثلج التراكم على سطح البسيطة والماء ، إذ عادة الماء من أسفل أن يوقى من الثلج ، ولما علم أهل تلك الجهات ذلك وأن هذا الحيوان حريص على سده أخذوا يختارون على صيده بفتح سده فتخرج تلك الحيوانات سراعا سراعا إلى سده في أسرع من لمح البصر فيصطاد منها الصيادون أثناء محاولة إصلاح السد ، فتأمل كيف اتخذ هذا الحيوان على السلحة وكيف عرف ما درسه الإنسان في قضايا إرشميدس التي بها تجرى السفن في البحار ، وكيف أخذ على الأعمال وقيل فعل أعظم الأمم للتمدنية ، وكيف يحجز أهل الشرق عن تقليده في اتخاذه وكيف وضعت له أسنان حادة بها يقطع تلك الأشجار أغتته عن الآلات والأدوات ، وكيف عرف ذلك كله بلا تعلم ولا تعليم (فسبحان الخلاق العظيم) .

العجيبية الرابعة : الكلب الذي هو نوع يسمى الدرواس

روى للعلم بال في المجلة العلمية حادثا شهده عيانا قال : سار كلب من نوع الدرواس على ماء محمد وإذا

بالجليد انقضت تحته وتكسر وكاد يفرق فلول التشبث بطرف غصن مدلى لينجو به من الفرق فلم يتوصل إليه وإذا بكلب آخر من نوع (الترنوف) كان مراقبا للحادثة فأسرع إلى نجاته وسار على الجليد بما أمكن من التحفظ إلى أن دنا من الثقب الذى سقط فيه الدرواس وعض على طرف النصن وأذناه من رقيقه فتشبت هذا به ونجا من الفرق . قال للملم بال: إن التعقل والحزم والشهامة التى بدت من هذا الكلب فى عمل لم يكن له فيه محرك آخر إلا وجدانه الداخلى تدل على وجود عقل فيه قريب من العقل البشرى . انتهى .

العجيبه الخامسة : القرد وتمقله

إن أغرب رواية دلت على تعقل الحيوان ذكرها للملم (جراتبوله) فى تأليف له قال حدثنى (نور بيانكا) أنه كان جالسا مع أسرته فى غرفة والخدام مشغول بشئ كية من (السكتنا) أى (أبى فروة) وكان هناك قرد داجن ينظر إليها بنهم ، وإذ خرج الخدام لقضاء حاجة نظر القرد إلى ما حوله ، وإذ لم يجد شيئا يستعين به على اشتغال السكتنا من وسط الرماد وثب على قط راقد هناك وأمسك يده بعنف وجعل يحرق بها النار ويخرج السكتنا ، وإذ سمع أهل البيت ولولة المرء أسرعوا إلى للطبخ فوجدوا القط يبيع ألما والقرد يأكل ما غنم اه .

العجيبه السادسة

إن القردة المعروفة (بالاورنجوتان) و (الشانبايزاه) تكتشف من نفسها بسهولة كيفية فتح الأقفال وقد ذكروا عن القرد للدعو (ما فوكا) فى حديقة الحيوانات فى مدينة (درسد) أنه سرق صرة مفتاح قفصه ليتيسر له الخروج منه متى شاء . وكثير من الكلاب والقطط والواعز تتعلم من نفسها فتح الأبواب . وقد روى ذلك أيضا عن البقر والحيل والحمر والبغال . أخبر للملم (هرمان فول) أنه فى إحدى زرائب مدينة (لانسى) اضطر صاحب الزريبة بعد بناء الحوض بمدة إلى أن يستبدل لولب الماء البسيط بلولب آخر ذى مفتاح لأن البقر كانت تعلمت من نفسها فتحه ، ومثل ذلك حدث فى مدينة أخرى بناها (اترى بوريت) فى مدينة (تورينو) ولقد نرى القرد تتسمن ظهور الكلاب تسير بها محمولة أسوة بالحيالة . اه من الكتاب المذكور .

العجيبه السابعة : القرد والقبيل والكلب يخفن من الاستهزاء

قال فى الكتاب المذكور: إن القرد والقبيل والكلب يخشون المزدوج ويحترقون على من يمكر بهم . روى للملم (رومانس) عن كلب له طفق يوما يقتنص ذبابة من فوق زجاج شبك ، ولما رآه للسيو (رومانس) يخطئ الغرض أخذ يهزأ به ويضحك بهتمة لكل إخفاق يصيبه ، فحنق الكلب غيظا وسوّلت له نفسه أن يتظاهر بقتنص ذبابة وسحقها على الأرض فلحظ صاحبه الحيلة وأبانها له فتضاعف عندها خجل الكلب وهرول مستترا تحت الأثاث .

العجيبه الثامنة : القرد والقردة وشققتهما

روى العلامة (لوره) عن قرد ماتت أثناء فأخذ يتنى بجروها الرضيع أشد من اعتناء الأم بواحدتها فكان يعمل كل ليلة على ذراعيه ويتمشى به لينيمه وفى النهار لا ينفل عنه لحظة واحدة . وذكر أيضا عن قردة نادرة الإشفاق كانت لا تقتصر على تربية صغار القردة التى من غير نوعها ، بل كانت تسرق أيضا أجراء الكلاب جروا جروا وهكذا صغار القطط لترضعها وتربها ، فاتفق مرة أن قطيطا صغيرا خشمها فاعتراها مزيد الاندهاش وشرعت تبحث فى يديه إلى أن أحست بأظافره فقرضتها بأسنانها بكل لطف اه .

العجيبه التاسعة : حكاية عن الذئب من كتابى (جمال العالم) تعلقا عن الكتب الافرنجية

حكى أن رجلا رأى ذئبين كأنهما يتشاوران فى أمر ثم أسرع أحدهما إلى حفرة فى عرض الوادى وأسرع

الآخر إلى الناحية الأخرى منه فيها قطع من الظباء برعين فأزجمهن حتى جرين إلى تلك الحفرة التي فيها صاحبه فانقض ذلك المحتفى على واحدة فأخذها ، وأنى الثاني معه قتلها وأكلها فتأمل قوله تعالى « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » اه .

المعجبة الماشرة : الثعلب وتعقله والدب وتحيله

روى للعلم (رومانوس) في أحد أعداد المجلة العلمية سنة ١٨٧٩ أن ثعلبا غنم بطة داخل حقل ، ولما تعذر عليه بعد أن حاول ثلاثا أن يقفز من فوق الحائط وفريسته في لمة مكث قليلا يتأمل في الحاجز القائم أمامه ثم وثب بهد قليل وأخذ البطة برأسها وارتمع بيديه ما أمكنه على الحائط وأنشبت منتقار البطة في شق هناك ثم وثب على رأس الحائط وتدلّى إلى أن بلغ فريسته فأخذها ورمى بها إلى الناحية الأخرى وبعدها انحدر من مكانه وأخذها بغمه ومضى . وأخبر المعلم (فلوران) أنه لما تكاثرت الديبة في حديقة النباتات عزم أولياء الأمر على قتل اثنين منها فألقوا إليهما أقراصا مشربة بمخاض البروسيك وهو سم زعاف فأكادا يشبان الأقراص حتى أجفلا وهربا ، ولكن الثرة تغلب عليهما فأخذها بأيديهما وجعلا ينفضان منها السم في حوض الماء وأكلاها بعد تطاير السم منها ، فنجبوا لكأتهما وقطانتها وكفوا عن قتلها .

المعجبة الحادية عشرة منه أيضا : شفقة الغربان والحيل

أخبر للسيو بليت عن غربان رآها تطعم ثلاثا من رفقائها فاقدى البصر . وهكذا للسيو بورنون شهد ببناء له كانت تبنى بطائر تلت رجلاه من غير جنبها فتتظف ريشه وتطعمه وتدفع عنه صدمات الجوارح وأغرب رواية من هذا القبيل ذكرها للسيو (بوسايل) قائد فرقة (البوفيليه) قال في سنة ١٧٥٧ طعن في السن جواد أصيل من حصن فرقنا وتلفت أسنانه إلى حد أنه لم يعد في وسعه مضغ علفه فجعل الحصانان اللذان كانا يراقبانه في الجرى يمنة ويسرة يأخذان كل لبة علفه وبعد أن يمضاه جيدا يلقياه في العلف ليأكله واستقامت الحال هكذا إلى أن فطس الجواد بعد شهرين ، وشهد هذا الحادث كثير من القواد والجنود .

المعجبة الثانية عشرة : طائر هندي يبنى بزخرف قصورا تسرى الناظرين

إن الطائر الهندي للمروف (بطير الفردوس) لا يكتفي ببناء عش بسيط بل يشيد أيضا أوكارا للزهة في غاية الإتقان والجمال والإبداع ، وتكون هذه المساكن أحيانا فسحة الأرجاء وداخلها أروقة مسقوفة وأكثرها موشاة بالصدف والحجارة اللامعة وريش البغاء وقطع النسيج وكل ما يصلح للزخرف والتزيق وأما النوع للمروف (بالامبليورنيس) فيحوظ مسكنه بحديقة صناعية يصوغها من تراب مكسوق بالحضر ويزينها بثمار وزهور يحددها كل يوم . وكل الطيور من بنايات هندسية ضربنا عنها صفحا اجتزاء بالقليل ، وعسى أن ترى في ثنايا التفسير عجائب من هذا النوع في غير هذا المقام .

المعجبة الثالثة عشرة : هل للحيوان لغات ؟

قال في الكتاب المذكور : إن النطق اللفظي خص به الإنسان وحده ، ولكن الحيوانات التي من نوع تستطيع أن تظهر مقاصدها كل منها لأخيه . فالكلب الداجن يملك من النطق ما لم ينله أسلافه في وحشيتها ، فله عواء مخصوص دال على الغضب وآخر على الجزع وآخر على اليأس وآخر على الفرح وآخر على الالتباس ، هكذا الدلالة بالإشارة يبلغ أمدته في الحيوانات التي تعيش بالألفة ، كالخيل الوحشية والفيلة وكلاب الماء والنمل والنحل الخ ، وأسراب الحطاطيف تتفاوض وتتشاور قبل الرحيل إلى أقطار بعيدة . وبالإجمال إن أفكار البهائم بسيطة محدودة ومقصورة على حاجاتها الطبيعية ، فلا تحتاج للتعبير عنها إلا إلى حركات وأصوات بسيطة اه .

المجبية الرابعة عشرة : الزنبور وذكاؤه

روى العلامة (داروين) أن زنبورا حمل ذبابة وطاز بها ، ولما ارتبك من مصادمات الرياح في طيرانه لتلاعها بجناحي الذبابة هبط بها إلى الأرض وجزّ جناحيها وعاد فطار بها .

المجبية الخامسة عشرة : التنويم للمغناطيسى وإثبات وجود الأرواح الحيوانية بعد موتها

قال في الكتاب المذكور : روى داسيه ما تعريه ، كنت مقباً بمدينة (نوردو) في أواخر سنة ١٨٦٩ إذا بصديق لى في إحدى الليالي دعانى إلى حضور جلسة مغناطيسية فليت الدعوة ولم أشهد في هذا الاجتماع شيئاً جديداً يختلف عما يجرى في اجتماعات كهذه ، إنما حصل في هذه الجلسة أمر ذو بال أذهلنى ، وهو أن أحد الحضور رأى في الأرض رتيلاء (عنكبوت) فداسها برجله وإذا بالنائمة هتفت قائلة : أرى روح رتيلاء يرتفع من الأرض فسألته ما شكل هذه الروح؟ قالت شكل الرتيلاء بينها . وذكر داسيه في هذا الصدد شواهد أخرى عديدة تؤيد وجود الشكل السيل في الحيوان حتى إنه يمكن انطلاقه من الجسد في مدة الحياة وأخبرت المجلة الرومانية الافرنسية في أحد أعدادها سنة ١٨٩٤ عن وسيطة ناظرة رأت حول الكونت دى ليفوف شبح كلب له مات منذ بضع سنين وكان الشبح على قول الوسيطة يقفز فرحاً وبهز ذنبه كالذى عند تذكر صاحبه له اه .

يقول مؤلف هذا الكتاب : إن هذه الحكايات كلها وأمثالها هي تفسير قوله تعالى « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم الخ » وبهذا وأمثاله يظهر سر القرآن ومجابهة وحكمه البليغة البديعة اه .

ثم إنه أثناء طبع هذا الكتاب جاء في إحدى جرائدنا المصرية في تاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ما يأتى فأجبت أن أثبتة هنا تفسيراً للاية تحت هذا العنوان .

بحث تاريخى طبيعى في عجائب ذكاء الجرذان ونظامها

اطلعنا في إحدى الصحف الانجليزية على نبذة غريبة في بابها عما أسفرت عنه أبحاث تاريخية طبيعية قام بها بعض علماء التاريخ الطبيعى فيما يختص بشؤون الجرذان ، وهاك ملخص هذه النبذة .

يرى الكثيرون من الأوروبيين والأمريكيين في هذه الأيام أن الجرذان السمر الألوان هي أشد الحيوانات غير الأليفة خطراً وأكثرها ضرراً ، فمذ وضمت الحرب الأوروبية أوزارها أبان بعض البحوث أن هذا النوع من الجرذان يتفوق في ذكائه وفي قدرته على تنظيم شؤون معيشته حتى على الفمل والنحل وما كشفه فيهما السير جون ليوك من عجائب الصفات .

وقد قضت الضرورة بعد الحرب على أهل مدينة نيويورك الأمريكية أن يدققوا البحث في حياة الجرذان لكي يكشفوا نظامها الحكومية المختلفة (كذا) ويعرفوا وهل هذه المنظمات كاملة ؟ ففي أثناء الحرب تكدست مقادير عظيمة من اللؤن هناك حتى يأتى الوقت الذى تقضى فيه الضرورة بنقلها إلى أوروبا فجمعت الجرذان في السكان الذى وجدت فيه تلك الأكداس تجمعا عظيماً حتى يقدر ما تجمع منها الآن في جزيرة ماتهانان بثلاثين مليون فأر .

ومعلوم أن قسماً من مدينة نيويورك قائم على تلك الجزيرة بحيث لم تنجح مجهودات كثيرة بذلت للقضاء على هذا الجيش من الجرذان أو لطرده من تلك الناحية فبدلاً من أن تنفى تلك الجرذان بالانصراف إلى ناحية أخرى تكون فيها المعيشة أسهل ، تبينت أنها محصورة في بقعة تحيط بها المياه من كل جهة ، فلت تلك الجرذان شعناً ونظمت شئونها وصفوقها وازدادت مكرها ودهاء وأظهرت من للهاراة والحسكة في مقاومة تلك المجهودات ما اضطر أولياء الشأن إلى استنباط وسائل جديدة لمباربتها .

وقد كشفوا الآن أنها لا توجد هناك بصفة فرادى أو وحدات أو أزواج أو عائلات بل بصفة هيئات اجتماعية منظمة كالمهيات الاجتماعية الإنسانية التي توجد في المستعمرات وكل عضو في هيئة جرذان اجتماعية خاضع لنظام أدبي معين ، وهاك مثالا للنظام الذي تعمل به تلك المهيات .

توجد ناحية واقفة تحت مراقبة أولياء الشأن ويوجد فيها خمسة وسبعون مخزنا أو أكثر تخزن فيه للون والجرذان متفشية في جميع تلك الأبنية ما عدا بناء واحدا يخزن فيه القمح والدقيق ولم يدخله جرذ واحد من هذا النوع الأصغر الكبير . وإنما اكتظت بفيران صغيرة من النوع المسمى (باليسى) الذى يفترسه هذا النوع من الجرذان السمرفكان من العجيب أن لا يدخل هذا الأخير في ذلك المخزن .

ولقد عنى الرجال بمراقبة ذلك المخزن للنزول شديد المراقبة ووجد الحراس أن الجرذان الكبيرة بدلا من أن تتدخل في شؤون ذلك المخزن ، وجبارة أخرى ذلك للكان الذى اتخذته الفيران كستعمرة لها عنيت باستحضار أغذية إضافية لجعل تلك الفيران الصغيرة ذات سمن وصحة وعافية إذ كانت الجرذان تجلب إلى تلك الفيران خضراوات ولحوما وقشور الفاكهة مع جواهرها وألبانها أى كانت تلك الجرذان تصلح غذاء الفيران بما كانت تضيف إليه من أنواع الأدم ، فلا عجب إذا سمعت هذه الأخيرة وصحت أجسامها .

ثم أتى على الدين كانوا يلاحظون تلك التداير وقت لاحظوا فيه عددا من الجرذان الكبيرة يتقدم إلى بلدة أو مستعمرة الفيران الصغيرة وسرعان ما عمدت تلك الجرذان إلى فتحات موجودة في جدران ذلك البناء وكانت الفيران الصغيرة تتخذها كداخل ومخارج لها فوسعت الجرذان تلك الفتحات لكي تتمكن أجسامها الكبيرة من الدخول والخروج منها ثم دخل فيها أكبر الجرذان وأكثرها وحشية ، وما هى إلا لحظات حتى خرج الفيزاة يحمل كل منها فأرا حينئذ يضعه ويعود إلى داخل البناء ويخرج فأرا آخر ، وهكذا استمرت هذه العملية حتى تجمعت في خارج البناء أكاداس من الفيران وبادت الجرذان تحملتها إلى مستعمراتها ليتفكك بها صفارها فظهر من هذا أن الجرذان ما كانت تمد الفيران بالطريف من الأغذية لتسمينها إلا لأن مثل مخزن الفيران لديها لم يكن إلا كمثل الأحراراش التى يربى فيها الأترياء من بنى الإنسان مختلف الحيوانات ليصيدوها متى تمت وترعرعت .

فما أعمت هذا اللقال قال صاحب لى أمصدق أنت ما تقوله الأرواح ؟ قات له أمصدق ما يقوله القرآن نص القرآن على بقاء الحيوانات وجعلها أمما أمثالنا ، فإذا قلنا إن المدل يقتضى بقاءها لحكم لانظها وإلا كان خلقها أشبه بالعبث ، والله يقول « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » وأى باطل أضل من خلق حيوانات لا تنتهى ثم تذررها الرياح فلا يكون لها وجود ، وما للنايح أن تكون أمثال أرضنا محل زرع لأوائل الحيوانية ثم ترتقى في عوالم أخرى على مقدار درجاتها في النمو الروحاني . وإذا كنا في شك من كلام الروحانيين وجب علينا أن نبحث في علومهم فالجهل هو المائق عن السعادة ، ومن جهل شيئا لم ينله كما أن من جهل التجارة والزراعة والصناعة مثلا لم ينل الثرى ؛ هكذا الجهال بالعوالم لا يحفظون بالرقى فيها والدنيا دار التجربة والعلم والعمل .

اللطيفة السابعة : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر الخ »

لقد يعلم الناس الحوادث المستقبلية ببعض القواعد فإنك لا تشك أن الليل والنهار والشهور والسنين والحسوف والكسوف لها أوقات محدودة وساعات معينة ودقائق ثابتة ، فترى الناس يعرفون الحسوف والكسوف والأيام والشهور بمد آلاف السنين فيحكون على المستقبل القريب والبعيد من حيث ظهور الكواكب والحسوف والكسوف وغيرها حتى إن الشيخ محمود الشهرزورى ذكر في كتابه الشجرة الإلهية كثيرا من آراء الأمم في الأدوار والأكوار فقال ما ملخصه : إن العقول التى هى أرقى من عقل الإنسان

تقدر أن تعرف المستقبل الذي لانهية له ، وذلك بمعرفة الأدوار الفلكية فكل دور من أدوار الفلك يكون ما بعده مماثلا له سنة فسنة وقرنا فقرنا ، فإذا كان ذلك العقل مطلما لسمته على حوادث ذلك القرن فإن كل قرن بعده إلى ما لانهية له مثله وتكون الحوادث واحدة فيها ويقال حينئذ إنه عرف ما لانهية له . أقول وقد تقدم في هذا التفسير من السائل الفلكية الحسائية للطردة التي تقرب أمثال هذا القول .

وإذا كانت حوادث العوالم الأرضية تتبع السماوية فإذن يتم العلم بالمستقبل . وترى علماء العصر الحاضر يرصدون حوادث الطر يوما فيوما عسى أن يجدوا سبيلا لعلم ما يكون في السنين المقبلة من أدوارها الحاضرة وفي هذا اليوم وأنا أكتب في هذا التفسير نقلت بعض جرائدنا المصرية يوم الجمعة ٢٨ مارس سنة ١٩٢٤ سير العلم في شهر مارس من هذه السنة وقد كثرت السيول والمواسف في إيطاليا وإن عالما إيطاليا يسمى الأب غبريال قدم تقريرا إلى أكاديمية العلوم الفرنسية في ١٧ مارس الحالي عن العواصف والسيول وإمكان التنبؤ بها قبل وقوعها بأشهر وسنوات ، فقد أعلن أن تجاربه التي قام بها في حياته أثبتت أن العواصف والسيول لها أدوار كأدوار الفلك وقال إن الأرجح سنة التي تبتدى من سنة ١٨٨٣ وتنتهى سنة ١٩٢٣ تضمنت ثلاثة أدوار بالنظر إلى السيول والمواسف وشرحها شرحا وافيا ولكل دور عواصفه . ثم قال : ونحن الآن في الدور الأول الخ .

وقد أتى عليه رجال الأكاديمية ثناء . عاظرا لأنه سينفع الناس بهذا الكشف ، وسجل أيضا كشف آخر قدمه الأستاذ برينتون لأكاديمية العلوم وهو ما توصل إليه العالمان (لومان وكوماتدون) اللذان صوروا حركات القلب والرئتين والعدة وسائر أعضاء الجسم الداخلية بالسيناوغرافيا بمساعدة أشعة رنتجن . وقد أصبح من الممكن رؤية كل ما يحدث في داخل الجسم من الحركات القريبة على ألواح الصور للتحركة في دور السينا قاتوا وهذا الكشف سيحدث انقلابا كبيرا في أساليب التعليم ويسهل على الأطباء معرفة كثير من الأمراض الداخلية . وكذلك اخترع الدكتور بازسكى من مدينة (كييف) من أعمال روسيا آلة حجمها كحجم آلة التصوير الشمسي وقال إنه عرف بها الأمراض الإنسانية من بدنية وأدبية وعقلية ، وقال إنه امتحنها في مئات من المجرمين للسجونين بسجون مدينتي (كييف ووارسو) فكان في بضع نوان يقرر أن المجرم نمرة (١) قاتل عمدا ، وأن السجين نمرة (٢) متهم بالقتل ظلما ، وأن فلانا نمرة (٣) لص شكس ، ونمرة (٤) مهيج سياسي عنيف ، ونمرة (٥) بريء . ولما وقف على ذلك رجال الشرطة الروسيون اعترفوا بصحة جميع النتائج .

ويقول إن للخ ٧٨ خلية رئيسية هي مدار كل أعمال الإنسان ، فإذا أريد معرفة ما يستعد له الطالب من العلوم فليرسم رأس صناعي من الجبس ولترسم هذه الدوائر عليه وليصنع بواسطة الكهرباء أعمال تبيين مقدار استعداد الطالب في علم الطب أو الأدب وما أشبه ذلك بهيئات مخصوصة بحيث إن الكهرباء للسلطة على خلية من خلايا الخ الصناعي للمائل للخ الإنسانى صورة تؤثر في نفس ذلك للمتحن (بفتح الحاء) متى اتصلت تلك الكهرباء به إذا أمسكها بيده تأثيرا يختلف باختلاف تلك الخلايا للسلطة عليها الكهرباء في الرأس الصناعي وعلى مقدار التأثير يحكم باستعداده وعدمه . وليس من المطلوب لنا أن نعرف الطريقة بتامها وإنما المراد معرفة ما وصل إليه الناس في أيامنا . ولقد أوقفتك على جل ما يجول في عقول الناس قديما وحديثا من علم الغيب ، وأن القدماء ياجئون إلى الفلك وأدواره حتى إن بعضهم كان يحصل حساب حروف الجمل ذا تأثير في علم للتبنيات وهكذا المحدثون يبحثون في باطن الأعضاء ويعرفون الخواطر وكذلك الأمطار والمواسف للمستقبل . هذا ما وصل إليه البشر كما يعرفون الإنسان بخطوط إبهامه إذا ختم بها على الورق وعملت به الحكومات .

هل هذا علم غيب؟

أقول إن هذا كله أشبه بما يفعله الأطباء من الاستدلال بالبول وبالحرارة على نوع المرض فإذا صح بعض ما تقدم أو أكثره فلم يخرج عن استدلال على أمور عامة أو خاصة ، كاستدلال الطبيب بحمرة الخد أحيانا على مرض في الرئة . فهذا وأمثاله لا يعدّ علما بالغيب إذا صح ولكن علم الغيب ومفاتيحه فوق طاقة البشر ولو أن البشر علموا الغيب لكانت حياتهم وبالا عليهم لأنهم لا يرتقون ، فالارتقاء يكون بالجدّ والتشهير والعمل والإفدام ، فإذا عرف المستقبل ساءت الحال ونام الناس . فأما بعض الرؤى التي يراها الناس وقد تصيب نادرا فذلك لمساعدة للره مساعدة قليلة في النادر . هذا ما أردت ذكره وفيه الكفاية .

مفاتيح العلوم في هذه السورة

اعلم أن الله عز وجل لما ذكر في هذه السورة أن عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو لم يخل هذه السورة من مفاتيح للعلوم فذكر مفاتيح منها . مفتاح تفتح به علوم السموات وهو ما قصه من نبأ إبراهيم ونظيره في السكوكب والقمر والشمس حتى انتهى إلى الله ، هذا هو المفتاح الأول من مفاتيح العلوم .
 الفتح الثاني ما قصه الله من فلقه الحب والنوى وهكذا حتى انتهى إلى قوله « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » ولا جرم أن الثمر لا يكون إلا بعد الزهر ، والزهرة ستري رسمها هناك إن شاء الله في هذه السورة وستعجب من كونها مع بساطة حجمها كانت مفتاحا لعلوم النبات وعبرت بنظامها واختلاف أعدادها عن مئات الأنوف من النبات . هذان المفتاحان سترهما في هذه السورة ، مفتاح للسموات في قصة إبراهيم وستري الصور السماوية التي هي مفاتيح العلوم هناك وكيف اجتهد العلماء اليوم في هذا ، ومفتاح للعلوم النباتية الأرضية في الزهرة الرموز لها بالثمر . فهذان المفتاحان المذكوران بعد قوله « وعنده مفاتيح الغيب » يفتح بهما الله على الناس علم السموات وعلم الأرض أيضا لقوله تعالى في أول السورة « الحمد لله الذي خلق السموات والأرض الخ » ولما كانت السموات والأرض لا يعلمان إلا بتعليم جعل لهما مفاتيحين على سبيل الف والشر للرب للنظم فتعجب من القرآن ونظامه وسيترك ما ترى من الصور السماوية والعجائب النباتية وليست كفتح العلوم للعلامة السكاكي وفتح بين مفتاح الله ومفتاح السكاكي ففتح علوم اللسان العربي أي بعض القواعد التي تعرف بها البلاغة والبلاغة مقدمة لاعتقاد أن القرآن معجز . فأما مفاتيح الله هنا فلمست لتعليم اللغة التي هي مقدمة للعلوم لا أنها هي العلوم التصوذية بل هي لتعليم الحقائق التي لأجلها نزل القرآن ولأجلها أرسل الله الرسل وما الرسل إلى مبلغون ولا يبلغون إلا بلسان فهذه علوم اللسان وليست مقصودة إلا للبيان فهذه هي الماني وهذه هي العلوم التي ارتقت بها أوروبا والمسلمون نأتمون ساهون لاهون يفتح الله لهم باب العلوم فيقولونها على أنفسهم وقد آن أوان رقي الأمم الإسلامية « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

هذا ما أردت ذكره في علم الغيب ومفاتيح العلوم ، والله علام الغيوب . انتهى تفسير المقصد الأول من

سورة الأنعام .

(المَقْصِدُ الثَّانِي)

وفيه المفتاح السماوي من المفاتيح المذكورين ، قال الله تعالى :

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ *
 وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ

عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أَحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ
 بَارِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا
 رَأَى الشَّمْسَ بَارِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إني بَرِيءٌ مِمَّا
 تُشْرِكُونَ * إني وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلذِّى فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ *
 وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي
 شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ
 أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا ، فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ *
 وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *
 وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ
 وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى
 وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ *
 وَمِن آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * ذَلِكَ هُدَى
 اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ
 آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنَّبُوءَةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَدْ كَلَّمْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا
 بِهَا بِكَافِرِينَ * أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ افْتَدَى ، قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ
 إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ * وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ
 قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ يُبَدُّونَهَا
 وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ ، قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ
 يَلْعَبُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَن
 حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * وَمَن أَظْلَمُ مِمَّن
 افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ؟ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي شَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ
أُفْرِجُوا أُنْفُسَكُمْ يَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ * وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ
مَآخِرَنَا كُفْرًا وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفْرِكُمْ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ
لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ *

التفسير القفلي لهذا المقصد

(وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر) هو اسم أبي إبراهيم (أخذ أصناماً آلهة) تعبدتها من دون الله (إني أراك وقومك في ضلال مبين) ظاهر الضلال (وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض) أي ومثل هذا التبصر بنصره عجائب السموات والأرض وبداهتهما، والملكوت أعظم الملك والتاء فيه للبالغة ليستدل (وليكون من الموقنين) الذين تزول شبهاتهم بسبب التأمل والتفكير، والإيقان أعظم من الإيمان لأن الإيمان بالتسليم والإيقان بالاستدلال والتعقل والتأمل وهو الغاية العظمى للإنسان في هذه الحياة (فلا جن عليه الليل) ستره بظلامه (رأى كوكبا) هو الزهرة أو المشتري (قال) مجازاة لقومه ليبين لهم فساد عقائدكم (هذا ربي فلا أقل) غاب (قال لا أحب الآفلين) فضلا عن عبادتهم وكيف ينتقل ويحتجب ويشير وصف من هو إله العالمين (فلا رأى القمر بازغا) مبتدأ في الطلوع (قال هذا ربي فلا أقل لئن لم يهدي ربي لأكون من القوم الضالين) أظهر العجز ووكّل الأمر إلى الله لتعاقب الظواهر المحيرة للمعقول في الألوهية (فلا رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر) كما يشعر به قومه ليقم الحجبة عليهم (فلا أقلت قال يا قوم إني برىء مما تشركون) من الأجرام المحدثّة التي تحتاج إلى موجد (إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وقوله (وحاجه قومه) جادلوه وخاصموه في التوحيد (قال أعاجوني في الله) في وحدانيته. (وقد هدان) إلى توحيد، ولما خوفه قومه آلهتهم أن تضربه قال (ولا أخاف ما تشركون به) أي لا أخاف معبوداتكم لأنها لا تضر ولا تنفع (إلا أن يشاء ربي شيئا) أي لكن أن يشاء ربي شيئا كان ما يشاءه لأنه قادر على النفع والضرر هذا استثناء منقطع، وإنما استثنيت ما يشاء الله فأقررت بأنه يقع لأنه (وسع ربي كل شيء عسا) أي أحاط به علما فلا مانع أن يكون في علمه إصابتي بمكروه (أفلا تتذكرون) أي أفلا تعتبرون أن هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع ثم قلب الموضوع عليهم فقال : وكيف أخاف أصنامكم وهي لا قوة لها وأنتم لا تخافون من الله وقد أشركتم به فأينا أحق بالأمن؟ من يصحى القادر أم من يطعمه ويتبدد الأباطيل التي أنتم عليها، أنا أحق بالأمن وأنتم أحق بالخوف وهذا قوله (وكيف أخاف ما أشركتم) أي معبوداتكم وهي مأمونة الخوف (ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به) باثرا كه (عليكم سلطانا) حجة إذ الإشراف ليس يكون عليه حجة، أي وما لكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف (فأى الفريقين) أي فريق للوحدين وللشركين (أحق بالأمن) من العقاب (إن كنتم تعلمون) ما يحق أن يخاف منه، إن الذين يستحقون الأمن يوم القيامة هم (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) مصيبة (أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) أي إلى سبيل الرشاد فهؤلاء يأمنون العذاب في أودية جهنم لأن نفوسهم خلصت من هذه الأرض ومن اللادة وظلامها

فأما الذين ارتكبوا الآثام أو مالت نفوسهم إلى الحياة الدنيا وظنوا أنها هي كل مقصود من الوجود فأولئك يعذبون وينتهي أمرهم بالنجاة ، وعلى هذا ما روى في البخاري ومسلم عن ابن مسعود قال : لما نزلت « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » شق ذلك على المسلمين وقالوا أيننا لا يظلم نفسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليس ذلك إنما هو الشرك ألم تسمعون قول لقمان عليه السلام لابنه « يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم » وفي رواية « ليس كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه وذكره » . فانظر قوله صلى الله عليه وسلم : ألم تسمعون قول لقمان لابنه وذكر « إن الشرك لظلم عظيم » وهذا من أدق الأجوبة؛ كأنه صلى الله عليه وسلم يقول لهم الظلم للوثر أثرًا باقيا إنما هو الشرك ، فأما الظلم الذي يزول أثره بعذاب مؤقت فهو الذنوب وأكثر الناس إنما يخافون من العذاب الدائم ، ولو نظر إلى الخلق الذين لا يعذبون فإنهم قليل . فالأمن العظيم لمن لم يذنب أو تاب توبة نصوحا ورد الحقوق إلى أهلها ، فأما المذنبون فإنهم أقل درجة من أولئك فأمنهم أقل . هذا هو المفهوم من جوابه صلى الله عليه وسلم فالمقصود من ذكر الظلم العظيم أنه لا يؤبد العذاب إلا به والؤمنون لا يؤبد لهم العذاب هذا هو المقصد . قوله (وتلك حجتنا) أي ما جرى بين إبراهيم وقومه (آتيناهم إبراهيم) أرشدناه إليها وعلناه حجة (على قومه) حجتنا بدل من تلك ، وآتيناهم إبراهيم على قومه خبر (ترفع درجات من نشاء) في العلم والحكمة (إن ربك حكيم) في رفعه وخفضه لأنه يعطى حسب الاستعداد (عليه) بحال كل واستعداده (ووهبنا له إسحق ويعقوب كلا) منهما (هدينا ونوحا هدينا من قبل) من قبل إبراهيم (و) هدينا (من ذريته) ذرية نوح (داود وسليمان وأيوب) وهو من ذرية إسحق بن إبراهيم (ويوسف وموسى وهرون وكذلك) الجزاء (نجزي المحسنين) أي نجزي المحسنين جزاء كجزاء إبراهيم إذ رفعا درجاته وباركنا في ذريته كثرة نبوة (وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس) وهو من نسل هرون النبي ابن عمران (كل من الصالحين) الكاملين في الصلاح وهو الإتيان بما ينبغي والتحرز عما لا ينبغي (وإسماعيل واليسع) هو اليسع بن أخطوب ابن المعجوز (ويونس) بن متى (ولوطا) هو ابن أخي إبراهيم وأبوه يسمى هاران وهو أخو إبراهيم (وكلا فضلنا على العالمين . ومن آياتهم وذرياتهم وإخوانهم) أي فضلنا كلا من هؤلاء بالنبوة والإسلام على عالمي زمانهم ، يقول فضلنا كلا من هؤلاء على العالمين وبعض آياتهم أي آباء الذين سميناهم وذرياتهم وإخوانهم ثم عطف على فضلنا قوله (واجتيناهم) اصطفيانهم (وهديناهم إلى صراط مستقيم) أي ثبتناهم على طريق مستقيم ، فأما آباؤهم فمثل شيث ، وأما الذرية فمثل أولاد يعقوب ، وأما الإخوة فمثل إخوة يوسف (ذلك) الصراط المستقيم (هدى الله) دين الله (يهدي به من يشاء من عباده) لأن الله هو التفضل على الناس لأنه هو أصل الوجود والخلق منه وإليه (ولو أشركوا) أي ولو أشرك هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مع عظيم قدرهم (لحبط عنهم ما كانوا يعملون) فهم كثيرهم في سقوط الثواب بالشرك (أولئك الذين آتيناهم الكتاب) أي جنسه (والحكم) أي الحكمة أو الفصل في الأمور على ما يقتضيه الحق (والنبوة) الرسالة (فإن يكفر بها) بهذه الثلاثة (هؤلاء) أي قريش (فقد وكلنا بها) بمراعاتها (قوما ليسوا بها بكافرين) من الأمم الأخرى كالفرس والتار والترك وأهل جزائر الهند الشرقية وأهل الصين وقوم من السودان وأم أخرى لا يعلمها إلا الله سيلها الزمان للقبل لأنى لا أنزل علما ولا أخلق نباتا ولا شجرا إلا فيه مصلحة مستقبلة وهذا القرآن أنزله إلى أهل الأرض لا إلى قريش وحدهم فإذا كفروا بها فكف من أم ستاني كقوم من الإنجليز في هذه الأيام وآخرين من أمريكا وسيظهر من العجائب ما لا يخطر بالبعول قريبا . أقول أنا وستاني أم تفهم الإسلام على الحقيقة التي فسرت القرآن بها في هذا الكتاب عاجلا وأجلا . بهذا أنا موثق وتكون أم أرقى من الأم للماضية وإسلام الأم التي ذكرتها معجزة لأن النبي صلى الله

عليه وسلم كان بمكة وليس معه إلا قليل ، وهؤلاء جاءوا من بعد حق الأنصار لم يكونوا أسلموا (أولئك)
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام (الذين هدى الله فبهداهم اقتده) في أمر الدين الذين اجتمعوا عليه من توحيد
الله وتنزيهه ووصفه بالصفات التي تليق به وفي جميع الأخلاق الحميدة والصفات الرفيعة كالصبر على أذى السفهاء
والضو عنهم ؛ فلتكن كريما ومجاهدا كإبراهيم ، وصابرا كاسحق ويعقوب وأيوب ، وشاكر كداود وسليمان ،
وجامعا بين الصبر والشكر كيوسف ، وصاحب معجزة باهرة وشريعة ظاهرة كموسى ، وزاهدا كزكريا وعجبي
وعيسى وإلياس ، وصاحب صدق كإسماعيل وصاحب تضرع كيونس ؛ فعليك يا محمد أن تجتمع فيك هذه
الصفات وعلى أمتك أن تغلظك في ذلك حتى يكونوا « خير أمة أخرجت للناس » والماء في قوله « اقتده »
لوقوف وقد أئنتها في الوصل فأجراه مجرى الوقف ابن كثير ونافع وأبو عمرو وعاصم وجعلوها ساكنة ،
ويحذف الماء في الوصل حمزة والكسائي ، وهناك روايات أخرى لانطيل بها . وقوله (قل) يا محمد (لا أسألكم
عليه) أى على التبليغ (أجرا) جملا من جهنم كما لم يسأل من قبلى من النبيين وأنا أمرت أن أقتدى بهم
(إن هو) أى التبليغ أو القرآن (إلا ذكرى للعالمين) إلا تذكير وموعظة لهم (وما قدروا الله حق قدره)
ما عرفوه حق معرفته في الرحمة والإينام على العباد (إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) هذه السورة
وإن نزلت بمكة فإن فيها آيات نزلت بالمدينة كما قال ابن عباس إنها نزلت جملة واحدة ليلا وكتبوها من ليلتهم
غير ست آيات منها فإنها نزلت بالمدينة وهي « قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم » إلى آخر الثلاث آيات
وقوله تعالى « وما قدروا الله حق قدره الآية » وقوله « ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلى
ولم يوح إليه شيء » إلى آخر الآيتين ، فالذين قالوا « ما أنزل الله على بشر من شيء » هم اليهود . ذلك أن مالك
ابن الصيف خاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم « أنشدك الله الذي أنزل التوراة على
موسى أما نجد في التوراة أن الله يبغض الحبر السمين ؟ وكان حبرا سمينا فغضب وقال « ما أنزل الله على بشر
من شيء » غضب عليه قومه بعد ذلك وقالوا أليس الله أنزل التوراة على موسى فلم قلت « ما أنزل الله على
بشر من شيء » فقال مالك بن الصيف أغضبني محمد فقلت ذلك فقالوا له وأنت إذا غضبت تقول على الله
غير الحق فزعه عن الحبرية وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف وفي ذلك ونحوه نزل قوله تعالى (قل من أنزل
الكتاب الذي جاء به موسى) حال كونه (هدى للناس فجعلونه) تكتبونه (قراطيس) أى في قراطيس أى
في صحف مقطعة (تبدونها) أى تظهرون كثيرا منها مما لا يخالف أهواءكم (وتخفون كثيرا) مما يخالف أهواءكم
كصفات النبي صلى الله عليه وسلم (وعلمتم) يا أهل الكتاب ويا مسلمين على لسان محمد صلى الله عليه وسلم
(ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم) من قبل زيادة على ما في التوراة عندهم أيها اليهود وبيانا لما التبس عليكم وعلى
آبائكم كما في آية أخرى « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون » ثم أجاب
على قوله « من أنزل الكتاب الخ » فقال (قل الله) أى أنزله الله ، أمر الله رسوله أن يجيب عنهم إشعلوا بأن
الجواب متيقن (ثم ذرهم في خوضهم يلعبون) أى في أباطيلهم فإنما عليك البلاغ (وهذا كتاب أنزلناه مبارك)
كثير الفائدة والنفع (مصدق الذي بين يديه) الكتب التي قبله فهذا الكتاب أنزلناه للبركة (ولتنذر أم القرى)
أى أهل أم القرى وهي مكة لأنها مجتمع القرى وأعظم القرى شأنها (ومن حولها) من أهل الشرق والغرب
(والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به وهم على صلاتهم محافظون) فإن من خاف الآخرة تدبر ، ومن تدبر
آمن وأمم الإيمان الصلاة فإنها عماد الدين فيها يخاطب العبد ربه بطلب الهداية ويستحضر الصالحين جميعا
واعدا لهم بالسلامة والأمان برحمة الله بعد وصف الله بأنه هو المستحق للحامد وله كل الطيبات والصلوات ،
فهؤلاء يتكرر ذلك على ألسنتهم وهم مستحضرون بقلوبهم تتمرن نفوسهم على ذلك العالم الأعلى فيقربون
من ذى الجلال والإكرام وكما قال اليهود : لم ينزل الله على بشر من شيء ، سيأتي قوم بعد ذلك يدعون أنه

يوحى إليهم كذبا وزورا ، فالأولون يأنكروا النبوات كالآخرين بادعائهم نبوات كاذبة وكلاهما في ضلال ، والذين يدعون النبوات الكاذبة مثل مسيلة صاحب النجامة وتبعه قومه من بني حنيفة وكان صاحب نيرجات فاعتز قومه بذلك وقتله وحشى في زمن خلافة أبي بكر رضى الله عنه ، ومثل الأسود العنسى بن عبيدة بن كعب وكان يقال له ذو الحجر ادعى النبوة باليمن في آخر عهد النبي صلى الله عليه وسلم وقتله فيروز الديلمي قبل موته صلى الله عليه وسلم بيومين وأخبر أصحابه بقتله كما تقدم في غير هذا اللقائم .

وفي البخارى ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض فوضع في يدي سواران من ذهب فسكبرا على وأهانى فأوحى إلى أن انفضهما فنفضتهما فطارا فأوتيتها الكذابين اللذين أنا بينهما صاحب صنعاء وصاحب الجمامة » وهذا قوله تعالى (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) كأولئك الذين ابتدعوا دينا في الديانات ، وكاليهود المرتفين للتوراة وغيرهم (أو قال أوحى إلى ولم يوح إليه شيء) كهؤلاء الذين ادعوا النبوة (ومن قال سأزل مثل ما أنزل الله) كالذين قالوا « لو نشاء لقنا مثل هذا » (ولو ترى) الظالمين (إذ الظالمون في غمرات الموت) شدائد وسكراته ، من غمره الماء إذا غشي (والملائكة باسطو أيديهم) أى يبسطون أيديهم يقولون هانوا أرواحكم مشددين في الإزهاق من غير تنفيس وإهمال وهو قوله (أخرجوا أنفسكم اليوم) أى وقت الإمامة (تجزون عذاب الهون) أى الهوان (بما كنتم تقولون على الله غير الحق) كادعاء الولد والشريك لله ودعوى النبوة والوحى كذبا (وكنتم عن آياته تستكبرون) فلا تتأملون فيها ولا تؤمنون بها (ولقد جئتمونا) للحساب (فرادى) منفردين عن الأموال والأولاد وسائر ما آرتعوه من الدنيا وعن الشفعاء والأستنام وعن كل ناصر (كما خلقناكم أول مرة) .

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال : أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا » كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين . وفيها أيضا عن عائشة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « تحشرون الناس حفاة عراة غرلا قالت عائشة : قتل الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال الأمر أشد من أن يهجم ذلك » .

وفي رواية الطبرى « لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه » لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال قال تعالى (وتركتم ماخولناكم) أعطيناكم (وراء ظهوركم) من الأموال والأولاد والخدم والحول وقوله « وراء ظهوركم » أى في الدنيا (وما ترى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء) يزعم المشركون أنهم عبدوا الأستنام لأنها تشفع لهم يوم القيامة لأنها شركاء الله فيوج الله للشركيين يوم القيامة ثم قال (لقد تقطع بينكم) أى قد تقطع ما بينكم عند من قرأها بفتح بين أو تقطع الأمر بينكم ، ومن رفع كان المعنى قد تقطع وصلكم ، والبين من الأضداد يكون وصلا وهجرا (وضل) ذهب وبطل (عنكم) ما كنتم تزعمون (تكذبون في الدنيا أنها شفعاؤكم أو لا يثبت ولا جزاء . انتهى التفسير اللفظى لهذا القصد .

وفي هذا القصد لطائف :

(اللطيفة الأولى) قوله تعالى « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » الخ (اللطيفة الثانية) قوله تعالى « فهداهم اقتده » (اللطيفة الثالثة) قوله تعالى « يجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » (اللطيفة الرابعة) قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم » الخ .

اللطيفة الأولى

اعلم أن هذه البياحت في هذه السورة من أدق الباحث العلمية والآيات الحكيمية وكيف كان إبراهيم قد ابتلى بالصائين الذين هم كانوا مغرمين بالعوالم العلوية الروحانية من الملائكة وأنهم كانوا يجعلونها وسائل لهم

بينهم وبين الله تعالى فهم آلهتهم بهم يتقربون إليه وهؤلاء الآلهة لهم هياكل كهياكلنا الجسمية وهي الكواكب السبعة ، ولما طال الأمد عليهم اتخذوا في الأرض أصناما لتمثل الهياكل الكوكبية التي هي أشباح وأشخاص للنفوس القدسية واللائكة العلوية فبالأصنام يتقربون إلى الكواكب ، وبالكواكب يتقربون إلى من يسرونها ويجرونها في السماء في أوقات معينة فأنحطت عزائمهم ونامت فطرم جفاه الخليل إلى أصنامهم فكسرها ، وإلى عقائدهم فسفها ، وإلى عقولهم فأرشدتها ، وإلى تقاليدهم لحفرها . وكان أبوه آزر أعلم القوم بعمل الأشخاص والأصنام ورعاية الأصناف النجومية حق الرعاية فأخذ يذكر له خلال ما يفعلون ويبين فساد ما كانوا يفترون . واعلم أني لأريد من شرح هذا اللقاع ذكر القصص التاريخية ولا أحوال الأمم الماضية سردا للتاريخ ولا غراما بالسير ولكني أريد أن يكون اللقاع مقام عمل لنا نحن الذين نعيش فوق الكرة الأرضية اليوم . فإذا كان إبراهيم كسر أصنام قومه وقرأ الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك على قومه ثم فعل كما فعل فكسر أصنام قومه في مكة حذو القعدة بالقعدة كما فعل أبوه إبراهيم فمن الجهالة العمياء والنذالة الخفاه أن يقرأ للمسلمون القرآن تفضيلا لتعليقا وتميدا لاندكيرا ، بل عليهم أن يقتدوا بمن أرسلوا إليهم اقتداء بكل ما فعل ؛ فلا شرح لك أولا مذاهب الصابئة . وثانيا فعل الخليل معهم . وثالثا الحكاية التي يذكرها بعض المفسرين عن الخليل أيام صغره . ورابعا اقتداء الأمم وإن كانوا لا يلمنون كأفلاطون في جمهوريته . وخامسا خلوة النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء كما ورد في قصة الخليل نوعا ، وكذا الاعتكاف في المساجد وخلوات الصوفية وتوجه المهتم بمحصر الفكر وأن قصة الخليل يقصد بها نشأة عالية إسلامية .

الفصل الأول من اللطيفة الأولى - الصابئة

اعلم أن النوع البشري كان يبحث من العصور القديمة في صانع العالم ولهم طرق في ذلك مختلفة كثيرة ، وأهمها في تلك العصور جمال الأنوار والبهجة والأضواء والكواكب وإشراقها حتى إنك لتجد الأمم الجرمانية والعائلة الآرية قد جاء في لغتها أن الله عندهم هو النور والشمس ونجد اللفظة الأصلية للنور (ديف) ومعناها النور اللامع ويشق منها عند الشعوب المذكورة ألفاظ للدلالة على الله ، ففي لغة السنسكريت (ديفاس) أو (ديواس) أو (ديوا) ويعبرون عن السماء بلفظة (ديوس) وعند اليونان (ذوبوس) وعند اللاتينيين (دووس) و (دوفس) وتصرفوا فيها إلى أن قالوا (جويتر) وفي الألمانية القديمة (ذيو) وفي السلاف (ديواس) ولفظة (تير) للشتقة منها معناها إله الحرب عند أم الشمال ، والفرنساويون عن الخالق (ديو) مرخمه والإيطاليون (ديو) والأسبان والبرتغاليون (ديوس) وكلها مشتقة من أصل واحد كما تقدم .

فهؤلاء الأمم الذين أغرموا بهذه الأجرام السماوية وأنوارها وصاروا لا يذكرون الله إلا باسم النور أو بما هو مشتق من النور كانوا عاشقين لهذا الجمال في الدنيا فأرجعوه لموجدوه وممونه باسمه وترى في القرآن « الله نور السموات والأرض » ومن أسماء النور ، فالقرآن يسمي الله بالنور كما سمته تلك الأمم القديمة الأوروبية والجماعات الآرية والجرمانية وأم الهند القديمة ، فانفاق الأمم قديما وحديثا على الانجاء إلى النور في الإسلام وغير الإسلام كان دليلا على أن الأمر عظيم فلنوجه العناية لهذا اللقاع ولنبحث في الصابئة فإنهم من هذا اللقاع وجهتهم . الصابئون قوم ينتسبون للروحانيات ويظهر أن مذهبهم في القرون الحالية والأجيال البائدة كان القدس والطهارة وجمال النفوس والمروج إلى اللقاع الأعلى والتشبه باللائكة والصعود إلى اللقاع الأعلى كما هي القاعدة أن كل دين يتبعه الناس فإنه في أول أمره هداية للناس مناسب لفطرم نافع لمتبعيه هاد لمعتقيه ثم يسقط سقطة عظيمة لا يصلح بعدها للإنسانية . كانوا يعتقدون أن للعالم صناعا مقدسا عن صفات الخلقين وأن له ملائكة وهؤلاء اللائكة هم اللدبرون للعالم العلوي والسفلي .

فالكواكب السبعة لها ملائكة تدبرها كل كوكب يدبره ملك ويصل التأثير من الأعلى إلى الأدنى فتكون الهياكل أي الكواكب آباء والعناصر أمهات ، ومن هذا يكون كل موجود من حيوان ونبات وإنسان

وهؤلاء الملائكة يشمل نظرم كل شيء ، فهم وإن كانوا متصرفين في المادة طامرون لا يصون وليس لهم طمام إلا التسبيح والتعديس لرهبهم وهم أنفسهم في لغة وجور وسعادة ليس لها نظير في الأرض ومن عليها . وهذه الطائفة تقول : نحن نهذب أنفسنا ونزيل الغضب والنهوة والأحقاد ونرقى فينا النفس الإنسانية العقلية فنقرب من هؤلاء الملائكة الذين بهم نتقرب إلى الله تعالى وقالوا نحن إنما أخذنا هذا المذهب من (عازيمون وهرمس) العظيمين ، وعلى ذلك أخذوا يتقربون إلى الهياكل التي هي السيارات السبع فصرفوا منازلها ومطالعها ومغارها واتصالها على أشكال للواقعة والمخالفة مرتبة على طبائعها وقسموا الأيام والساعات والصور والأشخاص والأفلام ، وتعلموا العزائم والهدعوات وعينوا لكل يوم من أيام الأسبوع كوكبا ، فجعلوا لرحل يوم السبت وجعلوا ساعته الأولى وتختموا بخاتمه للعمول على صورته وهيئته وصفته ولبسوا اللباس الخاص به وبخروا بيخوره الخاص به ودعوا بدعواته الخاصة وسألوا حاجتهم منه ، وللمشترى يوم والريخ وهكذا كما في زحل وقالوا الله رب الأرباب وهؤلاء هم الأرباب . ومنهم من جعل الشمس هي إله الآلهة فيتقربون إلى الهياكل تقربا إلى الروحانيات وإلى الروحانيات تقربا إلى الله .

ولما طال الأمد وقست القلوب قالت طائفة منهم إن الهياكل أي الكواكب السبعة قد تنبئت عنا فأتخذوا هياكل في الأرض وهي الأصنام وهؤلاء يسمون أصحاب الأشخاص على مثال الهياكل السبعة وهي النجوم ، فكل شخص في مقابلة هيكل فتقربوا وتبخروا ولبسوا وتطهروا وراعوا الوقت والساعة والشكل والدعوات والعزائم مثل ما كانوا يصنعون للهياكل وقالوا هذه الأصنام شفعاء عند الله : أي بواسطة الكواكب والكواكب للملائكة وللملائكة لله . فيعجبا لهذا الإنسان شأنه في كل أمر أن يتنزل فيه إلى أدنى حتى يذهب من الوجود .

الفصل الثاني : مجادلات الحليل إبراهيم عليه السلام معهم

كسر إبراهيم الأصنام وهي الأشخاص النابتة مناب الهياكل وقال « أتعبدون ما تحتون والله خلقكم وما تعملون » وكان أبوه آزر هو أعلم القوم بجمل الأشخاص والأصنام ورعاية النجوم وكانوا يشتركون منه الأصنام لعلمه بمواقع النجوم حتى يعمل الأصنام على طريقها ولذلك كان الجدل معه . ومما قاله له « أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك في ضلال مبين » وقال « يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفتي عنك شيئا ، يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا » وقوله « يا أبت إنى قد جاءنى من العلم » إلى قوله « أهدك صراطا سويا » .

فهؤلاء هم الصابئون وهذا هو الدين الحنيف أى المائل عن الأديان . فإذن الصابئون لا يقربون بأنبيا ويقولون تقرب إلى الله بأنفسنا ثم تنزلوا إلى عبادة الأجرار والأصنام . وأما الخنفاء كأتباع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه الصلاة والسلام فإنهم يقولون تتبع هؤلاء الأنبياء . هذا ملخص ما ذكره الشهرستاني في غاية الاختصار لماسبة المقام لتحيط علما بما كان في الزمان النابر .

حكمة هذه الديانات

واعلم أن الله عز وجل جعل هذه الأمم مغرمة بالكواكب السبعة تدريجا لهم وتعلما في زمن كان الفلك غير معروف منه إلا هذه الكواكب السبعة ، وقد علم الله أن الفلك سيتغير في الأزمان الحاضرة فهيا أنبياء وأمرهم أن يكسروا الأصنام التي على منوال تلك الهياكل لأمرين : الأول أن هذا الدين أصبح أرضيا لاسماويا معكوسا منكوسا فوجب زواله من الوجود ونسخه . الثاني أن هذه الكواكب السبعة والشمس علم الله أن ستصبح في العلم الجديد لاقيمة لها فما هي شمسا وأرضنا وكواكبنا السبعة بل كواكبنا صارت أكثر من سبعة والشمس التي كانت إلها أصبحت في أخريات الكواكب الكبيرة بل أصبحت جزءا صغيرا جدا

وقد مهد الله للنوع البشري لذلك من أيام إبراهيم فلهج الناس بالله وقالوا لا نؤمن ولا نقر وإنما الله قاهر فوق عباده حتى تأهل العقل البشري للنظر في إلغاء تلك الأوثوية واتساع العقل الإنساني فلا يحجبه شمس ولا قمر ولا سيار ولا هيكل ولا صنم ولا صورة ، هكذا فعل إبراهيم وهكذا فعل موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ولولا هذا ما تجرأ العقل البشري على تلك الآلهة في نظره أن يبحث فيها ، وهذا من السر في تكبير الأصنام أيام إبراهيم ومحمد عليهما السلام .

ولما جاء الإسلام كانت الأمم لا تزال في رأيها العام على رأى الصابئة وهو أن المياكل السبعة هي ذات السلطان على الدنيا فتكون الكواكب سبعا والسماوات سبعا والأيام سبعا وهكذا فاعدد السبعة كان السلطان إذ ذلك فنزل القرآن بالاهبة للمروفة بين الأمم فقبل فيه سبعا شادا وقيل « سبع سماوات ومن الأرض مثلهن » ومعلوم أن الأقاليم عند القدماء سبع فالقرآن جاء في أواخر أيام العلم القديم جاء على مقتضاه ولكنه أشار بطرف خفي إلى أن السماوات والكواكب ليست سبعا فقال في آية أخرى « ويخلق ما لا تعلمون » فهذه الآية يقول لنا: أنا وإن كنت أخبرتكم بأني خلقت سبع سماوات فلن أنكر ذلك ذكر غيرها حتى تعلموه لأنني أخلق ما لا تعلمون وما ذكرت لكم إلا ما يمكن أن تعلموه .

الفصل الثالث : الروايات التي وضعها الناس في هذا القمام

اعلم أن كل أمة من الأمم لها أسلوب في التعليم خاص وأعم الأساليب نغما الروايات بحيث يجعل العلم على هيئة رواية ، ولقد كان بنو إسرائيل أجمع الناس في الروايات للنسوبة للأنبياء ، وقصة الخليل هذه كان لها شأن يذكر في الأمم السالفة بلفظها تارة ومعناها تارة أخرى .

واعلم أن كل عالم وحكيم ونبي وفيلسوف قد عثر الناس على أحوال له تخالف الناس في الانفراد والعزلة أو التفرغ والعبادة والحلوة والاقطاع لما خلق له ولم يوجد في النوع الإنساني منهم من ليس كذلك . اعتبر ذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تعبد في غار حراء وهكذا جميع الأنبياء يعبدون ويتبتلون ومنهم إبراهيم الخليل . ولقد وضعوا قصة يستفاد منها أنه كان في غار لم يتعرف بأهل الأرض سنين ، ثم لما خرج نظر الكوكب والقمر الخ فبهره ما رآه ودهشه ما فاجأه فقال لقومه ما رأيته في الآيات والقرآن ليس يتمرض إلا للحقائق ، فأما الروايات فهي تدل على روح القصود وخلصته عند أولى العقول وملخصها :

إن النمرود رأى في منامه أو قرأ في كتب الأنبياء ما يفيد أن مولودا يولد في تلك السنة في ناحيته يكون هلاكه على يديه فأمر بعزل النساء عن الرجال ولكنه اتهم أن آزر أنه لا يقرب امرأته حين أرسله إلى القرية فحملت بما قدره الله ، ثم إنها لما وضعت أخبرته أباه ثم وضعوه في مغارة وصارت تختلف إليه وترضعه ، وقيل إنه مكث سبع عشرة سنة وصار يسأل أمه من ربك ومن رب أبي ومن رب نمرود؟ فضرته وخافت وعرفت أنه هو الذي تخوف منه النمرود؛ فلما أخرجاه من السجن بهره جمال النجوم فقال ما تقدم . انتهت الرواية .

الفصل الرابع

جئنا إلى القصود من هذه القصة . اعلم أن أفلاطون جاء بعد الخليل عليه السلام بقرون لأن أفلاطون كان قبل المسيح بنحو أربع قرون وقد ألف كتابا يسمى (جمهورية أفلاطون) وهذه الجمهورية عشرة أقسام يسمى كل منها كتابا وقد اطلمت عليها باللغة الإنجليزية ولم تترجم إلى العربية والناس في انكلترا وألمانيا وفرنسا يدرسون منها فصولا لطيفة العلوم لتربية الأخلاق في التلاميذ لاسيا لطلبة مدارس المعلمين . وقد جاء في أوائل هذا الكتاب مقال أشبه بقصة الخليل يوضح القصود منها فقال ماملخصه : لو أن قوما عاشوا تحت الثرى في سرايب وهم لم يروا وجه الأرض ولا شمس ولا قمر ولا نجوما ولكنهم في ظلام حال ، ثم إن هناك

فما يقرب من هذا السرداب كانت نار متأججة والناس غادون وأعمون في الطريق بجانب النار والشمس تشرق عليهم ومعهم صور حيوانات ونبات وملابس وهذه الصور قد ارتسمت في جوانب السرداب بنوع ما فأخذ أولئك الجالسون في السرداب يسمون الصور النباتية والحيوانية بأسماء بحسب ما يرون ويحسبون مسافئها وسيرها وسرعها ويقولون هذا هو الوجود كله فهذا هو النور وهذه هي المخلوقات ثم تنبه جماعة منهم فقالوا يا قوم لقد أخطأتم إن هذا النور صناعى وهذه الأشياء ليست حقيقية إن هي إلا صور وأسماء . فاختلّفوا على ثلاثة أقسام؛ قسم صدق هؤلاء للفكرين ، وقسم كذبهم ، وقسم متردد ؛ فقام من هؤلاء للفكرين جماعة فقالوا : لا بد أن نخرج من هذا السرداب لننظر ؛ فلما خرجوا منه لم يقدرُوا أن ينظروا إلا صور النجوم في الماء في ليالى الظلمات ثم ارتقوا إلى منظر القمر ثم ضوء الشمس فقالوا إن النار التي أشرقت بجانب السرداب والصور التي رسمت في أضوائها إن هي إلا من آثار الشمس ؛ فالتار أوقدت في الحطب والحطب نأشجره بالشمس ، فالإشراق من الشمس لامن الحطب أصالة وهذه الصور الحيوانية والنباتية ليست حيوانا ولا نباتا على الحقيقة وإنما هي صورها فلا ضوء النار للتقدة في الحطب أصل النور ولا الحيوانات والنباتات هي الطبيعية بل نور الشمس هو أصل نور الحطب ، والنبات والحيوان الناميان هما الطبيعيان . ثم إن أولئك الذين خرجوا من السرداب وخالفوا جماعتهم نظروا فوجدوا الشمس لها سير منظم وفصول أربعة : شتاء وصيف وربيع وخريف ، ومن هذا الاختلاف كانت الزروع المختلفة والزهر والتمر ومحبات الحفظة فأخذ منهم العجب كل مأخذ ورأوا حسابا منظما ومجبا مجبا فقالوا إن هذه النظم العجيبة والهندسة والإحكام في الصنعة لها عوالم وراء هذه وما مثل هذه الشمس إلى اللبعض لها وهذه الحيوانات والنباتات إلى العوالم التي كانت سببا لها من العالم النفسى إلا كضوء النار عند السرداب وصور الحيوانات والنباتات للصنوعة المنعكة على جوانب السرداب للظلم إلى الشمس وإلى الحيوانات والنباتات الحقيقية . هذا ملخص مثل أفلاطون .

ومن هذا المقام وأمثاله قيل (التل الأفلاطونية) أى إن هذا العالم للنظور على منوال عالم غير منظور ولهذا المقام فروع عند الصوفية وجدال عند الفلاسفة فاعرف هذا فهو الأصل ، واعلم أنك الآن تقرأ لب العلوم .

ثم إن هؤلاء الذين عرفوا هذا رجعوا إلى السرداب وبثوا الفكرة فيهم واشتد بينهم الجدل والصراع ، فهذه حال الحكماء مع أهمهم فإتهم يرون ما لا يراه الناس ويرجعون إلى عالم اللقولات . فأما المحسوسات فإيما هي مظاهر والحقائق هي العوالم الروحية . واعلم أن مذهب أفلاطون الذى كثر جدال القدماء فيه هو شبه علم الأرواح الحديث فإذا ثبت ظهور الأرواح أو وجودها كما هو الأقرب كان هو شبه مذهب أفلامون لأن هذا العالم هو الباقي وهو مماثل لعالمنا هذا ؛ فالحيوان والإنسان كلاهما ثابتان عند هؤلاء العلماء .

الفصل الخامس في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

اعلم أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم في غار حراء شأنه عظيم ولو أنك قرأت ما قاله هنرى الفرنسى في كتابه (خواطر وسوانح في الإسلام) وكيف ذكر أنه صلى الله عليه وسلم في غار حراء وهو ينظر إلى النجوم كأن قد شفقه الجمال والبهاء والحسن في تلك القبة الزرقاء والنجوم في ذلك القفر أكثر وضوحا وأجهر ضوءا وأعجب شكلا لصفاء الجو وبهجته إذ ذاك تجلى له الملك فقال له اقرأ فقال ما أنا بقارى الخ . وإنما ذكرت لك كلام (هنرى الفرنسى) لأن الرجل عبر بحرية على مقتضى ما جرى به العادة في العلم بين الأمم .

والقصد أنه صلى الله عليه وسلم كان في الخلوة وكان له نظر في النجوم . أفلا تعجب من أن فكرة النور عند السابقين وكانت حقيقة باهرة وهي عند إبراهيم الخليل فهو وإن كسر الأصنام لم يترك النجوم التي عبدوها

بل جعلها وسيلة للاستدلال على مبدعها وخالقها ، وأنها تدل على أنه مدبرها ومدبرها ومكملها ، ثم ترى النبي صلى الله عليه وسلم في غار حراء ينظر في النجوم وكان في آخر الليل وقت التهجّد حين يقوم بقراءة « إن في خلق السموات والأرض » الآيات ، وفي القرآن « وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » وجميع العبادات مرتبة على الأوقات التي هي مرتبة على سير النجوم . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية قوله تعالى « فهداهم اقتده »

يقول الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فهدى الأنبياء اقتد . وبأيت شعري لم تقرؤها الآن؟ ولم تتلوها صباحا ومساء ، أتلوها لأن نبينا صلى الله عليه وسلم الذي هو في عالم الأرواح اليوم وعند ربه ولللائكة مكاف باتباع الأنبياء . كلا بل تتلوها لأجلنا نحن ونحن للكفوفون باتباعهم . فإماذا مكفوفون باتباعهم؟ في الصبر والشكر وجميع أنواع السكالات .

يا محبباً كيف يقول الله في داود عليه السلام « وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً » ويقول إنه سخر لسليمان الريح . فهل كان ذلك مجرد قول نسمع له لتفككه به؟ كلا والله ثم كلا لقد كذب الجاهلون . سخر الريح لسليمان والحديد لداود ونظر إبراهيم في النجوم وعرف تدرجها من كوكب إلى قمر إلى شمس وانتقل من الأدنى إلى الأعلى كما في أمثال أفلاطون حتى كان الانتقال من النار إلى الشمس وهكذا حتى وصل إلى العوالم المجردة . وكان داود خليفة في الأرض يحكم بين الناس بالحق ولا يتبع الهوى . إن ذلك ليقدره النبي صلى الله عليه وسلم بهم : أي لتقتدى نحن بهم ولا معنى لاقتداء أحد من قبلنا ولا من بعدنا لأنهم ليسوا معنا الآن ولنا نقرأ القرآن لأجلهم وإنما نقرأ القرآن لنا والاجترار بأن قراءته للرحمة ليست مطمح نظر الدين والنبوة وإنما هو العلم والحكمة . فإماذا أعدّ للسلمون للريح حتى يسخروها . لقد سبقهم القرنجة فسخرها الريح لاتباعها لسليمان ولكن اتباعاً لعقولهم . الله يقول لنا اقتدوا بهؤلاء ومنهم داود وسليمان وهما اللذان كانا شاكرين نعم الله ومن نعم الله تسخير الريح وإن كان ذلك معجزة ولكن نحن ننظر لها من جهة الشكر فكيف نشكر نعمة لا نملكها ، ولقد أخضع الألمان الهواء إخضاعاً هيبياً حتى إنهم قد جعلوا في أيام الحرب نحو ثمان معامل كل معمل فيه نحو ٣٦٠ تليفوناً للخطابة كلها يستخرج فيها ترات القضاة من نفس الهواء وكانت نافعة في أعمال الحرب ثم الآن استعملت في عماد الزرع . كل هذا من نفس الهواء مع أعمال أخرى .

أفليس من العجب أن الهواء يسعد الأرض ويساعد الجند بمادته . فإماذا فعل للسلمون لشكر نعمة الهواء ولا شكر إلا بمحصول النعمة وإن صدم عن هذا أنه هناك معجزة ولين الحديد لداود معجزة . قلنا ليس الشكر على الحديد والهواء قاصراً على المعجزة فالعمل الإنساني له فيها مآرب ظهر كثير منها حديثاً وكان على المسلمين أن يتنبهوا قبل الأمم ولكنهم إذ تأخروا عنهم في التشبه فلماذا لا يسعون في الانتفاع بالهواء والحديد بل بكل شيء مما علم وما لم يعلم . السلمون يأقده اليوم عالة على النوع الإنساني والله لا يرضى ذلك وكيف يكونون عالة وهم « خير أمة أخرجت للناس » والعالة لا يكونون خير أمة وقد آن أن ترجع الأمة كما كانت في أول عهدنا . ١٥

اللطيفة الثالثة قوله تعالى « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً »

لقد وبخ الله اليهود على أنهم قد أخفوا كثيراً من قراطيس التوراة وأظهروا كثيراً ، ولقد خطر بنفسي لما ذكرت في هذا للقيام لعمري أن هناك سرّاً مخفياً وعلماً يجب نشره وحكمة يجب إظهارها ، كيف يقول الله هنا هذا ولم خصمه بهذا اللقب . ومعلوم أن هذه الآيات لم يقصد بها أحد سوانا نحن الذين نعيش الآن من المسلمين لأن المسلمين الذين ماتوا والذين سيأتون بعدنا ليس الخطاب موجهاً لهم الآن فعلى المسلمين الذين

يقرون القرآن في أي زمن أي في زماننا هذا أو بعد ذهابنا من هذا العالم أن يقولوا إن هذا القول يقصد به تنبيهنا إلى خطر فلتلاف ذلك الخطر . أما أنا اليوم في هذا الجيل في القرن العشرين في السنة الرابعة والعشرين الميلادية وهي السنة الثانية والأربعون الهجرية أرفع صوتي للعالم الإسلامي وأقول لهم بكل صراحة ووضوح وجلاء لاشك فيه ولاغموض : إن هذه الآية منطبقة علينا في مصر وفي الشام وبلاد العرب وبلاد التراب وبلاد الترك وبلاد جاور وبلاد الهند وبلاد الصين وبلاد روسيا وبلاد السودان وبلاد الحبشة وبلاد البربر . أقول : أيها المسلمون جميعا خذوا حذركم . أهدركم أننا فعلنا في القرآن ما فعله اليهود في التوراة ولو أرسل لنا نبي الآن لفال لنا : أيها المسلمون إن القرآن قد جعلتموه قراطيس تبدونها وتحفون كثيرا ونحن قد اتبعنا الأم التي قبلنا خذوا القفة بالقفة وخذوا النعل بالنعل كما في الحديث «لتبعن سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» ونحن قد دخلنا جحر الضب الذي دخلوه ! قد دخلناه وأنا أرى الجحر بعيني ولكن أكثر الناس لا يعلمون أنهم في جحر ضب .

فصل في محاورات بيني وبين أحد الفضلاء

ولما وصلت إلى هذا المقام حضر أحد الإخوان من أهل الفضل فاطلع على هذا وأنا سائر في الكتابة فقال يا فلان اربح على نفسك ماذا تكتب ؟ هذا والله الكفر بعينه ، وأي عاقل يقول هذا القول فضلا عن مؤمن وما كان ينبغي لك أن تكتب هذا بل أقول لا تكتبه في التفسير لئلا يأخذ الناس بظاهر قولك ويعلمون عليك بحكم لارتضاء فتضيع الثمرة من الكتابة .

قلت لم ذلك ؟ قال لأنك تزعم أن القرآن مغير وبعضه مخفي ، وكأنك تزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبلغ بعضه أو بلغ الكل ، والقرآن بعضه محذوف أو أن للصحف ناقص وهذا هو الكفر بعينه . قلت هوون عليك يا صاح ولو أتى خطر لي هذا القول لم أجد دليلا في العقل ولا في النقل عليه ، قال إذن ما معنى كون المسلمين أخفوا بعض الدين ؟ قلت ألت تعلم أن الفحم الحجري والحديد والنحاس كانت تستخرج من باطن الأرض من قديم الزمان ؟ قال بلى . قلت والبخار كان يراه الناس في غدوهم ورواحهم وفي منازلهم . قال بلى . قلت فكان الفحم الذي علمه الناس والتعب وبقية المعادن منتفعا بها أما ما رأوه بأعينهم في مساجلهم وعلى شرايبهم وطبخ طعامهم وهم لم يعلموا علمه ولم يعرفوا ثمرته فقد حرموا منه ، قال نعم . قلت هكذا القرآن فإنك ترى آية الوضوء وآيات الحج والصلاة قد قتلها الأئمة رضوان الله عليهم بخنا وتنقيا حتى لم يدعوا زيادة لمستزيد فتجد في غسل الوجه من الأقوال ما لا يدع قولاً لقائل . وترى ابن عباس يقول تمسل العين من الداخل ، وترى غيره يوجب غسل الفم والأنف أي اللصمضة والاستنشاق وغيرهم يوجب غسل مقدم الأذنين بالماء وذلك لاختلاف الاعتبارات والنظر في العبارات والهمة في اللطومات واستيفاء العلم والحكمة في الآيات وهكذا الفرائض والساوي واليئيات والزكاة والصلاة والحج ومسح الخف وما أشبه ذلك وقامت متون هذه العلوم ١٣ قرنا حتى ألفت الناس ذلك وصرفت أذهانهم وعقولهم ورجبانهم عما سواها حتى أصبح القرآن إنما يقرأ للتبرك وضاعت الثمرة المقصودة منه ، وترى من جهة أخرى آية إبراهيم مثلا في هذه السورة وأنه رأى القمر والشمس والكواكب طالعات ففكر فيها وذكر الأنبياء بعده ثم ذكر الأمر الحتم يقول الله «فبهдам اقتده» أي يقول لنا نحن الآن اقتدوا بهؤلاء . ونحن نسلم هذا القول فنقول جميعا بلا استثناء في مشارق الأرض ومغاربها الشمس والقمر والنجوم والأنبياء واقتداء النبي صلى الله عليه وسلم بهم كل هذا مفهوم عندنا ، كتب الفقه فيها جميع الأحكام ولم يبق زيادة لمستزيد ، وأما النجوم فإنها لازوم للنظر فيها فقد عرفنا الله ، وأما الأنبياء فقد اختلف العلماء فيهم هل شرع من قبلنا شرع لنا وهكذا ، ويقف الذي

عند أمثال هذا اللغز وقد أسدل على جميع العقول الإسلامية الحجاب إلا الراشدين وم الذين ميزهم الله بنور العلم واتزوا في زوايا الأرض لا يملكون ولا يرشدون .

فيآليت شعري أية فرق بين قوله « اغسلوا وحوهم » وقوله « فهدام افتده » وأى فرق بين قوله « ولأيوه لسكل واحد منها البس بما ترك إن كان له ولد » وبين قوله في هذه السورة « فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى الخ » ولم يفضل الكلام في الميراث ولا يفصل في الانتداء بالأنبياء وفي النظر في السكواكب والشمس والقمر والمعدن والنبات والحيوان والتشريع . أليس هذا كله في القرآن وكيف يقول « وأتاه الجديد » ويقول « قسخرنا له الريح » ويقول « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه » وهذا يشمل الريح والحديد والنحاس وغيرها ، فإذا كان الأنبياء قد أعطوا بعضا فقد سخر السكل لعباده . يقول الله لبيه صلى الله عليه وسلم افتد بالأنبياء والأنبياء كان منهم من شكر الله على نعمة الهواء ، ومنهم من شكره على نعمة المادن ، ومنهم من بحث في النجم والشموس وهكذا ، أفلا تتقبل نعمة الله ونبئت في كل ما على الأرض وما في السماء افتداء بالأنبياء وإجلالا لقوله تعالى « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه » وقبولا لمعطية . ومن أعرض عن عطية الكريم الحكيم عاقبه بالحرمان ولا معنى لشكر النعمة إلا صرفها فبا خلقت له وقد أمرنا أن نشكر نعمه فقد قال « اذكروا نعمتى التي أنعمت عليكم » وقال تعالى « واشكروا لى ولا تكفرون » وقد عرفنا معنى الشكر . أفليس من شكران النعمة ومن المصيان أن ندع ما يمكن الانتفاع به من المخلوقات فلا نستعمله وبذلك نصبح غير شاكرين ، وهل يليق بالمسلمين أن يكونوا غير شاكرين ؟ فأين العقول وأين الحكمة وأين الاستنباط وأين العقول الكبيرة التي خلقها الله ؟ .

إن تلك العقول قد وضعت فى أغلال وحكم عليها بالإرهاق ، فإن العقول الكبيرة التي خلقت فى البلاد الإسلامية قد حكم عليها أن تضيع الذكاء المفرط فى علم الكلام من الرد على الشافعيين الذين ماتوا فكتب التوحيد أول مصيبة حلت بالأمة الإسلامية ، وقد استعيب بها عن النظر فى السموات والأرض كمنظرات إبراهيم الخليل ، فهذه الكتب لاهى بمعطية اليقين ولا هى بمرقية للعلوم . فأما نظرات الخليل عليه السلام فى النلك وبصية آى القرآن فى الطبيعة والعلوم الأخرى فإنها ترقى العقول الإنسانية وتعطى المعلومات البقينة ويرقى الجامعة الإنسانية . فيآليت شعري أية فرق إذن بين قوله تعالى « فلما رأى الشمس بازغا قال هذا ربى هذا أكبر » وبين ظهور البحار قبل معرفة منافعها . لعمر ك إنه لافرق بين خفاء النى وبين ظهوره مع الفلة عنه ، وإذا وضعنا أمام الأعمى أجمل صورة فى الوجود فإننا لاندعى أنه عرف جمالها أو أدرك محاسنها .

قال صاحبى وهل يقال إن المسلمين أخفوا صحفا من القرآن ؟ قلت النتيجة واحدة ، بل الخفى يمكن الاطلاع عليه بعد البحث ، أما الظاهر المكشوف الذى براء كل إنسان وقد صرفت عنه الأذهان فإنه لا يتنفع به اعتبر ذلك فى الديانات وفى المخلوقات ، فإن دين المسيح لا يعرفه إلا المسيح مع أنه يكون فى بلاد الإسلام ودين الإسلام لا يعرفه إلا المسلم وهو فى ديار النصرى مثلا وذلك لانصراف النفوس عن كل ما لا تشوق إليه ، فالسألة مسألة تشويق ورغبات . وزى الصناعات والسياسات والتجارات فى أوربا قائمة السوق رائجة ، والشرق نائم وهو يرى بينيه صليل السبوف ودوى اللدافع وحصد النفوس فى الشرق واستنزاف الثروة بالتجارة وهو ساكت نائل ولماذا هذا ؟ لأن العقلاء لم يحركوا النفوس للصروفة ولم يشوقوها للأمر النافمة المفيدة فتكون لها مشوقة . قال صاحبى فإذا تريد إذن ؟ قلت إذا قالوا فى الكتب الدينية كتاب الصلاة والزكاة والحج والبيع والقرائن والسنابى والعنق فلم لا يقال كتاب فى نظام الطبيعة وكتاب فى نظام الملك وكتاب فى عجائب الحيوان وفى النبات وفى الحشرات فيطلع أكثر أهل العلم على مجمل هذه العلوم ، وكما يخصص قوم بالفضاء ، يخصص قوم بالملك وآخرون بالطبيعة التي هى علم التوحيد حقا وسدقا وآخرون يعلم الحشرات

وآخرون بعجائب غيرها ، فقال ذلك الناقل أو يكون هذا دين الإسلام ، قلت نعم ولا إسلام غيره . فهذا هو الإسلام الحقيقي ، قال عجبا لك ! أفلم ترى أن المسلمين السابقين قد القوا في هذه العلوم كلها ؟ قلت نعم ألفوا باعتبار أنها علوم إما كفرية وإما مستحسنة وكان ذلك عملا فردبا أو دنيويا ، ولكني أقول بأعلى صوت هذه العلوم دينية كأرسوز . والصلاة والحج ، ولماذا يعتنى المسلمون بشروط البيع ولا يمتنون بعلوم العادن ، ولماذا خصصوا للقضاء طائفة ولم يخصصوا نظيرها لعلوم الحشرات أو لعلم النبات أو لنظام الحدائق العناء مع المشاركة في سائر علوم الدين ، أقول هذا وأما موثق أن هذا هو الدين حقا ، فعلى المسلمين أن يحيدوا ، وإلا فأنتم تعلم أن الله تآمر فوق عباد . فقد نقل الإسلام من قوم إلى قوم ، ولما ناموا جميعا أنزل عقابه على الجميع وأذلهم للفرنجية فسادوا عليهم أجمعين هذا هو الحق الصراح ، إن هذه الآية .

برزخ بين البحرين

وهي « يحملونه قراطيس تيدونها وتخفون كثيرا » إلى قوله « وهذا كتاب أنزلناه مبارك الخ » .
يجب للتأمل لهذه الآيات ويدهش من نظامها ، كيف لا وإنما لم تذكر إلا في برزخ بين البحرين من العلم البحر الأول : علم السموات المفهوم من نبي إبراهيم ونظره في السموات . البحر الثاني : العلوم الأرضية في النبات والحيوان الخ .

أيها الذكي انظر وتأمل وتعب هذا بحر من العلم . أولها في الفلك ولا يتم إلا بجمع العلوم الرياضية من الهندسة والجبر الخ . ثانيها علم النبات والحيوان . ولا حرم أن العلوم الحسكية لا يخرج عن هذين ، فهي علوم للعالم العلوي وعلوم للعالم السفلي والأخيرة هي العلوم الطبيعية والنظر العام فيها معا هي العلوم الإلهية . إذن هذه السورة جمعت علوم الحكمة كلها وقدست الرياضيات كما هو منهج التعاليم في العالم كله ، وأخرت الطبيعيات هذا واضح ظاهر ولكني أريد أن أحدثك حديثا عجبا وهو القصور . أحدثك عن وضع هذه الآية في البرزخ بين البحرين وما حكته ، ولم لم توضع قبل البحر الأول أو بعد البحر الثاني ؛ إنما جعلها الله هنا لحكمة شريفة ظهرت في هذا الزمان وأبرزها العلم والتاريخ .

ذلك أن اليهود المذكورين في الآية قد خبثوا كثيرا من علوم التوراة وأظهروا بعضا على حسب أهوائهم والسلمون اليوم وإن لم يحقوا القرآن وأظهروه ولكن العلوم التي بحث عليها قاموا ببعضها وتركوا أكثرها أما البعض فهي العلوم النقية ، وأما الأكثر التروك فهي العلوم المذكورة في هذه السورة وهما البحران المحيطان بهذه الآية ، فكأن وضعا هنا إشارة إلى أن هذه العلوم ستختفي زمانا في الأئمة الإسلامية والقرآن يطلبها متى عرف ذلك رجعت الأمة إلى قراءة تلك العلوم ، وأنت أيها الإلحكي لا تصور ما فاته لك الآن مما تضمنه هذا الوضع إلا إذا قصمت عليك قصص الأمم الإسلامية فأقول :

لقد دوت الأمم الإسلامية العلوم عن الأمم السابقة الذين لم يعلم الناس عنها شيئا إلا أن المصريين هم الذين نبغوا في العلوم وفقى على آثارهم السريانيون والسكندانيون ثم الفرس واليونان . وأحل هؤلاء (سقراط وأفلاطون وأرسطو) ثم انتقلت الحكمة والمثل إلى الرومان وكان منهم (شيشرون وسنيكا) .

ثم لما كان آخر القرن الثاني حدثت شيعة الإسكندر بين الذين كانوا يوفقون بين العلم والدين . ولما تنصر الفرنجية هجروا أكثر تلك العلوم ، ثم ظهرت الأمة العربية ودانت لها الأمم فأرسل أبو جعفر النصور إلى ملك الروم أن يرسل له كتب التعاليم مترجمة فبعث إليه بكتاب (إقليدس) وبعض كتب الطبيعيات فقرأها المسلمون واشتاقوا إلى العلم لاسيما أنهم خالطوا الروم والفرس والصابئين فأنار ذلك شوقهم إلى العلوم . ولما جاء المأمون سعى جد السعي في استخراج تلك العلوم ، وهناك ظهر للترجمون من اليونانية إلى العربية وكان ابتداء ذلك من سنة ١٣٦ وانتهى في نصف القرن الرابع الهجري ، ومن التراجم في تلك الصور

(يحيى بن البطريق وجورجيس بن جبرئيل ويحيى بن البطريق ويوحنا بن ماسويه وسلام الأبرش ويوحنا بن البطريق وحنين بن إسحاق وإسحاق بن حنين ويحيى بن عدى) وغيرهم ، وهذه الترجمة كان فيها اختلاف كبير فلخصها الفارابي ومحصها ابن سينا .

انحطاط التعاليم فيها بعد ذلك

ثم أخذت ربح العلوم تركد والأئمة ترجع الفقهري فأخذ صفار العلماء يحرمون هذه العلوم وأصيب العلماء بهذه العلوم بمصائب الحسد والعداوة والفتنة والحبس كما حصل لعبد السلام الجبيلي المعروف بالركن الذي اشتهر بهذه العلوم في القرن السادس من الدولة الإمامية الناصرية وحصل له تقدم عند رجال الدولة فأخذ أطفال العلماء يذتمونه ويوقمون به حتى برزت الأوامر الناصرية بإخراج كتبه إلى موضع يتعداد يسمى (بالرجبة) وخطب الرجل المسمى (بابن المارستانية) فوق منبر وصار يلعن علم الفلك وعلم الحيوان وغيرها ويلقي كتبها في النار وحبس ذلك العالم في السجن ولم يخرج إلا بعد مدة في سنة ٥٨٩ هجرية . هذا ما كان في بلاد الشرق . ثم انظر ما حصل في بلاد الغرب فإن القوم أحرقوا كتب الغزالي في الأندلس والغرب الأقصى ، ولقد وصل الأمر إلى ما حكاه أبو حيان في تفسيره البحر ، أن أهل النطق بجزيرة الأندلس كانوا يعبرون عن النطق بالفعل تحريزا عن سؤلة للفقهاء حتى إن بعض الوزراء أراد أن يشتري لابنه كتابا في النطق فاشترى خفية خوفا منهم مع أنه أصل كل علم ونهيم كل فن .

ثم إن القوم اضطهدوا ابن رشد فتحول العلم بهذه الأسباب من الشرق والإسلام إلى أوروبا من طريق تلاميذ ابن رشد النصارى واليهود فدار الزمان دورته .

هذا ما كان من أخلاق الأمم الإسلامية بعد القرون الأولى فانظر ماذا فعل الله حالا ؟ سلط عليهم النول والتار المعبر عنهما في علم الجغرافيا قديما كما سيأتي في سورة الكهف بلفظ « بأجوج ومأجوج » جمهم جنكيزخان وتوجه بهم إلى بلاد الإسلام لما وجد من قطب أرسلان ظلما لتجاره وتكنا بعهوده كما سيأتي إيضاحه في تفسير سورة الكهف فخرّب البلاد وقتل الشيوخ والصبيان والنساء ، وقد يقتل البهائم ويدمر كل شئ تدميرا .

وأحرقوا كتب الخزان العلمية في بخارى وممرقند وحلب ، فقد مزقوا ما فيها من الكتب لما دخلوها وهكذا ضاعت ومزقت كتب الكاتب الإسلامية ، وبما زاد في الطين بلة الحروب الصليبية . إذن الأمم الإسلامية أولا غيروا ما بأنفسهم من العلوم وحبا فقبر الله حالهم فأغارت عليهم الأمم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ثم جاءت دولة الترك وفتحوا القسطنطينية وكان فيها غول في العلوم الحكيمية والدينية كالعلامة شمس الدين الفناري والفاضل قاضي زاده الرومي والعلامة خواجة زاده والعلامة علي قوشجي والفاضل ابن المؤيد وميرجاي والعلامة ابن السكال . قال العلامة التركي مثلا كاتب جلبي مؤلف كتاب (كشف الظنون) التوفي في القرن الحادي عشر الهجري .

ولما حلّ أوان الانحطاط ركبت ربح العلوم وتناقصت بسبب منع بعض الفتين من تدريس الفلسفة وسوقه إلى درس الهداية والأكل ، فاندست العلوم بأسرها إلا قليلا من رسومها فكان للولي المذكور سببا لاقرض العلوم من الروم كما قال مولانا الأديب شهاب الدين الخفاجي في خبايا الزوايا وذلك من جملة أمارات انحطاط الدولة اه مثلا كاتب جلبي .

فانظر كيف ذهبت دولة الإسلام في الشرق بجنكيزخان وخلفائه الذين أماتوا ألف ألف إنسان في بغداد وجعلوا الكتب جسرا تمرّ عليه جيوشهم بدجلة . وانظر كيف جاء الملك (فرديناند) وزوجته (إزابلا) وقتلوا المسلمين بالأندلس ومن بقى تنصر ولم يفرّ منهم إلى بلاد شمال أفريقيا إلا القليل وأبناؤهم اليوم في مراکش

وتونس والجزائر . وانظر كيف انحطت دولة الترك البائدة الجاهلة في زماننا وعلت محلها الأمة الحالية التي يقودها الغازي (مصطفى كمال باشا) وهي تجدد في تعلم العلوم بأسرها ، والله عاقبة الأمور .

هذا تاريخ الأمة الإسلامية . أليس هذا الذي بسطته أمامك الآن معناه أن المسلمين لما أحبوا جميع العلوم كانوا في منعة ، ولما غيروا ما بنفوسهم غير الله حالمهم « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له » ألسنت ترى أن هذه الآية منطبقة على تلك الأمم ؟ فإنهم لما غيروا ما بأنفسهم أراد الله بهم السوء . ولم يكن لذلك سوء مردّ وقد حصل فعلا فذلّ للمسلمون في أقطار الأرض . أولست ترى معنى أن قوله تعالى في هذه الآية مخاطبا اليهود « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » يقرب مما ذكرناه ، فالقرآن وإن كان مقروءا ولم يغير فالتدبير غير وبدل هو طرق التعليم . فالمسلمون في أول أمرهم كانوا يدرسون كل العلوم أو يجربون دراستها ، ولما منعوا صاروا كأنهم أخفوا بعض الكتاب وأظهروا بعضا . ألا ترى أنك تدخل المعهد الديني فلا تسمع إلا أن المطلوب هو علم الفقه وعلم التوحيد ولا يقرءون للطالب جمال الطبيعة والفلك ولا يذكرونه بأن العلوم جميعها فروض كفايات ويوزعونها على الأفراد . أليس مثل إخفاء القرآن تماما بل هذا هو التصود من الإخفاء . لهذا جرى بهذه الآية بين العلوم الفلكية والعلوم الطبيعية تنبها للمسلمين .

إننا ورتنا عن أسلافنا الأقربين علما ناقصا وتركنا أهم العلوم فكأننا نبدي بعض الكتاب وهو الفقه ، ونغنى كثيرا وهي العلوم الحسكية التي لها (٧٥٠) آية بخلاف الفقه الذي له ما لا يزيد عن (١٥٠) آية فتعجب من عجائب القرآن . هذا ، ولما ترك المسلمون هذه العلوم رأينا وعلنا أن كل طالب علم ارتقى عن الوسط الإسلامي في الشرق والغرب نزل الإسلام في عينه عن مكانته كما سمعت ذلك من جميع طبقات المسلمين . قال لي أحد علماء الصين : إن أبناء الأغنياء للمسلمين بعد رجوعهم من أوروبا ينظرون إلى دين الإسلام نظرم لمستصر الأشياء وأدناها درجة لعلمهم أنه لا يخرج عن الوضوء والطلاق وعقد العقود . هذا كلامه وقال : إن هناك سبعين مليوناً من المسلمين . قد رأينا آثار قصة الخليل في الأمم السابقة فأين آثارها في الإسلام ؟

قد قلت لك قد عثرنا على طريقة تعليم القدماء قبل المسيح بأربعة قرون وكيفية البحث في العالم العلوي والعروج إلى السكّال في كتاب (جمهورية أفلاطون) وقد رأينا فيها أنه انتقل من العالم العنصري إلى العالم الفلكي وجعل أصل الحيد هناك ، ثم جعل العلم الرياضي كالحساب والهندسة والجبر هي محور العالم الإنساني وأن الأعداد وأعمالها أقرب إلى عالم المجرّدات ، فالتفكير يصعد بها إلى العدل والجمال والخلوص من شقاء السادة وجهالها ، وكذلك أوجب الرياضة الجسمية لإعجابا عظيما وحتم على كل رجال الجيش ورجال الحكومة أن يكونوا في علم الرياضة بارعين وفي الحساب مدققين وأكد ذلك تأكيداً أكثر في أمراء الأمم من الملوك والوزراء . وأمثالهم فأوجب عليهم تعلم الرياضيات العقلية أكثر من قواد الجيوش وهكذا .

هذه الباحث كانت تقال قبل المسيح وبعضها يكاد يكون كتعليم الخليل كما تقدّم . فإذا استنبط المسلمون من قصص الخليل ونظرة في النجوم ومن قصص سائر الأنبياء . نعم قد اكتفوا بأن نبينا صلى الله عليه وسلم فعل بالأصنام ما فعله الخليل وكسرها وقال آمنوا بالله فآمنوا واتبعوا الأمر . وأصبح القرآن يتلى للعبادة . أما التفكير فأصبح في كتب الفقه وكتب أصول الفقه وكتب علوم التوحيد وغاب عن الناس إشراق شمس اللذات الحممدية والعلوم الكونية والأنوار القدسية والنجوم السماوية والأنوار الخليلية فغطت البلية وقتلتنا الأمم الغربية كل ذلك حاصل ولكن الناس لا يتذكرون يحسون به ولكنهم لا يشعرون يذبون ولكنهم

لايتوبون . يا ليت شعري أرضى للسلون بذلك فناموا ، أم السكره أساطت بالفكرة فأصبحوا خاملين ؟
 لقد جا . وقتكم وأقبل سعدكم وأمر ربكم أنكم إلى طريق السعادة سارون وإلى مقام الرشد مهتدون .
 قال صاحبي فاذا ذكر نبذة من جمال الفلك تكون تبصرة للقارئين وذكرى للذاكرين لمناسبة قصة الخليل
 واقتهاد النبي صلى الله عليه وسلم به في نظره الجليل امتثالاً للأمر بالاعتداء على شريطة أن لا يكون مما ذكرته
 في هذا الكتاب .

سأذكر لك نبذة في الفلك قريبا ، وعند قوله تعالى « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات
 البر والبحر » وشيئا من أبعاد الكواكب وعددها ، وأكتفي هنا الآن بذكر مسألة تخص بهذا النظام
 الشمسي فأقول : اعلم أن الأرض تدور حول الشمس وكذلك السيارات ثم القمر يدور حول الأرض
 كل ذلك في مدارات متشابهة ويسمى كل منها (الشكل الإهليلجي) فإذا رأينا الربيع والخريف والسيف
 والشتاء فإن ذلك حاصل من سير الأرض حول الشمس ، وهذا المدار تعرفه بأن تذهب إلى الحدائق وفيها
 أشكال ذلت أزهار منتظمة الوضع بطرق هندسية يعقلها البستانيون . وطريق ذلك أن يسعوا في الحديقة
 وتدين في الأرض وبينهما يمد يعينونه على حسب الصلعة والنظام المطلوب ، ثم يأتون بجبل أطول من ضعف
 للسافة بين التدين ثم يربطون طرفيه فبصبر مقفلا ، ويأتون بخشبة ويضعونها على ذلك الجبل من الداخل
 ويجذبونها إلى الخارج ويدورون حول التدين فيرسون بذلك شكلا تاما وهذا هو (الشكل الإهليلجي)
 فترآه كدائرة مستطيلة وتراه في البساتين المحيطة بالقاهرة بدارنا المصرية ، وقد أهدى الله رجال البساتين أن
 يصنعوا هذا الشكل حتى إذا جا . من لم يمارس علم الفلك واطلع عليها وقد قرأ هذا الكلام أدرك أن هذا هو مدار
 السيارات حول الشمس ومدار القمر حول الأرض وموضع التدين في ذلك الشكل يسميان (البؤرتين)
 أو (تخطي الاحتراق) أو (المحترقين) وترى الشمس دائما بالنسبة للأرض وللسيارات في إحدى البؤرتين
 والأرض والسيارات جاريات على هذا الشكل وكذلك الأرض بالنسبة للقمر الدائر حولها أي أنها في إحدى
 البؤرتين دائما .

كيف قصر للسلون ونبغ الترييون في القرون الأخيرة وفلاسفتهم الأتدمون

تلاميذ علماء الإسلام بالأندلس كما هم به معترفون

لقد ذكر العلامة (سديو) الفرنسي الذي ألف كتاب (تاريخ الأمة العربية) أن علماء أوروبا في القرن
 الرابع عشر والخامس عشر المسيحي قد اذعموا أنهم كشفوا مسائل في الفلك والطبيعة وغيرها وهم في ذلك
 كاذبون سارقون وأثبت تلك السرقة بعشرة أدلة ، مثل أن أوروبا لم يكن بها مرصد في ذلك الزمان وإنما
 كانت في ديار الإسلام ، ومثل أن بعض المسائل المكشوفة وجدت في كتب عربية بعد الكشف تاريخ تأليفها
 قبله بقرون وهكذا الخ .

أقول فهؤلاء الأوربيون الذين هم تلاميذ آبائنا كما ذكره العلامة (سديو) القائل إنهم كانوا تلاميذ
 للسلين بالأندلس الخ قد أصبحوا اليوم أرقى من السلين في جميع العلوم والعلوم والعلوم تأمرون خاندون جاهلون ،
 ولأذكر لك آخر ما يصنعون بالفلك وهو :

محييتان

(الأولى) منظار للبحث في القمر . (الثانية) خريطة السموات .

أما الأولى وهي منظار القمر فذلك أنه في هذه السنة أي سنة ١٩٢٦ يصنع في باريس منظار (تيلسكوب)
 يزيد حجمه عن ضعف أي منظار فلكي في العالم حتى اليوم ، ويؤمل أن يرى بواسطته الكواكب التي
 لا تشاهد الآن على مسافة خمسة عشر ألف مرة منها ، وهذا المنظار يقبضه الآن العالم الفلكي الأمريكي

(جورج رتشي) وسير القمر بواسطته على بعد عشرة أميال فقط وهكذا يتضاعف أمام النظر الكون المرئي مليوناً وخمسة آلاف مرة في الحجم ويقولون إنه مستعد للعمل في صيف هذه السنة .

أما العجيبة الثانية وهي خريطة السموات . فاعلم أنه قد اشترك ١٨ مرصداً في عمل هذه الخريطة وابتداء العمل كان في سنة ١٨٨٧ ويستغرق ٧٥ عاماً ، وقد أتم ثلاث مراصد العمل الآن وهي مرصد الكاب في جنوب أفريقيا وجريونتش وأكسفورد في إنكلترا . وقد بلغت تكاليف الخريطة حتى الآن مليوناً من الجنيهات وستحتوي على قسمين مختلفين عند تمامها ؛ أحدهما صورة تخطيطية عامة ، والآخر الأسماء والأوصاف والمقاسات لما يقرب من نصف مليون كوكب ، وعلى كل مرصد أن يأخذ أنفاً ومائتي لوحة تصويرية مرتين وعلى كل لوحة ما يتراوح بين أربعائة وخمسة كوكب يقاس كل منها ويقيد بأصوله ويبلغ ما يخص كل مرصد عندئذ نصف مليون من الكواكب اه من الجرائد الإنجليزية في هذه الأيام .

هذا عمل أوروبا . وهذا هو الذي يرى إليه الخليل عليه السلام ومقصد القرآن . هذا هو الذي يطلبه الإسلام . كان هذا واجباً على المسلمين وجوباً كفاً .

إن هذه الصور السماوية التي يأخذها الأوروبيون نافعة من الوجهة العلمية والتوحيد ومن جهة ارتقاء النفوس ، ومن جهة التجارة فإن كثرة المعارف السماوية الكوكبية تسهل طرق الملاحة ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

قطرة من بحر ملكوت السموات والأرض الذي أراه الله لإبراهيم عليه السلام

والكلام على الكواكب والقمر والشمس المذكورات في هذه القصة

(١) الكواكب على قسمين : نوابت وبيارات . أما النوابت فهي أكثر التي نراها في السماء كل ليلة وهي تبلغ مئات الملايين بالمناظير العظيمة . وقد ذكرنا هذا في مواضع من هذا التفسير .

وتريد الآن أن نبين أن القدماء قد قسموها إلى عدة صور . والمنقول عن بطليموس أن تلك الصور (٤٨) صورة منها ٢١ في الشمال و١٥ في الجنوب و١٢ في الجزء للتوسط بالقرب من دائرة المعدل ويشتمل مجموع هذه النجوم والأربعين صورة على ١٠٢٩ نجمة عند القدماء منها ٣٦١ للصور الشمالية و٣١٨ للصور الجنوبية و(٣٥٠) للصور النطقية ، والاثنتا عشرة صورة للنطقية هي المنازل المروفة ، وهي الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والليزان والعقرب والقوس والجدي والذئب والحوت والإحدى والعشرون الشمالية منها اللب الأصفر أو بنات نعش الصغرى والذب الأكبر والتعبان والمثبب والقواء والجاني على ركبته والمرأة للسلسلة والخمس عشرة صورة الجنوبية منها : قيطس . الجبار . نهر الأردن . الأرنب . الكاب الأصفر . الكلب الأكبر . السفينة . الشجاع . الكاس . القرب . المجرم . سنطورس النح .

وقد جعلوا هذه النجوم أقداراً فأضوؤها القدر الأول وبيته الثاني وهكذا . والنأخرون حافظوا على هذا التقسيم ولكنهم رأوا أن النجوم أكثر حتى جعلوها ستة آلاف نجمة لدى الأبيصار الحادة ومئات الملايين بالآلات الراسمة كما تقدم إيضاحه في سورة البقرة . ومن هذه النوابت الآتي :

(١) النجوم للتعيرة فلا يحفظ ضوءها شدة واحدة ، وهذا التغيير فيها إمامدة معلومة وإما ليس يعلم له دور .

(٢) ومنها النجوم الوقتية الجديدة فقد تظهر نجوم في محل من السماء لم يرها نجوم من قبل ثم تختفي مثل النجمة المشهورة التي رصدها سنة ١٥٧٢ في وسط ذات الكرسی فكانت أضواء كوكب في السماء ثم أخذت تنقص تدريجاً ثم اختفت بعد ١٧ شهراً .

- (٣) ومنها النجوم التي ظهرت ثم غابت مثل نجمة ظهرت في صورة الإكليل الشمالي سنة ١٨٦٦ ظهرت كلؤلؤة ثم ضفت ولا تزال إلى الآن ولكن ترى بالمنظار .
- (٤) ومنها النجوم التي اختفت ولم ترجع .
- (٥) ومنها النجوم اللزدوجة إذ بعض النجوم التي تراها واحدة بالعين تكون في الواقع نجمتين وقد عدوا منها (٧٠٠) مجموعة إلى الآن .
- (٦) ومنها النجوم اللضاغفة بأن تكون النجمة واحدة بنظر العين ولكنها تكون ثلاثا أو أربع شموس بالمنظار ومنها نجمة من الجبار مركبة من ست شموس .
- (٧) ومنها القنوان والسادم . فالقنوان جمع قنومثل صورة الثور الموضوعة في صورة الثور وهي مركبة من (٨٠) نجمة ، و (٦) منها ترى بالعين ، والسادم جمع سديم وهو الضباب الرقيق ، وعند الفلكيين نجوم صغيرة القدر جدا متقاربة حتى ترى كأنها سحابة أو ضباب أو قطعة نيرة سحابية لا تدخل إلى نجوم مفردة بالنظارات القوية . وملخص هذا النوع ثلاثة أقسام ، فإن أمكن حله بالنظارات ممي مجموعة كوكبية مثل (قنوتوكان) وهذا في قسم السماء الجنوبي ويرى دائما بالعين (المادية) وإن أمكن حل البعض منها فإنها ترى على هيئة شكل منتظم كثيرا أو قليلا وإن لم يمكن حلها أصلا فشكلها الذي يرى يكون غير منتظم .
- (٨) ومنها طريق التبانة أو الهجرة وهي منطقة ضيقة بيضاء يراها الناس جميعا في اللبالي الصافية تقسم الكرة السماوية إلى قسمين متساويين تقريبا ولا تنقل النجوم التي فيها عن ١٨ مليون نجمة ، ولبعد هذه النجوم ترى كأنها لبن أو تبين ، هذه هي النجوم الثابتة .
- أما السيارات فإنها قليلة جدا والفرق بينها وبين الثوابت أن الأولى ضوءها هادي ساكن وأن الثانية متألقة الضوء وتظهر كأنها نقط مضيئة قطرها الظاهري صغير جدا بحيث لا يمكن قياسه ، وبعض السيارات أشكال كأشكال القمر . وقد لاحظ الناس قديما أن بعض النجوم لها حال خاصة مثلا يرون في ليلة ما أن كوكبا من هذه الكواكب ظهر بجوار نجم ثابت ، وفي الليلة الثانية يرون أنه قد تأخر قليلا إلى للشرق وهكذا كل ليلة ولا زالوا يراقبون كوكبا فكوكبا حتى عرفوا هذه الكواكب على هذا الوصف وهي عطارد والزهراء والمريخ والشتري وزحل ، وأضافوا إلى هذه الخمسة القمر والشمس .
- ولما رأى علماء العصر الحاضر أن الشمس مركز العالم وأن القمر يدور حول الأرض وأن الأرض تدور حول الشمس بعكس ما كان يظنه الأقدمون أن الأرض مركز العالم والشمس والقمر وغيرها يدورن حولها .
- أقول لما عرفوا ذلك لم يعتبروا الشمس ولا القمر من السيارات ، بل جعلوا الأرض سيارا كأخواتها الخمس المذكورات وزادوا عليها ما كشف سنة ١٧٨١ وهو (أورانوس) وما كشف سنة ١٨٤٦ وهو (نبتون) فتكون السيارات إذن ثمانية والأرض منها ، وكل هذه السيارات تتم دورتها حول الشمس في أزمان غير متساوية وغير متغيرة . وقد وجدوا أنه كما أن للأرض قمر فالنجم ثوران والشتري ولأورانوس لكل منهما أربعة أقمار ولزحل ثمانية ونبتون واحد كالأرض ، وترى للزهراء ابتعادا عن الشمس بعد غروبها ولا تزال تبعد ليلة فليلة بحركة تسمى طردية إلى أن تبلغ (٤٨) درجة تقريبا يراها جميع الناس مساء وكان يسميها الأقدمون (نجمة الليل) ثم تسكر راجعة بحسب مرأى العين حتى تختفي ثانيا تحت أشعة الشمس وبعد أيام فليلة تظهر قبل شروق الشمس وتسمى (نجمة الصبح) وهذه تسمى حركة تفهقرية لأنها من الشرق إلى الغرب حتى تبلغ (٤٨) درجة ثم تصير حركتها طردية ثانيا أعني من الغرب إلى الشرق وتدخل تحت أشعة الشمس

وهذا كله بحسب الظاهر ، وإلا فإن الحقيقة أن لا رجوع ولا وقوف ، وإنما ذلك بسبب النظر الظاهري الذي يحصل بسبب دوران الكوكب في مداره كما هو معروف في محله بالبرهان . وبهذا نفهم قول الشاعر :

وللنجم من بعد الرجوع استقامة وللشمس من بعد التروب طلوع

وهذه الظواهر التي تراها بينك للزهراء تراها أيضا لعطارد الذي هو وهي سياران سفليان ، وإنما يتباعده هو (٢٣) درجة فقط ومدة الدورة الاقترانية للزهراء (٥٨٤) يوما ، ولعطارد (١١٦) يوما ، وأما للريخ فإنه يتبعه إلى (١٨٠) درجة فله ولسائر الكواكب العليا اجتماع واستقبال كالقمر ، أما الزهراء ، وعطارد فليس لهما إلا الاجتماع ، أما الاستقبال فهو مستحيل إذ الاستقبال لا يكون إلا بالمقابلة على بعد (١٨٠) درجة وهذان لا يتبعان إلا إلى (٢٣) درجة لأحدهما و (٤٨) درجة للثاني ، فكيف يكون استقبال كاستقبال القمر وللريخ حركة طردية وتقهقرية بحسب أوسع مما تقدم .

هذا بيان وصف السيارات

(عطارد) أقرب السيارات إلى الشمس يتم دورته في ٨٨ يوما تقريبا ونرى الشمس فيه أكبر سبع مرات مما ترى من الأرض وشدة ضوئها وحرارتها تكون أكبر سبع مرات أيضا منها على الأرض وله أشكال كأشكال القمر .

(الزهراء) الشمس ترى فيها أكبر مما ترى من الأرض مرتين تقريبا وكذا الحرارة والضوء ، وحجم عطارد صغير جداً ، أما حجم الزهراء فإنه يقرب من حجم الأرض وأيام دورتها ٢٢٥ يوما تقريبا .

الأرض

محيط الأرض يبلغ (٤٠) مليون متر ، ونصف قطر خط الاستواء ٦٣٧٨٤٠٠ متر .

أعلى الجبال المعروفة لا يزيد ارتفاعه عن سطح البحر عن (٩٠٠٠) متر وهو جزء من سبعمائة جزء من نصف قطر الأرض ، وإذا رسم على كرة قطرها متر لا يزيد ارتفاع أعلى الجبال كجبال همالايا عن السطح العمومي بأكثر من مليمتر ونصف (١٨٤) مليمتر . العمق المتوسط للبحار (٦٠٠) متر .

نهاية عمق البحار (١٠٠٠٠) متر .

السطح الكلي للأرض يبلغ (٥٠٩) مليون كيلومتر مربع .

مياه البحار تشغل منه (٣٨٣٠٠٠٠٠٠٠) كيلومترا مربعا . اليابسة (١٢٦) مليون مترا مربعا .

حجم الأرض يزيد عن ألف مليار كيلومتر مكعب (١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) أي أكثر من ألف ألف

ألف ألف كيلومتر مكعب . سمك الجوّ قدره (٤٨٠٠٠) مترا .

مدة دورة الأرض حول الشمس ٣٦٥ يوما و ٢٥٦ جزءا من ألف جزء من اليوم .

بعد الأرض عن الشمس يساوي (٢٨٠٠٠٠٠٠٠٠) فرسخا تقريبا أو (٩٢) مليون ميل تقريبا ويقطع

الضوء للمسافة المذكورة في ثمان دقائق و ١٨ ثانية ، والعطار السريع في (٣٥٠) سنة تقريبا وقلة للدفع في (١٢) سنة تقريبا .

للريخ

السيار الذي يلي الزهراء بالنسبة للشمس هو الأرض وقد تقدم الكلام عليها ، والذي يليها هو للريخ

وبعد المتوسط عن الشمس قدر بعد الأرض عنها مرة ونصف مرة ومقداره (٢٢٥) مليون كيلومترا ،

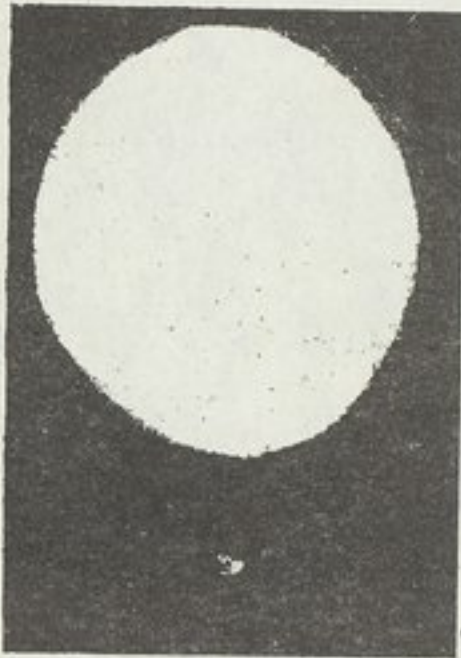
وبرى قرص الريخ من الأرض ذا أشكال ولا يظهر وقت البدر كامل الاستدارة بل يشبه قرص القمر قبل

أو بعد البدر يومين أو ثلاثة .

حجم المريخ يبلغ نحو سدس حجم الأرض ١٤٧.٠ ويظن أن فيه بخارا وقارات وسحبا وقطبين يجيم عليهما الثلج ويتراكم ويمتد شتاء هناك ويقل امتداده في صيف المريخ فهو في هذا كالأرض .
وقد كشف قراء سنة ١٨٧٧ وها (فويوس) و (ديموس) وأولهما أقرب إليه من ثانيهما ، وسنة للمريخ ٦٨٦ يوما و٩٨٠ جزءا من ألف جزء من اليوم .

المشترى - أبعاده

هو أكبر جميع السيارات وحجمه قدر حجم الأرض (١٣٠٠) مرة وقطره يساوى ١٤٠٠٠ كيلومترا فهو قدر خط الاستواء الأرضى (١١) مرة وبعده عن الشمس في المتوسط (٧٧٠) مليون كيلومترا .
أنظر صورة للمشترى والأرض في شكل (١)



شكل (١) المشترى والأرض

سنة للمشترى تعادل (١٢) سنة من السنين الأرضية له حق يظن أنه سميك جدًا وفيه كتل سحابة تحملها رياح كما في الأرض وهي منتظمة انتظامها .

وللمشترى أربعة أقمار ولها كسوف كما في قرنا وقد عين العلماء مدد دورات تلك الأقمار وأبعادها بالفراخ وأنصاف أقطارها كما فعلوا في أرضنا وقرنا وسما تلك الأقمار بأسماء منها (يو) و (جالليستو) الخ . هذا ما كنا نعلمه عن أستاذنا للرحوم حسن افندى حتى منذ (٣٦) سنة ونقلته من كتابه الذى تلقيناه بدار العلوم ، ولكن الآن بلغت أقماره التى كشفها الناس (٩) أقمار وآخرها كشف قبيل سنة ١٩٢٠ :
زحل

امتاز زحل بأن له حلقات منفصلة عن الكرة وتدور حوله في خط استوائه ، والبعد المتوسط لزحل عن الشمس قدر بعد الأرض عنها تسع مرات ونصف

أعنى (١٤٠٠) مليون كيلومترا تقريبا ويقطع مداره في (١٠٠٧٥٩) يوما أعنى (٢٩) سنة ونصف تقريبا وحجم زحل قدر حجم الأرض الذى عرفته (٧١٨) مرة وقطره (٩٠٢٩٩) بأخذ نصف قطر الأرض وحده ، وفصول زحل مشابهة لفصول أرضنا ، وكل فصل من فصوله تزيد مدته عن سبع سنين من السنين الأرضية .
مجموعة حلقات زحل

هي ثلاث حلقات سمكها رقيق جدا وعروضها غير متساوية والحلقة الخارجة مفصولة عن التوسطة بفراغ وأما الحلقة الداخلة التى هي أقرب إلى السيار فيظهر أنها ملاصقة للثانية والوسطى ألمع الثلاثة وأكثر استضاءة من كرة زحل والحلقة الخارجة لونها سنجابي مثل الأحزمة للتمة من القرص تقريبا وكلاهما من الحلقتين مظلتان ومخدفتان على زحل ظلالا ظاهرا جدا . ومجموع عروض هذه الحلقات (٦٠٠٠٠) كيلومترا تقريبا .
أقمار زحل

هي ثمانية وقد سماها العلماء بأسماء مثل (سياس) و (ديونى) و (ريا) الخ وعينوا مدة دوراتها وأبعادها بالكيلومتر وأنصاف أقطارها وقالوا إن أكبرها هوسمى (تيتان) فحجمه قدر حجم قرنا ثلاث مرات وهو أشوؤها . هذا ما تلقيناه من أستاذنا للرحوم حسن افندى حتى تم كشف بعد ذلك قران ؟

أحدها سنة ١٨٩٨ ، والثاني سنة ١٩٠٤ كشفهما عالم أمريكي ، وأغرب هذه الأقمار العشرة القمر التاسع فإن الأقمار كلها تدور حول الكوكب من الغرب إلى الشرق ولكن هذا يدور من الشرق إلى الغرب .
أنظر شكل زحل والأرض :



(شكل ٢) زحل والأرض

أورانوس قد كشف سنة ١٧٨١ كشفه (هرشل) والمسلمون نائمون مختلفون ، حجم أورانوس قدر حجم الأرض (٦٩) مرة ، بعده للتوسط عن الشمس (٦٧٥) مليون فرسخ ودورته (٨٤) سنة تقريبا أو (٣٠٦٨٧) يوما بالضبط ، وله أربعة أقمار وقد سماها العلماء وبينوها بالمساحات ومعرفة الأبعاد ومدة الدورات مثل قولهم (أورون) و(اريل) وهكذا السيار نبتون

هو لا يتم دورته حول الشمس في أقل من (١٢٥) سنة تقريبا ولا يمكن أن يرى بالعين المجردة وقطره يساوي (٣٨٠) إذا أخذ قطر الأرض وحده وحجمه قدر حجم الأرض (٥٥) مرة تقريبا ، وله تابع واحد يتم دورته حوله في خمسة أيام وإحدى وعشرين ساعة وهو قمره .

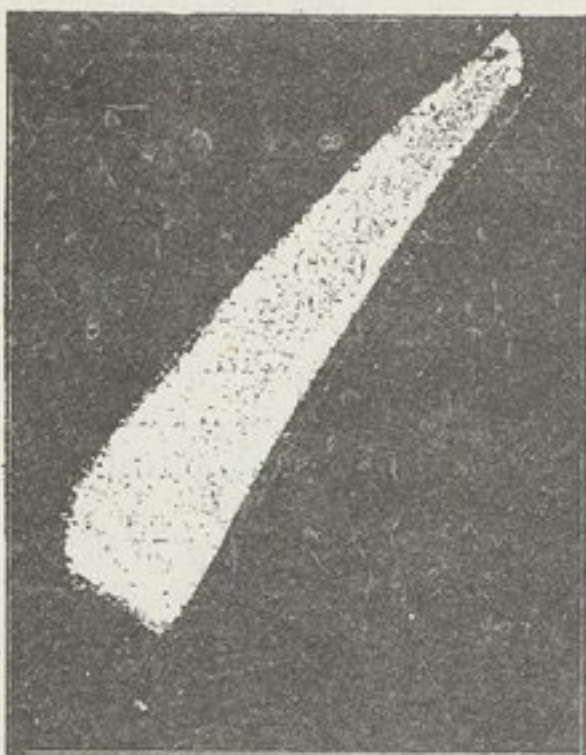
سيارات صغيرة

هناك منطقة بين المريخ والمشتري رأوا فيها كواكب صغيرة جدا كأنها كانت كوكبا مثل المشتري أو نحوه ثم تحطم وهذه شظايا وقطعة فهي تدور في مداره بين الكوكبين ، وهناك ذوات الأذنان المهابة عند القدماء بذوات الشعور وهي عدد عظيم من الكواكب التي تتحرك حول الشمس ولها أذنان كأنها سحابات مستضيئات وقد شوهدت نجوم ذات ذننين بل أكثر ، وذوات الأذنان تزيد عن (٨٠٠) وبزيادة الكشف الحديث يحتمل أن تعدد بالملايين في المستقبل وقال (كبلير) إن عدد ذوات الأذنان كعدد سمك البحار .

ومن ذوات الأذنان ما علم أن مدة دورتها حول الشمس تعدد بألوف السنين أو بمئات الألوف منها . ومنها ما يؤمل رجوعها عن قريب . ومن المعروفة جدا للذنب المسمى (هالي) ومدة دورتها (٧٦) سنة تقريبا حول الشمس ومنها ذات الذنب (انك) ومدتها (٣) سنين و (٣١٠) أيام .

وهناك ذوات أذنان قال الفلكيون برجوعها ولم ترجع وقد ظهرت في الجيل التاسع عشر ذوات أذنان لامعة لمعانا شديدا . وأشهرها التي ظهرت سنة ١٨١١ وقد أثرت تأثيرا غريبا عجيبا وهي لا ترجع إلا بعد ثلاثة آلاف سنة .

انظر شكل مذنب سنة ١٨١١ الذي سيرجع بعد (٣٠) قرنا .



وذات الذنب التي ظهرت سنة ١٨٤٥ هي ألمع جميع مارؤى من ذوات الأذنان حتى إن قلبها وجزءا من ذنبها كان يرى في النهار وهي قريبة من الناظر إليها ، وضوء ذوات الأذنان من انعكاس ضوء الشمس .

النهب الحجارة الجوقية

يرى الناس في أكثر الليالي ما يشبه شملا نارية تمر بسرعة في الجوق ترسم منحنيًا مستضيئا وتختفي بسرعة بعد بضع ثوان وتسمى (نجوما سائطة وشهب) وما هي إلا أجسام صغيرة جدا تجرى حول الشمس كاتجري ذوات الأذنان والسيارات الكبيرة والصغيرة ، فتمتق قابلت الجوق الأرضي سخنت بمقابلة الهواء لها حتى تصير لامة من الاحتراق ويرى وراءها ذيل مضيء ناشئ من احتراقها ويرى ثواني أو دقائق ثم يختفي ، وقد تكثر

(شكل ٣) ذات الذنب في سنة ١٨١١

تلك الأجسام في بعض الليالي مثل العائثر من شهر أغسطس ونحوه ، والسكرات النارية كالشهب غير أن حركتها بطيئة وتحدث فرقة بالقرب من الأرض وما وقع منها على الأرض يسمى (الحجارة الجوقية) والسكرات النارية قليلة . إلى هنا انتهى الكلام على السيارات وذوات الأذنان والنهب والحجارة الجوقية والسكرات النارية ، وإنى أحمد الله عز وجل الذي أهدى العلم وسهل حتى اختصرت للقيام اختصارا وأحضرت بعونه تعالى بين يديك بعض ملكوت السموات والأرض لتكون من اللوقين ، فوالله لهذا أنزل القرآن دالا على هذا .

فيا ليت شمري ما هذا الكون الشاسع وما هذه السيارات الجميلة والأقمار الباهرة والأبعاد الكبيرة والأنوار الساحرة وذوات الأذنان التي لا ترجع والتي ترجع بعد آلاف السنين ، وكيف كانت شمسنا لها هذه الحاشية العظيمة المختلفة الأقدار والأبعاد والأشكال والألوان والألوان والأعمال ، فمن زحل والمشتري العظيم الحجم إلى شهب لاندو الواحدة منها قدر البلاطة . كل هذه تجرى حول شمسنا كما تجرى أرضنا وبهذا انتهى الكلام على لفظ (كوكب) المذكور في الآية .

الكلام على القمر المذكور في الآية

تقدم في هذا التفسير حساب السنين القمرية وذلك في آخر (آل عمران) ومعرفة السنين الكبيرة والبسطة فلا نبيده وذلك من أجل سير القمر . سطح القمر يساوي واحدا من ١٤ من سطح الأرض تقريبا وحجمه يساوي واحدا من خمسين من حجمها تقريبا ، والبعد للتوسط لمركز القمر عن مركز الأرض يساوي نصف قطر خط الاستواء الأرضي (٦٠٢٧٣) مرة .

للقمر (٢٢) جيلا ارتفاعها يزيد عن (٤٨٠٠) متر وهو ارتفاع الجبل الأبيض وقد سماها العلماء بأسماء وقاسوها بالأمتار مثل ارتفاع جبل (دورفيل) وهو (٧٦٠٣) أمتار . وتلك الجبال صفاتها بركانية بالكيفية

ولما من أعلاها قوّهات مستديرة فطرها يبلغ (١٥) فرسخاً وعمق التجاويف يزيد عن الارتفاع الخارجي ،
 وتم يصل الفرق إلى (٧٠٠٠) أو (٨٠٠٠) متر وليس للقمر جوّ وماء على سطحه .
 وعرفوا هذا بكسوف النجوم التي تمرّ خلف الحافة للظلمة بقصر القمر فإنها تنطفئ بنّة فلا يحصل فيها
 نقص تدريجي بسبب غاز يحيط به ، وإذا اتنى هذا فلا يكون هناك بخار ولا نوع من السوائل ، وكيف
 يكون هناك ماء والماء لا يحفظه من الانطلاق في الجوّ على هيئة بخار مرة واحدة إلا ضغط الجوّ الهوائى ،
 فإذا لم يكن جوّ ذهب الماء حالا . فإذا لا يمكن أن يكون هناك نبات ولا حيوان فالعالم على الظنّ أن القمر
 غير مسكون ؛ انتهى الكلام على القمر .

الكلام على الشمس وهى الثالثة فى الآبة

نصف قطر الشمس (٦٩٢٠٠٠) كيلومترا ووسطها قدر سطح الأرض فيها تقدم (١١٨٠٠) وحجمها
 قدر حجم الأرض (١٣٢٨٠٠٠٠) مرة . وبعدها عن الأرض قد تقدم هناك .
 ضوء الشمس كما قال (اراجوا) أشد من ضوء (١٥٠٠٠) شمعة وهو قدر ضوء البدر (٣٠٠٠٠٠٠)
 مرة ، ورأى (والستون) أنه يقدره (٨٠٠٠٠٠٠) أى إنه يلزم ثمانمائة ألف بدر أو ثمانمائة ألف بدر فى السماء
 لإحداث نهار مضي . كنهار الشمس فى وقت صحو .

لطيفة

وهنا عجب عجيب فنقول: إن مسألة الأنوار ذات حكمة عالية ترىنا اختلافا باهرا ، فيينا ترى الكواكب
 فى السماء وهى تبلغ نحو ستة آلاف أو أقل أو أكثر ترى بالعين المجردة وكل منها له نور ومع ذلك لا تضىء
 لنا الطرق والسالك لضئف ضوءها الواصل إلى أرضنا ؛ فالنجمة الواحدة ضوءها جزء من ستة آلاف جزء
 من المجموع وهذا كله ليس شيئا مذكورا بالنسبة للبدر الذى نوره جزء من ثمانمائة ألف جزء من نور الشمس
 ونور الشمس جزء من ثمانية آلاف جزء من نور السماء الرامح كما نص عليه اللورد (البرى) والسمالك الرامح
 وراءه كواكب أضوأ منه . وهذا غاية العجب أن يكون ضوء الكواكب الواصل إلينا جزءا من مئات الآلاف
 من ضوء البدر وهو جزء من مئات الآلاف من ضوء الشمس وهو جزء من آلاف من ضوء كوكب آخر
 يعد عنا مائتى سنة بسير النور وهو السماء الرامح كما تقدم ، فإذا اختلاف الأنوار للشاهدة يفوق التصوّر ،
 فإن نسبة البدر إلى السماء الرامح : ١

$$\frac{٨٠٠٠ \text{ فى } ٨٠٠٠٠٠٠}{٦٩٤٠٠٠٠٠٠٠٠}$$

أى جزء من ستة آلاف وأربعمائة مليون من ضوء السماء الرامح

فصل فى نسبة ضوء الشمس إلى أضواء الكواكب على حسب منظرها من الأرض

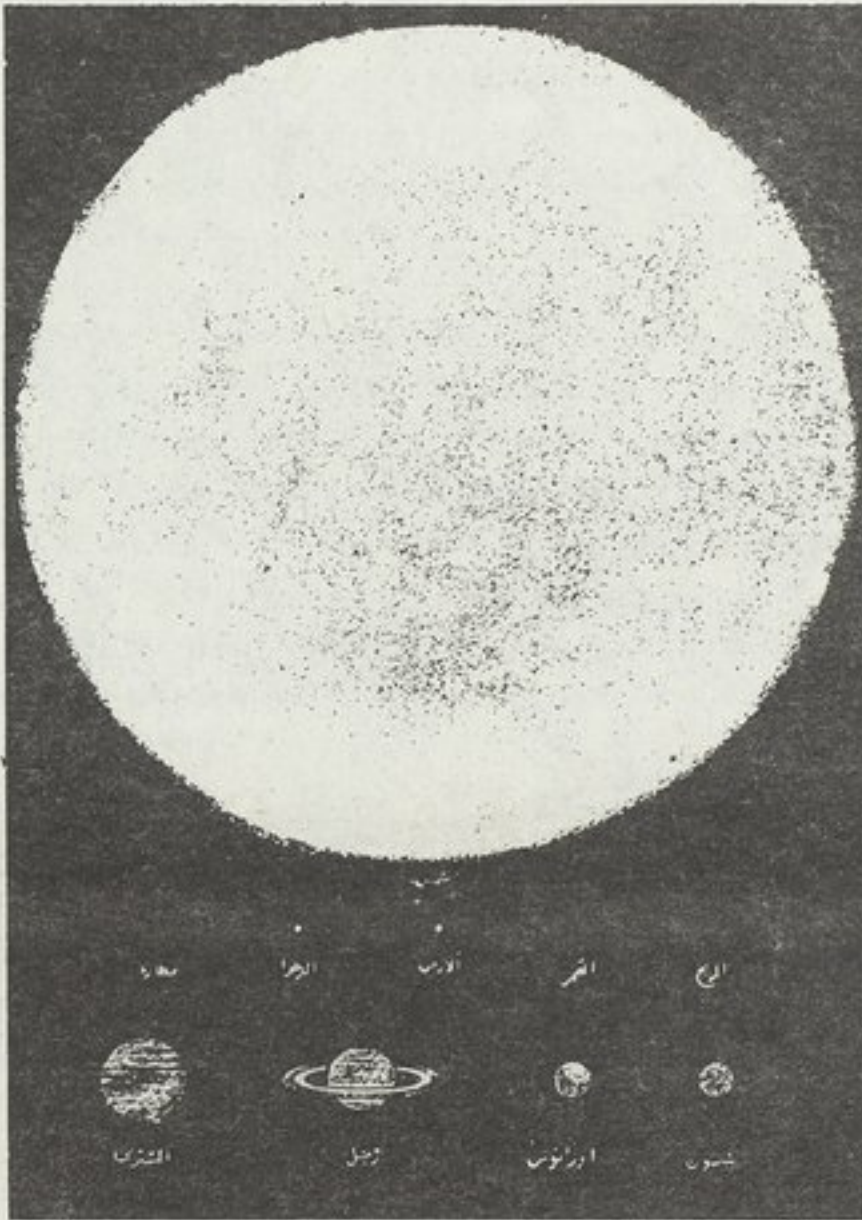
لقد علمت نسبة البدر إلى الشمس وأن اعظم مقدار له تقدّر العلماء أنه جزء من ثمانمائة ألف جزء من
 ضوء الشمس أى أنه لو كان هناك ثمانمائة ألف بدر لكان ضوءها مجتمعة يساوى ضوء الشمس . أما النجوم
 فإن أضوأها وألمها كالشمعى اليمانية يحتاج ضوءها الواصل إلينا إلى مقدار عشرة آلاف مليون مرة حتى
 يصل ذلك كله إلى أن يكون كضوء الشمس .

وأوسط الكواكب كالمريوق يحتاج ضوءه إلى مضاعفته ستا وخمسين الف مليون مرة ، ولو أن هناك
 (٥٦) ألف مليون نجمة فى ليلة واحدة لمار الليل نهارا .

وأضعف الكواكب قد قيس نوره فوجد أنه لو جمع نور (٥٠٠) ألف مليون من أمثاله يساوى نور
 شمسا . هذه هى اللباحت التى برزت على يد العلماء فى أمريكا وأوروبا التى بذلت للناس قاطبة ونحن منهم
 والى بها مرنا جمال الله وبديع صنعه وغرائب حكمه .

مقايسة

إن اختلاف الأضواء الواصلة إلينا من شمس وقر و كواكب دلتنا على درجات تحدّ بالملايين وألوف الملايين والمقل والملم شيهان بالنور فلا عجب إذا اختلفت العقول اختلاف الكواكب ، فمن الناس من عقله كالليوق الذي هو أضوأ من نجوم ضعيفة ، ومنهم من عقله كالشمري ، ومنهم من عقله كالقمر ، ومنهم من هو كالشمس وإذا عرفت ذلك تفهم كيف يشبه النبي صلى الله عليه وسلم بالشمس وذلك للموم تلميحه ولا فضل لعالم إلا على مقدار ما أثر في الناس فنفعهم بعله «وللاخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا» انظر شكل المجموعة الشمسية :



(شكل ٤) المجموعة الشمسية

هذا بعض ملكوت السموات والأرض الذي يورث اليقين .

آراء صغار العلماء وجميع العامة في أمة الإسلام

يظن صغار العقول من التعلين والجهلاء أن نظر الحليل عليه السلام إلى الكواكب وإلى القمر وإلى الشمس بالنظر الظاهري وعلى هذا لا يكون هناك فرق بين نظر الحليل ونظر العامة والجهلاء ، فإذن اليقين أمر سهل وهذا من الفرور الذي طمس على البصائر في أمتنا فتركوا العلوم فأرسلها الله إلى أوروبا لما أغفلها وجهلها المسلمون ، ألا وإن ما ذكرناه ونحوه ظواهر للملكوت وأحوال الناس تختلف ؛ فمنهم من ارتضوا وأدركوا بواطن لا يدركها إلا هم « وفوق كل ذي علم عليم » اه .

الطبيعة الرابعة في قوله تعالى « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت

وللائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسهم »

يسمع المسلمون اليوم كيف أصبح القرآن يظهر تفسيره على لسان الأرواح في أوروبا ، أصبح القرآن ظاهرا على ألسنة الأرواح الناطقة من عالم الغيب في أوروبا وأمريكا ، في إنكلترا وألمانيا والنمسا وإيطاليا والمسلمون تآمرون هائمون لا يعلمون شيئا والقرآن يقول « سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » ويقول في هذه السورة « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق » والذى أراه أن هذا هو الزمان الذي ظهر فيه القرآن بالعلم الحديث ، فعلم طبقات الأرض من جهة وعلم الفلك وعلم الطبيعة كل واحد من جهة كما رأيت في هذا التفسير ، ولكن من ذا كان يظن أن عالم الأرواح يخاطب البشر ويمادها يخاطبه ؟ يخاطبه بنفس ما في القرآن . ومن حكمة الله أنه جعل للمسلمين اليوم في مجموعهم غافلين وأنطق الأرواح وأظهر العلوم على أيدي الغربيين وهم نصارى حتى إذا جاء مؤلف هذا الكتاب ونقل عن الأوروبيين ما يفيد معجزات القرآن لم يتطرق شك للعلماء في صدق الباحث ، لأنها لو قلنا المسلمون لقال الناس إنهم يريدون تأييد دينهم . أما الغربي فليس بهم إلا بالحقائق ولا يبالي يدين من أديان الأرض في جانب العلم فضلا عن الإسلام الذي لا يدين له ، فانظروا أيها المسلمون ظهور هذه الآية على لسان الأرواح .

ملخص ما نقل عن الأرواح في حال اللوت في الجمعيات النفسية

إن الناس قسمان : صالحون وفاسقون ، وللوت إما نجاني وإما أن يتقدمه مرض أو كبر في السن وضعف فاللوت النجاني مزعج للنفس ، وقالوا إن لروح الإنسانية جسمين ، جسما لطيفا شفافا وجسما أرضيا وهو المعروف ، ومعنى نزع الروح أن يأخذ جسما الكثيف الأرضي يتخلص من الجسم اللطيف الروحي المحيط بالروح ، وكلما كان الإنسان صالحا أو مريضا أو كبيرا في السن كان الانفصال أسهل ، وكلما كان الإنسان أكثر ظلما وفسوقا وجبا للمال والولد والجاه وأمور الدنيا كان الانفصال أقسى وأقوى وأصعب . والشهوات والتدنوب أكبر الدواعي للمصائب التي تحمل بالنفس عند النزع لاسيما الذين لا يقرءون بحياة أخرى فأولئك يضطربون ويقاسون عذابا لا يطاق ، فإذا انفصلت الروح من الجسم وكانت مادية متكبرة جاهلة بحيلة ظلمة الخ أحست بالآلام لانطاق فرأت من هم أدنى منها منزلة صاروا أعظم منزلة وأعلى مقاما ، فيحصل هناك عذاب لا يطاق وتبقى تلك الروح محوطة بغلاف ظلماني يحجبها حتى لا يخلص إليها أحد من الأرواح العالية ليعرفها حقيقة الحياة التي وردت إليها . وأما الروح النقية الصالحة فإنها لحفتها واستعدادها للملا تكون عند اللوت مشتاقة غير مفكرة في الدنيا بل هي فرحة متبعدة لخلاصها من هذه الأجساد الثقيلة ، فهذه تشاهد ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ؛ إذ تعانين هذه الكواكب والشموس وترى سكانها ونظامها وتطلع على جمال وبهاء وأنوار مدهشة حتى تسكر من تلك الناظر سكرها ينمرها سنين ، ثم إذا جاء أجلها نقلت إلى عالم لطيف شريف تزيد فيها معارف النفس وتعرف من العلوم ما لا يتصوره أهل الأرض ، ثم ترتفع درجات فدرجات ألطف فألطف حتى ترى الله جل وعلا . وهذه للربة تحول

الأرواح عزيزة جداً ، وتكون تلك الأرواح العالية مدبرة للعالم بإذن الله تعالى فتدبر الملك لما لها من الخبرة الواسعة والحكمة والعلم ، وليس يتولى التدبير العام إلا أرواح لاخطأ عندها ولا غلط وليس هناك اختصاص على الأمر بالعدل . فاعجب كيف كان كلام الأرواح على يد غير المسلمين أصبح ناطقا بالقرآن ، وكيف يكون للفرع بالدنيا والذنب في ذهول وقت اللوت لا يدري ما العمل وربما بقي كذلك سنين وهو في عذاب لا يطاق وكيف تخرج روحه على كره منه لتعلقه بهذه الدنيا ، وكيف تأتي الأرواح العالية فتلاطف الصالحين لأنه ليس حولهم حجاب يعجبهم ، وكيف تكون الأرواح الصالحة تتمتع بمحادثة الأرواح العالية لتعلمها كيف ترتقى ، وكيف يكون ذلك كله مطابقاً لنص القرآن ، فقوله هنا « أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون » نطقت به الأرواح ويقول في سورة أخرى « إن الدين قالوا ربنا الله ثم استغلموا تنزل عليهم اللائكة » أي عند اللوت « أن لا تخافوا ولا تحزنوا الخ » وهذا نفسه ما تقوله الأرواح كما تقدم . وكيف يقول « إن الدين إن كان من القربين فروح وريحان وجنة نعيم » وقد نطقت به الأرواح أيضاً . وكيف يقول « إن الدين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مبأوهم النار بما كانوا يكسبون » هو عين ما قالته الأرواح أيضاً وقال « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة » وفي الحديث « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن كره لقاء الله كره لقاءه » وفي الحديث أيضاً « سترون ربكم » وفي الآية « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » وبه قالت الأرواح وقال « كلا إهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون » بل تقول الأرواح يكون النجار محجوبين أيضاً عن الأرواح الصالحة .

والحاصل أن ما نطق به القرآن في الآخرة نطقت به الأرواح بعد اللوت باعتبار أن الموت أول منازل الآخرة وأن الحساب من يوم ساعة اللوت وهذا من أعجب العجائب « والله هو الولي الحميد » انتهى المقصد الثاني .

(المقصد الثالث)

إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله فأتى ثوفكون « فالق الإصباح وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً ذلك تقدير العزيز العليم » وهو الذى جعل لكم النجوم لتتهدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون « وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فاستقر ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون » وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشدبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون .

التفسير اللفظي

يقول الله إن الله يخلق الدرة والقمح والشعير والأرز وهذا هو الحب ، ويفلق النوى جمع نواة وهي ضد الحب كنوى الرطب والشمش والخوخ وهكذا النطفة والبيضة ، ومق فلق هذه الأنواع خرج منها نبات القمح والشعير والأرز وأشجار النخيل والشمش والخوخ والإنسان والبطائر ، وخروج النبات والشجر من الحب والنوى والإنسان والبطائر عبارة عن حياة ، فالنبات والشجر أحياء خرجت من الأموات لأن النامي حي وغير النامي ظاهرا كالميت لاحتسب به ولا حركة فيها يظهر للعيون كما يخرج المؤمن من الكافر والذكي من البليد والصالح من الطالح وهكذا يخرج الحب والنوى والكافر والفاسق والبليد من النبات والنخل وللمؤمن والصالح هذا هو قوله تعالى (إن الله فلق الحب والنوى) المفسر بقوله (يخرج الحي من الميت) ثم عطف على فلق قوله (ويخرج الميت من الحي ذلكم) المحي للميت (الله) الذي يستحق العبادة (فأني تؤفكون) تصرفون عنه . واعلم أن الناس لا يرون منه إلا قليلا ، فإن ملايين من الحيوانات تعيش في نقطة صغيرة من الماء تعلق برأس الإبرة مثلا وتنمو وتتكاثر وتموت ، كما تعيش حيوانات البر في القفار وحيوانات الماء في البحار وهي تتقاتل وتتحارب ويفترس بعضها بعضا كالكواسر والجوارح لا يخلو منها مستنقع وتصعد في البخار الذي يتصاعد من الماء بحرارة الشمس وتطير في الجوق مع الهباء ثم تعيش وتكثر أينما نزلت وواقعتها الرطوبة والحرارة ، وهذه الحيوانات مع صغرها تنحجر وتصير منها طبقات متممة من (الطباشير) في الأرض وتربة طرابلس التي يستقل بها مؤلفة منها وكل حيوان منها في التربة يساوي ^١ من القمحة والبطاشير ١٨٧٠٠٠٠٠٠٠

مؤلف من أهداف غاية في الدقة كذلك ومعلوم أن لكل حيوان منها معدة ، والطعام يدور من أفتية متعددة في جسمه وطعامها مؤلف من دقائق سائلة وجامدة مثل الإنسان والحيوان . ولاجرم أن هذه الدقائق أصغر من الحيوان المذكور ، فدقة الحيوان ودقة ما يأكله تحير العقول . ولقد جاء نبأ عن هذه الحيوانات في ١٧ إبريل سنة ١٩٢٤ بالجراند المصرية . ذلك أن حيوانات دقيقة كهذه ظهر منها نوعان في أمريكا نوع منهما يأكل الأسلاك المعدنية ونوع هو دود يهدم قناة (بناما) ويسمى (الدودة الهادمة) وبالنوع الأول عطل خمس عدد (التليفون) في أمريكا ، والنوع الثاني يحفر أنفاقا حقيقية تحت الأرض وقد أحدث بقناة (بناما) ضررا يقدر بالملايين ، والدودة الواحدة تلد مليون دودة في العام اه .

ولما كان النبات والشجر من نتائج الأنوار الساجية والحرارة الجوية أتبع الكلام فيهما بذكر سببهما وأبان أنه شق عمود الصباح عن سواد الليل فتميز بنوره عن ظلمته معترضا في الأفق الشرقي والإصباح في الأصل مصدر أصبح إذا دخل في الصباح سمى به الصباح ، ويصح أن يقال (فلق الإصباح) أي خالقه يقول كما شق النواة والحب والبيضة والنطفة فانفقت وخرج منها تلك الأحياء شق الظلمة فأخرج منها عمود الصباح فتشابه العالم العلوي والسفلي كلاهما فيه العجب نور اشتق من الظلام وأحياء من الأموات « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » فتشابه وتشاكل الأمر ، ترى النور بهر في السماء والحي ظهر في الأرض هذا من الجماد وذاك من الظلام . ثم أكل الكلام على العلويات فقال (وجاعل الليل سكنا) يسكن الناس والحيوان فيه من التعب الذي لا قوة في النهار فلا يتحركون ، ومن قرأها جعل عطفها على فلق بمعنى فلق والليل مفعول لجعل أو لجاعل على القراءتين وجاعل للاستمرار في الأزمنة المختلفة وعطف عليه قوله (والشمس والقمر حسبانا) مصدر حسب بالفتح كما أن الحسبان مصدر حسب بالكسر فيهما أي على أدوار مختلفة تحسب بهما الأوقات كما أوضحنها في البقرة وآل عمران وغيرها ، وبهذا تم الكلام على الأحياء والأموات في الأرض والنور والظلمة في السماء (ذلك) أي التيسير بالحساب المعلوم (تقدير العزيز) القاهر فوق عباده بحيث سيرها

على وجه مخصوص (العلم) بتدبيره وكيف رأى أن الصلحة في هذه الدورات طولاً وقصراً وظلمة وإضاءة
نم هو قاهر ومع هذا القهر لا يعمل إلا للحكمة كما تقدم في قوله « وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم »
في هذا القهر (الخير) أنه هو الأفع لحلقه ، يا عجبا لهذه الواقات البديعة .

ثم أخذ يشرح بقية الشموس للشرقة التي تسمى عندنا نجوما فقال (وهو الذي جعل) أي خلق (لكم
النجوم لتتدوا بها في ظلمات البر والبحر) أي في المسالك والطرق المشتهات في البر والبحر إلى حيث تريدون
فترصدون تلك النجوم كالنجم القطبية التي هي كأنها ثابتة لا تزحزح من مكانها وهكذا النجوم الأخرى
والبوصلية التي شتمت على الإبرة المغناطيسية التي كسبت المغناطيس بالطرق المعروفة عندكم تقوم مقام النجم
القطبية إذا أظلم الجو بسحاب أو غيره فإنها تتجه إلى الجنوب والشمال مع بعض انحراف يتغير بقوانين مخصوصة
منها تعرفون الطرق والمسالك ، فالهداية في البر والهداية في البحر إنما تكون بالنجوم أو بما يقوم مقامها .
وذلك كله بحساب ، ولقد جعلت الدول الترية كإنجلترا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا معاهد خاصة لتعلم حساب
هذه الكواكب حتى يعرف الرمان في وسط الأبحر البحرية وظلمات الليالي وفي الطرق المشتهات النجوم
الظاهرة وبروجها ومنازلها فيرصدها ويهتدى إلى سواء السبيل .

ولما كان الأمر يعوزه علم وحكمة قال (قد فصلنا الآيات) أي بيناها وأظهرناها (لقوم يعلمون) فهو لاء
هم الذين ينتفعون بما فصلناه لأنهم به ينتفعون . وياليت شعري كيف يفوز الفرنجة بهذه العلوم ويقسمون
البحار والطرق البحرية ويختصون بعلم النجوم ومحرم المسلمون من ذلك ، كل هذا لأنهم جهلوا دينهم
جهلا تاما إلا ظواهر العبادات . اللهم إني أبرأ إليك من الكفان وأنت أحكم الحاكمين فقد نصحت لهم
جهدي وإني ذاهب إليك وقد فعلت ما في طاقتي بنشر الكتب وتأليف هذا التفسير . أقول هذا وأنا موقن
أن الله سينزل غضبه على من يكتم العلم بل على من يقرأ بعض هذا التفسير ولا ينصح المسلمين بالبحث في العلوم
كلها ولا ينههم إلى الخطر الدائم .

ولما أتم الكلام على العلويات التي ذكرها كالسبب للسفليات أي لإحياء النبات والشجر والطيور
والإنسان أخذ يتم الكلام على علم الحياة بعد الفراغ من فهم مصدرها وسببها فشرح خلق الإنسان
وخلق النبات شرحا لقوله « يخرج الحي من الميت » ولم يشرح إخراج الميت من الحي لأن المقام مقام
ظهور وحياة لا مقام موت وخفاء وإظهار جلال القدرة وجمال الحكمة وعجائب الحياة وقدّم
الإنسان لأنه أكل والحيوان بعده فقال (وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة) وهذه تقدمت في أول النساء
فلكم استقرار في الأصلاب واستيداع في الأرحام . ولما كان خلق الجنين في بطن أمه من أعجب العجائب كما
تقدم في أول سورة آل عمران محتاج إلى فكر دقيق يعبر عنه بالفقه قال (قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون .
وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به) بالماء (نبات كل شيء) أي نبت كل صنف من النبات وهي مع
اختلافها تسقى بماء واحد وتعيش في هواء واحد وبعضها أفضل من بعض في الأكل (فأخرجنا منه) من
النبات (خضرا) شيئا أخضر يقال أخضر وخضر كما يقال أعور وعور (نخرج منه) من الخضر (حبا متراكبا)
وهو السنبل (كالطير) يضم فسكون للسمي بالكوز في البرة وكسبل القمح (ومن النخل من طلعمها
قنوان دانية) قنوان مبتدأ خبره من النخل ومن طلعمها بدل منه يقول وقنوان دانية أي قريبة من المتناول
كائنة من طلع النخل وقوله (وجنت من أعناب) عطف على نبات كل وعطف على « نبات كل شيء » قوله
(والزيتون والرمان مشتها وغير متشابه) حال من الزيتون والرمان أي بعض ذلك متشابه وبضه غير متشابه
في الطعم واللون والقدر والهيئة ، وترى ورق الزيتون يشبه ورق الرمان ولكن ثمرها مختلف (انظروا إلى
ثمره) جمع ثمرة (إنا آثم) أي إذا أخرج ثمره كيف يختلف زهره ولونه وأوقات طواف الحشرات على
الزهرات وكيف يختلف نوع النبات باختلاف الأزهار وكيف جاء العلم الحديث فجعل مدار علم النبات

على أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، وكانت هذه أهم ما قام به العلم الحديث في النبات بحيث كان اللغز في تفصيل أنواع النبات وأجناسه وفصائله على هذه للسألة . وتعجب كيف غفل السلون عن هذا العلم . وكيف يقول الله « انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وبنته » أي نضجه وإدراكه ، والينع في الأصل مصدر تم نعتت به الثمرة إذا أدركت ، وقيل ينع جمع يانع كنتاجر ونجر . وفي قراءة « ينعه » بضم الياء وهي لغة فيه (إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) والآيات : أي العلامات للمؤمنين في هذا اللقاه لاحصر لها فعى علم النبات وما كشفه الكاشفون وما درسه الدارسون والسلون هم النائمون .

اللهم إني موقن أن الإسلام سيكون في مستقبل الزمان ، فأما اليوم فإنما هي ظواهر وقشور ، فأما الجهل فهو ضارب أطنا به الآن في بلاد الإسلام وعسى أن أمثال هذه الآراء في الأمم الإسلامية تكون من الأسباب التي وضما الله في بلاد الشرق ليخرج بها لإصباح الإسلام ويطلق بنوره ظلمة الجهالة الخالكة للدلمعة فنقول فائق لإصباح الهدى والنور عن ظلمة الجهل والنعفة كما فلق عمود الصبح وخلصه من ظلمة الليل وكما أخرج الحمى من الليت . اللهم إنك تخرج العالم من الجاهل والحمى من الليت فأخرج من هذا الجيل الإسلامي النائم جيلا مستيقظا ، بل إن في الآية دلالة على ما أقول فإن الظلام بعده النور والموت بعده الحياة فهكذا الإسلام اليوم في نوم عميق وقد آن أوان ارتشائه وأقبل يوم إسماعه . هذه الآية مما يشير إلى هذه العاني ويرشدنا إلى تحقيق هذه الأمانى ، بل هذا اللقام من الدلائل التي استدلت بها (سقراط) على البعث والخرققال: كل قفر بعده غنى وكل جهل بعده علم وهكذا الأضداد يتبع بعضها بعضا . وهكذا يقول رب سقراط فليشر للسلون بإقبال الزمان وسعادة الأمم الإسلامية . أقول هذا وأنا موقن بما أقول « ولتعلمن نبأ بعد حين » انتهى التفسير اللفظى .

لطائف

- (اللطيفة الأولى) البدائع والمعائب في قوله تعالى « إن الله فائق الحب والنوى » .
- (اللطيفة الثانية) في قوله تعالى « فائق الإصباح » .
- (اللطيفة الثالثة) في قوله تعالى « وهو الذى جعل لكم النجوم لتتهدوا بها » .
- (اللطيفة الرابعة) في قوله تعالى « وهو الذى أنزل من السماء ماء » .
- (اللطيفة الخامسة) « انظروا إلى ثمرة إذا أثمر » وهناك تنظر رسم الزهرة الذى جعلت مفتاح علم النبات .

اللطيفة الأولى البدائع والمعائب في قوله تعالى « إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحمى من الليت

ويخرج الليت من الحمى ذلكم الله فائق تؤفكون ؟ . فائق الإصباح »

يقول الله عز وجل هنا « يخرج الحمى من الليت ويخرج الليت من الحمى » ثم يقول « فائق الإصباح » ويقول في سورة آل عمران « توجّل الليل في الذار وتوجّل النهار في الليل وتخرج الحمى من الليت وتخرج الليت من الحمى » فليفسر السلون في هذا الاقتران كيف يقرون إخراج الحمى من الليت والمليت من الحمى في المقامين بالأضواء والأنوار ، فهناك في آل عمران يقدم الأضواء والأنوار على الإخراج وفي الأتمام هنا يقدم الإخراج على الضياء . وبألت شعرى أى علاقة بين الضوء وبين النبات والحيوان .

معائب النور وغرائب

لا يابى الناس بالنور ولا بالهواء ولا يعرفون أن هذا النور الذى لا طعم له ولا وزن ولا يباع ولا يشرى ولا يخزن وإنما يرسل من الشمس والكواكب إلينا ونحن ساهون وبذهب عنا ونحن لاهون لا يدري الناس أن هذا النور هو الذى به يكون تدبير حركات النبات وحياته وحياة الحيوان .

أولا ما هو النور؟ اعلم أن الأصوات التي نسمعها والنور الذي نراه لم يكونا إلا حركات، فعدد الحركات هو الذي يجعل هذا صوتا وهذا ضوءا. أفلا تتعجب من هذه الدنيا كيف تكون الأصوات ليست شيئا سوى الحركات والأضواء ليست شيئا سوى الحركات، فإذا تكلم إنسان أمامنا أو حدثت حركات في الهواء أو الماء أو الجراد فإن الهواء المحيط بنا يتموج يتموجات كثيرة بحيث لا يزيد عن (٣٢) ألفا في الثانية الواحدة وإذن نسمع حركات الهواء الحاصلة يتموجه بما أصابه من الحركات كما يتحرك ماء البحر بإلقاء حجر فيه ويصنع دوائر تتسع كلما بعدت عن المركز وتكون أضيق كلما قربت منه هي التي تحدث الصوت وتكون عدد الحركات في الثانية الواحدة لا يزيد عن (٣٢) ألفا تقريبا لأن الصوت إذ ذاك يكون مرتفعا جدا، فإذا زادت عن ذلك لم تقدر على استماعه وتكون حركات الهواء بعد ذلك لا علم لنا بها.

وجعل العلامة (هلهلتر) صوت الموسيقى (٣٨٠٠٠) اهتزازة في الثانية وجعل أقصاها (١٦) اهتزازة، فمضى نقتت عن ذلك لم نسمع صوت الموسيقى، ومضى زادت الحركات عن ذلك لم نسمع شيئا البتة وما فوق هذه الحركات في الهواء لا يدركه الناس ولا يعرفونه.

فأما حركات الأثير فلا يعرف الناس منها إلا ما وصل إلى (٤٥٨) ألف ألف ألف أي ٤٥٨ ترليوناً من الاهتزازات في الثانية الواحدة ولانزال الاهتزازات تزيد إلى غاية (٧٢٧) ترليوناً فيكون اللون البنفسجي وهو آخر الألوان التي تشاهد في قوس قزح وما عداها فهو أقل منه. فتبين لك بهذا أن الصوت حركات وأن الضوء حركات وكذلك الحرارة حركات، ومقدار الأعداد في الثانية هو الذي يبين الحرارة وبين الضوء وبين الصوت وأن في العالم الذي نسكنه من الحركات التي لها نتائج ما لا نصل إليها ولا علم لنا بها لأن الحرارة والصوت والضوء ما هي إلا أعداد مخصوصة معلومة، وما زاد أو نقص نجعله جهلا باتنا وغاية الأمر أن الناس كشفوا أشعة رنتجن وأشعة الراديو التي تخترق الحواجز الكثيفة فترينا ما وراءها، وهذه الأشعة تهتز اهتزازات أسرع من الأضواء المعروفة ويجهلون ما عدا ذلك.

فنحن الآن في جوف من الجهالة العمياء، فإن حواسنا لم تعرف من العوالم الهيطة بنا إلا أعدادا محدودة من الحركات وما عداها لا نعرفه وهو ما لا يتناهى. ومن عجب أنهم أيام طبع هذا التفسير صنعوا حجرة من (السنليوم) سلطوا عليها نور بعض الكواكب المسمى (كايلا) وهو يمد عنا عنا ملايين الملايين من الكيلومترات ثم ضاعفوا التيار الكهربائي الناشئ عن وقوع النور على ذلك المعدن فتحول النور إلى صوت سمعوه بأذانهم فياله من حادث مزعج، لقد أصبحت النجوم تسمع كما كانت ترى وأصبحت تناجي البشر كما يناجونها وقد أعلن في أكاديمية العلوم الفرنسية في أوائل هذا الشهر (إبريل سنة ١٩٢٤) أن العلماء يواصلون تجاربهم في هذا الشأن في معمل (الانفاليد الكيماوي) وأن هذا الكشف سيحدث انقلابا مدهشا في العلم.

هذا تمام الكلام على تعريف الصوت وحركانه وأصواته التي لم تعلم إلا في هذا الشهر، فلتنظر ولتتعجب من هذا العالم الذي نعيش فيه. ضوء نراه بأبصارنا يظهر لنا العلم أنه حركات وتلك الحركات مقدرة في الثانية وهذا الضوء متى لامس معدنا خاصا وجعل فيه نوع من الكهرباء ظهر له صوت فكان النجم الذي ننظره بأبصارنا يصلح أن نسمعه بأذاننا، هذه عجائب لنفس الضوء ألا فتعجب لأعماله؟

أعمال الضوء إدارة النظام الأرضي (عالم النبات)

اعلم أن هذا الضوء الذي عرفته أنه حركات وأنه ينقلب صوتا هو المدبر والمهندس الذي يقوم بشؤون العوالم النباتية، وهذا المهندس تحت عاملان يعملان تحت إشرافه فأحد العاملين هو الورق والثاني هو الجذور.

اعلم أن النبات ليس له جوف لمضم غذائه ولا له قلب لإدارة سائلاته في كل أقسامه كالحيوان ، بل يمس غذاءه من التراب بواسطة جذوره ومن الهواء بواسطة أوراقه وبالأوراق أيضا يدفع إلى الخارج ما لا ينفعه . فهنا جذور تمتص وورق وههنا ورق لإفراز ما لا ينفع . إن غذاء النبات منه اللاتعات ومنه للوجودات الهوائية (الغازية) فأما الجامدات فلاحظ للنبات فيها .

وفي الماء مواد غازية ومعدينية مذوبة فيه ، فتمت حملت الجذور الماء الذي امتصه صمد بما معه من اللواد المعدنية والغازية في أنسجة النبات إلى الأجزاء التي فوق سطح الأرض المرصدة للهواء فيدخل الأوراق .

إيضاح هذا المقام

إننا نشاهد أن الجوف الذي نعيش فيه يحتوي على أدخنة من الآلات البخارية ، وتلك الأدخنة أجزاء خفية (الكربون) وهكذا كل أنفاس الإنسان والحيوان مشتملة على نوع من هذا الفحم أو (الكربون) كالذي تنفسه الآلات البخارية بديل أننا إذا تنفسنا في المرآة حصل على وجهها للصوت الزجاجي طبقة تحجب عنا صورنا فيها ، وتلك الطبقة هي الفحم الخارج مع نفسنا من الرئة حينما صلح الدم نخرج ما فيه من اللواد المحترقة الكربونية الخارجة من أجزاء أجسامنا كما خرجت اللواد المحترقة في الآلات البخارية من اللداخن سواء بسواء . فهذا الدخان يسير في الجوف فيصل إلى أوراق النبات . وهذا هو الغذاء الذي يدخل في ورق النبات فهذا هو للسمى (الحامض الكربونيك) فتمت تناوله الورق واجتمع بالماء الذي امتصته الجذور يقابلها النور فيكون منهما معا النشاء العلووم ، والنشاء هو الذي يذوب إذا مضغت حبة قمح في فرك فما ذاب منها في ريقنا سميناء نشاء وما بقي لزجا سميناء (المواد الشبيهة بالزلال) ثم إن الجذور إذا امتصت أكثر مما يلزم من اللواد اللائية تحوّلت بخارا في الأوراق وتطير في الجوف فتتخفف درجة الحرارة كما تتخفف درجة حرارة الماء إذا كان في الفخار وقت الحر .

ثم إن هذا النشاء المركب من الكربون والأوكسجين والأودروجين لا يتم له ذلك التركيب إلا بفعل اللادة الملونة الخضراء ، وهذه اللادة الملونة لانتم إلا بفعل النور فيها بديل أن الجذور لانتمون به لاحتجابها عن الشمس بجوهر الأرض ولا بد من مادة حديدية يمتصها النبات للادة الملونة ، واللادة الملونة حينما يأخذ الورق الحامض الكربونيك من الهواء تحلل الحامض المذكور بفعل النور فتبث أحد جزويه وهو الأوكسجين إلى الهواء وترسل الجزء الآخر وهو الكربون في جسم النبات فيتحد مع أوكسجين الماء وأيدروجينه وهو النشاء لما النشاء المعروف الأبيض إلا ماء ولحم تركبا ثم هذا الغذاء ينبت في أجزاء النبات فيصير قوة له .

ثم إن هذا النشاء مع اللواد التي منها غاز النتروجين التي تمتصها الجذور من التراب مذوبة في الماء الجارية في أنسجة النبات تتكون مواد شبيهة بالزلال يتغذى بها النبات فينمو سواء أكان عشا أو نجما أو شجرا ويكون هذا الشبيه بالزلال مركبا مما تقدم (الكربون والأوكسجين والأيدروجين والنتروجين) ومن الكبريت ومنها اللادة القروية (أي اللادة اللزجة) التي كلما زادت في الحب كان أشد تغذية .

وفي النبات مواد شبيهة بالقلى وهي (المورفين والسكينا) ونحو اللادة الفعالة في الشاي وفي القهوة . ومادة السليكا أيضا وهو الصوان ، وأما الفسفور فيدخل في اللواد الزلالية .

العجب العجاب

فانظر كيف حول النور مع ما نتج منه من اللادة الملونة الكربون والماء إلى نشاء ، وهذا النشاء يسير في الخلايا ويخزن منه في البزور ليكون غذاء في المستقبل ، ومنه ما يخزن في الجذور في زمن الشتاء لينتفع به

النبات فما بعد وقد يتحول إلى سكر بفعل المادة للوننة أو إلى مادة زيتية أو دهنية كما ترى في بزر القطن واللوز والخروج والزيتون وبزر السكتان . وفائدة هذه اللواد للنبات كفاءة النشاء . واعلم أن السكر هو نفس النشاء ، فإذا أضفت إليه ماء ووضعتها في موضع دافئ يتحول النشاء إلى سكر فيصير السيلال حلو للذائق ، وترى ذلك في قصب السكر وعصير العنب وجذور الشمندور وفي جميع الأثمار الحلوة . ثم انظر كيف كان هذا النشاء نفسه يقابل في النبات أملاحا فيها النتروجين وكذلك الكبريت فتكون اللواد الشبيهة بالزلال ، وذلك كله بفعل النور فلا بد من الحرارة ولا بد من النور ، ذلك النور للسكر والنشاء وللواد الزلالية .

الحيوان والنبات

أفلا تعجب من هذا النظام وكيف نسير في الضوء والهواء ونحن غافلون ؟ يا عجبا لعفلة الإنسان ! ترى الكربون في الهواء ونستنشق الأكسوجين ولا ندرى ما فيهما من العجائب ، فهذا الكربون يخرج من الإنسان ومن الأقران ومن الآلات البخارية كما تقدم وبذهب في أوراق الأشجار ويحلل الأكسوجين المصاحب له ويرسل في الهواء ليصلح وكأن الورق هو الرئة التي خلفها الله للهواء . فرئنا تصفى الأكسوجين ويدخله في أجسامنا وترسل الكربون إلى الهواء هكذا الأوراق ترسل الأكسوجين إلى الهواء والكربون إلى النبات بعكس ما تفعل رئتنا .

كيف يتكون الحيوان ؟

إن عظام الحيوان تكون من اللواد المعدنية وعضلاته من النتروجين وهر الآزوت ودهنه من الكربون ولما ضعف الحيوان عن تناول هذه المركبات خلق النبات له حارا تلك اللواد لتكون في بنية الحيوان . فيا عجبا كل العجب نشاء ومواد زلالية مركبات من الكربون والماء والكبريت مع مواد أخرى من الحديد واللادة الصوانية والفسفور والبوتاسا في النباتات البرية والصدوا في النباتات البحرية والكلسيوم : أي الجص واللورفين والسكينا والاستركنين والفخسين والأثرويين وخالصة الشاي وخالصة البن . هذه اللواد تكون في النبات ثم تكون بنية الحيوان ، اشتراك عظيم ونظام جميل ، يارب ما أعجب هذه الدنيا وأجمل نظامها .

يا الله ! أتر بصائرنا حتى نقف على الجمال الذي أبدعته والنور الذي أنزلته ؟ يا الله ! نور في الجوق نزل من السماء ، نورك الجميل الذي تحول على بعض المعادن إلى صوت يسمعه الناس في هذا الشهر ، وهذا النور هو الذي تحول القمح إلى نشاء مع الماء ثم تحول هذا النشاء مع الأوزوت والكبريت إلى مواد زلالية ، وهذه اللواد بها حياة النبات ثم هي مع مواد أخرى في النبات يكون بها حياة الحيوان . وكيف يارب كان القمح لنا دهنا والأملاح لنا عظاما والأوزوت لنا لحما . وكيف يصير القمح في أجسامنا دهنا والأملاح عظاما والأوزوت لحما ؟

وكيف ترى ما تخرجه أفتاسنا راجعا إلى أجسامنا بيثة دهن « إن ربك هو الخلاق العليم » حقا لقد حارت الأفكار في هذه الحكم والعجائب .

أو ليس مما يدهشنا أن الورق له فلان : فعل إدخال الكربون وفصل إخراج الأكسوجين وبخار الماء كما ترشح القربة الماء ويخرج أيضا من الفتحات الصغيرة على قفا الورقة ، وقد حسب العلماء فتحات ورقة من شجرة التيليوم فوجدت (١٠٠٠٠٠٠) فتحة . ومن فوائد هذا البحر تبريد النبات في شدة الحر .

ألا ترى أن عباد الشمس يبخر كل (٢٤) ساعة نحو رطل ماء ؟ فكيف يكون مقدار ما يبخره شجر السندبان والبطم والحروب وأضرابها ؟ هذه أمثال الأوراق .

الجدور ومحائبها

أما أفعال الجدور فإنها أعجب ، فإنها تلتظ وتصير مخشوشة وتدفع التراب عن جوانبها كما تدفعه عن أطرافها ، وهذه القوة النامية من غرائب الدهر ومحائب البر والبحر . ألم تر أنها تدفع الحجارة الكبار أمامها وتهدم جدران الأبنية التي تمد تحتها أو بين حجارتها ؟ وفي الأقاليم الحارة الكثيرة الرطوبة يظهر فعل النبات في خراب الأبنية أقوى من فعل الزلازل والعواصف والنيران والأمطار ، لأن هذه القوى معالاتقدر على إزاحة حجارة مثل حجارة قلعة (جلبك) وأهرام مصر ، وإذا وقعت خلالها بزة تينية مثلا تنمو وتدخل خيوط جذورها في أدق الثقوب والحلال فتزج الحجارة من مواضعها . بهذا نفهم قوله تعالى « إن الله فائق الحب والنوى يخرج الحى من اللب ومخرج اللب من الحى » فهذا هو إخراج النبات من ماء و كربون وأزوت بفعل نور الإصباح فيها المذكور بعدها فهو يقول « يخرج الحى » كالنبات والحيوان « من اللب » وهو الكربون والأزوت والماء والأملاح « ومخرج اللب » وهى هذه العناصر « من الحى » وهو النبات والحيوان « ذلكم الله فائق تؤفكون » وإذا كانت هذه المواد اللبنة تصرف فيها لجعلها نباتا وحيوانا ثم حللها فتصرف فيها بالتحليل والتركيب وأنتم منها فكيف تصرفون عن تصرفه فيكم . ثم أبان ما به التصرف في ذلك فقال « فائق الإصباح » وهذا هو مبدأ النور الذى به يكون تكوين النشاء وتكوين الزلال من تلك المواد اللبنة فيكون النبات ثم الحيوان . فانظر كيف أخرج الحى من اللب واللب من الحى . فبمثل هذا فليفسر القرآن للحكماء وليفهم للعلاء اه .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى « فائق الإصباح »

هنا أمران يحدثنان في الأرض والشمس غائبة عنا . أحدهما يكون قبل طلوعها ، والآخر بعد غروبها فأول الأمرين هو الصبح وهو الضوء المنتشر قبل طلوع الشمس ، والآخر هو الباقي بعد غروبها ، وهذان الحدان معدومان في خط الاستواء ويتبدى ظهورهما في أول المناطق المعتدلة ، وكلما ازدادنا قربا من القطبين ازداد ظهورهما ، ولذلك ترى أهل (لابونيا وسويد وسير) يمكتون أربعة أشهر تقريبا وهم لا يرون الشمس وإنما الشفق والقمر في هذا الليل الطويل بضئان عليهم إضاءة كافلة بتصرفهم في معاشهم واجتيازهم السهول والهضاب والجبال والقاووز والأراضى الواسعة الثلجية ، ويرى أهل تلك البلاد من الجمال والبهجة في الجؤ من إشراق النور القجرى والشفق ما لا يعلمه ولا يحلم به سكان المدارين أى مدار (السرطان) ومدار (الجدى) فالحكمة الإلهية لم تكمل إشراق تلك الأنوار الثلاثة الوهاجة البديعة ووصولها إلى غاية الجمال والبهاء إلا لسكان الأقطار (الجليدية) جهة القطبين فإنها تنبعث مزداة بجمل سندسية ذهبية تدهش العقول وتجبر الألباب وتمتد أولى الألباب . فانظر كيف رأينا العدل جاريا مجراه ؟ فكما كانت الشمس أكثر إشراقا حين طلوعها . ترى جرها وصبغها وشفقها أقل جمالا ، وكلما كانت الشمس أقل ظهورا كان الشفق والصبح مشرقين باهرين جميلين يجبران الأبصار فهذه قسمة عادلة وحكمة باهرة . فأهل السودان المصرى لم يمنحوا جمال الفجر والشفق ، ولكن أهل الأقطار (الجليدية) يرون من الجمال ما يجبر الأبصار اه .

اللطيفة الثالثة في قوله تعالى « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها »

معلوم أن بعد الأرض عن الشمس (٩٣) مليون ميل وهذه المسافة يطيرها طائر بسرعة مائة ميل في الساعة الواحدة وهذه أعظم سرعة للطير وهي سرعة الطائرات الحربية أيضا، فهذا الطائر بهذه السرعة يصل من الأرض إلى الشمس بحيث لا يقف ولا ينام ليلا ولا نهارا صيفا وشتاء في مدة مائة سنة وست سنوات ونحو ٧ أشهر وهذا الطائر بهذه السرعة يقطع عرض النظام الشمسى من طرف إلى طرف في مدة (٦٣٧٢) سنة وهذه المدة يقطع فيها هذا النظام المشتمل على الشمس وسياراتها مثل (نبتون وأورانوس وزحل) الخ .

فالشمس وسياراتها التي عرفت حديثا وتقدمت في هذا التفسير وعرضها ما ذكرناه لم تخرج عن كونها كوكبا صغيرا من مئات اللابيين من الكواكب وأبعادها عظيمة جدا . وهذا الطائر يقطع مليون ميل في ٤١٦ يوما ويقطع مليون مليون ميلا في أكثر من مليون سنة، ومليون اللبون من الأميال المذكورة ليس شيئا مذكورا في أبعاد النجوم ، فإن أقرب نجم إلينا من السيارات نجم يسمى الفا في صورة قنطورس وبعده عنا ٢٥ مليون مليون ميل ، فهذا الطائر لا يصل إليه إلا بعد ٢٥ مليون سنة ، فهذا الطائر لا يصلح أن نجعله مقدرًا بطيرانه بعد الكواكب ولذلك جعلوا القياس سيرالنور وهو يقطع (١٨٦٠٠٠) ميلا في الثانية الواحدة ويصل من الشمس إلينا في نحو ثمان دقائق وثمان نوان لأن بعدها عنا (٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠) أي نحو ستة ملايين مليون ميل ، فنجم الفا قنطورس المذكور يبعد عنا نحو أربع سنوات نورية وربع سنة وهو يبعد عنا ٢٥ مليون ميل فلا يصل نوره الخارج منه في هذه الدقيقة إلا بعد أربع سنين وثلاثة أشهر ، وقد سافر في كل دقيقة (١١) مليون ميل فأكثر ، وإذا أطلق هذا الكوكب جهلنا انطفائه مدة أربع سنين وثلاثة أشهر .

ومع هذا فذلك ليس شيئا مذكورا في جانب الكواكب للدهشة في البعد جدا ، فلنفس الشمس ولنفس نجمة قنطورس وأمثالها ولنسر في الغلوات وللحافات الواسعة السماوية ولنتظر هذا الملك المعد لنا لتسبح فيه أرواحنا وتطلع على العوالم الجميلة فلندرسها الآن ولنتشوق إليها كما قال تعالى هنا « وهو الذي جعل لكم النجوم » فهناك ما بعده من (١٢٠) سنة نورية إلى (١٤٠) سنة نورية أيضا وهي نجوم الثريا وكذلك القلاص وهناك نحو (٨٠) مجموعة مثل مجموعة الثريا ومجموعة القلاص تبعد (١٣٠٠) سنة نورية ، والمسافة التي فيها هذه المجموعات السبعون تبلغ (١٠٠٠٠٠) مائة ألف سنة نورية ووجد بعد سديم ممك الأعتة (٥٠٠٠) خمسة آلاف سنة نورية وسديم السجاجة كذلك خمسة آلاف سنة نورية وسديم العقاب بعده (١٧٠٠٠) سبعة عشر ألف سنة نورية (وقطر الهجرة مائة ألف سنة نورية) وبعد السديم الذي في للرأة للسلسلة نحو (٦٠٠٠٠٠) ستائة ألف سنة نورية وسديم مجلان بعده (٦٠٠٠٠٠) ستون ألف سنة نورية وهناك سديم سمته مثل سمة للرأة للسلسلة يبلغ نحو عشرين مليون سنة نورية .

هذه مخلوقات نورية في السماء لا يصل ضوءها لنا إلا في عشرين مليون سنة نورية ، وقد علمنا أن المسافة بيننا وبين الشمس لا تبلغ في السير إلا مدة ثمان دقائق وثمان نوان ، فكيف يكون ذلك البعد الشاسع وقد سار النور فيه عشرين مليون سنة ؟ وكيف تكون مقادير الكواكب البعيدة عنا ؟ لعمرى إن شمسا بالنسبة لتلك الكواكب ذرّة صغيرة .

أقمار الكواكب

قد قسموا أقمار الكواكب إلى عشرين قسما على حسب التقسيم الحديث ، والعين ترى ستة أقمار فقط ويبلغ ما تراه بها (٦٠٠٠) نجم، وترى العين بالمنظار المعظم الذي بلورته من بوضتين إلى ثلاث (١٠٠٠٠٠) مائة ألف نجمة أي إلى القدر السابع عشر .

ونجوم القدر الأول (١٤) والثاني (٢٧) والثالث (٧٣) والرابع (١٨٩) ثم (٦٥٠) ثم (٢٢٠٠) ثم (٦٦٦٠) ثم (٢٢٥٥٠) ثم (٦٥٠٠٠) وهكذا إلى القدر العشرين فإنه (٧٦٠٠٠٠٠٠٠) .
ومجموع هذه الكواكب ٢٢٤ مليون كوكب ، وهناك كواكب أخرى لا يحصرها العد لم يمكن تمييزها وستظهر بعد حين .

هذا ولأذكر لك آخر ما وصل إليه الناس عند طبع هذا الكتاب إذ جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم الأحد ٨ أغسطس سنة ١٩٢٦ مياي بالحرف الواحد .

قد قام أخيراً العلامة (كنوت لندمرك) بإحصاء مذهش سلم بصحته أشهر علماء الفلك وبين فيه عظم المسافات التي تفصل بيننا وبين السدم الحارونية؛ فالسديم (اندرميد) يبعد عنا مسافة يقطعها النور في مليون ونصف مليون سنة (وسرعة النور ثلاثمائة ألف كيلومترا في الثانية كما هو معلوم) وهو عظيم جدا بحيث لا يقطعه النور من أحد طرفيه إلى الطرف الآخر بأقل من ستين ألف سنة مما يدل على أن حجم هذا السديم لا ينقص كثيرا عن حجم المجرة .

وهناك سديم آخر يعرفه علم الفلك باسم (ن . ج . ت ٤٤٨٦) يبعد عنا مسافة ثمانية ملايين سنة نورية أي أن النور يحتاج إلى هذه المدة لكي يصل إلينا منه . وبعبارة أخرى إذا افترض هذا السديم اليوم فإننا لانعرف انقراضه ولا ينقطع نوره عنا إلا بعد ثمانية ملايين سنة .

وقد أثبت العلامة (لندمرك) أن السديم المعروف باسم (ن . ج . ت ٤٥٩٤) يبعد عن أرضنا مسافة (٥٦) مليون سنة نورية أي أننا إذا نظرنا إليه اليوم بالنظارات الكبيرة نراه كما كان قبل (٥٦) مليون سنة . وهذه السدم العظيمة لاتند شيئا مذكورا بالنسبة إلى الكون اللامتناهي حتى إن علماء نالم يتزولوا إلى تسميتها والدلالة عليها بغير الأرقام اه .

اللطيفة الرابعة في قوله تعالى « هو الذي أنزل من السماء ماء »

ولما كان الماء معروفا وجب أن نذكر شيئا من مجاهبه ليكون سرورا للنفس وبهجة وأسا لقارى التفسير فنشرح به الصدور وتقر به العيون فأقول :

(١) الثلج القطبي

من عجائب الماء ما يشاهد في القطبين من الجبال المكونة من الثلج العائمة فوق البحر هناك نحو مترين ونحت الماء سبعة أمتار ، وقد يكون عرض تلك الجبال (٢٥) فرسخا وطولها خمسين فرسخا .

والتيارات البحرية تجذب تلك الجبال فتعوم مع مائها السريع الجريان ثم تتكسر تلك الجبال هضبات كبيرة جارية مع الماء ثم تتلاقى ويفتك الأقوى منها بالأضعف ويكسره ويفتح فيه طريقا لنفسه ، وقد تراكم بعض القطع الثلجية فوق بعض حتى تبلغ عشرة أمتار ، وهذه الأعمال تنشأ أشكال عجيبة بديمة للنظر جميلة الأشكال محيرة للناظرين تسر أولى الأبواب . وهذه المناظر الجميلة أشبه بهذه الحياة الدنيا ، جميلة في الظاهر خطيرة في الباطن . فإن السفن متى صادتها تكسرت حالا ، وإذا احتسى الركاب بها بأن صدوا على تلك الهضبات والآكام الثلجية ماتوا من مكابدة الجوع والبرد الشديد للهلاك .

وهناك جبال تكون في الجزائر وفي البر على شاطئ البحر المحيط داخله في الأراضى إلى مسافات بعيدة جدا ومتى انكسرت تلك الجبال وانحدرت إلى البحر كان منها جبال ثلجية تعوم فوق ماء البحر علوها من خمسين مترا إلى ستين مترا وذلك حول (امبريزغ) وتكون في جون (بافين) نحو مائتي متر . والملاحون يلجأون إلى هذه الجبال ليتخذوها حامي لهم من التيارات للهلكة لسفنهم ، ولكنها كما قال الشاعر :

والستجير بعمرو عند كربته كاستجير من الرمضاء بالنار

فإنها بأدنى عارض تدور عليهم فتبتلع سفنهم حالا . وهذا الثلج القطبي منه ما هو مكون من الماء للبح ومنه ما هو مكون من الماء العذب .

الثلج للسيل للسير

اعلم أن أهل بلاد (لابونيا وسيبيريا ولوسكوف والاسويجين) يكون الثلج للصقول السميك الصلب سببا في سهولة السفر ، ويكون فصل الثلوج عندهم فصل الأعمال والريج واللذات ، ويستحيل السير في غير

زمن الثلج بهذه السهولة ، والثلج يمكن أن يكون مسحوقا ناعما إذا وصل إلى درجة (٥٠) تحت الصفر وهو دائما في حجمه يزيد عن اللاء جزءا من (١٤) جزءا ، ثم الأحوال التي تقتضى تكوين الثلج توجد دائما في أعلى الجوّ فوق رؤوسنا وفوق الجبال الشامخات ، وكذلك في جهة القطبين فهو يكون على ارتفاع (١٢٩٢٠) مترا تقريبا في درجة (١) شمالا وفي درجة (١٩ و ١٨) شمالا يكون على ارتفاع (٤٧٠٠) مترا تقريبا وفي عرض ٣٠ إلى ٣١ شمالا ترى مهابط جبال هيباليا الشمالية يكون الثلج فيها على ارتفاع (٥٢١٠) مترا ويكون في مهابطها الجنوبية على ارتفاع (٣٩٠٠) وفي درجة (٦١) شمالا في بلاد (الزويج) يكون على ارتفاع (١٧٠٠) مترا ، فأما في القطبين فإنه يكون الثلج جبلا فوق الأرض .

وملخص ما تقدم أن الثلج يكون دائما لا ينقطع صيفا وشتاء في القطبين فوق الأرض ولا يزال يرتفع مكانه منها إلى خط الاستواء إلى أن يصل إلى ارتفاع نحو (١٣) ألف متر عند قرب خط الاستواء فما فوق ذلك القوس المختلف الارتفاع من خط الاستواء إلى القطبين تكون الثلوج دائمة فوق الجبال وفوق رؤوسنا ويشير لهذا قوله تعالى « وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء » فذكر الجبال هنا لم يكن معروفا عند الأمم الغربية إذ ذاك ، واتساع العلم أرانا أن جبال الجليد والثلج دائمة في تلك المهالّ العالية ، والعلم اليوم هو معجزة القرآن وهذا هو قوله تعالى « سزبهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » وقوله « والدين آتيناهم الكتاب يؤمنون به » ولعلّ الكتاب أعمّ من كتب اليهود والنصارى بل يشمل العلوم الحقيقية الكونية . ومتى انتشر هذا التفسير وأمثاله سيسارع الفلاسفة وعلماء الطبيعة للإسلام بسبب علمهم بكتب الحقائق الطبيعية والكونية للواقفة كلها لدين الإسلام . وفي بعض البلاد الثلجية يخفق النبات مادام الثلج ، فإذا استهلّ فصل الربيع ذابت الثلوج واستيقظت تلك النباتات بعد موتها حتى تصل إلى غايتها في أسرع وقت ، فهو كالمسلمين الذين ناموا قرونا تحت ثلج الجهالة واحتلال أوروبا لهم حتى إذا قرءوا أمثال هذا التفسير وعرفوا من النابئين في مصر والشام والهند والمغرب من خول العلماء أن ديننا هو دين العلوم استيقظوا في أقرب وقت سريعا كما استيقظ النبات الذي كان تحت الثلج وازدانت به الأرض وأخذت زخرفها وازينت للناظرين .

(٢) ألوان ماء البحر

اعلم أن الله كما خصص البلاد القطبية بإشراق الفجر والشفق وجمال المناظر الثلجية ومناظر الفجر والشفق والجمال البديع وحرم من ذلك الجمال سكان ما بين المدارين ، أراد الله سبحانه أن يعطيهم جمالا بدل ما قدوه ؛ ذلك أن السفن وهي تمرّ في البحر ترسم نهرا من نار على مستوى السائل يحصل من جانبيه أمواج يتدح منها سيول ضوئية فترى المياه على أبعد من مدّ البصر تضاهي السماء للزينة بالنجوم الكثيرة الماضية ذات الشرر اللامع ، ويرى هناك ما يحاكي النجوم الثوابت في السماء وما يشبه ذوات الأذنان الضالة في الفراغ ، ثم تنقطع هذه الحركة زما ما فتكون ظلمة ثم تلمع تلك الكتلة الضوئية وتشتت من جميع الجهات فيكون منها سهل واسع من نار مهول لعظم سعة .

وإذا هبت الرياح أحدثت في الأمواج اضطرابا وتكون هناك أفانين الصور وأعاجيب الجمال الباهرات فتعلو الأمواج الضوئية ثم تنكسر وتصير على هيئة زبد مضيء متشكل بأشكال كثيرة من أقواس قزح ، وهذا الحادث ناتج من القصور المتحلل من الحيوانات الرخوة والحيوانات النباتية التي تسميها القرنجة (زوفيت) وهي تكون في البحور الاستوائية أكثر منها في الأقطار المعتدلة والباردة والفسفور في تلك الحيوانات طيمي كما أنه كذلك في كثير من الحشرات .

(٣) للياه المعدنية

الياء المعدنية هي التي تحتوي على موادَّ غريبة بحيث تكون ذات طعم ويكون لها فعل مؤثر في الجسم الحيواني وقد وجدوا في تلك الياء الأصناف الآتية :

الكبريت والصودا والنوشادر والجير والفضة والألومين واليونان والصوان والكور والكربون والنحاس والحديد . وهذه العادن متحدة مثل الحمض الكربوني والحمض الكبريتي وما أشبه ذلك . ومن هذه الياء ما له تأثير عظيم ، وقد قسموا هذا إلى أربعة أقسام رئيسية، وهي :

(١) مياه كبريتية . (٢) مياه غازية أو محمضة . (٣) مياه حديدية . (٤) مياه ملحية .

وهناك مياه معدنية سمية ذاب فيها الزرنيخ أو الزئبق وهذه متى عرفت يبادر الناس بردها حالا . وهناك أيضا مياه صوانية قد حملت مواد الصوان فإذا لامسها الأجسام الحيوانية والنباتية نفذت إلى باطنها وتفرقت في هياكلها وانحدرت بأجزائها أعادا تاما فيصبح الجسم كالحجر وتسمى هذه بالمياه المجرية وهي نادرة الوجود في العالم .

فانظر كيف كان الماء جبالا وأنوارا وجمالا في القطبين ثم هو سماء زينت للناظرين وجمال يهر العاقلين وكواكب أشرقت على المسافرين وفيه قوس قزح والنجوم ذوات الأذنان وسهول مشرقات وغياض ناضرات وبهجات أعدت للمسافرين ونور وجمال وأنس للصادرين والواردين ثم يكون سما للشاربين وشفاء للمستفيين ولذة للشاربين وأنهارا وخلصانا للزارعين وسجا وبردا وتلجا للناس أجمعين .
اللطيفة الحامسة « انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه »

هذه الآية أصل عظيم في علم النبات ، فإن النظر إلى الثمر وزهره هو الذي أنتج علم النبات كله وذلك لم يتم إلا في القرون للتأخرة على يد الأوروبيين . ذلك أن آباءنا وأسلافهم اليونان كان علمهم بالنبات أقل مما جاء في العصر الحاضر بالكشف وكانوا يقسمون النبات إلى أشكال مختلفة باعتبارات شتى ولكن لم يقسموه باعتبار الثمر والذي اعتبر أعضاء التذكير وأعضاء التأنيث محلا للتقسيم هم أهل أوروبا وذلك من معنى قوله تعالى « انظروا إلى ثمرة إذا أثمر » فالنظر إلى الثمر وزهره أنتج التقسيم .

واعلم أن الزهرة كزهرة القطن مثلا يكون لها غلاف على لون الحفرة كلون الورق ويسمى هذا عند علماء النبات (كأسا) وغلاف في داخله ملون باللون الأصفر أو الأبيض أو الأحمر ويسمى (تويجا) تصغير تاج فكأنه لجماله تاج لللك ، وفي داخل هذين الغلافين يكون الأزواج بين الذكران والإناث كما يكون بين الزوجين في أنواع الحيوان والإنسان سواء بسواء . وترى في هذه الزهرة وفي غيرها كرات صغيرة ناعمة مستعدة لتصير بزرا متى لقحت كما جعل الله للإناث من أنواع الحيوان مواد فيها تنقلب حيوانا متى حصل اقتراب الذكران من الإناث ، وهذه الكرات دائما تكون في مركز الزهرة وهذا هو عضو التأنيث ويسمى عندهم (البستيل) وهذا البستيل عبارة عن ثلاثة أقسام :

(١) اللييض وهو في القاعدة وفيه الأصول الخلقية القابلة للنمو وهو كالرحم واللييض في الحيوان ، وقد يكون ذا مسكن أو عدة مساكن .

(٢) وأنبوبة شعرية فيها بعض طول .

(٣) والجزء العلوي وهو كغم لتلك الأنبوبة وذلك الفم هو الذي يقبل الاقح من عضو التذكير ويوصله

إلى اللييض بواسطة الأنبوبة المذكورة .

وترى في هذه الزهرة القطنية وغيرها أيضا عضوا أو أعضاء أخرى محيطة بذلك (البستيل) أي عضو التأنيث وتكون غالبا بينه وبين التويج ، فإذا نظرت زهرة القطن مثلا فأول ما يلقاك كأسها ثم تويجها

ثم عضو التذكير ، وفي الوسط تماما عضو التأنيث الذي استعد لاستقبال اللقح من عضو التذكير الذي أحاط به التويج ، فتلك الورقات الجميلة الزهرية الملونة باللون البهيج في مختلف النبات كأنها هيئة العرس والأفراح التي يقيمها الناس وملابس الزوج والزوجة أيام الزفاف مع الروائح العطرية التي تهب القلوب وتشرح الصدور فهذه التي يصنعها الناس عادة وزينون العروس بالبهجة والنضارة قد خلقها الله للذكر والأنثى من النبات وجعلهما في حلتين جميلتين ؛ إحداهما ملونة بأجمل الألوان وأبهها وأحسنها وأجلاها وهناك الروائح العطرية البهجة . وترى الحشرات طائفات يفتن كأنهن اللوسيقى تصدح وللغنيات يزفن العروس إلى بعلمها والذفات مطربات يرفرفن بالورق وتسمع حفيف الأشجار وتريد الأطيوار ، وترى بهجة النجوم ونور الشمس للشرق والجمال والبهاء وكأن الدنيا في عرس وليس في مأثم إلا الإنسان في أوروبا وآسيا وأمريكا ، فهؤلاء هم اللقنتلون للفتاكسون المحبوب أكثرهم عن هذا الجمال بالجهالة الشنماء والحياة البلهاء .

و عضو التذكير للذكور عبارة عن رأس مرتفع على حامل له وعلى الرأس للذكور غبار وهو ما يحصل به الإلتصاق . وأعضاء التذكير غالبا تكون بحسب عدد أقسام التويج ، وهذه الأعضاء إن ساوت عدد أقسام التويج كما هو الغالب فإنها تكون موضوعة بين أجزاء التويج بإزاء أقسام الكأس وإن كانت أعضاء التذكير ضعف أقسام التويج للوننة للذكورة كان نصف أعضاء التذكير موضوعا بإزاء أقسام التويج والنصف الثاني بإزاء أقسام الكأس .

و عضو التذكير إما واحد أو أكثر فيكون ذا ستة كالأرز أو عشرة كالترمس واللوبيا والبقول وهكذا ، وعلى ذلك يقال زهر أحادي أعضاء التذكير وثلاثي وثلاثيها إلى العشرين وبعد العشرين يقال كثيرها .
والناب إن اشتمل على أعضاء التذكير فقط سمى ذكرا ، وإن اشتمل على أعضاء التأنيث فقط سمى أنثى ، وإن اشتمل عليهما معا سمى خنثى كالدأورة والبنج وغيرها .
ويقال أيضا إذا كانت أعضاء التذكير والتأنيث في نبات واحد كما في الحروع وفصيلة القرع سمى ذا السكن وإن كانت أعضاء التذكير في نبات وأعضاء التأنيث في آخر سمى ذا السكنين كالنخل ، وإن كانت أعضاء التأنيث والتذكير والخنثى معا في نبات واحد كما في الحروب والسنت والتين سمى (مزاجا) ام .

محائب البرز

قد يكون للثمر برة واحدة فيقال أحادي البرز ، أو بزرتان فيقال ثنائي البرز وهكذا إلى عشاري البرز ثم ما زاد عن العشرة إلى نحو (٥٠) يقال له قليل البرز ، وما زاد على ذلك إلى نحو الثلاث والألوف يسمى كثير البرز . ويخرج من ساق الدرة للسماء (بالعويجة) نحو ألفي حبة ، ومن عباد الشمس نحو (٤) آلاف حبة ، ومن رأس الحشخاش نحو (٣٢) ألف برة ، ومن ساق نبات الدخان (٣٣٠) ألف برة ، وشاهد للعلم (دوهامين) حبة شعير نبت منها (١٥٠) سنبله تحصل من مجموعها (٣٢٠٠) حبة وشاهد للعلم (فلينيو) حبة (زمير) نبت منها (٣٤٠) ساقا لكل ساق سنبله .

والعلماء يقسمون النبات باعتبار أعضاء التذكير أو أعضاء التأنيث أو البرور وهكذا . فانظر كيف دار علم العلماء في عصرنا الحاضر حول ثمر النبات من زهره وبروره لمعرفة علمه ومنافعه .

كل هذا وللسلمون نائمون لا يدرون ماذا خلق الله في النبات ولا بماذا تعرف أقسامه ولا أي الطرق تسلك في معرفة أنواعه وأصنافه . فلا عجب إذا ملك الفرنجة أكثر بلاد الإسلام ، لأن الله لا يسلم أرضه إلا للماملين فيها ، ولا يخرج نباته إلا للذين يفقهون ويقلون وينظرون « إلى ثمره إذا أثمر وبثمه » ويحرفون آيات ربهم ويؤمنون بها ، بمثل هذا يكون الإيمان ، وبمثل هذا يكون الإسلام .

أيها المسلمون . ألم يأن لكم أن تخشع قلوبكم لذكر الله وما نزل من الحق وأن تدرسوا النبات الذي خلقه الله لكم ؟ وكيف يقول لكم « انظروا إلى ثمرة إذا أثمر » وأنتم مغمضون ؟ وكيف تنتظر أوروبا وأنتم لا تنتظرون ؟ أف لكم أيها المسلمون عار عليكم . ولعلكم تقولون إن الصحابة لم يدرسوا هذه العلوم ! أقول لكم مالكم وما للصحابة رضی الله عنهم ، ولو كانت هذه العلوم في زمانهم لكانوا أسبق الأمم لها كما سبقوها بالفتوحات ، ولكن القرآن جاء للناس جيلا بعد جيل وهاهو ذا الوقت الذي استأهل لتلك العلوم ، فلنبين للناس مقاصد القرآن فيها ولنبحث المسلمين عليها . ولنبين لهم أيضا أن الله يغضب على الأمم التي تجهلها ، يغضب عليها لأنها لم تنتظر وبعبارة أخرى أنها كفرت النعمة ولم تشكرها ؛ أعطانا بلادا زراعية خصبة ونعما عظيمة فأغمرنا الأعمى عنها . يا محجبا ! أيها المسلمون كان علينا أن نعرف هذه النباتات وننتظر لثمرها ولو لم يكن عندنا دين بل كان العقل يدل عليها ، فكيف بنا وقد جاء الدين فطلبها ؟ دين وعقل معا يطلبان هذه العلوم ، فكيف آمننا عقولنا وديننا ؟ أفلا يغضب ربنا على الكافرين بنعمه ؟ المعضين الأعمى عن موأده التي نصبها ، ونعمه التي نشرها ، وهو الذي يقول « لئن شكرتم لأزيدنكم » وهذا هو الشكر القملي لا الشكر اللفظي الذي ينتهي به الجهلاء وصغار العلماء « والله هو الولي الحميد » .

هنالك قال لي صاحبي : كيف تقول إن المسلمين يجهلون هذه العلوم وبين يدي كتاب مصري ألف أيام المغفور له محمد علي باشا بمصر وفيه أن المعلم (لينيو) جعل أعضاء التذكير أساسا لتقسيم النبات والمعلم (توريغوي) جعل التقسيم على صفات التوزيع والتمر ومدة حياة الجنع وفيه أن (لينيو) لم يفرق بين الأشجار والحشائش وأن الزهر يكون خنثى وأثنى وذكر ، وأن الزهر سواء أكان ذكرا أو أثنى إما أن يكون ذا مسكن أو مسكنين أو كثير المساكن قسم النبات إلى (٢٤) رتبة وكل رتبة تحتها أجناس عالية ، والأجناس العالية التي يسمى الواحد منها جنس الأجناس أيضا تحت كل جنس منها أجناس وتحت الأجناس أنواع وتحت الأنواع أفراد .

أما المعلم (جوسيو) فقد قسم النبات إلى قسمين عظيمين (الأول) يشتمل على النباتات التي لا يزر لها . (الثاني) يشتمل على النباتات البرزية أو الفلقية ، والقسم الثاني يشتمل على النباتات البرزية ذات الفلقة الواحدة وعلى النباتات البرزية ذات الفلقتين .

فأما القسم الأول من القسمين العظيمين فهي كالحشيش البحري ونحوه فإنه له حبوب صغيرة جدا . وأما القسم الثاني من القسمين العظيمين فإن ما كان منه ذا فلقة واحدة فهو كالزجس والبصل والقلقاس والزنبق ، وقد تكون أزهار هذا القسم مجتمعة في طرف الجنع ، وأعضاء التذكير قد تكون (٣) أو (٦) ويندر أن يكون واحدا ، وأوراق هذا القسم يكون طولها أكبر من عرضها كالنخل وبزرتة منحصرة في جسم واحد فلفي .

فأما النوع الثاني منه وهو ذو الفلقتين فبزرته تكون منحصرة في جسمين فلفيين لحميين ، وهذا القسم يكون له كأس وتوزيع وأعضاء التذكير تكون خمسة فأكثر إلى مائة .

وهذه نبذة مختصرة من الأوصاف التي في الكتاب المشار إليه فبأذن التفاتة يعرف الإنسان النبات ذا الفلقة الواحدة والنبات ذا الفلقتين ، فكيف تقول إن المسلمين مقصرون في هذه العلوم ؟ قلت له هذا أكبر دليل على التفسير فإنه نقل عن الفرنسية أيضا ، نعم هذا العلم كان يدرس في مصر ولكن ليس ذلك باعتبار أن الدين يطلبه ، وكان على علماء الدين أن يهتموا الأمة أن هذا العلم مطلوب كالصلاة والزكاة والصيام والحج وأن قوله تعالى « انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينمه » يوجب هذا العلم في الإسلام الذي يبلغ (٣٥٠)

مليون تمس أو أكثر ، وهذا هو الذي يجب على علماء الإسلام في مستقبل الزمان « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .



بيل سداة مدقة . مدقة سداة بيل



بيل سداة مدقة . مدقة سداة بيل

نخت

(رسم الزهرة - شكل ٥)

في هذا الشكل ترى الزهرة فترى لها الكأس الذي تقدم ذكره للسمى باللسان النباتي (سبلا) وهو الذي نراه أخضر فوق الأوراق الملونة . وترى أوراق التويج وهي الملونة للجماء (بستيلا) أو (بتلا) وترى الوسط مؤلفا من خيوط قائمة منتهية بانتفاخات عليها غبار أصفر ، فالخيوط اسمها (أسدية) جمع سداة ، والانتفاخ اسمها (الاتير) والغبار اسمها (البلىن) أو (الطلع) وفي مركز الزهرة تتوء بارز اسمه (المدقة) ينشأ من قاعدة الزهرة أو تحتها ، والمدقة ثلاثة أقسام سفلى وهي قاعدتها ويقال لها اللبيض ، وعلوى وهو رأسها ويسمونه (السمة) وما بينهما يسمونه (القلم) والأسدية أعضاء التذكير والمدقات أعضاء التأنيث وواسطة التلقيح البلىن وهو اللقاح يقع من الاتير على السمة في أعلى المدقة فيلقح بذورها في اللبيض بأسفل المدقة . ثم إن اختلاف المدقات والأسديات والسبلات والبتلات : أي أعضاء التأنيث وأعضاء التذكير وأوراق الكأس وأوراق التويج أفرادا وأزواجا رقة وكثرة ووضعها واختلافها واتفاقها .

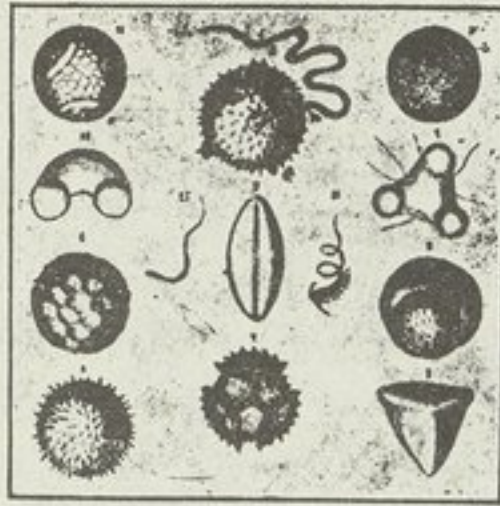
أقول إن هذا الاختلاف به يمتاز النبات وبه تميز جميع النباتات التي تعد بالثبات ، إذن الزهرة مفتاح علم النبات ، مفتاح ذو سنّ واحدة وستين وثلاث وما فوقها . هذا هو مفتاح علم النبات الذي يشير له قوله تعالى « انظروا إلى ثمرة إذا أثمر وينعه » وقد ذكرها مرتين في هذه السورة ، وهذا سرّ من أسرار القرآن .

أمر الله السليين بالنظر إلى الثمر ، والنظر إلى الثمر يطلب النظر إلى الزهر الذي هو أصله ؛ فهذا مفتاح آخر للعلوم لا مفتاح علوم العربية ، فهذا مفتاح أيضا من مفاتيح العلوم ، أما الله فعنده مفاتيح الغيب وهذه مفاتيح العلوم ألقاها إلينا امتحانا واختبارا .

أشكال هندسية في الطلع المخلوق في الأزهار

ذكرنا فيما تقدم أن الغبار الذي يسمونه (البلىن) هو الذي به يكون لقح الإناث في الزهرة وهي السمة التي في أعلى المدقة ثم ينزل ذلك الغبار إلى اللبيض بأسفل المدقة وهناك يكون الثمر الذي أمرنا بالنظر إليه . إن من ينظر لهذا الغبار يظنه لاشكل له بل هو كالمدقيق ، ولكن العلماء وجدوا بالبحث بالآلة العظيمة (الكرسكوب) أنه على أشكال هندسية جميلة مختلفة باختلاف النبات ، بل أشكاله جمات قاعدة لتقسيم النبات أيضا .

أنواع البن وأشكاله



(رسم البن - شكل ٦)

(المقصد الرابع)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، سُبحَانَهُ وَتَعَالَى
 عَمَّا يَصِفُونَ * بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ
 كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
 فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
 الْخَبِيرُ * قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا
 عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ * وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِيَتَّقُوهَا وَلِيَلْبِثِنَّهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ *
 أَتَّبِعْ مَا أوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ * وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ
 مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ * وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
 مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِنِجَاءِ تَهُمْ آيَةً لِيُؤْمِنُوا
 بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشِيرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لِأَيُّمِينُونَ * وَهَلْبُ أُفْدَتَهُمْ
 وَأَبْصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ تَرَىٰ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا

لَيْسَ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَكَذَلِكَ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ
وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا، وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ
وَمَا يَفْتَرُونَ * وَلَتَصْنَعِيَ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَبِلِزْصَوْنِهِ وَيَلْقَتُوا مَأْتَهُمْ
مُقْتَرِفُونَ * أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتْبَنِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ
آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ *
وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ تُطِيعِ
أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ *
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ * فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ
اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ * وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ
وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ
بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ * وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِنْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ
الْإِنْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ * وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرْ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ
لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ.
أَوْ مَنْ كَانَ مِثْنَا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ
بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ
أَكْبَرَ نَجْرٍ مِمَّا لِيُنْكَرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا جَاءَتْهُمْ
آيَةٌ قَالُوا إِنَّا تُومِنُ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ، اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ
سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ * فَمَنْ يُرِدِ
اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا
كَأَنَّمَا يَصَّمُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَهَذَا صِرَاطُ
رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا فَذُفَّصَلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ * لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ

وَلِيَهُمْ بِمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ * وَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا بِأَمْشَرِ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَنَا ، قَالَ النَّارُ مَشَوْا كَمَا خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بِبَعْضِ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * بِأَمْشَرِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّبْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ * وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ مِّمَّا يَعْمَلُونَ * وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخَفِّفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخِرِينَ * إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ *

التفسير اللفظي

يقول الله ها أنتم أولاء قد رأيتم النبات واختلافه بأعضاء التذكير وأعضاء التأنيث ، وأن منه الذكور ومنه الإناث ومنه الحثاني ، ومن هذا كان تقسيم النبات إلى رتب وأجناس عالية وأجناس ثم أنواع ثم أفراد فأنا للنبات والحائق للذكور والإناث فكيف تقولون إن لي بنات والذي يلد إنما هو المخلوقات لا الخالق؛ فالمخلوقات متنوعة والخالق لا يتنوع ولا يتغير . فكيف يقول العرب إن لللائكة بنات الله فيعبدها . ويقول اليهود عزير ابن الله ، والنصارى المسيح ابن الله . وكيف يجعلون لمن ينظم هذه المخلوقات من الأضواء والظلمات والنجوم والنبات والحيوان كما في الآيات السابقة شركاء؛ فيقول الصابئون منكم أيها الناس نعبد لللائكة ويصد جهلة العرب وغيرهم من الصابئين للتأخرين الأصنام بوسوسة الشيطان لهم ، وإذا أنتم اتبعتموه في وسوسته فقد أشركتم الشيطان مع الله ، وكيف يقول الثانوية منكم إن الله يخلق الخير والشيطان يخلق الشر وأنتم إذا فكرتم فيما ذكرنا في الآيات السابقة علمتم أن الخير والشر من لامن خلق وهذا هو قوله تعالى (وجعلوا لله شركاء الجن) فه شركاء مما مفعولا جعلوا والجن بدل من شركاء . والجن يشمل اللائكة لاجتماعهم : أي استنارهم وهذا يشمل آراء الصابئين في عبادة اللائكة والعرب في قولهم إنهم بنات الله . والثانوية في أن الشيطان يخلق الشر الخ ما تقدم (و) قد (خلقهم) وهل من يخلق كمن لا يخلق (وخرقوا) افتعلوا واقتروا (له بنين وبنات) فالبنون عند اليهود والنصارى ، والبنات عند العرب (بغير علم) من غير أن يعلموا . وهنا أخذ يؤكد الحجة ثانيا فقال (سبحانه وتعالى) تزيها له تعالى (عما يصفونه) أي عما يصفونه به من الكذب والافتراء ، وكيف يصفونه بذلك وهو (بديع السموات والأرض) مكوئهما على غير مثال سبق (أن يكون له ولد) أي من أين يكون له ولد (ولم تكن له صاحبة) يكون منها الولد (وخلق كل شيء)

وهو بكل شيء علم) وإذا خلق كل شيء فهو الذي نوحه وشكله إلى ذكر وأتى ويفترع منها فروع كثيرة والإله يستجيب عليه التكرار ومن ذا الذي يحكم عليه بهذا التنوع والولادة، ثم إن الولد يقوم مقام الأب عند تقدمه ويكون قائما مقامه، فالحاجة هي التي أوجبت الولد والله دائم فكيف يحتاج إلى الولد، وأيضاً إنه يعلم كل شيء فهو يتوعد ذكره وأتى ويحكم عليه بذلك ولا حكم لأحد على الله ولا يحيطون به علماً (ذلكم) للوصوف بما سبق (الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) هذه أخبار بعضها بعد بعض، وإذا كان متصفا بهذه الصفات (فاعبدوه) ولا تعبدوا الشيطان والأصنام واللذائذ (وهو على كل شيء وكيل) أي متولى أموركم فكلوها إليه وتوسلوا بعبادته إلى نجاح مآربكم (لا تدركه الأبصار) المركبة من مواد أرضية لأن الله ليس مادة ولا جسماً وأبصاركم وأبصار الحيوان قاصرة على رؤية الأجسام وإنما ترونه بعيون غير جسمية إذا صفت نفوسكم ولطفت عقولكم وتأهلتم لرؤيته بتلك العيون التي لم تخلق، وإذا كان الجن والشياطين لا ترونهم وللك إذا نزل إليكم كما في أول السورة ينزل في صورة رجل قال تعالى «ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون» فالله أجل من الملائكة فهو أولى وأحق ألا يرى بأبصاركم، وإذا كانت الجن جاء فيها لهم يرونكم من حيث لا ترونهم فبالأولى يكون الله عز وجل خالق الجن وخالق للملائكة وقد جاء في الكشف الحديث كما ذكرناه أول السورة ما يناسب هذا وأن الأرواح اللسكية والشيطانية لا ترى إلا إذا استعارت من جسم الوسيط مادة فظهرت هيئة الروح التي كانت عليها في الدنيا (وهو يدرك الأبصار) ويحيط بها علماً كما يحيط بكل شيء (وهو اللطيف) فلا تدركه الأبصار (الخبير) فيدرك الأبصار. ولما كان هذا المقام أدلته علمية طبيعية وقد استوفى البحث فيه أعقبه بقوله (قد جاءكم بصائر من ربكم) البصائر جمع بصيرة وهي للنفس كالبصر للبدن (فمن أبصر) الحق فآمن به (فلنفسه) أبصر (ومن عمى) جهل (فعلها) على نفسه عمى (وما أنا عليكم بحفيظ) بربيب أحصى أعمالكم وأفعالكم وما أنا إلا رسول. ولما كان من عادة القرآن أن اللقائم إذا كان مستوفى البيان أعقبه بما يدل عليه قال (وكذلك نصرّف الآيات) أي ونفصل الآيات في كل وجه كما صرفناها وبينناها من قبل لتزمتهم الحجة (وليقولوا درست) اللام هنا لام العاقبة: أي ليقولوا قرأت على غيرك، يقال درس الكتاب إذا أكثر قراءته. وكان أهل مكة يقولون تعلمت من يسار وجبر - وكانا عبدين من بني الروم - ثم قرأت علينا تزعم أنه من عند الله، أو تعلمت من اليهود. ولما كان القرآن نزل ليضلّ به كثير ويهتدى كثير وقد ضلّ من قالوا درست أعقبه بالمهتدين به فحفظ على قوله: «وليقولوا درست» قوله (ولنبيّنه لقوم يعلمون) أي لنبيّنه الآيات باعتبار المعنى أو للقرآن وإن لم يذكر لكونه معلوماً وملخصاً أنه يضلّ به قوم ويهتدى به آخرون، ثم قال (اتبع ما أوحى إليك من ربك) بالتدين به (لا إله إلا هو) جملة اعتراضية (وأعرض عن المشركين) ولا تلتفت إلى آرائهم إلى أن يأتي لك الأمر بالقتال. ولما كان دين الإسلام من قواعد الإيمان بالقضاء خيره وشره من الله مع وجوب استعمال العقل في جميع الأحوال للمكينة تمرينا للنفس لتخرج إلى عالم القدس وكان من فضائل هذه العقيدة أنه إذا تصرّ أمر ولم نجد حيلة لتحصيله فوضنا الأمر إلى الله لتسير النفس وتجد فيها تقدر عليه ولا تنقطع أسفاً وحسرة على تعريضها وهي غير قادرة على شيء أردفه بما يسهل الأمر على رسوله تسلياً له فقال (ولو شاء الله ما أشركوا) فلا نخزن عليهم (وما جعلناك عليهم حفيظاً) رقيباً (وما أنت عليهم بوكيل) تقوم بأمرهم. ولما كان من الإعراض عنهم أن لا يسبوا آلهتهم قال تعالى (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله) أي لا تذكروا آلهتهم التي يبدونها بما فيها من القبايح (فيسبوا الله عدواً) تجاوزوا عن الحق إلى الباطل (بغير علم) على جهالة؛ وقد كان للعلمون في صدر الإسلام يسبون الأصنام، وكان الكفار يردون عليهم فهاهم الله عن ذلك وهم ضغفاء،

وفيه دليل على أن الطاعة إذا أدت إلى مصيبة راجحة وجب تركها فإن ما يؤدي إلى الترتش، وكما زينا لهؤلاء
الشركين عبادة الأصنام زينا لكل أمة عملهم من الخير والشر على حسب استعدادهم لأننا وضعنا كل أناس
في مراتبهم التي يستحقونها ، فإذا كفر قوم ونحن أردنا ذلك فما كان كفرهم الذي أردناه ظلما لأننا نظمنا الملك
وجعلنا فيه درجات كالحيوانات والنبات وهي درجات بعضها فوق بعض . هكذا هؤلاء كفروا لأنهم لم يصلوا
للاستعداد لتلقي الإيمان كما لم تصل البهائم لدرجات الإنسانية ولم تصل الأطفال لدرجات الرجال فلو كان كفرهم
ظلما منا لكان أغلب أعمالنا ظلما فلا يكون في الأرض حيوان ولا نبات ولا صبيان ولا عصاة بحجة أن غيرها
أفضل منها وهذا هو قوله (كذلك زينا لكل أمة عملهم) وعلى ذلك يجعلهم بعد الحياة في الراكز التي
استعدوا لها (ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون) ولما كانت منزلة هؤلاء لا تسمح لهم بالتعقل
والكبرياء حجاب مانع لهم من الفهم اقترحوا عليك الآيات وخوارق العادات وقالوا لك اجعل لنا الصفا ذهباً
وابحث لنا بعض موتانا نسأله عنك أحق ما تقول أم باطل وأرنا اللاتسكة يشهدون لك عياناً فنزلت الآية الآتية
قائلة إن الآيات التي كانت تنزل على الأنبياء السابقين كعيسى وموسى من ضرب الحجر بالصا فينبع ماء وإحياء
الوحي وما أشبه ذلك لا يرقى العقول الإنسانية ولا يرفع الإنسانية إلا التثقل والتفكير كما أنزلنا في هذا القرآن
وهذه الأمم كانوا بعد الإيمان يرتدون إذا شاهدوا ما هو حسن في نظر أعينهم . فأما العقل فهو المرشد الحكيم
كما حصل في سحرة فرعون إذ آمنوا بموسى لما عرفوا أن علمه فوق طاقتهم . فأما الجهلة وهم يتو إسرائيل
فإنهم لما رأوا قوماً يحكفون على أصنام لهم قالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون .
فهكذا هنا إذا أنزلنا آيات كهذه لا تنفعهم وإنما يريد أن نجعلهم علماء لا يرتدون عن دينهم متى شهدت عقولهم
كسحرة فرعون وهذا هو قوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم) أي جاهدين في الإتيان بأوكاد الإيمان
(لئن جاءتهم آية) مما اقترحوه (ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله) هو قادر عليها يظهر منها ما يشاء
وليس شيء منها بقدرتي والله منها عنكم حتى يكون إيمان من يؤمن مبني على العقل لا على حاسة البصر
(وما يشعركم) أي وما يدريك استفهام إنكار (أنها) أي الآيات المقترحة (إذا جاءت لا يؤمنون) بها كما
حصل في الأمم السابقة كما في سورة أخرى « وما نزل بالآيات إلا تخويفاً » (وتقلب أفئدتهم) عطف على
لا يؤمنون : أي وما يشعركم أنا حينئذ نقلب أفئدتهم عن الحق فلا يفقهونه (وأبصارهم) فلا يصرهه ،
فلا يؤمنون بها (كما لم يؤمنوا به) أي بما أنزل من الآيات (أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون) ونذعهم
متحيرين لانهدبهم هداية المؤمنين لأننا وضعناهم في مراتبهم فلا يتجاوزونها (ولو أنزلنا إليهم اللاتسكة وكلهم
الوحي) كما اقترحوا فقالوا « لولا أنزل علينا اللاتسكة » وقالوا « فأتوا بآبائنا » (وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً)
أي وجمعنا عليهم كل شيء من الطيور والدواب مقابلة ومواجهة أو قبيلة قبيلة . وقرئ « قبلاً » أي كقبلاً
بما بشرنا به وما أنذروا به (ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله) إيمانهم لأن الدار على الاستعداد، وأيضاً الأمور
المسوسة لا تثبت لها بخلاف العقلية (ولكن أكثرهم يجهلون) مثل هذه الحكم فلا يعلمون أنهم لو أتوا
بكل آية لم يؤمنوا فيقسمون بالله جهد أيمانهم على ما لا يشعرون وهذا على حسب الاستعداد .

ثم أخذ يرمي رسول الله صلى الله عليه وسلم بما أصاب الرسل فقال (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً)
من المجرمين : أي كما جعلنا لك هؤلاء أعداء جعلنا لكل نبي سبقك عدواً لأن هذه الدار دار جهاد وعلى
مقدار الصبر يكون الارتقاء فلا داعي إلا ناله من الأذى على مقدار مقامه في العمل والدعوة، ثم أبدل من
قوله عدواً (شياطين الإنس والجن) أي مرادة القرينين (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول) يوسوس
بعض الإنس إلى بعض وبعض الجن إلى الجن وإلى الإنس الأباطيل للموهبة من زخرفه إذا زينه (غرورا)
أي لأجل الغرور (ولو شاء ربك) إيمانهم (ما فعلوه) أي ما فعلوا معادة الأنبياء وإحياء الزخارف وإنما كان

الشياطين من الجنّ ومن الإنس مدفوعين إلى ذلك بسوامل الفطر المغروسة فيهم . ولا ريب أن الأرواح الشريرة تستمع ما يقول الناس في هذه الدنيا، وقد جاء في علم الأرواح حديثاً أن الأرواح البثرية الناقصة التي هي أشبه بالجنّ تستمع للكلام الذي يقوله الناس بل هي محبوبة عن العالم الأعلى فتكون عقولها أقرب إلى أهل الأرض الأحياء فهتدي وتؤمن وتكفر كالناس الأحياء فصارت الأرواح الجاهلة كالأحياء الجاهلين والنبي صلى الله عليه وسلم أرسل للطائفتين؛ ومثل هذا القول علمه سماعى ليس للعقل فيه دخل، ولكن العلم الحديث الروحي جاء بتصديقه كما سيأتى في آخر هذه للباحث . والحق أن مثل هذا لا يعرف إلا بالعلوم الحديثة، فأما بغير ذلك فإنها سماعية وليس عليها دليل إلا السمع، فقراءة العلوم الحديثة الروحية وغير الروحية أمر حتم على المسلمين النائمين على ظهر هذه الأرض وقد أذرت وحذرت « إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله » قال (فذرهم وما يفترون) أى وكفرهم، وعطف على غرورها فيما تقدم قوله (ولتصفي إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة) أى ليعرّب بعضهم بعضاً ولتصنى الخ (ولبرضوه) لأنفسهم (وليقتروا مآم مقررّون) أى وليكتسبوا مآم مكتسبون من الآثام .

ولما أنهى الكلام على دحض ما اقترحوه وبيان ضلالهم وغرورهم شرع يذكر أن الله هو الحكم بيني وبينكم وأن القرآن كاف لتعلموا ما فيه من العلم والإرشاد فقال (قل) يا محمد لهم (أفبئس الله بئس حكماً) أى أطلب من محكم بيني وبينكم (وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً) أى القرآن مبيناً فيه الحق والباطل بحيث ينفي التخليط والالتباس، فأما الآيات التي اقترحوها وهي حسيبة ففيها التخليط والالتباس ولا تفيد يقيناً فذلك معناها لأننا نريد أنما تكون أرقى من الأمم السابقة لاسياً أننا بشنا محمداً صلى الله عليه وسلم آخر رسول في الأرض، ومن أراد أن يعرف الإسلام فليطلع على الكتب الدينية أو الكتب العلمية التي تظهر دقائق الكون، فهؤلاء متى عرفوا حقائق تلك الكتب آمنوا بالقرآن وهذا قوله (والذين آتيناكم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق) وأهل الكتاب هنا أعم من اليهود والنصارى بل أعم من أهل الكتب السماوية لأن الاقظ عام وإنما عممنا لأن شهادة العلوم المصرية كثيرة جداً والكشف الذي ذكرناه في هذا التفسير يمتد بالمشرات ولم يكن كثير منه معروفاً عند الأمم السابقة . فقراءة العلوم اليوم في الشرق والغرب نورث الإيمان بالقرآن كقراءة للتدنيين الكتب الدينية التي فيها ذكر النبي صلى الله عليه وسلم كما نبيل برنابا الذي يطارده الفرنجة وقد أمروا بإحراقه في ديارنا المصرية وذلك لأنهم كانوا قاضين على زمام الأمور في هذه الديار (فلا تكونن) أيها الإنسان السامع لهذا القرآن (من اللعنين) الشاكين في أنه منزل من عند الله تعالى (وتعت كفة ربك) القرآن بالأمر والنهي (صدقا) في قوله (وعدلاً) منه (لامبتدلاً) لامتغير (لكلماته) القرآن ويقال تمت ووجبت كفة ربك بالنصر لأوليائه صدقا في قوله وعدلاً فيما يكون، لامبتدلاً: لامتغير لكلماته بالنصر لأوليائه (وهو السميع) لمقاتلهم (العليم) بهم وبأعمالهم .

ثم أتى بقاعدة عامة تشمل جميع أهل الأرض فقال إن الكوكب الذي تمشون فوقه من العوالم التي في درجة منحطة وأهلها ليسوا كاملين وإنما أرسلناك إليهم لتصلح من شأنهم فقال (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن) وليسوا على بصيرة ومنهم هؤلاء الكفار الذين يقدون آباءهم (وإن هم إلا يخرسون) يكذبون لبدنهم عن الحقائق . ولقد خلقناهم وعلنا مقدار استعدادهم فنجعل كلا في مرتبة التي استمد لها (إن ربك هو أعلم) (بمن يضلّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) فقوله من يضلّ مجرور ببناء وهما متعلقان بأعلم ودلّ عليها الباء في قوله « بالمهتدين » وهي نظيرتها ويصح أن يجعل من منصوباً بفعل محذوف أى يعلم الخ لأن أفضل لا ينصب الظاهر

ثم أخذ يذكر نتائج إنكار اتباع هؤلاء كما كثر أهل الأرض لجهالتهم فأمر بأكل ما يذبح مقرونا بذكر اسم الله على ذبحه ولم يبيح مخالفة ذلك إلا للضرورة كما تقدم مرارا ، ثم عمم الأحكام فأمر بترك كل إثم ظاهر وباطن لتخلص النفوس من ظلمة هذه الدنيا وخمس الكلام على تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه ليقتلع العادات الوثنية ووصفه أنه فسق وأفاد أن قوما من الكفار يوسوس بعضهم إلى بعض ليتعاونوا على محادلتكم فإياكم ومطاوعهم . وهل يستوى الفريقان فريق كان ميتا فأحييناه وفريق لا يزال في الظلمات يتخبط في ديجورها . وهذان الفريقان سائران على ما زينا لهم ، فريق المؤمنين الذي أحييناه وفريق الكافرين الذي أحييناه في الظلام فكل يعمل على شاكلته وربك أعلم بمن هو أهدى سبيلا .

ثم أبان داء الأمم العصال وهم الرؤساء وعظماة الأمم فأفاد أن هناك قاعدة عامة وهي أن كل قرية وأمة قد صرنا مجرميها أكابر فيحدثون فيها للسكر وسوء الخلق والحلاعة والفسوق والمثل السوء والناس تبع لهم وكل ذلك وباله واقع عليهم فإن من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها والناس يحاسبون على مقدار ما عندهم من قوة وقدرة ، ومن إجرام هؤلاء الذين هم أعداؤك أن يقول بعضهم كأبي سفيان لن تؤمن لك حتى يوحى إلينا كما أوحى إلى محمد وسائر الرسل وكيف يكون ذلك والرسالة إنما تكون لمن هم لذلك مستعدون ولاجرم أن مثل هذا استكبار وتعاضم والعقاب عليه بضده وسيصيب هؤلاء المجرمين صفار وذلة وعذاب شديد .

وختم هذا المقام بأن مسألة الإيمان ترجع إلى شرح الصدر ، ومسألة الإضلال ترجع إلى ضيق الصدر ؛ فالرسالة استعداد والإيمان استعداد والضلال استعداد والله هو المحدث لذلك وعلى الناس الجد والبحت والتقيب ، والجزاء يكون على مقدار الأعمال وهذا هو قوله (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه إن كنتم بآياته مؤمنين . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم إلا ما اضطررتم إليه وإن كثيرا يضلون بأهوائهم يخبر علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين . وذروا ظاهر الإثم وباطنه إن الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون . ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطمعتموهم إنكم لمشركون . أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون . وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليجروا فيها وما يكرهون إلا بأنفسهم وما يشعرون . وإذا جاءتهم آية قالوا لن تؤمن حتى نقول مثل ما أوتى رسل الله الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صفار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يكرهون . فمن رد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن رد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون . وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) تفسير هذه الآيات ظاهر ولكن لابد من بيان بعض الكلمات ، فقوله « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » أي وأي غرض لكم في أن تخرجوا عن أكله وما يمنعكم عنه ، وقوله « إن ربك هو أعلم بالمعتدين » بالمجاوزين الحق إلى الباطل : أي فيجازيهم ، وقوله « ظاهر الإثم وباطنه » ما يظن وما يسر وما بالجوارح وما بالقلب ، وقوله « يكسبون الإثم » أي يكسبون الذنب ، وقوله « ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه » مذهب داود أن متروك التسمية حرام . وقال الشافعي لا يحرم مطلقا . وأبو حنيفة قال : إن ترك التسمية عمدا لا نحل وإن تركها ناسيا نحل . وأحمد ورد عنه روايتان فيمن ترك التسمية عمدا ومن تركها ناسيا حلت له ، وقوله « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم » قالوا يا محمد أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها ؟ فقال الله قتلها . قالوا : فترجم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال وما قتله الكلب والصقر حلال وما قتله الله حرام ؟ وقوله « وإن أطمعتموهم » أي في أكل الميتة ، وقوله « أو من كان

ميتا فأحييناه وجعلناه نورا يمشى به في الناس « ميتا أي كافرا، فأحييناه: أي هديناه وأرشدناه للعمل الصالح، وقوله « مثله » أي صفته وهو مبتدأ خبره قوله « في الظلمات » وقوله « ليس بخارج منها » حال من الضمير المستكن في الظرف، وقوله « وكذلك جعلنا في كل قرية الخ » أي كما جعلنا في مكة « أكبر مجرميها ليمكروا فيها » صيرنا في كل قرية مجرميها أكبر، وقوله « وإذا جاءتهم آية الخ » .

روى أن الوليد بن المغيرة قال للنبي صلى الله عليه وسلم « لو كانت النبوة حقا لكنت أنا أولى بها منك لأنني أكبر منك سنا وأكثر منك مالا » وروى أن أبا جهل قال : زاحمنا بنوعيد مناف في الشرف حتى إذا صرنا كفرنسي رهان قالوا منا نبي يوحى إليه والله لا تؤمن به ولا تتبعه أبدا إلا أن يأتينا وحى كما يأتيه، وقوله « الله أعلم حيث يجعل رسالته » حيث مفعول به والعامل محذوف والتقدير يعلم موضع رسالته ولا موضع إلا نفوس مشرقة بالفضائل ولا دخل للنسب والجمال .

ومعنى « يشرح صدره » يفسحه فيتسع لقبول الهدى، وقوله « ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء » أي ينبو عن قبول الحق ومن ضيق صدره كأنه يزاول ما لا يقدر عليه من صعود السماء فيكون الإيمان ممتعا عليه امتناع صعود السماء، وقوله « كذلك يجعل الله الخ » أي كما بضيق صدره يجعل العذاب أو الخذلان عليهم، وقوله « وهذا » إشارة إلى البيان المتقدم من الخذلان والتوفيق « صراط ربك » الطريق الذي ارتضاه أو عادته وطريقه الذي اقتضته حكمته « مستقيما » لا عوج فيه أو عادلا مطردا وهو حال مؤكدة، وقوله « قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » يفعلون أنه القادر وأن ما يحدث من خير وشر فهو بقضائه وقدره وأنه عالم بأحوال العباد وقد وضع كلا في مركزه لحكمته التامة . ثم بين أن هؤلاء الذين يذكرون (لهم دار السلام) أي لهم دار السلامة من السكاره ومن كل آفة (عند ربهم) في ضمانه أو ذخيرة لهم عنده لا يعلم كنهها غيره وهي الجنة وأغلاها أن يكونوا في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ويكونون وجوههم ناضرة إلى ربها ناضرة ويرون ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر من الجمال الفائق والحسن الناضر والبهجة والاطلاع على العوالم العلوية وإشراق شموسها وبهجتها فيسكرون بخمرة العلم وهم فرحون مغبوطون، ثم قال (وهو وليهم) مواليهم وناصرهم (بما كانوا يعملون) أي بسبب أعمالهم، ثم أخذ يشرح حال الشياطين من الإنس والجن . ولقد أظهر علم الأرواح في الكشف الحديث أن الأرواح الشريرة توسوس لأمتثالها من الأحياء بما يناسب طبائعها ويوالبونهم ويودون أن يكونوا على طرائقهم وأهل العلم والفضلاء يعاون الأحياء إرشادا وتعلما ناعما كما كانوا في الدنيا، وعلى ذلك يكون الفاسقون لليتون من البشر ملحقين بالجن في الوسوسة والساخون لليتون ملحقين بالملائكة في الإلهام . وهذا الكشف الحديث الذي ملأ أمريكا وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وجميع بلاد العالم ماعدا المسلمين هو الذي به يكون تفسير القرآن .

فيا عجبا كيف يصبح ما كان سماعيا في الإسلام محسوسا ملموسا ؟ يا عجبا كيف يقول الله تعالى « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وقد سمعت أيها الذكي في هذا التفسير من علوم الآفاق كعلم طبقات الأرض وعلم النبات وعلم الحيوان وعلم الفلك العجيب العجيب فهناك أسمعت من علم الأنفس الذي عرفه جميع العالم إلا المسلمين حتى إذا جاءت الآيات السابقة وجدتها منطبقة عليه تمام الانطباق .

لقد جاء في كتاب الأرواح الذي نقلت فيه - قبل هذا التفسير - عن علماء أوروبا كثيرا مما جاء في الجمعيات النسبية أن علماء تلك الجمعيات سألوا روحا أحضرها بالوسيط وألقوا عليها أسئلة منها : ماذا يقصد الروح الشريرة بظهوره لإنسان ما فكان الجواب يقصد إزعاجه أو الانتقام منه . ومثل ماذا يقصد الروح الصالح بتجليه فأجاب يقصد تعزية من يبكي على فقده وإثبات وجوده وبذل النصيحة لمن يحبه أو طلب

الإسعاف لنفسه ، وهناك قال الروح الذي وجهت إليه أسئلة كثيرة ما يفيد أن الأرواح تحيط بالناس من كل جانب وأن رؤيتها تعرقل مساعي الناس في أعمالهم فلذلك لم يجعل رؤيتهم عامة الخ . وهناك ذكرت ما يناسب هذا من الإحياء في الجزء الثالث صفحة ٢٦ وهو أن خواطر الخير بإلهام اللائحة للمستعدين لذلك الإلهام وأن خواطر الشر من الشياطين والقلب بينهما ، وهناك ذكر الحديث الآتي « في القلب لمان لمة من الملك إبعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله سبحانه وتعالى وليحمد الله تعالى ، و لمة من العدو إبعاد بالشر وتكذيب بالحق ونهى عن الخير فمن وجد ذلك فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ثم تلا قوله تعالى « الشيطان يعدمكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدمكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم » .

ولقد جاء في هذا الكتاب وفي كتب أخرى كثيرة كالتى ألقها صديقنا « محمد فريد وجدى » أن الناس في أوروبا وأمريكا يجلسون ويحادثون الأرواح بطرق معلومة عندهم كما تقدم في (سورة البقرة) ويلقون إليهم أكاذيب وحكايات خيالية مادام المحذون من الإنس من الأفسس الناقصة وأن الذين يكلمونهم من الأرواح يكونون على مقتضى مذاهبهم وأخلاقهم وأن الأرواح العالية لا تخاطب النفوس الناقصة وأن الناقصة تألف الناقصة ويفرح بعضها ببعض وأن بعض الأرواح الشريرة تألف الناس وتسمع نواحيهم وتفهم أقوالهم لتلقها بالأرض ومن فيها وعلى ذلك يكون العلم الحديث تفسيراً فعلياً للقرآن وتكون سورة « قد أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا الخ » قد أصبحت مكشوفة واضحة ظاهرة وأن إيمان الجن أصبح من اليقينيات لامن للسموعات ، وأنا أقول سيقراً هذا القول من الناس متكبر مرءا فيقول كيف نصدق الحرافات ؟ تقول له : القرآن جاءنا فسمعناه والعلم في أوروبا جاء بهذا حتى أصبح مشتهراً على أيدي ملايين بل مئات الملايين من الناس وفيهم فلاسفة وعلماء وهو مطابق مطابقة تامة لكتابتنا للقدس . فإما أن تقول إن هذا وعد الله بأن يرينا آياته في أنفسنا كما سمعناها بالقرآن وإذن يصبح هذا القرآن يقينا أى على مقتضى العلم لا بمجرد التسليم . وإما أن تقول نشك في كلامهم وإذن يجب البحث كما بحثوا وقد تقدم هذا مشروحا في البقرة فارجع إليه إن شئت ، وإنى أعتقد أن هذا التفسير سيفتح بابا للأمم الإسلامية يدخلون منه إلى علوم أمم الأرض قاطبة ويخرجون من ظلمات الجهالة إلى حظيرة نور العلم والعرفان والله هو للوفى الهادى إلى طريق الصواب .

إذا صرفت هذا فهمت قوله تعالى (و) اذكر (يوم يحشرهم جميعا) الضمير لمن يحشر من الجن والإنس فنقول (يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) أى من إغوائهم لأنكم لتقريبكم من أخلاقهم وإلصقكم عوائد أهل الأرض وبعدكم عن العالم العلوى توسوسون لهم وتجذبونهم إلى أخلاقكم . ومن عجب أن علم الأرواح قد جاء فيه أن الأرواح العلوية لما سئلت : هل يمكن التخلص من الوسوسة ؟ فأجابت نعم ذلك لا يكون إلا للنفوس الراقية في الأرض عندكم وقليل منكم من هو راقى ، والنفوس العالية عندكم لا تجسر الأرواح الشريرة على الاقتراب منها وهذا قوله تعالى « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان » فاستكثر الجن من إغواء الإنس إنما يكون في الطبقات الجاهلة الفاسقة فيحشرون معهم لأن أرواح الأحياء إذا ماتت لا تجد مكانا إلا مكان أمثالها من الأرواح النحطة وهى التى كانت توسوس لهم من أرواح الجن (وقال أولياؤهم من الإنس) الذين أطاعوهم (ربنا استمتع بعضنا ببعض) أى انتفع الإنس بالجن والأرواح الشريرة المناسبة للأحياء بأن دلومهم على الشهوات التى كانت تلك الأرواح تقترقها في الدنيا لأن الإنسان إذا عجز عن شهوة أنس بمن يتطاعها كما ترى ذوى الشهوات يحبون النظر لمن يتعاطونها إذا عجزوا عن إتيانها استرواحا لفعل اللواقين في الأخلاق والمادات والأحوال، والنفس لا تألف إلا أمثالها ولا تحب إلا من على شاكلتها وتهوى أن ترى من

يوافقها ويشاكلها . فهؤلاء يقولون « استمتع بعضنا ببعض » (وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا) بالبعث (قال النار مثواكم) منزلكم أو ذات مثواكم (خالدين فيها) حال (إلا ماشاء الله) أي يخلدون في عذاب النار أبدا إلا الأوقات التي يتقلون فيها من عذاب السعير إلى عذاب الزمهرير (إن ربك حكيم) فما يفعل بأوليائه وأعدائه (عليم) بأعمالهم فيجزى كلا على وفق عمله (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا) أي نكمل بعضهم إلى بعض أو نجعل بعضهم يتولى بعضا فيغويهم ويكونون قرناء في العذاب كما كانوا في الدنيا (بما كانوا يكسبون) من الكفر والمعاصي . ثم خاطبهم خطابا عاما فقال (يا معشر الجن والإنس ألم يأتيكم رسل منكم) وقد اختلف للفسرون أمن الإنس الرسل أم منهم ومن الجن؟ خلاف أطلال فيه المفسرون؛ والعلم الحديث طابق الآية مطابقة ناتة وهو أن كثيرا من الأرواح اللوسوسة للناس ملحقة بالجن لأنهم على شاكلتهم في الشر فيوسوسون للناس كما توسوس الجن . ومعلوم أن هذا الفريق من الأرواح كانوا في الأرض ومذاهبهم التي كانوا عليها قد ثبتت في أذهانهم فهي لا تفارقهم فيوسوسون بها « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى » فتبقى عقائدهم راسخة فيوسوسون بها ، وبعضهم قد يسمع نصح أهل الأرض وهو في حال اللوث فيقلل الشرور والفساد في أعماله وبهذا يفهم قوله تعالى « ألم يأتيكم رسل منكم » فإذن جميع الأنبياء يسميهم الجن والإنس وفي الجن قوم ربما ينتفعون بما يسمعون كما في آية « قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن الخ » فأندروا قومهم وهذا القول قبل العلم الحديث ما كان العقل يصدقه ويقربه بل براه من الأمور البعيدة عن العادة فتعجب من القرآن كيف أخبر بما لم يكن معروفا فأصبح اليوم معروفا مشهرا إلا عند السذجين فهم وحدهم الذين لا يطمون إلا قليلا منهم وهؤلاء يعرفون أن قوله تعالى « ألم يأتيكم رسل منكم » قد طابق العلم الحديث (يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا) أي يوم القيامة (قالوا) جوابا (شهدنا على أنفسنا) كما يقول الناس اليوم حينما تحتل دولة أجنبية بلادهم نحن مفرطون مذنبون جاهلون وكما يقول القساق لقد أضنا حياتنا في فسوقنا . ويقول الذين ابتلوا بشرب الخمر أو التدخين لقد قتلنا عاداتنا العيثة القبيحة هكذا عذاب الآخرة ماهو إلا نتائج للعادات والأخلاق والأحوال المكتسبة ، ويقال فيها ما يقال في الدنيا فيشهد الناس على أنفسهم (وغرهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) ولما كان من عادة الله في خلقه ألا يجعل الأمور طرفة بل يأتي لها بمقدمات كالمرض مثلا يتقدم اللوث والرياح تتقدم الطمر وكذلك البرق ليستعد الناس هكذا لم يشأ أن يترك القرى وشأنها فلا بد من ظهور نابين فيهم إما بالحكمة والعلم وإما بالبيوة ولذلك قال (ذلك) إشارة إلى ما تقدم من بعث الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة (أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) هذا تعليل للحكم للتقدم أي لأن الشأن لم يكن ربك مهلك أهل القرى بسبب ظلم ضلوه وهم غافلون لم ينبهوا برسول ، أولم يكن ربك مهلك القرى بظلم منه وهم غافلون؛ وإذا كان الله أرسل الرسل فقد اتقى الظلم (ولكل) من الكافرين (درجات) مراتب (بما عملوا) من أعمالهم (وما ربك بنافل عما يعملون) فيخفى عليه عمل (وربك التقى) عن العباد والمعبادة ولكنه جعل ذلك ترقية للناس ليخلصهم من المادّة، وهو (ذو الرحمة) يترحم عليهم بالتكليف (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء) ممن يصلحون لسكنى أرضه ، وقد حصل ذلك فقد زالت أم ودول كأهل أمريكا الأصليين وغيرهم (كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين) أي قرنا بعد قرن (إن ما نوعدون) من البعث وأحواله (لآت) لكأن لاهالة (وما أنتم بمعجزين) أي بغائتين طالبكم « أينما تكونوا يدرككم اللوث » (قل) يا محمد (يا قوم اعملوا على مكاتكم) على غاية تمسككم واستطاعتكم (إنى عامل) على مكاتى التي أنا عليها وما أمرنى به ربى : أي اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والمداوة فإني نأت على الإسلام (فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار)

أى الذى له عاقبة الدار (إنه لا يفلح الظالمون) أى الكافرون وضع . وضعه الظالمون لأنه أهم فائدة . انتهى
التفسير اللفظى لهذا المقصد .

﴿ لطائف هذا المقصد ﴾

(اللطيفة الأولى) فى قوله تعالى « وكلهم الموتى »
(اللطيفة الثانية) فى قوله تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجنّ يوحى بعضهم
إلى بعض زخرف القول غرورا » .

(اللطيفة الثالثة) « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله » .

(اللطيفة الرابعة) « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرمين ليمكروا فيها » .

(اللطيفة الخامسة) « يامعشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس الخ » .

(اللطيفة السادسة) « إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء » .

﴿ اللطيفة الأولى فى قوله تعالى « وكلهم الموتى » ﴾ . (واللطيفة الخامسة « يامعشر الجنّ الخ ») .
إن الكلام مع الموتى الآن أكبر آية أنزلها الله للناس لما فسدت العقائد وقد امتلأ بها السهل والجبل ،
نعم فى هذا الكلام شك واللم لا يزال فيه نقص ولكن الشك فى العلم لا يوجب تركه فإن العلماء الذين يعدون
بمثات الألوفا يشتغلون فيه الآن فارجع إلى ما كتبت فى سورة (البقرة) وإلى كتاب الأرواح الذى ألفته
وإلى ما كتبه حضرة « محمد أفندى فريد وجدى » وكذلك الكتب الأفرنجية المنتشرة فى العالم الإنسانى
وسترى فى هذه الكتب ما يدهش العقول وإن الناس فى العالم الإنسانى اليوم يتحدثون مع الأرواح بطريق
[الطاولة] أو [بطريق الكتابة] أو بطريق [التنويم المغناطيسى] وهناك من الشك والريب تارة والتصديق
تارة أخرى ما لا يحصى ، وترى هناك أن النفوس الإنسانىة الناقصة لا يأتى لها ولا يحدتها إلا الأرواح التى على
شاكلتها وتعطى لها معلومات مما يناسب أمور معاشها وأحوالها الدنيوية وهذه تكون « كسراب ببيعة
يحسب الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حساباً » وتصح تلك الأرواح هازئة
بالأحياء ضاحكة عليهم استهزاء ، وتارة تخبرهم بأخبار يظهر كذبها فيما بعد لقصور نظر الأرواح وإن لم تقصدهم
ولا سخرية ، وأما الأرواح العالقة فهى لا تنزل إلى صفائر الأمور ولا تهتم إلا بالأمور العلية ولا تطيع من
يدعوها إلى الاستفهام عن الأمور الشهوية ، ونقول إننا لا نحب أن ندخل معكم معلقين بالدنيا بل
تخليكم عنها وفقركم ويؤسكم يقربكم من العالم الأخرى . وهذه الأقوال قد شرحتها فى كتاب الأرواح وعجبت
كل العجب من أنها موافقة للحكمة الإسلامية ولما شرحه الإمام الغزالي فى الإحياء . وأى معجزة للقرآن
أ أكبر من هذه وكيف يظهر ملخص الدين على ألسنة الأرواح .

﴿ عجائب القرآن ومعجزاته فى القرن العشرين فى آية - ولو أننا زلنا إلهم للملائكة

وكلهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون .

وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً الخ ﴾

أفادت هذه الآية أن الإيمان بالله واليوم الآخر تابع لمشيئة الله واستمداد الإنسان فليست البراهين
بمغنية مادام المرء لا يستعد والقضاء لم يسعد وهذا بينه الحاصل الآن . ألم تر إلى أننا اليوم فى القرن العشرين
نسمع أن العلماء فى [أمريكا وأوروبا] يكلمون الموتى ومع ذلك ترى بعض التلمذيين فى بلادنا الشرقية يكفرون
بالله واليوم الآخر ولا يقلدون فى الإيمان ساداتهم من الفرنجة الذين كفروا تقليداً لهم فلما آمنوا لم يقلدوهم
وهذا هو ما فى نفس الآية . فإله تعالى أذن للناس أن يكلموا الموتى فى عصرنا الحاضر كما فى الآية ولا يزال الناس

فريقين : كافرًا بافه واليوم الآخر ومؤمنًا ، وهذا معجزة باهرة . ومن غرائب ما حدث في هذا الدهر وإن شئت بينة على ذلك فهناك ما جاء في جريدة (الأهرام بتاريخ ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢١) فإن ما استرؤوه في المقالة التالية ناطق بمعنى الآية معجزة للقرآن كما في قوله تعالى - سنزيمهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم - وهذه هي المقالة :

﴿ مناجاة الأرواح ﴾

في الجهة الغربية من ولاية (نيويورك) وعلى بعد ٦٠ ميلا من مدينة (غلغو) مصيف باسم الى دال اشتهر بجمال موقعه وعذوبة مائه وعليل هوائه وامتاز بكثرة أحراجيه وضخامة أشجارها وسمو ارتفاعها وأحاطت به بحيرة واسعة الأطراف وتقوم بإدارة هذا للكان جماعة من الروحيين الذين يعتقدون بمذهب (مناجاة الأرواح) ويبدون من أعمالهم وأقوالهم فيه ما لا يدرك له العقل حلا ولا يدري إلى أي ناموس يرد .

ومن العجب أنه مع تقدم العهد على ظهور هذا للذهب وسعة انتشاره لم تزل آراء العلماء فيه على اختلاف ميين ؛ فمنهم من ينكره إنكارا باتا وبعد أعمال القائلين به من باب التجديل والأوهام ، ومنهم من يعتقد اعتقاد الحقائق السليمة ذهابا إلى أن في الطبيعة أسرار لا يسع الوجدان إنكارها وإن لم تقع في حيز العقل . وقد زار هذا للكان أحد أديباء (السوريين) وكتب إلى الهدى (النيويوركية) يصف ما رأى فقال كان يجتمع في اللهي خلق كثير لسماع الخطيب الروحي (جان سلاتر) أحد زعماء هذا للذهب ووسطاه للتهورين .

وقبل ميعاد الاجتماع كان معظم الحضور يتسابقون إلى إلقاء أوراق صغيرة على (طاولة) الخطيب يكتبون عليها بعض الأرقام أو الحروف المتقطعة التي كان الوسيط يكتبها بها دون كتابة الأسماء ثم يفتح الخطيب الحفلة بإلقاء كلمة بهذا الموضوع من الوجهة العلمية ويترسل في الكلام إلى مسألة خلود النفس وإمكان مخاطبة أرواح اللوئي السابعة في النضاء بواسطة وسطاء حقيقيين والوساطة موهبة عظيمة ، إنما في بعض الأحيان يخلو الوسيط من القوة اللازمة لتأدية الوظيفة حقها ولكن متى توافرت القوة كالأوجب تظهر البيئة وتتجلى الحقيقة للعيان ثم يتناول الخطيب الأوراق الملقاة على (الطاولة) أمامه فيقرأها الواحدة بعد الأخرى مرسلا عن كل منها جوابا يتناوله من التجليات والمخاطبات الروحية فيدهش الحضور بما يأتيه من المعجزات .

جاء الوسيط إلى عدد (٦) فنادى بصوته الجمهوري قائلا مستر (جيمس هاملتون) وأشار يده إليه فأجاب نعم ، فقال له ألا تسكن (كلفلند أوهايو) وتقيم في الشارع القلاني رقم (سكذا) . فأجاب نعم وهذا عنواني الحقيقي . فقال : إني أرى الآن والدينك واقفة بإزانتك تمرنك الشوق والتجيات وقد أوعزت إلى أن أبلغك نصيحة وهي أن الرجل الذي قابلته في (ديترويت ميشكن) مساء الاثنين الماضي وتحدثت وإياه بشأن افتتاح تجارة في تلك المدينة ووعدته بأنك ستعود إليه في الغد للباحثة في العمل فهي تصحك بالاقلاع عن هذا العزم لأن الرجل لا يضم الخير ولا الإخلاص لك فإياك أن تتامل معه .

فوقف الرجل مهوتا ورفس الأرض برجله وقال نعم هذا هو الحادث بينه فقد أقلعت الآن عن عزمي وسأعمل بهذه النصيحة .

ثم تناول الخطيب ورقة أخرى كان عليها حرف (ج) على ما أذكر فالتفت إلى الجمهور وقال (مسز ماري رولاند) وبأقل لحظة رقت عينه على هذه السيدة فقال لها : لا يمكن أن يكون هذا اسمك الحقيقي أجات نعم . قال ألا تقيمين في (شيكاغو) في شارع كذا ونمرة كذا ؟ قالت نعم وكل ذلك صحيح . قال لها إني أرى الآن نجلك (البرت) الذي تجند في الحرب الكبرى وسافر مع الفرقة الأخيرة واتطعت أخباره

عنك حتى أصبحت وأنت لا تعلمين عنه شيئا جاء إلى بروح مملوءة من الشجاعة والحاسة وهو يقول لك إنه وقد كان مقتله قبل انتهاء الحرب بمدّة قصيرة قال وإن جنته بقيت مطروحة مدّة ثلاثة أيام قبل الاهتداء إليها . وهنا وصف الوسيط ملامح نجلها ومظهره وأخبرها عن اسم المكان واليوم الذي قتل فيه .

وبعد ذلك قرأ الوسيط عدد (١٨) مسز (ألن مكلان) وأشار بيده إليها فذكر لها اسم المدينة التي تغطيها واسم الشارع الذي تقيم فيه حسب عادته ، ثم قال لك شقيقة تدعى (أنا) جميلة الطلعة شيفة القوام كانت تسكن في (دنفر) من ولاية (كولا رادو) مرضت مرة مرضا شديدا كاد يودي بحياتها فكتبك إليك تطلب حضورك إليها ، وقد حالت الظروف دون ذهابك فساءها ذلك وقطعت أخبارها عنك وهذا ما حملك على الاعتقاد بأنها توفيت والحقيقة هي أنها لم تزل حية ترزق وتقيم اليوم في مدينة (بليتي مور) وكنت أودّ أن لا أأخذ سمعك بإيراد شيء مما عرفته عنها ولكن الحقيقة يجب أن يقال ، فإن سوء أحوالها وسوء العشرة دفعها لارتداد منازل الفساد وهي تسكن في الشارع (الفلان) تحت نعمة كذا وإذا شئت مراسلتها فليكن الاعتقاد على هذا العنوان وإذا لم يكن ذلك صحيحا فإني أضرب على نفسي غرامة مالية كبيرة وأتخذ هذا الجمع الغير شاهدا علىّ على ذلك .

ثم جاء الخطيب إلى عدد آخر فقال مستر (توماس فيليس) فأجابه نعم ، قال إنني أراك شديد الاهتمام بمسألة مبيع (البنية) التي تملكها في (جاستون نيوبورك) لجورج مارش وتودّ أن تعرف إذا كان البيع ينتهي حسب طلبك أم لا ، وكثيرا ما تابحت مع امرأتك في هذا الشأن مع أنك قبضت من ثمن البنية حوالة بألف ريال وذلك مساء الجمعة الماضي ، وأزبدك الآن اطمشانا بأن للبيع سيتمّ بالقيمة التي اتفقنا عليها وهي مبالغ عشرون ألفا (بيعة لم يحضرها إبليس) والشاري غير مغبون .

فاستغرق الجمهور في الضحك وأغرق صاحبنا في التعجب ، ولما وصل الوسيط إلى هنا في الكلام صمت هنيهة ثم قال في هذه الساعة حدثت حادثة محزنة في ضواحي (فلادلفيا) وذلك أن سيارة تقلّ خمسة ركاب انقلبت براكبها من شاحق فقتل اثنان وأصيب الباقون بجروح خطيرة وبينهم امرأة لها بنت موجودة بيننا تدعى (لوزاو تنكس) ولم يكذب دور نظره على الجمهور حتى رآها فقال نعم إن والدتك من جملة الركاب الذين هوت بهم السيارة وهي الآن في المستشفى (الفلان) القريب من محل الحادثة فأسرعى لإغايتها فصرخت الفتاة وبكت والتفتت إلى الساعة وكانت قد قاربت التاسعة والنصف ليلا وهو للوعد الذي يترك فيه القطار الأخير المحطة ، فقالت : وما الحيلة والقطار قد سافر ؟ قال لها الوسيط : انتظري قليلا ثم التفتت إلى الملا وسأل أهل القطار ترك المحطة وتعم بلنة غير مفهومة ، ثم قال أسرعى وأعدى حوائجك فإن القطار متأخر عن ميعاده نصف ساعة فهبت الفتاة مسرعة وأعدت لوازمها وجاءت إلى المحطة فوجدت القطار على جناح السفر فركبته ، وفي اليوم الثالث ورد من الفتاة رسالة على صديق لها هناك تخبره بأن الحادثة وقعت كما رواها الوسيط وتؤمل بأن والدتها تتقدّم إلى الشفاء اه .

﴿ اللطيفة الثانية ﴾ وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجنّ » .

وهذه أيضا مفهومة مما سبق في مواضع كثيرة من التفسير فالأنبياء وجميع الصالحين بعدم يكون نصيبهم على مقدار مقامهم من العلم والتبليغ ، وأما شياطين الجنّ فإنها تلك الأرواح التي كانت قلوبها في غطاء فأصبحت في العالم الروحي كما كانت في الدنيا فأصبحت ملحقة بالشياطين الذين يوسوسون إلى أمثالهم لاتلاق أبواب السماء ومفاتيح النلم في يدا الله لا يصلون إليها فتزدد نفوسهم إلى أهل الأرض وتتسل بما يرى من نفوس ناقصة فنحريها بما كانت تودّه في الدنيا وعقولها مغلقة فحكّم عليها بذلك فصا لها فأصبحت نعمة على نفسها وعلى أمثالها من البشر ، ولذلك سئلت بعض الأرواح فقيل لها هل الأرواح تقدر على أذى الناس

فكان الجواب كلاهما وإنما الناس هم الذين يؤذي بعضهم بعضا ، وإنما الأرواح إذا قصدت الأذى وسوست إلى الأحياء بما تريد فهذا هو الأذى ، « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأصل سبيلا » فهؤلاء هم الذين قال الله فيهم « لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة » لأن نفوسهم لم تستعد لتلك الأنوار وهي أشبه بالأجسام (الغازية) البخارية التي ترتفع في الجوق وكل جسم له حد محدود لا يتجاوزه والله لا يمنع أحدا عن النعيم ولكن العوائق من النفوس . ففي النفوس جننها وفي النفوس نارها ، فأى نفس غلظت وفسقت وأجبت الحياة الدنيا فان طبعها لا يقبل الجنة ولا عالم اللاتسكة فلا يصل لذلك بحسب استعدادها ، وأى نفس أحبت ذلك العالم واستعدت له وخفت مؤتها فانها ليس بينها وبينه إلا اللوت ، وهناك تصعد إليه وترتقى « وأن إلى ربك للتعلى » .

واعلم أن ما يكشف اليوم من الكواكب والسيارات إنما هو ذخيرة قد أعدتها الله للأرواح الأرضية للشفرة النبيلة لتتفرج عليها إذا ماتت ويكون موتها أكبر سعادة وأشرف أيامها ، فما أسعد أيام الخروج من هذه الدار التي حبسنا فيها حبسا عاقنا عن المروج والخروج إلى باحات المناء وساحات السعادة والصفاء حتى نرى تلك الكواكب البهجة بأقدارها وهيئاتها وأنوارها وإشراقها والحياة عليها ونرى تلك العجائب ، وإذ ذاك تفك من هذا الاعتقال الأرضي ونطالع تلك الشمس في الهجرة التي تباع مئآت اللالين ونرى شمسا بقعة صغيرة منها وأرضا أصغر من كل شيء ، حينئذ ننسى هذه الدنيا وننسى بؤسها وشقاءها ونخرج من جهنمها إلى السعادة التي نشاهد كل ليلة بصيصا من نورها ، وقبسا من نارها ، وحورا في طرفها ، ولوامع مشرقات في دياجى الظلمات تطل علينا تدعونا حثيثا إلى الخروج من هذه الظلمات إلى تلك الأنوار .
أياها القارىء الذكى اجعل حيانك معراجا لذلك المقام الشريف ولا تدخر وسعا في النفع العام لأمتك وللعالم أجمع إذا قدرت حتى تكون خليفة مبدع هذه الموجودات وتناظم عقدها وموحد نظامها وهو اللطيف البديع النور الهادى إلى سواء الصراط اه .

﴿ اللطيفة الثالثة ﴾ « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله »

اعلم أن أهل الأرض قاطبة مقلدون لرؤسائهم تابعون لساداتهم مسوقون بخواصهم فترى العلم ربما كان خطأ فبقي مئآت السنين والناس يظنونهم حقا لما أن قوما من المشهورين قرءوه وأقرءوه ودرسوه فبتبع الآخرون الأولين واللاحقون السابقين ، وترى للذاهب الإسلامية والنصرانية واليهودية يتبع الأخير الأول ويتصب له ويقول هو الحق وما سواء ضلال ، وهكذا في سائر العلوم كالفلك والطب والطبيعة ، وليس يتقدم من ذلك بعد مئآت السنين إلا أفراد يخلفهم الله فيجاهدون ويهدبون الشعوب ويلهونهم ، فأكثر أهل الأرض مقلدون والمجتهدون هم الأقلون ؛ ألا ترى أن ابن النصرانى نصرانى وابن اليهودى يهودى وابن المسلم مسلم كل ذلك لأن الناس في أكثر أحوالهم مقلدون وعلومهم إنما تكون محفوظة والنبوغ فيها يكون على مقدار استظهار مائادرسوه وفهم ماعقله غيرهم ، فأما الرجوع إلى أصل تلك اللذاهب والتأثر في أساسها فإن البشر غالبا لا يتبعون أنفسهم فيه والأعمار قصيرة ، وعلى ذلك يجب أن يكون في الأمة الإسلامية مفكرون يفكرون في أصول اللذاهب الإسلامية ويهيمون على الأمم الإسلامية ويهيمون عقولها للرقى والاسلاح لأن السنن والشيعة وسواهم أصبحوا لا يرون إلا ما قرءوه في كتبهم وهي أمور متشابهة ، ثم إن الأمة لم ترفع عن أعينها الأعطية التي غطيت بها العيون وليس عندي إلا نشر العلوم الكونية كما فعل في هذا التفسير فهذا يخرج الناس من ظنهم إلى اليقين .

إن علم الدقه علم عملى والظن يكفيه ، أما معرفة هذه العوامل فإنها عملية عملية معما ، فهي علم بالعالم من سموات وأرضين ومتى عرفت الصنعة عرفت الصانع وفوق ذلك برقى الشعب الإسلامى باستخراج منافع الهواء

ونناء الأرض والسماء ، هذا ما فهمته من قوله تعالى « وإن تطع أ أكثر من في الأرض الخ » ، أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو عند ربه الآن وفائدة هذا الكلام ترجع لنا الآن أيضا ، فأما تلكؤنا بأن نقرر بغير ذلك فليس يكون فيه فائدة مرجوة لنا اه .

(اللطيفة الرابعة في قوله تعالى « وكذلك جعلنا في كل قرية أكبر مجرميها »)

اعلم أن هذه الآية هي التي تطبق على الأمم كلها لاسيما للسليين الآن ، فإنك حينما أدت عينك لاترى الفساد ولا الفساد ولا الضلال في الأمة إلا من رؤسائها لاسيما بعض مشايخ الطرق ، أولئك الذين هم وبعض علماء الدين والملوك وعظماء الأمم الإسلامية قاطبة ، هؤلاء هم آفات الإسلام ومصائبه ، هم الذين يساعدون الفرنجة على احتلال أرض الإسلام ، هم الذين يوالونهم ويحبونهم لأنهم يصدقون النعم عليهم ويولونهم المناصب المالية ويهونهم الألقاب الضخمة ، وترى ذلك في شمال أفريقيا في بلاد مراکش وتونس والجزائر وطرالمس ومصر وبلاد العراق وغيرها ، فهذه الأمم لم يدخل الفرنجة فيها إلا مجرموها الأكبر ، فهم الذين فسقوا فيها وعدلوا الشعوب كيف يشقون ويميلون إلى الشهوات تخضع القوم للفرنجة واستقاموا لهم ، وربما انتار القوم بعد حين . انتهت اللطيفة الرابعة .

(اللطيفة السادسة في قوله تعالى « إن بشأ يذهبكم وبستخلف من بعدكم ما يشاء »)

كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين »

هذه اللطيفة تناسب اللطيفة التي قبلها ، فإن الأمم إذا فسدت بفساد أكبرها ولم يظهر فيها نابضون أجدر أن تلقى من الوجود وأن تهلك لأن الله لم يجعل في الأرض ولا في غيرها عملا لغير فائدة بل هو الذي جعل الأزهار التي لا لون لها ولا رائحة إنما يلقحها الريح كما تقدم ، أما الأزهار ذات الرائحة الجميلة والمحسن البديعة والألوان البهجة فإن الحشرات هي التي تلقحها ، وجعل ذلك الجمال وتلك الألوان والروائح والصل مغرية لتلك الحشرات أن تمر عليها فتلقحها ؛ فلم يخلق الجمال عبثا بل خلقه لمنفعة راجمة لنفس النبات لأنه ليس في الوجود معطل فإذا كان هذا في نبات ندوسه بأرجلنا ونقطعه لنشم رائحته ولا نبالي به ونارة تفرقه بالماء ونارة ترعاه دوابنا ونارة نجعله لأغراضنا في معاشنا فكيف يخلق إنما في الأرض لا ثمرة في بقائها ، فإذا منع الجمال والرائحة عن هذا النبات إذا لم تكن لتلك فائدة واكتفى بمرور الرياح عليها لإلقاحها فما أحرأ أن يهلك الأمم التي لاتناسب زمانها فيهلكها ويستبدل غيرها بها ، ولقد حصلت مبادئ هذه في الأمم الإسلامية فأخذت الفرنجة تسومنا الحسف وتدخل في عقائدنا ما يضر أخلاقنا وعاداتنا ، فإن لم يفكر عقلاء السليين فليعلموا أن وعد الله حق وأنه لا يخلف وعده وأنه لا يريد إلا الإصلاح ولا يبقى من الأمم إلا ما يصلح للوجود ، ولذلك أرسل التار من الشرق في القرن السابع فأبادوا الدول الإسلامية (السلجوقية والعباسية) وكذلك أرسل الأمم الأوروبية في نحو تلك الصور لمحاربة السليين ، وكذلك أرسل الأسبان فأبادوا أكثر الأمة العربية وبقاياهم هزموا وهربوا « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . اه للفصد الرابع .

(المقصد الخامس)

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِزْقِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ، وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ ، سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ .

وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمَشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءَهُمْ لِيُرُدُّوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ
 دِينَهُمْ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرَّتْ حِجْرٌ لَا يَطْمَعُهَا
 إِلَّا مَنْ نَشَأَ بَرْعِمِهِمْ، وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا، وَأَنْعَامٌ لَا يَذُكُرُونَ اسمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً
 عَلَيْهِ، سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُورِنَا
 وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا، وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ، سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ *
 فَذَخِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ،
 قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ
 وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرِّثْمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ، كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ
 وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الْأَنْعَامِ نَحْمُولَةٌ وَفَرَسًا
 كُلُوا بِمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * تَمَانِيَةٌ
 أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَمَرِ اثْنَيْنِ، قُلْ آذَنَّاكُمْ كَرِيمًا حَرَّمَ أُمَّ الْأَنْثَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ
 عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْأَنْثَيْنِ نَبْشُونِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ
 اثْنَيْنِ قُلْ آذَنَّاكُمْ كَرِيمًا حَرَّمَ أُمَّ الْأَنْثَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَزْوَاجُ الْأَنْثَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ
 شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا؟ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ
 عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ
 إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ
 بِهِ، فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ
 ذِي ظُفْرِ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا
 أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِمَعْزُمٍ، ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ
 ذُو رَحْمَةٍ وَاسْمِةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ * سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ
 مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ؛ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا
 بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا

تَخْرُصُونَ * قُلْ فِىهِ الْحِجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ * قُلْ هَلْ مِنْكُمْ شُهَدَاءُ كُمُ
الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعِ أَهْوَاءَ الَّذِينَ
كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ *

﴿ التفسير اللفظى ﴾

لما فرغ في القصد الرابع من الكلام على كفرهم وإشراكهم وجهلهم أخذ يذكر في هذا القصد تفصيل
ضلالهم العملية وأحكامهم الفاسدة : فنها أنهم كانوا يقصدون الزروع والثمار وهي المعبر عنها بالحرث، والإبل
والبقر والغنم، وهي المعبر عنها بالأنعام فيجعلون منها نصيبا لله ونصيبا للأصنام، فأما ما كان لله فإنيهم يجعلونه
للضيغان وللساكنين، وأما ما كان للأصنام فإنهم يجعلونه للخدام والسدنة، فإن سقط شيء مما جعلوه لله
في نصيب الأوثان تركوه وقالوا إن الله غفَى عن هذا، وإن سقط شيء من نصيب الأصنام فيما جعلوه
للأوثان ردوه إلى الأوثان وقالوا إنها محتاجة إليه وكانوا إذا هلك شيء مما جعلوه لله لم يبالوا به وإذا انتقص
شيء مما جعلوه للأوثان جبروه مما جعلوه لله، هذه أول مسألة. [المسألة الثانية] أن السدنة كانوا يزنيون
لهم هم والشياطين أن يقتلوا أولادهم فكان الرجل يقول في الجاهلية لئن ولد له كذا وكذا غلاما لينحرن
آخرهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله. [المسألة الثانية] أن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى
المدكورات المفسرات في سورة (المائدة) كانوا يعرّمونها ولا يأكلها إلا الرجال وهي على النساء محرّمات
كما تقدم هناك ويعرّمون ظهورها فلا يركبون البحائر والسوائب والحوامى. [المسألة الرابعة] أنهم
لا يذكرون اسم الله على الذبائح عند الذبح بل يذكرون أسماء الأصنام. [المسألة الخامسة] أنهم كانوا يجعلون
الأجنة في بطون البحائر والسوائب لذكورهم وليس للأثاف فيها من نصيب كما تقدم في (المائدة) هذا إذا
نزلت حية، فإذا زلت ميتة أكلها الرجال والنساء.

هذه المسائل الخمس ذكرها الله في هذه الآيات بعد ما فقد معتقداتهم فلذلك قال في المسألة الأولى
(وجعلوا) أى مشركو العرب (فه مما ذرأ) خلق (من الحرث والأنعام نصيبا) أى وللأصنام نصيبا
(تقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا) بزعمهم وكذا ما جده أى زعموا أنه لله، والله لم يأمرهم بذلك
(فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله) أى لا يصل إلى الوجوه التي كانوا يصرفونها إليها من قرى الضيفان
والتصدق على الساكنين كما علمت (وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم) من إغناهم عليها والإجراء على
سدتها، وقوله «مما ذرأ» بيان أنهم لو عقلوا لم يجعلوا للأوثان شيئا لأن الله هو الخالق فلذلك قال (ساء
ما يحكمون) والخصوص بالقدم محذوف أى حكمهم هذا، وقال في الثانية (وكذلك) أى مثل ذلك التزيين
في قسم القربان (زين لسكثير من الشركين قتل أولادهم شركائهم) هو فاعل زين. وفي قراءة زين بالبناء
للجهول وقتل نائب فاعل وأولادهم مفعول وشركائهم مضاف إليه، وقد فصل بين المضاف والمضاف إليه أى
وكذلك زين لسكثير من الشركين قتل شركائهم أولادهم، والشركاء هم الجن أو السدنة (ليردوهم) ليهلكوهم
بالإغواء (وليلبسوا عليهم دينهم) وليخلطوا عليهم ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام، ومعلوم أن
كل ما يقع في هذه العوالم إنما يكون بنواميس واستعداد وقابلية (ولو شاء الله ما فعلوه) أى ما فعل
الشركون ما زين لهم ولا الشياطين ما زينوا (فدرهم وما يفترون) أى افتراءهم أو ما يفترونه من الإمكان،
وقال في المسألة الثالثة (وقالوا هذه الأنعام وحرث حجر) أى حرام فعل بمعنى مفعول كالتدريج يستوى فيه
الذكر واللؤث والواحد والكثير (لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم) يعنون خدم الأوثان والرجال دون

النساء كما تقدم (وأنعام حرمت ظهورها) . وقال في المسألة الرابعة (وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه) مفعول لأجله (سيجزئهم بما كانوا يفترون) أى بسببه ، وقال في المسألة الخامسة (وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام) أى أجنة البحار والسواحب (خالصة لكورونا ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزئهم وصفهم) أى جزاء وصفهم (إنه حكيم عليم) .

ثم أتى بما يفيد خسرتهم بما تقدم فقال (قد خسر الدين قتلوا أولادهم) فكانوا يشدون بناتهم بحافة الفقر والسبي وأبنائهم إذا نذروا ذلك كما تقدم (سفها بغير علم) لحفة أحلامهم وجهلهم أن الله تعالى رازق أولادهم لام (وحرمو ما رزقهم الله) من البحار وغيرها (افتراء على الله قد ضلوا وما كانوا مهتدين) وهذا ملخص ما تقدم من أعمالهم الفاسدة . ولما أكل الكلام على تعدد أعمالهم الفاسدة وقد ذكر أنهم تصرفتوا فيما ذرأ الله لهم من الحرث وهو الثمر والزرع ، والأنعام وهى الإبل والبقر والغنم شرع بفصل الكلام على هذين القسمين أى الحرث والأنعام على ألف والنثر والترتب فقال فى الحرث :

﴿ الكلام على الزرع والشجر ﴾

(وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات) يعنى والله الذى خلق وابتدع بساتين مبسوطات على الأرض كالقرع والبطيخ والعلنب الذى يقى على وجه الأرض منبسطة ، والعلنب الذى كهيئة سقف ويقال عرشت الكرم عرشه عرشا وعرشته تمرشا إذا جعلته كهيئة السقف ، واعترض العنب العريش إذا علاه ، فالعلنب بنوعيه أى مافوق العريش وما ينسبط على الأرض والبطيخ والقناء والحيار والقرع ، كل ذلك يقال له جنات معروشات أى مبسوطات إما على الأرض فى أكثرها وإما على العريش فى أحد نوعى العنب ، وقوله : « وغير معروشات » هى ما قام على ساق كالنخل والزرع وسائر أنواع الشجر .

﴿ عجائب فى النبات ﴾

اعلم أن هذا هو القسم الأصفر وهو ما يراه الناس من الجنات المعروشات وغير المعروشات ، أما القسم الأعظم منه فهو أنواع الحدائق والبساتين التى ترى فى الطحلب الذى يكسو وجه الماء فى البرك والمستنقعات فهذه بساتين ترى بالمنظار المعظم مزهرة باهرة وكذلك ما يعلو الجدران والسطوح وجذوع الأشجار والأرض الرطبة والصخور المرطبة فى المهال الظلية ، والصفوة النابتة على الحيطان الرطبة وعلى الجلود المدبوجة بجلود الأحذية وجلود الكتب وعلى الخبز فهى بساتين كالبساتين التى تراها بأعيننا ، وهكذا ما على سطح ماء البحر بحيث يتأقن بها الماء وعلى الصخور اليابسة على هيئة تشور يابسة أو غبار وهكذا ما يفسد العنب والبطاطا وما يخلق فى داخل الحيوان الحى فهذه وغيرها أنواع من الجنات المعروشات وغير المعروشات متى نظرت بالمنظير المعظمة علم أنها هى القسم الأكبر عددا والأوسع نطاقا فهى أوسع مما يراه الناس بأعينهم العادية ، وكما رأى الناس الكواكب بأعينهم فكانت (٦) آلاف وهى بالمنظار المعظم مئات الملايين هكذا هنا فى النبات سواء بسواء « ويخلق ما لا تعلمون » .

﴿ لطيفة ﴾

جاء فى جرائدنا المصرية بتاريخ (١٩) أكتوبر سنة ١٩٢٦ أن أحراج غيانا البريطانية (فى جنوبى أمريكا بالقرب من خط الاستواء) تحتوى على أنواع من الديدان والحشرات تفوق الحصر ، فقد وجدوا ما يزيد على ألف نوع منها فيما لا يتجاوز مساحته (ياردة) مرجة من الأرض .

﴿ أعمار النبات ﴾

اعلم أن دود الحرير يعيش ثلاثة أشهر من أيام أن يكون بزرا صغيرا إلى أن يكون دودا ، فليلجة : أى كرة صغيرة داخلها دودة يحيط بها حرير ففراشة خارجة من الدودة فبيض ثم موت ، والحبل تعيش (٣٠) سنة

والفيل يعيش عمرا طويلا هكذا يكون النبات ؛ فنه ما لا يعيش إلا فصلا واحدا كالخنطة والشعير والدررة ، ومنها ما يعيش مئات السنين مثل البلوط والصنوبر ، ولذلك يقولون إن النبات إما سنوي تكون حياته كلها في سنة فأقل كما تقدم وإما نبات محمول مثل اللفت والشمندور فإنهما يورقان في السنة الأولى ثم في السنة الثانية زهران ويبلغان ويبرزان ، وإما معمر وهو ما يعيش سنين عديدة كالأشجار والأنجم وبعض الأعشاب التي تزهر وتبلغ وتبرز وتموت . فوق الأرض منها كل سنة ويبقى ما تحت الأرض حيا ويجدد النبات في السنة التالية كالبطاطا والسوسن والزنبق ، هذه هي الجنات المروشات وغير المروشات ، ثم أخذ يفصل بعض الجنات غير المروشات فقال (والنخل والزرع مختلفا أكله) أي ثمره الذي يؤكل وهذه حال مقدرة لأن النخل وقت خروجه لا يأكل فيه حتى يكون مختلفا وهو كقوله « فادخلوها خالدين » وذلك الاختلاف في اللون والطعم والرائحة (والزيتون والرمان متشابهة وغير متشابهة) في الطعم (كلوا من ثمره) أي من ثمر كل واحد (إذا أثمر) ولا أحرم عليكم أكل ما لم يدرك بحجة أن الفقراء والساكنين حقا فيه لأن رعاية حق النفس مقدمة على رعاية حق الغير فلكم أكل ما لم ينم نضجه (وآتوا حقه يوم حصاده) أي جذاذه وقطعه ، وهو أن يطعم من حضر ويترك ما سقط من الزرع والتمر ولقاط السبل وقد كانوا يجيئون بالعدق عند الصرام فيأكل منه من مرّ وكان أهل المدينة إذا صرموا النخل يجيئون بالعدق فيلقونه في جانب المسجد فيجىء السكين فيضربه بعصاه فما سقط منه أكله ، وهذا الأمر للندب ؛ والآية ليست منسوخة بآية الزكاة فهي محكمة ، أما الزكاة فقد تقدمت في سورة (البقرة) فارجع إليها هناك إن شئت ، ثم قال : (ولا تسرفوا) في التصدق كقوله تعالى في آية أخرى « ولا تبسطها كل البسط » لأن في المال حق الزكاة أيضا فحق انضمام الإسراف في الصدقة إلى الزكاة كان ذلك مضيقا للعيال ؛ والسرف مجاوزة الحد ، ولذلك قال السدي معناه لا تنفقوا أموالكم وتقدموا فقراء ، وقال الزجاج لو أعطى الإنسان كل ماله ولم يوصل إلى عياله شيئا فقد أسرف وفي الحديث « ابدأ بمن تعول » ثم قال (إن الله لا يحب للسرفين) فيه وعيد وزجر عن الإسراف في كل شيء . وقال سبحانه في الأنعام :

﴿ الكلام على الإبل والبقر والغنم ﴾

وقد عطف على جنات قوله (ومن الأنعام حمولة وفرشا) أي كما خلق من النبات ما يبسط على الأرض وهو المروشات وما يقوم على ساق وهي غير المروشات خلق من الأنعام ما هو كالمروشات وهي الصغار الهانية من الأرض كالفرس الذي يفرش وذلك كاللوز والضأن وصغار الإبل وما هو كثير للمروشات من الشجر وهي ما يحمل عليه من كبار الإبل والبقر وهي التي يطلق عليها حمولة كما يطلق على ما يحمل من الحيل والبغال والحبر ، ثم قال (كلوا مما رزقكم الله) أي كلوا مما أحل الله لكم منها ولا تحرموها كما كان في الجاهلية روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرا ما فوق الثلاثين وللأمة من سورة الأنعام « قد خسر الدين قتلوا أولادهم سفها بغير علم » إلى قوله « قد ضلوا وما كانوا مهتدين » ثم قال (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) في التحريم والتحليل من عند أنفسكم كما كانت الحال في الجاهلية (إنه لكم عدو مبين) ثم أبدل من قوله « حمولة وفرشا » (ثمانية أزواج) والزواج مائة آخر من جنسه بزواجه ، وقد يقال لجموعهما وللراد الأول (من الضأن اثنين) زوجين اثنين الكبش والنسجة ، وهو بدل من ثمانية ، والضأن اسم جنس كالإبل وجمعه ضئان أو هو جمع ضأن كتاجر ونجر (ومن اللز اثنين) التيس والمنزة ، ولقد كان القوم في جاهليتهم كما تقدم يحرّمون بعض الضأن واللز والإبل والبقر تارة الإناث وتارة الذكور وتارة أولادها كيف كانت زاعمين أن الله حرمها فقال الله (قل) يا محمد آله كرين حرم (ذكر الضأن وللز (أم الأثيين) ونصب الله كرين والأثيين يحرم (أما اشتملت عليه أرحام الأثيين)

أى أو ما حملت إناث الجنين ذكرا كان أو أنثى (بنثوى بلم) أى بأسر معلوم يدل على أن الله حرم شيئا من ذلك (إن كنتم صادقين) فى دعوى التحريم (١٠) خلق (من الإبل اثنين) ذكرا وأنثى (ومن البقر اثنين) ذكرا وأنثى (قل) يا محمد لهم (آلا تكربن حرم أم الأثيين أما اشتملت عليه أرحام الأثيين أم كنتم شهداء) أم مقطعة: أى بل أكنتم شهداء حاضرين (إذ وصاكم الله بهننا) حين وصاكم بهذا التحريم (لمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) فنسب إليه تحريم ما لم يحرم ، ولراد كبراًؤم للقرّون لذلك وأولهم عمرو بن لحي بن قعدة للزوس لذلك (ليضل الناس) بغير علم إن الله لا يهدى القوم الظالمين . قل لا أجد فيما أوحى إلىّ) فى القرآن (محرّما) طعاما محرّما (على طعامه يطعمه إلا أن يكون ميتة) أى إلا أن يكون الطعام ميتة (أو دما مسفوحا) عطف على أن الصدرية وما دخلت عليه : أى إلا كونه ميتة أو دما مسفوحا فهذا عطف على الصدر للزول والمسفوح المصبوب كالدم فى العروق لا كالسكب والطحال (أو لحم خنزير فإنه رجس) فإن الخنزير أو لحمه قدر لتعوده أكل النجاسة (أو فسقا) عطف على لحم خنزير (أهلّ لغير الله به) صفة له موضحة ، وسمى ما ذبح على اسم الصنم فسقا لتوغله فى الفسق (فمن اضطرّ) فمن دعت الضرورة إلى تناول شيء من ذلك (غير باغ) على مضطر مثله (وواعد) أى ولا متجاوز قدر الضرورة (فإن ربك غفور رحيم) لا يؤاخذ على ما فعل وهذه هى التى كانت محرّمة عند نزول هذه الآية . وروى مسلم عن ابن عباس « نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أكل كل ذى ناب من السباع وكل ذى مخلب من الطير » . وروى أيضا مسلم « أنه صلى الله عليه وسلم نهى يوم خيبر عن أكل لحوم الجمر الأهلية » . وروى البخارى ومسلم « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن لحوم الجمر الأهلية وأذن فى الخيل » . وعن جابر « أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل الهر وأكل ثمنه » . وقد استثنى النبي صلى الله عليه وسلم من لبنة السمك والجراد ومن الدم السكب والطحال . وورد فى الصحيح « خمس يقتلن فى الحلّ والحرم وهنّ الحية والعقرب والقارّة والحدأة والكلب العقور » ونهى صلى الله عليه وسلم عن قتل أربع من الدواب النملة والنحلة والهدهده والقرد » أخرجه أبو داود . ولقد أوضحنا الكلام فى هذا اللقاع فى سورة (المائدة) .

ذكر ما حرم على اليهود

ثم شرع يذكر ما حرم على اليهود فقال سبحانه (وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر) ماله أصبح كالإبل والسباع والنعام ؛ وكل ذى مخلب وحافر ، وسمى الحافر ظفرا مجازا (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) التروب وشحوم السكلى (إلا ما حملت ظهورهما) إلا ما علقظ ظهورهما (أو الحوايا) أو ما اشتملت على الأعماء جمع حاوية أو حاويات كفاصماء وقواسع أو حاوية كسفينة وسفائن (أو ما اختلط بعظم) ببنى من شحم الألية لأنه اختلط بالمعصص وكذا الشحم المختلط بالعظام التى تكون فى الجنب والرأس والعين فكل هذا حلال لليهود والمحرّم عليهم شحم التروب وشحم السكلى وما عدا ذلك فهو حلال لهم . عن جابر بن عبد الله قال: سمعت رسولا الله صلى الله عليه وسلم يقول عام الفتح بمكة « إن الله حرم بيع الخمر والبيته والخنزير والأصنام فقيل يا رسول الله أرأيت شحوم البيته فإنها يطلى بها السفن ويدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس ؟ فقال لا ، هو حرام ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك قاتل الله اليهود ، ببنى أن الله لما حرم عليهم شحومها حملوه - ببنى أذا بوه ثم باعوه فأكلوا ثمنه » قال تعالى (ذلك) التحريم أو الأجزاء (جزيناكم بينهم) أى بسبب ظلمهم (وإنا لصادقون) فى الإخبار (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة) يمهلكم على التكذيب فلا تنفروا بإمهاله فإنه لا يهمل (ولا يردّ بأسه عن القوم المجرمين) حين ينزل . ولما كان هذا اللقاع يقتضى - وإلا يردّ فىقال هذه السورة جاء فيها التحريم والتحليل والإيمان والكفر وقد جاء نسبة الإيمان لله وقضائه كفى قوله تعالى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله أجمع » وجاء أيضا « ولو شاء

ربك ما فعلوه » فالقرآن صريح أن كل هذا من فعل الله نفسه صراحة وإن كان أهل السنة يقولون بالكسب الاختياري والمغزلة يقولون قولاً آخر وهو أن الفعل للمبد وأخرون يقولون بالجبر وعدم الاختيار فكيف يكون هذا حسن هنا أن يأتي بهذه الآية قال (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء) فكيف توعدنا يا محمد بالقاب على الشرك وعلى التحريم والتحليل مع أن صريح القرآن أن الله هو الذي أراد هذا منا . وقد تقدم في هذا التفسير مراراً أن هذا العالم قد خلق على نظام بديع وأنه درجات بعضها فوق بعض، وما مثل النفوس الناصية مع النفوس الكاملة وللمتعة للفضائل التي لا استمداد عندها إلا كمثل الحيوان مع الإنسان وكمثل النحاس مع اللآلئ فالتحاس لا يذوب إلا على درجة عالية واللآلئ يذوب على درجة قريبة من الصفر ولكل منفعة في الوجود، فللتحاس منفعة وللآلئ منفعة وللحيوان منفعة وللإنسان منفعة ولكن الفرائض للودعة في الحيوانات، والعقول للودعة في الإنسان، والديانات التي نزلت والعلوم التي اخترعت تدعو حثيثاً إلى الارتقاء إلى أعلى مدارك العرفان، ولذلك وجدنا الإنسان علم الحيوان حتى أذبه فركب عليه ولم يتركه على طبعه، فهنا أمور عملية قام الإنسان والحيوان بها فلا يجوز ترك الأشياء وطباعها بل لا بد من الزاولة والعمل وإخراجها من حال أدنى إلى حال أعلى فعلى ذلك أمر الأنبياء أن يهذبوا الناس ليخرجوهم من ظلماتهم إلى نورهم، والآباء يعلمون أبناءهم، والعلماء يعلمون الجهال لإخراجهم إلى العلم . وهذا العمل هو الذي امتاز به العقلاء من الناس وليس لهم سبيل للرقى إلا به .

فالأنبياء والعلماء وسائر العقلاء عليهم الجهاد في تهذيب أنفسهم وهذه العلوم وهذه الديانات أعمال أزموا بالقيام بها ولو تركوها لأصبح الإنسان كالحيوان الأعجم، ولو أن الناس قالوا كفاً أن الله هو الذي أراد كل شيء فعلام السعي لجاز لهم أن يتركوا الأكل والشئ وشرب اللآلئ وتموت الناس في يوم أو بعض يوم . والناس لتفتهم يعترضون على القضاء ولا يفكرون أنهم يأكلون ويشربون فلم لا يتركوا الأكل والشرب امتكالا على الله .

إن أمثال هذا القول من الأسباب التي تسقط الأثم وتبسط المهمل وما من أمة أخذت به إلا خربت ديارها وذهبت سدى وضاعت . وليس عذاب الآخرة تشفياً ولا أخذاً بالنار وليس إلا عملاً من الأعمال التي لا بد منها كما أن اللآلئ يسيل على أدنى درجات الحرارة، والنحاس يسيل على درجات رفيعة جداً عالية كما تقدم في هذا التفسير .

وهناك مصالح لا نلها نحن ولكن إذا ارتقت عقولنا أدركت فأصبح بهذا القول عذاب الآخرة سائراً على الناموس الذي نشاهده كل يوم ونحن غافلون، فمن أكل السم مات ولا يعترض أحد لأنه ناموس طبيعي ومن أكل أكلاً صحياً لم يمرضه . وهذه أمور مشاهدة محسوسة فالآخرة كالأولى « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

واعلم أن أمثال هذا القول كان علماءنا رحمهم الله يقولون : إن هذا سرّ القضاء والقدر والسرّ الآن يجب إظهار بعضه لأن النوع الإنساني ارتقى فلا بد من إظهار العلم له . ولما كان هذا القول نتيجة تكذيب القرآن قال تعالى (كذلك كذب الذين من قبلهم) أي مثل هذا التكذيب لك كذبت الأمم الخالية أنبياءهم وقالوا مثل هذا القول (حق ذائقوا بأسنا) الذي أزلناه عليهم بتكذيبهم (قل) يا محمد لهم (هل عندكم من علم فتخرجوه لنا) أي هل عندكم من حجة وكتاب يوجب اليقين من العلم فتظهروا ذلك العلم لنا وتبينوه فيثبت أن الله رضى شرككم (إن تتبعون إلا الظن) فيما أتم عليه من الشرك وتحريم ما لم يحرمه الله وتحسبون أنكم على حق (قل) يا محمد (فقه الحجة البالغة) البينة الواضحة فأنتم لم تظنوا على ما يجله الله وإنما أتم

مكلفون بالأعمال فله وعليكم العمل (فلو شاء لهذاكم أجمعين) إذا كنتم مستعدين للإيمان وهو لا يشاء إلا ما هو ممكن ، فالمشيئة لا تتعلق إلا بالأمور الممكنة والوجود ليس فيه طفرة فهو يهدي ويضل على حسب الدرجات ولو لم تكن درجات لم يكن هذا النظام (قل) يا محمد (هلم شهداءكم) أى أحضروهم وهذا القمل لا يتصرف عند أهل الحجاز ويتصرف عند بنى تميم (الذين يشهدون أن الله حرم هذا فإن شهدوا فلا تشهد معهم) لأنهم فى شهادتهم كاذبون (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا) أى إذا وقع منهم شهادة فعلى باتباع الهوى (والذين لا يؤمنون بالآخرة) أى ولا تتبع أهواء الذين لا يؤمنون بالآخرة كمبدة الأوثان (ومربرهم يبدلون) يحصلونه له عدلا اه التفسير اللفظى .

لطيفتان فى هذا اللقاه

اللطيفة الأولى الزهر . اللطيفة الثانية فى الكلام على التشابه وغير التشابه وبعض الأشجار .

اللطيفة الأولى الزهر

قد جاء فى هذا القصد قوله تعالى « انظروا إلى ثمره إذا أمر » وقد ذكر هذا فى قوله « إن الله فالحق الحب والنوى » وقد بينا هناك أن مسألة الثمر والزهر هى الشغل الشاغل للأمم اليوم فى تقسيم النبات وأن رتبته (٢٤) . وهنا لابد من الإشارة إلى أنواع الزهر تفكها للقراء ليكون ذلك ترويحاً للنفوس وإظهاراً للمجائب العلية والبدائع الحكيمية والمحاسن الطبيعية .

جمال النبات وبهجته فى مجائب الأزهار وإلقاها

كنت أود أن أذكر هنا مجائب الأزهار وإلقاها . (١) وأبين تلك الزهرات التى لها شعرات تحمىها فلا يدخلها إلا النحل (٢) والزهر ذا الفاتيح والأضال (٣) وذا الحارس (٤) والزهر للنظم كأنه الجند (٥) ونوعاً من الشجر فيه نوعان من الزهر فهما أعضاء ذكور وأعضاء إناث طويلات وقصيرات ، والنحل مع هذين النوعين مجائب وغرائب وحكم ونظام لا محل له كرها الآن (٦) وكيف ينم الزهر وكيف يستيقظ وما أوقات نومه وما أوقات يقظته وما الملافة بين نوم الزهر ويقظته وبين الحشرات والنحل وكيف يستيقظ نوع الحشرات عند استيقاظ الزهر الخاص به وينام عند نومه ليلاً ونهاراً وعلاقة ذلك كله بالإقحاح والإقحاح لسعادة نوع الإنسان (٧) وبيان الزهر الأحمر والأصفر والأبيض والأزرق . وكيف كان اختلاف الألوان مناسباً لأنواع الحشرات الطائفات عليه . وكيف كان الأبيض والأصفر يناسبان وقت الغلس بعد التروب وغيرهما يناسب النهار ولكل حشرات تعرفه .

وكيف كان الزهر الذى لا جمال فيه كزهر السنط والصفصاف لا يحتاج للحشرات ويكفيه الهواء ، والزهر الذى جعل شكله ولونه قد احتاج للحشرات فكان ذلك الجمال مشقاً لتلك الحشرات الخ (٨) والزهرة التى أعطيت من السياسة والإلهام ما لم يعطه غيرها بحيث يغتر بشكلها نوع من الحشرات جهالة فيقع عليها فيحصل الاهتزاز فيكون الإقحاح ولا تنال الحشرة شيئاً (٩) والزهرة التى يحصل إلقاها بمجرد الاستدقاء بها إذ تصل لها الحشرة مستدفئة وتطير لأخرى مستدفئة وهكذا والبرد يحكم على الحشرات بالدخول ثم يضيق صدرها فتخرج فيحصل البرد فتدخل فى أخرى من نفس النوع ، وفى أثناء ذلك تكون قد أخذت طلعا من زهرة الذكور ووضعت فى زهرة الإناث فحصل الإلقاح والناس حولها لا يشعرون .

أقول كنت أود أن أبين هذا اللقاه وأشرح هذه الأنواع شرحاً مستفيضاً ولكن لا يسوغ لى ذلك هنا لأنه بسورة (الحجر) ألقى فانظر هذا اللقاه هناك واضحا جليا شارحا للصدور فى تلك السورة إن شاء الله تعالى عند قوله تعالى « وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء الخ » فهناك تقرأ هذا اللقاه منقولاً من كتابى

(الزهرة) التي هي مقدمة لكتابي (نظام العالم والأمم) مترجما من كتاب اللورد (افبرى) الانجليزي للسمى جمال الطبيعة « وانه هو الولي الحميد » اه .

اللطيفة الثانية في الكلام على التشابه وغير التشابه من النبات والشجر

من النبات والشجر ماورقه وثمرته متناسبات في السكبر واللون والشكل والمس كالأترج والنارنج والليمون والكثري والتفاح وما شاكلها . ومن النبات والشجر ماثمرته وجه غير مناسبين لورقه في السكبر مثل شجر الرمان والتين والعنب والجوز والنخل .

ألا ترى أن شجر الأترج مدحرج الشكل نمرها أخضر اللون لين اللس مناسب لورقه والنارنج مستدير الشكل مناسب لورق الشجرة . والكثري مخروط الشكل وكذلك ورق شجرته . والتفاح مستدير الشكل وكذلك ورق شجرته . وأما ثمرة الرمان فغير مناسبة في السكبر لورق شجرته . وكذلك التين والعنب وغيرها على هذا القياس .

الكلام على النخل

قد ذكرت في تفسير (الفأحة) شيئا في النخل وزيد الآن فنقول :

(١) كثرت عروق النخلة الضاربة في الأرض لشدة حاجتها لها لسكبر جنتها وطول قامتها وكثرة عدد سعفاتها وأوراقها لسكبا تخدم في جرم أصولها . وفي جرم سعفها ، وفي جرم أوراقها ، وفي ليفها ، وفي جرم أكمام ظلمها ، وفي جرم قضبان قنوانها ، وفي جرم نواة نمرها ودبسها وشيرجها ، فهذه الفروع الضاربة في الأرض لتقسم على تلك الأنواع والأعضاء المختلفة .

(٢) لماذا جعل جسم ساقها رخوا متخلخلا ، ذلك لأنه لو كان غير متخلخل كالساج والسرول لسر على القوى الطبيعية جذب تلك اللواد إلى أعلى النخلة في السعف والليف وغيرها وأبضا تلك الحيوط الدقيقة التي ركب منها باطن جذع النخلة كل خيط منها متصل برق ضارب في الأرض لتوزع الغذاء على تلك المروق لتوصله إلى ماخلفت له من أول الأمر .

(٣) ومن أعجب العجب أن الناس يشاهدون النخلة وقد جعل عليها (ليف) كأنه مآزر مشدودة على أصول مخارج سعفاتها من أجزاعها كأنها مشمرة بها والناس يأخذونه يحملونه جبالا لأمتهم لحفظها من التبدد .

وما علم أكثر الناس أن اليف قبل أن يلم أمتهم ومحفظها قد حفظ النخلة من التفرق والتشتت لأن جرمها كما قلنا رخو ومستجبل أن يثبت عليها سعف أو قنوان ، بل كانت لولا اليف للشدود بتحريك يسير من الهواء تتناثر وتبعثر تلك السعفات وتقع على الأرض فلا خوص ولا سعف ولا نمر ولا يكون على وجه الأرض نخلة مشمرة ولا ثمرة تؤكل . فتمجب ثم تمجب من الحكمة والملم والناس في الأرض طافلون نائمون .

(٤) وهالك ما هو أعجب : ترى طلع النخلة يحفظ في غلاف وهو (الكفرى) ليصونه من الآفات العارضة من الحر والبرد للفرطين والطر الشديد والرياح والموامف والنبار وغيرها لأن الطلع يخرج رطبا نديا رخسا رخوا ، فإذا استحكمت واشتد انشقت تلك الأكمام والغلف عنها وظهرت تلك الثمرات لتسبم الهواء وحرارة الجوق لتربو وتضجها حرارة الشمس وتصير بسرا ورطبا ثم تجف وتصير تمرا .

لمسرى ما أغفل الناس عما يشاهدون في جمال الدنيا . طلع النخل يحفظه الغلاف عند ضعفه كالجنين في بطن أمه فإذا استأهل وقوى انشق الغلاف عنه كما يخرج الجنين من بطن أمه والبيضة من الطائر عند قدرة تحملها ملاقة الجوق والاكتساب منه والبيض فيه « ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت » .

وهذا هو علم التوحيد . وعلم رقى الأمم . وعلم سعادة الدنيا والدين ، فليقلع للسلون عن نومهم العميق وليعلموا أن هذا هو دين الإسلام . هذا هو أصل الدين ، أصل الدين أن تقرأ وتدرس ما خطه الله يده . على هذه الطيبة إنه حكيم ، ومن هنا فلتنرف الحكمة ومن هنا فليفهم مقصد الحكيم . في القرآن قد ذكر أنه «حكيم» عشرات للرات فهذا تفسيره ، تفسيره هذا الوجود ، فلتفتح البصائر وتجد الجمال السرائر ، وبمثل هذا يكون الحكماء في الإسلام ، وبهذا يكون حب الله ، هذا هو سعادة الدنيا والدين .

(٥) وهناك حكم أخرى مثل النسيج الحريري على النواة ، ومثل الحفرة للسطيطة في جرم النواة ، ومثل النقرة التي على ظهر النواة التي منها تخرج النخلة ، ومثل القمع الذي على رءوس الثمرات ، فهذه وأمثالها تقدم ذكرها في تفسير (الفاحة) عند قوله « رب العالمين » .

وبمناسبة ما تقدم من ذكر الثمر وبهيمة الأنعام أذكر هنا محاورات دارت بيني وبين فلاح مصري ، وقد نشرتها جريدة (كوكب الشرق) في ٥ سبتمبر سنة ١٩٢٥ ، وهما هي ذه .

حديثي مع فلاح مصري ذكي الفؤاد

خرجت يوم السبت (٢٩) من شهر أغسطس سنة ١٩٢٥ لأرواح النفس من عناء الأعمال في الحقول وأستنشق النسيمات في الحقول لا القهوات وللتندبات فأسامر الزهر والشجر والزرع والتمر والحب والورق وأمتعها بالحكمة واجتلاء بدائع النظام في مناظر الفاكة « والنخل ذات الأكام . والحب ذى الصف والريحان » قال الشاعر :

والريح تبت بالتصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

وذلك في الزارع النائية عن بلدة (الجيزة) وبيننا أما أمشي في طرقات للزارع وأتأمل ذلك الجمال الرائع إذ قابلني (فلاح) يسق الدرة وهو يجمع الكلال من نحته لجاموسته فأخذ يقول أظن أنك جئت هنا للترهة واستنشاق الهواء منفردا عن الجامع والمجالس . قلت نعم وكان في يدي إذ ذاك زهرة قطن أخذتها من حقله فسألني قائلا : ما الذي تستفيدة من هذه الزهرة إذ ليس لها رائحة ذكية ولا منافع مادية ؟ فقلت انظر معي تماثل هنا لأريك عجائبها وأعلمك بدائمها ، قال وأى عجب فيها ونحن نشاهدها كل حين ولا نرى فيها عجا ؟ فقلت : انظر . ألت ترى ههنا ثلاث وريقات محيطات بالزهرة أتدري ما فأندتها ؟ قال هي هكذا ربنا يعلم أمرها . فقلت هذه تحافظ على دثار هذه العروس الجميلة وملابسها السندسية الصفراء الزدانة بلون الشفق وفي داخلها تقط حمر وقطرات العسل الحلو قد أعدت للحشرات تجتنيه .

فقال عروس وملابسها . أما اللابس فهي حق إنها بهجة جميلة لأنني أرى هذه الوريقات الصفراء كذلك ولكن أين العروس ؟ فقلت : انظر هنا داخل الأتواب البيض للصفرة . انظر هذه الأنبوبة من داخلها ألت ترى أنها حاملة حملا خفيفا في جوفها وهي جوزة القطن ؟ قال أرى ذلك . قلت هذا هو الرحم وهذا هو الجنين وهذه الأنبوبة هي الأثر وهذه الأوعية الحاملات حولها حبوبا صفرا هي الدكور وتلك الحبوب الدقيقة هي الطلع الذي هو كطلع النخل ، وهذا الطلع به يكون الإلقاح وكل نبات هكذا فيه ذكر وأثر كمنه الجاموسة وكالإنسان . إذ ذاك رأيت الرجل أخذ يظهر الدهش والتعجب ويقول : عشنا ولم ندر شيئا في الدنيا زدني زدني سبحان الله أهذا كله في العلم ؟ الله يعمر الأزهر ويعمله أهلا بالعلماء الله إن العلم حسن جدا ، قل لي قل لي وهل هذا في القرآن ياسيدنا ؟ قلت له نعم . قال الله تعالى « ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون » قال (٥هـ) لعلكم تذكرون ونحن لا نتذكر من هنا جاء اقل للناس من هنا حقت بهم الصائب

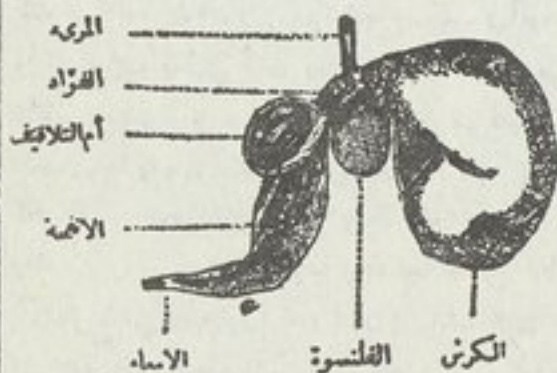
هم لا يعرفون ربهم لا يعرفون شيئا من أمور دينهم وديانهم . قال (الفلاح) أنت قلت لي ههنا غسل وهل هذا الغسل للمروس تأكله والله إن العروس في ثيابها كأجل ثياب المرائس . فقلت قد قلت لك إن الغسل أعد للحشرات مثل النحل . فقال ولماذا ؟ قلت إن الحشرات إذا نظرت لون الزهرة فإنه يجلبها فتطير إليها لحسنها ثم إذا دخلتها أكلت هذا الغسل وعند دخولها وخرجها تحمل أجنحتها من هذا الطلع الأصفر ونحوه فيقع منها على الأثر التي رأيتها بعض الطلع فيحصل القمع والنحلة لا علم لها بما تحمله وإنما هي مسخرة وقد أخذت أجرتها وهو الغسل والناظر البديعة في الزهرات وتارة تكون الرياح هي اللقحات وحدها ولون الزهر ممدد لأجل الحشرات الطائعات على الزهرات وهي مغنيات كما تسمع النساء يغنين للمرائس أيام الزفاف فقال يا سبحان الله شيء عجيب أنا الآن أريد أن أسألك عن كل شيء ، فقلت له أجيئك على ما عرفه ، فقال أنت تعرف كل شيء ، فقلت قليلا قال الله تعالى « وفوق كل ذي علم عليم » قال (ياسيدنا) ماذا تقول في القدرة ؟ قلت هو كالقطن ، قال فأين مادة القفاح ، قلت في أعلى العود ألت تراه أشبه بشماريح طلع النخل ، قال بلى وأخذ يضرب كفا على كفا وقال هو هكذا ، قلت نعم هكذا قال فأين الرحم في الأثر ، قلت انظر إلى هذه الأمايب الشمرية التي هي سلوك حريرية إن فيها فتحات لانراها والطلع ينزل من أعلى العود ويمر داخلها فتحمل بحبة واحدة فكل حبة على اللطر (الكوز) من الدرة جاءت من قمع ذكر وحمل أثره وإذن يكون اللطر الواحد عبارة عن قرية فيها بيوت كثيرة وموالب بعدد الحبات المتظلمات على (القولحة) قال هذا حق والله لأنني رأيت رجال الحكومة في مصلحة البساتين الأميرية يحملون الدرة في خطوط ويأتون إلى الخط الذي يأتي الريح من جهته فيتركونه ويأتون إلى الخط الذي تحت الريح فيقطعون أعلاه ليحيى القمع من الأول إلى الثاني وهما من نوعين من الدرة فيحصل صنف جديد من الدرة بأشكال جديدة ، فقلت له أحسنت أنت فهمته عملا ولسكنك لم تسكن قد اطلعت على سره ، قال نعم .

ثم قال الفلاح انظر إلى جوزات القطن فهذه قد فتحت وظهر قطنها . قلت وماذا تسأل عنه ؟ قال أسأل عن السبب في أن القطن هكذا ظاهر واضح ، فأما الدرة فإنها إذا نضج حبا وأينع فإنه لا يزال داخل الغلاف ونحن نرفعه عنه بأيدينا ، فأما القطن فإنه يظهر للناس خارجا ليس له وقاية تحببه ولا حافظ يحفظه فالزهرة قد ذبلت ووقعت والجوزة انحلت عنه وأصبح بارزا تراه العيون ، وأما حب الدرة فإنه يبقى محفوظا في سنابله محبوبا في أما كنه ، فقلت له ليس القطن ظاهرا كما تقول بل هو خاف محبوبا فكما اختبأت حبات الدرة محافظة عليها فهكذا اختبأ القطن ، فقال اختبأ هاهو ذا تراه بعينك ، قلت أرى الشعر وهو وقاية للبذرة فالقصد الأعظم هو البذرة وأما الشعر فهو وقاية لها كغلاف الدرة فهناك غلاف حافظ للحب وهما شعر القطن يحفظ البذرة التي تثبت فتصير قطننا آخر فيما بعد ، والغلاف في الدرة والشعر في القطن في الحفظ كزلال البيضة الحافظ لهما (صفارها) فقال لا تدخلني في مسائل عويصة ولا تطوح بي بيديا بل نبقي هنا في التبيط ثم قال إنك فتحت لي بابا عظيما وأنا سعيد جدا لهذا الكلام إن العلم حسن وعلماء الأزهر متمتعون بنور العلم فرحون به ، فقلت له هذا العلم يقل من يدرسه في مصر الآن ، فقال يقل ومن أين تعرفه أنت ؟ فقلت أنا من القليل الذين يدرسون ، قال ألم يكن هذا في المدرس وأنت قلت إنه في القرآن ؟ قلت بلى ولكن الإهمال عظيم جدا وليس كل عالم بالدين دارسا لهذه العلوم الجميلة .

ثم جاء ابنه ومعه ما كان مجموعا من (الكلا) ليقدّمه للجاموسة ، فقال أسألك ياسيدنا عن هذا أيضا ، قلت : سل . قال ربنا جعل الحشيش للبهائم وجعل لنا الحب لأننا أفضل من البهائم والبهائم تأكله وهي قوية الجسم ومرضاها إذا اعتنينا بها قليل ولكن الحب نطحه ونخبره والحضر نطبخها ومع ذلك تنب من الأكل ونحس ببعض الأوجاع والنفس ونستعمل الأدوية فلماذا ؟ قلت إن الله لما أعطاك العقل وطبخت وخيرت

أعطاك أيضا معدة واحدة فقط ، أما هذه الجاموسة وأمثالها من الحيوانات التي تأكل الحشيش فإنها لها أربع
معدات اثنتان تجملان مخزنا للطعام حين تتعاطاه الجاموسة يحفظ فيهما إحداهما تسمى (الكرش) والثانية
(القلنسوة) واثنتان لهضم الطعام بعد رجوعه من الأوليين لقم الحيوان فالحيوان يسترجع ماخزنه
في الأوليين ليختره وبعد مضغه يدخله في الأخيرين ليتم هضمه فيهما وهاتان الاثنتان إحداهما يسمونها
(الأثفة) والثانية يسمونها (أم التلايف) فالمدل قام هنا وظهر .

فلسا كان الحيوان لا يقدر على طحن ولا سحق ولا خبز ولا طبخ أعطى أربع معدات تخبز وتطبخ له
وكانت له الحرية التامة أن يخزن في اثنتين وبمضغه بعد ذلك ثم يرجعه للثنتين الأخيرين . وأما الإنسان
فكفاه ما هو فيه من الأعمال الخارجية الكثيرة ولم يمنح إلا معدة واحدة ، وهاتمت المسائل العلية بيننا
وابتدأ (الفلاح) يسأل أسئلة عامة في أحوال الأمة المصرية



قال أأقل لي ولماذا كان لهذه الجاموسة
في بطنها مخزنان ولماذا لم يكن الطعام متوجها إلى
ما تسمونه (الأثفة وأم التلايف) مرة واحدة
قلت هذان المخزنان جملا لأجل هذه الحيوانات
في الجبال إذ تكون الفزالة خائفة من الأسد والنمر
ونحوهما ، فإذا صادفت عشا أخذت منه مسرعة
ما تحتاجه وخزنته ثم أسرعته إلى كناسها واستراحت

وأخذت ترجمه ثانيا إلى فيها وهكذا وتجتز الطعام وترجمه (شكل ٧ - رسم آلات الهضم للأضام)
لهضم فهذان المخزنان خلقا للخوف من السباع الضارية ، فقال ولماذا ترى ربنا سلط السباع على هذه
الحيوانات ؟ قللت لقد أطلت الأسئلة ، فقال لا أزيد على هذا السؤال ، قللت : إن السباع جعلت لنا كل لحم
هذا الحيوان بدل أن يفسد في الجوف فيملأه بالمسكروبات الضارة فيكون الوباء والكوليرا ويموت الناس
والحيوان فالآساد نعمة لانقمة ، وأيضا إذا مات هذا الحيوان ولا منفعة للحمة يكون عشا فجعل لحمه للآساد
والنمور والذئاب لتعيش به ، أفلمت ترى أن الناس حين يموتون يعيى الدود في لحومهم ويتغذى بها ذلك ، لأنه
يراد أن يكون لكل شيء منفعة . فقال الرجل والله إن هذا كلام حسن وجميل لأنه يفتح الأعين وشرح
الصدور وإني كنت قد فرحت بك ولكن لما قلت لي إن الدين يعرفون الدين يجهلون هذا اغتممت مما
شديدا ، وإذا كان هذا قولا جميلا فلماذا لا يعرفه الناس كافة ؟ وكيف يعرفون ربهم وبماذا يعرفون الله إذن ؟
قللت عندنا علم يسمى علم التوحيد ، فقال هذا هو التوحيد ، التوحيد في معرفة فعل الله الذي أريته لي الآن
ثم قال وكيف يسكرون في التوحيد ؟ قلت يقولون الله واحد وهو قادر وعالم وحى ومريد ويقولون إن الله
لوم يكن واحدا وكان له شريك لحصل هناك نزاع بينهما والناب منهما يكون لها قادرا فإذا لا يكون إلا إله
واحد . قال ولماذا يذهبون بجيدا ، الله واحد وهو ظاهر في فعله جميل الذكور والإناث فينا وفي الهائم
وفي شجر القطن والذرة ، فلو كان الخالق غيره لكان العمل مختلفا ، فالعمل هنا يجرى بطريقة واحدة
منظمة ، وأما هذا الكلام فالاعتصار عليه تقصير في العلم وفي الدين وضباع للمقول وغرور كبير . ثم قال
يظهر لي أن الناس أغمضوا عيونهم ولم يملوا ، قل لي قل لي هل واحد في الدنيا يعرف هذه الأشياء معرفة
عامة ، قلت هم القرنجة ، قال تعنى الحواجبات ، قلت نعم هم يدرسون هذا ويعرفونه ، قال ولكن أنت تقول
إن ديننا يطلبه ، قلت نعم ولكن النفلة استحكمت ، فقال أنا فهمت الآن ، قلت ماذا فهمت ؟ قال فهمت

أنا في الفلاحين مثلكم تماما ، فالفلاح منا يرى هؤلاء الأجانب يزرعون زراعا منتظما وينظمون الطرق ويأتون بأشجار غريبة ونحن ننظر لهم ولا نسكر فيما يعملون ويقول الرجل منا هذا يحتاج لتقود كثيرة ، وإذا صرفنا فنحن لسنا عن يقين من الكسب، وهؤلاء أغنياء ونحن فقراء ونقول هذا ما وجدنا عليه آباءنا، فالابن يتبع آباء وهؤلاء يرتفون في بلادنا ويملكون أرضنا ونكون نحن عندم مأجورين عاملين لا غير فأظن أتم مثلنا يخاف كل واحد منكم على مركزه ووظيفته ويقول لو أرى جعلت النظام على الطريقة النافعة لكرهني الناس ولقاموا على قومة واحدة فيبقى تعليمكم عتيا وتعلمون الناس ألفاظا يحفظها الابن عن الأب والتليذ عن الأستاذ وهكذا طبقا عن طبق وربنا لا يرضى عن الناس قط إذا فعلوا هذا ، فالأجانب ملكوا أرضنا بجهدنا وأتم أيضا بملككم للموجّ ضيعة البلاد والعباد والله يسألني عما أقول إن احتلال البلاد وضياعها ناشئ من جهل الفاعلين بالأمر من رجال الدين وغيرهم . نحن نستحق اللدائع والطيارات والوث مادام كل واحد منا يقول مالي وللسدين فنحن وأتم في هذه المشولية سواء بسواء .

انظر ياسيدنا إن مصلحة (البياتين) كانت تشمل كل يوم تجارب ، وهذه التجارب تأتي بأنواع جديدة ونظامهم أحسن من نظام الأجانب ، ثم إن الفلاحين لا يقدون هذه الصلحة ، وإذا كان للفقراء عذر فلماذا نرى الأغنياء عنها ساهين لاهين ، فأنا أظن أنكم مثلنا تماما أهملنا وأهملتم وضيعة أرضنا وضيعة أتم عقولنا .

ولكن ياسيدنا أنت تقول إن علماء الدين لا يقرءون هذا اقلقت كانوا يقرءونه أيام الصفور لهم (إسماعيل باشا وتوفيق باشا) وأوائل الاحتلال وبعد ذلك حذف من البلاد بالتدريج قال حذف من المدارس ، قلت نعم قال لأجل أن تغفل الأعين جميعا ؛ أعين رجال الدين ورجال الحكومة ، ولكن كيف ياسيدنا تقول هذا القول مع أني أخبرتك أن رجال البياتين يقطعون أعلى الدرة ليعملوا تجارب وهذا يدل على أنهم يعرفون مسألة اللقح فلا بد أنهم يعرفون فكيف تقول إنهم لا يعرفون ، قلت هؤلاء هم علماء هذا الفن وطبعيا يعرفونه أحسن مني أنا ومن غيري ولكن هذه معرفة لأجل الصناعة لا أنها لأجل الاستنتاج العقلي منها فيما أتكلم معك فيه وكان يجب أن يكون جميع رجال الدين وتلاميذ المدارس عارفين هذه الأمور معرفة تامة لترقيه عقولهم . فأما رجال البياتين ومصلحتهم فهم أشبه بالأطباء يبحثون عن الزراعة كما يبحث أولئك عن المرض فهذا بحث خاص قال الآن فهمت وصدقت قولك ، يعني أن هذا العلم ليس معمما في المدارس قلت نعم وسيعم من الآن. قال ومن أين جاء لك؟ قلت إنهم تنهبوا لهذه الأمور الآن، قال تنهبوا هنا لا يعني ياسيدنا أنت حرام عليك إن لم تقل لهم هذا القول ، وإياك أن تكون خائفا كالدين يخافون وإن هذا الكلام الذي قلته ينفع كثيرا . وصار يقول سألتك بالله أن تقول لهم هذا القول ، ولو كنت بذلك لكنت ملأت المجالس بهذا وكتبت في الجرائد ، فقلت له سأكتب كل ماجرى بيني وبينك اليوم في الجرائد السيارة ومتى كتب أحضر إليك هنا وتسمعه ، قال وهل تعاهدني على ذلك؟ قلت أعاهدك ، قال الآن اشرح صدرى وهذا العمل يرقى الناس ترقية عامة . انتهى حديث (الفلاح) ولقد أحببت أن أكتبه لأن العائمة أقرب إلى الفطرة فوجدتهم وشعورهم مقتبسان من النور الإلهي « إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » انتهى الكلام على لتقصد الخامس .

(المقصد السادس)

قُلْ تَمَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
 وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ *
 وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ، وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ
 بِالْقِسْطِ لَأَنْكَلِفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا،
 ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
 السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ، ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَىٰ
 الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بَلِّغُوا رَبَّهُمْ
 يُؤْتُونَ * وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا
 أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَيْنَا حَتَّىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ * أَوْ تَقُولُوا لَوْ
 أَنَا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ يَتْنٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً
 فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ
 الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ * هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ
 بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ قَسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ
 قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتظِرُوا إِنَّا مُنتظِرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا
 شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ
 فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَلِهَا، وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * قُلْ إِنِّي هَدَانِي
 رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * دِينًا قَبِيًّا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُلْ إِنْ
 صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ
 الْمُسْلِمِينَ * قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ ابْنِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا
 وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ.
 وَهُوَ الَّذِي جَمَلَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ
 فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ *

التفسير اللفظي

(قل تعالوا) أى هلوا أيها القوم (أنزل) أقرأ (ما حرم ربكم عليكم) حقا بقينا لاشك فيه وليس كما تزعمون من تحريمكم للنبي على الأهواء بل هذا نزل به الوحي على من قال التلقوا (ألا تشركوا به شيئا) من الشرك (و) أحسنوا (بالوالدين إحسانا ولا تقنلوا أولادكم من إملاق) من أجل فقر ومن خشيته كقوله في آية أخرى « خشية إملاق » (نحن نرزقكم وإياهم) يقول لانشدوا بناتكم خوف العيلة والفقر فإني رازقكم وإياهم ، فإله تكفل بالرزق فعلى الآباء القيام بالتربية (ولا تقربوا الفواحش) كبار الذنوب (ما ظهر منها وما بطن) بدل من الفواحش أى علانيتها وسرها (ولا تقنلوا النفس التى حرم الله) واعلم أن جميع الفواحش الظاهرة والباطنة لا استثناء فى تحريمها كالزنا والنصب والسرقة وما أشبهها . أما القتل فقد يكون لقصاص أو لزنا الثيب أو لترك الدين بالردة لذلك أفرد بالذكر لينص على الاستثناء بقوله (إلا بالحق) المذكور من هذه الثلاثة ونحوها (ذلكم) ما ذكر من الأوامر والنواهي (وصاكم به لعلكم تتقون) لئلا تفهموا ما فى هذه التكاليف (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالحقى هى أحسن) أى بالفملة التى هى أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتغييره (حتى يبلغ أشده) حتى يصير بالغا والأشد جمع كنعمة وأنتم (وأوفوا الكيل والليزان بالقسط) بالعدل والتسوية (لانكلف نفسا إلا وسعها) إلا ما يسعها ولا يسر عليها فليس إيفاء الكيل والليزان إلا بما فى الطاقة أما الأمور للصرة فقد عني عنها لأن التكليف بما فى الطاقة والوسع (وإذا قلتم) فى حكومة ونحوها (فاعدلوا) فيها (ولو كان ذا قربى) ولو كان القول له أو عليه من ذوى قرابتكم (وبجهد الله أوفوا) ببنى ما عهد إليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع (ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) تتعظون به (وأن هذا) المذكور فى هذه السورة بأسرها من إثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة وعجائب الخلق من السموات والأرض والجنات للمروشات وغير المروشات وبدائع الحكمة الإلهية والأنوار والظلمات والنظر فى النور إذا أتم والنهى عن قتل الأنفس والمهرمات بأسرها وما شاكل ذلك وكذلك جميع أحكام الشريعة وكل ما بينه الرسول وورد فى القرآن من دين الإسلام (صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل) الأديان المختلفة والطرق الناجية للهوى (فتفرق بكم) أى تفرقتكم وتميلكم (عن سبيله) الذى هو اتباع الوحي والبرهان (ذلكم) الاتباع (وصاكم به لعلكم تتقون) السبل والضلال والتفرق عن الحق . ولما أتم الكلام على المهرمات والتوصية بتركها شرع سبحانه يقول على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم (ثم) أخبركم أنا (آتينا موسى الكتاب تماما) للكرامة والنعمة (على الذى أحسن) أى على من أحسن القيام به من أمته كما أنزلنا القرآن كذلك إنعاما للنعمة والكرامة على كل من أحسن القيام به وحافظ على أوامره وترك نواهي كالتى ورد فى هذه السورة من الأوامر والنواهي والإرشادات للجمال والبدائع التى أحسنها الله وزينها لنا نظرين (وتفصيلا لكل شئ) أى تماما للنعمة على المحسنين وبيان مفصلا لكل ما يحتاج إليه فى الدين (وهدى ورحمة لهم) أى لملئ بنى إسرائيل (ببقاء ربهم يؤمنون وهذا) أى القرآن (كتاب أنزلناه مبارك) كثير النفع (فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون) بواسطة اتباعه وهو العمل بما فيه وإنما أنزلناه ولم نكف بالتوراة والإنجيل كراهة (أن تقولوا) إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا اليهود والنصارى وإنما لم يذكر الكتب السماوية الأخرى لأن العرب لا يعرفون غيرها (وإن كنا) إن هى الخففة من التقيلة ولذلك دخلت اللام الفارقة فى خبر كان أى وإنه كنا (عن دراستهم) قرأتهم (لغافلين) لاندري ما هى أو لانعرف مثلها (أو تقولوا) عطف على الأول (لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم) لحدة أذهاننا وثقابة أفهامنا وكيف لا يكون كذلك ونحن على أميتنا حفظنا تاريخنا بأشعارنا وعرفنا الأنوار والنجوم وللنازل بحدة أذهاننا ولنا قوة جلد

وصبر تقتحم بهما الهالك ونشر العرفان في أنحاء الكرة الأرضية فنصل إلى الهند والصين وأوروبا وننشر
 علنا في العالمين ثم قال الله تعالى (فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة) لمن تأمل فيه وعمل به (فمن أظلم
 ممن كذب بآيات الله) بعد أن عرف صحتها وتمسك من معرفتها (وصدق عنها) أعرض أو صد عنها فضل
 وأضل (سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب) شدته (بما كانوا يصدفون) بإعراضهم أو صدتم
 (هل ينظرون) أي ما ينتظرون (إلا أن تأتيهم الملائكة) ملائكة اللوت أو العذاب (أو يأتي ربك) أي
 كل آيات ربك : أي آيات القيامة والعذاب والمهلك الكلي (أو يأتي بعض آيات ربك) أي أشراف الساعة
 كطلوع الشمس من مغربها ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن
 آمنت من قبل : طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض » أخرجه مسلم . وروى البخاري ومسلم
 « أنه صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها فإذا رآها الناس آمن من عليها »
 وفي رواية « فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون فذلك حين لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل
 أو كسبت في إيمانها خيرا » وفي رواية من مسلم « إن هناك عشر آيات الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس
 من مغربها وبأجوج ومأجوج ونزول عيسى ابن مريم وثلاثة خسوف خسف بالشرق وخسف بالمغرب
 وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تظرد الناس إلى محشرهم » قال تعالى (يوم يأتي بعض آيات ربك
 لا ينفع نفسا إيمانها) كالتضر إذا صار الأمر عيانا والإيمان برهانا (لم تكن آمنت من قبل أو كسبت
 في إيمانها خيرا) والمعنى أنه لا ينفع نفسا حينئذ إيمانها غير مقدمة إيمانها أو مقدمة إيمانها غير كاسبة في إيمانها
 خيرا . قال الضحاك : من أدركه بعض الآيات وهو على عمل صالح مع إيمانه قبل الله منه العمل الصالح جد
 نزول الآية كما قبل منه قبل ذلك ، فأما من آمن من شرك أو تاب من مصيبة عند ظهور هذه الآية فلا يقبل
 منه لأنها حالة اضطرار كما لو أرسل الله عذابا على أمة فآمنوا وصدقوا فإنهم لا ينفعهم إيمانهم ذلك لما ينبتهم
 الأهوال والشدائد التي تضطرهم إلى الإيمان والتوبة . قال الله تعالى (قل انتظروا) أي انتظروا ما وعدتم به
 من عبيء الآية فيه وعيد وتهديد (إنا منتظرون) ما وعدكم به ربكم من العذاب يوم القيامة (إن الذين فرقوا
 دينهم) كاليهود الذين افرقوا إحدى وسبعين فرقة كلها في المأبوة إلا واحدة وكالنصارى افرقوا اثنتين
 وسبعين فرقة وهكذا للسلون فرق كثيرة (وكانوا شيعا) فرقا وأحزابا (لست منهم في شيء) أي في شيء
 من السؤال عنهم وعن تصرفهم أو من عقابهم (إنما أمرهم إلى الله) يتولى جزاءهم ولكن لما نزلت آية السيف
 قاتلهم (ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون) بالعقاب (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) أي عشر حسنات أمثالها
 فضلا من الله سبحانه وتعالى وسبعون وسبعمئة وبغير حساب كما في آيات أخرى فالعشر إما أقل العدد للضعف
 وإما المراد بها الكثرة بلا نظر لنفس العدد الحس (ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها) أي في مقابلتها
 (وهم لا يظلمون) بنقص الثواب وزيادة العقاب (قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم) بالوحى والإرشاد
 إلى ما نصب من الحجج (دينا) بدل من عمل صراط لأن المعنى هداني ربي صراطا مستقيما (قبا) فعلا من
 قام كسيد من ساد أو قبا في قراءة ابن عامر وعاصم وحمة والسكافي على أنه مصدر نعت به وكان القياس
 أن يقال قوما كموض فأعلل لإعلال فعله كالقيام (ملة إبراهيم) عطف بيان له (حنيفا) حال من إبراهيم
 (وما كان من الشركين) عطف عليه (قل إن صلاتي ونسكي) عبادتي كلها (ومحياي ومماتي) أي حياتي
 وموتى واقعة بخلق الله وقضائه وقدره وسائر أموره لا يشاركه فيها أحد من خلقه وهذا هو قوله (لله رب
 العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت) حتى قل يا محمد وبهذا التوحيد أمرت (وأنا أول المسلمين) وأنا أول
 للتسليم بقضائه وقدره (قل) يا محمد لهؤلاء الكفار (أغير الله أبني ربا) أي سيدا أو إلها (وهو رب
 كل شيء) سيد كل شيء ومالكه لا يشاركه فيه أحد (ولا تكسب كل نفس إلا عليها) أي إن إثم الجاني

عليه لا طي غيره (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تؤاخذ نفس آتمة بإنم أخرى، أو لا تحمل نفس حاملة حمل أخرى ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد (ثم إلى ربك مرجعكم) يوم القيامة (فينبشكم بما كنتم فيه تخطفون) يحن في الدنيا من الأدبان واللذ (وهو الذى جعلكم خلائف الأرض) أى جعلكم يا أمة محمد خلائف فى الأرض فإن الله أهلك من قبلكم من الأمم الحالية واستخلفكم بجعلكم خلائف منهم فى الأرض تخلفونهم فيها أو خلفاء الله فى أرضه تصرفون فيها وعلى هذا يكون الخطاب عاما لكل الأمم، ثم قال (ورفع بضعكم فوق بعض درجات) فى العنى والشرف (ليلوكم فيها آتاكم) من الجاه واللذ وغيرهما: أى يعاملكم معاملة المختبر والبتى فيبتلى العنى بفناه، والفقر بفقره، والعالم بعلمه، والشريف بشرفه، والوضيع بدناؤه. والعبد والحر من جميع أجناس خلقه ليظهر منكم ما يكون عليه الثواب والعقاب لأن العبد إما أن يكون مقصرا فيما كلف به وإما أن يكون موفيا ما أمر به فالمقصر يخوف ويرغب فلذلك قال (إن ربك سريع العقاب) لأن ما هو آت قريب (وإنه لغفور رحيم) أى لذنوب أهل طاعته، انتهى التفسير اللفظى .

يقول الله فى هذا المقصد إياكم والإشراك بربكم ثم أطبعوا الوالدين واستوصوا بأولادكم خيرا فلا تقتلوا من خيفة الفقر وكأه تعالى لما أمر الناس بأعظام الخالق فالوالد فترية الولد قد أمر هذا النظم وهو إعظام من فوقنا وبالرحمة من تحتنا أخذ يأمرنا بترك الفواحش الظاهرة والباطنة فكما راعينا بالعبادة والإجلال من فوقنا وبالرحمة من تحتنا هكذا يشملنا بحمل الظاهر والباطن من أحوالنا بالتباعد عن سيئات الأمور . هذه أول وصية .

فأما الوصية الثانية فعلى العامة مع الناس فلا تأكل مال اليتيم وتلاحظه كما رحم أبناءنا ووزن ونكيل وتقول بالحق فلا تطفف الكيال والليزان ولا نظم فى أقوالنا وتشهد بالحق على الأنفس والأقارب .

فأما الوصية الثالثة فهى أن لا تعدل عن هذا الصراط الذى فى هذه الآيات وفى هذه السورة وفى القرآن كله فلذا اتبع كل فريق هواء ضلّ وغوى ووقع فى الهاوية . ولما أمر الوصايا الثلاث شرع يخبرنا عن سبيل الديانات قديمها وحديثها وذكراهم القديم وهو دين موسى عليه السلام وأهم الحديث وهو دين محمد صلى الله عليه وسلم الذى أمرنا بأن نتبعه فلا تعدل عنه فقال أيها الناس قد آتينا موسى كتاب التوراة لنتم النعمة على من أحسن القيام به علما وعملا وفضلنا فيه البينات والهدى وجعلناه رحمة على من يؤمن أتباعه ببقاء ربهم ؛ هكذا أنزلنا القرآن فاتبعوه فليس محمد بدعا من الرسل، أيها الناس ليس لكم اعتذار فلا تقولون قد أنزلت التوراة والإنجيل على غيرنا فكيف تمذبا ونحن غافلون عن دراستهما مع أننا أذكى أذهانا، وأحد أثمة، وأقوى قلوبا وأشجع، وقد صدق وعدنا ووعدنا وصبرنا فى البأساء والضراء فقوى بأسنا، فلو نزل علينا كتاب لرفضنا به الأمم الأرضية ولطربنا به فى الشرق والغرب، ولهدبنا الأمم وهدبناها وربيناها وأدبناها . فهاهو ذا القرآن قد أزال اعتذاركم بإرشاداته القيمة البليغة، فمن أعرض عنه أو صد الناس عن اتباعه جازيناه سوء العذاب .

فاتبعوا القرآن ولا تتبعوا الأهواء، فلم يبق لكم عذر واحذروا التفريق ولا تكونوا كالأمم السالفة .

ومن لم يتبع هذه النصائح من الأفراد والأمم فلأنهم لا محالة واقعون فى العذاب الأليم .

(عجيبة من عجائب القرآن فى هذه الآيات)

وهى « هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك

يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها الح » الآية .

اعلم أن كل عمل له وقت خاص فإذا تجاوزه لم ينفع العمل، ألا ترى رعاك الله أن لكل زرع وشجر وقتا محدودا وزمنا معينا فمتى تجاوزه لم يفلح زرعه ولم يثمر، هكذا ترى بنى آدم إنما يكون تطهرم وقت

الصغر فإذا كبروا صب العلم ، وهكذا الأدب لا يفيد إلا صفار السنّ ومتى جاوز السنّ لم يفد ، هكذا جميع أعمال الحياة في هذه الدنيا لها أوقات مملومة متى جاوزتها لم تسكن لها فائدة .

فلتنظر نظرة في أهل الأرض في الفرد والأمة والسكره الأرضية كلها ، فإذا لم تسكن الأخلاق والآداب والعلوم للفرد في حال تمكنه وذهب وقت ذلك وحلّ اللوت فلا يفيد الإيمان ولا العلم ولا الأخلاق ، إن الإنسان يحشر على مامات عليه فإذا رأى الحقائق عند اللوت وهو قد مات ولا علم عنده ولا أخلاق ، فأى قوة له على الطيران في تلك الباسحات الشاسعة والأماكن العالية ؟ وكما لا ينفع سقى القطن بعد أن عطش أيام إثماره فلا إثمار بعد فوات سقيه في أيام الإنمار ، هكذا لا فائدة من ظهور الحقائق للذي مات ولا علم ولا عمل ولا أخلاق ، وإنما يكون في حسرة وحزن على ضياع زمانه بلا فائدة جناها ولا أعمال زاولها .

وكما رأيت الفرد ترى الأمة فلإنها إن لم يتم كلّ فيها بما استعدّ له من علم أو صناعة أو عمل ضاقت عليها الأرض بما رحبت وأسرعت إليها الأمم من كل جانب ، وكذلك إذا تفرقت أهواؤها فإن العدو يغير عليها كما حصل في الأزمان النابرة أيام هجم اللول والتار وما الأمتان المجاورتان للبلاد الصينية وهم السمون (ياجوج ومأجوج) في كتب الجغرافيا القديمة كما يتضح لمن اطلع على خريطة كتاب (إخوان الصفا) فإنه يرى أن تلك البلاد تسمى (ياجوج ومأجوج) ، ففي ذلك الوقت هجم (جنكيزخان) على الأمم الإسلامية لما قتل (قطب أرسلان) رسل (جنكيزخان) الذين أرسلهم للتجارة في بلاد الإسلام ولم يستحلّ جنكيزخان ذلك المهجوم إلا بعد أن أرسل خطابا لقطب أرسلان وسترى نصه في سورة (الكهف) نقلته عن كتابي للسمى (نظام العالم والأم) وهذا الكتاب فيه طلب للبادلة والعاملة . ولما قرأ قطب أرسلان الخطاب قطع آذان الرسل ، حينئذ صام (جنكيزخان) ثلاثة أيام لم يذق فيها الطعام ، وقال : يا الله أردت عمارة أرضك ، ولكن للسلون هم الذين أرادوا خرابها ثم هجم المهجمة التي مزقت الإسلام شراً ممزق ، فلم تقم للدولة قائمة إلا قليلا ، وخربت بغداد بعد ذلك خربها (هولاكو) من أعقاب جنكيزخان ، هكذا ترى دولة الأندلس إذ فسق للسلون هناك بعد واقعة بغداد بنحو (٣) قرون ، وتقاطعوا وتدابروا وأباحوا التجارة بلا قيد ولا شرط ، فشرّبوا حمر الفرنجة ولبسوا ملابسهم ، وتعلموا في مدارسهم ، تفرّقوا شيئا ، وذاق بعضهم بأس بعض ، وكانت شروط الهدنة بين بارونات أوروبا ودوق فينيزيا والبابا من جهة ، وبين ملوك الإسلام في الأندلس من جهة أخرى أن التعليم حرّ ، والتجارة حرة ، والدين حرّ ؛ فتوغّل الأسبانيون في بلاد الإسلام إذ ذاك وسقوهم الحمر وعلومهم التنعم بلبس الحرير والترف والقسق والحلاعة ، واستدانوا وتقامروا وخاصر الشبان الشابات في الحارات وطى قارعة الطريق وخاموا العذار وحقروا مجد العرب ودينهم وصاروا يقرهون علوم أسلاف الأسبانيين وآدابهم وتاريخهم ، فأصبحت مدارس الإسلام خاوية على عروشها وصار الناس مسرفين شرهين جاهلين حققت عليهم كلمة ربك ، فأخذم العذاب من حيث لا يشعرون وحققت عليهم آية « إن الله لا يحبّ المسرفين » وهؤلاء أسرفوا في الأموال والحلاعة فاستعبدم الأسبان قمام الملك (فرديناند) ولللكة (إزابله) فأفنونهم وطردوا من بقى إلى أفريقية ، ذلك لأنهم تفرّقوا شيئا وذاق بعضهم بأس بعض ، وصار لكل منهم وجهة هو مولها ، حتى إن أحد ملوكهم لما استرقوا في القسوق اصطاد فتاة أفريقية من أبيها فشكا أبوها إلى ملك آخر من ملوك الإسلام هناك ، فأرسل هذا الملك إلى الأوّل الذي هو ابن ذى النون أن أفلح عن خطتك وأرجع الفتاة لأبيها وكيف تكون زانيا ؟ فردّ عليه جوابا شديدا ، فقامت بينهما الحرب وساعد الفرنجة ذلك الملك المتصر للفتاة وضربوا الأمير ابن ذى النون ، وعملت هناك ليال راقصة قرحا بانتصار الإسلام والنصرانية معا على ابن ذى النون الذي فسق وغوى ، هذا هو سبب خراب دول الإسلام قديما ، وإلى الآن ترى آثار ذلك في الأعقاب فإن المسلمين اليوم متفرّقون شيئا وقد ذاق بعضهم

بأس بعض ، وكل حزب بما لديهم فرحون ، فإن الفرنجة يملون الناس تحقير الديانات والآداب والأخلاق الشرقية ، وهم قاعون بدياناتهم عاكفون على كنائسهم يريدون أن يصدونا عن عواذنا وأخلاقنا ليضعوا أيديهم علينا ونحن صاغرون ، ولم يتفطن لذلك إلا طائفتان وهم : أهل (الهند) فقد منموا للنسوجات الأجنبية من بلادهم ، وإخواننا (الترك) فإنهم في هذا الشهر (مارس سنة ١٩٢٥) قد حرّموا تدريس الديانات غير الإسلام في بلادهم ، وهذا أول ما تنبهه الشرقيون للخطر الدائم ، فإذا سمعت الله في القرآن يقول فيها نحن بسدده : هل ينظرون إلا أن تأتيهم ملائكة الموت فيقبضون أرواحهم أو يأتي بعض آيات ربك ؟ وقد فرس في الصحيحين معا بطولع الشمس من مغربها ، فاعلم أن موت الإنسان كهلاك الناس كلهم ، فإذا طلعت الشمس من مغربها فذلك من أشراط الساعة وخراب الأرض ، فإذا مات إنسان فلا ينفعه إيمانه إذا عرف الحقيقة ، وإذا هلك أهل الأرض كلهم فلا توبة لهم بعد الموت ، وإذا سمعت حديث مسلم وقد روى أن آيات ربك عشرة ، وذكر منها أنواع الحسوف وخروج يأجوج ومأجوج والدجال وعيسى ابن مريم وخروج الدابة ونحو ذلك مما تقدم إضاحه في غير هذا المكان ؛ فلتعلم أن ذلك راجع إلى طلب الشيء بعد فواته .

ألا ترى أن خروج يأجوج ومأجوج الذي أوضحته في كتاب [نظام العالم والأمم] وستراه في سورة الكهف قد كان خرابا على الإسلام كما أجمته لك سابقا وقس عليه ما ذكر من الحسوف ، فإنه لم يخرج عن إهلاك الأتس التي خسفت الأرض بهم ، فكيف يفيد إيمانها بعد ذلك ؟ فأصبحت آيات الله عبارة عن الانقلاب الذي يحصل في الأمم أو في أرض الله كلها ، ثراب دولة تكرب الأرض كوت إنسان .

عموم القرآن للأمم

ولما كان القرآن لم ينزل لأمة خاصة بل لعموم أهل الأرض ، جاء ذكر هذه الأمور عامة حتى يأخذ كل من أهل الأرض منها بقدر طاقته ، وأن السلم كما ينظر في أمر نفسه ينظر في أهل وطنه ودينه وينظر في أمر الأمم كلها ؛ فلذلك ترى للذكور في حديث مسلم عبارة عن أمور عامة لا تخص أمة ، مما يدل على أن السلم يعنيه النظام العام .

وملخص آيات ربك في هذا اللقاه ما يكون من الأمور اللوجبة لفوات الفرصة ؛ فالموت والانقلاب العام في دولة وخراب الأرض كلها متساوية في هذا المعنى .

وضوح معنى الآية

فكأن الله يقول أيها الناس احرصوا على العلم والدين والأعمال الصالحات قبل القوات ، وعلى كل امرئ أن يهذب نفسه ويسعى في تعليم أمته لئلا تضل ، فهلاك الفرد لا ينفع بعده إيمانه ، وكذلك هلاك أمته يكون سبب هلاكه ، لأن للصابب تعم . وإذا ترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خربت دولهم ، لأن الأمة كالفرد الواحد ، فليكن السلم مهذبا لنفسه هاديا لأتمته ، فإن لم تفعلوا ذلك ولم تكونوا على سبيل فانتظروا معاناة العذاب بموت الأفراد منكم ، أو انتظروا ما سيحل بكم من تفرق الأهواء حين يخرج (يأجوج ومأجوج) ويقتلون الفرس والعرب الذين هم مسلمون ، وكذلك تقوم الفرنجة على المسلمين في الأندلس وهكذا .

انتظروا الانقلابات العظيمة فإن هذه كلها ستحصل ، وإذن لاتنفع التوبة وبذل المسلمون « فانتظروا إنا منتظرون » ولذلك أعقبه بقوله « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء » معناه أنت منهم بريء وهم منك برآء ، تقول العرب : إن فعلت كذا فلست منك ولست مني ، أي كل واحد منا بريء من صاحبه ، هكذا هنا يقول الله : إن أمتك يا محمد حين تفرق أهواؤها وتختلف أحوالها وتصبح شيعا ويقوم كل قوم ضد الآخرين فإنك بريء منهم وانتسابهم لك لا يجديهم نفعا ، ولقد صدق الله وعيده فإن ابن

العلم وزير المستصم هو الذي سهل لهولا كو دخول بغداد انتقاما من المستصم الذي كان (سنيا) والوزير (شيعي) واحتل (بأجوج ومأجوج) البلاد فلم يرحموا (سنيا ولا شيئا) غنق الحراب بالأم الإسلامية لما نفرقوا شيئا ، هذا معنى قوله تعالى « لست منهم في شيء » وليس معنى ذلك أنهم كفار ، بل ذلك معناه أنهم يعاقبون بما يستحقون لمخالفتهم صراطك المستقيم ، لأن شريعتك قائمة على قول الحق والعدل وإقامة لليزان في كل شيء وإعظام الكبير ورحمة الصغير ، فإذا تحوّلت أمتك عن الجادة نزل بها العقاب ولا تقصير فلا تريب عليك فقد بلغت ونصحت .

جواب اعتراض

لقد اطلع على هذا القول أحد الفضلاء ، فقال : هذا حمل للآية على معنى بعيد جدًا ، وما لهذه الآية ولحراب بغداد وخراب الأندلس؟ وما لك تذهب بالمعاني إلى ما لا تحتل الآية؟ قل لي بالله كيف يثق الناس أن هذا هو معنى الآية؟ كلا والله! إن هي إلا معان قامت بذهنك فأوردتها في هذا المقام كأنها معنى وليست بمعنى ، وبأيت شعري كيف تذكر هذا وإنه لبعيد؟ فقلت : أيها الفاضل أنا لست بدعا في هذا التفسير ولم آت به من عند نفسي ؛ فهل إذا أصمعتك أنه تفسير النبي صلى الله عليه وسلم نفسه تكون مقتنعا بذلك؟ قال نعم! قلت فاسمع : قال أبو هريرة رضى الله عنه في هذه الآية هم أهل الضلالة من هذه الأمة ، وروى ذلك مرفوعا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الدين فرّقوا دينهم وكانوا شيئا لست منهم في شيء ، وليسوا منك : هم أهل البدع وأهل الشبهات وأهل الضلالة من هذه الأمة » أسنده الطبري ، فهذا حث للسليين على الاتحاد . وروى عن عمر بن الخطاب « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة إن الدين فرّقوا دينهم وكانوا شيئا : هم أصحاب البدع والأهواء من هذه الأمة » ذكره البغوي عن العرياض بن سارية : وفي هذا المقام ذكر للفسرون الأحاديث التي تخص على الاتحاد وما أخرجه أبو داود والترمذي من وعظ النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه حتى وجلت القلوب وأمرهم بالسمع والطاعة ولو ولي عليهم عبد حبشي ، وأمر أن تتبع سنته وسنة الخلفاء الراشدين بعده ، وقال : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة » . وفي أحاديث أخرى : إن اليهود افرقت والنصارى افرقت كما تقدم ، وإن هذه الأمة ستفرق (٧٣) فرقة إلى آخر ما تقدم ، فهذا كله يدل على أن مسألة الآيات في قوله « يأتي بعض آيات ربك » إلى آخر ما تقدم يرجع إلى عمالك الأمم الإسلامية الذين نفرقوا شيئا وذلوا .

رأى الفسر

وأرى أن هذه الآيات أكبر عبرة في الدين الإسلامي ، ذلك أن نفرق للسليين إنما جاء للجهالة الشائعة بينهم ، ولو أن علماءهم أفهموم أن دين الإسلام ليس خاصا بالمسائل الفقهية بل هو يشمل جميع العلوم لأصبحوا أمة واحدة ، ولكن الجهالة العمياء والبلاهة السكتاء وظلم اللوك والأمراء وجهل بعض علماء الدين الذين لا يعرفون من هذا الدين إلا أحكام الفقه التي لا تزيد على مائة وخمسين آية ، كل ذلك هو الذي حصر عقل السلم في عناد أخيه حتى كره كل صاحب مذهب الآخر ، ولو أنهم عرفوا أنهم يجب أن يكونوا أعلم بالعلوم العلوية والسفلية ؛ ففي القرآن (٧٥٠) آية في الأخلاق و(٧٥٠) آية في العلوم الكونية لو عرفوا ذلك لرأوا أن الاختلاف في أحوال قليلة جدا والاتحاد في أمور كثيرة فيأذن يتحدون .

ولكن أقول إن عمر الإسلام لم يزد عن (١٣) قرنا لإقليا ، وهذا العمر في الديانات أشبه بالطفولة للإنسان ، ولقد جاء زمن الراهقة للإسلام وسيكون في المستقبل من السليين فطاحل العلماء في العلوم العلوية والسفلية لا الفقهية وحدها ، وإذن يرتقى السلمون ويكونون حاملي ألوية السلام وذلك بعد انتشار هذا التفسير وأمثاله من مؤلفات علماء الإسلام في الأقطار الإسلامية .

هذا، ولما كان السلم لا يعم نفعه إلا بالإخلاص أعقب هذا القول بما يفيد ذلك فبدأ بالحسنات وأنها تضاعف للحسن وأكمل القول بالإخلاص إشارة إلى أن الحسنات لا تكون إلا بالإخلاص كما أن الاتحاد لا يكون إلا بالإخلاص فذلك قال «إني هدى ربي إلى صراط مستقيم» وهو الدين القيم الذي كان عليه الخليل عليه السلام وولاتي وعبادتي وحياتي وموتى - كل هذه مسلمة «فرب العالمين» وأنا بذلك مأمور «وأنا أول للسلمين» ثم أفاد أنه رب كل شيء وأن النفس لا تعمل إلا ذنبها وكل فاعلمون .

ثم ختم السورة بقاعدة عامة وهي أن الناس جميعا في الأرض محتنون مختبرون فلا ينجو مسلم بإسلامه من الاختبار ولا صالح ولا طالح بل جميع الناس سواء في ذلك . فإذا عوقبت أمة من الأمم الإسلامية أو أفراد ذلك لا يعمه الإسلام لأن كل نفس تحمل ذنبها وعدل الله حق على الجميع ، فالناس كلهم خاضعون لتلك القوانين العادة الإلهية .

وإذا كان الله سريعا عقابه فليس معنى هذا أنه ينادى في غضبه، فالأمة التي ترجع إلى ربها تقبل ورق ولتلك ختم بقوله «وإنه لغفور رحيم» فإذا امتظ المسلمون بأسلافهم وتعلموا وعرفوا علوم الأمم . وعلوم العوالم فإهم يسودون أهل الأرض ولا يكونون كالمسلمين أيام (قطب أرسلان) إذ جهلوا قوة النقول والتر لنومهم على مهاد الراحة لأنه ثبت أنهم كانوا يجهلون قوة جيرانهم فاحترروهم ، فما شعروا إلا وطلّعت القوم قد حلوا بساحتهم فأبوا بلاء حسنا فعرف المسلمون أنهم جاهلون بمن حولهم وأيقنوا بالهلاك فدعمهم التتر والنقول وخرّبوا المدن تخريبا تاما وقتلوا كل نفس كما تقدم .

فعل المسلمون أن يملوا أن تفرّتهم لأنهم جهال نامنون غافلون وأن الأمم الإسلامية الماصية كان بعض علمائها أشبه بالأميين لا يعرفون من العلوم الشرعية إلا الفقه وصرّفوا الناس عن علوم جمال السموات والأرض ففتتوا للمسلمين وناموا نومة أهل الكهف في الجهالة العمياء والبلاهة الكتماء فمدبهم الله بالقتلة . فليعتبر المسلمون الحاليون ، وإني موقن أنه ظهر فيهم مصلحون وما أكثر المصلحين اليوم في الإسلام . وإني أسأل الله أن يجعل كتابي هذا من مبشرات الرقي في الإسلام بل أقول إنه سيكون كذلك . وهذا أو أن الرقي فلا بشر به للمسلمين وليكونوا من مستقبل أمرهم على يقين «ولتعلن نبأ بعد حين» .

جوهرة مشرقة

بعد أن ختمت تفسير هذه السورة رأيت أن قوله تعالى «يوم يأتي بعض آيات ربك» يحتاج إلى زيادة إيضاح فهناك ما قرر في النفس بعدما تقدم فأقول :

اعلم أن هذه الأحوال كلها أو جلها قد ظهر في هذه الأرض وقد قلت فيما تقدم إن مرجعها كلها للفاجأة بالهلاك ونتيجة ذلك أن تكون الأمم والأفراد مستيقظين للأعمال النافعة في الدنيا والدين فإن اللوت يأتي فجأة وكذلك الأحوال العامة التي تحمل بالأمم .

(١) فإذا جاء في الحديث الذي أجمع عليه البخاري ومسلم «أن الشمس إذا طلعت من مغربها لم تقبل التوبة» فذلك للفاجأة التي تصيب الناس من ظهور الحقائق بالبلاد الأوروبية حيث تنرب الشمس فإن العلوم لما ظهرت وبهرت وكانت أم الإسلام لا يعرفون إلا العلوم الفقهية مدة قرون جاء لهم أهل الغرب فأذومم وقتلوم وإبتدوا ذلك بالأندلس ثم نخطوا ذلك إلى بلاد الشرق وهانحن أولاء زمام يحرقون القرى ويهلكون أهلها ولا يرحمون صغيرا ولا كبيرا . فالأمم الإسلامية التي تأنف من علوم الكائنات وتظن أنها تنافي إيمانها ودينها فهي لا محالة آيلة إلى الهلاك كما حصل في بلاد (أفريقيا) من دول أوروبا . فأما التي يكون اعتقادها بالإسلام يحضها على العلوم فهؤلاء الذين يكسبون في إيمانهم خيرا وحينئذ ينجون من الخطر فيعيشون مع العالم بسلام . فإذا رأينا بعض الأمم الإسلامية اليوم يقرّون العلوم المصرية فهؤلاء إذا اعتقدوا أنها من الدين

ترقوا سريعا لاعتقادهم الراسخ في أذهانهم فيعيشون مع العالم بسلام وإلا أذلهم الحرب والمهلك ولاجتوهم بالمدافع قتلوهم .

(٥٣ و ٥٤) وإذا جاء في الحديث أن هناك خسفا بالمغرب وخسفا بالشرق وخسفا بجزيرة العرب فاعلم أن هذا تنبيه على أن الأرض تحصل فيها زلازل كما تقدم في هذا الكتاب وهذا تنبيه أيضا على أمر طبيعي ومفاده أن من القرى ما تقع فيها الزلزلة على سبيل المفاجأة فأهلها يموتون وكل منهم يموت على ما عاش عليه ولا تنفع التوبة وهذا تحذير من أمر طبيعي كما يحذرنا من النغلة فلا يفاجئنا اللوت .

(٥) وإذا جاء في (مسلم) أن هناك نارا تطرد الناس إلى عشرهم لحكمها كسابقها وهي المفاجأة فليكن الناس على حذر صالحين في أعمالهم .

(٦) وإذا جاء في حديث (مسلم) أيضا أن الدجال إذا نزل لا تقبل التوبة فاعلم أننا قدمنا في سورة (البقرة) أن من يشبه الدجال هم الأمم المستعمرون ، فإنهم إذا نزلوا بساحات الأمم الشرقية أذلوا وأهلكوا أهلها فن مات منهم لا تنفعه توبته عند اللوت ، وهذا تحذير للأمم الإسلامية من دجل الأمم وإسلافها ومدتها بالترف والنعم والصناعات والحجر واللباس الفاخرة فيستزفون تروهم ثم يقبضون عليهم ويملكون بلادهم وقد أروهم جنة السموات والذات والوظائف والبضائع الجميلة فأصبحت على الشرقيين نارا تلتظي لا يصلها إلا الجاهلون فأذلوهم . وقد قلت في سورة (البقرة) وغيرها أنا لست أقول إنهم هم (السيخ الدجال) وإنما أقول هم نظراؤه وأشباهه ، فلم حكمه ، كما أن أقول إن طلوع الشمس من مغربها وإن كان على حاله وحقيقته يراد منه على سبيل الكناية المقصودة للناس في هذا الزمان شمس العلوم والعرفان ، وهذه كناية بحسب القواعد في علم البيان ، فالدجال كناية وطلوع الشمس من مغربها كناية والقرآن أولى بالكتابات والكتابة أبلغ من المجاز ومن الحقيقة .

(٧) وإذا جاء في حديث (مسلم) الدخان فقد ظهر بأوضح وجه في هذا الزمان . أولست ترى أن الدخان هو الذي يحارب به الآن ؟ أولست ترى الغازات الحارقة والعمية ؟ والتي تأتي بالطاعون ، والتي تميم سريعا والتي تأتي بالسل ، والتي تأتي بالجنون الخ .

وهذا قوله « يوم تأتي السماء بدخان مبين . يخشى الناس هذا عذاب أليم » وقوله تعالى « أم أمنتم من السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ، أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فتعلمون كيف نذير » وهذا الحاصب ينزل من الطيارات في بلاد (العراق) وفي بلاد (مراكش) وفي بلاد (سوريا) فالأول من الإنجليز . والثاني من الأسبانيين . والثالث من الفرنسيين وذلك حاصل الآن أي سنة ١٩٢٦ .

(٨) وإذا جاء ذكر (يأجوج ومأجوج) فما أنت ذا صرنت حقيقتها فيما سبق قريبا وقد أريتك ما يكفيك وإلا فاقراء في كتاب [نظام العالم والأمم] وفي سورة (الكهف) فيا سيأتي .

(١٥٥٩) وإذا ذكر البداية وظهور عيسى ابن مريم فهذا كناية لظهور الحقائق واضحة جلية . فالقلوب النقية للبتمة تنال السعادة وتمهم الحقائق ، والقلوب اللطموسة التي لم يهذبها الدين ولا العلم فلا توبة لها لعدم تفهها وفهمها .

وإذا ذكرت هذا فلإنما جملة كناية والكتابة تكون مع الحقيقة والقرآن للهداية نزل . واعلم أن سورة الأعراف قد أوضحت هذا المقام تمام الإيضاح فلقد جاء في أولها كيف تخافوا الأمم بالملك ثم سرد قصص نوح وعاد ومحمد ومدين وقوم لوط وفرعون وأنهم دمروا وهم لا يشعرون . فهذا من بعض آيات ربك التي إذا جاءت لا يذعن قسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا .

واعلم أن ثمرة هذه الآيات والمآجات إنما يكون في هذا الزمان فالخسف والتدمير والدخان والعلوم والدجالون الكذابون من الأمم القوية كل أولئك أحاطوا بالمسلمين وكذلك العلوم والعارف . فإذا لم يشاكل للمسلمون الأمم التي حولهم حقت عليهم كلمة العذاب فأصبحوا خامدين . وما كانت سورة الأعراف الآتية ولا بعض آيات ربك التي في هذه السورة لتنزل لمجرد التلاوة أو الإخبار بل هي إنما نزلت لاستيقاظكم أيها المسلمون في هذا العصر وإني أذكركم ساعة العذاب المهون وخراب الدول إن لم تقوموا من فوركم بما أبت لكم في تفسيري هذا من هجائب الله تعالى وتعرفوا ما ذرأ الله في الأرض والسموات من بديع صنعه وجميل إبداعه .

هذا هو الزمان الذي تنشر فيه الحقائق الإسلامية ويقوم للمسلمون بنهضتهم العلمية العمرانية وإلا فليعلموا أنهم خامدون ماتون هالكون صرعى للدافع والفتائل والدخان والدجالين أو تخسف بهم الأرض بما يقذف عليهم من الطائرات وهكذا « إن ربك سريع العقاب » بذلك « وإياه لتفور رحيم » لمن أدركوا وعقلوا فأبقام إلى حين ، انتهى تفسير سورة (الأنعام) ويلها سورة (الأعراف) .

تفسير سورة الأعراف

هذه السورة مكية لإثمان آيات

وهي قوله تعالى « واسألهم عن القرية » إلى قوله « وإذ أخذ ربك من بنى آدم الخ »
وقد قسمت إلى تسعة أقسام :

[القسم الأول] من أول السورة إلى قوله « كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون » وهذا القسم فيه أربع مقاصد (للقصد الأول) في مقدمة السورة في ابتداء تفصيل الكلام على ما أجمل في آخر سورة (الأقسام) من مفاجأة الأمم بالحوادث المزججة ، ف عليه يجب أن يكون الناس مستيقظين دائماً من قوله « لاس » إلى قوله « قليلا ما تشكرون » (للقصد الثاني) في قصة آدم وحواء وما أصيبا به من خروجهما من الجنة ونزولهما إلى الأرض وهي أول ما جاء من القصص كالتطبيق على ما يصاب به الناس مفاجأة من قوله « ولقد خلقناكم ثم صورناكم » إلى قوله « وفيها تموتون ومنها تخرجون » (للقصد الثالث) بيان أن هذه القصة كسائر القصص ليست تفصد لذاتها أو للتفكه بل هي للحكمة والاعتبار والعمل وحث الناس على ألا يتبعوا وسوسة الشيطان كما اتبع أبوهم آدم وسوسته فعوى . وليحذروا أن يفتنهم الشيطان فيترع عنهم لباس التقوى كما ترع من أبويهم اللباس المادى .

ثم أخذ يذكر أحكام اللباس في الصلاة وحكم الزينة التي خلقها الله وهكذا وذلك من قوله « يا بنى آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوآتكم » إلى قوله « ولقد جئناكم بكتاب ففصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون » (للقصد الرابع) فيها هو أم مما تقدم وهو النظر في خالق السموات والأرض والشمس والقمر والسحاب والطرر والنبات الخ من قوله « هل ينظرون إلا تأويله » إلى قوله « كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون » .

[القسم الثاني] في قصة نوح وقومه وكيف غرقوا بكفرهم من قوله « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه » إلى قوله « إنهم كانوا قوما عجمين » .

[القسم الثالث] في عاد ونيهم هود عليه السلام من قوله تعالى « وإلى عاد أخاهم هودا » إلى قوله « وما كانوا بآياتنا مؤمنين » .

[القسم الرابع] في ثمود ونيهم صالح عليه السلام من قوله « وإلى ثمود أخاهم صالحا » وكيف كانوا يتخذون من السهول قصورا وينحتون من الجبال بيوتا . وكيف خسفت بهم الأرض لما طغفوا وبغوا إلى قوله « ولكن لا تحبون الناصحين » .

[القسم الخامس] قصة قوم لوط عليه السلام إذ كانوا يأتون الرجال شهوة من دون النساء فأمر الله عليهم مطرا غزيرا فهلكوا من قوله « ولوطا إذ قال لقومه » إلى قوله « فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » .

[القسم السادس] قصة أهل مدين ونيهم شعيب عليه السلام إذ كذبوا وطففوا للكيال والليزان وبغسوا الناس أشياءهم فأخذتهم الرجفة لما كذبوا من قوله تعالى « وإلى مدين أخاهم شعيبا » إلى قوله تعالى « فكيف آسى على قوم كافرين » .

[القسم السابع] في نتائج عامة من القصص للتقدمة ونصائح عامة فصل فيها ما أجمل في أول السورة وفي آخر سورة (الأقسام) من أحوال الأمم الناصبة وأنه يجب الحذر في كل حين لأن خراب الأمم قد يأتي

بنية ليلا أو نهارا وأن أكثر نوع الإنسان لاعهد له من قوله تعالى « وما أرسلنا في قرية من نبي » إلى قوله تعالى « وإن وجدنا أكثرا كفرا لفاستين » .

[القسم الثامن] قصص موسى عليه السلام وما كان من أمر فرعون معه . وكيف كان أصحاب العقول أقرب للحقائق ممن يتبعون خوارق الماديات كما حصل لسحرة فرعون وجهة بني إسرائيل إذ آمن الأولون لما رأوا ما هو فوق قدرتهم على يدى موسى وكفر الآخرون لما جاوزوا البحر « وقالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » وغير ذلك من الآيات للفصلات إلى قوله « وكذلك فصل الآيات ولعلمهم يرجعون » .

[القسم التاسع] قصص بلعام بن باعوراء الكنعانى إذ أعطاه الله العلم فضل به . وما يتبع ذلك من الأحكام العامة من قوله « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » إلى آخر السورة .

مقدمة تبين ارتباط هذه السورة بما قبلها

اعلم أن سورة (الأعراف) متممة لسورة (الأنعام) وبيانه أن سورة (الأنعام) يرجع أهم ما فيها إلى أمرين اثنين (أولهما) النظر في العالم العلوى والسفلى (والثانى) اجتناب الشرك والظلم والمأصى والقتل والمقوق والزنا وما أشبه ذلك، وتجد العناية بالأمر الأول واضحة جلية في ابتداء السورة بالحمد على أن الله خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور وفي نظرات الخليل في الكواكب متدرجا من أدناها إلى أعلاها وفي أن الله هو الذى فلق الحب والنوى وأخرج الحى من اللبث وأخرج اللبث من الحى وأضاء النهار وأظلم الليل وأنشأ جنات وأعابا ونخيلًا وهكذا مما ذكره في السورة . وترى الأمر الثانى ظاهرا في التنديد بعبادة الأصنام والشرك واتباع الهوى وتحريم الحلال وتعميل الحرام وظهر جليا في آخر السورة إذ قال « قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم » .

وختم السورة بإنذار الأمم إذا أهملت العلوم فجهدت العوالم العلوية والسفلية أو لم تراع الأخلاق والآداب فظلمت وعصت فأندرها بقوله « يوم يأتي بعض آيات ربك » ولم يبين تلك الآيات وإنما أجهلها وتركها للناس يفكرون فيها وجاءت بعض الأحاديث بما يشف عن بعض الآيات بطريق الرمز ورجع ما فيها إلى أمور عامة ذكرناها يقصد بها أن تكون الأمم متيقظة عالة عاملة كما شرحناه .

فكان الله يقول في سورة (الأنعام) كما قال في سورة (القامحة) أى عبادى هاأنذا آمركم أن تحمدونى لأنى ربيت العالمين ولن تعرفوا الترية العاتية إلا بدراسة مارييته ونظمته من العالم العلوى والسفلى . أتم مأمورون أن تحمدونى لأنى ربيت العالمين ولأنى خلقت السموات والأرض وجعلت الظلمات والنور، ولا حمد لمن يجهل صفات الحمود ولا شكر لمن غفل عن صفات الشكور وأنا لم أبدى القرآن بحمدى على أنى رب الثواب والعقاب ولارب البيوع والشفعة والرهن والليث والقضايا والبيئات والوضوء وأركانه وأنواع الحيض وأقسام للياه التى يجوز التطهير بها ولا على مسائل الحق ولا على مجادلات علماء التوحيد واختلافهم فى صفاتى وهل هى عين ذاتى أو غير ذاتى وإنما أمرتكم بحمدى على أنى خلقت السموات والأرض وجعلت الظلمات والنور وخلقتكم من طين وربيت العالمين . وكيف تحمدونى وأنتم أجهل الناس بأعمالى وجمالى ونورى التى أشرق والظلمات التى تجىء وتذهب بحساب ؟ وكيف تحمدونى وأنتم لم تدرسوا الفلك ولا الطبيعة ولا النبات ولا الحيوان ولا جمال مخلوقة فى ؟ على هذه يكون حمدى ولا حمد لكم إلا بالدراسة والعلم فمن جهل صفات الحمود كان حمده نفاقا وشكرا لفظا وتعبده جهلا وحبه لربه رياء . وكيف تحبون من تجهلون أو تتقربون إلى من لا تعرفون وهل تعرفونى إلا بأعمالى ؟ أعمالى التى أبرزتها فى جوار الكواكب والشموس والأقمار والنبات والحيوان والإنسان فلا جمال إلا من جمالى ولا حكمة إلا من أعمالى .

ولا يتسنى لكم معرفة جمالي في هذه الخلوقات إلا إذا انتظمت دولكم ولا يكون النظام إلا حيث تتركون
للمعاصي ظاهرا وباطنا وتقومون بالصلاة والزكاة وبقية أركان دين الإسلام وتتركون ظاهر الإيمان وباطنه وأن
تتركوا ما حرم ربكم عليكم فلا تشركوا به شيئا ولا تفتنوا أولادكم .

وانظر رعاك الله كيف ختم السورة ؟ بماذا ختمها ؟ ختمها بالإندار للأمم كلها . أنذرهم وحذرهم قل
لهم انبعوا صراطى مستقيبا ولا تفرقوا وإلا أزلت عليكم ما يصيب الأمم الجاهلة بفعل ربها ونظامه في خلقه
الظالمة في أعمالها العامة والخاصة . فإذا أتت لكم بعض آيات ربكم لا تنفمكم التوبة .

يقول قوموا بالأمسين مما : معرفة نظام السموات والأرض . ونهذيب قومكم ونظام دولكم وإلا فإنكم
معرضون للانتقام وذهاب دولكم يوم يأتي بعض آيات ربكم وإذن لا ينفعكم توبة ولا ينجيكم اتباعكم لدين الإسلام
بمجرد اللفظ وأنتم تجهلون فلا تكسب كل نفس إلا عليها، إنكم خلائف الأرض وأنتم محبسون ممنحون ،
فمن فاز في الامتحان قرّبه ومن رسب أزلناه . ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى
نحن اخترناكم فيها أعطيناكم فلا تنصروا في شكرنا ولا تناموا عن معرفة نظامنا .

سورة الأعراف

لما كانت سورة (الأنعام) لم يفصل فيها هلاك الأمم الجاهلة ولم يبين كيف يهلك الذين لا يعقلون والذين
هم يظلمون بارتكاب المعاصي جاءت سورة (الأعراف) وقد ذكر فيها آدم ونوح وعاد وثمود وقوم لوط
ومدين وبنو إسرائيل وقوم فرعون وقد هلك من هلك من هؤلاء . إما لتطيف السكيات واللبازن وإما لعدم
معرفة النعمة وشكرها على قصور في سهول وبيوت منحوتة في الجبال . وإما على الظلم بالقتل . وإما على
الفسوق بباشرة الرجال ومخالفة حكمة الخالق في الاقتراب من النساء . وإما على تكذيب الأنبياء ونبذ الحق
ومخالفة طريق الهدى .

فانظر كيف ابتداء سورة (الأعراف) بما لم يبتدىء به سورة (الأنعام) . ابتداء سورة الأنعام بإيقاظنا
إلى النعم التي حولنا وتوجيه عقولنا إليها .

ولما علم أن أمة الإسلام ستكون بعد النبوة بأمد طويل كالقرن الرابع عشر لانعير هذه النعم التضانا
ولا تلوى إليها عنانا ولا تعرف للقصود منها مع أنها أهم العلوم وأهم النعم وأن الحمد لم يذكر في القامحة
ولا في الأحكام إلا عليها .

ختم سورة الأنعام بالإندار . وابتداء سورة الأعراف بإكمال الإندار فقال « كتاب أزل إليك فلا يكن
في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » يقول في سورة الأنعام توجهوا به بتولكم إلى مخلوقاتي وأركوا
للمعاصي . ويقول في الأعراف أزلت إليك الكتاب فلا يكن في صدرك ضيق منه فأنذر به الناس والى عليهم
أبناء الأمم الضالة فكف من أمة أهلكتها ليل أو نهارا . فسورة الأعراف لبيان الأمم التي جهلت ما صنع ربها
وغفلت عن نعمه أو عصت في أعمالها .

القرآن ونهر النيل

اعلم أن مثل القرآن مع الأمم الإسلامية كنهر النيل مع الأمة للصربية . إن النيل كان يجري قديما من
وراء خط الاستواء من فوق جبال (القمر) ويمر في الأودية والبحيرات ويقطع أميالا وأميالا آتيا من
نهرين : النيل الأبيض والنيل الأزرق وهما يجتمعان عند مدينة (الخرطوم) ويتجهان شمالا إلى البحر
الأبيض المتوسط ، ولم يكن للنيل سدود تمنعه ولا قاطر تجزئه ولا جوس تحفظه ولكن كان يمر في طريقه
ولا يمرح على شيء ولا يلوى على أحد حتى يصب في البحر الأبيض . وغاية الأمر أنه في زمن الفيضان أيام
الحريف يسم الأرض وبعد ذلك يقل ماء النيل فتجف الأرض فيزرمونها مرة واحدة . وكان الناس أيام

الفيضان يعيشون في مدنهم وقراهم والماء من حولهم وبأكلون مما يخزنون ولا يتزاورون إلا على الراكب والقوارب وما أشبههما . ولقد كان قدماء المصريين بحيرة يخزنون الماء فيها لينفع ذلك أيام قلة المياه . ومن ابتداء الفتح الإسلامي وتبلى إلى أمد قريب لم يكن للملك البحيرة عمل بل هجرت لما ذهب مجد الأمة القديمة وبقي النيل يجري مجراه حتى إذا كان العصر الحديث جعلت للنيل قنطرة وسدود في جهات كثيرة وضبط ما فيه من الماء بقدر الإسكان فأخصبت مصر وأصبحت عروسا وازينت للناظرين هكذا القرآن .

القرآن

يقرأ الناس القرآن بالسنتهم وهم لا يعملون بما فيه بل هم أجهل الناس به كما كان النيل يجري من وراء خط الاستواء إلى البحر الأبيض ولا ينتفع الناس به إلا أيام الفيضان وهي أيام قليلة ولذلك لم يكن يسكن بلادنا إلا نحو مليونين . أما الآن فقد أصبح السكان نحو (١٤) مليونا أي سبعة أضعاف سكانه من قبل وفيضان القرآن على أمة الإسلام في القرون للتأخرة لم يكن إلا الأحكام الشرعية من الحيض والغاس والبراث والوضوء وهكذا فأجدت الأمة الإسلامية وخلت ربوعها من الأيس وحلّ بها الإنكسب وأذلها الإنجليز والفرنسيين وروس لها إبليس .

فهذه سورة (الأعراف) جاء فيها ذكر الأمم الجاهلة أو الفاسقة تذكر للسليين بما حلّ بهم الآن من خراب ممالكهم كما خربت عاد وحمود وقوم لوط وقوم فرعون لما طغوا وبغوا وجهلوا العلم والحكمة وكانوا ظالمين .

سورة (الأعراف) تذكرة للسليين وإذار لهم بقرب ذهاب دولهم بل ما فيها من القصص هي عين ما حلّ بالأمة من ذهاب مجد وضيع بلاد وخراب أمم بما فسقوا وبما جهلوا والفسق والجهل متلازمان وهما صنوان وأخوان لا يفترقان .

سورة الأعراف جاءت لإظهار الحقائق

جاء في سورة (البقرة) قصة آدم وأثبتت بقصص بني إسرائيل ولم يذكر هناك صراحة نتائج قصص آدم ولا ثمرته ، ولكن في هذه السورة العلم والمعرفة والفهم . ألم تر أن قصة آدم في هذه السورة قد أعقبها بدرس في الهذيب والتربة فقال « يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » ينزع عنهما لباسهما بل تجاوز ذلك إلى ماهو أرقى وأكل وأثم وأعظم وأفع وأثمل فقال « ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله » يا محبا يذكر قصة آدم ويخرج من نزع لبسه الجسمي إلى السلام في لباس القوى لنا ويجعل لباس التقوى خيرا ويقول « ذلك من آيات الله » .

إن هذه القصة ذكرت في أول سورة (الأعراف) في ابتداء القصص ليدلنا أن هذه الحكايات والقصص لا يراد لفظها ولا مجرد حفظها ولا فهم معناها . بل يراد منها ما يلزمنا في حياتنا . ويحفظ في كياننا . ويؤلف جامعتنا . ويرقينا في هذا الوجود وإلا فأين ما حصل لآدم وحواء من كشف سواتهما وما ألمهما من خصف الورق عليهما وما جاء تقريرا على قصصهما من ذكر اللباس الذي يوارى سواتنا من القطن والسكتان والتيل والحرب وغيرها وما فوق ذلك من لباس التقوى وأنه يجب علينا أن نتقى وسوسة الشيطان للابتزاع عنا لباس القوى كما نزع من أبونا اللباس الظاهري . هذه القصة تنطق بلسان فصيح أن ما ورد في القرآن من القصص لم يكن إلا للنتائج التي تنفعنا ولم يذكر من ذلك قصص لذاته وإلا فهذه القصص أصبحت مشهورة بين الناس وهم لا يلتفتون إليها .

فعل السليين أن يحذروا من وقوع العذاب الذي هم أعلم الناس به فقد حلّ بالدول الإسلامية كلها وأحاط بهم من كل جانب وهم نائمون . ولو أنهم عرفوا أن سورة (الأعراف) إن هي إلا مثل من الأم الحالية

لما سيحصل في الأمم للشفقة التي نحن منها وقد منّا نفس العذاب الذي حاق بتلك الأمم من عاد ونمود الخ .

لو عرف المسلمون ذلك لرجعوا إلى نظام الله في السموات والأرض وفهموا خلق السموات والأرض والظلمات والنور وعلوم النبات والحيوان الخ . وإذن تكون هذه العلوم التي تبلغ آياتها (٧٥٠) آية أشبه بالقناطر التي في نهر النيل والسدود والرم والحبوس التي تحفظ الماء فيسقى الأرض ؛ هكذا أنتم أيها المسلمون عليكم أن تفقوا عند آيات النظام العام التي لا يمكن حمد الله حمدا حقيقيا إلا بها . وتدرسوا ما اشتملت عليه دولته كدراسة أوروبا بل أعظم وتكون تلك الدراسة أشبه بالقناطر في نهر النيل فيعلم العلم ويتبعه العادة فتعرفون نعمة الله وتناولون منافع ما خلق بخلقكم وعملكم لا بمجرد الطبيعة كما يتربى الدود على العود لا يفكر من أين وإلى أين ومم خلق ؟ وإذن يعطيه الله من منافع جباله وأنهاره وسهوله ونجومه وزروعه وإلا قال لكم « فلا كيل لكم عندي ولا تقربون » لأنني لم أخلقكم دودا ولا ذبابا ولا ناموسا ولا بهائم بل خلقتكم ليذكروا ولا تنسروا . من معرفة العوالم العلوية والسفلية معرفة بها تستنجون للنافع للذات وللعبادة وأنا إذن أعطيتكم على قدر ما تكسبون « والوزن يومئذ الحق » وكل شيء عندي بميزان . انتهت المقدمة .

(القسم الأول من سورة (الأعراف) وفيه أربعة مقاصد كما تقدم)

(المقصد الأول)

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ)

الْحَسَّ * كِتَابٌ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ .
اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ، قَلِيلًا مِمَّا تَدَّ كُرْهُونَ * وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا نِيَابًا وَأَنْزَلْنَا إِلَيْهَا آيَاتِنَا أَنْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَلَنَسْتَلِزَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَلِزَّ الْمُرْسَلِينَ * فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ * وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ
وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ *

التفسير اللفظي

(الحسن) تقدم الكلام عليها بأبسط وجه في أول سورة (آل عمران) وهذه السورة (كتاب أنزل إليك) والجملة صفة كتاب (فلا يكن في صدرك حرج) ضيق (منه) لما اشتمل عليه من هلاك الأمم السالفة ومفاجأتها بالعذاب لما فصرت في كيل وميزان أو عدل أو شكر لنعمة أو كانت تفضل الجبابرة ، ولم تسبق سورة قبل هذه فيها إنذار باستئصال الأمم ؛ فلذلك ابتدئت بأمره صلى الله عليه وسلم ألا يكون في صدرك حرج وضيق ؛ لأن التبليغ يحتاج إلى الإنذار والتبشير والحوف والرجاء ، وهذه السورة وكذا سورة يونس وهود ويوسف وإبراهيم عليهم السلام وما أشبهها قد أنزلت لبيان ما يمتري الأمم من الملاك . وهذه السورة

أول سورة من هذا القبيل ؛ فلذلك بدأها سبحانه بطلب نفي الحرج عن صدره إذنا بما تمام التبليغ ، وهي ليست كسورة الفاتحة البدوءة بالحمد على تربية العالمين ولا كسورة آل عمران للبدوءة بتوحيد الله ولا كسورة النساء للبدوءة بطلب تقوى ربنا لأنه خلقنا من نفس واحدة ولا كسورة المائدة للبدوءة بالأمر بالفداء بالمعقود ، ولا كسورة الأنعام التي ابتدئت بحمد الله على خلق السموات والأرض والظلمات والنور ، بل هذه هي التي فيها ذكر الأمم المالكة بظلمها ، وقد جرى بها هنا بعد ما تقدم من تبيان الصلاة والزكاة والصيام والحج والتوحيد والنبوة والبراث والعدل والحلال والحرام في السورة للتقدمة بل بعد ما ذكر أن ديننا قد تم وكل في سورة (المائدة) فناسب أن يؤتى هنا بما يفيد خراب الأمم الظالمة فناسب ذكر عدم الحرج في قلب النبي صلى الله عليه وسلم .

يقول الله تعالى : « فلا يكن في صدرك حرج منه » (لتندربه) ولتذكر (وذكرى للؤمنين) فمن يكذبونك يندرون به ومن يؤمنون بك يذكرون بما حلّ بالأمم قبلهم وليعلموا أنهم لا ينجون من الخطر إذا قصرُوا في شريعتك وإلا فلا معنى للذكرى ، فتذكر المؤمنين معنا أنهم معرضون لما تعرضت له الأمم الظالمة ، فإذا تفرق شمل المسلمين ، وإذا جهلوا ، وإذا ظلموا فإنّ أنزل بهم العذاب كما أنزلت على الأمم الماضية ، وليس للإسلام بمنجيتهم من الهلاك لأنّ عدل أعدل بين الأمم وبين الأفراد ؛ لذلك أعقبه بقوله (اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) من القرآن والسنة (ولا تتبعوا من دونه أولياء) يضاونكم من الجن والإنس : أي ولا تتبعوا من دون دين الله أولياء (قليلا ما تذكرون) أي تذكرون تذكرا قليلا ، وما زائدة للتأكيد . ثم شرع بين مقصود ماجاءت به السورة بما يوقع الحرج في القلوب والضييق في النفوس تبيانا لما سبق في آخر الأنعام من معنى آيات الله بنته حيث لا تنفع التوبة للأمم ولا للأفراد ، فقال (وكم من قرية) وكثيرا من القرى (أهلكتها) أردنا إهلاك أهلها (فجاءها بأسنا) عذابنا (بيانا) بائين كقوم لوط (أوهم قائلون) عطف على بيانا أي قائلين نصف النهار كقوم شعيب إذ أخذتهم الظلة ، وأصل الكلام بيانا أو وهم قائلون ، فحذفت واو الحال استقلا لاجتماع حرفي العطف : الواو ، وأو ، وإنما خصّ وقت البيات والقبولة لأنهما وقت الاستراحة ، فوقع العذاب فيهما أفظع (فما كان دعواهم) أي فما كان دعاء أهل القرية واستغاثتهم (إذ جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين) أي إلا اعترافهم بظلمهم فيما كانوا عليه وبطلانه تحسرا عليه ، وهذا هو المشاهد الآن في الأمم الإسلامية ، إذ يدخل أهل الترب في مصر وتونس والجزائر ومراكش والمند وجاوه وسومطرة وسائر بلدان الإسلام كالمند وغيرها وبلاد السودان ، ويذبحون أبناءهم ويستحيون نساءهم ، وينزلون القذوفات والنار من الطيارات في سوريا والعراق وغيرها ، فنزل تلك النار على الأمم الإسلامية ليلا ونهارا أو وقت القبولة كما في هذه الآيات ؛ فنسمع المسلمين يقولون : ربنا نحن متفرقون جاهلون متواكلون ظالمون ، فعاقبنا الله بذنوبنا وليس عندنا علماء ولا حكماء ونحن فينا الطمع والحسد والطمع ، فعاقبنا الله بما كنا ظالمين .

هذا كلام المسلمين الذي قال الله في هذه الآيات لبيته صلى الله عليه وسلم في شأنهم « وذكرى للؤمنين » فذباب هذه الأمم جاء في هذه السورة « ذكرى للؤمنين » ونحن للؤمنون وقد حلّ بنا ما ذكرنا به ولم ينفع الدم ولا اتوبة عند وقوع اللصائب بالأمم الإسلامية . ومن أعظم اللصائب ما أخبرت به عند كتابة هذا الموضوع إذ جاءني مدرس بمدرسة (الأمريكان) بالقاهرة ، وهو من متخرجي مدرسة دار العلوم ، وقال إن ناظر المدرسة للسبحي يأمر التلاميذ المسلمين جميعا أن يحضروا الصلاة ، وكذلك يأمر المدرسين المسلمين أن يحضروا ، ثم إنه يجمع التلاميذ في يوم من الأسبوع ويلقى عليهم درساً في الأخلاق مانحاً : الدم في الإسلام

وفي القرآن وفي نبينا صلى الله عليه وسلم ، حتى أن بعض التلاميذ ارتدّ وتصر ، والباقيون يحفرون دينهم ،
وعندنا مجلس التواب ومجلس الشيوخ والوزارة ، وليسوا بقدرين أن يصنعوا شيئا لأنه لاسلاح عندنا .
أما الترتك أيدهم الله بالنصر للبين ، فقد حرّموا مثل هذا في هذه الأيام وأغلقوا مدارس أمثال هؤلاء
وهم مصلحون .

وهذا من آثار العذاب الذي حلّ بديارنا أن يكون عمرة غرسنا وهم أحسن أبنائنا ، والحلص منهم
يخرجون حافرين دينهم ووطنهم وأمتهم ، وزجع فنقول إنا كنا ظالمين .

ثم لتعلم أيها القدي أن حكمة الله في مثل هذا إنما هو إيقاظ النفوس وترقية للدارك . ولعمرك ما أرسل
الله هؤلاء ليدتموا في ديننا إلا ليحثنا على ارتقاءه وذلك حتى يرقى الناس ، فارتقاء الشعوب لا يكون إلا بالمناظرة
وإذا كانت الحرب داعية إلى رقى الأمم هكذا فليكن حرب الديانات بالدم والظلم داعية حثيثا لرقيا والبحث
في إعلاء شأنها ، وكل ذلك لارتقاء الأمم على الأرض . ولما كانت الأمم لابد لها من هداة ، وأولئك الهداة
مستولون والأمم مسئولون أعقبه بقوله (فلنأتين الذين أرسل إليهم ولنأتين المرسلين) فيسأل الله الأنبياء
هل أجيبوا ، والأمم عن قبول الرسالة ؟ والسؤال القصد منه التفريع والتوزيع لإيقاظ الكمال ، وهذا هو
عذاب الحزى للدكور في سورة آل عمران وإلا فإنه تعالى يعلم ما يفعلون وليس غائبا (فلنقصن عليهم علم
وما كنا غائبين) فليس يخفى علينا شيء من أحوالهم . ولما كان العالم بالآشياء لا يلزم أن يكون عدلا في حكومته
أردفه بقوله تعالى (والوزن يومئذ الحق) أي ووزن الأعمال العدل السوى حاصل يومئذ ، أي يوم القيامة
ولقد عرفت الوزن في أول سورة آل عمران ، وأن الله وزن في هذه الدنيا سائر القدرات والحركات
والسكنات ، ومن قرأ علم الفلك والطبيعة والكيمياء أدرك وشهد كيف توزن القدرات في دخولها في الماء
للكون من (اكسوجين وأودروجين) إذ تكون ذرات أحدهما مع ذرات الآخر بنسب صادقة تامة عددا
ووزنا ولو احتلت ذرة واحدة لم يكن ماء ، وهكذا إذا قرأت ما كتبناه في سورة (القرة) عند قوله تعالى
« وانظر إلى حمارك ولجملك آية للناس » وكيف كان نظام القدرات والعناصر في تركيب النبات من القمح
والذرة والبرسيم وغيرها لا يختلف ، وباختلاف العناصر في القدر عند دخولها في النبات يختلف فيصير الغذاء
ملبسا واللبيس غذاء ، كل هذا مذكور في سورة البقرة وفي آل عمران موضعا مشروحا ، ليعرف الذين قرءوا هذه
العلوم وليشهدوا أن الله وزن كل شيء بالحق ، ومن شهد ذلك في هذه الحياة سهل عليه وزن يوم القيامة
فإنه رب العالمين . والعالم قيمان : عالم الدنيا وعالم الآخرة ، ولقد شهد الحكماء الوزن في الدنيا ؛ فهكذا
يقرءون بالوزن يوم القيامة ، وهذا سهل على من قرأ صفة الله في الدنيا ؛ فأما من عدام من الذين لا يقرءون
لما أحرام أن يوصف لهم ذلك بضرب الأمثال .

قال ابن عباس رضي الله عنهما « يؤتى بالأعمال الحسنة على صورة حسنة ، وبالأعمال السيئة على صورة
فيحة فتوضع في الميزان » وإذا سمعت ما قاله البقرى عن بعضهم إن الأشخاص هي التي توزن مستدلين بما
روى في الصحيحين « إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا وزن عند الله جناح بعوضة » وإذا سمعت
ما قاله غيره إن صحائف الأعمال توزن . وما قاله آخر : إن نفس الأعمال توزن فأعلم أن ذلك كله ضرب مثل
ليعرف الناس بما يزاولون وإلا فتحن نشاهد وزن الله في السموات والأرض فهينه العلوم أدركنا أنه وزن
الحركات والسكنات والقدرات في النبات والحيوان والفلك ، ومن اطلع على ما تقدم من هذا التفسير أيقن
إيماننا أن الله وزن كل شيء ولا يخفى شميرة ولذلك تسمع الله سبحانه وتعالى يقول « اقرأ كتابك كفى بنفسك
اليوم عليك حسيبا » فكان المبدأ لما اطلع على صورته الحقيقية أدرك بنفسه نفسه وكاله وصار هو نفسه
شاعدا على نفسه كأن مرآته أصبح في فهمه وقام بذهنه وأدرك ما كان حسنا وما كان قبيحا من أفعاله .

وإن كانت الأيدي والأرجل والألسن تشهد ثم الأتقن تعرف فهذا دليل أن ميزانه في الدنيا هو ميزانه في الآخرة .

بهذا فليعرف جمال الله وحكمه ووزنه الحق الذي شاهدنا ونظامه الجميل الذي أدركنا فالموزون عيناه واليزان ما رأيناه فالموزون مشاهد واليزان معلوم لم تشهده العيون وقد أقرت به القلوب .

وإذا سمعت ماروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله عز وجل سيخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعين سجلا كل سجل مثل مد البصر ثم يقول له أتسکر من هذا شيئا أظلمت كتبتي الحافظون؟ فيقول لا يارب فيقول أملك عنذر فيقول لا يارب إلى أن قال فيخرج الله له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وتقلت البطاقة ولا يتقل مع اسم الله شيء » وهذا الحديث أخرجه الترمذي وأحمد بن حنبل .

فإذا سمعت هذا فاعلم أنه تمثيل لحال الوزن وترغيب في الإيمان لأن من آمن بطمع في أن يعمل ومضى عمل تقلت موازينه ، وكثير من يفترون بظاهر الحديث فينطقون بالشهادتين ويكتفون بهذا وهم مغرورون جاهلون بل الوزن حق والحساب مبنى على الوزن ولا بد من التهذيب والتربية .

فالمراد من ذلك أن هذه الشهادة أسلحة للأعمال فالوزن لها ولما ترتب عليها وإن لم يكن كذلك ضاعت ثمرات جميع الأديان وهذا هو الذي يفترون به الجاهلون كما أوضحناه في غير هذا المكان ولذلك قال تعالى هنا « والوزن يومئذ الحق » (فمن تقلت موازينه) أى أعماله الحسنة (فأولئك هم الفالحون) الناجون الفائزون بثواب الله وجزائه (ومن خفت موازينه) أى أعماله (فأولئك الذين خسروا أنفسهم) بتضييع الفطرة السليمة التي فطرت عليها (بما كانوا بآياتنا يظلمون) يكذبون بدل التصديق .

واعلم أن الوزن كما ذكر في ديننا ذكر في الديانات السابقة كديانة قدماء المصريين وقد صوروا هيئة اليزان والكفتين واللسان ، فإن غلبت الحسنات السيئات ارتقت الروح إلى ربها ، وإن غلبت السيئات الحسنات التزم قلب الليث كلب ، والذي يقضى على الليث عندم (٤٢) قاضيا وصورم مرسومة في العابد والمياكل يقرؤها للتعلمون في الدول الحاضرة .

فهذا الوزن الذي في القرآن وردت به الكتب السماوية لأن دين المصريين هو دين إدريس الذي ورد ذكره في القرآن وهو من الرسل الذين يجب معرفتهم تفصيلا في دين الإسلام ويسمى عند بعض الأمم (اخنوخ) ويسمى أيضا (سبزوستر) وهذه اللفظة وردت في القرآن (إدريس) ولها مشابهة فتعجب كيف شابهت الأديان في الوزن واليزان .

ولما كان الناس خلفاء الله في الأرض وهم يستمتعون بها وبذلك وجب حسابهم أردفه بقوله (ولقد مكناكم في الأرض) أى مكناكم من سكانها وزرعها والتصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معايش) أى أسبابا تعيشون بها جمع معيشة (قليلا ما تشكرون) أى تشكرون شكرا قليلا على ما صنعت لكم وأصمت به عليكم . والشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيها خلق لأجله ، ويقال الشكر تصور النعمة وإظهارها . انتهى للقصد الأول من القسم الأول .

(المَقْصِدُ الثَّانِي)

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ

لم يكن من الساجدين * قال ما تمتك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ قال أنا خير منه خلقتني
 من نارٍ وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إناك
 من الصاعرين قال أنظرني إلى يوم يبعثون * قال إناك من المنظرين * قال فبما أغويتني
 لأقعدن لهم صراطك المستقيم * ثم لا يبينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم
 وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال أخرج منها مذوماً مذخوراً لمن تبك
 منهم لأنملأ جهنم منكم أجمعين * وبأدم استكن أنت وزوجك الجنة فكلاً من
 حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فوسوس لهم الشيطان ليدي
 لهما ما روى عنهما من سواتهما وقال مانها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا
 ملكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين * فدلها بمرور
 فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سواتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما
 ربهما ألم أنهيكما عن تلكم الشجرة وأقل لكم إن الشيطان لكما عدو مبين *
 قالآ ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا
 بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين * قال فيها تخيون وفيها
 تموتون ومنها تخرجون •

التفسير اللفظي

(ولقد خلقاكم ثم صورناكم) ابتدأنا خلقكم ثم صوركم بأن خلقنا آدم ثم صورناه (ثم قلنا لللائكة
 اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين) بمن سجد لآدم . وظاهر الآية أن إبليس كان من
 اللائكة . واعلم أنه لا طائل في الخلاف : أمن اللائكة هو أم ليس منهم ؟ وإنما هو من نار وهم من نور
 والاشتهاء على الأول متصل وعلى الثاني منقطع فإن الله هو أعلم بنيه ، ولكن الذي نشاهده في هذا الوجود
 يفيدنا أن آدم وأبناء آدم قد اتسم العالم الذي أمامهم قسمين ؛ قسم أطاعهم كالأنعام والدواب والطيور وقسم
 عصام كالوحوش والأسود وما أشبه ذلك ، وهكذا الحيوانات البرية منها ما هو لعائدة الحيوان والإنسان ومنها
 ما هو لقتلهم .

ولا جرم أن هذا كله خاضع لتنظيم اللائكة بحكمة دبرها الحكيم ، فآثار السجود من اللائكة وامتناع
 سجود إبليس لما نظائر في للشاهدات حولنا ؛ كما أن من النفوس المجردة عن الذمة ما توسوس للناس ومنها
 ما تهديهم فترى آثار الصلاح من الهداية والصلاح من الوسوسة . هذه هي الآثار التي نلها في للشاهدات
 أماننا والمعلومات بلومنا وما عدا ذلك نكله إلى الله . وإليك بقية المحاوراة (قل ما تمتك ألا تسجد إذ أمرتك)

أى آية شئ منكم من السجود، ولا زائدة. وفي آية أخرى « ما منك أن تسجد لما خقت يدي » وهذا السؤال للتوبيخ والتفريع (قال أنا خير منه) أى الذى معنى من ذلك أى خير منه ، وهل يسجد القاضل للفضول والرفيع للوضع فكيف يؤمر به ؟ .

ثم علل ذلك فقال (خلقتى من نار وخلقته من طين) ولا جرم أن النار ألطف جوهرًا وأخف وأجمل وفيها الضياء والنور ولها الشرف . أما الطين فإثمة ثقيل لاضوء فيه ولا شرف ، وأنا وإن كان بعض لادّة في تركيبه فالنار غالب على هيكله ، وآدم وإن كانت الحرارة من قوام جسمه ومن نظام هيكله فإن الطين غالب عليه . إن آدم من صلصال إيا قرنه صوت كالصخر الذى يمنع منه الناس الآنية .

ولا جرم أنه مركب من نار وطين والطين هو الأغلّب ولذلك ترى فيه طبائع مختلفة ، فبينا تراه لا يقدر على الطيران فى الجوّ لتثقل جسده تراه يفكر فى الأمور العالية لحفة روحه ولطافة شكله ، ففى الإنسان مثل الطين وخفة النار ولطافتها، وفيه النضب وهو من التّوة النارية وفيه الشهوات وطلب الأغذية وهى ترجع إلى عنصر الطين . أما أنا فإنى خير منه لأن طبع النار وهو الأشرف غالب على .

وهذه الحجة من الحجج التى يستعملها الناس فى محاوراتهم للغالطة والكابرة والسكارة والسكبرياء ذكرها الله ليرينا أكثر ما يحاور الناس فى سياستهم وجدالهم . واعلم أن هذه الحجة خطؤها من أربعة وجوه ، فإن عنصر الطين فيه من الفضائل ما لا يصلح لها عنصر النار كالرزاق وقبول النبات من الشجر والزرع ، وفى الطين الأمانة يحفظ الصور وليس فى النار مثل ذلك وفى النار هلاك .

وإذا سلمنا أن النار أفضل من الطين جدلا فمن ذا الذى جعل النضل بالعنصر والأصل أليس للصورة دخل فى التفضيل وكذلك القاعل وهكذا نتائج الأعمال والأخلاق فبكل مصنوع كالكرسى لا بد له من مادة وصورة وفاعل وغاية ، فمادة الكرسي الخشب وصورته هى التى بها يصلح للجلوس عليه وفاعلها النجار وغاية هذا كله الجلوس عليه .

هكذا آدم مادته الطين وفاعلها الله وصورته معروفة وغايته الحكمة والعلم والعمل . فانظر كيف يقول الله فى الصورة « فإذا سوتته ونفخت فيه من روحي فقموا له ساجدين » فهذا إشارة إلى إكمال الصورة و « قال ما منك أن تسجد لما خلقت يدي » إشارة إلى عناية الماعل . وأشار إلى غاية آدم بقوله « وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة » فإذا كان استعداد آدم للمعروف فاق استعداد بعض الملائكة أن لا تكون هذه الغاية ذات فضل عظيم ويكون هو أفضل من إبليس فثبت أن هذه الحجة أشبه بحجج (أبليس الأرض) من رجال السياسة والديالين والسكانيين .

ولست ترى كلام أكثر الناس إلا على هذه الطريقة . فترى الرجل يقول أنا خير من فلان فإن أبى كان أكثر مالا وولدا وأنا من نسل رجل عظيم فيظنّ الجهول أن الله يرفع الناس على حسب عناصرهم وأصولهم ، وما درى أن الورد تشم رائحته ولا ينظر لما فى الطين الذى تغذى منه من قدر وهكذا يستعذر الناس ما خرج من الإنسان وهو أفضل من على الأرض ويقول رجال الاستعمار قد جئنا ببلادكم لتزقيكم ، وهم إنما جاءوا ليفسدوا فى الأرض ويأكلوا أرزاقهم .

فهذه الحجة من الحجج التى نسمعها صباحا ومساء من أم الأرض للتطمين فى المدارس والكتبات فى أوروبا والشرق الذين يضلون الناس بأرائهم ليأكلوهم « أكلا لما » لأنهم يحبون اللال حبا جما .

ولما كانت هذه من نوع السفطة وهى للغالطة وهى من أندية للنطق الحجة وهى أدناها منزلة كما يقال للرجل ، لا تشرب العسل فإنه فى الزنايب . ومن كان هذا ديدنه من الناس لا يقنعه جواب ولا يهدبه خطاب

كما ترى رجال السياسة يحاولون بالباطل ولا يسكنهم إلا الحرب ، فأما القول فلا يفيد ، لذلك أجاب الله إبليس إجابة تفلنا ألا نجادل للشاغب للسفسط وإنما نعدل إلى القوة والنبلة ونسى لإزالة النكر بالعمل لا بالقول ، ولذلك (قال) الله تعالى إن كنت تتكبر (فاهبط منها) أى من صورة اللائكة أو من السماء (فما يكون لك أن تتكبر فيها) فى صورة اللائكة أو فى السماء ، لأن آتار المخلوقات إن لم تكن مشاكلة لمبادئها أعطت قيمتها ، والإنسان مثلا إذا لم يحافظ على فضائل العلم والعقل انحط إلى درجة أدنى واستعمل استعمال البهائم لجر الأتقال ، وهكذا إذا كان ملوك الأرض لا يقومون بجلال الملك وحقه ينزلون عن عروشهم ، والسيف إذا لم يكن قاطعا صارما استعمال السكين ، هكذا من خالط اللائكة وتنزل عن صفاتهم أولى بأن يسلب صورتهم ويتردد من مقامهم وينحط إلى الأعمال الصغرى كما ترى الحيات والعقارب للؤذية للإنسان والحيوان ؛ فلتكن الأرواح الشريرة الإبيلية ، منحطة إلى دركات الجهالة فتستعمل استعمال الحيات لتؤذى الناس ، فهذه بسببها وهذه بسببها .

وكما لا تصل الحية لمنصب فزال للسك الحامل نواجه ، هكذا لا تصل نفس إبليس ومن على شاكلته درجات المزم والكرامة فتوصل إلى الناس علما ومعرفة كاللائكة بدل الوسوسة التى ترددهم وتسقط ناقصهم ، وكما ينجو من خطر الحيات من سكنوا بيوتا خلت من الضفونات ، هكذا ينجو من خطر الوسوسة نفوس نقية صالحة ، ومن كانت هكذا حالم من التقاوة بسبب الكبرياء والعظمة فإن الموان لاحق به ، ولذلك أودعه تعالى بقوله (فاخرج إنك من الصاغرين) أى فاخرج من صورة اللائكة إك من الأذلاء للهانين . ولما كان من عادة الله ألا يدع جبنا ولا روجا بلا عمل لأنه لامعطل فى الوجود ، فإنك ترى الأرض التى لا يزرعها الناس يخرج فيها زرع ينبت بهطول المطر سواء اتفغ الناس به أم لم ينتفعوا وهكذا نجد أجسام الحيوان البتة تصبغ مأوى للدود والحشرات تعيش فيها وهم رديئة منتنة ، فإذا لمعطل فى الوجود .

ولما كان إبليس من المخلوقات وقد فاته حياة الكرامة فلا جرم يعيش حياة أدنى منها ، فإن لم يصلح للإلهام فلا جرم ينحط للوسوسة ، وهذا حتم فى هذه الحياة التى نحن فيها ، لأن عالمنا فيه الخير والشر والنحس والسعد والووت والحياة ، ومن فقد أحد الضدين تلبس بالآخر وبهذا تفهم هذه المحاورة (قال) إبليس (أنظرنى) أهلى (إلى يوم يعثون) أى إلى يوم القيامة فلا تمتنى (قال) الله (إنك من المنتظرين . قال فما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم) أى فسبب إغوائك إياى وإيقاعك النى فى قلبى الذى كان سبب هبوطى إلى الأرض لأجلسن لهم على طريقك القويم بأن أوسوس إليهم وأزين لهم الباطل وما يكسبهم للآثم قياما بطبيعتى كما تقوم الحيات باللدغ والوحوش بالاقتراس والموامم بالإيذاء والحيوانات الدرية بإحداث الحمى والجدرى والحصباء والطاعون ؛ فليكن فى بنى آدم من يكونون على شاكلتى تماما للنظام العام ، فلا ينجو من وسوستى إلا للصطفون الأخيار ، ولذلك قال تعالى فى آية أخرى « هذا صراط على مستقيم . إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من العاوين . وإن جهنم لموعدهم أجمعين » وإنما انحطوا إلى جهنم ، لأن الكبرياء من آتار الغضب الذى هو قوة نارية ؛ فجهنم يرجع إليها من كانوا فى الدنيا على طبيعة تدعوهم إلى ورودها ، وطبيعة الكبرياء لا اعتدال فيها ، وحرارة النار وزمهريرها خارجات عن الاعتدال . ثم أخذ إبليس يفصل كيفية الإضلال ، فقال (ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) وإنما قص الله علينا ذلك ليعلمنا أن الوسوسة داخلية فى أحوالنا كلها فهى أشبه بالمهواء المحيط بالإنسان والحيوانات الدرية التى تحدث الأمراض فىنا كالسل والجذام والبرص

وهي محيطة بنا من كل جانب ، ولا ينجو منها إلا الأقوياء الذين لم يستعدوا لتلقيها ، هكذا هنا نجد الوسوسة والخداع عامة في النوع الإنساني . وما هو ذلك ؟ هو أنك تجد الأدلة التي يستعملها الناس في أحوالهم العامة كالإله الذي ذكره إبليس ، فإذا قال إبليس « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » على سبيل المناظرة ، هكذا ترى الناس يضلون بأدلة مثل هذا الدليل سواء بسواء بل الضلال الذي يحيط بنا كثير جدا ، ولذلك قال شقيق البلخي : مامن صباح إلا تعد لي الشيطان من الجهات الأربع من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ، أما من بين يدي فيقول لا تخف فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ « وإني لفار لمن باب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدي » وأما من خلفي فيخوفني من وقوع أولادي في الفقر ، فأقرأ « وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها » وأما من قبل يميني فيأبيني من التناء فأقرأ « والماقبة للثنين » وأما من قبل شمالي فيأبيني من قبل الشهوات فأقرأ « وحيل بينهم وبين ما يشتهون » اه .

فانظر كيف جعل الناس العفران سببا في الذنوب ، وهذه هي الناهية الدهياء والخصية العمياء أن يسمع الإنسان آية أو حديثا وربما كان موضوعا أو ضعيفا فيفتتر به فيصبح فاسقا فاجرا ، وقد أصبح للسكينة بسبب فهمه في الدين جهلا من العاوين الضالين . ومن الناس من يكتفي باسم الإسلام ولا علم ولا عمل ، وهذا هو قوله تعالى « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين » وحجج هؤلاء كحجة إبليس فسطة ومغالطة ومجادلة بالباطل ، وهذه الحجج الإبليلية انحط كثير من أم الإسلام وتأخروا ، فيقولون لا تقرأ الطبيعة لأنها كفر ولا نبأ بالأساحة الحديثة لأن الإسلام منصور ، وهكذا من الحجج المغالطة الكاذبة الجاهلة الناقصة ؛ فتعجب كيف كانت الوسوسة كلها من قبيل هذه الحجة ، وتعجب كيف جاءت في القرآن؟ وكيف كان ذلك دائما صباحا ومساء فتنتاب الناس وتقول « إن الله غفور رحيم » ونأكل فوق طاقتنا وعلم الطب يمنعا فنقول شيء قليل والقليل لا يضر ، ونظلم الناس ونقول هم يستحقون ؟ وهكذا من الأدلة الكاذبة التي تلازمنا في أكثر أحوالنا ؟ .

عجائب القرآن

فانظر كيف كانت هذه الحجة الإبليلية في ظاهر الأمر وعند العامة أمرا سهلا لا شيء فيه ، وعند العقلاء والحواص أصبحت رمزا لكل الحجج التي تدلى بها صباحا ومساء في أكلنا ونومنا ومخادتنا ، فيأهجا كل العجب من هذا البيان القرآني ا ظاهره يفهمه الجاهلون ، وباطنه بحر علم زاخر وأمر عظيم وحكمة دقيقة بالغة لا يمسه إلا للطهرون ، ولا يعقلها إلا العالمون ، ولا يدركها إلا المفكرون . ولما كان أكثر الناس متقليين في هذه الحجج صباحا ومساء ، قال « ولا تجرد أكثرهم شاكرين » وقال تعالى في آية أخرى « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن » فانظر كيف تطاق القولان .

ولما كان هذا شأنه (قال اخرج منها) من السماء (مده وما) معيا من ذامه إذا ذمه ، والتأمم والتدم العيب (مدحورا) مطرودا مبعودا من رحمة الله ، والله (لمن تبعك منهم) وجواب القسم قوله (لأملأن جهنم منكم أجمعين) والقسم وجوابه جواب الشرط . ولما أمم السلام على إبليس وكبره وحججه السفطية أخذ يبين نتائج هذه الأخلاق وثمراتها ، فإن من طبيعة هذا الوحود أن يجذب كل مخلوق غيره إلى مشاكلته والدخول في زمرة والسير على طريقته والجرى على منواله . ألا ترى إلى النبات كيف يجتذب إليه العناصر المحبطة به فتدخل في تركيبه جذوعه وسوقه وأغصانه وأوراقه وأزهاره وأثماره ، وإلى الحيوان كيف يجتذب تلك لأوراق ولأرهار إلى جنباته فتتشكل هيئته وعروقه وعظامه ولحمه ودمه ورأسه وعينه ، وإلى الإنسان كيف كان يسي لأن يملك ماحوله ويستخدم الإنسان والحيوان المحط به ، ولا يفتأ يدعو من حوله ليكوثوا

على شاكلته في أخلاقه وملاجه وعاداته ودياناته وعلومه . وهذه الطبيعة شاملة لهذا الوجود حتى إن النار
لنتهم ما حولها وتدخله في حدود مزاجها والماء يربط ماخالطه ، فهكذا هنا في إبليس لما حرم الدرجات
الغيا وتلبست نفسه بالإثم والبنى وخاطب الله بحجة للمالطة أشربت نفسه الضلال والبهتان وأصبح ذلك عادة
ملازمة وطريقة دائمة أخذ يلقي إلى غيره من بنى آدم مارسخ في نفسه ويوحى إليهم ما امتلأت به نفسه من
الضلالات والرجس والبهتان ، كما ترى أن المرأة الفاجرة إذا طوى الزمان سجل شبابها وخارت قوى شهواتها
وفارقها أعز أحابيها عمدت إلى الثابت فأوعزت إليهن بما امتلأت به نفسها ، وهكذا الرجال الفاسقون
الذين شبوا وشابوا وهم في الفسوق هائمون تستروح نفوس هؤلاء ، وهؤلاء بمن يشاكلهم في أخلاقهم وبواقفهم
في آدابهم ويناسبهم في أعمالهم ، ويحب الفاجر والأكل أن يرى الفاجرين والآكلين ليتسلى بطلعتهم
ويفرح بمزاجهم .

وقد ورد في التل « إن الطيور على أشكالها تقع » كذلك قص الله قصص آدم الذي أغواه إبليس ولقنه
من الحجج السفطية ما امتلأت به نفسه ليميله إلى طبعه ويقوده إلى خلقه استرواحا بالنفائس وجبا للأشاكله
فقال (و) قلنا (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من
الظالمين) أما الجنة فهي كما قال أبو مسلم الأصهباني : كانت بعض جنات الأرض وتلك تمكن الشيطان من
الوسوسة لآدم ؛ فلذلك قال تعالى (فوسوس لهما الشيطان) الوسوسة الصوت الخفي كالهيمنة والحشخشة ،
ومنه وسواس الخلق ، ومعنى وسوس له فعل الوسوسة لأجله ووسوس إليه ألقاها إليه ، ثم ذكر عاقبة
الوسوسة فقال (ليبدى لهما ما وورى عنهما من سواتهما) ليكشف لهما ما ستر عنهما من عورتهما وكانا
لا يريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . ثم ذكر كيفية الوسوسة والحجة السفطية التي اجتذب بها
إبليس آدم وأغواه بها ، فقال تعالى (وقال ما أتيا كما ربكما عن هذه الشجرة إلا) كراهة (أن تكونا ملكين
أو تكونا من الخالدين) أي إنما نهاها كما الله عن الأكل من هذه الشجرة ، لأن من أكل منها إما أن يكون
كالملائكة يعلم الخير والشر ويستغنى عن الغذاء ، وإما أن يكون من الخالدين الذين لا يموتون ويعقون
في الجنة ، فأنه منعكما منها لتبقيا منتقرا للأكمل والشرب وتموتنا ، فهو بهذا اللع يحرمكما من السكالم الأمم
والمقام الأعظم . ولم يكنف بهذا الدليل للوهوم بل أقسم لهما (وقاسمهما إني لكأمن الناصحين) فهذا
البرهان للعاطي الذي يشبه البرهان للنتقدم الذي تعالى فيه على آدم بشرف عنصره وبالقسم الذي يدخل في النفس
صدق قائله خدع آدم ، فلذلك قال (فدلاهما) أي فزلهما إلى الأكل من الشجرة وبذلك أنزلهما من درجة
عالية إلى درجة سافلة (بخرور) بما غرهما به من القسم كما يقول الرجل لآخر : اشرب هذا الكأس فإيه
مفقو لشهوة الطعام ومفرح للقلب وكما يقول آخر : إنما الحياة مغالبة غلذ من الناس ما قدرت عليه حقا وباطلا
(فلما ذقا الشجرة بدت لهما سواتهما) أي فلما وجدا طعمها وهما يأكلان منها أخذتهما العقوبة وشؤم للعصية
فتهاقت عنهما لباسهما وظهرت لهما عورتهما كما يسقط لباس الشرف والفضل والمال بالحجر والزنا والظلم ،
ويصبح الإنسان موصوفا بأنواع المسوق والظلم وتلون نفسه بلون تلك المعاصي فتسير سجية له ، وهل
لباسهما كان نورا ساطعا مانعا من رؤية العورات أو غيره ؟ لا فائدة في معرفة ذلك ، لأن الذي يهتنا نحن
غير ذلك ، يهتنا أخلاقنا المستنبطة من هذه القصة .

ولما كان من يفعل ذنبا يجده في إخفائه ليستر عورته البادية ويخفيها ويكتنمها عن الناس حتى لا تتكشف
سواته ويبدل للخطباء الأموال ويدفع للجرايد مالا ليدودوا عنه وليخفوا عوراته وسواته ، هكذا من
انكشفت عورته يجده في إخفائها ، لذلك قال الله تعالى (وطفقا يخمفان عليهما من ورق الجنة) أي أخفا
برقان وبلرقان ورقة فوق ورقة من ورق التين أو غيره ، وكما أنك ترى من نوع الإنسان في السودان

المصري من يعيشون بلا لباس بل هم عراة يألفون الملابس ولا يستر عليهم حتى على عوراتهم ، وإذا حضروا أمام الحكام المصريين أو لإنجليز ألبسوا لباساً ثم يخلعونه عند خروجهم . وهناك قوم آخرون يمتصون الورق وآخرون يسترون العورة ، وهكذا ذكر الله كيف كان آدم عارياً ثم خصف الورق ثم أزلهما إلى الأرض فزوع هو وأولاده فأكلوا ولبسوا بهرق جبينهم . ولما كان الإنسان عادة يذكر عواقب الذنوب بعد وقوعها ويكون التوبيخ والقرع ، قال الله (وناداهما ربهما ألم أنهما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين ؟) يماثهما على مخالفة النهي موجباً (فالأربنا ظلمنا أنفسنا) أضررناها بالحسنة والتمريض نلاخراج من الجنة (وإن لم نغفر لنا وزرحنا لتكونن من الخاسرين) وهذا كان قبل أن يكون آدم نبياً . واعلم أن طاعة الجاهل قد تكون معصية العالم . وطاعة العالم قد تكون معصية الأنبياء كما قيل : حسنات الأبرار سيئات القريين .

ألا ترى أن العالم للمفكر إذا ترك العلم وأخذ في العبادة ليلاً ونهاراً وترك الأمة فإنه قد عصى وظلم نفسه ؟ ولكن معصيته بترك ما هو أفضل ويعاقب ، مع أن صرف الزمن في العبادة أرقى درجات الدين تنحوا عن العلوم وعن الأعمال النافعة للأمة ، فمعصية آدم بالنسبة لدرجته لما صدر منهم على سبيل السهو أو التأويل يحدثون في أنفسهم حرجاً منه وليست معاصيهم كعاصي بقية الناس ، هكذا يقول كثير من العلماء ، لذلك خاطب الله آدم وحواء وذريتهما (قال اهبطوا بهنكم لبعض عدو) أي متعدين ، وذلك أن العالم الإنساني مركب من عناصر مختلفة وطباع متشعبة ، وباختلاف قواه تختلف الأخلاق ، وباختلاف الأخلاق تكون العداوات ، وبالعداوات يكون الارتفاع ، فإن المسابقات في الحروب والصناعات والأعمال تحت الناس على إكمال الأعمال ، فصار العقاب على المعاصي من أسباب السكال ، فإن النوع الإنساني لما تنزل عن العالم السكال الجليل ونزل إلى عالم السكون والفساد كان المعبر عنه بانقلاب سبباً لارتفاعه وسهولة معاشه ، ولذلك أردفه بقوله (ولكم في الأرض مستقر) استقرار (ومتاع) تمتع (إلى حين) إلى أن تنقضي آجالكم (قال فيها نجيون وفيها تموتون ومنها تخرجون) للجزاء على الأعمال ، انتهى للقصد الثاني من القسم الأول من (سورة الأعراف) .

(المَقْصِدُ الثَّالِثُ)

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِيَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسًا التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِيَهُمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَمَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ الْفَحْشَاءَ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ * قَرِيبًا هَدَىٰ وَقَرِيبًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ

أُولِيَاءِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُبْتَدُونَ * يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ
وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ
لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ
كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ
وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ
مَالًا تَعْلَمُونَ * وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ *
يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ
عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ
نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ * قَالَ أَذْخَلُوا فِي أُمَّه قَدْ
خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا
أَذَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبُّنَا هُوَ أَهْلًا أَصَلُّونَا فَآتَاهُمُ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ
النَّارِ، قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ * وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ * إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ
الْحِبَاطِ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ * لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي
الظَّالِمِينَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ تَجْرِي مِنَ الْإِنهَارِ وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا
بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ

فَإِذْ مُوَدَّنَ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَمْنَعُونَ
 عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ * وَيَذَرُهُمَا جِبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَتَرَفُونَ كَلًّا بِسِيَامِهِمْ
 وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ * وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ
 تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ
 رِجَالًا يَتَرَفُونَ بَيْنَهُمْ بَسِيَامُهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَتَّكِبُونَ * أَهْوَاءَ
 الَّذِينَ أَنْتَمُمْ لآيَاتِهِمْ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَمَحْزُونَ *
 وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ
 قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ * الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
 فَالْيَوْمَ نَنسَأُهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ
 بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

التفسير اللفظي

اعلم أن هذا للتصديق قد جاء عقب قصة آدم لبيان القصد من القصص ، وأنها ليست ترد لمجرد الحكاية
 لماذا بهم الحاضرين من اللماضين إلا العبرة ؟ ولعمري ليس للتاريخ من قائدة إلا الامتاع ، فلذلك لما قص الله
 قصص آدم عليه السلام أخذ سبحانه يبين مقاصد وفوائد هذه القصة للشتلة على لباس آدم ، وقد تعرى منه
 وعلى أن ذلك بسبب فتنة الشيطان له وبها خرج من الجنة وعلى احتجاج إبليس بأنه من عنصر النار وإغوائه
 لآدم حتى لبس عليه الأمر فقال إنك إن أكلت من الشجرة كنت كاللائكة ، فهذه ثلاث أصول : اللباس
 والإغواء والحجة الواضحة ، فلذلك أخذ الله عز وجل يخاطب بني آدم جميعا ممتنا عليهم باللباس الذي أنزله
 في الأرض من القطن والكتان والحرير وما أشبهها بحيث يستنون من خصف الورق ، وكيف كانت
 العناصر الأرضية بتفاعلها وامتزاجها بنسب معلومة تكون قطنًا أو كتانًا ، وهي بأنفسها على نسب أخرى
 تكون قحًا أو شعيرًا ، فاللبوس هو عين للأكل من حيث العناصر ، وإنما أصبح هذا ثوبًا وهذا رقيقًا
 لاختلاف القادير الداخلة في النباتين (راجع هذا اللقمة العجيب في سورة البقرة) عند قوله تعالى « وانظر
 إلى حمارك » إلى آخر الآيات في نص العزيز ، فإنك تجده مستوفى هناك من علم الكيمياء الضوئية ، فتأمل فيها هناك
 وتعجب ، وذلك هو السر العجيب في قوله تعالى « ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » وقد أفاد أن اللباس
 الجسمي الناتج من هذه العناصر التي هو من آيات الله وبوارى سواكم وتتجملون به ليس خير لباس
 بل لباس التقوى من العمل الصالح والإيمان والحياء والسمت الحسن والعفاف وخشية الله فهذا اللباس خير
 من اللباس الذي أنزله الله للناس من القطن والحرير والكتان الخ .

ثم أشار سبحانه إلى ثانی الأمور الثلاثة وهو الإغواء فقال محذرا أبناء آدم قائلا : إياكم يا بني آدم أن
 يخرجكم الشيطان من الجنة بإغوائكم كما أخرج أبويكم من الجنة فلا يترعن ملابس التقوى عنكم كما نزع عن
 أبويكم اللباس ، وبين سبب ذلك أن إبليس وقبيله يرونكم من حيث لا ترونهم وأن الأرواح حنود مجتدة

والنفوس الشيطانية تنزع إلى أخلاقها في وسوستها ، ولقد جاء في علم الأرواح الحديث وفي مقال الامام الغزالي والفخر الرازي أن أرواح الأشرار من الناس تنمى لو تعاد إلى اللذات في الدنيا فلما حرمت تلك اللذات أخذت توسوس لما شاكلها من أرواح الأحياء جبا في المشاكلة وإكثارا للأمتلاك والأشكال كما سيأتي في قصة بلعام بن باعوراه الذي آناه الله العلم والحكمة فتركها وصار معفا الضلال ، فالعالم العاقل يعلم الناس طريقه حيا بالتعليم وميتا بالالهام ، والفاسق الضال يعلم الضلال حيا وميتا كما قيل عن هؤلاء الأعلام فكان الشرب ملحوق بالشياطين والفاضل ملحوق بالملائكة فهذا قوله تعالى « إنه براكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » .

وأشار سبحانه إلى الأمر الثالث في القصة وهو الاحتجاج بالمخالفة كما احتج إبليس عند ربه لما أغرى آدم فقال (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا واثق أمرنا بها) فهذه الحجة كالتي تقدمت في قول إبليس إذ اعتبر الفضل بالأصل فهكذا هؤلاء يعتبرون التشريع بالموروث عن الآباء والحجبان مستويان مغالطتان فان الآباء قد يكونون ضالين ، كما كانت النار في حجة إبليس قد تكون سبب التدمير والاهلاك كما أن المخلوق منها وهو إبليس والشياطين والأرواح الشريرة سبب للناسي والضلال لقصور عقول الأرواح الموسوسة وللوسوس إليها ، وهذا هو ملخص قوله تعالى (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا) إلى قوله (أنقلون على الله ما لا تعلمون) وقوله فيها (يوارى سواكم) أي التي قصد الشيطان إبداءها . يروي أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون لا تطوف في ثياب عصينا الله فيها ، وقوله (وربنا) أي لباساتجملون به والريش الجمال ، وقيل الريش اللال يقال ترش الرجل إذا تمول (ولباس التنوي) تقدم ها تفسيره وقوله (ينزع عنهما لباسهما ليريهما سواهما) حال من أبويكم (إنه براكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم) تعابيل للنهي ونأ كيد للتحذير منه ومن جنوده ، وقوله (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أي بما أوجدنا بينهم من النسبة وقوله (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) لأنه تعالى لا يأمر إلا بمكارم الأخلاق والفضائل .

ثم أخذ سبحانه يبين الأوامر التي يأمر بها فقال (قل أمر ربي بالقسط) بالمعدل وهو الوسط في كل شيء ، فلا إفراط ولا تفريط في قول ولا في عمل (وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد) أي اقصدا عبادته تعالى مستقيمين إليها غير عادين إلى غيرها في كل وقت وسجود أو في كل مكان سجود (وادعوه) وابدؤوه (مخلصين له الدين) أي الطاعة متدين بها وجهه خالصا (كما بدأكم تهودون) كما أنشأكم ابتداء بعيدكم ، وإذا كان كذلك فلنكن العبادة خالصة له سبحانه وتعالى (فريقا هدى) بأن وتفهيم للإيمان (وفريقا حق عليهم الضلالة) بمنقضى استعدادهم . ثم بين سبب ذلك فقال (إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله) للنسبة للوجود بينهم وهذا منقضى طاعتهم (ومحسبون أنهم مهتدون) فان الذنب له حجة يقتنع بها كما اتنع إبليس بحجة والضاؤون مقتنعون بالاحتجاج باتباع الآباء . واعلم أن النوع الانساني ما أوقفه في الضلال لإجاهله ، فمن سرق أو قتل أو ظلم أو أسرف في الأكل والشرب وغيرها أو استدان أو أسرف في عمل من أعمال الحياة فانه لم يفعل ذلك إلا وهو معتقد أن له عذرا ، ولا ترى شريرا أو ظالما إلا وعنده براهين يقبها وأهذار يتعلها كالبرهان المذكور عن إبليس ، فقوله « ومحسبون أنهم مهتدون » أي بما قام عندهم من الدليل السفسطي الذي أقامه إبليس في نفضله نفسه على آدم .

ولما كان ذكر للساجد والصلاة فيها والدعاء بعد ذكر اللباس ناسب أن يبين حكم اللباس في الصلاة . ولما كان الأكل مناسبا لللبس لاقتراحه به في أمور الحياة ذكر أحكامهما معا فقال (يا بني آدم خذوا زينتكم) ثيابكم لمواراة عوراتكم (عند كل مسجد) لطواف أو صلاة . ومن السنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئة في الصلاة ، وفيه دليل على وجوب ستر العورة في الصلاة .

قال قتادة: كانت امرأة تطوف وتضع يدها على فرجها ، وقال ابن عباس: إنه كان أناس من الأعراب يطوفون بالبيت عراة حتى إن كانت المرأة لتطوف بالبيت وهي عريانة فتطلق على شغلها سيورا مثل هلهه البيور التي تكون على وجه الحجر من الدباب . وهي تقول :

اليوم يبدو بعضه أو كله وما بدا منه فلا أحله

فزلت هذه الآية «خذوا زينتكم عند كل مسجد» أخرجه مسلم ، وقال مجاهد: كان حتى من أهل اليمن كان أحدهم إذا قدم حاجا أو متمرا يقول لا ينبي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت ربي فيه فيقول من يعبرني مئرا فإن قدر عليه وإلا طاف عريانا فأنزل الله فيه ما سمعون «خذوا زينتكم عند كل مسجد» والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة فستر العورة واجب في الصلاة والطواف ، وقد كان بنو عامر لا يأكلون في أيام حجهم إلا قوتا ولا يأكلون دسما يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون نحن أحق أن نعمل ذلك يا رسول الله ، فأنزل الله عز وجل (وكلوا) من اللحم والدم (واشربوا ولا تسرفوا) بالشرع في الحرام أو في مجاوزة الشيع أو بتحريم ما لم يحرمه الله من أكل اللحم والدم ، فلا تحرم الحلال ولا تتناول الحرام ولا يكن منك إفراط في الطعام وشره عليه ، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كل ماشئت واشرب ماشئت والبس ماشئت ما أخطأك خصتان سرف ومجبة .

وكان للرشيدي طبيب نصراني حاذق ، فقال لعل بن الحسين بن واقد ليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علان : علم الأبدان ، وعلم الأديان ، فقال له قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه وهو قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » فقال النصراني ولم يرو عن رسولكم شيء في الطب ، فقال جمع رسولنا الطب في المناظ يسيرة وهي قوله عليه الصلاة والسلام « العدة بيت الداء والحمة رأس كل دواء وأعط كل بدن ما عودته » ، فقال النصراني ماترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبيا . ولما كان الإسراف مذموما شرعا وعقلا أتبع ما تقدم بقوله تعالى (إنه لا يحب للسرفين) في الأكل والشرب وغيرها ، فأما فيهما فالمرض وضباع المال ، وأما في اللباس والزينة وزخرفة المنازل والباهة فإن الإسراف فيها يدعو إلى ضباع المال والمجد ؛ ثم إن الأمم الشرقية الإسلامية وغيرها التي تتناول صناعات القرنجة من مأكل وملبس ومشرب ومفرش وهم يصرفون فيها أموالهم ويهلكون أنفسهم بصبحون وقد ملكهم أرباب تلك المصنوعات ثم تبعهم دولهم فيحتلون البلاد ، واند غرق العالم الإسلامي اليوم في للتسوجات الأفرنجية وفتنوا بأعمالهم فيالينهم قلدوم في المصناعات ولكنهم اشتروا مصنوعاتهم ترويجا لها وكسادا لصناعات بلادنا فينشط الأجنبي ويكسل الوطني وتتدلى الأمة إلى مقام الذل والعبودية .

إن التجار اليوم هي أس الاستعمار والاحتلال كما هو حاصل في أكثر بلاد الشرق ، إن اسراف المسلمين أدلهم للفرنجية وأضاع بلادهم ، لأذكر لك مثلا مما امتاز به المسلمون في الإسراف لتعلم كيف جهل ملوكهم جهلا فاحشا فأسرفوا وعمروا عما حولهم من العالم الراقى وجعلوا دينهم جهلا فاضحا فقلدهم العاقبة وخذوا حذوم في الإسراف فلذلك سقطوا في الذل لأن الله لا يحبهم لأنهم مسرفون ومن لا يحب الله أدله فهو لاء للسرفون ينضمهم الله وإن كانوا في ظاهرم مسلمين فهناك ما جاء في إحدى جرائدنا المصرية يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٢٦

ملوك وملوك

حمل البنا البرقي في الأسبوع الماضي نبأ الاحتفالات الباذخة التي أقامها مولاي يوسف سلطان مراكن احتفالا بترويج ولديه وطرفا من النفقات الطائلة التي بذلت في هذه الاحتفالات ، من ذلك أن تكاليف الأتوار بلغت وحدها ثلاثة ملايين فرنك والحلوى زهاء مليون والتلجيات زهاء مليون وأن المدعوين من فرسان

وسادة وأسراء بلفوا زهاء أربعمائة ألف فذكرنا في الحمال ذلك الإغراق الذي يبلغ حدّ السفه في صنوف البذخ الذي لبث لئنة الأمم الشرقية على الفرون ، ثم قرأنا بعد ذلك ما أذيع من محتويات البرنامج الرسمي لقران ملكي آخر هو زواج ولي عهد البلجيكي بالأميرة (أستريد) السويدية . واليك خلاصة هذا البرنامج الذي يشفّ عن الحزم ولا تنفصه الضخامة في نفس الوقت .

يقعد القعد اللدن في (ستوكهلم) ثم يعود الأمير البلجيكي وعائلته إلى (بروكسل) في اليوم السابع من هذا الشهر وفي اليوم التالي تذهب العائلة المالكة إلى (انقرس) حيث يصل في ذلك اليوم الطراد السويدي (نالجيا) وعلى ظهره الأميرة (أستريد) ووالدها ودوق ودوقة فستروجاسي والأمير اليكس الدينماركي وزوجته وأشقاء العروس وغيرهم من الأسراء والأميرات .

ولن يحضر ملك السويد إلى (بروكسل) حيث تذهب الأسرتان اللسكيتان في قطار خاص وتقام الزينات من المحطة إلى القصر الملكي ، وتقام في المساء حفلة كبرى في الاوبرا تقيمها بلدية (بروكسل) إكراما للعروسين .

ثم تقام حفلة الزواج الديني في كاتدرائية (بروكسل) في اليوم العاشر من نوفمبر ، وفي المساء يقيم ملك (البلجيكي) وملكته حفلة استقبال كبرى يحضرها ثلاثة آلاف شخص ، ويقال إن البرنس (أوف ويلز) سيكون بين المدعوين .

هذه مقاربة إسراف السلطان للراکشى واقتصاد البلاط البلجيكي وهو إسراف يثير العقل والحزم خصوصا إذا ذكرنا ما هنالك من فرق بين البلجيكي ومراكش وبين سلطات تظله الحماية الأجنبية وبلاط أمة مستغلة .

وهذا من سرّ قوله تعالى « إنه لا يحب للسرفين » ثم أخذ سبحانه ردّ على من حرّم اللباس في الطواف فقال (قل) يا محمد لهم (من حرم زينة الله) من الثياب وكل ما يتجمل به (التي أخرج لعباده) أي أصلها يعني القطن من الأرض والقز من الدود ونحو ذلك (والطيبات من الرزق) وللتلذذات من الماء كل والشارب . قيل كانوا إذا أحرموا حرّموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) بالأصالة ، والكفار وإن كانوا شركاهم فيها فهم تبع لهم (خالصة يوم القيامة) لا يشاركهم فيها غيرهم ، ثم قال (كذلك) أي كتنصيفنا هذا الحكم (تفصل الآيات لقوم يعلمون) ويا عجباً لم ختم هذا التمام بهذه الجملة بعد أن أبان أن الطيبات من الرزق حلال وأن زينة الله التي أخرج لعباده كذلك ، وما تعرض إذن من تبين الآيات لقوم يعلمون . يريد الله عزّ وجل أن يفهمنا في أيامنا هذه نظار ما كانت تفعله الجاهلية وأن تقيس التباوة والجهل الحاصلين في بلاد الاسلام الآن بالتباوة والجهل اللذين كانا عند أهل الجاهلية ، كلا ، ثم كلا ، إن التباوة والجهل الحاليين بأمر الاسلام الآن أشدّ وقسا وأعظم فتكا وأشدّ قتلا وأقوى عملا وأبعد أثرا في انحطاط الأمم الاسلامية من عمل الجاهلية في انحطاط أممهم . ولعمري لئن نحامى الجاهلى لبس التوب في الطواف فلستم نحامى بعض علماء الاسلام في أيام أسلافنا وفي العصر الحاضر أن يدرسوا علوم الآفاق من الملك والطبيعة مثلا ويحسبون أنهم بذلك يخدمون الدين وهم إنما يخدمون الشيطان ويحسبون أنهم مهتدون .

اختص الفرنجة بالمعادن ونظام النبات وتربية الحيوان ، فأما للسفون فأما يقرءون ما كان يقرؤه آباؤهم وهم مقتصرون على علوم قهريّة وأحكام شرعية وهم في الكون لا ينظرون ، ومن بحر نعمة الله الخاخر لا يتعرفون .

ولئن نحرّج بنو طامر أيام الحج عن تعاطى الطعام البسم واللحم ، وإذا امتنع أهل اليمن أن يلبسوا

أنوابهم في الطواف فلقد تخطى المسلمون في أفطار الأرض كل معقول وتركوا نعم الله في الأرض وفي السماء للفرنجية وخالفوا نص كتابهم لظنهم أن علم الفقه كاف وحده ، ولقد أخبرني عظيم من عظماء الهند أن بعض العلماء هناك يحرّمون العلوم . وقال لي العالم الصيني (وان ون كين) من مدينة (تاينتنس) إن العلماء هناك حرّموا على المسلمين جميع العلوم حتى سبقتهم الأمم العائشة معهم في الصين من الوثنيين ، ولعمري لأن قال الله هنا « قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » وقال المفسرون : إن زينة الله للذين آمنوا بالأصالة ولغيرهم بالتبع ، لقد انعكس الأمر وأصبحت زينة الله ومأذنه للتصوية ونجومه للنظورة وحيواناته البشوية ونباتاته للشهودة وآثاره للمهودة وجنوده للنظومة ومدنه العظيمة وجواهره البديعة ومعادنه اللطيفة ونظام الحكومات وحفظ العلوم واللغات ، كل ذلك أصبح خاصا بالفرنجية والمسلمون لهم تابعون ، فيا الله ألهمنا علما وحكمة إننا من عبادك ، وهذا كتابك وأنت أخبرتنا أنها لنا في الدنيا وقال السادة المفسرون إنها لغيرنا تبع لنا فكيف انعكست الآية ، اللهم انك عدل وقولك صدق ، نصبت للآفة فأعرضنا ودعوتنا إلى شكر النعمة فامتنعنا وأحجبتنا ، إننا يا الله حاملو كتابك لمن بعدنا وهم الذين يكونون قد تلوا نعمك وزينتك بالأصالة وغيرهم تبع لهم لأنهم رحمة للعالمين بعد نبينا صلى الله عليه وسلم .

ثم شرع سبحانه يبين ما حرّمه فقال (قل إنما حرم ربي الفواحش) جمع فاحشة وهي ما قبح وحش من قول أو فعل : أي قل يا محمد لهؤلاء التجردين من الثياب عند الطواف وحرّمون أكل الطيبات مما أحل لهم كيف حرّمونه على أنفسهم والله لم يحرّمه عليكم ؟ « إنما حرم ربي الفواحش » من الأفعال والأقوال (ما ظهر منها وما بطن) أي سرّها وعلانيتها (والإثم) وما يوجب الأثم وهذا تتميم بعد تخصيص (والبني) الظلم والكبر (بشير الحق) متعلق بالبني للتأكيد (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا) تهكم بالمشركين ودلالة أن ماليس عليه برهان لا يجوز اتباعه (وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) بالإلحاد في صفاته تعالى والافتراء عليه كما قالوا هنا : والله أمرنا بها .

ولما أتمّ سبحانه الكلام على ما ترتب على القصة من الأوامر والنواهي شرع يحلّل الناس أفرادا وأجما : (١) من الناهون لتلا تماجلهم للنايا (٢) ومن عصيان الرّسل بالكذب والافتراء وينذرهم هول الموت وسؤال الملائكة ، وكيف يجتمع الظالمون من الأمم لا تعادهم في الصفات ويلقى الآخرون الذنب على الأولين وكيف تكون حجّتهم داحضة فلا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة وإنما يدخلون النار وليس التكليف بما لا يطاق فعلى كل امرئ أن يقوم بما في وسع طاقته ، ثم وصف أهل الجنة بأنهم صافية نفوسهم عالية درجاتهم ، وهناك محاورات أهل الجنة وأهل النار ، وكيف يكون الأنبياء والعلماء بين الجنة والنار وهم ينظرون إلى أهلها ومحاور بعضهم بعضا ، هذا ملخص ما يأتي من الآيات وهو (ولكل أمة أجل) وقت معين لنزول العذاب بهم إذا كذبت رسولها وهذا وعيد لأهل مكة (فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) أي لا يتأخرون ولا يتقدمون أقصر وقت (يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي) أي يقرءون عليكم كتيب والجملة صفة وجواب الشرط قوله (فمن اتقى) الشرك (وأصلح) العمل منكم (فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) تعظموا عن الإيمان بها (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا) ممن تقول على الله ما لم يقله أو كذب ما قاله (أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب) مما كتب لهم من الأرزاق والآجال أو من اللوح المحفوظ (حتى إذا جاءتهم رسالتنا يتوفونهم) أي يتوفون أرواحهم بإذنا وهم أعوان ملك الموت للذكور في آية أخرى ، فالمت من الله بواسطة الملك وأعوانه وجواب إذا قوله تعالى (قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله) وهذا سؤال توسخ : أي أين الذين كنتم تعبدونهم من دون الله (قالوا) أي قال الكفار مجيبين الرسل (ضلوا عنا)

غابوا عنا (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) اعترفوا بكفرهم (قال) الله تعالى يوم القيامة أو أحد
لللائكة (ادخلوا في أم قد خلت من قبلكم) أي كائنين في جملة أم مصابين لهم يوم القيامة (من الحق
والإنس) يعني كفار الأمم للماضية من النوعين (في النار) متعلق بادخلوا (كلما دخلت أمة) النار (لنت
أختها) شكلها في الدين : أي التي ضلت في الاقتداء بها (حتى إذا أذركوا فيها) أصله نماركوا : أي تلاحقوا
واجتمعوا في النار ، فأبدلت النار دالا وسكنت للدغام ثم أدخلت المحزة (جميعا) حال (قالت أخراهم)
منزلة وهم الأتباع والسفلة أو آخرهم دخولا (لأولام) أي لأجل أولام ، لأن الخطاب مع الله ، وهؤلاء
إما القادة والرؤساء ، وإما الذين دخلوا أولا على ما تقدم (ربنا هؤلاء أضلونا) سؤلنا لنا الضلال فاعتدنا بهم
(فآتهم عذابا ضعفا من النار) مضاعفا لأنهم ضلوا وأضلوا (قال لكل ضعف) أما القادة فيكفرهم وتضليلهم
وأما الأتباع فيكفرهم وتقليدكم (ولكن لا تعلمون) ما لكل فريق منكم من العذاب (وقالت أولام لأخراهم
فما كان لكم علينا من فضل) عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة أو للتأخرين في الدخول « لكل
ضعف) أي فقد ثبت ألا فضل لكم علينا وأنا متسارون في استحقاق الضعف (فذوقوا العذاب بما كنتم
تكسبون) بكسبكم وكفركم وهو من قول القادة للسفلة أو للتقدمين دخولا للتأخرين ، ويصح أن يوقف
على فضل وتكون الجملة بعده من كلام الله والخطاب منه سبحانه للطائفتين . ثم شرع سبحانه يصف ما يلاقه
الرؤساء والمرءوسون جميعا فقال (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) أي عن الإيمان بها (لا تفتح لهم
أبواب السماء) لا يؤذن لهم في صعود السماء ليدخلوا الجنة إذ هي في السماء ، وإنما تكون أرواحهم راجعة
إلى ما كانت تحن إليه من العالم السفلي تنبثق فيه محبوسة تهيم في أودية العوالم الظلمة ، والنار في تفتح لتأنيث
لأبواب والتشديد لكثرتها ، وفي قراءة « لا تفتح » بلا تشديد (ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم
الحياط) الولوج الدخول ، والجمل الجبل الفليظ من القنب وكذلك الجبل الذي تشد به السفينة ، وسم الحياط
تقب الإبرة ؛ فسم بالضم والكسر ، والحياط والحيط ما يخاط به وهو الإبرة . فدخول الكفار الجنة محال
كما أن دخول الجبل العظيم في ثقب الإبرة محال ، ويصح أن يراد بالجمل الحيوان المعروف والمعنى واحد ، ثم
قال (وكذلك) ومثل ذلك الجزاء القطيع (تجزي الجرمين . لهم من جهنم مهاد) فراش (ومن فوقهم
غواش) أغطية (وكذلك تجزي الظالمين) للشركيين وصفهم تارة بالإجرام وتارة بالظلم ، وقرن الأول
بالحرمان من دخول الجنة ، وقرن الثاني بالمذاب تنبها على عظم الذنب ، يقول إن توغلبهم في المادة وبدم
عن صفاء النفوس منهم من دخول الجنة فلا محالة يدخلون النار بظلمهم للتناسب بين الساكن والمسكن .
ولما وصف الكافرين بما ذكر أخذ يصف سبحانه وتعالى المؤمنين ، ومن عادة القرآن أن يتبع الوعيد
بالوعد والعكس .

وصف للمؤمنين

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لانكف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) وقوله
« لانكف نفسا إلا وسعها » جملة اعتراضية للتبرغيب في اكتساب النعيم القيم (ونزعنا ما في صدورهم من
غلة) أي نخرج من قلوبهم أسباب القلة أو نظهرها منه حتى لا يكون بينهم إلا التوادق فإنه لا يتفق النعيم مع
الحقد والقلة ، كما أن النار تناسب الطباع الفليظة التي لا صفاء فيها ، فالإجرام سبب دخول النار كما أن الصفاء
يناسب دخول الجنة (تجرى من تحتهم الأنهار) زيادة في لذتهم وسرورهم ، ولا لذة بالأنهار وغيرها إلا لقلوب
خلت من الشوائب المحزنة كالمثل فلذلك نتم نزعها ، ولما تم لهم السرور النفس ومباهج الآفاق حولهم
فرحوا (وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا) لما جزاؤه هذا (وما كنا لتهدى لولا أن هدانا الله) لولا هداية الله
وتوفيقه لنا ، وحواب لولا محذوف دل عليه ما قبله : أي وما كان يصح أن نكون مهتدين لولا هداية الله لنا

واللام لام الجحود لتوكيد النفي ، ثم قال (لقد جاءت رسلنا بالحق) فاهدتنا بإرشادهم ، يقولون ذلك اغتباطا وسرورا وإظهارا لما اعتقدوا (ونودوا أن تلکم الجنة) أن بمعنى أى كأنه قيل ، وقيل لهم تلکم الجنة (أورتتموها) أعطيتموها بسبب أعمالكم ، والجنة بدل أو عطف بيان لتلکم وأورتتموها خبر .
ولقد ورد في الحديث « إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله وإنما يدخلها برحمة الله » وهو لا ينافي ما هنا ، لأن العمل الصالح من رحمة الله ؛ فالعمل الصالح من الرحمة ودخول الجنة مسبب على ما تسبب من الرحمة (ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن) بمعنى أى فهي مفسرة (قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا) وهذا القول شامة بأصحاب النار وتعمير لهم واعتراف بنعم الله لهم ، وقوله « ما وعد ربكم » أى وعدكم وربكم (قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم) نادى مناد وهو ملك يسمع أهل الجنة والنار (أن) بمعنى أى مفسرة كما تقدمت (لعنة الله على الظالمين) ثم وصفهم بقوله (الذين يصدون عن سبيل الله) دينة (ويغفونها عوجا) أى ويطلبون لها الاعوجاج والتناقض (وهم بالآخرة) بالنار الآخرة (كافرون . وبينهما) وبين الفريقين (حجاب) وهو السور المذكور في قوله « فضرب بينهم سور » أو بين الجنة والنار لئلا يسمع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى (وعلى الأعراف) أى على أعراف الحجاب وهو السور المضروب بين الفريقين أو الدارين ، وهي أعاليه جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك ، والعرف الارتفاع من الشيء فهو لظهوره يكون أعرف من غيره (رجال) من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخيار المؤمنين والعلماء (يعرفون كلا) من زمرة السعداء والأشقياء (بسياهم) بعلاماتهم .

واعلم أن علم الفراسة الاستدلال بالخلق الظاهر على الخلق الباطن ، قال تعالى « إن في ذلك لآيات للمتوسمين » وقال « تعرفهم بسياهم » وقال « ولتعرفنهم في لحن القول » فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطره ولا يعرف له سبب وذلك ضرب من الإلهام أو الوحي وإياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله « إن في أمتي لمحدثين وإن عمر ختمهم » ويسمى ذلك أيضا النفث في الروح ، والضرب الثاني ما يكون بصناعة متعلمة وهي الاستدلال بالأشكال الظاهرة على الأخلاق الباطنة ، وقوله تعالى « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه » قال بعض العلماء : فيه أن البينة هو القسم الأول وهو إشارة إلى صفاء جوهر الروح ، والشاهد هو القسم الثاني وهو الاستدلال بالأشكال على الأحوال ، فإذا سمعت للفرسين يقولون إن أصحاب الأعراف يعرفون أهل النار بسواد وجوههم وزرقة عيونهم ، وأهل الجنة ببياض وجوههم ونضرة النعيم ، وبعضه روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، فاعلم أن ذلك ضرب من سياهم ، والسبا العلامة الدالة على شيء وأصله من السمة (ونادوا أصحاب الجنة) أى نادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة (أن) بمعنى أى كما تقدمت (سلام عليكم) وذلك تهنئة منهم لأهل الجنة ، وقوله تعالى (لم يدخلوها) صفة لرجال : أى لم يدخلوا الجنة (وهم بطمعون) في دخولها . قال الحسن : ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا لكرامة يريدونها ، ولا تظن أن الجنة التي طمعوا في دخولها ولم يدخلوها إلا أعلى الجنة التي لا يصل إليها إلا المقربون ، وإنما وقفوا على الأعراف ليطلعوا على الفريقين ليظهر عدل الله على ألسنتهم وليبينوا للناس أن هذا جزاء ما فعلوا من خير وشر ثم يرتفون إلى منازلهم العالية ، وهذا على أنهم أعظم الناس من الأنبياء وغيرهم ، وهناك تفسير آخر لا محل له ذكره ، وهؤلاء كما قالوا لأهل الجنة سلمت من الآفات وحصل لكم الأمن والسلامة حين ينظرون إليهم يقولون لأهل النار حين ينظرون إليهم « ما أغنى عنكم جمعكم الحج » ولذلك أعقبه بقوله (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا) نعوذ بالله (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) في النار (ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسياهم) من رؤساء الكفرة (قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) عن الحق أو على الخلق (أهؤلاء الذين أقسمتم لايتلهم الله رحمة) وهذا من تمة قولهم للرجال

يشيرون إلى أهل الجنة الذين كان الكفار يحقرونهم في الدنيا ويحلقون إن الله لا يدخلهم الجنة (ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) أي فالتفتوا إلى أصحاب الجنة وقالوا لهم ادخلوها، وأنت ترى أن أصحاب الجنة نادوا أصحاب النار وأصحاب الأعراف نادوا القرقيبين ولم يبق إلا أصحاب النار ، فذلك قال تعالى (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن) بمعنى أي مفسرة (أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله) من غيره من الأثربة أو الطعام والفاكهة إذا أريد من الإفاضة الإلقاء (قالوا إن الله حرمها على الكافرين) منعهما عنهم منع المهرم عن الكلف ، ثم وصف الكافرين فقال الله تعالى (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا) غرّموا وأحلوا ماشاءوا (وغرّتهم الحياة الدنيا) اغترّوا بطول البقاء فيها وخصب العيش وقوته (فاليوم ننسأهم) تركهم في العذاب للهين (كما نسوا لقاء يومهم هذا) فلم يخطر ببالهم ولم يستعدوا له (وما كانوا بآياتنا يمجّدون) وما كانوا منكربين أنها من عند الله أي كنيانهم وجودهم (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه) بينا معانيه من العقائد والأحكام واللواعظ وميزنا حلاله وحرامه وقصصه (على علم) عالين بكيفية تفصيل أحكامه (هدى ورحمة) حال من منصوب فصلناه (لقوم يؤمنون) ظاهر التفسير .

(لطيفة في قوله تعالى « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك فصل الآيات لقوم يعلمون الخ »)

أيها المسلمون انظروا كيف يذكر الله عز وجل أخذ اللباس في الصلاة وحبها بعدم الإسراف في الأكل والشرب ويتبع ذلك بحلّ الطيبات من الرزق ، أيها المسلمون أي مناسبة بين الصلاة وبين الأكل والشرب وعدم الإسراف فيهما وحلّ الطيبات من الرزق . إن اللقاص مقام علم وحكمة وليس للاهمال فيه من نصيب ، ولذلك ختم المقال بقوله « فصل الآيات لقوم يعلمون » .

يقول الله هنا إن أخذ الزينة في الصلاة ونحوها والأكل والشرب بلا إسراف وطيبات الرزق إنما فصلها لقوم يعلمون ، ويقول في سورة الأنعام قبلها « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البرّ والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون » وأنبه بأنه خلقنا من نفس واحدة الخ ، وأن ذلك البيان لقوم يفقهون ، فعلم الفلك لقوم يعلمون ، وعلم التشريح لقوم يفقهون كما تقدّم ، وههنا علم الصحة لقوم يعلمون . إذن علم الفلك وعلم الصحة كلاهما محتاج إلى علماء ، أما علم الفلك والمهية فعملهما ملئت به الأقطار إلا في بلاد الإسلام في القرون المتأخرة اللهم إلا شذرات ضئيلة وهكذا علم الصحة ، اللهم إنا أنت الذي أرشدت للمسلمين لعلم الصحة فقاموا ، وماذا تقول لهم أكثر من أن الطيبات حلال وأن الحباث حرام وأن الإسراف في الأكل والشرب حرام ؟ وهكذا في اللباس وكل شيء . اللهم إن هذا هو علم الصحة . إن علم الطب قسمان : قسم يخص إرجاع الجسم إلى الصحة بالمقابر ، وقسم تحفظ به الصحة من المرض ، وثاني القسمين أفضل من الأول وهو الذي أوجبه الله في هذه الآية وأمثالها ، جعل الله علم حفظ الصحة واجبا وجوبا شرعيا عينيا . فلي كل امرئ أن يعرف من علم حفظ صحته ما يحتاج إليه ، وكما أن الواجب من علم الفقه كما تراه مسطورا في إحياء التزالي على كل نفس ما يحتاج إليه ، فالزكاة لا يجب تعلم تفصيلها إلا على من عنده ذلك النوع مما يملكه . هكذا هنا في صحة الأبدان يجب على كل امرئ أن يتعلم ما يقدر عليه ، وكما ازداد مرضا وضعفا وجب عليه أن يزيد علما ، وعلى أمة الإسلام أن يكون فيها علماء للصحة كما يكون فيها علماء للفقه .

فقل لي رعاك الله : قد جاء في السور السابقة « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم الخ » أمرنا بالصلاة وقال نلظفوا أجسامكم تارة بالمثل وتارة بالوضوء ، وما الوضوء والنسل إلا للصحة الصلاة ،

وما طهارة الثياب إلا لذلك ، وما هذا وذلك إلا ليكون للمصلي حاضر القلب لا يلهيه قنارة ثوبه ولا جسمه وهو متوجه للقبلة مصروف الفكر للعبود ، فإذا كان الوضوء وما يتبعه نوافات في حضور قلب للمصلي ، فيكون بالأولى مرة وألف مرة صحة البدن . إن المريض ومن به قولنج أو صداع لا يحضر قلبه في الصلاة ، فإذا ن تكون العناية بالصحة أولى وأجدر ، ولهذا لما جاء الرضوء والغسل في السورة السابقة ووجوب النظر في العالم العلوي والسفلي في سورة الأنعام جاء في هذه الآيات في هذه السورة يقول لنا : توضؤوا واغتسلوا وتطهروا وانظروا في السموات والأرض ولكن لا يتم ذلك إلا بعلم الصحة ، فأنا أنماكم عن الإسراف في الأكل والشرب وغيرها ، وأنماكم عن الحباث في الرزق ، والإسراف في الأكل والشرب لا يعرفه إلا علماء يخفقون لذلك ، لأن هذا من فروض الكفايات ، وفروض الكفايات إذا لم يتم بها طائفة وقع الذنب على الجميع ، والمسلمون اليوم جميعاً آمنون معذبون في هذه الحياة الدنيا ، لذلك عذبهم الله بالجهل في سائر العلوم لاسيما علم الصحة الذي لا يتم حج ولا صلاة ولا زكاة ولا علم إلا به ، لهذا قال الله « إنه لا يحب المسرفين » وحرم الحباث المفهوم من لفظ الطيبات .

اعتنى العلماء بعلم التقه وابتدعوا بكتاب الطهارة ، هذا حسن ولكن الأحسن منه أن يؤلف لأبناء المسلمين كتب صغيرة تعطى لهم قبل الوضوء والطهارة يذكر فيها علم الصحة امتثالاً لقوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وقوله « والطيبات من الرزق » يا محباكل العجب ! يذكر الله اللباس والأكل والشرب وعدم الإسراف « والطيبات من الرزق » مصحوباً بقوله « خذوا زينتكم عند كل مسجد » وقد علمت أن في تفسيرها الصلاة ، إن هذا رمز إلى أن الصلاة كما تحتاج إلى الوضوء والغسل تحتاج إلى جسم صحيح وعقل حاضر ، ولا صحة ولا حضور عقل إلا بمعرفة علم الصحة ؛ فلئن وجب الوضوء فإن الصحة أوجب ، أي الأخذ في أسبابها أولى ، فإذا طرأ المرض على المصلي وتجم ضرر الماء فليكن عليه أيضاً أن يتداوى أو يلزم شروط الصحة جرياً على أمر الله من عدم الإسراف ومن ترك الحباث من الرزق .

علم الصحة

وها أنا ذا أبدأ بما بدأ الله به في الصحة وهي اللباس ثم الأكل ثم الماء وأبين الطيبات منها والحباث بطريقة مختصرة وأتبع ذلك بفوائد صحية . وإني موقن أن علماء الإسلام بعد ظهور هذا التفسير وأمثاله سيقرءون علوم الطب ويوقتون بأنها من علوم الدين وأن ما أذكره هنا نموذج صغير أو قطرة من بحر أو حبة ستنبت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء .

لللباس

يقول الله تعالى « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد » ويقول « ولا تسرفوا » ولم يعين في أي الأنواع يكون الإسراف ، فهو وإن ذكر بعد الأكل والشرب محذوف للعمول فأنه تعالى لا يجب من أسرف في أي عمل من الأعمال ، وحذف للعمول مؤذن بالعموم . فالإسراف في اللباس وغير اللباس على حد سواء . وسواء أكان الإسراف بخلوة الثمن للفقير أو باللباس التي تزيد عن الحاجة وهكذا فكله إسراف فلا ذكر لك أحوال اللباس .

يشترط في اللباس ما يأتي :

- (١) ألا تكون ضيقة تنب الإنسان في غدوة ورواحه بل يجب أن تكون واسعة .
- (٢) ألا تكون ثقيلة ، فقد أجمع علماء الصحة أن الدفء لن يكون بترآكم اللباس وإنما يكون بنوع ما يفيد الدفء .

(٣) أن تكون الملابس لها مسامٌ لتجفف العرق لأن العرق إذا بقي في الجسم أصابه البرد الذي يكون سبب الزكام وآلامه فالمسامٌ إذن أكبر عون على الصحة .

الصوف ونحوه والحرير والقطن والتيل والجلد

اعلم أن صوف الغنم ووبر الجمال وشعر اللوز لها خاصيتان : الأولى أنها تحفظ حرارة الجسم . الثانية أنها تنشف العرق . إذن هذه اللواد أصلح لأن تلبس على نفس الجلد وهو (الشعار) وعليه يحسن أن يكون الشعار من الصوف .

الحرير

اعلم أن الحرير الذي أحله الله للنساء وحرمه على الرجال يحفظ الحرارة كالصوف ولكنه لا ينشف العرق بسهولة كالصوف .

القطن

أما القطن فهو قليل الحفظ للحرارة وقليل التنشيف للعرق ، والملابس للأخوذة من (التيل) أقل من القطن في خواصه .

الجلد

والملابس الصنوعة من الجلد تحفظ الحرارة ولا تلبس إلا في البلاد الباردة .

فوائد عامة في الملابس

يجب أن تكون واسعة ، وألا تكون طويلة ، وأن تحفظ في صيوان خاص ، وأن يوضع بها نحو القفل الأسود بعد تنظيفها أو (الفتالين) أو نحوها خيفة (العثة) .

وليغير الشعار مرتين في كل أسبوع صيفا ومرة شتاء . ومعلوم أن الملابس (الوسخة) تنسل بالماء الساخن والصابون . وينظف الصوف بغسله بالماء البارد مع عدم عصره ثم توضع في الظل حتى تجف .

وليكن الشعار خفيفا في زمن الشتاء . وليكن لون الثياب الخارجية في الصيف غير قائم . أما في الشتاء فيجب أن يكون اللون (أدكن) وذلك ليمسح حرارة الشمس أن تدخل إلى الجسم . أما الأبيض فإنه يمنع حرارة الشمس أن تدخل للجسم وهو بالصيف أليق . انتهى الكلام على الملابس .

الأكل

اعلم أن الأغذية للستحسنة عند علماء الطب هي الأغذية السهلة الهضم الطازجة من الأغذية الحيوانية والنباتية مثل اللحم واللبن والزبدة والقمح والذرة والبطاطس ، ويستحسنون طبخ الأغذية لسهولة هضمها

لقتل الجراثيم الضارة ويوجبون غسل الحضر بالماء الساخن قبل أكلها وقاية من الإصابة بالديدان . فإذا نزل القمل والجرجير والبصل وأمثالها بذلك قبل الأكل .

ويقدمون من الحيوان ما كان أصغر سنا على غيره ولحم الضأن على غيره في الهضم . ولحم الدجاج على لحم البط والأوز . ويقولون إن لحم السمك أقل تغذية من لحوم غيره من لحوم الحيوانات . ويقولون إن

اللبن غذاء الأطفال ولا يكفي للكبار . ويوجبون غليه وحفظه في إناء مخصوص محكم التغطية مغسول بالماء للثلى . ويقولون إن البيض الصالح يعرف بوضع ما يملأ ثلاثة فناجيل قهوة من الملح في ثلثائة درهم من الماء

ويذوب فيه ثم يوضع البيض لما طفا فوق الماء فهو غير صالح وما رسب يكون صالحا . ويقولون الجبن أجود ما يصنع من اللبن المحض الحالى من اللواد المضافة في الصناعة .

الزبدة

الزبدة غذاء مفيد ويستحسن أن تؤكل مع الحبز وقليل من السكر وهي تنفع رجال العمل الجسمي .

البقول

هي مثل العدس والفول ونحوهما يمكن الاستغناء بها عن مقدار عظيم من اللحم بأنواعه ويضاف إليها الزبدة أو الزيت .

الحضر

بعضها أسهل هضما مثل القرع وبعضها عسر الهضم قليل التغذية ولكنه نافع للجسم مثل الاسفاناج (السباغ) وخبز القمح أحسن من غيره وأكثر مفضية .

التوابل

هي كالفلفل والحلّ والحردل والملح . هذه كثرتها تعسر الهضم . فإذا قات الشهوة للطعام حسن تماطى القليل منها . وقد نهى الأطباء عنها إلا قليلا .

الأغذية التي هي غير طيبات وهي الحباث

القريب (القسيخ) والسردين والقواكه التي ليست ناضجة مثل (الرمخ) وهو الباح الأخضر . ومثل القواكه التي زادت في نضجها . واللحوم الكثيرة الدهن . والأصمك ذات القشور الغليظة وذات الحمار .

ولأختم هذا اللقاع ببيان اللدة التي تهضم فيها الأطعمة من لحم وخضر وفاكهة ليختار الإنسان ما يناسب مزاجه ولا يتناول إلا ما تقدر معدته على هضمه (فأولا) الطعام الذي لا يهضم في أقل من ست ساعات وهو لحم الضأن القلوي في السمن . والحيار . والقثاء (وثانيا) الطعام الذي يهضم في أقل من ست ساعات ولا ينقص عن خمس وهو لحم العجل والسكى للقلوين في السمن ولحم الضأن للسوق (وثالثا) ما تنقص مدة الهضم فيه عن خمس ساعات ولا تنقص عن أربع وهو :

- (١) لحم الدجاج والحمام والبقر والبط والأوز للقلوات كلها في السمن .
- (٢) لحم العجل الشوى .
- (٣) لحم البط والأوز للسوقين .
- (٤) لحم السمك السوق .
- (٥) لحم الصافير الثقلي .
- (٦) الكرنب .
- (٧) الجزر .
- (٨) القجل .
- (٩) السلجم وهو (الفت) .

(ورابعا) ما يقل عن أربع ساعات ولا ينقص عن ثلاث وهو لحم الأرنب والجمل للقلوين في السمن ولحم الدجاج والحمام والسكى للسوق . ولحم البقر للشوى . والكبد واللسان . ثم الحجر الجاف والكرفس والبطاطس والحس والتين والتنام والجوز .

(وخامسا) ما ينقص عن ثلاث ساعات ولا ينقص عن ساعتين وهو لحم الديك (الرومي) للقلوي السمن والسوق منه ومن الأرناب ومن لحم البقر ثم الخ .

هكذا الباذنجان والبامية والدّجر (القوياء) الحضراء والفول الأخضر والتنبيط والبطاطة للشوية والطماطم والتفاح النوى (وهو الذي لم يطبخ) والبلح والبرتقال والنعنبة والكثيرى وعصير حبّ الرمان . (وسادسا) ما ينقص عن ساعتين ولا ينقص عن ساعة وهو الكرش السلوقة والمهلبيون (كشك الماظ) والقرع والاسفاناج (السباغ) والتفاح المطبوخ وللوز والسفرجل انتهى .

فإذا سمعت قول الله عز وجل « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وكنت ضعيف اللمدة فاعلم أن الأوفى لك ما كان سريع الهضم كالقرع وكالعنب . فإذا أكلت الحيا . والقثاء فأنت مسرف لأنك تجاوزت حدك وطى هذا أبداً قضى .

فأما إذا كنت قوى المدة فلنأكل ما نشاء من لحم العجل والضأن وغيرها . ولكل مقام مقال . انتهى ما قصدته من الكلام على الغذاء .

الماء الذى يشرب يجب له الشروط الآتية

- (١) أن يكون خاليا من الرائحة ومن اللون .
- (٢) أن يكون رائقا فلا ترى ذرات صغيرة سابحة فيه . ولا يرسب منه في قرار الإناء شئ .
- (٣) أن يكون عذبا .
- (٤) أن يذيب الصابون وينضج البقول والحضر أيضا جانا . وإلا كان محتويا على أملاح ضارة بالجسم
- (٥) أن يكون خاليا من الجراثيم وهي (السكريات) ولا يمكن معرفة للسكريات إلا بالمجهر أى (السكرسكوب) .

الأمراض التى يكون سببها الماء الذى ليس مستوفيا الشروط

- (١) الإسهال للزمن بسبب التراب والرمل اللذين يكونان في الماء .
- (٢) الحمى التيفوذية .
- (٣) الهيمية الأسيوية (الكوليرا) .
- (٤) البول الدموي (البهارسيا) .

هذه الثلاثة الأخيرة بسبب الجراثيم المنتشرة في الماء .

تنقية الماء

لذلك طرق ثلاث (الطريقة الأولى) أن يوضع نوى الشمس أو الخوخ أو اللوز الحلو فيرسب هناك طبقة تحمل الأقدار في أسفل الإناء ويكون ما فوقها من الماء صافيا ، ويوضع جزء من الشب في الماء ، وهذه الطريقة فيها ضرر للشاربين يستعملها العامة وهم يجهلون أضرارها . (الطريقة الثانية) أن يرشح الماء في إناء ذى مسام من الفخار وينسل من الداخل والخارج بالماء والصابون والليف غسلا جيدا ثم يغطى ذلك الإناء بغطاء نظيف ويوضع تحته إناء نظيف ليتلقى الماء النقي للتساقط بعد رشحه من السطح الخارج ويجب أن يوضع هذا الإناء وما تحته في محل نظيف بحيث لا يصل إليه الغبار ، والأحسن أن يكون وعاء خشبيا كبير الحجم ، وفي اللغة العربية يقال للإناء الذى فيه الماء (الحب) ولتطأه (السكرامة) فيقولون لمن يحبون (حبا وكرامة) وأصله هذا المعنى الذى عرفته ، وهذا يسمى في مصر (الزير وغطاه) .

وهناك أدوات للرشح غير ما ذكر ، وهذه تباع في الأسواق فلا طائل في ذكرها مثل ما يسمى (راشح بركيفلد) (الطريقة الثالثة إغلاء الماء) وهذه هي الطريقة التى بها تعرف تماما خلوة الماء من الجراثيم وهذا هو الذى يتبع في زمن الأوبئة فيغلى الماء للشرب وللطبخ وغيرها ويحفظ ما للشرب في إناء نظيف يحكم الصمام ويشرب بعد أن يبرد .

هذه نبذة مما يتضمنه قوله تعالى « يا بنى آدم خذوا زينتكم » وذكر الأكل والشرب ، ثم أمر بجم الإسراف فمن لبس ما يضره أو أكل السردين أو القسيخ أو الفواكه التى ازدادت في النضج فهو مسرف كمن يأكل فوق الشبع . ومن شرب فوق حاجته مسرف كمن شرب الماء الذى فيه التراب أو الرمل أو الجراثيم التى تصيب الإنسان فتورثه البول الدموي أو الحمى التيفوذية أو الحمى الأسيوية ، كل هؤلاء مسرفون فمن لبس شعار الصوف الغليظ في الصيف مثلا أو أكل البلح الأخضر أو شرب الماء الذى فيه قدر فكل هؤلاء مسرفون .

فالإسراف إما في الكم كلبس اللباس الكثيرة وأكل وشرب للآكل وللشارب الكثيرة وإما بالكيف كما تقدم . كل هذا إسراف والمسلمون ناعمون والدنيا كلها طائفة بالملم ولم يغفل عنه إلا المسلمون . اللهم إني أدبت ما على وما قدرت عليه وأنت ستنتقم من كل من قرأ هذا التفسير وفهمه ولم يرشد للمسلمين إلى جميع العلوم ومنها علوم الصحة التي ذكرتها في هذه الآيات خلقت الطيبات وحرمت الحماث « إن الله لا يصلح عمل المفسدين » .

اللهم إنك أوجبت هذه العلوم على طوائف من الأمة ولما قصرنا في ذلك عذبتنا في الدنيا بالضعف والذل وسلطت علينا الناس غاربونا لتذكر وهانحن أولاء تذكرنا وإني أكتب هذا تفسير الكتابك فهل للمسلمين عذر في الجهل بمد هذا التفسير وأمثاله ؛ كلا . ثم كلا إن قارىء هذا التفسير مازم أن يرفع صوته في كل مجلس ومقام ، وفي كل كتاب يكتبه « والله عليم حكيم »

قوائد صحية

اعلم أن أسباب نقل المرض من المريض إلى الصحيح إما أن تكون من الأول إلى الثاني مباشرة، وإما أن تكون بواسطة الماء ، وإما أن تكون بواسطة الحشرات . فالأول وهو أن يكون بنفس المريض فذلك مثل (الجرب) وهو مرض جلدي يمد سريع الانتشار ويكثر بين من لا يحافظون على نظافة أجسامهم . وينتقل هذا المرض من الأجرى إلى الصحيح بالمصافحة والمساكنة واللامسة واستعمال ملابس الصاب بهذا المرض الويل .

فأما الثاني وهو أن يكون بواسطة الماء ، فانظر تر العجب العجاب في العلم وفي دين الإسلام ، انظر تر علماء الفقه نهوا عن الاستحمام في الماء الراكد ، وعن البول في الماء مطلقا الخ . وانظر العلم الحديث وظهور فضائل الدين الإسلامي . انظر ثم انظر ، ههنا مرضان : مرض البول الدموي وهو (البلهارسيا) للتقدم ذكره . ومرض الضعف العام للسمي (الانكلستوما) فهذان المرضان يكونان بالعدوى ولكن بطريق الماء .

فمرض البول الدموي إنما يكون من ديدان تسكن في (الأوردة) وتميش في الدم وتبيض فيه ويخرج البيض مع الدم وحق بالإنسان في الماء فقس ذلك البيض الذي لا يراه الناس وخرج منه حيوان صغير لا يراه العيون ولكنه إذا نظر له الإنسان بالمنظار العظم ظهر كهيئة العنكبوت .

فهذا الحيوان يبحث عن قوقعة من قواقع الماء فيدخل فيها فتكون له أما بدل أمه ، فإذا كبر فيها خرج فإذا صادف إنسانا يستحم مثلا ودخل جسمه كما كانت أمه سابقا وهو لا يعلم تلويح حياتها فيدخل من اللسان ويتجول في الجسم حتى يكبر ويبيض كما كانت أمه تبيض وهكذا يكون الخلف كالسلف .

سبحانك اللهم ربيت الدود في أجسامنا وأزله في ماتنا وأدخلته في القوقعة حتى يكبر ثم أرجته إلى أجسامنا بعد ما صار حيوانا عقابا منك للمسلمين على تقاعسهم عن علم الصحة وطى مخالفتهم للفقهاء الذين نهوا عن التبرز والبول في الماء والاستحمام في ماء البرك والمستنقعات التي فيها ذلك الحيوان .

أما مرض الضعف العام فهو للسمي (الانكلستوما) وهو فقر الدم فترى الوجه شاحبا والشفتين ذابنتين وعسر التنفس بعد أى عمل وبحسّ بألم في الرأس والركبتين واضطراب في الهضم . وذلك أن هناك ديدانا تلحق ذكراتها إناثها فتبيض في الأمعاء لا كديدان البول الدموي التي تبيض في الدم وهذا البيض يخرج مع الفضلات ، فإذا تبرز للصاب في الماء فقس البيض فيه وعاش الحيوان الخارج منه أشهره فيه فإذا شرب

إنسان ذلك الماء أو أكل خضرا مفسولة في تلك المياه أو استعماله لاستحمامه دخل هذا الحيوان جسمه بواسطة الجلد أو بواسطة المعدة فيصاب بالمرض القتال .

ولا ينبغي الناس من هذا ونحوه إلا ترشيع الماء كما تقدم . وألا تغسل أوأنى الأكل إلا بالماء المرشح أو المغلى . وألا تؤكل الخضرا التي لا تطبخ إلا بعد غسلها جيدا بالماء المغلى . وألا يمشى الإنسان عارى القدمين ولا يلبس في المياه القذرة ، وأن يغسل اليدين جيدا بالماء والصابون بعد قضاء الحاجة وقبل الأكل . انتهى الكلام على القسم الثاني .

[القسم الثالث] وهو أن يكون نقل المرض بواسطة الحشرات . فاعلم أن الله عز وجل جعل ما ينفعنا وما يضرتنا من الحيوان على قسمين قسم ظاهر وقسم باطن وكل منهما إما نافع وإما ضار . فالقسم الباطن النافع منه مثل الكرات البيضاء والحجرا في الدم فإنها تشبه الحيوان من حيث اللدافة عن الإنسان وتقاتل جراثيم المرض الداخلة في الجسم وهذا معلوم في الطب . والقسم الضار منه مثل ما ذكر آنفا من جراثيم البول الدموي وجراثيم فقر الدم اللاتى تعيش في الماء وتدخل جسم من يستحم مثلا وهكذا . فأما القسم الظاهر من الحيوانات فهو قسمان أيضا نافع للإنسان وضار . فالنافع للإنسان مثل المذكور في قوله تعالى « وأوحى ربك إلى النحل الخ » وقد قدمت لك أن النحل وأمثاله من الحشرات هي التي تطوف على الأشجار فتقتل الطلع من الذكور إلى الإناث . ولذلك تجب الحقائق دائما فيها أصوات هذه الحشرات ولذلك تصفها العرب بأنها غناء .

فهذه الحشرات التي ترى شرحها فيما تقدم في التفسير كسورة (الأنعام) وغيرها جعلها الله لتكون سببا في فاكهتنا وحبوبنا ونحن لانشر ، فأكثر الناس يأكلون الفاكهة ويتمنون بالنعم وهم لا يعلمون أن الحشرات التي أمامهم هي من أسباب تلك النعم . فأما الضار للإنسان من الحشرات فهي كثيرة : منها التباب والقمل والبق والبراغيث والناموس . ولأنكم على الناموس ثم التباب مكتفيا بهما في هذا المقام فأقول : (١) الناموس يعيش في المياه الراكدة والمستنقعات . وفي المنازل التي هي غير صحيحة . وهي تنقل حمى (الملاريا) وهي من أنواع الحمى وتسمى (الحمى الأجمية) منسوبة للأجمت لأن الناموس يعيش فيها ، ولذلك يجب إبادة الناموس من المنازل بوضع زيت البترول في الراجيض . ويجب ردم البرك والمستنقعات ، أو وضع زيت البترول على سطح الماء حتى يقتل صفار البعوض التي تعيش على سطحه . وعلى النائم أن تكون له ناموسية سليمة من الثقوب حتى لا يدخل إليه الناموس .

فهذا الناموس إذا لدغ مصابا بالحمى المذكورة ثم بعد ذلك لدغ آخر سليما أصيب السليم بها أيضا فينتقل المرض من الأول إلى الثاني . فسكا رأيت أن الجرب ينتقل من المريض إلى الصحيح باللامسة ومرض البول الدموي ومرض فقر الدموى ينتقلان بواسطة الديدان التي تعيش في الماء . هكذا ترى هنا الناموس ينقل المرض مباشرة من المريض إلى الصحيح . هذا ولأختم هذا المقام بالكلام على التباب .

التباب

إن التباب ينقل المرض من إنسان لآخر كما يفعل الناموس .

غذاء التباب

تأكل اللحم والدم والخضرا واللبن والزبد والجبن والمادة السكرية والمواد المتخمرة كالخبز المتخمر والمش وبراغ المواشى وبراغ الإنسان ، وهو يفضل المواد المتخمرة لأنها فيها بيض ومنها يأكل . إذا علم أن الأتى من التباب تبيض ما بين شهر وشهرين ونصف . والبيض يكون على دفعات كل دفعة من مائة بيضة إلى مائة وخمسين بيضة وجميع البيض يبلغ ألف بيضة . وفي النادر شاهد العلماء أنها باضت

في إحدى وثلاثين يوماً نحو ألفي بيضة . والبيضة تفرخ فيما بين ثمان ساعات واثنتي عشرة ساعة . ومتى قفس البيض خرج دود أبيض يتحول فيما بعد إلى ذبابة في مدة ستة أيام أو عشرة أيام أو أربع وأربعين يوماً بحسب اختلاف الأماكن حرارة وبرودة . ومن ذلك دود المش واللحم ونحوهما . فهذا كله دود ظهر من بيض الذباب أو نحوها لأن الذباب وسائر الحشرات يكون له بيض ، فالبيض يكون دودة فشرقة أي مثل ما نرى في دود القز إذ ينام مدة بهذه الصفة ثم يصير حشرة كاملة .

ضرر الذباب بنوع الإنسان

(١) ينقل جراثيم اليرقان الصديدي من العين المريضة إلى العين الصحيحة من نفس الطفل المريض أو طفل آخر مجاور للمريض ، وأكثر العميان في مصر بسبب هذه الحشرة .
(٢) مرض (الاستناريا) وهو إسهال شديد بهيئة خاصة . هذا المرض ينقله الذباب من المريض إلى الصحيح .

(٣) الذباب ينقل جراثيم الحمى التيفوذية لأنه يذهب إلى البراز الملوث بجراثيم المرض ثم يذهب إلى أطعمة الأسماء الذين هم قريب من ذلك المكان لأن الذباب لا يذهب بعيداً .
(٤) السكوليرا تنتقل بأطراف الذبابة وخرطومها . ويقال إن مكروب المرض يبقى حياً ١٧ ساعة على أطراف الذبابة . وقد يدخل الجرثوم المرضي في باطن الذبابة بطريق الطعام ويخرج حياً بالتبرز في طعام الأسماء فهي تنقل المرض بأطرافها وبرازها .

(٥) جراثيم (السل) التي يتلقفها الذباب من بصاق السلولين يرى حياً في براز الذبابة بعد مرور خمسة أيام من أكلها البصاق المعدى .
وهكذا وجدوا ديدان الحيوانات التي تعيش في أمعاء الإنسان . وهكذا الدودة الوحيدة . كل هذه يلعها الذباب مع المواد البرازية وتخرج مع برازه . انتهى ما أردت من الكلام على الذباب .

الصراصير

وهكذا يقولون إن الصراصير تعيش في جوفها جراثيم السرطان . فلذا جاءت على طعام الإنسان أزلت ذلك فيه فتولد السرطان في جسم من يأكله ولا يزال يمضي في الجسم حتى يجد له مكاناً ضعيفاً فيعيش وينمو ويموت المريض اهـ .

هذا قطرة من بحر من قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » وقوله « قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق » فيا عجبا كل العجب كيف يقرأ المسلمون الطيبات من الرزق وأكثرهم يجهلون الفرق بين الطيبات والحباث .

فياليت شعري كيف يعرف المسلم أن هذا الطعام خبيث وأن هذا الطعام طيب إلا إذا قام في الأمة جماعة فدرسوا هذه العلوم ثم نشرها بين الأمة كيف يكون الطعام الذي يحوم حوله الذباب أو تلم به الصراصير خبيثاً ؟ وكيف يتحامون الاستحمام في الماء الراكد أو ملامسة (الأجرب) أو نحو ذلك إلا ينشر هذه العلوم نشرًا تاماً مع بيان القوائد بقدر الإمكان .

اللهم إني بينت هذا المقام في كتابك بقدر إمكاني وإني موقن أنه سيأتي بعدنا من يسهلون الطرق ويرقون الشعوب ويطلعون أم الإسلام وسرهم ما يكون .

ولأختم هذا المقام بأرجوزة كنت نظمتها منذ نحو عشر سنين قبل طبع هذا الكتاب . وهذا نصها :

حفظ الصحة في فصل الصيف

قرأت مقالة في حفظ الصحة في أول فصل الصيف سنة ١٩١٦ بقلم عظيم من أعظم الأطباء التتاسيين
جعلتها نظاما . وهما هي ذه :

أرجوزة في الطب للإخوان
من بعد ما قرأتها تكرر
ليحفظوا صحتهم في الصيف
للصيف حرّ يلفح الوجوه
والشمس مهما قتلت جرثوما
ما أفنك الجرثوم بالأطفال
تسطو بحماها على الأولاد
إن انقضاء المرض الخوف
فتنظف الطعام والشرايا
كذلك الحدائق الغناء
فإنها حمالة للداء
فلتحتس من طائف الدباب
يعدى الذي يلقى بلا ارتياب
مثل الدباب فعل التاموس
فاجعل له وقاية تفيكا
ياربة المنزل يا ذات الأدب
فارعى رعاك الله عين الطفل
لا يشربن لبنا أو ماء
كذلك الفواكه اطبخها
وليتحمّ الرجل الكبير
بمكمل ماء فاتر نظيف
ولياخذ القوى ماء باردا
وقل الأكل والشربا
وكل ما تشربه مبردا
والتلج والكاوزة للعروفه
ولا تطع قول الدين قالوا
وخذ من البقول والفواكه
* وأقل اللحوم وللقلظا
خير الثياب البيض عند الحر
نم لتكن واسعة الأطراف
واجعل شعار الجسم لبس الصوف

نظمتها أيام الامتحانات
لكي أزيد فهمها استبصارا
فخره مثل غرار السيف
ويزهق النفوس إذ يمزوها
فإنها تحيي سواء دوما
فإنها بمكثرة الإسهال
فتحتس بفلق الأكل
أفضل من علاجه للوصوف
والجسم وللكان والثيابا
وكل مجرى كان فيه الماء
تمدنه في داخل الأحشاء
فإنه أعدي من الدباب
ويجعل الأحياء في تباب
فإنه لمرض جاسوس
على السرير حيث لا يردىكا
حفظ الصغار صحة مما وجب
وفه وأذنه بالقل *
حتى تزيل النار منه الداء
حتى يزول الداء مما فيها
والطفل والطفلة والصغير
منظف للجسم في الصيف
إذا أراد حيث لا يخشى ردى
ولا تطع من أكلوا ضروبا
يرد الأحشاء حتى تخمدا
وشبهها على الأذى معكوفه
التلج يروى إنهم جهال
والحضر ما تهواه غير والله
فهل تحب أن تكون في لظى
وشبهه يرض مثلها كالسمر
كالردن والقباب والأعطاف
لمصّ ریح العرق للعروف

كناك أما كنت في عراء ليلا غص الصوف بالقطاء
ومن يكن ذا عرق في السيف فشرب مثلوج له كالسيف
وكل تيار من المسواء بدعوه للبأساء والضراء
جمال الله في هذا اللقاه

يا الله ! خلقت آدم وبنه يديك وقلت لإبليس «ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي» الخ ، فأنت مخلقك له يديك شرفه وعظمته ، وهذا الشرف وهذه العظمة ظاهرة واضحة في التكاليف التي كلفته بها ، فلم يقف التكليف عند القرائن التي نزلت بها الأنبياء بل خلق الله للإنسان بإحدى يديه للنور والهواء والجمال والنجوم والحيوانات النافعة ، وهكذا النباتات المثمرة ، وخلق بإيد الأخرى اللوت والحيوانات القاتلة الفاتكة فمن السباع إلى الذباب والناموس والحيات والعقارب إلى الذرات النافكة بالأجسام إلى ما وراء ذلك .

وهكذا نرى النبات يفتك به الكلاب والحشائش القاتلة له . يتأمل العاقل في هذه الدنيا فيرى هذا الإنسان يحوط بإحدى يديه النحل النافع لإلقاح الأشجار ويقتل بالأخرى أنواع السباع والحشرات وهكذا يحافظ بإحدى يديه على القمح والقطن وأمثالهما ويقطع بالأخرى الحشائش والكلاب .

اللهم إن نظرنا في هذه الأرض جعلنا نفهم أنك خلقت الإنسان ليكذب ويكفر ويهدم ويقوى على السير في عالم آخر ، وإلا فلماذا جعلت الذباب ينمو ونحن تقائله ومحيط بنا من كل جانب ونحن والحوادث الجوفية نبيده وهو لا يبيد وتقائله وهو لا يزال في الوجود ، إنك بذلك فتحت بصر الإنسان وعلته التبيان وجعلته لا يهدأ ولو أنه هدا لأحطته بالمهلكات . كل ذلك من رحمتك لأنك تريد رقي عقله وقواه ولا رقي لهما إلا بالجهاد في جلب النافع ودفع الضار ، وضعف النافع كالنحل وقوة الضار كالذباب يجعلانه دائما يجاهد لتقوية الأول وإضعاف الثاني ، إنك يا الله بهذا تريد نقلنا إلى عالم غير هذا تكون الحياة فيه على مقدار ما نلتنا من القوة وما كسبنا من العلوم ، فالتحرر والخير والذباب والنحل جعلتهما لنا رحمة كما أمرتنا أن نقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، انتهى للقصد الثالث من القسم الأول .

(المقصد الرابع)

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ * إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْمَرْشِيِّ يَغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ * ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا مِهَالًا اسْقَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ

كُلُّ الشَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَمَلِكُمْ تَذَكَّرُونَ * وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ
نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ
يَشْكُرُونَ *

التفسير القرآني

يقول الله تعالى (هل ينظرون) هل ينتظرون (إلا تأويله) أى إلا ما يشعرون إليه أمره من تبين صدقته
بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد (يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل) تركوه ترك للناسى (قد
جاءت رسل ربنا بالحق) أى قد تبين أنهم جاءوا بالحق (فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا) اليوم (أو رد)
أو هل زدنا إلى الدنيا وجواب الاستفهام الثانى (فنصل غير الذى كنا نعمل) ثم قال تعالى (قد خسروا
أنفسهم وصل عنهم ما كانوا يفترون) بطل عنهم فلم ينفعهم . ولما كان ما تقدم من محاورات أهل الجنة والنار
وأصحاب الأعراف ونعيم الجنة وعذاب النار راجعا إلى اليوم الآخر للرب على الإيمان باق و الكفر به وكان
التوحيد أجل ما بين عليه العالم للشاهد المحسوس أعقب ما تقدم بما يذكر بهجاء السموات والأرض الدالة
على الله . فذكر خلق السموات والأرض والستوى على العرش وتسخير الشمس والقمر والنجوم وإرسال
الرياح والسحاب وإنبات النبات المختلف الثمرات ، وهذه الآية أشبه بآية « إن فى خلق السموات والأرض »
للذكورة فى سورة (البقرة) وكأنها خلاصتها فارجع إليها هناك ؛ ثم قال تعالى (إن ربكم الله الذى خلق
السموات والأرض فى ستة أيام) أى فى ستة أوقات (ثم استوى على العرش) والعرش فى اللغة يطلق على
السرير وعلى ما علا فأطلق ، وسمى مجلس السلطان عرشا لعلوه ويكنى عن العز والسلطان والملكة بالعرش
على الاستعارة والمجاز يقال فلان نل عرشه بمعنى ذهب عزه وملكته وسلطانه ، وثم للترتيب المذكور وإلا فافه
عز وجل مستول على الملك أزلا وأبدا يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ولذلك أخذ يبين الاستيلاء على
العالم العلوى فأبان أعظم الأعمال التى تراها من ذلك الاستيلاء وهو تسخير الشمس والقمر والنجوم وبهذه
الحركات التخيرية تكون جميع العوالم التى بها حياتنا وبقاؤنا فلذلك قال (ينشى الليل النهار) يعطيه به
فيحتمل أن النهار ينشى الليل وأن الليل ينشى النهار ، ولا جرم أن كلا منهما يعطى الآخر بسبب جريان
الأرض حول الشمس فالوجه المقابل للشمس مضى ، والمعطى عنها مظلم (يطليه حثيثا) يقبه حال كونه سريعا
كالطالب له لا يفصل بينهما شيء ، والحديث فيل من الحث (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره)
بقضائه وتصريفه بمقتضى استيلائه على الملك ونصها للمظف على السموات ونصب مسخرات على الحال ، ثم
لخص ما تقدم كله فى هذه الجملة فقال (ألا له الخلق) راجع لقوله « إن ربكم الله الذى خلق السموات
والأرض الخ » (والأمر) راجع لقوله « ثم استوى على العرش وسخر الخ » فالخلق وأمر الكائنات يديه
كما قال « ينزل الأمر بينهن » ثم قال (تبارك الله رب العالمين) تمجد وتمعظ وارتفع ، فانظر كيف ذكر أنه
خلق السموات والأرض فى أوقات ستة بحيث أدار المادة الطليفة للحياة (بالأنبير) وحركها فى أزمان قديمة
المهد جدا فكان منها شموس وقمر ثم دارت الشموس ومنها شمسا آلافا وآلافا من السنين فانفصلت منها
الكواكب السيارة ومنها أرضنا واتصل القمر من الأرض ثم كان الممدن والنبات والحيوان والانسان فهذه
هى الأيام الستة التى خلق الله فيها السموات والأرض ، فأولها الشمس ، فالأرض ومعها السيارات ، فالمدن
والنبات ، فالحيوان ، فالانسان . هذه هى الأيام الستة التى خلق الله فيها عالمنا .

لطيفة

اعلم أن لفظه (يوم) قد وردت في علوم البابليين والآشوريين التي عثر عليها العلماء في المكتبة الملكية بقصر (آشور بانينال) ففي هذه الخزانة وجدوا أنهم قسموا منطقة البروج إلى اثني عشر قسما وهي البروج وقسموا الدائرة ٣٦٠ درجة وهكذا الدقيقة والثانية الخ والأسبوع سبعة أيام ، ويقولون إن تنهقر الاعتدالين في زمان (٤٣٢٠٠ سنة) ويسمون هذه المدة يوما من الأيام العالمية ، وجعلوا السنة الشمسية التي قدرها ٣٦٥ يوما وربع يوم ثانية واحدة من السنة العالمية ، ثم هم يقسمون اليوم العالمي إلى اثني عشر ساعة ، فتدبر نجد أن اليوم قد جاوز عشرات الألوف من السنين وهو اليوم العالمي . فالיום في الآيات عبارة عن أزمان متطاولة نسبيها أياما عالمية لأياما معتادة فتعجب ، ولترجع إلى مقام التفسير فنقول :

وهنا نحن أولاء نشاهد الأمر يجري بين السموات والأرض فترى الليل ينشئ النهار والنهار يغطي الليل وترى القمر والنجوم مسخرات جاريات بحساب لاهرية للكوكب أن يسير على غير نظام ، فإذا كان هذا الخلق له وهذا الأمر له أفلا يكون مستحقا للعظيم والإجلال فيقال « تبارك الله رب العالمين » من العوالم السفلية والعوالم العلوية ، وإذا كانت هذه صفات الله وأنه خلق هذه السموات واستوى على عرشها وسخرها ونظمها فلم يبق إلا أن يتوجه له عبيده بالدعاء فلذلك أعقبه بقوله (ادعوا ربكم تضرعا) تذللا من الضراعة وهي الدل (وخفية) سرا (إنه لا يحب للمتدين) المجاوزين ما أمروا به في الدعاء وغيره بأن يرفعوا أصواتهم ونداءهم وصياحهم في الدعاء وبأن يسألوا منازل الأنبياء . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سيكون في هذه الأمة قوم يستدون في الطهور والدعاء » أخرجه أبو داود . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا أنه قال « سيكون قوم يستدون في الدعاء » وحسب الله أن يقول : اللهم إني أسألك الجنة وما قرب منها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل « وهل الأفضل إظهار العبادات أو إخفاؤها ؟ رأيان رجح الأول من نظر إلى الاقتداء بالعابد ورجح الثاني من خاف عليه الزيادة ، وقال قوم الأول في الفرض والثاني في النفل كالصلاة والزكاة فرضا ونفلا .

ولما أكل الكلام على خلق العالم العلوي والسفلي وأنبه بوجود الدعاء والتوجه لله بالقلب مع الخشوع والتضرع وحرمة مجاوزة الحد وأمر بالخشوع والتذلل لمن هو المستوى على العرش المدير للأمر عند ذكر العالم العلوي ، أقول لما أكل ذلك كله أمر بإصلاح الأرض وعدم الفساد فيها قبل أن يبدأ بذكر الرياح والسحاب الجاريات حول الأرض الساقيات المزراع الثابت بسببها النبات ، وأخذ يصف البلد الطيب والبلد الذي خبت ، فانظر كيف جعل عند كل عالم ما يناسبه فإذا نظرنا للاستواء على العرش دعونا وخررنا ساجدين وان نظرنا إلى نظام أرضنا وسحابها ومطرها ورعدها وبرقها ونباتها وحيوانها وجب أن نكون عادلين صادقين فسنسى لرقى الأمم حولنا ونظام حكوماتنا والانتفاع بخيرات هذه العوالم المحيطة بنا فهو كما دبر ملكه وهو مستو على عرشه مجر كواكب منظم لعوالمه ، أمرنا أن ندبر ملكتنا بالعدل ونقوم بالوسط وإلا كنا مفسدين في الأرض مهملين غير شاكرين ، وانظر كيف أمرنا هنا أن ندعوه خوفا وطمعا لأن الأمر في العوالم الأرضية غيره في العوالم السبائية ، ففي الأول لا عمل لنا في إدارة السموات فلذلك برانا مضطرين إلى الخشوع والتذلل لمجرى الكواكب فرحين بأعماله ، وفي الثاني برانا ندعوه خوفا من العقاب وطمعا في الثواب لأن المقام مقام عمل لا مقام علم ؛ فبالعلم بما في نظام الملك خشعنا ، وبالنظر للعمل في أرضنا دعونا خاضعين نارة وطامعين أخرى لأننا مكلفون بالنظام والقيام بالعدل واستخراج المنافع من عالمنا وهذا قوله تعالى (ولا تحسدوا في الأرض) بالظلم والشرك والمعاصي والدعوة إلى الشر وإنلاف النفس بالقتل أو غيره وإفساد

الأموال بالنصب والسرقة وأخذ من القير بالحيل وإفساد العقول بالخر والأنساب بالزنا وانساد الأديان بالكفر واعتقاد البدع والأهواء (بعد إصلاحها) بالعدل والإيمان والطاعات والدعوة إلى الخير ونظام الأمم والأفراد وحفظ الأعضاء والعقول وإرسال الرسل بالاحسان ومكارم الأخلاق (وادعوه خوفاً وطمعا) ذوى خوف من الرد لتصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطمع في إجابته تفضلاً واحساناً لفرط رحمته ، ثم رجح جانب الطمع بالرحمة فقال (إن رحمة الله) شئ (قريب من الحسين) فمن أحسن عمله أو خلقه توات عليه الرحمت ، ومن أتقن صناعته أو زراعته أو عاشر الناس بالمعروف نشاهد الأقبال عليه يكون على قدر إتيانه ، وكذلك الذين صبروا وعبدوا وصدقوا في العبادة فهؤلاء تتوالى عليهم الرحمت والرحمة في كل عمل بحسبه ، فإن كان جسيماً كانت الرحمة من قبيله وإن كان روحانياً كانت الرحمة من قبيله ، فالرحمت على قدر الإحسان ، إن الله حكيم في إبطائه يعطى على مقتضى الاستحقاق ، فإذا لم يحسن السلون صناعاتهم أقبلت إليهم الأم الترية فأذاقهم المذاب الهون ، وإذا جهلوا الزراعة والتجارة ولم يحسنوها أقبل عليهم أهل الترب وأهل أمريكا وأزلوا بضائعهم في أسواقهم وباعوها منهم وأخذوا ماملكت أيديهم لأنهم لا يحسنون صنعا ، ولا يقيمون للعمل وزناً فيصبحون أذلاء فقراء يتخطفهم المحسنون ، وفي الأثر « إن الله يحب المتقن عمله » ثم أخذ يصف الرحمة العامة فقال (وهو الذى يرسل الرياح بشرا) جمع بشيرة وهى التى تبشر بالمطر : أى مبشرات ، وقرى (نشر) مخففة نشر كرسول ورسول جمع نشر كرسول ورسول : أى ناشرات للمطر (بين يدي رحمة) فقام رحمة بين المطر ، فإن الريح تهب حاملة قطرات الماء من البحار فتحفظها الجبال الراسيات من الجائنين فلا تزال هابة حتى تصل إلى الأماكن البعيدة فتسقى الزرع ، قال تعالى (حتى إذا أفلت) حملت (حجاباً تقالاً) بالماء ، وإنما جمعه لأن السحاب بمعنى السحاب (سقناه لبلد ميت) أى لأجله أو لإحيائه وسقيه ولن يكون ذلك إلا بحفظ الجبال للهواء والسحاب من الجائنين (فأزلنا به الماء) بالبلد (فأخرجنا به) بالماء (من كل الثمرات) من كل أنواعها (كذلك نخرج الموتى) أى كما أحيينا البلد الميت وأخرجنا من كل الثمرات نخرج الموتى برد الأرواح إلى أجسادها بعد جمعها وتنظيمها (لعلمكم تذكرون) فتعلمون أن من قدر على ذلك قدر على هذا (والبلد الطيب) الأرض الكريمة التربة (يخرج نباته بإذن ربه) بمشيئته وتيسيره حيث يكثر النبات وينزر نفعه (والذى خبث) كالأرض السبخة والحجرية والطبشيرية والجيرية وما أشبهها (لا يخرج إلا نسكدا) قليلاً عديم النفع ونسبه على الحال وتقديره ، والبلد الذى خبث لا يخرج نباته إلا نسكدا ؛ فهكذا الناس كالأرض لأنهم منها ، فمنهم من هم كالأرض الطيبة فهم يملون ويعملون ، ومنهم من هم كالأرض الخبيثة فهم لا ينتفعون بالعلم ولا الدين ، وفي الحديث « إن مثل ما بشرى الله به من العلم والهدى كمثل النيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبات الماء فأنبثت السكلاً والعشب الكثير وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله تعالى بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله عز وجل وقدمه ما بشرى الله تعالى به فلم يعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله تعالى الذى أرسلت به » أخرجاه في الصحيحين ، ثم قال الله تعالى (كذلك نصرّف الآيات) أى مثل ذلك التصريف نصرّف الآيات زوّدها ونسكررها (لتقوم يشكرون) نعمة الله وهم المؤمنون ليفكروا فيها ويصبروا بها وليقوموا بحققها فلا يفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها بل عليهم أن يكونوا صالحين مصلحين عادلين فهؤلاء هم الشاكرون ، انتهى التفسير اللفظى لقسم الأول من (سورة الأعراف) وفيه عشر لطائف :

[الطيفة الأولى] قوله تعالى « فلا يكن فى صدرك حرج منه » .

[الطيفة الثانية] « وكم من قرية أهلكناها الخ » .

[اللطيفة الثالثة] « الوزن والميزان » .

[اللطيفة الرابعة] نظام هذا القسم من السورة مع ذكر فرعين : وما قوله تعالى « يا بني آدم قد أنزنا عليكم لباسا حلجا » وإيضاح ماضى من قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

[اللطيفة الخامسة] قوله تعالى « كما بدأكم تمودون » وقوله تعالى « ادخلوا في أم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار الخ » .

[اللطيفة السادسة] لانفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة الخ « وقوله تعالى « إن الله حرّمهما على الكافرين » .

[اللطيفة السابعة] « لا تكلف نفسا إلا وسعها » .

[اللطيفة الثامنة] « وتزعنا ما في صدورهم من غل » .

[اللطيفة التاسعة] أصحاب الأعراف وكيف يعرفون أهل النار وأهل الجنة بسيماهم ؟

[اللطيفة العاشرة] « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض الخ » .

﴿ اللطيفة الأولى في قوله تعالى « فلا يكن في صدرك حرج منه » ﴾

لقد شرحت هذه اللطيفة في أول السورة وأثبت كيف كان أول هذه السورة مؤذنا بأن الانذار والإرهاب حاصل فيها بهلاك الأمم العابرة وذلك تذكرة للمؤمنين وإنذار للكافرين . ولقد تبين هناك كيف حلّ هذا الوعيد بالأمم الإسلامية لما قست القلوب وضلت العقول وجهلت الأمم وخربت الدم وتقاتل الرؤساء وجهل اللردوسون فلم يعرفوا كيف يؤذونهم وقوله تعالى « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » هو وما قبله من قوله « فلا يكن في صدرك حرج منه » وما بعده من قوله « وكم من قرية أهلكناها الخ » من تمام الكلام في آخر سورة (الأنعام) . ألم تر في آخرها قوله تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل » وفيه أيضا « يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها الخ » ولا تطيل إيضاح هذه اللطيفة فقد استوفيت في أول السورة .

اللطيفة الثانية « وكم من قرية أهلكناها الخ » قد وضحت في تفسير أول السورة

اللطيفة الثالثة « الوزن والميزان »

قد ذكر بعضه في هذه السورة وقد تقدم في آل عمران وفي البقرة وفي الأنعام في مواضع شتى ، ولكن لا بد من ذكر عجيبة جاءت في بعض الجرائد وهي تبين أن الأرض تنفس كما يتنفس الناس وتنفسها في أوقات محددة فهي في نفسها موزونة أيضا فتعجب .

تنفس الأرض

هل تعلم أن الكرة الأرضية (تنفس) مرة في نحو كل مئتي سنة وأن تنفسها هذا ينجمها على الأرجح من الانفجار لأن الغازات تتمدد في باطنها باستمرار . وعند ما تنفس تراها تنقلص من نواح وتتمدد من نواح أخرى فينشأ عن ذلك خلل صغير في ضبط اللواقيت لم يقبته إليه اللئام إلا منذ عهد قريب ؛ فقد انفق في أثناء حرب (البوير) أنهم أنبأوا بقرب وقوع خسوف كلى ولكن ذلك الخسوف لم يقع إلا بعد الوقت المعين بسبع نوان . وحدث أيضا بعد ذلك بيض سنوات أن خسوفا آخر تأخر عشرين ثانية عن ميعاده فدهش علماء الفلك في العالم أجمع وشرعوا يبحثون عن السبب حتى انجلمت لهم الحقيقة وعرفوا أن تقلص الأرض وتمدها بسبب تنفسها مما سبب ذلك فأخذوا يحسبون حساب أرصادهم ويضبطون اللواقيت .

اللطيفة الراجعة في نظام هذا القسم من السورة وفي قوله تعالى « يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباسا الخ »
وايضاح ماضى من قوله تعالى « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا الخ »

إن في نظام هذه السورة ولا سيما هذا القسم منها لعبرة لنا وتفهميا . انظر كيف ابتدأ السورة بالإخبار
بالأم البائدة والقرون الخالية ومن فاجأهم العذاب ليلا أو نهارا وهم يقولون « إنا كنا ظالمين » وكيف أتبعه
بأن لليزان حق والنظام صدق فمن غلبت حسنة فهو الفائز ومن غلبت سيئاته فهو المهالك . ثم أخذ
يقول مامناه : أيها الناس إنا مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش فكفرتم النعمة وأبيتم الفضيلة فكان
شكركم قليلا وكفركم كثيرا . ثم أخذ يصف ما كان من إبليس من براهين للفاطلة والحجج السفسطية
والكبر الجاهلى . وكيف أصبح بعد أن ضل وغوى موسوسا لآدم وبنيه فخرج الآخر من الجنة كما سقط
الأول من الصورة لللكية ومن السموات العلية ثم تاب آدم ولكن إبليس لا يزال شيطانا رجيا .

وكيف جعل سبحانه هذه القصة لنا عظة واعتبارا لم يدع جزءا من أجزائها إلا جعله درسا نقرؤه وعلمنا
تفقه وحكمة تتلوها وآية نعلقها وعبرة ننتبه بها . ألم تركيف وعظ بنى آدم ألا يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم
آدم من قبل . وكيف حذرهم من نزع لباس الفضيلة والأدب بوسوسته كما نزع عن أبيهم لباس الجسم للآذى .
وكيف جعل ذلك عبرة للعرب الذين حرموا اللباس في الطواف بوسوسة الشياطين ودعواهم أن هذا قرابة
لرب العالمين . وكيف كان أمثال هذا من مثار البدع والشكوك والأهواء منها عنها داخلا في حوزتها جاريا
على منجها . وكيف كان تحريم الحلال والتحرّج من طيبات الرزق من خدع الشيطان . وذلك كله مبني على
وسوسة إبليس لآدم ومشابهة ومماثل . وكيف كان سقوط المسلمين اليوم في الخسيف والجهالة السماء
والضلالة العوراء والنوم العميق والجرم العظيم مشبا لما حصل لآدم من الوسوسة بل لما حصل للعرب الجاهلية
الذين ظنوا العرى قربي إلى الله في الطواف كما ظنّ المسلمون اليوم ترك العلوم والمعارف والصناعات وترك حب
الأموال على غاربها من القرابات لدى الجلال والإكرام وكما كثر من يدعو إلى ذلك من بعض رجال الصوفية
الذين يملكون أتباعهم مناهجهم ويفهمونهم أن طريقهم خير الطرق بل ربما كفروا ببقية المسلمين .

ولعمري إن هذا هو الداء النماء والأمر العظيم . وسوس الشيطان لعرب الجاهلية فأعراهم في الطواف
ووسوس لمسلمى الشرق والغرب بقول بعض سفار العلماء وبعض شعوخ الصوفية الذين هم ومن قبلهم
من شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا أن العلوم حرام وما أشبه ذلك من الضلالات
والخرافات التي علقت بالأذهان فليس يخرجها إلا نشر الحكمة والعلم والرفان بين أم الإسلام .

حكاية

لما حضر إلى مصر العالم (وان وبن كين) من مدينة تاينتسن الذي أشرت إليه سابقا قال :
لقد سبقنا الوثنيون وقالوا للمسلمين أنتم مخرفون وليس عندكم إلا الحيض والنفاس والجهل والوسواس
فأنتم لا تحفظون إلا علم الطلاق واليراث والبيع والهبة والقرض وما شاكلها من العلوم ، فأما هم فإنهم يقرءون
العلوم بأنواعها من طبيعة وفلك وينقلونها عن أهل أوروبا . فأما العلماء في الإسلام هناك فإنهم يصدون الناس
عن سبيل العلوم ويقولون إنها حرام ودين الإسلام لا يوجب أن نحب الأوطان ولا أن نعلم شيئا عن
بنى الإنسان ولا أن نفكر إلا في الركعات والسجودات والحج والزكاة وما عدا ذلك فإنما هو حديث خرافة .
وقد كان كتاب [القرآن والعلوم المصرية] يطبع إذ ذاك فترجمه وكانت سورة (القامحة) من هذا التفسير
تطبع فترجمها وأرسلها إلى بلاده . أفليست هذه الحكاية دلالة أن الشيطان أعرى المسلمين من العلوم كما
أعرى الجاهلية في الطواف .

رأى القسر

والذي أراه أن أم الإسلام قد دخلت فيها أم وأدخلت على عقائدها ما أصبح عالقا بالإسلام وقواعده حتى أصبحوا كالبوذية في الزهد ودخل في الصوفية الصحيحة ما شوهها من الفواشى القريية ، فإن للتأخرين من الصوفية أحدثوا بدعا أبعدت أصولهم عن الدين وصاروا هم قادة الأمم الإسلامية لاحتلال الأمم الإفرنجية اللهم إلا الصالحين منهم الصادقين الفضلاء أولئك هم الصالحون .

ثم انظر كيف ذكر الناس بأنه أنزل عليهم لباسا من الحرير والقطن والكتان وقال إن ذلك من آيات الله لهم يذكرون . نعم إنه من آيات الله ، ألا ترى أن شعر القطن وحب الشعير كلاهما مكون من مادة واحدة . ولما اختلف التركيب اختلفت الصور ، فالبناسا في الشعير ٣١ في المائة تقريبا وفي القطن ٥ في المائة والسودا ٤ في المائة في الشعير و ٤ في المائة في القطن إلا قليلا والجبر ٢ في الشعير و ١٥ في القطن والنعيسيا ٩ في الشعير و ٩ إلا قليلا في القطن وحمض السلفوريك ٣٤ إلا قليلا في الشعير و ٨ في القطن وحمض الكبريتيك ٢ في الشعير و ٨ إلا قليلا في القطن والسلكا ٢٨ إلا قليلا في الشعير و ٦ في القطن والكور أقل من واحد في المائة في الشعير و ٦ في القطن وأوكسيد الحديد نحو ثمن الواحد في المائة في الشعير وهو معدوم في القطن . هذا صنف واحد مما نلبسه وهو القطن قد وازناه بالشعير وكلاهما يزرعان في حقولنا .

عجائب الجذور الأرضية النباتية

فمنعجب كيف كان نبات القطن ونبات الشعير قد أعطى كل منهما فتحات صغيرة في الجذور وهذه الفتحات قدرت بقدر بحيث لا يدخل في فتحات جذور القطن ما لا يصلح لللبس ولا في فتحات جذور الشعير ما لا يصلح للأكل .

هل يعلم الناس ذلك ؟ وهل يعلم الناس أن فتحات جذور الشعير لا تصلح لإدخال شيء من مادة الجبر إلا نحو سبع ما تدخله فتحات جذور القطن ؟ ولو أن جذور الشعير أخطأت فتحاتها فأدخلت من الجبر فوق سبع ما أدخلت جذور القطن لم يكن الحب شعيرا بل كان شيئا فاسدا . فبالت شعري ما هذا الحساب ؟ ما هذا النظام ؟

أيها المسلمون ! هل كانت جذور القطن علامة دراكة فوزنت البناسا بحيث كان ما أدخلته في جرم شجرة القطن يباع نحو ربع ما أدخلته جذور الشعير ؟ عجب لهذا النظام ! أيها المسلمون هذا هو دينكم هذا هو الذي عناء الله في القرآن .

يقول الله تعالى « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سواكم » فهذا هو اللباس . وكيف يتأدى الله بن آدم ويقول قد أنزلنا عليكم لباسا وهو لا يتأدىهم إلا في الأمور العظيمة . لماذا ناداهم ؟ ناداهم ليقول لهم « ذلك من آيات الله » ولقد عرفت في هذا المقام كيف كان من آيات الله بالعلوم الكيماية التي تقدم ذكرها .

إيضاح قوله تعالى « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سواكم » أيضا

ذكرى أيام الشباب وطلب العلم

أذكر في هذا المقام ما كنت أفكر فيه أيام الشباب في نحو سنة ١٣٠٠ هجرية ذلك أنني كنت نلت في الأزهر قسطا من العلم وهو النحو والفقه وشيء من التوحيد .

ومعلوم أن المادة جرت أن الصبي يحفظ القرآن صغيرا بلا عقل ولا فيكر ولا فهم ، فما أناذا كانت هذه حالي ؟ ففي تلك الأيام أيام أن دخل الإنجليز مصر انقطعت عن الأزهر ردها من الزمن وهو ثلاث سنين

كنت في خلالها ألقى متاعب ومرضا ومشاق ، وفي الوقت نفسه كنت أقوم بأمر الأسرة وهناك تجلت لي هذه الحياة بمظهر لا يقنى لي وصفه الآن وقد وصفته في كتابي للسمى (التاج الرصع) وهو منتشر بالعربية واللغة الأوردية بالهند واللغة القازانية بالروسيا ولكن الذي يهمني الآن ما يناسب هذه الآيات فأقول :

لقد كنت أصوم بعض الأيام وأصلي بالليل وأفكر في أكثر الأحوال في هذا الوجود وفي صنائع العالم وما الدليل عليه وهل العالم منظم وإذا كان منظما وعرفت ذلك نلت كل مطلوب من حياتي . فليفكر الذكي في موقفى لاعلم عندي ولا علماء حولي ولا كتب تهديني ولا مدارس ترشدني ولا أعرف إلا علم التوحيد وعلم التوحيد بصورته في البلاد الإسلامية مبعده عن الحقائق إلا قليلا ، أخذ ورد القرآن في ناحية والناس في ناحية ، وكنت أقول هل القرآن يترك نظام هذه الدنيا ؟ وهل ديننا قاصر على هذه للشاغبات في علم التوحيد ؟ وكيف يكون دين الفطرة ؟ فسمعت أن أقرأ القرآن بحقل في الصلاة لأنى كنت أردد هذا البيت :

وصلاة الليل مساقمها فاذهب فيها بالقهم وجي

وكثيرا ما كنت أصلى ليلا وأعمته قراءة في صلاة الليالي أشهرها لا أنذكر عددها الآن وها أنا ذا وصلت إلى ما أريد الآن ، وذلك أنى ليلة كنت أقرأ في الصلاة هذه الآيات « يا بني آدم قد أنزلنا عليك لباسا يوارى سواتكم وربشا » وكنت كثيرا ما أكرر الآية عشرات اللرات في نفس الصلاة مستحضرا المعنى فأهيجني معنى هذه الآية وأدهشنى كيف يوافق ما أراه في حقولنا . نحن نزرع الذرة والقطن بجانبه ، القطن لللبس والذرة والتمح للمآكل .

عجبا ذرة تؤكل وقطن يلبس كانت هذه الآراء تهجس في نفسى وأقول إن في هذا القطن وفي هذه الذرة التى في حقولنا بمصر لسرا يدهشنى أن ألبس من نفس الحقل وآكل منه . وكيف يكون هذا الطين مخرجا لنا غذاء ولباسا . أهذا الطين يتحول ملبسا ويتحول غذاء يهضم وهكذا كانت هذه المعاني لانفارقنى من وجهين : وجه الغاية منهما وهى ملابسنا وما كنا ، ووجه التركيب في الحلقة : أى إنى أقول كيف اتفق أن الأرض صالحة لأن يتحول طينها إلى قطن وكتان الخ تلبس على الأجسام وإلى طعام وغذاء ، ثم كيف ظهر أن هذا التحول لللبس وللغذاء مناسب لحياتنا فأنا في دهش من هذا الوجود ثم أعود فأقرأ الآية في الصلاة فرحا مندهشا كثير التعجب كثير الحسرة على جهالتى والحزن على نفسى للسكينة التى لا تجد لها معلما يرشدها ولا هاديا يهديها فبرها كيف تركب هذان النباتان وما الأجزاء الداخلة فيهما .

وهكذا تمرّ الشهور تلو الشهور وأنا على هذه الحال وكنت لا أجد محيصا من هذا إلا التضرع لموجد هذا السكون ليلا ونهارا أن يرجعنى إلى الجامع الأزهر فأجاب الدعاء ووصلت لطلب العلم مدة كافية ثم دخلت (دار العلوم) فدهشت أيضا إذ وجدت العلوم الطبيعية والفلكية هى التى كنت أبحث عنها وأنا أصلى حتى ضج إخوانى الطلبة من فكرتى وتوجهوا إلى أستاذنا للرحوم الشيخ حسن الطويل وقالوا إن (طنطاوى) متهوس في هذه العلوم التى أتى بها النصارى وهى كلام لا طائل تحته فأجابهم قائلا (دعوه يبحث عن ربه في سمواته وأرضه دعوه دعوه) فكنت إذ ذاك أرى أن ما طلبته في الحقول وفي الصلاة هو عين ما يدرس في المدارس في العالم الإنسانى كله .

أفليس هذا الذى ذكرته لك أبها الذكى يوجب على أن أوضح للمسلمين أرب القرون للتأخرة في الأمم الإسلامية كانت في نوم عميق وأن الدين الإسلامى هو أمثال ما في هذا التفسير . أليس مما يؤلمنى ويوجب الحسرة والأسى أن أرى أمما تتبعها أم يتلاحقون ويحيون ويموتون وهم يقرءون وأكثرم لا يحقلون؟..

ها هي ذه حقيقة الإسلام . حقيقة الإسلام ما جاء في نحو هذا التفسير . ذكرت لك أن فطرة الإسلام هي مثل ما اتفق لي فهل من المقول أن يكون هذا دين أضعف الأمم قوة .

اللهم إني أبرأ إليك من السكتان وأعلم أني محاسب على كتمان هذه الحقائق بل فوق كل ذلك من اطلع على هذا التفسير وشاركني في هذه الحقائق فهو مدبر ومعاقب ومعذب في الدنيا والآخرة إن لم يفعل ما فعلته أنا من بثّ الفكرة بين أمتي على قدر إمكانه ، وليعلم أن الله سبحانه وفوق ذلك يرى إكراما وإجلالا واحتراما وعظما وحبا وودا .

أما مسؤل عن نشر هذه الآراء ، وأنت أيها القارئ المشارك لي فيها مسؤل . كيف يكون دين الإسلام العلوم التي بها ارتقت أوروبا وأمريكا والاسلمون لا يعلمون ؟ علىّ وعليك أن نعمم الفكرة بين الأمم التي نعيش فيها ، وهذا التفسير اليوم يقرأ بين يدي المسلمين في أقطار الإسلام ، فإذا ذكرت قومك بما قرأته فيه فلتعلم أن إخوانك في الأقطار الأخرى يذكرون قومهم بما يقرءون فيه أيضا . واعلم أن هذه الفكرة ستم سريما وسيتم ما أنبأتك عنه وسيكون في الإسلام جيل وأجيال خير ما أقلت الأرض . فمن هذا النبع فأسق المسلمين وعلى هذا للمهيع فليجد المهتدون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، انتهى .

بهذا فليفسر القرآن . وبهذا وأمثاله فليرتق السلون . تمر قصة آدم على كثير من المسلمين وغيرهم في مشارق الأرض ومغاربها ولكن القرآن يقول قفوا قفوا لاتخطوا أيها الناس ادرسوا بناني انظروه . ألم أقل لكم في أول السورة « والوزن يومئذ الحق » أنا واحد ووزني واحد في الدنيا والآخرة كما قلت « وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه » فزنوا ذرات اللابس وذرات اللآكل النباتية وتعجبوا من صنع حق تجبوني وتحنوا للحوق بي فلا تعتروا بالأرض ومن عليها .

ولما كان مقام اللبس ربما يصعب عليكم ذكرت مباحثه بعد كلام الأرض والنبات والبلد الطيب والبلد الحبيث واختلاف النبات تبيانا لما ذكر من اللابس النباتية في القصة الآدمية « والله هو الولي الحميد » وهنا نذكر الفرعين لهذه اللطيفة .

الفرع الأول إيضاح « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا الح »

[تفصيل معنى (عليكم) في قوله تعالى « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يوارى سواتكم الح »]

فقوله تعالى « عليكم » يفيد تخصيصه ببني آدم وهنا ينظر في صفتين وهما :

(الصف الأول) أسد . نور . طير . (الصف الثاني) الإنسان .

هذان الصفان تراهما في الأرض وفي الجوّ ها أنت ذا ترى الطير له ريش يقيه غوائل (القيظ والزمهرير) وترى الأسد والثور كل منهما قد كفاه ماله من جلد وما عليه من أشعار . كفاهما الله وكفى غيرهما من دواب الأرض حتى الحيات في أجحارها والسمك في اللاء والحشرات في الحلاء . كل هذه كفاهها ما خلق لها من فلوس على السمكات ووقايات مختلفات .

أما الصف الثاني فهو أمر عجب أقول أمر عجب لأنني نظرت وما أعجب ما نظرت ! هذا الإنسان خلق عارى الجسم رقيق البشرة قلّ شعر جسمه فماذا صنع الله له ؟ صنع له نظاما آخر وإليك موادّه :

(١) أدخر له في الأرض حنما . (٢) وجعل قوة الكهرباء . (٣) وبذر القطن .

(٤) وجعله واقفا على رجلين . (٥) وله يدان تعملان . (٦) وله عقل يفكر .

(٧) فصرف أن القطن والسكتان والأوبار والأشعار والأسواف ووقاية له .

(٨) زرع القطن . (٩) جعل الله للقطن قوة بها ينبت مرة أخرى .

(١٠) استعمل الكهرباء والقلم في إدارة الآلات لسقيه . (١١) وهكذا حلجه .
 (١٢) وقوله بالتجارة . (١٣) وغزله . (١٤) ونسجه . (١٥) وخاطه . (١٦) ولبسه
 هذه ملابس الإنسان من تيل وقطن وغيرها وكذا الحرير تعاون عليها الماء والأرض والحيوان
 والكهرباء والقلم . فانظر للإنسان عارى البدن رقيق البشرة كيف اضطر إلى جميع هذه الأعمال ووجد
 كل ما يحتاج إليه فليس بعد كل هذا لينال ما ناله الأسد والثور والطيور .

فانظر لحكمة مدهشة وآية عجيبه حيوان ضعيف جعل له ما يقويه في نفسه بالعقل وفي الآفاق فإننا نجد
 تساعده وهذا هو إيضاح قوله في أول السورة « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا
 ما تشكرون » وإنما قلنا « شكرنا لأننا كثيرا ما نذهل عن هذا الجمال الباهر والنظام المحكم ، إن هذه آيات
 بحروف مكسرة ليقال كيف كان هذا النظام سائدا ولم رأينا الوجود كاملا في خلقه تاما في نظامه ما أجمل
 هذا الإنسان يزرع للمصرى والأمريكى القطن وأكثرهم لا يعقلون إلا ربحه في الثمن أو خسارته ونحوها .

أما كون هذا النوع من الحكمة عجيب وغريب وكيف اختص الإنسان بالعقل وجعلت أعضاء الحركة
 ملائمة للزرع وللغزل والنسج ووافقته العوامل الخارجة كلها وساعدته على إتمام لبعه وكيف منع هذا العقل
 وهذه الأعضاء للطاوعة للعمل عن الثور والأسد والطيور . وكيف رأينا نظاما محكما في كل ما نشاهد من
 هذا الوجود ، فإن الناس جميعا لا يفكرون فيه إلا قليلا من حكاياتهم . هم الذين ترامى على أرائك الحكمة
 متكئين . هؤلاء هم الذين يقرءون هذا الوجود بلا حرف ولا كتاب فيرونه ناطقا بالشمس الشرقة لجلت وجه الأرض ولوتها بلونها الذهبي
 قائلا تضافرت الأدلة وتمكثرت بل أصبحت أشبه بالشمس الشرقة لجلت وجه الأرض ولوتها بلونها الذهبي
 بحيث أصبحت البصائر في ضوئها اللامع أشبه بأعين الخفافيش تهرها الأضواء اللامعة ولا يتجلى لها النور
 إلا في دجئات الليال وظلمات الآفاق .

إن هذا الدرس وحده : أى درس الملابس بل درس الحكمة (الكم) وحدها أى تخصيص الملابس
 بالإنسان في الآية وفي الطبيعة يعطى علما جما وهو الذى عبرنا عنه بالنور الشمسى أن الناس يعرفون وجود
 أنفس الحيوان والإنسان بما ظهر لهم من الحس ومن الحركات ، فإذا فقد هذان من الحس حكنا بأنه ليس
 فيه نفس . إننا لم نر نفسا قط وإنما حكنا على النفوس التى في أجسامنا وأجسام حيواننا بآثارها ، فإذا كانت
 أنفسنا وأنفس حيواننا ما عرفناها بأبصارنا وإنما عرفناها بمقولنا مستدلين بآثارها ، وإذا كان هذا حكنا
 على وجودنا فهذا حكنا بوجود مدير حكيم لهذا العالم ، وإذا كان حكنا على وجود زيد ودابة زيد والطيور
 فى وكره والأسد فى عربته بما ظهر من آثار أرواحهم حكنا لا يشوبه شك فكيف يكون حكنا على هذا
 الحيوان الكبير الذى نعيش فيه وهو المجموعة الشمسية التى رأينا مرسومة مصورة مفهومه فى (سورة الأنعام)
 هذه المجموعة التى نحن وأرضنا جزء منها فيها آلاف وآلاف من الحكم التى رأيناها فى القطن والكتان
 واختصاصهما بالإنسان .

فكل هذه ناطقات شهادات بحكمة نظمت وقدرة بها أبرزت هذه العجائب . إن الشواهد الناطقة
 بالحكمة العاتقة والتدبير المحكم لا عدد لها وأى نسبة بين حيوان عرفته بآثار جسمه وبين منظم الكون
 الذى رأينا له آثارا لا تنتهى ونما لا نحصى .

سهل على عقل الإنسان أن يفهم وجود زيد وحيوانه لأنه صغير فهم الصنير ولكنه قد يصعب عليه فهم
 خالق العالم لأنه عظيم ودلالته لانهاية لها فهيرت بصيرته فصار يبحث عن هذا الخالق فى ظلمات البراهين
 وللناقشات والكتب أن جميع ما نطقت به الأدلة المنطقية والعلوم الوضعية المكتوبة بالحروف اللفظية أشبه

بظلمات الليالي والناس فيها خفافيش ، فأما الدلائل التي عرفتها هنا فهي أشبه بالنهار فغابت عن العقلاء فتأهوا في البيداء .

هذا ما وقر في نفسى عند طبع هذه السورة أثبتت ليكون تبصرة لأولى الأبواب . إن هذا هو الحب والشوق والعشق والفرام والميام . هذا هو اللقام الذى فيه تذوب القلوب جبا وهياما . وهذا هو اللقام الذى يقال فيه إن طلبنا أن نرى نفس الصانع لا مجرد الصنعة وههنا يضمحل جمال الجنات وتختفى أنواع اللذات إلا لذة النظر إلى اللذات الواجب الوجود وهذا مقام الحكماء والأولياء . قال الشاعر :

إذا اشتبكت دموع في خدود نيين من بكى عن تباكى
وكل يدعى وصلاللى ولبلى لا تقر لهسم بذاكا

وهذا هو الفرع الأول من فرعى هذه اللطيفة الرابعة في إيضاح قوله تعالى « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب للسرفين » .

الفرع الثانى من اللطيفة الرابعة

[زيادة إيضاح لما مضى في قوله تعالى « وكلاوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب السرفين »]

لقد تقدم الكلام على جسم الإنسان وتشريحه مرارا في هذا التفسير لاسيا في سورة (آل عمران) ولكن لا بد لنا من جملة وجيزة توضح مجمل هذا البدن ثم تتبعها بجملة أخرى في أطعمته إجمالا وفيها بصر منها زيادة للقائدة فأقول :

إن البدن الإنسانى كله قوامه الهيكل العظمى وأهمه العمود القبرى الذى ينتهى بالجمجمة السكسية للبخ الذى تتفرع فيه أعصاب الحس وأعصاب الحركة ، وفي هذا العمود القبرى ترس الأضلاع اللتحنية للكقونة لما يشبه صندوقا محتوى على القلب والرئتين وتحت هذا الصندوق البطن وفيه المعدة والأمعاء والكبد والكليتان . ثم إن هذا الهيكل يمتد منه الرجلان من أسفل واليدان من أعلى فبالرجلين نسمى لجلب الطعام وباليدين نتناوله ونضمه في الفم وتتناوله الأسنان بأنواعها وتطحنه كما تفعل الطواحين التى صنعها الإنسان ليصلح أن يدخل في المرىء الموصل إلى المعدة فيستقر هناك زمنا ما ويهضم حتى يصلح أن يكون دما .

ولما كانت الآلة البخارية الطاحنة مثلا لا بد لها من وقود هكذا كانت أجسامنا فهذه الآلة الجسمية يجب أن يقدم لها الوقود وما هو إذن ؟ هو الطعام . إن الجسم ليس موقدا توقد فيه النار حقا ولكن فيه الطعام الذى يذفنا بلا دخان ولا نار وينقلب دما يجرى في شراييننا فينتشر من القلب إلى جمجمة الرأس وإلى نهاية أصابع اليدين والرجلين . وما القلب إلا كآلة اللامسة السكسية فهو يجذب الدم إليه ثم هو يدفعه دائما ولن يدوم القلب في حركته التى لا تعيش إلا بها إلا إذا استوفينا شروطا لا بد منها لتلك الدوام فضلا عن الطعام كالهواء والنقى والضوء والرياضة البدنية . إذا تم هذا كله فإن الفضلات لا بد من إخراجها وهى تخرج بالجلد والكليتين والرئتين والأمعاء ، فبالجلد يخرج العرق ، وبالكليتين يخرج البول وبالرئتين يخرج الكربون ؛ أى للذادة الفحمية ، وبالأمعاء تخرج الفضلة الغليظة :

ومعلوم أن الكليتين يأخذ الماء عنهما الحالبان وهما يوصلانه إلى أحد السيلين . إذا عرفت هذا وقت بما يوجب صحة بدنك ومضت الطعام جيدا ولم تر في ذلك أى ضرر فإذن تكون في صحة جيدة ولكن لا يتم ذلك إلا بخمسة أمور وهذا بيانها :

- (١) أن تكون مسرورا بما حولك وبعملك .
- (٢) وأن تكون آراؤك وأمياك موزونة لامضطربة .
- (٣) وأن تكون قاننا بما لديك من أمور هذه الدنيا .

(٤) وأن تكون صابرا عند اللغات والحوادث المزعجة .
 (٥) وأن تجعل لك في وقت فراغك عملا مقبولا لأنك إذا تركت نفسك لتنازعها الأهواء فضلت فأحزنتك فنمت الصحة .

اعلم أيها الحكيم أن الفقير تعينه الصحة على جلب القوت، وإذا فقد الصحة الفنى والفقير فقد فقد السعادة والسرور . فالصحة شرط للسعادة متى صح جسمك نعتت نفسك ونعتت غيرك وكنت سعيدا ، فإياك أن تأكل فوق الشبع مثلا أو تعرض نفسك للبرد أو تأكل ما يضرك ؟ بل عليك بالنظام الذى يشير به الأطباء .
 إن الدم الجارى فى الأوعية الدموية يمرض ما تفقده كما تقدم ؛ فنه يكون العظم والشحم واللحم والظفر والشعر والعين والأذن وما شاكل ذلك ، فإذا اختلفت الأعضاء وجب أن يختلف الغذاء والحيز عماد الحياة وقوامها فإنه يحتوى على مادة اللحم ، والمادة التى تحدث فى الجسم حرارة ومن الأغذية الفاكهة والحضر واللبن والبيض .

ثم إن للملح فى الطعام وبعض للمادن الأخرى التى تدخل فى الأطعمة كلها يتكون منها العظم فكان هذا النوع الإنسانى إذ يميل إلى الملح فى خبزه وفيما يطبخه من الحضر واللحم يعمل لتكوين عظمه وهو لا يعلم لماذا دام هذا الاصطلاح فى الناس .

واعلم أن الناس لما انفقوا على أن يطبخوا ويخبزوا ويغزلوا الطعام لم يكن ذلك عبثا فهذا فضلا عن جعله الطعام مقبولا فى ذوقنا يجعله أقرب إلى الهضم وأسرع دخولا فى الأوعية الدموية .

مناقضات الصحة وموجبات الملل والأسقام

(١) الطباق وتسميه الفرنجة (نوباكو) سموه باسم جزيرة (نوباجو) إحدى جزائر (انتيله) بأمرىكا قد اعتاد الناس تدخينه وحرم جميع الأطباء استعماله وقد شرحنا هذا اللقام فى سورة (البقرة) عند آية الحجر بإيضاح تام ، وكذلك شرحنا مسألة الطعام عند قوله تعالى «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير؟ الخ» فقد أفضنا فى هذا اللقام هناك وبيننا أن أكثر ما اصطلاح عليه الناس أنه حسن هو ضار بهم كالسكر الصناعى للمروف فقد أشار الأطباء بالإكثار من القواكه بدله لأنه ضار وقد عملت بهذا ووجدته حقا . وهكذا مما لانتيده هنا وإنما يزيد أن نشرح مسألة الطباق (الدخان) شرحا أوسع لم نذكره هناك . وإليك مواد أضراره بالصحة السموية وهامى ذه .

إن أكثره (١) يفسد الريق (٢) ويضر حاسة الذوق والشم والبصر (٣) ويضعف المعدة (٤) ويقلل شهوة الطعام (٥) ويهيج الأنسجة الهوائية فى الرئة (٦) ويورث الخفقان فى القلب (٧) ويضعف الأعصاب (٨) ويجعل فى الملح ارتجاجا وتخديرا (٩) ويجعل الذاكرة ضعيفة (١٠) ويضعف القوة للفكرة (١١) وقوة الإرادة (١٢) وربما يحدث الجنون (١٣) وتارة يحدث الرمد فى العينين (١٤) وفى المجموع المسمى بجمل فتورا (١٥) ويبقى الجسم عن النمو .

وقد حله الأطباء كباويا فوجدوا أنه يحتوى على مادة سامة إذا وضع منها خمس نقط فى فم كلب مات فى الحال أو عشر نقط فى فم جمل كفت لقتله . وهاك حكاية :

أكثر طبيب من النصح لرجل كان يدمن تعاطى التدخين فلم يزد المريض إلا غراما به ، فبينما هو سائر ذات يوم إذ رآه الطبيب يعمل وهو لا يستطيع للشى ولا أى عمل إلا يبطء وقد أصبح يحمل العصا لتعينه فقال الطبيب له لقد صدق من قال [الذى يفرط فى استعمال (الطبايق) لا يسرق متاعه لص ولا يعضه كلب ولا يبيض له شعر] فلما استفهم للمريض عن سبب ذلك قال الطبيب لأنه يعمل الليل كله لمرضه فيظنه اللص

مستقيظاً فلا يسرق منزله وعصاه التي يتوكأ عليها تحرسه من الكلاب وهو يموت في ربحان شبابه فكيف يبيض شعره وقد ضمه القبر فاعتبر المريض وتحمل فراق (الطباقي) وعاش قرير العين اه .
ويلحق بالدخان الأفيون

هو عصير الحشخاش يعصر منه قبل تمام ثمره ، فإذا يبس تراه أسود اللون مرّ الطعم وهو خطر شديد يورث إخلال العقل فيهدى الإنسان ولا يحقل مايقول . ومتى ملكت هذه العادة الإنسان أصبح في عبودية لها لا تنطق ومثل ذلك أيضاً ما يسمى :

الحشيش

وهو مخدر مزعج شديد الفتك بالأبدان والعقول . وهو من نبات ينبت في البلاد الحارة . وتستعمله الطبقات للنحطة في بعض البلاد كبلادنا الصرية والحكومة تراقبه مراقبة شديدة وتعاقب من يتعاطاه بالمس وهو سم مهلك لمن استعمله إلا من تاب . وأنا أسأل الله أن يجعل ما أكتبه الآن مثالا ينسج على منواله السلفون وينشرون مضارّ هذه السموم بينهم حتى يخرجوا من عداد اللذكورين في قوله تعالى « إنه لا يحبّ للسرفين » فهذا كله من الإسراف للذكور في الآية وإن هذا البيان الذي ذكرته تشمله الآية وتشمل غيره فالمسلم الذي يتعاطى الدخان أو القهوة أو غيرها مما هو أشد فتكاً كالشاي والخمر والحشيش والأفيون . أو أقل فتكاً مثل الكاكاو وغيره معدود من السرفين ويقول الله تعالى « إنه لا يحبّ للسرفين » ولما قلّ حبّ الله لنا بسبب تعاطى هذه المضار سلط علينا الأمم فهو لا يحبّ أكثرنا لجهلنا بأمرين القرآن ومعجائب صنعه لأنهما متفقان إذ كلامه يوافق عمله والحمد لله رب العالمين .

[اللطيفة الخامسة قوله تعالى « كما بدأكم تعودون » وقوله تعالى « قال ادخلوا في أم قد خلت الخ »]
فقوله تعالى « كما بدأكم تعودون » اعلم أن الناس إذا ماتوا فقد درجوا على طباع ألقوا وأخلاق سلكوها وعوائد عرفوها وأحوال اترفوها . وكل فريق مغرم بما جبل عليه محب لما خلق فيه من صلاح وطلاح وكمال ونقص وجهل كل يعمل على شاكلته فإذا ماتوا رجع كل إلى مشربه وحنّ إلى مألّفه وفرح بما عنده . وروى عن ابن عباس أن الله عز وجل بدأ خلق بني آدم مؤمناً وكافراً كما قال « هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » ثم يجيهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً . وروى جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث كل عبد على مامات عليه » أخرجه مسلم . وزاد النووي في روايته « للؤمن على إيمانه والكافر على كفره » . وهذا هو الذي ورد في علم الأرواح في الوقت الحاضر فإنهم أثبتوا أن روح الإنسان تبقى فيها أخلاقها وآدابها وأعمالها وذلك كله تام غير منقوص . وبحسن أن أقبل إليك أيها الذي ماسطرته في كتاب الأرواح لتعجب من مطابقة الكلام النبوي والقرآن لعالم العصر الحاضر وهذا نصه :

مطابقات للشريعة الإسلامية الفراء

ثم قلت أليس هذا (ياشير محمد) من المعجب المعجّب أو ليس حديث ديكنس السابق هذا يومى إلى قوله عز وجل « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نردّ ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدأهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » وقوله « وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة » وقوله « اقرأ كتابك كنى بنفسك اليوم عليك حسياً » فقال (شير محمد) أما حديث ديكنس فهو عجيب إن صح بل هو أعجب ما سمعنا وأما هذه الآيات فلا أدري ما موقعها وأى علاقة لمرض جهنم على الكفار يوم القيامة وعلى الله وقراءة الإنسان كتابه لما في حكاية ديكنس من غلط الإنشاء وخطأ الإملاء . فقلت اعلم (ياشير محمد) أن هذه الآيات فيها دلالة واضحة أن كل عمل نعمله

واعتدناه يصبح فينا سجية وغريزة ثابتة فلا ينزع منا اللوث وإن ديكنس لم يقتلع اللوث منه خطأ الإملاء وأبقى عنده حسن الإنشاء . ولا جرم أن كل ذنوبه وأعماله من الخير والشر بقيت في نفسه بحسب عليها ويماقب، وهذا قوله تعالى « ولوردوا لعادوا لما نهوا عنه وإتهم لساكذبون » لأن الغريزة لا تقاوم كما لم يمكن إصلاح الإملاء بعد اللوث عند ديكنس وهكذا كل ذرة من الخير والشر حاضرة عندنا باقية في نفوسنا هي هكذا لم تغيب فلا تقادر الله صغيرة ولا كبيرة من أعمالنا ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء وكفى بنفسنا حسيبا علينا . وإذا قلنا « ارجعنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل » أجبنا « أو لم نعملكم ما يتذكر فيه من تذكركم التذير فذوقوا فما للظالمين من نصير » ويقول لوردتكم لعدتم لما نهيتكم عنه وأنتم تكذبون كما كنتم تكذبون في الدنيا بنقض عهدي بعد مرض يصيبكم أوفاة ننتابكم أو نازلة نحقكم فلا عهد لكم عندي .

ياشير محمد إنا غافلون عن نفوسنا في هذه الدنيا ولقد أفلح المؤمنون الذين هم في آيات ربهم يتفكرون ولأذكرك بالحديث الصحيح الشريف « يبعث العبد على مامات عليه » وقال الشيخ محمد الزرقاني وعشعر أطفال وسقط كثر ما يكونون عند اللوث ثم تسكل وقال في شرحه لتنظم هل يحشر الطمغ والسقط بصفته وقت اللوث أم لا؟ جوابه قال الحافظ ابن حجر كل واحد من أهل الموقف يكون على مامات عليه :

أقول ألت ترى (ياشير محمد) أن كلام النبوة صريح في أن الإنسان حافظ لأخلاقه وآدابه حتى يحشر عليها . أليس هذا بينه ما في حكاية ديكنس وأنه قد حفظ أخلاقه في أسلوب الإنشاء وخطأ الإملاء . وهكذا يقاس عليها سائر أخلاقه التي يحشر عليها إلا أن هذه الأخلاق النابتة فينا بعد اللوث أعدل ناهد وأكبر شاهد كنت فينا فأظهرها الله . ألا وإن العادات للغروسات فينا بالتكرار لن تزول بل تبقى خزيا علينا وعارا وفضيحة يقرؤها الناس في صحائف أرواحنا ويكون عذاب الخزي . فليقلع المرء عن عادته وليوطد النفس على منابذة الهوى ومحاربة العادات الدسيسة فانها برسوخها فينا تشهد علينا .

أو ليس الخطأ في إملاء ديكنس شهد عليه بذلك . أليس ذلك مصداقا لقوله تعالى « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » اليوم نخم على أفواههم وتكلمنا بأيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » وقوله « حتى إذا ماجأوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون » وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء . وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون . وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون » اه [اللطيفة السادسة قوله تعالى « إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء الخ »]

اعلم أن هذا اللقاع قد استوفيناه في سورة (آل عمران) بما لا مزيد عليه فالمدار في هذا الوجود على الاستعداد ، فالنفوس الغليظة التي لا تنرف إلا للمادة ولا تقدس إلا الأجسام ولا قدرة لها ولا ميل إلى صفاء النفوس وتهذيبها وترقيتها لا تقدر على العروج إلى الدرجات العالية والسموات الصافية بل تبقى في عوالم منحطة على مقدار طاقتها كما مثلنا لذلك حرارا بأحوالنا الدنيوية فليس منا أحد يقدر أن يطير في الجوق ولا أن يعيش في البحر بل حكم علينا أن نبقى على وجه الأرض ومن لم يتعلم الهندسة لا يقدر أن يجارى المهندسين ، ومن جهل البناء لا يוכל له بناء البيوت هكذا في الآخرة يحمد الإنسان في نفسه ما نعا ينمعه من الصعود إلى المقامات الرفيعة متى كان ليس أعلا لها كما يمنع في الحال الجسمية من الطيران في الهواء مع أن الهواء مباح مبذول للجميع وليس للناع هو الهواء ولا خالق الهواء ولكن للناع استعداد الإنسان ومثل ذلك يقال في قول أهل الجنة

إلى أهل النار لما قالوا لهم « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين »
وليس ذلك التحريم إلا استعداد نفوسهم وضعفها عن تلك المنازل الرفيعة إذ يحدون روحا وربحانا
ويشربون وبأكلون .

[اللطيفة الساجدة قوله تعالى « لانكف نسا إلا وسعها »]

لقد تقدم الكلام عليها في (سورة البقرة) فراجعها هناك فقد شرحتها شرحا وافيا يشمل العلوم الواجبة
على الأمة الإسلامية وعلى نظام التدريس فيها .

[اللطيفة الثامنة قوله تعالى « وزعنا ما في صدورهم من غل »]

في البخارى عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم « يخلص للؤمنون من النار
فيحبسون على قطرة بين الجنة والنار فيقتصن بعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا هذبوا
وتقوا أذن الله لهم في دخول الجنة، فولدى نفس محمد بيده لأحدم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله في الدنيا اه
فتأمل هذا الحديث فانه موافق للقرآن وللحقائق العلمية فذكر الاتصاف وكيف يأخذ كل حقه وهذا موافق
لقوله تعالى « والوزن يومئذ الحق » وانظر كيف يقول « إنهم يحبسون على قطرة بين الجنة والنار الخ » ويقول
« حتى إذا هذبوا وتقوا أذن الله لهم في دخول الجنة » . فاعلم أيها التلميذ أن هناك من الأمور للنية وراء هذه
الألفاظ ما لا تعلمه الآن، فالجنة لن يدخلها إلا من تأهل لها بالعمل كما تأهل الطير باستعداد جسمه إلى الارتفاع
في الجو . هذا هو الحقيقة فاذن نزع الغل والحقد لا بد منه قبل دخول الجنة وما دام الحقد باقيا
والمداوات متراكمة فلا جنة ولا نعيم . وكيف يتمتع الإنسان والمداوة كامة في صدره وأهل الأرض معذبون
بالمداوات في الدنيا فمن مات على ذلك بقى معذبا به فكيف يفرح بالجمال المحيط به وقلبه بالمداوة مشغول وكشف
هذا المعنى في علم الأرواح بأوروبا فقد جاء في كتاب الأرواح في ترجمة كتاب (برايت) داودينج قال :
ألا وإن جهنم دار خداع وضلال . ألا وإن من أنس بالحواس وصدق أنه لا وجود إلا ما صورته ولا حياة
إلا مانسجته فافتقر بفرورها واستضاء بنورها وفرح بجمالها فذلك محدوع يوم يلقى حفته . ومن ذا يقدر أن
يرجعه عن غبه وهو يقول ياليتنى أردت فأقتل الأعداء وأواسى الأصدقاء وأفضى الوطر وأستلذ بما تسعد به
الحواس من اللطاعم والشارب والآرب . هنالك تنور فيه نائرة الحزن والأسى على مافاته وتحيط به خطيئاته
موت الحسد والنفس والمداوة والبغضاء والطمع والكبرياء وحب الذات والحقد وصر المحة « بل ران على
قلوبهم ما كانوا يكسبون » وهناك مطهرة أنا الآن فيها يخرج الطهرون فيها إلى الملا وقليل من الناس
يأبونها . ألا وإن الناس فريقان . فريق عرف أن هناك حياة روحية فعمل لها وآخر عكف على إرضاء
أهوائه وسد شهواتها . فالأولون هم الناجون . والآخرون لا يسمعون نصحا . ولا يندرون ما اعتادوه في
الحياة من اللطاعم والشهوات . ولما أن حلت بساحة جهنم قال الرسول لن تقدر أن تخترق تلك الآفاق
للظلمة فكشفت مكانى وتقدم أخى واللك حتى وصل إلى ذلك الجندى لينقذاه ولكنه أبى أن يفارق الجحيم
لأن الملح خلع قلبه أن ينادر مكانه حتى لا يصيبه ما هو أشد من العذاب فالخوف والجهل أهمياه ولو عرف
الحب لكان من الناجحين . فانظر كيف ذكر أن هناك مكانا لتنطهر الذى عبر عنه بالمطهرة بكسر الميم
وفتحها . وقال السدى في آية « وزعنا ما في صدورهم من غل » إن أهل الجنة وجدوا عند بابها شجرة
في أصل ساقها عينان فشربوها من إحداها فينزع ما في صدورهم من غل فهو الشراب الطهور واغتسلوا
من الأخرى فبرت عليهم نضرة النسيم الحديث فتعجب كيف تقول الأرواح إن عندها ماء تنطهر به لتزيل
الحقد من القلوب وكيف كان هذا مصداقا للحديث .

اللطيفة التاسعة في أصحاب الأعراف وكيف يعرفون الناس بسياهم

فقد عرفت أن أصحاب الأعراف هم أعظم الأمم، وهؤلاء يعرفون كلا بسياهم وفي الحقيقة أن أكابر الحكماء والأنبياء والعلماء يعرفون اليوم كلا بسياهم فمن هم أصحاب النار؟ ومن هم أصحاب الجنة؟

اعلم أن أصحاب النار واضعون لدوى البصائر في الحياة الدنيا في الحديث « أنت مع من أحببت » فمن أحب البهاة والفاخرة والكثرة والغلبة وأحاديث الباطل والزور والأكاذيب والظلم فهو في الحياة لاقرار لراحته ولا سعادة لقلبه ولا هناء لبيته ولا صفاء لضميره فهو متقلب في الشقاء. يظن القلق راحة والاضطراب صفاء وهو أبدا قلق معذب كثير المصوم والأحزان. يرضى من السعادة بالرياء، ومن الحياة بالخيال، ومن الراحة بالخيال. فهو أبدا في هم مستطير وألم مقيم وعذاب دائم، والناس يرونه سعيدا وهو شقي، قريبا وهو بعيد. فمن هذه حاله إذا مات لانفارق صفاته وتمتق روحه معذبة أبدا حتى تغير حاله بحال أخرى كما قال تعالى « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ».

فأما أهل الجنة فانك ترام من الذين هدأت نفوسهم ووصفت أرواحهم وهم ساكنون هادئون قد كفوا الناس شرهم وضأرهم في راحة وقد اتسموا بالصبر والفضيلة والعفة وعيشهم أشبه بالكفاح، لا كثرة تطعيم ولا قلة تقطيلهم ولا ظلم يصف بصأرهم. فأهل الجنة يعرفون بسياهم وأهل النار يعرفون بسياهم. فالنفوس اللطيفة للعلوم والمعارف أقرب إلى الجنت. والنفوس للنهمكة في جمع المال وفي اوظائف أقرب إلى أهل النار، وهناك منازل بين الطائفتين « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا » فالنفوس في الدنيا هي النفوس في الآخرة، وخير النفوس من عملت لمنفعة الجميع وأحبت النوع الإنساني وكانت مغرمة بالعلم وترقية الجميع فهذه أقرب إلى الجنات وأبعد عن النيران واقه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

اللطيفة العاشرة في قوله تعالى « إن ربك الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام »

لقد ذكرت في تفسير الأيام الستة ما يناسب العلم الحديث ولا تظن أن اقدم قلته هو للثمين وإنما هي صورة من الصور المحتملة، فإننا نعلم أن هناك للادة الأصلية للكائنات وهي الأثير ثم كانت شموس وأرضون ومعدن ونبات وحيوان وإنسان فهذه ستة أعمال في ستة أزمان. ويقال إن أول ما خلق الله القلم ثم اللوح فسكتب فيه ما كان وما سيكون وما هو خالق وما هو خالق إلى يوم القيامة. ثم خلق الظلمة والنور، ثم خلق العرش ثم خلق السماء من درة بيضاء، ثم خلق التربة، ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر ثم مد الأرض وبسطها من التربة التي خلقها أولا، ثم خلق جميع ما فيها من جبال وشجر ودواب وغير ذلك، ثم خلق آدم آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات يوم الجمعة وفيه أهبط إلى الأرض فتكامل جميع الخلق في ستة أيام كل يوم مقداره ألف سنة وهذا قول أكثر العلماء.

أفلمت ترى أن هذا الحديث أقرب إلى ما كشف في العلم الحديث وذكرته في (سورة الأنعام) في أولها أفلا ترى أن قوله خلق السماء من درة بيضاء أقرب إلى خلق جميع الشموس من الأثير الذي لا يرى، وقوله ثم خلق التربة إشارة إلى انفصال الأرض وجميع الأرضين من الشموس وجميع السيارات التي بردت بعد مدة فاستعدت لمادة التراب والشموس لا تزال حارة، وقوله ثم خلق السموات وما فيها من نجوم وشمس وقمر الخ إشارة إلى نظام الشموس في دوراتها وتنظيمها وقوله ثم مد الأرض وبسطها من التربة إشارة إلى ما حدث في الأرض من الطبقات للذكورة فيما تقدم في (الأنعام) من صوانية إلى غمية وهكذا. وقوله خلق جميع ما فيها من جبال إشارة إلى علم المعادن الذي في الجبال الذي هو مقدم على النبات الذي أشبه له هنا بالشجر وهو مقدم على الحيوان وهي الدواب للذكورة هنا. ثم في آخر الأمر خلق آدم. فهذا الحديث على وجه التقريب أقرب إلى الكشف الحديث « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ».

بهجة العلم والحكمة والنظام والسلام العام في قوله تعالى « وهو الذي يرسل الرياح بشرا الخ »
 سأريك أيها التكي في هذا المقام مجبا مجبا وذلك في نظام الطر والرياح وكيف كانت الكرة الأرضية كلها
 متصلة متضامنة متحدة والناس يقرءون وكأنهم لا يقرءون ويعلمون ولكنهم لا يشعرون أنهم يعلمون .
 أنت تعلم أن الهواء لا يكون رباحا إلا بسبب وذلك السبب هو الحرارة الشمسية . وآية ذلك أننا نوقد
 النار في تنورنا في منارنا فيخف الهواء في داخل المنزل ويلطف فيعلو إلى الجوق ويحلّ محله الهواء الذي هو
 خارج القربة فنرى في الحال تيارا يجرى إلى داخل المنزل وذلك التيار جاء خاصا بهذه الحادثة . هذه حادثة
 تمرّ على الناس في منازلهم وهم لا يعلمون وعلى هذه القاعدة ننظر في الأرض كلها أي في نصف الكرة الشمالي
 ونصف الكرة الجنوبي فماذا نرى ؟

نرى هذه المسألة وأمثالها تظهر في قارة آسيا وقارة استراليا

إذا حلّ زمان الصيف فإن داخل بلاد آسيا يكون حاراً فترتفع درجة الحرارة تبعاً لشدة حرارة
 سطح الأرض وهناك تتدافع الرياح من المحيط إلى القارة كما رأينا تياراً يدخل منازلنا لما ارتفعت الحرارة
 في التنور لحبز العجين ، فهذه الرياح للتدافعة تهبّ على الهند والهند الصينية والصين ، وهناك تكون أمطار
 غزيرة وتنف الجبال في طريق للطر فتصدّ الأمطار عن الدخول إلى أواسط البلاد الجافة . وكما رأيت
 صيف آسيا هكذا ترى صيف قارة استراليا فانه أيضا يكون داخل القارة فيه شديد الحرارة فتهبّ هناك رياح
 شمالية غربية تحمل الأمطار وهذه الرياح هي تلك الرياح التي تهبّ على الهند في ذلك الوقت نفسه الذي
 هو شتاء هناك .

فصل الشتاء في آسيا وفي استراليا

ومثل ما رأيت آسيا واستراليا في الصيف هكذا تراها بعكس ما تقدّم في الشتاء . ذلك أن كلا منهما
 يكون وسطه شديد البرودة لماذا يكون ؟ تتجه الرياح من الداخل إلى أطراف القارة في الجهتين . ومعنى
 هذا أن استراليا في زمن الشتاء وآسيا كل منهما يبرد وسطه فتنحى برد الوسطان كان هناك شتاء مع العلم بأن
 ماء البحر في أطراف القارتين يعلو هواء أدفاً مما في وسط القارة وقد قلنا إن الحرارة بها يرتفع الهواء فيحل
 محله الهواء البارد وعلى ذلك تجرى الرياح من داخلها إلى خارجها في شتاء كل منهما . ومعلوم أن شتاء
 أحدهما هو صيف الآخر فصيف النصف الشمالي من الكرة شتاء الآخر والعكس بالعكس . فتجد الرياح
 في زمن الشتاء في استراليا متى أتجهت من الداخل إلى المحيط تمرّ من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي وتستمر
 إلى بلاد الهند التي يكون ذلك الوقت صيفا عندها فتكون هناك رياح موسمية جنوبية غربية . ومثل ذلك
 الشتاء في بلاد آسيا فان الرياح التي تهبّ من وسطها إلى خارجها من الشمال الشرقي تصير شمالية غربية
 جنوب خط الاستواء . فإذا رأيت الجهات الموسمية في بلاد آسيا وهي الهند والهند الصينية والصين وكوريا
 وسهول منشوريا وجزر اليابان . أقول إذا رأيت هذه الجهات تزل للطر فيها مدرارا في زمن صيفها فزرعوا
 الأرز والشاي والقطن الخ فاعلم أن تلك الرياح امتداد للرياح الآتية من وسط بلاد استراليا في النصف الجنوبي
 من الكرة الأرضية .

عجب عجيب شتاء في آسيا وصيف في استراليا في زمان واحد

يكون البرد في أولها والحرارة في آخرها سببا في حدوث الرياح بحيث تهبّ الرياح من الجهة
 الشتوية إلى الجهة الصيفية وهكذا بالعكس شتاء في استراليا يدعوا الرياح أن تهبّ منها إلى الجهة التي فيها
 الشمس فهذه هي الرياح الموسمية المهددة المبوب فستة أشهر تهبّ إلى جهة وستة أشهر بالعكس على طول

الزمان . تظهر الشمس في جهة فتجلب الرياح إلى جهتها فان كانت في الجنوب فالرياح تتبعها وإن كانت في الشمال فكذلك .

عدل الله في النسيم بين الشتاء والصيف والبر والبحر

يعلم الناس اليوم أن الأرض تدور حول نفسها وتدور حول الشمس فالأولى يكون الليل والنهار وبالتالي يكون الشطيف والصيف ، والعجب العجيب هنا أن الحركة الأولى كما يكون بسببها الليل والنهار ليقوم العدل في الإضاءة والإظلام هكذا يكون العدل أيضا في الرياح . إن اشراق الشمس على اليابسة يسرع تسخينها أكثر من الماء فيخف الهواء فوقها فيجلب محله نسيم البحر فيهب في البر فاذا جن الليل وأرخى سدوله كانت الأرض أسرع للبرودة من البحر فانعكست الآية وأخذ نسيم البر يهب على البحر الذي لا يزال جوه أدفا من البر فهناك عدل ونظام وحكمة ، فكما يقاب الله الليل والنهار بالإضاءة والإظلام هكذا يقاب النسيم من البر إلى البحر ليلا ومن البحر إلى البر نهارا وهذا يسمى نسيم البر والبحر ، فأما الذي يكون بالنسبة للحركة السنوية فهي الرياح الموسمية التي شرحناها فيما تقدم . فاعجب لنظام محكم مقدر بالعدل ليلا ونهارا وصيفا وشتاء « ذلك تقدير العزيز العليم - الذي أحسن كل شيء خلقه » . اللهم إن صنعك لعجيب موزون منظم ولعمري ماذا يزيد من الوجود إلا أن نقرأه فنراه بهجة الناظرين وجنة للمكرمين وحياة الأنبياء والعلماء العاملين ، اللهم إن جمال وجهك أشرق فلما الأرجاء .

هذا ، وبينما نرى الرياح تهب تبع حركات الشمس صيفا وشتاء وليلا ونهارا نرى ذلك يتبعه سير السفن للتجارة وسير الرياح لتفريق الطر على اليابسة « إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم » .

واعلم أنه كما يكون الشتاء والصيف بعد الشمس وقربها هكذا يكون الخمود في الأم والنشاط بقرب العلوم وبعدها . كان أهل الشرق قديما أعلم من أهل أوروبا ثم طلعت على التريبيين شمس المعارف وأصبح الشرقيون في برد شتاء الجهل . ولكن الله يقاب الليل والنهار والرياح الموسمية ونسيم البر والبحر كآيات ، فما هو ذا سبحانه وتعالى أخذ يعكس الآية وما نحن أولاء نرى أهل الشرق قد استيقظوا في مصر وشمال أفريقيا واليابان والصين والترك والأفغان لأن الله له نظام مبني على العدل في الضوء والإظلام والرياح وهكذا في سياسة الدول ونظام الشرق والغرب . اقرأ هذا للقيام في قوله تعالى « قل اللهم مالك لللك الخ » في سورة آل عمران .

هذا بعض قوله تعالى « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته » فلولو الرياح ما كان سحب وما عاش إنسان . ولولا حرارة الشمس لم تكن رياح غرارة الشمس بها تحريك الرياح والرياح تحمل السحاب والكرة الأرضية كلها متضامنة متحدة . فبلاد استراليا وبلاد آسيا تعطى كل منهما الأخرى في زمانها هوائها ؛ فتعطى استراليا لآسيا الرياح زمان صيف الثانية وتعطى آسيا الرياح لاستراليا زمن صيف الثانية ، فهناك أعواد لم يعمل الإنسان بصله والحيوان عمل على مقدار غريزته ، فالإنسان اليوم قاصر وهو جهول كفار .

اللهم إن الناس على أرضك غافلون . اللهم إني وجميع للتعلمين في أوروبا والشرق نعلم هذا وندرس نظامك ونعرف أنك جعلت كرتنا الأرضية جميعها ذات نظام موحد ، فرياح آسيا ورياح استراليا تتجه من كل منهما إلى الأخرى في زمان معين فكل منهما لها نصف السنة وهذا قد رتبته على مقتضى سير الشمس والشمس واحدة أنت جعلت نظامك واحدا ولم تجعل فيه تفاوتا . وذاك علمتني وعلمت جميع أهل العلم في الأرض هذه المعارف ولم تعلم هذا لأمثال النمل والنحل والنيران وكلاب البحر تلك الأم التي تمشي جماعات

وجمهوريات ذات نظام جميل تام على حسب طبائعها وغلزتها . هذه الحيوانات لا تعرف النظام العام كما نعرفه نحن وقد قامت بما تعرف من نظام جماعاتها وحاربت جماعات الخمل في قرية جماعات الخمل في قرية أخرى فهي لا تعرف إلا ذلك ولو أنها درست كما درسنا نظامك لكان نمل الشرق متحدا مع نمل الغرب . أما الإنسان الذي أعطيته هذه العلوم والمعارف فإنه جميعه طفل في الشرق والغرب . كل هؤلاء ساساتهم وفلاسفتهم أنظارهم قاصرات على أهمهم يجارون العاتة والجهلاء .

الإنسان الأعلى

فأما الإنسان الذي يصل إلى مدى الإنسانية الحقة فهو ذلك الذي يجعل جميع الناس في الكرة الأرضية متحالفين متحدين منظمين الكرة الأرضية على مقتضى نظامك وعدلك ، فكما أعطت كل من آسيا وأستراليا الرياح للأخرى زمن شتائها هكذا يكون الإنسان في شمال الكرة وجنوبها وشرقها وغربها كل منهم يمدل مع الآخر كمدل هذه الرياح . أما الإنسان الحاضر فهو لا يزال طفلا وربما عددناه مراهقا . والدليل على ذلك أنك بينا تزام متشاكين تفتخر الدولة بتسخير دولة أخرى في إطعامها ومساعدتها ، ترى بلاد أمريكا تباغ للمالك للتحدة فيها فوق مائة مليون بعد أن كانوا بممالك مختلفة فهذه هي المراهقة . فأما بقية الأمم كما نمتنا الإسلامية وغيرها فإنهم لم يزالوا جهلاء مختصمين لجهلهم مع أن الله خلقهم ليكونوا خلفاء .

ما اوجب على المسلمين في هذا الزمان

جاء في هذه الآيات « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا » أن الأمم الإسلامية ما عاقها عن ظهور السكال فيها ويزوغ الشمس الحمديدية والسلام العام فيها إلا أنها أمة في هذا العصر جاهلة جهلاء مريما محزنا فاضحا ، ولا يؤهلها للخلافة في الأرض إلا تميم التعليم ، فتميم التعليم هو الذي يؤهل القلوب أن تقبل النصائح القرآنية وتكون القلوب هناك مثل الأرض الطيبة تقبل الإصلاح سريما .

فليستعدت المسلمون لتعليم جميع الأفراد رجالا ونساء من الآن لتكون خلفاء الله في الأرض ويكون التعليم ابتدائيا وناويا وعاليا كأهل اليابان وأوروبا وأمريكا ، ولتأخذ بأحسن الطرق والأساليب فهناك يليق أن يكونوا مع الأمم وليبدءواهم بالسلام العام وذلك لأن نبينا صلى الله عليه وسلم أرسل رحمة للعالمين ، فلنكن نحن رحمة للعالمين ، ومستحيل أن نكون رحمة وهم علماء ونحن جهلاء بدبنا لأنك تعلم من هذا التفسير أن العلوم التي ملأت الأرض اليوم هي نفسها علم التوحيد الذي هو أتم من علم الفقه والتعمق فيها فرض كفاية ، فمعرفة العلوم وعمت أقطار الإسلام هناك نجلس معهم أي مع أهل أوروبا واليابان والصين ونقول تريد السلام العام لأن الله أخبرنا أنه يأتي يوم تضع فيه الحرب أوزارها كما سيأتي في سورة (الفتح) والقرآن لم يقيد وقال للفسرون هو يوم محي . عيسى عليه السلام ولكن القرآن لم يخص . فلأن الأمم استعدت للسلام فلامنى لأن السلم هو الذي يحارب .

إن الإنسان اليوم ناقص وهو يسير إلى السكال فلا معنى لأن المسلمين يتقاهسون فليتعلموا وليكونوا خير أمة أخرجت للناس بأمرين : (أولا) أن يتعلموا كما تعلمت الأمم (ثانيا) أن يقودوا الأمم للسلام العام . فأما الآن فإن الإنسانية جاهلة غافلة يتحاربون كما يتحارب الخمل لم يمتازوا عن الحشرات وكلاب البحر والقربان في نظام الجمعية الإنسانية « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » .

ذكرى للأمم الإسلامية

فيا أيها الأمم الإسلامية استعدوا للواجبات الطيبة والعملية . أفلا ترون أن الأرض التي نعيش عليها قد أصبحت مغلقة بالأسلاك البرقية والطرق الحديدية وتبادل البريد والطرق الجوية للطائرات وهكذا للتطراف التي لاسلك له فهاهي ذه أرضنا اليوم أصبحت أشبه بجسم حيوان ، فلكل حيوان جلد يحس بما يصيبه

بالحواس الحسة للفرقة على ظواهره ، هكذا أرضا فهما حصل في جهة فإن سائر الجهات شرقا وغربا تعرفه ، الأرض كانت قبل اليوم لاعلم لشرقها بما عند غربها ، ولا لجنوبها بما عند شمالها إلا قليلا ، واليوم أصبحت أشبه بإنسان في ابتداء صباحه يحس ويتحرك ولكنه يعوزه التربة والتعليم ، أصبحت الآن الأمم متصلة ببعضها فهناك .

مسألة القطن في أمريكا ومصر والعرض والطلب بأوروبا

إنها كسألة الرياح الموسمية بين آسيا وأستراليا

قد عرفت أيها المسلم الذكي فيما تقدم كيف كانت الرياح في شتاء أستراليا تبعث منها إلى الصين وما والاها ستة أشهر ، وفي السنة الأشهر الأخرى ينقلب الأمر فترسل آسيا الريح من أواسطها ذاهبا إلى أستراليا ، وتكون تلك الأيام صيفا لها . هكذا نحن نرى القطن في أمريكا لما كثر أضره بقطننا في مصر فصار السعر رخيصا على قاعدة العرض والطلب ، فيقال إن عدمه في هذه السنة (١٩٢٦) عند طبع هذه السورة نحو (١٨) ألف بالة غير ماخزنوه من عام أول وهو نحو ثلث هذا المقدار فأضر هذا بقطننا للمصرى ، هذه مسألة واحدة من مسائل التجارة والاجتماع ، فإذا تعريف الرياح وإزجاء السحب ونحوها ذلك يضارعه أحوال أهل الأرض ؛ فالتناس أشبه بأسرة واحدة ، كما أن المطر والرياح قد صرفها الله بالتبادل والتكافؤ والاشترار ، فالإنسان لا يتم كماله إلا إذا أصبح أمة واحدة ، إن النحل والنمل لا يشتركان بين شرقه وغربه ولكن الإنسان يتبادل المنافع شرقية وغربية ، فما دام أشبه بالحيوان في نظامه وأن كل جماعة تحارب أخرى كالتنمل فإنه طفل ظالم لنفسه جهول ، وهذا قوله تعالى « إن الإنسان لظالم كفار » وقوله « إنه كان ظلوما جهولا » فليكن نظامه على مقتضى رقى عقله اه .

يقول الله تعالى هنا « كذلك نصرّف الأيات لقوم يشكرون » قد صرفّ الله هذه الآيات في القرآن كما صرفّ آيات الرياح والسحاب ، كل ذلك ليشكر الناس ولا معنى للشكر إلا بثلاثة أمور : (الأمر الأول) العلم بهذه الدنيا ونظامها وحكمها . (الثاني) ما ينتج من هذا العلم طبعها وما أمران : حب منافع المخلوقات طرّا لاسما الإنسان ، الثاني حب الله لأن من أحبب بهذا النظام المتقن بحيث يرى أن الرياح والسحب لم تكن بلا قوانين بل هي تابعة لسير الشمس الذي هو نظام لاخلل فيه فيتمه نظام مثله ، وحينئذ نرى النظام في مزارع أستراليا كما نراه في الصين ؛ فكل قوم فيها يملون أوقات ائزرع والحصاد فلا يخطئون ، والمطر يحيى لهم في وقته ، ذلك لحسن نظام الشمس وسيرها ، فأفقه لم يترك الرياح وسحبها بلانظام متقن ، فمثل هذا يحدث في القلب حبا للخالق وإخلاصا لعباده ، وهذان هما الأمران التامان عن الأول (الأمر الثالث) انطلاق المسان بالحمد وتسخير الأعضاء للعمل للصالح العامة ، هذا هو الشكر الذي قاله علماءنا وهو المذكور هنا في قوله تعالى « كذلك نصرّف الأيات لقوم يشكرون » اللهم إنا معاشر المسلمين قد قصرنا في شكرنا فلا علم نظامك الذي ذكرته هنا درسنا ولا نتأجه حصلنا بل نحن من أقلّ الأمم علما ، فأين الشكر إذن ؟ فالشكر ما فصلناه وذلك بالتعليم العام بجميع أنواعه ، ثم قيادة أهل الأرض إلى السعادة والسلام حتى نكون شاكرين ورحمة للعالمين ، وهناك نكون خلفاء الله في أرضه ، والحمد لله رب العالمين .

وهذا ما يرمى إليه قوله تعالى « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » أرسل الله نبينا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين ، ولا يتم هذا في الدنيا إلا باجتماع الناس على فكرة عامة بينهم ، وللسلوك من نواب عن نبينا صلى الله عليه وسلم فليقوموا بهذه النيابة . وقد ألفت كتابا بمعنى هذا يسمى [ابن الإنسان] وقد انتشر في أوروبا والشرق . وقرظه الأستاذ (سنلانه) النلياني في مجلة العلوم الشرقية . وكذلك الأستاذ (كراديفو) الفرنسي في المجلد الخامس من كتابه [مفكر الإسلام] وهكذا غيرهم من العلماء لا أذكرهم الآن ، وما كنت أعلم

الإلمية ، أنى أعيى حتى أرى هذه الفكرة ينشرها الناس فى حىانى فى الشرق والشرق ، وهذا من عجائب الحكم ، قد قلت فى الكتاب للشار إليه إن الأم سائرة إلى هذه الناية ، فانظر كيف جاء اليوم إلى مصر الأستاذ الشاعر الهندى (طاغور) الذى ملأ صيته الآفاق شرقا وغربا أثناء طبع هذا التفسير وخطب خطبة يوم الجمعة ٣ ديسمبر سنة ١٩٢٦ توافق ما نحن بسدده الذى قرأته فى ختم وتوافق كتابى [ابن الإنسان] وهذا نص ماقاله قلا عن جريدة (الأهرام) فى التاريخ المذكور ، وها هى ذه :

لقد أسرفت الأم فى الأثرة والأنانية وفى العصبية الجنسية التى تجسك بها فريق كبير من أهل الأم للتضرة ، على أن هذه العصبية أكبر مظاهر ضعف المدينة الحاضرة فهى التى تجرّ الأم إلى التطحان لنيل غايتها وهى التى تثير بينها حروبا مهلكة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب وتلك الأثرة ، وما أشك مطلقا فى أنه قد وجدت أم من قبل وبادت ، أفتها الحروب فى سبيل أغراضها ، وما تزال الآن فى مجاهل أفريقيا أم تسير فى طريق الفناء لأخذها فى حياتها بهذه الحطة ، ولئن كان هذا ممكنا تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الأم ونجم كلتا تمتاز بمكانها وبجنسها ونجم من لون أصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر ، فلم يبق لهذا التصور اليوم محل بعد أن أصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها لأسباب أهمها تقدم المواصلات والنموذج العقلى بين الأم ، لذلك يجب أن تزول الأثرة وأن يزول التعصب للجنس والتعصب للون ، ويجب أن يشعر العالم أن هناك وحدة روحية تربط أمة المختلفة ، ومن حسن الحظ أنى رأيت أثناء سياحى فى البلاد المختلفة كثيرا من الرؤوس الكبيرة متفقة وإياى فى الرأى واتفة كما أتق بأن سيأتى اليوم الذى تسود فيه هذه الفكرة الشعوب جميعا ، بل لم يقف الاقتناع عند الرؤوس الكبيرة فقد احتفل فى بلاد عدة كثير من البسطاء لأنهم أحسوا فى كتاباتى الدعوة لهذه الوحدة الروحية التى تصبو إليها نفوسهم ، والوسيلة قهر الأنانية وزوال التعصب الجنسى ليست هى الحديد والنار وإنما هى انتشار الأفكار السليمة بين الشعوب وسعيها جميعا لإدراك الحقيقة ، فهذه الحقيقة ، الحقيقة المبردة ، الحقيقة للطقه يجب أن تكون غاية النيات لكل شاعر ولكل مفكر ولكل فيلسوف وغاية النيات للإنسان الكامل ، وبوم يأتى الوقت الذى يعمل فيه كل لمعرفة الحقيقة ، فإذا رآها لم يتردد فى إعلانها ، يومئذ يكون الإنسان قد وصل إلى الكمال وفى هذا اليوم ينشر السلام على الأرض ، نعم فالسلام لن يترتب على عمل صناعى مطلقا كالاتفاقات الدولية وما إليها ، إنما الوسيلة الوحيدة لتحقيقه هى الوحدة الروحية ، وأحسن أن هذه الوحدة بدا فى العالم ظهورها وختاما لهذا الحديث أرتل حكمة غالبية من أحد كتبنا للقدسة ، وهنا أطرق ورتل حكمة بصوت عذب يصل إلى القلب بلفظه الأصلية أيبانا نقلها إلى الإنكليزية ومعناها على التريب ما يأتى :

« رب الأرباب وإله البشر جميعا تنزهت عن كل لون وجنس ، يامهيمنا على جميع الأمم وإن اختلفت ألوانها وحد بين قلوبها وألمهما تبادل المحبة وأيدها بروح الحق والعدل » .

وهذه الفكرة الدينية نزل بأجمل منها القرآن كآية « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » وكآية « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا الخ » وكآية « وتعاونوا على البر والتقوى الخ » انتهى .

﴿ جوهرة ﴾

[عجائب أسرار القرآن فى هذا التفسير معنى « اللس »]

قبل الانتقال من القسم الأول من (سورة الأعراف) والابتداء فى القسم الثانى للشمتم على قصص الأنبياء عليهم السلام يحسن أن أذكر من عجائب القرآن ما به يتذكر أولو الألباب ويميجون لآى التنزيل . قد جاء فى أول السورة « اللس » وقد أحلنا ذلك على أول (سورة آل عمران) ولكن للمنى هناك

علم ، والحاض بآل عمران ذكرته هناك عند قوله تعالى « أم تر إلى الذين أتوا » وأريد هنا أن أبين السرّ للصون والجوهر للكنون والحكمة البالغة والآية الباهرة والنور الزاهر والسلطان القاهر ، انظر وتعجب كيف اختير في أولها هذه الحروف الأربعة .

فاعلم أن للقصود من القرآن نتائج ، ولعمري ما لنا حظ من هذا القصص إلا ما انتفعنا به ، فإن لم ننتفع ولم نعلم فلا تفسير ولا علم ومحل الانتفاع في هذه السورة أمران اثنان يجمعان زهرة علومها ومقاصد حكمها وعمرات أخبارها : (أولهما) الاعتبار بهذه القصص والأخبار ، فالاعتبار هو الذي أزل له القرآن ومنه هذه السورة (الأمر الثاني) نصح الناصحين مع صبر المسترشدين بالعمل بالنصيحة ، وإلى الأول (ألم) وإلى الثاني (ص) فانظر قوله تعالى « ألم أنهك عن تلكا الشجرة وأقل لك إن الشيطان لكما عدو مبين » هذه الجملة تجميع مقصود السورة بتامها ، لأن أخبار نوح ومن بعده يقصد منها ملخص هذا المعنى ألم أقل لكما كنا ، فهذه الجملة تفيد كل ماسياتى من أن الإنسان إذا وقع في الجريمة فهو مقصر إذا وضعت أمامه الأدلة ، فالألف واللام والميم قد أدت مقصود هذه السورة إجمالاً ، وقوله « ألم أقل لكما الخ » تفصيل للجمل ، ثم نفس أخبار الأنبياء مع أنهم ترجع لهذا المعنى .

وانظر قول إبليس لآدم وحواء « إني لكما لمن الناصحين » وقول نوح « وأصبح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون » وقول هود « وأنا لكم ناصح أمين » وقول صالح « ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » وقول شعيب « ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » وقول موسى عليه السلام لقومه « استمعوا بالله واسبروا الخ » .

فهنا نصح من الأنبياء ومن إبليس ، وأحد الناصحين أمين كما في قول هود والنصيحة تلبس فلا يدري الإنسان أيهما أصدق ، نصح إبليس فعلم آدم بنصيحته ، ونصح الأنبياء فكفر الناس بهم ، فالأمين متروك والكاذب متبع ، هذه هي قضية هذه الدنيا ، لذلك يقول الله « ألم أقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » فالنصح والصبر على قبول النصيحة ممدوحان وفي كليهما الصاد ، ونصح الصادق فيه صعوبة ومشقة ، ولكن نصح الكاذب فيه لذة كالأكل من الشجرة ، يقول الله « ألم أنهك عن تلكا الشجرة » فهذا التوبيخ منصب على آدم وأولاده لأنهم يتبعون الشهوات بسبب النصح الفشوش فلا صبر عندهم ولا يميزون بين النصحين .

كل هذه المعاني مندججة في « المص » وتفصلها السورة بتامها ، فإذا تذكر المسلم في أكثر أوقاته هذه الحروف الأربعة كانت كثرها له ثميناً ، فهي تذكره بالتفريع على المعصية الشهوية وعلى عدم الصبر على الفضيلة وعلى عدم سماع النصيحة وتذكره بخصف الورق على أبويه من قبل ، فهذه أربع صادات : وهذه الألفاظ في نفس السورة كلها وتذكره بالقصص المذكور في هذه السورة إذ قال تعالى « فاتصص القصص » هنا هو المعنى الفهم من « المص » .

ولقد تبين لك في سورة البقرة أن « ألم » هناك تشير إلى قصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت ، وإلى قصة العزيز وقصة الخليل إذ يقول « ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه الخ » فكأنه في (سورة البقرة) ذكر المسلمين بأهم الأمور وهي أمران : الجهاد والعلوم الطبيعية والفلكية وغيرها ، وهذه الأخيرة تضمنتها قصة الخليل والعزيز ، وهكذا (سورة آل عمران) جاء فيها « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً الخ » يحذر المسلمين من الفرور الذي وقنا نحن فيه الآن ، وقد أوضحت هذا هناك إيضاحاً تاماً بإطنا وبيفت مسألة البقرة هناك لافي (سورة البقرة) لأنى لم أوفق لذلك إلا في (آل عمران) ، أما هنا فلن « للمص » تبيان لنهم القصص وتبميز النصح من الناصحين المختلفين والصبر على الشاق حتى تميز بين الأمين وغير الأمين

فهذه السورة فيها تشديد وتوبيخ وتمرير ولذلك زاد حرف (ص) فكأنه يقول في أول (البقرة) و (آل عمران) و (الأعراف) هكذا عليكم بالجهاد وحوز العلوم وإنا نتم ذلك فلإياكم والقرور لئلا تفرقوا شيئا وبذوق بضعكم بأس بعض. ثم لإياكم أن يفرم الشيطان بضعه، ألم يكن الشيطان عدوكم فليكن الصبر دينكم. هذا هو الذى انتح الله به هذا اللقاه والمجد لله رب العالمين. انتهى القسم الأول من سورة (الأعراف).

(القسم الثاني : من سورة الأعراف)

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولٌ أَرْسَلْتُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوْحَيْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا يَهْتَبُونَ .

التفسير اللفظي

قد علمت فيما مضى أن هذه السورة زلت للاعتبار بالأمم وهلاكها والبول وخرابها وأن هذه أول سورة جاءت لهذا النبي بحسب الترتيب الذى جاء فى السور لاجبب ترتيب الوحي، فابتدا بقصة آدم وحواء وإبليس وكيف كان أمرهم عبرة للعتبرين . فإبليس ألقى عن العالى وآدم وزوجه زلا إلى الأرض وحكم عليهما وعلى أولادها بالمسك فى الأرض وأن بقاءهم فيها متوقف على تنازع البقاء للبرعته بقوله تعالى « بضعكم لبعض عدوة » وفى قصص آدم نكتة جميلة وهى أن البيعة والتوارث من أسباب الأخلاق وتكوينها فى الأشخاص ، فكأن لما خالط إبليس غشه وهذا هو الدب والحلق بسبب (البيعة) أى الوسط ، وآدم لما أذبح خرج هو وكل ذريته إلى الأرض . والنبي يهنا من هذا القمص ما نراه مائلا أمامنا كل حين وهو أن للوسط والبيعة تأثيرا فى أخلاقنا وكذلك للبراث، قصة آدم منطبقه تمام الانطباق علينا معاشر أهل الأرض . إنا نعيش ظانين فزى ابن السيسى مسيحيا وابن اليهودى يهوديا وابن البوذى بوذيا وابن الوثنى وثنيا وابن الجوسى مجوسيا ، وهذا تأثير البيعة وتأثيرها فى الأخلاق .

وهكذا نجد للنسول من أسرة عريقة المجد طيبة الأصل غالبا يتخلق بأخلاقها . ومن كان أبواه طوبلين أو أبيضين أو أسودين خرج غالبا على هيتهما وهذا فى الشكل الظاهرى . وهناك بواطن لاندركا نراه قد تخلق بها كما نرى البصفور يلد البصفور والبازى يلد البازى والنخل ينتج نخلا . قصة آدم زينا أمرا هيبيا . تربنا أن فى هذا الوجود قد حكم علينا أن نعيش على صفات خاصة وأديان معلومة بوجها علينا تسلنا وتوارثنا وأوساطنا التى نعيش فيها .

وهذا هو الأمر الطيبى الذى خطه الله على الوجوه ورسنه فى القلوب . ولكن يمنع ذلك ما جاء فى قصص هؤلاء الأنبياء من أنهم فسكوا الأغلال عن الناس وكسروا الأصنام وأمروا الناس أن يندروا طاداتهم ويتركوا

ما عليه آباؤهم من الأخلاق والآراء، والمفاد وأن من بقي منهم على ذلك حاق به الهلاك وأودى به العذاب
وعليه ذكر هذه القصص كقصص قوم نوح وعاد وثمود وما بعدها ليقول لنا ذروا العادات واخلعوا عن
أعتاقكم ربقة الكسل والجود وارتحموا في الأسباب .

ثم إن الفطن إذا علم أنه في وسط وبيئة مملوءة من الأباطيل وأنه واحد من هذه البيئة له مالها وعليه
ما عليها يجد ويجتهد في تهذيب طباعهم وغسل أدرانهم وتطهير أخلاقهم ورفع رؤوسهم ولنا في الأنبياء
قدوة حسنة .

فصل كل عاقل أن يجد في تطهير المجتمع الذي هو فيه من أدرانها فيكون أقرب إلى ربه وذلك هو المقام
الأولى . وهاك قصص نوح عليه السلام .

اعلم أيها الدكي أن هذه القصة وما بعدها من سورة (الأعراف) وهكذا بقية قصص الأنبياء أكثرها
إنما نزل قبل الهجرة يوم لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم تابعون كثيرون .

فانظر هذه القصص وتأمل فيها تجد أن كل واحدة منها بتدريج بتكذيب الأنبياء وهلاك الأمم للكذب
وبقاء المؤمنين . ثم تراه يقول « فانتظروا إني معكم من المنتظرين » فلتأمل أيها الدكي كيف كان يقص هذه
القصص وليس في يده حول ولا طول ولا جيش بل كانوا يصلون خفية خائفين من الكفار . وإن من أعجب
المعجب أن يكون تاريخه صلى الله عليه وسلم كتواريخ الأنبياء الذين قصهم فكان في أول أمره مكذبا وفي آخر
أمره منصورا . وهذه في الحقيقة أكبر معجزة لأنه صلى الله عليه وسلم تنبأ بما سيحصل وقد تم كما جاء
به الوحي .

فانظر في هذه القصة يقول الله : والله (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه) فاللام واقعة في جواب قسم محذوف .
يقال إنه كان نجارا . ويقال إن أباه ملك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عليه السلام ، ومعلوم أن
إدريس بنى قديما المصريين وهو من القديسين عندهم ولعله (سيزوستريس) المذكور في كتبهم النقول
عن آثارهم .

وعلى هذا يكون نوح من أبنائه وهذه مما لا يقوم عليها برهان قاطع وليس بهنما من تحقيقها شيء وإنما
للقصود أنه أرسله الله (فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) وغيره يجر على اللفظ ويرفع على المحل
لأن إله مرفوع بحسب إصراره مجرور بحسب لفظه (إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) هو يوم القيامة أو يوم
زول العذاب بهم من الطوفان لأن التحقيق أن عذاب الناس في الدنيا والآخرة ولكن أكثر الناس لا يعلمون
أنهم معذبون ، فالعاصون والظالمون معذبون بظلمهم ، فإذا هلكوا ذهبوا إلى جهنم ليعتدوا دروسهم التعذبية
فيوم العذاب قد يكون في الدنيا كما هو في الآخرة .

ثم قال تعالى (قال للآمن من قومه) أي الأشراف لأنهم يمثلون العيون جلاله والقلوب مهابة (إنا لنراك
في ضلال مبين) بين (قال يا قوم ليس بي ضلالة) أي شيء من الضلال (ولكن رسول من رب العالمين)
والرسول يكون في الناية القصوى من الهدى (أبلغكم رسالات ربي) ما أوحى إلى في الأوقات للتطاولة
أو في اللغات المختلفة من الأوامر والنواهي واللواظم والبشائر . وهذه الجملة مستأنفة بيان لكونه رسول
رب العالمين (وأنصح لكم) وأقصد صلاحكم بإخلاص يقال نصحته ونصحت له ، والنصح أن تريد الخير لتفرك
أوهى النهاية في صدق الناية (وأعلم من الله ما لا تعلمون) فأعلم صفاته من القدرة والعلم وأنه لا يبرد عذابه
عن الكافرين (أ) كذبهم (ومهينهم) من (أن جاءكم ذكر) موعظة (من ربكم على رجل منكم) على لسان
رجل من جنسكم إذ تنكرون إرسال الأدمى ولا تصدقون إلا بملك من السماء وتقولون « لو شاء ربنا لأنزل

ملائكة» (لينذركم) ليحذركم عاقبة الكفر (ولتقوا) ولتخشوا بسبب الإنذار (وللکم رحمون) ولترحموا بالتصوى إن وجدت منكم (فكذبوه) ففسدوه إلى الكذب (فأنجيناہ والدين معه) يقال إنهم كانوا أربعين رجلا وأربعين امرأة . ويقال أيضا م تسعة : سام وحام وياث وهؤلاء الثلاثة أبناءه وستة آمنوا معه (في الفلك) متعلق بعه كأنه قيل والدين محبوبه في الفلك أى السفينة (وأغرقتنا الدين كذبوا بآياتنا) بالطوفان (إنهم كانوا قوما عمين) عمى القلوب غير مستبصرين ، يقال أعمى في البصر وعم في البصيرة . انتهى القسم الثانى من السورة .

(الْقِسْمُ الثَّالِثُ وَالرَّابِعُ : مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ)

وَأِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ
 الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ
 لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَلْفُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ
 نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوْحَيْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا
 إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ
 لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن
 كُنْتِ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي
 أَسْمَاءِ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ .
 فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ * وَإِلَىٰ
 نَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن
 رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءِ
 فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ * وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي عَادِ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ
 تَتَّخِذُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ يُؤْتُونَهَا فَذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوا فِي الْأَرْضِ
 مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْفِعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتْمَلِكُون
 أَنْ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا
 بِاللَّهِ آمِنٌ بِهِ كَافِرُونَ * فَفَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا
 تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّىٰ

عَنَّهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ
التَّائِبِينَ .

التفسير اللفظي

اعلم أن عاداً وحموداً من العرب البائدة كالعماقة وطسم وجديس وأميم ووبار وجرم وحضرموت ومن ينتمي إليهم . ويقال إنهم كانوا زحوا من بابل وحلوا بجزيرة العرب وجميع العرب البائدة من نسل سام بن نوح . أما الصالبي فمن نسل لاوذ بن سام . وأما جيتهم فمن نسل إرم بن سام . وعلى ذلك يقال عاد إرم وحمود إرم ثم قيل لكل من كان من نسل إرم بن سام إرمان .

هذا ملخص ما يقوله العلامة ابن خلدون، والكشف الحديث على الإجمال يؤيده ، فالعرب البائدة جميعهم آراميون إلا العماقة فإنهم من نسل لاوذ . ويقال إنهم ملكوا العراق وملكوا مصر ويسمون الرعاة . وقد كان في العراق دولة للآذيين ودولة السكندان ودولة العرب ودولة الأشوريين والدولة العربية المذكورة هي التي تسمى (الدولة البابلية الأولى) ورأسها يسمى (سومراي) للشهور كان في القرن الثالث والشرين قبل الميلاد وقيل إن عدد ملوكها (١١) ملكوا ثلاثة قرون وهذا رأى (مسيرو) . وفي أيام هذه الدولة العربية ظهر إبراهيم الخليل عليه السلام وقد كشف العلم الحديث ما كان لهذه الدولة من العلوم والقوانين ومجموع القوانين (٢٨٢) مادة وجدوا نسخة منها ١٩٠١ في بلاد السوس منقوطة بالحرف السامى على مسلة من الحجر الأسود الصلب طولها سبعة أقدام .

ولما غلبت هذه الدولة على أمرها نحو ٢٨٢ سنة قبل الميلاد وقد حكمت ٣٣٤ سنة خرجت من العراق إلى جزيرة العرب راجعة إلى موطنها الأصلي وأنشأوا في (اليمن) دولة عربية تسمى (دولة اليمنيين) كانت عظيمة جداً قبل دولة سبأ وحمير وآثارها ظهرت في العالم العربي اليوم .

ولقد كشف للمستشرق (هاليفي) لما سافر إلى بلاد الجوف وحدها ٧٩ نقشا في مدين ١٥٤٤ نقشا في براقتن بالقرب منها . ولقد حكم اليمنيون جزيرة العرب حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط وشواطئ الخليج الفارسي فكانت حكم جزيرة العرب كلها وهذه الدولة أفتاها السبثيون .

الكلام على عاد

إن العرب كما قلنا زحوا من العراق لما غلبوا على أمرهم فرجعوا إلى الجزيرة وقتلنا إن اليمنيين سكان اليمن أخذوا دورهم ثم أفتانم السبثيون وهذه الدول آثارها ظاهرة اليوم . هكذا نعلم أن العرب دخلوا مصر وقبوا بها نحو ٥٠٠ سنة أي من نحو الأسرة الثانية عشرة إلى نحو الأسرة الثامنة عشرة ثم طردهم للصربون فرجعوا إلى جزيرة العرب أيضا .

أفلا ترى أن يكون عاد من هؤلاء كاليمنيين المذكورين فيما تقدم وربما كانوا هم أنفسهم ولقد أفتانم أهل سبأ .

أولست ترى أن هذا القول يوافق ما هو معلوم أن قدماء المصريين كانوا ينحتون من الجبال بيوتا ؟ وكيف لا يكون ذلك وأنت ترى في جبالنا المصرية بيوتا منحوتة لأغراض خاصة وقد كانوا إذا اقتطموا حجارة من جبال مصر جعلوا هذا الاقتطاع هندسيا ليستفيدوا فأدبتين : البناء بما اقتطموا من الجبل والانتفاع بمكان القطع . فلذا قال الله « تنحتون من الجبال بيوتا » كان ذلك مما تعلموه من المصريين .

لطيفة

قد كان العالم الأثرى الفاضل كمال بك الذى هو أعلم الدماء فى فن الآثار للصربية يوما يلقي درسا عاتيا فيها عرفه من علوم قدماء المصريين فذكر لنا تاريخ حياته وأنه تعلم هذا العلم من ابتداء سن الخامسة عشرة من عمره وأنه أخذ عن علماء فرنسا وقال قد كنت أعثر من وقت لآخر على كلات أجدها مطابحة للغة العربية حتى أن الحيز وحده وجدت له ٤٢٤ كلمة مثال ذلك (خبز . عيش . خبز اللذ . كملك . بتاو) وهكذا قال وقد كنت أبحث فى (لسان العرب) و (القاموس) فأجد جميع الألفاظ عربية غاية الأمر أنها دخلها القلب والإبدال وهكذا وأرانا ١٣ جزءا أمامه قد كتبها مبينا اتفاق العربية مع لغة قدماء المصريين . ثم إنه بعد ذلك بسنين أتم هذا الكتاب ثم توفى قريبا رحمه الله .

فلما انصرف من ذلك الحرس التفت إلينا معاشر مدرسى اللغة العربية وقال قد وجدنا كتابة على النبر البحرى تاريخها فى الأسرة الثامنة عشرة ؛ ملخصها أن المصريين قد كثروا جدا فهاجر منهم طائفتان : طائفة ترحت إلى بلاد العرب وطائفة ترحت إلى بلاد المغرب فى شمال أفريقيا ، وعلى هذا يكون منهم عاد وعمود . أفلا ترون ذلك يا حضرات الأساتذة ؟ فواقفه للرحوم حتى بك ناصف وكذلك أنا (طنطاوى) وقلنا لا مانع من ذلك وليس عندنا ما يمنعه . فهذا آخر ما وصل إلينا من العلم فى أمر عاد من حيث التاريخ الحديث .

أما عمود فكان مقامها فى الحجر المعروفة بمدائن صالح فى وادى الترى بطريق الحاج الشامى إلى مكة . وقد وصلت لها السكة الحديدية المجازية . والذى ثبت الآن أن مدائن صالح وهى الحجر دخلت قبل تاريخ البلاد فى حكم النبطيين سكان بطرا . وبطرا هذه قصبة الأنباط مدينة صخرية قائمة فى مستوى من الأرض تحيط به الصخور وهى واقفة فى وادى موسى عند ملتقى طرق القوافل بين تدمر وغزة وخليج فارس والبحر الأحمر واليمن وأطلالها الآن باقية كشفها العلماء فى هذه الأيام . وهناك كتابات وقوش بالقلم النبطى وبجانها مرصع منقور فى الصخر ووراءه كهوف كثيرة منقورة وطبيعية وكانوا يسكنونها قديما وهى الآن بأوى إليها الفقراء من الطر القزير .

هذه هى (بطرا) التى هى عاصمة النبطيين الذين ملكوا الحجر وهى مدائن صالح التى كلالنا فيها ، فلقد وجد على أطلال تلك المدائن كتابة نبطية ، وقد زار هذه المدائن مستشرقون وقرءوا قوشا منقوشة فى الصخر منها أقاض تعرف (بصر البنت) و (قبر الباشا) و (القلمة) وقرءوا عليها ما نصه :

هذا القبر الذى بنته لكم بنت واثلة بنت حرم وكلية ابنتها وذريتها فى شهر طيبة من السنة التاسعة للحارث ملك النبطيين محب شعب فصى ذو الترى وهرشه واللات وعمند ومنوت وقبس تلن من يسبع هذا القبر أو يشتره أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيه أحدا غيركم وابتها وذريتها ومن يخالف ما كتب عليه فيلنن ذو الترى وهيل ومنوت خمس لعات وخرم الساحر غرامة مقدارها ألف درهم حرقن إلا من كان بيده تصريح من يدكم أو كلية ابنتها بشأن هذا القبر والتصريح يجب أن يكون صحيحا صنع ذلك وهب اللات بن عبادة . انتهى .

واعلم أن هذه اللومات التى وصلت إلينا فى العصر الحاضر ستزيد على مدى الأيام فإن بلاد العرب مشحونة بالأمور السجبية للدقوة تحت الترى .

كشف الأم العربية القديمة فى الصور القرية

اعلم أن أول من فكر فى كشف آثار آباءنا العرب مثل عمود وسبا وحير ومبين ولحيان وأمثالها إنما هم الألمان فى أواسط القرن الثامن عشر . وما دعام إلى ذلك إلا ما كان يسمه الفرنجة فى أسفارهم إلى الهند

عن طريق البحر الأحمر ومصر وما تتناقله ألسنة أهل شواطئ اليمن وحضرموت إذ يقولون عندنا آثار مدفونة عليها كتابات لانعرفها وأول من فكر في ذلك العالم (ميخائيلس) وهو عالم ألماني توفي سنة ١٧٩١ وهو الذي اقترح على [فردريك الخامس] ملك الدانمارك سنة ١٧٥٦ تأليف لجنة للبحث عن تلك اللدائن لذكرها في التوراة تحقيقاً للعلم .

وكان الرجل فيلسوفاً عالماً عظيماً فأرسل للذكور جماعة فأتوا إلا رجلاً يسمى (نيوهر) كتب كتاباً عن بلاد اليمن التي هي التصودة باللات وانتشر في أوروبا . وفي القرن التاسع عشر عرفت اللغة (الميريوغرافية) بمصر فطمع العلماء بأوروبا في معرفة علوم جيرانها .

ثم سافر (رتسن) الألماني سنة ١٨١٠ إلى اليمن فمقر على مدينة (ظفار) وبعد ذلك تنبه الإنجليز فأول الباحثين : الألمان فالإنجليز فالفرنسيون وهم أوسع مجالاً ومنهم العلامة (هالفي) سنة ١٨٦٩ بلغ مأرب ورجع معه ٦٨ نقشا ، وقد مرّ ببلاد الجوف التي هي قرب (صماء) وأهل صماء لا يطمون بها . ثم كشف معين للتقدمة وهو سائر إلى (نجران) ثم ذهب (أدوارد غلازر) إلى اليمن وهو عالم ألماني فوصل إلى مأرب ونقل معه ألف نقش وفيها كيفية بناء سد مأرب وإصلاحه .

ولقد أصبحت متاحف أوروبا الآن مملآة بآثار اليمن بعضها منقوش على الحجر ، وبعضها على البرونز ، وبعضها منقوش بالرسم أو الطبع يزيد عددها على ألفين . فهذه الرسوم والنقوش عرفنا بعضها من أخبار القرآن كما سيأتي في سورة (سبأ) والسد للذكور في القرآن وطوله وعرضه والجتان اللتان هناك كما سيأتي في سورة (سبأ) أيضاً .

هذا ملخص ما وصل لنا الآن من الكشف واهتمام أوروبا بالبحث في علوم العرب آباءنا وآثارهم لأنه ورد ذكر هذه الآثار في التوراة .

الحراقات

لقد كان كثير من أهل السير قديماً يتسلون بحكايات خرافية كمدينة ذكرها القصاصون تسمى (إرم ذات المئذ) بناها عاد وهي في اليمن لينافس بها قصور الذهب والفضة في الجنة، وأنه كتب إلى عماله أن يجمعوا جميع ما في أرضهم من الذهب والفضة والدرّ والياقوت والسك والعبير والزعفران فيوجهوا بها إليه ثم استخراج المادن من الذهب والفضة ثم استخراج عماله الجواهر من البحر وأتوا بالياقوت والزبرجد من المادن فضرب الذهب لبنا وبنى به المدينة وأمر بالدرّ والياقوت والجزع والزبرجد والمعيق فقصص به حيطانها وجعل فيها غرفاً من فوقها غرف بعمد من الزبرجد والجزع والياقوت ، ثم جعل تحتها واديا ساقه تحت الأرض ٤٠ فرسخاً وأجرأ في كل مكان تحتها وجعل حصباؤها الجواهر، وجعل على حافتي البحر أشجاراً من الذهب مثمرة ونمراها الياقوت والجواهر وطول المدينة ١٣ فرسخاً وعرضها مثل ذلك وفيها ٣٠٠٠٠٠ قصر مرسمة ومرسفة وقصره يعلو على القصور كلها واتخذ بنادق للسك والزعفران فألقبت في الشوارع وارتفاع البيوت ٣٠٠ ذراع والسور ٣٠٠ ذراع ومكث في بنائها ٥٠٠ عام .

هذه ملخصات علوم الأواخر وخراقات أرباب السير من المتقدمين .

يا أمة الإسلام

عجبا كنا نقرأ في القرآن أخبار عاد ونمود فنمرّ عليها مرّ الكرام كأن عاداً لبسوا من أسلافنا وكان نمواً ليست مساكنها في بلاد الإسلام .

ويا ليت همى كيف بحث الفرييون عنها ونحن نأثمون . ويدرسون آثارنا ونحن ظافون . بل يبحثون عن ضلّاتنا للقدس ونحن عن ذلك كله ساهون لاهون .

نعم إن قصة عاد ونمود لم ترد إلا للاعتبار بالأمة للكذبة ولكن واسواتاه واحسرتاه على أم الإسلام ،
إن سمعوا قوله تعالى « قل انظروا ماذا في السموات والأرض » قالوا قد عرفنا الله فلماذا تنظر ، وإن سمعوا
قصص الأولين قالوا إنها جاءت للاعتبار ومعرفة تغلب الأيام ونحن بذلك عالمون .

وعلى هذا أصبح القرآن في نظر الأمة الإسلامية كتابا يتلى . فأما للماني وللباحث فهم عنها تأمرون .
اللهم إلا للباحث الفقهية وليس منها إلا مائة وخمسون آية كما قدمنا . وبالأسف لا يستدلون بها إلا بما
للأئمة الأربعة رضوان الله عليهم وغيرهم من كبار العلماء .

بهذا وأمثاله نامت أمة الإسلام فليجدم فليكروا وعلى بلادهم فليحزنوا للجهالة العمياء والبلهات التبراه
والبومة الشوهاء السوداء ، وقد آن أوان استيقاظهم « والله بكل شئ محيط » .

وقد آن أن أفسر الآيات تفسيرا لفظيا بعد ما بينت اللقمان بقدر الإمكان فأقول : قال تعالى (و) أرسلنا
(إلى عاد) وهو عطف على نوح (أخاهم) واحدا منهم تقول يا أخا العرب للواحد منهم وإذا كان واحدا
منهم كانت الحجة أئرم عليهم (هودا) عطف ببيان لأخاهم وهو من نسل سام بن نوح كما تقدم (قال يا قوم
اعبدوا الله) إلى قوله (أفلا تتقون) وهذا ظاهر (قال للآ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة)
خفة وطيش وسخافة عقل (وإنا لنظنك من الكاذبين) في ادعائك الرسالة (قال يا قوم ليس بي سفاهة
ولكني رسول من رب العالمين) إلى قوله (وأنا لكم ناصح) فإيا أدعوكم إليه (أمين) على ما أقول لكم .
جمال الخطاب

اعلم أن مقابلة الأنبياء عليهم السلام من ينسبهم إلى الضلال بمثل هذا القول الجليل الرقيق اللطيف داع
إلى كسر حدة الحصم وهو الدواء الوحيد لتلطيف حذته وقوره ، بل ربما أذعن بمثل هذا الحلم . يقولون
« إنا لترك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين » فيقول : « يا قوم ليس بي سفاهة الخ » فلا يقول لا بل أتم
السفاهة ، فإن هذا من أخلاق الجاهلين ، والنفو وحسن البيان والأدب بالأنبياء والعلما أئرم . فهذا من الله
تعليم للأنبياء وللدعاة . وأما قوله « أو هيتم أن جاءكم ذكر » إلى قوله « لينذركم » فقد تضمن نظيره ثم
قال (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) أي خلفتموهم في الأرض أو في مساكنهم ، وإذ مفعول
به وليس ظرفا (وزادكم في الخلق بسطة) قامة وقوة (فاذكروا آلاء الله) جميعها (لعلكم تفلحون) لأن
ذكر النعم يؤدي إلى شكرها فيكون الفلاح (قالوا أجبنا لنجد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) وهذا
احتجاج كالذي تقدم في حجة إبليس للذكورة في أول السورة إذ احتج بأصله وهو النار ، وهؤلاء احتجوا
بصفة من صفات آباؤهم القلبية فاتبعوها وهذا برهان سفسطى (فائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) فيه
(قال قد وقع عليكم) قد وجب عليكم (من ربكم رجس) عذاب من الارتجاس وهو الاضطراب (وغضب)
إرادة الانتقام (أمجادونى في أسماء سميتوها أتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان) حجة أى في أشياء
سميتوها آلهة وليس فيها معنى الألوهية (فاستطروا) نزول العذاب (إني معكم من المنتظرين) ذلك (فأنجينا
والذين معه) أى من آمن معه (برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا) الدابر الأصل أو الكائن خلف
الشيء ، وقطع دابرهم : استأصلهم ودمرهم عن آخرهم (وما كانوا مؤمنين) وملخص القصة التي في كلام المفسرين
أن عادا قد ملكوا البلاد ما بين (عمان وحضرموت) وكانت لهم أصنام يبدونها صداه وحمود والمباه فبث
الله إليهم (هودا) عليه السلام فكذبوه فأمسك عنهم للطر ثلاث سنين وكانوا إذا نزل بهم بلاه طلبوا إلى
الله الفرج منه عند بيته الحرام فأوفدوا إليه قيل بن عنز ونسيم بن هزال ومرند بن سعد وكاف يكم
إيمانه بهود عليه السلام ، وأهل مكة إذ ذاك المالبق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح وسيدم
معاوية بن بكر فمزوا عليه بظاهر مكة فقال لهم مرند لن تسقوا حتى تؤمنوا بهود فظنوا مرندا وخرجوا

قال قيل: اللهم اسق عبادا ما كنت تسقيهم فأنشأ الله سحبات ثلاثا بيضاء وحمراء وسوداء ثم ناداه مناد من السماء يا قيل: اختر لضحك ولتومك فاختر السوداء على ظن أنها أكثر ماء فخرجت على عاد من واد لهم فاستبشروا وقالوا هذا عارض ممطرنا فجاءتهم ريح عقيم فأهلكهم ونجا (هود) وللمؤمنون معه فأتوا مكة فصدوا الله فيها حتى ماتوا اه .

أنا لا أطيل لك أيها الذكي في هذه القصة فقد أسمنتك ما قال للفسرون وما حققه علماء العصر الحاضر

ولم لك تقول أين فائدة القصة ؟

تقول أين فائدتها ؟ عاد هلكوا وماتوا بريح صرصر هاتية . وما لنا ولم ؟ . أقول : نستفيد فائدتين : فائدة أدبية وفائدة علمية . أما العلمية فقد تخدمت في البحث في الأرض البمانية . وأما الأدبية فاعلم أنه وإن لم تكن سحبات تنزل علينا اليوم ولم نخبر كما خبروا فإن هذه الأحوال تحصل لنا كل يوم ونحن فافلون ؟ ألم تر إلى الأمم الشرقية كيف يخترن بالقرنجة فيحتمون بهم ليضربوا بهم أعداءهم من جيرانهم الشرقيين ثم يتفحص عليهم القرنجة أيضا . وهذه قاعدة مطردة . يدخل القرنجي بلاد الشرق بالاستعانة ببعض أهل البلاد كما في العراق والشام ومصر وغيرها فيقلب القرنجة على أهل البلاد فيكونون سببا لخسارتهم وهذا هو الحاصل الآن تماما فيظن أهل الشرق أن هذا القرنجي نعمة عليه لئلا يهلكه إذا هو كالسحابة السوداء كثيرة الماء فإذا دخلوا بلادهم اتقلبوا عليهم ناراً وسيراً فابتزوا أموالهم . وكتم تفضل الترييون أهل الشرق فأذلوم أجمعين « إلا من رحم ربك » وما ربك بخافل عما يسمل الظالمون .

وهذه كقصة للسبح السجال من حيث إن الناس يطعمون في جنته إذا هي نار ، بل أكثر أمور الحياة هكذا نحن ننذب بما ظننا أنه نعيم ؟ فالمناصب والأموال والبنون كل ذلك يكون من أسباب الشقاء والتعب كما وضع في سورة (البقرة) فلنجل ذلك سلماً للفضيلة لانتيجة الحياة . قال تعالى (وإلى نوح) أي وأرسلنا إلى نوح من ذرية إرم بن سام بن نوح وم وعاد ونحوهم يقال لهم الآراميون نسبة لآرم ولذلك جاء في القرآن « عاد إرم » بالإضافة وهو ظاهر والتاريخ يوافق والكشف بينه . وقد تقدم ذكر مساكنهم بإصلاح ثم قال تعالى (أحاطم صالحاً) إلى قوله (قد جاءكم بينة من ربكم) آية ظاهرة شاهدة على صحة نبوتك فكانت سائلاً قال ماهذه البينة ؟ (قال هذه ناقه الله) أضافها لله للتعظيم والتخصيص لأنه كونه بلا صلب ولا رحم (لكم آية) حال من الناقة والمامل معنى الإشارة ولكم بيان لمن هي له آية وهي نوح لأنهم عاينوها (ففروها تأكل في أرض الله) أي الأرض أرض الله والناقة ناقه الله ففروها تأكل في أرض ربها من نبات ربها (ولا تمسوها بسوء) ولا تضربوها ولا تقربوها ولا تطردوها (فإخذكم عذاب أليم) وهو جواب التهي (وادكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم) وأنزلكم ، للباءة: للنزل (في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً) عرفاً للصيف (وتحتون الجبال بيوتا) للشتاء ويؤوا حال مقدرة كما تقول خط هذا الثوب أيضاً فالجبل لا يكون بيتاً حال النحت ولا الثوب لباساً في حال الحياطة (فاذكروا آلاء الله ولا تنشوا في الأرض مفسدين) . وملخص قول المفسرين في قصتهم أن عاد لما هلكت عمرت نوح بلادها وخلفوها في الأرض وحمروا أعماراً طويلاً فأفسدوا في الأرض وعبدوا الأوثان فبث الله إليهم صالحاً عليه السلام وكانوا عرباً وصالح منهم فلم يتبعه في دينه إلا للضعفون فأندرم فسأوه أن يخرج من صخرة بينها ناقه عشاء فصلى ودعا به فمضت فخرجت منها ناقه كما شاءوا فأمن به رهط من قومه (قال للآء الدين استكبروا من قومه للدين استضعفوا) للدين استضعفهم رؤساء الكفار ثم أبدل منه قوله (لمن آمن منهم) أي من قومه فيكون جميع للضعفين مؤمنين أو من الدين استضعفوا فيكون للضعفون قسامين كاهنين ومؤمنين (آمنون أن صالحاً مرسل من ربه) قاله على سبيل السخرية والاستهزاء (قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون) فكأنهم قالوا

إنا نعلم أنه مهمل ودليله إنا مؤمنون به وهو الجواب (قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون) فوضوا آمنتم موضع أرسل به ردًا لما جعله للؤمنون معلوما مسلما (فصقروا الناقة) أي منحروها وما منحروها إلا قدار بن سالف ولكن كان ذلك برضام ، وكان قدار هذا أحمر أزرق قصيرا (وعتوا عن أمر ربهم) تولوا عنه واستكبروا ، وهو ما بلغهم صالح بقوله (فذروها الخ) (وقالوا يا صالح اتقنا بما تمدنا) من العذاب (إن كنت من المرسلين . فأخذتهم الرجفة) الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها (فأصبحوا في دارهم جاثمين) خامدين مبتلين . قال القسرون : إنهم من جد عاد عمروا ببلادهم وخنفوم وكثروا ونحتوا البيوت في الجبل وكانوا في خصب من العيش فأرسل الله لهم صالحا وأجابهم إلى الآية التي طلبوها كما تقدم فخرجت الناقة من الصخرة ثم نتجت ولما مثلها في العظم فمكتت الناقة ترمي في الشجر وترد الماء غبا فلما ترفع رأسها حتى تشرب البئر ثم يحلبون منها ما يشاءون ويمشون أو انهم ويدخرون وكانت تصيف بظهر الوادي فتهرب أنعامهم منها إلى بطنه وتشتو يبطنه فتهرب مواشيهم إلى ظهره فشق عليهم ذلك فذبحوها واقتسموا لحمها وغاب الفصيل في الجبل بعد أن رغا ثلاثة أيام ، فقال لهم صالح تصبح وجوهكم غدا مصفرة وجد غد محرمة واليوم الثالث مسودة ثم صبحكم العذاب ، فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه فأجابهم الله في أرض فلسطين . ولما كان ضحوة اليوم الرابع تمنطوا بالصبر وتكفئوا بالأنطاع فأتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا . ثم قال تعالى (فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين) والظاهر أنه خاطبهم بهذا القول بعد موتهم كما خاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة في قلب بدر وهم ميتون .

سؤال ورد على المؤلف

لما وصلت إلى هذا اللقاع ، واطلع عليه أحد الأصدقاء أهل العلم للمكرين قال : أرى فائدة لهذه القصة في زماننا ونحن اليوم في عصر الحديد والبخار والغازات الحارقة والكهرباء والطائرات وزلزلة الأرض بأنواع الديناميت فلا ينتظر الناس أن تزلزل بهم الأرض زلزلة عظيمة طبيعية ، وأرى فائدة لمرفة ناقة خرجت من صخرة وتبعها ابنها ثم قتلت ، وأرى فائدة في ذكر أنهم شربوا لبنها ثم خاتوا فأتتهم الصاعقة ، وبإسبحان الله إن عصر التقلبات والآيات واللفاجآت قد مضى وانقضى وإن العقول اليوم لا ترى لهذا أثرا في الوجود ، وكيف يأتي كتاب سماوي يمثل هذا ، وما الفائدة إذا كان لا ينفع به الناس ؟

الجواب

أعلم أيها الحكيم أن هذا السؤال يرد على جميع العقول الذكية ، فمنهم من إذا مرّ عليه هذا الكلام بسكت ويقول في نفسه إنني إن نطق بهذا كفرت مع أن الله مطلع على قلبه ، ومنهم من يجهر ، ويقول إن الدين للموام أما نحن فنحن علماء فلا حاجة إلى الديانات عندنا ، هذا ما عليه للتدينون في هذه الدنيا شرقا وغربا . واعلم أن كل دين فيه أمثال هذه القصص ، ولو خلا دين من أمثال هذا لم تنبهه الأمم فإن الديانات جاءت ليفهمها الجهلاء بظواهرها ويستنتج منها العقلاء من أسرارها ومحاماتها وليس يخفى عليك كتاب (كلبلة ودمنة) الذي يقرأ في المدارس جميعها شرقا وغربا وفيه حكايات يفهمها الجهلاء بظواهرها ويدرسها الحكماء والفلاسفة والسياسيون بحسب باطنها ويستخرجون منها نظام الدول والممالك والحيل السياسية وهي بحر علم وفلسفة وحكمة وأدب وخلق وجمال ، وإذا كان هذا فيلسوفا فكيف بكتاب أنزل على نبي من ربه ، إن سائر الديانات ظاهرها سهل وفيها معان للحكماء لعلهم يتدبرون ، ولا تظنّ أني أقول إن ناقة صالح حكايات كتاب (كلبلة ودمنة) في أنها غير حقيقية فنحن نؤمن ببقائه وبما جاء في ظاهر القرآن ونسكل عليها إلى الله تعالى ولا نؤمن بالتفصيلات الطويلة التي لم يرد فيها نص ، فقال عرفت هذا وأرى فائدة فيها عند الخوامس ؟ قلت

اعلم أن أحوالنا التي نحن عليها ونشاهدها كل حين في بلاد الإسلام أشبه بما حصل لقوم صالح فالناقة نقرها كل سنة والرجفة تأخذنا كل يوم ونحن غافلون ، قال وأعجبا لك أنت رأيت الناقة وسمعت الرجفة ؟ قلت له وأنت أيضا لأنك من الذين رضوا بقتل الناقة فمذبوا ، قال هذا خارج عن العقول : فكيف تفسر القرآن إذا كنت تقول ما يخالف العيان ؟ قلت أنا أقول لك كما يقول القرآن ، قال قل : قلت انظر أليس أمر الناقة المذكورة أنها خرجت من صخرة وكان لها لبن يشربونه فتحروها ؟ قال بلى : قلت أليس الصخر يفتته للماء والهواء والحرارة فيصير حشا ورمالا ويمرر عليها الماء فينزل إلى السهل فيزرع فيخرج منه الشجر والزرع فتأكله الدواب فيخرج ألف ناقة وألف جمل ونحن نشاهد هذه الآيات ونكفر بها ؟ أوليس من الكفر بها أن تترك النعم التي أنعم الله بها علينا في السهل والجبل والسماء والأرض ؟ أوليست السموات والأرض من آيات الله ؟ كما أن ناقة صالح من آيات الله ؟ غاية الأمر أن الناقة يفهمها العامة والآيات الأخرى يفهمها الخاصة ، ألم يقل الله « وفي الأرض آيات للموقنين » وللووقنون أرقى من المؤمنين ، فلتن آمن قوم صالح بناقته وهي آية « وكأى من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » وقال الله تعالى « وجعلنا الليل والنهار آيتين » أفليست آية النهار أرقى ألف مرة من آية ناقة صالح ؟ أليس شروق الشمس بعد الإظلام وظهورها مشرقة تتلألأ كمروس تزينت بالحلى والحلل وقد نشرت على الأرض حللا ذهبية جميلة مشرقة بهجة بهية منيرة تغطي الحياة لسكل حي أكبر ألف ألف مرة من ظهور ناقة في صخرة يشرب منها قوم في قرية خاصة بل لانسبة بين الناقة وبين الشمس ، على أن الشمس لا يقدر على قتلها الناس ، فإنها قد تميت المحموم وكم أماس تضايقوا منها فلم يقدروا أن يقتلوا وهي باقية إلى اليوم والناس يحبون ويموتون وهي باقية ، والله سبحانه سماها آية وسمى ناقة صالح آية . فأما الأولى فهي آية العقلاء ، وأما الثانية فهي آية العقول الجامدة ، ولذلك جاءت هذه السورة لتوضح الفرق بين الآيات العقلية والآيات الحارقة للمادة كما سيأتي إيضاحه عند الكلام على سحرة فرعون وأنهم علماء فكان إيمانهم ثابتا ، أما الجهلاء من بني إسرائيل فإن إيمانهم اللبني على خوارق العادات لم يثبت أن تبدل كفرا ؟ فالسورة يراد بها إظهار الحقائق للمسلمين وأن الإيمان يمثل هذا إيمان العقول ، إيمان لا يثبت له ، أما العلوم الكونية فالإيمان التابع لبراهيتها هو الإيمان وهو اليقين ، فقال صاحبي : أى كفر كفرناه وأى ضرر أصابنا وأى مناسبة بين حالنا وحال قوم صالح ؟ قلت ألسنت تعلم أن الله أعطانا أرض عاد وعمود التي هي كانت أولا في اليمن ثم رحلوا إلى الأرض التي يقال لها مدائن صالح على ما يقال وعندنا أرض الحجاز ومصر وفلسطين وسوريا والعراق كل هذه وغيرها من البلدان المذكورة في القرآن ملك للمسلمين الآن ، ولا جرم أن هذا الملك أضخم من ناقة صالح ، أفلسنت ترى أن المسلمين لم يقوموا بشكر النعمة فحفظوا الأمانة التي استودعها الله إياهم ، فترى للمسلمين أقل الأمم علما وعملا وتجارة وصناعة فأى عقر للناقة أعظم من هذا ؟ إننا نحن الآن عقرنا آلافا من النياق عقرنا مضويا لأننا لم نعلم زراعة الأرض حق القيام ولا باستخراج مناجمها ولا بحفظ ثنورها ولا بتعليم أبنائها ولا بالاعتدال فإذا عقرت عمود ناقة خرجت من الجبل فنحن منعناها أن تخرج ومنعنا ألف ألف ناقة وبقرة وإنسان بتخريب الأرض وقلة حفظها . قال صاحبي : حينئذ أنا وأنت كافرون ، قلت كلا : بل نحن عاصون ، لأن انتشار الصناعات والعلوم فرض كفاية وكل عنه مسئول ، ألا ترى الله تعالى يقول في أول السورة « وذكرى للمؤمنين » ونحن للمؤمنون وهذه هي الذكرى .

ألا ترى أن أهل أمريكا الأصليين وهم الجنس الأحمر النحاسي اقتض عليهم الأوروبيون فأهلكوهم وأخذوا ديارهم ، لأن الله هو الذي فعل ذلك لأنهم ألبق لعمارة الأرض ، فأما الحجر للتوحشون فإنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وانظر إلى إخواننا عرب الأندلس في الزمن القريب كيف أقام الأسبان بالاعتدال مع أهل أوروبا وقتلوا أجمعين ، أليس ذلك لأنهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ؟ وأى ناقة

أعظم وأضخم من ملك الأندلس ، قال إذن تريد أن تخرج عن ظاهر اللفظ إلى المعاني التي ذكرتها ولكن أراه بعيدا عن القرآن ، قلت بل هو القرآن نفسه ، قال وكيف ذلك ؟ قلت لسببين : (السبب الأول) ماجاء في أول السورة من قصة آدم وإبليس ، ألم تر أنه خرج من تلك القصة التي لا يفهمها أصغر وأجهد إنسان في بني آدم إلى مسألة اللباس وكيف استنتج منها أنهم يجب عليهم أن يلبسوا اللباس في الطواف ، ثم ارتقى إلى أن القطن والسكتان والحريير التي هي لباس لنا من آيات الله وإلى أن هناك لباسا أغلا وأشرف وأعلى وهو لباس التقوى ، ثم طلب من بني آدم ألا يفتنهم الشيطان كما فتن أباهم آدم فخلع عنه لباسه ، فليس ينبغي أن يخلع عنكم لباس التقوى بالماضي ، فلا تقرروا الفواحش مظهر منها وما بطن .

فانظر كيف جعلت القصة درسا في الطيبة النباتية ، ودرسا في ستر العورة في الصلاة ، ودرسا في أن الشياطين يرونكم ولا ترونهم وهكذا . فإذا كان القرآن هو الذي فتح باب الفهم والعلم ، مع أن الكتب السبوية لا تتجاوز الظواهر اتكالا على العقول ، فكيف نغف عند الظاهر في قصة نمود والناقة . (السبب الثاني) أن الله لا يريد لنا هذه الآيات بل يريد لنا الآيات الكونية ، وهو القائل « وما منعنا أن نزل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتيننا نمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نزل بالآيات إلا تخويفا » فانظر كيف أبان أن خوارق العادات ليست مثار الهداية للأمم ، وإنما هي زجر وتخويف وانظر كيف خصص نمود والناقة .

فصل القادة والعلماء أن ينهوا المسلمين للأخطار الواقعة بهم وليوقظوهم من غفلتهم وليملوهم مقصود هذه الآيات وأن الله إنما يريد أن ننظر الحقائق ، ولذلك لما ألح كفار مكة على النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية مثل هذه ، قال الله « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم » قال وما السبب في أن خوارق العادات لا تنكفي للإيمان ، وأن الأمم الإسلامية يجب أن يكونوا مفكرين لأمقليين . قلت اعلم أن خوارق العادات أشبه بالتنويم المغناطيسي ، وكما كانت الأمم غافلة كان الكذب عليها أدخل ، وكما كانت أعقل كان العلم إليها أقرب والكذب عنها أبعد ، وهذا التنويم الآن شائع بين السياسيين والأطباء والدجالين وبعض رؤساء الديانات .

الطب

اعلم أن أهل الأرض جميعا بالنسبة للأطباء كالنومين ، ولو أنهم قالوا لهم الحق لم ينتفعوا بالطب لجهالتهم فإن أكثر الناس لا يطلعون ، وأيضا لو قال الأطباء الحق لم يكونوا أغنياء .

حكاية

قابلت طبيبا كان تلميذا بالمدارس التجهيزية وسألته عما يدركه الابن للمرأة التي قل لها . فقال الكشك والفجل وعدة أنواع كثيرة ، قلت وكيف ذلك ؟ فقال : تأخذ ماء الفجل مثلا وتنظفه ليلية الابن فتشربه وهذا أمر سهل ، ولكن الأطباء عندما قاعدة وهي أنهم لا يقولون للرضى إن دواءك هو قبا بين يديك ، لأنهم لو قالوا ذلك لاحترقوا الطبيب ولم ينتفعوا بدوائه ولم يعطوه نمودا ، وكما كان الطبيب أكثر حفظا لمركزه وأكثر إغرابا في القول والعمل كان ذلك أدعى للاعتقاد فيه ، ولو أنه تنزل للرضى وقال إن دواءك في الفجل مثلا أو في الملح لاحترق الرضى وقال إنه جهول بل يكتبون التذاكر (الروشته) بلغة لا يفهمها الجمهور حرصا على النفمة وجلبا للدراهم والناس جاهلون ، أليس هذا تنويما للناس وتخشية على عتولهم وهم لا يطلعون .

الدين

أنت ترى أن كثيرا من مشايخ الطرق يستملون أمورا غريبة ليصدقهم أتباعهم ويؤمنوا بهم ،

أليس ذلك كناية صالح ؟ وأن هذا الإيمان بالشيوخ قد يصد التليذ عن بعض العلوم ومتى علم قيمة في شيعة
رجع إلى العاصي وهو غوى شيطان ، كما قال تعالى « وما نزل بالآيات إلا تحويفا » وإنما الذي يحفظ الأمم
إنما هو العقل والتبصر ، أفلا ترى أن أكثر العامة في الإسلام يتبعون الشيوخ لأموالهم حتى يديهم ،
إما دجلا وتزويرا ، وإما بأفئور أخرى كالتى ذكرها ابن خلدون عن قوم يسمون البلجة متى أشاروا إلى
قطيع من النعم انبجبت بطون بعضها فيعطيم صاحب النعم بعضها ليتقى بها سوء الفقر والملاك ، فسواء صح
هذا أم لم يصح ؛ غلوارق العادات سواء أ كانت على يد صالح أو ساحر لا يمكن أن ترتقى بها أمة ، ولذلك
زى أتباع هؤلاء الشيوخ من الصوفية لا يرقون المجموع ، بل ترى معلوماتهم قاصرة على بعض الأحوال
ويبدون الكون وما حواء القرآن ومن تلاء وتقف القول مقصورة على شيوخم نائمة حول أضرحتهم
وم غافلون، فعل للسدين أن يملوا جميع الأمة تملبا عاما وإلا فلا حياة لهم ولا دنيا ولا دين . هنا ما يؤمله
وترجو الله أن يحققه .

السياسة

وأما تنويم السياسة فاعلم أن الساسة في أوروبا يقولون للشرقيين قد جئنا بلادكم لنخرجكم من الوحشية إلى
نعم للندية فإذا هم أكثر توحشا وأوسع بطونا وهم ظالمون . بهذه الكلمات يتسلى بها الشرقيون وهم كلات
يقولوا للنوم بالتقم بالفتح حتى تغفل عيناه ولا تسمع أذناه . ويصبح قليل العقل لا يعتاده النوم واتباع منومه
وذلك ضياع لقواء للآذية والعقبة .

هكذا إذا نامت أمة للسياسيين فإنهم يخرجون بلادهم وهم غافلون . وهكذا أتباع الشيوخ إذا نامت
عقولهم بما لأشياخهم كان رقيها محدودا .

ومن مصائب الإنسان أن يقف عقله عند حدود شيخ واحد وربما كان جاهلا . فالعقل الإنسانى أوسع
مجالا وأوفى علما وأرق عملا وأبعد أملا . ولست أقول إن جميع أرباب الطرق كذلك فإن كثيرا منهم
صالحون مصلحون .

التجارة

وهكذا ترى الأمم الترية حبت عقول الشرقيين بتجارتهن الجميلة للنظر فبهروم وأخذوا تهودم
فأصبحت بلادهم خاوية على عروشها من الجهالة العمياء ، فلا اقتصاد ولا أعمال ولا علوم، وهذا من نوع التنويم
والأخذ بالعبون وإقامة الأمم وإضعافها . ومن ذلك إشاعة الفسق والفجور في الأمة فيصبح الناس على
الفسوق عاكفين وبالكل راضين . سرح طرفك في بلاد الشرق التى احتلها الفرنجة تجدم بهذا
متصفين ، قال تعالى « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » انتهى الكلام على القسم
الثالث والرابع .

(القسم الخامس)

وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ
لَسَاءُ تُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ
إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ
كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرُوا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ *

التفسير اللفظي

(و) أرسلنا (لوطا) بن هاران بن تارخ وهو ابن أخى إبراهيم ، وإبراهيم عمه (إذ قال لقومه) بني أهل سدوم وإلهم كان قد أرسل ؛ وذلك أن لوطا عليه السلام لما هاجر مع عمه إبراهيم عليهما السلام إلى الشام فنزل إبراهيم عليه السلام أرض فلسطين ، ونزل لوط الأردن أرسله الله إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله تعالى وينهاهم عن فعلهم القبيح وقوله تعالى « إذ قال » أى وقت قوله (أنأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) وهذا توبيخ وتفريع على تلك القصة أى ما فعلها قبلهم أحد قط ، ثم بين الفاحشة فقال (إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء) وهذا مبالغة في الإنكار والتوبيخ والماقل يأتف أن يجعل اللبائبة لباع غير الولد ، فإن الشهوات أودعت غرائز لمقاصد التماسل وبقاء العمران (بل أنتم) أيها القوم (قوم مسرفون) مجاوزون الحلال إلى الحرام (وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون) من الفواحش (فأجيبناه وأهلكناهم) أى من آمن به (إلا امرأته) فلما كانت تسر الكفر (كانت من التابرين) أى الباقين في المذاب إنها كانت كافرة فهلكت مع من هلكوا (وأمطرنا عليهم مطرا) أى نوحا من الطر عجيبا . وبين في سورة أخرى بقوله « وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل » وهو الطين للطيخ (فانظر كيف كان عقاب المجرمين) .

روى أن لوط بن هاران بن تارخ لما هاجر مع عمه إبراهيم عليه السلام إلى الشام نزل بالأردن فأرسله الله إلى أهل سدوم يدعوهم إلى الله وينهاهم عما اخترعوه من الفاحشة فلم يتنوها عنها فأمطر الله عليهم الحجارة فهلكوا . وقيل خسف بالقيمين منهم وأمطرت الحجارة على مسافريهم . اه التفسير اللفظي لقسم الخامس .

(القسم السادس)

وَالِى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ • وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا حِوَجًا وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ • وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ • قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ • قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ جَاءَنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ • وَقَالَ

اللَّا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لئن اتبعتهم شعبيًا إنكم إذا لحاسرون * فأخذتهم الرجفة
فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعبيًا كأن لم يغنوا فيها الذين كذبوا شعبيًا
كانوا هم الحاسرين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت
لكم فكيف آسى على قوم كافرين *

التفسير اللفظي

أي (و) أرسلنا (إلى) أولاد (مدين) بن إبراهيم خليل الله (أخام شعبيًا) بن ميكيل بن يشجر بن مدین
وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراهجته قومه، ثم إن أم ميكيل بنت لوط وكان شبيب أعمى وكان قومه أهل
كفر وبخس في السكيات والليزان (قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم) يريد
المعجزة التي كانت له ولم يبينها القرآن (فأوفوا السكيات) للسكيات (والليزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم)
ولا تنقصوا حقوقهم (ولا تفسدوا في الأرض) بالكفر والحيف (بعد إصلاحها) بعد ما أصلح من أمرها
بالحسب والمدية باتباع الأنبياء (ذلكم) الذي ذكرت وأمرتكم به من الإيمان بالله ووفاء السكيات والليزان
وتركوا الظلم والبخس (خير لكم) يعني مما أنتم عليه من الكفر وظلم الناس (إن كنتم مؤمنين) يعني إن
كنتم مصدقين (ولا تصدروا بكل صراط توعدون) وكانوا يقطعون الطريق ولما أرسل شبيب كانوا يجلسون
على المرصد فيقولون لمن يريد شعبيًا إله كذاب فلا يفتنك عن دينك ويوعدون من آمن به بالانتقام
(وتصدون عن سبيل الله من آمن به) أي بالله (وتبخونها عوجًا) أي وتطلبون لسبيل الله عوجًا باللقاء
الشبه ووصفها للناس بأنها معوجة (واذكروا إذ كنتم قليلًا) عددكم وعددكم (فكفرتم) بالبركة في النسل
والنكاح والعدد (وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين) من الأمم قبلكم فلكم فيهم عبرة، وقوله (فاصبروا)
ترصوا وانتظروا، وقوله (حق يحكم الله بيننا) أي بين الفريقين بنصر المحقين على الباطلين (وهو خير الحاكمين)
إذ لا مقب لحكمه لأنه حاكم عادل منزّه عن الجور (قال اللأ الذين استكبروا من قومه) إلى قوله (في ملتنا)
أي ليكون أحد الأمرين: إما إخراجكم من القرية أوعودكم في الكفر، ومعلوم أن شعبيًا لم يكن في ملتهم
وإنما خوطب بما يخاطب به الدين آمنوا تغلبوا للجماعة على الفرد (قال) شبيب عليه السلام (أ) نعود إلى
ملتكم (ولو كنا كارهين) أي أتعدوننا في حال كراهتنا (قد افترينا على الله كذبًا) أي قد اختلفنا عليه
(إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها) وجواب إن محذوف يدل عليه ما قبله، يقول قد نخرصنا عليه من
القول باطلاً إن نحن رجعنا إلى ملتكم وقد علنا فسادها وأهذنا الله منها (وما يكون لنا أن نعود فيها)
وما يصح لنا ذلك (إلا أن يشاء الله ربنا) خذلانا وارتدادنا وهذا يفيد أن الكفر بمشيئة الله تعالى ومشيئته
على حسب ما سبق به القضاء وما سبق به القضاء على مقتضى حال المعلومات والاستعدادات والقوالب.

وكان نبينا صلى الله عليه وسلم يقول كثيرا «ياقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» (وسع ربنا كل شيء علما
على الله توكلنا) في أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار ويوفقنا لازدياد الإيمان (ربنا افتح بيننا وبين
قومنا الحق) احكم بيننا وبينهم، والفتح القاضى والفتاحة الحكومة. أو أظهر أمرنا حتى ينكشف ما بيننا
وبينهم ويثبت الحق من البطل (وأنت خير الفاتحين) القاضين أو الكاشفين الأمور (وقال اللأ الذين كفروا
من قومه لئن اتبعت شعبيًا) وتركت دينكم (إنكم إذا لحاسرون) لاستبدالكم ضللكه بهداكم ولأنكم
نحرمون مما تتلون من البخس والتطيف، وهذه الجملة سادة مسد جواب الشرط والقسم للوطأ باللام،

(فأخذتهم الرجفة) الزلزلة الشديدة (فأصبحوا في دارهم جاثمين) أى في مدينتهم ميتين . يقال إن لله حبس عنهم الرج سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر حتى هلكوا .

وقال قتادة: بعث الله شعبيا إلى أصحاب الأيكة وإلى أهل مدين ، فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلمة ، وأما أهل مدين فأخذتهم الرجفة صاح بهم جبريل صيحة فهل كوا جميعا (الذين كذبوا شعبيا كأن لم يبنوا فيها) استؤصلوا كأنهم لم يقيموا بها، وللغنى: للزلزل (الذين كذبوا شعبيا كأنوا هم الحاسرين) دينا ودنيا لا الذين اتبعوه كما زعموا فإنهم هم الزائلون من الوجود . وهذا رد على قولهم «لئن اتبعت شعبيا إنكم إذا لحاسرون» ثم قال (فتولى عنهم) بعد نزول العذاب (وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى) أحزن (على قوم كافرين) اشتد حزنه على قومه ثم أنكسر على نفسه فقال كيف يشتد حزنى على قوم ليسوا بأهل للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم . انتهى التفسير اللفظى .

لطيفة

ترى أن قصة أهل مدين وقصة قوم لوط قد ذكرنا بعد عاد ونمود لتكون العبرة شاملة والذكرى جامعة، فسما أن قوم عاد أهلكوا بما اختاروا لأنفسهم من السحابة السوداء فهبت عليهم ريح صرصر عانية وأصبح القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية فكانت العبرة في ذلك كما تقدم أن الأمم تغتر بوعود الأمم الخلابة فتكون عليها عذابا وهكذا نمود هلكوا بغير الناقه ، وكانت العبرة أن كفر التعم مؤد حراب الأمم .

هكذا كان في قوم لوط استبدلوا الرجال بالنساء فكان الهلاك الواقع عليهم مشيرا لما فعلوا فقال في سورة أخرى «جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل» وكذلك قوم شعيب نجسوا الناس أشياءهم في السكيا والليزان فأرسل عليهم حر شديد فأخذ بأنفسهم فلم ينفعهم ظل ولا ماء فدخلوا في الأسراب كما قيل ليردوا فيها فوجدوها أشد حرا من الظاهر فخرجوا هربا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فاظلمت وهي الظلة فوجدوا لها بردا ونسبا فتأذى بعضهم بعضا حتى إذا اجتمعوا نجت السحابة رجالهم ونساؤهم وصيبتهم أمها الله عليهم نارا ورجفت بهم الأرض من تحتهم فاحترقوا كاحترق الجراد في الليل وصاروا رمادا «إن بطش ربك لشديد» هذا ما يقال عن قوم شعيب عليه السلام .

تطبيق هذا على حال المسلمين اليوم

اعلم أن الأمم الشرقية اليوم قد افتنت بأهل الغرب الذين يحتلون بلادهم فنجسوا الناس أشياءهم . ومعنى ذلك أنهم يحبون متاجر الفاعين ويفرمون بمصنوعاتهم وهذا نجس لأشياء أهل وطنهم وظلم لقومهم فقد رثوا للأعداء ونجسوا الأولياء وهكذا في العلم فترام يحقرون دين آباؤهم وتاريخهم وينسون مجددم وهذا نجس لأبناء ملتهم وتحقير لشأنهم .

هكذا في الأزياء والأحوال . ترام يترزون بزيمهم ويتطبعون بطباعهم ولا ينطقون إلا بلغاتهم . وهذا نجس لأهل وطنهم . وهذا أشد وقسا من النجس في السكيا والليزان وإذا وظفوا أجنيا احترامهم ولو كان جاهلا . هذا هو الذى نفهمه من العبرة في ذلك . هكذا ترام يقبلون الحقائق وهذا كقلب الحقائق قوم لوط قلب الله على قريتهم سافلها .

هكذا ترى أهل الشرق حينما يفعلون ذلك ويحتمون بالأجانب ويلبسون ملابسهم ويشربون شرابهم ويشاركونهم في ظهورهم ولبسهم ويفرحون بهم . قد جعلهم ظلة لهم فاستظلوا بهم وربوا أولادهم على مشاربهم وأعطوا بعضهم شهادات دراسية كاذبة من بلادهم فيرجعون إلى الشرق وهم حاملوها وهم جاهلون فيجلسون على أرائك الحكم فيظلمون ولا يزالون على تلك الحال حتى ينقض عليهم أولئك الأعداء فيفتكون بالأم فتكا مريما ويسلبون الظالمين والظالمين .

هكذا كان ذلك بالأندلس . وهكذا هو اليوم في مصر والشام والعراق والهند . إن هؤلاء جميعا تقوم طوائف منهم يستظنون بظل الأم الغربية هم وناؤم وأولادهم كقوم شعيب حتى إذا اجتمعوا تحت الراية الأجنبية وتم لهم الفوز اقبلوا عليهم فأهلكوهم فصار النسيم مومنا والرحمة عذابا والنعيم جحيمًا .
 فالعبرة في القمص الأربع التي مضت راجعة لحفظ البلاد من الأعداء وعمارة الخراب وحفظ النسب والعلوم وألا يبغض الوطني ويعظم الأجنبي الخ ، فمن احتس بالأعداء أضر به الهاء ومن نبذوا تاريخهم أو لغاتهم أو أديانهم أو الجليل من عاداتهم أو لم يقوموا بما وهبهم الله من أرض وعقول فينموا ويرقوها أهلكهم الله وأذلهم كما فعل بالأمم السالفة .

حكاية مصرية

أخبرني منذ أيام مفتش من أفاضل المفتشين بوزارة المعارف للصربية قال : لقد ألف (فلان) الافرنجى كتابا في علم الفلسفة المربية لا أفهم له معنى ولا أعقل فيه لفظا عبارات غامضة وآراء خاملة وعلوم خاطئة ولحن مشين وعلم ركيك . قال فوافقه لقد طلب مني تقرير هذا الكتاب بوزارة المعارف ثلاثة وزراء على التوالي لما أجيبت لهم سوؤالا ولا أطمت لهم أمرا ، ولقد تركت الوزارة هاربا ورجعت إلى العلم تالبا انتهى .
 أقول إن سبب هذا أن الفرنجة لاحتلالهم بلادنا قبل استقلالنا يأمرون الوزراء أن يجعلوا كتب أبناء ملتهم هي التي تكون في مدارسنا لأنهم يملكون أنها لاتسمن ولا تنفي من جوع واوطنبون يحيونهم لذلك حفظا لمراكزهم واستبقاء لمرتباتهم وقيامًا بأوامر للسيطرين عليهم .

حكاية أخرى مصرية

إني أول ما ألفت من الكتب كتابا يسمى [جواهر العلوم] فقرره للفنثون في المعارف ، فلما علم بذلك وزير المعارف وكان متخرجا من مدارس (القرير) وهو من نسل تركي أخذ الكتاب وقرأه فرأى أن فيه مزج العلم بالدين فلم يرقه ذلك فعمد إلى الأمر بعدم تقرير الكتاب وذلك لأنه على غير اللبادى التي تعلمها وعلى غير النظام الذي تلقاه عن البشرين من الأوروبيين . انتهى القسم السادس .

(القسم السابع)

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ *
 ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ
 بَشْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ
 السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن
 يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * وَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضَعْفَىٰ وَهُمْ يُلْعَبُونَ
 أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ * أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرْتُونَ الْأَرْضَ
 مَن بَعْدَ أَهْلِهَا أَن لَوْ نَشَاءُ أَسْبَغْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَتَسَمَّوْنَ * تِلْكَ
 الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِمَّنْ آتَيْنَاهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا

كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ * وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ
عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ *

لقد علمت أن هذا القسم إنما هو درس على القصص للتقدمة ، ولقد جاء في أول السورة « وكم من قرية
أهلكناها » وأبان أن الهلاك ليلا أو نهارا . وقد جاء عند الآيات الكونية « ولا تفسدوا في الأرض بعد
إصلاحها » .

ولما كان أكثر الناس لا يفتقرون ما يرون في الأرض والسماء من العجائب التي ذكرت في القرآن وغيره
أبرزها على لسان الأنبياء كما تقدم عن شعيب . فإذا قال الله تعالى « ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها »
عند ذكر السموات والأرض أمر شعيبا أن يقولها لأن الجاهلين لا يفقهون إلا بالقصص وكان الأنبياء صدى
صوت الوضع الإلهي في الأرض والسماء ، فإذا كان الله جعل العالم منظما ومن لم يسر على النظام حرم من ثمرته
بطريق العقل . هكذا قال الأنبياء كما ظهر في وضع الكون ونظامه « إن ربك حكيم عليم » .

هذا مما ظهر في أثناء القصص فانظر كيف ألقى الله درسا عاما على الأمم تبييتا لما ألقاه في أول السورة
فأفاد أنه سبحانه يأخذ القرى بالخوف والبلاء والأمراض والأوجاع عسى أن يتدلوا الله ثم تصدق عليهم النعم
حتى يكثر زرعهم وضرعهم فيقولون إذا رأوا تماقب الخير والشر وقد أنزوا وتنعموا ماذا يضرنا لقد كان
آبائنا يتقبلون في الأمرين للنعم والبؤس والخير والشر والنعمة والضر فيأتيهم العذاب وهم لا يشعرون .
ثم قال إن البركات من السماء والأرض مرتبات على الإيمان لأنه يوجب الاتحاد وصفاء الأخلاق وهذان
يدعوان إلى الخيرات والبركات . ثم أعاد الدرس السابق في أول السورة ، فكما قال هناك « وكم من قرية
أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم غافلون » .

وقد ذكر القرى التي أشار إليها ، فأهل لوط جاءهم العذاب بياتا ، وقوم شعيب جاءهم نهارا هكذا قال هنا
ها أتم أولاء قد سمعتم ما حلّ بالأمم ، قوم هلكوا ليلا وقوم هلكوا نهارا كما قلنا ، أفأنتم أن ينزل عليكم
العذاب ليلا أو نهارا كما سمعتم ؟ أقول والله لا نأمن ذلك لأن الحروب في العصر الحاضر تأتي للأمم الغافلة
وهي على غير استعداد ، وقد جعل الله هذا القرآن ذكرى لنا ولقد رأينا الطائرات تحوم في الجو فتحرق قرى
السليين نارة ليلا وتارة نهارا في العراق وفي الشام وفي بلاد التراب كما كان في الأمم السابقة . فإذا قال الله
« وأما من أهل القرى أن يأتيهم بأسنا الخ » نقول والله لا نأمن يا الله فإن العذاب الذي ذكرته قد عايناه بأنفسنا
ولسنا بأبيدنا وأصبح للسليين اليوم حيارى سكارى من شدة الجهالة العمياء واتباع الشهوات .
إن للسليين اليوم ساكنين لجهل بعض علمائهم وشهوات بعض كبرائهم وهم غافلون تأهبون وسيصلح الله
أمرهم ويبيد عنهم عما قريب . حقق الله الآمال .

ثم يقول هل أمتكم مكر الله أوليس نظامه يقضى أن يهلك الدين لا يفتنون ، وكيف يضل الناس وهم
قد ورثوا أرضا بعد فناء أهلها وهم يظلمون على آثامهم ويدرسون توارثهم كما يدرس الناس اليوم تاريخ
قدماء المصريين وأهل سبأ وللمينيين وأهل أمريكا القدماء والأشوريين والبابليين .

يقول إنكم أيها الناس تفرحون بتاريخهم وتظلمون على آثامهم وأنتم تعلمون أنهم ما هلكوا بعد عظمتهم
ولا ذلوا بعد أفتهم إلا بعد أن غيروا نظمهم وعصوا علماءهم وطفخوا وظلموا فاقبناهم وجعلناهم مثالا لكم ،
أفلا تخافون أن أطبع على قلوبكم أي أختم عليها فلا تفهم الحقائق لتراكم الضلالات والبدع عليها فلا تعرف
الحق وتسكون الحياة كلها تقليدا وجهلا .

يا محمد . أما قصصت عليك قصص تلك القرى وقد كذبوا الأنبياء وقد طبعنا على قلوبهم هكذا نطبع على قلوب الكافرين لمشابهتهم لهم في الأعمال فتشابهوا في النتائج . إن أكثر الأمم لاعهد لها . إن أكثر أهل الأرض فاسقون لأن العالم الأرضي مقدمة لعالم أعلى منه وليس علما تاما كاملا والناس فيه أطفال جهال وسيتقلون في عالم أرقى بعد اللوت « ولكل درجات مما عملوا » .

تفسير بعض ألفاظ الآيات

(البأساء) البؤس والفقير (الضراء) للرض (يتضرعون) يتذللون (بدلنا مكان السيئة الحسنة) أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء نعمة ورحاء (عفوا) كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم ، يقولون عفا النبات إذا كثر ، وقوله (أهل القرى) أي التي أرسل إليها الأنبياء (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) بالمطر والنبات ، أو لآتيناهم بالخير من كل وجه ، وقوله (بما كانوا يكسبون) أي بكفرهم ، وقوله (أفأمن أهل القرى) عطف على قوله (فأخذناهم بئنة وهم لا يشعرون) وما بينهما اعتراض . والمعنى أبعد ذلك أمن أهل القرى ، وقوله (يياتا) أي تبييتا ، أو وقت يات ، أو مبيتين وهو في الأصل مصدر بمعنى البيتوتة وقوله (وهم نائمون) حال من ضمير « هم » البارز أو للستر في يياتا ، وقوله (أو أمن أهل القرى) أي أغفلوا وأمنوا وقوله (ضحى) أي ضحوة النهار وهو في الأصل ضوء الشمس إذا ارتفعت ، وقوله (وهم يلعبون) يلعبون من فرط اللغظة أو يشتغلون بما لا ينفعهم ، وقوله (أفأمنوا مكرآه) هذا تقرير لقوله « أفأمن أهل القرى » ومكر الله استعارة لاستدراج العبد وأخذه من حيث لا يحتسب ، وقوله (الخاسرون) أي الذين خسروا بالكفر وترك النظر والاعتبار وقوله « أو لم يهد » أي أو لم يبين فذلك عدت باللام ، وقوله (أن لو نشاء) أي أن الشأن لو نشاء . (أصبناهم بذنوبهم) وأن وما بعدها في تأويل مصدر فاعل يهد وقوله (ونطبع) أي نغتم (على قلوبهم) معطوف على ما يؤخذ من قوله « أو لم يهد » كأه قيل أيغل الناس فلم يبين لمن يرتون أرض من خلا قبلهم أنا قادرون أن نصيبهم بذنوبهم ثم قال « ونطبع » كأه يقول يفلون ونطبع ، ويصح أن يكون مستأفا وهو أسهل ، وقوله (تلك القرى) أي التي ذكرناها وهو مبتدأ خبره (نتمس عليك الخ) وقوله (بالبينات) أي للمجرات ، وقوله (وما وجدنا لأكثرهم) أي لأكثر الناس أو لأكثر الأمم للذكورين (من عهد) أي ولاء عهد فإن أكثرهم قضاوا ما عهد الله إليهم في الإيمان والتقوى بإزالة الآيات ونسب الحجج ، أو ما يعطون من اليهود وهم في عفاة فيقولون « لئن آجبنا من هذه لتكونن من الشاكرين » (وإن وجدنا أكثرهم لفاستقن) وجدنا علنا وإن هذه هي الخففة واللام فارقة . ويقول الكوفيون إن نافية واللام بمعنى إلا كأه قيل وما وجدنا أكثرهم إلا فاستقن . انتهى القسم السابع

(القسم الثامن)

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَأَنْظَرْنَا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَآتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثَمْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا

لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ * يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَإِذَا تَأْمُرُونَ * قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ
 وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَا تَوْكَّ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ * وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا
 إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا
 أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ * قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ
 وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ إِذْهَا هِيَ تَلْقَفُ
 مَا يَأْتِي فِكْرُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ *
 وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ * قَالَ فِرْعَوْنُ
 آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرٌ مُؤَمَّرٌ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا
 فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * لَا أَفْطَنُ أَبْيَدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ *
 قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ * وَمَا نُنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ ثَنَا رَبَّنَا
 أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ
 لِيَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَرْضَ؟ قَالَ سَتَقْبَلُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ
 قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ وَالنَّاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ نَأْتِيَنَّا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى
 رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ * وَلَقَدْ أَخَذْنَا
 آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصِ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ * فَإِذَا جَاءَهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا
 هَذِهِ وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّهُمْ طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ
 أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَتَمَنَّوْنَا لَكَ بِمُؤْمِنِينَ *
 فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْذَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
 وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ * وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ
 لَنْ نَكْشِفَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ وَنَكُونُ مِنَ الْفَائِزِينَ * وَلَنُرْسِلَنَّ لَكَ وَنُرْسِلَنَّ لَكَ وَنُرْسِلَنَّ لَكَ وَنُرْسِلَنَّ لَكَ
 الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُورِ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ * فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ

كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَأَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْفُونَ مَشَارِقَ
 الْأَرْضِ وَمَنَارِبِهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا
 وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ * وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ
 فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَمْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ
 إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * إِنَّ هُوَ إِلَّا مَتَجَرٍّ مَاهُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ
 أَبْنِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ
 الْمَذَابِ يُمْتَلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ * وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَوَعَدْنَا
 مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأْتَمَمْنَاهَا بِتِسْعِ قَمَرٍ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ
 هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا
 وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرَ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ إِلَّا بِالْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ
 مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَمَلَهُ ذَكَرًا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَمِيمًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ
 سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ * قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي
 وَبِكَلَامِي نَخَذُ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ * وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ نَخَذُهَا بِقُوَّةٍ وَأَمْرٌ قَوْمَكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ
 الْفَاسِقِينَ * سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِنَا الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ
 آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْعَنَىٰ يَتَّخِذُوهُ
 سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ
 حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خَلْقِهِمْ
 جِبَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمُ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ *
 وَلَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَنْ نَمُوتَ بِرِزْقِنَا رَبِّنَا وَيَنْفِرْنَا لَنَا لَنْ كُونَنَّ
 مِنَ الْخَالِسِينَ * وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَ مَا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَدَنِي
 أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَابَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ

استتضمفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين *
 قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين * إن الدين اتخذوا
 العجل سيناً لهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا وكذلك تجزي المفترين * والذين
 عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم * ولما سكنت
 عن موسى الغضب أخذ الألواح وفي نسخها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون *
 واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت
 أهلكتهم من قبل وإني أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من
 تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فاعفر لنا وارحمنا وأنت خير النافرين * واكتب لنا
 في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدانا إليك قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي
 وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون
 الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدهم مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل
 يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث
 ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه
 واتبعوا النور الذي أنزل معك أولئك هم المفلحون * قل يا أيها الناس إني رسول الله
 إليكم جميعاً الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله
 ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون * ومن قوم
 موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون * وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً وأوحينا
 إلى موسى إذ استسقاه قومه أن يضربهم من السماء حجراً فأنجيت منه اثنتي عشرة قبيلة
 فذللنا كل أمة شريرهم وظللنا عليهم النمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى كلوا من
 طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون * وإذ قيل لهم اسكنوا
 هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً تنفروا لكم
 خطيأتكم تنزيه المحسنين * فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذي قيل لهم فأرسلنا

عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ * وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ
 إِذْ يَمْدُون فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيَتَانِهِمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ
 كَذَلِكَ تَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَإِذْ نَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ
 أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا
 بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ *
 فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبَيِّنَنَّ عَلَىٰهِمْ
 إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ
 وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّةً مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ
 لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * تَخَلَّفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذَىٰ
 وَيَقُولُونَ سَيُفْرَقَ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ
 أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ
 أَفَلَا تَتَّقُونَ * وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ *
 وَإِذْ تَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا
 مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ
 أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا قَافِلِينَ *
 أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
 الْمُبْطِلُونَ * وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

قد أخرج الله عز وجل هذه القصة لطول الكلام عليها، ولما فيها من العبر والآيات، ولقد كان زمانها جد
 ما تقدمها وكم فيها من عبرة . وكم فيها من حكمة . ألم تر كيف كان موسى عليه السلام تارة يحاج القراعة
 ويدعو إلى الله ثم يحاج قومه ويهتلمهم أخرى . وكيف أفادت تلك الماوارات الفرعونية ما كان في مصر من
 المجالس النابية والحكومات الشورية مع وصفهم بالظلم وبعدهم عن العدل مع التراب . ثم كيف استبان
 ما للإيمان للبي على العلم من الأثر الشريف والفضل اللئيف . وكيف كان السحرة أثبتت إيماننا وأعلى بنيانا
 من جهة بنى إسرائيل إذ قالوا « يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » وكيف رضى السحرة للصربون أن
 يموتوا وهم موقنون ورضوا بالقتل وهم منتلمون . وكيف عبد بنو إسرائيل مجلا مصنوعا من الذهب بعد

ما رأوا العاصي ثلثت نعبانا فهم بذلك أشبه بالصبيان يفرحون بالحلوى حتى إذا شموا أكلوا غيرها وكالذين يبيعون الرطب من التخل الذي هم زارعوه يأكلون رطباً كثيراً فإذا شموا منه أكلوا سمكا مملحا وهكذا شأن جميع الناس في أمورهم الجسمية يستحبون تغيير الناظر والأطعمة واللابس والأرياء والسفر إلى البلدان تروعا للنفس من عناء الأعمال .

فالعالم للادى كثير التلون والتغير وعلى ذلك لاثبات له . فأما الثبات فليس يكون إلا لعالم للعنويات والبراهين العقلية والعلوم الرياضية والحجج المنطقية فتلك هي العلوم الباقية والآراء الثابتة والأحوال الصادقة . فانظر كيف كان إيمان الجهل أضعف أنرا وأقل دواما وكيف أضلّ السامري بنى إسرائيل إذ صنع لهم « عجلا جسدا له خوار » فقال « هذا الحكم وإله موسى » .

وفي هذه الآيات دلالة أن الجهاد من الهدى إلى اللحد فإن موسى عليه السلام بعد أن حاج للصريين ونجى قومه وذهب إلى التيه معهم أصبح في جدال وحوار معهم وهم يكفرون نارة ويؤمنون أخرى فهو محارب لعدوه وعلى حذر من قومه ولكن الماغبة للمتقين ، فقد فازوا بقبولهم الأنواع واهتدوا بهديه وأصبحوا مؤمنين . فهذه القصة تعطى علم الصبر وأن النجاح يتبعه وتزيدنا أن الإيمان اليقيني لا سبيل إليه إلا بالملم ولا نجاح لأئمة إلا بالملم ، فأما التقليد فإنه شر مستطير . فالأول كالسحرة والثاني كبنى إسرائيل ، وتعلمنا أن الإنسان مجاهد مادام حيا فلا يركن إلى أحد فإنهم جميعا متقلبون وليس الحذر من الصديق بأقل قوة من مقاومة العدو بل الأولياء والأصدقاء هم الذين يراقبون لأن القلوب متغلبة والنفوس الإنسانية غير ثابتة كالمادة التي فيها يتقلبون ، وأيضا هؤلاء ملازمون والأعداء مفارقون وللمعاشرة إذا ضرب لم يخطئ في ضربته بل يصيب للرمي ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « رجنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس » وذلك لما رجح من إحدى الغزوات ، وترى هذا واضحا في هذه القصة فإن موسى كانت عدوة فرعون له وقتية ونجما منه . أما قومه وأهله فقد تلوّنوا مرات كثيرة : شموا للنّ والسوى . وعصوا أن يدخلوا الباب سجدا . وعبدوا النجل وهكذا فلا تظهر عورات الأمم إلا في حال أمنها . أما في حال الخوف فإنهم بالمدوّ مشغولون .

وهؤلاء لم تظهر عيوبهم إلا بعد أن خرجوا من مصر ففرغوا لما استمدت له نفوسهم من التلون والتفرس والتباوة والشك والإشراك ولذلك ختمت هذه القصة بآية أخذ العهد وسيأتي أن العهد الذي أخذه الله على الناس يرجع إلى نظام العالم وجماله وكأه ناطق بفسيح العبارة أن الله لا رب سواه ، وأردف ذلك بقصة من هو عالم وترك العلم فلم يعمل به وعصى وانسلخ منه وصار شيطانا مريدا .

فأمم ما في هذه القصة العلم اليقيني ولا يكون إلا بالنظر في الطبيعة بدليل العهد للأخوذ على الناس في مناظر الأرض والسماوات ويتلو العلم الصبر والأخلاق الفاضلة وتكون النتيجة الفوز والنجاح .

وتعجب كيف تكون هذه القصص كلها على نسق واحد وقد كانت تتلى على السليين وهم ضعفاء فتقوى عقائدهم ، ثم كيف أصبحوا أقوياء مشاكلة لقصص الأنبياء . هكذا تكون العلوم . وهكذا تكون المعجزات . وهذه هي الفوائد المستتجة من الآيات ، لا فائدة إلا بنحو ما ذكرناه ولا تضع إلا في نحو ما حررناه . فأما القراءة المنطقية والتفسيرات الحرفية فإنما هي شأن القارئ وقراء القرآن المجودين ولكن حياة الأمم بالاستنباط والاستدلال ، والرقى بغير ذلك وأمثاله محال .

ولنبدا بالتفسير اللفظي فنقول : قال تعالى (ثم بثنا من بدم) الضمير للرسول في قوله « ولقد جاءهم رسلكم » (موسى بآياتنا) بالمعجزات الواضحات (إلى فرعون وملكه فظلموا بها) فكفروا بآياتنا أجرى مجرى الكفر لأنهما من واحد وفرعون لقب لكل من ملك مصر ككسرى ملك فارس (فانظر كيف كان عاقبة للفسدين) أي انظر يا محمد بين العقل والبصرة كيف فعلنا بهم وكيف أهلكنام (وقال موسى يا فرعون

إني رسول من رب العالمين) إليك قال فرعون كذبت فقال موسى (حقيق على ألا أقول على الله إلا الحق) أي أنا خريس على أن لا أقول على الله إلا الحق (قد جشتم بيئنا من ربكم فأرسل معي بنى إسرائيل) غلظهم يذهبوا معي راجعين إلى الأرض للقدسة التي هي وطنهم .

وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفي غلب فرعون على نسل الأسباط واستبد بهم لأن للصريين القدماء كأهل الصين لا يسمعون للغريب أن يطأ بلادهم ، ولكن لما دخل العرب الممالقة مصر واستوطنوها نحو خمسمائة سنة أباحوا دخول الأجانب كالعبرانيين .

ولما شب يوسف عليه السلام وعظم شأنه وأصبحت في يده خزان مصر أرسل إلى أبويه وإخوته فأتوا مصر وبعد مدة رجع للصريون إلى فكرة الخوف من الأجانب فاضطهدوا بنى إسرائيل بحكم تنازع البقاء فجاء موسى وقال لفرعون فأرسل معي بنى إسرائيل .

وللدة بين دخولهم أيام يوسف وخروجهم أيام موسى الذي أتقدم أربعة مائة عام (قال إن كنت جئت بآية) من عند من أرسلك (فأت بها إن كنت من الصادقين) فأتني بها لتصح دعواك ويثبت صدقك فيها (فأتني موسى عصاه فإذا هي) إذا هذه للفاجأة وهي ظرف زمان بمنزلة تمت وهناك (ثمان ميين) حبة عظيمة وقوله « ميين » ظاهر .

روى أنه لما ألقاها صارت ثمانا أشعر فأغراها بين لحية ثمانون ذراعاً وضع لحية الأسفل على الأرض والأعلى على سور القصر ثم توجه نحو فرعون فهرب منه وانهمز الناس مزدحمين فأت منهم (٢٥) ألف نسمة الخ .

وهذا لم يذكره القرآن فلا نعرف إلا ما جاء به أو ما ثبت في أحاديث قام البرهان على صحتها . وعلى كل فالهمم في هذا كله العبرة من هذه القصص ، فالقصص تذكر بمناسبتها العلوم وما عدا ذلك يكتبني به القاصرون .

واعلم أن هذه الحية العظيمة كانت خفيفة الحركات فمن يراها يظن أنها جان أي حية صغيرة كما في آية أخرى « كأنها جان » أي في خفة الحركة فهي كبيرة الجسم خفيفة الحركة (وزرع يده) من جيبه أو من تحت إبطه (فإذا هي بيضاء للناظرين) معناه أن البياض لم يكن من جبلتها وطبيعتها لأن سيدنا موسى عليه السلام كان آدم شديد الأدمة فليس في يده بياض فلما أدخلها في إبطه وأخرجها إذا هي بيضاء نورانية غلب شعاعها شعاع الشمس فصار بياضها للناظرين لا في جبلتها ، ويصح أن يقال بياض خارجاً عن العادة تجتمع عليه النظارة (قال للآ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم) . ولقد جاء في سورة الشعراء « قال فرعون للآ حوله إن هذا لساحر عليم » اعلم أن مجلس الأعيان والنواب عن البلاد والملك على رأسهم متى تشاوروا في أمر وأقرؤه بدللراجمة والمهاورة أصبح مقولاً لهم جميعاً ، وإذا كان هذا قولهم هنا وقول فرعون في سورة القصص فعناه أن الأمر كان شوري وكان الرأي متى تم عملوا به بدليل أن للآ قالوه هنا وفرعون سيقوله في الشعراء فإن الحكومة لا تصل بالمشورة إلا بعد تمامها فكان ذلك إشارة إلى الحكومة للنظرة إذ ذلك يقول للآ ثم تقول الحكومة وقول للآ جل في القرآن في السورة التي تقدمت على السورة التي ذكر فيها قول فرعون وهذا من عجائب العلم والحكمة . تقول الأمة فتخضع الحكومة . ومعنى كونه ساحراً علياً أنه يأخذ بأعين الناس حتى يخيل إليهم أن العصا صارت حية ويرى الشيء بخلاف ما هو عليه كما أراهم يده يضاء وهو آدم اللون وقد كان السحر غالباً في مصر (يريد أن يخرجكم من أرضكم فإذا تأمرون؟) تشيرون في أن تعمل (قالوا أوجبه) أي أوجبه أي أخره أي أخر أمره ، وقرئ « أوجبه » على الأصل (وأخاه) هارون (وأرسل في اللدائن حاشرين) جامعين (يأتوك بكل ساحر عليم) ماهر بصناعة السحر (وجاء السحرة

فرعون) بعد ما أرسل لهم الشرط في طلبهم (قالوا إن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين) وهذا جواب سؤال
 كأنه قيل ماذا قالوا إذ جاءوا؟ (قال نعم) إن لكم لأجرا (وإنكم لمن اللقمة بين) عطف على الجملة التي سبقتها
 نعم (قالوا يا موسى إما أن تأتي وإما أن نكون نحن الملقين؟) خيروا موسى مراعاة للأدب أو إظهارا للجلادة
 وإن كانوا هم أنفسهم يرغبون أن يلقوا قبله (قال ألقوا) من باب الكرم والتسامح وحسن الخلق والأدب
 اللائق بالأنبياء (فلقوا سحروا أعين الناس) بأن خيلوا إلى الأعين ما يخالف الحقيقة (واسترهبوم)
 وأرهبوم إرهابا شديدا كأنهم طلبوا رهبتهم (وجاءوا بسحر عظيم) في فته . يقال إنهم طلبوا تلك الحبال
 بالزئبق وجعلوا داخل تلك العصي زئبقا أيضا وألقوها على الأرض فلما أثر حر الشمس فيها تحركت والتوى
 بعضها على بعض حتى خيل للناس أنها حبات والأرض إذ ذاك قد امتلأت بالحيات وأوجس في نفسه خيفة
 موسى لأجل فزع الناس خيفة أن يفرقوا قبل ظهور معجزته (وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك) فألقاها
 فصارت حية (فاذا هي تلف ما يافكون) أي تتلع ما يزورونه من الإفك، والإفك هو صرف الشيء عن وجهه
 يقال إنها لما تلفت حبالهم وعصيم وابتلعها بأسرها أقبلت على الحاضرين لتبتلعهم أيضا فهربوا وازدحموا
 حتى هلك جمع عظيم منهم ثم أخذها موسى فصارت عصا كما كانت فقال السحرة لو كان هذا سحرا لبقيت
 حبالنا وعصينا (فوقع الحق) ثبت لظهور أمره (وبطل ما كانوا يعملون) من السحر والعارضة والافك
 (فقلبوا هنالك واقلبوا صاغرين) أي صاروا أذلاء مبهوتين، أو رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين، والضمير
 لفرعون وقومه (وألقى السحرة ساجدين) قد: أي إن الله حملهم على السجود حتى ينكسر فرعون وينهزم
 بمن آتى بهم عدة ليكسر بهم موسى واقلب الأمر عليه فإن الحقيقة تظهر ويغدماها ما هو في جانبها وما هو في
 سف عدوها على السواء، فالحقيقة غالبية ولو بعد حين ومادام الإنسان على الحق فاه غالب لا محالة (قالوا آتانا
 رب العالمين رب موسى وهرون . قال فرعون آتتم به) بأنه أو بموسى (قبل أن آذن لكم إن هذا
 لمكر مكرتموه) أي إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أتم وموسى (في المدينة) في مصر قبل أن تخرجوا
 للبعاد للضروب (لتخرجوا منها أهلها) أعنى القبط وتخلص لكم ولبنى إسرائيل (فسوف تعلمون) عاقبة
 ما فعلتم، وهذا تهديد مجمل، ثم فصله فقال (لأقطنن أيديكم وأرجلكم من خلاف) من كل شق طرفا (ثم لأصلبكم
 أجمعين) تفضيحا لكم وتنكيلا وخزيا لكم وعبرة لتبركم . (قالوا إنا إلى ربنا متقبلون) بالموت فلا نبالي
 بوعيدك . وقيل في اللعين :

وإذا لم يكن من اللوت بدء لمن العجز أن تكون جيانا

ثم قال الله تعالى (وما تنقم منا) وما تنكر منا (إلا أن آتانا بآيات ربنا لما جاءتنا) أي ما تنكر منا إلا
 إيماننا ولاجرم أن حرية الفكر هي مبدأ السعادات فإذا لم تكن أحرارا في أرائنا فالقبر خير لنا ولم يبق لنا إلا
 الرجوع إلى الله (ربنا أفرغ علينا صبرا) أي هب لنا صبرا واسعا وأكثره علينا حتى يفيض علينا ويغمرنا
 كما يفرغ الماء إفراغا (وتوفنا مسلمين) ثابتين على الإسلام . قبل إنه لم يفعل بهم ذلك فلم يقدر على إنقاذ
 وعيده فيهم لما جاء في آية أخرى «أنتا ومن اتبعك العالبون» وهنا قد فرغت الحاجة وحذل القوم من جهة
 السحر، وعادة القوى أن يستعمل الحجة فإذا بطلت استعمل القوة وهذه عادة الأقوياء مع الضعفاء وأوروبا
 مع أهل الشرق ولذلك أعقبه بقوله (وقال للآمن قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض)
 أي أرض مصر بالاستعلاء فيها وتغيير دين أهلها (وبذرناك وآلمتكم) معطوف على يفسدوا . ومعلوم أن
 مصر فيها معابد كثيرة وفيها أبو الهول وغيره وكانوا كالمصائبين يبدون الكواكب ويحملون لها على الأرض
 أسنما تبنى لتأخذ بألباب العابدين ولهم جداول وقيه للكواكب السبعة وفيها حساب دقيق قد ذكرت ملخصة
 في أول سورة البقرة وأن الله هو الواحد فله عدد (١) وأما المادة التي بها هذه الكائنات فلها عدد (٢)

وزحل (٣) والشتري (٤) والريخ (٥) والشمس (٦) والزهرة (٧) وعطارد (٨) والقمر (٩) وقد كانوا يجمعون لها درجات يكتبونها في صحائف من ذهب في أوقات خاصة لمنافع بزعمون أنهم ينالونها ونلك للريجات ناشئة من ضرب المدد في نفسه . فثلا للشتري له عدد (٤) وشكله (١٦) وتجد الأعداد في الطول والعرض إذا جمعتها تكون متساوية وهي تبندى بواحد وتنتهى بمدد (١٦) وكل صف أفقى أو رأسى أو قطر من القطرين مجموع (٣٤) فإذا كان الصف الأعلى (٤) و (١٤) و (١٥) و (١) والذى تحته (٩) و (٧) و (٦) و (١٢) فانك تجد كل واحد (٣٤) وهكذا . وللعاء الارتعاطيق في هذه الأشكال قواعد يمكن وضعها بها في غاية السهولة . ويظهر أن هذه الأشكال كانت تحلب عقولهم إذا علموا أن حسابها منظم مدهش فتحدث في النفس الانسانية استهواء نصير في حال أشبه بحال التنويم الغناطيسى ، فيمثل هذا كانوا يبدون الصور للصنوعة والصور للصنوعة قائمة مقام الكواكب والكواكب من صنع الله الذى هو الواحد وهي من تكرار الواحد فلو كان الواحد ما كان الاثنان وهو للادة ولولاها ما كان الثلاثة وهو زحل وهكذا فكل واحد هو وما قبله سبب فيها بدمه كما أن كل عدد هو وما قبله علة لما بعده . هذه هي الآراء التي كانت فاشية عند أكثر الأمم القديمة . ومعلوم أن فراعنة مصر كانوا ينسبون للعلوم العلوية انتسابا خرافيا ككوكب الصين وملوك اليابان ولولا بطلان الآراء القديمة ما تقدم نوع الانسان لأنه إذا كانت الكواكب السبعة هي التي وقف عليها علوم البشر وحاموا حولها وجعلوا النظام الالهى الشمسى قاصرا عليها حتى تصل إلى القمر الذى من تحته عالمنا الأرضى فما كان يتسنى للناس أن ينظروا السيارات الجديدة مثل (ارورانس وبنيتون) كما أوضحناه في قصة إبراهيم الخليل عليه السلام في سورة الأنعام فدا قال للآ من قوم فرعون ذلك (قال) فرعون (سقتل أبناءهم) صفارا كما كنا نقتلهم قبل ولادة موسى (ونستحي نساءهم) تركهن أحياء لنستخدمهن وذلك لنقل عدد بنى إسرائيل الذين يتز بهم موسى (وإنا فوقهم قاهرون) وهم مقهورون تحت أيدينا (قال موسى لقومه استعينوا بالله واسبروا) لما نضموا قول فرعون وتضجروا منه وذلك ليسكن قلوبهم (إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) هذا وعد لهم بالنصر وأنهم سينجون من قبضة المصريين والأرض للجنس لا للمهد وإلا فبنو إسرائيل لم يملكوا القطر للمصرى (قالوا) أى بنو إسرائيل (أوذينا من قبل أن تأتينا) بالرسالة بقتل الأبناء (ومن بعد ما جئتنا) بإبادته (قال عيسى ربكم أن يهلك عدوك ويستخلفكم فى الأرض) أى جنس الأرض وهي هنا فلسطين وهذا وعد صريح بعد التلويح زيادة فى التثبيت لزيادة الشكوى وتكرارها (فينظر كيف تعملون) فيرى ما تعملون من شكر وكفر وطاعة وعسيان فيجازيكم على مقتضى أعمالكم ، وحقيقة قد فعل بهم ذلك لأنهم لما خرجوا إلى فلسطين كانت لهم حكومة جمهورية ثم حكومة ملكية ثم طغوا فى الأرض فأذلم الله على يد مختصر فرقمهم فى جهات أسبهان ثم رجعوا وعصوا أيام عيسى عليه السلام فأجلام الروم الجلاة الكبرى قبل انتهاء القرن الأول للسيحى ولم يرجعوا إلى الآن . ثم فى هذه الأيام أرجعهم الإنجليز فى الحرب الكبرى ولكن لا ندرى ماذا يصنع الله بهم بعد الآن . هذا معنى قوله تعالى « فينظر كيف تعملون » فليس مجرد النصر كافيا كما أنه ليس مجرد الانتساب إلى الاسلام كافيا فالمدار على الأعمال .

الآيات التي أنزلت على موسى عليه السلام

اعلم أن قصة موسى فى التوراة ذكرت فى سفر الخروج فذكر فى أوائله أن بنى إسرائيل بعد موت يوسف نصيرت حالهم عند الملوك الذين جاءوا من بعد فقالوا إن بنى إسرائيل قوم أجنب عنا وإذا حدثت حرب ينضمون إلى أعدائنا ومحاربونا ويضدون فى الأرض فسخروهم وأذلوم وجعلوا عليهم رؤساء من المصريين ليسخروهم فنوا لهم مدينتين وهما (مخازن فيثوم ورمسيس) وكانت أهم أعمالهم فى الطين والتراب وعمل الزراعة،

فهم يصنعون اللبن للبناء ، ويزرعون الحقول وكان ما كان من قتل الأطفال ونجاة موسى من القتل وهو طفل وكيف كبر موسى ونصر الإسرائيل على القبطى وقتل المصري ثم فرّ وتوجه إلى شيب وتزوج ابنته بـمدين وكل هذا سياتى تفصيله فى سورة القصص والتوراة قد أطالت القول فيه ثم رجع بأمره فأوحى الله إليه لما رأى النار فى شجرة العليق وأمره بأن يخاطب فرعون فامتثل أمر الله . ولما رجع إلى مصر أظهر آية الصا وآية اليد لبني إسرائيل فأمنوا . ثم توجه إلى فرعون ومعه أخوه هرون بأمر الله فقالا لفرعون ، وهذا نص التوراة :

« هكذا يقول الرب إله إسرائيل أطلق شعبى ليعبدونى فى البرية . فقال من هو الرب حتى أسمع لقوله فأطلق إسرائيل لا أعرف الرب وإسرائيل لا أطلقه . ثم زاد الكرب والصفط على بني إسرائيل بحيث كانوا يؤمسون بجمع التبن لأجل ضرب اللبن فضلا عن عدد اللبن للطلوب منهم للفروض على كل منهم »

يقول فى التوراة إن موسى حينما دخل على فرعون كان ابن ثمانين سنة وهرون كان ابن ثلاث وثمانين سنة . وأمره الله أن يلقى الصا أمام فرعون فصارت ثعبانا . ويقول إن السحرة للصريين رموا عصيهم فصارت ثعابين فابتلعت عصا موسى وعصيم والذى رماها هو هرون بأمر موسى . ثم لما لم يمثل فرعون ولم يرسل بنى إسرائيل أمر الله موسى أن يقول لفرعون (ها أنا ذا أضرب الصا التى فى يدى على الماء الذى فى النهر فتحوّل دما ويموت السمك الذى فى النهر فيحاف للصريون أن يشربوا ماء من النهر الخ)

ولم يمثل فرعون بعد ذلك ولم يطلق بنى إسرائيل فضرب هرون الصا بأمر موسى على الأنهار والسواقي الخ فصعدت الضفادع وغطت أرض مصر . وفى كل مرة يستغيث فرعون ويقول « أرسلهم معك » ثم بعد زوال اللصية بدعاء موسى وهرون يندر عليهما ، ثم كان ضرب الصا أيضا فعمّ البعوض بلاد مصر ثم اللباب ثم موت اللواشى ثم السامل ثم نزول البرد من السماء على هيئة مطر فتموت البهائم التى فى الحقول والنار كانت تلتهب فى وسط البرد ، ثم كان الجراد ، ثم كان الظلام دامس .

فأذن الآيات المذكورة فى التوراة اليد والصا والنم والصفادع والبعوض واللباب وموت اللواشى والسمامل والبرد والجراد والظلام الدامس ، وقد جاء فى هذه الآيات الصا واليد وقد تقدمتا ، وقد ذكر غيرها من البقية فقال (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين) بالجذب لقلة الماء والسنة غلبت على عام القحط لكثرة ما يذكر عنه ويؤرخ به ثم اشتق منها قبيل أسنت القوم إذا قحطوا (وعص من الثمرات) بكثرة الماهات والآفات (لهمم بذكرون) لى يتنبهوا على أن ذلك بشؤم كفرهم فترق قلوبهم بالشدايد فيفرغوا إلى الله ويرغبوا فيها عنده (فإذا جاءهم الحسنة) كالحسب والسمة (قالوا لنا هذه) لأجلنا ونحن مستحقوها (وإن تصبهم سيئة) جذب وبلاء (يطبروا بموسى ومن معه) يتشاءموا بهم ويقولوا ما حلّ بنا هذا البلاء إلا بشؤمهم وهذا من قساوة القلب فإن الصائب إنما تحلّ بالناس لترقق القلوب ، فأما هؤلاء فإن قلوبهم اشتدت صلابتها فهم كالطين يتناسك ويتصلب بإيقاد النار عليه بخلاف الماء وأنواع السوائل فإن النار تطفئها فالتناس إذن قسبان : قسم تهذب للصائب فهو كالمواد اللسنة لذوبان ، وقسم تضى قلبه فهو كأشكال أنواع الأحجار والطين وما أشبه ذلك ومنهم من يحتاج إلى نار شديدة فتهدبه كالحديد والنحاس ، ثم قال تعالى (ألا إنما طأرهم) سبب خيرهم وشترهم (عند الله) فى حكمه ومشيئته والله هو الذى يقدر ما يصيبهم من الحسنة والسيئة « قل كل من عند الله » (ولكن أكثرهم لا يعلمون) ذلك (وقالوا مهما تأتانا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين) ينى أيماشى تأتانا به ، وبين مهما للفسرة بما ذكر بقوله من آية

لتسحر بها أعيننا وتغيبه علينا « فما نحن لك بمؤمنين » والضمير في به وفي بها لهما ولكنه مذكر أولا باعتبار
لفظ مهما ومؤنث ثانيا لما بيئت بلفظ آية ، ومهما في محل نصب بفعل يفسره تأتانا أوفى محل رفع بالابتداء
(فأرسلنا عليهم الطوفان) ما طاف بهم وغشى أما كتبهم من مطر وسيل ، وقيل للموتان أو الطاعون وهذا
القول الأخير قريب مما جاء في التوراة (والجراد والقمل) قيل هي البراغيث (والضفادع والدم) وقد تقدم
أكثر ذلك قولا عن التوراة (فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالقوه) إلى حد من الزمان هم بالقوه
لامحالة كما قدرناه عندنا في علمنا القديم (إذا هم ينكثون) أي فلما كشفنا عنهم العذاب فاجتوا بنكث العهد
ونقض الميثاق ولقد تقدم ذلك في عبارة التوراة فقد كانوا كلما عاهدوا موسى أن يدعو الله برفع العذاب وبعد
ذلك يأذنون له بأخذ بنو إسرائيل فيدعو الله ويستجاب الدعاء ينكثون ثم يأمره الله بآية أخرى وهكذا في كل
مرة ياهدونه ثم ينقضون الميثاق بعد ذهاب العذاب عنهم (فانتقمنا منهم) والانتقام ضد الإنعام كما أن العقاب
ضد الثواب (فأغرقناهم في اليم) هو البحر وهو معظم الماء (بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين)
أي كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات (وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون) وهم بنو إسرائيل كان
يستضعفهم فرعون وقومه بالقتل والاستخدام (مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها) أي مشارق الأرض
للقدسة ومغاربها ، وهي بيت للقدس وما يليه من الشرق والغرب وهذا هو الذي تم فعلا في التاريخ ،
وأما ذكر مصر في هذا للوضع فهي خرافة دخلت في كتب التفسير وهي كاذبة بأمرين : التاريخ وهو
معلوم والقرآن ، فإن الأرض التي بارك الله فيها في القرآن لا تطلق إلا على الأرض للقدسة . ألا ترى إلى قوله
تعالى « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » فافهم
(وتمت كلمة ربك الحسى على بنو إسرائيل) وهي قوله تعالى « وزيد أن نعمن على الذين استضعفوا في الأرض
ونجلمهم أمة ونجلمهم الوارثين ونمكن لهم في الأرض وزى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »
فها هي ذه تمت كلمة الله الحسى لهم بأن ملكهم أرض بيت للقدس (بما صبروا) بسبب صبرهم على الشدائد
(ودمرنا) وخرنا (ما كان يصنع فرعون وقومه) من الباني العظيمة وبعض الأهرامات والعمارات
(وما كانوا يرشون) أي ما كانوا يسقون من ذلك البنيان ، أو ما كانوا يبنون من البيوت والقصور . وهذا
تمام قصة فرعون وقومه ، وهنا لطائف :

اللطيفة الأولى

قد علمت أيها الحكى أن هذا القصة جاء تذكرة لنا وآيات موسى من الجراد والقمل والعصا واليد مضت
في الأيام العارة والصور الدائرة وبنو إسرائيل الأوثون قد ماتوا ، ونحن الآن في عصر لانهم فيه إلا بما ينفعنا
لأن الله يقول « وذكرى للمؤمنين » فأما الذكرى لنا فاعلم أن النذر والآلام والبلايا إذا صباها الله على قوم
فإنه لا يريد إلا إيقاظهم وزيادتهم ، وهؤلاء القوم إما أن يكونوا كالطين كما قدمنا فيزدادوا صلابة فيستحقوا النار
كالطين للصنوع من الماء والطين والتين إذا ضربته الشمس صلب فيوضع في التنور فيزداد صلابة ، وإما أن
يكون كالثلج أو كالزبد فإذا سلطت النار عليها لانت شكيمتهم ولبت طبيعتهم واتقادوا خاشعين خاضعين كالماء
ينزل إلى الأنهار فيجري كالسمن من الزبد .

ولقد فعل الله ذلك مع السليين في مشارق الأرض ومغاربها فأزل عليهم ظلم الأمم التي حولهم مرة بعد
أخرى على وفاق ما فعل الله في مصر على يد موسى وهرون عليهما السلام ، وأقرب أمة الأندلس هؤلاء
أبناء العرب إخواننا أصابتهم مضائب متكررة من الفرنجة في قرون عدة ، فلم يزدادوا إلا حبا للشهوات
وقربا من الظلم وبداء عن العدل واختلاف كلمة وبعد مودة وعذابا واحبا ماله من دافع فزقوم شر بمزق
وأسكنهم النجود خالدين وورثوا أرضهم وديارهم وهم مطرودون ، انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية

إن بني إسرائيل لما صبروا نجحوا الله وأسكنهم في بيت المقدس ، وهكذا تم كلمة الله الحسى على كل أمة صبرت وجاهدت ، ألا ترى أن دولة بولونيا قد مزقت بين ثلاث دول من أوروبا أي بين روسيا وألمانيا والنمسا ، فبقى أبنائها حافظين ذكرى بلادهم وهم صابرون حتى إذا جاءت الحرب الكبرى استقلت بلادهم وحفظوا كياناتهم ، فإذا تمت كلمة الله الحسى على بني إسرائيل بما صبروا فهي تتم على كل أمة صبرت ويقال لها « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها » فإذا لم تكن بيت المقدس التي لبني إسرائيل فهي الأرض التي أنبتهم الله منها . وهكذا اليونان والبلغار والسرب والجبل الأسود وأم كثيرة جامدت وصبرت فأخذت استقلالها وأصبحت أمة لاسلطان لأحد عليها ، وانظر إلى دولة الترك ودولة الأتقان ودولة الفرس للسلمين كيف نبذوا الأجانب في هذه الأيام وأخرجوهم من الديار بما صبروا وهم فائزون .

وانظر إلى الأمم التي حكمتها دولة القيصرية أزمانا وأزمانا وجموهم في حكم دولة واحدة وهي (روسيا) كيف استقلت بما صبرت ، هذا هو الوعد الذي وعده الله للأمم وهذا الوعد صادق على جميع الأمم فلم يذكر ذلك في القرآن لأجل سواد عيون بني إسرائيل وإنما هو لأهل المشرق والمغرب ، فالصابرون هم الذين ينالون الاستقلال لهذا أنزل القرآن ، انتهت اللطيفة الثانية .

اللطيفة الثالثة قوله تعالى « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه الخ »

اعلم أن مدائن بلادنا المصرية كانت كثيرة وقد شاهدت بعيني رأسى المدينة التي هي قرية من قريتنا وهي قرب الزقازيق وتسمى (تل بسطة) واسمها قديما (بوسطيس) باسم معبودهم وهو (بست) وهي القطة وقد وجدت محطة هناك ، فكنت أرى في حدائق سنى بنياتها مرتفعا ارتخاغا شاهقا جدا يعلو على كل بناء مشيد قديم العهد أو حديثه وكأنها مدينة بنيت فوق مدينة ، وهذه الأبنية عبارة عن آكام وقد يكشف الناس عما تحتمها فيظهر بعض الجدران باللبن الذي عاش نحو أربعة آلاف سنة وهم وجدوا فيها من كنوز ، وهذه المدينة بما حولها ربما بلغت أربعة آلاف فدان ، أما الآن فقد انقضت تلك الآكام ولم يبق إلا أطلال دارسة قليلة جدا تحافظ عليها الحكومة ، وهم في البلاد من مدن مثل هذه أو خلقها الله فوجدناها مخربة لا يدري إلا الله كيف كان خرابها ، وقد سألت أستاذى في علم التاريخ (إسماعيل بك رأفت) فقال خربت بزلزلة كبرى بدليل ما شوهد في معبد من معابد تلك المدينة أن الأعمدة مائلة ، والله أعلم بنيه .

وهذا هو قوله تعالى « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه » ثم بدلت الحال بعد قرون وبدل الدين للمصرى القديم بالدين للسيسى والإسلامى ، هذا معنى قوله تعالى « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه الخ » أيضا . انتهت اللطيفة الثالثة .

اللطيفة الرابعة

اعلم أن تدمير ما صنعه فرعون وقومه لم يكن إلا في قرون متطاولة وذلك لأسباب عمرانية وأخلاقية ودينية ، وأهم ما أزال ملك المصريين القدماء خرافاتهم الدينية كما يشير لها القرآن ، إذ كانوا في القرون الأولى قوما عارفين بجلال الله وجماله ، ومن غرامهم به بنوا في الأرض معابد هجينة باقية للآن ، ونصبوا هياكل قد شاهدنا آثارها في جهات منف وأهرام الجيزة وغيرها (١) . ثم لما طال عليهم الأمد قست قلوبهم

(١) قوله منف وأهرام الجيزة وغيرها ، قال البيضاوى في تفسيره : منف على ضفة النيل الغربية ،

أعنى محل مدينة الجيزة الآن اه مصححه .

بحكم السنن الإلهية في الأرض واستدراج الأمم بما جيلوا عليه من التفاني والإغراق في الدين حتى يصبح الدين الجديد كأنه ليس من الأصل في شيء ، مثلا كانوا يقدسون الطيور لأن العلماء أمرهم بحفظها لتأكل الديدان فبيدوا بعضها بعد التقديس ، فتقدسها بأمر الدين وعبادتها إفراط ؛ كذلك البقر مقدس لمنفته فبيدوه ، ولقد شاهدت مدافن السجود التي كانوا يجدونها في جهات (سقارة) فوجدت هناك نحو ٢٤ مدفنا قد سرقت منها تلك السجود ، وتلك المدافن لا تزال باقية وهي أحواض زرق حجرية كبيرة يزورها الناس للفرج عليها ولم تكشف إلا قريبا .

وهكذا توسع التوم في الأمور الجسمية وعبادتها حتى عبد قوم جهة أسوان (التوم) وآخرون (السمك) ، ولا تزال ترى في المدافن ممكا صبروه وغنا من الذهب تستخرج للآن ويتنافس فيها التنافسون من الفرنجة .

هذه أمة بعد أن كان نظرها إلى الكواكب والشمس وأنها من نور الله وكانوا صابئين أصبحت أنظارها متجهة إلى العوالم الأرضية ففسدت النفوس وخربت العقول ، فانظروا ماذا جرى لما حضر القرس بجوشهم وعلى رأسهم الملك الفارسي قاتلوا جنود المصريين ، وقد عرف الفارسيون ضيف عقول المصريين وعقائدهم فأحضروا القبط المبودة عندهم للقدسة في دينهم فأوقصوها بين الصفيين فتخرج للمصريين من ضربهم خيفة على القبط التي هي آلهة في الأرض ، فأوغل الفارسيون فيهم قتلا وأسرا ، ومن ذلك الحين سقط مجد مصر وهوت إلى أسفل سافلين ، فانظر كيف كان الدين سبب الهلاك ، بهذا خربت مصر ، ولهذا قال الله « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا بمرشون » انتهت اللطيفة الرابعة .

اللطيفة الخامسة

كما أن المصريين تدلوا في الدين ونزلوا في العقل ، هكذا كثير من الأمم الإسلامية تفرقتوا شيئا بمثل الطريقة التي تفرقت بها المصريون سواء بسواء وانحطت دولهم بسبب التفرق الديني ، ألم تركيب ذلك النفوس وصنعت العقول وأصبح كل فريق من أبواب الطرق يختص بأهل طريقته ولا يعتد بالفضل إلا فيهم ثم يقوم آخرون وآخرون وهم يتناون في شيوخهم ولا يزالون يقدسونهم حتى يجبل لمن يرأى أنهم على دين غير دين الإسلام ، وهذا هو التخلي في الدين .

ولقد عدت أن شيئا طالما أزهريا قد انبه عشرات الألوف في مصر وفي مدنها وفي قراها ، وذلك في زماننا الحاضر ، وقد تمسك بأمور مثل أن (العذبة) التي تنزل من العمامة فرق بين المسلم والكافر ، ويحسك بأن بعض البدع تورث الكفر حتى اعتقد أتباعه أن المسلمين جميعا كفار وهم للؤمنون .

وهكذا قام آخر منا معاشر المصريين واستباح لنفسه أن يذكر أتباعه اسمه مائة ألف مرة في اليوم فسكا يقولون (الله) يقولون (فلان) وهكذا أمة الإسلام أصبحت اليوم فرقا ذاق بعضها بأس بعض . وكما رأيت أن (قنبر) لللك الفارسي غلب للمصريين بأمر ديني . هكذا ترى أهل أوروبا ضحكوا على عقول المسلمين واتخطوا منهم طوائف لتلوهم في أمور دينهم أو تفريطهم .

إن المسلمين ظنوا أن الدين هو ما في كتب الفقه وحده ولو أنهم عرفوا أن القرآن أوسع ألف مرة من الفقه ودرسوا ما فيه واتبهوا لأمثال ما نذكر الآن لكانوا أقرب إلى التعاون . ولكن القرآن من أيام الأئمة الأربعة رضى الله عنهم تركه الناس استثناء عنه بالفقه وأفهمهم العلماء أن خلاصة القرآن الفقه وما عدا ذلك فإنما هو بركة يتبرك به الناس لا غير ، فهذا أصبح للمسلمون شيئا وظنوا أن فروع الفقه هي الدين ، والحق أنها سباج الدين وحارس الدين لا نفس الدين . أما نفس الدين فهو مجائب هذا القرآن كالتى نذكرها الآن

لتقريب فهم مقاصده وصراميه إلى الأذهان لتهديب العقول ورفع منزلة النفوس وتدميث الأخلاق وتوسيع الدارك .

وسيقوم بها قوم أعلیٰ مقاماً وأرفع نفوساً في العلم وأطول في الفهم باعاً « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » واعلم أنه لاسيلا لرقى للسليين إلا بأمر واحد وهو تعميم التعليم ونشر العلوم الطبيعية والرياضية والتأتمل في عجائب السموات والأرض مع التحلي بالدين فإنهم بذلك تنفق مشاربهم وتقوم قائمتهم . فالعلوم وتعليمها هي السواء وما عدا ذلك فهو هراء وهواء . انتهت اللطيفة الحامسة .

اللطيفة السادسة

إن هذه القصة تخص بلادي وأهلها للصريين فنحن وقومنا سكان وادي النيل وقد ورثنا أرضهم ورأينا آثارهم وبلادنا كانت مراتع الأجانب منذ أيام (قنيز) للآن ولم نقدر أن نتخلص منهم إلى الآن منذ ألتى سنة فأكثر . ولكن في هذه السنة حين تأليف هذا الكتاب قد نال قومي حكماً ذاتياً ولنا مجلس نواب ومجلس شيوخ ، وعسى الله أن ينمّ أمرنا ونفوز بالاستقلال ويرجع الفلك إلى دورته الأولى « والله هو الوليّ الجيد » انتهى الكلام على قصص فرعون وقومه ولطائف ذلك السنة .

ثم أخذ سبحانه يبين عقول بني إسرائيل وما هو مقدار تطوّره وفهمهم بعد أن نجوا من أرض مصر فإن شأن الإنسان إذا مسته البأساء أن يتضرّع حتى إذا نجا من الهلاك طنى . فأما فرعون وقومه فقد تقدم القول فيهم وهذا القول خاص ببني إسرائيل ، وفيه ذكر :

- (١) طلبهم عبادة الأصنام وردّ موسى عليهم وكيف سفه أحلامهم .
- (٢) وذكر وعد الله لموسى بالمنجاة وإعطاء التوراة وكان ذلك بعد إتمام (٤٠) ليلة .
- (٣) وذكر استخلاف موسى لهرون وذكر بعض وصايا التوراة .
- (٤) وذكر اتخاذ قوم موسى عجلاً من الحلي ، كما أخذ للصريون العجل (ابيس) معبودا .
- (٥) وذكر رجوع موسى لهرون وقومه واعتذار هرون له .
- (٦) وذكر اختياره السبعين رجلاً من قومه ليتوجهوا معه .
- (٧) وذكر الاستطراد بمدح الأمة المحمدية التي بشر بها التوراة والإنجيل .
- (٨) ونداء الناس جميعاً أن نبينا صلى الله عليه وسلم رسولهم .
- (٩) وقصتهم في السبت والحكم عليهم بتفريقهم في الأرض شذر مذر أجمعين . فهذه تسع مباحث وإليك بيانها .

للبحث الأوّل

قال تعالى (وجاوزنا بيني إسرائيل البحر) فصاموا يوم عاشوراء شكراً لله تعالى (فأتوا على قوم يكفون) يقيمون ويواظبون (على أسنام لهم) تمائيل بقر . يقال إنهم كانوا نازلين بالركة : أي ساحل البحر (قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) لأن الله لا نراه وهذه تراها فنعبدها لتقرّبنا إلى الله زلفى (قال إنكم قوم تجهلون) وكيف تطلبون ذلك بعد ما عرفتم كفر الصريين لعبادتهم الأصنام والتمايل (إن هؤلاء متبر ما هم فيه) أي مكسر مهدم فأله يهدم دينهم الذي هم عليه ، فالديانات التابعة للصورة متقلبة كتقلب الصور لا ثبات لها (وباطل) مضمحل (ما كانوا يحملون) من عبادتها وإن قصدوا التقرب بها إلى الله تعالى (قال أغير الله أبعيكم إلهاً) أطلب لكم معبوداً (وهو فضلكم على العالمين) أجملة حالية ومن شأن الإنسان ألا يحمد الله إلا على الصفات الحامسة بنفسه والامتياز الذي له على غيره . وهذا شأن أكثر الناس لجهالتهم ،

وإلا فاقه عند التحقيق يشكر على النعم العاتية والخاصة بل العامة أولى فهذا ذكر لهم أنه فضلهم على العالمين .
ثم أردفه بنجاتهم إذ قال (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب) أى واذكروا
صنيعه معكم في هذا الوقت حال كونهم يسومونكم الخ ، ثم أبدل منه قوله (يقتلون أبناءكم ويستحبون
نساءكم وفى ذلكم) أى وفى الإنجاء أو العذاب (بلاء من ربكم عظيم) نعمة أو محنة عظيمة .
انتهى البحث الأول .

البحث الثانى

إنما ذكر الله هذه للباحث التى تتعلق بجهل بنى إسرائيل ليثبت قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم على
ما يصيبه من قومه فليس نصره فى غزوة أحد وبدر وأمثالهما مما تقدم ذكره فى سورة آل عمران بدافع
ما سيفعله المنافقون من الكذب والافتراء على دين الإسلام كما فعل بنو إسرائيل وليبين للمسلمين كيف كانت
الأمم جاهلة فيحترسون من جهلهم .

ولما أبان جهلهم ذكر بعد ذلك ما أنعم الله به على موسى إذ علمه التوراة وناجا . وهذا جزاء المحسنين فإنه نفع
قومه وأخرجهم من الدل فأخذوا يرتدون والله يجزى المحسنين فيزيدهم من فضله . فإذا جهل قوم موسى
فإن الله قرّبه إليه واصطفاه وأزل عليه التوراة ، فإن جزاء العبد عند ربه لا عند الناس .
هذا ما يفيد هذا المقام فليصبر الإنسان على ما يصيبه من الناس فذلك مقو لروحه كما قويت نفس موسى
حينما آذاه قومه بعد إيذاء فرعون وقومه . ثم قال تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة) ذا القعدة
(وأعمناها بشر) من ذى الحجة .

ذلك أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل إذا أهلك عدوهم فرعون أن يأتهم بكتاب من عند الله
فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه أن ينزل عليه الكتاب الذى وعده به
فأمره أن يصوم ثلاثين يوما ويصم ما يتقرّب به إلى الله ، ثم كلفه وأعطاه الألواح فى العشر التى زادها .
فهذا قال « وأعمناها بشر » وهو تفصيل ما أجمل فى سورة البقرة فى قوله « وواعدنا موسى أربعين ليلة »
ثم قال تعالى (قمّ ميعات ربه أربعين ليلة) بالغا أربعين ليلة . انتهى للبحث الثانى .

البحث الثالث

(وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومي) كمن خليفنى فيهم (وأصلح) ما يجب أن يصلح من أمورهم ،
أو كمن يصلحها (ولا تتبع سبيل المفسدين) ولا تطع سبيل من دعاك إلى الفساد (ولما جاء موسى لميقاتنا)
أى لوقتنا الذى وقتناه واللام للاختصاص : أى اختص ميقاتنا بمدين (وكله ربه) من غير وسط كما يكلم
لللائكة وكلام الله ليس ككلام الناس فليس يأتى من جهة خاصة فلا جهة له خاصة ، فلما سمع كلامه الذى
ليس بحرف ولا صوت اشتاق إلى رؤيته وغلب الشوق عليه هنالك (قال رب أرنى أنظر إليك) ذاتك بأن
تمسكنى من رؤيتك أو تتجلى لى فأنظر إليك وأراك (قال لن ترانى) بين فانية بل بين باقية (ولكن
انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه) بقى على حاله (فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل) ظهر له عظمته وتصدى
له اقتداره وأمره . ويقال أعطى الله له حياة وعلم ورؤية حتى رأى الله فلما رأى الجبل ربه (جعله دكا)
مدكوكا مفتتا ، والدك والدق أخوان . وفى قراءة « دكاه » أى مستوية بالأرض إلا أكمة فيها ، وناقة دكاه
لاستنام لها (وخرّ موسى صعقا) حال : أى سقط مغشيا عليه (فلما أفاق قال) تعظيما لما رأى (سبحانك
تبت إليك) من الجرأة والإقدام على السؤال من غير إذن (وأنا أول المؤمنين) أى أنا أول من آمن بأنك
لاترى فى الدنيا لأن النفوس البشرية مهما صفت فصلاحتها بالدنيا تمنعها من رؤية ذاتك العلية ، وإذا كانت

الكهرباء والمغناطيس والجاذبية والقوى الخفية في المادة لا تقدر أن تراها في الدنيا لشدة لطافتها وغلظ أجسامنا التي سكنت فيها أرواحنا ، بل إن مادة الأثير وما فيها من الذرات لم يرها أحد في الدنيا ولم نعرفها إلا بالبرهان ، فليس من المقبول أن نراك في الدنيا بل إن أرواحنا إذا تجردت من المادة لا قدرة لها أن تراك مادامت أقرب إلى أحوال المادة وعلاقتها إذ لا مناسبة بينها وبين جمالك .

المهم إلا إذا ارتقت أرواحنا وخلصت ولطفت وخلعت جميع العلائق للمادية بعد دهور ودهور حينئذ يمكن أن نشاهد ذاك لقرب الأرواح من التجرد عن المادة وتكون تلك الرؤية بعد معرفة جميع العوالم والوقوف على عجائب صنك إذ يستحيل التوصل لللطيف إلا بعد اختراق الحجب الكثيفة كلها ومعرفة أسرارها حتى يزداد قربا وبلاد ياد القرب يزداد الشوق إلى أن يصل إلى السكّال وقد عرف أسرار كل موجود وإذن يصل إلى المقام الأعلى عند سدرة التنهى ويرى ربه جلّ وعلا بما لا نعلم من الأحوال للغبية عن الناس . ثم قال تعالى (قال يا موسى إني اصطفيتك) اخترتك (على الناس) الموجودين في زمانك وهرون كان تحت أمر موسى (برسالاتي) هي أسفار التوراة (وبكلامي) وبشكلي إياك (غنما آتيتك) أعطيتك من الرسالة (وكن من الشاكرين) على النعمة ولا شكر على النعمة إلا بصرفها فيما خلقت له بأن تبلغ الرسالة مجدا في ذلك (وكتبنا له في الألواح من كل شيء) مما يحتاجون إليه من أمر الدين (موعظة وتفصيلا لكل شيء) أي وتبيننا لكل شيء من الأمر والنهي والحلال والحرام ، وقوله « موعظة » بدل « من كل شيء » أي كتبنا كل شيء من اللواعظ وتفصيل الأحكام (غنمها بقوة) أي فقلنا لموسى إذ كتبنا له في الألواح كل شيء خذها بجد واجتهاد أو خذها بقوة قلب وصحة عزيمة ونية صادقة (وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) بأحسن ما فيها كالصبر والعبور بالنسبة إلى الانتصار والافتقار على طريقة التدب والحث على الأفضل (سأريكم دار الفاسقين) كمنازل عاد وثمود ومن نحا نحوهم من الأمم البائدة كقوم [معين] الذي كشفوا حديثا وكوبار التي قال فيها الشاعر :

ومرّ دهر على وبار فهلكت جهرة وبار

وإنما أريكم دارهم لتعبروا بهم وتحاموا أعمالهم فلا تقعوا فيها وقصوا فيه من الهلاك والدمار والبوار .

لطيفة في كلام الله مع سيدنا موسى فوق الجبل

في هذا المقام جاء في التوراة في سفر الخروج أن بنى إسرائيل ارتحلوا إلى بركة سيناء وزلوا مقابل الجبل ، وأما موسى فصعد إلى الله فناداه الرب من الجبل وأخذ يأمره بما ملخص بضمه ما يأتي :

[إني نجيتكم من المصريين وجئت بكم إلى . وإذا حفظتم وصاياي وعلمتم بها كنتم أمة مقدسة] فبلغ موسى هذه الكلمات إلى شيوخ الشعب فأجاب جميع الشعب ثم قال له الله [إني سأني إليك في ظلام السحاب] ثم أوصاه أن يتبأ الشعب بالنظافة وغسل الثياب ولا يقربوا النساء إلى اليوم الثالث وفي ذلك اليوم صارت رعود وبروق وسحاب على الجبل وصوت يوق شديد جدا فارتعد كل الشعب . وكان جبل (سيناء) كله يدخن من أجل أن الرب نزل عليه بالنار وصعد دخانه كدخان الآتون وارتجف كل الجبل ارتجافا شديدا جدا وموسى يتكلم والله يجيبه . ولم يؤذن لأحد بصعود الجبل إلا لموسى وهرون . وأما بقية الشعب فهم تحت الجبل .

ومن كلام الله له ما معناه وملخصه ما يأتي :

(١) لا تصد لها غبري ولا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة مما في السماء وما في الأرض الخ .

(٢) لا تتطرق باسم الرب إلهك باطلا .

(٣) اذكر يوم السبت وقدسه . اعمل ستة أيام واسترح السابع لاتصنع فيه عملا ما لانت ولا ابنك ولا ابنتك ولا عبدك ولا أمتك ولا بهيمتك وكل من هو داخل أبوابك .

(٤) أكرم أباك وأمتك لتطول أيامك على الأرض .

(٥) لا تقتل . (٦) لا تزني . (٧) لا تسرق .

(٨) لا تشهد على قريبك شهادة زور . (٩) لا تشته بيت قريبك .

(١٠) لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أخته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئاً مما لقريبك .

وكان الشعب من بعيد يرتعد من الرجوع والبروق وصوت البوق ومارأوا من دخان الجبل، فالشعب كان واقفا من بعيد . وأما موسى فاقرب من الضباب حيث كان الله .

وقد ذكر في هذا اللقمان أن العبد إذا كان إسرائيليا لا يخدم إلا ست سنين وفي السنة السابعة يصبر حرا . ومن الأحكام ما يأتي :

(١) من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا .

(٢) من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا .

(٣) من شتم أباه أو أمه يقتل قتلا .

(٤) وإذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرحم الثور ولا يؤكل لحمه . فأما صاحب الثور فإنه يقتل إذا كان ثوره نطحا من قبل وقد أشهد على صاحبه ولم يضبطه فإن لم يكن ذلك فهو بريء . وإذا وضعت عليه فدية فليدفع كل ما يوضع عليه .

(٥) وإذا نطح ثور إنسان ثور صاحبه فمات يبيعان الثور الحى ويقسمان ثمنه والميت أيضا يقسمناه الحى .

(٦) إذا سرق إنسان ثورا أو شاة فذبحه أو باعه يعوز عن الثور بخمسة ثيران وعن الشاة بأربعة من الغنم .

(٧) إن وجد السارق وهو ينقب فضرب ومات فليس له دم .

(٨) لا تضطهد الغريب ولا تضايقه لأنكم كنتم غرباء في أرض مصر .

(٩) لا تسي إلى أرملة ولا إلى يتيم . إن أسأت إليه فإني إن صرخ إلى أسمع صراخه .

(١٠) إن أقرضت فضة لشعبى الفقير الذى عندك فلا تكن له كالمرابي لاتضعوا عليه ربا . اه المقصود

أقول ها أنا ذا قد أسمعك بعض وصايا التوراة وأحكامها مما سمعه موسى عليه السلام وهو على الجبل

لتطلع على الأخلاق التى لاتتافى أخلاق ديننا وسائر الديانات وعلى الأحكام الشرعية التى تختلف عن أحكامنا

الشرعية المحمدية بعض الاختلاف باعتبار اختلاف الزمان والمكان والأمة . ثم إن هذه الأحكام والوصايا

وأمثالها فى التوراة وفى الإنجيل وفى القرآن لا يغلها ولا يقوم بها إلا القلوب للتواضع القبية . أما أرباب

الكبرياء والمنظمة فانهم يأنفون أن يخضعوا للحق . فاذن الكبر حجاب بين المرء وبين الحقائق العملية .

وعلى ذلك يعيش للتكبر ويموت وهو غافل عما بين يديه من العلوم والمعارف ويكتفى بما يظنه ولا يزيد عليه

لكبريائه الذى حال بينه وبين ما لديه من العجائب الحكيمه العملية والعملية والساوية والأرضية ولذلك أعقبه

بقوله تعالى (سأصرف عن آياتى) المنصوبة فى الآفاق وفى الأنفس (الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق)

فلا يتفكرون فى السموات والأرض ولا يسمعون كلام الأنبياء ومواعظهم كالقرآن والتوراة (وإن روا كل

آية) منزلة أو مصجرة (لا يؤمنوا بها) لنادهم ولذلك لا يتبع الأنبياء فى أول بنهم إلا الضمفاء والفقراء (وإن

يروا سبيل الرشدا لا يتخذوه سبيلا) لاستيلاء الكبرياء عليهم كما تقدم فى أول السورة من كبرياء إبليس الذى

جعل أساسا لمنه للعاصى (وإن يروا سبيل النى يتخذوه سبيلا . ذلك) الصرف (بأنهم كذبوا بآياتنا)

بسبب تكذيبهم للآيات (وكانوا عنها غافلين) أى وعدم تدبرهم للآيات فلا اتصاف لهم بها (والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة) أى ولقاءهم النار الآخرة أو ما وعد الله فى النار الآخرة (حبطت أعمالهم) لا ينتفعون بها (هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى إلا جزاء أعمالهم . انتهى للبحث الثالث .

للبحث الرابع والخامس

اعلم أنه جاء فى التوراة أن الرب قال لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبها لتعليمهم فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى إلى جبل الله . وأما الشيوخ السبعون فقال لهم اجلسوا لنا ههنا حتى يرجع إليكم وهاهوذا هرون وحورم معكم فمن كان صاحب دعوى فليقدم إليهما فصعد موسى الجبل فنطى السحاب الجبل وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام . وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب - إلى أن قال : وكان موسى فى الجبل أربعين نهارا وأربعين ليلة . وهنا أعطاه أوامر أهمها ما يخص صنع التابوت القدس الذى يحمل من خشب السنط وطوله وعرضه وهناك ذكر البخور وأنواع الزينة كالذهب والفضة وما أشبه ذلك . وكيف تصنع المائدة من السنط . وكيف تنشى بالذهب ويكون عليها إكليل من الذهب . وكيف تصنع المنارة من ذهب نقي . وكيف يصنع المذبح وقد أطال الكلام فى هذا المقام فى التوراة بتفصيل عجيب وبيان أوفى .

ثم قال : (ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هرون وقالوا له قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذى أسعدنا من أرض مصر لانتم ماذا أصابه . فقال هرون ازعوا أقرط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنائكم واتنوني بها) ثم أفاد أن هرون عليه السلام هو الذى صنع العجل من ذلك الذهب وبنى هرون مذبحا أمامه وقال غدا عيد للرب .

يقول مؤلف الكتاب

تبارك الله إنه لولا أن القرآن نزل لأيقن الناس أن هرون وهو نبى قد صنع العجل . إنى لأعجب من الأمم السابقة كيف كانوا يبيعون لأنفسهم أن يغيروا الحقائق . وكيف يقال إن هرون كفر بالله وصنع عجلا . إن القرآن قد أتى بالحقائق الناصحة وسيأتى نص الآيات وأن الذى صنع العجل هو السامرى . فتعجب من تلك الأمم ومن تغييرهم الكتب المقدسة . ترى النصارى يرضون أن عيسى إله واليهود يقولون إنه كذاب . وترى اليهود يعتقدون أن هرون صنع العجل من الذهب ، والقرآن آى بالحقائق وزه الأنبياء عليهم السلام .

وفى ذلك الوقت أخبر الله موسى أن قومه زاغوا عن الحق وأفهمه كل ما حصل فرجع موسى إلى قومه فأبصر العجل والرقص فضرب موسى وطرح اللوحين من يديه وكسرها فى أسفل الجبل ثم أحرق العجل وطحنه وذراه على وجه الماء ولام هرون كما فى الآيات الآتية . وأمر جميع بنى لاوى فقتلوا من الشعب ثلاثة آلاف كما تقدم فى البقرة ، ثم صعد إلى الجبل وطلب للنفرة من الله كما فى الآيات الآتية أيضا لأنه قال : « والآن إن غفرت خطيتهم وإلا فأعنى من كتابك الذى كتبت » فاستجاب الله دعاءه ووعدهم أن يملكوا الأرض التى وعدهم بها ويرسل لهم ملكا ولا يكون هو فى وسطهم لأنهم شعب صلب الرقبة . وهنا ذكر كيف قال الله لا تقدر أن ترى وجهى لأن الانسان لا يراى ويعيش . ثم قال فتظن « رأتى وأما وجهى فلا يرى ، ثم أمره أن ينحت لوحين بدل للكسورين ، فعمل ، وقال الرب لموسى : اصكبت لنفسك هذه الكلمات لأنى بحسب هذه الكلمات قطعت عهدا معك ومع إسرائيل ، وكان هناك عند الرب أربعين نهارا وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد ، الكلمات الشرية .

وهنا في سفر الخروج وصايا كثيرة جدا ، وكذلك في السفر الذي بعده وهو المنون (اللاويين) بما يستغرق عشرات الأوراق .

واعلم أن هذه أهم النصائح في التوراة . وإذ ذكرت لك ملخص ما في التوراة في هذا اللقاع مع انحراف بعضه عن الحقائق العلمية وعصمة الأنبياء فاسمع الآية ، قال تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده) من بعد ذهابه لبيقات (من حلهم بجلا جسد) من الذهب خاليا من الروح ونصبه على البديل (له خوار) صوت البقر . يقال إن السامري لما صاغ العجل ألقى في فمه من تراب أثر فرس جبريل فصار حيا . وقبل صاغه بنوع من الخيل فتدخل الريح حوفه وتصوت كما زاه الآن في السيارات (الاتومويلات) واعلم أن الناس في العصور السابقة في الاسلام قد توصلوا لما هو أجد من ذلك إضلالا فيأتون بعجل مذبح مطبوخ ويوضع على المائدة ومحضرون (ضفدعة) ويضمونها في داخل فم الثور فيكون لها تقيق وهو يشبه صوت البقر وكمن من جبل يعملها الناس ليخشوا الناس بذلك فلا مانع أن يفعل السامري أمثال ذلك ، ثم قال تعالى : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) فكيف يتخذونه إلها وإله يرشد عباده ثم كرره الهم فقال : (اتخذوه) إلها (وكانوا ظالمين) واضمين الأشياء في غير مواضعها (ولما سقط في أيديهم) أي ولما اشتد ندمهم . وأصله أن من اشتد ندمه بعض على يديه غما تنصب يده مسقوفا فيها لأن فاه وقع فيها وسقط وقوله في « أيديهم » مسند إليه (ورأوا) وعلوا (أنهم قد ضلوا) باتخاذ العجل (قالوا أين لم يرحمنا ربنا) بانزال التوراة (ويخفر لنا) بالتجاوز عن الخطيئة (لتكونن من الخاسرين) ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا (شديد الغضب . وقيل حزينا) قال بنسبا خلفتموني من بدى) فلعنم بدى حيث عبدتم العجل وما نكرة موصوفة تفسر الستكن في بشس والمخصوص بالدم محذوف تقديره بشس خلافة خلفتمونيها من بعد انطلاقي إلى الجبل خلافتكم (أمجلم أمر ربكم) أي أمجلم وعد ربكم الذي وعدني من الأربمين وقدرتم موتي وغيرتم بدى كما غيرت الأم بعد أنبيائها (وألقى الألواح) طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر حمية للدين (وأخذ برأس أخيه) بشمر رأسه (يجره إليه) توها بأنه قصر في كفهم ، وكان عليه السلام حمولا لبنا ولذلك كان أحب إلى بني إسرائيل (قال ابن أم) ذكر الأم ليرفق عليه وكانا من أب وأم (إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني) وقاربوا فتكى (فلا تشمت بي الأعداء) فلا تفضل بي ما يشمتون بي لأجله (ولا تجعلني مع القوم الظالمين) معدودا في عدادهم بالمؤاخذة (قال رب اغفر لي) بما صنعت بأخي (ولأخي) إن فرط في كفهم وإنما ضمه إلى نفسه في الاستغفار ليرضيه وليدفع الشبهة عنه ، قال (وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين) فأنت أرحم منا بنا وأرحم من أمهات المطير وسائر الحيوان بأولادها فرحمتها كلها شتفة من رحمتك ومستمدة منها . ثم قال تعالى (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم) وقد حصل ذلك بالقتل المذكور فيما تقدم (وذلة في الحياة الدنيا) وهو خروجهم من ديارهم (وكذلك نجزي للمفترين) على الله ولا فربة أعظم من فريتهم وهي قولهم « هذا إلهمك وإله موسى » (والذين عملوا السيئات) من الكفر والمعاصي (ثم تابوا من بعدها) من بعد السيئات (وآمنوا) واشتغلوا بالإيمان وما هو مقتضى من الأعمال العالحة (إن ربك من بعدها) من بعد التوبة (ليعفور رحيم) وإن عظم الذنب ولو كان عبادة العجل أو كثر كذوب بني إسرائيل (ولما سكت عن موسى الغضب) باعتذار هرون وبشواتهم ، وفي الكلام مبالغة من حيث جعل الغضب كأنه كان مغريا له فسكت عن الإغراء (أخذ الألواح) التي ألغها أو التي أحضرها بأمر الرب على ما تقدم إن صح ما في التوراة الحاضرة . وأيضا فيها أنهما لوحان فيكون الجمع لما فوق الواحد وإن لم يصح ما في النسخة للوجود فالجمع هنا على حاله (وفي نسختها) وفيها نسخ فيها أي كتب (هدى) بيان للحق (ورحمة) إرشاد إلى الصلاح والخير (للذين هم لربهم يرهبون) أي للذين هم يرهبون معاصي الله لربهم .

لطيفة

جاء في التوراة ما ملخصه في هذا المقام أنه لما نزل موسى من جبل سيناء، ولوحا الشهادة في يده لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع فكانوا أن يقتربوا إليه فدعاهم موسى فرجع إليه هرون وجميع الرؤساء في الجماعة فكلهم موسى، وبعد ذلك اقترب جميع بني إسرائيل فوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه في جبل سيناء. ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقا وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج ثم يخرج ويكلم بني إسرائيل بما يوصى به، فإذا رأى بني إسرائيل وجهه موسى وأن جلد وجهه يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه. وإنما نقلت لك هذا لتعلم نوع أقوال التوراة في هذا المقام حتى لا يفوتك أهم ما فيه. انتهى للبحث الرابع والخامس.

البحث السادس

قال تعالى: (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتا) أي من قومه وللراد بالميقات الذي كلفه فيه ربه وقد تقدم هذا المعنى منقولاً عن التوراة الحالية وبه قال بعض المفسرين. وقال آخرون إن هؤلاء السبعين حضروا للاعتذار من عبادة العجل (فلما أخذتهم الرجفة) إذ دنوا من الجبل ودخل موسى بهم النمام وخروا سجدا فسمعوا الله يكلم موسى بأمره وينهاه ثم انكشف النمام فأقبلوا إليه، وقالوا « لن نؤمن لك حتى ترى الله جهره » فأخذتهم الرجفة، حتى الصاعقة (قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي) عن هلاكهم وهلاكه قبل أي يرى ما يرى (أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) من العناد والتجاسر على طلب الرؤية أو جبادتهم العجل، وهؤلاء السبعون قد اختيروا للاعتذار كما هو رأى المفسرين فغشيتهم هية قلقوا منها ووجفوا (إن هي إلا فتنتك) ابتلاؤك حين أصغتهم كلامك حتى طعموا في الرؤية أو أوجدت في العجل خوارا فزاعوا به (تضلّ بها من تشاء) ضلاله بالتجاوز عن حده (ونهدى من تشاء) هداه فيقوى به إيمانه (أنت ولينا) القائم بأمرنا (فاعفركنا) بمنفرة ما عرفنا (وارحمنا وأنت خير العافرين) تنفر السيئة وتبدلها بالحسنة (واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة) حسن معيشة وتوفيق طاعة (وفي الآخرة) الجنة (إنا هدنا إليك) تبنا إليك، وهدا إليه يهود إذا ناب ورجع واليهود جمع هائد وهو التائب. هذا هو الدعاء الذي دعا موسى به الله فكأنه يقول: يارب كيف نعمم النعمة والعاصون أقلّ من المضروب عليهم، وكيف تؤاخذنا بالفتنة وإعماهي من عمالك فأنت الضلّ وأنت الهادي، وأيضاً أنت متولى أمورنا، ثم رتب على هذه الثلاثة طلب المنفرة ليخلصوا من الذنب ثم الرحمة ثم أن يجعل عيشهم سعيداً في الدنيا والآخرة لأننا تبنا إليك، فأجاب الله على هذا السؤال فقال سبحانه وتعالى، إني وإن كانت الفتنة من خلقي والهدى من عندي فلي الحجة البالغة (عذابي أصيب به من أشاء) إصابته وهل أشاء إلا ما كان حكمة وعدلاً فأسلط عذاب الفقر على من انكسر على عمل غيره وعذاب الهم واضطراب القلب والحزن على من جعل جمع المال كل همه وعذاب المرض على من ترك أعضائه وجسمه فلم يشغلها بالحركات لتنشط وتقوى، وأسلط عذاب الجوع على من ترك القضاء حتى يأكل، وأسلط عذاب الشبق ولذع الشهوات على قوى الزواج حتى يقترن بمن تله له ولداً، وسلطت الندم والألم على من لم يخلص في عمله بأن قصد جملة رضا الأزواج أو الولد أو السلطان أو الجيران أو نحو ذلك ولم يكن موجهاً قصده إلى الله تعالى فإن العالم السفلي أكثر أهله جاهلون يكذبون الأنبياء ويؤذون العلماء ويسبون للحسين ويحق الولد أبوه فإذا كانت الوجهة شخصية ندم العلماء والمحسنون على ما عملوا من خير لمن جسد به فلا سعادة لأحد إلا بالإخلاص في عمله وتكون وجهته الاقتداء بما لك للكل امتثالاً لأمره أم يفعل رحمة وإحساناً لا رياء ولا طلباً للمكافأة، وأسلط حزن الجهل على من ترك العلم كسلاً وخمولاً؛ وبالجملة أسلط العذاب على من لم تكمل جميع قواه الجسمية والعقلية فليكمل جسمه بأنواع الرياضات يقوى وعقله

بالعلوم ونفسه بالتهذيب وأهله بالإكرام وأمه بالنصيحة وأهل دينه بنشر العلم وهكذا فمن نقص شيئا من ذلك
عذبه عذابا أرقى نفسه به ، إن العذاب هو الشريعة الصامتة ، شريعة عادلة هي سوط أزلته في الأرض أسوق
به الناس إلى السعادة ولو أتى لم أثنأ العذاب للناس وهم مفرطون لما نوا في بعض يوم . فالآلام نعمة جليظة
ترقى النفوس ، إن هذه الشريعة التي حتمتها في الطبيعة تعاقب على الصغيرة والكبيرة وعلى السعد والخطأ والنعفة
لأنها لا تنفل طرفة عين ، وليس هذا ظلما لأنها ناطقة بلسان فصيح : لا تغفلوا أيها الناس وتعلموا العلوم
وتفطنوا ، وعلى ذلك تكون الرحمة قسمين : قسم هو اللذات ، وقسم هو الألم كما يؤلم الأب ابنه والأستاذ
تلميذه والطبيب مريضه شرب المر وما أشبه ذلك ، وأتالم أنفل في خلق أقل من الطبيب ولا العلم ولا الأستاذ
بل إن عملي أبعد إحكاما ، وأعظم شأنا ، فاذن الآلام من أجل النعم ، وهذا قوله تعالى (ورحمى وسمت
كل شئ) لأنه بعد هذا البيان أصبح الألم نعمة فأين العذاب إذن ولا عذاب إلا حيث الألم ولا ألم إلا حيث
النعمة وتهذيب النفس أو نحو ذلك ، وإذا وسمت الرحمة كل شئ فلم يبق من اعتراض بعد ، وإذا قال
موسى « إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء الخ » .

يقول الله هنا فتنته ليستبقيظ ولا أزال أفتنه وأعذبه حتى يستبقيظ ، فهذه الفتن كلذعات الجوع ، ومن ذا
يقول إن ألم الجوع نعمة ؟ من ذا يقول إن ألم العضو المريض الذي ينادى بلسان فصيح (كل ما نقص منى)
ومن ذا يقول إن هذا غضب وأين الرضا ؟ إن الألم من الجوع والمرض والشبق والحقد والحسد
تنطق بلسان فصيح أن كل الغذاء واثرب الماء وداو العضو وتزوج من تله لك وتنظ قلبك من القل ،
لأن نار الحقد ستحرقك وعذاب الحسد سيهلكك وأما أشبه ذلك . إن الناس في عذاب وهم لا يشعرون
وفي ألم وهم لا يبصرون ، ففى عرفوا ألم النفوس كما عرفوا ألم الأجسام أقلموا عن تلك الذنوب وتغذوا
بالمعارف وتركوا الحقد والبخل والحسد وأمثالها فيصبحون سعداء ويصبحون في نعيم مقيم ، لا يمنع الناس من
فهم ما ذكرناه إلا جهلهم وكبرياؤهم « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

ولما كان هذا المقام من الدقة بمكان بحيث لا يقبله إلا الحكماء ، ولا يدركه إلا الكبراء ، ولا ينال حدته
إلا أولو الأبواب شرع يذكر الأم التي تدرسه وتعرفه حتى معرفته وهو ما يأتي :

البحث السابع

قال تعالى (فسأ كتبها) فسأئبها في الآخرة (للذين يتقون) الكفر وللمعاصي (ويؤتون الزكاة)
وخصها بالذكر لأنها أشق (والذين هم بآياتنا يؤمنون) فلا يكفرون بشئ منها ، ثم أبدل من الذين يتقون
قوله (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي) الذي لا يكتب ولا يقرأ فكل علمه مع عدم القراءة وهذه معجزة
من معجزاته ، ثم وصفه فقال (الذي يجودونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن
النكر ويحل لهم الطيبات) مما حرم عليهم كالشجوم (ويحرم عليهم الخبائث) كاللحم والحمر والخنزير والربا
والرشوة (ويضع عنهم إصرارهم) وهو الثقل الذي يأمر صاحبه : أى يجبهه عن الحراك لتقله . والمراد
التكاليف الصعبة كقتل النفس في توهم وكبعض الأحكام الشاقة التي تقدم ذكرها تعلقا عن التوراة ، ثم قال
(والأغلال التي كانت عليهم) هي الأحكام الشاقة السالفة الذكر (فالذين آمنوا به) بمحمد صلى الله عليه وسلم
(وعزروه) وعظموه ، أو منعه من الصدوق حتى لا يقوى عليه عدو ، وأصل العزير النع : ومنه التعزير ، لأنه
منع عن معاودة القبيح (ونصروه واتبوا النور الذي أنزل معه) أى القرآن : ومع متعلق باتبوا ، أى
واتبوا القرآن للنزل مع اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والعمل بسنته (أولئك هم الفالحون) أى هم الناجون
الفائزون بالهداية والنعيم .

لطفة

اعلم أن هذه الآية لا مجال للشك فيها أن ما ترمى إليه إنما هو فيما يبدو للقارىء أن من اتبع نبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاء وصفه في النوراة والإنجيل بأنه ناج ، ومن كفر به من النصارى واليهود مع ثبوت وصفه في كتابيهما المقدسين ، فإنه داخل النار لأنه جحد حقيقة لمجرد الشهوات الدنيوية والناد والحسد وحب الرئاسة أو التقليد الأعمى ، والتأمل يجد فيها معنى أدق وهو أن محاوره موسى عليه السلام تدور على كل لسان وفي كل جنان ولا تزال جميع الديانات وعلوم الفلسفة تذكر هذا السؤال : لم يذبنا الله وأين رحمته ؟ ولم أمراض وأجوع وأدخل جهنم ، ولم هذه كلها ؟ فأجاب الله إن عذابه لحكمة ، وإنما قلنا لحكمة كما تقدم . لأنه قال « ورحمى وسعت كل شيء » وعلى ذلك يكون للعذب داخلا في الرحمة وقت تمديه ، لأن التعذيب ثمرته الإيذار والتذكير ، ومن ظنّ التذكير عذابا فما أجعله ، ومن ظنّ الوعظ جعبا فما أضله . إن أكثر الناس غافلون . والنوع الإنساني مادام لا يفرق بين التهمة والنعمة فهو طفل ، وما دام الناس لا يعلمون أن الآلام مذكرات عدوها شقاء ، ومتى عدوها شقاء لم يتبروا بها ولم يتداركوا ما فرط منهم فيكونون أشبه بالأطفال سيكون والطيب يداويهم ولا يعلمون أن هذا لمصلحتهم ، فهم يكونون دائما في عذاب .

ولما علم الله أن الأمة التي سترتني في المعارف والعلوم إنما هي الأمة الإسلامية ، فهؤلاء هم الذين سيرفون حقائق الأشياء ويدركون سرّ الرحمة ولذلك كتبها لهم ، وكيف تكتب الرحمة لمن لا يعقلها أو تساق الهدية لمن لا يتقبلها ؟ فلا يزال الناس في عذاب حتى يدركوا الحقائق ومتى أدركوها زال عنهم النصب والعذاب الواسع ولا سبيل للعلم في الآخرة إلا بعد التفكير في الدنيا .

ولما كانت أمة الإسلام لم يمض عليها من الزمن غير ألف وثلثمائة سنة وكانت أمة اليهود محصورة العدد لأنهم يكرهون اتساع دينهم لأنه دين قوم مخصوصين ، وأمة النصارى قد نبذت تعاليم كتابها وفتكت بأهل الأرض ، خطر بنفسى أنه سيأتي في هذه الأمة أناس مفكرون حكياء لم يسمح بهم الدهر ، وهؤلاء يدركون حقائق العالم الذى نحن فيه فيعلمون الرحمة وتنتائج الآلام وما أشبه ذلك ؛ فينالون الرحمة تامة في الآخرة ككثير من سلفنا الكرام الذين أفيضت عليهم المعارف وأدركوا الحقائق وثمة عاقبة الأمور .

لم خلق الإنسان وهو في آلام وذنوب وظلمات وما فائده من الوجود ؟

ومما يناسب هذا اللقاه مادار من الحديث بينى وبين بعض الفضلاء من مفتتى وزارة المعارف العمومية المصرية ، وهذه صورتها :

جلست وطائفة من العلماء والسادة الأدباء بمن لهم قدم في العلم راسخة ، وشهرة في الفضل ذائعة ، من رجالات وزارة المعارف وأخذنا تتجاذب أطراف الحديث من قديم وحديث ، فقال أوسطهم مقاما ، وأصغهم كلاما وأوسهم جاها ، حدثنى رعاك الله حديث هذه الدنيا والحياة فيها وما شأنها ، وكيف ضلّ أهلها وجر أعظمتها ؟ ولم نر من هذا الإنسان المتمدين بعد مرّة الدهور وكر الصور والارتقاء المشهور إلا أخلاق الذئاب وحرص الكلاب وتهافت الذئب ، ولو أنك سرت في أمريكا وأوروبا واطلعت على أسرار الأسرات لرأيت أمرا « إذا . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخرّ الجبال هدّا » من خيانة إلى جنابة إلى سعاية إلى سرقة إلى عداوة إلى عار وشنار وهمّ مستطار ، فلا الزوج بمخلص لزوجته ، ولا الزوجة بصادقة لزوجها ، ولا الأسرة بصالحة لشأنها ، بل كل لكل حاسد وعليه حاقد ، فلو فتنس مافى القلوب « وحصل مافى الصدور » لم يجالس الأخ أخاه ، ولا الابن أباه ، ولا الزوج حماء ؛ فأين الإنسانية المنشودة وهذه آثارها المنكودة ؟ فياجبنا لم خلق الإنسان ؟ ولم علم البيان ؟ ولم يقرأ التوراة والإنجيل

والقرآن؟ فلما فرغ من فصيح بيانه ومحجيب كلامه أصفى الجمع إلى ما سألفيه من الجواب، فقلت بالقرآن أجيبك؟ قال كلا! فنحن به طالون، فقلت: إذن بالبرهان، قال نعم: قلت البرهان قيمان: يقين وإقناعي، أما اليقيني فأنت تعلمه كدلائل الهندسة والحساب والجبر، وهذه ترجع في أواخر الأمر إلى القضايا الأولية المستخرجة من المشاهدات الحسية، قال نعم! قلت: ولكن عقول أهل الأرض وفلاسفتهم لا طاقة لها ولا تقدر أن تعلم هذه العلوم بالبراهين العقلية المستمدة من المعلومات الحسية، لأن الأمر أعظم وأوسع من هذه الأرض ومن فيها، قال إذن تكون الأدلة إقناعية؟ قلت نعم! قال فمن أين نستمدّها؟ قلت من مدارسكم المصرية، أليس فيكم المدرسون والفقهاء؟ قالوا بلى! قلت أستم ترون للدارس متفاوته الدرجات؟ قالوا بلى! قلت هكذا الإنسان يرتقي درجات في آلاف السنين ومئات الآلاف بل فيها لا يتناهى من الزمان « لتركبن طبقا عن طبق » وهو في كل درجة يستمدّ مما قبلها ويستعدّ لما بعدها، وكل فكرة بعدها أو سيئة يمتدحها أو حسنة يفعلها تكون له أو عليه ولا تزييله كما ترى التلميذ في المدارس يركب طبقا فيها عن طبق، فما للناس لا يفقهون، قال أنتمدلّ بالقرآن ونحن اليوم في مقام الإقناع بالبرهان؟ قلت كلا! وإنما هو اقتباس واستئناس لبرهان وقياس، فأجاب قائلا: أجبتني على غير السؤال، ولعمري لشتان بين المدارس المصرية وسؤالنا على الحياة الإنسانية؟ فأين التريا وأين التري؟ قلت إن الناس اليوم على هذه الأرض أشبه بالصبيان في مدرسة (روضة الأطفال) فاستفرقوا ضاحكين ورفضوا أسواتهم ساخرين وقالوا أتخذنا حزوا؟ قلت: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين وهم ساخبون مازحون متعاززون، فقال قائل منهم: سلوه عن كنه جوابه ولا تسرعوا باللائمة على مقاله، فقال الذي سألتني أوضح ما تقول، فقلت: على شريطة ألا يقاطعني في الحديث أحد حتى أتمّ البرهان، قالوا: قبلنا شريطتك فأتمم مقالتك، فقلت: أحدثكم حديث النبات وحديث الحيوان وحديث الكواكب ففيها البيان، فقالوا نعم! فقلت:

(١) النبات يتناهب الحرّ والبرد والمطر والصقيع والتلج ليكون له نتائج ظاهرة ومنافع باهرة من الكلا للحيوان والحب للإنسان. (٢) والحيوان يتناهب ماينتأب النبات من الحوادث المذكورة ثم يزيد عليه الآلام النفسية والحوادث الجسمية ويعطى الحواس الخمس المعلومة وهي تختلف اختلافا كثيرا؛ فبينما ترى الدود في لب الثمار وجوف الحيوان لا ينال إلا حاسة اللمس، إذ الدود الذي يدب على العود يعطى حاستين: اللمس والدوق، وبعض الحيوان في قاع البحر يزيد عليهما حاسة الشم ثم الحفة العمياء تزيد السمع لأنها تعيش في جوّ حالك الإهاب، ثم تكون الحيوانات للمعلومة ذوات الحواس الخمس ثم الإنسان الذي يستنتج للمعلومات الأولية، ويقرأ العلوم المشهورة والمعارف النفيسة (٣) الكواكب، أما الكواكب فأنت ترى أن أرضنا التي نحن عليها لا هي في العير ولا في التغير، ولو أنا وإزاناها بأخواتها الصغيرات من السيارات حول الشمس لازدراها للشمس وللريخ ولنبذها ظهريا (أورانوس ونبتون) وفوق ذلك أنها بالنسبة للشمس كرة صغيرة ضئيلة، والشمس وما حولها إذا نسبنا إلى كواكب أخرى كانت كذرة في الفضاء بالنسبة لقصر شامخ أو قطرة من ينبوع ماء كما كشفه العلم الحديث وسارت به الركبان وهربته علماء هذا الزمان. ولو أن الشمس ناظرت الفرقدين أو فاخرت السماكين لقالا لها بفسيح البيان وساطع البرهان ماقاله جرير:

فضض الطرف إنك من نمير فلا كبا بلفت ولا كلابا

• أطرق كرا إن النعامة في القرى •

[رأيتك في الكون لافي الضح] هذه هي القدمات التي أوردتها لإيضاح اللقاه في قوله إن الإنسان على هذه الأرض كالتمليذ في مدرسة (روضة الأطفال) إذن، قال من سألتني. فإذا بيني على هذه القدمات؟

قلت : أستم تعلمون أن التليذ في مدوسة [روضة الأطفال] يدخلها وهو ابن خمس سنين ؟ قالوا بلى ! قلت : أليست أخلاقه شيطانية ؟ قالوا بلى ! قلت : وأصالة صبيانية وآراؤه هزلية والأبوان والأساندة به فرحون ، فإن نطق بالحروف المجانية مدحوه ، أو بالأعداد الحساية كالثوب وهم يرونه طول النهار يقاتل الصبيان ويضارب الإخوان ، ولم ير أحدا يثس من أعماله المستقبلية ولا من أن هؤلاء الصبيان هم بعد ذلك الوزراء والعلماء وللوك والحكام والحكام ، قالوا بلى ! قلت : فإذا رأيت هذا الإنسان طنى وبغى وتعدى حده ولم يقدر حقوق الفضل وللبن وخان إخوانه ظلما ومشامة وعدت الدول القوية على الضعفاء وأمسى كلٌّ لكل عدواً مبيها وعم الحسد والكبرياء والحبت وسوء الطوية والحرس والتكبد والمهم والغم « ثم رددناه أسفل سافلين » فلتعلموا أنه اليوم في مدرسة [روضة الأطفال] .

الحيوان والإنسان

فإذا اختلف الحيوان في مقدرته الحسية وتعالق أنواع الغمور والقرود وارتقت عن جماهير الدود التي تدب على العود في عدد الحواس واشتد اختلاف الناس في معقولاتهم ودرجات فهمهم فكانوا أوسع نطاقا من درجات الحيوان في الحسوس ، أفلا تقول إذن إن هذا الإنسان على هذه الأرض الضئيلة المسكنة الناجية لشمسنا الصغيرة أشبه بالدود على العود الذي يدب على النبات ولم يملك من الحواس إلا اثنتين : الالامسة والذاتية وأن هذه الأرض التي هو عليها لا يستمد سكانها لأكثر مما يعلمون ويكون هم الأطفال والأرض روضتهم ومدرستهم ، فإن صغر علمهم فهذا استعدادهم ، وإن شكست أخلاقهم وقبحت طباعهم فلذلك خلقهم لأنهم أطفال لا يزالون في أول درجات الآمال ، وربما كانت آلافا مؤلفة كما نرى درجات الحيوان في الإدراك وكذلك الإنسان « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » وستنالون كل علم على طول الأزمنة والدهور المستقبلية « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا » ولئن راعكم ماترون من جهله الظاهر وخلق البئر ورأيه الفاتر ، فلنفس عقله بقياس الكوكب الذي هو عليه ولتنظر كيف يسوغ أن يكون الإنسان أعلى العالمين وقد رأينا أرضه لانسبة بينها وبين الكواكب الصغرى فضلا عن الكبريات ، أفلا تقول على سبيل القياس التمثيلي إن العقول تتفاوت في درجاتها تتفاوت الكواكب في أقدارها والحيوانات في إدراكها وإنه الآن في أول سلم الارتفاع فرجا ارتقى في عوالم طبقا عن طبق فوق ما عرفناه . ولقد كان الإنسان يظن أنه سيد العالمين حينما كانت الأرض مركزا للعالم . فأما الآن فقد زال البهتان ورأيناها حجرة صغيرة في مدينة واسعة .

ومن عجب أنك تسمع العلامة (أوليفر لودج) سيد علماء الطبيعة في بلاد الإنجليز يقول على ملا من قومه [إنى أصبحت موقنا أن عقل هذا الإنسان بالنسبة للعوالم الروحية المحيطة به أشبه بالفعل بالنسبة لعقل الإنسان] .

ثم قلت وإذا رأينا الإنسان يزداد على مدى الزمان شراسة وشكاسة والدين لم يهذب العلم لم يؤدبه . قلت هكذا المرض يزداد انتشارا كلما ازداد الطب اختبارة فهل ترون إقبال مدارسه أو إغفال ثقافته ؟ قالوا لا . ولو فعلنا ذلك لاضحلت الإنسانية ولرجعت إلى حال الحمجية . قلت هكذا تلك الديانات والعلوم ، ولئن قلتم فما بالنا نرى الأمراض تنتابه والفقر يؤذيه والجهل يرديه والمذاب يحيط به لتقولن إن الآلام الحيوانية والحوادث الإنسانية ليرتقى بها وجدانه كما أنتجت حوادث الجوع في النبات حبه ونمره ، فارتقاء الوجدان في الحيوان والإنسان بحوادث الأيام كاستكمال الحب والتمر بجره المهجير وبرد الزمهرير . فقال قائل منهم إنى منذ أيام ذبحت زوجا من الحمام وهو ينظر إلى الدنيا نظر المريض إلى وجوه العود وكنت أدهش من هذا

النظام لم ينجاه وهو صغير فقلت أم أقل لك إننا في مدرسة [روضة الأطفال] وهذا انتقال من فرقة دنيا إلى فرقة عليا « وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أم أمثالكم » .
 وقصارى الأمر وحماهه أن للإنسان خمس درجات حسية وخمسا أخرى نظامية أو طبيعية في مدرسة [روضة الأطفال] تابعا في ذلك سنة الارتقاء كالحبوان إنه يتقلب جنينا في صور مختلفة من صور الحيوانات من أدناه إلى أعلاه حتى إذا ولد طمعا تبتت له مدرسة المس فالذوق فالتعم فإلصار يتلو بعضها بضا كفضائل الحبوان ثم تكون تربية منزلية فمدارس أولية فالابتدائية والثانوية والعالية إن دخل للدارس النظامية وإلا اكتفى بالمدارس الطبيعية من السر واليسر والنفى والفقر والنعف والضرر والصحة والمرض والمخير والشر .

والئن قلتم لما باننا لانرف برهان ما تقول وإنما أنت تلقيه لنا على سبيل القياس التمثيلي لا البرهان ؟
 قلت يا سبحان الله لو أنكم سأتم الدود في الشجرات والسماك في البحيرات والحشرات في الحفوات والطيور في الهواء عن الإنسان وعلومه أو كل فريق عن الآخرين لقالوا جميعا « وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا لنغيب حافظين » ولو أنك أردت أن تفهم صبيان [روضة الأطفال] عن الوزارة وعظمة الإمارة لم تجد ذلك إلا أمثلة بما يألفون من الكرة والسولجان والزهر في البستان والورد في الأكمام وحلاوة التفاح وطعم أكل الفواكه والفمرات .

ولما كان النقل الإنسان خلق في الأرض طفلا أعطى من العلم على مقدار طاقته ، ولو أنك سألت الدودة في لب النبات عن عالم الحشرات أو السمك عن عالم الطيور أو الحشرات عن السباع لكان الجواب « وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا لنغيب حافظين » .

هكذا الإنسان لا يشهد العلم الذي جد هذا وإنما يحلم بالقياس ويدرس بالاقتراب الذي دله على عوالم منتظرة . وإذا علمه المؤدبون مثلوا له أحواله للستبة بما يناسب معارفه فالسلام كالهدوء يعطى لمن يفقهونه بمقدار . واعلم أن هذا الارتقاء كله روصى لاجسى في عالم البرزخ فافهم انتهى الحديث .

حكمة

لقد أطلت القال في هذا المقام لتفسير « قال عذابي أصيب به من أشاء ورحمتي وسعت كل شيء » لأن أعقد العقيد في العالم الإنسان رحمة الله مع أنه يذنبنا . وكيف نتعمد أنه رجم وصدق به وهو يؤلمنا فهذا القول قد أبان هذا المقام على قدر الطائفة ، وبهذا تفهم كيف كان من أركان للباية الإسلامية في إبان نزول الشريعة الإسلامية عند الحضرة المحمدية أن يقال لمن أراد الإسلام « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره من الله » فكان للسلم ما زما أن يعلم أن الشر الذي نابه من الله وكيف يتفق هذا مع الرحمة ، فهذا المقام زال الإيهام وعليه تعرف قوله تعالى « وصى أن تكروهوا شيئا وهو خير لكم » ولا جرم أن العذاب في الدنيا وفي البرزخ مكروه لنا ، فإذا كان خيرا وهذا القول هو المقول وهو مقتضى قوله تعالى « يا أبت إنى أخاف أن يمكك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » فهذا عذاب من رحمن كما يكون العذاب من الطيب إذن هو رحمة « والله هو الولي الحميد » .

غرق الانسان في الرحمة أعماء عنها

اعلم أن الناس يمشون مغمورين بالرحمات فارقين فيها ولكن القليل من يحس بهذه الرحمات . ليس من الحكمة ولا النقل أن يكون الدم خيرا من الوجود . إن الحكيم إذا خلق خلقا فهو لا عمالة بمجوده بالإتمام ويجعل له الحياة محبوبة لامبغضة مكروهة . ناهيك ماترى في الأمهات والآباء فهو لا وإن لم يكونوا

خالقين وإنما كان لهم بعض الأسباب في وجود التربة رأينا حرصهم عليهم وتحننهم وتعطفهم واستانتهم في سبيل إنشائهم الأبناء وإسعادهم وإقازمهم من الملوكات .

إن العقل والقياس يقتضى أن يكون خالق هذا العالم الذى نعيش فيه أكثر رحمة وأشدّ محافظة وعطفا على مخلوقاته وإلا فإن خلقهم يكون مخالفا للحكمة منافية للصراف السليم . إن محدث هذا العالم لا يجوز ولا يقل أن يكون كالأبوين رافة ورحمة بل القياس يقتضى أن يكون أكثر رافة ورحمة . وهنا يتبادر هذا السؤال : فلماذا إذن ترى البؤس والشقاء والذل في الانسان ؟

الجواب

اعلم أن الناس غارقون في الرحمة كما قدمنا ولكنهم عنها محجوبون، وها أنا ذا أحدثك عن نفسى وأنت طبعا مثلى ، إننى من الأمة المصرية ومن نسل عربى فانظر ماذا ترى أليست الحكومة المصرية والأمة المصرية هما اللذان يحافظان على حياة أفراد المصريين وأنا منهم . إن الحكومة نظام واحد وهذا النظام لو اختلف اختلف الأمن فهو كدولاب واحد لابد من صفة سائر أجزائه . النيل يجرى لسقى الأرض والحكومة تهندس وتحافظ وهذه الأمة تتبادل النافع مع اليابان والصين والمهند وأوروبا وهذا معلوم بدليل [مصالحة الجمارك] وصادراتها ووارداتها . فاذن كل الأمم شرقا وغربا تساعدنى سواء أهرفت أنا أم لم أهرف أى أنهم يساعدون أمقى للمصرية التى لا أكون مطهشا إلا باطمئنانها . إذن جميع العالم الانسانى يساعدنى علمت أم لم أعلم ، وهذه الأمم كلها تشرق عليها الشمس والقمر والكواكب . وهذه الأنوار لاسيا ضوء الشمس مؤثرات في للزراع والحيوان والنبات وهى التى تثير البخار من البحار وتزجى الهواء فيكون رياحا ثم الرياح تحمل السحاب فيكون مطرا ثم إن الضوء يؤثر في نمو النبات فلا تكون للمادة للون في النبات إلا به وبها تكون للواد للنمية للنبات كما أوضحناه في سورة الأنعام .

إذن تكون الأمة المصرية والأمم كلها والشمس والقمر والكواكب والهواء واللاء والسحاب والرياح كلها خادمت لى . وبهذه كلها كان لى جسم وأعضاء تبلغ (٢٤٨) عضوا وعضلات وأعصاب حس وأعصاب حركة وعقل في الدماغ وحس مشترك وقوة خيالية وأخرى مفكرة وحافظة وواهمة . وهذه كلها متصلات بالحواس الحس وبأعصاب الحركة التى تتجه إلى ظواهر البشرة فتتحرك الأعضاء لاطلب تارة والمهرب أخرى وفى أعضائى من العجائب ما لا حد له . خذ مثلا العين والأذن وأقرأهما في سورة آل عمران فهما هناك صرسمتان مصورتان مشروحتان شرحا وإفيا وفيهما من العجائب ما يدهش العقول ويهيب اليب ويربو في الحقائق الدهشة على ما يدهش للرء من عجائب ألف ليلة ولية التى هى وأمثالها خيالات يتسل بها الشاب قبل أن يبلغ الحقائق التى تشرحها من العلوم الطبيعية والفلكية . هذا الجسم وحواسه وعقله وقواه مغمور في الهواء الذى يتنفس فيه وحواله للاء متوافر والثناء والهواء والقاكهة والندارس والطمون والتلاميذ وقراء الكتب التى يؤلفها التى يتعلم منها، ولبلاده مدارس وحكومة منظمة . كل هذا نعمة على أنا . فاذن العالم كله نعمة أسديت إلى أنا وأبناء جنسى ودينى .

ولكن الانسان ينشأ من سفره غافلا جاهلا ماحوله حكم عليه أن يكون هذا العالم مدرسة له واقتضت الحكمة أن يكون منه غذاؤه ودواؤه وحياته وموته كما يكون منه علمه وحكمته فهو علم وهو غذاء . خلق الانسان في الأرض وقيل له أنت ملازم أن تحافظ على قوتك وملبسك ومسكنك وصحتك وأمتك وتتاطى الطعام وتجلبه ولست كالنبات يأكل من الأرض ولا كالحيوان يأكل من غير أن يزرع ولا يجرث ولا يطحن كلا .

ينكبّ الإنسان على ما يبتدّ جوعه ويزيل مرضه ويأخذ في أسباب العلم والرقى ويستترق في المهوم والأحزان بما يتناه من الآلام أو الفقر أو التنافس أو الكسل أو العداوة أو التكبرياء أو الحسد أو الشره، فهناك ينسى تلك النعم نسيانا حقيقيا فيقول الفقير أنا أريد النعم . والجائع أريد الخبز . والظالم أريد النصر ومن علا عليه أقرانه يريد أن يظلمهم . ومن تمت به أعداؤه يريد الفوز .

وأضرب لك مثلا شابا عشق فتاة جميلة وامتنت عليه فهل يفكر في نعمة العقل والجواس والصحة والتمنى والثروة والهواء والماء والأمة والأم والشمس والقمر ؟ كلا . ثم كلا لا يرى في نعمة ولا رحمة إلا أن يحظى بمشوقته . كفاك هذا المثل وأنت تعرف أمثاله وأمثاله .

فالإنسان يحيط به الرحمات التي لا تعد لها ولكنه يحجب عنها حجابا حقيقيا بطمع أو كبرياء أو غفلة أو ظلم .

يكون للإنسان آلاف من الجنيئات فيحسد من زاد عليه ألفا واحدا وينسى آلاف الآلاف من النعم ومن التقود ومن الصحة والبنين والأصحاب والخلان ويترس على خالق هذا العالم الذي جعل له رجلا بشاكلة واعتلى عليه .

هذا هو مثل الناس في بدوهم وحضرم . فأين رحمة الأب أو رحمة الأم من أرحم الراحمين ؟ ولكن الشهوات وأنواع الضب وأخلاق السوء وما أشبه ذلك أصبحت حجابا كثيفا بين الناس وبين الإحساس بالنعمة والرحمة .

الحجاب للضروب بين الناس وبين رحمت الله

رأيت من هذا البيان أن الناس جميعا في رحمت لا تمتدّ بآلاف الآلاف ولا حصر لها وهي مشاهدة مدوسة مسمومة مذبذوقة قد غرق الناس فيها ولكنهم لا يحسون بها « إنهم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا » وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » وها أناذا أربك السدّ يبصيرتك فهذا السدّ أنواع كثيرة جدا كسدّ الحرص والشره والحقد والحسد والجهل والغفلة . يعيش الإنسان ويموت وهو لا يدري أن له جبا وأن هذا الجسم نعمة ولا يحفل أن ذلك كله فضل من الله ومنه .

فمن عجب أن تحيط بنا سدود ولا تراها وتلك السدود تحجب عنا جمال هذه المخلوقات ، فالعبون مفتحة ولكن لا تبصر وذلك لتلك الحجب التي شرحتها . إنما مثل الناس في الدنيا بالنسبة لما حولهم من النعم كمثل العمى والعمى الذين أمامهم الصور الجميلة وحولهم النعمات الشجية البديعة ، والأولون لا يستدلون بالبصيرات والآخرون لا يشعرون بالنعمات فلا فرق بين حاسة لم تخلق وبين حاسة مخلوقة عليها غشاء حتى أو معنوي .

هذه المعاني مقتبسة من أول هذه السورة أي من قوله تعالى « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » .

بين الله هناك أن الناس أعطوا معايش وقليلا منهم شاكرون ، وبين مجمل تلك النعم بالخلق والتصوير ، ثم أبان موانع الشكر كعدم الاعتراف بالنعمة أو جهلها أو عدم استعمالها فما خلقت له فذكر عصيان إبليس عن السجود واستكباره بأصله الناري الذي هو القوة القضيية السارية في أكثر الناس فهم أشبهوه من هذه الناحية وحجب عنهم الإحساس بالنعمة وأحصرت قواهم في الغلبة والحسد والشهوات والتنافس فنسوا سائر النعم إلا ما حبت عقولهم فيه من الترهات .

ثم انظر كيف يقول إبليس مشيراً لما قررناه أنه أقسم أن يفوى بنى آدم فلا يكون أكثرهم شاكرين .
 ألا تتعجب من هذا العجب أن تكون الآية التي نحن بصدد الكلام عليها قد ذكر في أول السورة معناها
 وبين مزاجها . يقول الله هناك إنه مكن بنى آدم في الأرض وقليل منهم شاكرون .

ثم أعقب ذلك بقصة خلق آدم وتصويره ويتبع ذلك جميع النعم، ثم كيف فنى على ذلك بقصة إبليس الذي
 حلف أن يفوى أبناء آدم حتى لا يكون أكثرهم شاكرين فردّ العجز على الصدر الذي هو نوع من أنواع
 البديع الذي يفرح به أطفال العلم في الأمم الإسلامية المتأخرة وقد جهلوا الحكمة المهيومة ومنها ما ذكرناه
 أن الكبر والحسد والحقد والحرم والشره وأمثالها هي الحجب التي أسدلت على عقول الناس بإغواء
 الشيطان الذي حلف أن أكثرهم لا يكون شاكرًا وذلك أن الشكر لا يكون إلا بالإحساس بالنعمة والإحساس
 بها مادام المرء مشغول الفؤاد بما يهوى من مال أو ولد أو صيت كاذب أو فتاة حسناء .
 فكل هؤلاء متى فتنوا بما أحبوه فإنهم لا محالة ينسون جميع النعم لأنه جميل بينهم وبينها بسد كشيء
 قوى متين فلا يكونون شاكرين .

من هم الشاكرون لله

اعلم أن الإنسان لا يشكر النعمة إلا بأحد أمرين :

[الأمر الأول] منح النعمة عنهم كما ترى الفقير والمظلوم والجامع والظمان وذا الشبق والدليل والمريض ،
 ففى اغنى الفقير وجبر كسر المظلوم وأكل الجامع وشرب الظمان وتزوج ذو الشبق وعزّ الدليل وشفى
 المريض . أقول متى نال هؤلاء ما منح عنهم شكروا ربهم .

قد يعيش المرء عشرات السنين وقد أعطى مالا وولدا ولكنه لا يحمد الله على شيء منها لأنها لم تنزع
 منه حتى يعرفها ويرى الفقير بجانب منزله نال كسرة بعد جوعه فيحمد ربه حمدا كثيرا وذلك يسخر
 منه ويستهزئ .

واعلم أن هذا الشكر ضئيل أشبه بشكر العبد الدليل الذي اعتاد سيده أن يضربه ففى سكت عنه حمد
 سيده على هذه النعمة أى نعمة العفو عنه . وإنما الشكر الحقيقي فبا يأتي من الأمر الثاني وما هوذا .
 [الأمر الثاني] دراسة هذه الدنيا ونظامها وقراءة علوم هذا العالم والإلمام بمجملها والبحث فيها وذلك
 هو المسمى [علم ما وراء الطبيعة] ولا تظن أن هذه الكلمة على حقيقتها بل بما وراء الطبيعة معناه العلم
 الذي يشمل الرياضيات والطبيعات : أى العلم الذي لا يختص بأحدهما ، فالبحث فى نظام الكائنات العلم منه
 وقراءة القولات وتقسيم العلوم منه .

وهذا التفسير أشبه بهذا العلم لأن مباحته عامة . فليس معنى ما وراء الطبيعة غير ذلك ويدخل فيه علم
 الأرواح والبحث فى وجود الله والرسول وما أشبه ذلك .

قلنا فيما تقدم إن الإنسان يعيش عشرات السنين وهو فى سجن شهواته وغضبه فلا يرى جمالا ولا نعمة
 ولا رحمة وقد يمتنى الموت كما قالت مريم « يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا » فلما كلفها عيسى وهو طفل
 وأتهمها أنه رسول الله سرى عنها وعرفت أن هذه للصيبة والفضيحة والحزى لادوام لما وأن الشرّ الدينيوى
 يقبه الخير الأخرى والسعادة الأبدية بالمنافع العامة للناس .

هكذا خلق الله فى نوع الإنسان أناسا اصطفاهم واختارهم فهم يدوسون هذا الوجود ولم يتجلى الوجود
 على ما هو عليه على قدر الطاقة البشرية ويدركون جماله . وهم وإن اتنايتهم المصائب وحلت بهم النوائب كسائر
 الناس فإن فى بوطنهم بواعت السرور والجلد والفرح بالحكمة التي هي جمال لا ينضب وذخر لا ينفد

فيذهب عنهم الحزن في الدنيا . وكما أصابهم غم أو هم أشرق عليهم ذلك النور فهم دائماً في حبور وسرور وإشراق ونور وجمال وبهاء . وما مثل هذه الطوائف إلا كتل السمع والبصر في الإنسان كلاهما مدرك لما بعد عنه . أما بقية الناس فإنهم أشبه بحاسة المس والذوق فهما لا يدركان غير اللامس . أما هذه الطائفة فإن جوارها مفتوحة لجمال هذا العالم فأدركت الرحمة في الهواء وفي الماء وفي النبات وفي السماء . ولا يحجبهم تراكم النعم عليهم بل هم يخترقون تلك الحجب ويهجمون على الحقائق ويقتلوننا بحثاً وتنقيحاً حتى تظهر واضحة كالشمس في راحة النهار . وكما سرى عن مريم بما سمعت من صوت ولدها أنه رسول وأنه براهها كذلك يذهب السوء عن هذه الطائفة الشاكرة بما يلهمون في قلوبهم من جمال الوجود وبهجته وأن العدل والشر يقبآن عزاً وخيراً وروون الصبر نعمة عظمى يشير لذلك قوله تعالى « فأسأكتها الذين يتقون ويؤتون الزكاة الخ » فهؤلاء للتقون للفتقون أموالهم هم الذين فتحت بصائرهم للنظر في هذا الوجود وهم هم الشاكرون حقاً .

وهنا يرد هذا السؤال فيقال لم عذب الناس عند اللوت بنزع الروح أليس ذلك شقاء للسالح والطلالح على سواء بل الخوف من اللوت شقاء ملازم . أقول هذا السؤال لا يرد بعد ما بينا أن الناس في سجن من الجهالات والأخلاق، ولو أن الناس قرءوا العلوم لأدركوا أن اللوت لا ألم فيه البتة بل هذه خرافة مثل قصص المعجزات . وإنما الألم كما قلنا راجع للمحجب للسدولة على العقول وهذه يوزها التربية والتأديب الإلهي .

وقد قال علماءنا المتقدمون كالإمام الفزالي : إن اللوت لا ألم فيه وإنما الألم الوارد في الأخبار راجع إلى التحسر على فراق الدنيا لقلة العلم كما تقدم في قول إبليس « ولا تبتدأ أكثرهم شاكرين » . ولأحتم هذا المقام بما خبرته بنفسى وقرأته في الكشف الحديث استثناساً للمقام فأقول :

كان بوزارة المعارف أحد المستخدمين وكانت علاقته به أنه تلميذي فصاب عنى شهوراً ثم تصادف أن قابلته معانبا قصص على قصص ما اتبته إذ سقط على إفريز الطريق (الرسيف) للرصوف بالحجر وهو يريد ركوب قطار الترام فزلقت رجله فخر صريحا قال ولم أعلم بنفسى إلا بعد أيام وأخبره الطبيب أنه منذ أيام لم يذق طعاماً وأن رأسه مربوط للجرح بسيط في جلدة الرأس ثم بعد أسابيع شفى تماماً قصص عليه الحقيقة فقال إنك قد كنت كالميت ورأسك كان مشدوخاً ولو أخبرتك لأضرت ذلك بك . فقلت له ما الذي أحسست به حين وقعت على رأسك . فقال لم أحس بألم البتة وإنما أحسست بأنى قد خف جسمى ثم لم أع بعد ذلك شيئاً .

هذا ما عرفته بنفسى . فأما عذاب النفس بعد الموت فذلك ناشئ من نقص العقول والأخلاق فهناك ما نضه الأطباء في أوروبا أيام طبع هذا التفسير ، فقد جاء في بعض جرائدنا للصربية ما يأتى :

على عتبة الأبدية

بماذا يشعر الإنسان عند الاحتضار

نشر أحد الأطباء الإنجليز مقالة في إحدى المجلات الطبية أثار بها اهتمام الرأى العام ودعا الأطباء إلى القيام بمباحث واسعة النطاق لمعرفة ما يشعر به الإنسان في دقائقه الأخيرة على هذه الأرض وذلك لتجريد اللوت من كل ما يلقى الملح في النفس ولا نبات أن دخول اللوت في دور الاحتضار لا يصحبه شئ من مسببات الفزع على الإطلاق . ومن رأى الطبيب المذكور أنه متى عرف اللوت هذه الحقيقة لم يبق للخوف أثر في نفسه .

إن العلم لا يعرف عن اللوت حتى الآن إلا النزول اليسير . والأطباء وإن كتبوا المجلدات الضخمة عن الولادة وفن التوليد فإن ما كتبوه عن اللوت قليل نافع لا يشفى المليل . ذلك لأن اللوت لا يزال سرا مهياً .

ترى بماذا يشعر الليت وهو في حشجة الموت يحاول أن يلفظ أنفاسه الأخيرة وهل الموت أمر بسيط كالولادة أم هو مصحوب بالهلج مما يمثل للرء من ظلمة القبر ووحشة الأبدية . إن معظم الذين يقولون على آرائهم محمون على أنه متى حضرت المرء الوفاة زال كل أثر للخوف .

وفي الواقع أن معظم الناس يموتون بسهولة التي يستغرقون بها في سبات عميق ولا يشعرون بشيء من القلق . وبعض الناس ينظرون إلى الموت وهم في ساعة الاحتضار كأنهم على سفر إلى عالم جديد .

أما الذين يعانون الآلام المبرحة فإنهم يرون في الموت إنقاذا لهم من تلك الآلام . والمظنون أن قليلا جدا من الناس ينزعجون أو يصابون بالهلج متى حضرتهم الوفاة .

قال الدكتور (فيليب أمان) مدير مستشفى تشارنج كروس بلندن : لقد رأيت للثلاث من الناس في ساعة احتضارهم وقلما رأيت على أحدم شيئا من علامات الهلع ولست أعتقد أن المرء يشعر بالخوف متى دخل في دور الاحتضار، ولعلّ أبلغ حادث خبرته بنفسه من هذا القبيل ما وقع لشاب في السابعة والعشرين من عمره دخل المستشفى وكان على أهبة الزواج قيل مرضه يفضة أيام ويظهر أنه كان قد عين في وظيفة خارج إنجلترا ولكن مرضه القبعاني حال دون سفره ونظرا إلى اشتداد وطأة المرض عليه لم يبق أمل في شفائه فاضطرت أن أخبر خطيبته التي كانت تحبه وبهجها جبا يقرب من العبادة وليس ذلك فقط بل كان من الواجب على أن أطلعه هو نفسه على حقيقة حاله لكي يكون مستعدا للموت وقد تمت بذلك الواجب المؤلم على اللطف وجه فأخذ يصيح صيحات مؤلمة قائلا كلا . كلا لا أريد أن أموت ويلاه لا أريد أن أموت وكان الشهيد مؤثرا للغاية وظلّ ذلك الشاب في اضطراب عظيم مدة يومين متوالين ولكن في اليوم الثالث طرأ عليه تغير عظيم إذ هدأ تأثره واقطع عن الصراخ ولما قابلته رأيت أعصابه هادئة فقال لي بكل هدوء ورباطة جأش: إن أبي توفي لما كان عمري ثلاث سنوات وتوفيت أمي منذ أربع سنوات وكنت بعد وفاتها آتني الموت كثيرا إلى أن تعرفت بخطيبتي فزال عني كآبتي وعزمت أن أبدأ الحياة من جديد وها أنا ذا على أهبة الرحيل من هذا العالم وقد اعتدت فكرة الموت فلم يبق للخوف أثر في نفسي . على أنني أجهد ملهو المكان الذي أنا ذاهب إليه وهل يتاح لي أن أرى أمي وأبي هناك . قال الطبيب وقيل وفاته بنحو ساعتين استدعى الممرضة وطلب منها أن تضيء الأنوار الكهربائية لأنه لا يبصر . فقالت له الممرضة ولكن الوقت نهار ونور الشمس يملأ الغرفة ، فقال لها إن الظلام حالك ولست أبصر شيئا فلم يسع الممرضة إلا أن تجيبه إلى طلبه وظلت الأنوار الكهربائية مضيئة في غرفته إلى ما قبل وفاته بيضع دقائق فنادى الممرضة وقال لها : الآن يمكنك أن تطفئي الأنوار لأنني أبصر ولأن أمامي منظرا ساطعا جميلا .

ومن الأمور التي تكاد تكون مؤكدة أنه مهما يكن الموت مفزعا لنا نحن الأحياء فإنه يفقد كل مافيه من أثر مفزع في ساعة الاحتضار .

ولقد ثبت أن الكثيرين يقولون في دقائق احتضارهم إنهم يسمعون إضاح القياتير وأصوات الموسيقى المطربة . ويقول غيرهم إنهم يرون مناظر بديعة لم يروا مثلها في حياتهم . ومنهم من يسطون أذرعهم وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة كأنهم يستقبلون أشباحا تبدو لهم .

ومن رأى السر (اربونت لاين) وهو من مشاهير الجراحين الإنجليز أن الخوف من الموت يتفتى بتاتا في ساعة الاحتضار .

وهذا رأى معظم الأطباء في الوقت الحاضر، فالمرء لا يخرج عن كونه حادنا طبيعيا ولا شك أن الكثيرين من الشيوخ الذين شعبوا من الحياة وعانوا أحزانها لا يزعمهم الموت مطلقا بل قد يرحبون به من كل قلوبهم .

وقال السرلاين المشار إليه : إنه في معظم حوادث الوفاة التي شهدناها كان الموت أشبه بالاسترقاق في سبات عميق وهو غير مصحوب بما يليق الملع في النفس ، وإذا كان العلم يسمى لتسهيل عملية الولادة فلماذا لا يسمى لتسهيل عملية الموت وتجريدها من عوامل الملع والقزع . وفي الواقع إن الموت أسهل بكثير مما تصورته لنا الخيلة . فإن الكثيرين ممن كانوا على وشك الموت ونجوا بأعجوبة يشهدون أنهم لم يشعروا بشيء من الملع وأن حاسة الخوف انصفت منهم عند ما شعروا بدتوق دقائقهم الأخيرة .

يروى عن المستر (باريليون) من كبار مؤلفي الروايات أنه مرض مرضاً لم يكن يرجى له منه الشفاء ، فلما علم بدتوق أجله أظهر شجاعة غريبة إذ قال [إن الموت لا يخيفني على الإطلاق لأن الحياة قد أصبحت عبثاً تقيلاً بل أنا أعنى الموت بسرعة لأرى ما وراء هذا الأفق ومن هم الذين سأقابلهم في ذلك العالم . إنني أرى الموت كلاسترقاق في سبات هادي*] .

وكتب المستر (ريكس) الكاتب الشهير ما كان يشعر به في دقائقه الأخيرة وهذا بعض ما كتبه : [إذا كان الموت حالة من حالات عدم الشعور كما اعتقد فأحسن ما يستطيع المرء عمله متى حضرته الوفاة أن يتخفق نفسه بأنه مما قليل سيسترقق في سبات هادي* لازعجه فيه الأحلام ولا تقلقه الأشباح . وإذا كان ثمة عالم آخر وراء هذا الأفق فلما أسعدنا إذ سنلاق جبارة الأجيال الماضية مثل [أفلاطون وأرسطو وسقراط وشكسبير وغيرهم] ٨١ .

وقد شهد جميع الذين كانوا يزورون هذا الكاتب في دقائقه الأخيرة أنه كان بشوشاً يشير إلى قرب وفاته بشجاعة غريبة حتى لقبه الناس بعد وفاته بالميت الشجاع .

يروى عن (الس كافيل) للعرضة الإنجليزية التي حكم الألمان عليها بالإعدام في زمن الحرب أنها أظهرت شجاعة طائفة كان الموت حادث اعتيادي . ولما زارها السكاهن قبيل إعدامها بدقائق أكدت له أنها لا تخاف من الموت لأنها رأت الكثيرين من الأبطال يموتون أمام عينيها في ميادين القتال . وقد دهش جميع الذين حضروا إعدامها من الشجاعة التي أظهرتها حتى آخر نفس من أنفاسها .

والخلاصة أن آراء معظم الكتاب والعلماء مجمعة على أنه عندما تحضر المرء الوفاة يفقد الموت كل ما فيه من أثر الرهبة والملع اه .

هنا أنف أيها الدكي ممك وقفه وأخاطبك بما وقر في نفسي . أقول لك إن هذا القول الذي يذمه أطباء أوروبا واليهي قلته أنا كلام إقناعي ليس يقينياً ولكن هو الذي يوافق حكمة الحكيم ورحمته فهو يعطنا سورة من رحمته .

وأقول لك ولا أخشى لومة لائم إن هذه الصفة هي التي أعتقد أنها في صانع هذا العالم وإلّا فبأنه كيف نراه يسير على وتيرة واحدة في نظامه . نراه ألهم الناس فأعدوا أطباء للولادة وهناك القابلات لتسهيل خروج الولد من الرحم . هكذا نراه عجم ذلك في أصفر الحشرات . ألم تر إلى ما ستقرؤه في سورة النمل فإنك ترى هناك فيما نقلنا عن كتب الترجمة بطريق الترجمة أنهم شاهدوا النمل قد خصمت طائفة منها لنزع الفائف عن أولادها الصغار . وذلك أن النمل تضع بيضها والبيض يكون دوداً ثم يصير (قيلجة) أي كرة صغيرة محوطة بخيوط حريرية تنسجها الدودة النملية على نفسها كما يفعل دود القز ثم بعد أيام تنبت لها أعضاء الحركة فتستعد للخروج فتري النملات الكبيرة اللدات لذلك يساعدن الصغار ويجهدن حتى تمك الربط الحريرية .

أليس هنا بينه هو ما تفعله القابلات عندنا وأطباء الولادة ؟

أنا لا أشك أن الله تعالى جعل هناك عالماً روحياً لمعالجة الأرواح عند خروجهم من الحياة جرياً على عادته أن قانون الله في الحياة والموت لا يتغير فهو يرحم اللود ويرحم الميت . فسبحانه من إله عظيم .

وإياك أن يستدك عن هذا مسألة المعاصي والكفر فإن هذا يحتاج إلى تطويل ولكن يكفيك الساعة أن أقول لك فإدتين .

[القائدة الأولى] اعلم أن الإمام الغزالي يقول كما نقلناه عنه في كتاب (الأرواح) إن العذاب أولاً يكون بسبب الشهوات ثم بعد أمد يكون على الذنوب ثم بعد أمد يكون على الجهل . ولا شك أن الجهل يدخل فيه الكفر ثم بعد ذلك يكون عذاب النار .

[القائدة الثانية] إننا نرى الله يخلق الصبيان وقد سوى بينهم في أن القابلات مستعدات للجميع فلا تفرقة بين الأغنياء والفقراء من حيث العموم ثم بعد ذلك يمتاز الأطفال في حياتهم على حسب درجات آبائهم وأمههم وهكذا .

واللوفى جميعاً يخرجون من الدنيا فيختلفون بعد الموت بحسب أعمالهم وأخلاقهم كما اختلف أبناء الأغنياء والفقراء قال تعالى « ولكل درجات مما عملوا » .

وإن كان الجميع قد ساعدتهم القابلات مع العلم بأن ابن الزانية تقابله القابلة وهي مشتمزة . هكذا الفجار يقابلهم العالم الروحي وهو معرض عنهم هذا معنى قوله تعالى « ورحمى وسعت كل شيء » والحمد لله رب العالمين .

زيادة إيضاح في قوله تعالى « ورحمى وسعت كل شيء » أيضا

حكمة بالغة في جوهرة ناضرة

حدثني أحد الصلحاء الأذكياء قائلاً ما يأتي :

كثيراً ما يحتاج في صدرى قوله تعالى « ورحمى وسعت كل شيء » بعد قوله « عذابى أصيب به من أنشاء » فكيف نتعد أن الرحمة عامة اعتقاداً صادقاً وأنت لو فتشت في القلوب لوجدتها مطبقة على التألم من هذه الدنيا التي حوت الحرب والمرض والطاعون وأنواع الحمى والجدرى ونقص الأنفس والأموال والثمار والبرد القارس القاتل .

فأين هذه الرحمة وإنى أتمنى أن أقف على هذه الرحمة الواسعة حتى أفرح بها . وبأليت شعري لماذا نزل هذا في القرآن بل كيف يكلفنا الله بالمستحيل . ألم يرد لنا في الحديث الصحيح أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن يؤمن بالقدر خيره وشره من الله . فهذا صريح في أن الله عنده خير وشر فأين سعة رحمته إذن .

وترانا نقول في قنوت الصبح كل يوم [فلك الحمد على ما قضيت ولك الشكر على ما أنعمت به وأوليت] إذن نحن نحمد الله على القضاء عامة : أى على الخير والشر وكيف يكون الحمد على الشر ولا حمد إلا على نعمة . أما النعمة فكيف تصور الحمد عليها ؟ .

يظهر لى أننا نعيش في جور من الجهالة ونلوك ألقاظاً لا ندرك معناها . وعجبي للديانات كلها أنها في هذا للغي متشابهات . ومماثل الناس في ذلك إلا كمثل عبيد العصا يعمدون ساداتهم خوفاً من أذام لاجبالهم .

الإجابة

فقلت له : اعلم أن هذا المقام بسطته في سورة آل عمران عند قوله تعالى « بيدك الخير إنك على كل شيء قدير » فيه هناك ما يكفي ذا اللب . وقد أبنت لك هناك أن ما ذكره فتح باب للبحث وأن اليقين إنما يأتي من طريق البحث والتفتيح وقراءة آراء الأمم وعدم التصب لرأى خاص ورجوع النفس إلى الله والذكر والفكر .

واعلم أن الله عز وجل ما ذكر هذا في كتابه ولا على لسان رسوله ولا في دعاء الصلاة ولا في القاعة إذ كرر الرحمة فيها أربع مرات إلا ليحفزنا إلى درس هذا الوجود وبخشنا على دراسة هذه الكائنات التي نعيش فيها فإن هذه الشبهة التي وردت عليك لم تخلق فيك عبثا وإنما خلقت لحكمة وهي حثك على الجد والتأبيرة في البحث حتى تدرك يصيرتك سر الموت والحياة والمرض والأرزاء متى أدركت ذلك اطمأنت نفسك لهذا الوجود وعرفت ما يبدل على هذه الحكمة : ليس في الإمكان أبدع مما كان .

فقال ذلك الصالح الدكي : أنا لم أقرأ ما كتبت أنت في سورة آل عمران ولم أدرس كتب الفلاسفة ولم أنل حظا عظيما من الذكر فهات لي لمحة تفتح لي باب النظر وعجالة يكون فيها للبندأ والخبر بحيث يفهم العامة والعلماء والحاسة والجهلاء ولا يكون لها سابق ذكر في هذا الكتاب . فقلت إن جميع ما تقاسيه في هذا الوجود أشبه بما يقاسيه المريض من الطبيب . فكف من مريض بسم له الدهر بالطبيب فسقاه اللر ومنع عنه زيارة الأصدقاء وحماة من اللذات والشهوات وبتر منه بعض العظام والمضلات . فهل ذلك لنسكاية فيه أم لاهتمام به إنما الآلام مبدأ الرحمت وباب النجاة . إن طبيعتنا أرضية وأحوالنا حيوانية ، فالتأديب بالتعليم والحوادث مرهفات لمزائمتنا مقويات لنفوسنا حتى نرجع إلى علنا الأعلى وما مثلنا في ذلك إلا كتل ماء البحر للبحر سلط الله عليه الشمس فجعلته بخارا فصار في الجوى سحبا فنزل على الأرض مطرا فجري في مجاري مختلفات فاجتمعت تلك المجارى فشكلت نهرا فجري النهر إلى البحر « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا » فرجعت القطرات إلى أوطانها فرحات بأهلها .

هكذا هذه الأرواح جاءت لهذا العالم وذات حلوه ومره ثم رجعت إلى عالمها . وإن أردت ضرب أمثال للشعر يكون هو نفسه خيرا فهناك هذه الحوادث .

الحادثة الأولى

عملية جراحية أورثت الشفاء في السمع والنطق .

ذلك أنه في أيامنا هذه كان رجل يسمى (أرست باج) مغرما بالملاكمة والباراة فيها وبيننا هو يلاكم مرة أصيب بلكة في عنقه فجعلته أصم أبكم وبقي هكذا مدة عامين ومنذ أسابع من كتابة هذه المقالة التي أكتبها الآن قبيل فجر ليلة ٤ يناير سنة ١٩٢٧ دخلت شظية في إحدى أصابعه فقصد طبيبا جراحا لإخراجها لأن أصبعه التهب فكانت العملية شديدة الصعوبة قاسية الألم ، فلما أن أخرج الشظية شفي تمام الشفاء من المرضين مما يقابله أحد رفاقه فأراد أن يأخذه من ذراعه فصرخ قائلا (دعني وحدي فلاني بخير الآن) فهذه أعادت له حاسة السمع والنطق : انتهت .

أما ما ندوقه في الدنيا من الألم لعله أشبه بالآلام هذا المريض عند استخراج الشظية من أصبعه وانفتاح البصيرة لمعرفة جمال هذه الدنيا الوسدة أبواب علومها أماننا أشبه بما حصل له من شفاء سمعه ونطقه .

الحادثة الثانية

أن رجلا أعمى أخرس من قرية في مقاطعة (نورمبتون شير) قصد طبيبا فقرر له عملية في عينيه وهو لا يثق برجوع حاسة البصر له ، وبينما هو ينتظر الجراح وهو يحضر مشاركته إذ سقط على الأرض وعند النهوض وجد نفسه قادرا على الكلام . انتهت .

الحادثة الثالثة

أن رجلا أعمى جرى به إلى مستشفى في مدينة (برمنجهام) لإجراء عملية جراحية له في دمل بالمخ كان يهدد حياته فنجحت العملية نجاحا فوق ما يصفه الواصفون إذ شفي من الدمل وعاد إليه بصره .

الحادثة الرابعة

روت مجلة (اللائسبت الطيبة) أن رجلا في الثلاثين من عمره أجريت له عملية (الكاتاركت) في حينه بمستشفى الرمد في مدينة (جلاسجو) وكان ولداً أكمه لم يتهد في الدنيا شيئا فنجحت العملية وعادت له حاسة البصر التي لم يعرفها قبل ذلك .

الحادثة الخامسة : مزعجات حسنت الخلق

في سنة ١٩١٤ كان رجل مجرم اسمه (سيزيكلي) في سجن الحكومة بولاية (بنسلفانيا) فأصيب بإصابة قوية في رأسه فمطبتها عطا شديداً والججمة كانت إسابتها خطيرة فأسرع طبيب السجن وأسغه بالملاج فأقذ حياته وهناك حصل ما يدهش الأبصار . إن سيزيكلي كان رجلا متوحشا قاسيا يدخل الرعب على نفوس رفقائه للسجونين فما انتهت هذه العملية حتى تبدل خلقه وصار ذكيا نشطا رحبا مطيما فرحا مساعدا للسجانين والسجونين وثق في خلقه شؤون اه .

الحادثة السادسة

وقع لصبي في الخامسة عشرة من العمر يسمى (حيسى يرد) وله زعة قوية في الإجمام فأصيب يوما بمجرح في رأسه ، فلما أجريت له عملية جراحية تبين أن في رأسه قطعة عظم ضاغطة على المخ فلما رقت هذه القطعة صار الصبي ذا خلق جميل وهو فرح مسرور اه .

الحادثة السابعة

حدث في بلادنا المصرية منذ ثلاثة أعوام أن قرويا في بلدة (طلخا) أصيب بفقد بصره ولم ينضمه علاج وباع فدانين من أرضه لتفقات الملاج بلا جدوى . واتفق يوما أن جلس في بار (قهوة) في بلده ولما فتح عامل القهوة (الجرسون) زجاجة الغازوزة لأحد الجالسين طار سداد الزجاجاة فأصاب أنف الرجل الأعمى للذكور فسقط الدم من أنفه كما يحصل في الفصد فعاد للرجل بصره في الحال . قال الشاعر :

من يتصم باله المرش يحفظه فهو الحكيم يداوى الداء بالداء

أليست هذه الحوادث تمر على الجهال من النسيب على الحساب والصرصر على الفضاء . أخلاق تبدلت وأصحاء وأبصار شفيت بأعمال جراحية . لعل حياتنا كلها عملية جراحية تشفى نفوسنا من أمراض فيها لا ندرىها فإذا جهلنا نحن كما جهل أطباؤنا جميعا في الأرض أن مرض العين في الحادثة السابعة مثلا يشفيه فصد في للوضع العين من الأنف .

وأن المجرمين في الحادثة الخامسة والسادسة يكفي لتحسين خلقهما عملية في رأسهما مع أن علم الطب قد تقدم في زماننا تقدما عظيما وقطع دابر الأمراض العامة وأثر أثرها محسوسا حتى كثر نوع الإنسان على الأرض .

أقول إذا جهل أطباؤنا ماذكر في أجسام إنسانية حاضرة لدينا فإن ذلك يدل دلالة قاطعة أن هذه الأجسام وهذه العوالم مكتظة بالعلوم والرحمات مملوءة بحكمة ونورا وأسرا وأسرارا وأن الله يحدث أمثال هذه التوارد ليقول لنا « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فجذوا وابتغوا فلن تصلوا إلى حق أطلمكم على حقائق رحمانى ، وما أتم اليوم إلا كسك في البحر والرحمة أشبه بالعوالم المائية والهوائية ، فأنتم لا تعرفون من رحمانى إلا كما يعرف عالم السمك عن عالم الأرض والهواء من نبات وحيوان وطير ، ولن يكون يقين إلا بالجد في التذيب ودراسة العلوم جميعها شرقية وغربية ، فإذا قال المسلم رضيتم بالله ربا ، وإذا قال آمنت بالقدر خيره وشره من الله فإن ذلك يسوقه إلى أن يتبع الإيمان بالعلم إن استطاع إلى ذلك سبيلا ، ومتى درس النظام جلوه اليقين .

واليقين هو اللصود من هذا الوجود وهو الذي أعطاه الله لإبراهيم الخليل عليه السلام كما تقدم في سورة الأنعام ، إذ أراه الله ملكوت السموات والأرض ليكون من اللوقين ، وإذ أمر بتسريح الطيور فشرحها وقطعها ثم أحياها الله ، وذلك إشارة لعلم الكيمياء الذي يدل على حسن النظام والترتيب وقد تقدم هذا في سورة البقرة بإيضاح أوفى فراجع إن شئت .

فإذا كان الخليل يطلب من الله اطمئنان القلب فطمأنه باليقين بعلم الكيمياء في سورة البقرة وعلم الفلك في سورة الأنعام ؛ فهذا أمر لي أنا وأنت أن ندرس هذه العلوم إذا قدرنا ، لأن نبينا صلى الله عليه وسلم أمر أن يتبعه إذ قال تعالى « فهداهم اقتده » وأمر النبي أمر لآلته ، وما ألفت قوله صلى الله عليه وسلم « نحن أحق بالشك من إبراهيم » كأنه يدعونا نحن أن نقول ذلك وبذلك نجد في العلوم ، فرجعت هذه الآية إلى تقوية المدارك العلمية في البلاد الإسلامية .

إن عذاب الدنيا والآخرة مرجعه الجهل بنظام هذا الوجود ، إن الله خلقنا للعلم والعمل ، وكل ما نمانيه في الدنيا مفتاح للعلم حتى إن مصائب المسلمين اليوم مفاتيح لرفيقهم ، ولولاها لصاروا أمثال هذا التفسير الذي صرح بأمور قد كفر بأقل منها المسلمون ، العلامة ابن رشد والفزالي وابن سينا والقارابي ، راجع ذلك في سورة الأنعام تحت عنوان : [برزخ بين مجريين] بل لولاها لم يكن هذا التفسير .

إن مثل ما أصيب به المسلمون اليوم من الضنك وإذلال الفرنجة لهم كمثل تلك العمليات الجراحية التي عملت في الحوادث السبعة الآتية الذكر فشفت أضرار المرضي وأبرأت أصمهم من حيث لا يملعون ، إن الإنسان لا يزال معذبا على مقدار جهله وكلما زاد علما بهذا النظام العام أدرك الرحمة ففرح ، إن جهنم دار خلقها الله لمن لا يفتقرون .

ألا ترى إلى قوله تعالى « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » وقوله « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكا وصما مأوام جهنم الخ » ومن تتبع هذا التفسير أرجو أن يكون له فيه سداد من عوز والحمد لله رب العالمين اه .

فلما سمع ذلك ، ذلك الصالح قال هذا حسن ، ولكن الأحسن من هذه النوادر أن أسمع منك أمورا في نفس الطبيعة للشاهدة حتى ترى بأنفسنا أن الرحمة في الصائب فضلا ، أما هذا الذي قاته فلا فإعما يتجلى بالاستنتاج ، فقلت سل ما بدا لك . فقال : ما الفوائد الناتجة من شدة البرد ومن تغطية الأرض بالثلج في الأقطار الباردة؟ فإذا عرفنا أن الحر في الأقطار الاستوائية يهيج الأرض بالنبات والروائح العطرية والأزهار البهيجة والجمال والتأيات والنعم العظيمة ، فأى فائدة في شدة البرد وفي كثرة الثلج للأرض الباردة للسكونة بالإنسان والحيوان ؟ . فقلت : أما شدة البرد فإنها تقتل الحشرات الفانكة بالزرع وذلك عام في بلادنا المصرية ، والبلاد التي اشتد بردها فمضى أقبل فصل الشتاء غابت عنك الحشرات التي كنت تراها في أرضنا مثل : أبي دقيق والجراد وغيرها ، فهذه فانكات بزرعنا فأهلكها الله ثم يخلق غيرها . وأيضا البرودة تجعل في الأرض قابلية لبذر الحب بما تفعله في الطين من التفتت ، أما الثلج في البلاد الثلجية فإنه يغطي الأرض ليحفظ البذور والنباتات الصغيرة من سطوة البرد كما يحفظ الماء الذي تحته في الأنهار من أن يصير ثلجا وإلامت السمك ؛ فالثلج يحفظ نبات البر وصمك البحر ، قال هذا والله محب عجب ! فقلت : إذن الثلج نعمة على الحيوان والإنسان يحفظ البذر والسمك والنبات من البرد ؟ والبرد نعمة فيقتل الحشرات ويصلح الأرض للزرع ؛ فسبحان العظيم الخلاق .

فها إذن : (١) حشرات تخلق لتنظيف الجوف وذلك بأكلها الرطوبات للضرة بنا (٢) برد قاتل

تللك الحشرات . (٣) ثلج مانع لذلك البرد القاتل أن يفتك بذرنا وزرعنا الصغير . (٤) ثم ضوء الشمس الزيل للثلج فيخرج نباتا ويسمو زرعنا ونعيش آمنين .

جهل الناس هذا الجمال فزغوا إلى الروايات وأبرزوها بهيئة مسارح تسر الناظرين ، ولو أنهم رأوا هذا الجمال لبرهم ، هذه هي الحكمة . حشرة نافعة في امتصاص الرطوبة ؛ فتي أمت واجبه ضربها البرد ، فتي أمت واجبه منعه الثلج أن يضر الزرع الصغير ، فتي أمت واجبه برزت الشمس . هذا هو الجمال وهذا هو العلم .

ومن هذا يفهم الناس معنى قوله تعالى « ورحمتي وسعت كل شيء » انظر كيف وسعت رحمته ، انظر كيف كان ثلجه وبرده وحشراته كلها مهلكات ولكنها لحكمة عامة ، فلما سمع صاحبي ذلك قال : هذا هو الذي يشرح الصدر ، ولكني أسألك سؤالا أهم من هذا ، إذا كان الله هكذا رءوفا رحبنا فلماذا يمتتنا ؟ وهل هذا فعل الرحيم ؟ قلت هذا هو الذي أحب أن أكلك فيه .

اعلم ان الأطباء في زماننا الحاضر في أمريكا وأوروبا يجدون أن في طاقمهم أن يطيلوا الأعمار ويزعمون أن هذا ممكن ، وأنا أقول لك : إنه مستحيل ومستحيل أن تطول الأعمار كما يشتهون ، نعم يعمرون على سبيل التدور والقلعة ، أما أن طول العمر يم في المسكونة فذلك لاسبيل إليه ، وذلك لأمرين : (الأول) أن الناس لو عاشوا ألف سنة أو خمسمائة سنة مثلا وتناشوا لأصبحت الأرض لانسهم : أي لانسع سكانهم وحدها فلا يجدون مكانا يجلسون فيه ، فيبقى الابن وابنه إلى الجيل العاشر أو الثاني عشر ، وهذا هو العذاب الأليم ، وإذن يقتل الناس بعضهم بعضا إن عاشوا ووجدوا قوتا ، ومن أين يكون قوتهم إذن ؟ (الأمر الثاني) أن هذه المادة التي نعيش فيها لو أنها خصصت بنا نحن ولم نولد وعشنا أعمارا طويلا لكان ذلك خطلا وخطأ (وذلك) لحصر للنفعة في عدد معلوم من المخلوقات .

فأما اللوت والحياة والحل والولادة فإن معناه تكثير الأحياء فيعدون بمئات الآلاف من الأجيال بدل جيل واحد ، وأيضا لو كنا جيلا واحدا على الأرض أزلا وأبدا فما الذي نأكله ؟ أليست الحيوانات والنباتات؟ ولكننا فرضنا أن الأحياء لا تتجدد ، فما الذي نأكله بعد انقراض النبات والحيوان ؟ اللهم إلا إذا كان هناك (نظامان) : نظام لنا بالخلود وعدم اللوت ، ونظام للنبات والحيوان بالتجدد وهو خطل في النظام ؛ فسبحان مبدع الكون ومبدعه .

هذا معنى قوله تعالى « ورحمتي وسعت كل شيء » فلما سمع صاحبي ذلك قال : كفي لقد أصبحت موقنا بسعة رحمة الله وعرفت أن أهل الأرض في الشرق والغرب نائمون وأحببت ما يحبه الله من حياتي الآن وموتى عند بلوغ الأجل ، وأيقنت أن أكثر هذا الإنسان غافل ساه ، ولو أنهم علموا مادار بيننا لم يكره أحد اللوت . إن الله حكيم ، إن الله رحيم . هذه هي النعمة ، وهذه هي الرحمة .

إن هذا هو العلم الذي تسكون به سعادة النفوس واتسراح الصدور ، بل هذا هو السر للصون والجواهر للكنون ، والحمد لله رب العالمين ، انتهى .

شهود الناظر العجيبة في محاسن الخليفة

أيها الذكي ها أنت ذا شاهدت مني منظرا ساحرا تحرّ له العقلاء للأذقان سجدا ، وقد شهدت هنا وفي مواضع كثيرة من هذا التفسير الذي جعله الله روضة من رياضته فيه جنات من نخيل وأعناب وفواكه مما يشتهون ؛ فما أنت ذا رأيت تلك الصور الساحرة ؟ إنها صور تمثيلية أو صور متحركة (سينما) إن الطبيعة أمام العقل الجامد جامدة وأمام العقول اللطيفة متحركة ساحرة باهرة جميلة الحيا .

فانظر رعاك الله هذه الناظر ؛ فهنا طائفتان : شاهد ومشهود (ذلك) أن الله عز وجل ألهم الناس أن

ينشوا في الأرض محالاً لتمثيل تمثل فيها الروايات بالأشخاص في السارح الشهورة ، ومحالاً أخرى لصور
التحركة كما ذكرناه ، والنظار من الناس يشهدون ، إذن الناس فجان : شاهد ومشهود ، هكذا هنا
في الحكمة ، الناس فريقان : مشهود وهم علماء الأمم في اللغات كالنحو والصرف وللماني والإنشاء ، وفي
العلوم ارياضية من الحساب والهندسة والجبر والفلك ، وفي الطبيعات كعلوم المواليد الثلاثة وكالكيمياء
والطبيعة وفروعها .

أما الشهداء لهذه المناظر العلمية فهم الحكماء والصدّيقون أولئك الذين يخلقون في الأمم جيلاً بمدجيل ،
ويجلبون النظر في تلك العلوم وينظرون إليها نظرة عامة كما ترى في القرآن .

فهؤلاء هم الشهداء أشبه بالنظارة في السارح العامة ومشاهد الصور المتحركة ، هؤلاء نظرم عام هم الذين
يخلقون في الأرض ليرشدوا الأمم لتلك العلوم ويهتدوم للإصلاح ؛ وهم هم الأبرار الذين « يشربون من كأس
كان مزاجها كافورا . عيناً يشرب بها عباد الله يجبرونها تجبراً » وهم « في نعم على الأرائك ينظرون
تصرف في وجوههم نضرة النعم . يسقون من رحيق مختوم ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون »
وسترى تفسير ختام للسك والرحيق هناك في الجزء الأخير من هذا التفسير .

وستعلم أن ذلك يرجع إلى الحكمة والعلم واليقين ، فهؤلاء شهداء على الأمم يجيئون هنا إلى الأرض
وفطرم مولمة بحب الاطلاع والإصلاح ، وهؤلاء هم الأبرار الذين قال الله فيهم : « إن كتاب الأبرار لفي عليين
وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم يشهده القربون » فهؤلاء كتابهم في عليين ، لأن علومهم
وأنظارهم عامة .

فأما أصحاب العلوم الخاصة كالقهاء والنحاة والفلكيين والرياضيين ، فإنهم مختصون بعمل في للشهد
العام ومسارح التمثيل في السكون ، والأبرار هم الشهداء عليهم وهم الذين يعرفون كلا بسياهم . وكتاب هؤلاء
الأبرار يشهده القربون من الملائكة عند الله تعالى ، لأن القربين نظرم كلي فهم يلاحظون هؤلاء
المصلحين ويشهدون أعمالهم ويلهمونهم الخير في الدنيا، ولن يشهد القربون أصغر الأمم الذين ليسوا مشرفين
على العلوم العامة والنظام الكلي ، لأن كتاب أولئك الأصغر ليس في عليين فليس كليا ، إن الأبرار
والصديقين كتابهم في عليين ، وهم من جهة أخرى مشهودون يشهدهم للقربون ، وهؤلاء هم الذين جاء
فيهم قوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم » فالناس مختلفون ولكن هذه
الطائفة من المفكرين هم الذين رحمهم ربك ، وإنما رحمهم لأن نظرم عام وبه فهموا الرحمة العامة التي
في هذه الآية « ورحمى وسعت كل شيء » وهؤلاء الأبرار هم من الذين يشملهم قوله تعالى : « فأسأ كتبها
لذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » إلى قوله « وأولئك هم المفلحون » .

إني أرجو أن يكون هذا التفسير وأمثاله نواة صالحة لإنشاء فئة من المفكرين في الأمم الإسلامية يكون
مشرفهم على نمطه فيكونون هم الأبرار وهم الصديقون وهم الشهداء على الناس وتشهد كتابهم للملائكة وهم
الذين رحمهم ربك لأنهم يتحدون ، وباعادهم تتحد الأمم الإسلامية للسكينة التي اختلف قوادها وأقطابها
لجهالتهم الفاشية إلا قليلا منهم ، فهؤلاء الذين يقرءون ما كتبناه سيجدون أنهم على مشرب واحد
في سائر المذاهب الإسلامية فيوحدون الأمم الإسلامية جيلاً بمدجيل ، والحمد لله رب العالمين . انتهى
البحث السابع .

البحث الثامن

هذا البحث هو للقصود من القصص المتقدمة وهو إثبات نبوته صلى الله عليه وسلم ، فلقد ذكر في القصص

للتقدمة معجزات الأنبياء وأنها قوبلت بالإعراض . فأما رسولا صلى الله عليه وسلم فإنه قال فيه « واتبعوا النور الذي أنزل معه » .

بدائع سورة الأعراف

اعلم أن هذه السورة تفيد أن الإيمان على قسمين : إيمان دائم يرفع إلى أعلى الدرجات ، وإيمان ناقص لا يلبث أن يزول . والقسم الثاني إيمان العامة ومن نحوهم من الأمم الجاهلة ، فإن الله عندهم لا يعرف إلا بما يخالف النواميس الطبيعية ، والأنبياء والتدبيرين في نظرم لا يعرفون إلا بما يخالف نواميس الطبيعة ، ولذلك ترى العالم الإنساني من قديم الزمان وإلى هذا العصر يخضعون لكل من أدهشهم بأمر فوق طاقتهم فلا نبي إلا حيث يخرق النواميس ، ولا ولي مقدسا إلا حيث تقلب له الأوضاع ، فجاءت سورة الأعراف فنقضت هذه القضايا وكذبت هذه الدعاوى وأبعدت هذه الرزايا وأعتقت الجنس البشري من التعويل على ما كان مخالفا للنواميس ، فقد ذكر كيف كفرت الأمم بعد الإيمان ، وكيف صدق السحرة في الإيمان وكفر بنو إسرائيل بعد ما رأوا الآيات باليمان ؛ فالمدار على الأنوار النفسية والعلوم العقلية والوقوف على الحقائق السكونية حتى تعرف الرحمة الإلهية ويمتاز الحبيث من الطيب ، إذ العامة ومن نحوهم يعيشون ويموتون وهم مخدوعون ، إيمانهم تقليدي ودينهم لفظي ، فلا يعرفون النواميس الطبيعية ولا العجائب الفلكية ، ونفوسهم نائمة فلا يذكرون الله إلا إذا دهمتهم واقعة وصدعتهم قارعة وبطشت بهم باطشة ، فلا يذكرون الله إلا قليلا .

أما القسم الأول فهم الذين يرون الله عند كل حركة وسكون ، ونور وظلام ، وسهل وجبل ، وشمس وقمر ، وحجر وشجر ، لأنهم يعرفون نظام الطبيعة وإتقان الخليفة وعجائب هذه الدنيا .

وهذا معنى وصف القرآن هنا بأنه النور ، فالأنبياء عندما يهدون الناس بطريق الحقائق ، والعلماء والصلحون هم الذين يرشدون الناس بقولهم لا بإنامة أفكارهم بالمدهشات والفرائب حتى تنقف العقول عند ما وصل إليه الشيوخ ، وكم من شيخ كان الاعتقاد فيه سببا لوقوف عقل تلاميذه ، وكم دين كان الوقوف على ظواهره من أسباب الخلل في النظام والجهل في الأحكام ، ثم تفرق الأمة بعد ذلك شذرمذر والناس تائهون لا يلبثون ما يصنعون .

واعلم أن هذا الفريق في الأئمة الحمديّة اليوم كبير قد تركوا عقولهم وأناموا بصائرهم ، فهم بعد الصدر الأوّل عالّة على الأمم ، وسيكون في المستقبل منهم حكام وعلماء دارسون لهذا الوجود ، مؤمنون بما صنعه يد الله في كل موجود ، موقنون بإقان الحكام لا تقليد الجهلاء .

هذا ماتوقفه وزجوا الله أن يحققه ، هذا هو الذي سيكون في أئمة الإسلام في مستقبل الزمان وسيقلّد تقليد الشيوخ الجاهلين الذين يقولون: الله لا يعرف إلا بنظراتهم ، وسيعرف للسلم أن الله لن يعرف حق معرفته على قدر الطائفة إلا بمعرفة جمال هذه المواقف العلوية والسفلية و « فله الأمر من قبل ومن بعد » والله عاقبة الأمور .

ولما كان هذا هو شأن القرآن وهو الذي أوضحت في سورة الأعراف التي يشير اسمها إلى معرفة للعاني العالمة ، والحكم والآراء الثاقبة ، والعلوم النالية ، والأنوار الثمينة ، والشموس للتألق ، والأضواء البارقة والقوة الساحقة ، أخذ يأمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يعلن هذه الحقيقة على رؤوس الأشهاد ويقول (قل) يا محمد (يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا) فإن الدين العام هو ما ناسب الفطرة ، والفطرة تأنس بالنظام ، فأما الخوارق النادرة فلا نظام فيها ولا ثبات ، وقوله « جميعا » حال من إليكم (الذي له ملك السموات والأرض) صفة لله تعالى (لا إله إلا هو يحيي ويميت) وإذا كان له ملك السموات والأرض وهو

للتصرف في الوجود وحده والحياة واللوت من صنه فأبى رسوله الدال على النظر في نظامه العام ، فلا أعول إلا على النظام الطبيعي والعجائب الفلكية والعرائب الحكيمية ، فهذا هو الذي أرسلت لأبينه ، وهو أرحم الراحمين وأنا أرسلت للناس رحمة ، ولما كانت هذه صفة الرسول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته) ما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه (واتبعوه لعلكم تهتدون) جعل رجاء الهداية مرتباً على الإيمان المذكور وعلى التقوى ، فمن آمن به وهو غير تقى فليس مهتدياً .

ولما فرغ من وصف أمة محمد صلى الله عليه وسلم على سبيل الاستطراد رجع إلى قوم موسى فقال (ومن قوم موسى) يعني من بني إسرائيل (أمة يهدون بالحق) يهدون الناس بكلمة الحق (وبه) وبالحق (يعدلون) بين الناس في الحكم وهم الثابتون على الإيمان فكأنه سبحانه يقول : إنا قد ذكرنا في هذه السورة محازي بني إسرائيل وأنهم قوم خشنو العقول والطباع فقد عبدوا المعجل ولهم محاز كثيرة، وإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم الذين تجتمع لهم الرحمة وتنزل عليهم البركات فهم أرق من أمة موسى ، ولكن هذا لا يدل على أن قوم موسى جميعهم فاسقون ، كلا فإن من قوم موسى طائفة قامت بالحق وحكمت بالعدل (وقطعناهم) وصيرناهم قطعاً متميزاً بعضهم عن بعض (اثنتي عشرة) مفعول ثانٍ لقطع أي صير وقوله (أسباطاً) بدل منه (أما) بدل بعد بدل: أي جماعات وقبائل، والأسباط هم أولاد يعقوب ويعقوب هو إسرائيل وكانوا اثني عشر (وأوحينا إلى موسى إذ استسقاء قومه) في التيه (أن اضرب بعصاك الحجر فانجرت) أي فانجرت (منه) من الحجر (اثنتا عشرة عيناً) يعني لكل سبط عين (قد علم كل أناس) كل سبط (مشربهم وظللتنا عليهم الغمام) ليقيمهم حر الشمس (وأنزلتنا عليهم اللبن والسلوى كلوا) أي وقلنا لهم كلوا (من طيبات ما رزقناكم وما ظفونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) واعلم أن هذا اللقائم تقدم شرحه في البقرة وقد ازلت هناك ما بين العاصم التي ضرب بها موسى وبين عجائب الطبيعة التي أبرزها الله في الأرض التي بها تنفجر الأنهار والسدون غافلون فارجح إليه أن شئت (وإذا قيل لهم اسكنوا هذه القرية) أي اذكر، والقرية بيت المقدس (وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً تنفر لكم خطياً تمك ستزيد المهين) وهذا اللقائم تقدم في سورة البقرة أيضاً فافهمه فيها (فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذي قيل لهم فأرسلنا عليهم رجلاً من السماء بما كانوا يظلمون) كل هذا تقدم في البقرة ، ذكر ثلاث حوادث : اثنتان خاصتان بيني إسرائيل والثالثة عامة لنوع الانسان . أما الحادثتان الخاصتان بيني إسرائيل فأولاهما مسألة القرية التي كانت حاضرة البحر ؛ وذلك أن اليهود الذين كانوا يسكنون أيلة وهي العقبة وهي بلدة قريبة من البحر قد فعلوا أمراً مخالفاً للشرية فانهم فعلوا مع الله في شريعته ما يفعل السارقون والنشاون وكذبوا عليه تعالى بحيل لفقوها وفتاوى شرعية كتبوها ؛ ذلك أن الله حرم عليهم كل عمل يوم السبت فاحتالوا على العمل في ذلك اليوم بحيلة شيطانية كما يحتال صغار الفقهاء من المسلمين بالحيل الشرعية غرورا وجهالة . ذلك أن السمك في يوم السبت كان يظهر فوق وجه الماء فتعاموا صيده ولم يسكوه ولكن إذا رأوه داخل مكان في جانب البحر جعلوا على مدخله سداً فلا يفلت منه السمك حتى إذا كان اليوم الثاني انقضوا عليه فاصطادوه . فظاهر الأمر أنهم اصطادوا في غير يوم السبت ولكن الحقيقة أن الصيد الحقيقي هو في يوم السبت فأزل الله هذه الآيات على رسوله صلى الله عليه وسلم ليوضحهم ويقرعهم ويظهر لهم مكنون العلم الذي خبئ في التوراة وليفضحهم وليقول لهم : يا أيها الناس أتم قديماً وحديثاً عاصون مخالفتون تاركون لأوامر الله فأنتم أشرار الناس . وهذا قوله تعالى (واسألهم) يا محمد (عن القرية) وهي أيلة وهي قرية بين مدين والطور على شاطئ البحر الأحمر . وهذا معنى قوله (التي كانت حاضرة البحر) الأحمر: أي قرية منه (إذ يعدون في السبت) يتجاوزون حدود الله بالصيد يوم السبت ،

وإذ ظرف لسكانت أى وقت يتجاوزون الحد (إذ تأتيم حيتانهم) أى وقت تأتيم حيتانهم (يوم سينهم شرعا)
يوم تعظيمهم أمر السبت ظاهرة على وجه الماء جمع شارع حال من الحيتان (ويوم لا يثبتون لا تأتيمهم) أى
ويوم لا يدخلون فى السبت الخ (كذلك) مثل ذلك البلاء الشديد (نبلوهم بما كانوا يفسقون) واختلف
أهل القرية إذ ذلك فكانوا فرقا ثلاثة : فقوم هم الحاطتون ، وقوم نهوم عن ذلك ، وقوم سكنوا وقالوا لناهين :
« لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا » الخ ، وهذا قوله تعالى عطف على « إذ يدون » (وإذ
قالت أمة منهم) من صلحاء القرية الذين أيسوا من وعظهم بعد ما أكثروا لهم من الوعظ لفرقة التي لا تزال
تعظ الفرقة المخطئة (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) علما منهم أن الوعظ لا ينفع فيهم
(قالوا) وعظناهم (معذرة) أى وعظناهم للمعذرة (إلى ربكم ولعلهم يتقون) أى ولطمعنا فى أن يتقوا (فلما
نسوا) أى أهل القرية (ماذكروا به) ماذكروهم به الصالحون ، عبر عن ترك العمل بالنسيان للبالغة فى تعريف
ضلالهم (أجبنا الذين يهون عن سوء) عن أخذ الحيتان يوم السبت (وأخذنا الذين ظلموا) بالاعتداء
ومخالفة أمر الله (بعباد بئيس) شديد ، من يؤس يؤس يؤسا إذا اهتمت (بما كانوا يفسقون) بسبب فسقهم .
عن الحسن قال : نجت فرقتان وهلكت فرقة وهم الذين أخذوا الحيتان . يقال إن الناهين لما أيسوا من انماض
المتدين كرهوا مساكنتهم فجلوا بينهم وبينهم جدارا فيه باب . مطروق ثم فصل ذلك العذاب البئيس فقال :
(فلما عتوا عما نهوا عنه) أى فلما أبوا أن يرجعوا عن العصية وعمرّدوا فى العصيان (قلنا لهم) وهذا كقوله
تعالى « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » (كونوا قردة خاسئين) أى صاغرين مبعدين
من كل خير . قال مجاهد مسخت قلوبهم لا أبدانهم . أقول : وسبب ذلك أن الانسان قد امتاز عن الحيوان
وعن أعلاه وهو القردة بالفكر والعقل وهؤلاء لما طرحوا أفكارهم ظهريا وأرجعوا أمر التحريم والتحليل
للألفاظ التي يتلابون بها نامت غرائزهم وصارت عقولهم مطيعة للتقليد للملأ الضالين . والتقليد من شأنه
أن يبيت القوة العاقلة وينزل الانسان إلى دركات البهائم وأقربها إلى الانسان القردة ، فكأنه تعالى يقول إن
الذنوب والمعاصي هي التي سلبت عقولهم فرجعوا إلى البهائم وصفاتها من عدم التمثل (أولئك كالأنعام بل هم
أضلّ أولئك هم الغافلون) وهذا التفسير هو للناسب لمرصنا الحاضر ، ألا ترى أن للسليين لما أكثر فيهم
الجهال من صفات الفقهاء وقالوا لهم اعرفوا العلوم الفقهية وقصروم عليها كيف أصبح كثير منهم كالقردة
واستعبدم أهل أوروبا . فيأجيب كل العجب مالى أرى هذه القصة منطبقه تمام الانطباق على أمة الاسلام .
نحن معاصر للسليين إلا قليلا منا فلما فعل اليهود . ألم يترك كثير من السليين العلوم والعارف وهي مفروضة
عليهم . ألم يترك الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لاسيا من حكمهم أهل أوروبا . ألم يكن اقتصارهم
فى الطهارة والنجاسة على طهارة الثوب والبدن وترك نجاستهما داعيا إلى عدم العناية بالطهارة من الكبرياء
والحسد والنيل والحقد وما أشبه ذلك . إن اقتصارنا على ظواهر العبادات وطرحنا ظهريا طهارة نفوسنا
وأخلاقنا دعا إلى تفريق كلتنا وتأخر تجارتنا وسياستنا وزراعاتنا وصناعاتنا .

فتحن نظرنا إلى الظواهر كما نظر اليهود إلى ظاهر لفظ الصيد ولم نعبأ بالباطن كما لم يعبثوا هم بالحقائق
وأن للدار على حقيقة الصيد فهذه الآية منطبقه علينا تمام الانطباق .

تذكرة للؤلؤ أيام المجاورة بالجامع الأزهر

لقد كنت أيام المجاورة بالجامع الأزهر الشريف قبل أن أتعمل التفسير أقرأ هذه الآيات فى ظلمات
الليالى والنجوم ظاهرة ، والأضواء باهرة ، وآيات الله فى الجو حافلة ، والجمال باهر ، والشوق للحكمة
والعلم سافر فأقول يا ليت شعرى ما هى البلدة التي كانت حاضرة البحر وما اسمها وما اسم البحر ؟ .

وكنت أنتجب من قوله تعالى : « واسألهم الخ » وكانت هذه الآراء تأخذ من قلمي كل ماخذ وأبيت مفكرا فيها بشوق وتوق لا مزيد عليهما . هكذا كنت إذا سمعت ذكر الأولين ومبانيهم أجد في النفس شوقا كثيرا إلى معرفة ما بنوا وما تركوا للعقل ، وكان الله لهم الأم أن تبني مصانع ليتعجب الخلق فيشتاقوا للمعرفة ولجاراتهم فيها يصنعون ، وأوحى إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأنزل عليهم شذرات من التاريخ العظيمة وليكون تشويقا إلى إحاطة الآخرين بما فعل الأولون . فهذا العالم قائم بناؤه على الأشواق والتذكير .

ذكرى للسليين بهذه القصة وبكاء ابن عباس رضى الله عنهما

روى عكرمة عن ابن عباس قال: أسمع الله يقول : « أنجينا الدين ينهون عن سوء وأخذنا الدين ظللوا بذاب بئس » فلا أدري ما فعلت الفرقة الساكنة وجعل بيكي ، قال عكرمة فقلت له جعلني الله فداءك الأترام قد أنكروا وكرهوا ما هم عليه وقالوا « لم تعظون قوما الله مهلكهم » وإن لم يقل الله أنجيتهم لم يقل أهلكتهم فأجيبه قولي ورضى به وأمر لي يبردين فكسانهما وقال نجت الساكنة . اه
أقول فياليت شعري لم بكى ابن عباس . إن ابن عباس بكى لما علم أن الله لا يفر لمن سكت عن النهي عن النكر ، وظاية الأمر أن الأقوال التي قالوها دلت على أنهم قد عملوا آخر ما يقدرون عليه .
فياحببا كل العجب . علم ابن عباس ما سيكون من العقاب لهذه الأمة على سكونها . سكتت الأمة الإسلامية عن نهى المجرمين منها ، أجم كثر من السليين ، أجموا بالجهل ، أجموا بالبهتان والكذب والبغض ، أجموا بترك الصناعات والعلوم والعارف ، أجموا وأجموا وأجموا ، فإذا حصل ؟ أظن الفرنجية عليهم ثم استخدموهم كالحیوانات يجرّ صوفها ويشرب لبنها ، وهذا مثل ما ذكره الله في قوله : « كونوا قردة » والقردة مطيعة للقائم بتدبير شأنها ، فترى الرجل يأخذ القرده في الأسواق فيرقصه ويضرب له على الطبل ، وهكذا وهو في جميع أموره تابع لأمرسيده ، هكذا الأمم الإسلامية لما ابتليت بترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر شاع الجهل وذاع النذل والصفار لأنهم تركوا مواهبهم فأصبحوا للفرنجية مسخرين ، وللطفنة خاضعين وللظالمين صاغرين ، وقد آن أوان مجدهم ووزغت شمس يوم عزهم وسيكون لهذا القول وأمثاله من كتاب الإسلام أثر في القلوب الواعية ، ووقع في النفوس العالمة ، وسيقوم في السليين طائفة تخرجهم من هذه الحال القرديّة إلى حال الإنسانية ، وقد ابتدأ الترك والأفغان والعجم والمصريون وغيرهم أن يوقظوا العقول وينهوا النفوس ، والله هو الوليّ الحميد .

مستقبل اليهود بعد ذنوب آبائهم

قال تعالى : (وإذ تأذن ربك) أي أعلم (ليعنن عليهم) اللام للقسم : أي كتب الله على نفسه ليسلطن على اليهود (إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب) أي من يوليهم أي يعذبهم بأشدّ العذاب فكانوا يؤدّون الجزية للنجوس فلما جاء الإسلام ضربها عليهم وقد سلط عليهم مختصر وسنجاريب وسلوك الروم وهؤلاء هم الذين نضوهم من ديارهم بعد رفع المسيح بنحو سبعين سنة ، وللراد من هذا العذاب ، العذاب الديني ، ومعلوم أمر اليهود اليوم وقد قامت باذلالهم دولة القياصرة في الروس قبل زوالها ، وكذلك قام الألمان اليوم على بعض اليهود فقتلوهم ، وهم أيضا حلوا كانوا شديديّ العصية لأنفسهم ، ثم ختم للقال سبحانه بقوله : (إن ربك لسريع العقاب) لمن أقام على الكفر (وإنه لفتور رحيم) لمن آمن منهم . ولما كان اليهود قد حكم عليهم أن يذبوا من الدول إلى يوم القيامة لشدة عصبيتهم ذكر الله تفصيل أحوالهم فقال تعالى : (وقطنانهم في الأرض أما) أي وفرقتاهم بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم ولا يكون لهم شوكة (منهم الصالحون)

الذين آمنوا (ومنهم دون ذلك) ناس منحطون وهم الفسقة أى ومنهم ناس منحطون عن الصلاح فمثل
دون ذلك ارفع وهو صفة للموصوف المحذوف الذى ذكرناه (وبإلوانهم بالحسنات والسيئات) بالنم والنم
والحصب والجذب (لعلمهم يرجعون) ينتهون فينبون إلى الله (تخلف من بعدهم) من بعد المذكورين (خلف)
وهم الذين كانوا فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم (ورتوا الكتاب) التوراة ووقفوا على ما فيها من
التحريم والتحليل والأمر والنهى ولم يعملوا بها (يأخذون عرض هذا الأدنى) هو حال من الضمير فى ورتوا
والمرض : التنازع ، أى حطام هذا الشيء الأدنى يريد الدنيا وما يتمتع به منها وهو من الدنويات بمعنى التقرب لأنه عاجل
قريب والمراد ما كانوا يأخذونه من الرشا فى الأحكام وعلى تحريف الكلم والتعبير بالأدنى يشعر بالتخسيس
والتحقير (ويقولون سينفر لنا) لا يؤاخذنا الله بما أخذنا والقمل مسند إلى الأخذ أو إلى الجار والمجرور
وهو لنا (وإن بأنهم عرض مثله يأخذوه) الواو للحال أى يرجون المغفرة وهم مصرّون عائدون إلى مثل
فعلهم غير تائبين (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أى الميثاق المذكور فى الكتاب (ألا يقولوا على الله
إلا الحق) أى أخذ عليهم الميثاق فى كتابهم ألا يقولوا على الله إلا الصدق وهو عطف يان لميثاق الكتاب
(ودرسوا ما فيه) قرءوا ما فى الكتاب وهو عطف على قوله « ألم يؤخذ عليهم » لأنه تقرير كأنه قيل أخذ
عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه (والدار الآخرة خير) من ذلك المرض الحسيس (للذين يتقون)
الرشا والمحارم (أفلا تتقون) أنه كذلك (والذين يمسكون) يتصمون ويتعلقون (بالكتاب وأقاموا الصلاة)
خصها بالذكر لأنها عماد الدين ولأن العبد فيها يناجى ربه فهى صلة بينه وبين ربه وإلا فالكتاب فيه كل عبادة
وأمر ونهى (إنا لانضيع أجر المحسنين) إنا لانضيع أجرهم .

اتسمى الكلام على إحدى الحادتين الخاصتين باليهود وما فرغ عليهما من الحكم وللواعظ ونحرىم الرشوة
وأن التوبة الزائفة الكاذبة للسطنة التى ينتحلها الكاذبون من جهلة المسلمين لانفيد ولا تنفع وكيف تنفع
التوبة اللفظية والنفس طامحة إلى ذنوبها ، غارقة فى بحار شهواتها ، عازمة على اقتحامها مصممة على انتهاك
حرماتها ، ذلك شأن كثير من قضاة المسلمين وحكامهم وأرباب الجاه فيهم وبعض الفقهاء المنافقين الناميين .

الكلام على الحادثة الثانية الخاصة باليهود

قال تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم) أى قلعتاه ورفعتاه فوقهم ، وأصل النتق الجذب (كأنه ظلة) سقيفة
وهى كل ما أظلك (وظنوا) وتيقنوا (أنه واقع بهم) ساقط عليهم لأن الجبل لا يثبت فى الجوّ ولأنهم كانوا
يوعدون به ، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة لثقلها فرجع الله الطور فوقهم ، وقيل لهم إن قبلتم
ما فيها وإلا لبعثن عليكم ، وقتلنا لهم (خذوا ما آتيناكم) من الكتاب (بقوة) بجهد وحزم على تحمل مشاقه
وهو حال من الواو (واذكروا ما فيه) بالعمل به ولا تركوه كالنسي (لعلمكم تتقون) قبائح الأعمال ورذائل
الأخلاق . وهذا كله تقدم فى سورة البقرة ، انتهت الحادثة الثانية الخاصة بينى إسرائيل .

ذكر الحادثة الثالثة العامة لجميع نوع الإنسان

هنا فرغ سبحانه من القصص التى ذكرها فى هذه السورة وقد تبين فيها ما يترى الأمم من الهلاك إذا
عصت الناصحين تحقيقا لما جاء فى أولها من هلاك القرى ليلاً أو نهاراً وأهلها يقرّون بأنهم ظالمون ، فيها هو
ذا هلاك القرى للتقدم وأن كل أمة تقرّ عند الهلاك أنها كانت ظالمة ، فهنا ذكر سبحانه الحجة العظيمة
والآية الكبيرة التى تتم الأمم كلها .

ذلك أن الأمم جميعها قد نصبت لها الدلائل وقامت لها الحجج وظهرت لها بوارق الحق فى آفاق السماء
ومناكب الأرض وفى الأنفس التى أجهلها فى أوائل السورة فى قوله تعالى « إن ربكم الله الذى خلق السموات
والأرض الخ » فالعجائب الكامنة والبدايع الواضحة فى هذه العوالم العلوية والسفلية هى المهود واللوايق التى

أخذها الله على الناس أن يؤمنوا بالله وأن يعدلوا في أحكامهم وصدقوا في أقوالهم ، وأنت لو سرت في شرق الأرض وغربها لوجدت الأم كلها مفرمة بالبحث في الحقائق ، ناكفا عظماؤها على درس هذا الوجود ، لافرق في ذلك بين أوروبا والشرق الأقصى والشرق الأدنى وأمريكا ، وهذا الاندفاع في الاستطلاع هو الميثاق الذي أخذه الله عليهم ، لأنهم يبحثون عن العالم صانعا ، ومصداق ذلك أنك ترى الأمة المصرية بين القرن السابع والعشرين قبل الميلاد والقرن الثاني عشر قبل الميلاد أيضا قد بحثت في جميع الفنون والعلوم والنظام والحسكة وسائر وجوه الأعمال الإنسانية ، وهكذا الصين في ذلك الوقت فقد كانت الأخيرة تمارس الزراعة والفنون الصناعية وكانت لها تجارة واسعة وسياسة اجتماعية وقوانين ومدارس عامة ويعرفون الفلك والطب والموسيقى والنحت والنقش ، هكذا قال وزير معارف الصين .

وترى أنه بعد ذلك في القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن الثالث قبل الميلاد ظهر هناك حكماء يبحثون شرقا وغربا في نظام هذا العالم ؛ فكما كان الفيلسوف الإغريقي (إبيدوقليس) يقول إن العناصر أربعة كان نظيره في الصين (كى تسو) يقول إن العناصر خمسة ، وأدخل فيها الحشب والمدن وأخرج الهواء ، وبيننا العلامة (سقراط) اليوناني يستعمل المحاوراة مع التلاميذ لاستخراج الحقائق كان في الصين الفيلسوف (لاوتسو) و (شوانج تسو) يلمان الرياضة والطبيعات والمنطق والسياسة والآداب وكذلك (كونفوسوس) الذي كان يعلم قواعد السلوك .

ثم انتشرت البوذية في الشرق الأقصى أي بلاد الصين في الوقت الذي ظهرت المسيحية في الشرق الأدنى وفي أوروبا وهو القرن الأول للميلاد ، ثم إنه بينا كانت الأمم الصينية في القرون الوسطى إلى القرن السابع عشر أشبه بأوروبا من حيث أن أتباع كونفوسوس كانوا ذوى فلسفة أشبه بفلسفة أوروبا ، إذ ذلك كانت أمة الإسلام هي للنبع الأصلي الذي أتقده أوروبا من الجهالة ، وانتشرت آراء ابن رشد من الأندلس إلى سائر أوروبا فارتقت وذلك في القرن السابع عشر والثامن عشر وما حولهما ، فأما الصين فقد تنهت إلى بعض العلوم الظاهرية كاللغات ونحوها إذ ذلك ، فأما الآن فالعالم الإنساني كله يريد أن يتجه إلى الملا سالكا طريقا معينا في العلوم والمعارف وهو نتيجة ما كان عند الصينيين واليونان والرومان وأهل يزنطية والعرب .

هذا هو التاريخ المجهل للديانات في الأرض والفلسفة ، وجميع هذا دال على أن الإنسان خلق مغرما بالبحث والتنقيب والتفكير لافرق بين الشرقى والغربى والناس جميعا يستمد بعضهم من بعض ، فهنا يقول الله تعالى (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم) أى أخرج من أصلابهم نسلهم ؛ فبعد أن كانوا في أصلاب الآباء خرجوا إلى الدنيا على ترتيبهم في الوجود (وأشهدهم على أنفسهم) بما ركب فيهم من المقول التي قدّمنا ذكر نتائجها في مصر وأوروبا والصين والإسلام ، وأرام عجائب خلقه وغرائب صنعه التي أجملناها في هذا اللقار شرقا وغربا ؛ فهنا الإتهاد صاروا كأنهم قبل لهم (ألت بربكم) وكأنهم (قالوا بلى) وذلك بما أظهر لهم من الدلائل التي تضطرهم إلى أن يعلوا أنه خالقهم بما ركب فيهم من العقل والتفكير والنهم ، فقالوا بلى (شهدنا) على أنفسنا أنك أنت ربنا ، وهذا مجاز لاحقيقة ، ومثل هذا في كلام العرب مشهور .

ثم اعلم أن أكثر المفسرين فسروا الآية بوجه آخر لأنهم رووا أحاديث في هذا المعنى ، منها ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أخذ الله للميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة فأخرج من صلبه كل ذرية ذراها فنثرهم بين يديه كالذر » ثم كلمهم قبلا وقال : ألت بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . وفي رواية أخرى « أنه لما خلق آدم أخذ ميثاقه أنه ربه وكتب رزقه وأجله ومصائبه واستخرج ذريته كالذر وكتب أرزاقهم وأجالهم ومصائبهم » .

وهذا القول قد توسع فيه المفسرون وقالوا إنه يدل أن هذا الذر خرج من صلب آدم ثم خرج بعضه من
بعض على الترتيب الذي رأيناه في الدنيا ، ثم ركب فيه العقل والهمم وخوطب وأجاب ، ثم رجع الذر من
حيث أتى في صلب آدم وكان ذلك إشارة إلى عالم آخر كنا فيه ، والأحاديث لم تذكر إلا هذه الرموز التي
بين فيها أن من كان هناك شقيا فهو شقي هنا وكذلك السعداء .

ولتعلم أن علم الأرواح يفيد أن الناس كانوا قبلا في عالم غير هذا وهم هنا على ما كانوا عليه هناك ،
وسبكون بعد الآن على ما هم عليه الآن ، وهذا يشابه تلك الأحاديث من حيث الإجمال وفيها من حيث
التفصيل « وفوق كل ذي علم علم عليه » قال الله تعالى فقلنا ذلك كراهة (أن يقولوا يوم القيامة إما كنا عن هذا
غافلين) وفي قراءة بالهاء التوقية (أو تقولوا) عطف على أن تقولوا (إنما أشرك آبائنا من قبل وكنا ذرية
من بعدهم) فاعتدنا بهم ، وكيف يصح التقليد مع قيام البرهان (أنهلكننا بما فعل البطولون ؟) يعني آباءهم
للبطولين بتأسيس الشرك (وكذلك) أي مثل ذلك التفصيل البليغ (تفصل الآيات) ليتدبرها العباد (ولعلمهم
يرجعون) أي عن التقليد واتباع الباطل ، انتهى القسم الثامن .

(الْقِسْمُ التَّاسِعُ)

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبِعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ *
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ
تَحْمَلُ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصْ
الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا
يَظْلِمُونَ * مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَا وَلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ * وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ
كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ
لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ * وَفِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى
فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَمْشَلُونَ * وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَمْدِلُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ *
وَأَمَّا لَهُمْ أَنْ كَيْدِي مَتِينٌ * أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ
مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى
أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَبِأَى حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ * مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ
وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ * بَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ
رَبِّي لَا يُجَلِّبُهَا لَوْ قُبِحَ إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَشْفَ بَسْأَلُونَكَ

كَأَنَّكَ حَتَّىٰ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * قُلْ لَا أَمْلِكُ
 لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ
 وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ * هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
 وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا
 أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا
 لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُّشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ *
 وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ
 سِوَاهُ عَلَيْكُمْ أَدْعَاؤُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ * إِنْ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادُ
 أَمْثَالِكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ
 لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا
 شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ * إِنْ وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى
 الصَّالِحِينَ * وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * وَإِنْ
 تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ
 بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ * وَإِنَّمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ تَرْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ * إِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ *
 وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَمِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ * وَإِذَا الْمَأْتَاهُم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا قُلْ
 إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ *
 وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * وَإِذْ كَرَّمَكَ رَبُّكَ فِي نَفْسِكَ
 تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ * إِنْ
 الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ *

التفسير اللفظي

اعلم أن ما سبق في سورة البقرة وآل عمران والنساء والذم والأنعام وما مضى في سورة الأعراف
 التي نحن بسندها الآن مملوءة من الحكم والمواعظ لاسيما في هذه السورة التي جاء فيها ذكر آدم وإبليس

وما تبع قسهما من أحكام اللباس والتقوى وأهل الجنة وأهل النار والأمر بالنظر في السموات والأرض وقصص الأنبياء وأممهم وكيف أهلكوا بتقصيرهم وتكذيبهم لآسيا أقرب الأمم إلينا وهم اليهود .

فهذه السورة جلت عظة واعتبارا بذكر خراب الأمم ودمار أهلها وإهلاكهم متى كذبوا بآيات الله وانصرفوا عنها ، فذلك أعقب ما ذكر بقوله (واتل عليهم) اقرأ عليهم يا محمد (نبأ) خبر الخبر وهو من أخبار بني إسرائيل سيأتي ذكره ، أو أمية بن أبي الصلت من شعراء الجاهلية الذي آمن قلبه وكفر لسانه كما سيأتي تفصيل قصته ، أو كل منافق من أهل الكتاب يعرف صفته صلى الله عليه وسلم ويحده أو كل من عرض عليه الهدى فلم يؤمن ، فوصف الواحد من هؤلاء جميعا بقوله (الذي آتينا آياتنا فانسأنا منها) أى فخرج من الآيات بأن كفر بها وببذورها وراء ظهره (فأبتمه الشيطان) فلحقه الشيطان وأدركه وصار قريبا له (فكان من القاوين) فصار من الضالين الكافرين (ولو شئت لرفعناه) إلى منازل الأبرار من العلماء (بها) بتلك الآيات (ولكنه أخذ إلى الأرض) مال إلى الدنيا ورغب فيها ، فإن الدنيا عبارة عما فى الأرض من اللدن والضياع واللذات والمعادن والنبات الخ (واتبع هواه) فى إشار الدنيا ولذاتها ، ومقتضى المقابلة أن يقال ولكنه أخذ إلى الأرض ، فخطئناه ووضعنا منزلته فأنى الله بما هو أبغ فى الحط فقال (فثله) أى فصفته التى هى مثل فى الحسة والدناءة (كئيل الكلب) كصفته فى أخس أحواله ، وهو (إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث) يقال لهث الكلب يلهث : إذا أدلع لسانه من العطش وشدة الحر وعند التعب والإعياء ، يقول الله إنه يلهث دائما سواء أحمى عليه بالزجر والطرده أو ترك ولم يتعرض له بخلاف سائر الحيوانات ، فلا يكون اللهث منها إلا إذا حركت ، أما الكلب فإنه يلهث فى الحالين .

فهذا مثل ضربه الله لمن آتاه الله حكمة فتركها وعدل عنها واتبع هواه وترك آخرته وآثر دنياه بأخس الحيوانات ، وهو الكلب فى أخس أحواله وهو اللهث ؛ فكأن الكلب يلهث على كل حال سواء أشدنا عليه وهجنه أم تركناه ، هكذا من أوتى حكمة وعلم ولكنه كفر أو جعل العلم وسيلة لجمع حطام الدنيا وابتزاز أموال الناس بالباطل فإنه واقع فى الجهالة وللزلة الوضعية سواء أوعظناه أم تركناه ، فكأن هذه الحال الوضعية أصبحت طبيعة له لا تقارقه ، فإن أعطيناه العلم أو لم نمطه فإنه لا يترك حاله الذى هو بها متلبس . وقد نرى العالم الذى أغناه الله عن التعرض لحطام الدنيا الحسيسة يميل إلى طلبها فهو يقرؤها ويقررها ويبالغ فى تقريرها لاطلبا لمرضاة الله تعالى ولا نوابه ، ولكن طلبا لزيادة الرزق الذى هو مستغن عنه بالكفاف فهو يدلع لسانه فى تقرير العلوم لأجل الرزق فكانت حاله كحال الكلب يلهث فى الحالين .

وهذا يتظاهر بالبلاغة ليحصل على ما ليس فى حاجة إليه من المال ، فكأنه يلهث فى الحالين : حال البؤس وحال الرخاء فأصبح العلم وسيلة لفرض خسيس وأصبح العالم فى هذه الحال مثله كئيل كلب ألبس ملابس الوزراء وأجلس مع الملك على سرير الملك ففتح عظما منبوزا أو عرقا ملقيا بئبة الباب فأسرع إلى التقاطه وبذ الوزارة والوزراء والملك والمعلم وأخذ يهشم العظم هشما ويقضمه قضمًا راجعا إلى طبيعته سرعا إلى سليقته ، فليس للملك عنده من قيمة ولا يرضى إلا بطبيعة أبناء جنسه .

هذا تقرير هذا التل بطريق الإجمال ، قال الله تعالى (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى أن التل الذى ضربناه للذى آتينا آياتنا فانسأنا منها مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فهم هذا التل جميع من كذب بآيات الله وجحدتها .

فوجه التحليل أنهم جاءتهم الرسل ليهتدوا فلم يهتدوا وإن تركوا لم يهتدوا فهم ضالون على كل حال كالكلب يلهث على كل حال سواء أحمى عليه أم تركناه .

[موازنة بين ذكر الكلب في كلام العرب وذكره في هذه الآية]

تقلا من كتابي مذكرات في أدبيات اللغة العربية

شبه الإنسان الودود بالكلب في حكاية مروية عن بدوي استدطه أمير فأكرمه فمدحه بما رآه في الصحراء

من الدولو والتيس ، والكلب ، قال :

أنت كالدلو لا عدمنك دلوا من كثير العطا قليل الذنوب

أنت كالكلب في حفاظك للودّ وكالتيس في قراع الخطوب

وقال بعض الشعراء :

جزائي جزاء الله شرّ جزاءه جزاء الكلاب العاويات وقد فعل

وقال عمرو بن كلثوم :

وقد هرت كلاب الحى منا وشدّ بنا قتادة من يلينا

يقول : كلاب الحى صوتت منا وقطننا شوك القوم الذين أماننا فلا قوة لهم على محاربتنا ، ويقول الشاعر :

لو كل كلب عوى أقمته حجرا لأصبح الصخر متقلا بدينار

هذا نوع ما يقوله العرب إذا ذكروا الكلب تمثيلا ، فوازن بين هذا وبين ما رأيت في قوله تعالى

« واتل عليهم نبأ الخ » وكيف كان التمثيل ناهجا منهج الحكمة والعلم وتعليم العلماء أن يترفوا عن سفايف

هذه الدنيا وأن يعرفوا قيمة النعمة العلية ، فهل خطر هذا لأصراي في شعره ؟

إن العالم قد يحجب عن نعمة العلم الذى هو من رحمة الله الواسعة فيتدلى إلى خسائس الكلاب ، فهذه

الآية يعرف قدر نفسه ، وهذه أسمى درجات البلاغة التى لا تخطر لمتعلم فضلا عن بدوي في الصحراء اه .

ثم قال تعالى « فاقصص القصص » القصة المذكورة على اليهود وغيرهم يا محمد (لهمم يتفكرون) تفكرا

يؤدى بهم إلى الاتعاط (ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا) أى ساء هو : أى لئلا ، وقوله « مثلا »

تمييز ، وقوله « القوم » أى مثل القوم ، وقوله « وأنفسهم كانوا يظلمون » معطوف على قوله « كذبوا »

فهو داخل في حيز الصلة : أى الذين جمخوا بين التكذيب بآيات الله وظلم أنفسهم .

ولما كان هذا لئلا وصفا لحال الضالين أعقبه بأن الضلال والهدى من عند الله ، فالهتدون والضالون

بمشيئة الله اهتدوا ، وبمشيئة الله ضلوا ، وهذه الصفات القائمة بهم من كفر وإيمان وهدى وضلال وصلاح وطلاق

خلقت لهم على حسب استعدادهم ومقتضى أحوالهم ، والحكيم العدل من يضع الأمور في مواضعها ويحملها

في مواطنها ولا يجيد عن الحقائق ، وهذا مقتضى الترية والنظام ، وهذا قوله (من يهد الله فهو المهتدى

ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون) والناس على هذه الأرض مختلفو الطباع والترائر ، ولكل صفات تخصه وتميزه

عمن سواه ، فمن غلب عليهم الجحود والحصيان فهم كنبات الشوك والحنظل وكل ما يؤذى الناس ويألمون

منه وأولئك هم أصحاب النار ، ومن غلب عليه حب الطاعات والمعارف والمعلوم فهم كالأشجار النافعة كالخلل

وللوز وأولئك هم أهل الجنة .

الكلام على الأولين

والى الأولين أشار سبحانه بقوله (ولقد ذرأنا) خلقنا (لجنهم كثيرا من الجن والإنس) وهم المرصون

عن تدبر آيات الله فكفروا أو عصوا أمر الله (لهم قلوب لا يفقهون بها) الحق ولا يتفكرون فيه (ولهم أعين

لا يبصرون بها) الإرشد (ولهم آذان لا يسمعون بها) الوعظ (أولئك كالأنعام) في عدم الفقه والنظر للاعتبار

والاستماع للتفكير (بل هم أضل) من الأنعام لأن الأنعام لم يخلق فيها العقل فلا تكليف عليها والإنسان عاقل

مكلف فإذا ترك النظر والتفكير تنزل إلى درجة البهائم وأنعط عن درجته فهو إذن أضل من الأنعام التى تطلب

منافعها وتهرب من مضارها وتقوم بالأعمال التى تطلبها غريزتها وهو لم يقم بما يطلبه عقله (أولئك هم المنافقون)

الكاملون في النعمة . وكيف لا يكونون تامي النعمة وقد شاركوا البهائم في العيوب والأبصار والأسماع ولم يمتازوا عنها بالبعث والتنقيب حتى يستتجوا أن لها صنما حكما متصفا بصفات الجلال والجلال التي تدل عليها الأسماء الحسنى ولذلك أعقبه بقوله (وقه الأسماء الحسنى) الصفات العليا: العلم والقدرة والسمع والبصر وغيرها . أو الأسماء التي هي أحسن الأسماء لأنها تدل على معان حسنة والحسنى تأتي الأحسن وحسنها إنما يكون بمعانيها ولا معنى للحسن في حق الله تعالى إلا ذكره بصفات الكمال ونعوت الجلال . وترجع إلى معنيين عدم افتقاره لغيره وافتقار غيره إليه ؛ فمن تلك للماني ما هي حسنة بمقائمه كالقدم والبقاء والقدرة والعلم والوحدة ، ومنها ما هي حسنة بآثارها كالغفران والرحمة والشكر والحلم ، وقوله (فادعوه بها) أي سموه بتلك الأسماء أو ادعوه لقضاء حوائجكم . والدعاء شروط كأن يستحضر الدعاء عظمة للدعاء مع الإخلاص والتعظيم ويعزم للسألة راجيا الإجابة فذلك له تأثير عظيم ، ثم قال تعالى (وذرؤا الذين يلحدون في أسمائه) أي يميلون عن الاستقامة كما كان للشركون يقولون اللات والعزى ومناة لأسمائهم اشتقاقا من الإله والعزى وللان . وفي هذا دليل أن أسماء الله توفيقية فلا تقول يا سخي أو يا عاقل أو يا طيب مع أنا تقول يا جواد ويا عالم ويا حكيم . وفي الحديث روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن لله تعالى تسعة وتسعين اسما من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر » . وفي رواية أخرى « من أحصاها » . وخير ما في تفسير هذا مقال بعضهم : من أطلقها وأحسن للراعاة لها والمحافظة على ما يقتضيه واجبها وصدق بمعانيها وعمل بمقتضاها دخل الجنة . فالحفظ يراد به لازمه وهو اللين ثم التخلق لأن حفظها شيء يسير والإسلام دين جعل الجنة في مقابلة الأخلاق والعلوم والآداب والأعمال . فالتخلق بأسماء الله من القدس والرأفة والعلم الخ يحصل المبدأ قريبا من ربه كما في الحديث « تحلقوا بأخلاق الله » . وقال الحكماء : القصد من الفلسفة هو التخلق بأخلاق الله بقدر الطاقة البشرية . وقد ورد في رواية الترمذي عند هذه الأسماء وهي الله الذي لا إله إلا هو الخ . وهي معروفة . وقال الشيخ النووي الحديث لا يدل على حصر أسماء الله في ذلك العدد . وقد قال الحافظ أبو بكر بن العربي للملكي عن بعضهم إن لله ألف اسم ، قال ابن العربي وهذا قليل ؛ وبالأجمال لا يجوز تسمية الله بما لم ينزل به سلطان ولذلك قال فيمن يلحدون في أسمائه (سيجزون ما كانوا يعملون) في الآخرة تهديد لمن ألحد . وهذا نهاية الكلام في الأولين وهم الذين ذكرنا أنهم كتبوا الشوك والحفظ وهم أصحاب النار .

الكلام على الآخرين

وأشار إلى الآخرين وهم الفريق الذي هو كشجر النخل واللوز ونحوهما وهم أهل الجنة بقوله (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فهؤلاء في مقابلة للهدين . واستدل العلماء بهذه الآية على صحة الإجماع لأن المراد منه أن في كل قرن طائفة بهذه الصفة لقوله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال من أمتي طائفة على الحق إلى أن يأتي أمر الله » . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا قرأ هذه الآية قال هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها ، ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » . وفي البخاري ومسلم عن معاوية قال : وهو مخطب : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لا تزال أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك » .

فانظر كيف جاء في الوحي ما يشهد به العقل ، ألا ترى أن الله لما خلق الخلق أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، فاذا أوحى إلى النحل وإلى النمل وإلى المنكبوت وأهلها أعمالها وسياساتها ونظامها لافرق بين ما كان في زمن الطوفان وما بين حيوان مستقبل الزمان .

لأنهم ولتوقوا الشر الذي يقعون فيه ولم يحسبهم سوء يرتكبون فيه ؛ فالأنبياء وسائر الناس سواء في أنهم يجهلون التيب وهم جميعا مبتلون بالخير والشر ، فجهل الساعة وجهل الآجال ليم الامتحان ، فكيف إذن يذر الناس التفكير في هذه العوالم الشاهدة وفي ملكوت السموات والأرض ، إن الناس لهذا التفكير خلقوا ، بل كل ما جاء في هذه السورة مقدمة لهذه الآيات ، أي قوله تعالى : (أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض الخ .)

هذا ملخص قوله تعالى « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض » إلى قوله (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقوله « أولم ينظروا » أي نظر استدلال في الملكوت : أي الملك العظيم ، وقوله (وأن عسى) أن مصدرية والتقدير أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض العظيم وفي اقتراب آجالهم وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل اللوت ونزول العذاب ، وقوله (فبأي حديث بعده يؤمنون) كأنه قيل لعل أجلبهم قد اقترب فما بهم لا يبادرون للإيمان والأعمال الصالحة . وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق ؟ وأي حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا به ، وقوله (في طغيانهم) أي كفرهم (يعمهون) يترددون (يستلونك عن الساعة) هي من الأسماء الغالبة كالنجم للثريا ، وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بئنة أولساعة حسابها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق (أيان) متى مشتق من أي على وزن فلان منه لأن معناه أي وقت (مرساها) إرساؤها كالمدخل بمعنى الإدخال أو وقت إرسائها أي إتيانها واللحن متى ريسها الله (لا يجلبها لوقتها إلا هو) لا يظهر أمرها في وقتها إلا هو (تقلت في السموات والأرض) أي إن أهل السموات والأرض أمم كل واحد منهم شأن الساعة وتجي أن يتجلى له علمها ويشق عليه خفاؤها وينقل عليه ، أو تقلت في السموات والأرض لأن أهلها يخافون شدائدتها وأهوالها (بنته) حجة (بسألونك كأنك حفي عنها) عالم بها فيعلم من حفي عن الشيء إذا سأل عنه ، فإن من بالغ في السؤال عن الشيء استحکم علمه به (نعمنا ولاضرا) جلب نفع ولا دفع ضرر لئني أذعاه علم النيب (إلا ما شاء الله) من ذلك فيلهمني إياه ويوقني له (ولو كنت أعلم النيب لاستكثرت من الخير وما مسمى السوء) أي ولو كنت أعلمه لحالقت حالي ما هي عليه وذلك باستكثار النافع واجتناب المضار حتى لا يمسي سوء (إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) ما أنا إلا عبد مرسل للإذكار والبشارة .

جوهرة في تفسير قوله تعالى « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من

شيء » وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلبهم فبأي حديث بعده يؤمنون »

اعلم أن النظر في ملكوت السموات والأرض إما واجب وجوبا عينيا . وذلك على كل قادر على النظر وليس ذلك الواجب عينيا لأجل معرفة الله للإيمان فقط . كلا . بل هو واجب لأمرين : (الأول) ازدياد العرفة كما قال تعالى « وقل رب زدني علما » .

(الأمر الثاني) الشكر لله تعالى . ومعلوم أن الشكر علم وعمل ، والعلم يرجع للنظر في هذا العالم ، فالشكر واجب بإجماع علماء الأصول وهو في آيات كثيرة في القرآن فهو واجب بالنص في القرآن وبالإجماع .

والنظر في النبات والحيوان وغيرها والفلك والنجم . كل هذا واجب كما قررناه في أكثر مواضع هذا التفسير .

وإما واجب وجوبا كفاثيا وذلك هو النظر لازدياد السعادة الدنيوية للأمة الإسلامية . إن الله عز وجل قال « ورحمني وسمت كل شيء » وقال « فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » .

إن هذا الكون الذى نسكنه قد ملاءه الله بالنعم وأباح لنا الزود منها وأوجب على الأمة كلها أن تخصص منها جماعة لاستخراج منافعها . وذلك هو السمسى [فرض الكفاية] بإجماع العلماء أيضا . فكما أجمعوا على الشكر أجمعوا على فرض الكفاية كما شرحت في سورة المائدة عند ذكر التراب ، وفي البقرة عند قوله تعالى « لا يكلف الله نفسا إلا وسعها » . وبينت هناك إجماع العلماء وتوبيخ الإمام الغزالي وتفريره لفساد الإسلام لجهالتهم ونومهم وإمانتهم للمسلمين في زمانه .

فإذا كانت رحمة الله وسعت كل شيء . وإذا كان للمسلمون كتبت لهم هذه الرحمة . وإذا كانت الصناعات كلها فرض كفاية والصناعات التى بها ارتقاء الثروة من أهمها . فكيف رقى للمسلمون صناعاتهم ؟ . يقول الله « فأسأ كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة » .

انظر كيف كتب الرحمة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يؤتون الزكاة وهم للامورون بالنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم . الله أكبر للسلم يؤتى الزكاة والسلم ينظر في ملكوت السموات والأرض لثلا يفضأ اللوت وهو غافل ، والسلم هو الذى ينظر ليزداد علما ويزداد شكرا لربه . وللمسلمون فرض على جماعة منهم أن يرقوا المسلمين في الصناعات والعلوم ، الله أكبر هل قام المسلمون بهذا ؟ هل قبل المسلمون رحمة الله الواسعة ؟ هل أعدوا العدة للارتقاء كالأمم حولهم إن لم يوفقوهم . كلا والله لا هذا ولا ذلك أصبحت كل الأمم عداء . إلا للمسلمين . كل الأمم تعلم جميع أفرادها رجالا ونساء إلا للمسلمين . وإنما تعلموا جميعا ليستخرجوا كنوز ربهم من أرضه .

وبعبارة أخرى يطلبون رحمة من أرضه . أما للسلم فيقول أنا أعطى الزكاة من المال للوجود ولا أبحث عن غيره وأترك رحمة الله تنسرب لتبر للسلم . كتب الله الرحمة لنا في الدنيا والآخرة فلم تتعرض لها في الدنيا واكتفينا بالآخرة التى لم نعمل لها .

سيقول جاهل أنا يجب على أن أخرج الزكاة من المال الذى عندي ولكن لا يجب على أن أسعى لجمع المال ولا لشبوع الصناعات في الإسلام .

وهذا القول الذى هو كامن في قلوب صفار العلماء في الإسلام محدود مكذوب بأن ذلك فرض كفاية . وكيف تترك تلك العلوم وتلك الصناعات حتى أصبحنا أذل أمة في هذه الأرض التى نسكنها ، أصبنا غرباء في ديارنا لجهلنا والقرنجة لهمم برحمة ربهم يستخرجونها من أرضنا وذلك لجهلنا وكفرنا بنعمة ربنا وإن كنا مؤمنين به .

ومما يحزن المسلم أن يقف مكتوف اليد عند إعلان هذا الخبر في الجرائد المصرية يوم السبت ٢٥ جمادى الأولى سنة ١٣٤٥ الموافق ٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ وهاهو .

التفنن في اصطناع السكر

وفق أحد علماء الكيمياء في المدة الأخيرة إلى اصطناع السكر من (حثالة الخشب) إتماما لنبوءة أحد العلماء الألمانين الذى قال منذ بضع سنين ما يأتى [سيأتى يوم يأكل فيه قراء الجرائد جرائدكم بعد قراءتها ونحويل أجزائها إلى طعام] .

وقد تحققت نبوءة العالم الآن إذ ورد إشعار على المجمع الكيماوى البريطانى من الدكتور (أورماندس) يقول فيه : إنه ابتكر طريقة جديدة لأجل نحويله حثالة الخشب (النشارة) إلى سكر ، وذلك بعد معالجتها بالحامض الكلوريك .

ويقال إن ذلك السكر يفيد جدًا كسائر أصناف السكر للطعام ، وقد جاء هذا الابتكار مخففا لثورة

التهديد التي كنا نتلقاها بأن مابين الأطعمة لابد أن ينضب في القريب العاجل ، وقد ابتدع الكييميون المختصون بوزارة الزراعة الأمريكية وسيلة أخرى لاستخراج السكر من الذرة الصفراء اه .

هذا هو الذي نشر في الجرائد اليوم ، للسلم مأمور بالزكاة في الليل إن وجد لليل ، ولكنه من جهة أخرى مأمور بالعلوم والصناعات هذا بإجماع العلماء ، وقد قال إمام الحرمين وكثير من العلماء إن فرض الكفاية أفضل من فرض العين ، لأن الإنسان بقيامه به قد خلص المسلمين من ذنوب تصمهم ، فمن قام بحمل مثل هذا بأن عمه صناعة أو عدا قد أعطى للمسلمين آلاف آلاف أضعاف ما يعطى الرجل من الزكاة ، الزكاة محدودة والصناعات والعلوم لاحد لهما كما ترى في الاختراع المذكور في هذا اللقاع .

وعن أبي موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « على كل مسلم صدقة ، قيل أرأيت إن لم يعبد ؟ قال يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق ، قال أرأيت إن لم يستطع ؟ قال يعين ذا الحاجة الملهوف ، قال أرأيت إن لم يستطع ؟ قال يأمر بالمعروف أو الخير ، قال أرأيت إن لم يفعل ؟ قال يعسك عن الشر فإنها صدقة » أخرجه الشيخان ، ولهما عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل سلامي^(١) من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع عليه الشمس ، قال تعدل بين الاثنين صدقة وتمين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة ، قال والكلمة الطيبة صدقة ، وبكل خطوة تمسها إلى الصلاة صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة » انتهى من كتاب تيسير الوصول لجامع الأصول .

هذا كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جعل على السلم صدقة كل يوم على أصغر أعضائه فأكبرها أولى وأشار إلى أن الأعمال جميعها صدقات سواء أكانت رفعا للأذى أم جلبا للنفعة العامة ، فقوله صلى الله عليه وسلم يعمل ويتصدق ، إشارة إلى أن السلم يخترق من رحمة الله ولا يقتصر على ما هو موجود . إن أوروبا قطعت خطوات واسعة والسلمون واقفون بل ناكسون على أعقابهم ، وبنينا صلى الله عليه وسلم ذكركم بالعمل ، والعلماء نصوا على ذلك ، والله يقول « وقل اعملوا فسيري الله عملكم » وها أنا ذا قد نهيت وبيئت وأوصحت وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وعلى كل عالم أن يبين للناس ما نزل إليهم وما بيناه في كلام الله وما عرفه من عقله أو من كلام العلماء ، فهذا زمان يجب فيه الجهر بالحقيقة فإن المسلمين في غفلة وستنفتح المشاوة عن أعينهم قريبا إن شاء الله تعالى .

ثم قال تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة) هو آدم (وجعل منها) أي من جنسها ، لقوله تعالى « جعل لكم من أنفسكم أزواجا » (زوجها) حواء (ليسكن إليها) ليستأنس بها ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جنسه (فلما تشابها) جامعا (حملت حملا خفيفا) خف عليها ولم تلق منه ما تلقى منه الحوامل غالبا من الأذى (فمرت به) فاستمرت به وقامت وقدمت (فلما أتت) صارت ذات ثقل إذ كبر الولد في بطنها (دعوا الله ربهما لنن آتيتنا صالحا) ولما سوبا قد صلح بدنه (لتكونن من الشاكرين) لك على هذه النعمة المجددة (فلما آتاها صالحا جملا له شركاء فيما آتاها) أي جعل أولادها لله شركاء فيما آتى أولادها فسموا عبد العزى وعبد مناف وعبد شمس (فتعالى الله عما يشركون . أشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون) وقد دخل في ذلك أبناء قصي من قريش وهم أربعة : عبد مناف وعبد شمس وعبد قصي وعبد الدار ، فهؤلاء قد جعلت أبنائهم دالة على الشرك ، وقوله « وهم يخلقون » أي الأصنام (ولا يستطيعون لهم نصرا) أي

(١) السلامى كجبارى : عظام صنار طول إصبع أو أقل في اليد والرجل جمع سلاميات اه قاموس

في مادة السلم .

لبدنهم (ولا أنفسهم ينصرون) فيدفعون عنها ما يعترها (وإن تدعوم) أي الأصنام (إلى الهدى) أي إلى أن يهدوكم (لا يتبعكم) أي لا يجيبكم إلى مرادكم كما يجيبكم الله (سواء عليكم أدعوتهم أم أتم صامتون) عن دعاكم في أنه لا فلاح معهم ولا يجيئونكم (إن الذين تدعون من دون الله) تصدونهم وتسمونهم آلهة (عباد أمثالكم) أي مخلوقون مملوكون أمثالكم (فادعوم) جلب نفع أو دفع ضرر (فليستجيبوا لكم) فليجيبوا (إن كنتم صادقين) أنهم آلهة؛ ثم أبطل أن يكونوا عبداً أمثالهم فقال (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيدي يمشون بها؟) البطش الأخذ الشديد في كل شيء (أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها؟) فلم تصدون ما هو دونكم (قل ادعوا شركاءكم) واستعينوا بهم في عداوتي (ثم كيّدون) أي بالغوا فيما تصدون عليه من مكر أتم وشركاؤكم (فلا تنظروا) فلا تمهلون فإن لا أبالي بكم لو نوتق بولاية الله وحفظه (إن ولي الله) أي الذي يتولى حفظي وينصرني عليكم هو الله (الذي نزل الكتاب) القرآن، والمعنى كما أبدى بإزال القرآن على، كذلك يتولى حفظي وينصرني (وهو يتولى الصالحين) يتولاهم بنصره وحفظه فلا تضرمّ عداوة من عاداهم من الشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر.

فإذا كانت هذه عادته في الصالحين من عباده فكيف بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام (والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون) من تمام التعليل لعدم مبالاه بهم (وإن تدعوم إلى الهدى لا يسمعوهم وترام ينظرون إليك وهم لا يبصرون) يشبهون الناظرين إليك لأنهم صوّروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه وهم لا يبصرون للرئي (خذ العفو) أي خذ ما عفاك من أعمال الناس وتسهل ولا تطلب ما يشقّ عليهم، والعفو ضدّ الجهد، وكل ما جاء بلا كلفة: أي اقبل اليسور من أخلاق الناس، ولا تستغص عليهم فيستغصوا عليك فتولد من ذلك المداوة والبغضاء (وأمر بالعرف) للرفوف والجليل من الأفعال وكل خصلة يرتضيها العقل (وأعرض عن الجاهلين) ولا تكافئ السفهاء بمثل سفههم ولا تمارم واحلم عليهم، وفسرها جبريل عليه السلام بقوله «أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك».

قال جعفر الصادق رضي الله عنه: ليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية، وعن عائشة رضي الله عنها قالت «لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح» وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله بعثي لتمم مكارم الأخلاق وتعم محاسن الأفعال».

قال زيد بن ثابت لما نزلت هذه الآية. قال النبي صلى الله عليه وسلم فكيف بالفضب يارب؟ فأزل الله عز وجل (وإما ينزغنك) ينخسك (من الشيطان زغ) نخس وروسة وريب، والنخس: الفرز شبه وسوسته للناس إغراء لهم على العاصي وإزعاجاً بنخس السائق ما يسوقه من أنواع الدواب (فاستد بالله) فامتنع بالله من وسوسته واستجربه والجا إليه في دفعه عنك (إنه سميع) يعني لدعائك يسمع استعاذتك (عليه) يعلم ما فيه صلاح أمرك فيحملك عليه أو سميع بأقوال من آذاك عليه بأفعاله فيجأزه عليها مغنياً إليك عن الانتقام ومشاينة الشيطان (إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان) لمة منه وهو اسم فاعل من طاف كأن اللمة والنخسة طافت بهم ودارت حولهم فلم تغدر أن تؤثر فيهم، وهذا تأكيد لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند زغ الشيطان، وأن عادة التقيين إذا أصابهم أدنى زغ من الشيطان والمنام بوسوسته (تذكروا) ما أمر الله به ونهى عنه (فإذا هم مبصرون) فأبصروا السداد والصواب ودفعوا وسوسته بسبب تذكركم مواقع الخطأ ومكاييد الشيطان فيحترزون عنها ولا يتبعونه فيها، هذه حال الذين اتقوا.

ثم أعقبه بحال الذين لا يتقون وهم للشركون والفساق وأتباع الهوى، فقال (وإخوانهم) أي وأما إخوان الشياطين من الذين لم يتقوا فإن الشياطين (بمדתهم في النسي) أي يطيلون لهم في الإغواء حتى يستمروا

عليه أو يزيدونهم في الضلالة (ثم لا يقصرون) لا يمسكون عن إغوائهم ولا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها ، قال الكلبي : لكل كافر أخ من الشياطين .

وروى الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامنكم من أحد إلا قد وكل به قرينه من الجن وقرينه من اللاتكة ، قالوا وإياك يا رسول الله ؟ قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم » بالرفع : أي فأسلم أنا من شره ، والخطاب في الآية لعموم نوع الإنسان : أي وإما يترغتك أيها الإنسان الخ .
اعلم أيها التلميذ أن هذا الحديث وهذه الآية من الأمور السمعية التي لم يعرفها الناس بالعقل ولم ترد لهم إلا من السمع ؛ فالشيطان لا يعلم الناس إلا من سبيل الدين .

هذا هو المعروف في سائر الديانات وفي دين الإسلام ، ولكن قد كشف العلم اليوم هذه اللغز وامتلات به المهافل في أوروبا وألفت في مثل هذا الموضوع آلاف آلاف المجلدات في عالم الأرواح اللوسوسة والأرواح اللهيمية ، والترب بهذا قرير العين ، أما السلفون فهم لا يعلمون عن هذه الحركة إلا قليلا وقد أصبحوا يخاطبون الأرواح في آلاف المجالس ، وقد أخبرتهم أن الأرواح الشريرة تواسي للأحياء بما كانت تفعله في الدنيا لأنها في برزخها تفرح بكل ما شاهد مما يماثل أفعالها فتواسي لمن على شاكلتها أن يفعل فعلها وهو شر ، لأن هذا هو الذي يسترها ، وقد تفعل ذلك انتقاما من ذلك الشخص مما قبله على ما ارتكب معها من الإثم في حياتها الدنيا ، والأرواح لاسلطان لها على النفوس الراقية والقلوب المخلصة والعقول الكبيرة للفكرة .

هذا كلام الأرواح وقد ألفت كتابا في هذا الصدد سميت [كتاب الأرواح] وقد أشرت إليه في هذا التفسير من قبل وهذا من أعظم معجزات القرآن ، وكيف يوافق الكشف والعلم الحديث ما جاء في القرآن الكريم ويكشف الغامض من محائب هذه العوالم الغائبة عنا ، وكيف تنطق الأرواح اليوم بنفس ما شرحه نبينا صلى الله عليه وسلم وما جاء في القرآن فلتتعجب أيها العاقل !

ثم أخذ سبحانه يذكر بعض ما ينزغ به الشيطان ، فأفاد أن الكفار كانوا يقترحون على النبي صلى الله عليه وسلم آيات : أي معجزات باهرة كأن يزيل جبال مكة وينزل عليهم كسفا من السماء ، فإذا أبطأ ما طلبوه قالوا هلا طلبتها من الله ؟ فأمر أن يقول لهم « إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي » هذا القرآن بصائر للقلوب ، بها تبصر الحق أبلج ، وهذا قوله تعالى (وإذا لم تأتكم آية) مما انترحوه (قولوا لولا اجتبتنا) هلا طلبتها من الله (قل إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي) لست بمقترح للآيات ، إن الآيات لا تنزل إلا تخويفا وأنا إنما أرسلت لتعليم والتبصير ، فكيف أفتوح ما لم يفد الأمم السابقة كما اتفق لبي إسرائيل الذين عبدوا العجل لأن إيمانهم مبنى على مشاهدة المحسوسات والغرائب المحيرة للعقول كقلب عصا موسى حية ، ولو أنهم كانوا مستبصرين متعقلين ما كفروا بعد إيمانهم (هذا) القرآن (بصائر) تبصركم وجوه الحق (من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) به ، فكيف تعدلون عنه إلى تلك الخوارق التي لا تقوم بها قائمة الأمم فأنا أرسلت لأخرج الناس من عالم الخيال إلى الحقائق والمعارف الحقة .

فالقرآن سبب لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه اسم البصائر فهو من باب تسمية السبب باسم للسبب .

ولما كان القرآن بصائر للناس أخذ يأمرهم بالالتفات إليه فقال (وإذا قرئ) عليكم أيها المؤمنون (القرآن فاستمعوا له) استمعوا له بأسماعكم لتفهموا معانيه وتتدبروا مواظمه وحكمه (وأنصتوا) عند قراءته ، والإنصات السكوت للاستماع ، يقال نصت وأنصت وانصت ، وهذا واجب على ما يأتي من محامل الآيات والأحاديث الشريفة :

- (١) إما على العموم في أي وقت وفي أي موضع في الصلاة أو في الخطبة أو غيرها فيجب على كل مسلم في ذلك كله الاستماع والإنصات للقرآن ، وهذا قول الحسن وأهل الظاهر .
- (٢) وإما في الصلاة وحدها ، وجاء في الحديث « أنهم كانوا يتكلمون في الصلاة بمخاطبهم فأمروا بالسكوت والاستماع لقراءة القرآن » . وأيضاً « كان بعضهم يسلم على بعض في الصلاة فتمنوا بهذه الآية » ، وأولهما مروى عن أبي هريرة والثاني عن عبد الله بن مسعود .
- (٣) وإما لترك الجهر بالقراءة خلف الإمام ، فقد كانوا يقرءون مع قراءته . وأيضاً يرفعون أصواتهم عند ذكر الجنة والنار ، وهذا عن أبي هريرة للأول وعن الكلبي للثاني .
- (٤) وإما في الخطبة يوم الجمعة ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء .
- (٥) وإما في قراءة القرآن وعند الخطبة عند بعضهم .
- واعلم أن هذه السورة مكية ولم تشرع الخطبة إلا في المدينة ، فما جاء في القول الرابع والخامس من حمل الآية على الخطبة ضعيف ، وقد انفقوا على وجوب الإنصات عند سماع الخطبة للحديث الذي رواه الشيخان في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا قلت لصاحبك والإمام يخطف يوم الجمعة أنصت فقد لغوت » .
- هل تجب القراءة خلف الإمام ؟

- (١) تجب القراءة على للأعموم سواء أجهر الإمام بالقراءة أم أسرّ عند عمر وعثمان وعلي وابن مسعود ومعاذ والأوزاعي والشافعي .
- (٢) لا يقرأ للأعموم سواء أسرّ الإمام أم جهر عند جابر وأصحاب الظاهر .
- (٣) يقرأ فيما أسرّ الإمام فيه القراءة ولا يقرأ فيما يجهر الإمام فيه عند ابن عمر وعروة والقاسم والزهرى ومالك وابن المبارك وأحمد وإسحق .
- (٤) لا يقرأ في الحالين وهو لجابر وأصحاب الرأي .
- هذا ملخص ماجاء في تفسير قوله تعالى « فاستمعوا له وأنصتوا » وأما قوله تعالى (لعلكم ترحمون) فعناه لكي يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمركم به ، ولما كانت قراءة القرآن نتيجتها تهذيب الأخلاق والملم ومعرفة الأحكام .
- وهذه كلها مقدمات لما هو أرقى منها وهو ارتقاء النفس وعروجها إلى عالمها وتخلصها من هذا العالم للظلم أردفه بما هو أعلى فقال (واذكر ربك في نفسك) أي استحضر في قلبك عظمة الله جلّ جلاله في الصلاة وفي قراءة القرآن والدعاء والنسيح والتهيل وغير ذلك من سأر الأذكار ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ويدخل فيه غيره من أمته لأنه عام لسائر الكلفين ، وقوله (تضرعاً وخيفة) أي متضرعاً وخائفاً : والضراعة الخضوع والاستكانة والدلل للغير ، وقوله (ودون الجهر من القول) يعني ومتكلماً كلاماً دون الجهر ، لأن الإخفاء أدخل في الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكير ، وقوله (بالقدو والآصال) أي بأوقات القدو والعشبات لفضل هذين الوقتين ، والقدو جمع غدوة . والآصال جمع أصل : وهو ما بين صلاة العصر والغروب .
- واعلم أن هذين الوقتين تتجلى فيهما عظمة الله وحكته وآياته الكبرى وعجائبه للدهشة من إشراق الشمس وبهجة ضيائها ونورها وجمالها وجلابيبها السبعة وهي الألوان الشبكية المتداخلة للشرق على المخلوقات الأرضية في القدوات وهي الحال الأولى ، ومن إقبال الظلام وإشراق الكواكب التي لاعداد لها على آفاق للسكونة وأضوائها للشبكية في الجؤ ، وذلك يوجب للتأمل عظة وانسراح صدر ومعرفة بعظمة الخالق .

واعلم أن ما ذكرته لك لا يظن له أكثر الناس قترى الشمس مشرقة غاربة ذات بهجة في الحالين وما للشرقان والغربان ، بل إن كثيرا من الصليين وقت الصبح والعصر لا يفسكرون في جمال الشمس في إشرافها ولا في غروبها ولا يوجهون أنظارهم إلى ما يحيط بهم من جمال الله الذي كسا به هذه القبة الزرقاء وغطى به وجه الغبراء وبدل حالهما كل يوم وكل ليلة فلذلك أعقبه بقوله تعالى (ولا تكن من الغافلين) عن ذكر الله فتشئ المادة عليك لتكرار الشروق والغروب وأنت ناه لاه قد أفسد اعتيادها واطرادها عليك تفكيرك وتكن مفكرا ذا كرا متذكرا بتقلب الظلام والضياء عليك خالق الكائنات ومدبر الحركات التي اطردت في سائر الأزمان بتدبير اللأ الأعلى من اللائكة الداكرين لربهم عسى أن تلحق بذلك العالم بمد موتك في جوار ربك (إن الذين عند ربك) مكانة ومنزلة وهم اللائكة (لا يستكبرون عن عبادته) لا يتعظمون عنها (ويسبحونه) وينزهونه عما لا يليق به (وله يسجدون) ويخصونه بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره .

روى مسلم عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « عليك بكرة السجود فه فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة » .

لطائف القسم التاسع

اللطيفة الأولى

اعلم أن هذه السورة اشتملت على التحلية وعلى التخلية كما أوضحناه سابقا ، فالتخلية غلبت في قصص الأمم الصالحة التي أماتها وأزالها من الوجود ما تخلفت به من الظلم والفتك وتطيف السكيات والليزان وما أشبه ذلك . فأما التحلية فقد تجلت في مواطن شتى منها ، وأهمها موطنان :

(الأول) ما جاء في أوائلها من ذكر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش ، وقد فسرت هناك فأرجع إليها إن شئت .

(وللوطن الثاني) ما جاء في القسم التاسع فإنه بعد أن ذكر أنه ذرأ لجهنم كثيرا من الجن والإنس لا أحلام لهم ولا فكر وجعلهم كالأنعام أخذ يذكر أن له أسماء حسنى . ولا جرم أن الأسماء ذوات مدلولات ومدلولها صفاته سبحانه وتعالى من العلم والقدرة وغيرها وهذه الصفات لها آثار وآثارها ما نشاهد من العالم الجليل اذى نعيش فيه فلذلك أتبعها بعد آيات بقوله « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » ثم قال « فبأى حديث بده يؤمنون » فكان الأسماء لا يراد إلا معناها وآثارها وهذا الإنسان جاء في هذه الأرض لدراسة الآثار حتى يعرف الصفات .

وهذه الآثار هي الكون بأسر مظاهره العجيبة وآياته الغريبة . ولذلك ذكر اقتراب الآجال في هذا اللقاه وأتى بالاستفهام على سبيل التعجب فقال « فبأى حديث بده يؤمنون ؟ » وبأى سبيل يهتدون إذا لم تكن هذه السبيل راؤدم . وإذا لم يمارسوا العلم والحكمة والتفندي بالعلوم فما هي حياتهم وما فضل وجودهم في الدنيا وما قدر بقائهم فيها ؟

إن الآجال قاطمة فليحذر الناس الفوات وليدرسوا هذه الدنيا ونظمها وعجائبها وغرائبها فإن هذه هي الوسيلة لارتقاءهم والطريق لسعادتهم وهي أجنحتهم التي بها يطيرون وقوام التي بها يسرون ومعارجهم التي عليها يرجون .

وإن في ذكر الآجال واقترابها كما قدمنا لعبرة للمعتبرين وذكرى للذاكرين . وكيف لا يكون كذلك وأنت تعلم من هنا التفسير وما تقدم فيه أن العلوم كما تكون معارج الأفراد للارتقاء في الدنيا والآخرة تكون معارج الأمم أيضا وأبهما حرما حرم سعادة الحياة .

والبرهان على ذلك ما ترى من انقطاع جيل السليين وضعفهم واستكانتهم للجهالة العمياء بهذه العوالم
المهيطة بنا كأنهم ما خلقوا في الوجود وكان أعينهم في غطاء وأسماعهم في غشاء .

ومن الموزن أن يدعى وعظهم وصغار الملاء فيهم أن الدين لا ينظر لهذه العلوم إلا شذرا وذلك من
مصائب الزمان والحرمان العام .

ومن قرأ العلوم من شبانهم في أوروبا رجع كليل الطرف وهو حسير ودعا بالويل والثبور على الأديان
ومروجها والعبادات ومتبعيها إلا أفاضل منهم وأهل جد وعقل راجح : فأولئك لهم قدم صدق وهم كثير
- والحمد لله - في الإسلام .

ولما أشرفت شمس العلوم في أوروبا وأضاء في أنحاء الشرق شعاع منها وأنت إلى مصر أنوارها أيام
الظهور له محمد على باشا وخلفائه حسد الأوروييون للصريين أهل بلادي على نعمة العلوم وخافوا أن يرجع
عبد العرب لسابق عهده ويستردوا مجده الخالد وغفروا التاك كما كان في عصر النبوة .

انقضوا على مصر فاحتلوها وانزعوا العلم منها انتزاعا وأضاعوها . هكذا شأن الفرنجة في بلاد الإسلام
قاطبة اليوم . وجعلوا التعليم في مدارسها صورة مجرّفة أو قبرا مبيضا أو بمرامفضا . وقد درست أنا
في مدارس البلاد نحو (٣٠) سنة وأنا أرى التلاميذ مجهولون كثيرا من هذا الوجود بعد أن كان آباؤهم أيام
محمد على باشا يدرسون كما تدرس أوروبا .

ولما أذاعوا في العالم أنهم ردّوا إلى بلادنا استقلالها وكان أغلب للتعليم قد درسوا دراسة سطحية
إنجليزية كتبت مقالا للجلسي النواب والشيخ ولدولة وزير المعارف وقد نشرته جريدة المقطم يوم الخميس
٢٦ يونيو سنة ١٩٢٤ الموافق ٢٣ ذي القعدة سنة ١٣٤٢ تحت عنوان [مذكرة التعليم الثانوي بالملكية
المصرية] وستراه إن شاء الله في المجلد الخامس من هذا التفسير . انتهت اللطيفة الأولى .

اللطيفة الثانية في قوله تعالى « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء »
لقد نظرنا نظرات في هذا التفسير فيما خلق الله من شيء فلننظر نظرة الآن فيما خلق الله في هذا العالم
ومن أين جاءت الحياة إلى الأرض غير ما ذكرناه فيما تقدم .

اعلم أيها القارىء أن العلماء في هذا العصر اضطربت آراؤهم في أصل الكائنات الحية . ومتى خلقت ؟
وهل يخلق الحي من غير حي ؟ وقد قدروا أنها كانت قديمة العهد جدا قبل الآن بمائة مليون سنة تقريبا .
وأنت تعلم أيها القارىء مما تقدم كيف كانت الأرض دائرة حول الشمس ولها أخوات يسرن معها حولها
ويبينن مسافات معلومة مرسومة فيما تقدم أيضا . والشمس جاذبة لهذه السيارات . وهذه الأرض والسيارات
مركبة من معادن وصخور ومواد ملتهبة كالتي تتركب منها الشمس . والشمس وزن سبعمائة مرة مجموع
الكواكب التي تدور حولها وهي مقدار وزن الأرض ٣٢٤ ألف مرة .

وهناك في السماء عوالم تسمى (السدم) جمع سديم أشبه بسحاب غير ظاهر التكوين وله مركز أشد
وضوحا مما حوله . فهذه السدم تملأ فراغا وتصنع فيه حركات دورية وهي لم تزل في حال التكوين . فهذا
يفيد أن الشمس وما حولها قد كانت على هذه الحال قديما .

وقد وجدوا من هذه السدم ٦٠ ألفا . وقد وجدوا حركات ذلك السديم وتكوّنه شيئا فشيئا وهو دائر
حول المركز أشبه بحال سائل في الإناء كزيت مثلا أدركناه فإنه ينقسم إلى دوائر وحلقات تدور حول المركز
كما تدور السيارات حول الشمس .

نم إننا إذا نزلنا جوف الأرض ارتفعت الحرارة درجة بمران (سنتجراد) كلما نزلنا نحو ٣٠ مترا وفي عمق
مائة كيلومتر تبلغ الحرارة ثلاثة آلاف درجة وهي تحوّل أغلب المواد إلى نار ملتهبة . ونصف قطر الأرض

يبلغ ستة آلاف كيلومتر . وعليه يكون اللتب في باطنها عظمًا جدًا كما تقدم . وهنا يبدأ الكلام على أصل الحياة .

(١) الحى يتكوّن من غير الحى كما تنولد الفيران وثمانين السمك من الطين ودود الجبن منه . وهذا قول العاتمة وبعض القدماء .

(٢) الحى لا يتولد من الجماد ودود الجبن إنما هو مخلوق في الدور الأوّل ليكون ذبابا فهو من نوع الحشرات فقد باض اللباب بيضه ثم صار دودا ثم يصير ذبابا . وقد بين العلامة (ريدى) و (سومردام) والراهب الإيطالى (سيلزاني) في القرن السابع عشر فساد تسكوّن الفيران والسمك من الطين والدود من الجبن خلافا لقول القدماء .

(٣) إن بعض الحيوانات ذات الخلية الواحدة تنولد في السوائل مثل منقوع الأوراق .

(٤) نفى هذا القول وأنكره العلامة (شلس) و (شفان) و (ملن ادوارس)

(٥) المكروبات وهى الحيوانات الدقيقة جدًا التى لا ترى تتكوّن من اللوادة غير الحية .

(٦) ونفى هذا القول العلامة (باستور) و (كوخ) بتجارب لاهل قد كررها .

وبهذا ثبت أن الحى لا يتولد إلا من حى . فمن أين جاءت الحياة ؟

(١) كانت الحياة قبل الآن والأرض ملتهبة وعدم إمكان التولد الدانى الآن لا يمنع وجوده قديما . وهذا رأى العلامة (ارنست هيكل) .

(٢) أفسد هذا الرأى أن العلماء الباحثين حاولوا بكل الطرق التجريبية أن يحدّثوا حياة فلم يفلحوا فهل حال البحار الأولى إلا حالة من الحالات التى نوعها العلماء بالتجارب .

(٣) الحياة لم تأت الآن ولم تأت قديما على هذه الأرض بل أتت على شكل حيوانات دنيئة وصلت إلى الأرض محمولة على قطع صغيرة أو كبيرة من كواكب أخرى في وقت أن كان الوسط مناسبا وهو قول (رشرت)

(٤) قال (هلمهتز) و (عمسن) و (ارينوس) رأيا قريبا مما تقدم: إن الأنواع الدنيئة كبذور الحيوانات الدنيا تنفصل باستمرار من الكواكب وإن ضوء تلك الكواكب وضوء الشمس هو الذى يطرد تلك الجراثيم

ويبعدها في الفضاء وهى محرومة من الماء ومن الهواء وواقعة تحت برد قارس (٣٣٠) درجة تحت الصفر وهذه اللقدونات تصل في كل لحظة إلى الأرض وغيرها ونحن لانراها . هذه الآراء فى أصل الحياة وفيها خلق

الله من شئ تريك صورة ما وصل إليه علم العلماء وحكمة الحكماء وفهم العقلاء فى هذا الكون . ولعلك تقول وما لأئدة هذه الباحث وما أغراضها ؟

أقول: إن هذه الباحث هى التى أمر الله بها لنقف على حقائق الأشياء ؟ فإن هذه للباحث قد أنارت لنا السبل فلنا أن الحى لا يتولد إلا من الحى ورأينا كيف خضعت العقول وقهرت النفوس ووقفت الآراء

ومجزت عن أصل الكائنات وسرّ المخلوقات .

وهذا يزيدنا أن هناك حياة أرقى ومقاما أجلى وعلما أسمى ، وبه نفهم قوله تعالى فى سورة أخرى « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم » وكما ازدادنا فكرا زدنا هدى وبصيرة وعلما فنطم

أن الحياة من عالم أرقى من عالمنا « وإن من شئ إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » .

اللطيفة الثالثة فى قوله « يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يعلمها إلا هو » لقد ذكرنا فى هذا التفسير فيما تقدم مقالات كثيرة فى الحياة بعد اللوت فلا ذكر لك الآن مجانب من العلم

الحديث لتقف على علم العلماء وحكمة الحكماء فاعلم أيديك الله :

(١) أن عمالاً يسمى (لوفنهوك) شاهد سنة ١٧٠١ أن حيواناً يبلغ طوله مليمترًا وهو يعيش على الطحلب وعلى السقوف وفي تجارى الأمطار للزلية لما جففه وأصبح تراباً بقى خمسة أشهر لا أثر للحياة فيه ثم لما غمره بالماء رجح إلى الحياة مرة أخرى وأخذ يسمى ويتلدى .

(٢) وفي سنة ١٧٤٣ شاهد العلامة (بندهام) وغيره نفس هذا الأمر . ذلك أن الناس يشاهدون بعض حب القمح مصاباً بمرض فيكون ضعيفاً متغير اللون فلما بحث العلماء هذا الحب وجدوا فيه عجبا عجبا مثل العلامة (بندهام) المذكور، وتفصيل ذلك أن هناك حيوانات صغيرة جداً تعيش في سنابل القمح وتبيض فيها وتنفص ويخرج من بيضها علقات تسبح حتى تدخل تلك الحبات ويكون في كل حبة من تلك الحبات من عشرة آلاف إلى عشرين ألف حيوان ، فإذا حصد القمح وجفّ الحب جفّ هذا الحيوان فيه ، فإذا أصابه الماء حيت تلك الحيوانات ثانياً وبشت من مرقدها وطلبت لها نباتاً من القمح تعيش فيه ولا تزال هكذا حتى إذا ظهر السنبل سمحت تلك الحيوانات وفلت ما فطه آباؤها من قبل .

(٣) ولقد اختلف العلماء لما رأوا هذه العجائب وقالوا أدائمة هذه الحياة أم هي منقطعة وأعقابها بشت تحيروا وشكوا ورجعوا إلى التجارب .

(٤) ففي سنة ١٧٧٦ أجرب العالم الراهب الإيطالى (سبترانى) في حيوانات تعيش في الماء تجارب كثيرة فإنه جففها فاندمت معالم الحياة فيها انهداما تاما وجعلها على هيئة تراب مدة ثلاث سنوات وعرضها للبرد الشديد والأشعة المهرقة وبعد ذلك ندها بالماء فرجعت لها الحياة .

(٥) وأيضاً جرب العالم المذكور حبة القمح التى تحتوى على أكثر من عشرة آلاف حيوان كما قدمنا نجففها كما تقدم ١٦ مرة وبعد كل تجفيف ندها بالماء فرجعت لها الحياة .

(٦) وقام العلامة (دوير) من سنة ١٨٤٠ إلى سنة ١٨٤٢ فوضع بعض تلك الحيوانات المتقدمة في وعاء فرغ من الهواء تفريفا تاما مدة أيام ثم عرضها إلى درجة ١٠٠ أو إلى درجة ١١٠ سنتجراد مدة دقيقتين ولما ندها بالماء رجعت إلى الحياة .

(٧) ومثله العلامة جفرى سنة ١٨٥٩

(٨) وحذا حنوه العلامة (دافين) جفف دود القمح فصار على شكل تراب أبيض اللون مكون من خيوط بيضاء دقيقة جدا خالية من كل مرونة وبعد أشهر ندها بالماء فحييت وسبحت مع أن الدودة وهى حية لاتعمل بعض هذا بل تموت ، وجفف بعض الحيوانات وحفظها عشر سنوات ولما ندها حيت مع أن حياتها العادية لاتزيد عن بعض أسابيع .

(٩) وعلقات القمح للتقمة لاتعيش إلا عشرة أشهر فلما جففت عاشت أربع سنوات ثم حيت لما نزل عليها الماء ، بل جففها (دافين) عشر مرات ثم رجعت للحياة كل مرة .

(١٠) والعلامة (بيكر) ندى علق القمح بالماء بعد ما جف ٢٨ سنة وهذا من الدهشات .

من هنا جزم (دافين) و(دوير) بعد هذه الأبحاث التى استمرت إلى سنة ١٨٦٠ أن الحياة انقطعت في هذه الحيوانات انقطا تاما ، ولكن العلامة (بوسى) قال الحياة مستمرة . هناك هيئة الجمعية الحيوية الباريسية لجنة مكونة من خمسة علماء تحت رئاسة (بروكا) للشرح التفسير فوضت هذه اللجنة بعض الدواب السجلية مجففة في الفراغ الجفاف أعنى الذى لا بخار ماء فيه مدة ٢٨ يوما متتابعة ، ثم بعد ذلك عرضت تلك الحيوانات إلى حرارة مائة درجة مائة نصف ساعة وبعد ذلك كله رجعت تلك الدواب إلى الحياة بعد التندبة .

فتمجّب أيها الذكي كيف أظهر العلم الحديث أن البعث للأحياء حاصل فعلا وأن حبة القمح فيها آلاف من المخلوقات ، وأن تلك المخلوقات تموت ثم تحيا متى نزل عليها الماء ، وكأن حبة القمح التي تراها ضعيفة منحرفة أرضنا التي نعيش عليها ، وكأن الحيوانات التي فيها هي أنفسنا وأن جفانها ورميها في الفراغ وتعرضها للحرارة تارة والبرودة أخرى وجعلها دقيقا أشبه بما يحصل لأرضنا من التفريق والأحوال المختلفة ، أو أن حياة تلك العلاقات الكامنة فيها بعد هذه الأحوال العظيمة أشبه بحياتنا بعد موتنا وتعرض أجسامنا إلى أحوال مضيئة .

فياليت شعري كيف وصل العلم الحديث إلى أن البعث يحصل في هذه الدنيا وكيف تكذب الجمعية الحيوية في باريس من ينكر حياة تلك الحيوانات بعد موتها التي شاهدوه . وكيف يوافق هذا مثلات الآيات القرآنية ألم تر كيف يقول الله تعالى « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » .

فانظر كيف جعل خروجنا بعد الموت حياة الأرض بالنبات بنزول الماء . ولا جرم أن حبة القمح المذكورة إذا نزل عليها الماء بعث الحيوان منها بعد موته . فتمجّب كيف كان ظاهر القرآن يفيد أن حياتنا بعد الموت مشبهة بالنبات فكشف العلم الحديث أن في باطن هذا حياة الحيوان في القمح بعد موته . إن هذا شيء عجيب .

فليجيب للسؤال كيف أصبح العلم الحديث يفسر القرآن تفسيرا لفظيا بعد أن كان ذلك أمرا تقريبا بالتشابه . ومن هذا فليفهم العقلاء والحكماء معنى قوله تعالى في سورة أخرى « ويسألونك عن الروح » روح الحيوان وروح الإنسان وروح كل حي على وجه الأرض « قل » يا محمد لهم « الروح » ليس من الأمور التي يمكنكم معرفتها لأنها ليست من المادة التي أمامكم فليست تخلق من الطين ولا الهواء ولا الماء ولا هي التي تحصل في حال خاصة من أحوال المادة عند تنوعها كما فعل الكيمائيون الذين هجزوا عن توليدها في المادة فاقطع علم الخلائق عنها حتى أرجعتموها أيها الناس إلى عالم غير عالمكم الأرضي وقلتم لعلها تأتي من كواكب أخرى وكأنكم قلتم إنها « من أمر ربي » لا تقطع عنها عنكم فما أتم أولاء هجزتم عن علمها وحرتم في أمرها وهامى ذه علومكم هجزت عن معرفتها وحوّلتها إلى عالم الضياء « وما أوتيتم من العلم » بأمر الروح « إلا قليلا » من ظواهر كالحياة والحس والحركة والاختيار والإرادة والحواس الخمس . أما ما عدا ذلك من أصل منشأها وخلقها ومن أين أقبلت فقد أقررتهم بالعجز عنها . وهذه من المعجزات الكبرى لحاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ استبان انقطاع الماء في هذا العالم عن استقصاء خبرها ومعرفة حقيقتها والوقوف على أسرارها بمثل هذه المعارف البنية على الشادة والتجربة ، فليرتق للسؤال ، وبمثلها فليعلم المهتدون .

وبهذا فليفهم قوله تعالى أيضا : « فإذا سويته ووضعت فيه من روحي » وقوله : « ثم سواه ونفخ فيه من روحي » فانظر كيف نسب الروح إلى نفسه إيدانا بأنها ليست من العالم الأرضي وإنما هي من عوالم فوق المادة ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

جوهرة مضيئة

في ملخص هذه السورة

إن هذه السورة مكية لسورة الأنعام ، منفصلة لما جاء في آخرها من أن الإيمان الذي لا يشمر ثمرة ما كالسكر عند الملاك بنّة فلا ينفخ الناس توبتهم عند غرغرتهم وعند النوازل للقاجنة كما تقدم شرحه .

هذا مما في آخر الأنعام، فسورة الأعراف ابتدئ فيها أولا بالحروف (ا ل م ص) وقد قلنا أن هذه الحروف الأربعة مذكرة بملخص السورة . مذكرة بالتوبيخ في قوله تعالى « ألم أنهك عن تلكا الشجرة » أى التوبيخ على اتباع الهوى الذى اتبعه الانسان وعلى عدم اتباع نصح الناصحين الأتقيا . وسماع نصح الناصحين الأغبياء وقد أشار لذلك هود عليه السلام بقوله : « ناصح أمين » أى بخلاف إبليس فهو غير أمين . ثم أتبع ذلك بالأمر بترك الحرج لما فى السورة من التوازل على الأمم وأمتنا مذكرة بذلك معرضة له وأتبعه بزواج أعقبا بأنه جعل لنا معاش فى الأرض وأن شكرنا قليل وأتبع ذلك قصة آدم وإبليس وختمها بقول إبليس « ولا تجد أكثرهم شاكرين » فهى تبيان للآية قبلها . فإذا كان الناس لا يشكرون النعم فسيبب أنهم لا يسمعون نصح الناصحين ويتبعون خطوات نصح العاشين المعنون عنهم بأكرم إبليس الذى تكبر فلم يسجد فنزل عن مرتبته وأراد أن يجر آدم إليها فأغواه فسقط فى التذب . فإبليس ضل بالكبرياء وهى القوة النفسية ، وعصى آدم بالقوة الشهوية . ثم توالى القصص بعدها ؛ فقوم عاد بطشوا جبارين وهذه هى القوة النفسية كإبليس . وقوم صالح عقروا الناقة لأجل الشهوة البهيمية لأنها كانت تقاسمهم بعض رزقهم وهى شهوة البطن . وقوم لوط شهوة الفرج ، وقوم شعيب فى السكياى والميزان وهى شهوة البطن ، وهذه شهوة آدم وخواء ، وقصة موسى أعم مما قبلها ، ثم انتهى بقصة الذى آتينا آياتنا وهى تلخص ماضى كله فإن حملها أن الإنسان يعطى علما فينتز به فيجره العلم والقربى فه إلى استعمالها فى مصيئته فينزل عن مرتبته ، وهذا بينه ما حصل لإبليس تنزل عن مرتبته الترفيعة إلى منزلة وضيفة فصار معال للشر ، فهذا الذى يسمى (بلعام بن باعوراء) صار ملقنا للشر وأصبح كعص الدول الأوروبية الآن تستعمل علما فى دس السائس والحيل السياسية ، إذ أرسل النساء (للومسات) إلى جيش موسى حتى يضلّ القوم فيهنزموا فى الحرب .

فهذا بينه ما يقوله أهل الترب فى الشرق إذ منهم طوائف ينتشرون فى أقطار الإسلام يفسدون نساء الأكارب والفضلاء ويذبحون الفحش وينرون الشبان بالسوق ، كل ذلك ليوقعوهم فى الفاحشة حتى لا يفتحوا أعينهم لأعمالهم .

هكذا شأن الفرنجة فى بلاد الإسلام كافة ، وهذه عينها مسألة إبليس الذى لما سقط أخذ يغوى الناس ويترهم ليكونوا مثله عصاة .

فانظر كيف رأيت قصة الذى انسلخ من الإيمان رجعت إلى أول السورة من إغواء إبليس الذى غوى بعد أن كان فاضلا وجرّ غيره إلى الجهالة وأن الذى يعطى الخير والنعمة إذا لم يحترس ولم يفهم بعقله يقال له « ألم أنهك عن تلكا الشجرة الخ » فتشابه إبليس وبلعام بن باعوراء فى الكرامة أولا والضلال أخرا وأنهما ينصبان الأشرار لإغواء الناس .

وهذا فيه بيان أن الذى يعطى علما أو نعمة فإنه أيضا على خطر إذا لم يحترس ، وهذا يفيدك أن سورة الأنفال والتوبة بعد هذه السورة فهما الغنائم والغزوات وفتوح البلدان ، وأن هذا الفتوح خير كما كان علم بلعام خيرا ، وكما كان علم إبليس خيرا أيضا ويخاف أن يكون خير للسلمين فى فتوح البلدان يقبه شرّ بالتخاذل وحب الرياسة فيذلوا بعد عزمهم كما ذل بلعام وذل إبليس .

ولقد تمّ ذلك كله فإن للسلمين بعد أن فتحوا البلدان ووصلوا إلى قرب باريس لم يبق بينهم وبينها إلا مسيرة ثلاثة أيام وقصروا ثم تخاذلوا ، وهكذا رجوا القهقرى فى أخلاقهم واتبعوا شهواتهم .

وقام النزاع فى الشرق أيضا بين الأمويين والعباسيين انتهى بغش الأئمة الإسلامية ووقنا نحن اليوم فى أسوأ الأحوال .

أنت ترى أن إبليس الذى تكبر بدرجته الرفيعة ، وبلغام الذى نال حظوة عند ربه باسم الله الأعظم قد انحط عن صماء عظمتها بكبر الأول وشهوة الثانى فصار كل منهما يفرى الناس ، وهكذا دولنا الإسلامية فتحوا البلدان لنصر الدين كما كان أولا إبليس وبلغام صالحين ثم تحاذلت الأم الإسلامية واتبعوا الشهوات فذلوا للأمم الغربية كما سقط إبليس وبلغام .

أليس هذا هو قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث البخارى « إن أخوف ما أخاف عليكم ما يفتح عليكم من زينة الدنيا وزخرفها » أو ما فى معناه « إذ قال رجل يارسول الله : أو يأتى الشر من الخير ؟ فسكت صلى الله عليه وسلم حتى تصبب عرقا وهو يوحى إليه ثم أجابه بما يفيد أن خيرات الدنيا أشبه بالمطر والناس يتلقون هذا الخير كما تنتفع الحيوانات بالشب والكلاب فنها ما يأكل النافع ومنها ما يأكل الضار فتمرض وتموت » فاقراء فى البخارى فإن طغوا ما ذكرته لك .

فعلى هذا يكون فتح البلدان وتزادف الخيرات على السليين أعقبه السقوط فى مهادى الشر والعصيان وانباع القوى النضبية والشهوية فصار الناس فى آخر الزمان تلاميذ إبليس وتلاميذ بلغام بن باعوراء ، وغير خاف عليك أن ذكر سورة الأفعال والتوبة بعد هذه السورة قد ظهر سره فافهم .

وملخص هذا كله أنه يقصد نصحنا نحن ، فأما إبليس وغيره فتلك أمثال لنا « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » فهنا نجات القوة الشهوية والقوة النضبية فى الأمم الإسلامية وانحطت عن الأم كما أنذر الله بهذه السورة وانصفت بما انصف به عاد من البطش ، وما انصف به قوم شعيب من تطفيف للكيال ومن اتباع الشهوات البهيمية كما جاء فى قوم لوط .

فهذه السورة إنذار للسليين الذين قد وقعوا فى جميع ما ذكر فيها ، وإنى مؤتمل أن هذا التفسير سيكون من اللذكريات والنهيات لهذه الأمم والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، وختمها بقوله « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته الخ » أى بخلاف إبليس الذى تكبر فلم يطع الله ، فاللائكة لا يستكبرون عن عبادة الله ولا يفعلون ما فعل إبليس من الكبرياء والامتناع عن السجود لآدم الذى هو عدم امتثال لأمر الله فاللائكة لا يستكبرون وله يسجدون بخلاف إبليس وتلاميذه من جميع الأمم التى ضلت بالبطش فى الأرض أو بالقوة الشهوية ، وكان حق هذه الأمم كلها أن يطيعوا ربهم كاللائكة ولا يعصون كما فعل إبليس ومن على شاكلته وذلك بعد أن أمر صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة بالله من الشيطان اللذكري فى أول السورة وبيان أن الذين اتفوا يتذكرون متى مسهم طائف من الشيطان ثلاثا يفرم نصحه كما غر آدم وحواء فى أول السورة وكما غر بلغام وأمته من جميع الأمم السابقة ؛ وبعد أن أمر هو أيضا أن يذكر ربه بالثناء والثناء ولا يكون طافلا فرجع آخر السورة إلى أولها ورد مجزها على صدرها وبيان كلها وجمالها والحمد لله رب العالمين .

[عقد منظم من جواهر هذه السورة]

فى الكلام على أن العذاب بانباع الشهوات وترك القوة العقلية
أكثره بالهلاك فى الدنيا قبل عذاب الآخرة

لقد اطلمت أيها اللذكري على ملخص هذه السورة وأنها تمثل القوى العقلية كلها ؛ فالشهووات البهيمية والقوى النضبية يكبهما ويضبطهما العقل والحكمة التى تتبع بهذا القرآن .

وها أنا ذا فى هذا العقد أبين لك أمرا محجبا ؛ ذلك أن عقاب الأمم يتبدى بالعذاب فى الدنيا .
ألا تنظر إلى قوم شعيب كيف أخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جامعين ؛ ولماذا أخذتهم ؛ أخذتهم لأنهم طففوا الكيال واليزان . وحينئذ يقال وما ضرر تطفيف الكيال واليزان فنقول : نعم إن انقوم إذا

فلوا ذلك أصبحوا مفرجين بأعمال السرّ وعادوا فيه ويستبيح زيد مال عمرز ويأخذ القويّ مال الضعيف
تضعف الأمة وتموت وإذن يكون هلاك الأمة حتا لازما .

ولما وصلت إلى هذا اللقاه جاءني أحد العلماء واطلع على هذا اللقال فقال أوضح هذا اللقاه وأيّ مناسبة
بين الكيال ولليزان وبين خراب الأمّ . فقلت له قد بينت وأوضح . فقال لو أن زيدا اشترى من عمرو
قطارا تمرا أو عبا أو تينا أو أردبا تمحا وعند الوزن أو الكيل زاد في وزنه وكيه رطلا أو قدحا فلماذا
حصل ؟ حصل أن مال عمرو انتقل منه جزء يسير إلى مال زيد خلسة بدون مقابل . فهل هذا يوجب أن
تبتلعهم الأرض ؟ قلت له إن الأمة إذا رسخت فيها هذه الأخلاق أصبحت فيها ملكة يأخذ الناس اللال بالحيلة
نارة والنصب نارة أخرى وبالسرقة والإكراه ناكثة وهكذا .

ولا جرم أن هذا الخلق يقبض الأيدي عن الكسب وتموت الأمة وتذل ويلحقها الهمار والبوار وهذا
عذابه يجعل في الدنيا أولاف الآخرة « وللعذاب الآخرة أشدّ وأبقى » قال وما منراه لهذه الأمة الإسلامية اليوم . قلت
إن الأمة الإسلامية اليوم قد فعلت أكثر ألف مرة مما فعلت تلك الأمّ ولذلك استحققت من الله أن يرسل لها
المدافع فتأخذها الرجفة كما جاء في أول السورة « وكم من قرية أهلكتها بنائها بأسنا بيانا أو هم قائلون »
فهاهي ذه الأمّ الإسلامية اليوم نائمة جاهلة مترسلة منتظرة في كل حين أن يأتي لها العذاب من الأمّ القوية
التابئة الفكرة ليلا أو نهارا كما في أول السورة . قال ماذا فعلت الأمّ الإسلامية ؟ قلت لم تعمل بما جاء في هذه
السورة . يقول الله « ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون » والشكر مستحيل
إلا بمعرفة النعمة والسلمون لم يقرءوا نعم الله التي على هذه الأرض فكيف يشكرونها . فقال هذا كلام غامض
فأوضحه . قلت :

مثل أمة الإسلام اليوم مع الله تعالى

إنما مثل أمة الإسلام اليوم مع ربها كمثل عبيد الملك أقطعهم حدائق وجنات فيها نخيل وأعناب ورمان
وتين وفاكهة مما يتخيرون وطير مما يشتهون . قال ثم ماذا ؟ قلت وأرسل لهم رسولا من عنده ومعه منشور
فيه [هذه حدائق لكم وهي ملككم ومن أخذ من حديقة جاره قطف عنب أو عذقا من تمر أو قبضة من
تين فإني آخذ منه حديقة وأعطيتها لغيره وربما أهلكته] فلما قرءوا هذا اللنشور اتبعوه مدة ثم بعد ذلك
أخذوا يلبون ويرتمون ويتركون حدائقهم ولا ينزلون إليها الماء ولا يسقونها ويكتفون بماء المطر فقيل لهم
لماذا تعملون ذلك ؟ فيقولون إن الله حرم علينا أن نأخذ مال غيرنا ولم يحرم علينا أن نترك زرعنا ولا أن نمنع
عنه الماء . فقيل لهم لقد أخطأتم إن من يأخذ من مال غيره معاقب مع وفرة المال عنده وعند غيره فيكون
من باب أولى إذا تركا معه تجمية المال . فإذا كان الله يعاقب قوما عندم مال على أن يأخذ أحدهم من الآخر
رطلا بطريق التطفيف فأولى ثم أولى إذا كان كل منهما لا مال عنده إلا قليلا وقد تركا حديقتهما فلم ينزلا لها
الماء فإن الحيران هنا أعمّ وأتمّ والعذاب يكون أعظم وأعظم لأنهم ضيعوا قناطر وقناطر . فقال وهل فعل
للسلمون ذلك ؟ قلت نعم . قال ولم ذلك ؟ قلت لأنهم ملكوا أرض الله في فلسطين وسوريا ومصر والعراق
والهند والصين والسودان وجية شمال أفريقية . وفي تلك البقاع أنواع اللعادن والنابات والأرض الحصبه
وللباه الجارية والكهرباه الخزونة واللنطيس الكامن في اللعادن بالاستعداد والقهم الخزون
للناس والبتروا .

وهناك من النعم ما لا يحصى . ترك هذا كله للسلمون وناموا فسألتك بالله أيها الفاضل قل لي : هل خلق
الله هذه الخازن لنفسه ؟ قال لا . قلت إذن لمن هي ؟ قال لعباده . قلت هؤلاء هم للسلمون عباده وقد سلمهم
مفاتيح أرضه وقال لهم : من ظلم منكم عذّبه في الدنيا والآخرة فرأيناهم جميعا تركوا عقولهم ومواهبهم

وأرضهم وناموا . فقل لى بربك أيهما أشدّ خسارة وضرراً ؟ . رطل عنب وقدر برّ في التطفيف المذكور في قصة شعيب ، أم آلاف آلاف من النعم العظيمة من الفاكهة والحب وغيرها ومن الفحم في الأرض ؟ . قال بل الأمر هنا أعظم لأن رطل العنب أو قدر البرّ خرج من زيد إلى عمرو ، والناس عندهم مال ، أما هنا فعناه أن الآلاف والآلاف قد خسرها الناس . قلت حينئذ يكون مغزى هذه السورة أن للسليين إذا تركوا نعم الله في الأرض تعاقبهم الأمم وتأخذ منهم أرضهم أو تهلكهم وتبيد هم .

قال وهل هذا يوافق آراء علماء الإسلام ؟ قلت عجبا ، أليس هذا كقوله تعالى « ولا تقل لها أف » فالولد نعمى أن يقول لوالديه « أف » قال العلماء إن الضرب يكون محرما من باب أولى فهنا يقال فلماذا كان رطل عنب أخذه رجل من آخر في الإسلام ظلما بوجب ذلك بتكراره وشيوعه عذاب الأئمة في الدنيا فمن باب أولى إذا قعدوا جميعا عن زرع أرضهم فالخسران هنا أشدّ .

يا سبحان الله كل هذه القصص القرآنية رتب فيها خراب الأمم على تفصيرهم في حفظ نظامهم . إذن القرآن يأمرنا بنظام الأئمة .

ومن عجب أن يكون أكثر العذاب المذكور في القرآن دنيويا ويتبعه الأخروي والوعاظ في الإسلام لا يوضحون هذا بل هم لا يملكون . قال فهل نص العلماء على ما تقول ؟ . قلت قد أوضحت في هذا التفسير في غير موضع أن فروض الكفایات متى تركها المسلمون آثموا . وفروض الكفایات لنظام الأئمة وما تحتاجه في معاشها فما قلته الآن داخل في ضمن هذا الموضوع وقد أوضحته في سورة اللائدة عند مسألة الغراب وابن آدم فارجع إليه إن شئت . فقال :

الحمد لله الذي نعمته تمّ الصالحات ، والحمد لله رب العالمين . انتهى تفسير سورة الأعراف .

تم بحمد الله وحسن توفيقه : الجزء الرابع من [الجواهر في تفسير القرآن الكريم]
ويليه

الجزء الخامس ، وأوله : تفسير سورة الأنفال

فهرست

الجزء الرابع من تفسير الجواهر

- صفحة
- ٢ تفسير سورة الأنعام ، وأنها ست مقاصد .
- ٣ التقصد الأول من قوله تعالى « الحمد لله الذى خلق - إلى قوله - ماتكسبون » وتفسير ذلك لفظيا وتبريع من لا يفكرون في ترتيب هذه العجائب في الآية مع أن القديما بينوا ذلك في الضوء مثلا .
- ٤ مناسبة هذه السورة لما قبلها بأمر : مثل أن اختتام المائدة بملك السموات والأرض الخ وكذلك ابتداء سورة الأنعام ، ومثل خلق الطير من طين في المائدة وخلق الإنسان منه في الأنعام وهكذا .
- ٥ تشبيه الليل والتهار والعالم بستائر سود وبيض الخ في قصر مشيد .
- ٦ إيضاح هذا القصر في التشبيه ، شرح ألوان الشمس السبعة التى جعلت ستر واحد ، وبيان أن جهل هذه العلوم معناه عدم شكر المسلمين لربهم على نعمه التى لا تحصى .
- ٧ إعراب هذه الجملة في الآية ، والقسم الجبرى والعظمى والنبأى وخم للموجبات والتور بشتق من هذه الظلمات .
- ٨ كيف كان غاز الاستصباح إنما يخرج من الفحم بعد تنقيته بعمليات هائلة ، وكيف كان اللاس والفحم مادة واحدة ، وكيف جهل المسلمون هذه النعم فإذا نكروا على المجهول .
- ٩ الآية الثانية والثالثة « هو الذى خلقكم من طين الخ » وبيان أن تركيب جسم الإنسان من عناصر لا تنقل فانتظمت فكان العقل فى الرأس أعلاها وقوة العصب فى القلب أوسطها والقوة الشهوية أدناها من المعدة والأمعاء الخ .
- ١٠ بيان أن من يفعل ذلك النظام لا يخادع فهو يعلم السر ، وبيان عجائب القرآن فى العلوم الحديثة .
- ١١ الأثير يكون حرارة وضوا وحركة وكهرباء ، وهذه يتقلب بعضها على بعض ، والسكلام على أحوال المادة الثلاث وأن الماء إذا صار بخارا يكون أكبر حجما ٧٠٠ مرة ، والاختلاف أكثره فى الكثيف ، وبيان أن السموات خلقت قبل الأرض فى العلم الحديث كترتيب الآية . وبيان أن ظلمة الأرض إنما جاءت بعد تسكون قشرتها ، وبيان أن قشرة الأرض تبلغ مائة كيلومتر وكل ثلاثين مترا ترتفع الحرارة درجة وأن الطبقات ٣٦ والمصور ستة ، والسكلام على السحب التى تمطر ذبا وفضة وبقية المادن .
- ١٣ الجبال أسنان الأرض نبتت من الطبقة الصوتانية ، والسكلام على السكرة الأرضية والسكرة النارية بها وأن قشرتها كقشرة البطيخة والبيضة والتفاحة ثم الأرضون التى خلقها الله كلها كأرضنا ويظن أنها ثلثائة مليون أرض وهى مختلفة اضطرابا وثباتا .
- ١٤ أقصى درجة البرودة ٢٧٣ درجة تحت الصفر والحرارة لانطم نهايتها ، وبالقله والسكره فهما كانت عوالم لامتنهى لها ، أصل كل شئ النور ، قطعة الكربون نحتاج فى تفريق كربونها من أكسوجينها إلى ١٣٠٠ درجة ، ارتفاع الأرواح فى عالم النور ، وستر قوله تعالى « الله نور السموات والأرض » وكيف كان الإنسان يسمى ليخرج من الظلمات إلى النور ، وكيف أظهر الكشف الحديث هذا كله .

- ١٥ الإنسان مضيء وهو في هذا الجسد كما جاء في صحيفة الساتان الفرنسية سنة ١٩٢٤ وذلك في تنويم الوسيط الإيطالي للشهور (ابرنو) ، ارتقاء الإنسان بعد اللوت في درجات الكمال إلى أن يكون مع لللائكة النوريين من نفس القرآن ، كلام الفخر الرازي في تفسير « والنازعات » استشهادا على ما تقدم ، أي أن الإنسان يرتقى إلى أن يكون مدبرا للكائنات ملحقا باللائكة ، مراتب الأرواح في العلم الحديث مذكورة كما ذكره الرازي ، واستدل أيضا برؤيا الأحياء للأموات وتصدق الرؤيا .
- ١٨ اعتراض على المؤلف وجوابه ، وتفصيل الكلام على قوله تعالى « وجعل الظلمات والنور » بذكر سلسلة الخلوقات الأرضية من ابتداء كون الأرض كرة نارية إلى أن يصل الخلق إلى أعلاه .
- تفصيل طبقات الأرض الستة ثم تسلسل العوالم من الخليفة الأولى إلى الإنسان إلى العوالم الأخرى فهي ٣٠ مرتبة . بقية هذه التفسيات من كون الجنين خلية فسمكة فذبابة فقردا فإنسانا الخ .
- ٢١ القسم الثاني « وما تأتيهم من آيات من آيات ربهم - إلى قوله - وهو الحكيم الخبير » مضبوطا بالشكل .
- ٢٤ تفسير هذه الآيات تفسيراً لفظياً ، وفيه :
- ٢٥ الفصل الأول في الرد على دعوى الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم أن يتخذ ولياً من معبودات العرب .
- ٢٨ الفصل الثاني في طلب الكفار الآيات عنادا ، وتفسير ذلك لفظياً .
- ٣١ الفصل الثالث في أقواله صلى الله عليه وسلم مع للتواضعين .
- ٣٢ الفصل الرابع في معاملة رسول الله صلى الله عليه وسلم للفقراء من المؤمنين وأمر الله له بإكرامهم .
- ٣٣ الكلام على الفريقين : الكافرين والمؤمنين .
- ٣٤ الفصل الخامس في ذكر نتيجة ما تقدم في الفصول السابقة على سبيل اللب والنشر للرب .
- ٣٥ الفصل السادس في شرح عام لما تقدم كله وهو تفسير « وعنده مفاتيح الغيب لا يطلعها إلا هو الخ » .
- ٣٧ اللقائم الثاني في قوله تعالى « وهو الذي يتوكل بالليل الخ » وتفسيرها لفظياً .
- ٣٨ اللقائم الثالث من هذا الفصل في قوله تعالى « وهو القاهر فوق عباده الخ » .
- اللقائم الرابع في هذا الفصل : نسيان الناس لمهودم إذا أُجيب دعاؤهم .
- ٣٩ اللقائم الخامس « قل هو القادر على أن يبحث عليكم عذابا الخ » . اللقائم السادس « وكذب به قومك الخ » .
- ٤٠ تفسير قوله تعالى « وإما ينسبك الشيطان الخ » .
- ٤١ اللطائف الستة وذكرها إجمالاً . اللطيفة الأولى أقصر عليك أيها الذي نبأ ما كنت أزاوله في أول حياتي وأنا مجاور بالجامع الأزهر الشريف .
- ٤٢ اللطيفة الثانية في سؤال قريته له : هل للعالم آخر ؟ وكيف كان المؤلف بيت ساهرا يتأمل ويحدث صوت الحزن من نساء قريته رقة في قلبه وحزنا على أنه جاهل بجم هذه النجوم ومجائبها .
- اللطيفة الثالثة في قوله تعالى « ولو جئنا ملكاً لجعلناه رجلاً » وكيف ظهر هذا في التنويم للطناطيس .
- ٤٣ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى « كتب ربكم على نفسه الرحمة - وله مسكن في الليل والنهار » ويان أن العالم كله متحرك ولكن من شدة الإحكام والإنقان يرى ساكناً وهذا ما تشير إليه الآية .
- اللطيفة الخامسة « وهو القاهر فوق عباده الخ » ويان قهر المرأة والناقاة والمساجبة والحمامة الخ وأن الناس مسخرون ويجهلون ذلك .
- ٤٤ تدريس الأشكال في الثلج وفي بيوت النحل ، والكلام على العناصر للتشابهة والتي لاتشابه بينها ؛ فالثانية تكون مركباتها أشد مخالفة لعناصرها من مركبات الأولى لأصولها .

- ٤٤ بيان اللطيفة السادسة وأن للؤلؤف كان أيام عطلة يخرج من بين البيوت ويجلس مفكرا في أمر النجوم والأم والدول .
- ٤٦ حكاية الإنسان والحيوان وذكر أنه رأى ليلة حيوانا مسرعا كشتب جبل بخاطره غرائز الحيوان .
المدأة تخاطبني قائلة : قد سخر لي ما في السموات وما في الأرض .
- ٤٧ نظرى في الحقول ومحدثى مع فلاح وإجابة امرأة وذلك في مسألة الحيوان المسمى (أبذنية) وكيف كان أصلا للضفدعة .
- ٤٨ ذكر عجائب الحيوان وبناء القروود قنطرة على النهر . الكلب فضائله .
كلب البحر يبنى السد على النهر .
- ٤٩ العجبية الرابعة : الكلب الذى يسمى الدرؤاس ، وكيف نجى كلبا آخر من الترق بذكاء عجيب .
القرود وتغله في مسألة (أبى فروة) والقط وكيف كشف القرود للسمى (شانبزاه) فتح الأفتال بأعجوبة ، وكيف أزال الدب السم الذى كان على الأقراس التى رميت له . شفقة الثريان والحيل وكيف أطعمت الثريان رفيقها الأعمى . ثم الطائر الهندى الذى يبنى بزخرف قصورا ، وهل للحيوان لغات ؟ والكلام على الزنبور ، وهل للحيوان أرواح باقية كما يظنون ؟ ذكاء الجرذان ونظامها ، وكيف تربى الأقوياء منها الضعفاء وتشفق عليها حتى إذا سمعت أخذت تأكلها .
- ٥٢ اللطيفة السابعة « وعنده مفاتيح النيب .
- ٥٣ الأب غبريال الإيطالى يقول : إنه عرف للعواصف والسيول قوانين وهناك عالمان قد صوروا حركات القلب والرتين والعدة وسائر أعضاء الجسم ، والدكتور (بازسكر) الروسى اخترع آلة بها يحرف المجرم من غيره في السجن ويقول إن للمخ (٧٨) حلبة ، وهل هذا علم النيب الخ ؟
- ٥٤ مفاتيح العلوم في هذه السورة تنقسم إلى قسمين : قسم علوم السموات ، ومفاتيح العلوم في العالم الأرضى .
القصد الثانى وفيه المفتاح السماوى « وإذ قال إبراهيم - إلى قوله تعالى - ما كنتم تزعمون » والتفسير اللفظى لهذا القصد .
- ٥٩ لطائف هذه الآيات أربعة : اللطيفة الأولى ، والكلام على الصابئة ونحو ذلك .
- ٦٠ الأمم الجرمانية يقولون إن لفظة النور شائعة هي ومشتقاتها في اللغات المختلفة . والكلام على الكواكب السبعة عند الصابئين .
- ٦١ مجادلات الحليل إبراهيم عليه السلام مع قومه وكسره الأمانم . وذكر أن الصابئين لا يقرون بأنبياء وحكمة هذه البيانات . والكلام على الروايات التى وضعا الناس في هذا اللقام تنويرا لا تقول . والكلام على جمهورية أفلاطون والثل الذى ضربه . للثل الأفلاطونية .
- ٦٣ الفصل الخامس في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في غار حراء وكلام (هنرى) الفرنسى فيه .
- ٦٤ الكلام على قوله تعالى « فهداهم اقتده » وهؤلاء الأنبياء لهم منايأ فعلى للسليمن أن يتصفوا بها عملا اقتداء كما أمرنا بذلك في نفس الآية .
- اللطيفة الثالثة « يحملونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا الخ » ويان أن ما حصل من اليهود حصل من السليمن تصيرا وصورا فقد أحرقوا الكتب وكرهوا العلوم شرقا وغربا فسلط عليهم جنكيزخان شرقا وملوك الأسيان غربا فأزالوا دولهم كما أزيلت دولة اليهود أيام النبوة ، وهكذا جهل الترك الخ

- ٦٤ ذكر محاورات دارت بين المؤلف وصديق له بغالطه في ذلك . والكلام على جمهورية أفلاطون للمؤلف قبل المسيح بأربعة قرون .
- ٦٥ فصل في محاورات بيني وبين أحد الفضلاء .
- ٧٠ كيف قصر المسلمون ونبغ الترييون في القرون الأخيرة وفلاسفتهم الأقدمون تلاميذ علماء الإسلام بالأندلس كما هم به معترفون .
- العلامة (سديو) الفرنسي يكذب كثيرا من علماء الفرنجة في دعواهم كشف بعض العلوم .
 محيبتان [الأولى] منظار للبحث في القمر [الثانية] خريطة السموات . قطرة من بحر من ملكوت السموات والأرض الذي أراه الله لإبراهيم عليه السلام . والكلام على الكوكب والقمر والشمس للذكوريات في هذه القصة وتقسيم الكواكب إلى ثوابت وسيارات . ويان صور الثوابت وأنها (٤٨) صورة وتفصيلها تفصيلا تاما .
- ٧١ أنواع النجوم ونجوم مضاعفة ومزدوجة والقنوت والسداء والمجرة ، والكلام على أن الشمس مركز العالم .
- ٧٢ السيارات وأوصافها والكلام على عطارد والزهراء والأرض ومحيطها وأعلى جبالها الخ وأوصاف الريح وحجمه وقراء والمشتري وحجمه وصورته الشمسية مرسومة وأقماره التسعة التي كشف بعضها قريبا ، وزحل والكلام على أوصافه وأقماره العشرة ورسم صورته الشمسية وحلقاته ظاهرة ونبتون وأوصافه وأقماره الأربعة . وهناك سيارات صغيرة . والكلام على ذوات الأذنان وأنها تزيد عن (٨٠٠) وربما ستزيد في المستقبل عن ملايين ومنها (هالي) تدور في (٧٦) سنة دورة وأخرى في (٣) سنين تقريبا وأخرى في (٣٠) قرنا دورة واحدة ، وأخرى لا ترجع البتة .
- ٧٦ صورة شكل ذات ذنب ترجع بعد (٣٠) قرنا . الحجارة الجوية والشهب . الكلام على القمر وأجاده وأوصافه .
- ٧٧ الكلام على الشمس وأوصافها . نسبة ضوء القمر إلى ضوء الشمس وإلى ضوء السماء الرامح . مشابهة تلك النسب الضوئية في الشمس والكواكب إلى اختلاف عقول الناس في العلم والحكمة .
- ٧٩ آراء سائر العلماء وجميع العامة في أمة الإسلام . إن النظر سطحي كمنظر البهائم والجهلاء والسذج اللطيفة الراجعة « ولو ترى إذ الظالمون في غمرات اللوت ولللائكة بأسطو أيديهم الخ » . ملخص ما نقل عن الأرواح في حال اللوت في الجميات النفسية . للتصد الثالث « إن الله فالق الحب والنوى » .
- ٨١ بيان إخراج الحى من الليث ، وكيف كانت هناك حيوانات تتصاعد مع الأبخرة الخ .
 تفسير قوله تعالى « فائق الإصباح الخ » وموازنة كلام العلامة (سقراط) بما في هذا اللقاه ، وذكر خمس لطائف : عجائب النور وغرائبها ، وأن النور والصوت والحرارة والكهرباء ماهى لإحركات في الجوى .
- ٨٣ حواسنا عليها قليل لا نعرف ما بعد اللون البنفسجى . أعمال الضوء إدارة العالم الأرضى .
- ٨٦ التبادل بين الحيوان والنبات .
 زيادة إيضاح . كيف يتكون الحيوان فالمعظم من السادن والضلات من التروجين الخ .
 ورقة شجرة فيها ألف فتحة . الجنود وعجائبها وأنها تخرب الأبنية .

- ٨٧ لطيفة في قوله تعالى « فالحق الإسباح » وبيان أن أهل الأقطار الثلجية يرون شققا جميلا بهجا، وتلك الأضواء تتلألأ على الثلوج فيحدث ضوء بهيج وإشراق بديع يسر الناظرين .
- ٨٨ اللطيفة الثالثة « وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها الخ » .
- ٨٨ أبعاد الكواكب قد يبلغ بعد بعضها عنا ٢٠ ألف سنة نورية ، والكلام على أقدار الكواكب وهي ٢٠ بعدها (٧٦) ألف ألف كوكب ، وأن هناك سديم يعد عنا (٥٦) ألف ألف سنة نورية .
- ٨٩ اللطيفة الرابعة « هو الذي أنزل من السماء ماء » . الكلام على الثلج وهناك يحصل أنواع من المناظر العجيبة المنعكسة على الثلج . الثلج المسهل للسير وهو في بلاد لابونيا وسيبيريا والمسكوف .
- ٩٠ اختفاء النبات في الثلج ثم ظهوره بعد الذوبان بشكل عجيب . ألوان ماء البحر . يظهر في البحر بين الدارين أنوار كأوار الكواكب .
- ٩١ المياه المعدنية وهي كبريتية وغازية وحديدية الخ .
- « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » وبيان أن هذا أصل عظيم لعم النبات والكأس والتوزيع واختلافها كل ذلك يتنوع على حسب تنوع النبات .
- ٩٢ عجائب البرز فهو يكون بزره وزيد في رأس الخشخاش (٣٣) ألف بزره ، وبيان اختلاف الماء في كيفية تقسيم النبات وتوزيع المؤلف أمة الإسلام لنومها عن هذه العلوم التي أمر بها الله هنا فقال : « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه » ورسم الزهرة بالتصوير الشمسي .
- ٩٤ أشكال هندسية مرسومة بالتصوير الشمسي تبين صور الطلع : أي الجيوب الدقيقة .
- ٩٥ المقصد الرابع « وجعلوا له شركاء - إلى قوله - إنه لا يفلح الظالمون » التفسير المفصل لهذه الآيات .
- ١٠٥ لطائف ستة : اللطيفة الأولى والخامسة في قوله « وكلهم الموتى » وفي قوله « يا معشر الجن والإنس » عجائب القرآن ومعجزاته في هذا الزمان .
- ١٠٦ مناجاة الأرواح .
- ١٠٧ اللطيفة الثانية « وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدوا شياطين الإنس والجن الخ » .
- ١٠٨ إن ما كشف من الكواكب وغيرها عدّة لمستقبلنا بعد الموت لتفرح به أرواحنا هناك .
- اللطيفة الثالثة « وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك الخ » وبيان أن بني آدم مسوقون برؤسائهم في الدين والدنيا ولو كانوا محطّين ، وأن للذاهب الإسلامية تنبج بالتوارث .
- ١٠٩ اللطيفة الرابعة في قوله تعالى « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها » . اللطيفة السادسة في قوله « إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء » وبيان أن بعض مشايخ الطرق وبعض العلماء والأمرء في الإسلام يكونون آفات الأمم الإسلامية الخ . المقصد الخامس « وجعلوا له مآفرا من الحرث » إلى « يعدلون » .
- ١١١ تفسير هذه الآيات .
- ١١٢ الكلام على الزرع والشجر للبسوط على الأرض كالقرع أو على المرش كالعنب وغير للبسوط كالنخل وعجائب النبات وأن أغلبه ما يرى بالمنظار كالطحلب والفونيات فهي أشجار وجنات .
- ١١٣ بقية تفسير الآيات وهو قوله « والنخل والزرع الخ » والكلام على الإبل والبقر والتمن ، والكلام على غمانية الأزواج .

- ١١٤ ذكر ما حرم على اليهود .
- ١١٥ الكلام على قوله تعالى « وقال الدين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا الخ » .
- ١١٧ عجائب النخلة ، ولم كان عليها ليف فهو كالمتر ؟ .
- ١١٨ حديثي مع فلاح مصري ذكى الفؤاد . وذلك في زهرة القطن وعود الليرة وإقاعه الخ .
- ولم كان للإنسان معدة واحدة وللبقرة والجاموس مثلا أربع معدات ؟ . وبيان ذلك بالرسم موضعا .
- ١٢١ للفصد السادس « قل تعالوا أتت ما حرم ربكم عليكم » إلى « وإنه لنفور رحيم » .
- ١٢٣ تفسير هذه الآيات .
- ١٢٥ عجيبة من عجائب القرآن في هذه الآيات ، وهي « هل ينظرون إلا أن تأتيهم لللائكة الخ » .
- ١٢٦ أهلك فرديناند وايزبلا مسلى الأندلس ، ولا يزال للسلمون غافلين ولكن قد تنبه بعضهم .
- ١٢٧ بيان عموم القرآن .
- ١٢٨ اعتراض على المؤلف وجوابه بما في الحديث الشريف ، ورأى المفسر أن سبب ذلك للسلمين جهلهم والجهل جاء من رؤساء الدين فهم لم يفهموا الشعب أن الدين يشمل سائر العلوم .
- ١٢٩ بيان ما في أحاديث الصحيحين في تفسير « أو يأتي بعض آيات ربك » كالحسف والدجال وطلوع الشمس من مغربها .
- ١٣٢ تفسير سورة الأعراف وتقسيمها إلى تسعة أقسام .
- ١٣٣ مقدمة تبين ارتباط سورة الأعراف بما قبلها وأنها شارحة لما في آخر سورة الأنعام .
- ١٣٤ بيان موازنة أول سورة الأعراف بأوائل السور للناضية كلها ، وأن هذا إنذار يفضى إلى حرج .
- القرآن ونهر النيل فإذا لم تكن سدود للنيل لا ينتفع للمصري به للزرع هكذا القرآن واستنتج الله نفسه من القصة ليعلمنا فهم القرآن وفهم الحياة كلها .
- ١٣٦ للفصد الأول . قوله تعالى « للمس » إلى قوله « تشكرون » والتفسير اللفظي لهذا للفصد .
- ١٣٧ كيف يقول للسلمون اليوم « إنا ظالمون » حين يرون العذاب محيطا بهم مصداقا لهذه الآية .
- ١٣٨ الوزن الحق يوم القيامة مشاهد نظيره في الدنيا فمن قرأ العلوم الفلكية والكيمية فهم وزن الله ، والدين لا يعلمون ضربت لهم الأمثال في الأحاديث المذكورة .
- ١٣٩ للفصد الثاني « ولقد خلقناكم » إلى قوله « ونخرجون » .
- ١٤٠ التفسير اللفظي .
- ١٤١ حجج إبليس وأنها سفسطة .
- ١٤٣ أهل الأرض الآن في الشرق والغرب لم حجج في ذنوبهم وفي سياستهم كحجج إبليس السفسطية .
- ١٤٤ تفصيل الخداع لأنفس الناس في الأرض .
- ١٤٥ للفصد الثالث « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا - إلى قوله - لقوم يؤمنون » .
- ١٤٧ التفسير اللفظي لهذا القسم .
- هنا ذكر الله تأنيج الأصول الثلاثة في هذه القصة ، وهي اللباس والإغواء والحجة الداحضة .
- ١٤٩ الكلام على الأكل والشرب واللباس والإسراف في ذلك ، وأن للسلمين لما أسرفوا سلط الله عليهم الأمم إسراف بعض ملوك الإسلام في عصرنا .

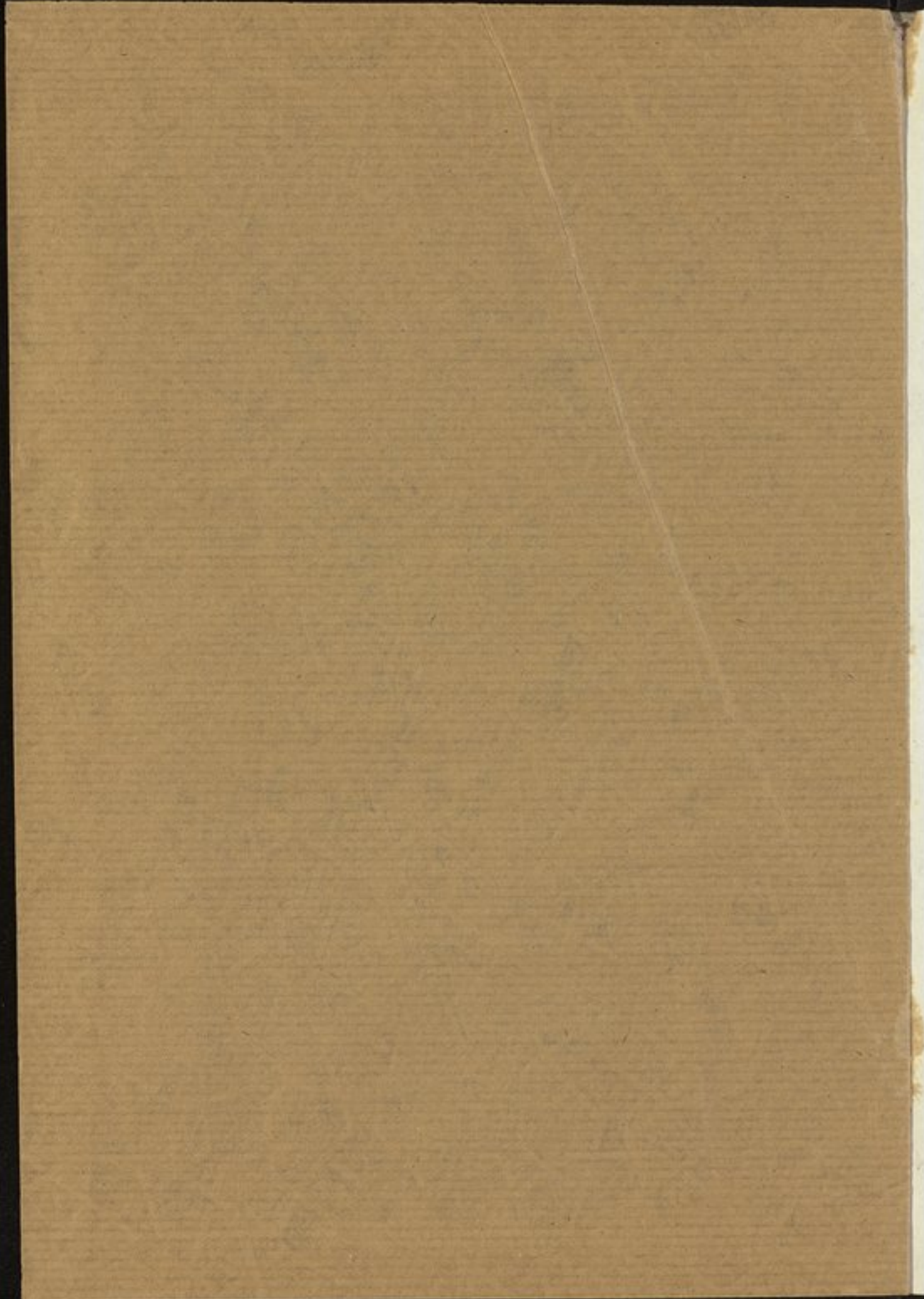
- ١٥١ بيان ما حرم الله في تفسير الآيات السابقة والاستمرار في تفسير الآيات المذكورة .
- ١٥٤ لطيفة في قوله تعالى « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد الخ » .
- ١٥٥ تبيان أن علم الصحة واجب معرفته كالوضوء وما أشبه ذلك .
نبذة صالحة في علم الصحة لوقاية أجسامنا من الأمراض .
- ١٥٦ خواص الحرير والقطن والجلد وبيان المأكول من الزبدة والبقول المختلفة .
فوائد عامة في اللابس والمأكول والزبدة والبقول .
- ١٥٧ الحضر . التوابل . الأغذية الخ .
- ١٥٨ نقيية الماء وطرقه ثلاث : نوى الشمس . الترشيح وأدوات الرشح . إغلاء الماء .
- ١٥٩ فوائد صحية . وبيان أن أسباب نقل المرض ، ثلاثة : إما بالباشرة . وإما بواسطة الماء . وإما بواسطة الحشرات . وبيان مرض البول السموى (البلهارسيا) ومرض الضعف العام (الانكلستوما) .
- ١٦٠ الحشرات قبان : ضارّ ونافع .
- ١٦١ الصراصير وإحداثها السرطان .
- ١٦٢ منظومة متممة في شروط الصحة .
- ١٦٣ إتمام الكلام على الحشرات الضارة والنافعة ، وأن الله تكفل بالضارة وأرشدنا إلى أن تكفل بالنافعة لنا .
- المقصد الرابع « هله ينظرون إلا تأويله - إلى قوله - لقوم يشكرون » .
- ١٦٤ تفسيره اللفظي .
- ١٦٥ بقية التفسير اللفظي ، والكلام على لفظ (يوم) في علوم البابليين والأشوريين وتمهقير الاعتدالين عندهم
- ١٦٦ الكلام على عشر لطائف .
- ١٦٧ الوزن والليزان ، وتنفس الأرض
- ١٦٨ اللطيفة الرابعة « يا بني آدم قد أنزلنا الخ - وأيضاً قوله تعالى - وكلوا واشربوا » .
حكاية العالم الصينى لما قابل المؤلف .
- ١٦٩ رأى للفسر . عجائب الجذور الأرضية النباتية .
- إيضاح قوله تعالى « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم الخ » . ذكرى أيام الشباب وطلب العلم وصلاة المؤلف ليلاً وصيامه نهاراً وهو يطلب حقيقة هذا العالم في الحقول ، وكيف دهش المؤلف إذ رأى أن ما كان يفسر فيه في بلاد الفلاحين بلا علم هو نفسه الذى ارتقت به أوروبا وأمريكا وتجب هو كيف كان للسلون محرومين من نفس دينهم الذى هو نفس تلك العلوم . جلد الحيوان وريشه وقطن الإنسان . وكيف كان هذا أعظم حكمة .
- ١٧٢ بيان معنى قوله تعالى « ولقد مكناكم فى الأرض » وكيف كانت دلائل وجود الأرواح فى الأجساد هى الحركات والحس ، ودلائل مبدع الكون لا تنتهى .
- ١٧٣ الكلام على الهيكل الإنسانى إجمالاً وتشبيهه بالآلات البخارية . ما شرائط كونك صحيح الجسم وسعيداً ؟
- ١٧٤ نوح الله لنا الأغذية لأجل تنوع أمضائنا .

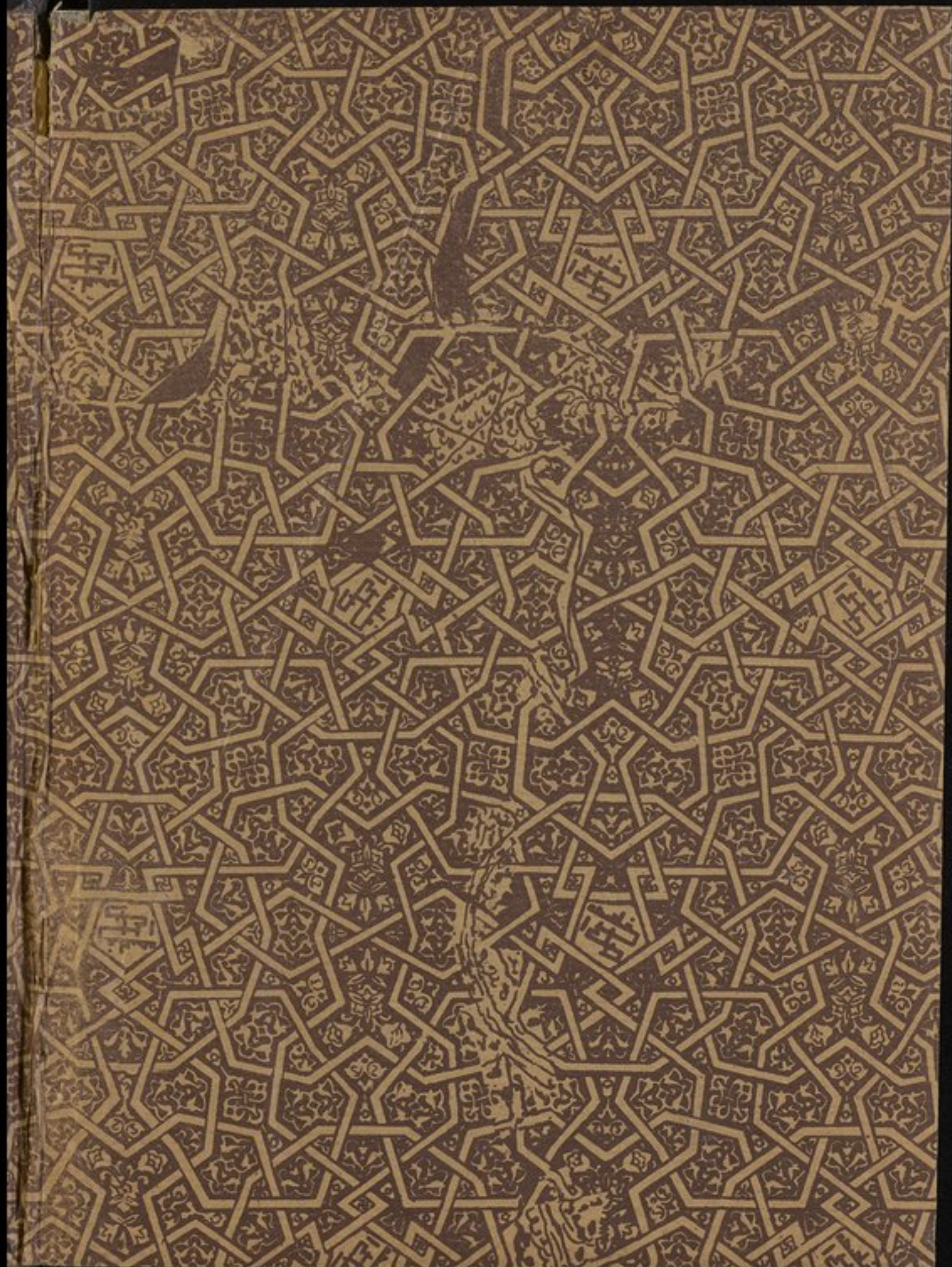
- ١٧٤ مناقضات الصحة (الطباقي) وهو المروف بالدخان ، مضارته العديدة وعقوباته الوجيمة .
- ١٧٥ يلحق بالدخان الأيون والحشيش والكافور وأمثاله .
اللطيفة الخامسة قوله تعالى « كما بدأكم تمودون » .
الخطأ في إملاء ديكنس بد مونه مصداق للقرآن .
- ١٧٦ اللطيفة السادسة .
- ١٧٧ اللطيفة السابعة والثامنة في أن حجب الناس عن اللقائم العالية من استمداد الخ ، وكلام الأرواح .
- ١٧٨ اللطيفة التاسعة في أصحاب الأعراف ، وفي قوله تعالى « إن ربكم الله الذي خلق السموات الخ » . ومطابقة العلم الحديث للحديث النبوي الشريف .
- ١٧٩ عجيبة في قوله تعالى « وهو الذي يرسل الرياح بشرا » وكيف تهب الرياح في قارة آسيا وقارة استراليا وصيف كل منهما شتاء للأخرى فيهب الريح من القارة الباردة زمن شتائها إلى الحارة زمن صيفها في وقت واحد وينعكس الحال بعد ستة أشهر . فسبحان مدبر الكون ومبدعه .
- ١٨١ إن أهل العلم في أرضنا يملون الاشتراك في الصالح لجميع أهل الأرض ولكنهم عند العمل يجمعون لنقص الإنسانية .
- ١٨٢ الأمة الإسلامية هي خير الأمم في المستقبل إذا تحلت كالأمم وعلتهم الانضاح العام لأنهم رحمة للعالمين بالبراث عن نبينا صلى الله عليه وسلم . وقد ألف للفسر كتاب [ابن الإنسان] لهذا المعنى وقرظه الأورويون .
- ١٨٣ ذكر خطبة (طاغور الهندي) في هذا المعنى والقرآن يوافقه
سر « المس - سر - الم » في سورة البقرة وآل عمران وسرها هنا . وهذا هو السر الذي ظهر في هذا الزمان .
- ١٨٥ القسم الثاني من السورة « لقد أرسلنا نوحا - إلى قوله - عجين » والتفسير اللفظي لهذا القسم .
- ١٨٧ القسم الثالث والرابع من سورة الأعراف من قوله « وإلى عاد - إلى قوله - الناصحين » .
- ١٨٨ الكلام على المعاليق وعاد وتمود وإرم ودولة اللادين والكلدان والأشوريين والميين باليمن .
- ١٨٩ آراء البرحوم صديقتنا الفاضل (كمال بك) إذ كشف أن لغة العرب هي فرع من لغة قدماء المصريين كشف الأمم العربية القديمة في هذه الأيام .
- ١٩٠ كشف علماء ألمانيا والإنجليز والفرنسيين وكشفهم مدينة ظفار باليمن ومدينة معين وسد انعم ومدينة مأرب .
- عدد النقوش نحو ألفين نشرت في أوروبا بعد أخذها بالقوتوغراف من بلاد اليمن ، وللملوك نأمجون التفسير اللفظي لهذه الآيات . مقصود القصة في هذا الزمان .
- ١٩٣ اعتراض على المؤلف وحواه ، وأن القرآن النزل بالصدق أولى باعتراف الحكمة ، وأن هنا هو أسلوب الله تعالى في أول هذه السورة .
- ١٩٥ الأطباء وبعض رجال الدين ورجال السياسة .
- ١٩٦ القسم الخامس « ولوطا إذ قال لقومه - إلى قوله - عاقبة المجرمين » .

- ١٩٧ التفسير اللفظي لهذا القسم .
- القسم السادس « وإلى مدين - إلى قوله قوم كافرين » .
- ١٩٨ التفسير اللفظي .
- ١٩٩ تطبيق ما جاء في قصة مدين وقوم لوط وعاد وعمود على حال المسلمين اليوم ؛ فإن قلب الحقائق في بلاد الشرق واستظلالهم بظل الأم الترية يشبه قصة هؤلاء القوم .
- ٢٠٠ القسم السابع « وما أرسلنا في قرية من نبي - إلى قوله - لفاقين » .
- ٢٠١ بيان أن هذا القسم درس عام على ما تقدم وأن المسلمين اليوم ليسوا في أمان كما جاء في الآية لجهلهم بهذا الوجود وما أبدع الله فيه من عجائب .
- ٢٠٢ تفسير بعض ألفاظ هذا القسم .
- القسم الثامن « ثم بثنا من بدم موسى - إلى قوله - ولعلهم يرجعون » .
- بيان أن هذه الآيات دالة على المجلس النبوي (البرلمان) عند المصريين .
- ٢١٠ هنا نص ماني التوراة في مسألة اليد والصا والضفادع الخ . وبقية التفسير اللفظي للقسم الثامن .
- ٢١٢ للصابب التي صبت على المسلمين بالأندلس أشبه بما وقع لفرعون وقومه وكلاهما لم يزدجر فزال ملكهما والأم التي اعتبرت نصرت مثل دولة (بولونيا) واليونان والبلنار والصرب والجبل الأسود وبلادالروسيا والترك حديثا .
- ٢١٤ بتفرق القائد في الأمة المصرية القديمة قهرم قبير ملك الفرس هكذا تفرق المسلمون لحل بعضهم النبل .
- تسعة أنواع من معاصي بني إسرائيل ، وبيان نصر الله للمخلصين كما نصر موسى .
- ٢١٦ تفسير قوله تعالى « وقال موسى لأخيه هارون الخ » .
- ٢١٧ ملخص الوسايا التي تلقاها سيدنا موسى عليه السلام من ربه على الجبل منقولة من التوراة .
- ٢١٨ تفسير قوله تعالى « سأصرف عن آياتي الخ » .
- ٢١٩ ما جاء في التوراة من أخذ الألواح .
- ٢٢٠ اتخاذ السبل وعبادته وأن صوته كصوت السيارات اليوم .
- ٢٢١ البحث السادس قوله تعالى « واختار موسى قومه سبطين رجلا » وتفسير ألفاظه .
- ٢٢٢ بيان سعة رحمة الله لكل شيء وأن أكثر ما نرى من الآلام إنما يوجه لترقية المهتم وتكبير الأجسام والمقول كالجوع بحث على الطعام وكالتدم لأجل الإقلاع عن المصيبة والظلم .
- البحث السابع « فسأ كتبها للذين يتقون » وإيضاح مقام الرحمة .
- لم خلق الإنسان وهو في آلام وذنوب وظلمات وما قادتته من الوجود .
- ٢٢٤ إيضاح هذا اللقاه وأن الناس في هذه الأرض كأطفال في مدارس يتعلمون ثم يرتقون بعد الموت على مقدار استمدادهم .
- ٢٢٥ تشبيه الناس في الأرض بالتلاميذ في مدرسة روضة الأطفال ، وذكر قول الورد (أوليفرلودج) إن الناس في الأرض بالنسبة للموالم الروحية كالتعلم بالنسبة لنا .
- ٢٢٦ الناس يرتقون في الدنيا خمس درجات حسية بالحواس وخمسا أخرى بالمدارس أو بحوادث السهر .
- ٢٢٧ كيف نتفقد أن الله رحيم وهو يفتننا ؟ هل صانع العالم أرحم من الوالدين وما دليه ؟ .

- ٢٢٨ بيان الحجاب المضروب بين الناس وبين فهم الرحمة . وأن الفقر والألم والحسد كل ذلك حجاب بيننا وبين النعم المحيطة بنا .
- ٢٢٩ إن قصة آدم وإبليس كلها بيان لعدم الشكر على الرحمة بالنعم العاتمة . الحكاء في الأمم أشبه بحاسق السمع والبصر . شكر عبيد العصا الخ .
- ٢٣٠ هل اللوت ألم ؟ ذكر كلام الغزالي أن ألم اللوت يرجع إلى فراق للأوف . وذكر حوادث تدل على أنه ليس هناك ألم جسمي .
- ٢٣١ شاب وخطيبته متحابان واللوت يتربص أحدهما والطبيب ينصحهما . وكيف اضطرب الشاب أولاً ثم كيف اطمأن للوت آخرًا . لا أثر للفرع عند اللوت وبيان المؤلف أن ذلك هو المناسب لرحمته تعالى ورأفته ، والعذاب يرجع للأخلاق وللحشرات والذنوب .
- ٢٣٢ هذه الحوادث هي القصة لقوله تعالى « ورحمى وسعت كل شيء » وبيان أن لتعمل قواجل تسهل خروج الدرية من فيالجها أي شراقتها .
- ٢٣٤ ذكر سبع حوادث كانت العمليات الجراحية فيها سببا في شفاء أمراض أخرى كالأعمى الذي داوى الطبيب الدملى في مخه فشفى وعاد إليه بصره . أو كالذى عمى فلما رعى أنفه بضربة شفى بصره حالا .
- ٢٣٦ بيان أن هذا هو الذى يفيد اليقين وهو الذى أمر به الخليل صلى الله عليه وسلم . وأن البرد يقتل الحشرات والتلج يمنع ضرر البرد والشمس تزيد التلج . كل ذلك رحمة واسعة .
- ٢٣٧ بيان أن الناس لو عاشوا أمدا طويلا لكان ذلك خطأ لوجهين : شهود الناظر العجبية في محاسن الطبيعة
- ٢٣٨ إن الناس شاهد ومشهود والأولون هم الحكاء والأنبياء والآخرين هم علماء الفنون الخاصة كالقته والمهندسة فهؤلاء كأنهم يمثلون في مسرح وأولئك يشهدون للناظر وهم الأبرار الذين هم في عليين .
- ٢٣٩ بدائع سورة الأعراف . وأن الإيمان قسمان في هذه السورة : قسم لا يثبت له بخوارق العادات وقسم ثابت دائم بالمعارف . وتفسير قوله تعالى « يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا » .
- ٢٤٠ قوله تعالى « وأسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر الخ » .
- ٢٤١ بيان حال المؤلف أيام المجاورة بالجامع الأزهر وهو يتوق إلى معرفة هذه القرية .
- ٢٤٢ لم يكن ابن عباس عند هذه الآية . قد أحس بما ينتاب أمتنا الآن . مستقبل اليهود بعد ذنوب آباؤهم أخذم الرشوة وقد نهوا عنها . إتمام تفسير هذه الآيات « وإذا تقنا الجبل فوقهم الخ » .
- ٢٤٣ ذكر الحادثة الثالثة العاتمة لجميع الإنسان . وأن العلم عند أهل الصين وأوروبا والإسلام في أزمان مختلفة مصداق للآية فهو حجة على الناس . وبيان العناصر عند الفيلسوف الصينى وعند الفيلسوف اليونانى في زمن واحد .
- ٢٤٤ تنمة تفسير « وإذا أخذ ربك من بنى آدم » والأحاديث الواردة في ذلك .
- ٢٤٥ القسم التاسع « وانزل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا » إلى آخر السورة .
- ٢٤٦ التفسير اللفظى لهذه الآيات .
- ٢٤٧ تقرير حال العالم إذا أشبه الكلب بالانعطاط إلى طلب الدنيا .
- ٢٤٨ موازنة بين ذكر الكلب في كلام العرب وذكره في هذه الآية وأن الأديب لا يقدر أن يضرب مثلا به كما ضربه القرآن . تفسير « فاقصص القصص الخ » .

- ٢٤٩ الكلام على أسماء الله الحسنى وبقية تفسير هذه الآيات .
- ٢٥١ هذا ملخص تفسير قوله تعالى « أولم ينظروا الخ » وأنه شكر وتوحيد وفروض كفايات .
- ٢٥٢ هل إخراج الزكاة من المال ينبتنا عن البحث في استناره والتربون يستخرجون السكر من حثالة الخشب .
- ٢٥٣ حديث « على كل مسلم صدقة » . وأيضاً « على كل عضو صدقة كل يوم » .
- ٢٥٤ تفسير قوله تعالى « وإن تدعوم إلى الهدى الخ » .
- ٢٥٥ الإنصات عند سماع القرآن .
- ٢٥٦ هل نجب القراءة خلف الإمام وللذاهب في ذلك ؟
- ٢٥٧ عجائب السموات غير ما تقدم . هل يتكون الحي من غير الحي .
- ٢٥٩ ماقاله علماء العصر الحاضر في الحياة من أين جاءت . الطليفة الثالثة في قوله تعالى « يسألونك عن الساعة » آلاف الحيوانات في حبة القمح تموت ثم تحيا .
- ٢٦١ ملخص سورة الأعراف وأن « الص » تتضمن معناها .
- ٢٦٣ إخبار النبي صلى الله عليه وسلم بما حصل للإسلام الآن وهو ملخص سورة الأعراف .
- ٢٦٤ مثل أمة الإسلام اليوم مع ربها كمثل عبيد للملك .





COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0036758396

BP
L30.4
.J27
v. 3-4

NOV 20 1973

